سورة المجادلة

قال صاحب البصائر : بصيرة فى قد سمع .

السورة مدنية بالاتفاق ، آياتها ثنتان وعشرون عند الجمهور ، واحدى وعشرون عند المكيين ، وكلماتها أربعمائة وثلاث وسبعون ، وحروفها ألف وسبعمائة واثنتان وتسعون .

وسميت سورة المجادلة ، لقوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **تجادلك فى زوجها** ﴾ .

معظم مقصود السورة

بيان حكم الظهار ، وذكر النجوى والسرار ، والأمر بالتوسع فى المجالس ، وبيان فضل أهل العلم ، والشكاية من المنافقين ، والفرق بين حزب الرحمن وحزب الشيطان ، والحكم على بعض بالفلاح ، وعلى بعض بالخسران ، فى قوله : ﴿ **هم الخاسرون** ﴾ ، ﴿ **هم المفلحون** ﴾ .

المتشـــابهات

﴿ **الذين يظاهرون منكم من نسائهم** ﴾ وبعده : ﴿ **والذين يظاهرون من نسائهم** ﴾ . لأن الأول خطاب للعرب ، وكان طلاقهم فى الجاهلية الظهار ، فقيده بقوله : ﴿ **منكم** ﴾ ، وبقوله : ﴿ **وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً** ﴾ ، ثم بين أحكام الظهار للناس عامة ، فعطف عليه فقال : ﴿ **والذين يظاهرون** ﴾ ، فجاء فى كل آية ما اقتضاه معناه .

قوله : ﴿ **وللكافرين عذاب أليم** ﴾، وبعده : ﴿ **وللكافرين عذاب مهين** ﴾ ، لأن الأول متصل بضده ، وهو الإيمان فتوعدهم على الكفر بالعذاب الأليم الذى هو جزاء الكافرين ، والثانى متصل بقوله : ﴿ **كبتوا** ﴾ وهو الإذلال والإهانة ، فوصف العذاب بمثل ذلك فقال : ﴿ **مهين** ﴾ .

قوله : ﴿ **جهنم يصلونها فبئس المصير** ﴾ بالفاء ، لما فيه من التعقيب ، اى : فبئس المصير ما صاروا إليه وهو جهنم .

قوله : ﴿ **من الله شيئاً أولئك** ﴾ بغير الواو ، موافقة للجمل التى قبلها ، وموافقة لقوله : ﴿ **أولئك حزب الله** ﴾ .

وجه اتصالها بما قبلها

(١) أن الأولى ختمت بفضل الله ، وافتتحت هذه بما هو من هذا الواوى .

(٢) أنه ذكر فى مطلع الأولى صفاته الجليلة ومنها الظاهر والباطن ، وذكر فى مطلع هذه أنه سمع قول المجادلة التى شكت إليه ـــ تعالى ـــ .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾

معانى المفردات

﴿ **سمع** ﴾ أى : أجاب وقبل ، كما يقال : سمع الله لمن حمده ، ﴿ **التى تجادلك فى زوجها** ﴾ هى خَولة بنت ثعلبة بن مالك الخزرجية ، وتجادلك : أى : تراجعك الكلام فى أمره وفيما صدر منه فى شأنها ﴿ **وتشتكى إلى الله** ﴾ أى : تبث إليه ما انطوت عليه نفسها من غم وهم وتضرع إليه أن يزيل كربها ، وزوجها : هو أوس بن الصامت ، أخو عبادة بن الصامت ، ﴿ **يسمع** ﴾ السمع : صفة تدرك بها الأصوات أثبتها الله — تعالى — لنفسه . ﴿ **تحاوركما** ﴾ التحاور : المرادّة فى الكلام ، والكلام المردد ، كما يقال : كلمته فما رجع إلى حواراً : أى : ما ردّ علىّ بشىء ، ﴿ **يظاهرون** ﴾ الظهار : لغة من ظاهر ، ويراد به معان مختلفة باختلاف الأغراض فيقال : ظاهر فلان فلاناً : أى نصره . وظاهر بين ثوبين : أى : لبس أحدهما فوق الآخر ، وظاهر من امرأته : أى : قال لها : أنت علىّ كظهر أمى ، أى : محرمة ، وقد كان هذا أشد طلاق فى الجاهلية ، والظهار شرعاً : تشبيه المرأة أو عضو منها بامرأة محرمة نسباً أو رضاعاً أو مصاهرة بقصد التحريم لا بقصد الكرامة ، ولهذا المعنى نزلت الآية : ﴿ **إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم** ﴾ : أى : ما أمهاتهم ﴿ **منكراً** ﴾ والمنكر : ما ينكره الشرع والعقل والطبع ، ﴿ **زوراً** ﴾ أى : كذباً ، ﴿ **فتحرير رقبة** ﴾ أى : عتق عبد أو جارية ، ﴿ **أن يتماسا** ﴾ أى : أن يجتمعا اجتماع الأزواج ، ﴿ **متتابعين** ﴾ أى : متواليين ، ﴿ **فمن لم يستطع** ﴾ أى : من لم يقدر على ذلك لكبر سن أو ضعف أو شبق إلى النساء ، ﴿ **حدود الله** ﴾ أى : أحكام شريعته ، ﴿ **وللكافرين** ﴾ أى : وللذين يتعدون الأحكام ولا يعملون بها .

سبب النزول وإجمال المعنى

روى أن هذه الآيات الأربع نزلت فى خولة بنت ثعلبة وزوجها أوس بن الصامت . ومن حديث ذلك : أن أوساً كان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه ، فدخل على خولة يوماً فراجعته بشىء فغضب ، فقال لها : أنت علىّ كظهر أمى [وكان الرجل فى الجاهلية إذا قال ذلك لامرأته حرمت عليه] ، وكان هذا أول ظهار فى الاسلام ، فندم لساعته ، فدعاها [طلب ملامستها] فأبت ، وقالت : والذى نفسى بيده لا تصل إلىّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله ، فأتت الرسول — ﷺ — فقالت : يا رسول الله ، إن أوساً تزوجنى وأنا شابة مرغوب فىّ ، فلما خلاسنى ، ونثرت بطنى (كثر ولدى) جعلنى عليه كأمه إلى غير أحد ، فإن كنت تجد لى رخصة تنعشنى بها وإياه فحدثنى بها ، فقال — عليه الصلاة والسلام — والله ما أمرت فى شأنك بشىء حتى الآن ، وفى رواية : ما أراك إلا قد حرمت ، قالت : ما ذكر طلاقاً ، وجادلت رسول الله — ﷺ — مراراً ثم قالت : اللهم إنى أشكو إليك شدة وحدتى وما يشق على من فراقه ، وفى رواية أنها قالت : أشكو إلى الله فاقتى وشدة حالى ، وإن لى صبية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إلىّ جاعوا ، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول : اللهم إنى أشكو إليك ، اللهم فأنزل على لسان نبيك ، وما برحت حتى نزل القرآن فيها ، فقال رسول الله — ﷺ — : يا خولة أبشرى ، قالت : خيراً ، فقرأ عليها : ﴿ **قد سمع الله** ﴾ الآيات[1] .

روى البخارى فى تاريخه : أنها استوقفت عمر يوماً فوقف ، فأغلظت له القول ، فقال رجل : يا أمير المؤمنين ، ما رأيت كاليوم ، فقال — رضى الله عنه — : وما يمنعنى أن أستمع إليها وهى التى استمع الله لها ، فأنزل فيها ما أنزل . (قد سمع الله) الآيات .

والشارع اعتبر الظهار يميناً ، وأوجب فيها الكفارة عند إرادة الملامسة بأحد أمور ثلاثة على الترتيب الآتى :

(١) تحرير رقبة (عتق عبد أو جارية) .

(٢) صيام شهرين متواليين إن لم يجد ما يعتقه .

(٣) إطعام ستين مسكيناً إن لم يستطع الصوم لكبر أو مرض لا يرجى زواله ، لكل مسكين نصف صاع من بر (رطل وثلث) أو صاع من تمر أو شعير .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير** ﴾ .

---

(١) انظر تفسير الطبرى ج ٢٨ ، ص ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ تفسير سورة المجادلة فقد وردت فيها روايات متعددة فى أسباب النزول .

روى الامام أحمد — رضى الله عنه — بسنده عن عائشة — رضى الله عنها — قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات . لقد جاءت المجادلة إلى النبى — ﷺ — تكلمه وأنا فى ناحية البيت ما أسمع ما تقول فأنزل الله — عز وجل — ﴿ **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها** ﴾(1) إلى آخر الآية .

وفى رواية لابن أبى حاتم بسنده عن عائشة قالت : تبارك الذى أوعى سمعه كل شيء ، إنى لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى على بعضه وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله — ﷺ — وهى تقول : يا رسول الله : أكل مالى وأفنى شبابى ونثرت له بطنى ، حتى إذا كبرت سنى وانقطع بطنى ظاهر منى ، اللهم إنى أشكو إليك قالت فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية : ﴿ **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها** ﴾ . قالت وزوجها أوس بن الصامت(2) .

وقال ابن لهية : عن أبى الأسود : عن عروة : عن أوس بن الصامت وكان أوس امرءاً به لمم ، فكان إذا أخذه لممه واشتد به يظاهر من امرأته وإذا ذهب لم يقل شيئاً ، فأتت رسول الله — ﷺ — تستفتيه فى ذلك ، وتشتكى إلى الله فأنزل الله : ﴿ **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله** ﴾ الآية .

قوله تعالى : ﴿ **الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وإن الله لعفو غفور . والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم** ﴾ .

روى الامام أحمد بسنده عن خولة بنت ثعلبة قالت : فىّ والله وفى أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة ، قالت : كنت عنده وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه ، قالت : فدخل علىّ يوماً فراجعته بشيء فغضب . فقال : أنت علىّ كظهر أمى . قالت : ثم خرج فجلس فى نادى قومه ساعة ثم دخل على فإذا هو يريدنى عن نفسى . قالت : قلت : كلا والذى نفس خولة بيده لا تخلص إلى وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه ، قالت : فواثبنى فامتنعت منه . فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف فألقيته عنى ، قالت : ثم خرجت إلى بعض جاراتى فاستعرت منها ثيابا ثم

---

(1) انظر سنن ابن ماجه « المقدمة » ج ١ ص ٦٧ حديث رقم ١٨٨ عن عائشة قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات . لقد جاءت المجادلة إلى النبى — ﷺ — وأنا فى ناجعة اليك تشكو زوجها ، وما اسمع ما تقول ، فأنزل الله : ﴿ **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها** .. ﴾ وانظر مسند الامام أحمد ج ٦ ص ٤٦ فقد ورد الحديث بلفظه عن عائشة .

(2) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الطلاق » باب « الظهار » ج ١ ص ٦٦٦ فقد ورد الحديث رقم ٢٠٦٣ عن عروة بن الزبير قال : قالت عائشة : تبارك الذى وسع سمعه كل شيء ، إنى لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ، ويخفى علىّ بعضه ، وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله — ﷺ — وهى تقول : يا رسول الله ، أكل شبابى ، دنثرت له بطنى ، حتى إذا كبرت سنى ، وانقطع ولدى ، ظاهر منى ، اللهم إنى أشكو إليك فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات : ﴿ **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها**

خرجت حتى جئت إلى رسول الله ــ ﷺ ــ فجلست بين يديه فذكرت له ما لقيت منه وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه .

قالت فجعل رسول الله ــ ﷺ ــ يقول : « يا خويلة ابن عمك شيخ كبير فاتقى الله فيه » قالت : فو الله ما برحت حتى نزل فىّ قرآن ، فتغشى رسول الله ــ ﷺ ــ ما كان يتغشاه ثم سرى عنه فقال لى : « يا خويلة ، قد أنزل الله فيك وفى صاحبك قرآناً ــ ثم قرأ على ــ ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وللكافرين عذاب أليم ﴾ قالت : فقال لى رسول الله ــ ﷺ ــ : « مريه فليعتق رقبة » قالت : فقلت يا رسول الله ، ما عنده ما يعتق ، قال : « فليصم شهرين متتابعين » . قال : فقلت والله إنه لشيخ كبير ما به من صيام فقال : « فليطعم ستين مسكيناً وسقا من تمر » قالت : فقلت والله يا رسول الله ماذاك عنده . قالت : فقال رسول الله ــ ﷺ ــ : « فإنا سنعينه بفرق من تمر » قالت : فقلت : يا رسول الله ، وأنا سأعينه بفرق آخر قال : « قد أصبت وأحسنت فاذهبى فتصدق به عنه ثم استوصى بابن عمك خيراً » قالت : ففعلت[1] .

قوله تعالى : ﴿ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ﴾ أصل الظهار : مشتق من الظهر وذلك أن الجاهلية كانوا إذا ظاهر أحدهم من امرأته قال لها : أنت علىّ كظهر أمى . ثم فى الشرع كان الظهار فى سائر الأعضاء قياساً على الظهر ، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقاً ، فأرخص الله لهذه الأمة وجعل فيها كفارة ولم يجعله طلاقاً كما كانوا يعتمدونه فى جاهليتهم . هكذا قال غير واحد من السلف . قال ابن جرير بسنده عن ابن عباس قال : كان الرجل إذا قال لامرأته فى الجاهلية أنت على كظهر أمى حرمت عليه ، فكان أول من ظاهر فى الإسلام أوس ، وكان تحته ابنة عم له يقال لها : خـولة بنت ثعلبة ، فظاهر منها فأسقط فى يديه . وقال : ما أراك إلا قد حرمت على وقالت له مثل ذلك . قال : فانطلقى إلى رسول الله ــ ﷺ ــ فأتت رسول الله ــ ﷺ ــ فوجدت عنده ماشطة تمشط رأسه فقال : « يا خويلة » ما أمرنا فى أمرك بشىء ، فأنزل الله على رسول الله ــ ﷺ ــ فقال : « يا خويلة أبشرى » قالت : خيراً ، فقرأ عليها : ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما ﴾ ــ إلى قوله تعالى ــ ﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ﴾ قالت : وأى رقبة لنا والله ما يجد رقبة غيرى فقال : ﴿ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ﴾ قالت : والله لولا أنه يشرب فى اليوم ثلاث مرات لذهب بصره قال : ﴿ فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ﴾ . قالت : من أين ما هى إلا أكلة إلى مثلها ، قال : فدعا بشطر وسق ثلاثين صاعاً والوسق ستون صاعاً فقال : ليطعم ستين مسكيناً وليراجعك . وهذا إسناد جيد قوى[2] .

---

(١) انظر مسند الامام احمد ج ٦ ص ٤١٠ ، ٤١١ فقد ورد الحديث بلفظه عن خولة بنت ثعلبة .

(٢) انظر سنن البيهقى « كتاب الظهار » ج ٧ ص ٣٧٢ باب سبب نزول آية الظهار فقد ورد الحديث عن رواية لابن عباس .

وقد روى أهل السنن من حديث عكرمة عن ابن عباس أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إنى ظاهرت من امرأتى فوقعت عليها قبل أن أكفر . فقال : « ما حملك على ذلك يرحمك الله » قال رأيت خلخالها فى ضوء القمر . قال : « فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله — عز وجل —وقال الترمذى حسن غريب صحيح .

قوله تعالى : ﴿ **فتحرير رقبة** ﴾ أى : فإعتاق رقبة كاملة من قبل أن يتماسا فههنا الرقبة مطلقة غير مقيدة بالإيمان ، وفى كفارة القتل مقيدة بالإيمان . فحمل الشافعى — رحمه الله — ما أطلق ههنا على ما قيد هناك لاتحاد الموجب وهو عتق الرقبة ، واعتضد فى ذلك بما رواه عن مالك بسنده عن معاوية بن الحكم السلمى فى قصة الجارية السوداء وأن رسول الله — ﷺ — قال : « اعتقها فإنها مؤمنة » وقد رواه أحمد فى مسنده ومسلم فى صحيحه . وقال الحافظ أبو بكر البزار بسنده عن ابن عباس قال : أتى رجل رسول الله — ﷺ — فقال : إنى ظاهرت من امرأتى ثم وقعت عليها قبل أن أكفر ، فقال رسول الله — ﷺ — : « ألم يقل الله — تعالى — ﴿ **من قبل أن يتماسا** ﴾ قال : أعجبتنى . قال : « أمسك حتى تكفر » .

قوله تعالى : ﴿ **ذلكم توعظون به** ﴾ أى : تزجرون به ﴿ **والله بما تعملون خبير** ﴾ أى : خبير بما يصلحكم عليم بأحوالكم . فهو — سبحانه — يريد بكم أن تسلكوا طريق الهدى والرشاد ، والعفاف والسداد ، ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ويتوب عليكم والله عليم حكيم .

الإسلام محرر العبيد

تأخذك الدهشة ويستولى عليك العجب ، وأنت تقرأ قوله — عز وجل — : ﴿ **فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا** ﴾ بعد قوله — تعالى —: ﴿ **فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا** ﴾ فما سر التعبير بقوله — جل شأنه — : ﴿ **فمن لم يجد ولماذا لم يقل** : ﴿ **فمن لم يستطع** ﴾ كما قال فى شأن الصيام . ذلك الأمر . لحكمة بالغة لا يدركها إلا ذوو الألباب الباصرة ، وأولو الأفئدة المستنيرة فإن الله — سبحانه وتعالى — يعلم أنه سيأتى اليوم الذى يحرر الاسلام فيه العبيد بحيث لا يجد من أراد الكفارة عبداً يعتقه ، أو أمة يطلق سراحها . وقد تحقق العلم الإلهى القديم المحيط الشامل فحرر الإسلام العبيد ، وأعطى لكل إنسان حقه فى الحرية والعزة والكرامة .

﴿ **لَقد مَن الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين** ﴾[1] .

الإسلام هو الدين الذى حرر البشرية من الظلم وغمرها بعد له .. فما أشد حاجة البشرية إليه ؛ والإسلام هو الذى حرر المجتمع من الفساد ، وركز فيه سبل الإصلاح ، والإسلام هو الذى حرر العقل

(١) سورة آل عمران الآية ١٦٤

من الجمود والتقليد ، وأفسح أمامه المجالات للنظر والتفكير . والإسلام هو الذى حرر العبيد من قيود الذل والاستعباد ، وجعل منهم سادة أقوياء .

لقد حاول أعداء الإسلام على كر العصور ومر الدهور أن يثيروا شبهات حول الاسلام ، فجعلوا من مسألة « الرق » ثغرة يحاولون النفوذ منها للطعن فى الإسلام والنيل منه ، بعد ما أعجزتهم الحيل ، فلم يجدوا فى الإسلام مغمزاً لطاعن أو طعنة لغامز ، ولو تدبر هؤلاء مسألة « الرق » لوجدوا أنها كانت من القضايا التى يعود الفضل كله للإسلام فى حلها ، بل هى مفخرة من مفاخر الاسلام .

يقول الكاتب الكبير الاستاذ عباس محمود العقاد ـــ رحمه الله ـــ فى كتابه (ما يقال عن الاسلام) : مسألة الرق فى الإسلام موضوع حملة من أقوى الحملات العصرية يتآمر عليها الذين لا يتفقون على شىء فيما عدا هذه الحملات ، وهم الماديون المنكرون للأديان ، وجماعات المبشرين الذين يحترفون صناعة الدعوة إلى هذا الدين أو ذاك ، ويتفق الماديون والمبشرون ، لأنهم يتجهون إلى وجهتين مهمتين عند هؤلاء وهؤلاء : أولاهما ـــ نشر الدعوة بين شباب المسلمين الذين يسمعون بدعاية الديمقراطية وحقوق الانسان ، ويجهلون دينهم ، فيصدقون ما يقال فيهم عنه فى مسألة الرق ، ولا يعلمون به أنه الدين الوحيد الذى شرع للأرقاء شرعة لم يسبقه إليها دين من الأديان ، وأن الحضارة الغربية لم تدرك بعد شأو الاسلام فى إنصافه لجميع الأرقاء .

أما الوجهة الأخرى التى يتفق عليها الماديون والمبشرون ـــ فهى غزو القارة الأفريقية بالدعاية المذهبية ، والتنفير من الاسلام فى هذه المرحلة الهامة من مراحل النهضة الأفريقية ، خوفاً من إقبال أبناء هذه القارة على الإسلام ، قياساً على نجاح الاسلام بين الأفريقيين فى الأزمنة القريبة ، مع قلة الجهود التى يبذلها المسلمون لنشر دينهم هناك ، وعظيم الجهود التى يبذلهاالمبشرون وتعاونهم عليها حكومات الدول الغربية . فالماديون والمبشرون يجتهدون ـــ غاية الجهد ـــ لنشر دعوتهم إغراء المال والسياسة ووسائل التعليم والتطبيب ، ويعلمون أن الإسلام كفيل بإحباط مساعيهم إن لم يتداركوه بتشويه السمعة بين أبناء القارة الذين يعاشرون العرب ، ويشتركون معهم فى الموطن ومصالح المعيشة ، فيتوصلون إلى تشويه سمعة الإسلام والمسلمين بإعادة القول فى مسألة « النخاسة » ، وتلفيق الأكاذيب التى توهم الأفريقيين المتحررين أن العرب قد احتكروا « النخاسة » قديماً وحديثاً وهم ـــ أى دعاة المادة والتبشير ـــ أول من يعلم أن تاريخ النخاسة أنها كانت صناعة شركات أوروبية وأمريكية ، تعتمد على سماسرتها من غير العرب المسلمين ، ولكنه تاريخ مجهول عند أبناء الجيل الحاضر ممن تعلموا فى مدارس المبشرين .

أما الحقيقة التى تقابل هذه الدعاية المسموحة وينبغى أن تقابلها فى ميادينها الواسعة فهى واضحة ، قريبة المنال ، كفيلة بإقناع من يستمع إليها ، مسلماً كان أو غير مسلم ، ولكنه برىء من دواعى الغرض وسوء النية ، ولو امتلأت أذناه قبل ذلك بأكاذيب الماديين ومحترفى صناعة التبشير .

إن الأديان جميعاً ــ قبل الإسلام ــ أباحت الرق ، وألزمت الأرقاء طاعة سادتهم ، ومسخريهم فى خدمتهم وخدمة ذويهم ، واعتبره بعض الدعاة قضاء مبرماً يعاقب به الخالق من يعصونه من خلقه ، ويضلون عن سبيله . وجاء الإسلام فشرع العتق ، و لم يشرع الرق : وقد ندب المسلمين إلى فك الاسار عن الأسرى ، فجعله فريضة من فرائض التكفير عن ذنوب كثيرة .

وقال ابن لهية حدثنى عطاء : عن سعيد بن جبير : (ثم يعودون لما قالوا) يعنى يريدون أن يعودوا فى الجماع الذى حرموه على أنفسهم ، وقال الحسن بن البصرى : يعنى الغشيان فى الفرج وكان لا يرى بأساً أن يغشى فيما دون الفرج قبل أن يكفر . وقال على بن أبى طلحة : عن ابن عباس : ﴿ **من قبل أن يتماسا** ﴾ والمس : النكاح ، وكذا قال عطاء والزهرى وقتادة ومقاتل بن حيان وقال الزهرى ليس له أن يقبلها ولا يمسها حتى يكفر .

قال سعيد بن جبير : كان الإيلاء والظهار من طلاق الجاهلية ، فوقت الله الإيلاء أربعة أشهر وجعل فى الظهار الكفارة . وقد استدل الإمام مالك على أن الكافر لا يدخل فى هذه الآية بقوله منكم ، فالخطاب للمؤمنين . وأجاب الجمهور بأن هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له ، واستدل الجمهور عليه بقوله : ﴿ **من نسائهم** ﴾ على أن الأمة لا ظهار منها ولا تدخل فى هذا الخطاب .

وقوله تعالى : ﴿ **ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم** ﴾ أى : لا تصير المرأة بقول الرجل : أنت على كأمى ، أو مثل أمى ، أو كظهر أمى ، وأما أشبه ذلك ، لا تصير أمه بذلك إنما أمه التى ولدته ولهذا قال تعالى : ﴿ **وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً** ﴾ أى : كلاماً فاحشاً باطلاً . ﴿ **وإن الله لعفو غفور** ﴾ أى : عما كان منكم فى حال الجاهلية ــ وهكذا ــ أيضاً ــ عما خرج من سبق اللسان ولم يقصد إليه المتكلم كما رواه **أبو داود أن رسول الله ــ** ﷺ ــ سمع رجلاً يقول لامرأته : يا أختى ، فقال : « أختك هى ؟ »[1] فهذا إنكار ولكن لم يحرمها عليه بمجرد ذلك لأنه لم يقصده ولو قصده لحرمت عليه لأنه لا فرق على الصحيح بين الأم وبين غيرها من سائر المحارم من أخت وعمة وخالة وما أشبه ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ **والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا** ﴾ اختلف السلف والأئمة فى المراد بقوله تعالى : ﴿ **ثم يعودون لما قالوا** ﴾ فقال بعض الناس : العود هو أن يعود إلى لفظ الظهار فيكرره وهذا القول باطل وهو اختيار ابن حزم . وقال الشافعى : هو أن يمسكها بعد المظاهرة زمانا يمكنه أن يطلق فيه فلا يطلق ، وقال أحمد بن حنبل : هو أن يعود إلى الجماع أو يعزم عليه فلا تحل له حتى يكفر بهذه الكفارة ، وقد حكى عن مالك : أنه العزم على الجماع والإمساك ، وعنه : أنه الجماع ، وقال أبو حنيفة : هو أن يعود إلى الظهار بعد تحريمه ورفع ما كان عليه أمر الجاهلية ، فمتى ظاهر الرجل من امرأته فقد حرمها تحريماً لا يرفعه إلا الكفارة ، وإليه ذهب أصحابه والليث بن سعد .

(١) انظر سنن أبى داود « كتاب الطلاق » باب فى الرجل يقول لامرأته : يا أختى ج ٢ ص ٦٥٨ ، ٦٥٩ فقد ورد الحديث رقم ٢٢١٠ عن أبى عتيمة الهجيمى .

لقد أوجب الإسلام قبول الفداء مع استحسان فك الإسار لغير فداء ، وفرض تحرير الرقاب على من يقتل خطأ ، ومن يحنث فى يمينه ، ومن يظاهر من زوجه ، ومن يؤدى الزكاة فى مصارفها ، ومنها : فدية الرقاب .. ولم يبق الاسلام من قيود الرق إلا ما هو باق إلى اليوم باتفاق الدول ، وسيبقى بعد اليوم إلى أن يشاء الله .

فالقوانين الدولية تبيح اليوم تسخير الأسرى واعتقالهم إلى أن يتم الفداء بتبادل الأسرى ، أو يبذل التعويض الذى تفرضه الدولة الغالبة ، وقد تأخرت دول الحضارة أكثر من عشرة قرون قبل أن تنتظم بينها معاملات الحرب على هذا النظام الذى شرعه الاسلام وأوجبه على الدول الاسلامية ، وهى تتولى صرف الزكاة « فى الرقاب » .

فإذا كانت الدول غير الاسلامية لم تعرف لها نظاماً تتبعه لإطلاق أسراها من الرق ، فهى المسئولة عن هذا التقصير ، وليس على الاسلام أو الدولة الاسلامية ملامة فيه .

وقد نعود إلى الواقع من تاريخ الحرب بين الدول الاسلامية وغيرها فنعلم أن هذه الدول الأخرى قد تعلمت من المسلمين نظام تبادل الأسرى وتحرير الأرقاء منذ اشتبكت الحروب بين حكومات الروم فى آسيا الصغرى وحكومات المسلمين التى تجاورها . ولو وجدت شريعة الفداء عند حكومات القرن السابع للميلاد كما وجدت عند الحكومة الاسلامية ، لتقدم العالم كله فى قضية الأسر والرق أكثر من عشرة قرون .

ولنسأل أدعياء التحرير فى العصور الحديثة : ماذا يحدث فى هذا العصر لو لم يصبح تبادل الأسرى معاملة متفقاً عليها بين المتقاتلين ؟ .

ماذا تصنع كل دولة بأسراها فى ميادين القتال ؟ هل تعفيهم من العمل ؟ هل تعامل أعداءها المأسورين معاملة المواطنين أصحاب الحقوق ؟ هل تطلقهم وتبقى جنودها المأسورين عند أعدائها ؟ هل تصنع بهم صنيعاً أكرم من صنع الاسلام يوم أوجب على المسلمين أن يمنوا بالتسريح أو يقبلوا الفداء والعتق ، أو يوجبوه فى مقام التكفير والاحسان ؟

إن صنيع الاسلام الذى أوجبه — قبل أربعة عشر قرناً — هو غاية ما تستطيعه دول الحضارة اليوم فى إنصاف أسراها وأسرى أعدائها : فإما أن يكون لها صنيع أكرم منه : فلا ندرى كيف يكون ، ولا كيف يأتى لنظام من النظم الدولية أن يستقر عليه .

على أن دول الحضارة لم تدرك فضيلة الدين الاسلامى فى تشريعات الرق ، بغير استثناء دولة منها فى أحدث تشريعاتها الانسانية كما تسميها . فالاسلام قد أنصف الأرقاء ابتداء ، بغير اضطرار إلى الإنصاف اتقاء لثورة سياسية ، أو منازعة اقتصادية ، أو أزمة من أزمات الحروب والاستعداد بالسلاح .

إن أول خطوة من خطوات الحضارة الحديثة إلى تحرير الأرقاء : جاءت على أثر النزاع بين أصحاب الصناعات الكبرى فى بلاد تنفق الأجور الوافرة على الصناع وبين أصحاب هذه الصناعات ، حيث تدار بأيدى الأرقاء ولا تنفق عليها أجوراً ، فإن أصحاب الأموال والصناع معاً حاربوا الرق ليحاربوا هذه المنافسة ، واستجابوا لداعى المنفعة قبل أن يستجيبوا لداعى الكرامة الإنسانية .

ثم جاءت الخطوة الثانية ، يوم احتاجت الدول إلى العبيد لتجنيدهم أو لصنع السلاح فى غيبة المجندين ، فخطبت ودهم بمنحهم حقوق الانتخاب والتصويت .

وجاءت خطوة أخرى بعد هذه الخطوة ، يوم أصبحت للعبيد أصوات يتنافس عليها المرشحون .

وجاءت بعدها آخر الخطى : يوم نهضت القارة الأفريقية نهضتها ، وتحررت شعوبها من سادتها ، وخاف أولئك السادة أن يستمال السود إلى معسكر أعدائهم فى سباق التنافس على التحرير واجتذاب قلوب المستضعفين إلى هذا الفريق أو ذاك فلما وصلت الحضارة الأوروبية إلى هذا المدى ــ بعد طول التعثر والمجال ــ لم تكن قضية الرق قضية سماحة وإنصاف ، ولكنها كانت ولا تزال ــ قضية مساومة واضطرار ، وحيلة من حيل السياسة والإدارة وخطة من خطط التأجير والاستغلال .

والفارق الأكبر فى مسألة الرق ــ من جانب الواقع التاريخى ــ هو ذلك الفارق الذى تحصيه الأرقام بالحساب بين عدد الأرقاء فى البلاد الاسلامية ، وعددهم فى البلاد الغربية ــ حيث يعيشون اليوم بين الأمريكتين ــ فإن الأرقاء من الزنوج لم يزيدوا فى البلاد الاسلامية ــ بعد ثلاثة عشر قرناً ــ على ثلاثة ملايين ، أو نحو هذا العدد القليل ، بالقياس إلى سعة البلاد وطول الزمن واقتراب المكان ، ولكن عدد السود فى الأمريكتين قد يبلغ العشرين مليوناً ولم يمض على قيام الحكم الأبيض .. هناك أكثر من ثلاثة قرون .

وأبعد هذا الفارق فى العدد : فارق المعاملة التى لقيها الأرقاء فى البلاد الاسلامية ، والمعاملة التى لقيها إخوانهم فى الأمريكتين ، فلا وجه للمقارنة بين المساواة فى النسب والمصاهرة وحقوق الدم والمال ، وبين تحريم المساكنة والمصاهرة ، واستباحة الدم ، انتقاماً من الأسود الذى يرفع هذه الحواجز بينه وبين سادته « البيض » . ثم يستطرد الأستاذ العقاد قائلاً :

إن مسألة الرق تصلح للدعاية الواسعة بين الناشئة الإسلامية والأمم الأفريقية التى تتحرر من قيودها ، وتتلمس سبيلها إلى عقيدة مثلى وحضارة تصلح لها وتخاطبها بما يقنعها ، ولكنها دعاية للاسلام وليست بالدعاية التى يحارب بها الاسلام .. فإذا انعكست الآية وذهب بها سماسرة المادية والتبشير مذهب الحملة الشعواء على الاسلام بمسمع ومشهد من المسلمين ، فمن ذا يلام على ذلك غير أولئك المسلمين ؟!

وهكذا ينتهى هذا البحث التحليلى للدعاية المفرضة التى يشنها سماسرة المادة والتبشير . وقد اتضح لكل ذى عقل أن مشكلة الرق لا يلام عليها الاسلام إنما هى فى الحقيقة مفخرة عظمى للحل السليم الذى عالج به الإسلام العظيم هذه المسألة .

ونحن نسأل هؤلاء وأولئك : هل الاسلام هو الذى أنشأ الرق إن الوقائع تثبت ، والتاريخ يؤكد ، والحقائق تقرر أن الإسلام جاء والرق فى هذه الدنيا كأنه بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، فأخذ الإسلام يسلط أشعته الكاشفة الهادئة على تلك الظلمات فيبددها بحكمة معروفة فيه .. كان علاجه لتلك المشكلة كالنسيم الهادىء الذى يدفع الشراع دون أن يغرق المركب ، أو كالنار الهادئة التى تقتل الجراثيم دون أن تحرق المريض .

فكيف عالج الإسلام هذا الإشكال الاجتماعى ؟

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه « فى الدين والأخلاق والقومية » ما نصه : محمد محرر البشرية : عجبت لمن يتحدث عن الإسلام والرق ، كأنما يتحدث عن نظامين قابلين للتعاون والتساند ، أو عن طبيعتين قابلتين للاختلاط والامتزاج ، على حين أن الرق والإسلام ضدان لا يلتقيان إلا كما ملتقى سواد الليل وبياض النهار ، وهل كانت الصيحة الأولى للإسلام إلا صيحة التحرير من ربقة العبودية ؟ وهل كانت الأولى إلا قمة التطهير من ذل الخضوع والخشوع لشىء أو لأحد غير الله .

الاسترقاق إهدار للكرامة الإنسانية ، فكيف يكون من صنع الاسسلام الذى أعلن كرامة الإنسان ؟ والاستعباد تبديل للفطرة ، فكيف يكون عن أنظمة الإسلام الذى هو دين الفطرة ؟! .

وإن تعجب لشىء فأعجب لهؤلاء الذين يلصقون هذا الاتهام بالاسلام وهم قوم يشهد تاريخهم بأنهم هم الذين أنشأوا الرق ، أبيضه وأسوده وأنهم هم الذين أفشوه ، ونشروا وباءه فى العالم من أبشع الطرق وأشنعها : من طريق الخداع والتمويه ، ومن طريق الاختلاس والاغتصاب ! وانهم جاوزوا فيه الحدود ولم يكفهم استرقاق الأفراد ، فعمدوا إلى استرقاق الأمم والشعوب .

فلندع ذكر هذا الماضى القريب الذى يعرفه الجميع ، ولنسأل التاريخ عن نبأ ما قبل الإسلام : لقد كانت هناك شرائع فى الشرق والغرب ، فى اليونان ، وفى الرومان ، وفى غير اليونان والرومان ، فتحت باب الرق على مصراعيه ، فكان جزاء القاتل أن يكون عبداً لولى الدم ، وكان المدين الذى يعجز عن وفاء دينه ينقلب مملوكاً لدائنه ، وكان السارق الذى يضبط عنده متاع يصبح رقيقاً لرب المال ، ومصداقه فى قصة يوسف — عليه السلام — :

﴿ قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين . قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين ﴾[1] ، وكان السلطان المطلق المخول لرب الأسرة على أعضائها يبيح له أن يقتل منهم من شاء ، وأن يبيع من شاء ، وكان نير العبودية متى وضع على عنق فلا فكاك لها منه أبد الدهر إلا أن يتفضل السيد بفكها بمحض إرادته .

هكذا كانت أوضاع المجتمع قبل ظهور محرر البشرية محمد — ﷺ — خاتم النبيين ، وقدوة المصلحين ، فماذا صنع محمد — صلوات الله وسلامه عليه — حين جاء بالاسلام ؟ انه أعلنها ثورة غاضبة على هذه الأوضاع كلها ، ولكنها ثورة حكيمة منظمة : كثورته على الخمر ، وثورته على الربا ، وثورته على سائر الأنظمة الفاسدة المزمنة ، والرذائل الموروثة المستحكمة .

لقد كانت سوق الرق فى تلك المجتمعات مقبرة مفتحة المداخل ، موصدة المخارج . كان الرق وباءً يتساقط فيه الناس تساقط الفراش فى النار ، وكان الحريق أعظم من أن تطفئه واحدة ، والداء أوسع من أن يعالج بوسيلة مفردة .

فانظر إلى الجهاز الذى أعده نبى الإسلام محمد — ﷺ — لإنقاذ هذه العمارة الإنسانية المحترقة المتآكلة ! إنه جهاز مركب من ثلاثة أجهزة : نطاق من الحواجز ضربه حول النار حتى لا تندلع إلى

---

(١) سورة يوسف الآيتان ٧٤ — ٧٥

خارجها ، ومفاتيح فتح بها أبواب الدار لنطلق منها كل من استطاع النجاة ، وميازيب من الغيث صبها على من بقى فى الدار لتكون النار عليهم برداً وسلاماً ، ريثما يتيسر لهم الخروج منها .. وسأفسر لك ذلك

ويمضى الأستاذ الدكتور فيشرح هذا التصوير الرائع شرحاً واقعياً فى ظلال الإسلام فيقول :

فأما النطاق الذى ضربه الاسلام حول هذه المنطقة المحترقة : فذلك هو الدواء الواقى الذى أوقف من سير الداء حتى لا تسرى عدواه إلى غير المصابين .. ذلك هو القانون الذى منع استرقاق الأحرار وأمنهم منه ، بعد أن كانوا مهددين به من كل جانب ، فاليوم لا الخطف ، ولا البيع والشراء ، ولا التغلب فى المشاجرات والغارات ، ولا تحكم رب الأسرة ، ولا العجز عن وفاء الدين ، ولا السرقة ، ولا القتل ، لم يعد شىء من ذلك كله . منذ ظهر الإسلام ــ يصلح مبرراً لاستعباد الإنسان ، ولم يكتف الاسلام بتحصين الأحرار أنفسهم من خطر الاسترقاق ، بل انه حال بينهم وبين أن يخرج من أصلابهم ذرية تستعبد ، وذلك بمنع التزاوج بين الأحرار والإماء ، إلا فى حالة الاضطرار وخشية العنت ، وهذا من أوضح الأدلة على أن الإسلام ــ قبل أن يبدأ بالعلاج الشافى من الرق القائم بالفعل ــ أراد بهذه التشريعات الواقية منع إنشاء فئة جديدة من الأرقاء ، غير أن ها هنا شبهة تجول فى الخواطر ، ونرى من الأمانة العلمية أن نعرضها وأن نعالج كشفها وجلاء الحق فيها : أما الشبهة فهى أن الإسلام ــ وإن كان قد سد كل الأبواب التى أشرنا إليها ، والتى كانت تتخذ ذريعة لإنشاء رق جديد ــ قد ترك ــ إلى جانب هذه الأبواب ــ منفذاً صغيراً لم يغلقه ، ذلك : هو حال الحرب الإسلامية المشروعة وهى التى يعتدى فيها الكفار على بلاد الإسلام .

أليست الشريعة قد أباحت للمسلمين ــ فى هذا الحال ــ أن يعاملوا أسرى المحاربين لهم بإحدى خطط ثلاث : إما بإطلاق سراحهم ، وإما باسترقاقهم ، ولو كانوا أحراراً ، وإما بقتلهم ؟

والجواب أن الأمر ليس كما يظنه الناس فى هذه الخطط الثلاث ، فالواقع أنها فى نظر الإسلام ليست سواء فى المشروعية .

فنحن إذا نظرنا فى نصوص القرآن الكريم ، لم نجد فيه أثر لقتل الأسير ولا استرقاقه ، وإنما نجد له فيه مصيراً واحداً كريماً ، وهو إطلاق سراحه ببدل أو بغير بدل : ﴿ **فإما مناً بعد وإما**

فداء ﴾(١) ، كما أن سنة الرسول الرحيم — ﷺ — لا نجد فيها أنه أذن بقتل الأسير ، إلا فى حالة شاذة نادرة كان الأسير فيها معروفاً بخطورة وشدة نكايته بالمسلمين ، فهو ليس قاعدة عامة ، وإنما هو استثناء طبق على الشاذين الخطرين ، وهذا هو ما يعرف فى لغة العصر باسم : عقوبة (مجرمى الحرب) .

بقى الاسترقاق ، وواضح أنه يلى القتل فى القسوة والشناعة ، وأن الإسلام ينظر إليه كنظرته إلى القتل ، كما أن الحرية فى نظره شقيقة الحياة . ألا ترى كيف جعل كفارة القتل الخطأ : تحرير رقبة ؟

إن هذا هو تعويض الحياة بالحياة .. فإن رفع إلى مستوى الحرية يعد إدراجاً له فى زمرة الأحياء ، بعد أن كان محسوباً فى عداد الأموات .

وهكذا يتبين لنا أنه ليس فى روح التشريع الاسسلامى ، ولا فى نصوصه ، ما يشجع المسلمين على استرقاق أسراهم ، أو يجعله فى نظرهم سواء هو والمن على هؤلاء الأسرى بالحرية ، فإن لجأ الإسلام يوماً إلى استرقاق الأسير : فإنما يكون ذلك منه نزولاً على حكم الضرورة ، اتقاء لخطره ، وكسراً لشوكته وشوكة قومه .

على أنه لا يجعل ذلك مصيره النهائى ، وإنما يتخذه إجراءً مؤقتاً ، وخطوة انتقالية إلى الحل الصحيح الذى يرضاه ويلح فى المطالبة بتحقيقه ، ألا وهو : التحرير الكامل .

وهكذا ينساق بنا البحث إلى الوسيلة الثانية من الوسائل التى أعدها الإسلام لمكافحة الرق ، وأعنى بها تلك الأبواب الواسعة الكثيرة التى فتحها الإسلام لإخراج الأرقاء إلى فضاء الحرية .

ولعل أول مفتاح لهذه الأبواب ، كان هو مفتاح القلوب ، فقد أخذ الإسلام يحرض الناس على عتق الرقاب ، ويرغبهم بمختلف الوسائل ، قال تعالى :

﴿ **فلا اقتحم العقبة ۝ وما أدراك ما العقبة ۝ فك رقبة** ﴾(٢) .

---

(١) سورة محمد من الآية ٤

(٢) سورة البلد الآيات ١١ — ١٣

وقال عليه الصلاة والسلام :

(من أعتق رقبة : أعتق الله بكل عضو منها عضواً من أعضائه من النار)[١] .

ومفتاح ثان : هو مفتاح خزائن الدولة .. إذ جعل فيها سهماً مكرراً فى كل عام لافتداء الأسرى وتحرير المستعبدين .

ومفتاح ثالث : هو مفتاح « قانون الكفارات » وهو القانون الذى يجعل عتق الرقاب فريضة لازمة لمحو خطيئة من الخطايا : كالحنث فى اليمين ، والفطر فى رمضان ، والقتل الخطأ ، وغير ذلك .

ومن أهم هذه الأنواع : « كفارة الإساءة » التى تقع من السيد فى حق العبد نفسه .. وفى هذا يقول رسول الرحمة ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ : (من لطم مملوكه أو ضربه : فكفارته أن يعتقه)[٢] .

هذا جزاء الضربة أو اللطمة ، أما الجرح ، أو تشويه الجسم ، فإن حكمه ــ عند أكثر الأئمة ــ أن يصير العبد حراً بمجرد اصابته ، فينزع من ملك السيد قهراً عنه . وكذلك إذا كلفه سيده أعمالاً فوق طاقته وتكرر منه ذلك .

وهكذا يقودنا الحديث إلى القسم الثالث والأخير من العلاج الاسلامى الرحيم : لقد رأينا أبواباً فتحت أمام الحرية ، ورأينا أبواباً أغلقت دون الرق ، بين هذين الطرفين ، ترى طائفة من الأرقاء يتوجهون نحو باب الخروج ، ولكنهم لم يصلوا إليه بعد ، انهم هنالك ينتظرون دورهم فى استنشاق هواء الحرية الطلق ، فهل صنع الإسلام شيئاً لهذه الفئة فى فترة الانتظار ؟ نعم ! لقد فتح لهم فيها نوافذ للتهوية ، فأعد لهم فيها وسائل للترفيه تجعلهم فى هذه الفترة يحيون حياة الإنسان ، ولا يشعرون بتلك الفوارق الظالمة بين الطبقات .. ذلك أنه أوجب على المخدومين أن يرتفعوا بأسلوب المعيشة لخادميهم إلى المستوى الذى يعيشون فيه هم أنفسهم .

---

(١) انظر صحيح مسلم كتاب « العتق » باب « فضل العتق » ج ٢ ص ١١٤٧ حديث رقم ٢٢ / ١٥٠٩ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة وزاد فى آخره .. « حتى فرجه بفرجه » .

(٢) انظر صحيح مسلم كتاب « الايمان » باب « صحبة المماليك وكفارة من الطم عبده » ج ٣ ص ١٢٧٨ حديث رقم ٢٩ / ١٦٥٧ عن زاذان أبى عمر قال : أينت ابن عمر ، وقد أعتق مملوكا قال : فأخذ من الأرض عوداً أو شيئاً ، فقال : ما فيه من الأجر ما يَسْوَى هذا ، إلا أنى سمعت رسول الله ــ ﷺ ــ يقول : « عن لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه » .

هكذا يقول المبعوث رحمة للعالمين :

« إنهم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فأطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم من الأعمال ما لا يطيقون ، فإن كلفتموهم فأعينوهم »[1] .

صدقت يا نبى الرحمة ــ صلوات ربى وسلامه عليك !

هذا هو موقف الإسلام من الرق :

١ ــ منع لإنشائه ، وابتدائه .

٢ ــ عمل بكل الوسائل على تصفية الموجود منه وإنهائه .

٣ ــ عطف سابغ عليه فى أثناء محنته وبليته .

أما بعد ، فهل من منصف يقولها معى :

أما والله لعبد فى ظل الإسلام ، خير من كثير من الأحرار فى كل نظام . وهكذا ينتهى هذا المقال الرائع الذى وضع النقاط على الحروف ، وكشف النقاب عن الحقيقة التى يثير حولها أعداء الله غبار الشبهات .. وهكذا تبين لنا كيف وقف الإسلام من مشكلة الرقيق وقفة الحزم والعزم ، كما هو فى كل شئونه .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

داويت متئـــداً وداووا طفـــرة وأخف من بعض الدواء : الـداء

أبعد كل هذه الوصايا بالبشرية ، وإحاطتها بالكرامة ، يجرؤ أفاك أثيم على أن يلصق بالإسلام ما هو منه براء .

إن الإسلام يعد الناس جميعاً متساويين فى الإنسانية ، لأنهم جميعاً صنعة إله واحد ، أبناء لأب واحد .. **﴿ إن أباكم واحد ، وإن ربكم واحد ﴾** ، **﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾**[2] .

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الأدب » باب ما ينهى عن السباب واللعن ج ٤ ص ٥٨ فقد ورد الحديث من رواية طويلة لأبى ذر .. إلى أن قال رسول الله ــ ﷺ ــ هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا يكلفه من العمل ما يغلبه فإن كلفه ما يغلبه فليعنه عليه » .

وانظر سنن ابن ماجه « كتاب الأدب » باب « الإحسان إلى المماليك » ج ٢ ص ٢١٦ ، ٢١٧ فقد ورد الحديث رقم ٣٦٩٠ عن أبى ذر بلفظ : قال رسول الله ــ ﷺ ــ « إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فأطعموهم مما تأكلون ، وألبسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم » .

(٢) سورة الحجرات من الآية ١٣

وهذه المساواة العامة الإنسانية تتحطم معها فوارق الجنس واللون والحسب والنسب ، وهى فوارق الانحراف البشرى ، والظلام الإنسانى .. فوارق الجاهلية الضالة ، والهوى المتسلط ، والتعالى الكاذب ، والتمييز المصطنع .. وهو تمييز تأباه فطرة الحياة التى لا تفرق — فى قليل أو كثير — عن طبيعة الخلق والولادة ، والمأكل والمشرب ، والحياة ، وأسباب المعرفة والإدراك .

المساواة فى الإسلام

لست أدرى : أين هى التفرقة فى واقع الخلق حتى تقع بين الخلق ؟

التفرقة فى حقيقتها انتكاس بالإنسانية وتفويت لأسباب الرفعة الحقيقية حتى لا يمكن أبداً أن تتم لعبد يغفل عن حقيقة نفسه ومعرفة خالقه .

والطبيعة تأبى على الإنسان أن يكون غير كونه إنساناً ، فهو خاضع للقوانين المسيطرة والسنن العامة ، والمصير المشترك ، كما تأبى سنن الخالق — تبارك وتعالى — أن يمتد بقاؤه فيحقق ما يصبوا إليه من استعباد الناس والتعالى عليهم .

فكم من حالم أيقظته مخالب الموت !

وكم من مختال على العباد داسته أقدامهم فى التراب !

وكل ما فوق التراب تراب !

فمن أين تأتى التفرقة والمبدأ معروف ، والمصير مشترك ؟!

ولى فى فناء الخلق أكبر عبرة لمن كان فى بحر الحقيقة راق
شخوص وأشكال تمر وتنقضى فتفنى جميعاً والمهيمن باق

الإسلام العظيم يأبى التفرقة ويحاربها ، والنبى الكريم — صلوات ربى وسلامه عليه — يعلن فى

خطبته الجامعة : (أيها الناس : إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم)[1] .

ويقول القرآن الكريم : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾[2] .

أخا الإسلام :

لا تركنن إلى القصور الفاخرة ... واذكر عظامك حين تمسى ناخرة
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل ... يارب إن العيش عيش الآخرة

إن المساواة فى الإسلام تدعو إليها الفطرة العامة ، ويقضى بها المصير المشترك ، ويتطلبها عدل السلوك وسلام الإنسانية ، قامت فى الإسلام من أول أمره حين دعا الناس جميعاً إلى عبادة الرب الواحد ، رب العالمين ، وهذه المساواة فى الإنسانية : تستلزم المساواة فى الحقوق .. فالناس جميعاً أمام قانون الله سواء ، لا فرق بين عظيم وحقير وشريف ووضيع .

فالحق أساس هذا الدين ، والعدل سياجه ، والناس — مع اختلاف عقائدهم وألوانهم وأجناسهم — أمام عدله وحقه : سواء !

لا تخضعن لمخلوق على طمع ... فإن ذلك نقص منك فى الدين
لن يقدر العبد أن يعطيك خردلة ... إلا بإذن الذى سواك من طين
فلا تصاحب غنياً تستعز به ... وكن عفيفاً ، وعظم حرمة الدين
واسترزق الله مما فى خزائنه ... فإن رزقك بين الكاف والنون
واستغن بالله عن دنيا الملوك ... كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

أجل ! صدقت يارب العزة ، يا من قلت : ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً** ﴾[3] .

---

(١) انظر مسند الامام احمد ج ٥ ص ٤١١ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة .
(٢) سورة الحجرات من الآية ١٣
(٣) سورة الاسراء الآية ٧٠

العدالة فى الإسلام

والعدل فى الإسلام عدل مطلق ، يستوى فيه الأصدقاء والأعداء ، وأنت تسمع من قوانين هذا الدين قوله ـــ جل شأنه ـــ : ﴿ **يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون** ﴾(١) .

وأنت ترى رسول الله ـــ ﷺ ـــ يغضب أشد الغضب ويحمر وجهه كأنه الشفق عندما تودعه الشمس الغاربة .. إنها غضبة مضرية .

وإذا غضبت فإنما هى غضبة للحق . لا ضغن ولا شحناء

يغضب عندما يرى أسامة بن زيد ، الحب بن الحب ، يستشفع لامرأة مخزومية شريفة الأصل ـــ كانت قد سرقت ـــ ويقول له غاضباً معنفاً : « أتشفع فى حد من حدود الله » ثم يخطب فى الناس قائلاً :

« **إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله : لو أن فاطمة بنت محمد سرقت : لقطعت يدها** »(٢) .

وهذا عمر بن الخطاب ـــ رضى الله عنه ـــ عملاق الإسلام ، وفاروق هذه الأمة ، يعلن فى سمع الزمان هذا المبدأ الخالد ، بعد ما تولى خلافة المسلمين بعد أبى بكر الصديق ـــ رضى الله عنه ـــ فيقول :

« أيها الناس : الضعيف فيكم قوى حتى آخذ الحق له ، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه » .

ويقول فى رسالة له لأبى موسى الأشعرى ـــ رضى الله عنه ـــ فى أمر القضاء . ﴿ **آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك** » .

وها هو ذا « ضرار الصدائى » يصف أمير المؤمنين علياً ـــ كرم الله وجهه ـــ وما اتصف به من العدالة والانصاف للرعية فيقول :

---

(١) سورة المائدة الآية ٨

(٢) انظر صحيح مسلم كتاب « الحدود » باب « قطع السارق الشريف وغيره والنهى عن الشفاعة فى الحدود » ج ٣ ص ١٣١٥ فقد ورد الحديثان ٨ ـــ ٩ / ١٦٨٨ عن عائشة فى هذا .

« كان فينا كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه ، وينبئنا إذا استنبأناه ، ونحن مع تقريبه إيانا وقربه منا : لا نكاد نكلمه لهيبته ، ولا نبتدئه لعظمته . يعظم أهل الدين ويحب المساكين .. لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله .. كان — والله — غزير العبرة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ويخاطب نفسه » .

وهل ينسى التاريخ هذا الموقف الإسلامى المشرف الذى وقفه الفاروق من « عمرو بن العاص » حين علم أن ابنه ضرب أحد أبناء الرعية ، وقد قال له كلمته الخالدة : يا عمرو : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ » .

أبعد هذا التكريم للبشرية ، يجرؤ أفاك أثيم على أن يرفع صوته بهذه الفرية التى تقول أن الرق فى الاسلام يعتبر تهمة توجه ضده ، وهو لم يقرأ عن الإسلام شيئاً ، بل إنه يهرف بما لا يعرف .

وصدق الله تعالى حيث يقول : ﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴾ [1] .

هذا الإسلام ، هو الذى كانت عدالته مضرب الأمثال فى معاملة البشر ، مهما اختلفت أجناسهم ومعتقداتهم .

ومن جليل ما يذكر فى هذا المجال ، ماجرى بين على بن أبى طالب وعمر بن الخطاب ، وقد تحاكم الأول امام عمر ، وكان الخصم يهودياً ، وكان عمر — كعادته — ينادى علياً قائلاً : يا أبا الحسن ، فلما ناداه فى هذه المرة وهو يتحاكم أمامه كعادته ، ظهر الغضب على وجه على ، فظن عمر أن علياً يتبرم من وقوفه مع اليهودى على قدم المساواة ، وعلىّ هو من تعلم : حسباً ونسباً ، وإيماناً ، وصدقاً .. قال عمر لعلى : أكرهت أن يكون خصمك يهودياً ؟ فقال على — رضى الله عنه — : إنما غضبت لأنك لم تسوبينى وبين خصمى اليهودى ، إذ ناديته باسمه ، وناديتنى بكنيتى !

أرأيت أن هذه المساواة فى الحقوق ليست بين المسلمين وحدهم ، بل بين المسلمين وغير المسلمين ، وأن عليا يقف فى ساحة القضاء مع خصم يهودى ، يأبى عليه دينه أن يترك **لفظاً** تشم منه رائحة التعظيم

له فيغضب ، ويعد هذا تمييزاً فى موطن القضاء .. وما كان النداء من عمر الانداء قد اعتاده ، ولكن لم يستطبه منه فى هذا الموطن (موطن القضاء ، ورد الحقوق) .

أبعد كل هذا تجوز المقارنة بين عدالة الاسلام ونزاهته ونظافته وطهارته ؛ وبين ما يدور فى العالم من شرور التفرقة العنصرية فى أعظم الأمم حضارة فى عصرنا هذا ؟

إذ لا تصح المقارنة بين شريعة الله وشريعة الغاب التى وضعها العبد ، وسولت له نفسه الامارة بالسوء أن يحكم بها عباد الله .

شتان ، ثم شتان ، بين عدل الخالق وظلم المخلوق .

وحسبك يا أخى أن تعلم أن الإسلام يبنى عزائم المؤمنين لإقامة الحق والعدل مع الصديق والعدو .. مع الفقير والغنى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً** ﴾[1] .

ثم تأمل بعد ذلك الهدى الإلهى ، والعدل الربانى .. تأمل ما تنص عليه شرائع القوم هناك فى العالم الحر : من تفرق بين الأسود والأبيض ، وتجعل للبيض حقوقاً لا ينالها مواطنوهم السود !

وما أمر هذه التفرقة فى أمريكا وجنوب افريقيا وغيرهما من دول العالم ، بالأمر الخفى الذى يحتاج إلى بيان .

محمد الذى جعل من العبيد سادة

هذه حقيقة ثابتة لا يجادل فيها إلا مكابر ، ولا يمارى فى مضمونها إلا كل معتد أثيم ﴿ **يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها** ﴾[2] .

---

(١) سورة النساء الآية ١٣٥
(٢) سورة الجاثية الآية ٨

وأولى بالذين يحاولون أن يجعلوا من مسألة الرق شبهة يثيرون غبارها على جلال الاسلام وجماله . أولى بهم أن يرددوا هذه الحقيقة إذا أرادوا الإنصاف ، وطلبوا وجه الحق .

أولى بهم أن يقولوا إن محمداً هو الذى جعل من العبيد سادة ، ومن المستضعفين موجهين وقادة .

لقد كان مولده الشريف إيذاناً بأنه محرر العبيد .. فقد كانت أول رضعة ، وأول جرعة لبن نزلت جوفه الشريف من جارية لعمه « أبى لهب » تسمى « ثويبة » .. وكان من حسن الطالع وبشير اليمن : أن هذه الجارية عندما ذهبت وأخبرت أبا لهب بمولد السيد الجليل محمد — ﷺ — : فرح بهذا الخبر فرحاً عظيماً ، وكانت مكافأته : عتقها ، فصارت بسبب هذه البشرى الكريمة حرة تنشق نسيم الحياة الكريمة .. وكان مولده الشريف إيذاناً وإعلاماً بأن هذا المولود سيجعل من العبيد سادة ومن المستضعفين مفكرين وقادة .

وها نحن أولاء ننتقل بالحديث عن جارية أخرى .. انها السيدة الجليلة « بركة الحبشية » المكنية « بأم أيمن » :

وكانت أمة مملوكة للسيدة آمنة أم رسول الله — ﷺ — وقال لها سيدنا محمد — ﷺ — بعد موت أمه : أنت أمى بعد أمى .. وقد أسلمت بعد ما دخلت خديجة — رضى الله عنها — فى الإسلام .. إذ أن خديجة كانت أول من آمن بالنبى — ﷺ — من النساء ، وأقامت « أم أيمن » بمكة تحتمل أذى المشركين ، إلى أن جاءت الهجرة إلى المدينة ، فخرجت من مكة ماشية إليها ، وليس معها ماء تشربه ولا زاد تأكل منه ، وكان عندها قوة عجيبة على احتمال العطش والجوع ، حتى أنها كانت تصوم فى اليوم الحار ثم تطوف فى الشمس كى تعطش فلا يصيبها عطش !

أما جهادها فى الاسلام فقد كانت تقوم بسقى الجيش ، وتداوى الجرحى فى القتال . ومما حضرته من الغزوات : غزوة أحد ، وخيبر ، وكانتا من أهم غزوات النبى — ﷺ — .

هذا بالاضافة إلى أنها كانت من أكثر نساء المهاجرين حظاً فى الشهداء من رجالهن .. فقد تزوجت بعبيد بن زيد ، وأنجبت منه أيمن ، الذى مات شهيداً يوم « حنين » ، وبعد موت « عبيد » : تزوجت بزيد بن حارثة وأنجبت منه أسامة بن زيد ، وقدمات « زيد » شهيداً فى « مؤتة » ، فصبرت على فقد زوجها « زيد » وابنها أيمن وكان أسامة غلاماً ، فعكفت على رعايته والعناية به ، حتى جعلت منه رجلاً

يقود جيشاً ، فيه من الأبطال مثل أبى بكر وعمر ، وكان آخر جيش أعده النبى ـــ ﷺ ـــ ولم يكن أسامة قد جاوز العشرين سنة .

ولما مات النبى ـــ ﷺ ـــ كانت أم أيمن تبكيه كلما ذكرته ، ولا ينقطع بكاؤها عليه ، وقد قال أبو بكر لعمر : انطلق بنا لنزور أم أيمن ، كما كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ يزورها ، فلما دخلا عليها بكت ، فقالا لها : ما يبكيك ، فما عند الله خير لرسوله ؟ فقالت : أبكى لأن وحى السماء قد انقطع فهيجتهما على البكاء ، فجعلت تبكى ويبكيان معها .

وليس هناك أسمى من هذه النفس التى تبكى انقطاع الوحى ، وتحزن بفقد الاتصال بالسماء ، فهى لا ترى إلا السعادة الروحية التى تصل بيننا وبين الملأ الأعلى ، وتفيض على أهل الأرض فتسمو بهم إلى مواطنها .

وقد ماتت أم أيمن بعد عشرين يوماً من خلافة عثمان ـــ رضى الله عنه ـــ سنة ٦٤٣ م . أرأيت إلى هذا الجلال وتلك العظمة فى هذه السيدة التى كانت مملوكة للرسول ـــ ﷺ ـــ فامتدت يداه الكريمتان **فأهداها** نعمة الحرية ، وجعل منها السيدة التى تكلم الخليفة أبا بكر ، ووزير عدله عمر كلمة تجعلهما يبكيان ويذرفان الدمع على انقطاع الوحى بعد رسول الله ـــ ﷺ ـــ ؟

إن دل هذا على شيء ، فإنما يدل على أن محمداً ـــ ﷺ ـــ جعل من العبيد سادة ومن المستضعفين أساتذة وقادة .

زيد بن حارثة

حب رسول الله ـــ ﷺ ـــ الذى قال فى شأنه : « أنت مولاى ومنى وأحب القوم إلى »[1] .

(١) انظر صحيح البخارى باب فضائل الصحابة ج ٢ ص ٣٠٣ باب مناقب زيد بن حارثة فقد ورد عن البراء عن النبى ـــ ﷺ ـــ قوله فى هذا المعنى : « أنت أخونا ومولانا » .

نشأته وشأنه ومكانته فى الإسلام :

خرجت أمه « سعدى بنت ثعلبة » معه تزور قومها « بنى معن » فأغارت خيل لبنى القيس ابن جسر ، فمروا على أبيات « بنى معن » فاحتملوا زيداً — وقد كان يومئذ غلاماً يافعاً — ولم يعرف أبوه بعد شيئاً عنه .

وكان موسم الحج قد أقبل ، فحج قوم من « كلب » ، وأمام أعينهم دائماً صورة هذا الرجل الباكى « حارثة بن شرحبيل » ومضوا يطوفون بالبيت ، وهناك رأوا « زيداً » فعرفهم ، وعرفوه ، وأقبل عليهم ، وعلموا منه أن خاطفيه وافوا به « سوق عكاظ » فعرضوه للبيع ، فاشتراه منهم « حكيم بن حزام بن خويلد لعمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم : فلما تزوجها شريف — قريش : محمد ابن عبد الله — ﷺ — ، وهبته له ، وانطلق « الكلبيون » وأعلموا أباه ، فخرج حارثة وأخوه كعب بفدائه ، وقدما مكة ، فسألا عن النبى — ﷺ — فدخلا عليه وقالا : يا ابن عبد الله ! يا ابن عبد المطلب ، يا ابن هاشم يا ابن سيد قومه ، أنتم أهل الحرم وجيرانه ، وعند بيته تفكون العانى وتطعمون الأسير .. جئنا فى ابننا ، فامتن علينا ، وأحسن إلينا فى فدائه ، فإننا سندفع لك الفداء . فقال لهم الرسول — ﷺ — : « دعوه فخيروه ، فإن إختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارنى ، فو الله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى » .

فدعاه النبى — ﷺ — وقال له : هل تعرف هؤلاء ؟ قال نعم . قال من هما ؟

قال زيد : هذا أبى وهذا عمى ، فقال رسول الله — ﷺ — : فأنا من علمت ورأيت صحبتى لك ، فاخترنى أو اخترهما[1] .

فقال زيد : ما أنا بالذى أختار عليك أحداً ، أنت منى بمكانة الأب والأم .

فقالا : ويحك يا زيد ! أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك ؟ !

قال زيد : نعم ! إنى قد رأيت من الرجل شيئاً ما أنا بالذى أختار عليه أحداً أبداً .

---

(١) انظر أسد الغابة ج ٢ ص ٢٨٢ ترجمة زيد بن حارثة .

فلما رأى رسول الله ـــ ﷺ ـــ ذلك اخرجه إلى الحجر ، وقال : « يا من حضر ، إشهدوا أن زيداً ابنى : أرثه ويرثنى »[١] .

فلما رأى أبوه وعمه ذلك : طابت أنفسهما وانصرفا ، ونزلت الرسالة على محمد ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ فكان زيد أول من آمن به من الأرقاء .

ولم يفارق النبى ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ لحظة ، فأحبه النبى حباً شديداً .

وأذن النبى ـــ ﷺ ـــ فى الهجرة لأصحابه ، وهاجر زيد ، ونزل فى المدينة على سعد بن خيثمة .

ولما هاجر الرسول الأعظم إلى يثرب **وآخى** بين المسلمين : كان حمزة سيد الشهداء ، وزيد أخوين فى الله . ثم آخى النبى الأعظم بعد مقتل حمزة بينه وبين أسيد بن حضير .

وقامت المعارك بين المسلمين والمشركين ، وكان زيد من الرماة المذكورين فشهد بدراً وأحداً ، واستخلفه الرسول ـــ ﷺ ـــ على المدينة عندما خرج إلى « المريسيع » ، وشهد الخندق والحديبية وحنيناً .

وخرج زيد أميراً فى سبع سرايا : أولها القردة ، فاعترض لعير قريش فأصابها وأفلت أبو سفيان منهم ، وأسر زيد « فرات بن حيان العجلى » .

وقدم بالعير على النبى ـــ ﷺ ـــ ، وكانت أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون .

قالت أم المؤمنين عائشة ـــ رضى الله عنها ـــ : « ما بعث رسول الله زيد بن حارثة فى جيش قط ، إلا أمره عليهم ، ولو بقى بعده لاستخلفه » .

وأراد رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن يغزو الروم ، فجمع ثلاثة آلاف من المسلمين وعقد لزيد ، وقدمه على الأمراء الآخرين قائلاً : « عليكم زيد بن حارثة ، فإن أصيب زيد : فجعفر بن أبى طالب ، **فإن أصيب جعفر : فعبد الله بن رواحه »[٢]** .

---

(١) انظر تفسير القرطبى « تفسير سورة الأحزاب » ج ١٤ ص ١١٨ فقد ورد الحديث بلفظ « يا معشر قريش اشهدوا أنه النبى يرثنى وأرثه » . وفى ص ١٩٣ ورد الحديث بلفظ : « اشهدوا أنى وارث وموروث » . وانظر من الغابة ج ٢٨٢ ترجمة زيد بن حارثة .

(٢) انظر صحيح البخارى كتاب « المغازى » باب « غزوة مؤتة ج ٣ ص ٥٨ فد ورد الحديث عن عبد الله بن عمر قال : أمر رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى غزوة موتة زيد بن حارثة فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ : « إن قتل زيد فجعفر وإن قتل جعفر فعبد الله ابن رواجه .. » الخ .

وتحرك الجيش الإسلامى بقيادة لواء الاسلام « زيد بن حارثة » .

أليس فى هذا المعنى ما يعطى الدلالة الصادقة على أن رسول الله هو الذى جعل من العبيد سادة ومن المستضعفين أساتذة وقادة ؟

هذا « زيد » يقود جيشاً فيه جعفر الطيار ، ابن عم رسول الله ، الشريف الكريم ، وفيه خالد ابن الوليد ، وخالد هو سيف الله المسلول ، ومن بعد زيد : قاد ابنه « أسامة » الحملة بعد وفاة الرسول ـــ ﷺ ـــ ، قادها إلى فلسطين ، وكان على رأس جيش فيه أبو بكر الصديق وعمر الخليفة فاروق هذه الأمة .

أى دلالة أعظم من هذه الدلالة ؟ وأى معنى أوضح من هذا المعنى ؟ إنه الإسلام الذى كرم البشرية ، وزكى النفوس ، وطهر القلوب .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

الدين والدنيا لنا جمعتهما لك شرعة قدسية غراء
والمسلمون جميعهم جسد ، إذا عضو شكى ، سهرت له الأعضاء

سار المسلمون وعلى رأسهم زيد ، حتى وصلوا إلى « مؤتة » ، وهناك علموا بتجمع جيوش الروم فى أكثر من مائة ألف ، وهم ثلاثة آلاف فقط ، وهناك تردد الناس قليلاً .

ولكن ما لبث الأمير أنْ اندفع يقاتل الروم ، فما تلك الحياة بجانب تلك الغاية التى يريدها ؟ وتناولته السيوف بالطعن ، وهو يقاتل دون راية رسول الله ـــ ﷺ ـــ وأخيراً استشهد الأمير .

أيتها النفس الكبيرة :

لقد عرف النبى الأعظم حقيقتك ، فرفعك من رتبة العبودية إلى رتبة البنوة ، حيث قال : « زيد ابنى » ، ثم أمرك على المسلمين ، ثم رفعك مرة أخرى إلى رتبة الشهداء الصالحين .

وفى المدينة وقف النبى ـــ ﷺ ـــ يقول : « استغفروا لزيد ، لقد دخل الجنة وهو يسعى » ،

ثم أتى أهله ، فجهشت بنت زيد بالبكاء ، فبكى النبى ﷺ حتى انتحب ، فقال له سعد بن عبادة : يا رسول الله : ما هذا ؟ فقال له الرسول — ﷺ — : (يا سعد : هذا شوق الحبيب إلى الحبيب) .

يرحمك الله يا زيد بن حارثة ، يا من أثنى عليك رسول الله خيراً ، ويا من أنعم الله عليك بالاسلام ، وأنعم رسوله عليك بالعتق ، يا من ختم الله لك حياتك الكريمةبالموتة الكريمة ، فلقيته شهيداً ، وعشت فى دار الكرامة فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ۝ فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾(1) .

بلال بن رباح
مؤذن الرسول وكفى بالأذان شرفاً

أليس المؤذن هو الذى يرفع كلمة التوحيد عالية يشنف بها الآذان ، ويملأ بها القلوب عزة وكرامة ؟

كان بلال عبداً مملوكا لأمية بن خلف ، ولاقى من الأذى فى سبيل عقيدته ما لا يقوى عليه أحد غيره ، فوقف من التعذيب والتنكيل موقف الجبل الأشم ، لا تحركه العواصف ولا تؤثر فيه الرياح القواصف .. كان كلما اشتد عليه الأذى وتضاعف أمامه الكروب : ازداد إيماناً على إيمانه .

بلغ من قسوة أمية بن خلف انه كان يطرحه على رمضاء مكة وقت الظهيرة حيث الشمس تضرب وجه الأرض بسياطها الحامية ويسيل منها لعاب كالمهل يشوى الوجوه ولا عجب : فأمية عرفه التاريخ بأنه رجل حديد اللسان حديد الوجه حديد القلب .. لو وزعت قسوة قلبه على الناس ، ما بقى للرحمة سبيل إلى قلب واحد منهم .

كلما اشتد الأذى ببلال : كان يردد هذا النشيد الخالد : أحد أحد ، فرد صمد ، لا والد ولا ولد .

(1) سورة آل عمران الآيتان ١٦٩ — ١٧٠

أجل يا بلال ! ان الله واحد فى ذاته لا شريك له ، واحد فى صفاته لا نظير له .. إنه رب السماء والفضاء والجبال والشجر ، إنه رب عزيز قادر ، له الجبين قد سجد ويردد بلال هذه الكلمات كلما أمره أمية بالكفر ، ويشطاط عدو الله غضباً فيقول له العبد المؤمن : إن أكن عصيتك فقد أطعت الله ، عذب ماشئت فإنك إنما تعذب جسدى ، أما روحى فلن تنال منها شيئاً ؟!

لله درك يا بلال : لقد ضربت المثل الأعلى فى الصمود والثبات على المبدأ الحق ، حتى جعل الله لك من الضيق فرجا ، وقد تقدم الصديق ــ رضى الله عنه ــ فاشتراك وأعتقك ، وكنت صاحب المكانة المرموقة عند رسول الله ــ ﷺ ــ . عرفت بالصوت الندى فى الأذان ، حتى قال عنك رسول الله ــ ﷺ ــ إنك أندى صوتا . وكان لك الشرف العظيم أن تعلن الأذان من فوق بيت الله الحرام يوم الفتح الأعظم ، حيث اشرأبت الأعناق ، وقال بعض أهل مكة من ذوى النفوس التى ملكها الكبر : ألم يجد محمد غير هذا ليؤذن ، فرد عليهم القرآن الكريم فى صراحة ووضوح وحزم وعزم : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾[1] .

سرعة بديهته ــ رضى الله عنه ــ :

لا ننسى ذكاءك وسرعة بديهتك وحضور حجتك وعندما سألك سائل فقال لك يا بلال : ابن من أنت ؟ فقلت له ــ على الفور أنا ابن الذى اسجد الله له الملائكة صدقت يا بلال فرسول الله يؤيدك كل التأييد اذ يقول : (كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على اعجمى إلا بالتقوى) .

ولا ينكر أحد مكانتك فى قلب المصطفى ــ ﷺ ــ لقد غضب من أبى ذر **الغفارى** الصحابى الزاهد الورع ، عندما قال لك فى لحظة غضب : يا ابن السوداء فلما بلغ رسول الله ــ ﷺ ــ ذلك : امتلأ غضباً وقال فى حدة وشدة : (يا أبا ذر :**أعيرته بأمه ،إنك امرؤ فيك جاهلية**)، وأخذت هذه الكلمات كل مأخذ وكأنها سهام بتاره ، جعلت أبا ذر رضى الله عنه يضع خده على الرمال ويقول : يا بلال : طأ على خدى بقدميك !

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٣

انه الأدب والخلق الذى تربى عليه أصحاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه إذا أخطأوا ، أو ظلموا أنفسهم ، أو شعروا بانحراف فى النفس : استيقظت لواعج الوجدان فذكروا الله ، فاستغفروا لذنوبهم .

دعابة لطيفة :

لقد كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا رأى هؤلاء النفر الذين انعم الله عليهم بنعمة الاسلام والعتق : **يبش** لهم ويبتسم .

سأل رسول الله ـ ﷺ ـ بلال ذات يوم ـ وكان يوم الأضحى ـ بم ضحيت يا بلال ؟ فقال : يا رسول الله لم أجد الا « ديكا » فضحيت به ، فقال له الرسول ﷺ فى دعابة لطيفة : « مؤذن ضحى بمؤذن » وكان المصطفى ﷺ يمزح ولا يقول الا حقا .

فرحمك الله يا بلال يا من رفعت إلى مكانة فى الاسلام عالية مرموقة ، ونلت من الله فضلاً عظيماً وأجراً كريماً .

سلمان الفارسى

الرجل الذى بحث عن الحقيقة العليا ، ونخل مخزون فكره ، وقدح زناد رأيه فى سبيل الوصول إلى الحق .

نشأ بين قوم فى بلاد الفرس ، يعبدون النار من دون الله ، وكان أبوه قد جعله قائماً على شأن النار يغذيها بالوقود إذا ما أوشكت أن تضعف .. ودارت فى نفسه وعقله أفكار **وتساؤلات** .. هل يليق بالإله أن يكون محتاجاً إلى عباده ؟ وماذا يحدث لو أنه أهمل مده بالوقود ؟ لابد أن تنطفىء هذه النار . وأخيراً ، ولى هارباً ، وهاجر من هذه البلاد يسعى وراء الحق ، ويطلب الحقيقة .. ونزل على أحد الرهبان ، فدله الراهب على أن الحق فى شريعة محمد خاتم الأنبياء .. وولى سلمان وجهه شطر المدينة ، فى قافلة متوجهة إلى هناك ، لكن أحد اليهود المقيمين بيثرب ادعى أنه اشتراه ، فصار « سلمان » عبداً مملوكاً لذلك اليهودى يقوم على خدمته ورعاية شئونه .

ولما هاجر الرسول ـ ﷺ ـ إلى المدينة : أسرع سلمان ليختبر فيه الصفات التى أرشده إليها

الراهب ، الذى التقى به فى بلاد الشام ، من أن النبى — ﷺ — لا يقبل الصدقة ، ولكنه يقبل الهدية ، وأن خاتم النبوة دليل واضح على صدق دعواه ، وتحققت هذه كلها فى رسول الله أمام سلمان ، فأسلم ، وتعاون المسلمون على شرائه من اليهودى ، ثم أعتقوه ، فصار حراً ، وكل منهم يريد أن ينسبه إليه ، فقال رسول الله — ﷺ — لهم : « سلمان منا آل البيت »(١) .

وكان لسلمان موقفه التاريخى المجيد يوم (الخندق) عندما ادلهمت الخطوب ، واشتدت المحن ، وحوصرت المدينة ، استشار الرسول أصحابه ، فأشار عليه سلمان بحفر الخندق ، وصادف هذا الرأى قبولاً مطلقاً فى نفوس المسلمين ، فحفر الخندق ، وكان فى حفره خير ويمن .

إننا لا ننسى لسلمان هذا الموقف الاسلامى الجليل ، ولا ننسى له شدة تمسكه وعمق تغلغله فى مفاهيم الاسلام .. قال له سائل : يا سلمان ، من أبوك ؟ فقال له بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : أنا ابن الاسلام ، ولما بلغ هذا الخبر أمير المؤمنين عمر بكى وقال ثلاث مرات : وأنا ابن الاسلام . أجل يا سلمان

لعمرك : ما الإنسان إلا ابن دينه ... فلا تترك التقوى اتكالاً على النسب
فقد رفع الاسلام سلمان فارس ... وقد حط بالشرك النسيب أبو لهب

كان سلمان رجلاً مجداً فى حياته ، لا يعرف الكسل .. كان يكتسب لقمة عيشه بكد يمينه وعرق جبينه .. كان يأتى بـ « خوص » النخيل فيصنع منه **المكاتل** ويبيعها ، ويقسم الربح أقساماً ثلاثة : قسم يتصدق به على الفقراء والمساكين ، وقسم ينفق منه على أهله ونفسه ، وقسم يعمل فيه فى التجارة .

وقد صدق فيه قول رسول الله — ﷺ — : « إن الله يرضى لرضا سلمان ويغضب لغضبه ، وإن الجنة لتشتاق إلى سلمان أكثر من اشتياقه إليها » .

رحمك الله يا سلمان ، وجزاك عن الاسلام خيراً ، يا من قال عنك الرسول — ﷺ — : « سلمان منا ، آل البيت » .

---

(١) انظر المعجم الكبير للطبرانى ج ٦ ص ٢٦٠ — ٢٦١ « عن أخبار سلمان ووفاته » حديث رقم ٦٠٤٠ من رواية لكثير بن عبد الله المزنى . قال فى المجمع ج ٦ ص ١٣٠ : فيه كثير بن عبد الله المزنى وقد ضعفه الجمهور ، وحسنى الترمذى حديثه . وانظر تفسير القرطبى « تفسير سورة الأحزاب » ج ١٤ ص ١٢٩ فقد ورد الحديث بلفظه .

هنيئاً لك ، ثم هنيئاً لك بهذا الشرف الذى رفعك إليه سيد الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله وسلامه عليه .

وخلاصة القول :

هذه نماذج كريمة لقوم جعل منهم الاسلام سادة وقادة .

لقد حاول الملأ من قريش أن يصرفوا نظر رسول الله ـــ ﷺ ـــ عن هؤلاء المستضعفين وقالوا له بلسان الكبرياء والصلف : إن أردتنا أن نؤمن بك ، فاطرد هؤلاء الصعاليك من حولك ، والله يشهد أنهم لكاذبون ، وأن قلوبهم قد ران عليها صدأ الجبروت والعناد .

فماذا كان جواب الاسلام على افترائهم ؟

لقد مروا برسول الله ـــ ﷺ ـــ ذات يوم فوجدوه قد بسط رداءه لهؤلاء المستضعفين وخفض لهم جناحه ، لأن الله رد على هؤلاء المتكبرين بقوله : ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً** ﴾(١) ، وقال أيضاً : ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين** ﴾(٢) . بل لقد كرمهم القرآن تكريماً دونه كل تكريم حيث قال تعالى : ﴿ **وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا ، فقل سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة** ﴾(٣) .

وكان السيد الجليل رسول الله ـــ ﷺ ـــ إذا لقيهم يقول : « مرحباً بمن أوصانى ربى بهم خيراً » .

---

(١) سورة الكهف الآية ٢٨
(٢) سورة الأنعام الآية ٥٢
(٣) سورة الأنعام الآية ٥٤

الصيام

قوله تعالى : ﴿ **فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا** ﴾ .

وهكذا ينتقل بنا النظم الكريم إلى نوع آخر من الكفارات وهو صيام شهرين متتابعين . وهنا لابد لنا أن نعلم أن كفارة الظهار فى الصيام مثل كفارة من جامع زوجته فى نهار رمضان ومثل كفارة القتل الخطأ والتى قال الله فيها : ﴿ **فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً** ﴾[١] .

أما كفارة اليمين المنعقدة فقد قال فيها الله ــ تعالى ــ : ﴿ **فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون** ﴾[٢] .

ومن ثم ، فإننا نرى أن نبسط القول عن الصيام وأقسامه حتى نعطى صورة واضحة تنفع المسلم . فنقول وبالله التوفيق .

ما من شك فى أن الصيام طبيب للأبدان ، ولقد عجبت لسائل قال للإمام الباقلانى صاحب إعجاز القرآن قال له السائل : إن كتابكم خلا من الطب ، فقال له الامام على الفور : بل إن كتابنا جمع الطب فى نصف آية . قال : اقرأها ، قال الامام : ﴿ **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين** ﴾[٣] . **فبُهت** الذى كفر .

والناظر فى كتاب الله ــ تعالى ــ يجده قد احتوى على الطب النفسانى . قال تعالى : ﴿ **قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم** ﴾[٤] .

كذلك احتوى على الطب الاجتماعى . قال تعالى : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾[٥] .

واحتوى على الصحة الوقائية . قال جل شأنه : ﴿ **حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ماذكيتم ..** ﴾[٦] .

---

(١) سورة النساء الآية ٩٢
(٢) سورة المائدة الآية ٨٩
(٣) سورة الأعراف الآية ٣١
(٤) سورة الزمر الآية ٥٣
(٥) سورة الروم الآية ٢١
(٦) سورة المائدة الآية ٣

واحتوى كذلك على الصحة الغذائية ، قال جل شأنه : ﴿ **والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة** ﴾[١] . هذا هو القرآن فى كماله وجماله وبهائه .

أما عن الصيام وماله من روعة وجلال ، فإنه أستاذ فى بناء النفوس على الخلق الكريم ، ولن نجنح هنا فى سبحات الخيال وآفاقه الشاسعة ، إنما تكفينا كلمة واحدة عقب بها المولى ـــ تبارك اسمه ـــ على الصيام وهى « لعلكم تتقون » بعدما قال سبحانه : ﴿ **يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم** ﴾[٢] ، وكلمة لعل تفيد الترجى ، وهو توقع حدوث الأمر المحبوب ، ولكن الترجى الذى يفيد التوقع لا يليق بذات الله لأن التوقع يفيد الجهل ، بالمستقبل والله ـــ جل شأنه ـــ علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون . إذن فلابد أن يكون المعنى هنا غير الترجى ، وعلى هذا فإنها ـــ أى لعل ـــ تفيد العلة والحكمة والغاية والهدف ، أى كتبنا عليكم الصيام لتتقوا . فما هى التقوى ؟ وأين مكانها ؟ يجيب على هذا السؤال الامام على ـــ رضى الله عنه ـــ فيقول :

التقوى : هى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

أما مكانها ، فقد ورد فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **التقوى ها هنا ـــ مشيراً إلى صدره الشريف** »[٣] إذن فهناك مناسبة كبرى وطيدة بين الصيام والإيمان والتقوى ، فالإيمان تصديق بالقلب . قال ـ بعض السلف ـ : « **ليس الإيمان بالتمنى ولكن ماوقر فى القلب وصدقه العمل** » ، وتقول آيات الكتاب العزيز : ﴿ **أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان** ﴾[٤] ، ﴿ **وقلبه مطمئن بالإيمان** ﴾[٥] .

والصيام عبادة سرية لا يطلع عليها الاعلام الغيوب . فقد تستطيع أن تأكل ملء بطنك وتشرب من الماء ما شئت ثم تخرج على الناس فى نهار رمضان تشكو شدة الظمأ ولوعة الجوع ، وأنت لا تدرى أن الله مطلع على ما تقول :

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٣٢

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٣

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة والآداب » باب « تحريم ظلم المسلم .. » الخ ج ٤ ص ١٩٨٦ حديث رقم ٣٢ / ٢٥٦٤ عن أبى هريرة من حديث طويل جاء فيه : « التقوى ههنا » .

(٤) سورة المجادلة الآية ٢٢

(٥) سورة النحل الآية ١٠٦

الله يــدرى كل مــا تضمـــر يعلم مـا تخفـى ومـا تظهـر
وإن خـدعت النــاس لم تستطع خداع من يطوى ومن ينشر

نعم الصيام عبادة سرية لذلك نسبها الله إليه : « كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به »[١] .

فإذا كان الإيمان محله القلب ، وإذا كان الصيام عبادة سرية ، وإذا كانت التقوى محلها القلب ، فإن القضايا التى ورد ذكرها فى الآية الكريمة كلها سرية لا يعلمها ولا يطلع عليها إلا الله . ومن ثم كان الصيام وسط بين الإيمان والتقوى ، لأن الإيمان يؤدى إلى الطاعة ، والطاعة تؤدى إلى التقوى . فهذا تسلسل منطقى قرآنى رائع ، إذ القرآن لفظ حامل ومعنى به قائم ، ورباط بينهما ناظم ، وعندما لا يؤدى الصيام إلى التقوى ، يكون هذا خداع عجيب :

تـعصى الإلـه وأنت تظهـر حبـه هـذا لعمـرى فى القيـاس بديـع
لـو كان حـبك صادقـاً لأطعتـه إن المحب لمن يحب مطيـــع

لقد كان تركيز الاسلام دائماً فى تربية النفوس على تكوين وازع من داخل النفس يجعلها تخشى الله ، ومن ثم كانت اجابة المصطفى — صلوات ربى وسلامه عليه — شافية كافية واضية عندما قال له جبريل : أخبرنى عن الإحسان ، كانت الإجابة : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[٢] . هذا ما يسميه الفلاسفة بالضمير ، ونحن نسميه بالوازع الداخلى الذى لا يهيمن عليه إلا علام الغيوب ، ولا يربى هذا الوازع إلا الإيمان والصيام والتقوى . فالنفس بطبيعتها إن لم يكن رقيبها من داخلها فلن تنضبط أبداً . **﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم ﴾**[٣] .

هذا الوازع الداخلى هو الذى جعل الزوجة الصالحة فى صدر الإسلام تقول لزوجها وهويستقبل

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « فضل الصيام » ج ٢ ص ٨٠٧ حديث رقم ١٦٣ / ١١٥١ فقد ورد هذا ضمن حديث طويل لأبى هريرة .
(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الايمان » باب « بيان الايمان والاسلام والاحسان .. الخ » ج ١ ص ٣٦ — ٣٧ حديث رقم ١ / ٨ فقد ورد هذا ضمن حديث طويل لعبد الله بن عمر .
(٣) سورة المجادلة الآية ٢

يومه سعياً وراء لقمة العيش : يا هذا اتق الله ولا تأكل حراماً إننا نستطيع أن نصبر على الجوع فى الدنيا ولا نستطيع أن نصبر على عذاب النار يوم القيامة . فإذا عاد من عمله بادرته قائلة : كم نزل اليوم من القرآن وكم حفظت من حديث رسول الله .

إذا كان الصيام يؤدى إلى تقوى الله فإن التقوى هى السلاح الأقوى . قيل لرسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ : ما أكثر ما يدخل الناس الجنة ؟ قال : « تقوى الله وحسن الخلق » قيل : فما أكثر ما يدخل الناس النار ؟ قال : « **البطن والفرج** »[(١)] .

ولذا ورد فى الحديث الشريف : « من أصبح وهمه تقوى الله وقاه الله هم الدنيا والآخرة .

إن هذا السلاح القوى هو الذى جعل راعى الغنم ينال جائزة الدولة التقديرية من أمير المؤمنين عمر ، وهو يتفقد حال ارعية . قال لراعى الغنم : يا غلام ، أعطنا غنمة نتغذى بها . فقال له الغلام : إنها ملك سيدى . قال له أمير المؤمنين ـــ والراعى لا يدرى من المتحدث ـــ : نشتريها منك ونثر أمامه شيئاً من الدنانير والدراهم ، وللدنانير بريقها الذى يسيل لها لعاب المرضى ، وللدراهم رنينها الذى تنخلع له قلوب ضعفاء الإيمان . قال الراعى : وإذا سألنى سيدى عنها فماذا أقول له ؟ قال له عمر : قل له أكلها الذئب ، فانتفض الراعى انتفاضة العصفور إذا بلله ماء المطر وقال له : يا هذا ، وإذا كذبت على سيدى الأصغر فأين الله ؟ أين الله ؟ أين الله ؟

ولم يستطع عمر بعد ذلك أن يتكلم فقد انعقد لسانه بعد ما شعر بقشعريرة تنتاب بدنه وكأنه يقف فى وهدة سحيقة ويطل بناظريه إلى قمة شماء تنخلع الرقاب عند ذراها ، وانطلق إلى سيد الغلام واشترى منه الغنم كلها والعبد فأعتق العبد ووهبه الغنم وقال أنقذته كلمته هذه من رق الدنيا وأرجو أن تنقذه من عذاب النار يوم القيامة .

---

(١) الترغيب والترهيب « كتاب الأدب » الترغيب فى الخلق الحسن وفضله .. الخ » ج ٣ ص ٤٠٣ فقد ورد الحديث رقم ٤ من رواية لأبى هريرة ، وقال : رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح غريب .

وانظر سنن الترمذى « أبواب البر والصلة » باب ما جاء فى حسن الخلق ج ٣ ص ٢٤٥ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة رقم ٢٠٧٢ .

لولا أن هناك فى النفس وازع يراقب الله فى تصرفاته ، ما كان هناك شيء يجدى ، فالأجهزة بمختلف أشكالها وألوانها لا تستطيع أن تديم المراقبة إذ تعتريها فترات غفلة وركود ، أما الذى لا يغفل ولا ينام صاحب المملكة الدائمة والعظمة القائمة فكل شيء قائم به وكل شيء خاشع له ، عز كل ذليل ، وغنى كل فقير ، وقوة كل ضعيف ، ومفزع كل ملهوف ، من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه ، سبحانه علا فقهر وبطن فخبر وملك فقدر ، فأى رتبة فى الدنيا تنال من القوة مثلما للتقوى من قوة . ومن هنا فقد قال الرسول — ﷺ — : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن »(١) .

إن التقوى هى الركيزة الحقيقية للأخلاق .

النفس تجزع أن تكون فقيرة ... والفقر خير من غنى يطغيها
وغنى النفوس هو الكفاف فإن أبت ... فجميع ما فى الأرض **لا يكفيها**

وقف الامام على — رضى الله عنه — ذات يوم بين المقابر ومعه بعض الأصحاب ، ونادى على الأموات : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، أنتم السابقون وإنا ان شاء الله بكم لاحقون . أما أموالكم فقد قسمت ، وأما دياركم فقد سكنت ، وأما نساؤكم فقد تزوجن بغيركم ، هذا خبر ما عندنا ، فما خبر ما عندكم ؟ ثم نظر إلى أصحابه وقال : والله لو شاء الله لهم أن يتكلموا لقالوا : إن خير الزاد التقوى صدقت يا أمير المؤمنين .

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى ... تقلب عرياناً ولو كان كاسياً
وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير ... فيمن كان لله عاصياً

إن الله تعالى : أعد للمتقين جنة عرضها السموات والأرض ، ثم وصفهم بصفات لا تسامى ولا يلحق بها ولا يشق لها غبار ، قال — جل شأنه — : ﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين** ﴾(٢) .

---

(١) الترغيب والترهيب « كتاب الأدب » الترغيب ف يالخلق الحسن وفضله .. الخ » ج ٣ ص ٤٠٩ حديث رقم ٣٠ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى ذر — رضى الله عنه — رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .
وانظر سنن الترمذى « أبواب البر والصلة » باب « ما جاء فى معاشرة الناس » ج ٣ ص ٢٣٩ حديث رقم ٢٠٥٣ من رواية لأبى هريرة .
(٢) سورة آل عمران الآيتان ١٣٣ — ١٣٤

إن هذه الآيات تنزل على قلوب الطائعين كما تنزل قطرات الندى على الزهرة الظمأى .

كان للمأمون بن هارون الرشيد خادم يصب له الماء فوقع الإبريق من يديه فى الطست فطار الرشاش على وجه الأمير فاشتد غضبه وانتفخت أوداجه فنظر إليه الخادم فى هدوء وسكينة وقال له : يا سيدى ، أو ما قرأت قوله تعالى : ﴿ **والكاظمين الغيظ** ﴾ قال الأمير : كظمت غيظى ، قال الخادم : ﴿ **والعافين عن الناس** ﴾ قال الأمير : عفوت عنك ، قال الخادم : ﴿ **والله يحب المحسنين** ﴾ قال الأمير : اذهب فأنت حر لوجه الله ولك منى ألف درهم فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحول القلوب من ثورة الغضب إلى رحاب السكينة إنها صفة من صفات التقوى .

لا تركنن إلى الدنيا وما فيها ... **فالموت لا شك يفنينا ويفنيها**

واعمل لدار غداً رضوان خازنها ... والجار أحمد والرحمن ناشيها

قصورها ذهب والمسك طينتها ... والزعفران حشيش نابت فيها

تباركت ربنا وتعاليت ، ولك الحكمة البالغة عندما أمرتنا بالصيام ، وجعلته فريضة على أمة الاسلام ، وجعلت الغرض منه والهدف الأعلى تقواك ، وجعلت التقوى خوفاً من الجليل وعملاً بالتنزيل ، ورضاً بالقليل ، واستعداداً ليوم الرحيل ، وصدق رسولك الكريم إذ أشار إلى صدره مبيناً مكان التقوى . فيا أمة الاسلام ، لا تجعلوا الصيام إمساك عن شهوتى البطن والفرج فحسب . إنه بهذا المعنى جسد بلا روح ، وشمس بلا ضوء ، وقمر بلا نور ، إنما حقيقة الصيام أن تصوم جوارحكم عما يغضب الله مع إمساك الجسد عن الأكل والشرب والشهوة ، فرب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر والله — تعالى — يوفقنا لما فيه رضاه .

قال الفقهاء

الصيام يطلق على الإمساك . قال الله تعالى : ﴿ **إنى نذرت للرحمن صوماً** ﴾[1] أى : إمساكاً عن الكلام .

والمقصود به هنا : الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس مع النية .

(١) سورة مريم الآية ٢٦

فضله :

١ ــ عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : قال الله عز وجل : كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى [إضافته إلى الله إضافة تشريف] ، وأنا أجزى به .

هذا الحديث بعضه قدسى وبعضه نبوى ، فالنبوى من قوله : « والصيام جنة إلى آخر الحديث » ، والصيام جُنة [مانع من المعاصى] فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث [الرفث : هو الفحش فى القول] ولا يصخب [لا يصيح] ، ولا يجهل [أى : لا يسفه] ، فإن شاتمه أحد أو قاتله فليقل : إنى صائم مرتين ، والذى نفس محمد بيده لخلوف [الخلوف تغير رائحة الفم بسبب الصوم] فم الصائم أطيب عند الله يوم القيامة من ريح المسك ، « وللصائم فرحتان يفرحهما : إذا فطر فرح بفطره ، وإذا لقى ربه فرح بصومه »(١) رواه أحمد ومسلم والنسائى .

٢ ــ ورواية البخارى وأبى داود : « الصيام جُنة ، فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل ، فإن إمرؤ قاتله أو شاتمه فليقل : إنى صائم مرتين ، والذى نفس محمد بيده ، لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلى ، الصيام لى وأنا أجزى به ، والحسنة بعشر أمثالها »(٢) .

٣ ــ وعن عبد الله بن عمرو ، أن النبى ــ ﷺ ــ قال : « الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة ، يقول الصيام : أى [حرف نداء بمعنى « ي » أى : يارب] رب منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعنى فيه . ويقول القرآن : منعته النوم بالليل فشفعنى فيه ، فيشفعان [أى : تقبل شفاعتهما](٣) رواه أحمد بسند صحيح .

٤ ــ وعن أبى أمامة قال : أتيت رسول الله ــ ﷺ ــ فقلت : مرنى بعمل يدخلنى الجنة . قال : « عليك بالصوم فإنه لا عَدل له [أى : لا مثل له] ، ثم أتيته الثانية ، فقال : « عليك بالصيام »(٤) . رواه أحمد والنسائى والحاكم وصححه .

---

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « فضل الصيام » ج ٢ ص ٨٠٧ حديث رقم ١٦٣ / ١١٥١ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة .

وانظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « هل يقول إنى صائم » ج ١ ص ٣٢٦ فقد الحديث عن أبى هريرة .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « فضل الصوم » ج ١ ص ٣٢٤ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

(٣) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم « كتاب فضائل القرآن » ج ١ ص ٥٥٤ فقد ورد الحديث بلفظه عن عبد الله بن عمرو . وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

وانظر الترغيب والترهيب « كتاب الصوم » باب « الترغيب فى الصوم مطلقا ، وما جاء فى فضله وفضل دعاء الصائم » ج ٢ ص ٨٤ حديث رقم ١٥ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعبد الله بن عمر .

٥ ـــ وعن أبى سعيد الخذرى[1]ـ رضى الله عنه ـــ أن النبى ـــ ﷺ ـــ قال : « لا يصوم عبد يوماً فى سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم النار عن وجهه سبعين خريفاً »[2] رواه الجماعة إلا وأبو داود

٦ ـــ وعن سهل بن سعد أن النبى ـــ ﷺ ـــ قال : « إن للجنة باباً يقال له الريان . يقال يوم القيامة : أين الصائمون ؟ فإذا دخل آخرهم أغلق ذلك الباب »[3] رواه البخارى ومسلم .

أقسامه

قال الفقهاء : ينقسم الصيام إلى قسمين : فرض وتطوع . أما الفرض فينقسم إلى أربعة أقسام : رمضان ، وقضاؤه ، والنذر ، والكفارات ولما تحدثنا عن أنواع الكفارات وقلنا : إن الكفارة إما أن تكون كفارة ظهار ، أو جماع فى نهار رمضان ، أو قتل خطأ ، أو يمين منعقدة . لما كان ذلك كذلك ، فسوف نفصل الكلام هنا عن صيام رمضان لكونه أحد الأركان التى بنى عليها الإسلام . ثم بعد ذلك نفصل القول فى صيام التطوع . فنقول وبالله التوفيق :

صوم رمضان

حكمه : ـــ

صوم رمضان واجب بالكتاب والسنة والإجماع . فأما الكتاب : فقول الله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **يأيها الذين آمنوا كتب[4] عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾[5] ، وقال : ﴿ **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد[6] منكم الشهر فليصمه** ﴾[7] .

---

(١) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم « كتاب الصوم » ج ١ ص ٤٢١ فقد ورد الحديث من رواية لأبى أمامة . وانظر مسند الامام أحمد ج ٥ ص ٢٤٩ فقد ورد الحديث من رواية لأبى أمامة .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « فضل الصيام فى سبيل الله .. الخ » ج ٢ ص ٨٠٨ حديث ١٦٧ / ١١٥٣ فقد ورد الحديث عن أبى سعيد الخذرى بلفظه : قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ : « ما من عبد يصوم يوماً فى سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفان وانظر الحديث رقم ١٦٨ بعده .

وانظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب فى « صيام يوم فى سبيل الله » ج ١ ص ٥٤٧ ، ٥٤٨ حديث ١٧١٧ عن أبى سعيد الخذرى .

(٣) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « الريان للصائمين » ج ١ ص ٣٢٤ فقد ورد الحديث من رواية لسهل بن سعد مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

(٤) كتب : فرض

(٥) سورة البقرة الآية ١٨٣

(٦) شهد : حضر

(٧) سورة البقرة الآية ١٨٥

وأما السنة : فقول النبى ـ ﷺ ـ : « بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان وحج البيت »[١] .

وفى حديث طلحة بن عبيد الله : أن رجلاً سأل النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، أخبرنى عما فرض الله علىَّ من الصيام ؟ قال : « شهر رمضان » .
قال : هل علىّ غيره ؟ قال : « لا . إلا أن تطّوّع »[٢] .

وأجمعت الأمة : على وجوب صيام رمضان . وأنه أحد أركان الإسلام التى عُلِمت من الدين بالضرورة ، وأن منكره كافر مرتد عن الاسلام . وكانت فرضيته يوم الاثنين ، لليلتين خلتا من شعبان من السنة الثانية من الهجرة .

فضل شهر رمضان وفضل العمل فيه

١ ـ عن أبى هريرة أن النبى ـ ﷺ ـ قال : لما حضر رمضان « قد جاءكم شهر مبارك افترض الله عليكم صيامه ، تفتح فيه أبوابُ الجنة وتغلق فيه أبواب الجحيم وتغلّ فيه الشياطين ، فيه ليلة خير من ألف شهر ، من حرم خيرها فقد حرم »[٣] رواه أحمد والنسائى والبيهقى .

٢ ـ وعن عرفجة قال : كنت عند عتبة بن فرقد وهو يحدث عن رمضان قال : فدخل علينا رجل من أصحاب محمد ـ ﷺ ـ ، فلما رآه عتبة هابه فسكت . قال : فحدث عن رمضان . قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « فى رمضان تغلق فيه أبواب النار وتفتح فيه أبواب الجنة ، وتصفد فيه الشياطين . قال : وينادى فيه ملك : يا باغى الخير أبشر ، ويا باغى الشر أقصر ، حتى ينقضى رمضان »[٤] . رواه أحمد والنسائى وسنده جيد .

٣ ـ وعن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر »[٥] رواه مسلم .

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الإيمان » باب « دعاؤكم إيمانكم » ج ١ ص ١١ فقد ورد الحديث من رواية ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ بلفظ « بنى الاسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان » .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « وجوب صوم رمضان » .

(٣) انظر مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٣٨٥ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .

(٤) انظر مسند الامام احمد ج ٤ ص ٣١٢ فقد ورد الحديث بلفظه عن عرفجة .

(٥) انظر صحيح مسلم « كتاب الطهارة » باب « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة .. الخ » ج ١ ص ٢٠٩ حديث رقم ١٦ / ٢٣٣ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة .

٤ ـــ وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى ـــ ﷺ ـــ قال : من صام رمضان وعرف حدوده وتحفظ مما كان ينبغى أن يتحفظ منه ، كفر ما قبله »[1] . رواه أحمد والبيهقى بسند جيد .
٥ ـــ وعن أبى هريرة . قال : قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً (طالباً وجه الله وثوابه) غفر له ما تقدم من ذنبه »[2] رواه أحمد وأصحاب السنن .

الترهيب من الفطر فى رمضان

١ ـــ عن ابن عباس ـــ رضى الله عنهما ـــ : أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قال : « عُرَى الاسلام وقواعد الدين ثلاثة عليهن أسس الاسلام ، من ترك واحدة منهن فهو بها كافر حلال الدم : شهادة أن لا إله إلا الله ، والصلاة المكتوبة ، وصوم رمضان »[3] رواه أبو يعلى والديلمى وصححه الذهبى .
٢ ـــ وعن أبى هريرة : أن النبى ـــ ﷺ ـــ قال : « من أفطر يوماً من رمضان فى غير رخصة رخصها الله له ، لم يقض عنه صيام الدهر كله وإن صامه »[4] رواه أبو داود وابن ماجه والترمذى . وقال البخارى : ويذكر عن أبى هريرة رفعه : « من أفطر يوماً من رمضان من غير عذر ولا مرض لم يقضه صوم الدهر وإن صامه »[5] وبه قال ابن مسعود .

قال الذهبى : وعند المؤمنين مقرر أن من ترك صوم رمضان بلا مرض : أنه شر من الزانى ومدمن الخمر ، بل يشكّون فى إسلامه ويظنون به الزندقة والانحلال » .

أركان الصوم

للصيام ركنان تتركب منهما حقيقته :
١ ـــ الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس .

(١) انظر مسند الامام أحمد ج ٣ ص ٥٥ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى سعيد الخدرى .
(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصيام » باب « فضل ليلة القدر » ج ١ ص ٣٤٣ فقد ورد الحديث من رواية أبى هريرة وزاد « ... ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » وانظر ص ٣٢٥ باب من صام رمضان إيماناً واحتساباً .
(٣) انظر الترغيب والترهيب « كتاب الصوم » باب « الترهيب من إفطار شىء عن رمضان من غير عذر » ج ٢ ص ١٠١ ـــ ١٠٢ حديث رقم ٣ فقد ورد بلفظه من رواية لابن عباس .
(٤) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب ما جاء « فى كفارة من أفطر يوما من رمضان » ج ١ ص ٥٣٥ حديث ١٦٧٢ فقد ورد عن أبى هريرة ولفظه : قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ « من أفطر يوما من رمضان من غير رخصة ، لم يجزه صيام الدهر كله » .
(٥) انظر صحيح البخارى « كتاب الصيام » باب « إذا جامع فى رمضان » ج ١ ص ٣٣١ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة .

لقول الله ــ تعالى ــ : ﴿ **فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم ، وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ثم أتموا الصيام إلى الليل** ﴾[١] .

والمراد بالخيط الأبيض والخيط الأسود بياض النهار وسواد الليل .

لما رواه البخارى ومسلم : أن عدى بن حاتم قال : لما نزلت : (حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود) عمدت إلى عقال أسود وإلى عقال أبيض فجعلتهما تحت وسادتى ، فجعلت أنظر فى الليل فلا يستبين لى ، فغدوت على رسول الله ــ ﷺ ــ فذكرت له ذلك فقال : « إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار »[٢] .

٢ ــ النية . لقوله تعالى : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين** ﴾[٣] .

وقوله ــ ﷺ ــ : « **إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل إمرىء ما نوى** »[٤] ولابد أن تكون قبل الفجر ، من كل ليلة من ليالى شهر رمضان .

لحديث حفصة قالت : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : « من لم يجمع (يجمع من الإجماع ، وهو إحكام النية والعزيمة) الصيام قبل الفجر فلا صيام له »[٥] رواه أحمد وأصحاب السنن وصححه ابن **خزيمة وابن حبان** .

وتصح فى أى جزء من أجزاء الليل ، ولا يشترط التلفظ بها فإنها عمل قلبى لا دخل للسان فيه ، فإن حقيقتها القصد إلى الفعل امتثالاً لأمر الله ــ تعالى ــ وطلباً لوجهه الكريم .

فمن تسحّر بالليل قاصداً الصيام تقرباً إلى الله بهذا الإمساك فهو ناوٍ .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٧

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصيام » باب قوله تعالى : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر .. الخ » ج ١ ص ٣٢٨ فقد ورد الحديث عن رواية لعدى ابن حاتم .

(٣) سورة البينة الآية

(٤) انظر صحيح البخارى « كتاب بدء الوحى » ج ١ ص ٥ ، ٦ فقد ورد الحديث من رواية لعمر بن الخطاب .

(٥) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب ما جاء « فى فرض الصوم من الليل .. الخ » ج ١ ص ٥٤٢ فقد الحديث رقم ١٧٠٠ عن حفصة بلفظ : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : « لا صيام لمن لم يفرضه من الليل » ومعنى لم يفرضه : لم ينوه .

ومن عزم على الكف عن المفطرات أثناء النهار مخلصاً لله فهو ناوٍ كذلك وإن لم يتسحر .

وقال كثير من الفقهاء : إن نية صيام التطوع تجزى من النهار إن لم يكن قد طعم .

قالت عائشة : دخل على النبى ـ ﷺ ـ ذات يوم فقال : « هل عندكم شيء ؟ قلنا : لا . قال : فإنى صائم »(١) رواه مسلم وأبو داود . واشترط **الأحناف** أن تقع النية قبل الزوال ، وهذا هو المشهور من قولى ـ الشافعى ، وظاهر قولى ابن مسعود وأحمد : أنها تجزىء قبل الزوال وبعده على السواء .

على من يجب

أجمع العلماء : على أنه يجب الصيام على المسلم العاقل البالغ الصحيح المقيم ، ويجب أن تكون المرأة طاهرة من الحيض والنفاس .

فلا صيام على كافر ولا مجنون ولا صبى ولا مريض ولا مسافر ولا حائض ولا نفساء ولا شيخ كبير ولا حامل ولا مرضع .

وبعض هؤلاء لا صيام عليهم مطلقاً : كالكافر والمجنون ، وبعضهم يطلب من وليّه أن يأمره بالصيام ، وبعضهم يجب عليه الفطر والقضاء ، وبعضهم يرخص لهم فى الفطر وتجب عليه الفدية ، وهذا بيان كل على حدة :

صيام الكافر والمجنون : ـ

الصيام عبادة إسلامية ، فلا تجب على غير المسلمين ، والمجنون غير مكلف ، لأنه مسلوب العقل الذى هو مناط التكاليف ، وفى حديث على رضى الله عنه : أن النبى ﷺ قال : « رُفع القلم عن ثلاثة : عن المجنون حتى يفيق ، وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبى حتى يحتلم »(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذى .

---

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب جواز صوم النافلة بقية من النهار .. الخ ج ٢ ص ٨٠٩ حديث رقم ١٧٠ / ١١٥٤ فقد ورد من حديث طويل لعائشة ، وانظر الحديث قبله ١٦٩ / ١١٥٤ لعائشة أيضا .

(٢) انظر سنن أبى داود « كتاب الحدود » باب فى المجنون يسرق أو يصيب أحد ج ٤ ص ٥٥٩ فقد ورد الحديث رقم ٤٤٠١ من رواية لعلى .

صيام الصبى :

والصبى . وإن كان الصيام غير واجب عليه ، إلا أنه ينبغى لولى أمره أن يأمره به ليعتاده من الصغر مادام مستطيعاً له وقادراً عليه .

فعن الربيع بنت معوذ قالت : أرسل رسول الله — ﷺ — صبيحة عاشوراء — إلى قرى الأنصار : من كان أصبح صائماً فليتم صومه ، ومن كان أصبح مفطراً فليصم بقية يومه ، فكنا نصومه بعد ذلك ، ونصوّم صبياننا الصغار منهم ، ونذهب إلى المسجد فنجعل لهم اللعبة من العهن (الصوف) فإذا بكى أحدهم من الطعام أعطيناه إياه ، حتى يكون عند الإفطار »[١] رواه البخارى ومسلم .

● **من يرخص لهم فى الفطر وتجب عليهم الفدية : —**

يرخص الفطر للشيخ الكبير ، والمرأة العجوز ، والمريض الذى لا يرجى برؤه وأصحاب الأعمال الشاقة الذين لا يجدون متسعاً من الرزق غير ما يزاولونه من أعمال هؤلاء جميعاً يرخص لهم الفطر إذا كان الصيام يجهدهم يشق عليهم مشقة شديدة فى جميع فصول السنة .

عليهم أن يطعموا عن كل يوم مسكيناً ، وقدّر ذلك بقدر صاع (قدح وثلث) أو نصف صاع أو مد ، على خلاف فى ذلك ولم يأت من السنة ما يدل على التقدير .

قال ابن عباس : « رخص للشيخ الكبير أن يفطر ويطعم عن كل يوم مسكيناً ولا قضاء عليه »[٢] رواه الداقطنى والحاكم وصححاه .

وروى البخارى عن عطاء : أنه سمع ابن عباس — رضى الله عنهما — يقرأ : ﴿ **وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين** ﴾[٣] قال ابن عباس ليست بمنسوخة وهى للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً (مذهب مالك وابن حزم أنه لا قضاء ولا فدية) .

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الصيام » باب صوم الصبيان ج ١ ص ٣٣٥ فقد ورد الحديث من رواية الربيع بنت معوذ . وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب من أكل فى عاشوراء فليكف بقية يومه ج ٢ ص ٧٩٨ ، ٧٦٩ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية الربيع بنت معوذ برقم ١٣٦ / ١١٣٦ .

(٢) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم « كتاب الصوم » ج ١ ص ٤٤٠ فقد الحديث من رواية لابن عباس . وقال : هذا حديث صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه وفيه الدليل .

(٣) سورة البقرة الآية ١٨٤

والمريض الذى لا يرجى برؤه ويجهده الصوم مثل الشيخ الكبير . وكذلك العمال الذين يضطلعون بمشاق الأعمال بصورة دائمة .

قال الشيخ محمد عبده : فالمراد بمن « يطيقونه » فى الآية الشيوخ الضعفاء والزمنى (المرضى مرضاً مزمناً لا يبرأ) ونحوهم ، كالفعلة الذين جعل الله معاشهم الدائم بالأشغال الشاقة كاستخراج الفحم الحجرى من مناجمه .

ومنهم المجرمون الذين يحكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة إذا شق الصيام عليهم بالفعل وكانوا يملكون الفدية .

والحبلى والمرضع إذا خافتا على أولادهما (ومعرفة ذلك بالتجربة أو بإخبار الطبيب الثقة أو بغلبة الظن) أفطرتا وعليهما الفدية ولا قضاء عليهما عند ابن عمر وابن عباس .

روى أبو داود عن عكرمة ان ابن عباس قال فى قوله تعالى : ﴿ **وعلى الذين يطيقونه** ﴾ ، كانت رخصة للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة وهما يطيقان الصيام أن يفطرا ويطعما مكان كل يوم مسكيناً ، والحبلى والمرضع إذا خافتا « يعنى على أولادهما » أفطرتا وأطعمتا »[١] رواه البزار .

وزاد فى آخره : وكان ابن عباس يقول لأم ولدٍ له حبلى : « أنت بمنزلة الذى لا يطيقه ، فعليك الفداء ولا قضاء عليك »[٢] . وصحح الدار قطنى إسناده . وعن نافع أن ابن عمر سئل عن المرأة الحامل إذا خافت على ولدها . فقال : تفطر وتطعم مكان كل يوم مسكيناً مدّاً (ربع قدح من قمح) من حنطة . رواه مالك والبيهقى .

وفى الحديث : « إن الله وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة ، وعن الحبلى والمرضع الصوم »[٣] .

(١) انظر سنن أبى داود « كتاب الصوم » باب من قال : هى مثبتة للشيخ والحبلى ج ٤ ص ٧٣٨ فقد ورد الحديث ٢٣١٨ من رواية لسعيد بن جبير عن ابن عباس وهو موافق للحديث الذى معنا .

(٢) انظر مسند البيهقى « كتاب الصيام » باب « الحامل والمرضع إذا خافتا على ولديهما أفطرتا وتصدقتا عن كل يوم بد من حنطة ثم قضتا » ج ٤ ص ٢٣٠ فقد ورد الحديث عن نافع عن ابن عمر .

(٣) انظر مسند الامام أحمد ج ٥ ص ٢٩ فقد ورد الحديث من رواية لأنس . وانظر ج ٤ ص ٣٤٧ من المرجع نفسه .

وعند الأحناف وأبى عبيد وأبى ثور : أنهما يقضيان فقط ، ولا إطعام عليهما . وعند أحمد والشافعى : أنهما إن خافتا على الولد فقط وأفطرتا فعليهما القضاء والفدية ، وإن خافتا على أنفسهما فقط ، أو على أنفسهما وعلى ولدهما فعليهما القضاء لا غير .

من يرخص لهم فى الفطر ويجب عليهم القضاء :

يباح الفطر للمريض الذى يرجى برؤه والمسافر ويجب عليهما القضاء ، قال الله تعالى : ﴿ **ومن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر** ﴾[1] . وروى أحمد وأبو داود والبيهقى بسند صحيح من حديث معاذ . قال : ان الله ــ تعالى ــ فرض على النبى ــ ﷺ ــ الصيام . فأنزل : ﴿ **يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم** ﴾ . إلى قوله : ﴿ **وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين** ﴾ ، فكان من شاء صام ومن شاء أطعم مسكيناً ، فأجزأ ذلك عنه . ثم إن الله تعالى أنزل الآية الأخرى : ﴿ **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فمن شهد منكم الشهر فليصمه** ﴾ . فأثبت صيامه على المقيم الصحيح ورخص فيه للمريض والمسافر ، وأثبت الإطعام للكبير الذى لا يستطيع الصيام .

والمرض المبيح للفطر هو المرض الشديد الذى يزيد بالصوم ، أو يخشى تأخر برته (يعرف ذلك ، إما بالتجربة أو بإخبار الطبيب الثقة أو بغلبة الظن) .

قال فى المغنى : وحكى عن بعض السلف أنه أباح الفطر بكل مرض حتى من وجع الإصبع والضرس : لعموم الآية فيه ، ولأن المسافر يباح له الفطر وإن لم يحتج إليه ، فكذلك المريض ، وهذا مذهب البخارى وعطاء وأهل الظاهر . والصحيح الذى يخاف المرض بالصيام يفطر مثل المريض ، وكذلك من غلبه الجوع أو العطش فخاف الهلاك لزمه الفطر وإن كان صحيحاً مقيماً وعليه القضاء . قال الله تعالى : ﴿ **ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً** ﴾[2] .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٥ .
(٢) سورة النساء الآية ٢٩

وقال تعالى : ﴿ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾[1] .

وإذا صام المريض وتحمل المشقة صح صومه ، إلا أنه يكره له ذلك لإعراضه عن الرخصة التى يحبها الله وقد يلحقه بذلك ضرر .

وقد كان بعض الصحابة يصوم على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ وبعضهم يفطر متابعين فى ذلك فتوى الرسول ـ ﷺ ـ .

قال حمزة الأسلمى : يا رسول الله ، أجد منى قوة على الصوم فى السفر ، فهل علىّ جناح ؟ فقال : « هى رخصة من الله ـ تعالى ـ فمن أخذ بها فحسن ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه »[2] رواه مسلم .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : سافرنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ إلى مكة ونحن صيام . قال : فنزلنا منزلاً ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إنكم قد دنوتم من عدوكم والفطر أقوى لكم ، فكانت رخصة فمنا من صام ومنا من أفطر ، ثم نزلنا منزلاً آخر فقال : إنكم مصبّحو عدوكم ، والفطر أقوى لكم فافطروا ، فكانت عزمة ، فأفطرنا ، ثم رأيتنا بعد ذلك نصوم مع رسول الله ـ ﷺ ـ فى السفر »[3] رواه أحمد ومسلم وأبو داوود .

وعن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال : ـ « **كنا نغزو مع رسول الله ـ ﷺ ـ فى رمضان فمنا الصائم ومنا المفطر ، فلا يجد الصائم على المفطر (أى لا يعيب عليه) ولا المفطر على الصائم ، يرون أن من وجد قوة فصام فإن ذلك حسن ، ويرون أن من وجد ضعفاً فأفطر ، فإن ذلك حسن** »[4] رواه أحمد ومسلم .

---

(١) سورة الحج الآية ٧٨

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب التخيير فى الصوم والفطر فى السفر » ج ٢ ص ٧٩٠حديث رقم ١٠٧ / ١١٢١ فقد ورد الحديث عن حمزة بن عمرو الأسلمى .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « أجر المفطر فى الصوم إذا تولى العمل » ج ٢ ص ٧٨٩ فقد ورد الحديث برقم ١٠٢ / ١١٢٠ من رواية أبى سعيد الخدرى .

(٤) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « جواز الصوم والفطر فى شهر رمضان للمسافر .. الخ » ج ٢ ص ٧٨٧ فقد ورد الحديث رقم ٩٦ / ١١١٦ من رواية أبى سعيد الخدرى .

وقد اختلف الفقهاء فى أيهما أفضل ؟ ..

فرأى أبو حنيفة والشافعى ومالك : أن الصيام أفضل لمن قوى عليه ، والفطر أفضل لمن لا يقوى على الصيام :.

وقال أحمد : الفطر أفضل .

وقال عمر بن عبد العزيز : أفضلهما أيسرهما ، فمن يسهل عليه حينئذ ، ويشق عليه قضاؤه بعد ذلك ، فالصوم فى حقه أفضل .

وحقق الشوكانى فرأى أن من كان يشق عليه الصوم ، ويضره ، وكذلك من كان معرضاً عن قبول الرخصة فالفطر أفضل ، وكذلك من خاف على نفسه العُجْبَ أو الرياء إذا صام فى السفر فالفطر فى حقه أفضل .

وما كان من الصيام خالياً عن هذه الأمور فهو أفضل من الإفطار . وإذا نوى المسافر الصيام بالليل وشرع فيه جاز له الفطر أثناء النهار .

فعن جابر بن عبد الله — رضى الله عنه — : « أن رسول الله — ﷺ — خرج إلى مكة عام الفتح فصام حتى بلغ كراع الغميم (اسم واد أمام عسفان) وصام الناس معه . فقيل له : إن الناس قد شق عليهم الصيام ، وإن الناس ينظرون فيما فعلت . فدعا بقدح من ماء بعد العصر فشرب والناس ينظرون إليه . فأفطر بعضهم وصام بعضهم ، فبلغه أن ناساً صاموا . فقال : أولئك العصاة » . (لأنه عزم عليهم فأبوا وخالفوا الرخصة)[1] رواه مسلم والنسائى والترمذى وصححه .

وأما إذا نوى الصوم وهو مقيم ثم سافر أثناء النهار فقد ذهب جمهور العلماء إلى عدم جواز الفطر له . وأجازه أحمد واسحاق .

كما رواه الترمذى وحسّنه عن محمد بن كعب قال : أتيت فى رمضان أنس بن مالك وهو يريد سفراً ، وقد رُحّلت له راحلته ولبس ثياب السفر فدعا بطعام فأكل . فقلت له : سُنة ؟ فقال : سنة . ثم ركب .

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب جواز الصوم والفطر فى شهر رمضان للمسافر فى غير معصية .. الخ » ج ٢ ص ٧٨٥ فقد ورد الحديث برقم ٩٠ / ١١١٤ من رواية جابر بن عبد الله .

وعن عبيد بن جبير قال : ركبت مع أبى بصرة الغفارى فى سفينة من الفسطاط (مصر القديمة) فى رمضان ، فدفع ثم قرب غداءه . ثم قال : اقترب ، فقلت ألست بين البيوت . فقال أبو بصرة : أرغبت عن سنة رسول الله ﷺ (إستفهام إنكارى) ؟ رواه أحمد وأبو داوود ورجاله ثقات .

قال الشوكانى : والحديثان يدلان على أن للمسافر أن يفطر قبل خروجه من الموضع الذى أراد السفر منه .

وقال ابن العربى : وأما حديث أنس فصحيح يقتضى جواز الفطر مع أهبة السفر ، وقال : وهذا هو الحق .

والسفر المبيح للفطر : هو السفر الذى تقصر الصلاة بسببه ، ومدة الإقامة التى يجوز للمسافر أن يفطر فيها هى المدة التى يجوز له أن يقصر الصلاة فيها .

وقد روى أحمد وأبو داوود والبيهقى والطحاوى عن منصور الكلبى : أن دحية بن خليفة خرج من قرية من دمشق مرّة إلى قدر عقبة (أى أن المسافة التى قطعها من القرية التى خرج منها تعدل المسافة التى بين مصر القديمة وميت عقبة المجاورة لإمبابة وقدرت هذه المسافة بفرسخ) . من الفسطاط فى رمضان ، ثم إنه أفطر وأفطر معه ناس ، وكره آخرون أن يفطروا .

فلما رجع إلى قريته قال : والله لقد رأيت اليوم أمراً ما كنت أظن أن أراه : إن قوماً رغبوا عن هدى رسول الله ـــ ﷺ ـــ وأصحابه . يقول ذلك للذين صاموا ، ثم قال عند ذلك : اللهم اقبضنى إليك .

من يجب عليه الفطر والقضاء معاً :

اتفق الفقهاء : على أنه يجب الفطر على الحائض والنفساء ويحرم عليهما الصيام ، وإذا صاما لا يصح صومهما ويقع باطلاً وعليهما قضاء ما فاتهما .

روى البخارى ومسلم عن عائشة . قالت : كنا نحيض على عهد رسول الله ـــ ﷺ ـــ فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة »[١] .

الأيام المنهى عن صيامها

جاءت الأحاديث مصرحة بالنهى عن صيام أيام نبينها فيما يلى :

١ ـــ النهى عن صيام يومى العيدين :

أجمع العلماء على تحريم صوم يومى العيدين ، سواء أكان الصوم فرضاً أو تطوعاً .

لقول عمر رضى الله عنه : « إن رسول الله ـــ ﷺ ـــ نهى عن صيام هذين اليومين . أما يوم الفطر ، ففطركم من صومكم (أى الفطر من صيام رمضان) ، وأما يوم الأضحى ، فكلوا من نسككم (النسك : **الأضاحى**)[٢] **رواه أحمد والأربعة .**

٢ ـــ النهى صوم أيام التشريق :

لا يجوز صيام الأيام الثلاثة التى تلى عيد النحر :

لما رواه أبو هريرة أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ بعث عبد الله بن حذافة يطوف فى منى . « أن لا تصوموا هذه الأيام ، فإنها أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل »[٣] رواه أحمد بإسناد جيد .

وروى الطبرانى فى الأوسط عن ابن عباس ـــ رضى الله عنهما ـــ : « أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الحيض » باب لاتقضى الحائض الصلاة ج ١ ص ٦٧ فقد ورد أن امرأة قالت لعائشة : أتجزى احدانا صلاتها إذا طهرت . فقالت أحرورية أنت ؟ كنا نحيض مع النبى ـــ ﷺ ـــ فلا يأمرنا به أو قالت فلا تفعله » وانظر ص ٣٣٤ باب تترك الحائض الصوم والصلاة .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الحيض » باب « وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة » ج ١ ص ٢٦٤ حديث رقم ٦٩ / ٣٣٥ فقد ورد عن معاذة قالت : سألت عائشة فقلت : ما بال الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة ؟ فقالت : أحرورية أنت ؟ قلت : لست بحرورية : ولكنى أسأل . قالت : كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « صوم يوم الفطر » ج ١ ص ٣٤٠ فقد ورد عن أبى عبيد مولى ابن أزهر قال : شهدت العيد مع عمر بن الخطاب ـــ رضى الله عنه ـــ فقال : هذان يومان نهى رسول الله ـــ ﷺ ـــ عن صيامهما : يوم فطركم من صيامكم واليوم الآخر تأكلون فيه من نسككم .

وعن أبى سعيد ـــ رضى الله عنه ـــ قال : نهى النبى ـــ ﷺ ـــ عن صوم يوم الفطر والنحر .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « النهى عن صوم يوم الفطر ويوم الأضحى » ج ٢ ص ٧٩٩ حديثه ١٣٨ / ١١٣٧

(٣) انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٥١٣ وقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .

أرسل صائماً يصيح : أن لا تصوموا هذه الأيام فإنها أيام أكل وشرب والعال (جماع الرجل زوجته)[١] .

وأجاز أصحاب الشافعى صيام أيام التشريق فيما له سبب من نذر أو كفارة أو قضاء .

أما ما لا سبب له فلا يجوز فيها بلا خلاف .

وجعلوا هذا نظير الصلاة التى لها سبب فى الأوقات المنهى عن الصلاة فيها .

٣ ـ النهى عن صيام يوم الجمعة منفرداً :

يوم الجمعة عيد أسبوعى للمسلمين ، ولذلك نهى الشارع عن صيامه . وذهب الجمهور : إلى أن النهى للكراهة (وعن أبى حنيفة ومالك : لا يكره ، والأدلة المذكورة حجة عليهما) لا للتحريم إلا إذا صام يوما قبله أو يوما بعده أو وافق عادة له أو كان يوم عرفة أو عاشوراء ، فإنه حينئذ لا يكره صيامه .

فعن عبد الله بن عمرو : « أن رسول الله ﷺ دخل على جويرية بنت الحارث وهى صائمة فى يوم الجمعة فقال لها : أصمت أمس ؟ فقالت : لا . قال : أتريدين أن تصومى غداً ؟ قالت : لا . قال : فأفطرى إذن »[٢] . رواه أحمد والنسائى بسند جيد .

وعن عامر الاشعرى قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « إن يوم الجمعة عيدكم فلا تصوموه إلا أن تصوموا قبله أو بعده »[٣]

وقال على ـ رضى الله عنه ـ : من كان منكم متطوعاً فليصم يوم الخميس ولا يصم يوم الجمعة ، فإنه يوم طعام وشراب وذكر[٤] . رواه ابن أبى شيبة بسند حسن وفى الصحيحين من حديث جابر رضى الله عنه : أن النبى ﷺ قال : « لا تصوموا يوم الجمعة إلا وقبله يوم أو بعده يوم » .

---

(١) انظر مجمع الزوائد « كتاب الصيام » باب « نهى عن صيامه من أيام التشريق وغيرها » ج ٣ ص ٢٠٣ فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « صوم يوم الجمعة » ج ١ ص ٣٤٠ فقد ورد الحديث من رواية لأبى أيوب عن جويرية بنت الحارث .

(٣) انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٣٠٣ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة بلفظ « إن يوم الجمعة يوم عيد فلا تجعلوا يوم عيدكم يوم صيامكم إلا أن تصوموا قبله أو بعده » .

(٤) انظر مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٤٩٥ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة .

وفى لفظ لمسلم : ولا تختصوا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالى ، ولا تخصوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام ، إلا أن يكون فى صوم يصومه أحدكم »[١] .

٤ ـ النهى عن افراد يوم السبت بصيام :

عن بُسر السلمى عن أخته الصماء : أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « لا تصوموا يوم السبت إلا فيما افترض عليكم (ويشتمل القضاء والنذور والنفل ، وإذا وافق عادته أو كان يوم عرفة ونحو ذلك) وإن لم يجد أحدكم إلا لحاء عنب (قشر عنب) أو عود شجرة فليمضغه » . رواه أحمد وأصحاب السنن والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ، وحسنه الترمذى . وقال : ومعنى الكراهة فى هذا أن يختص الرجل بيوم السبت بصيام ، لأن اليهود يعظمون يوم السبت[٢] .

وقالت أم سلمة : « كان النبى ـ ﷺ ـ يصوم يوم السبت ويوم الأحد أكثر مما يصوم من الأيام ، ويقول : إنهما عيد المشركين ، فأنا أحب أن أخالفهم »[٣] رواه أحمد والبيهقى والحاكم وابن خزيمة وصححاه .

ومذهب الأحناف والشافعية والحنابلة كراهة الصوم يوم السبت منفرداً لهذه الأدلة .

وخالف فى ذلك مالك فجوّز صامه منفرداً بلا كراهة ، والحديث حجة عليه .

٥ ـ النهى عن صوم يوم الشك : ـ

قال عمار بن ياسر ـ رضى الله عنه ـ : « من صام اليوم الذى شك فيه فقد عصى أبا القاسم ﷺ » . رواه أصحاب السنن ، وقال الترمذى حديث حسن صحيح[٤] . والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم ، وبه يقول سفيان الثورى ومالك بن أنس وعبد الله بن المبارك والشافعى وأحمد واسحاق : كرهوا أن يصوم الرجل اليوم الذى يشك فيه .

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « صوم يوم الجمعة » ج ١ ص ٣٤٠ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة بلفظ « لا يصومن أحدكم يوم الجمعة إلا يوما قبله أو بعده » .
وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « كراهة صيام يوم الجمعة منفردا » فقد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة برقم ١٤٨ / ١١٤٣ ج ٢ ص ٨٠١ .

(٢) سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « ما جاء فى صيام يوم السبت » ج ١ ص ٥٥٠ حديث رقم ١٧٢٦ من رواية لعبد الله ابن بسر بلفظ « لا تصوموايوم السبت إلا فيما افترض عليك ، فإن لم يجد أحدكم إلا عود عنب أو لحاء شجرة فليمصه » وفى رواية أخرى عن عبد الله بن بسر عن أخته بلفظه .

(٣) انظر مسند الامام أحمد ج ٦ ص ٣٢٤ فقد ورد الحديث بلفظه عن أم سلمة .

(٤) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « ما جاء فى صيام يوم الشك » ج ١ ص ٥٢٧ حديث ١٦٤٢ فقد ورد الحديث عن عمار بلفظ « من صام هذا اليوم فقد عصى أبا القاسم » .

ورأى أكثرهم إن صامه وكان من شهر رمضان أن يقضى يوماً مكانه (وعند الحنفية : ان ظهر أنه من رمضان وصامه أجزأ عنه) ، فإن صامه لموافقته عادة له جاز له الصيام حينئذ بدون كراهة .

فعن أبى هريرة : أن النبى ـــ ﷺ ـــ قال : « لا تقدموا (تتقدموا) صوم رمضان بيوم أو يومين ، إلا أن يكون صوم يصومه رجل . فليصم ذلك اليوم »(١) رواه الجماعة وقال الترمذى حسن صحيح والعمل على هذا عند أهل العلم كرهوا أن يتعجل الرجل بصيام قبل دخول رمضان لمعنى رمضان .

وإن كان رجل يصوم صوماً فوافق صيامه ذلك فلا بأس به عندهم .

٦ ـــ النهى عن صوم الدهر :

يحرم صيام السنة كلها بما فيها الأيام التى نهى الشارع عن صيامها . لقول رسول الله ﷺ : « لا صام من صام الأبد »(٢) رواه أحمد والبخارى ومسلم .

فإن أفطر يومى العيد وأيام التشريق وصام بقية الأيام انتفت الكراهة إذا كان ممن يقوى على صيامها .

قال الترمذى : وقد كره قوم من أهل العلم صيام الدهر إذا لم يفطر يوم الفطر ويوم الأضحى وأيام التشريق .

فمن أفطر فى هذه الأيام فقد خرج من حد الكراهة ولا يكون قد صام الدهر كله هكذا روى عن مالك والشافعى وأحمد واسحاق .

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « لا يتقدمن رمضان بصوم يوم ولا يومين » ج ١ ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ فقد ورد من رواية لأبى هريرة بلفظ « لا يتقدمن أحدكم رمضان بصوم يوم أو يومين إلا أن يكون رجل كان يصوم صومه فليصم ذلك اليوم » .
وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب لا تقدموا رمضان بصوم يوم ولايومين ج ٢ ص ٧٦٢ حيث ٢١ / ١٠٨٢ من رواية لأبى هريرة بلفظ « لا تقدموا رمضان بصوم يوم ولا يومين إلا رجل كان يصوم صوماً فليصمه » .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « صوم الدهر » ج ١ ص ٣٣٨ فقد ورد حديث طويل لأبى العباس الشاعر أنه أخبر عطاء بسماعه من عبد الله بن عمرو ـــ رضى الله عنهما ـــ وقد جاء فى آخر ، قال عطاء : لا أدرى كيف ذكر صيام الأبد قال النبى ـــ ﷺ ـــ : « لا صام من صام الأبد مرتين » .
وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « النهى عن صوم الدهر .. الخ » ج ٢ ص ٨١٤ ـــ ٨١٥ من حديث طويل لعطاء جاء فى آخره « لا صام من صام الأبد . لا صام من صام الأبد . لا صام من صام الأبد » .

وقد أقر النبى ـ ﷺ ـ حمزة الأسلمى على سرد الصيام وقال له : « صم إن شئت وأفطر إن شئت »[١] .

والأفضل أن يصوم يوماً ويفطر يوماً ، فإن ذلك أحب الصيام إلى الله .

٧ ـ النهى عن صيام المرأة وزوجها حاضر إلا بإذنه :

نهى رسول الله ـ ﷺ ـ المرأة أن تصوم وزوجها حاضر حتى تستأذنه .

فعن أبى هريرة : أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « لا تصم المرأة يوماً واحداً وزوجها شاهد إلا بإذنه ،، إلا رمضان »[٢] . رواه أحمد والبخارى ومسلم .

وقد حمل العلماء هذا النهى على التحريم ، وأجازوا للزوج أن يفسد صيام زوجته لو صامت دون أن يأذن لها لافتياتها على حقه (لتعديها على حقه) ، وهذا فى غير رمضان كما جاء فى الحديث ، فإنه لا يحتاج إلى إذن من الزوج .

وكذلك لها أن تصوم من غير اذنه إذا كان غائباً ، فإذا قدم له أن يفسد صيامها . وجعلوا مرض الزوج وعجزه عن مباشرتها مثل غيبته عنها فى جواز صومها دون أن تستأذنه .

النهى عن وصال الصوم

(متابعة بعضه بعضاً دون فطر أو سحور) .

١ ـ عن أبى هريرة : أن النبى ـ ﷺ ـ قال : إياكم والوصال » « قالها ثلاث مرات » قالوا : فإنك تواصل يا رسول الله ؟ قال : إنكم لستم فى ذلك مثلى ، إنى أبيت يطعمنى ربى ويسقينى (أى يجعل الله له قوة الطاعم) فاكلفوا من الأعمال ما تطيقون »[٣] . رواه البخارى ومسلم .

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « الصوم فى السفر والإفطار » ج ١ ص ٣٣٣ فقد ورد الحديث عن حمزة بلفظ « إن شئت فصم وإن شئت فأفطر » .

انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « التخيير فى الصوم والفطر فى السفر » ج ٢ ص ٧٨٩ حديث رقم ١٠٤ / ١١٢١ فقد ورد الحديث بلفظه ردا على سؤال حمزة بن عمرو الأسلمى .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الزكاة » باب « ما أنفق العبد من مال مولاه » ج ٢ ص ٧١١ حديث رقم ٨٤ / ١٠٢٦ من رواية لأبى هريرة من حديث طويل بلفظ « لا تصم المرأة وبعلها شاهد إلا بإذنه ، ولا تأذن فى بيته وهو شاهد إلا بإذنه .. الخ » .

وانظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « فى المرأة تصوم بغير إذن زوجها » ج ١ ص ٥٦٠ حديث ١٧٦١ من رواية لأبى هريرة .. قال : « لا تصوم المرأة وزوجها شاهد يوما من غير شهر رمضان إلا بإذنه » .

(٣) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « التنكيل لمن أكثر الوصال » ج ١ ص ٣٣٦ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة بلفظ : « إياكم والوصال مرتين ، قيل : إنك تواصل . قال : إنى أبيت يطعمنى ربى ويسقين ، فاكلفوا من العمل ما تطيقون » .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « النهى عن الوصال فى الصوم » ج ٢ ص ٧٧٤ حديث ٥٨ / ١١٠٢ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة بلفظ « إياكم والوصال » قالوا : فإنك تواصل ، يا رسول الله ! قال : إنكم لستم فى ذلك مثلى إنى أبيت يطعمنى ربى ويسقينى ، فاكلفوا من الأعمال ما تطيقون » .

وقد حمل الفقهاء النهى على الكراهة .

وجوز أحمد واسحاق وابن المنذر الوصال إلى السحر ، ما لم تكن مشقة على الصائم لما رواه البخارى عن أبى سعيد الخدرى — رضى الله عنه — أن النبى — ﷺ — قال : « لا تواصلوا ، فأيكم أراد أن يواصل فليواصل حتى السحر »[١] .

صيام التطوع

رغب رسول الله ﷺ فى صيام هذه الأيام الآتية :

— صيام ستة أيام من شوال :

روى الجماعة إلا البخارى والنسائى عن أبى أيوب الأنصارى : أن النبى — ﷺ — قال : « من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر »[٢] (هذا لمن صام رمضان كل سنة) . قال العلماء : الحسنة بعشر أمثالها ، ورمضان بعشرة شهور ، والأيام الستة بشهرين .

وعند أحمد : أنها تؤدى متتابعة وغير متتابعة ، ولا فضل لأحدهما على الآخر .

وعند الحنفية والشافعية : الأفضل صومها متتابعة عقب العيد .

— صوم عشر ذى الحجة وتأكيد يوم عرفة لغير الحاج :

١ — عن أبى قتادة — رضى الله عنه — قال ، قال رسول الله — ﷺ — : « صوم يوم عرفة يكفر سنتين : ماضية ومستقبلة ، وصوم يوم عاشوراء يكفر سنة ماضية »[٣] رواه الجماعة إلا البخارى والترمذى .

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « الوصال إلى السحر » ج ١ ص ٣٣٦ فقد ورد هذا الحديث عن حديث طويل لأبى سعيد .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « استحباب صوم ستة أيام من شوال اتباعا لرمضان » ج ٢ ص ٨٢٢ حديث رقم ٢٠٤ / ١١٦٤ لأبى أيوب بلفظ « من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر » .

وانظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب صيام ستة أيام من شوال ج ١ ص ٥٤٧ حديث رقم ١٧١٦ من رواية لأبى أيوب مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

(٣) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « صيام يوم عرفة » وباب صيام يوم عاشوراء ج ١ ص ٥٥١ ، ص ٥٥٣ فقد ورد الحديث ١٧٣٠ عن أبى قتادة والحديث ١٧٣١ عن قتادة أيضا فى صوم يوم عرفة ، والحديث ١٧٣٨ عن أبى قتادة فى صيام يوم عاشوراء وكلها تؤدى المعنى .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس ج ٢ ص ٨١٩ فقد ورد الحديث ١٩٧ / ١١٦٢ وهو حديث طويل لأبى قتادة ، جاء فيه أن رسول الله — ﷺ — سئل عن صوم يوم عرفة : فقال : « يكفر السنة الماضية والباقية » وعن صوم يوم عاشوراء ، فقال : « يكفر السنة الماضية » .

٢ ـ عن حفصة قالت : « أربع لم يكن يدعهن رسول الله ـ ﷺ ـ : صيام عاشوراء ، والعشر (أى من ذى الحجة) ، وثلاثة أيام من كل شهر ، والركعتين قبل الغداة »(١) . رواه أحمد والنسائى .

٣ ـ عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق عيدنا أهل الاسلام وهى أيام أكل وشرب »(٢) رواه الخمسة إلا ابن ماجه ، وصححه الترمذى .

٤ ـ عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : « نهى رسول الله ـ ﷺ ـ عن صوم يوم عرفة بعرفات »(٣) ، رواه أحمد والنسائى وأبو داود وابن ماجه .

قال الترمذى : قد استحب أهل العلم صيام يوم عرفة إلا بعرفة(٤)

٥ ـ عن أم الفضل : أنهم شكّوا فى صوم رسول الله ـ ﷺ ـ يوم عرفة ، فأرسلت إليه بقدح لبن وهو واقف على بعيره فشربه » متفق عليه .

صيام المحرّم وتأكيد صوم عاشوراء ويوماً قبلها ويوماً بعدها :

١ ـ عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله ـ ﷺ ـ : « أى الصلاة أفضل بعد المكتوبة ؟ . قال : الصلاة فى جوفْ الليل . قيل : ثم أى الصيام أفضل بعد رمضان ؟ قال : شهر الله (الإضافة للتشريف) (الذى تدعونه) المحرم »(٥) رواه أحمد ومسلم وأبو داود .

٢ ـ عن معاوية بن أبى سفيان قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « إن هذا يوم عاشوراء ، ولم يكتب عليكم صيامه ، وأنا صائم فمن شاء صام ومن شاء فليفطر »(٦) متفق عليه .

٣ ـ عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : « كان يوم عاشوراء يوما تصومه قريش فى الجاهلية ،

---

(١) انظر سنن النسائى « كتاب الصيام » باب كيف يصوم ثلاثة أيام .. الخ ج ٤ ص ٢٢٠ فقد ورد الحديث بلفظه عن حفصة .

(٢) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم « كتاب الصوم » ج ١ ص ٤٣٤ فقد ورد الحديث بلفظه عن عقبة بن عامر .
وانظر سنن الترمذى « كتاب الصوم » باب كراهية صوم أيام التشريق ج ٢ ص ١٣٥ حديث رقم ٧٧٠ فقد ورد بلفظه .

(٣) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب صيام يوم عرفة ج ١ ص ٥٥١ حديث ١٧٣٢ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .

(٤) انظر « صحيح البخارى » كتاب الصوم « باب صوم يوم عرفة ج ١ ص ٣٤٠ فقد ورد هذا عن أم الفضل وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب استحباب الفطر للحاج يوم عرفة ج ٢ ص ٧٩١ حديث ١١٠ / ١١٢٣ مروى عن أم الفضل .

(٥) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « فضل صوم المحرم » ج ٢ ص ٨٢١ فقد ورد الحديث ٢٠٣ / ١١٦٣ من رواية لأبى هريرة مع اختلاف فى ترتيب جملة فقد جمع الأسئلة أولا ، ثم الاجابة بعد ذلك .

(٦) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « صيام يوم عاشوراء » ج ١ ص ٣٤١ وقد ورد الحديث بلفظه من رواية عن معاوية بن أبى سفيان .
وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « صوم يوم عاشوراء » ج ٢ ص ٧٩٥ حديث ١٢٦ / ١١٢٩ فقد ورد الحديث عن معاوية مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

وكان رسول الله – ﷺ – يصومه ، فلما قدم المدينة صامه وأمر الناس بصيامه . فلما فرض رمضان – ترك **يوم** عاشوراء : فمن شاء صامه ومن شاء تركه »(١) متفق عليه .

٤ – عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : قدم النبى – ﷺ – المدينة فرأى اليهود تصوم عاشوراء . فقال : ما هذا ؟ قالوا : هذا يوم صالح هذا يوم نجى الله فيه موسى وبنى اسرائيل من عدوهم فصامه موسى . فقال النبى – ﷺ – : « أنا أحق بموسى منكم » فصامه وأمر بصيامه »(٢) .

٥ – عن أبى موسى الأشعرى – رضى الله عنه – قال : كان يوم عاشوراء يوما تعظمه اليهود وتتخذه عيداً . فقال رسول الله – ﷺ – : « صوموه أنتم »(٣) متفق عليه . .

٦ – عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : لما صام رسول الله – ﷺ – يوم عاشوراء وأمر بصيامه ، قالوا : يا رسول الله : انه يوم تعظمه اليهود والنصارى .. فقال : « فإذا كان العام المقبل – إن شاء الله – صمنا اليوم التاسع »(٤) قال : فلم يأت العام المقبل حتى توفّى رسول الله – ﷺ – . رواه مسلم ، وأبو داود .

وفى لفظ قال رسول الله – ﷺ – : « لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع »(٥) يعنى مع يوم عاشوراء . رواه أحمد ومسلم .

وقد ذكر العلماء : أن صيام يوم عاشوراء على ثلاث مراتب :

المرتبة الأولى : صوم ثلاثة أيام : التاسع والعاشر والحادى عشر .

المرتبة الثانية : صوم التاسع والعاشر .

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب صيام يوم عاشوراء » ج ١ ص ٣٤١ فقد ورد الحديث من رواية عبد الله ابن مسلمة .. عن عائشة بلفظه .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « صيام يوم عاشوراء » ج ١ ص ٣٤١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عباس .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « صوم يوم عاشوراء » ج ٢ ص ٧٩٦ حديث ١٢٨ / ١١٣٠ من رواية لابن عباس مع اختلاف بعض ألفاظه .

(٣) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « صيام يوم عاشوراء » ج ١ ص ٣٤١ ز ٣٤٢ فقد ورد الحديث من رواية لأبى موسى مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب صوم يوم عاشوراء ج ٢ ص ٧٩٦ حديث ١٢٩ / ١١٣١ فقد ورد من رواية لأبى موسى بلفظه .

(٤) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب أى يوم يصام فى عاشوراء ج ٢ ص ٧٩٧ – ٧٩٨ حديث ١٣٣ / ١١٣٤ فقد ورد الحديث رواية لابن عباس بلفظه .

(٥) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب أى يوم يصام فى عاشوراء ج ٢ ص ٧٩٨ حديث ١٣٤ / ١١٣٤ فقد ورد الحديث بلفظه .

المرتبة الثالثة : صوم العاشر وحده .

التوسعة يوم عاشوراء :

عن جابر بن عبد الله — رضى الله عنه — : أن رسول الله — ﷺ — قال : « من وسّع على نفسه وأهله يوم عاشوراء وسع الله عليه سائر سنته »[1] رواه البيهقى فى الشعب وابن عبد البر .

صيام أكثر شعبان :

كان رسول الله — ﷺ — يصوم أكثر شعبان . قالت عائشة .. فما رأيت رسول الله — ﷺ — استكمل صيام شهر إلا شهر رمضان ، وما رأيته أكثر صياماً منه فى شعبان »[2] . رواه البخارى ومسلم .

وعن أسامة بن زيد — رضى الله عنهما — قال : قلت يا رسول الله : لم أرك تصوم من شهر من الشهور ما تصوم من شعبان ؟ قال : « ذلك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان ، وهو شهر ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين ، فأحب أن يرفع عملى وأنا صائم »[3] رواه أبو داود والنسائى وصححه ابن خزيمة .

وتخصيص صوم يوم النصف منه ظناً أن له فضيلة على غيره مما لم يأت به دليل صحيح .

صوم الأشهر الحرم :

الأشهر الحرم : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب ويستحب الإكثار من الصيام فيها .

---

(١) انظر شعب « الايمان للبيهقى » باب « تخصيص شهر المحرم بالذكر » ص ١٧٣ فقد ورد الحديث بلفظه .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصيام » باب « صوم شعبان » ج ١ ص ٣٣٧ فقد ورد الحديث عن عائشة فى حديث طويل . وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « صيام النبى — ﷺ — فى غير رمضان .. الخ » ج ٢ ص ٨١٠ فقد ورد الحديث ١٧٥ / ١١٥٦ من رواية لعائشة ولفظه « .. وما رأيت رسول الله — ﷺ — استكمل صيام شهر قط إلا رمضان ، وما رأيته فى شهر أكثر منه صياما فى شعبان » .

(٣) انظر سنن النسائى « كتاب الصيام » صوم النبى — ﷺ — ... الخ ج ٤ ص ٢٠١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأسامة بن زيد .

فعن رجل من باهلة : « أنه أتى النبى — ﷺ — فقال : يا رسول الله ، أنا الرجل الذى جئتك عام الأول . فقال : فما غيرّك وقد كنت حسن الهيئة ؟ قال : ما أكلت طعاماً إلا بليل منذ فارقتك . فقال رسول الله — ﷺ — : لم عذبت نفسك ؟ ثم قال : صم شهر الصبر ، ويوماً من كل شهر . قال : زدنى فإن بى قوة . قال صم يومين . قال : زدنى ، قال : صم من الحرم واترك ، صم من الحرم واترك . وقال بأصابعه الثلاثة ، فضمها ثم أرسلها (أى أشار إليه بصيام ثلاثة أيام وفطر ثلاثة أخرى)»[١] . رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة والبيهقى بسند جيد .

وصيام رجب ليس له فضل زائد على غيره من الشهور إلا أنه من الأشهر الحرم . ولم يرد فى السنة الصحيحة أن للصيام فيه فضيلة بخصوصه . وأن ما جاء فى ذلك مما لا ينتهض للاحتجاج به .

قال ابن حجر : « لم يرد فى فضله ولا فى صيامه ولا فى صيام شىء منه ولا فى قيام ليلة مخصوصة منه حديث صحيح يصلح للحجة .

صوم يومى الاثنين والخميس :

عن أبى هريرة أن النبى — ﷺ — كان أكثر ما يصوم الاثنين والخميس . فقيل له : (أى سئل عن الباعث على صوم يومى الاثنين والخميس) فقال : « إن الأعمال تعرض كل اثنين وخميس فيغفر الله لكل مسلم ، أو لكل مؤمن إلا المتهاجرين فيقول : أخرهما »[٢] . رواه أحمد بسند صحيح .

وفى صحيح مسلم أنه — ﷺ — سئل عن صوم يوم الاثنين ؟ فقال : « ذاك يوم ولدت فيه ، وأنزل على فيه »[٣] أى نزل على الوحى فيه .

صيام ثلاثة أيام من كل شهر :

قال أبو ذر الغفارى — رضى الله عنه — : « أمرنا رسول الله — ﷺ — : أن نصوم من الشهر

---

(١) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « صيام أشهر الحرم » ج ١ ص ٥٥٤ فقد ورد الحديث ١٧٤١ عن أبى مجيبة الباهلى ، عن أبيه أو عن عمه فى هذا مع اختلاف فى بعض ألفاظه وزيادة فى آخره « وصم أشهر الحرم » .
وانظر سنن أبى داود « كتاب الصوم » باب « فى صوم أشهر الحرم » ج ٢ ص ٨٠٩ ، ١١٠ حديث رقم ٢٤٢٨ من رواية للباهلى .

(٢) انظر مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٣٢٩ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر .. الخ » ج ٢ ص ٨١٩ فقد ورد الحديث ١٩٧ / ١١٦٢ حديث طويل لأبى قتادة الأنصارى جاء فيه السؤال عن صوم يوم الاثنين . وانظر الحديث ١٩٨ / ١١٦٢ لأبى قتادة — أيضا — .

ثلاثة أيام ، البيض : ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة وقال : هى كصوم الدهر »[١] رواه النسائى وصححه ابن حبان .

وجاء عنه ــ ﷺ ــ انه كان يصوم من الشهر : السبت والأحد والاثنين . ومن الشهر الآخر : الثلاثاء والأربعاء والخميس ، وأنه كان يصوم من غرة كل هلال ثلاثة أيام ، وأنه كان يصوم الخميس من أول الشهر والاثنين الذى يليه ، والاثنين الذى يليه .

صيام يوم وفطر يوم :

عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن عبد الله بن عمرو قال : قال لى رسول الله ــ ﷺ ــ : « لقد أخبرت أنك تقوم الليل وتصوم النهار . قال : قلت : يا رسول الله ، نعم . قال : فصم وأفطر ، وصلِّ ونم ، فإن لجسدك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً ، وإن لزورك (ضيفك) عليك حقاً ، وإن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام . فقال : فشدّدت فشدّد علىّ . قال : فقلت يا رسول الله : إنى أجد قوة . قال : فصم من كل جمعة ثلاثة أيام . قال فشددت فشدد علىّ . قال فقلت : يا رسول الله إنى أجد قوة . قال : صم صوم نبى الله داود ولا تزد عليه . قلت : يا رسول الله : وما كان صيام داود عليه الصلاة والسلام ؟ قال : كان يصوم يوماً ويفطر يوماً »[٢] رواه أحمد وغيره .

وروى ــ أيضا ــ عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : « أحبَّ الصيام إلى الله صيام داود ، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود . كان ينام نصفه ويقوم ثلثة وينام سدسه ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً »[٣] .

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « صيام أيام البيض ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة » ج ١ ص ٣٣٩ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة بلفظ « أوصانى خليلى ــ ﷺ ــ بثلاث صيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وركعتى الضحى ، وأن أوتر قبل أن أنام » .

وانظر صحيح مسلم « كتاب صلاة المسافرين وقصرها » باب استحباب صلاة الضحى .. الخ » ج ١ ص ٤٩٩ فقد ورد الحديث ٨٥ / ٧٢١ لأبى هريرة والحديث ٨٦ / ٧٢٢ لأبى الدرداء ذكر فيهما صيام ثلاثة أيام من كل شهر .

وانظر سنن النسائى « كتاب الصوم ــ ذكر الاختلاف على موسى بن طلحة فى الخبر .. الخ » ج ٤ ص ٢٢٢ فقد وردت عدة روايات لأبى ذر فى هذا .

(٢) انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ١٩٨ فقد ورد الحديث عن عبد الله بن عمرو .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب النهى عن صوم الدهر لمن تضرر به .. الخ ج ٢ ص ٨١٠ فقد ورد الحديث ١٨٩ / ١١٥٩ من رواية لعبد الله بن عمرو بلفظ قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : « إن أحب الصيام إلى الله صيام داود ، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود ــ عليه السلام ــ كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وكان يصوم يوما ويفطر يوماً » .

جواز فطر الصائم المتطوع

١ ـــ عن أم هانىء ـــ رضى الله عنها ـــ « أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ دخل عليها يوم الفتح ، فأتى بشراب فشرب ثم ناولنى . فقلت : إنى صائمة ، فقال : إن المتطوع أمير على نفسه ، فإن شئت فصومى وإن شئت فأفطرى »[١] رواه أحمد والدار قطنى والبيهقى .

ورواه الحاكم وقال صحيح الإسناد ولفظه : « الصائم المتطوع أمير نفسه إن شاء صام وإن شاء أفطر »[٢] .

وعن أبى جحيفة قال : « آخى النبى ـــ ﷺ ـــ بين سلمان وأبى الدرداء ، فزار سلمان أبا الدرداء ، فرأى أم الدرداء متبذلة ، فقال لها : ما شأنك ؟ قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة فى الدنيا .

فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً فقال : كلْ قال فإنى صائم . قال : ما أنا بآكل حتى تأكل . قال فأكل . فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم . قال : نم . فنام ، ثم ذهب يقوم فقال : نم . فلما كان من آخر الليل قال سلمان : قم الآن ، فصليا فقال له سلمان : إن لربك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ، ولأهلك عليك حقاً ، فأعط كل ذى حق حقه ، فأتى النبى ـــ ﷺ ـــ فذكر ذلك له ، فقال النبى ـــ ﷺ ـــ : « صدق سلمان »[٣] رواه البخارى والترمذى .

وعن أبى سعيد الخدرى ـــ رضى الله عنه ـــ قال : صنعت لرسول الله ـــ ﷺ ـــ طعاماً ، فأتانى هو وأصحابه ، فلما وضع الطعام قال رجل من القوم : إنى صائم ، فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ : « دعاكم أخوكم وتكلف لكم . ثم قال : أفطر وصم يوماً مكانه إن شئت »[٤] رواه البيهقى بإسناد حسن كما قال الحافظ .

---

(١) انظر مسند الامام احمد ج ٦ ص ٣٤٣ فقد ورد الحديث عن أم هانىء .

(٢) انظر مسند الامام احمد ج ٦ ص ٣٤١ فقد ورد الحديث عن أم هانىء وبزيادة « ان شاء صام وإن شاء أفطر » .

(٣) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب من أقسم على أخيه ليفطر فى التطوع .. الخ ج ١ ص ٣٣٦ ـــ ٣٣٧ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أبى حجفة .

(٤) انظر سنن البيهقى « كتاب الصيام » باب التخيير فى القضاء إن كان صومه تطوعاً ج ٤ ص ٢٧٩ .

وقد ذهب أكثر أهل العلم إلى جواز الفطر لمن صام متطوعاً ، واستحبوا له قضاء ذلك اليوم استدلالاً بهذه الأحاديث الصحيحة الصريحة .

آداب الصيام

يستحب للصائم أن يراعى فى صيامه الآداب الآتية :

١ ــ السحور :

وقد أجمعت الأمة على استحبابه وأنه لا إثم على من تركه فعن أنس ــ رضى الله عنه ــ : أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : « تسحروا فإن فى السحور بركة »[١] (السحور بالفتح المأكول ، وبالضم المصدر والفعل) رواه البخارى ومسلم .

وعن المقدام بن معد يكرب عن النبى ــ ﷺ ــ قال : عليكم بهذا السُّحور ، فإنه هو الغذاء المبارك »[٢] رواه النسائى بسند جيد .

وسبب البركة : أنه يقوى الصائم وينشطه ويهوّن عليه الصيام .

بم يتحقق :

ويتحقق السحور بكثير الطعام وقليله ولو بجرعة ماء . فعن أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ : أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : « السحور بركة فلا تدعوه ، ولو أن يجرع أحدكم جَرعة ماء ، فإن الله وملائكته يصلون على المتسحرين »[٣] رواه أحمد .

وقته :

وقت السحور من منتصف الليل إلى طلوع الفجر ، والمستحب تأخيره . فعن زيد بن ثابت ــ رضى الله عنه ــ قال : « تسحرنا مع رسول الله ــ ﷺ ــ ثم قمنا إلى الصلاة . قلت : كم كان قدر ما بينهما ؟ قال : خمسين آية »[٤] . رواه البخارى ومسلم .

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « بركة السحور » ج ١ ص ٣٢٩ فقد ورد الحديث من رواية لأنس بن مالك . وانظر صحيح مسلم « كتاب الصوم » باب « فضل السحور » الخ ج ٢ ص ٧٧٠ حديث رقم ٤٥ / ١٠٩٥ فقد ورد الحديث من رواية لأنس بن مالك .

(٢) انظر سنن النسائى « كتاب الصيام » باب « تسمية السحور غداء » ج ٤ ص ١٤٦ فقد ورد الحديث بلفظه عن المقدام بن معد يكرب .

(٣) انظر مسند الإمام احمد ج ٣ ص ١٢ ، ٤٤ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى سعيد الخدرى .

(٤) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « بركة السحور » ج ١ ص ٣٢٩ فقد ورد الحديث من رواية لزيد بن ثابت . وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « فضل السحور .. الخ » ج ٢ ص ٧٧١ حديث رقم ٤٧ / ١٠٩٧ فقد ورد الحديث من رواية لزيد بن ثابت .

وعن عمرو بن ميمون قال : « كان أصحاب محمد ـ ﷺ ـ أعجل الناس إفطاراً وأبطأهم سحوراً »[١] رواه البيهقى بسند صحيح .

وعن أبى ذر الغفارى ـ رضى الله عنه ـ مرفوعاً : « ما تزال أمتى بخير ما عجلوا الفطر وأخروا السحور »[٢] وفى سنده سليمان بن أبى عثمان ، وهو مجهول .

الشك فى طلوع الفجر :

ولو شك فى طلوع الفجر ، فله أن يأكل ويشرب حتى يستيقن طلوعه ولا يعمل بالشك ، فإن الله ـ عز وجل ـ جعل نهاية الأكل والشرب التبين نفسه لا الشك . فقال : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر »[٣] .

وقال رجل لابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : « إنى أتسحر ، فإذا شككت أمسكت ، فقال ابن عباس : كل ما شككت حتى لا تشك » .

وقال أبو داود : قال أبو عبد الله (أحمد بن حنبل) : « إذا شك فى الفجر يأكل حتى يستيقن طلوعه » .

وهذا مذهب ابن عباس وعطاء والأوزاعى وأحمد .

وقال النووى : وقد اتفق أصحاب الشافعى على جواز الأكل للشاكّ فى طلوع الفجر .

٢ ـ تعجيل الفطر :

ويستحب للصائم أن يعجل الفطر متى تحقق غروب الشمس .

فعن سهل بن سعد : أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر »[٤] رواه البخارى ومسلم .

وينبغى أن يكون الفطر على رُطبات وتراً ، فإن لم يجد فعلى الماء .

---

(١) انظر سنن البيهقى « كتاب الصيام » باب ما يستحب من تعجيل الفطور وتأخير السحور ج ٤ ص ٢٣٨ فقد ورد الحديث من رواية لعمرو بن ميمون .

(٢) انظر سنن البيهقى « كتاب الصيام » باب « تعجيل الفطور وتأخير السحور فقد وردت أحاديث متعددة فى هذا الشأن عن سهيل بن سعد ، وأبو هريرة عن أبى عطية .

(٣) سورة البقرة الآية ١٨٧

(٤) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب تعجيل الإفطار » ج ١ ص ٣٣٥ فقد ورد الحديث بلفظه وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « فضل السحر .. الخ » ج ٢ ص ٧٧١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية سهل بن سعد .

فعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : « كان رسول الله ـ ﷺ ـ يفطر على رطبات قبل أن يصلى ، فإن لم تكن فعلى تمرات ، فإن لم تكن حَسَا حسوات (أى شرب) من ماء »[1] رواه أبو داود والحاكم وصححه ، والترمذى وحسنه .

وعن سلمان بن عامر : أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « إذا كان أحدكم صائماً فليفطر على التمر ، فإن لم يجد التمر فعلى الماء فإن الماء طهُور »[2] رواه أحمد والترمذى وقال حسن صحيح .

وفى الحديث دليل على أنه يستحب الفطر قبل صلاة المغرب بهذه الكيفية ، فإذا صلى ، تناول حاجته من الطعام بعد ذلك ، إلا إذا كان الطعام موجوداً فإنه يبدأ به . قال أنس : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إذا قدِّم العَشاء فابدؤا به قبل أن تصلوا صلاة المغرب ، ولا تعجلوا عن عشائكم »[3] رواه الشيخان .

٣ ـ الدعاء عند الصيام وأثناء الصيام :

روى ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو بن العاص : أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « إن للصائم عند فطره لدعوة ما ترد » وقال عبد الله إذا أفطر يقول : « اللهم إنى أسألك برحمتك التى وسعت كل شىء أن تغفر لى »[4]

وروى مرسلاً : أنه ﷺ كان يقول : « اللهم لك صمت وعلى رزقك أفطرت »[5]

وثبت أنه ﷺ كان يقول : « ذهب الظمأ وابتلت العروق ، وثبت الأجر ـ إن شاء الله تعالى ـ »[6] .

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٦٤ فقد ورد الحديث بلفظه عن أنس . وانظر سنن البيهقى « كتاب الصيام » ج ٤ ص ٢٣٩

(٢) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « ما جاء على ما يستحب الفطر » ج ١ ص ٥٤٢ حديث ١٦٩٩ فقد ورد عن سلمان بن عامر ، قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : إذا أفطر أحدكم ، فليفطر على تمر ، فإن لم يجد فليفطر على الماء فإنه طهور » .

(٣) انظر صحيح البخارى « كتاب الأذان » باب « إذا حضر الطعام وأقيمت الصلاة » الخ ج ١ ص ١٢٣ فقد ورد الحديث بلفظه عن أنس بن مالك .

وانظر صحيح مسلم « كتاب المساجد ومواضع الصلاة » باب « كراهة الصلاة بحضره الطعام .. الخ » ج ١ ص ٣٩٢ حديث رقم ٦٤ (....) من رواية ابن شهاب عن أنس بن مالك بلفظ « إذا قرب العشاء وحضرت الصلاة .. » الخ ..

(٤) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « فى الصائم لا ترد دعوته » ج ١ ص ٥٥٧ حديث ١٧٥٣ من رواية لعبد الله بن عمرو بن العاص فقد ورد الحديث بلفظه .

(٥) سنن البيهقى « كتاب الصيام » باب ما يقول إذا أفطر ج ٤ ص ٢٣٩ فقد ورد الحديث من رواية لابن عمر

(٦) انظر سنن البيهقى « كتاب الصيام » باب « ما يقول إذا أفطر » فقد ورد الحديث من رواية عن معاذ بن زهرة . ج ٤ ص ٢٣٩

وروى الترمذى بسند حسن أنه ـ ﷺ ـ قال : « ثلاثة لا ترد دعوتهم : الصائم حتى يفطر (يستفاد منه استحباب الدعاء طول مدة الصيام) « الإمام العادل والمظلوم »

٤ ـ الكف عما يتنافى مع الصيام :

الصيام عبادة من أفضل القربات ، شرعه الله ـ تعالى ـ ليهذب النفس ويعودها الخير . فينبغى أن يتحفظ الصائم من الأعمال التى تخدش صومه حتى ينتفع بالصيام وتحصل له التقوى التى ذكرها الله فى قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾(٢) .

وليس الصيام مجرد إمساك عن الأكل والشرب ، وإنما هو إمساك عن الأكل والشرب وسائر ما نهى الله عنه .

فعن أبى هريرة أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « ليس الصيام ، من الأكل والشرب ، وإنما الصيام من اللغو والرفث ، فإن سابّك أحد ، أو جهل عليك ، فقل إنى صائم . إنى صائم »(٣) رواه ابن خزيمه وابن حبان والحاكم ، وقال : صحيح على شرط مسلم .

وروى الجماعة إلا مسلماً عن أبى هريرة : أن النبى ـ ﷺ ـ قال : من لم يدع (يترك) قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه »(٤) (أى ليس لله إرادة فى قبول صيامه : أى إن الله لا يقبل صيامه) .

وعنه أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « رُب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع ، ورُب قائم ليس له من قيامه إلا السهر »(٥) رواه النسائى وابن ماجة والحاكم وقال : صحيح على شرط البخارى .

---

(١) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « فى الصائم لا ترد دعوته » ج ١ ص ٥٥٧ فقد ورد الحديث ١٧٥٢ عن أبى هريرة بلفظ « ثلاثة لا ترد دعوتهم : الإمام العادل ، والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة ، وتفتح لها أبواب السماء ، ويقول : بعزتى لأنصرنك ولو بعد حين » .

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٣ .

(٣) انظر الترغيب والترهيب « كتاب الصوم » باب « ترهيب الصائم من الغيبة والفحش والكذب .. الخ » ج ٢ ص ١٤٧ ـ ١٤٨ ، فقد ورد الحديث رقم ٤ عن أبى هريرة بلفظه .

وقال : رواه ابن خزيمة ، وابن حبان فى صحيحهما ، والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم .

(٤) انظر صحيح البخارى « كتاب اللباس » باب قول الله تعالى : ﴿ **واجتنبوا قول الزور** ﴾ ج ٤ ص ٥٩ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة بلفظ قال : « من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه » .

(٥) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « ما جاء فى الغيبة والرفث للصائم » ج ١ ص ٥٣٩ فقد ورد الحديث ١٦٩٠ عن أبى هريرة بلفظه .

٥ ــ السواك :

ويستحب للصائم أن يتسوّك أثناء الصوم ، ولا فرق بين أول النهار وآخره .

قال الترمذى : « ولم ير الشافعى بالسواك أول النهار وآخره بأساً » . وكان النبى ــ ﷺ ــ يتسوك وهو صائم .(١)

٦ ــ الجود ومدارسة القرآن :

الجود ومدارسة القرآن مستحبان فى كل وقت ، إلا أنهما آكد فى رمضان روى البخارى عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ قال : « كان رسول الله ــ ﷺ ــ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة »(٢) (أى فى الإسراع والعموم) .

٧ ــ الاجتهاد فى العبادة فى العشر الأواخر من رمضان :

روى البخارى ومسلم عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ أن النبى ــ ﷺ ــ « كان إذا دخل العشر الأواخر أحيا الليل وأيقظ أهله وشد المئزر »(٣) .

وروى الترمذى وصححه عن على ــ رضى الله عنه ــ قال : « كان رسول الله ــ ﷺ ــ يوقظ أهله فى العشر الأواخر ، ويرفع المئزر »(٤)

---

(١) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « ما جاء فى السواك والكحل للصائم » ج ١ ص ٥٣٦ حديث رقم ١٦٧٧ ، فقد ورد عن عائشة قالت : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : « من خير خصال الصائم السواك » قال وفى الزوائد فى إسناده مجالد وهو ضعيف ، لكن له شاهد من حديث عامر بن ربيعة . رواه البخارى وأبو داود والترمذى .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب بدء الخلق » باب « صفة النبى » ج ٢ ص ٢٧٢ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عباس .

(٣) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « العمل فى العشر الأواخر » ج ١ ص ٣٤٤ فقد ورد الحديث عن عائشة وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « الاجتهاد فى العشر الأواخر من شهر رمضان » ج ٢ ص ٨٣٢ فقد ورد الحديث رقم ٧ / ١١٧٤ فقد ورد عن عائشة « كان إذا دخل العشر أحيا الليل » الخ وورد الحديث رقم ٨ / ١١٧٥ عن عائشة قالت : « كان رسول الله ــ ﷺ ــ يجتهد فى العشر الأواخر ما لا يجتهد فى غيره » .

(٤) انظر سنن الترمذى « كتاب الصوم » باب « ما جاء فى ليلة القدر » حديث ٧٩٢ فقد ورد الحديث عن عائشة ولم يرد فيه « ويرفع المئزر » .

مباحات الصيام

يباح فى الصيام ما يأتى :

١ — نزول الماء والانغماس فيه :

لما رواه أبو بكر بن عبد الرحمن ، عن بعض أصحاب النبى — ﷺ — : أنه حدث فقال : « ولقد رأيت رسول الله — ﷺ — يصب على رأسه الماء وهو صائم ، من العطش أو من الحر »[1] رواه أحمد ومالك وأبو داود بإسناد صحيح .

وفى الصحيحين عن عائشة — رضى الله عنها — أن النبى — ﷺ — : « كان يصبح جنباً وهو صائم ثم يغتسل »[2] فإن دخل الماء فى جوف الصائم عن غير قصد **فصومه صحيح** .

٢ — الاكتحال والقطرة ونحوهما مما يدخل العين سواء أوجد طعمه فى حلقه أم لم يجده ، لأن العين ليست بمنفذ إلى الجوف .

وعن أنس : « أنه كان يكتحل وهو صائم »[3] .

وإلى هذا ذهبت الشافعية ، وحكاه ابن المنذر عن عطاء والحسن والنخعى والأوزاعى وأبى حنيفة وأبى ثور .

وروى عن ابن عمر وأنس وابن أبى أوْفى عن الصحابة . وهو مذهب داود . ولم يصح فى هذا الباب شىء عن النبى — ﷺ — كما قال الترمذى .

٣ — القبلة : لمن قدر على ضبط نفسه :

فقد ثبت عن عائشة — رضى الله عنها — قالت : « كان النبى — ﷺ — يقبل وهو صائم ، ويباشر وهو صائم ، ولكنه أملككم لإ رْبه »[4] .

---

(١) انظر سنن البيهقى « كتاب الصيام » باب « الصائم يصب على رأسه الماء » ج ٤ ص ٢٦٣ من رواية لأبى بكر بن عبد الرحمن عن جدته .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « الصائم يصبح جنباً » ج ١ ص ٣٢٩ فقد أخبرت عائشة وأم سلمة « أن رسول الله — ﷺ — كان يدركه الفجر وهو جنب من أهله ثم يغتسل ويصوم » .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب » ج ٢ ص ٧٧٩ — ٨٧٠ فقد ورد الحديث رقم ٧٥ / ١١٠٩ فقد أخبرت عائشة وأم سلمة « أن رسول الله — ﷺ — كان النبى — ﷺ — يصبح جنباً من غير حلم ثم يصوم » وانظر الأحاديث بعده .

(٣) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « ما جاء فى السواك والكحل للصائم » ج ١ ص ٥٣٦ فقد ورد الحديث ١٦٧٨ أن عائشة قالت : اكتحل رسول الله — ﷺ — وهو صائم .

(٤) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « بيان أن القبلة فى الصوم ليست محرمة .. الخ » ج ٢ ص ٧٧٧ حديث رقم ٦٥ / ١١٠٦ عن رواية عائشة وقد ورد الحديث بلفظه وانظر الحديث قبله والحديث بعده .

وعن عمر ــ رضى الله عنه ــ أنه قال : « هششت (نشطت) يوماً ، فقبلت وانا صائم ، فأتيت النبى ــ ﷺ ــ فقلت : صنعت اليوم أمراً عظيماً ، قبّلت وأنا صائم ، فقال رسول الله ــ ﷺ ــ : أرأيت لو تمضمضت بماء وأنت صائم ؟ قلت : لا بأس بذلك ، قال : فقيم (أى فقيم السواك)

قال ابن المنذر : رخص فى القبلة عمر وابن عباس وأبو هريرة وعائشة وعطاء والشعبى والحسن وأحمد وإسحاق .

ومذهب الأحناف والشافعية : أنها تكره على من حركت شهوته ولا تكره لغيره ، لكن الأولى تركها ، ولا فرق بين الشيخ والشاب فى ذلك ، والاعتبار بتحريك الشهوة وخوف الإنزال . فإن حركت شهوة شاب أو شيخ قوى كرهت . وإن لم تحركها لشاب أو شيخ ضعيف ، لم تكره والأولى تركها .

وسواء قبّل الخد أو الفم أو غيرهما . وهكذا المباشرة باليد والمعانقة لهما حكم القبلة .

٤ ــ الحقنة : مطلقاً سواء كانت للتغذية أو لغيرها ، وسواء أكانت فى العروق ، أم تحت الجلد فإنها وإن وصلت إلى الجوف فإنها تصل إليه من غير المنفذ المعتاد .

٥ ــ الحجامة (أخذ الدم من الرأس) : فقد احتجم النبى ــ ﷺ ــ وهو صائم (رواه البخارى) إلا إذا كانت تضعف الصائم بأنها تكره له ، قال ثابت البنانى لأنس : أكنتم تكرهون الحجامة للصائم على عهد رسول الله ــ ﷺ ــ : قال : « لا . إلا من أجل الضعف »[1] رواه البخارى وغيره .

٦ ــ المضمضة والاستنشاق : إلا أنه تكره المبالغة فيهما . فعن لقيط بن صبرة أن النبى ــ ﷺ ــ قال : « فإذا استنشقت فأبلغ ، إلا أن تكون صائماً »[2] رواه أصحاب السنن وقال الترمذى حسن صحيح .

وقد كره أهل العلم السُّعوط (وضع الدواء فى الأنف) للصائم ورأوا أن ذلك يفطر ، وفى الحديث ما يقوّى قولهم .

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « الحجامة والقىء للصائم » ج ١ ص ٣٣٢ فقد ورد الحديث عن ابن عباس وآخر عن أنس .

(٢) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الطهارة وسننها » باب المبالغة فى الاستنشاق والاستنثار ج ١ ص ١٤٢ فقد ورد الحديث رقم ٤٠٧ عن لغيط بن صبرة عن أبيه بلفظ .. قال : قلت : يا رسول الله : أخبرى عن الوضوء ، قال : « أسبغ الوضوء ، وبالغ فى الاستنشاق إلا أن تكون صائماً » .

قال ابن قدامة : وإن تمضمض أو استنشق فى الطهارة فسبق الماء إلى حلقه من غير قصد ولا إسراف فلا شيء عليه ، وبه قال الأوزاعى واسحاق والشافعى فى أحد قوليه ورُوى ذلك عن ابن عباس ، وقال مالك وأبو حنيفة : « يفطر لأنه أوصل الماء إلى جوفه ذاكراً لصومه » فأفطر ، كما لو تعمد شربه .

قال ابن قدامة مرجحا الرأى الأول ، ولنا أنه إذا وصل الماء إلى حلقه من غير اسراف ولاقصد ، فأشبه مالوطارت ذبابة الى حلقه ، وبهذا فارق المتعمد . (قال ابن عباس : دخول الذباب فى حلق الصائم لا يفطر) .

٧ — وكذا يباح له ما لا يمكن الاحتراز عنه ، كبلع الريق وغبار الطريق وغربلة الدقيق والنخامة ونحو ذلك .

وقال ابن عباس : لا بأس أن يذوق الطعام الخَلّ والشىء يريد شراءه .

وكان الحسن يمضغ الجوز لابن ابنه وهو صائم ، ورخص فيه ابراهيم .

وأما مضغ العلك (اللبان) فإنه مكروه ، إذا كان لا يتفتت منه أجزاء وممن قال بكراهته : الشعبى والنخعى ، والأحناف والشافعى والحنابلة .

ورخصت عائشة وعطاء فى مضغه ، لأنه لا يصل إلى جوفه فهو كالحصاة يضعها فى جوفه . هذا إذا لم تتحلل منه أجزاء ، فإن تحللت منه أجزاء ونزلت إلى الجوف ، أفطر .

قال ابن تيمية : « وشم الروائح الطيبة لا بأس به للصائم ، وقال : اما الكحل والحقنة وما يقطر فى إحليله ، ومداواة المأمومة والجائفة ، فهذا مما تنازع فيه أهل العلم ، فمنهم من لم يفطر بشىء من ذلك ، ومنهم من فطّر بالجميع لا بالكحل ، ومنهم من فطر بالجميع لا بالتقطير ، ومنهم من لا يفطر بالكحل ولا بالتقطير ، ويفطر بما سوى ذلك .

ثم قال مرجحاً الرأى الأول : والأظهر أنه لا يفطر بشىء من ذلك ، فإن الصيام من دين الإسلام ، الذى يحتاج إلى معرفته الخاص والعام .

فلو كانت هذه الأمور مما حرمها الله ورسوله فى الصيام ويفسد الصوم بها ، لكان هذا مما يجب على الرسول بيانه ، ولو ذكر ذلك لعلمه الصحابة وبلغوه الأمة كما بلغوا سائر شرعه . فلما لم ينقل

أحد من أهل العلم عن النبى — ﷺ — فى ذلك ، لا حديثاً صحيحاً ولا ضعيفاً ولا مسنداًولا مرسلا عُلم أنه لم ينكر شيئا من ذلك .

قال : فإذا كانت الأحكام التى تعمُّ بها البلوى ، لابد أن يبينها الرسول — ﷺ — بياناً عاماً ، ولابد أن تنقل الأمة ذلك . فمعلوم أن الكحل ونحوه مما تعمُّ به البلوى كما تعمّ بالدهن والإغتسال والبخور والطيب .

فلو كان هذا مما يفطر لبينه النبى — ﷺ — كما بيّن الإفطار بغيره ، فلما لم يبين ذلك ،عُلم انه من جنس الطيب والبخور والدهن والبخور قد يتصاعد إلى الأنف ويدخل فى الدماغ ، وينعقد أجساماً .

والدهن يشربه البدن ويدخل داخله ويتقوى به الإنسان ، وكذلك يتقوى بالطيب قوة جيدة .

فلما لم ينه الصائم عن ذلك دل على جواز تطييبه وتبخره وادهانه ، وكذلك اكتحاله .

وقد كان المسلمون فى عهده — يجرح أحدهم إما فى الجهاد وإما فى غيره ، مأمومة وجائفة ، فلو كان هذا يفطر ، لبين لهم ذلك فلما لم ينه الصائم عن ذلك ، علم أنه لم يجعله مفطرًا . ثم قال : فإن الكحل لا يغذى البته ، ولا يدخل أحد كحلاً إلى جوفه ، لا من أنفه ولا من فمه .

وكذلك الحقنة يقصد الحقنة الشراجية ،فإنها لا تفطر الصائم-وإن كان بعض المذاهب تعدها من المفطرات-لأنها لاتغذى بل تستفرغ ما فى البدن ، كما لو شم شيئا من المسهلات ، أو فزع فزعا أوجب استطلاق جوفه ، وهى لاتصل الى المعدة والدواء الذى يصل الى المعدة ، فى مداواة الجائفة (أى : الجراحة التى تصل إلى الجوف) ، والمأمومة (أي : الشجة فى الرأس تصل الى أم الدماغ ومداواتهم ليست تغذية لايشبه مايصل إليها من غذائه .

والله سبحانه قال : ﴿ **كتب عليكم الصيام كما كتب علىَ الذين من قبلكم** ﴾[1] .

وقال ﷺ : « الصوم جُنة »[2] ، وقال : « **إن الشيطان يجرى من ابن آدم** مجرى الدم ، فضيقوا مجاريه بالجوع والصوم »[3] .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٣

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « فضل الصيام » ج ٢ ص ٨٠٦ حديث رقم ١٦٢ / ١١٥١ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة بلفظ « الصيام جنة » .

(٣) انظر صحيح البخارى ج ٩ ص ٨٧ « كتاب الأحكام .. الخ » فقد ورد الحديث ولم يرد فيه « فضيقوا مجاريه بالجوع والصوم » وكذلك فى مسند أحمد وغيره من غير هذه الزيادة .

وانظر تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٥٥٨ فقد ورد الحديث بلفظه .

فالصائم نهى عن الأكل والشرب ، لأن ذلك سبب التقوى ، فترك الأكل والشرب الذى يولد الدم الكثير الذى يجرى فيه الشيطان ، إنما يتولد من الغذاء ، لا عن حقنة ، ولا كحل ولا ما يقطر فى الذكر ، ولا ما يداوى به المأمومة والجائفة » . انتهى .

٨ ــ ويباح للصائم أن يأكل ويشرب ويجامع حتى يطلع الفجر ، فإذا طلع الفجر وفى فمه طعام ، وجب عليه أن يلفظه أو كان مجامعاً وجب عليه أن ينزع .

فإن لفظ أو نزع صح صومه ، وإن ابتلع ما فى فمه من طعام مختاراً ، أو استدام الجماع أفطر .

روى البخارى ومسلم عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ : أن النبى ــ ﷺ ــ قال : « إن بلالاً يؤذن بليْل ، فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم »[1] .

٩ ــ ويباح للصائم أن يصبح جنباً .

١٠ ــ الحائض والنفساء إذا انقطع الدم من الليل جاز لهما تأخير الغسل إلى الصبح وأصبحتا صائمتين ، ثم عليهما أن يتطهرا للصلاة .

ما يبطل الصيام

ما يبطل الصيام قسمان .

١ ــ ما يبطله ويوجب القضاء .

٢ ــ وما يبطله ويوجب القضاء والكفارة .

فأما ما يبطله ويوجب القضاء فقط فهو ما يأتى :

١ ، ٢ ــ الأكل والشرب عمداً :

فإن أكل أو شرب ناسياً أو مخطئاً أو مُكرهاً فلا قضاء عليه ولا كفارة .

فعن أبى هريرة أن النبى ــ ﷺ ــ قال : « مَن نسى وهو صائم فأكل أو شرب ، فليتم صومه ، فإنما أطعمه الله وسقاه »[2] رواه الجماعة .

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « لا يمنعكم من سحوركم أذان بلال » ج ١ ص ٣٢٨ فقد ورد هذا من حديث عائشة وفيه « ... فإنه لا يؤذن حتى يطلع الفجر » .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « بيان أن الدخول فى الصوم يحصل بطلوع الفجر .. الخ » ج ٢ ص ٧٦٨ حديث ٣٨ / ١٠٩٢ فقد ورد الحديث عن ابن عمر وورد مثله عن عائشة .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « الصائم إذا أكل أو شرب ناسياً » ج ١ ص ٣٣٠ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة مع اختلاف يسير .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « أكل الناس وشربه وجماعه لا يفطر » ج ٢ ص ٨٠٩ حديث رقم ١٧١ / ١١٥٥ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة .

وقال الترمذى : والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم . وبه يقول سفيان الثورى والشافعى وأحمد واسحاق .

وروى الدارقطنى والبيهقى والحاكم . وقال — صحيح على شرط مسلم — عن أبى هريرة — رضى الله عنه — أن النبى — ﷺ — قال : « من أفطر فى رمضان ناسياً فلا قضاء عليه ولا كفارة »[1] قال الحافظ بن حجر: إسناده صحيح .

وعن ابن عباس — رضى الله عنها — أن النبى — ﷺ — قال : « إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان ، وما إستكرهوا عليه »[2] رواه ابن ماجة والطبرانى والحاكم .

٣ — القىء عمداً :

فإن غلبه القىء فلا قضاء عليه ولا كفارة .

فعن أبى هريرة — رضى الله عنه — ، أن النبى — ﷺ — قال : « من ذرعه (غلبه) القىء فليس عليه قضاء ، ومن استقاء (تعمد القىء واستخرجه ، بشم ما يقيئه أو بإدخال يده) **عمداً** فليقض »[3] رواه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجة وابن حبان والدار قطنى والحاكم وصححه .

قال الخطابى : لا أعلم خلافاً بين أهل العلم فى أن من ذرعه القىء لا قضاء عليه ، ولا فى أن من استقاء عامداً فعليه القضاء .

٤ ، ٥ — الحيض والنفاس ، ولو فى اللحظة الأخيرة قبل غروب الشمس ، وهذا مما أجمع عليه العلماء .

٦ — الاستمناء : (تعمد اخراج المنى بأى سبب من الأسباب) ، سواءاً أكان سببه تقبيل الرجل لزوجته أو ضمها إليه ، أو كان باليد ، فهذا يبطل الصوم ويوجب القضاء .

فإن كان سببه مجرد النظر أو الفكر فإنه مثل الاحتلام نهاراً فى الصيام ، لا يبطل الصوم ولا يجب فيه شىء .

---

(١) انظر سنن البيهقى « كتاب الصيام » باب « من أكل أو شرب ناسياً فليتم صومه ولا قضاء عليه » ج ٤ ص ٢٢٩ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة .

(٢) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الطلاق » باب طلاق المكره والناس » ج ١ ص ٦٥٩ حديث ٢٠٤٥ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عباس .

(٣) سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « ما جاء فى الصائم يقىء » ج ١ ص ٥٣٦ حديث ١٦٧٦ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة .

وكذلك الذى لا يؤثر فى الصوم قلّ أو كثر .

٧ ــ تناول ما لا يتغذى به من المنفذ المعتاد إلى الجوف مثل تعاطى الملح الكثير ، فهذا يفطر فى قول عامة أهل العلم .

٨ ــ ومن نوى الفطر وهو صائم بطل صومه ، وإن لم يتناول مفطراً .

فإن النية ركن من أركان الصيام ، فإذا نقضها قاصداً الفطر ومتعمداً له انتقض صيامه لا محالة .

٩ ــ إذا أكل أو شرب أو جامع ظاناً غروب الشمس أو عدم طلوع الفجر فظهر خلاف ذلك ، فعليه القضاء عند جمهور العلماء ، ومنهم الأئمة الأربعة .

وذهب إسحاق وداود وابن حزم وعطاء وعروة والحسن البصرى ومجاهد : إلى أن صومه صحيح ولا قضاء عليه لقول الله تعالى : ﴿ **وليس عليكم جُناح فيما أخطأتم به ، ولكن ما تعمدت قلوبكم** ﴾[1] .

ولقول رسول الله ﷺ : « إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »[2] رواه ابن ماجة والطبرانى والحاكم .

وروى عبد الرزاق قال : حدثنا معمر عن الأعمش عن زيد بن وهب قال : أفطر الناس فى زمن عمر بن الخطاب فرأيت ــ عساساً (أى : أقداحاً ضخاماً ، قيل : إن القدح نحو ثمانية أرطال) أخرجت من بيت حفصة فشربوا ، ثم طلعت الشمس من سحاب فكأن ذلك شق على الناس . فقالوا : نقضى هذا اليوم . فقال عمر : لم ؟ والله ما تجانفنا الإثم » (التجانف : الميل ، أى لم نمل لارتكاب الإثم) .

وروى البخارى عن أسماء بنت أبى بكر ــ رضى الله عنها ــ قالت : أفطرنا يوما من رمضان فى غيم على عهد رسول الله ــ ﷺ ــ ، ثم طلعت الشمس »[3] .

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٥

(٢) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الطلاق » باب « طلاق المكره والناس » ج ١ ص ٦٥٩ حديث ٢٠٤٥ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عباس ، وانظر الحديث ٢٠٤٣ .

(٣) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب إذا أفطر فى رمضان ثم طلعت الشمس ج ١ ص ٣٣٥ فقد ورد الحديث بلفظه عن أسماء بنت أبى بكر .

قال ابن تيمية : وهذا يدل على شيئين :

الأول : يدل على أنه لا يُستحب مع الغيم التأخير إلى أن يتيقن الغروب ، فإنهم لم يفعلوا ذلك ولم يأمرهم به النبى — ﷺ — ، والصحابة — مع نبيهم — اعلم وأطوع لله ولرسوله ممن جاء بعدهم .

والثانى يدل على أنه لا يجب القضاء . فإن النبى — ﷺ — لو أمرهم بالقضاء لشاع ذلك كما نقل فطرهم ، فلما لم ينقل ، دلّ على أنه لم يأمرهم به .

وأما ما يبطله ويوجب القضاء والكفارة فهو الجماع لا غير عند الجمهور .

فعن أبى هريرة قال : جاء رجل إلى النبى — ﷺ — فقال : هلكت يا رسول الله . قال : « وما أهلكك ؟ قال : وقعت على امرأتى فى رمضان . فقال : هل تجد ما تعتق رقبة ؟ قال : لا . قال : فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين . قال : لا . قال : فهل تجد ما تطعم ستين مسكيناً ؟ قال : لا . قال : ثم جلس ، فأتى النبى — ﷺ — بعَرق (مكيال يسع ١٥ صاعاً) فيه تمر فقال : تصدق بهذا . قال : فهل على أفقر منا ؟ فما بين لابتيها (جمع لابة . وهى الأرض التى فيها حجارة سود والمراد ما بين أطراف المدينة أفقر منا) . أهل بيت أحوج إليه منا . فضحك النبى — ﷺ — حتى بدت نواجذه وقال : اذهب فأطعمه أهلك »[١] رواه الجماعة .

(استدل بهذا من ذهب إلى سقوط الكفارة بالإعسار ، وهو أحد قولى الشافعى ، ومشهور مذهب أحمد ، وجزم به بعض المالكية والجمهور على أن الكفارة لا تسقط بالإعسار) .

ومذهب الجمهور : أن المرأة والرجل سواء فى وجوب الكفارة عليهما . ما داما قد تعمدا الجماع ، مختارَيْن فى نهار رمضان (فإن كان الصيام قضاء رمضان ، أو نذراً وأفطر بالجماع ، فلا كفارة فى ذلك) ناويَيْن الصيام . فإن وقع الجماع نسياناً ، أو لم يكونا مختارين ، بأن أكرها عليه ، أو لم يكونا ناويين الصيام ، فلا كفارة على واحد منهما . فإن أكرهت المرأة من الرجل ، أو كانت مفطرة لعذر وجبت الكفارة عليه دونها .

ومذهب الشافعى : أنه لا كفارة على المرأة مطلقاً ، لا فى حالة الاختيار ولا فى حالة الإكراه — وإنما يلزمها القضاء فقط .

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « إذا جامع فى رمضان ولم يكن له شئ فتصدق عليه فليكفر » ج ١ ص ٣٣١ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة مع اختلاف يسير فى بعض ألفاظه .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « تغليظ تحريم الجماع فى نهار رمضان .. الخ » ج ٢ ص ٧٨١ — ٧٨٢ حديث ٨١ / ١١١١ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة مع اختلاف يسير فى بعض ألفاظه .

قال النووى : والأصح ــ على الجملة ــ وجوب كفارة واحدة عليه خاصة عن نفسه فقط ، وأنه لا شىء على المرأة ولا يلاقيها الوجوب لأنه حق مال مختص بالجماع فاختص به الرجل دون المرأة ، كالمهر .

قال أبو داود : سئل (هذه إحدى الروايتين عن أحمد) أحمد عمن أتى أهله فى رمضان ، أعليها كفارة ؟ قال : ما سمعنا أن على امرأة كفارة .

قال فى المغنى : ووجه ذلك : أن النبى ــ ﷺ ــ « أمر الواطىء فى رمضان أن يعتق رقبة » ولم يأمر فى المرأة بشىء مع علمه بوجود ذلك منها » .

والكفارة على الترتيب المذكور فى الحديث ، فى قول جمهور العلماء .

فيجب العتق أولاً ، فإذا عجز عنه صام شهرين متتابعين (ليس فيهما رمضان ولا أيام العيدين والتشريق) فإن عجز عنه أطعم ستين مسكيناً من أوسط ما يطعم منه أهله (مذهب أحمد لكل مسكين مد من قمح ، أو نصف صاع من تمر ، أو شعير ونحوهما . وقال أبو حنيفة : من القمح نصف صاع ومن غيره صاع . وقال الشافعى ومالك : يطعم مداً من أى الأنواع شاء . وهذا رأى أبى هريرة وعطاء والأوزاعى ، وهو أظهر . فإن العرق الذى أعطى للأعرابى يسع ١٥ صاعاً) . وأنه لا يصح . الانتقال من حالة إلى أخرى ، إلا إذا عجز عنها . ومذهب المالكية ورواية لأحمد : أنه مخير بين هذه الثلاث فأيها فعل أجزأ عنه .

لما روى مالك وابن جريج . عن حميد بن عبد الرحمن عن أبى هريرة « أن رجلا أفطر فى رمضان ، فأمره رسول الله ــ ﷺ ــ أن يكفر بعتق رقبة أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام ستين مسكيناً »[1] رواه مسلم، و « أو » تفيد التخيير .

ولأن الكفارة بسبب المخالفة ، فكانت على التخيير . ككفارة اليمين .

قال الشوكانى : وقد وقع فى الروايات ما يدل على الترتيب والتخيير ، والذين رووا الترتيب أكثر ومعهم الزيادة .

وجمع المهلب والقرطبى بين الروايات بتعدد الواقعة . قال الحافظ : وهو بعيد لأن القصة واحدة والمخرج متحد ، والأصل عدم التعدد . وجمع بعضهم بحمل الترتيب على الأولوية ، والتخيير على الجواز ، وعكسه بعضهم . انتهى .

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « تغليظ تحريم الجماع فى نهار رمضان على الصائم .. الخ » ج ٢ ص ٧٨٢ ــ ٧٨٣ حديث ٨٤ / ١١١١ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة .

ومن جامع عامداً فى نهار رمضان ، ولم يكفر ثم جامع فى يوم آخر منه فعليه كفارة واحدة **عند الأحناف** ، ورواية عن أحمد ، لأنها جزاء عن جناية تكرر سببها قبل استيفائها ، فتتداخل .

وقال مالك والشافعى ، ورواية عن أحمد : عليه كفارتان ، لأن كل يوم عبادة مستقلة ، فإذا وجبت الكفارة بإفساده لم تتداخل كرمضانين . وقد أجمعوا : على أن من جامع فى نهار رمضان عامدا وكفر ، ثم جامع فى يوم آخر ، فعليه كفارة أخرى .

وكذلك أجمعوا على أن من جامع مرتين فى يوم واحد ولم يكفر عن الأول : أن عليه كفارة واحدة .

فإن كفر عن الجماع الأول لم يكفر ثانياً عند جمهور الأئمة . وقال أحمد : عليه كفارة ثانية .

قضاء رمضان

قضاء رمضان لا يجب على الفوْر ، بل يجب وجوباً موسعاً فى أى وقت وكذلك الكفارة .

فقد صح عن عائشة أنها كانت تقضى ما عليها من رمضان فى شعبان (رواه أحمد ومسلم) ولم تكن تقضيه فوراً عند قدرتها على القضاء .

والقضاء مثل الأداء ، بمعنى أن من ترك أياماً يقضيها دون أن يزيد عليها .

ويُفارق القضاءُ الأداءَ فى أنه لا يلزم فيه التتابع . لقول الله — تعالى — : ﴿ **ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر** ﴾[1] . أى ومن كان مريضاً ، أو مسافراً فأفطر ، فليصم عدة الأيام التى أفطر فيها فى أيام أخر متتابعات أو غير متتابعات ، فإن الله أطلق الصيام ولم يقيده .

وروى الدارقطنى عن ابن عمر — رضى الله عنهما — ، أن النبى — ﷺ — قال فى قضاء رمضان : « إن شاء فرّق وإن شاء تابع »[2] .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٥

(٢) انظر سنن الدار قطنى « كتاب الصيام » ج ٢ ص ١٩٣ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عمر تحت رقم ٧٤ .

وإن أخر القضاء حتى دخل رمضان آخر صام رمضان الحاضر ثم يقضى بعده ما عليه ، ولا فدية عليه ، سواء كان التأخير لعذر أو لغير عذر .

وهذا مذهب الأحناف والحسن البصرى .

ووافق مالك والشافعى وأحمد واسحاق فى أنه لا فدية عليه إذا كان التأخير بسبب العذر .

وخالفوهم فيما إذا لم يكن له عذر فى التأخير . فقالوا : عليه أن يصوم رمضان الحاضر ، ثم يقضي ما عليه بعده ، ويفدى عما فاته عن كل يوم مداً من طعام .

وليس لهم فى ذلك دليل يمكن الاحتجاج به .

فالظاهر ما ذهب إليه الأحناف ، فانه لا شرع إلا بنص صحيح .

من مات وعليه صيام

أجمع العلماء على أن من مات وعليه فوائت من الصلاة فإن وليه لا يصلى عنه ، هو ولا غيره ، وكذلك من عجز عن الصيام لا يصوم عنه أحد أثناء حياته . فإن مات وعليه صيام وكان قد تمكن من صيامه قبل موته فقد اختلف الفقهاء فى حكمه .

فذهب جمهور العلماء ، منهم أبو حنيفة ومالك والمشهور عن الشافعى إلى أن وليّه لا يصوم عنه ويطعم عنه مدّاً عن كل يوم (يرى الحنفية أن الواجب نصف صاع من قمح ، وصاع من غيره) .

والمذهب المختار عند الشافعية أنه يستحب لوليه أن يصوم عنه ويبرأ به الميت ولا يحتاج إلى إطعام عنه .

والمراد بالولى القريب ، سواء كان عصبة ، أو وارثاً أو غيرهما .

ولو صام أجنبى عنه ، صح إن كان بإذن الولى ، وإلا فإنه لا يصح .

واستدلوا بما رواه أحمد والشيخان عن عائشة أن النبى ﷺ — قال : « من مات وعليه صيام ،

صام عنه وليه »[١] زاد البزار لفظ : إن شاء وسندها حسن وروى أحمد وأصحاب السنن : عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ ، فقال : « يا رسول الله ، إن أمى ماتت وعليها صوم شهر ، أفأ قضيه عنها ؟ فقال : لو كان على أمك دين أكنت قاضية عنها ؟ قال : نعم . قال : فدَين الله أحق أن يقضى »[٢] .

قال النووى : « وهذا القول هو الصحيح المختار الذى نعتقده وهو الذى صححه محققو أصحابنا الجامعون بين الفقه والحديث لهذه الأحاديث الصحيحة الصريحة .

ــ التقدير فى البلاد التى يطول نهارها ويقصر ليلها :

اختلف الفقهاء فى التقدير فى البلاد التى يطول نهارها ويقصر ليلها ، والبلاد التى يقصر نهارها ويطول ليلها على أى البلاد يكون ؟

فقيل : يكون التقدير على البلاد المعتدلة التى وقع فيها التشريع كمكة والمدينة ، وقيل : على أقرب بلاد معتدلة إليهم .

ليلة القدر

ــ فضلها :

ليلة القدر أفضل ليالى السنة لقوله تعالى : ﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة القدر . وما أدراك ما ليلة القدر . ليلة القدر خير من ألف شهر** ﴾[٣] .

ــ أى القرآن : ﴿ **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن** ﴾[٤] .

أى العمل فيها من الصلاة والتلاوة والذكر خير من العمل فى ألف شهر ليس فيها ليلة القدر .

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « من مات وعليه صوم » ج ١ ص ٣٣٤ فقد ورد الحديث بلفظه عن عائشة . وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « قضاء الصيام عن الميت » ج ٢ ص ٨٠٣ حديث ١٥٣ / ١١٤٧ فقد ورد الحديث بلفظه عن عائشة .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « من مات وعليه صوم » ج ١ ص ٣٣٤ فقد ورد الحديث عن عائشة . وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « قضاء الصيام عن الميت » ج ٢ ص ٨٠٤ حديث ١٥٥ / ١١٤٨ فقد ورد الحديث بلفظه عن عائشة .

(٣) سورة القدر الآيات ١ ــ ٣

(٤) سورة البقرة الآية ١٨٥

ـــ استحباب طلبها :

ويستحب طلبها فى الوتر من العشر الأواخر من رمضان ، فقد كان النبى ـــ ﷺ ـــ يجتهد فى طلبها فى العشر الأواخر من رمضان .

فقد كان إذا دخل العشر الأواخر أحيا الليل وأيقظ أهله وشد المئزر (أى اعتزل النساء واشتد فى العبادة)[(١)] .

ـــ أى الليالى هى ؟

للعلماء آراء فى تعيين هذه الليلة ، فمنهم من يرى أنها ليلة الحادى والعشرين ، ومنهم من يرى انها ليلة الثالث والعشرين ، ومنهم من يرى أنها ليلة الخامس والعشرين ، ومنهم من ذهب إلى أنها ليلة التاسع والعشرين . ومنهم من قال : انها تنتقل فى ليالى الوتر من العشر الأواخر .

وأكثرهم على أنها ليلة السابع والعشرين .

روى أحمد بإسناد صحيح عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من كان متحرّيها فليتحرَّها ليلة السابع والعشرين »[(٢)] .

وروى مسلم وأحمد وأبو داود والترمذى وصححه عن أبى بن كعب أنه قال : « والله الذى لا إله إلا هو إنها لفى رمضان ـــ يحلف ما يستثنى ـــ ووالله انى لأعلم أى ليلة هى . هى الليلة التى أمرنا رسول الله ـــ ﷺ ـــ بقيامها . هى ليلة سبع وعشرين . وأمارتها أن تطلع الشمس فى صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها »[(٣)] .

ـــ قيامها والدعاء فيها :

١ ـــ روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه »[(٤)] .

(١) انظر صحيح مسلم « **كتاب الاعتكاف** » باب « الاجتهاد فى العشر الأواخر من شهر رمضان » ج ٢ ص ٨٣٢ فقد ورد الحديث رقم ٧ / ١١٧٤ عن عائشة فى ذلك .

(٢) انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ١٥٧ فقد ورد الحديث من رواية لابن عمر .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب فضل ليلة القدر .. الخ ج ٢ ص ٨٢٨ حديث ٢٢٠ / ٧٦٢ فقد ورد الحديث عن أبى بن كعب فى هذا .

(٤) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « فضل ليلة القدر » ج ١ ص ٣٤٣ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة بلفظ : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » .
وانظر صحيح مسلم « كتاب صلاة المسافرين وقصرها » باب « الترغيب فى قيام رمضان وهو التراويح » ج ١ ص ٥٢٣ ـــ ٥٢٤ فقد ورد الحديث رقم ١٧٥ / ٧٦٠ من رواية لأبى هريرة بلفظ البخارى .

٢ ــ وروى أحمد وابن ماجه والترمذى وصححه عن عائشة رضى الله عنها ــ قالت : قلت : يا رسول الله ، أرأيت إن علمت أى ليلة ليلة القدر . ما أقول فيها ؟ قال : قولى : « اللهم إنك عفوا تحب العفو فاعف عنى »[١] .

الإطعام

قوله تعالى فى كفارة الظهار : ﴿ **فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً** ﴾ أى : من أوسط ما يطعم منه أهله ﴿ **ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله** ﴾ أى : لتصدقوا بأحكامه وتمتثلوا أمره وأمر رسوله وليحدث لكم كمال الإيمان ﴿ **وللكافرين عذاب أليم** ﴾ أى : الجاحدين لأحكام الله ــ تعالى ــ الخارجين عن التصديق بما بعث به نبيه ــ ﷺ ــ والعذاب الأليم هو المؤلم الذى قال الله فيه : ﴿ **إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً** ﴾[٢] .

كتاب الظهار

والآن نبين بالتفصيل ما جاء عن الفقهاء من أحكام فى الظهار ، فنقول وبالله التوفيق :

تعريفه :

الظهار : مشتق من الظهر ، وهو قول الرجل لزوجته : أنت علىّ كظهر أمى .

قال فى الفتح :

« وإنما خص الظهر بذلك دون سائر الأعضاء ، لأنه محل الركوب غالباً ، ولذلك سمى الركوب ظهراً ، فشبهت المرأة بذلك . لأنها مركوب الرجل » .

والظهار كان طلاقاً فى الجاهلية ، فأبطل الإسلام هذا الحكم ، وجعل الظهار محرماً للمرأة حتى يكفر زوجها .

---

(١) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الدعاء » باب « الدعاء بالعفو والعافية » ج ٢ ص ١٢٦٥ حديث ٣٨٥٠ فقد ورد الحديث عن عائشة .

(٢) سورة النساء الآية ٥٦

فلو ظاهر الرجل يريد الطلاق ، كان ظهاراً ، ولو طلق يريد ظهاراً ، كان طلاقاً ، فلو قال : « أنت علىّ كظهر أمى » ، وعنى به الطلاق ، لم يكن طلاقاً ، وكان ظهاراً لا تطلق به المرأة .

قال ابن القيم : « وهذا لأن الظهار كان طلاقاً فى الجاهلية ، فنسخ ، فلم يجز أن يعاد إلى الحكم المنسوخ ، وأيضاً أن أوْس بن الصامت إنما نوى به الطلاق على ما كان عليه ، وأجرى عليه حكم الظهار دون الطلاق ، وأيضاً فإنه صريح فى حكمه ، فلم يجز جعله كناية فى الحكم الذى أبطله الله بشرعه ، وقضاء الله أحق ، وحكم الله أوجب » .

وقد أجمع العلماء على حرمته ، فلا يجوز الإقدام عليه لقول الله — تعالى — : ﴿ **الذين يظاهرون منكم من نسائهم ، ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وإن الله لعفو غفور** ﴾ .

وأصل ذلك ما ثبت فى السنن أن أوس بن الصامت ظاهر من زوجته خولة بنت مالك بن ثعلبة . وهى التى جادلت فيه رسول الله — ﷺ — واشتكت إلى الله ، وسمع الله شكواها من فوق سبع سموات . فقالت : « يا رسول الله ، إن أوس بن الصامت تزوجنى وأنا شابة مرغوب فىّ ، فلما خلاسنى ، ونثرتِ بطنى ، جعلنى كأمه عنده ، فقال لها رسول الله ، ﷺ — : « ما عندى فى أمرك شىء » .

فقالت : « اللهم إنى أشكو إليك » .

وروى أنها قالت : « ان لى صبية صغاراً ، ان ضمهم اليه ضاعوا ، وان ضممتهم إلىّ جاعوا » . فنزل القرآن .

وقالت عائشة : « الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات » ، لقد جاءت خولة بنت ثعلبة تشكو إلى رسول الله — ﷺ — وأنا فى كِسْر البيت يخفى علىّ بعض كلامها ، فأنزل الله — عز وجل — : ﴿ **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير** ﴾ .

فقال النبى — ﷺ — :

« ليعتق رقبة ! قالت : لا يجد ! قال : فيصوم شهرين متتابعين . قالت : يا رسول الله ، إنه شيخ كبير ، ما به من صيام . قال : فليطعم ستين مسكيناً . قالت : ما عنده من شىء يتصدق به . قال :

سأعينه بعرق من تمر ! قالت : وأنا أعينه بعرق آخر . قال : أحسنت فأطعمى عنه ستين مسكيناً ، وارجعى إلى ابن عمك »[١] .

وفى السنن أن سلمة بنت صخر البياضى ، ظاهر من امرأته مدة شهر رمضان ، ثم واقعها ليلة قبل إنسلاخه . فقال له النبى ـ ﷺ ـ : أنت بذاك يا سلمة . قال : قلت : أنا بذاك (أى أنت الملم بذاك والمرتكب له) يا رسول الله ؟ ـ مرتين ـ وأنا صابر لأمر الله ، فاحكم فىّ بما أراك الله . قال : حرر رقبة . قلت : والذى بعثك بالحق نبياً ما أملك ـ قبة غيرها ـ وضربت صفحة رقبتى ، قال : فصم شهرين متتابعين . قال : فهل أصبت الذى أصبت إلا فى الصيام ؟ قال : فأطعم وسقاً من تمر ستين مسكيناً . قلت : والذى بعثك بالحق لقد بتنا وحشِين (أى بتنا مقفرين لا طعام لنا) . ما لنا طعام . قال : فانطلق إلى صدقة بنى زرُيق فليدفعها إليك ، فأطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر ، وكل أنت وعيالك بقيتها . قال : خرجت إلى قومى فقلت : وجدت عندكم الضيق وسوء الرأى ، ووجدت عند رسول الله السورة وحسن الرأى ، وقد أمر لى بصدقتكم »[٢] .

ـ هل الظهار مختص بالأم ؟

ذهب الجمهور إلى أن الظهار ، يختص بالأم كما ورد فى القرآن وكما جاء فى السنة . فلو قال لزوجته : أنت علىّ كظهر أمى ، كان مظاهراً ، ولو قال لها : أنت علىّ كظهر أختى لم يكن مظاهراً . وذهب البعض ، ومنهم **الأحناف** والأوزاعى والثورى والشافعى فى أحد قوليه ، وزيد بن على ، إلى أنه يقاس على الأم جميع المحارم ، (قال الأئمة الثلاثة ورواية عن أحمد ، إذا قالت المرأة لزوجها : أنت على كظهر أمى ، فإنه لا كفارة عليها ، وقال أحمد فى الرواية الأخرى ـ وهى أظهرها ـ يجب عليها الكفارة إذا وطئها ، وهى التى اختارها الخرق) .

فالظهار عندهم هو تشبيه الرجل زوجته فى التحريم بإحدى المحرمات عليه ، على وجه التأييد بالنسب أو المصاهرة أو الرضاع ، إذ العلة هى التحريم المؤبد .

ومن قال لامرأته : انها أختى أو أمى على سبيل الكرامة والتوقير فإنه لا يكون مظاهراً .

والظهار لا يكون إلا من الزوج العاقل البالغ المسلم . لزوجة قد انعقد زواجها انعقاداً **صحيحاً** نافذاً .

---

(١) انظر مسند الامام احمد ج ٦ ص ٤١٠ ، ٤١١ فقد ورد الحديث عن خولة بنت نبلة .

(٢) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الطلاق » باب الظهار ج ١ ص ٦٦٥ ـ ٦٦٦ حديث رقم ٢٠٦٢ فقد ورد الحديث من رواية سليمة بن صخر البياض .. مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

ـــ الظهار المؤقت :

الظهار المؤقت هو إذا ظاهر من امرأته إلى مدة ، مثل أن يقول : « أنت علىّ كظهر أمى إلى الليل » ثم أصابها قبل انقضاء تلك المدة .

وحكمه أنه ظهار كالمطلق .

قال الخطابى :

واختلفوا فيه إذا بر فلم يحنث :

فقال مالك وابن أبى ليلى : إذا قال لامرأته : « أنت علىّ كظهر أمى إلى الليل » لزمته الكفارة وإن لم يقربها .

وقال أكثر أهل العلم : لا شئ عليه إن لم يقربها .

قال : وللشافعى فى الظهار المؤقت قولاً : أحدهما أنه ليس بظهار .

ـــ أثر الظهار :

إذا ظاهر الرجل من امرأته ، وصح الظهار ، ترتب عليه أثران :

الأثر الأول : حرمة إتيان الزوجة حتى يكفر كفارة الظهار ، لقول الله سبحانه : ﴿ **من قبل أن يتماسا** ﴾ .

وكما يحرم المسيس ، فإنه يحرم كذلك مقدماته ، من التقبيل والمعانقة ونحو ذلك ، وهذا عند جمهور العلماء .

وذهب بعض أهل العلم (هذا رأى الثورى ، وأحد قولى الشافعى) إلى أن المحرم هو الوطء فقط ، لأن المسيس كناية عن الجماع .

والأثر الثانى : وجوب الكفارة بالعود .

وما هو العود ؟

اختلف العلماء فى العود ... ما هو ؟

فقال قتادة ، وسعيد بن جبير ، وأبو حنيفة وأصحابه :

« انه إرادة المسيس لما حرم بالظهار » لأنه إذا أراد ، فقد عاد من عزم ، إلى عزم الفعل ، سواء فعل أم لا .

وقال الشافعى :

بل هو إمساكها بعد الظهار وقتاً يسع الطلاق ، ولم يطلق إذ تشبيهها بالأم يقتضى إبانتها ، وإمساكها نقيضه ، فإذا أمسكها فقد عاد فيما قال ، لأن العود للقول مخالفته .

وقال مالك وأحمد :

بل هو العزم على الوطء فقط ، وإن لم يطأ .

وقال داود وشعبة ، وأهل الظاهر :

بل إعادة لفظ الظهار فالكفارة لا تجب عندهم إلا بالظهار المعاد ، لا المبتدأ .

ـ المسيس قبل التكفير :

إذا مس الرجل زوجته قبل التفكير ، فإن ذلك يحرم ، والكفارة لا تسقط ولا تتضاعف ، بل تبقى كما هى ، كفارة واحدة .

قال الصّلب بن دينار : سألت عشرة من الفقهاء عن المظاهر يجامع قبل أن يكفر ؟ فقالوا : كفارة واحدة .

ـ ما هى الكفارة ؟

والكفارة هى : عتق رقبة ، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً . لقول الله سبحانه : ﴿ **والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به ، والله بما تعملون خبير ۝ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً** ﴾ .

وقد روعى فى كفارة الظهار التشديد ، محافظة على العلاقة الزوجية ومنعاً من ظلم المرأة ، فإن الرجل إذا رأى أن الكفارة يثقل عليه الوفاء بها ، احترم العلاقة الزوجية ، وامتنع عن ظلم زوجته .

الظهار وكفارته فى الإسلام

تحت هذا العنوان كتب الشيخ الصابونى فى كتابه (روائع البيان ــ تفسير آيات الأحكام) فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ۝ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ان أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وان الله لعفو غفور ۝ والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير ۝ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ﴾ .

التحليل اللفظى

﴿ سمع الله ﴾ : السمع والبصر صفتان كالعلم والقدرة ، والحياة والإرادة ، فهما من صفات الذات لم يزل الخالق سبحانه متصفاً بهما .

ومعنى السميع : المدرك للأصوات من غير أن يكون له أذن لأنها لا تخفى عليه .

قال أبو السعود : ومعنى سمعه ــ تعالى ــ لقولها : إجابة دعائها ، لا مجرد علمه ــ تعالى ــ بذلك كما هو المعنى بقوله ــ تعالى ــ : **﴿ والله يسمع تحاوركما ﴾** أى : يعلم تراجعكما الكلام .

﴿ تجادلك ﴾ أى : تراجعك فى شأن زوجها ، والمجادلة : المناظرة والمخاصمة .

وفى الحديث : (**ما أوتى قوم الجدل إلا ضلوا**)(١) والمراد بالحديث الجدل على الباطل ، وطلب

---

(١) هذا جزء حديث رواه الترمذى عن أبى أمامة فى (كتاب التفسير) تفسير سورة الزخرف ج ٥ ص ٣٧٨ رقم ٣٢٥٣ ولفظه : « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ، ثم تلا رسول الله ــ ﷺ ــ هذه الآية : **﴿ ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون ﴾**

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

ورواه ابن ماجه فى المقدمة ج ١ ص ١٩ رقم ٤٨

وانظر مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ٢٥٢ .

المغالبة به . لإظهار الحق ، فإن ذلك محمود ــ لقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **وجادلهم بالتى هى أحسن** ﴾[١] والمراد هنا : المراجعة فى الكلام .

﴿ **وتشتكى** ﴾ الشكوى : إظهار البث وما انطوت عليه النفس من الهمّ والغم . وفى التنزيل : ﴿ **قال إنما أشكو بثّى وحزنى إلى الله** ﴾[٢] وشكا واشتكى بمعنى واحد .

﴿ **تحاوركما** ﴾ المحاورة : المراجعة فى الكلام ، من حار الشىء ، يحور ، حوراً ، أى : رجع يرجع رجوعاً ، ومنه حديث : « **نعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر** »[٣] ومنه : فما أحار بكلمة ، أى : فما أجاب . قال عنترة :

لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى ... ولكان لو علم الكلام مكلمى

يريد به فرسه ، أى : لو كان يعلم الكلام لكلمنى .

﴿ **يظاهرون** ﴾ الظهار : مشتق من الظهر ، وهو قول الرجل لزوجته : أنت علىّ كظهر أمى . ومعناه الأصلى : مقابلة الظهر بالظهر ، يقال : ظاهر فلان فلاناً ، أى : قابل ظهره بظهره ، ثم استعمل فى تحريم الزوجة يجعلها محرمة كظهر أمه .

قال الالوسى : الظهار لغة : مصدر ظاهر ، وهو (مفاعلة) من الظهر ، ويراد به معان مختلفة ، راجعة إلى الظهر معنى ولفظاً باختلاف الأغراض .

فيقال : ظاهر زيد عمراً ، أى : قابل ظهره بظهره حقيقة .

وظاهره : إذا غايظة وإن لم يقابل حقيقة ، باعتبار أن المغايظة تقتضى ذلك .

وظاهره : إذا ناصره ، باعتبار أنه يقال : قوّى ظهره : إذا نصره .

وظاهر بين ثوبين : إذا لبس أحدهما فوق الآخر .

وظاهر من امرأته : إذا قال لها : أنت علىّ كظهر أمى .

وهذا الأخير هو المعنى الذى نزلت فيه الآيات .

---

(١) من الآية ١٢٥ من سورة النحل .

(٢) من الآية ٨٦ من سورة يوسف .

(٣) هذا جزء حديث رواه ابن ماجه فى سننه فى (كتاب الدعاء) باب ما يدعو به الرجل إذا سافر ج ٢ ص ١٢٧٩ رقم ٣٨٨٨ ولفظه : « اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب ، والحور بعد الكور ، ودعوة المظلوم ، وسوء المنظر فى الأهل والمال » .

وانظر الجامع الصحيح للترمذى ج ٥ ص ٤٩٨ رقم ٣٤٣٩ .

قال فى الفتح : « وإنما خص الظهر بذلك دون سائر الأعضاء ، لأنه محل الركوب غالباً ، ولذلك سمى المركوب ظهراً ، فشبهت المرأة بذلك لأنها مركوب الرجل » .

﴿ **اللائى** ﴾ : جمع التى ، فيقال : اللاتى ، واللائى . قال ـــ تعالى ـــ : ﴿ **واللاتى تخافون نشوزهن** ﴾[1] .

﴿ **منكراً** ﴾ المنكر من الأمر : خلاف العروف ، وكل ما قبّحه الشرع وحرّمه وكرهه فهو منكر .

﴿ **زوراً** ﴾ الزور : الكذب والباطل الواضح ، ومنه شهادة الزور .

﴿ **تحرير رقبة** ﴾ حرّرته ، أى : جعلته حراً لوجه الله . والرقبة فى الأصل : العُنق ، ثم أطلقت على ذات الإنسان تسمية للشىء ببعضه . والمراد بها المملوك عبداً أو أمة .

قال الآلوسى : وذلك من تسمية الكل باسم الجزء .

﴿ **يتماسا** ﴾ المسّ : مسك الشىء باليد ، ثم استعير للجماع ، لأنه لمس والتصاق . لأن فيه التصاق الجسم بالجسم ، والتماس هنا : كناية عن الجماع .

﴿ **مسكيناً** ﴾ المسكين : الذى لا شىء له ، وقيل : الذى لا شىء له يكفى عياله . وأصل المسكين فى اللغة : الخاضع .

والمراد به هنا ما يعم الفقير . والمسكين أحسن حالاً من الفقير .

وقد قالوا : المسكين والفقير إذا اجتمعا (يعنى فى اللفظ) افترقا (فى المعنى) وإذا افترقا اجتمعا .

﴿ **حدود** ﴾ الحد : الفصل بين الشيئين لئلا يختلط أحدهما بالآخر ، أو لئلا يتعدى أحدهما على الآخر ، وجمعه : حدود وحدود الله : الأشياء التى بيّن تحريمها وتحليلها . وأمر أن لا يتعدى شىء منها فيتجاوز إلى غير ما أمر فيها أو نهى عنه منها ومنع من مخالفتها .

وهنا قوله : ﴿ **تلك حدود الله** ﴾[2] يعنى الحدود بين معصيته وطاعته . فمعصيته الظهار . وطاعته الكفارة .

---

(١) من الآية ٣٤ من سورة النساء .
(٢) من الآية ١٣ من سورة النساء .

المعنى الإجمالى

إن الله ــ تعالى ــ سميع قريب ، يجيب **دعوة الداع إذا دعاه** ، وهذه امرأة جاءت إلى رسول الله ــ ﷺ ــ تشكو ظلم زوجها لها ، حيث حرّمها على نفسه بلفظ كانت الجاهلية تستعمله . أفيبقى هذا اللفظ محرماً فى الإسلام ؟ !

جادلت رسول الله ــ ﷺ ــ وتوجهت بالدعاء إلى المولى جل وعلا ، الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، تشكو إليه وحدتها ، فلا أهل لها ولا معيل ولا نصير ، وقد كبر سنها ، وأولادها صغار ، إن أبقتهم عنده ضاعوا ، وإن ضمتهم إليه جاعوا .

ورسول الله ــ صلوات الله عليه ــ لا يشرِّع من قبل نفسه ، وإنما يتبع الوحى الذى يأتيه من ربه ، ولم يوح إليه فى الظهار بشىء . ولذلك ما كان يجزم بالتحريم ، وإنما كان يقول : « ما أراك إلا قد حَرُمت عليه »[1] فكانت تجادله .

استجاب الله دعاء هذه المرأة الضعيفه الوحيدة ، ونزل الوحى ليقول للزوج : زوجك التى ظاهرت منها ليست بأمك . فأمك هى التى ولدتك حقيقة ، وحرمت عليك بذلك ، فكيف تصف ما أباحة الله لك بما حرمه عليك ؟ إنك تقول قولاً يمقته الشرع ، فضلاً عن كونه كذبا وزوراً ، ومع ذلك فإن الله عفو عمن اخطأ ثم تاب ، غفور لمن وقف عند حدود الشرع ، واتبع أمر الله الذى أنزله على نبيه .

فمن ظاهر من زوجه وقال لها : أنت علىّ كظهر أمى ، ثم أراد أن ينقض قوله ، ويعود إلى ما أحله الله له من زوجه ، فالواجب عليه أن يحرر عبداً مملوكاً قبل أن يمسك زوجه ، هذا حكم من ظاهر ليتعظ به المؤمنون ، ويعلموا أن الله ــ جل وعلا ــ خبير بكل ما يعملونه ، فعليهم أن ينتهوا عما نهاهم عنه .

فمن لم يجد الرقبة بأن كان لا يملك ثمنها ، أولا يجد عبداً يشتريه ويعتقه فليصم شهرين متتابعين من قبل أن يقرب زوجه ، فإذا كان ضعيفاً لا يقوى على الصوم ، أو مريضاً يضعفه الصوم ، فعليه أن يطعم ستين مسكيناً ما يشبعهم ، ذلك هو حكم الله فى الظهار ، لتؤمنوا أن هذا منزل من عند الله ــ تعالى ــ وتتبعوه وتقفوا عند حدود ما شرع لكم فلا تتعدوها .

(١) الحديث رواه ابن كثير عن ابن أبى حاتم فى تفسير سورة المجادلة ٤ ص ٣٢٠ طبع الحلبى .

سبب النزول

أولاً : عن عائشة ـــ رضى الله عنها ـــ قالت :

« تبارك الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة وكلمت رسول الله ـــ ﷺ ـــ وأنا فى جانب البيت أسمع كلامها ، ويخفى علىّ بعضه ، وهى تشتكى زوجها وتقول : يا رسول الله : أبلى شبابى ونثرت له بطنى ، حتى إذا كبر سنى وانقطع ولدى ظاهر منى ، اللهم إنى أشكو إليك .

قالت : فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآيات »[١] . رواه البخارى ، والنسائى مختصراً ، ورواه الواحدى فى أسباب النزول ، والطبرى ، والحاكم فى المستدرك وصححه ووافقه الذهبى ، ورواه ابن ماجه فى سننه بسند صحيح ، والبيهقى فى سننه .

ثانياً : وقال ابن عباس ـــ رضى الله عنهما ـــ :

« كان الرجل إذا قال لامرأته فى الجاهلية : أنت علىّ كظهر أمى ، حرمت عليه ، فكان أول من ظاهر فى الإسلام (أوس) ثم ندم ، وقال لامرأته : انطلقى إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فسليه ، فأتته ، فتنزلت هذه الآيات »[٢] . رواه البيهقى فى السنن ، والسيوطى فى الدر ونسبه لابن مردويه والنحاس .

ثالثاً : وعن خولة بنت مالك بن ثعلبة قالت :

ظاهر منى زوجى أوس بن الصامت ، فجئت رسول الله ـــ ﷺ ـــ أشكو إليه وهو يجادلنى فيه ويقول : « اتقى الله فإنه ابن عمك » . فما برحت حتى نزل القرآن : ﴿ **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها** ... ﴾ إلى الفرض أى : إلى قوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **فتحرير رقبة من قبل أن**

---

(١) انظر صحيح البخارى (كتاب التوحيد) ج ٩ ص ١٤٤ فقد رواه مختصرا . ورواه أيضا النسائى فى سننه فى (الظهار) ج ٥ ص ١٦٨ مختصرا .

وانظر سنن ابن ماجه (كتاب الطلاق) باب الظهار ج ١ ص ٦٦٦ رقم ٢٠٦٣ .

وانظر المستدرك للحاكم (كتاب التفسير) تفسير سورة المجادلة ج ٢ ص ٤٨١ .

ورواه البيهقى فى السنن الكبرى فى (كتاب الظهار) بروايتين ج ٧ ص ٣٨٢ .

ورواه السيوطى فى الدر المنثور فى (تفسير سورة المجادلة) ج ٧ ص ٦٩ ، ٧٠ .

ورواه الطبرى فى تفسيره (تفسير سورة المجادلة) ج ٢٨ ص ٥ .

(٢) الحديث رواه البيهقى فى السنن فى (كتاب الظهار) ج ٧ ص ٣٨٢ . وانظر الدر المنثور للسيوطى فى (تفسير سورة المجادلة) ج ٧ ص ٦٩ .

يتماسا ... ﴾ الآية ، قال : « يعتق رقبة » قلت : لا يجد ، قال : « فيصوم شهرين متتابعين » قلت : يا رسول الله إنه شيخ كبير ما به من صيام . قال : « فليطعم ستين مسكيناً » قلت : ما عنده شيء يتصدق به . قال : « فإني سأعينه بعَرَق من تمر » ، قلت : يا رسول الله وإني أعينه بعرق آخر . قال : « قد أحسنت ، اذهبي فأطعمي بهما عنه ستين مسكيناً وارجعي إلى ابن عمك »[1] ، قال : والعَرَق : ستون صاعاً . رواه أبو داود ، والإمام أحمد بمعناه .

وجوه القراءات

أولاً : قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **قد سمع الله** ﴾ بإظهار الدال .

وقرأ أبو عمرو وحمزة الكسائى بإدغام الدال فى السين .

قال الكسائى: من قرأ (قد سمع) فبيّن الدال فلسانه أعجمى ليس بعربى .

قال الآلوسى : « ولا يلتفت إلى هذا ، فكلا الأمرين فصيح متواتر ، بل الجمهور على البيان » .

ثانياً : قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **تجادلك فى زوجها** ﴾ قراءة الجمهور تجادلك من المجادلة وهى المراجعة فى الكلام .

وقرىء ﴿ **تحاورك** ﴾ اى : تراجعك الكلام .

ثالثاً : قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **يظاهرون من نسائهم** ﴾ قرأ حفص وعاصم ﴿ **يُظاهرون** ﴾ بضم الياء وكسر الهاء .

وقرأ نافع وابن كثير وعمرو ﴿ **يَظهّرون** ﴾ بتشديد الظاء والهاء وحذف الألف وفتح الياء .

وقرأ حمزة والكسائى وخلف ﴿ **يَظاهرون** ﴾ بفتح الياء وتشديد الظاء والألف .

وقرا الحسن وقتادة : ﴿ **يظهرون** ﴾ بفتح الياء وفتح الظاء مخففة مكسورة الهاء مشددة والمعنى : (يقولون لهن : أنتن كظهور أمهاتنا) .

رابعاً : قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **ماهن أمهاتهم** ﴾ الجمهور بكسر التاء وهى لغة أهل الحجاز .

وقرأ المفضل عن عاصم (أمهاتهم) بالرفع على لغة تميم .

وقرأ ابن مسعود : (بأمهاتهم) بزيادة الباء .

---

(١) انظر سنن أبى داود (كتاب الطلاق) باب فى الظهار ج ٢ ص ٢٦٦ رقم ٢٢١٤ ورواه الامام أحمد فى مسنده (حديث خولة بنت ثعلبة رضى الله عنها) ج ٦ ص ١١٠ ، ١١١ .

وجوه الإعراب

أولاً : قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **وتشتكى إلى الله** ﴾ عطف على ﴿ **تجادلك** ﴾ فهو من عطف الجمل ، لا محل لها من الإعراب لكونها صلة للتى .

وجوّز بعضهم أن تكون حالاً ، أى : تجادلك شاكية حالها إلى الله ــ تعالى ــ ويقدر مبتدأ ، أى : وهى تشتكى لأن المضارعية لا تقترن بالواو فى الفصيح ، فيقدر معها المبتدأ لتكون اسمية .

ثانياً : قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **الذين يظاهرون منكم من نسائهم** ﴾ اسم الموصول ﴿ **الذين** ﴾ مبتدأ ، خبره محذوف ، أى : مخطئون ، وأقيم دليله ــ وهو قوله تعالى : ﴿ **ما هن أمهاتهم** ﴾ مقامه .

ثالثاً : قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **ما هن أمهاتهم** ﴾ .

وقال ابن الانبارى : خبره ﴿ **ما هن أمهاتهم** ﴾ أى : ما نساؤهم أمهاتهم .

قال الفراء : وانتصاب الأمهات ههنا بإلقاء الباء . وهى قراءة عبد الله ﴿ **ما هن بأمهاتهم** ﴾ ومثله : ﴿ **ما هذا بشراً** ﴾[1] أى : ما هذا ببشر فلما ألقيت الباء ألقى أثرها ، وهو النصب ، وعلى هذا كلام أهل الحجاز . فأما أهل نجد فإنهم إذا ألقوا الباء رفعوا وقالوا ﴿ **ما هن أمهاتهم** ﴾ و ﴿ **ما هذا بشر** ﴾ .

وقال أبو حيان : أجرى (ما) مجرى (ليس) فى رفع الاسم ونصب الخبر كما فى قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **ما هذا بشراً** ﴾ وقوله : ﴿ **فما منكم من أحد عنه حاجزين** ﴾[2] .

أقول : هذا هو الصحيح ، لان (ما) بمعنى ليس فهى نافية حجازية وهى لغة القران .

رابعاً : قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **وإنهم ليقولون منكرا من القول وزوراً** ﴾ انتصب ﴿ **منكراً وزوراً** ﴾ على الوصف لمصدر محذوف ، وتقديره : وإنهم ليقولون قولاً منكراً ، وقولاً زوراً .

خامساً : قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة** ﴾ اسم الموصول (الذين) مبتدأ . وقوله ــ تعالى ــ : (فتحرير رقبة) مبتدأ آخر خبره مقدر ، أى : فعليهم تحرير رقبة ، أى : فكفارتهم تحرير رقبة .

والجملة من المبتدا الثانى وخبره خبر الموصول . ودخلته الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط .

---

(١) من الاية ٣١ من سورة يوسف

(٢) من الآية ٤٧ من سورة الحاقة

سادسا : قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **ثم يعودون لما قالوا** ﴾

قال ابن الانبارى : الجار والمجرور فى موضع نصب لأنه يتعلق بـ ﴿ **يعودون** ﴾ و ﴿ **ما** ﴾ مصدرية ، وتقديره : يعودون لقولهم . والمصدر فى موضع المفعول ، كقولك : ﴿ **هذا الثوب نسج اليمن** ﴾ أى : منسوجه ، ومعناه يعودون للإمساك المقول فيه الظهار ولا يطلّق . وقيل : اللام فى ﴿ **لما قالوا** ﴾ بمعنى (إلى) أى : يعودون إلى قول الكلمة التى قالوها أولاً ، من قولهم : أنت علىّ كظهر أمى ، وهذا مذهب أهل الظاهر .

لطائف التفسير

* **اللطيفة الأولى** :

يقول علماء اللغة : ﴿ **قد** ﴾ حرف يوجب به الشىء ، وهى إذا دخلت على الماضى تفيد ﴿ **التحقيق** ﴾ وإذا دخلت على المضارع تفيد ﴿ **التقليل** ﴾ لأنها تميل إلى الشك ، تقول : قد ينزل المطر ، وقد يجود البخيل . وأما فى كلام الله فهى للتحقيق سواء دخلت على الماضى أو المضارع ، كقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **قد يعلم الله المعوّقين منكم** ﴾[1] .

قال الجوهرى : (قد) حرف لا يدخل إلا على الأفعال .

قال الزمخشرى : « معنى (قد) التوقع لأنه ــ ﷺ ــ والمجادلة كانا متوقعين أن ينزل الله فى شكواها ما يفرّج عنها » .

ومعنى سمعه ــ تعالى ــ لقولها اجابة دعائها ، لا لمجرد علمه ــ تعالى ــ بذلك ، وهو كقول المصلى : سمع الله لمن حمده .

* **اللطيفة الثانية** :

قال الإمام الفخر : هذه الواقعة تدل على أن من انقطع وجاؤه عن الخلق ، ولم يبق له فيما أهمه أحد سوى الخالق كفاه الله ذلك الأمر . وصيغة المضارع (يسمع) تفيد التجدد ، للدلالة على استمرار السمع حسب استمرار التحاور وتجدده ، وذكرها مع الرسول فى سلك الخطاب (تحاوركما) تشريف لها بهذا الخطاب الكريم ، واظهار الاسم الجليل فى الموضعين لتربية المهابة والروعة فى قلوب المؤمنين .

قوله ــ تعالى ــ :﴿ **والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير** ﴾ .

---

(١) من الآية ١٨ من سورة الأحزاب

* **اللطيفة الثالثة :**

قال ابن منظور : كانت العرب تطلّق النساء فى الجاهلية بهذه الكلمة : ﴿ **أنت علىّ كظهر أمى** ﴾ وإنما خصوا (الظهر) دون البطن ، والفخذ ، والفرج ــ وهذه أولى التحريم ــ لأن الظهر موضع الركوب ، وامرأة مركوبة اذا غشيت ، فكأنه أراد أن يقول : ركوبك للنكاح علىّ حرام كركوب أمى للنكاح ، فأقام الظهر مقام الركوب ، وهذا من لطيف الاستعارات للكناية .

وقال الفخر الرازى : ليس الظهار مأخوذاً من الظهر الذى هو عضو من الجسد ، لأنه ليس الظهر أولى بالذكر فى هذا الموضع من سائر الأعضاء ، التى هى مواضع المباضعة والتلذذ ، بل الظهر ههنا مأخوذ من العلو ، ومنه قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **فما اسطاعوا أن يظهروه** ﴾[1] أى : يعلوه ، وكل من علا شيئاً فقد ظهره ، ومنه سُمى المركوب ظهراً ، لأن راكبه يعلوه ، وكذا امرأة الرجل ظهره لأنه يعلوها بملك البضع ، فكأن امرأة الرجل مركوب للرجل وظهر له .

ويدل على صحة هذا المعنى أن العرب تقول فى الطلاق : نزلت عن امرأتى ، أى : طلقتها ، وفى قولهم : أنت على كظهر أمى (حذف واضمار) لأن تأويله : ظهرك علىّ ، أى : ملكى إياك ، وعلوّى عليك حرام . كما أن علوّى على أمى وملكها حرام علىّ .

* **اللطيفة الرابعة :**

المظاهر شبه الزوجة بالأم ، ولم يقل هى أم ، فكيف كان ذلك منكراً وزوراً ؟

قال الامام الفخر فى الجواب عن ذلك : إن الكذب إنما لزم لأن قوله : « أنت على كظهر أمى » إما أن يكون اخباراً ، أو انشاءً .

فعلى الأول : انه كذب لأن الزوجة محللة ، والأم محرمة ، وتشبيه المحللة بالمحرمة فى وصف الحل والحرمة كذب .

وعلى الإنشاء : كان ذلك أيضاً كذباً ، لأن معناه أن الشرع جعله سبباً فى حصول الحرمة ، فلما لم يرد الشرع بهذا التشبيه كان جعله إنشاء فى وقوع هذا الحكم كذباً وزوراً .

---

(١) من الآية ٩٧ من سورة الكهف

* **اللطيفة الخامسة :**

روى أن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ مر فى خلافته على امرأة ، وكان راكباً على حمار والناس معه ، فاستوقفته تلك المرأة طويلا ووعظته ، وقالت له : عهدى بك يا عمرو أنت صغير تدعى عميراً ، ثم قيل لك : يا عمر ، ثم قيل لك : يا أمير المؤمنين ، فاتق الله يا عمر فى الرعية ، واعلم أن من أيقن بالموت خاف الفوت ، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب .

وهو واقف يسمع كلامها ، فقيل له : يا أمير المؤمنين : أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف ؟

فقال : والله لو حبستنى من أول النهار إلى آخره ، لا زِلت إلا للصلاة المكتوبة ، أتدرون من هذه العجوز ؟ هذه (خولة بنت ثعلبة) التى سمع الله قولها من فوق سبع سموات ، أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر ؟ !

أقول : رضى الله عنك يا عمر فهذه أخلاق الصديقين .

* **اللطيفة السادسة :**

قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **الذين يظاهرون منكم** ﴾ الخطاب بلفظ ﴿ **منكم** ﴾ فيه مزيد توبيخ للعرب ، وتهجين لعادتهم فى الظهار ، لأنه كان من أيمان الجاهلية خاصة ، دون سائر الأمم .

* **اللطيفة السابعة :**

روى الامام الترمذى عن (سلمة بن صخر البياضى) أنه قال : « كنت امرأ أصيب من النساء ما لا يصيب غيرى ، فلما دخل رمضان خفت أن أصيب من امرأتى شيئاً يتابع بى حتى أصبح ، فظاهرت منها حتى ينسلخ رمضان ، فبينما هى تخدمنى ذات ليلة إذ انكشفت لى منها شىء ، فما لبثت أن نزوت عليها ، فلما أصبحت أخبرت قومى ، فقلت : امشوا معى إلى النبى ــ ﷺ ــ فقال : « أنت بذاك يا سلمة » ، قلت : أنا بذاك يا رسول الله ــ مرتين ــ وأنا صابر لأمر الله . فاحكم فيما أراك الله .

قال : حرر رقبة ، قلت : والذى بعثك بالحق ما أملك رقبة غيرها ــ وضربت صفحة رقبتى ..

قال فصم شهرين متتابعين .

قلت : وهل أصبت الذى أصبت إلا من الصيام .

قال : فأطعم وسقاً (الوسق ــ بالفتح ــ ستون صاعاً بصاع النبى ﷺ) من تمر بين ستين مسكيناً .

قلت : والذى بعثك بالحق لقد بتنا وحشين (مقفرين لا طعام لنا) ما لنا من طعام .

قال : فانطلق إلى صاحب صدقة بنى زريق فليدفعها إليك ، فأطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر ، وكل أنت وعيالك بقيتها » فرجعت إلى قومى فقلت : وجدت عندكم الضيق وسوء الرأى ، ووجدت عند النبى ــ ﷺ ــ السعة وحسن الرأى ، وقد أمر لى بصدقتكم .(١)

رواه الترمذى ، وأبو داود ، وابن ماجه ، والحاكم ، وحسنه الترمذى .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول :

هل الظهار مشروع كالطلاق أم هو محرَّم ؟

كان الظهار فى الجاهلية طلاقا ، بل هو أشد أنواع الطلاق عندهم ، لما فيه من تشبيه الزوجة بالأم التى تحرم حرمة على التأبيد بل لا تجوز بحال من الأحوال ، وجاء الإسلام فأبطل هذا الحكم ، وجعل الظهار محرما قربان المرأة حتى يكفّر زوجها ، ولم يجعله طلاقا كما كانوا يعتبرونه فى الجاهلية .

فلو ظاهر الرجل يريد الطلاق كان ظهارا ، ولو طلق يريد به الظهار كان طلاقا ، والعبرة باللفظ لا بالنية ، فلا يقوم أحدهما مقام الآخر .

قال ابن القيم : « وهذا لأن الظهار كان طلاقا فى الجاهلية فنسخ ، فلم يجز أن يُعاد إلى الحكم المنسوخ ، وأيضا ، فإن (أوس بن الصامت) إنما نوى به الطلاق على ما كان عليه ، وأصبرى عليه

(١) انظر الجامع الصحيح للترمذى (كتاب التفسير) باب : ومن سورة المجادلة ج ٥ ص ٤٠٥ ، ٤٠٦ رقم ٣٢٩٩ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

ورواه أبو داود فى سننه فى (كتاب الطلاق) باب فى الظهار ج ٢ ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ رقم ٢٢١٣ وقد رواه ابن ماجه فى سننه فى (كتاب الطلاق) باب الظهار ج ١ ص ٦٦٥ ، ٦٦٦ رقم ٢٠٦٢ وانظر نيل الأوطار للوشكانى (كتاب الظهار) ج ٦ ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ وقال : رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، واخرجه ــ أيضا ــ الحاكم .

واخرجه الامام أحمد فى مسنده (حديث سلمة بن صخر الزرق الأنصارى) ج ٤ ص ٣٧ .

وانظر المستدرك للحاكم (كتاب التفسير) تفسير سورة المجادلة ج ٢ ص ٢٠٣ قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجان . ووافقه الذهبى فى التلخيص .

حكم الظهار دون الطلاق ، وأيضا فإنه صريح فى حكمه ، فلم يجز جعله كناية فى الحكم الذى أبطله الله بشرعه ، وقضاء الله أحق ، وحكم الله أوجب » .

وقد دلت الآية الكريمة وهى قوله ــ تعالى ــ : « وانهم ليقولون منكرا من القول وزوراً » على أن الظهار حرام ، بل لقد قال فقهاء الشافعية : إنه من الكبائر ، فمن أقدم عليه اعتبر كاذباً معانداً للشرع .

وقد اتفق العلماء على حرمته ، فلا يجوز الإقدام عليه ، لأنه كذب وزور وبهتان ، وهو يختلف عن الطلاق ، فالطلاق مشروع ، وهذا ممنوع ، ولو أقدم الإنسان عليه يكون قد ارتكب محرماً ويجب عليه الكفارة .

الحكم الثانى :

ماذا يترتب على الظهار من أحكام ؟

إذا ظاهر الرجل من امرأته ترتب عليه أمران :

ــ الأول : حرمة إتيان الزوجة حتى يكفر كفارة الظهار ، لقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا** ﴾ .

ــ والثانى : وجوب الكفارة بالعود ، لقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا** .. ﴾ الآية . وسنتحدث عن معنى العود فى الحكم الثالث إن شاء الله .

وكما يحرم المسيس ، فإنه يحرم كذلك مقدماته ، من التقبيل ، والمعانقة وغيرها من وجوه الاستمتاع ، وهذا مذهب جمهور الفقهاء (الحنفية والمالكية والحنابلة) .

وقال الثورى والشافعى (فى أحد قوليه) : ان المحرم هو الوطء فقط ، لأن المسيس كناية عن الجماع .

حجة الجمهور :

أ ــ أن العموم الوارد فى الآية (من قبل أن يتماسا) فإنه يشمل جميع وجوه الاستمتاع .

ب ــ مقتضى التشبيه الذى هو سبب الحرمة (كظهر أمى) فكما يحرم مباشرة الأم والاستمتاع بها بجميع الوجوه ، فكذلك يحرم الاستمتاع بالزوجة المظاهر منها بجميع الوجوه عملاً بالتشبيه .

ج ــ أَمْرُ الرسول ــ ﷺ ــ للرجل الذى ظاهر من زوجته بالاعتزال حتى يكفر . الحديث رواه أصحاب السنن عن ابن عباس وفيه قال ــ ﷺ ــ له : « ما حملك على ذلك يرحمك الله ؟ » قال : رأيت خلخالها فى ضوء القمر ، قال : « لا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله »(١) .

حجة الشافعى والثورى :

أ ــ الآية ذكرت المسيس وهو كناية عن الجماع فيقتصر عليه .

ب ــ الحرمة ليست لمعنى يُخلُّ بالنكاح فأشبه الحيض ، الذى يحرم الاستمتاع فيه فيما بين السرة والركبة .

أقول : رأى الجمهور أحوط من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، سيما وقد نقل الامام الفخر ان للشافعى فيه قولين : (أحدهما) : أنه يحرم الجماع فقط . (والثانى) أنه يحرم جميع جهات الاستمتاعات قال : وهو الأظهر . وكفى الله المؤمنين القتال .

الحكم الثالث :

ما المراد بالعود فى الآية الكريمة ؟

اختلف الفقهاء فى المراد من العود فى قوله ــ تعالى ــ : (ثم يعودون لما قالوا) على عدة **أقوال** :

أ ــ قال أبو حنيفة : العود : هو عبارة عن العزم على استباحة الوطء والملامسة .

ب ــ وقال الشافعى : العود : هو أن يمسكها بعد الظهار مع القدرة على الطلاق .

ج ــ وقال مالك وأحمد : العود : هو العزم على الوطء فقط ، أو على الوطء **والإ**مساك .

د ــ وقال أهل الظاهر : العود : أن يكرر لفظ الظهار مرة ثانية فإن لم يكرر لا يقع الظهار .

والآراء الثلاثة الأولى متقاربة فى المعنى ، لأن العود إلى الامساك ، أو الوطء ، أو إبقائها بعد الظهار بدون طلاق ، كلها تدل لى معنى الندم وإرادة المعاشرة لزوجة التى ظاهر منها ، فاللام فى (**لما**) بمعنى (إلى) .

---

(١) الحديث رواه الترمذى فى جامعه الصحيح فى (كتاب الطلاق) باب : ما جاء فى المظاهر بواقع قبل أن يكفر ج ٣ ص ٤٩٤ رقم ١١٩٩ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب صحيح .
ورواه أبو داود بمعناه فى سننه فى (كتاب الطلاق) باب فى الظهار ج ٥ ص ٢٦٨ رقم ٢٢٢٣ .
وانظر سنن ابن ماجه (كتاب الطلاق) باب : الظاهر بجامع قبل أن يكفر ج ١ ص ٦٦٦ ، ٦٦٧ رقم ٢٠٦٥ .
ورواه النسائى فى سننه فى (كتاب الطلاق) باب الظهار ج ٦ ص ١٦٨ من طريق عكرمة مرسلا .
وانظر نيل الأوطار للشوكانى (حكم إذا واقع قبل أن يكفر) ج ٦ ص ٢٦١ رقم ٤ .

والمعنى : يرجعون إلى تحليل ما حرّموا على أنفسهم بالعزم على الوطء ، وقد عدّد القرطبى فيها سبعة أقوال .

قال الفراء : معنى الآية يرجعون عمّا قالوا ، وفى نقض ما قالوا .

ـ دليل الظاهرية

قال أهل الظاهر : ان العود معناه تكرار لفظ الظهار واعادته ، فلا تلزم الكفارة إلا إذا أعاد اللفظ ــ يعنى ظاهر مرة ثانية ــ .

وقالوا : الذى يعقل من قولهم : عاد إلى الشىء ، أى : أنه فعله مرة ثانية ، كما قال ــ تعالى ــ : ﴿ ولو رُدّوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾(١) .

فإذا لم يتكرر الظهار لا يقع التحريم .

قال الزجّاج : وهذا قول من لا يدرى اللغة .

وقال أبو على الفارسى : ليس هو كما ادّعوا ، لأن العود قد يكون إلى شىء لم يكن عليهالإنسان قبل ، وسميت الآخرة معاداً ولم يكن فيها أحد ثم عاد الناس إليها ، قال الهُذلى :

وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل سوى الحق شيئاً واستراح العواذل

وقال ابن العربى : « ويشبه أن يكون هذا من جهالة داود وأشياعه ، وهو باطل قطعاً ، لأنه قد رويت قصص المظاهرين وليس فيها ذكر لعود القول منهم ، وأيضاً فإن المعنى ينقضه ، لأن الله ــ تعالى ــ وصفه بأنه منكر من القول وزور ، فكيف يقال له : إذا أعدت القول المحرّم والسبب المحظور وجبت عليك الكفارة ؟ » .

أقول : ما قاله جمهور الفقهاء أن المراد بالعود ليس تكرار اللفظ ، إنما هو العود إلى معاشرتها والعزم على وطئها هو الصحيح المعقول لغة وشرعاً ، لأن المظاهر قد حرّم على نفسه قربان الزوجة ، فهو يريد أن ينقض ذلك ويعيدها إلى نفسه فيلزمه التكفير بهذا العزم .

---

(١) من الآية ٢٨ من سورة الأنعام .

وأما ما قاله أهل الظاهر فباطل لا يقوم عليه دليل ، بل هو من آثار الفهم السقيم الذى تخبّط فيه هؤلاء فى كثير من الأحكام الشرعية ، ويكفى لبطلانه حديث (أوس بن الصامت) فإنه لم يكرر الظهار ، وقد الزمه — ﷺ — الكفارة . وحديث (سلمة بن صخر) فقد أمره — ﷺ — بالكفارة مع أنه لم يكرر اللفظ . وكفى بذلك حجة قاطعة ، ولا رأى لأحد أمام قول المعصوم — ﷺ — .

— **الحكم الرابع** : هل يصح ظهار غير المسلم كالذمى والكتابى ؟

ذهب الجمهور (الحنفية والمالكية والحنابلة) إلى أن ظهار الذمى لا يقع لأن الله — تعالى — يقول : ﴿ **الذين يظاهرون منكم** ﴾ وظاهر قوله : ﴿ **منكم** ﴾ أن غير المسلم لا يتناوله الحكم .

وقالوا أيضا : إن الذمى ليس من أهل الكفارة ، لأن فيها إعتاق رقبة ، والصوم ، ولما كان الصوم عبادة لا تصحّ من غير المسلم ، إذن فلا يصح ظهاره .

فالظهار عندهم لا يكون إلا من الزوج العاقل البالغ المسلم .

— مذهب الشافعى : قال الشافعية : كما يصح طلاق الذمى وتترتب عليه أحكامه ، كذلك يقع ظهاره .

قال الآلوسى : والعجب من الإمام الشافعى — عليه الرحمة — أن يقول بصحته مع أنه يشترط النية فى الكفارة ، والإيمان فى الرقبة ، والكافر لا يملك المؤمن .

أقول : الراجح رأى الجمهور ، واستدلالهم بالكفارة فى (العتق والصيام) قوىّ ، وأما استدلالهم بمفهوم الصفة فى الآية الكريمة (منكم) فليس بذاك ، لأن الآية وردت مورد (التهجين والتشنيع) لما مرّ أن الظهار لم يعرف إلا عند العرب فليس فيها ما يدل لهم . والله أعلم .

— **الحكم الخامس** : هل يصح الظهار من الأمة ؟

أ — ذهب (الحنفية والحنبلية والشافعية) إلى أن الرجل لو ظاهر من أمته لا يصح ، ولا يترتب عليه أحكام الظهار ، لقوله — تعالى — : ﴿ **من نسائهم** ﴾ لأن حقيقة اطلاق النساء على (الزوجات) دون (الإماء) بدليل قوله — تعالى — : ﴿ **أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن** ﴾[1] . فقد غاير بينهن ، فالمراد بالنساء فى الآية الحرائر .

(١) من الآية ٣١ من سورة النور .

ب ــ وذهب مالك : إلى صحة الظهار فى الأمة مطلقاً لأنها مثل الحرة .
ج ــ وروى عن الامام أحمد : أنه لا يكون مظاهراً ، ولكن تلزمه كفارة الظهار .

الحكم السادس : هل يقع ظهار المرأة ؟

اتفق الفقهاء على أنه ليس للنساء ظهار ، فلو ظاهرت امرأة من زوجها بقولها : (أنت علىّ كظهر أمى) فلا كفارة عليها ولا يلزمها شىء وكلامها لغو .

قال ابن العربى : وهو صحيح فى المعنى لأن الحَلَّ والعقد ، والتحليل والتحريم فى النكاح من الرجال ليس بيد النساء منه شىء .

وروى عن الإمام أحمد (فى أحد قوليه) أنه يجب عليها الكفارة إذا وطئها وهى التى اختارها الخرقى .

الحكم السابع : هل الظهار مختص بالأم ؟
أ ــ ذهب الجمهور إلى أن الظهار يختص بالأم ، كما ورد فى القرآن الكريم ، وكما جاء فى السنة المطهرة ، فلو قال لزوجته : (أنتِ علىّ كظهر أمى) كان مظاهراً . ولو قال لها : أنت علىّ كظهر أختى أو ابنتى لم يكن ذلك ظهاراً .
ب ــ وذهب أبو حنيفة والشافعى (فى أحد قوليه) : إلى أنه يقاس على الأم جميع المحارم .

فالظهار عندهم هو تشبيه الرجل زوجته فى التحريم بإحدى المحرمات عليه على وجه التأبيد بالنسب ، أو المصاهرة ، أو الرضاع ، إذ العلة هى التحريم المؤبد .

وأما من قال لامرأته : يا أختى ، أو يا أمى ، على سبيل الكرامة ، والتوقير فإنه لا يكون مظاهراً ، ولكن يكره له ذلك لما راه أبو داود عن (أبى تميمةالهجيمى) أن رسول الله ــ ﷺ ــ سمع رجلاً يقول لامرأته : يا أُخيّه ، فكره ذلك ، ونهى عنه .[1]

---

(١) انظر سنن أبى داود (كتاب الطلاق) باب : فى الرجل يقول لامرأته : يا أختى ج ٢ ص ٢٦٤ رقم ٢٢١٠ ولفظه : عن أبى تميمة الهجيمى أن رجلا قال لامرأته : يا أخية ، فقال رسول الله ــ ﷺ ــ : « أختك هى ؟ » فكره ذلك ونهى عنه .
وانظر رقم ٢٢١١ من نفس المرجع .

ــ **الحكم الثامن** : ما هى كفارة الظهار ؟

الكفارة هى : عتق رقبة ، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً كما دلت عليه الآية .

أ ــ الإعتاق : وقد أطلقت **الرقبة** فى الآية فهل تجزىء أى رقبة ولو كافرة ؟

ذهب الحنفية إلى أن يجزىء فى الكفارة إعتاق الرقبة الكافرة والمؤمنة ، والذكر والأنثى ، والكبير والصغير ولو رضيعاً ، لأن الاسم ينطلق على كل ذلك .

وذهب الشافعية والمالكية إلى اشتراط الإيمان فى الرقبة ، فلا يصح عتق غير مؤمن حملاً للمطلق على المقيد فى آية القتل ، لقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **فتحرير رقبة مؤمنة** ﴾[1] بجامع الإذن فى السبب فى كل منهما .

وقال الحنفية : لا يحمل المطلق على المقيد إلا فى حكم واحد فى حادثة واحدة ، لأنه حينئذ يلزم ذلك لزوما عقليا ، إذ الشىء لا يكون نفسه مطلوباً إدخاله فى الوجود مطلقاً ومقيداً ، كالصوم فى كفارة اليمين ، ورد مطلقاً ومقيداً بالتتابع فى القراءة المشهورة التى تجوز القراءة بمثلها .

وأما الإمام أحمد ففى المسألة عنه روايتان .

ب ــ صيام شهرين متتابعين :

من عجز عن إعتاق الرقبة فعليه صوم شهرين متتابعين .

ويعتبر الشهر بالهلال فلا فرق بين التام والناقص ، وإن صام بغير الأهلة فلابد من ستين يوماً عند الحنفية .

وعند الشافعية والمالكية : يصوم إلى الهلال ثم شهرا بالهلال ثم يتم الأول بالعدد .

ج ــ إطعام ستين مسكيناً :

من لم يستطع صيام شهرين متتابعين بأن لم يستطع أصل الصيام ، أو بأن لم يستطع تتابعه لسبب من كبر أو مرض لا يرجى زواله عادة أو بقول طبيب فعليه إطعام ستين مسكيناً .

واختلف الفقهاء فى قدر الإطعام لكل مسكين .

قال أبو حيان :

والظاهر مطلق الإطعام وتخصصه ما كانت العادة فى الإطعام وقت النزول وهو ما يشبع من غير تحديد بمد .

---

(١) من الآية ٩٢ من سورة النساء .

ولا يجزى وعند مالك والشافعى أن يطعم أقل من ستين مسكيناً .

وقال أبو حنيفة وأصحابه : لو أطعم مسكيناً واحداً كل يوم نصف صاع حتى يكمل العدد أجزأه .

ــ **الحكم التاسع** : هل تتغلّظ بالمسيس قبل التكفير .

١ ــ ذهب أبو حنيفة : إلى أنّ المظاهر إذا جامع زوجته قبل أن يكفر أثم وعصى الله ، وتسقط عنه الكفارة لفوات وقتها .

ب ــ وذهب جمهور الفقهاء إلى أنه أثم وعصى ويستغفر ويتوب ، ويمسك عن زوجته حتى يكفرِّ كفارة واحدة .

قال أبو بكر الرازى : إن الظهار لا يوجب كفارة ، وإنما يوجب تحريم الوطء ، ولا يرتفع إلا بالكفارة ، فإذا لم يرد وطأها فلا كفارة عليه ، وإن ماتت أو عاشت فلا شىء عليه ، إذ كان حكم الظهار إيجاب التحريم فقط مؤقتاً بأداء الكفارة ، وذلك لأنه علق حكم الظهار وما أوجب به من الكفارة بأدائها قبل الوطء لقوله : ﴿ **من قبل أن يتماسا** ﴾ فمتى وقع المسيس فقد فات الشرط فلا تجب الكفارة بالآية ، لأن كل فرض محصور بوقت أو معلق على شرط ، فأنه متى فات الشرط ، وعُدم الشرط ، لم يجب باللفظ الأول واحتيج إلى دلالة أخرى فى إيجاب مثله فى الوقت الثانى ، فهذا حكم الظهار إذا وقع المسيس قبل التكفير ، إلا أنه قد ثبت عن النبى ــ ﷺ ــ أن رجلا ظاهر من امرأته فوطئها قبل التكفير ثم سأل النبى ــ ﷺ ــ فقال له : « استغفر الله ولا تعد حتى تكفرّ »[1] فصار التحريم الذى بعد الوطء واجباً بالسنة .

الترجيح : والصحيح ما ذهب إليه الجمهور أنه يأثم بهذا الفعل وتجب عليه كفارة واحدة والله أعلم .

* ما ترشد إليه الآيات الكريمة :

أولاً : استجابة الله دعاء الشاكى الصادق إذا أخلص الدعاء .

ثانياً : عدم جواز تشبيه الزوجة بمحرم من المحرمات على التأييد .

ثالثاً : عدم جواز مس المرأة قبل أداء كفارة الظهار .

رابعاً : خصال الكفارة مرتبة لا يصار إلى التالية قبل العجز عن التى قبلها .

خامساً : حدود الله يجب التزامها ، ولا يجوز تعديها .

---

(١) الحديث رواه الترمذى بمعناه ج ٣ ص ٤٩٤ رقم ١١٩٩ من حديث ابن عباس . وانظر سنن أبى داود ج ٢ ص ٢٦٨ رقم ٢٢٢٣ وابن ماجه ج ١ ص ٦٦٧ رقم ٢٠٦٥ والنسائى ج ٦ ص ١٦٧ .

حكمة التشريع

لقد شرع الإسلام الزواج عقداً دائماً غير مؤقت . لا يقطعه إلا هادم اللذات ، أو أبغض الحلال إلى الله ، وبالزواج يَحلّ للرجل كل شيء من زوجه ، فى حدود ما أباحه الله ــ تعالى ــ له ، فإذا جاء الإنسان يريد أن يغير ما أباحه الله له فيجعل الحلال حراماً ، فقد ارتكب كبيرة لا محالة ، وتجاوز بذلك الحدود التى شرعها الله له ، فلهذا كان عقابه كبيراً ، وكانت أولى خصال الكفارة ما فيه فائدة للمجتمع ، ألا وهى تحرير رقاب العبيد ، وهذه إحدى سبل تحريرهم ، فإذا لم يستطع شراء العبد وعتقه ، فليصم شهرين متتابعين ، والصوم مدرسة تهذب خلقه ، وتربى نفسه وتقوم ما اعوج من تربيته .

هذا ان كان صحيح الجسم ، موفور الصحة ، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، فالمريض الذى لا يستطيع الصوم ، ينتقل الواجب فى حقه إلى المجتمع أيضاً فيطعم ستين مسكيناً ، وهكذا تنتقل خصال الكفارة بين فائدة المجتمع وفائدة الرجل نفسه .

هذا جزاء من حرم حلالاً ، فليتعظ المؤمنون بهذا الجزاء الزاجر .

وعيد وتهديد

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ
وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ
وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ
مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ
إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

معانى المفردات

﴿ **يحادون** ﴾ أى : يشاقون ويعادون ، وأصل المحادة : الممانعة ، ومنه قيل للبواب حداد ، ﴿ **كبتوا** ﴾ أى : خذلوا ، وقال المبرد : كبت الله فلاناً : إذا أذله ، والمردود بالذل : مكبوت . ﴿ **آيات بينات** ﴾ أى : حججاً وبراهين مبينة لحدود شرائعنا . ﴿ **مهين** ﴾ أى : يلحق بهم الهوان والذل ، فينبئهم بما عملوا ، أى : يخبرهم بأعمالهم توبيخاً وتقريعاً لهم . ﴿ **أحصاه الله** ﴾ أى : أحاط به عدّاً لم يغب عنه شيء منه . ﴿ **شهيد** ﴾ أى : مشاهد لا يخفى عليه شيء . ﴿ **ألم تر** ﴾ أى : ألم تعلم ، ﴿ **ما يكون** ﴾ أى : ما يوجد . ﴿ **والنجوى** ﴾ : التناجى والمسارّة ، كما قال : ﴿ **لا خير فى كثير من نجواهم** ﴾[1] ، وقد يستعمل فى المتناجين كما قال : ﴿ **وإذ هم نجوى** ﴾[2] أى : أصحاب نجوى .

المناسبة واجمال المعنى

بعد أن ذكر أحكام كفارة الظهار ، وبيّن أنه إنما شرعها تغليظاً للناس حتى يتركوا الظهار (وقد كان ديدنهم فى الجاهلية) ويتبعوا أوامر الشريعة ، ويلين قيادهم لها ، ويخلصوا لله ربهم فى جميع أعمالهم ، فتصفو نفوسهم ، وتزكو بصالح الأعمال .

أردف هذا ببيان أن من يشاق الله ورسوله ويعصى أوامره ، يلحق به الخزى والهوان فى الدنيا وله فى الآخرة العذاب المهين فى نار جهنم ، ثم أعقب ذلك بالوعيد الشديد ، فبيّن أنه لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، فهو عليم بمناجاة المتناجين ، فإن كانوا ثلاثة فهو رابعهم ، وإن كانوا خمسة فهو سادسهم ، وإن كانوا أقل من ذلك أو أكثر فهو معهم أينما كانوا ، فلا تظنوا أنه تخفى عليه أعمالكم ، وسينبئكم بها عند العرض والحساب ، وحين ينصب الميزان ، فتلقون جزاء ما كسبت أيديكم ، وتندمون ولات ساعة مندم .

التفسير

قوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين** ﴾ .

---

(١) من الآية ١١٤ من سورة النساء

(٢) من الآية ٤٧ من سورة الاسراء

هذا إخبار منه ــ سبحانه وتعالى ــ عن قوم عاندوا وشاقوا وتمردوا على أوامر الله ورسوله كما فى قوله ــ جل شأنه ــ : ﴿ **ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً** ﴾[1] ، وقوله ــ جل شأنه ــ : ﴿ **ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب** ﴾[2] .

هؤلاء المعاندون المكابرون أهينوا ولعنوا وأخذوا كما فعل بمن أشبههم ممن قبلهم . ﴿ **وقد أنزلنا آيات بينات** ﴾ أى : واضحات لا يعاندها ولا يخالفها إلا كافر فاجر مكابر ، ﴿ **وللكافرين عذاب مهين** ﴾ أى : فى مقابلة ما استكبروا عن اتباع شرع الله والانقياد له والخضوع لديه .

ثم قال ــ تعالى ــ : ﴿ **يوم يبعثهم الله جميعاً** ﴾ وذلك يوم القيامة يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، ﴿ **فينبئهم بما عملوا** ﴾ أى : فيخبرهم بالذى فعلوا من خير وشر ، ﴿ **أحصاه الله ونسوه** ﴾ أى : ضبطه الله وحفظه عليهم وهم قد نسوا ما كانوا عملوا ﴿ **والله على كل شىء شهيد** ﴾ أى : لا يغيب عنه شىء ولا يخفى ، ولا ينسى شيئاً .

تزود من التقوى فإنك راحل ... وسارع إلى الخيرات فيمن يسارع
فما المال والأهلون إلا ودائع ... ولابد يوماً أن ترد الودائع
دنياك ساعات سراع الزوال ... وإنما العقبى خلود المآل
فهل تبيع الخلد يا غافلاً ... وتشترى دنيا المنى والضلال

وقد عقد الإمام الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى مجلساً فى ذكر القيامة وأهوالها ــ أجارنا الله منها ــ فقال :

سورة الزلزلة وما تشير إليه

قال الله ــ عز وجل ــ : ﴿ **إذا زلزلت الأرض زلزالها** ﴾ هذه السورة مكية محكمة بالوعد والوعيد ، يخوف الله ــ تبارك وتعالى ــ بها عباده ، ويذكرهم فيها تزلزل الأرض وقيام الساعة لينتهوا عما نهاهم عنه من العصيان ، ويمتثلوا ما أمرهم به من الطاعة والإيمان ، وخوفهم الله ــ تعالى ــ من يوم القيامة ليستعدوا لها ولعظيم أهوالها .

(١) الآية ١١٥ من سورة النساء
(٢) الآية ٤ من سورة الحشر

قال الله — سبحانه وبحمده — : ﴿ **إذا زلزلت الأرض زلزالها** ﴾ يقول : إذا تحركت الأرض بأهلها فزلزلت من نواحيها وارتجت من مشرقها ومغربها فلا تزال كذلك حتى يكسر ما على ظهرها من جبل وبناء فلا تسكن حتى يدخل فى بطنها جميع ما خرج منها . وزلزلتها من شدة صوت إسرافيل — عليه السلام — وذلك إذا فرغت أحيان الدنيا (أحيان الدنيا ، أى : مدتها ، والحين : الوقت ، ويجمع أيضاً على : أحايين وساعاتها وشهورها وأوقاتها وأعوامها وأيامها وحلالها وحرامها . وذلك إذا خمد الحق وظهر الباطل . وترك الناس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وركبوا المآثم واستحلوا المحارم ، وكثر بينهم التظالم ، وترك الجهاد ، وظهر الفساد ، وفشا الربا ، وكثر اللواطة والزنى ، وركبوا الفواحش والفجور ، واستعانوا على ذلك كله بشرب الخمور ، وأمر قوم بالمعروف وتركوه ونهوا عن المنكر وفعلوه ، وكرهوا الحق واتبعوا أهواءهم ، وقرىء القرآن فلم يعمل به ، واسودت القلوب ، وكثرت الفواحش والعيوب ، وتزين الفساق بالمعاصى والذنوب (أى : تباهوا بها وأظهروها ولم يزجروا عنها . وهذا الواقع فى عصرنا — ولا حول ولا قوة إلا بالله) فإذا كانوا كذلك اشتد غضب الجبار — جل جلاله — عليهم فعند ذلك يقول الله : يا إسرافيل ، انفخ نفخة الصعق (صعق الرجل : غشى عليه ، وصعق من فى السموات ومن فى الأرض ، أى : مات ، وهو المراد هنا) .

فينفخ إسرافيل عند ذلك كما أمره الجبار — جل جلاله — فتزلزل الأرض من مشرقها إلى مغربها ، وذلك من غضبة يغضبها الجبار على المنافقين والفجار .

صفة إسرافيل

وإسرافيل (اسم أعجمى ، ويقال فيه : إسرافين ، **أيضا بالنون**). — **عليه السلام** — **ملك عظيم** جناح له بالمشرق وجناح له بالمغرب ، ورجلاه تحت تخوم **الأرض السابعة السفلى** بخمسمائة عام ، والسموات السبع إلى ركبتيه ، وعنقه ملوى **تحت العرش** ، **والعرش على كاهله** ، وقد مد الرجل اليمنى وأخر اليسرى ، واللوح المحفوظ بين عينيه وقد **التقم الصور وشخص ببصره نحو العرش** ، وأنصت بأذنيه ينتظر متى يؤمر بالنفخ فى الصور ؟ والصور : قرن من نور .

قال النبى — ﷺ — : ﴿ **الصور قرن من نور ، والذى نفسى بيده ، إن أعظم شارة فيه كما بين السماء والأرض** ﴾[1] .

---

(١) ورد فى الترمذى فى (كتاب التفسير) تفسير سورة الزمر ج ٥ ص **٣٧٣ حديث رقم ٣٠٤٤ عن عبد الله بن عمرو** — رضى الله عنهما — قال : قال أعرابى : يا رسول الله : ما الصور ؟ قال : « **قرن ينفخ فيه** » .
وقال الترمذى : هذا حديث حسن ، وانظر الدر المنثور ج ٧ ص ٢٥٦ وقال فيه : **(إن عظم دارة فيه لعرض .. الخ)** .

وروى عنه ـ ﷺ ـ أنه قال : « كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم الصور وحنى جبهته وشخص ببصره نحو العرش وأنصت بأذنيه ينتظر متى يؤمر أن ينفخ فى الصور »(١) (الصور : القرن ، وقيل : هو جمع صورة) فإذا نفخ فيه مات أهل السموات والأرض إلا أربعة أملاك فإنهم لا يموتون إلا بعد موت الخلائق وهم : جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ، فمن شدة صوت إسرافيل تتحرك الأرض من مشرقها إلى مغربها ، فلا يبقى عليها بناء إلا انهدم إلا المساجد فإن أساسها يبقى لا ينهدم لفضلها عند الله ـ تبارك وتعالى ـ لما عبد فيها ووحد وقرىء كلامه فيها ، وذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿ كل شىء هالك إلا وجهه ﴾(٢) .

جاء فى التفسير أن الأشياء كلها تهلك إلا عملاً يراد به وجه الله ـ تعالى ـ ، والمساجد لا تهلك لأنها إنما بنيت لوجه الله تعالى .

خشية النبى من هبوب الريح

روى عن النبى ـ ﷺ ـ أنه كان إذا هبت الريح تغير لونه ، وكان يدخل ويخرج مرة بعد أخرى من شدة خوف قيام الساعة وزلزلة الأرض .(٣)

فإذا كان رسول الله ـ ﷺ ـ يخاف هذا الخوف كله وهو أكرم الخلق على الله ، فكيف بمن أفنى عمره فى السهو والغفلات ؟ وقطع أيامه باللهو والبطلات ؟ وضيع أوقاته فى العصيان حتى مات ؟ وأنشدوا :

نهارك يا مغرور سهو وغفلة ... وليلك نوم والردى لك لازم
وشغلك فيما سوف تكره غبه ... كذلك فى الدنيا تعيش البهائم
وفعلك فعل الجاهلين بربهم ... وعمرك فى النقصان بل أنت ظالم

---

(١) ورد فى تاريخ بغداد للخطيب ج ٥ ص ١٥٣ رقم ٢٥٨٧ حديث بلفظ : « كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن ، وحنى ظهره ينظر تجاه العرش كأن عينيه كوكبان دريان لم يطرف قط مخافة أن يؤمر من قبل ذلك » والحديث رواه أنس بن مالك .

(٢) من الآية ٨٨ من سورة القصص .

(٣) روى ابن ماجه فى سننه ج ٢ ص ١٢٨٠ ، ١٢٨١ رقم ٣٨٩١ عن عائشة قالت : كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا رأى مخيلة (سحابة تكون فطنة المطر)تلون وجهه وتغير ، ودخل وخرج ، وأقبل وأدبر ، فإذا أمطرت سُرِّىَ عنه .

قال : فذكرت له عائشة بعض ما رأت منه . فقال : « وما يدريك ؟ لعله كما قال قوم هود : فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا اهدا عارض ممطرنا .. الآية » .

وانظر مسند الإمام أحمد (مسند عائشة ـ رضى الله عنها ـ) ج ٦ ص ١٢١ فقد روته بلفظ : « كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا رأى الريح فقد اشتدت تغير وجهه » .

وانظر مجمع الزوائد ج ٢ ص ٢١١ فقد رواه عن أنس .

فلا أنت فى الأيقاظ يقظان حازم ولا أنت فى النوام ناج وسالم
تسر بما يفنى وتفرح بالمنى كما سر باللذات فى النوم حالم
فلا تحمد الدنيا ولكن فذمها ولا تكثر العصيان ، إنك ظالم

وروى عن النبى ــ ﷺ ــ أنه قال : « انتهيت ليلة أسرى بى إلى السماء السابعة ، فرأيت إسرافيل قد حنى جبهته وقدم رجلاً وأخر أخرى والعرش على منكبه (مجمع عظم العضد والكتف) والصور فى فيه بين شدقيه ، وقد تهيأ للنفخ فى الصور ، فما ظننت أن أبلغ الأرض حتى تبلغن النفخة ، كما رأيت من تهيئته للنفخة »[1] .

سئل رسول الله ــ ﷺ ــ عن إسرافيل فقال : « له جناح بالمشرق وجناح له بالمغرب ، ورجلاه تحت الأرض السابعة السفلى والعرش على كاهله (ما بين الكتفين) وإنه ليفكر كل يوم ثلاث ساعات فى عظمة الله ــ تعالى ــ فيبكى من خوف الجبار حتى تجرى دموعه كالبحار ، فلو أن بحراً من دموعه أذن له أن يسكب لطبق بين السموات والأرض وإنه ليتواضع ويصغر حتى يصير كالوضع » والوضع طير صغير يشبه العندليب ، والعندليب أصغر ما يكون من الطير .

فالله يا معشر من آمن بالله واليوم الآخر ، استعد والقيام الساعة وزلزالها .
قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ **إذا زلزلت الأرض زلزالها** ﴾ تتحرك الأرض وتتمخض ، وتتطاير الجبال وتنقلع الشجر ، وتنهدم المبانى ، فلا يبقى على ظهرها من جبالها وشجرها ونباتها شيء إلا دخل فى جوفها .
قال عكرمة : إنما تقوم الساعة على شر الخلق .

متى ينفخ فى الصور ؟

قال حذيفة : كان الناس يسألون النبى ــ ﷺ ــ عن الخير وكنت أنا أسأله عن الشر مخافة أن يصيبنى ، فكان النبى ــ ﷺ ــ يقول : « فى آخر الزمان فتن كقطع الليل المظلم فإذا غضب الله ــ تعالى ــ على أهل الأرض أمر الله ــ تعالى ــ إسرافيل أن ينفخ نفخة الصعق ، فينفخ على غفلة من الناس ، فمن الناس من هو فى وطنه ، ومنهم من هو فى سوقه ، ومنهم من هو فى حرثه ، ومنهم

(١) انظر أحاديث الصور وإسرافيل وموت الملائكة وملك الموت فى الدر المنثور ج ٧ ص ٢٤٩ ــ ٢٦٢ .

من هو فى سفره ، ومنهم من يأكل فلا يرفع اللقمة إلى فيه حتى يخمد ويصعق ، ومنهم من يحدث صاحبه فلا يتم الكلمة حتى يموت ، فتموت الخلائق كلهم عن آخرهم »

وإسرافيل لا يقطع الصيحة حتى تفور عيون الأرض وأنهارها ، ونباتها وأشجارها وجبالها وبحارها ، ويدخل الكل بعضه فى بعض فى بطن الأرض ، والناس خمود صرعى ، فمنهم من هو صريع على بطنه ، ومنهم مَن هو صريع على ظهره ، وعلى جنبه ، وعلى خده ، ومنهم من يكون اللقمة فى فيه فيموت وما أدرك أن يبتلعها ، وتنقطع السلاسل التى فيها قناديل النجوم فتستوى بالأرض من شدة الزلزلة ، وتموت ملائكة السبع السموات ، والحجب والسرادقات والصادقون والمسبحون ، وحملة العرش والكرسى ، وأهل سرادقات الكروبيين (طائفة من الملائكة ، سموا كروبيين لشدة حزنهم وطول عبادتهم . وهم كالأولياء فى الناس) ويبقى جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت — عليهم السلام — .

كيف يموت جبريل ؟

فيقول الجبار — جل جلاله — : يا ملك الموت من بقى ؟ — وهو أعلم — فيقول ملك الموت : سيدى ومولاى أنت أعلم . بقى إسرافيل ، وبقى جبريل ، وبقى ميكائيل وبقى عبدك الضعيف ملك الموت ، خاضع ذليل قد ذهلت نفسه لعظيم ما عاين من الأهوال ، فيقول له الجبار — تبارك وتعالى — : انطلق إلى جبريل فاقبض روحه . فينطلق ملك الموت إلى جبريل — عليه السلام — فيجده ساجداً وراكعاً ، فيقول له : ما أغفلك عما يراد بك يا مسكين ، قد مات بنو آدم وأهل الدنيا والأرض والطير والسباع والهوام وسكان السموات وحملة العرش والكرس والسرادقات وسكان سدرة (شجرة) المنتهى ، وقد أمرنى المولى بقبض روحك ! فعند ذلك يبكى جبريل — عليه السلام — ويقول متضرعاً إلى الله تعالى : يا الله : هون علىّ سكرات الموت . فيضمه ملك الموت ضمة يقبض فيها روحه فيخر جبريل منها صريعاً ، فيقول الجبار — جل جلاله — : من بقى يا ملك الموت و — وهو أعلم — فيقول : مولاى وسيدى بقى ميكائيل وإسرافيل وعبدك الضعيف ملك الموت .

كيف يموت ميكائيل ؟

فيقول الجبار — جل جلاله — : انطلق إلى ميكائيل فاقبض روحه ، فينطلق ملك الموت إلى ميكائيل كما أمره الله — تعالى — فيجده ينتظر الماء ليكيله على السحاب ، فيقول له : **ما أغفلك** يا مسكين عما يراد بك ! ما بقى لبنى آدم رزق ولا للأنعام ولا للوحوش ولا للهوام . قد مات أهل السموات وأهل

الأرضين وأهل الحجب والسرادقات وحملة العرش والكرسى وسرادقات المجد والكروبيون والصادقون والمسبحون ، وقد أمرنى ربى بقبض روحك ، فعند ذلك يبكى ميكائيل ويتضرع إلى الله ويسأله أن يهون عليه سكرات الموت فيحضنه ملك الموت ويضمه ضمة يقبض فيها روحه فيخر صريعاً ميتاً لا روح فيه ، فيقول الجبار ـــ جل جلاله ـــ : من بقى ـــ وهو أعلم ـــ يا ملك الموت ؟ فيقول : مولاى وسيدى : أنت أعلم ، بقى إسرافيل وعبدك الضعيف ملك الموت

كيف يموت إسرافيل ؟

فيقول الجبار ـــ تبارك وتعالى ـــ : انطلق إلى إسرافيل فاقبض روحه ، فينطلق كما أمره الجبار إلى إسرافيل فيقول له : ما أغفلك يا مسكين عما يراد بك ! قد مات الخلائق كلهم وما بقى أحد ، وقد أمرنى ربى ومولاى أن أقبض روحك ، فيقول إسرافيل : سبحان من قهر العباد بالموت ، سبحان من تفرد بالبقاء ، ثم يقول : مولاى : هون على مرارة الموت ، فيضمه ملك الموت ضمة يقبض فيها روحه فيخر ميتاً صريعاً . فلو كان أهل السموات فى السموات وأهل الأرض فى الأرض لماتوا كلهم من شدة رجة وقعته .

كيف يموت ملك الموت ؟

فيقول الجبار ـــ تبارك وتعالى ـــ : من بقى يا ملك الموت ؟ وهو أعلم .. فيقول : مولاى وسيدى : أنت أعلم بمن بقى ، بقى عبدك الضعيف ملك الموت . فيقول الجبار ـــ تعالى ـــ : وعزتى وجلالى لأذيقنك ما أذقت عبادى ، انطلق بين الجنة والنار ومت ، فينطلق بين الجنة والنار ، فيصيح صيحة لولا أن الله ـــ تبارك وتعالى ـــ أمات الخلائق ، لماتوا من عند آخرهم من شدة صيحته ، فيموت ، فتبقى السموات خالية من أملاكها ، ساكنة أفلاكها ، وتبقى الأرض خاوية من إنسها وجنها وطيرها وهوامها وسباعها وأنعامها ، ويبقى الملك لله الواحد القهار ، الذى خلق الليل والنهار ، فلا ترى أنيساً ، ولا تحس حسيساً ، قد سكنت الحركات ، وخمدت الأصوات ، وخلت من سكانها الأرضون والسموات .

لمن الملك اليوم ؟

ثم يطلع الله ـــ تبارك وتعالى ـــ إلى الدنيا فيقول : يا دنيا : أين أنهارك ؟ وأين أشجارك ؟ وأين سكانك ؟ وأين عمارك ؟ وأين الملوك وأبناء الملوك ؟ وأين الجبابرة وأبناء الجبابرة ؟ أين الذين أكلوا رزقى ، وتقلبوا فى نعمتى وعبدوا غيرى ، لمن الملك اليوم ؟

فلا يجيبه أحد ، فيقول ـــ تعالى ـــ : الملك لله الواحد القهار ، فينظر الجبار ـــ جل جلاله ـــ إلى عباده موتى من بين صريع على خده ، ومن بين بال فى قبره ، ثم يقول : يا دنيا : أين أنهارك ؟ وأين أشجارك ؟ وأين سكانك وأين عمارك ؟ وأين الملوك ؟ وأين الجبابرة ؟ لمن الملك اليوم ؟ فلا يجيبه أحد ، فيقول ـــ تعالى ـــ : لله الواحد القهار . فتبقى الأرضون والسموات ليس فيها من ينطق ولا من يتنفس ما شاء الله من ذلك ، وقد قيل : تبقى أربعين يوماً وهو مقدار ما بين النفختين ، ثم بعد ذلك ينزل الله ـــ تبارك وتعالى ـــ من السماء السابعة ـــ من بحر يقال له : بحر الحيوان ـــ ماء يشبه منى الرجال ينزله ربنا أربعين عاماً ، فيشق ذلك الماء الأرض شقاً ، فيدخل تحت الأرض إلى العظام البالية فتنبت بذلك الماء كما ينبت الزرع بالمطر .

كيفية بعث الموتى

قال الله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته**) **إلى قوله** : ﴿ **كذلك نخرج الموتى** ﴾[1]- الآية . كما أخرج النبات بالمطر ، كذلك يخرج الموتى بماء الحياة ، فتجتمع العظام والعروق واللحوم والأشعار فيرجع كل عضو إلى مكانه الذى كان فيه فى دار الدنيا ، فتلتئم الأجساد بقدرة الجبار ـــ جل جلاله ـــ وتبقى بلا أرواح ، ثم يقول الجبار ـــ جل جلاله ـــ : ليبعثن إسرافيل ، فيقوم إسرافيل ـــ عليه السلام ـــ حياً بقدرة الله ـــ تعالى ـــ فيقول له الجبار : يا إسرافيل : التقم الصور وازجر عبادى لفصل القضاء ، فأول ما يحيى الله ـــ تبارك وتعالى ـــ إسرافيل ويأمره أن يلتقم الصور .

صفة الصور .

والصور : قرن من نور فيه أثقاب على عدد أرواح العباد فتجتمع الأرواح كلها فتجعل فى الصور .

أين يقف إسرافيل ؟

ويأمر الجبار إسرافيل أن يقف على صخرة بيت المقدس وينادى فى الصور ، وهو فى فيه قد التقمة ، والصخرة أقرب ما فى الأرض إلى السماء ، وهو قوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **واستمع يوم ينادى المناد من مكان قريب** ﴾[2] .

---

(١) الآية : ٥٧ من سورة الأعراف

(٢) الآية ٤١ من سورة ق

ويقول إسرافيل فى ندائه : أيتها العظام البالية ، واللحوم المتقطعة ، والأشعار المتبددة ، والعروق المتمزقة ، لتقمن إلى العرض على الملك الديان ليجاز يكن بأعمالكن ، فإذا نادى إسرافيل ـــ عليه السلام ـــ فى الصور خرجت الأرواح من أثقاب الصور فتنتشر بين السماء والأرض كأنها النحل ، يخرج من كل ثقب روح ، ولا يخرج من ذلك الثقب غيره ، فأرواح المؤمنين تخرج من أثقابها نائرة بنور الإيمان وبنور أعمالها الصالحة ، وأرواح الكفار تخرج مظلمة بظلمات الكفر ، وإسرافيل يديم الصوت ، والأرواح قد انتشرت بين السماء والأرض ، ثم تدخل الأرواح فى الأرض إلى الأجساد ، فيدخل كل روح إلى جسده الذى فارقه فى دار الدنيا ، فتدب الأرواح فى الأجساد كما يدب السم فى الملسوع (هو الذى لسعته العقرب والحية ونفثت سمها فيه ، فيتمشى فى الجسم على مهل ، إن لم يتدارك بربط العضو الملسوع ، ويجب بعد ربطه ربطاً محكماً أن يشرط بموسى لينزل منه الدم ثم يمتصه آخر ليس فى فمه جروح ، ويوضع عليه ملح الطعام ويسقى ماء الليمون) حتى ترجع إلى أجسادها كما كانت فى دار الدنيا ، ثم تنشق الأرض من قبل رءوسهم فإذا هم قيام على أقدامهم ينظرون إلى أهوال يوم القيامة وطوامها ، إسرافيل ـــ عليه السلام ـــ ينادى بهذا النداء لا يقطع الصوت ويمده مدّاً ، والخلائق يتبعون صوته ، والنيران تسوق الخلائق إلى أرض القيامة .

ملازمة الأعمال للأجساد

فإذا خرجوا من قبورهم خرج من كل إنسان عمله الذى عمله فى الدنيا ، لأن عمل كل إنسان يصحبه فى قبره ، فإذا كان العبد مطيعاً لربه وعمل عملاً صالحاً كان أنيسه فى الدنيا ، ويكون أنيسه إذا خرج من قبره يوم حشره ، ويؤنسه من الأهوال ومن هموم القيامة وكروبها ، كلما نظر العبد المؤمن إلى نار أو إلى هول من أهوال القيامة جزع ، فيقول له عمله : يا حبيبى ما عليك من هذا شىء ، ليس يراد به من أطاع الله ، إنما يراد به من عصى الله ـــ تعالى ـــ مولاه ، ثم كذب بآياته واتبع هواه ، وأنت كنت عبداً مطيعاً لمولاك ، متبعاً لنبيك ، تاركاً لهواك ، فما عليك اليوم من هم ولا حزن حتى تدخل الجنة .

العمل السوء وهيئته

وإذا كان العبد خاطئاً وعاصياً لذى الجلال ومات على غير توبة وانتقال ، فإذا خرج المغرور المسكين من قبره ، خرج معه عمله السوء الذى عمل فى دار الدنيا ، وكان قد صحبه فى قبره ، فإذا نظر إليه العبد المغتر بربه رآه أسود فظيعاً ، فلا يمر على هول ولا نار ولا شىء من هموم القيامة إلا قال له عمله : يا عدو الله : هذا كله لك وأنت المراد به ، وأنشدوا :

أى يوم يكون يوم النشور | يوم فيه يفوز أهل القبور
يوم فيه الجزاء جنة عدن | لمطيع ومن عصى فى سعير
خاب من قد عصى وفاز مطيع | راقب الله فى جميع الأمور
قام فى الليل للإله ذليلاً | ليس يخلو من خوفه للقدير
خاف من عظم يوم هول شديد | شدة الهول من عذاب الزفير

فالله الله عباد الله ، معشر المريدين انتبهوا من هذا المنام ، واهجروا الفواحش والآثام ، وارجعوا إلى طاعة الملك العلام ، من قبل أن يأتى يوم تشقق السماء فيه بالغمام .

إخراج الأرض ما فيها

قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ **وأخرجت الأرض أثقالها** ﴾ يعنى ما فيها من الموتى والكنوز ، وما أودعها من أعمال العباد ، ومن مخبئات أسرارهم من أعمال الطاعة وأعمال العصيان ، فيأمر الله ـ تعالى ـ أن تخرج أعمال العباد ، وذلك أن العبد إذا خرج من قبره يجد عمله على شفير قبره ، فإن كان عمله صالحاً وجده نوراً يستره ويحجبه ، يستر عورته من أعين الناس ويحجبه عن النيران التى تسوق الناس إلى أرض القيامة ، وإن كان عملاً سيئاً وجده ظلمة سوداء تكون عليه أشد من كل هول يلقاه من أهوال يوم القيامة .

هذا كله فى النفخة الثانية ، وبين النفخة الأولى والثانية أربعون سنة ، فهو قوله : ﴿ **وأخرجت الأرض أثقالها** ﴾ .

فمثل لنفسك يا مغرور وقد ترادفت عليك الهموم والكروب ، وأحاطت بك الأهوال والخطوب ، وأظهرت لك القبائح والعيوب ، وأثقلت ظهرك الأوزار والذنوب . وأنشدوا :

قد سودت وجهى المعاصى | وأثقلت ظهرى الذنوب
أورثننى ذكرها سقاماً | فليس لى فى الورى طبيب
يا شؤم نفسى غداة حشرى | إذا أحاطت بى الكروب
وصوت داع دعا باسمى | أين مفرى ؟ وما أجيب ؟
هذا كتاب الذنوب[1] فاقرأ | فعندها تظهر العيوب

---

(١) اشارة إلى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً** ﴾ ـ سورة الاسراء الآيتان ١٣ ، ١٤ .

ذكر أن العبد إذا خرج من قبره ، وجد عمله السوء حزمة وملك من ملائكة العذاب واقف عليها ، فإذا نظر إلى ما قدم فى أيامه ، قال له الملك : يا عدو الله خذ عملك فاحمله على ظهرك كما كنت تلتذ به فى الدنيا ولم تراقب مولاك ، وقد علمت أنه مطلع عليك ويراك ، فيأخذ العبد المسكين تلك الحزمة فيجده على ظهره أثقل من جبال الدنيا ، والنار تسوقه إلى الموقف ، وملك يسوقه سوقاً حثيثاً بالعنف والانتهار والاغلاظ عليه ، وآخر يشهد عليه مع علم الله ـــ تعالى ـــ فيه . وأنشدوا :

كيف احتيالى إذا جاء الحساب غداً ... وقد حشرت بأثقالى وأوزارى
وقد نظرت إلى صحفى مسودة ... من شؤم ذنب قديم العهد أوطارى
وقد تجلى لهتك الستر خالقنا ... يوم المعاد ويوم الذل والعار
يفوز كل مطيع للعزيز غداً ... بدار عدن وأشجار وأنهار
لهم نعيم خلد لانفاد له ... يخلدون بدار الواحد البارى
ومن عصى فى قرار النار مسكنه ... لا يستريح من التعذيب فى النار
فابكوا كثيراً فقد حق البكاء لكم . ... خوف العذاب بدمع واكف جارى

فالله الله يا أولى الألباب ، تفكروا فى هول يوم الحساب ، ولا تنسوا المطالبة برد الجواب ، وأشفقوا على أنفسكم من أليم العذاب ، وارجعوا إلى طاعة رب الأرباب ، وابكوا على ما سلف من ذنوبكم بانتحاب .

مدة النفخ فى الصور

ذكر أن إسرافيل ـــ عليه السلام ـــ لا يقطع النداء فى الصور حتى تخرج الأرض جميع ما فيها من الموتى ومما أودعها الله ـــ تعالى ـــ من شيء ، فإذا كمل العباد فى الموقف وكل إنس الأرض وجنها ، ووحوشها ودوابها ، وطيرها وأنعامها وهوامها حتى الذباب ، قطع إسرافيل النداء بأمر الله ـــ تعالى ـــ وذلك بعد تبديل الأرض غير الأرض والسموات ، ففى تبديلها قولان :

هيئة أرض الحساب

أحدهما : أن الأرض التى يحاسب العباد عليها هى أرض من فضة بيضاء ، لا جبل فيها ولا بناء ، ولا بحار ولا أنهار ولا أشجار ، ما سفك عليها دم ، ولا عصى الله ـــ تعالى ـــ عليها ، يأتى بها من غامض علمه ، ويقول لها : كونى فتكون ، وقد أضرم تحتها النيران ، وتكون هذه الأرض فى عظم تلك الأرض مثل الشعرة البيضاء فى الثور الأسود .

وقد قيل : ان تبديل الأرض هدم مبانيها ، وغور مياهها ، وانقطاع أشجارها ، وتسجير بحارها ، وتسيير جبالها ، وتبديل السماء ، وتكوير شمسها وقمرها ، وانكدار نجومها ، وتعطيل أفلاكها ، وتشققها ، فهذا تبديل الأرض والسموات . والله أعلم بحقيقة ذلك .

كيف يقف الناس فى المحشر ؟

فإذا قطع إسرافيل — عليه السلام — النداء وقف الخلائق كل واحد منهم ينظر إلى السماء ، ولا يرتد إليه طرفه ولا يدرى أحد من يقف بجواره ، لا رجل ولا امرأة ، ولا يدرى الأخ بأخيه ، ولا الوالد بولده ، ولا الأم بابنها ، كل إنسان منهم مشغول بما هو فيه من عظيم الأهوال ، وكل واحد منهم يفكر فيما جاء به من العصيان ، وفرط فيه من الطاعة والنسيان ، فالكل ينظر إلى ما ينزل به الأمر من السماء من شقاوة أو سعادة .

مقدار زمن المحشر

ويقال — والله أعلم — : ان الوقوف يكون مقدار ثلاثمائة سنة من سنين الدنيا ، لا خبر يتنزل ولا خبر يصعد ، قد كثر الزحام فلا تسمع إلا همس الأقدام ، حيارى نادمون فيما فرطوا فيه من استزلال القدم ، يومئذ لا ينفع البكاء ولا الندم . وأنشدوا :

ليس فى الدنيا لمن آ ... من بالبعث سرور
إنما يفرح بالد ... نيا جهول أو كفور
إنما الدنيا متاع ... كل ما فيها غرور
فتذكر هول يوم ... السما فيه تمور

بكاء النبى من أهوال القيامة

روى عن رسول الله — ﷺ — أنه قال : « خوفنى جبريل — عليه السلام — من أهوال يوم القيامة حتى أبكانى ، فقلت له : حبيبى جبريل : أليس قد غفر الله لى ما تقدم من ذنبى وما تأخر ؟

فقال : يا محمد : لتشاهدن من الأهوال يوم القيامة ما ينسيك المغفرة . فبكى رسول الله ــ ﷺ ــ حتى بلت دموعه لحيته »(١) .

فإذا كان رسول الله ــ ﷺ ــ يبكى من هول يوم الحساب وقد أمَّنه الجبار من أليم العذاب ، ووعده بالجنة وحسن المآب ، فكيف بأمثالنا المساكين ؟ وكيف بمن ترك الحق والصواب ، وخالف السنة والكتاب ، وأطاع الشيطان وأفنى عمره فى معصية الملك الوهاب ؟ وقد قيل فى قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **كلا إذا دكت الأرض دكًّا دكًّا** ﴾(٢) هو تحريكها ، وقيل : دكًّا دكًّا : اذهاباً .

معنى دكِّ الأرض وانشقاقها

سئل بعض العلماء عن معنى تكرار هاتين الكلمتين ، دكًّا دكًّا ، وصفاً صفاً ؟ فقال :

تدكدك الأرض دكاً بعد دك ، أى : تحريك مرة بعد أخرى حتى لا يبقى عليها أثر من بناء أو جبل أو شجر . وقوله : صفاً صفاً : تأتى الملائكة صفاً بعد صف ، كل ملك قد شغل بنفسه ، لعظم ما يرى من ظهور الأهوال ، فإذا كثر زلزال الأرض ﴿ **وحُملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة** ﴾(٣) حتى تنقطع الجبال من أصولها ، وتنشق الأرض وتغور فيها أنهارها وعيونها ، ويدخل فيها كل قصر مشيد ، من بين قديم وجديد ، فياله من يوم ما أهوله !! ومن بلاء ما أطوله !! ومن جبار ما أعدله !! قد أفنى العباد بالحمام (الموت) فلا يرى أحد من الأنام . فإذا استوى الأولون والآخرون فى أرض القيامة ، أمر الله ــ تبارك وتعالى ــ السموات أن تنشق ، فتنشق كل سماء ، وتنقطع كقطع السحاب ، وقيل : كما يتطاير القطن بين يدى القطانين إذا ندفوه .

فمثل لنفسك صوت انشقاقها فى سمعك ، وكيف يثبت له فؤادك ، ويستقر لفظاعة هوله قدمك ، فقدم فى أيام حياتك ما يقيك تلك الأهوال ، لأن الخلق فى أهوال يوم القيامة على قدر أعمالهم فى الدنيا من خير وشر ، فمن عمل صالحاً وخاف من ربه ، وخاف من هول ذلك اليوم ، أمنه الله من جميع أهواله وكروبه ، ومن لم يقدم فى دنياه عملاً صالحاً لآخراه لقيته صعاب الخطوب ، وترادفت عليه الهموم والكروب ، فيندم حين لا تنفعه الندامة ، إذا حل فى أهوال القيامة .

---

(١) انظر مختصر التذكرة (تذكرة القرطبى) للامام الشعرانى ، باب ذكر ما يلقى الناس فى الوقف من الأهوال والشدائد ص ٥٠ فقد أوْرده عن ابن الجوزى غير معزو إلى مرجع من كتب الحديث .

(٢) الآية ٢١ من سورة الفجر .

(٣) الآية ١٤ من سورة الحاقة .

الأمن والخوف

روى عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال : يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ : « إذا خافنى عبدى فى الدنيا أمنته يوم القيامة وإذا أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة » فإذا انشقت السموات بلغت القلوب الحناجر ، وأيقن كل عبد وأمة أنه قادم على ما عمل فى الظواهر والسرائر ، إذا انشقت السموات عظمت المصائب ، وكثرت النوائب ، وندم الصبر على ما فرط فى الدنيا وضيع من الثواب والرغائب .

فإذا انشقت السموات عظمت الرزيات ، وكثرت الآفات ، وظهر العذاب ، وجلت العقوبات ، وأظهر الله مخبئات السريرات ، وندم العبد المغرور على ما أذنب فى الأيام والأوقات ، وما جنى فى الشهور والساعات .

فإذا انشقت السموات كثرت الأحزان ، وبرزت النيران ـ وأزلفت الجنان ، وندم العاصى على ما عمل من العصيان ، وعلى ما فرط فيه من طاعة الرحمن .

فانتبهوا لهذه الأهوال ، يا معشر الاخوان ، يا أهل الإسلام والإيمان ، فإن الهول ـ والله ـ عظيم ، والخطب كبير جسيم .

ملائكة سماء الدنيا

فإذا انشقت السموات وتقطعت ونزلت الملائكة بأجمعها ، فإذا نزلت ملائكة سماء الدنيا فزع منهم أهل الأرض ، وظنوا أنهم قد أمر فيهم بأمر ، فتقول لهم ملائكة سماء الدنيا : لا تجزعوا منا ، فإنا نخاف من الذى تخافون ، وتكون ملائكة سماء الدنيا أكثر من أهل الأرض إنسها وجنها ، وأنعامها وطيرها ووحوشها ، وجميع خلق برها وبحرها ، سبعين ضعفاً ، فيبقى العباد يموج بعضهم فى بعض .

ملائكة السماء الثانية

ثم ينزل ملائكة السماء الثانية وهم أكثر عدداً وأعظم خلقاً ممن اجتمع فى الأرض سبعين ضعفاً ، فتجزع منهم ملائكة سماء الدنيا وجميع من فى الأرض ، فيقولون لهم : لا تجزعوا ، نحن مشغولون

بأنفسنا ، ونخاف مما تخافون منه . فلا تزال ملائكة كل سماء تنزل ويجزع منهم جميع من سبقهم ، ويكون أهل كل سماء أكثر وأعظم ممن سبقهم سبعين ضعفاً ، وكان أهل كل سماء فى صف واحد على حدة ، كل واحد منهم قد شغل بنفسه من عظيم ما يرى وما يبدو له . وأنشدوا : —

يا غافلين أفيقوا قبل بعثكم ... وقبل يؤخذ بالأقدام واللمم
والناس أجمع طراشا خصون غداً ... لا ينطقون بلا بكم ولا صمم
والخلق قد شغلوا والحشر جامعهم ... والله طالبهم بالحل والحرم
وقد تبدّى لأهل الجمع كلهم ... وعد الإله من التعذيب والنقم
وكل نفس لدى الجبار شاخصة ... لا ينطقون ، بلا روح من الزحم

الجبابرة فى الحشر كالذر

روى أن الجبابرة يحشرون يوم القيامة على صورة الذر (صغار النمل ، وقد وردت جملة أحاديث تؤيد ذلك ، وخصوصاً فى قصة الإسراء عند الكلام على رؤيته — ﷺ — للعصاة والمذنبين ، أصغر الناس خلقة ، لتجبرهم على العباد فى الدنيا ، قد صارت العزة للغنى الحميد ، ولزمت الذلة على كل جبار عنيد ، وشيطان مريد ، قد ترادفت عليهم الهموم والأهوال ، وظهرت لهم العقوبات والأنكال ، وندم كل مذنب بطال ، فحينئذ لا حيلة لمحتال فى (يوم لا بيع فيه ولا خلال)[1] .

شعر :

مقام المذنبين غداً عسير ... إذا ما النار قربها القدير
وقد نصب الصراط لكى تجوزوا ... فلا ينجو الكبير ولا الصغير
وقد نسفت جبال الأرض نسفاً ... ويبست البحور فلا بحور
وبرزت الجحيم لكل عبد ... على أهل المعاد لها زفير

عباد الله تفكروا واعتبروا ، وابكوا وتباكوا ، واستعدوا لليوم الثقيل ، والهول الكبير ، والخطب الجليل ، والعذاب الشديد الطويل .

حديث فى أهوال يوم القيامة

ذكر فى بعض الأخبار عن المختار — ﷺ وعلى آله الأخيار ، دوام اختلاف الليل والنهار — أنه قال : « ليوم القيامة مائة ألف هول ، كل هول أعظم من الموت مائة ألف مرة » .

---

(١) من الآية ٣١ من سورة ابراهيم

فاندم يا مسكين على ما صنعت وفات ، وأصلح بالتوبة النصوح ما هو آت ، من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ، ليس للظالمين من نصير ، ولا للعاصين من مجير ، ولا لأحد من ملجأ ولا نكير .

شدة الحر والظل

فإذا تكامل أهل السموات ، وأهل الحجب والسرادقات ، وحملة العرش والكرسى ، وجميع أهل الأرض فى عرصة القيامة ، وازدحمت الخلائق واختلفت الأقدام ، وشخصت الأحداق ، وتطاولت الأعناق وانثنت من شدة العطش ، واجتمع زحام الخلائق وأنفاسهم وشدة حر الشمس وضيق البأس ، ارتفع العرق على وجه الأرض حتى يعلو على الأبدان ، ويعم العباد على قدر منازلهم ورتبتهم التى أنزلتهم عليها أعمالهم التى عملوها فى دار الدنيا ، وقد زيد فى حر الشمس ما يتضاعف ــ قيل حر عشر سنين ــ ولا ظل يومئذ إلا ظل العرش ، فلا يصيب منه عبد ولا أمة إلا على قدر عمله ، فكم بين مستظل ناعم بظل العرش ، وبين ضاح باد بحر الشمس ؟

مطر الرحمة

وقد قيل : إن الله ــ تعالى ــ يمطر يوم القيامة الغيث على طائفة من عباده وترمى جهنم شررها على طائفة أخرى ، فكم بين مستريح ببرد الأمطار وبين ملتهب بحر شرر النار ؟ فمن قطع عمره فى الدنيا بطاعة الرحمن وعمل بالسنة والقرآن ، خلصه مولاه من جميع الهموم والأحزان .

ترهيب من أهوال الحشر

فمثل لنفسك وقد نظرت للجبال قد تقلعت من أصولها ، وصارت مثل السراب ، وتقطعت السموات وتطايرت مثل قطع السحاب ، وقد أيقن كل فاجر وكافر بالحلول فى أليم العذاب ، وقد صارت العزة لذى البطش الشديد ، ولزمت الزلة كل جبار عنيد ، ثم رجعت السماء كالمهل ــ وهو دردى الزيت الذى يجلس فى قعر الإناء (والمهل أيضاً : النحاس المذاب . والمهل : القيح والصديد) قيل : ترجع السماء كالدهن الرقيق ، وترجع الجبال كالعهن المنفوش ، وهو أضعف ما يكون من الصوف ، وتصير الخلائق كالفراش وهو البعوض ، وقيل : كالجراد المنتشر إذا خرجت عليه الشمس لا يأخذ بجهة واحدة ، كذلك الخلق يموج بعضهم فى بعض ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه . قد اجتمعت القيامة بأهوالها ، ووضعت الحوامل أحمالها ، وزلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وشهد على

الأمم بأعمالها . وشاب الوليد ، وحضر الوعد وحق الوعيد ، وعظم الهول الشديد ، وذل كل متكبر وجبار عنيد ، قد خضعت الرقاب لرب الأرباب ، وخاب كل كفار كذاب ، واشتد الهول وعظم العذاب ، فتفكروا فيما تسمعون يا معشر الأحباب ، وانظروا لأنفسكم ياجماعة الإخوان والأصحاب ، واستعدوا لأهوال القيامة يا أولى العقول والألباب . وأنشدوا :

مثل لقلبك أيها المغرور ... يوم القيامة والسماء تمور
قد كورت[1] شمس النهار وأضعفت[2] ... حرًّا على روس العباد تفور
وإذا الجبال تعلقت بأصولها ... فرأيتها مثل السحاب تسير
وإذا النجوم تساقطت وتناثرت ... وتبدلت ، بعد الضياء كدور
وإذا العشار تعطلت عن أهلها ... خلت الديار فما بها معمور
وإذا الوحوش لدى القيامة أحضرت ... وتقول للأملاك أين نسير
فيقال سيروا تشهدون فضائحاً ... وعجائباً قد أحضرت وأمور
وإذا الجنين بأمه متعلق ... خوف الحساب وقلبه مذعور
هذا بلا ذنب يخاف لهوله ... كيف المقيم على الذنوب دهور ؟

جهنم فى المحشر

فإذا اشتد الفرق ، وسال العرق ، أمر الجبار ــ جل جلاله ــ أن يؤتى بجهنم ــ أعاذنا الله وإياكم منها ، وزحزحنا وإياكم عنها برحمته ــ فيؤتى بها وأهوالها وأنكالها وسلاسلها وأغلالها ، وقد اشتد جحيمها ، وغلى حميمها ، وكثر زقومها ، وغضب زبانيتها ، وعظم سم حياتها وعقاربها ، واسودت جبالها ، وهاجت بحارها ، ونتن غسلينها ، وغلى سمومها ، وقد اجتمعت مما خلق الله فيها من عظيم بلائها ، فأبرزت للخلائق وهم ينظرون إليها من مسيرة خمسمائة عام .

وصف جهنم

قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ وبرِّزت الجحيم لمن يرى ﴾[3] فيراها الخلائق كلهم وهى تغتاظ على العباد ، وتغضب لغضب الجبار ــ جل جلاله ــ وتتغيظ وتتسعر ، عليها سبعون ألف زمام من حديد ،

(١) كورت الشمس : قال ابن عباس : غورت . وقال قتادة : ذهب ضوؤها . وقال أبو عبيد : مثل تكوير العمامة ، تلف فتمحى
(٢) أضعفت : أى : زيد عليها مثلها أو أكثر ، يريد أن الشمس زادت حرارة بعد تكويرها .
(٣) الآية ٣٦ من سورة النازعات

قد تعلق بكل زمام سبعون ألف ملك من ملائكة النار يحبسونها عن الخلائق ، وهى تريد أن تنفلت من أيديهم وتأتى على أهل الموقف ، والملائكة الذين يحبسونها : وجوههم مثل الجمر ، وأعينهم مثل البرق الخاطف ، فإذا تكلم أحدهم تناثرت النار من فيه ، بيد كل واحد منهم أرزبة من حديد ، من نار ، فيها اثنان وسبعون ألف رأس من نار كأمثال الجبال الراسيات العظام ، ورءوسها كرءوس الأفاعى ، وهى أخف فى يدى الملك من الريشة ، وأعينهم زرق ، ووجوههم كالحة ، قد خلقوا من نار السموم ، فتريد جهنم أن تنفلت من أيدى الملائكة من غضب الجبار — جل جلاله — هذا كله قاله الضحاك عن الأئمة عن ابن عباس — رضى الله تعالى عنهم —

بطش جهنم

فإذا جاءت جهنم بأمر الله — تبارك وتعالى — جاءت بالهول الأكبر ، والفزع الأعظم ، فيخرج من نفسها وهج شديد ، ويسمع من جوفها دوى سلاسل الحديد فإذا قربت من الخلائق سمعوا لها شهيقاً ورأوا لها حريقاً ، فإذا نظرت فى أهل المعاصى ثارت وفارت ، وأرادت أن تثب عليهم ، فاغتاظت وتحمحمت إليهم ، وأرادت أن تأتى على جميع الخلائق ، فلا يجدون منفذاً ولا مكاناً يستغيثون إليه ، ومنادى ينادى : ﴿ **يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان** ﴾[1] . أى : بحجة ، ثم ترجع جهنم بسلطانها على خزانها لشدة غضب الجبار على من عصى الله وخالف رسوله ، فإذا انفلتت من أيدى الزبانية ، أرادت أن تقبض على كل من فى الموقف ، فيعرض لها — صلوات الله وسلامه عليه — محمد الرسول ، وكل نبى يومئذ بنفسه مشغول .

رد الرسول جهنم عن الخلائق

فيأخذ محمد — ﷺ — بزمامها ، ويقبض على خطامها ، فيردها على عقبها ، وهو — ﷺ — يقول لها : كفى عن أمتى ، فتخمد من نوره — ﷺ — وتناديه : أيها النبى المكرم ، والرسول المشرف المعظم ، خل سبيلى من يديك ، فما جعل الله لى ولا لغيرى من سلطان عليك . فيناديها الملك الجليل الجبار : هذا محمد حبيبى سيد الأبرار ، ووزير الأخيار ، فالطاعة لمن له الوسيلة والشفاعة ، فعند ذلك تضع جهنم رأسها خاضعة كالحة كليلة تحت سكون وخمود ، بإذن الملك المعبود ، لمحمد — ﷺ — صاحب الحوض المورود ، والمقام المحمود ، واللواء المعقود ، والكرم والجود ، وإقامة الحقائق والحدود . ولو تركها خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، لأهلكت الخلائق أجمعين ، غضباً لغضب رب العالمين ، أعاذنا الله وإياكم برحمته منها — انه أرحم الراحمين .

(١) الآية ٣٣ من سورة الرحمن

جهنم وزفيرها

وقيل : إن جهنم ــ أعاذنا الله منها ، وزحزحنا وإياكم برحمته عنها ــ إذا نظرت إلى الكفار والمنافقين والفجار ، وأصحاب الخطايا والأوزار ، زفرت زفرة فترمى شرراً على رءوس الخلائق مثل عدد نجوم السماء ، وزبد البحر ورمل البر ، فتقع على رءوس الكافرين والعاصين لرب الأولين والآخرين فلو كانت الدنيا باقية لانهارت جبالها ، وجفت أزهارها ، وييبست عيونها وأنهارها ، من شدة حر شرر جهنم ، ولو كان ثمَّ موت لمات الخلق كلهم .

الزفرة الثانية

ثم تزفر أخرى أعظم من الأولى فلا تبقى دمعة فى عين إلا قطرت ، ويغلب بياض العين على سوادها ، وتبلغ القلوب الحناجر ، ولا يسأل أحد إلا نفسه : البر والفاجر .

الزفرة الثالثة

ثم تزفر الثالثة وهى أعظم من الأولى والثانية ، فلا يبقى ملك مقرب ولا نبى مرسل ولا ولى ولا صديق إلا جثا على ركبتيه ، حتى ابراهيم وجميع المرسلين ، ما خلا حبيب رب العالمين محمد ــ ﷺ ــ خاتم النبيين ، فإنه لا يسأل عن هول النار ، فقد خلصه الله من أهوالها .

الزفرة الرابعة

ثم تزفر الرابعة ، وهى أعظم من الأولى والثانية والثالثة فتلقى الزبانية على وجوههم أجمعين ، وتفر الخلائق كلهم هاربين ، ويتعلق جبريل وميكائيل ــ عليهما السلام ــ بساق العرش ، وكل ملك ينادى : نفسى نفسى ، لا أسألك اليوم غيرها . ويقول أيضاً كل واحد منهم : بحرمة محمد ، وبقدر محمد ــ ﷺ ــ نجنى من عذابك ، لما يرون من حرمته وجلالة قدره وعظيم منزلته عند ربه ، فإذا هرب الخلائق وجهنم تريد أن تأتى عليهم ، وقد غلى بعضها فى بعض ، وتقلب بعضها على بعض ، ولا يبقى غل ولا سربال ولا سلسلة ولا قيد ولا حية ولا عقرب إلا ألقت الكل على متنها .

بماذا تخمد النار ؟

فعند ذلك يقبل إليها محمد ــ ﷺ ــ ويلقى يده فى زمامها ويلوح إليها بحلة خضراء ، فتخمد من نور وجهه المبارك ، وهو ــ ﷺ ــ يضرع إلى العلى المجيد وهو يقول : يا سلام سلم أمتى من العذاب الشديد .

وأنشدوا :

الدمع فى خد من عصى حسن ... حسب الفتى من دموعه الحزن
يا من شكل حافظاه خلوته ... لما خلا ، والعباد ما فطنوا
قد كان ربى عليك مطلعاً ... وأنت لاهى الفؤاد مفتتن
لم تهتك الستر إذ خلوت به ... ولا انقضت من عطائه المنن
النار تسعى إلى العصاة غداً ... لم يعلم المذنبون ما وسن

يا قوم : العجب من القلوب التى بُليت بالعباد ، وغفلت عن أهوال يوم المعاد ، وتمادت على معصية الرب الكريم الجواد .

يا أخى : كأن المراد بهذا كله غيرنا . ليبعثن الجبار الذليل والحقير ، ويسألهم عن الفتيل والنقير ، وعن الذرة والقطمير ، وعن القليل والكثير ، فى اليوم المهول العبوس والعسير ، الذى يشيب من فظاعة هوله الطفل الصغير ، رفق الله بنا وبكم فى ذلك اليوم انه على ما يشاء قدير ثم يبعث الله تعالى جبريل إلى جهنم فيقول لها : الله تعالى يقول لك : الطاعة . فتقول : وعزة الله وعظيم جلاله لأنتقمن اليوم ممن لم يعمل بطاعة الله ، واستعان بنعمته على معصيته . ثم تقول : يا جبريل : هل خلق الله خلقا يعذبنى به ؟ فيقول جبريل : لا ، ما خلقك الله ــ تعالى ــ إلا نقمة لمن عصاه . فتقول جهنم عند ذلك : الحمد لله الذى جعلنى نقمة لمن عصاه ، ولم يجعل من خلقه من ينتقم منى .

عند ذاك ــ والله ــ تعظم الخطوب ، وتظهر القبائح والعيوب ، ويندم أهل المعاصى والذنوب .

وأنشدوا :

ليس فى الدنيا لمن ... آمن بالبعث سرور

فإنا لله وإنا إليه راجعون ، على من باع نفسه فى سوق الخسران ، وترك العز ورضى بالهوان ، وبذل مهجته لعذاب النيران ، وبارز بالخطايا الملك الديان .

من أسباب غفران الذنوب

حكى عن بعض العارفين ــ رحمه الله ــ أنه قال : حضرت سنة من السنين الوقوف بعرفات ، فإذا بضجة الناس ، فتذكرت يوم القيامة ، وذكرت رحمة الله ، فأردت أن أحلف أن الله قد غفر لكل من فى الجمع ، فذكرت أنى فيهم فأمسكت . وأنشدوا :

يا كثير الذنوب أقصر قليلاً قد بلغت المدى من الإسراف

فإذا اشتد بالخلائق الهلع ، وكثر منهم الخوف والجزع ، وبلغت القلوب الحناجر ، من خوف من يعلم الظواهر والسرائر ، نادى الملك الرحمن : « يا عباد : لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون »[1] . فإذا سمع الخلائق هذا النداء طمع كل منهم فيه . فيقول ــ سبحانه ــ : ﴿ **الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين** ﴾[2] فعندئذ ييأس من الرحمة جميع الكفار والمنافقين والفجار ، ويطمع فيها من آمن بالواحد القهار ، واتبع سنة محمد المختار .

عند ذلك تنشر الدواوين ، وتوضع الموازين ، وتتطاير الصحف فى الألف ، فكل امرىء بما اكتسب معترف ، فندم الظالم ، وخسر الآثم ، وظهرت فى الصحائف الفضائح ، وكثر الخجل ، واشتد الوجل ، وبدت الفضائح ، وشهدت على كل امرىء حفظته والجوارح .

وأنشدوا :

طال والله بالذنوب اشتغالى وتماديت فى قبيح فعالى
ليت شعرى إذا أتيت فريداً والموازين قد نصبن حيالى
والدواوين قد نشرن وجئنا والنبيون يشهدون سؤالى
ما اعتذارى وما أقول لربى فى سؤالى وما يكون مقالى ؟
أورثتنى الذنوب دار هموم لست أبقى لها ولا تبقى لى
يا عظيم الجلال ما لى عذر بل حقيق أنا بنار السغالى
غير أن الرجاء فيك مكين فارحم العبد يا جميل الفعال
وتفضل على عُبَيْدٍ مسىء ليس يرجو سواك يا ذا الجلال

(١) الآية ٦٨ من سورة الزخرف

(٢) الآية ٦٩ من سورة الزخرف

هذا يوم الدين

روى عن رسول الله ـــ ﷺ ـــ أنه قال : « إذا جمع الله ـــ تبارك وتعالى ـــ الأولين والآخرين نادى مناد : هذا يوم الدين ، هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون »[١] .

فانظر لنفسك يا مسكين ، يا ضعيف الإيمان واليقين ، يا من يقول إنه من المؤمنين المصدقين ، وهو يعمل أعمال المكذبين المخالفين ، التاركين لسنن سيد المرسلين وخاتم النبيين . ما أجرأك أن تكون عند الله من الكاذبين ، لو خفت من عذاب يوم الدين ، لعملت بالقرآن المبين ، ولو كنت من المؤمنين المصدقين ، لأطعت رب الأولين والآخرين . فسل مولاك أن يفرج عنك ما قد نزل بك من داء الذنوب ، وهتك سترك من القبائح والعيوب . وأنشدوا :

يا طبيب الذنوب والآثام ... هل دواء أبرأ به من سقامى ؟
إن داء الذنوب أضعف جسمى ... ومشيبى موكل بحمامى
وشفائى أعيا الأطباء إنى ... قد تغذيت مدتى بالحرام
وركبت الذنوب سرّاً وجهراً ... وتباعدت من محل الكرام
كيف بالطب أن يعالج مسقمى ... وكلامى يزيد قرح كلامى[١]
أيها الناس قد علمتم ذنوبى ... واغترارى وشقوتى واحترامى
وأنا أرغب الدعاء فجدوا ... فى فكاكى من الذنوب العظام
واشتياقى إلى الطواف شديد ... وإلى الركن والصفا والمقام
وإلى يثرب يحن فؤادى ... كى أزور النبى خير الأنام
فسلوا الله فى الوصول فإنى ... ذو اشتياق لحج بيت حرام
فلعل الإله يغفر جرمى ... وينجنى من هول يوم القيام
ويفك ذو الجلال عبداً ضعيفاً ... مات خوفاً من العذاب الغرام

(١) روى ابن كثير فى تفسيره (تفسير سورة المرسلات) ج ٤ ص ٤٦١ عن ابن أبى حاتم بسنده إلى أبى عبد الله الجدلى قال : أتيت بيت المقدس فإذا عبادة بن الصامت وعبد الله بن عمرو وكعب الأحبار يتحدثون فى بيت المقدس ، فقال عبادة : « إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ينفذهم ويسمعهم الواعى ، ويقول الله : هذا (يوم الفصل جمعناكم والأولين . فإن كان لكم كيد فكيدون) اليوم لا ينجو منى جبار عنيد ولا شيطان مريد » .

(٢) الأولى : كلامه ، أى : ألفاظه ـــ بفتح الكاف ـــ والثانية بكسرها ، أى : جروحه .

موعظة كعب الأحبار

روى أن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ قال لكعب : يا كعب خوفنا . فأطرق برأسه ثم رفع رأسه وعيناه تذرفان دموعاً ، فقال : يا أمير المؤمنين : والذى نفس كعب بيده ، إن جهنم لتزفر زفرة فتقطع السلاسل التى بأيدى الزبانية الذين يمسكونها بها حتى تفيض على أهل الجمع ، وتلقى الزبانية على وجوههم ، وينهزم مالك خازنها من بين يديها ، فلو كان لكل آدمى عمل مائة ألف نبىّ ، ومائة ألف صِدِّيق ، ومائة ألف شهيد ، لحقر عمله ولظن أنه لا ينجو منها . فعند ذلك يعرض لها النبى ــ ﷺ ــ وقد أشرقت القيامة من نور وجهه ، فيأخذ بزمامها ويقول لها : كفى عن أمتى ، كفى عن أمتى ، كفى عن أمتى (ثلاثاً) فتقول له : يا أيها النبى الكريم ، والرسول الرءوف الرحيم ، ما جعل الله لى عليك ولا على أمتك من سبيل . فعند ذلك يتعلق العبد المذنب إذ رأى الأهوال العظام بالنبى ــ عليه الصلاة والسلام ــ فيقول : يا رسول الله : أنقذنى من عذاب الله . فيقول له : ألم أبلغك رسالة ربى فلم عصيت ؟ فيقول له العبد المذنب : يا رسول الله غلبت على شقوتى . فيقول ــ ﷺ ــ : لا شقوة على أحد من أمتى ، ولا على من قال فى الدنيا مخلصاً : لا إله إلا الله محمد رسول الله . فيشفع له إلى الله تعالى فيشفع فيه .

وأنشدوا :

ألا أكرم بأحمد ذى الأيادى ... شفيع الناس فى يوم التنادى
إذا نشر الخلائق من قبور ... عراة يبتغون ندا المنادى
وقربت الجحيم لمن يراها ... فيالله من خوف العباد
وقد زفرت جهنم فاستكانوا ... سقوطاً كالفراش والجراد
وقد بلغت حناجرَهم قلوب ... وقد شخصوا بأبصار حداد
فيا جبار عفواً منك فالطف ... ويا رحمن رفقاً بالعباد
ونودوا للصراط ألا هلموا ... فهذا ويحكم يوم المعاد
تسوقكم إليه سوق عنف ... مقامع من زبانية شداد
ألا يا معشر الاسلام هبوا ... من الإغفال فى غمر الرقاد

حديث فى الترهيب

روى عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « كل عين باكية يوم القيامة إلا عين بكت من خشية الله ، وعين غضت عن محارم الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله »(١) .

فقدموا عباد الله فى اليسير من الأيام ، ما يقيكم الأهوال العظام ، والخطوب الجسام ، والزلازل والطوام ، والعذاب الغرام ، فإن العمر يسير ، والأجل قصير ، والزاد قليل ، والهول جليل ، والعذاب طويل ، واليوم مهول ثقيل ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، على من قطع أيامه فى العصيان ، واستبدل الجنة بالنيران ، والربح بالخسران ، وترك العز ورضى بالهوان ، وعوض عن الزيادة بالنقصان .

ففكر فيما تسمع أيها الإنسان ، وأنا وأنت وكلنا ذلك الإنسان .

وأنشـدوا :

مقـام المذنـبين غـداً ذليـل ... وقـدر الطائـعين غـداً جليـل
إذا مـد الصراط على جـحيم ... تصول على العصاة وتستطيـل
ونـادى مالكـاً خـذ مـن عصانى ... فـإنى اليـوم لست لهم أقيـل

سجود جهنم

ذكر فى بعض الأخبار أن جهنم ـ أعاذنا الله منها ، وزحزحنا برحمته عنها ـ تستأذن يوم القيامة فى السجود ، فيؤذن لها ، فتسجد ما شاء الله من ذلك ثم يقال لها : ارفعى رأسك فترفع رأسها وهى تقول : الحمد لله الذى خلقنى لينتقم بى ممن عصاه ولم يجعل شيئاً من خلقه ينتقم به منى .

إلهى : قد اشتد بلائى وأخمدت نارى ، وغلا حميمى وزقومى ، وكثر نتنى وغسلينى (ما انغسل من لحوم أهل النار ودمائهم) وأكل بعضى بعضاً ، إلهى : عجل علىّ بأهلى ، فو عزتك لأنتقمن لك ممن عصاك واتبع هواه ، وجحد آياتك وكذب رسلك ، وجعل معك إلهاً غيرك ، لا إله ألا أنت . فتنادى نداء يسمعه أهل الموقف جميعاً ، ثم تغتاظ على أهل المعاصى فترمى بشرر وفى القرآن : ﴿ **إنها ترمى بشرر كالقصر** ﴾(٢) .

---

(١) الحديث رواه السيوطى فى الدر المنثور ج ٦ ص ١٧٨ فى (تفسير سورة النور) تفسير الآية ٣٠ ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ..** ﴾ الآية . وعزاه إلى ابن أبى الدنيا والديلمى .

وانظر تفسير ابن كثير فى نفس الآية ولفظه : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل عين باكية يوم القيامة إلا عينا غضت عن محارم الله ، وعينا سهرت فى سبيل الله ، وعينا خرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله » .

(٢) الآية ٣٢ من سورة المرسلات

وفسره ابن عباس بأعناق النخل . وقال الزمخشرى : أعناق النخل وأعناق الابل ، وقال الهروى : أعناق الإبل ، كعدد النجوم فى السماء ، وزبد البحر ورمل البرونبات الأرض على رءوس الخلائق ، فيقع على رءوس العصاة ، فمن كان له عمل صالح صار حجاباً بينه بين شرر جهنم ، ومن لم يكن له عمل صالح صار رأسه غرضاً لشرر جهنم . أعاذنا الله منها ، وزحزحنا عنها برحمته . يارب العالمين . آمين .

مجلس فى ذكر الميزان والصراط

قال الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً** .. ﴾[1] الآية ، عباد الله ، ما لقلوبكم لا تخشع ؟ وما لآذانكم لا تسمع ؟ وما لدعائكم لا يسمع ؟ وما لعيونكم لا تدمع ؟ وما لبطونكم من السحت (بسكون الحاء وضمها : الحرام ، وأسحت فى تجارته : إذا اكتسب السحت) والحرام لا تشبع ؟ وما لعملكم المحمود لا يرفع ؟ .

إخوانى : من شغل نفسه بخدمة المعبود المحمود ؟ من خاف من ورود النار وبئس الورد والمورود ؟

افتخار الوحوش على بنى آدم

ذكر فى بعض الأخبار أن الوحوش تجتمع يوم القيامة فتخر ساجدة ، فيقال لها : ما هذا يوم السجود ، فتقول : إنما سجدنا شكراً لله الذى لم يجعلنا من ولد آدم ، وجعلنا ممن يشهد فضائح ابن آدم .

فالله الله يا إخوانى . اقبلوا النصيحة ، قبل يوم الخجل والفضيحة فإذا كان يوم القيامة وجاءت جهنم بأهوالها ، يضرب الصراط على متنها ، طوله خمسمائة عام ، وقد قيل : طوله ستة وثلاثون ألف سنة من سنين الدنيا ، أدق من الشعر ، وأَحَدُّ من الموسى ، وقيل : أحَدُّ من السيف ، وأحر من الجمر . وقد قيل : إنه شعرة من جفن مالك خازن جهنم يمدها على متن جهنم ، عليه حسك وكلاليب (الحسك : شوك السعدان ، والحسك أيضاً : ما يعمل من الحديد على مثاله للمحاربين . والكلاليب : آلة من الحديد كالخطاف) قد تعلق بكل كلوب منها عدد نجوم السماء من الزبانية ، لو أن واحداً منها أذن الله له أن يتنفس فى الدنيا لأحرقها بإنسها وجنها ، وجميع ماذرأ الله فيها ، ولأذاب جبالها وجفف بحارها .

---

(١) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء

صفة الصراط

والصراط أسود مظلم من شدة سواد جهنم ، فلا يجوز يومئذ إلا من كان له نور ، ولا يكون النور يومئذ إلا من الأعمال الصالحة ، فمن عمل عملاً صالحاً نجاه من النار ، وجاز إلى دار الراحة والقرار ، ومن لم يقدم فى الدنيا عملاً صالحاً حرم من النظر إلى وجه الجبار ، وهوى فى دار الندامة والبوار . فى دار عذابها سموم وشرابها حميم (ماء حار) وظلها لا بارد ولا كريم ، وطعامها الزقوم (اسم طعام للعرب ، فيه تمر وزبد . قال الله — تعالى — : ﴿ **إن شجرة الزقوم ۝ طعام الأثيم ۝ كالمهل يغلى فى البطون ۝ كغلى الحميم** ﴾[1] ، يتردى — والله — فى دار عذابها أليم ، ومسكنها جحيم ، وساكنها أبداً فى العذاب مقيم ، يتردى — والله — فى نار قعرها بعيد ، وعذابها شديد ، وشرابها صديد ، ومقامعها حديد ، وما هى من الظالمين ببعيد .

وأنشدوا :

أما آن يا أخى أن تستفيقا ... وأن تتناسى الحمى والعقيقا
وقد ضحك الشيب فى عارضِ ... ك وبانت مساويك فيه بروقا
وركب أتاهم وقد عرضوا ... على أتباع المنايا طروقا
أدارت عليهم كؤوس الحمام ... صبوحاً تلازمهم أو غبوقاً
ومازال فيهم غراب الحما ... م فيسمعهم للمنايا نعيقا
ويحجل فى عرصات القصو ... ر حتى أعاد الفسيحات ضيقا
ألا فازجر النفس عن غيها ... عساك تجوز الصراط الدقيقا
مقام به تذهل المرضعا ... ت وتلقى الحوامل ، وعداً صدوقا
وتبرز للناس نار الجحيم ... لها عنق تترامى حريقا
شرابهم المهل فى قعرها ... تقطع أمعاءهم والعروقا
إذا طبقت فوقهم لم يكن ... لتسمع إلا البكا والشهيقا
أذلك خير أم القاصرا ... ت تخال مباسمهن البروقا
قصرن على حب أزواجهـ ... ـن فمشتاقة تتلقى مشوقا
لقد فاز من كان للمصطفى ... بدار المقامة يوماً رفيقاً

(١) الآيات ٤٣ — ٤٦ من سورة الدخان

حسن العمل والصراط

فمثل لنفسك يا مسكين وقد جئت إلى الصراط ، وقد رأيت العاملين وقد جازوا ، وأنوارهم تسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، ورأيت البطالين فى ظلمات البطالات ، وغمرات الجهالات . فالله الله يا جماعة الضعفاء ، يا من قطع عمره فى الخلاف والجفاء ، خذوا لأنفسكم بالاحتياط ، واحذروا الأهوال الصعبة عند جواز الصراط ، لأن الصراط لا يجوزه آثم ، ولا ينجو منه ظالم . والصراط حق دقيق ، لا ينجو منه من خالف التحقيق ، وترك السنة ومنهاج (الطريق الواضح) الطريق . الصراط طويل بعيد ، لا يجوزه إلا من أخذ نفسه بالحزم الشديد ، واستقام على طاعة الولى الحميد . الصراط مهول مخوف ، لا يجوزه إلا من أغاث الملهوف ، وأطاع الرحيم الرءوف ، الصراط صعب مهول ، لا يجوزه إلا من اتبع سنة محمد الرسول . وأطاع رباً لا يحول ولا يزول ، الصراط كثير الزبانية (عند العرب ــ الشرط ــ وأصل الزبن : الدفع ، لأنها تدفع العصاة إلى النار) لا يجوزه إلا من أطاع مولاه فى الفانية . وراقب الله فى السر والعلانية .

ذكر فى بعض الأخيار أنه لا يجوز الصراط العبد والأمة إلا من بعد نشر الدواوين ، ووضع الموازين .

الموازين يوم القيامة

ذكر أن لكل إنسان ميزاناً يوزن به عمله ، فمن عمل عملاً سيئاً خف ميزانه وهوى فى النار ، وقد قيل : إن الميزان هو منصوب بين يدى عرش الرحمن ، يوزن به أعمال العباد .

وكان الحسن ــ رضى الله عنه ــ يقول : لكل إنسان ميزان يوزن به عمله من خير وشر ، واستدل على ذلك بقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة** ﴾[1] الآية . وأما قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **وأما من ثقلت موازينه ، وأما من خفت موازينه** ﴾ فهو ميزان الحسنات وميزان السيئات ، وقوله : ﴿ **ثقلت وخفت** ﴾ فقوله : ﴿ **ثقلت** ﴾ بقول : لا إله إلا الله ، بالإخلاص ، و ﴿ **خفت** ﴾ من الحسنات بالشرك والنفاق والرياء والسمعة ، لأن العبد قد يقول : لا إله إلا الله على معصية ، ويقول لا إله إلا الله والله أكبر على أخذ مال مسلم ، فإنما ذلك نفاق ، لأن النبى ــ ﷺ ــ

(١) الآية ٤٧ من سورة الانبياء

قال : « من قال : لا إله إلا الله مخلصاً رجح ميزانه ونجا من النار ودخل الجنة » فقيل : يا رسول الله : وما إخلاصها ؟ فقال : « أن تزحزحكم عما حرم الله تعالى »[١] .

وزن الأعمال

ذكر فى بعض الأخبار أنه يقدم عبد يوم القيامة للحساب فيخرج له تسعة وتسعون سجلاً مملوءة بالسيئات فتوضع فى كفة الميزان فيشتدهمّ العبد وكربه ، فيقول الجبار ــ جل جلاله ــ : لعبدى عندى ذخيرة ادخرتها له ، فيأمر الله تبارك وتعالى أن يخرج له رقعة صغيرة فيها مكتوب ، مات فلان وهو يشهد ويقول : لا إله إلا الله مخلصاً[٢] .

كلمة التوحيد

فيقول الله ــ تعالى ــ : ضعوها فى ميزان عبدى ، فتوضع فى ميزانه ، فيميل الميزان بها ، وترجح على جميع سيئاته ، فعند ذلك يفرح العبد ، فيأمر الله تبارك وتعالى به إلى الجنة .

وأنشدوا :

أعددت لله حين ألقاه ... أشهد أن لا إله إلا الله
أقولها للإله خالصة ... يرحمنى فى القيامة الله
لعل يوم الحساب أنجو بها ... يوم العقوبة يوم بلواه
يوم يفوز التقى قائلها ... ويخسر الجاحدون نعماه
فهى لدار الخلود قائدة ... ومن عصى فالجحيم مأواه
من قالها للإله مخلصة ... فهو الذى قد آتاه تقواه
وهو الذى فى الجنان مسكنه ... الله قد خصه وأرضاه
قد فاز عبد يكون ذاكرها ... بدار عدن جوار مولاه
يحظى بدار الخلود قائلها ... طوبى لمن قالها وطوباه[٣]
من كان عند الممات قائلها ... فاز بدنياه وأخراه

---

(١) الحديث فى تاريخ بغداد للخطيب ج ١٢ ص ٦٤ عن أنس بن مالك ــ رضى الله عنه ــ
(٢) انظر سنن ابن ماجه (كتاب الزهد) باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة ج ٢ ص ١٤٣٧ رقم ٤٣٠٠ .
(٣) الطوبى : فعْلَى من الطيب ، واسم شجرة فى الجنة .

فالله الله عباد الله ، ارغبوا إلى مولاكم أن يثبتكم على الكلمة المباركة الخفيفة فى اللسان ، الثقيلة فى الميزان ، المزينة للديوان ، بها يرضى الملك الرحمن ، وبها يسخط اللعين الشيطان ، وبها ينجو العبد المذنب من النيران ، وبها يصل العبد إلى نعيم الخلد والإيمان .

فضل الصدقة

ذكر أن العبد إذا قدم إلى ميزانه وأخرجت سجلات سيئاته أعظم من جبال الدنيا ، فإذا وجدت له صدقة طيبة تصدق بها لم يرد بها إلا وجه الله — تعالى — ولم يطلب بها جزاء من مخلوق ، ولا رياء ولا سمعة ولا محمدة ولا شكراً ، فإن تلك الصدقة توضع فى الميزان بأمر الملك الخلاق ، فترجح على جميع سيئاته ولو كانت سيئاته مثل وزن الجبال .

وأنشدوا :

يا جامع المال يرجو أن يدوم له ... كل ما استطعت قدم للموازين
ولا تكن كالذى قد قال إذ حضرت ... وفاته ثلث مالى للمساكين[1]

واعلموا عباد الله أن الميزان إذا نصب للعبد فهو من أعظم الأهوال يوم القيامة ، لأن العبد إذا نظر إلى الميزن فؤاده ، وكثرت خطوبة ، وعظمت كروبه (الكرب : الغم الشديد الذى يأخذ النفس) فلا تهدى روعة العبد حتى يرى أيثقل ميزانه أم يخف ؟ فإن ثقل ميزانه فقد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، وإن خف ميزانه فقد خسر خسراناً مبيناً ، ولقى من العذاب أمراً عظيماً .

شفاعة الرسول

ذكر فى الأخبار أن أمة محمد — ﷺ — إذا قدموا إلى الميزان عظمت كروبهم ، حين أظهرت لهم قبائحهم وعيوبهم ، ووزنت أوزارهم (آثامهم وأثقالهم) وذنوبهم ، وضاقت حيلهم ، وتغيرت أحوالهم ، فعند ذلك يأتيهم النبى الشفيع محمد — ﷺ — فإذا نظر إلى أمته قد تحيروا عند الميزان دعا الله أن يثقل موازينهم ، فيأمره الله — تعالى — أن ينظر إلى موازين أمته ، فينظر — ﷺ — إليها فترجح موازينهم من نظره ونور وجهه — ﷺ —

ذكر أن الميزان بيد جبريل ــ عليه السلام ــ وله كفتان : إحداهما بالمشرق والأخرى بالمغرب ، وأن الذرة والخردلة (الذرة : أصغر النمل ، والخردلة : حب صغير جداً) والحبة من أعمال العباد من الخير والشر لتوضع فى الكفة ، فتميل بها بقدرة الله ــ تعالى ــ فالله أعلم بحقيقة ذلك .

فلا يحقرن أحدكم حسنة يعملها وإن صغرت فى عينه ، فربما ثقلت الميزان ، ولا يحقرن أحدكم سيئة يعملها وإن صغرت ، فربما خففت الميزان ، لأن الذنب الصغير فى عين محتقرة يأتى يوم القيامة وهو فى الميزان أعظم من الجبال الرواسى .

ما يثقل الميزان

قال الله تعالى : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً** ﴾[(١)] الآية . روى أبو هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم »[(٢)] وقيل : جاء رجل إلى رسول الله فقال : يا رسول الله : جئتك تعلمنى ما يدخلنى الجنة ، وينجينى من النار . فقال له النبى ــ ﷺ ــ : « ألا أدلك على كلمتين ثقيلتين فى الميزان ، خفيفتين على اللسان ، ترضيان الرحمن وتسخطان الشيطان ؟ تقول : سبحانه الله والحمد لله ، فإنهما المقربتان ، يقربان من الجنة ، ويبعدان من النار »[(٣)] فكل من زعم أن الميزان ليس هو حق ، فقد رد على الله فى كتابه ، وعلى رسوله ــ ﷺ ــ فى سنته .

الرأس فى الخير والرأس فى الشر

روى عن الحسن ــ رضى الله عنه ــ قال : يؤتى يوم القيامة بالميزان فيؤضع بين يدى الله ــ تبارك وتعالى ــ ثم يدعى العباد للحساب ، فإذا كان العبد أو الأمة رأساً فى الخير (يريد الرأس فى الخير : من سن سنة خير فانتشرت وعمل الناس بها ، كما أن رأس الشر : من سن سنة سوء فانتشرت وعمل الناس بها . وفى الحديث : « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ،

---

(١) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء

(٢) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى (كتاب الدعاء) ج ٤ ص ١١٤ ، ص ٣١١ (كتاب التوحيد) وانظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الذكر والدعاء) باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء ج ١٧ ص ١٩ ورواه الترمذى فى (كتاب الدعوات) ج ٥ ص ٥١٢ رقم ٣٤٦٧ ورواه ابن ماجه فى (كتاب الأدب) ج ٢ ص ١٢٥١ رقم ٣٨٠٦ .

(٣) انظر الحديث قبله ، حيث لم أعثر عليه فى المراجع التى بين يدى .

ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة »[1] والسنة : الطريقة والسيرة) يدعو إليه ويأمر به دعى باسمه ، ثم يقرب من الميزان فتوزن حسناته وسيئاته ولو كانت حسنة واحدة ولو كانت سيئاته أكثر من حسناته وأثقل من جبال الدنيا ، لأن الله — تعالى — إذا تقبل من العبد أو الأمة حسنة واحدة غفر له جميع ذنوبه وإن كثرت ذنوبه .

وقد قال رسول الله — ﷺ — لعائشة : « يا عائشة : لو قبل الله تعالى من العبد سجدة واحدة لأدخله بها الجنة » فقالت : يا رسول الله ، فماذا يصنع بأعمال العباد ؟ فقال رسول الله — ﷺ — : « يأكلها الرياء والسمعة كما تأكل النار الحطب » . وإذا كان العبد أو الأمة رأساً فى الشر يأمر به ويدعو إليه دعى باسمه فقدم إلى الميزان ، فتوضع حسناته وسيئاته ، فترجح سيئاته على حسناته ولو كانت سيئاته سيئة واحدة ، ولو كانت حسناته أكثر وأثقل من جبال الدنيا ، لأن الله — تعالى — أحبطها و لم يتقبل منها حسنة واحدة ، ويأمر بهم ذات الشمال إلى النار ، فقال أصحابه — رضى الله عنهم — : يا رسول الله : أما كانوا مسلمين ؟ فقال — ﷺ — : « كانوا يصلون كما تصلون ، ويصومون كما تصومون ، ويزكون كما تزكون ، ويقومون من الليل برهة ، ولكن كانوا إذا عرض عليهم درهم حرام وثبوا عليه كالذئاب ، فأحبط الله أعمالهم بذلك ، و لم يتقبل منهم حسنة واحدة ، وإذا لم يتقبل الله من العبد حسنة واحدة فأحرى أن يؤثر فى الميزان ، لأن الحسنات لا تنفع ولا تثقل الميزان إذا لم يتقبلها الله — تعالى — لأنه — تعالى — لا يقبل إلا ما كان لوجهه خالصاً » .

فالله الله عباد الله ، إذا عملتم عملاً فأخلصوا لله ، فإن الله لا ينفعكم ولا يتقبل منكم إلا ما كان لوجهه خالصاً .

وأنشدوا :

من كان يعلم أن الله باعثه ... يوم الحساب لدى نشر الدواوين
فلا يرد بفعال البر أجمعها ... إلا الحساب وتثقيل الموازين

فقدموا عباد الله للميزان بلزوم طاعة الرحمن ، قدموا للموازين بطاعتكم لسلطان السلاطين .
إخوانى : وأعظم مصيبة وحسرة من خفت موازينه من الحسنات ، وأمر به إلى العذاب والعقوبات .
الويل ثم الويل لمن خفت موازينه من صالح الأعمال ، وغضب عليه ذو الجود والإفضال ، وأمر به إلى العذاب والنكال ، وإلى السلاسل والأغلال .

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الزكاة) باب الحث على الصدقة ج ٧ ص ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ فقد رواه عن المنذر بن جرير عن أبيه .
وانظر سنن ابن ماجه (المقدمة) باب من سن سنة حسنة أو سيئة ج ١ ص ٧٤ رقم ٢٠٣ .

وزن أعمال العباد

يا إخوانى : فإذا وزنت أعمال العباد ، وخف من خف ، وثقل من ثقل ، أمروا أن يمضوا إلى الصراط ، فيجىء كل إنسان إلى الصراط ، فمن الناس من يضع عليه قدمه ، فيزل من أول قدم يضعها فيهوى فى النار ، ومن الناس من يمشى القليل منه ويزل فى النار ، ومنم من يجوزه كالبرق الخاطف ، ومنهم من يجوزه كالريح الهبوب ، ومنهم من يجوزه كالطير السريع فى طيرانه ، ومنهم من يهرول (الهرولة : ضرب من السير بين المشى والعَدْو) ومنهم من يكون كالضعيف إذا مشى ، ومنهم من يكون كالمبطون (العليل البطن) الذى يمشى على يديه ورجليه ، ومن الناس من يأتى إلى الصراط فتخرج النار فتأخذه فتهوى به ، كل هذا على قدر أعمال العباد وأنواهم ورتبتهم ، وعلى قدر القبول من الله ــ تبارك وتعالى ــ بها ، وعلى قدر تثقيل الموازين وتخفيفها ، فإذا أتى العبد من أمة محمد ــ ﷺ ــ إلى الصراط ، فمن كان من أهل الذنوب ولم يكن له عمل يجوز به على الصراط بقى متحيراً لا يقدر على الجواز ، فبينما هم فى شدة الفزع من هول الصراط إذ أقبل محمد ــ ﷺ ــ .

نور الرسول على الصراط

فإذا نظر ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ إليهم كساهم نور وجهه ــ ﷺ ــ ما يجوزهم الصراط ، فيأخذ كل واحد من نور وجه المصطفى ــ ﷺ ــ على قدر صلاته عليه فى الدنيا ، فيستبق العباد فى الجواز على قد ما أخذوا من النور الذى أخذوا من نور وجه المصطفى ، وكلما أخذ الخلق من نور وجهه ــ ﷺ ــ زاد الله ــ تبارك وتعالى ــ فى النور فى وجه الحبيب ــ محمد ﷺ ــ فأكثروا من الصلاة على نبيكم ــ ﷺ ــ فإن صلاتكم عليه مبلغة إليه .

فضل الصلاة على النبى

قال النبى ــ ﷺ ــ : « أنجاكم من أهوال يوم القيامة ومواطنها أكثركم على صلاة ، وأولاكم بشفاعتى أكثركم على صلاة »(١) فأكثروا من الصلاة عليه يا معشر المذنبين ، فهو شفيعكم يوم الجزاء والدين ــ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ، وجعلنا بالصلاة عليه من الآمنين من عقابه والفائزين برحمته من عذابه إنه منهم كريم ــ وأنشدوا :

(١) انظر جامع الأحاديث للسيوطى ج ٧ ص ٦٥٨ فقد أورده بلفظ « يا أيها الناس إن أنجاكم يوم القيامة من أهوالها ومواطنها أكثركم علىَّ صلاة » وعزاه إلى الديلمى عن أنس .

ألا أكــرم بــأحمد ذى المعـــالى ... شفيـــع النـــاس يـــوم السؤال
إذا مـــد الصراط على جـــحيم ... تصول على العبـــاد باستطـــال
إذا كان النبـــى لنـــا شفيعـــاً ... سننجـــو مـــن سلاسلهـــا الطـــوال
ولـــو كانت خطايانـــا جسامـــاً ... تشبـــه بالثقـــال مـــن الجبـــال
لجزنـــا فى الصراط بـــغير حـــزن ... إلى دار الخلـــود مـــع الجلال

روى عن النبى ـــ ﷺ ـــ أنه قال : « يمر الناس على الصراط فالزالون والزالات كثير ، وأكثر ما تزل النساء »[٢] ذكر أن الصراط المستقيم عليه زبانية ينظرون إلى وجوه العباد ، فمن رأوا فى وجهه نورً ، تركوه أن يتحول ويجوز ، ومن لم يروا فى وجهه نوراً كبكبوه فى النار ، ولا يكون النور يومئذ إلا من العمل الصالح .

جسور جهنم

روى بعض العلماء عن التابعين وعن بعض أصحابه أنهم قالوا : إن جهنم ـــ أعاذنا الله منها ـــ عليها سبعة جسور وهى القناطر ، ثلاثة دون الرب ـــ سبحانه وتعالى ـــ الرابعة الوسطى عليها الرب ـــ جل جلاله ـــ لا حَدَّ ولا كَيْف ، تسليماً وإيماناً وتصديقاً .

القنطرة الأولى

والصراط أحد من السيف ، فيقول الله ـــ تبارك وتعالى ـــ حين يبلغون القنطرة الأولى : ﴿ **وقفوهم إنهم مسئولون ما لكم لا تناصرون** ﴾[١] فيحسبون فيحاسبون على الصلاة ، فمن وجدت صلاته تامة نجا من تلك القنطرة ، ومن لم توجد له صلاة تامة هوى فى النار فينجو من نجا ويهلك من هلك .

القنطرة الثانية

ثم يحبسون على القنطرة الثانية فيحاسبون على الأمانة ، وهى أمانة الخالق وأمانة الخلق ، وإذا أراد الله بعبده خيراً جعل الغنى فى قلبه ، وجعله أميناً لله ، وأعانه على أداء الأمانات التى افترض عليه ـــ

---

(١) هذا جزء حديث أورده صاحب كنز العمال ج ١٤ ص ٣٨٦ رقم ٣٩٠٣٦ وعزاه إلى البيهقى فى شعب الإيمان وضعف ، عن أنس .
(٢) الآيتان ٢٤ ـــ ٢٥ من سورة الصافات .

جل جلاله ـــ من الوضوء والاغتسال والصلاة والصيام والزكاة ، وإعطاء كل ذى حق حقه ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والحفظ لحدود الله ، فذلك العبد الذى ألهمه الله ـــ تعالى ـــ رشده ، وبصره عيوب نفسه ، وجعل غناه فى قلبه .

تأدية الأمانة وتضييعها

وإذا أراد بعبده شراً جعل فقره بين عينيه وفى قلبه وكسله عن أداء الأمانات من المفترض الذى افترض عليه وعلى جميع عباده ، وغيب عنه رشده ، وسلط عليه الشيطان فزين له سوء عمله ، وحبب إليه عيوبه ، فإذا كان العبد كذلك فلا يبالى عما قال ولا عما قيل فيه ، ولا يكون همه إلا فى دنياه وأصلاحها ، ولا يبالى بتلف دينه ، فذلك العبد الذى قد سخط عليه مولاه ، وأبعده عن أبواب الخير كلها ، وقربه من أبواب الشر كلها ، قال الله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون** ﴾[1] .

تضييع الأمانة

ذكر فى بعض الأخبار أنه يؤتى بمضيع الأمانة فيقال له : أدِّ ما ضيعت ، فيقول : يارب ذهبت عنى الدنيا ، فمن أين أؤديها ؟ فيخلق له مثلها فى قعر جهنم ، أعاذنا الله منها ـــ فيقال : أنزل إليها وأخرجها إلى صاحبها ، فينزل العبد المسكين إليها فيرفعها على كتفه ، فهى أثقل من جبال الدنيا كلها ، فإذا صار الشقى المسكين إلى أعلى جهنم وقعت عن كتفه إلى قعر جهنم ، فيقال له : أنزل إليها فينزل مرة أخرى ويرفعها ، فإذا صار إلى أعلى جهنم وقعت منه ، فلا يزال هذا عذابه إلى ما شاء الله ـــ تعالى ـــ من ذلك .

هذا كله عند جواز الصراط ـــ والله أعلم ـــ وهذا العبد ـــ والله أعلم ـــ الذى ضيع أمانات الناس .

أنشـدوا :

خرجت من الدنيا وقد خنت أهلها ... وصرت إلى النيران بالوزر والإثم
وطالبنى الجبار بالصدق والوفا ... وبان لأهل الجمع ما كان من جرحى
وقيل لكل الخلق هذا مضييع ... أمانة رب العرش والذكر والحكم

(١) الآية ٢٧ ـــ من سورة الأنفال .

القنطرةُ الثالثة

ثم يحاسبون على القنطرة الثالثة وهى أدنى من الرب ـــ جل جلاله ـــ بلا تكييف ولا تحديد ـــ فيحاسبون على صلة الرحم كيف وصلوها ؟

صلة الرحم

ولم قطعوها ؟ والرحم يومئذ تنادى : اللهم من وصلنى فصله ، ومن قطعنى فاقطعه ، فينجو من نجا ، ويهلك من هلك .

القنطرة الرابعة

ثم يمرون على القنطرة الرابعة فيحاسبون على بر الوالدين ، فينجو من نجا ، ويهلك من هلك وهو السؤال العظيم ، لأن الله ـــ تعالى ـــ قد قرن شكره بشكر الوالدين فقال ـــ جل أسمه ، وعز وجهه ـــ : ﴿ **أن أشكر لى ولوالديك إلى المصير** ﴾[1] فالله ـــ تعالى ـــ يقول فى بعض كتبه المنزلة :

شكر الوالدين

أرض والديك ، فإن رضائى فى رضا الوالدين وسخطى فى سخط الوالدين ، فلو أن عبداً جاء يوم القيامة بعمل ألف صديق وكان عاقاً لوالديه ما نظر الله ـــ تبارك وتعالى ـــ فى شىء من عمله ، وكان مصيره إلى النار ، وما من عبد مسلم أو أمة مسلمة ضحك فى وجه والديه أو أحدهما إلا غفر الله له ما كان من الذنوب والخطايا ، وكان مصيره إلى الجنة .

وأنشـدوا :

الوالـدان إلى شكـر الإلـه وصول ... والوالـدان إلى دار السلام سبيـل
صل والـديك ولا تقطـع حبالهمـا ... ليجزينـك فى دار البقـاء جليـل

(١) وصول : أى : بسبب برهما ودعائهما تصل إلى رضاء الله ـــ تعالى ـــ ورحمته ، كما أنهما طريق إلى الجنة ، وهى دار السلام . وقد أمرنا الله تعالى ببرهما فى القرآن عند قوله : ﴿ **فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً** ﴾[2] الآية .

---

(١) من الآية ١٤ من سورة لقمان .
(٢) من الآية ٢٣ من سورة الإسراء .

القنطرة الخامسة

ثم يحبسون على القنطرة الخامسة فيحاسبون على حفظ اللسان من الغيبة والنميمة وشهادة الزور ، فينجو من حفظ لسانه ويهلك من سرح لسانه بما لا يعنيه ، لأنه ليس من جوارح العبد أشد ذنباً من اللسان ، لأن كلمة يتكلم بها العبد أو الأمة تكون سبباً لدخول النار .

ترك الغيبة والنميمة

وقد كان بعض الخائفين إذا أصبح أخذ لوحاً ودواة وجعلهما بجواره ، فإذا تكلم كلمة كتبها فى اللوح ويقول لنفسه : هكذا أثبتها عليك الملَكُ بأمر الملِكِ ، فإذا غربت الشمس وصلى صلاة المغرب وضع اللوح بين يديه وجعل يقرأ ويبكى ، ويقول فى بكائه ونحيبه وتقريره لنفسه : يا نفس كأنى بك وقد سئلت عن هذا عند جواز الصراط ، يا نفس تراك بأى كلمة من هذه تدخلين النار ، فلا يزال يبكى حتى لا يجد بكاء وتفرغ دموعه فيغشى عليه ، فإذا أفاق مما هو فيه أخرج اللوح وكبت ما فيه بقرطاس وهو يقول متضرعاً : يا الله عفواً ورفقاً ولطفاً بعبدك . فلم يزل هذا دأبه حتى مات ، فرآه بعض الصالحين فى المنام فى حالة حسنة ، فسأله عما لقى من الله تعالى فقال : ما يلقى من الكريم إلا الكرم ، جعل محاسبتى لنفسى فى الدنيا بدلاً عن الحساب فى الآخرة ، وجعل دموعى التى بكيت فى الدنيا أنهاراً تروينى يوم العطش الأكبر ، وتفضل الكريم على بدخول الجنة وبجواز الصراط ، ومن علىّ بالفضيلة العظيمة والزيارة الكبرى إلى وجهه الكريم .

كلمة الشر وعذابها

وقد روى عن النبى — ﷺ — أنه قال : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة فينزل بها فى النار بعد ما بين المشرق والمغرب ، فإذا أراد الله — تبارك وتعالى — بعبده خيراً أعانه على حفظ لسانه وشغله بعيوب نفسه عن عيوب غيره »[(١)] .

قيل : مر رجل على رجل فسلم عليه ، فقال له الرجل الذى سلم عليه : يا أخى لو كشف لك عن حالى ما سلمت علىّ . فقال له الرجل الذى سلم عليه : يا أخى لو كشفت لى عيوبك لكان فى عيوبى ما يشغلنى عن جميع عيوبك . فجلس كل منهما يبكى فى ناحية حتى بلّ كل واحد منهما الأرض بدموعه ، ثم تفرقا .

---

(١) انظر مسند أحمد ٢ / ٣٧٩ فقد رواه عن أبى هريرة إلى قوله : « ما بين المشرق والمغرب » .

شهادة الزور

وروى عن رسول الله ــ ﷺ ــ أنه قال : « **من شهد شهادة زور على ذمِّى أو مسلم أو من كان من الناس ، علق بلسانه فى الدرك الأسفل من جهنم** »[١] .

وفى بعض الأخبار أن شهادة الزور من أعظم الكبائر عند الله تعالى ، وشاهد الزور يعلق بلسانه بكل كلمة فى شهادة الزور ، وبكل حرف كتب فيها شهادته ألف عام على الصراط عند القنطرة الخامسة . ولو أن شاهد الزور جاء يوم القيامة بعمل سبعين نبياً ما نظر الله إليه . وكذلك صاحب الغيبة والنميمة لا يجوز من هذا الصنف الصراط إلا أن يعفو الله أو تدركه الشفاعة .

وأنشدوا :

إذا ازدحم العباد لكى يجوزوا ... تساقط كل جبار أثيم
بقعر النار ليس لهم مغيث ... ولا للعاصى يوماً من حميم
ومن يطع الإله فسوف ينجو ... من التعذيب فى قعر الجحيم
إذا نصب الصراط على جحيم ... فيالله من هول عظيم
ألا يا معشر الإسلام توبوا ... من العصيان للرب الرحيم

إخوانى : أطيعوا الله فى السر والإعلان ، واعملوا بالسنة والقرآن ، واتركوا الأوزار والعصيان ، واحذروا من هول الصراط المنصوب على سَمُوم النيران .

القنطرة السادسة

ثم يحبسون على القنطوة السادسة فيحاسبون على حفظ الجار ، فينجو من حفظ جاره وأكرم ضيفه ، ويهلك من خان جاره ولم يكرم ضيفه .

إكرام الضيف

روى عن النبى ــ ﷺ ــ أنه قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه »[٢] وكرامته أن يكرمه لوجه الله ، وتكون ضيافته من خلال ، وأما من أنفق على ضيفه من حرام فإنه لا ثواب له . فما أنفق على الضيف فى الخمر أو فيما لا يرضى الله ــ تعالى ــ به فإن ذلك الضيف يأتى يوم

(١) لم أعثر عليه فى المراجع التى بين يدى
(٢) انظر اللؤلؤ والمرجان ج ١ ص ١١ (كتاب الإيمان) رقم ٢٩

القيامة يتعانق هذا بهذا ويلعن هذا بهذا ، ثم يأتيان إلى الصراط ، وكل واحد منهما يلوم صاحبه ، ويقول له : لعنك الله بالذى ساعدتنى على الإنفاق فى غير الله . ثم يقال لهما : جوزا الصراط ، ففى أول قدم يضعان على الصراط يهويان فى النار .

البركة مع الضيف

وقال رسول الله ــ ﷺ ــ : « الضيف إذا دخل بيت المؤمن ، دخلت معه ألف بركة وألف رحمة ، ويكتب الله ــ تعالى ــ لصاحب المنزل بكل لقمة يأكلها الضيف حجة وعمرة » .

وعن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ أن النبى ــ ﷺ ــ قال : « درهم ينفقه الرجل على ضيفه أفضل من ألف دينار ينفقها فى سبيل الله ، ومن أكرم الضيف لوجه الله أكرمه ــ تعالى ــ يوم القيامة بألف كرامة ، وخلصه من النار وأدخله الجنة »

وقد جاء فى حديث عائشة ــ رضى الله عنها ــ أن النبى ــ ﷺ ــ كان يقول لها : « يا عائشة لا تتكلفى للضيف فتمليه »[1] (ولذلك ندب أن يقدم الإنسان للضيف ما وجد ، سواء أكان قليلاً أم كثيراً ، لا كما يفعله الناس الآن من الاقتراض (ليبيضوا وجوههم أمام الضيف) وليس ذلك من السنة فى شىء ، فغاية الجود بذلك الموجودة وعلى الضيف أن لا يقترح ، بل يأكل ما يجد ويشكر عليه) وإنما أراد ــ ﷺ ــ مداومتها على إكرام الضيف .

وفى حديث على بن أبى طالب ــ رضى الله تعالى عنه ــ قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : « يا على : إذا جاءك الضيف فاعلم أن الله ــ تعالى ــ قدمن عليك إذ بعثه إليك ليغفر لك ذنبك بذلك » .

ينزل الضيف برزقه

وفى حديث أبى هريرة ــ رضى الله تعالى عنه ــ قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : « أيها الناس لا تكرهوا الضيف ، فإنه إذا نزل نزل برزقه ، وإذا رحل رحل بذنوب أهل المنزل »[2] (ليس المراد أنه يحمل ذنوبهم ، بل إن الله ــ تعالى ــ يغفر لهم ذنوبهم بإكرامهم للضيف) .

---

(١) الحديث فى كنز العمال برقم ٢٥٨٩٠ وعزاه إلى النيرازى والرافعى عن عياض بن أبى قرصافة عن أبيه .

(٢) انظر كشف الخفاء للعجلونى ج ١ ص ٩١ فقد ذكره بلفظ : « إذا دخل الضيف على قوم دخل برزقه ، وإذا خرج خرج بمغفرة ذنوبهم » قال السخاوى رواه الديلمى بسند ضعيف عن أنس مرفوعاً ، وله شاهد عند أبى الشيخ عن أبى قرصافة .

وفى حديث معاذ بن جبل ـــ رضى الله تعالى عنه ـــ : « ما من منزل ينزل فيه ضيف إلا بعث الله ـــ تبارك وتعالى ـــ إلى ذلك المنزل قبل نزول الضيف به بأربعين يوماً ملكاً على صورة طائر ينادى : يا أهل المنزل فلان بن فلان ضيفكم فى يوم كذا وكذا ، والخلف من باب كذا وكذا ، فتقول الملائكة الذين وكلوا بأهل الدار : وبعد الخلف ما يكون ؟ فيخرج لهم ذلك الملك كتاباً فيه مكتوب : قد غفر الله لأهل المنزل ولو كانوا فى ألف »(١) .

وفى حديث آخر أنه قال : « ما من عبد من عباد الله المؤمنين أكرم ضيفاً لوجه الله الكريم إلا نظر الله إليهم إن كانوا جماعة ، فإن كان الضيف من أهل جنة وكان رب المنزل من أهل النار جعله الله ـــ تعالى ـــ من أهل الجنة بإكرامه ضيفه »(٢) .

وفى حديث آخر : « إن الضيف ورب المنزل ـــ وأرباب المنزل إن كانوا جماعة ـــ يأتون الصراط فيأخذ كل واحد منهم بيد صاحبه فيجوز الصراط أسرع من البرق اللامع ، فإن لم يكن فيهم من له عمل يجوز به الصراط ، أمر الله الملك الموكل بنفقة الضيف أن يأخذ بيدهم ويجوز الصراط ولو كانوا مائة ألف »(٣) .

إطعام الطعام

وإطعام الطعام ينقسم على ثلاثة أوجه : مخلوف ومسلوف ومتلوف ، فالمخلوف الذى يطعم لوجه الله لا يريد به غير لله ـــ تعالى ـــ ولا يطلب به جزاء من مخلوق . والمسلوف الذى تضيفه مرة ويضيفك مرة أخرى . والمتلوف كل ما كان إطعامه على المعاصى . والمخلوف والمسلوف فيهما الأجر إلا أن المخلوف أعظم أجراً ، والمتلوف هو حسرة وندامة يوم القيامة .

وأنشدوا :

يا مكرم الضيف للرحمن خالقنا ... عند الصراط ستلقى الخير موفوراً
أكرم ضيوفك كى ترجو الجواز غداً ... على الصراط وترجو الخلد مجبوراً

(١) لم أعثر عليه
(٢) لم أعثر عليه
(٣) لم أعثر عليه

حفظ الجار

وأما حفظ الجار فإن العبد أو الأمة يسأل عن حفظه ، فمن حفظ جاره جاز الصراط ونجا من العذاب الأليم ، وصار إلى الجنة ودار النعيم .

وروى عن رسول الله ــ ﷺ ــ أنه قال : « ما آمن بالله واليوم الآخر من بات شبعان وجاره جائع ، أو بات ريان وجاره عطشان »(١) .

ومن كرامة حفظ الجار أن توقظه من الغفلات ، وتلهمه إلى الطاعات ، وتأمره بإقامة الصلوات .

تعلق الجار بالجار

ذكر فى بعض الأخبار أن الجار يتعلق بجاره يوم القيامة فيقول : يارب : جارى هذا خاننى فى الدنيا . فيقول الله ــ تبارك وتعالى ــ : لم خنت جارك ؟ فيقول : وعزتك وجلالك ما خنته لا فى مال ولا فى أهل ، وأنت أعلم بذلك . فيقول له جاره : ما فعلت ذلك ولكن رأيتنى على المعاصى فلم تزجرنى عنها ، فيؤمر به وبصاحبه إلى النار ، ولا يغفر الله لهما .

وما من عبد مسلم ــ أو أمة مسلمة ــ حفظ جاره وأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر إلا جوزه الله ــ تبارك وتعالى ــ على الصراط قبل العباد بخمسمائة عام .

الوصية بحفظ الجار

وروى عن النبى ــ ﷺ ــ أنه قال : « لقد أوصانى ربى ليلة أسرى بى بحفظ الجار حتى ظننت أنه سيورثه » . وبعض العلماء يرى شفاعة الجار .

فكل من حفظ الجيران فقد أطاع الرحمن . وأسخط الشيطان ، وعمل بالسنة والقرآن .

روى أن الرجل الصالح والمرأة الصالحة يشفعان يوم القيامة فى سبعين من جيرانهما ويجوزانهم على الصراط .

---

(١) روى فى الآلى المصفوعة ج ٢ ص ٨٢ بلفظ : « ما آمن بى من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم » من حديث أنس .

عباد الله ــ من حفظ الجار نجا من النار ، وجاز الصراط إلى دار القرار ، ومن حفظ الجار فقد عمل بالسنة والكتاب ، وأطاع الملك الوهاب ، وأسخط الشيطان اللعين الكذاب ، وما من جار يلقى جاره المسلم فيسلم عليه إلا غفر الله لجاره ولو كان له ألف جار .

حفظ الجار قربة ووسيلة ، ودرجة عند الله وفضيلة .

وأنشدوا :

يا حافظ الجار ترجو أن تنال به ... عفو الإله وعفو الله مذخور[1]

الجار يشفع للجيران كلهم ... يوم الحساب وذنب الجار مغفور

القنطرة السابعة

ثم يحبسون على القنطرة السابعة فيسألون عن الصدق ، من حفظ لسانه عن الكذب نجا من الصراط ونجا من النار ، وصار إلى الجنة مع الأبرار .

الصدق والكذب

ومن كذب فقد خالف الكتاب والسنة ، وقد حرم نعيم الجنة .

روى عن النبى ــ ﷺ ــ أنه قال : « إذا كذب المؤمن كذبة من غير عذر تباعد منه الملكان مسيرة سنة من نتن ما جاء به . وكتب الله تبارك وتعالى عليه بكذبة ثمانين خطيئة ، أقلها كما يزنى بأمه »[1] (لأن ذلك من أصعب الكبائر ، فضلاً عن استحالته عقلاً) .

(١) مذخور : أى : رأيته عند الله ذخيرة لك يوم القيامة ، وقد حكى عن المهلب بن أبى صفرة أنه كان يتكفل بأربعين بيتاً من كل جهة من بيته بالخبز والطعام والكسوة حتى لا يتكلفوا أن يصنعوا طعاماً فى جواره أو يوقدوا تنوراً .

---

(١) جاء فى صحيح الترمذى فى (كتاب البر والصلة) باب ما جاء فى الصدق والكذب ج ٤ ص ٣٤٨ رقم ١٩٧٢ حديث بلفظ : عن ابن عمر أن النبى ــ ﷺ ــ قال : « إذا كذب العبد تباعد عنه الملك ميلا من نتن ما جاء به » . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن جيد غريب .

كذبة المؤمن بثمانين خطيئة

وإذا كذب المؤمن من غير عذر يخرج من فيه شيء منتن حتى يبلغ العرش فتلعنه حملة العرش ، ويلعنه ثمانون ألف ملك ، ويكتب عليه ثمانون خطيئة أقلها مثل جبل أحد (جبل بالمدينة كانت عنده واقعة أحد الشهيرة) . الكذب نفاق ، والكذب من الكبائر ، وإذا استحل العبد الكذب فقد استحل المحارم كلها ، وإذا لم يستحل العبد الكذب لم يقدر أن يباشر شيئاً من محارم الله ، وإن الصادق إذا جاء الصراط سبقه نور وجهه مسيرة مائة عام ـــ يعنى على الصراط ـــ ومن صدق عمل بكتاب الله ، واتبع سنة رسول الله ، والصادق أسرع جوازاً على الصراط وأسرع الناس دخولاً الجنة .

والكاذب فى أول قدم يضعها على الصراط يهوى فى النار فلا ينجو من الجسر السابع ـــ وهو أصعبها ـــ إلا من صدق ، ويهلك من كذب .

جعلنا الله وأياكم ـــ برحمته ـــ ممن صدق فنجا .

وأنشدوا :

أصدق يريك إله العرش جنته ... يوم المعاد ولا تولع بتكذيب
إن الصدوق لدى الرحمن منزله ... دار الخلود بلا موت وتعذيب
يوم الجزاء على متن الصراط إلى ... دار النعيم بلا حزن وتكئيب

ذكر فى بعض الأخبار أن الصادق يجوز على الصراط وهو لا يشعر به ولا يهو له ، فالله الله عباد الله : كونوا من الصادقين ، ولا تكونوا من الكاذبين ، وتأسوا بخاتم النبيين وسيد المرسلين ـــ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

نجاة الصادقين

ذكر فى بعض الأخبار أن الناس الذين ينجون من الصراط وهو له ، يحبسون بقنطرة بين الجنة والنار ، يتقاصون مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا نقوا وهذبوا أذن لهم بدخول الجنة .

قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ : « والذى نفسى بيده إن أحدهم مسكنه فى الجنة أدل منه لمسكنه

الذى كان فى الدنيا »[1] . يا لها من كرامة ويا لها من نعمة ، ويا لها من فرحة . فقدموا عباد الله اليسير من الأوقات والقليل من الساعات ما يجوزكم الصراط ، ويقيكم الآفات ، الصراط على متن جهنم ممدود ، لا يجوزه إلا من خاف من أهوال اليوم الموعود وأطاع الملك المعبود ، الغفور الودود .

الصلاة تجوز على الصراط

ذكر فى بعض الأخبار أن من صام ثلاثة أيام من كل شهر وقام فى ليلة من لياليها يصلى عشر ركعات يقرأ فى كل ركعة بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد ثلاث مرات ، فإذا فرغ من صلاته صلى على محمد ــ ﷺ ــ عشر مرات ثم يقول : سبحان من كان ولا مكان ، سبحان الموجود بكل حين وأوان ، سبحان المعبود فى كل أوان ، سبحان المسبَّح بكل لسان ، سبحان المنجى من الهلكات ، سبحان خالق الأرضين والسموات ، جوزه الله ــ تعالى ــ على الصراط أسرع من البرق الخاطف ، ولا يؤذيه حر النار ويمضى إلى الجنة مع أول زمرة من الصحابة والتابعين ، ويشفعه الله ــ تبارك وتعالى ــ فى سبعين من أهله وجيرانه . وهى أفضل ما يصام من الشهر وهى يوم ثلاثة عشر وأربعة عشر وخمسة عشر .

روى عن النبى ــ ﷺ ــ أنه قال : « يمر الناس على الصراط فالزالون والزالات كثير ، وأكثر ما يزل النساء ، وجبريل ــ عليه السلام ــ آخذ بحجزتى (حجزة الإزار ، معقدة ، وحجزة السراويل : محل التكة) إذا عصفت الريح بأمتى فصاحوا : يا محمداه ، فلولا أن جبريل ــ عليه السلام ــ آخذ بحجزتى لأغثت أمتى ، فيبادرون جوازاً فلا يجوزه ظالم ، فيبقون متحيرين ثم يتداركهم الله برحمته وبفضل دعائى لهم ، فيقول : جوزوا على الصراط بعفوى فيجوزوا » اللهم اغفر لنا جميعاً برحمتك .

وأنشدوا :

لو علم الخلق ما يراد بهم ... وأيما مورد غداً يردوا
ما استعذبوا لذة الحياة ولا ... طاب لهم عيش إذا رقدوا
خوفاً من العرض والصراط على ... نار تلظى وحرها يقد
والناس فى هول موقف عسر ... قد عاينوا هوله الذى وعدوا

(١) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى (باب ما جاء فى الرقاق) ج ٤ ص ١٣٤ إلا أنه قال : « فو الذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة بمنزله كان فى الدنيا » .

يا لك من موقف يفوز به قوم هُمْ للجنان قد وفدوا
مع النبى اصطفاه خالقنا صلى عليه المهيمن الصمد[1]

عباد الله : اشتروا أنفسكم من مولاكم باليسير من الأعمال ، وبالقليل من الأفعال ، وبالطيب من الأقوال ، من قبل حبسكم على الصراط لشدة الأهوال ، يوم لا بيع فيه ولا خلال ، بين يدى الكبير المتعال .

كيفية الجواز على الصراط

ذكر فى بعض الأخبار أن الناس ينقسمون فى جواز الصراط سبعة أقسام : فيجوز أول قسم من الرجال والنساء كطرفة عين ، والقسم الثانى كالبرق الخاطف ، والقسم الثالث كالريح العاصف . والقسم الرابع كالطير المجد . والقسم الخامس كالخيل فى جريها ، والقسم السادس كالماشى ، والقسم السابع كالمهرول .

أقسام الناجين على الصراط

فأما القسم الأول : فهم أصحاب الصدقات وقوام الليل والعلماء يقدمونهم .

والقسم الثانى : هم الذين استقاموا على أداء الفرائض ولم يفرطوا فيها وأدوها فى أوقاتها .

والقسم الثالث : هم الذين أدوا الزكاة ولزموا صحبة العلماء وأحبوهم .

والقسم الرابع : هم الذين وصلوا أرحامهم ، وطلبوا بصلتها رضاء مولاهم .

روى عن النبى ـ ﷺ ـ أنه أوصى عند موته بصلة الرحم ، وما من عبد وصل رحمه بنفسه أو ماله إلا جعله الله ـ تعالى ـ يوم القيامة على الصراط كالذى يمشى فى رياض الجنة ، ولا يرى من أهوال الصراط شيئاً ، ويدخل الجنة مع أول زمرة تجوز الصراط وأنوارهم تسعى بين أيديهم وبأيمانهم .

والقسم الخامس : هم الذين غضوا أبصارهم عن محارم الله ، وصانوا فروجهم عن الفواحش ، وحفظوا أزواجهم عما لا يحل لهن ، وحجبوهن ولا طفوهن ورفقوا بهن ، كما قال ـ ﷺ ـ (وفى هذا رد على من قال بأن المرأة الشرقية كانت مستعبدة من الأزل ، فقد أمرت الشريعة الإسلامية فى غير ما موضع بإكرامها وإعزازها ، وأباحت لها التصرف بمالها وتجارتها وساوتها بالرجل فى كثير من الأمور . هذا فى الوقت الذى كانت فيه المرأة الأوروبية تحسب كالمتاع فى المنزل) .

(١) الصمد ، أى : السيد ، لأنه يصمد إليه فى الحوائج ، أى : يقصد .

حديث فى العناية بالنساء

« النساء ودائع الأحرار ، ولا يعزهن إلا عزيز ، ولا يذلهن إلا ذليل ، والذليل عند الله فى النار » وكذلك المرأة إذا عزت زوجها وأطاعته فيما يرضى الله تعالى .

آكل الربا

وقد ذكر أن آكل الربا يأتى الصراط ، فيجعل الله — تبارك وتعالى — كل درهم وكل حبة وكل ثوب وكل لقمة وكل شىء أكل أو اكتسبت يداه من الربا ثعباناً من نار يخطفه من على الصراط ، ويهوى به فى قعر جهنم مع اليهود ، ومن تاب تاب الله عليه وغفر له ما جنى .

والقسم السابع : هم الذين بروا الوالدين ، وبروا الأزواج ، وبروا الجيران ، وبروا الإخوان : ولزموا المساجد ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، وحفظوا حدود الله ، ولم تأخذهم فى الله لومة لائم ، وعملوا بكتاب الله وسنة رسوله — ﷺ — وأنشدوا :

أتطمع بالنجاة وكيف تنجو ... ولست على نجاتك بالحريص
ولو فى نيلها أعملت حرصاً ... لنلت الفوز بالثمن الرخيص
ولكنى أراك تريد عزاً ... وحالك حال ممتهن نقيص
وليس لمن تعرض للمعاصى ... هديت عن الضلالة — من محيص

المتصدقون سراً وعلانية

يا أحبابى : اذا جاز الناس الصراط وجدوا خلقا كثيراً نساء ورجالا قد سبقوهم إلى الجنة فيقولون : من هؤلاء الذين سبقونا ؟ فتقول لهم الملائكة : هؤلاء الرجال الذين تصدقوا فى السر ابتغاء وجه الله ، وتصدقوا فى العلانية ليحببوا الصدقة إلى عباد الله ، هؤلاء الذين فرجوا عن المكروبين . وهؤلاء النسوة اللاواتى أطعن أزواجهن ، وحفظن فروجهن وحفظن ألسنتهن عن أذى الزوج وعن أذى الجيران ، وتصدقن فى السر والإعلان ، تسبق هذه الزمرة (الجماعة ، والزمر : الجماعات) جميع الناس إلى الصراط وجوازه بخمسمائة عام . ومن كان من إخوانهم من أهل الذنوب جازوا فى شفاعتهم ، فإذا جازت أول زمرة من الأولين السابقين ، وزمرة المتأخرين يبقى رجل واحد فيضع قدمه الواحدة فتزل فيبقى بالقدم الأخرى ، فيركب الصراط على بطنه والنار تصيبه على قدر ذنوبه .

آخر من يبقى على الصراط

فلا يزال يحبو ويتدرج ، ويبكى ويتضرع إلى الله ــ تعالى ــ حتى يجوز ، فإذا جازونجا رد رأسه ونظر إلى الصراط وأهوال أهل النار ، وعواء أهل النار (صيامهم ، والعواء : صياح الكلب والذئب) فى النار فيقول : سبحان الذى خلصنى منك ونجانى من أهوال النار . فبينما هو ينظر إلى الصراط ويقول هذا القول ، يبعث الله ــ تعالى ــ إليه بلطفه ملكاً من ملائكته فيأتيه فيأخذه بيده ويقول له : قم يا عبد الله فينطلق إلى غدير (قطعة من ماء ، يغادرها السيل ، أى : يتركها) من ماء على باب الجنة ، فيقول له الملك : اغتسل من هذا الماء واشرب منه ، فيغتسل العبد ويشرب كما أمره الملك فيعود كالقمر الطالع ليلة التمام ، وتعود رائحته كرائحة أهل الجنة ، ولونه كألوان أهل الجنة . ثم ينطلق به إلى قرب جهنم فيقول له : قف ها هنا حتى يأتيك إذن من ربك ، فينظر إلى أهل النار ويسمع عواءهم كعواء الكلب يستغيثون من شدة العذاب ، فإذا سمع العبد أهل النار وما هم فيه بكى وقال : يارب : اصرف وجهى عن أهل النار حتى لا أنظر إليهم ولا أسمع صوتهم ولا أسألك غير هذا ، فيأتيه ذلك الملك من عند رب العالمين فيحول وجهه عن أهل النار إلى أهل الجنة ، فينظر إلى ناحية أهل الجنة فيرى بينه وبين باب الجنة روضة خضراء ما رأى أحد قط مثلها ، ثم ينظر إلى باب الجنة وجماله ، وعرضه مسيرة أربعين يوماً للطير المسرع ــ والله أعلم ــ من أى الأعوام ، يقول : يارب قد أحسنت إلى الإحسان كله جوزتنى الصراط وأنجيتنى من النار وأدنيتنى من باب الجنة ، هذه الروضة أسألك أن تبلغنى إليها ولا إسألك غير ذلك ، فيأتيه ذلك الملك فيقول له : يا ابن آدم ما أكذبك ، ألست قد عزمت إنك لا تسأل غير هذا المقام ؟ فيأخذ بيده وينطلق به للروضة فيدخله فيها .

بـاب الجنـة

فينظر إلى باب الجنة ، وإلى بهجة تلك القصور وأطرافها من الجندل (الحجارة الكبيرة) الأخضر ، وحصباؤها (الحصباء : الحصا الصغير) من الياقوت الأحمر ، فيستنشق نسيم طيب الكافور والمسك ، ويسمع حسن تغريد الأطيار وخرير تلك الأنهار ، وما لا تصفه ألسنة الواصفين ولا يخطر ببال المتفكرين ، فإذا سمع العبد ذلك كله استخفه الطرب فيقول : يا مولاى لقد أنعمت علىّ نعماً أكمل النعم : جوزتنى الصراط ، وأنجيتنى من النار ، وصرفت وجهى عن أهل النار حتى لا أراهم ، ولكن أسألك ــ يا سيدى و مولاى ــ أن تدخلنى الجنة ، فاجعل هذا الباب بينى وبين أهل النار حتى لا أسمع

حسيسهم (الحسيس : الصوت الخفى ، ومنه قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **لا يسمعون حسيسها** ﴾[1]) ولا أرى عذابهم . فيأتيه ذلك الملك فيقول له : يا ابن آدم ما أكذبك !! ألست قد زعمت أنك لا تسأل غير ما قد سألت ؟ فيقول : وعزتك يارب لا سألتك غيره . فيأخذ الملك بيده فيدخله الباب ، فينظر العبد عن يمينه وعن شماله مسيرة سنة ، فلا يرى إلا الشجر المثمر ، وما رأى قط مثلها ولا خطر على قلب آدمى ولا جنى ، فينظر إلى أدنى شجرة فيرى عندها روضة فيها شجرة أصلها **ذهب ، وأغصانها** فضة وورقها حلى ما رأى مثلها قط آدمى ولا جنى ولا خطر على قلب بشر ، وثمرها ألين من الزبد ، وأحلى من العسل ، فيقول العبد : يارب لقد أنعمت على عبدك ، وتفضلت ونجيتنى من النار ، وأدخلتنى الجنة وأعطيتنى وأرضيتنى ، وإنما بينى وبين هذه الروضة قليل فبلغنى إليها ، فو عزتك لا سألتك غيرها . فيأتيه ذلك الملك فيقول له : يا ابن آدم ما أكذبك ، ألست قد زعمت أنك لا تسأل غير ما سألت ؟ يا ابن آدم أين ما أقسمت به ؟ أما تستحى من الله ؟!

منازل الجنة

فيأخذ بيده فينطلق إلى أدنى منزل من منازلها ، فإذا هو بقصر من لؤلؤه بيضاء بين يديه ، فلا يملك نفسه حين ينظر إليه ، فيقول : يارب أسألك هذا المنزل ولا أسألك غيره . فيأتيه الملك من عند الله ــ سبحانه وتعالى ــ فيقول له : يا ابن آدم ما أكذبك . ألست قد زعمت أنك لا تسأل غير ما أنت فيه ؟ فينظر بين يديه فإذا بمنزل كأنما المنزل الأول والثانى وجميع ما خلق ورآه حلم ، فيسأله فيعطى ، فلا يزال كذلك حتى يعطى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . فلو نزل فى أدنى قصر من قصوره الجن والإنس لكان عنده من الكراسى ما يجلسون ويتكئون عليها ، ولكان عنده من الموائد ما يفضل عنهم ، ولكان عندهم من الطعام والشراب ما يأكلون ، وإذا أكلوا وشربوا لم ينقص من الطعام والشراب إلا بقدر ما أصاب رجل واحد ﴿ **وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون** ﴾[2] .

وأنشدوا :

مقام المتقين غداً جليل ... يطيب لهم مع الحور المقيل

وأنوال عليهم مشرقات ... إذا ناداهم الملك الجليل

---

(١) من الآية ١٠٢ من سورة الأنبياء

(٢) من الآية ٣٦ من سورة الشورى

فائدة الجواز على الصراط

ذكر فى بعض الأخبار أن العبد أو الأمة إذا ذكر الصراط وهوله وصعوبته ودقته وطوله وبعد مسافته ، ثم بكى ثم قام فصلى عشر ركعات يقرأ فى كل ركعة بفاتحة الكتاب مرة ، وقل هو الله أحد ثلاث مرات ، ويسلم عن كل ركعتين ، فإذا فرغ من العشر ركعات صلى على النبى — ﷺ — وشرف وكرم مائة مرة ثم قال : سبحان الله من خلق ما شاء ، وقضى بما شاء ، والحمد لله على كل شيء — ثلاث مرات — ثم يقول : اللهم جوزنى الصراط ونجنى من هوله ، الله لا إله إلا أنت لا شريك لك وصلى الله على سيدنا محمد وآله . فمن صلى هذه الصلاة وقال هذا القول جوزه الله — تبارك وتعالى — الصراط وهو لا يشعر به ولا يهوله مع أول زمرة تمر إلى الجنة .

فاغتنموا — رحمكم الله — هذا الثواب ، وتحصنوا به من أليم العذاب ، يا أولى العقول والألباب (اللب : العقل أيضاً) لأن الصراط حاد دقيق ، وطريقه أبعد الطريق ، يا له من طريق ، لا يعين على جوازه أخ ولا صديق ، إلا عمل صالح ورب رفيق .

واعلموا — وفقنا الله وإياكم — أن العمر يذهب ، والدنيا تفنى وتخرب ، والنفس تموت والمراد إلى الحى الذى لا يموت ، فاستعدوا بكثرة الأنوار ، وبالصلاة وفعل الخير فى الليل والنهار ، وبالطاعة للنبى السيد المختار ، وبالعمل بكتاب الله الملك الواحد القهار ، وابكوا على هول الصراط المنصوب على متن النار . يسره الله لنا وهونه علينا . آمين يارب العالمين . إنه قريب مجيب .

شفاعة الناس بعضهم لبعض

ذكر أن العبد إذا جاوز الصراط وخلص ، ذكر فى ذلك الموقف أباه وإخوانه وأبناءه وجيرانه ، فعند ذلك يسأل الصديق فى صديقه ، والوالد فى ولده ، والجار فى جاره ، والرجل فى زوجته ، والمرأة فى زوجها ، والإمام فى جماعته التى كان يصلى بها ، فيشفع كل واحد منهم على قدر عمله ومنزلته عند ربه .

روى قتادة عن الحسن البصرى — رضى الله عنه — أن رسول الله — ﷺ — : « ثلاثة مواطن لا يذكر فيها أحد أحداً : عند الميزان حتى ينظر أيثقل ميزانه أم يخف ، وعند الصراط حتى ينظر أيجوز

أم لا ، وعند الصحف حتى ينظر أبيمينه يأخذ الصحيفة أم بشماله »[١] . فهذه ثلاثة مواطن لا يذكر فيها أحد حميمه ولا صديقه ولا حبيبه ولا قريبه **ولا ابنه ولا والديه** ، وذلك قول الله — تبارك وتعالى — : ﴿ **لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه** ﴾[٢] هو مشغول بنفسه عن غيره من شدة الأهوال العظام . أسأل الله أن يسهلها لنا برحمته ، ويهونها علينا بمنه ولطفه .

وأنشدوا :

بكيت على هول الصراط وذكره	وهول زفير النار من أعظم الذكر
وكيف يطيق الصبر من كان عاصياً	لخالق كل الخلق فى السر والجهر
ومن يك ذا خوف شديد لهوله	فإن له أمناً من الهول فى الحشر
فليس لمن يبكى لهول صراطه	جزاء سوى دار النعيم مع الفخر
فياله من هول عظيم يجوزه	رجال أطاعوا الله فى سالف العمر

عباد الله : تفكروا فى هول الصراط الدقيق البعيد ، وأشفقوا من الهول العظيم الشديد ، وأطيعوا الجبار الولى الحميد .

لا تقبل صلاة شُراب الخمر

ذكر أن شُراب الخمر إذا أتوا على الصراط تخطفهم الزبانية فتهوى بهم إلى عين الخبال ، وهى قيح أهل النار ، فيسقون بكل كأس شربوا من الخمر فى الدنيا شربة من الخبال ، لو أن تلك الشربة تصب من السماء السابعة لأحرقت السموات والأرضين بمن فيهن ومن عليهن . والأصل فى شارب الخمر أنه يخطف من على الصراط لأنه ليس فى وجهه نور ، لأن النور لا يكون إلا من العمل الصالح ، وشارب الخمر ليس له عمل صالح ، والأصل فيه أن الأعمال كلها لا تقبل إلا ممن صلى ، لأن الصلاة هى رأس الأعمال ، وشارب الخمر لا تقبل منه صلاة ما دام مصرًا على شرب الخمر ، فإذا لم تقبل منه صلاة فلا يقبل منه سائر عمله ، فيأتى إلى الصراط ووجهه أسود ، وقد عهد إلى الزبانية الذين على الصراط أن لا يتركوا أن يجوز إلا من له نور ، ومن ليس له نور أن يكبوه فى النار ، إلا من تاب وترك الخمر ورجع إلى الله تعالى .

---

(١) انظر سنن أبى داود (كتاب السنة) باب فى ذكر الميزان ج ٤ ص ٢٤٠ ، ٢٤١ رقم ٤٧٥٥ ولفظه : « أما فى ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً : عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أو يثقل ، وعند الكتاب حين يقال : هاؤم اقرأوا كتابيه حتى يعلم أين يقع كتابه أفى يمينه أم فى شماله أم من وراء ظهره ، وعند الصراط إذا وضع بين ظهرى جهنم » .

(٢) الآية ٣٧ من سورة عبس

التوبة من الخمر وثوابها

يا إخوانى : اعلموا أن شارب الخمر إذا تاب وترك الخمر لوجه الله — تعالى — كان يوم القيامة أفضل وأكثر نوراً على الصراط ، وأسرع جوازاً من لم يشربها . فالله الله يا معشر المذنبين ، توبوا إلى مولاكم أسرع الحاسبين ، يغفر لكم ذنوبكم أجمعين .

فضل المؤذنين

ذكر فى بعض الأخبار أن المؤذنين إذا أتوا إلى الصراط يجدون نجائب من نور مسرجة بسرج الياقوت والزبرجد ، فيركبونها فتطير بهم على الصراط ، ويشفع كل واحد منهم عند جواز الصراط فى أربعين ألفاً كلهم قد استوجبوا النار ، ويجوز فى نور المؤذن ألف رجل وألف امرأة ، وفى حديث آخر : أن المؤذن إذا جاء إلى الصراط سبقه نور الأذان ، ونور لا إله إلا الله ، ونور محمد رسول الله ، ونور الدعاء الذى يدعو الناس إلى توحيد الله — تبارك وتعالى — فيجوز الصراط فى نور المؤذن أربعون ألفاً ممن ليس لهم نور ، وهم أهل الذنوب والخطايا (لأن المؤذن غالباً إذا أذن ابتغاء مرضاة الله ، وذكر عباده بأوقات الصلاة وأقامها وصلاها وواظب على ذلك ، انقطعت علائق نفسه السيئة عن ملاذ الدنيا ، ووجد اللذة كل اللذة فى ما هو بصدده) .

روى عن رسول الله — ﷺ — أنه قال : « ما من عبد مسلم حان عليه وقت الصلاة فى أرض قفراء أو موضع ليس فيه جماعة ، فقام فأذن ثم قام فصلى إلا وأم من جنود الأرض ما لا يحصى عددهم إلا الله — تبارك وتعالى — ويكتب الله له بعددهم حسنات ، ويمحو بعددهم سيئات ، ويرفع له بعددهم فى الجنة درجات ، لو دخل فى أدنى درجة من درجاته الجن والإنس لوسعتهم ، ولكان فيها من الفرش والأسِرَّة والموائد والطعام والشراب والخدم ما يفضل عنهم ، وإن لم يؤذن واقتصر على الإقامة وحدها لم يصل خلفه إلا ملكاه اللذان يكتبان عمله » وفى حديث آخر : « إذا أذن العبد المسلم فى فلاة من الأرض ثم أقام فصلى جعل الله — تبارك وتعالى — خلفه سبع صفوف من الملائكة المقربين ، أحد طرفى الصف بالمشرق والآخر بالمغرب ، فإذا فرغ من صلاته ودعا آمنوا على دعائه ، ويكتب الله — تبارك وتعالى — له بعددهم حسنات ، ويمحو عنه — جل وعلا — بعددهم سيئات ، ويرفع له — تعالى — بعددهم درجات ، كل درجة أعظم من الدنيا سبعين ألف مرة ، فيها من النعيم ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فإذا جاء يوم القيامة إلى الصراط جاء معه أصحابه من الملائكة الذين صلوا خلفه ، كل ملك منهم معه نور من نور الجنة ، فيأخذون بيده وبأيدى أهله وبأيدى إخوانه الذين صحبوه وأحبوه فى الله فيفرقون عليهم من تلك الأنوار ، ويجوزونهم الصراط فى شفاعته ويمضون معهم إلى الجنة ولا يرون من هول الصراط ولا من حره ولا صعوبته شيئاً » .

فضل العلماء

ذكر فى بعض الأخبار أن العلماء إذا أتوا إلى الصراط تكون وجوههم كالشمس الضاحية ، وأنوارهم بين أيديهم ، وبيد كل عالم منهم لواء من نور الجنة يضىء له مسيرة خمسمائة عام ، وتحت لواء العالم كل من اقتدى بعلمه ، وكل من أحبه فى الله ، ومناد ينادى : هؤلاء أحباء الله ، هؤلاء أولياء الله ، هؤلاء الذين خلفوا الأنبياء ، هؤلاء الذين علموا عباد الله ، هؤلاء الذين دعوا إلى الله ، هؤلاء الذين حفظوا حدود الله ، هؤلاء مصابيح الدجى ، هؤلاء أئمة الهدى . فإذا دنوا من الصراط يوضع على رأس كل واحد منهم تاج من نور الجنة ، لو وضع ذلك التاج فى السماء السابعة العليا لخرق نوره إلى الأرض السابعة السفلى ، ويكسى كل واحد منهم حلة من حلل الجنة لو نشرت تلك الحلة بين السماء والأرض لغطى نورها نور الشمس ، ولمات الخلائق كلهم عشقاً إلى رؤيتها ، ولملأت الأرض والبحار من رائحة المسك ، وينزل على رأس كل واحد منهم غمامة من نور تقيه من حر شرر جهنم ومن حر الشمس ، وأنشدوا : ـ

يا طالب العلم ترجو أن تنال به ... عفو الإله وعفو الله موجود
أطلب بعلمك وجه الله خالقنا ... إن الصراط على النيران ممدود
عفو الإله لأهل العلم نائلهم ... وعفوه عند أهل الجهل مفقود
فاحرص هديت على التعليم مجتهداً ... وأنت عند إله العرش محمود
فاعمل بعلم رسول الله سيدنا ... وأنت بين عباد الله مسعود

واعلموا أن الله ــ تعالى ــ لا يقبل عملاً بلا علم . قال الله ــ تبارك وتعالى ــ : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾(١) فالعلماء قد أثبت لهم الجبار الخشية والتقى . قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ **إنما يتقبل الله من المتقين** ﴾(٢) ومن لا يعلم لا يتقى ، وكيف يتقى من لا يدرى ما تبقى ؟ وقد قال رسول الله ــ ﷺ ــ :

« تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، به يعرف الله ويعبد ، وبه يحمد الله ويوحد . هو إمام العمل ، والعمل

---

(١) سورة فاطر الآية ٣٨

(٢) سورة المائدة الآية ٢٧

تابعه ، يرفع الله بالعلم أقواماً فيجعلهم للخير قادة وأئمة يقتدى بهم وينتهى إلى رأيهم »[١] .

فقد بين رسول الله ــ ﷺ ــ أن العبادة لا تكون إلا بالعلم ، لقوله ــ ﷺ ــ : « به يعرف الله ويعبد » ويستوفى ذكر فضل العلم فى قول الله ــ تبارك وتعالى ــ : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ . والمقصود فى هذا الموضع ذكر الصراط والجواز عليه .

فضل حملة القرآن

ذكر فى بعض الأخبار أن حملة القرآن يحشرون يوم القيامة على كثبان من مسك أسود ، وأنوار وجوههم تغشى بالأبصار ، فإذا أتوا إلى الصراط تلقتهم الملائكة ــ الذين وكلوا بحملة القرآن ــ فتأخذ بأيديهم ، وتضع التيجان على رؤوسهم ، والحلل على أجسامهم ، وتقرب إليهم خيلاً من نور الجنة عليها سرج من المسك الأذفر ، والعنبر الأشهب ، إلجمها من اللؤلؤ والياقوت ، يركبونها فتطير بهم على الصراط ، ويجوز فى شفاعة كل واحد مائة ألف ممن قد استوجب النار ، ومناد ينادى : هؤلاء أحباب الله ، هؤلاء أولياء الله الذين قرءوا كتاب الله ، وعملوا به ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وهم أهل الله ، وهم أحباب الله ، من أحبهم فى الدنيا أحبه الله ، فجاوزوا الصراط وخلفوه بلا هول ولا هم ولا حزن ولا غم . وهذا إذا عملوا بالقرآن ، ووقفوا عند أوامره ونواهيه وأحلوا حلاله ، وحرموا حرامه ، وآمنوا بمحكمه ، ووقفوا عند متشابهه ، وسارعوا إليه (أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون[٢] ، أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾[٣] أولئك أولياء الله الصالحون ، أولئك الذين رضى الله عنهم ، ووفقهم وهداهم ، وآتاهم تقواهم .

من لم يعمل بالقرآن

وأما حامل القرآن إذا لم يعمل به فإنه يأتى إلى الصراط فتستقبله الزبانية بمقامع الحديد وأرازب النار ، وتسود وجوههم على قدر ما ضيعوا من العلم ، فمن تعلم علماً للتجبر والمباهاة أو الرياء أو السمعة ولم يرد به وجه الله تعالى وطلب به الرشا والبراطيل ، وكتمه ولم ينصح به عباد الله ، وطلب به الرياسة

---

(١) انظر احياء علوم الدين ج ١ ص ٢٠ باب فضيلة التعليم .
وانظر ابن حيان فى كتاب الثواب ، وابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله ج ١ ص ٥٤ ، ٥٥ وقال : ليس له اسناد قوى .
(٢) سورة المجادلة الآية ٢٢
(٣) سورة الأنعام الآية ٩٠

وصحبة الملوك ، ومشى به إلى أبواب أبناء الدنيا ، وإلى دور الظلمة وأهل الجور ، وحكم به بغير العدل ، ألجم بلجام من نار جهنم ، وكان عمله عليه حجة وغمة ومحنة وحسرة وندامة وظلمة على الصراط . ثم يكون العلم للعامل نوراً وفرحة وسروراً وجنة وحبوراً . ينظر المغرور المسكين إلى وفود العلماء وزمر الأولياء وألويتهم على رءوسهم منشورة ، وقلوبهم مما بشروا به من الفوز بالجنان مسرورة ، وأنوارهم تسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، والملائكة تنادى : ﴿ **ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون** ﴾[1] وأنت فى ظلمك حيران ، أيقنت بالحلول فى سموم النيران ، إلا أن يتداركك بعفوه الملك الديان .

وقد أخذ الملك بيدك وهو ينادى عليك ولجام النار فى فمك لو كان ذلك اللجام فى الدنيا لأحرقها من مشرقها إلى مغربها ، وينادى عليك : هذا الذى ضيع حدود الله ، هذا الذى خالف أوامر الله ، هذا الذى بدّل عهد الله ، وخالف كتاب الله وسنة رسول الله ـ ﷺ ـ ، وآثر حب الدنيا على ما عند هؤلاء .

يا مسكين أخذت على العلم أجرة وبرطيلا (ليس المراد هنا أن يأخذ المدرس على التدريس جعلاً يعيش به ، ولكن المراد من جعل العلم وسيلة لكسب السحت من المال بأن أعان به ظالماً ، أو مدح به جباراً غاشماً) واشتريت به ثمناً قليلاً ، ولم تراقب مولى كريماً جليلاً ، وتركت وراءك يوماً هائلاً ثقيلاً ، وخسرت يا مغرور ملكا كبيراً دائما جزيلاً .

فسقة حملة القرآن

ذكر فى بعض الأخبار عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « الزبانية أسرع إلى فسقة حملة القرآن منهم إلى عبدة الأوثان والنيران ، فيقولون : ويبدأ بنا قبل عبدة الأوثان والنيران ؟ فتقول الملائكة : ليس من يعلم كمن لا يعلم »[2] .

وفى حديث آخر : « **إن الملائكة الذين جعلهم الله على الصراط إذا نظروا إلى حملة القرآن الفساق أخذوهم وزجوا فى أقفيتهم وألقوهم فى جهنم أو يعف الله ـ تعالى ـ عنهم** » .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٤٩

(٢) انظر الترغيب والترهيب ج ١ ص ٧٦ . كتاب العلم . باب الترهيب من أن يخالف فعله قوله . انظر كتاب الموضوعات لابن الجوزى . ج ١ ص ٢٦٦ ، باب عقوبة فسقة العلماء .

اللهم أعف عنا وعن جميع إخواننا المسلمين ، واجعل القرآن حجة لنا ولا تجعله حجة علينا يا أرحم الراحمين وأنشدوا :

عظمت مصيبة حامل القرآن إن كان ملجؤه إلى النيران
فهو الجزاء لمن عصى رب العلا دار العذاب وموقف الخسران
عظمت خسارته وجل مصابه عند الصراط بظلمة وهوان
يارب عفواً عن قبيح فعالنا أنت الدليل لجنة الرضوان

فاتقوا الله معشر أهل القرآن فى كتابه ، واشفقوا من أليم عذابه ، واعملوا بالقرآن وارغبوا فى جزيل ثوابه ، لأن القرآن هو لكم وهو عليكم ، إن لم تعملوا به ويل وثبور ﴿ **فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور** ﴾[(١)] .

روى عن النبى ــ ﷺ ــ انه قال : « **عرضت علىّ الذنوبُ كلها فلم أر فيها ذنباً أعظم من ذنب حامل القرآن وتاركه** »[(٢)] ومعنى تاركه ، تارك العمل به ، العمل مع قلة العلم أعظم من كثرة العلم وقلة العمل .

روى عن النبى ــ ﷺ ــ أنه قال « يسأل حامل القرآن عما يسأل عنه الأنبياء » وإذا غضب حامل القرآن يقول له القرآن : أما تستحى ، أنا معك وأنت تغضب ؟ اقتد بى تنج ، وأكرمنى بالطاعة أكرمك وأنجيك من الأهوال وأجوزك الصراط وأدخلك الجنة .

ويروى عن النبى ــ ﷺ ــ أنه قال : « **ما من شفيع أفضل منزلة عند الله من القرآن لا نبى ولا ملك ولا غيره** »[(٣)] . فإنا لله وإنا إليه راجعون على من لا يعمل بالسنة والقرآن ، كيف اختار النار على الجنان ، وعصى مولاه وأطاع الشيطان ، لقد ضل ضلالاً بعيداً ، وتبوأ عذاباً شديداً . وبقى من الخير فريداً وحيداً . فيا لها من مصيبة ما أعظمها ، ومن حسرة ما أدومها .

---

(١) سورة لقمان الآية ٣٣

(٢) انظر مصنف ابن أبى شيبة ج ١٠ ص ٤٧٩ . كتاب فضائل القرآن . باب فى نسيان القرآن . رقم ١٠٠٤٧ .

(٣) الحديث فى كتاب احياء علوم الدين . باب فضيلة القرآن .

وانظر صحيح مسلم ١ ص ٥٥٣ كتاب صلاة المسافرين وقصرها . فى فضل القرآن بلفظ (قرعوا فإنه يجيىء يوم القيامة شفيعاً لصاحبه) .

ما خلف الصراط

روى الحسن عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « **خلف الصراط جسر عليه الأمانة ، وجسر عليه الرب جل جلاله ، وجسر عليه الرحمة** » . فيأيها السامع لما جاء من أحاديث الصفات والآثار المشكلات ، سلم الأمور لباريها ، واترك تأويلها إن كنت تاليها وقاريها ، وعليك بخويصة نفسك ، وأعمل ليوم رمسك (الرمس : تراب القبر ، ورمس الميت : دفنه) وذلك الجسر عليه السؤال ، ذلك الوقت يقول الله - جل جلاله وتقدست أسماؤه - : عبدى عملت كذا فى يوم كذا ؟ فيقول العبد : نعم يارب . فلا يزال الرب جل جلاله يعرف العبد ، والعبد يعترف ويقول نعم حتى يقول العبد : لإرسالك بى إلى النار أهون علىّ من هذا التوبيخ . فيقول له الله تعالى : يا عبدى : بعينى إذا كنت عملت ذلك وكنت عليك شهيداً وملائكتى وأرضى ، ولكن سترت عليك بحلمى وجودى ، يا عبدى ، أنا سترتها فى الدنيا عليك وأنا أغفرها اليوم لك[1] . غفر الله لنا أجمعين ، وأماتنا برحمته مسلمين تائبين على السنة والجماعة على شهادة أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأن محمداً رسول الله - ﷺ - .

مجلس فى قوله تعالى وتقدست أسماؤه :

﴿ وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم ﴾[2]

هؤلاء الذين ذكرهم المولى - جل جلاله - بقوله : ﴿ **وعلى الأعراف رجال** ﴾ هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فحبسوا على الأعراف ، والأعراف هى مواضع مرتفعة على الصراط ، لأن الصراط سبع قناطر وهى الجسور بعضها أصعب من بعض ، وبعضها أشد سؤالاً من بعض ، وبعضها أكثر ارتفاعاً من بعض ، وعند كل جسر يسأل العبد فيها عن عبادته التى افترضها الله عليه فى الدنيا .

فنسأل الله التوفيق فى الدنيا والتسهيل فى الآخرة فى تلك المقامات .

سؤال العباد يوم القيامة

فأول ما يسأل عنه العبد الصلاة ، ثم الزكاة ، ثم الصيام ، ثم الحج ، ثم الأمانة ، ثم بر الوالدين ، ثم حفظ اللسان ، ثم حفظ الجار ، ثم صلة الرحم ، وكذلك جميع ما أمر الله - عز وجل - به وجميع ما نهى عنه ، فكل من جاء إلى جسر من جسور الصراط سئل عن عبادته ، فإن أجابها جاز وصار

---

(١) (قيل إن الأعراف سور بين الجنة والنار وسمى أعرافا لمعرفة العباد أحوالهم عنده ، فمنهم شقى وسعيد) .

(٢) انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ كتاب التوحيد . باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم .

إلى الجنة ، ونور الإيمان يسعى بين يديه وعن يمينه وعن شماله ، وإن لم يأت بها نقص نوره ، وهو نور الإيمان لأن الإيمان يزيد وينقص ، يزيد بطاعة الله وينقص بمعصية الله ، فكل من نقص ثوابه بالمعصية ، نقص نوره على الصراط . فمن أراد مولاه أن يعذبه أتم له النور فى بعض جسور الصراط وطفأ النور عنه فى بعضه . والصراط أسود مظلم من شدة سواد جهنم ، لو أن قطرة من ظلمة الصراط وضعت فى الدنيا لأظلم مشرق الدنيا ومغربها ، ولمات الخلق من شدة الظلمة ، وإنما حبس الله تعالى هؤلاء القوم على أعراف الصراط ليبين لأهل الجنة والملائكة والجن والإنس ولجميع ما خلق الله ــ تبارك وتعالى ــ فضل نبينا محمد ــ ﷺ ــ . وليظهر فخره وجاهه وقدره وحرمته عند ربنا ــ جل جلاله ــ وذلك أن الله ــ تبارك وتعالى ــ يأمر العباد يمضون على الصراط والصراط منصوب على متن جهنم ، وتأتى الخلائق إلى الصراط ، المؤمنون والكافرون ، فأما المؤمنون فيمضون وأنوارهم تسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، أى عن أيمانهم .

ظلمات الكفر والمعصية

وأما الكافرون فإنهم يمضون فى ظلمات الكفر ، وظلمات أعمالهم التى عملوا فى حال الكفر فى دار الدنيا ، فإذا أتوا إلى الصراط ، فأول قدم يضعونها على الصراط يهوون (يسقطون إلى أسفل) فى النار فتخطفهم الملائكة بالكلاليب فتلقيهم فى قعر جهنم ، فإذا مضى المؤمنون بنورهم ، مضى المنافقون فى آثارهم يتبعونهم وينادونهم : أنظرونا نقتبس من نوركم ، فنمشى فى ضوئكم ، فيقال : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا . وهو قوله تعالى : ﴿ **إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم** ﴾[١] وذلك أنهم كانوا فى الدنيا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وأظهروا لهم الإيمان بألسنتهم واعتقدوا الكفر بقلوبهم ، والله تعالى يعامل العباد على عقائد قلوبهم ، والمنافقون كانوا يتربصون بالمؤمنين الدوائر ، فإذا كانوا على الصراط على آثار المؤمنين ليمشوا فى نورهم قالوا للمؤمنين : أنظرونا نقتبس من نوركم ، قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا . فيظنون أن وراءهم نوراً يلتمسونه فيرجعون وراءهم ، فيرفع لهم سرداب ، فيظنون أن فى السرداب نوراً يجوزهم على الصراط ، فيقتحم بهم إلى أبواب جهنم ، فإذا رأى المؤمنون المنافقين قد تساقطوا وتهافتوا فى النار ، فزعوا مما حل بالمنافقين ، فعند ذلك يقال لهم : ﴿ **بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾[٢] وهذا العذاب الذى فزعتم منه هو للمنافقين الذين عصوا الله ورسوله وجحدوا بآيات الله وخالفوا كتابه ، فعند ذلك يضرب بينهم بسور له باب .

---

(١) سورة النساء الآية ١٤٢

(٢) سورة الحديد الآية ١٢

السور الحاجز بين الجنة والنار

والسور هو الحائط له باب إلى الجنة ، وهو حائط بين الجنة والنار ، باطن هذا الحائط فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب — يعنى جهنم — والباطن فيه الرحمة — يعنى الجنة — فإذا رأى المنافقون المؤمنون لم يعرجوا عليهم (يعرجون : يرتقون ، وعرج فى السلم : ارتقى) ولم يلتفتوا إليهم ، ورأوهم فى حال السلامة والفوز . فيقول لهم المنافقون : ألم نكن معكم فى الدنيا على التوحيد وكنا نصلى معكم ؟ فيقول لهم المؤمنون : ألم نكن معكم فى الدنيا على التوحيد وكنا نصلى معكم ؟ فيقول لهم المؤمنون : بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم — أى عذبتم — وأحرقتم أنفسكم بالنار بخلافكم لرسول الله — ﷺ — وقولكم بألسنتكم ما ليس فى قلوبكم ، وتكذيبكم بلقاء الله — تبارك وتعالى — ، وكذبتم بهذا اليوم وتربصتم برسول الله — ﷺ وبالمؤمنين الدوائر ، وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله ، وغركم بالله الغرور فيما فعلتم برسول الله — ﷺ — وبالمؤمنين ، فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا — يعنى لا يؤخذ من كافر ولا منافق فداء .

صفة المنافقين

فالكافر ، هو الذى كفر فى السر والإعلان ، والمنافق ، الذى كفر فى السر وآمن فى الإعلان ، وآمن بلسانه وكفر بقلبه ، وقوله : ﴿ **مأواكم النار** ﴾ أى مرجعكم إليها ومستقركم فيها ، هذا كله غرور الشيطان بكم حتى جاءكم الموت ومتم على النفاق ، فإذا رجعوا وراءهم ليلتمسوا النور رأوا سرداباً فيدخلون ذلك السرداب ويظنون أن النور فيه فيهجم بهم على أبواب جهنم ، فتخطفهم الملائكة بالكلاليب فتقذفهم فى جهنم حتى يجاوزون الباب الأول من جهنم ، ثم يلقون فى الباب الثانى حتى يجاوزونه ، فلا يزالون من باب إلى باب حتى ينتهوا إلى الدرك الأسفل من النار ، فينتهى بهم إلى جب (الجب : البئر التى تبنى بالحجارة) يقال له جب الحزن ، فى ذلك الجب بئر يقال له الهبهب ، فيها توابيت من نار وعليها أقفال من نار .

بئر الهبهب

على تلك البئر صخرة من كبريت فى تلك البئر باب إذا رفعت تلك الصخرة استغاثت نار جهنم من تلك النار التى تخرج منها فتأكل تلك النار التى تخرج من تلك البئر نيران جهنم وما فيها أسرع من طرفة عين ، فيؤتى بالمنافقين فيلقون فى تلك البئر ، وتوضع عليهم تلك الصخرة فلا يخرجون منها

أبداً ، كلما أكلت تلك النار لحومهم جدد الله لهم لحوماً غيرها ، فلا يخرجون من تلك البئر أبداً ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ **إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً** ﴾(١) وقوله : ﴿ **إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم** ﴾(٢) يعنى بقوله : ﴿ **ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً** ﴾(٣) .

وأما المؤمنون الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم فإنهم يمشون على الصراط وأنوارهم تسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، حتى إذا كانوا على جسر الصراط ، وهو أعلى الجسور من الصراط وهى الأعراف وهى المواضع المرتفعة وأحدها عرف ، وتسمى النشز من الأرض وهو الموضع المرتفع عرفاً ، ومنها عرف الديك .

أهل الأعراف

فإذا صاروا على تلك المواضع من الصراط ، نقص نورهم وبقوا على أطراف أنامل أرجلهم ورأوا أن ذلك ظلمة ، وذلك أن الخلق فى الصراط على قدر أعمالهم فى الدنيا ، فمن الناس من يكون له من النور ما يضىء على الصراط مسيرة مائة عام ، ومنهم من يعطى من النور ما يضىء له مسيرة سنة ، **ومايضى مسيرة شهر ومسيرة جمعة ، ومسيرة يوم ، ومسيرة ساعة ، ومن الناس من يعطى من النور مايضىء له موضع قدميه . على قدر منازلهم عندالله ـ تعالى ـ وعلى قدر أعمالهم فى الدنيا ، فيستبقون** فى الجواز على قدر أنوارهم التى معهم فمن كان له نور كثير جاز فى السعة ، ومن كان له نور قليل جاز فى الضيق ، على قدر ما أعطى الله لكل عبد ، فإذا ثبت أصحاب الأعراف على أنامل أرجلهم فى ذلك ولا ينظرون إلى موضع أقدامهم من شدة الظلمة ، والظلمة هى من شدة سواد جهنم ، أعاذنا الله وإياكم منها وسهل لجميعنا شدائدها وظلمتها ، وثبت على الصراط أقدامنا بمنه وفضله . والصراط أحد من السيف ، وأدق من الشعرة ، وأحر من الجمر ، عليه من الحسك (الشوك مثل حسك السعدان ، والحسك ما يعمل من الحديد على مثاله للحرب) والكلاليب أكثر من عدد الإنس والجن ، قد تعلق بكل كلوب من الزبانية عدد نجوم السماء إذا تكلم واحد منهم تناثر النار من فيه ، لو أن واحداً منهم بصق فى البحار الزاخرة لجففها ، وإذا تكلم واحد منهم فزع صاحبه منه ، ولو سمع أهل الدنيا صوت واحد يتكلم بالكلام لمات كل من فيها من إنسها وجنها وجميع ما خلق الله ــ تبارك وتعالى ــ فيها من برها وبحرها من فظاعة كلامه ، ومن شدة صوته . وإذا صاح مالك خازن جهنم على خزنة جهنم يغشى عليهم من شدة صوته ، والصراط مع دقته ورقته يضطرب كما تضطرب السفينة

---

(١) سورة النساء الآية ١٤٥

(٢) سورة النساء الآية ١٤٢

(٣) سورة الحديد الآية ١٣

بأهلها إذا كانت الريح عاصفة ، فإذا ثبت القوم على أناملهم من أرجلهم لا يستطيعون الجواز وهم ينظرون إلى أهل النار كيف يعذبون فى النار ، قال الله تعالى : ﴿ **وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين** ﴾(١) وهم يستغيثون ويتضرعون إلى مولاهم ــ جل جلاله ــ ويسألونه النجاة من النار ومن هول ما هم فيه من صعوبة الصراط ، فيمكثون كذلك ما شاء الله ــ تبارك وتعالى ــ مغمومين مكروبين محزونين لا يدرون أينجون أم يهلكون ، مع كل إنسان منهم حافظاه الذان كانا يكتبان عليه عمله فى الدنيا ، فبينما هم كذلك إذ يلقى الله ــ تبارك وتعالى ــ ذكرهم فى قلوب إخوانهم من أهل الجنة وعلى ألسنتهم ، فيقول بعضهم لبعض : يا ليت شعرنا ما فعل إخواننا من أهل الأعراف .

فيقولون : ما لنا علم بما صنعوا ولكنا نسأل الحفظة ومن معهم حتى يخبرونا ما فعلوا فينادون من قصورهم : يا معشر الملائكة الذين مع أصحاب الأعراف ، ما فعل إخواننا من أصحاب الأعراف ؟

شفاعة أهل الجنة فى أصحاب الأعراف

فيقول الملائكة : يا معشر أهل الجنة : أصحاب الأعراف لم يدخلوها ، وهم يطمعون بدخولها ، قد قل نورهم ، وطفىء سراجهم ، وبقوا على أطراف أناملهم وأرجلهم ، وهم وقوف ينتظرون رحمة ربهم ، فذلك قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **ونادوا أصحاب الجنة** ﴾ يعنى نادت الملائكة أصحاب الجنة ﴿ **أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون** ﴾(٢) .

حياء آدم

فعند ذلك يلبس أهل الجنة الحلى والحلل ، ويضعون التيجان على رءوسهم ، ثم يمضون بأجمعهم حتى يأتوا آدم ــ عليه الصلاة والسلام ــ وهو فى قصره ، فينادون بأجمعهم : يا أبانا : أنت الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك كرام ملائكته ، وأسكنك جنته ، إن ناساً من ولدك محبوسون على الصراط ، قل نورهم ، وطفىء سراجهم ، فاشفع لهم عند ديان يوم الدين . فيقول آدم ــ عليه السلام ــ : لست هنالك . أنا الذى عصيت ربى ، وأكلت من الشجرة فغفر لى ، وأنا أستحى أن أسأله بعد المغفرة شيئا . ولكن عليكم بابنى نوح الذى حمله الله فى الفلك .

(١) سورة الأعراف الآية ٤٧

(١) سورة الأعراف الآية ٤٦

حياء نوح

فيأتوا نوحاً ــ عليه السلام ــ فينادون بأجمعهم : يا نوح : فيشرف عليهم من قصره فينظر إلى جماعتهم فيقول لهم نوح : يا أهل الجنة : ما الذى أزعجكم من منازلكم وما الذى جاء بكم ؟ فيقولون له : يا نوح : أنت الذى حملك الله فى الفلك ، إن ناساً محبوسون على الصراط ، قل نورهم ، وطفىء سراجهم ، فاشفع لهم عند ديان يوم الدين ، فيقول لهم نوح : لست هنالك ، أنا الذى خاطبت ربى فيما ليس لى به علم ، فغفر لى ، وأنا أستحى أن أسأله بعد المغفرة شيئاً ، ولكن عليكم بإبراهيم الذى اتخذه الله خليلاً ، وجعل النار عليه برداً وسلاماً ، فيأتون إبراهيم ــ عليه السلام ــ وهو فى قصره فينادون بأجمعهم : يا إبراهيم : أنت الذى اتخذك الله خليلاً ، إن ناساً محبوسون على الصراط ، قل نورهم ، وطفىء سراجهم ، فاشفع لهم عند ديان يوم الدين ، فيقول لهم : لست هنالك ، أنا الذى كذبت كذبتين ــ وقيل ثلاث ــ فغفر لى ، وأنا أستحى أن أسأله بعد المغفرة شيئاً ولكن عليكم بموسى ابن عمران كليم الله ونجيه .

حياء موسى

فيأتون موسى ــ عليه السلام ــ فينادونه ، فيشرف عليهم فيقولون له : يا موسى : أنت الذى كلمك الله بغير ترجمان ، وأنزل عليك التوراة وضرب لك طريقاً يبساً فى البحر ، وأراك العجائب من قدرته ، إن ناساً من إخواننا محبوسون على الصراط قل نورهم وطفىء سراجهم فاشفع لهم عند ديان يوم الدين ، فيقول لهم موسى : لست هنالك أنا الذى وكزت الرجل فقتلته فغفر لى وأنا أستحى أن أسأله بعد المغفرة شيئاً ولكن عليكم بعيسى بن مريم العذراء البتول (البتول من النساء العذراء المنقطعة من الأزواج الدائمة العبادة) البكر .

حياء عيسى

فيأتون عيسى ، وهو ــ ﷺ ــ فى قصره ، فينادونه بأجمعهم يا عيسى : فيشرف عليهم من قصره فيقول لهم : يا أهل الجنة : ما الذى أزعجكم من منازلكم ؟ وما الذى جاء بكم ؟ فيقولون له : يا عيسى : أنت الذى خلقك الله من غير بشر ، وأنت الذى جعلك الله آية للناس ، وأنت ابن الطاهرة البكر العذراء البتول ، إن ناساً محبوسون على الصراط ، قل نورهم ، وطفىء سراجهم ، فاشفع لهم عند ديان يوم الدين ، فيقول : لست هنالك ، أنا الذى زعمت النصارى أنى قلت لهم اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ، فأستحى منه أن أسأله شيئاً ، ولكن عليكم بالذى كان آخر المرسلين وهو اليوم أولهم ، عليكم به فهو ، إمام المتقين ، وسيد العالمين وخاتم النبيين ، محمد ــ ﷺ ــ .

شفاعة محمد

فيأتون النبى ــ ﷺ ــ وهو فى قصره خير قصور الجنة ، فيقفون حول القصر والقصر قد أشرق نوره وبهجته على جميع قصور أهل الجنة ، فينادون بأجمعهم : يا محمد : يا أبا القاسم : يا أحمد : يا سيد العالمين : ، يا إمام المتقين : يا خاتم النبيين : ، فيشرف عليهم محمد ــ ﷺ ــ من قصره والنور من وجهه قد أشرق على قصور الجنة كلها ، فيقول لهم ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ : ما الذى أزعجكم من منازلكم ؟ وما الذى جاء بكم ؟ فيقولون له : أنت الذى جعلك الله خاتم النبيين وسيد العالمين وإمام المتقين ، إن ناساً من أمتك على الصراط محبوسون ، قل نورهم ، وطفىء سراجهم ، فاشفع لهم عند ديان يوم الدين .

دخوله جنة عدن

فيقول النبى ــ ﷺ ــ : أنا لها ، فيلبس ــ ﷺ ــ الحلى والحلل ويضع على رأسه التاج ، ويتبعه أهل الجنة حتى ينتهى إلى باب جنة عدن فيستفتح فيقال : من هذا؟ قال ــ ﷺ ــ : فأقول : أنا أحمد فيفتح لى ، فإذا خلف السرادق ملك يتلألأ نوراً فيهولنى ما أرى منه ، فيؤنسنى ويمسحنى فيقول : يا أحمد أنت عبد وأنا عبد مثلك ، ثم أمضى فأنتهى إلى سرادق ثان ، فأستفتح فيقال : من هذا ؟ فأقول : أنا أحمد فيفتح لى ، فإذا خلف السرادق ملك عظيم أعظم خلقاً وأشد نوراً من الذى رأيت ، فيهولنى ما رأيت من عظمه ، فيؤنسنى ويمسحنى ويقول : يا أحمد : أنت عبد وأنا عبد مثلك فلا أزال أمشى فى عظم الملائكة وبعضهم أشد نوراً من بعض حتى أنتهى إلى السرادق السابع فأستفتح فيقال : من هذا ؟ فأقول : أنا أحمد ، فيفتح لى فإذا خلف السرادق جبريل ــ عليه الصلاة والسلام ــ ، فيقول : مرحباً بهذا الصوت لقد كنت إليه مشتاقاً . فأمضى حتى أنتهى إلى الحجب ، فترتفع الحجب فيتجلى لى رب العالمين ــ جل جلاله وعظمت قدرته ــ ، فإذا نظرت إليه خررت له ساجداً فأحمده بتحميد ما حمده بمثله ملك من حملة العرش ولا من حملة الكرسى ولا بنى مرسل حينئذ فى ذلك المكان ، حتى يقول الكروبيون والروحانيون وأصحاب السرادقات : إن هذا لأهل أن يشفعه الله فيمن يشفع .

سجوده بين يدى الله تعالى

فيقول الجبار ــ جل جلاله وعظمت قدرته ــ : يا أحمد : ارفع رأسك وسل تعط واشفع تشفع ، قال رسول الله ــ ﷺ ــ : فأرفع رأسى من السجود فإذا نظرت إلى ربى ــ جل جلاله ــ خررت

ساجداً وأحمده وأثنى عليه بمثل ما حمدته به فى المرة الأولى ، فأفعل ذلك ثلاث مرات وربى ـــ جل جلاله ـــ يقول لى فى كل مرة : إرفع رأسك وسل تعط واشفع تشفع ، فأقول : يارب : إن ناساً من أمتى محبوسون على الصراط قل نورهم وطفى سراجهم فأتمم لهم نورهم ، وأضىء سراجهم ، وهم الذين يقولون عند ذلك : ﴿ **ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير** ﴾(١) . حتى نمضى كما مضى إخواننا إلى الجنة ، فيبعث الله ـــ تبارك وتعالى ـــ الملائكة فيأتون بالنور من جنة عدن ، ثم يغمسون غمساً فيحيي الله نورهم ويضىء سراجهم ، ثم تقبل الملائكة على أهل جهنم فيقولون لهم : ﴿ **أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون** ﴾(٢) وذلك أن أهل جهنم لما نظروا إلى أصحاب الأعراف محبوسين على الصراط قال بعضهم لبعض : والله ما حبسوا هؤلاء إلا ليدخلوا معنا فى جهنم ، فمن أجل ذلك قالت لهم الملائكة : (هؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله **برحمة**) ثم تقبل الملائكة على أصحاب الأعراف .

جاه المصطفى العظيم

فيقولون لهم : ﴿ **إدخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون** ﴾ أى لا تحزنون ولا تموتون فى الجنة أبداً ، فيمضون والنور الذى جاءتهم به الملائكة من جنة عدن ، يسعى بين أيديهم وبايمانهم حتى يجوزوا الصراط ويدخلوا الجنة ويلحقوابمنازلهم وإخوانهم ونبيهم ـــ ﷺ ـــ ، وإنما حبسهم الجبار ـــ جل جلاله وعظمت قدرته ـــ ليظهر جاه محمد ـــ ﷺ ـــ وفضله وحرمته ودرجته ومنزلته ومكانه عند الله ـــ تبارك وتعالى ـــ . من الشفاعة ـــ ﷺ ـــ صلاة تشرف بها عقباه ، وتبلغه بها من الشفاعة العظمى رضاه ، آمين يارب العالمين ، صلاة دائمة منتهى الآباد ، طيبة باقية بلا انقطاع ولا نفاد ، صلاة تنجينا بها من حر جهنم وبئس المصير ، وتدخلنا الجنة مع صحابته الأبرار الطيبين . آمين يارب العالمين .

مجلس فى قوله تعالى

﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها ﴾

﴿ وفى حساب الملائكة والرسل واللوح المحفوظ ﴾

روى عن النبى ـــ ﷺ ـــ أنه قال : « تقف للعرض الأكبر بين يدى رب العالمين فيفرقون على قدر أعمالهم » .

وروى عن ابن عباس ـــ رضى الله عنهما ـــ أنه قال : يقول الله ـــ تبارك وتعالى ـــ يوم القيامة : « يا بنى آدم انصتوا فطالما نصت لكم » .

---

(١) سورة التحريم الآية ٨

(٢) سورة الأعراف الآية ٤٩

وفى رواية أخرى : « فقد نصت لكم من يوم خلقتكم إلى يومكم هذا ، أسمع قولكم وأنظر أعمالكم ، فانظروا اليوم أعمالكم تعرض عليكم ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ، احشروا على عبادى فو عزتى وجلالى لا يجوزنى ظلم ظالم » .

فكيف بك يا مسكين يا مغرور يا تارك الحق والصواب ، يا مخالفاً للسنة والكتاب ، يا ظالماً لنفسه يا غافلاً عن الحساب ، يا من بذل نفسه لأليم العذاب ، يا من تمادى فى معصية رب الأرباب ، ونسى الجنة وحسن المآب . وأنشدوا :

إلى كم لا تفيق من التصابى ... وهذا العمر يؤذن بالذهاب
ويرضى بالقليل المرء حظاً ... ويزهد فى الكثير من الثواب
فقد ما غرت الدنيا أناساً ... كما غر المحين بالشراب
تمنيهم غروراً باطلات ... وتخدعهم بآمال كذاب
كأنك لا ترى فى كل يوم ... جنائز تستحث إلى الخراب
خلقت من التراب وعن قريب ... ستلحق ــ غير شك ــ بالتراب
وتحيا بعد موتك كى تجازى ... بما قدمت فى يوم الحساب
فإن تك بالمسىء بقبح فعل ... فحسبك بالعقاب مع العذاب
وإن كنت الذى قدمت خيراً ... جزيت به غداً حسن المآب

تبكيت الله تعالى للجبابرة

ذكر فى بعض الأخبار أن الجبار ــ جل جلاله ــ إذا اجتمع الأولون والآخرون فى عرصة القيامة نادى ــ سبحانه وتعالى ــ : أين الجبابرة وأبناء الجبابرة ؟ أين الملوك وأبناء الملوك قصمت[1] الجبابرة بسلطانى ، وأفنيت الملوك بعظمتى .

ذكر فى الخبر أن الجبابرة يحشرون يوم القيامة على صور الذر أصغر الخلائق خلقة لتجبرهم على العباد ، والجبابرة هم الذين تجبروا على الخلق وعن اتباع سنة رسول الله ــ ﷺ ــ . وقيل : الجبابرة هم الذين أجبروا المساكين والضعفاء على ما لا يطيقوا ، وهذا الاسم قد اشترك فيه الخالق والمخلوق فالخالق ــ جل جلاله ــ هو جبار على الحقيقة .

---

(١) قصمهم : كسرهم

تفسير الجبار

وتفسير الجبار ــ فى حق الله تعالى ــ الذى جبر عباده على ما أراد ، وقيل الذى يجبر عن ظلم العباد : إن الله ــ تعالى جل اسمه ــ **لا** ينسب إليه الظلم لأن حد الظلم وضع الشىء فى غير موضعه ، لأن الدنيا والآخرة ملك الله تعالى ، والجبار من العباد هو الظالم الذى يضع الشىء فى غير موضعه ، يأخذ ما ليس له بحق ويرده إلى ما قد ملكه الله ــ تبارك وتعالى ــ ، وإذا قضى الله ــ تبارك وتعالى ــ على عبده بقضاء فهو له خيرة . لقول رسول الله ــ ﷺ ــ : « لا يكمل للمؤمن إيمانه حتى يرى أن الذى قضاه الله ــ تعالى ــ عليه أوله خير له من الذى أراد لنفسه » ، وقال رسول الله ــ ﷺ ــ : « فى قضاء الله تعالى خيرة إلا قضاء النار » وإذا قضى الله تبارك وتعالى على عبده بالنار فهو عبده وهو خلقه لم يعنه أحد على خلقه ولا على رزقه ، وهو يفعل ما يريد لا شريك فى ملكه . ثم ينادى الجليل جل جلاله : ﴿ **يا عبادى لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون** ﴾[1] فإذا سمع الخلق هذا النداء رفعوا رءوسهم وطمعوا كلهم فى هذا النداء وقالوا كلهم نحن عباد الله ، ثم ينادى ثانية ﴿ **الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين** ﴾[2] .

فعند ذلك ينكس رأسه من لم يكن مسلماً ، فتبقى أهل الأديان متحيرين ويفرح المسلمون ، ثم ينادى ثالثة : ﴿ **الذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾ أى كانوا يتقون الكبائر ، فينكس أهل الكبائر من أهل التوحيد رءوسهم ويرفع رءوسهم سائر أهل التوحيد الذين اجتنبوا الكبائر وتابوا عنها توبة نصوحا .

فكيف بك يا مغرور : يا مسكين : قد ارتكبت الكبائر والصغائر ، وعصيت مولاك فى الخفيات والظواهر ، وأيقنت أنك مسئول يوم تبلى السرائر ، ولاق من العقوبة على ذلك الحظ الجزيل الوافر . وأنشدوا :

عصيت الله ألــوان المعـــاصى ... كــأنى لست أوقــن بالـــقصاص
فمـــا لى لا أنــوح على ذنـــوبى ... وأبكــى يــوم يؤخــذ بالنـــواصى

نصــيحة

فانظر لنفسك يا مسكين : يا ضعيف الإيمان واليقين : قبل حلول الندم ، وزوال النعم ، ونزول النقم ، حيث لا ينفع الندم ، فاستعد للسؤال ، وتهيأ للجدال ، قال الله الكبير المتعال : ﴿ **يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون** ﴾[3] .

---

(١) سورة الزخرف الآية ٦٨ (٢) سورة الزخرف الاية ٦٩

السائق والشهيد

فإذا سمع العباد النداء وعلم كل عبد وأمة منزلته من جميع أهل الأديان ، نشرت الدواوين ، ووضعت الموازين ، وجيء بالنبيين ، ونصبت المنابر بالأنبياء والرسل ، فيجلس كل نبى على منبره وأمته قد أحدقت به ، ونصبت الكراسى للصديقين والشهداء ﴿ **وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد** ﴾[1] سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها ، فالناس ينقسمون فى السياقة على قسمين : قسم تسوقه الملائكة ببر وإكرام ، وروق وإجلال ، وتؤمنهم وتهدىء روعاتهم كلما نظر العبد إلى من يعذب أو ينكل يقول له سائقه من الملائكة : يا عبد الله ما أنت مثل هذا ، هذا عصى الله وأنت أطعته ، والقسم الثانى يساقون بالإنتهار والسطوة والإغلاظ ، يسوقه سائقه وهو يروعه ويقول له : يا عدو الله هذا الحساب سوف تدرى ، كلما نظر المسكين إلى من يعذب أو نيكل (نكل به جعله عبرة لغيره) قال له سائقه : الساعة تكون أنت مثل هذا ، هذا عصى الله وأنت عصيته ، أما علمت يا عدو الله أن الحساب والحشر أمامك ؟ وأنشدوا :

كأنى بنفسى قد بلغت مدى عمرى ... وأنكرت ما قد كنت أعرف من دهرى
وطالبنى من لا أقوم بدفعه ... وحولت من دارى إلى ظلمة القبر
وفاز بميراثى أناس فشتتوا ... بإفسادهم ما كنت أجمع من أمرى
وأغفلنى من كان يبدى محبتى ... فأخلصه ودى ويغمره برى
فلم يسخ لى منهم صديق بدعوة ... إذا ما جرى يوماً بحضرته ذكرى
وأضحى لبيتى ساكناً مبهجاً به ... وفى اللحد بيتى لا أقوم إلى الحشر
فيا شقوتى إن لم يجد بنجاته ... إلهى ولم يجبر برحمته فقرى
فقد أثقلت ظهرى ذنوب لو أنها ... على ظهر طور[2] أثقلته من الوزر

فما أعظم مصيبتكم ، وما أطول حسرتكم إن لم يعف عنكم مولاكم وجعل النار مأواكم ، فاغتنموا التجارة فى دار الفناء والذهاب ، يجازيكم بها مولاكم عند مناقشة الحساب ، فالحساب عظيم عسير ، والهول ـــ والله ـــ جليل كبير ، والناقد مميز بصير ، واليوم عبوس قمطرير .

---

(١) سورة ق الآية ٢١

(٢) الطور : الجبل العظيم

اللوح المحفوظ

ذكر عن ابن عباس ـــ رضى الله عنهما ـــ أنه قال : إذا جمع الله ـــ تبارك وتعالى ـــ الأولين والآخرين فى صعيد واحد ونشرت الدواوين ، ونصبت الموازين ، وأحضرت الأنبياء بأممها ، وحضر الصديقون والشهداء ، وحشر وحوش الأرض ، وهوامها وطيورها وأنعامها ، وسكان جبالها وبحارها ، ينادى مناد من قبل العرش : أين اللوح المحفوظ ؟ فيؤتى باللوح المحفوظ فيوقف بين يدى الجبار ـــ جل جلاله ـــ خاضعاً ذليلاً ، فيقول له تبارك وتعالى : ما صنعت بالوحى الذى أنزلت فيك ؟ واللوح من درة بيضاء ، صفحتاه من ياقوتة حمراء ، عرضه كما بين السماء والأرض ، ينظر الله تبارك وتعالى فيه فى كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة ، فيخلق فى كل نظرة ، ويحيى ويميت ويعز ويذل ، ويرفع أقواماً ويفعل بهم الخير ويوفقهم بفضله . ويخفض أقواماً ويصدهم عن منهاج الهدى بعدله ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون يوم القيامة لأنهم ما قدروا الله حق قدره ولا عبدوه حق عبادته ، لأنه ـــ جل جلاله ـــ أجل وأعظم من أن يوفى فى العبادة والطاعة والمعرفة حقه ، ما قدر على هذا بنى مرسل ولا ملك مقرب ، فسبحان من لا سبيل إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته . قال فيقف اللوح بين يدى الجبار جل جلاله وعظمت قدرته فيقول له : أيها اللوح المحفوظ ما صنعت بالذى أنزلت فيك ؟ فيقول اللوح المحفوظ : سيدى ومولاى بلغته عبدك ميكائيل .

رسالة ميكائيل

فينادى أين ميكائيل ؟ فيؤتى به ـــ ﷺ ـــ وهو ملك عظيم له ستة عشر ألف جناح لو نشر منها جناحاً واحداً فى الدنيا لما وسعته ، فيقف بين يدى الله تعالى خاضعاً ذليلاً قد بلغت نفسه إلى حنجرته فلا هى تدخل ولا هى تخرج خوفاً وجزعاً وهيبة من الجبار جل جلاله ، فيقول الله له : ما صنعت بالوحى الذى بلغ إليك اللوح المحفوظ ؟ وهل تشهد له بالتبليغ ؟ وأنا أعلم بذلك منك ولكن سبق فى علمى أنى أسأل اليوم عبادى وجميع خلقى وأستشهد بعضهم على بعض ، فيقول ميكائيل : بلغنى اللوح المحفوظ وبلغته عبدك إسرافيل وأنت أعلم .

رسالة إسرافيل

فيبرأ اللوح المحفوظ بشهادة ميكائيل له ، ثم ينادى أين إسرافيل ؟ فيؤتى به ـــ ﷺ ـــ وهو ملك عظيم له جناح بالمشرق وجناح بالمغرب ، ورجلاه تحت تخوم الأرض السابعة السفلى والعرش على رأسه ،

فيقف بين يدى الله ــ تبارك وتعالى وجل ــ ، مع عظم خلقه ، خاضعاً ذليلاً قد ذهلت نفسه وتغير لونه ، وارتعدت فرائصه واضطربت أوصاله واصطكت ركبتاه ، وقد بلغت نفسه إلى حلقه فلا هى تدخل ولا هى تخرج خوفاً وجزعاً وهيبة من الله ــ تبارك وتعالى ــ . فيقول له الجبار ــ جل جلاله ــ : ما صنعت بالوحى الذى بلغك ميكائيل ؟ وهل بلغك وهل تشهد له بالتبليغ ؟ وأنا علام الغيوب . فيقول إسرافيل ــ عليه السلام ــ : نعم يا سيدى ومولاى قد بلغنى وأنت أعلم وقد بلغته عبدك جبريل ، فيبرأ ميكائيل بشهادة إسرافيل ــ عليهما السلام ــ .

رسالة جبرائيل

ثم ينادى : أين جبريل ؟ فيؤتى بجبريل ــ ﷺ ــ وقد تغير لونه وتبلبل لبه وارتعدت فرائصه واضطربت أوصاله واصطكت ركبتاه ، وقد بلغت نفسه إلى حلقه فلا هى تدخل ولا هى تخرج جزعاً وخوفاً من الجبار ــ جل جلاله ــ ، فيقول الله ــ تبارك وتعالى ــ : يا جبريل ما صنعت بالوحى الذى بلغك عبدى إسرافيل وهل تشهد له بالتبليغ ؟ فيقول جبريل عليه السلام : نعم يا سيدى ومولاى بلغنى وبلغته نبيك نوحاً ــ عليه السلام ــ وأنت أعلم . فيبرأ إسرافيل بشهادة جبريل .

شهادة نوح

فيؤتى بنوح ــ عليه السلام ــ حتى يوقف بين يدى الجبار ــ جل جلاله ــ وقد ذهبت نفسه وتغير لونه وقد مات فزعاً وخوفاً من الجبار ــ جل جلاله ــ فيقول الجبار ــ جل جلاله ــ : يا نوح : ما صنعت بالوحى الذى بلغك عبدى جبريل وهل تشهد له بالتبليغ ؟ فيقول ــ عليه الصلاة والسلام ــ : نعم يا سيدى ومولاى قد بلغنى عبدك جبريل ــ عليه السلام ــ وقد بلغته قومى وأنت أعلم من جميع عبادك بذلك . فيقول الله ــ تبارك وتعالى ــ : صدقت ، أنا أعلم من جميع خلقى ولكن قد سبق فى علمى أن أسأل جميع خلقى وأستشهد بعضهم على بعض وأنا الحاكم الجبار الذى لا أجور فى حكمى . ثم يدعى بقوم نوح ــ عليه السلام ــ فيقول لهم : ما صنعتم بالوحى الذى بلغكم نوح ؟ وهل بلغكم وهل تشهدون له بالتبليغ ؟ فيقول قوم نوح : ربنا ما جاءنا من نذير ولا رأيناه يوماً قط ولا سمعناه به ولا بلغ إلينا رسالة ، فإذا سمع نوح ــ عليه السلام ــ كلام قومه ذهبت نفسه وود لو ابتلعته الأرض ، ولو قضى الله ــ تبارك وتعالى ــ بالموت لمات نوح حين جحده قومه ، حياءً من الله ــ تبارك وتعالى ــ ، فيقول الله ــ تبارك وتعالى ــ : يا نوح : هل تجد من يشهد لك أنك قد بلغت قومك الرسالة ؟ فينظر نوح ــ عليه السلام ــ فى الموقف يميناً وشمالاً ومشرقاً ومغرباً يتضح

ويتبصر من بين سائر الأنبياء والمرسلين ، وبين كراسى الشهداء والصديقين . فلا يرى فى المنابر أعلى ولا أنور ولا أحسن ولا أزهى من منبر محمد ــ ﷺ ــ .

جاه الرسول الأعظم

ولا يرى فى الأنبياء وجهاً أحسن من وجه محمد ــ ﷺ ــ ، ولا يرى نوح فى الكراسى أنور ولا أحسن من كراسى أمة محمد ــ ﷺ ــ ، ولا يرى أبهى ولا أنور ولا أحسن من كرسى أبى بكر الصديق ــ رضى الله عنه ــ . ولا يرى فى الوجوه وجوهاً أحسن من وجوه أمة محمد ــ ﷺ ــ ، ولا يرى فى الصديقين والشهداء أحسن ولا أبهى ولا أنور من وجه أبى بكر الصديق ــ رضى الله عنه ــ

فضل أبى بكر الصديق

فيقول له نوح : قد أصبت من يشهد لى يا مولاى وسيدى ، فيقول الله ــ تبارك وتعالى ــ وهو أعلم ــ من يشهد لك يا نوح ؟ فيقول نوح ــ عليه السلام ــ يشهد لى محمد ــ ﷺ ــ وأمته بأنى قد بلغت قومى الرسالة ، فينادى مناد : أين النبى الأمى العربى التهامى ؟ أين أحمد ؟ أين سيد المرسلين ، وأين خاتم النبيين والمرسلين ، أين إمام المتقين ؟ فعند ذلك يقوم محمد ــ ﷺ ــ ، وعند ذلك يرفع أهل الجمع رءوسهم إذا رأوا رسول الله ــ ﷺ ــ فيمضى ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ حتى ينتهى إلى ربه ــ عز وجل ــ فيقول له ربه يا أحمد ــ ونوح قائم ينظر ــ ما تقول هل بلغ نوح الرسالة إلى قومه ؟

فيقول محمد ــ ﷺ ــ : نعم يا سيدى ومولاى قد بلغ وأقام يدعوهم إلى الإيمان ألف سنة إلا خمسين عاماً . فيقول الجبار ــ جل جلاله ــ : صدقت يا أحمد . فعند ذلك يفرح نوح ــ عليه السلام ــ ويتهلل وجهه ، ثم يقول الله تعالى : يا محمد : هلم أمتك إلى الحساب والشهادة ، فتجتمع كل أمة حول نبيها وتنظر أمة محمد ــ ﷺ ــ يميناً وشمالاً فلا يرون النبى ــ ﷺ ــ ، والأمم قد أحدقت بأنبيائها وينظر الأنبياء والأمم إلى منبر رسول الله ــ ﷺ ــ خالياً .

منبر الرسول والمحشر

فيقول بعضهم لبعض : لمن هذا المنبر الذى لا يرى فى الموقف مثله لحسنه وجماله ، ولا يرى أنور منه ولا أعلا ولا أبهى منه ، ونراه خالياً ولا نرى له صاحباً ؟

فبينما هم ينظرون إلى منبر النبى — صلى الله عليه وسلم — إذ ينادى المنادى ، ألا إن هذا المنبر منبر محمد — صلى الله عليه وسلم — ، وإن محمداً — صلى الله عليه وسلم — يناجى ربه فى المذنبين من أمته يشفع لهم إلى الله — تعالى — : فبينما هذه الأمة وقوف مغمومون محزونون بما يأتى النبى — صلى الله عليه وسلم — من عند ربه — عز وجل — ، إذ يخرج إليهم — صلوات الله وسلامه عليه — من عند ربه — عز وجل — ، إذ يخرج إليهم — صلوات الله وسلامه عليه — من عند ربه — جل جلاله — حتى ينتهى إليهم فيقوم بينهم فيرفعون رءوسهم وينظرون إليه فإذا رآهم — صلوات الله وسلامه عليه — أرسل عينيه بالبكاء ، فإذا نظروا ﴿ **تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً** ﴾(١) الآية . ذلك يوم مهول عبوس ، يوم تشيب فيه الرءوس ، وتذهل فيه النفوس ، وتبلو كل نفس ما أسلفت ، وتقدم كل أمة على ما أقدمت ، وتذهل كل مرضعة عما أرضعت ، يجد والله كل عبد وأمة ما عمل وقدم من خير ثواباً ونعيماً ، وسروراً مقيماً ، ورباً كريماً ، رءوفاً بعباده رحيماً . ويجد كل عبد وأمة ما عمل من شر خزياً جسيماً ، وناراً وجحيماً ، وعذاباً مقيماً ، ونكالاً أليماً ، ورباً غضباناً عظيماً ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت** ﴾ .

الثواب والعقاب

يجد الطائع الثواب ، ويجد الفاسق العذاب ، يجد المؤمن لذة الوصال ، بالنظر إلى الكبير المتعال ، فى دار الخلد والجلال ، ويجد الكافر العذاب والنكال ، والسلاسل والأغلال ، والجحيم والخبال ، وفظاعة الأهوال ، يوم تجد كل نفس ما عملت ، يجد المؤمن النعيم والكرامة ، والأمن فى القيامة ، والعافية والسلامة ، والحلول فى دار المقامة ، ويجد الكافر الخزى والندامة ، والعذاب والملامة ، ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت** ﴾ يجد المؤمن الدرجات ، ويجد الكافر العقوبات ، يجد المؤمن السرور ، ويجد الفاجر الثبور ، يجد المؤمن النعيم والخلود ، ويجد الفاجر عذاباً غير مردود ، يجد المؤمن ما قدم من الإحسان ، فى درجات الجنان فى جوار الرحمن ، مع الخيرات الحسان ، ويجد الفاجر ما عمل من العصيان فى سموم النيران ، فى جوار الشيطان ، مع الذل والهوان . ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت** ﴾ فى يوم هائل عظيم ، يوم تكثر فيه الغموم وتعظم فيه الهموم ، ويفصل الرب بين عباده وهو الحى القيوم ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت** ﴾ يوم تندم على القبائح ، وتتأسف عند معاينة الفضائح ، وتوجد الأعمال فى الصحائف الصحائح ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت** ﴾ يوم يندم الظالم ويخسر الآثم ، ويكون الجبار — جل جلاله — فى ذلك اليوم العدل الحاكم ، ذلك يوم الندامة والحسرة ، والأهوال والعبرة . وأنشدوا :

يا واحداً صمداً بغير قرين ... ارحم ضراعة عبدك المسكين
واعطف علىّ إذا وقفت مروعاً ... حيران بين يديك يوم الدين

(١) سورة آل عمران الآية ٣٠

يا حسرتى بين العباد إذا هموا خافوا الحساب فخف عنهم دونى
ما حيلتى فى يوم نشر صحيفتى إذا قيل لى خذها بغير يمين
ما حيلتى عند الحساب وهوله إذا قصرت بى قوتى ويقينى
لا حيلة عندى ولا لى موئل إن خانني طمعى وحسن ظنونى
يارب لا تترك عبيدك هالكاً وارحم بفضلك عبرتى وشئونى

﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً** ﴾ أى تجده حاضراً عتيداً (العتيد الحاضر المهيأ) وتسأل عن أعمالك سؤالاً شديداً ﴿ **وما عملت من سوء تودلو أن بينها وبينه أمداً بعيداً** ﴾[1] . قيل الأمد البعيد الذى يود من عمل سوءاً وعصى مولاه أن يكون بينه وبين عمله السوء كما بين المشرق والمغرب وقيل الأمد البعيد الغاية فى البعد الذى يتمنى أنه تاب فى الدنيا وتبدل الشر بالخير حتى يمحى عنه السوء بالتوبة فلا يراه ولا يسمعه ولا يعاقب عليه إذا رأى التائبين غفر لهم بالتوبة ، وبدلت سيئاتهم بالحسنات والأوبة ، كما قال تعالى : ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون** ﴾[2] الآية .

فائدة التوبة

وقال - رسول الله - ﷺ - « كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون »[3] فإذا رأى المسكين الذى عمل السوء وقد أحاطت به الكروب وترادفت عليه الهموم والخطوب ، واسود وجهه من ظلمات الذنوب ، وقد غضب عليه علام الغيوب ، ورأى الذين تابوا من إخوانه وأهله وأصحابه وجيرانه قد فازوا بالملك الكبير ، والحساب اليسير ، ولباس السندس والحرير والنظر إلى وجه السميع البصير ، قد جاء فى القرآن الكريم ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾[4] ، وفى الحديث « سترون ربكم كالقمر عند تمامه لا تضارون شيئاً عن رؤيته »[5] ورؤية الله - تعالى - يوم القيامة لا شك فيها وتلك أفضل الكرامة ، وقد أيدها الإمام أحمد بن حنبل بأحاديث صحيحة ورأى نفسه قد خسر وخاب ، وحرم الثواب ، ونوقش

---

(١) سورة آل عمران الآية ٣٠

(٢) سورة الفرقان الآية ٦٨

(٣) الحديث فى سنن الترمذى ج ٤ ص ٥٦٨ كتاب صفة القيامة باب ٤٩ رقم ٢٤٩٩ ط / دار الكتب العلمية — تحقيق كمال يوسف الحوت . وقال : هذا حديث غريب لا تعرفه إلا من حديث على بن مسعدة عن قتادة .
وانظر سنن ابن ماجة ج ٢ ص ١٤٢٠ . كتاب الزهد ، باب ذكر التوبة . رقم ٤٢٥١ .

(٤) سورة القيامة الآيتان ٢٢ ، ٢٣

(٥) أنظر صحيح البخارى ج ٤ ص ٢٨٣ . كتاب التوحيد . باب قول الله — تعالى — ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ .
انظر سنن الترمذى ج ٤ ص ٥٩٤ كتاب صفة الجنة وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح غريب .

الحساب ، وحجب عن رب الأرباب ، وصار إلى أليم العذاب . يود لو كان تائباً ، ولم يكن من الرحمة خائباً ، يود لو كان السوء عنه بعيداً ولم يكن حاضراً عتيداً ، ولم يكن العذاب عليه شديداً . يود لو كان من التائبين ، ولم يكن من المحرومين ، يود لو كان من الآمنين ولم يكن من المخالفين ، يود لو كان من الطائعين ولم يكن من العاصين ، يود لو كان من المحسنين ولم يكن من الظالمين ، يود لو كان من أهل الجنان ولم يكن من أهل النيران ، يود لو كان من أهل الثواب ولم يكن من أهل العقاب ، يود لو كان من أهل النعيم ولم يكن من أهل الجحيم ، يود لو كان من الأولياء ولم يكن من الأشقياء . يود لو كان من أهل الوفاق ، ولم يكن من أهل النفاق . يود لو كان من أهل الفوز بالجنة ، ولم يكن من أهل العذاب والمحنة . يود لو كان سعيداً رشيداً ، ولم يكن عن الله بعيداً . لا أبعدنا الله وإياك من رحمته ، وقربنا وإياكم بالفوز لجنته .

عمل العبد يلازمه

ذكر فى بعض الأخبار أن العبد إذا مات أحضر عمله كله عند رأسه حين يغسل خيراً كان أو شراً ، فإذا صلى عليه ومضى إلى قبره وانصرف الناس عنه بقى عمله معه فى قبره ولا يزال معه فى قبره إلى يوم يخرج من قبره فإذا خرج خرج معه ، فإذا قدم إلى الحساب اجتمع عمله كله خيره وشره حتى حركاته وأنفاسه ووفاته وخلافه ، يجد الكل مجموعاً لم يُنس منه شىء من الكبائر ولا من الصغائر ، ولا من الظواهر ولا من السرائر .

الحض على التوبة

فالله الله معشر المذنبين ، ابعدوا عن عمل السوء بالتوبة إلى الرحمن ، ولا تغرنكم الحياة الدنيا فإنها غرور الشيطان ، واعلموا أن الله ـ تبارك وتعالى ـ يمحو عنكم سيئاتكم بترك الذنوب والعزم على التوبة ، ويرحمكم يوم الحساب بحسن الأوبة . يا أخى وما عسى أن أقول لك من كرم مولاك الجليل ـ جل جلاله ـ لو أن الذنوب التى عملت فى أيام طغيانك وعصيانك كانت مثل جبال الدنيا برمالها وبحارها وأنهارها ، وتبت توبة واحدة بصدق وحرقة وندامة ، ليغفرها لك مولاك الكريم بكرمه وفضله ، ولا تسأل عنها يوم القيامة ، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾[1] ، وأنشدوا :

---

(١) سورة النساء الآية ١١٦

نهاك الطبيب محيلاً على ... مطاعم لونلتها لم تمت
وخاطبك الله جل اسمه ... بترك الذنوب التى حرمت
فأعرضت عن أمره لاهياً ... وأمنت نفسك ما خوفت
فأطمعتها أن تنال الرضا ... بجهلك فى فضل من قد عصت
فماذا تقول إذا أزعجت ... لتخرج بالكره فاستسلمت
فلا ندم حط أوزارها ... ولا توبة غسلت ما جنت
وأفردت وحدك فى ملحد ... بكت فيه نفسك ما أسلفت

ما تحويه الآية

يا أهل الذنوب تدبروا هذه الآية فإن فيها بلاغة لمن تذكر ، وزجراً لمن اعتبر ، وتخويفاً لمن تدبر ، ونهياً لمن تفكر . فالفكرة عبادة ، وخير وزيادة لأن مولاكم الكريم قد خوفكم وهددكم وزجركم بها زجراً شديداً فقال : **﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ﴾**(١) .

ثم قال : **﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾** أى يحذركم عقابه وعذابه إذا عصيتموه ويجزل لكم ثوابه إذا أطعتموه ، فلا يحقرن أحدكم من الذنوب شيئاً وإن صغر ، فربما كان فيه شدة العذاب والعقاب ، ولا يحقرن أحدكم حسنة يعملها وإن قلت فربما كان فيها الرضا من الملك الوهاب ، واعلموا أن الذنب الذى يحقره صاحبه يكون يوم القيامة فى ميزان فاعله أثقل من جبال الأرض ، فازجر نفسك عن غيها وقدم فى حياتك ليوم فقرك . والأصل فى الذنب الصغير أن يكون سبباً لدخول صاحبه النار . إن العبد المغرور يعمل الذنب ويحقره ولا يفكر فى من قد عصاه وهو الجبار ـ جل جلاله ـ ، فعند ذلك يغضب عليه مولاه ويقول له : عبدى حقر ذنبه واستخف بحقى ، وعزتى وجلالى لأعذبنه عليه بالنار ، ومن تاب تاب الله عليه وغفر له بالتوبة .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٣٠

وقد قال رسول الله - ﷺ - : « إياكم ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالباً »[1] قال الله - سبحانه - : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت ﴾ الآية . وأنشدوا :

قد ذهب الحى إلى عرسه وعذب الميت فى رمسه
مرتهن النفس بأعمالها لا يأمن الإطلاق من حبسه
لنفسه صالح أعمالها وما سوى هذا على نفسه

حكاية عن أحد الصالحين

حكى أن المنصور بن عمار - رحمه الله - دخل على عبد الملك بن مروان ، فقال له عبد الملك : يا منصور مسألة ؟ وقد أمهلتك سنة كاملة ، من أعقل الناس ؟ ومن أجهل الناس ؟ قال : فخرج منصور إلى بعض الفضاء من القصر ليخرج فإذا الجواب قد حضره ، فرجع إلى عبد الملك ، فقال له عبد الملك : يا منصور ما الذى ردك إلينا ؟ قال : يا أمير المؤمنين أعقل الناس محسن خائف وأجهل الناس مسىء آمن . فبكى أمير المؤمنين حتى بل ثيابه بدموعه ثم قال : أحسنت والله يا منصور ثم قال له إقرأ علىّ شيئاً من كتاب الله فهو الشفاء لما فى الصدور ، وهو الدواء والنور ، فقرأ : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴾ الآية . فقال عبد الملك : قتلتنى يا منصور ، وما معنى ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ قال منصور : عقوبته يا أمير المؤمنين فبكى عبد الملك ثم أفاق فبكى مرة أخرى ثم قال يا منصور : وما معنى (رءوف بالعباد) قال : رحيم غفار لمن تاب وأناب . قال : وما معنى ﴿ ما عملت من سوء محضراً ﴾ قال : كل صغيرة وكبيرة يجدها العبد يوم القيامة ، لم يغفر الله منها شيئاً . فبكى عبد الملك حتى غشى عليه ، فلما أفاق قال :

رقة عبد الملك بن مروان

إن - والله - من فكر فى هذه الآية وعصى مولاه بعد ذلك لقد ضل ضلالاً بعيداً . وأنشدوا :

بكيت على عظم الذنوب وغزرها وما قل من يبكى لعظم سؤاله
تفكر فى عظم السؤال وهو له وتندب دهراً زاد قبح فعاله

---

(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٤٦١ ، ج ٨ ص ٤٨٣ . ط / الشعب .
وانظر سنن ابن ماجة ج ٢ ص ١٤١٧ كتاب الزهد رقم ٤٢٤٣ بلفظ يا عائشة : إياك .. الحديث .
وانظر مسند أحمد ج ٦ ص ١٥١ وأيضا ج ٦ ص ٧٠

لعل إلـه العـرش يرحـم عبـده ويمنحـه فى الحشر طـول وصالـه
ويغفر ما قد كان فى طول جهله ويسكنـه بالعفـو دار جلالـه
وإن نظـر الـرب العظيم جلالـه فـذاك جسيم مـن جزيـل نوالـه

﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا** ﴾ تجد والله كل نفس ما قدمت فى الأيام، من الطاعات والإجرام، ذلك يوم المصائب ويوم النوائب، ويوم العجائب. يوم هتك الأستار، يوم تسعر فيه النار، يوم يفوز فيه الأبرار، ويندم فيه الفجار، وتعرض العباد على الواحد القهار، فالعجب كل العجب ممن قطع عمره فى الأغفال، وضيع أيامه فى المحال، وأفنى شبابه فى الضلال، ولم يعمل بما فى كتاب ذى المجد والجلال، قال الله الكبير المتعال: ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا** ﴾ يقول الله تعالى: يا ابن آدم تطلب موعظة ساعة وتقيم على الذنب سنة وأنشدوا:

ما بال قلبك باللذات قد شغفا وعن فوات صواب الفعل ما أسفا
وقـد توعـده الجبـار خالقنـا وبالذنـوب وبالعصيان قـد كلفـا

توبيخ الله تعالى للعباد

ذكر فى بعض الأخبار أن الله تعالى يقول فى بعض كتبه المنزلة على أنبيائه: يا عبدى ما الذى زهدك فىّ ورغبك فى غيرى؟ عبدى أنا أتقرب إليك وتهرب عنى وأطلبك وتفر منى. عبدى بسطت لك غرور الدنيا فاشتغلت بها عنى، وآثرتها علىَّ وزهدت فى سعة رحمتى، أهكذا يفعل المطيعون بأربابهم المحسنين إليهم؟ عبدى، من الذى سترك وكلأك وحفظك ووقاك؟ هل كانت لك شركة فى نفسك معى، أم هل كانت لك قوة بنفسك على؟ عبدى ما الذى قصرك عن عبادتى؟ ما الذى زهدك فى طاعتى؟ أين أنت من هادم اللذات، أين أنت من نواح الآباء والأمهات، أين أنت من المفرق بين البنين والبنات، أين أنت ممن لا يستأذن على أصحاب القصور، ولا يستأمر أرباب الدور، أين أنت من قاصم الجبارين الموكل بأرواح المخلوقين؟ عبدى، أليس قد اضمحلت آثار الماضين، ودرست معالم السالفين، واتبع آثارهم الباقون. ومن ذا الذى يقوم بخلود الدهر غيرى؟ ومن ذا الذى ينفع دوام الأبد غيرى؟ عجزت عن الخلود الجبال الراسيات والأطواد العاليات والبحار الطاميات. أنا الذى تفردت بالبقاء، وحكمت على عبادى **بالفناء**، أنا الله لا إله إلا أنا لا شريك معى فى ملكى، ولا نظير لى فى حكمى، ولا ضد لى فى سلطانى. وأنشدوا:

أمـا والـذى لا خلـد إلا لوجهـه ومن ليس فى العز المنيع له كفـو
لئـن كان هـذا العيش مراً مذاقـه لقد يجتنى من غثه الثمر الحلـو

السؤال لا يدع ذرة

واعلموا أن الله ــ تعالى ــ سائلكم عن الكبيرة والصغيرة ، والخفية والسريرة ، وعن كل ما قل ، وما دق وما جل ، لا يغفل عن شيء ، يجد العبد ما عمل حاضراً ، ويجزى به وافراً ، ويسأل عما عمل سراً مظاهراً ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً** ﴾ تجد ــ والله ــ القليل والكثير ، والنقير والذرة والقطمير . **وأنشدوا :**

والله لــو بكينــا طــول الأيـــام بدمــــع هامــــل سجــــام
وفررنــا مــن الأهــل والأوطــان إلى الجبـــــــــال والآكام[١]

خوفاً من ذلك المقام ، لكان ذلك لنا قليلاً خوفاً من سؤال الملك العلام . فكيف ونحن لا نفيق من الغفلات ، ولا ننتبه من السكرات ، ولا نخاف يوماً نجد فيه الحسنات والسيئات ، ونسأل عن المظالم والتبعات ، كما قال الذى فطر الأرض والسموات : ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا** ﴾ .

سؤال الله تعالى للعباد

روى عن النبى ــ ﷺ ــ أنه قال : « إن الله ــ تعالى ــ يخلو بعبده يوم القيامة ليس بينه وبينه حجاب ويقول له : عبدى : عملت كذا وكذا فى يوم كذا . أما علمت أنى مطلع عليك ؟ يا عبدى أفجعلتنى أهون الناظرين إليك ؟ أما استحييت منى ، أما استحييت من ملائكتى ، أما خفت من عقابى ؟ عبدى أرويتك من الماء البارد وقويت جسمك ووسعت عليك من سعة رزقى فعصيتنى . حتى إن العبد ليذوب حياء من الله ويغمره العرق حتى ليكاد يموت من الفزع ، ثم يقول العبد : يارب : النار أهون على من حيائى منك ومن العباد . فيأمر الله ــ تعالى ــ به إلى النار ، فيمضى العبد وهو يرد رأسه ويقول : يارب : وعزتك وجلالك ما عصيت بهذا كله استخفافاً بحقك ، وما ظننت بك إلا أن تغفر لى كما سترت علىّ فى الدنيا ، وقد أيقنت أن عصيانى ذلك لا يضرك ، وأن رحمتك لى لا تنقصك . فيقول الله ــ تبارك وتعالى ــ : يا ملائكتى مروا بعبدى إلى الجنة . ومن العباد من يقول : يارب العذاب علىّ أهون من توبيخك لى أرسل بى إلى النار كما يفعل بالعبد الآبق[٢] عن مولاه . فيقول الله ــ تبارك وتعالى ــ : عبدى ما بحثك إلا لأعرفك أن ذنوبك بعينى إذ عصيتنى بها ، وجعلت توبيخى لك كفارة لذنوبك وقد غفرتها لك وقد رحمتك وأنا أرحم الراحمين . مروا بعبدى إلى الجنة »[٣] .

---

(١) الآكام : جمع أكمة ، وهى التل المرتفع من الرمل أو الحجارة
(٢) أبق العبد ــ بفتح الباء ــ هرب
(٣) انظر الحديث بمعناه فى اتحاف السادة المتقين ج ١٠ ص ٤٦٩ ، ص ٤٧٠ .

جعلنا الله وإياكم من أهل الجنة أجمعين ، وتوفانا برحمته مسلمين ، وختم لنا عند فراق الدنيا بحسن الخاتمة ، وكلمة التقوى ، قول لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ـــ صلى الله عليه وعلى آله وسلم وشرف وكرم ـــ ، وحشرنا معه فى المقام الأعظم ، مع أصحابه وأزواجه الكرام أمهات المؤمنين ، آمين . يارب العالمين .

مجلس فى قوله تعالى

﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴾ الآية .

قال الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ : ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا** ﴾ يجد المؤمن الحسنات فى قرار الجنات ، والقصور العاليات ، والحور والدرجات ، والنظر إلى رب الأرضين والسموات ، يجد الطائع البشرى ، ويجد الفاجر النار الكبرى ، يجد المؤمن الأمان مع السرور والرضوان ، ويجد الفاجر الهوان مع الذل والخسران ، يجد المؤمن الملك الجزيل ، مع الثواب والتفضيل ، وأنهار السلسبيل ، والنظر إلى وجه الملك الجليل ، ويجد الفاجر النوح والعويل ، والحزن الدائم الطويل ، والعذاب الشديد الثقيل ، يجد المؤمن الخلاص ، والتبجيل والإختصاص ، ويجد الفاجر العذاب وشدة القصاص . المؤمن يوم القيامة مرحوم والفاجر باللعنة مرجوم ، المؤمن عند الحساب مستور ، والفاجر عند السؤال مشهور . المؤمن عند الحساب يلاطف ، والفاجر عند الحساب يكاشف . المؤمن حسابه عتاب ، والفاجر سؤاله عذاب . المؤمن يجد من مولاه الرحمة ، والفاجر يجد من الله النقمة . المؤمن حسابه يسير والفاجر حسابه عسير . المؤمن يجد لباسه حرير الجنان ، والفاجر لباسه سرابيل القطران . المؤمن يجد عمله سروراً والفاجر يجد عمله ويلاً وثبوراً . المؤمن يجد الإتصال ، والفاجر يجد الإنفصال . المؤمن يجد الخلاص والفكاك ، والفاجر يجد الهوان والهلاك . المؤمن مع محمد النبى ، والفاجر مع الشيطان الغوى . المؤمن فى وجهه نضرة النعيم ، والفاجر فى وجهه ظلمة الجحيم ، المؤمن فى الحساب ريان ، والفاجر فى الموقف عطشان . وأنشدوا :

أنت المخاطب أيها الإنسان فأصخ[1] إلىّ يلح لك البرهان
أودعت ما لو قلته لك قلت لى هذا لعمرك كله هذيان
فانظر لعقلك من بيانك واعتبر اتقان صنعته فثم الشان[2]

(١) أصاخ له : استمع

(٢) أى إذا نظرت بعين فكرك وتدبرت بسديد رأيك صنع الله ـــ تعالى ـــ وإتقان هذا الصنع فى الذرة الصغيرة وفى الفيل الكبير لعلمت أنه هناك الشأن أو الدلالة على قدرته وحدانيته .

وجزا محاسن فعلهم فى حشرهم عند الإله وعنده الرضوان
هذا لعمرى ظاهر لا يختفى نطق الرسول وبين الفرقان
وفى كل شىء له آية ، تدل على أنه الواحد

حكم قدسية

ذكر فى بعض الحكم التى أنزلت على الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ : عجباً لمن لا يرحم نفسه كيف يرحم ، وعجباً لمن يدوم على المعصية كيف يرجو حسن المآب ، وعجباً لمن يعمل أعمال النيران وهو يطلب نعيم الجنان . كأنك يا أخى قد قربت من العرض والحساب ، ووقفت بين يدى الملك الوهاب ، فيأمر بك إلى الجنة وحسن المآب ، أو إلى النار وأليم العذاب ، تفكر فى هذا كله يا مغرور لعل القسوة تنجلى من قلبك ، والوقر أن يزول عن سمعك ، والغطاء أن يرتفع عن بصر قلبك ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور . فانظر يا أخى بنور فكرتك ، وأطلق الموعظة على بحر عبرتك ، فلعل العين أن تدمع ، ولعل القلب أن يرق ويخشع ، فإذا جرت الدموع وخشعت القلوب محيت الذنوب ، وبلغت المنى والمرغوب ، وييسر حسابك علام الغيوب . وأنشدوا :

تذكرى المكث فى التراب حتى أنادى إلى الحساب
هون كل البلاء عندى وهكذا الفقد للشباب[1]
فليت شعرى وكم مقامى تحت الثرى أو متى إيابى
لو كان لى عقل ما هنانى نومى ولا ساع[2] لى شرابى
ولا ضحكت ولست أدرى ما لى لدى الله من حساب

النداء بأسماء الخلائق

ذكر فى بعض الأخبار : أن الخلائق إذا وقفوا فى أرض القيامة فيقف كل عبد وأمة إذا نادى المنادى باسمك يا مغرور على رءوس الأولين والآخرين . أين فلان بن فلان ؟ أو أين فلانة بنت فلان ؟ هلم إلى الحساب بين يدى رب العالمين ، فاستقر فى سمعك يا مسكين أنك أنت المنادى من جميع الخلق ، فقمت على قدميك قد تغير من الفزع لونك ، وانخلع من الجزع قلبك ، واضطربت من الهلع مفاصلك ، وقد سمع من كان حولك حسيس قلبك بالخفقان ، وأوصالك قد اشتدت فى الطيران ، فكادت نفسك

---

(١) أى وهون أيضاً فقدى للشباب وهو حقاً أشد ما يحزن عليه الشيخ . وقيل : إن الشباب علة التصابى ، روائح الجنة فى الشباب .
(٢) ساغ الشراب : سهل مدخله فى الحلق

أن تزهق من خوف الرحمن ، فإذا نظر الملك الموكل بسوقك وقد تغير لونك وتحير لبك ، علم أنك أنت المنادى باسمه فإذا كنت من أهل النفاق والعصيان للملك الخلاق ، نظر على وجهك ظلمة الذنوب ، فعلم أنك عدو لعلام الغيوب ، فجمع بين ناصيتك وقدميك ، غضباً لغضب الله عليك .

أهل الرشاد والتوفيق

قال الله ــ تبارك وتعالى ــ : ﴿ **يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام** ﴾[1] وإن كنت من أهل الرشاد ، والتوفيق والسداد ، الذين وفوا الله بالميعاد ، وخافوا مولاهم رب العباد ، أخذ بيدك الملك وقادك ، يجوز بك بالرفق ورفع الخلائق أبصارهم إليك ، وتمنوا مثل ما من الله عليك وأنت سائر إلى ربك ليجازيك بسعيك ، ويعدل عليك بكسبك . فلما انتهى بك الملك إلى سلطان العظمة .

فإن كنت من أهل السير الصالح فى الدنيا سترك جل جلاله بالنور ، وأبدى لك البشرى والسرور ، وقربك وأدناك ، وفضلك وحاباك ، فلم يطلع على حسابك ملك ولا نبى ولا رسول ، إلا الملك الجبار الذى لا يحول ولا يزول ، فيقول لك : عبدى : أنت الذى كنت تسهر والعباد نائمون ، وتصوم والعباد يشبعون ، وتبكى والعباد يضحكون ، وتحزن والعباد يفرحون ، وتخافنى والعباد آمنون ، أنت الذى كنت تجتهد فى عبادتى والعباد بطالون ، وتتصدق والعباد يبخلون ، وتبذل المعروف بين عبادى والناس يمنعون .

يقول المولى جل جلاله : فو عزتى وجلالى وملكى ومجدى وكبريائى وعظيم سلطانى وقدرتى على جميع العباد لأومنن روعك ، ولأبيحنك جنتى ، ولأوسعنك مغفرتى ورحمتى ، ولأعطينك من جزيل ثوابى وحسن مآبى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ولأبيحنك النظر إلى وجهى ، ولأرفعن قدرك وجاهك ، ولأشفعنك فى إخوانك وأهلك وأحبابك وجيرانك من أهل الذنوب والخطايا .

شفاعة العبد المؤمن

يقول المولى جل جلاله : يا عبدى ، أخرج إلى موقف الحشر فانظر إلى من لقينى من أهل الذنوب على التوحيد ، قد شفعتك فيه ، خذ بيده وانطلق به إلى الجنة بلا خوف ولا حزن ، والله تعالى أعلم .
وأنشدوا :

(١) سورة الرحمن الآية ٤١

عنى إليك فما اللذات من شغلى ... ولا سبيل الصبا واللهو من سبلى
حال التقى دون ما قد كنت تعرفه ... فلست منه على زيغ ولا زلل[1]
فى الحشر لى شغل عن كل مشتغل ... بلذة وعن الألحاظ والمقل
هذا أطار الكرى عن مقتلى وزوى[2] ... عنى المنى وطوى المبسوط من أملى
كم ليلة بت فيها ساهراً أرقاً ... أخشى العقاب وأخشى سرعة الأجل

قال الله — تعالى — : ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد** ﴾[3] رءوف — والله — بالمؤمنين ، ذو نقمة على الظالمين ، رءوف بأهل الإحسان ، وذو انتقام من أهل العصيان ، رءوف بأهل السداد ، وذو انتقام من أهل العناد ، يا مغرور تفكر فى هذه الآية فلك فيها من التخويف غاية ، ومن الزجر والتقريع نهاية ، فازجر نفسك عن هواها ، عساك تبلغها يوم العرض مناها .

حكاية عن ذى النون المصرى

حكى عن ذى النون المصرى بن إبراهيم الأخميمى (أخميم بلدة من صعيد مصر مشهورة ، وهى الآن مركز مهم يصنع فيه قماش جيد وذى النون المصرى من أعلام المتصوفين القدماء اشتهرت عنه ألفاظ من الحكمة العالية والفلسفة الإسلامية وربى كثيراً من المريدين . وله ترجمة وافية فى تاريخ الخطيب البغدادى) رحمة الله تعالى عليه أنه قال : خرجت مرة من المرات إلى ناحية الأردن من أرض الشام ، فلما علوت الوادى فإذا أنا بسواد قد أقبل وهو يقول ﴿ **وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون** ﴾[4] فلما قرب منى السواد إذا هو شخص ، فتأملته ، فإذا هو امرأة عليها جبة صوف ، وخمار من صوف ، وبيدها ركوة[5] ، وبيدها الأخرى عكاز ، فقالت لى غير فازعة منى : من أنت ؟ فقلت لها رجل غريب ، فقالت : يا هذا وهل يوجد مع الله غربة وهو مؤنس الغرباء ، ومعين الضعفاء ، فاجعله أنيسك إذا استوحشت ، وهاديك إذا ضللت ، وصاحبك إذا احتجت . قال ذو النون : فبكيت من كلامها فقالت مم بكاؤك ؟ قلت لها : وقع دواؤك على دائى وأنا أرجو أن يكون سبباً لشفائى ، قالت فإن كنت

(١) الزيغ : الإنحراف عن السبيل السوى ، والزلل : الخطأ والوقوع فى المعصية .

(٢) زوى الشيىء يزويه زيا ، جمعه وقبضه ، وفى الحديث « زويت لى الأرض فأريت مشارقها ومغاربها » وهى هنا بمعنى : منع وحجب . انظر الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٢١٥ كتاب الفتن باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض . وانظر سنن الترمذى ج ٤ ص ٤١٠ كتاب الفتن . باب ما جاء فى سؤال النبى ﷺ فى أمته .

(٣) سورة آل عمران الآية ٣٠

(٤) سورة الزمر الآية ٤٧

(٥) والركوة : وعاء للماء يحمله المتزهدون ، ويصنع من الخشب غالباً . وترى مع المتمشيخين كثيراً .

صادقاً فى مقالتك فلم بكيت ؟ قلت لها رحمك الله والصادق لا يبكى !! قالت : لا ، قلت لها : لم لا يبكى الصادق ؟ قالت لأن البكاء راحة القلب وملجأ يلجأ إليه ، وماكتم القلب أحر من الزفير والشهيق وذلك ضعيف عند أوليائه . قال ذو النون : فبقيت والله متعجبا من قولها ، فقالت لى : ما لك ؟قلت : أنا والله متعجب من قولك ، قالت : وهل نسيت القرحة التى ذكرتها ؟ قال قلت لها : رحمك الله إن رأيت أن تمنى على بالزيادة . فقالت : وما أفادك الحكيم فى مقامك بين يديه من الفوائد ما يستغنى به عن طلب الزوائد ! قال : قلت لها : رحمك الله ما أنا بمستغنٍ عن طلب الزوائد ، قالت : صدقت يا مسكين ، حب مولاك واشتق إليه فإن له يوماً يذيق فيه أولياءه كأسا لا يظمئون بعده أبدا ، ثم علا شهيق ثم قالت : يا حبيب قلبى إلَّى ، كَم تخلفنى فى دار لا أجد فيها صادقاً برئياً من الدعاوى الكاذبة يساعدنى على البكاء أيام حياتى . ثم تركتنى وانحدرت فى الوادى وهى تقول : اللهم إليك لا إلى النار ، حتى غاب شخصها عن بصرى ، وانقطع صوتها عن سمعى . قال ذو النون : فو الله ما ذكرت كلامها قط إلا كدر على احشائى وعيشى . قال ذو النون : فلقد اديتنى واستقام حالى مذ رأيتها وأنشدوا :

أريـد وأنت تعلم مـا مـرادى ... وتعلـم مـا تلجلج فى فـؤادى
فـهب لى ذلتـى واغفـر ذنـوبى ... وسامحنـى بها يـوم التنـادى

رجع إلى الموعظة

يا أخى : مالك لا تفكر فى قول مولاك الذى لم يزل عليك شهيداً وهو يسمعك ـــ ويراك ، قوله تعالى **﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ﴾**[1] الآية . اقرع يا مسكين بهذا الكلام باب قلبك فعساك تذيل عنه الأقفال . وترده عن الغى والمحال ، وتوقظه عن السهو والإغفال ، قال الله الكبير المتعال **﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾**[2] ، **﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴾** يوم يظهر الخفى من أعمالك ، يوم تبكى على قبيح أفعالك ، يوم يحزن المسىء من أقوالك ، يوم تنوح على خطاياك وضلالك .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٣٠
(٢) سورة محمد الآية ٢٤

جهنم وشدقها

ذكر أن الخلق إذا اجتمعوا فى الموقف وضاق المتسع ، وعظم الفزع ، واشتد الجزع ، واختلفت الأقدام ، وكثر الإزدحام ، وجاءت جهنم بالهول الأعظم ، والعذاب المقيم الألزم ، ووقفت بين يدى الجبار خاضعة للملك القهار أمر الجبار ــ جل جلاله ــ أن تفتح أبوابها ، وترفع كل جلال(١) عليها ، وهى سبعة أبواب على كل باب سبعمائة ألف جلال ، وهى الحجب ، ولولا تلك الأجلال لاحترقت السموات ومن فيها والأرضون ومن عليها ، غلظ كل جلال خمسمائة عام ، فإذا فتح منها الأبواب رفعت تلك الحجب من عليها ورمت النفط والقطران وحجارة الكبريت ويخرج منها عنق من نار أسود فيلتقط من الموقف كل ذهب وفضة وياقوتة وزبرجدة(٢) ولؤلؤة(٣) استعدت لزينة الدنيا .

زينة الدنيا الزائلة

فيأخذ الكل ويجمعه ، والجبار ــ جل جلاله ــ يقول لها : اتركى ما لم يكن لنا فكل ما كان من زينة لم يرد به وجه الله ــ تعالى ــ أخذته النار ، ومناد ينادى أصحابها : « هذه زينتكم التى إشتغلتم بها عن طاعة الله ــ عز وجل ــ وآثرتموها على ما عند الله ، ولم تتبعوا سنة النبيين ، ولا سير الصالحين » ثم ينادى المنادى : « اتبعوا زينتكم » فتخرج عنق من النار مرة أخرى فتلتقط أصحابها إلا من رحم الله .

صاعقة جهنم

فعند ذلك يقول كل عبد وأمة : يا ليت هذا كله جعلته فى جنب الله ، يا ليته لم يكن معى ، يا ليته بعد عنى ، ثم يأمر الله ــ تعالى ــ أن ترتفع صاعقة من جهنم سوداء ، فتسود وجوه أقوام من الرجال والنساء ، وتعمى أبصار قوم من الرجال والنساء ، وتختم على أفواه قوم من الرجال والنساء ، فذلك قول الله ــ عز وجل ــ : ﴿ **يوم تبيض وجوه وتسود وجوه** ﴾(٤) ، يا أخى يا مسكين يا ضعيف اليقين مثلى : أتراك من أى الفريقين تكون ؟ أمن الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الملك الرحيم ، أو من الذين اسودت وجوههم ففى العذاب الأليم ؟ أفهل تكون من الذين أبيضيت وجوههم بالرحمة ، أم من الذين اسودت وجوههم بالنقمة ؟ فكل من اسود وجهه فقد أيقن بالنار ، وكل من

---

(١) جلال : جمع جل ، وهو يصنع للدواب ، وهنا بمعنى الحجاب ، أى الستار الموضوع على جهنم .

(٢) الزبرجد : جوهر ثمين معروف ، لونه أميل إلى الزرقة .

(٣) اللؤلؤ : ما يخرج من الأصواف .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٠٦

أبيض وجهه فقد أيقن أنه من أهل دار القرار ، فيا لها من فرصة ما أعظمها ، ويا لها من مصيبة ما أدومها ، فإذا نزل السواد فى وجه من شاء الله ـــ تبارك وتعالى ـــ صار ذلك السواد حجاباً بينه وبين النظر إلى وجه مولاه ، وإذا نزل البياض فى وجه من أراد الله ـــ تبارك وتعالى ـــ يبيض وجهه رفع ذلك النور حجاب الذنوب الذى يحجب العبد عن النظر إلى وجه علام الغيوب .

من أبيض وجهه

وذلك أن البياض نور المغفرة ، وهو نور الرحمة ، وهو نور القرب ، وهو نور الوصال .

والسواد أيضاً هو سواد البعد ، وهو سواد الإنفصال ، وهو سواد النكال وهو سواد النقمة ، وهو سواد الحجبة . قال الله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون** ﴾(١) . فالحجاب يا مسكين يا مغرور فى الدنيا وقع على قلبك باكتساب السيئات ، ودوامك على الخطيئات ، وإشتغالك عن رب الأرضين والسموات ، قال الله ـــ تبارك وتعالى ـــ : ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً** ﴾(٢) .

فيا معشر المذنبين : أبعدوا السوء وأبدلوه بالإحسان ، وارغبوا فى نعيم الجنان ، وارجعوا عن الأوزار والعصيان ، فإنها تزيدكم من عذاب النيران . يا أخى : أبعد السوء وأبغضه بغضاً شديداً ، وكن على إبعاده بالتوبة جلداً جليداً ، من قبل أن يأتى يوم تود أن لو كان السوء عنك بعيداً ، ولم تتبع شيطاناً غوياً مريداً .

وأنشدوا :

يا من إليه جميع الخلق يبتهلوا ... وكل حى على رحماه يتكل
يا من نأى فرأى ما فى الغيوب ... وما تحت الثرى وحجاب الليل ينسدل
يا من دنا فنأى عن أن تحيط به ... الأفكار طرا أو الأوهام والعلل
أنت الملاذ إذا ما أزمة شملت ... وأنت ملجأ من ضاقت به الحيل
أنت المنادى به فى كل حادثة ... أنت الإله وأنت الذخر والأمل
أنت الغياث لمن سدت مذاهبه ... أنت الدليل لمن ضلت به السبل
إنا قصدناك والآمال واقعة ... عليك والكل ملهوف ومبتهل
فإن غفرت فعن طول وعن كرم ... وإن سطوت فأنت الحاكم العدل

(١) سورة المطففين الآية ١٥
(٢) سورة آل عمران الآية ٣٠

حكاية ذى النون عن الراهب الصامت

قال ذو النون ــ رحمه الله ــ : ذكر لى عن راهب بالشام أنه لم يكلم أحداً مدة أربعين سنة ، فنهضت إليه فلم أزل أنادى تحت صومعته[١] وأقسم أن يشرف علىّ حتى أشرف من أعلى صومعته ، فراودته على الكلام فأبى على :فقلت له بالذى سكت من أجله ومن خوفه ألا أجبتنى عما أسألك عنه ، فقال لى : قل ولا تطل الكلام علىّ ، قلت له : منذ كم أنت فى هذا الموضع ؟ فقال : منذ يوم واحد ، فقلت له : وكيف ذلك ؟ قال : سمعت الناس يقولون أمس واليوم وغداً ، فأما أمس فقد فات ، وأما اليوم فلى ، وأما الغد فلا أدرى أبلغه أم لا ، ثم أدخل رأسه فما كلمنى وهو يبكى ويقول : لا صبر لى على النار . وأنشدوا :

أيا نفس لا صبر على النار فاعلمى ... وكونى على خوف من النار ما عشت
ودومى على الأحزان ما دمت حية ... عسى تذهب الأحزان عنك إذا مت
يقولون فى طول الكلام بلاغة ... وقد علموا أن البلاغة فى الصمت
إذا العبد لم يلعب هواه بعقله ... عصى ربه وازداد مقتاً على مقت

تقسيم العمر على الأعمال

معشر المذنبين : اجعلوا أعماركم ثلاثة أيام : يوم مضى ، ويوم أنتم فيه ، ويوم تنتظرونه لا تدرون بما يأتيكم من صلاح أو فساد ولعلكم لا تبلغونه ، فأصلحوا اليوم الذى مضى بالندم علي ما فاتكم فيه من الطاعة والإحسان ، وما اقترفتم فيه من الذنوب والعصيان ، واليوم الذى مضى إنما تصلحونه فى اليوم الذى أنتم فيه بالبكاء والندامة ، وذم النفس مع الملامة . وأنشدوا :

حتى متى نحن والأيام نحسبها ... وإنما نحن فيها بين يومين
يوم تولى ويوم أنت تأمله ... لعله أجلب الأيام للحين[٢]

آنس الله روعتى وروعتكم يوم النشور ، وآنس وحشتى ووحشتكم فى القبور ، إنه على ذلك قدير ، وهو عليه يسير ، وأماتنا وإياكم على هذه الكلمة ، شهادة أن لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، غير مبدلين ولا مغيرين ولا مبتعدين . آمين . يارب العالمين .

---

(١) الصومعة : بناء صغير دقيق الرأس يسكنه رهاب النصارى وهى أشبه بـ (فيلا) صغيرة لسكنى فرد أو اثنين .
(٢) الحين : بالفتح ــ الهلاك ، وحان الرجل : هلك

مجلس فى قوله تعالى :

﴿ فأما من أوتى كتابه بيمينه ﴾ الآية

يا أخى يا مسكين يا حيران ، من الذنوب والعصيان ، يا من تعرض لسخط الملك الديان ، يا من أقرعين عدوه الشيطان ، بتماديه على الخذلان ، والضلال والبهتان ، والأوزار والطغيان ، يا مغرور : إنك آخذ كتاباً ، ووارد حساباً ، ونازل ثواباً ، أو عذاباً . فقم يا غافل فى دار الغرور ، ما تجده فى الكتاب المنشور ، من الثواب والحبور ، والفرح والسرور ، والضياء والنور ، من رحمة العزيز الغفور .

أين الكتب يوم القيامة ؟

روى عن النبى — ﷺ — أنه قال : « **الكتب كلها تحت العرش ، فإذا كان يوم القيامة بعث الله — تبارك وتعالى — ريحاً تطيرها بالايمان وبالشمائل** » **أول حرف فى الكتاب ﴿ إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾**[1] ما أعدل الملك الوهاب ، إذ جعل الإنسان حسيب نفسه فى قراءة الكتاب . يا مسكين يا مغرور : إن أخذت الكتاب بالشمال فحسبك العذاب والنكال ،والمحن والأهوال ، والسلاسل والأغلال ، والحميم والخبال ، واللعنة والانفصال من ذى الجود والجلال . وإن أخذت الكتاب باليمين ، فحسبك المقام الأمين فى أعلى عليين ، مع الولدان والحور العين ، والاتصال برب العالمين ، وبمحمد خاتم النبيين — صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين — . وإن أصررت فى الدنيا على جرمك ، ولم تتب إلى مولاك عن قبيح ذنبك ، فسوف تأخذ كتابك من وراء ظهرك ، فتجد فيه ما يحزن قلبك ، ويعظم حزنك ويكثر كربك ، فيا معشر المذنبين : اعلموا أنما جعل الله الدنيا إبتلاء واختبارا ، وأوجب عليكم فيها حقوقاً كباراً ، فمتى ضيعتموها فقد أودعتم كتبكم آثاماً وأوزاراً ، ومتى وفيتم بها فقد ملأتم كتبكم سروراً وأنواراً ، وما من عبد ولا أمة إلا وله كتاب يقرؤه يوم العرض والحساب ، وإنما مثل الناس عند قراءتهم الكتاب ، كمثل الزارع إن زرع طيباً ، رفع طيباً ، وإن زرع خبيثاً رفع خبيثاً ، يا أخى : فكأنك أنت كتبته بأقوالك ، وملأته بأفعالك ، وسودته بالقبائح من أعمالك . وأنشدوا:

كأنى بنفسى فى القيامة واقف … وقد فاض دمعى حين أعطى كتابيا
لعلمى بأفعالى وسوء مناقبى … وأن كتابى سوف يبدى المساويا

(١) الحديث فى التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة . للقرطبى . ص ٢٩١ . باب ما جاء فى تطاير الصحف . انظر المعنى فى اتحاف السادة المتقين ج ١٠ ص ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ .

فيا أهل الذنوب مثلى : اعلموا أن الأعمال قد أثبتت عليكم فى الديوان ، من الإحسان والعصيان ، والزيادة والنقصان ، والنفاق والإيمان ، وأنت غافل فى سكرة الغرور ، وكتابك مملوء بالويل والثبور[١] . فبادروا إلى الصحائف وامحوا ما فيها من القبائح ، ومحصوا[٢] ما قد ثبت عليكم من الفضائح ، وذلك باكتساب الحسنات ، كما قال رب الأرضين والسموات : ﴿ **إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾[٣]

أول الناس حساباً

ذكر فى بعض الأخبار أن أول ما يحاسب الله من الأمم أمة محمد ــ ﷺ ــ فإذا اجتمع الأولون والآخرون فى أرض القيامة وقفت أمة محمد ــ ﷺ ــ ، فأول من يدعى منهم إلى الحساب ــ رجل من قريش من بنى مخزوم يقال له عبد الله بن عبد الأسد ، وله أخ يقال له الأسود بن عبد الأسد وفيهما نزلت هاتان الآيتان ﴿ **فأما من أوتى كتابه بيمينه** ﴾[٤] إلى قوله ﴿ **فى الأيام الخالية** ﴾ نزلت هذه الآية فى عبد الله بن عبد الأسد . ﴿ **وأما من أوتى كتابه بشماله** ﴾[٥] وهو الأسود بن عبد الأسد ، فأما عبد الله وهو المؤمن فيدخل من وراء الحجب فيوقف بين يدى الله عز وجل ، فترعد فرائصه ، وتنفك أوصاله ، وتذهل نفسه من شدة الخوف من الله تعالى ، فبينما هو على أشد الأحوال من الخوف بين يدى الجبار ــ جل جلاله ــ إذ يأتيه ملك من عند الله تعالى وبيده صحيفة بيضاء مختومة بخاتم الخلد ، فيقول له الملك :

كتاب الحسنات

هذا كتابك فيتناول الكتاب بيمينه . وكل من كان من أهل الشقاوة إذا أوتى كتابه يروم أن يمد اليمين لأخذه فلا يقدر ، لأنه يجد يمينه كأنما علق فيها جبال الدنيا فلا يطيق أن يرفعها من الثقل ، وقيل أنها تفك يده ، وقيل أنها تلصق بجسده ، وقيل أن الملك يقول له : يا عدو الله خذ كتابك بشمالك فإنك من أصحاب الشمال ــ جعلنا الله وإياكم من أصحاب اليمين ــ .

---

(١) الثبور : الهلاك والخسران
(٢) التمحيص : الإبتلاء والإختبار
(٣) سورة هود الآية ١١٤
(٤) سورة الحاقة الآية ١٩
(٥) سورة الحاقة الآية ٢٥

فيتناول عبد الله أخو الأسود كتابه بيمينه ويقال له اقرأ ما عملت من جد وشر ولا تلومن إلا نفسك ، فيفض خاتم الكتاب فينشر كتابه فإذا هو مكتوب بخط أبيض فى باطن الكتاب السيئات وفى ظاهره الحسنات فيقال له اقرأ سيئاتك ، فأول حرف يجد فى الكتاب أصغر ذنب عمله فى الدنيا فإذا رأى ذلك الذنب ميل رأسه ونكسه حياء من الله ـــ تعالى ـــ وسال منه من العرق ما لو أن مائتين من الإبل أكلت حمضاً والتهبت عطشاً ووردت على عرقه لشربت كلها ورجعت وقد رويت وما نقص من عرقه شىء .

كيفية السؤال

هذا كله حياء من الله عز وجل فيقول الجبار ـــ جل جلاله ـــ : عبدى فيقول : لبيك ربى وسعديك فيقول : ارفع رأسك أتعرف ذنبك هذا ؟ فيقول مولاى وسيدى وعزتك وجلالك أنى لأعرفه ، فيقول : عبدى أتذكر يوم كذا وكذا ، فى موضع كذا وكذا ، وأنت على هذا الذنب ؟ فيقول : نعم ، وعزتك وجلالك ، فيقول له الجبار جل جلاله : عبدى أنك إذا أخفيت ذلك من الخلائق ، لقد علمت أنى كنت مطلعاً عليك فيقول : بلى يا سيدى ومولاى وعزتك وجلالك لقد علمت ذلك . فيقول له جل جلاله : أما استحيت منى ؟ أما راقبتنى ؟ أما علمت أن مرجعك إلى ؟ والعبد فى هذا التوبيخ قد علاه الفرق وزاب من شدة الفرق فيقول مولاى وسيدى : لأن ترسل بى إلى النار أهون على من هذا التوبيخ ، فيقول الله ـــ تبارك وتعالى ـــ : عبدى أليس قد سترتها عليك فى الدنيا ؟ فيقول العبد مولاى لقد فعلت ذلك بى فيقول جل جلاله : عبدى وعزتى وجلالى ومجدى وجودى وكرمى لقد محوتها من قلوب الملائكة وقلوب الآدميين وأبقيتها بينى وبينك حتى تعلم نعمتى عليك وأفضالى لديك فى الدنيا والآخرة .

غفران الذنوب

فلا يزال ـــ جل جلاله ـــ يفعل به ذلك فى كل ذنب حتى يقرأ جميع ما فى كتابه من الذنوب فإذا أتى على آخر الكتاب وجد فيه ، عبدى : هذه سيئاتك قد غفرتها لك . فعند ذلك يبيض وجهه وتحسن بشرته ويذهب عنه الحزن والهم والجزع .

ثم يقول الله ـــ جل جلاله ـــ : قلب كتابك فاقرأ حسناتك ، فيقلب العبد كتابه فيقرأ حسناته ، كلما مر على حسنة إزداد قلبه فرحة وسروراً ، وازداد بياضاً وحسناً ونوراً ، ثم يؤتى بتاج من نور فيوضع على رأسه لو أخرج ذلك التاج إلى الدنيا لكسف نوره ضوء الشمس والقمر .

لباس المكرمين

ويؤتى بحلتين من حلل الجنة ، شبر منها خير من الدنيا وما فيها مائة ألف مرة ، فيلبسها ويحلى كل مفصل منه بحلى الجنة ، ويقال له : اخرج على الناس وأخبرهم وبشرهم أن لكل عبد وأمة من المؤمنين مثل ذلك . فعند ذلك يخرج عبد الله بن عبد الأسد وكتابه بيمينه وقد أشرق وجهه نورا ، وقلبه قد امتلأ سرورا . قد جرت على وجهه نضرة نعيم الجنان ، وتلك علامة لأهل الإيمان . والملك آخذ بيمينه وهو ينادى عليه نداء البشرى : ألا إن فلاناً قد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا ، والخلائق قد رفعوا أبصارهم إليه وتمنوا مثل ما منّ الله به عليه وهو يقرأ : ﴿ **هاؤم اقرءوا كتابيه** ﴾[1] ليس فيه سيئة واحدة قد غفر الله — تبارك وتعالى — جميع ذنوبى ومحاها عنى ﴿ **إنى ظننت أنى ملاق حسابيه** ﴾[2] إنى أيقنت فى الدنيا أنى ألقى هذا اليوم وكنت خائفاً من هوله ، ومن قراءتى كتابى ومن حساب ربى جل جلاله ، فلا يزال كذلك حتى ينتهى إلى أصحابه فيقولون : من هذا العبد الذى أكرمه الله ورضى عنه ؟ اللهم اجعله من أحبابنا وقربه منا حتى ننظر إلى ما قد فضله مولانا به ، فإذا قرب منهم سلم عليهم فيقولون له : من أنت يا عبد الله ؟ فيقول : أو ما تعرفونى ؟ فيقولون له : يا عبد الله، لقد زينتك كرامة المولى — جل جلاله — حتى لا نعرفك ، فمن أنت ؟ فيقول لهم : أنا عبد الله بن عبد الأسد ، ألا وإن لكل واحد منكم مثل هذا ، وهكذا يفعل الله — تبارك وتعالى — بكل مؤمن يكون رأساً فى الخير يدعو إليه ويأمر به ، ثم يشفعه الله — تبارك وتعالى — فى كل من شاء من أهل الذنوب ، فعند ذلك يفرح أصحابه بما قد بشرهم به من المغفرة والفوز بالجنة ، والنجاة من النار ﴿ **فهو فى عيشة راضية** ﴾[3] قد رضى ورضيت نفسه ورضى عنه مولاه ، وهو راض بتلك العيشة ، والعيشة هى الجنة ﴿ **فى جنة عالية** ﴾[4] فى غرفة ارتفاعها مسيرة مائة عام من لؤلوة بيضاء أو من ياقوتة حمراء ، ملاطها المسك الأذفر ، والعنبر الأشهب والكافور الأبيض . ﴿ **قطوفها دانية** ﴾[5] يعنى ثمارها دانية منهم ، إذا اشتهوها نزلت عليهم حتى تدخل عليهم فى منازلهم ، فتدنو منهم فيأكلون من ثمارها ما يشتهون وهم نيام أو قعود أو قيام على أى حال أرادوا ، ثم ترجع إلى أماكنها وذلك قوله تعالى : ﴿ **كلوا واشربوا هنيئاً** ﴾[6] لا موت فيها ولا حزن ﴿ **بما أسلفتم فى الأيام الخالية** ﴾[7] يعنى الأيام الماضية ، وهى أيام الدنيا التى أطاعوا الله — تبارك وتعالى — فيها ، واستقاموا ولم يزوغوا عن طاعته . وأنشدوا :

---

(١) سورة الحاقة آية ١٩
(٢) سورة الحاقة آية ٢٠
(٣) سورة الحاقة آية ٢١
(٤) سورة الحاقة آية ٢٢
(٥) سورة الحاقة آية ٢٣
(٦) سورة الحاقة آية ٢٤
(٧) سورة الحاقة آية ٢٤

ببابك عبد من عبيدك مذنب كثير الخطايا جاء يسألك العفو
فأنزل عليه العفو يا من بمنه على قوم موسى أنزل المن والسلوى
أنا عبدك المسكين فارحم تضرعي ولا تجعل النيران يارب لى مثوى
وخفف من العصيان ظهرى إننى بلغت من الأوزار غايتها القصوى

فهذا عبد الله بن عبد الأسد ، الذى أنزل الله تعالى فيه هذه الآية ، وعلى سيرته فى الحساب تجرى سير المؤمنين من أمة محمد ـ ﷺ ـ على قدر أحوالهم واجتهادهم فى الدنيا فى الخير والإستقامة على طاعة الله

أشد الناس عذاباً

وأما قوله تعالى : ﴿ **وأما من أوتى كتابه بشماله** ﴾(١) **فهو الأسود بن عبد الأسد المخزومى وهو أخو عبد الله بن عبد الأسد وذلك أن الله تعالى يدعو به على إثر أخيه عبد الله فيدخل الأسود حتى يوقف ، وبينه وبين الله - عز وجل - حجاب السخط ، فيكون من وراء الحجاب لأن الله - تعالى - لا يراه إلا المؤمنون وأما الكفار فلا يرونه ، قال الله - تعالى - : ﴿ كلا إنهم عند ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾**(٢) فيوقف الأسود بين يدى الملائكة يرعد من خوف العذاب ، والملائكة الذين معه هم ملائكة العذاب ، فبينما هو كذلك إذ يأتيه ملك من ملائكة السخط فيأخذه بيده اليمنى ثم يهزها فيخلعها من موضعها فيعلقها من صلبه بجلده ، ثم يأخذ برأسه فيلوى عنقه فيحول وجهه فى قفاه

كتاب السيئات

ثم يأتيه ملك من وراء ظهره فى يده صحيفة سوداء فيها كتاب بخط أسود فى باطن الكتاب حسناته وفى ظاهره سيئاته والكتاب مختوم ، فيقال له : هذا كتابك خذه فلا يقدر أن يتناوله بيمينه لأن يمينه مخلوعة من منكبه ، فيتناول كتابه بشماله فيقال له : فض خاتم الكتاب فيفضه ، ويقال له : انشر كتابك واقرأه ، فينشر الصحيفة وهى سوداء فيبدأ بباطن الكتاب فتستقبله حسناته فيقرؤها ويفرح ويظن أنه سينجو من عذاب الله ـ تبارك وتعالى ـ ، حتى إذا بلغ آخر الصحيفة وجد فيها : هذه حسناتك قد ردت عليك لأنك لم ترد بها وجه الله ـ تعالى ـ والدار الآخرة ، وذلك قوله تعالى : ﴿ **من كان**

---

(١) سورة الحاقة آية ٢٥
(٢) سورة المطففين آية ١٥

يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ﴾[١] أى لا ينقصون ، تعجل لهم فى الدنيا أجور أعمالهم ولا يثابون فى الآخرة بشىء من أعملهم ، ولا يتجاوز عنهم فى شىء من أعمالهم السيئة حتى يعذبهم الله ــ تعالى ــ عليها ، وأعمالهم الحسنة أحبطها الله ــ عز وجل ــ بالكفر ، والأعمال الصالحة التى يراد بها وجه الله ــ تبارك وتعالى ــ يجازى الله ــ تعالى ــ أصحابها بالثواب الباقى وهو نعيم الجنة ، والنظر إلى وجه الله الكريم ، فوجه الله باق ونعيم الجنة باق ، لأن الله تعالى خلق الجنة ثواباً لأهل الأعمال الصالحة التى يراد بها وجه الله ــ تعالى ــ : **﴿ كل شىء هالك إلا وجهه ﴾**[٢] وكل عمل يراد به وجه الله لا يهلك ، يبقى ثوابه لصاحبه ، وثوابه الجنة ، فإن الله ــ تبارك وتعالى ــ يثيب على العمل الباقى بالنعيم الدائم الباقى ، ويثيب على العمل الفانى ، وهو ما يعمل للدنيا وزينتها بالعرض الفانى وهو حطام الدنيا ، والمؤمن لا يرضى الله ــ عز وجل ــ أن يثيبه على عمله الصالح بعرض من الدنيا وإن وسع عليه فى الدنيا . **أى بالمال والجاه والقوة** . **فإنما يعطيه ذلك** زيادة ومعونة يستعين بها على طاعته ، وأجر عمله ادخره له ليوم فقره إذا احتاج إليه . ثم يقال للأسود بن عبد الأسد : اقلب كتابك فاقرأ فيقلب ظاهره فتستقبله سيئاته مثل الجبال الرواسى وهى سود بخط أسود ، لأنها محبوطة بالكفر غير مقبولة ، فأول سيئة يقرؤها يسود وجهه ويسمج[٣] لونه ، كلما قرأ سيئة ازداد سماجة وقبحاً ، فإذا بلغ آخر الصحيفة وجد فيها : هذه سيئاتك قد اضعفت ، إنى قد أضعف عليك العذاب بعملك السيئات .

صفة العذاب للكافر

فيرجع وجهه أشد سواداً من القار ــ وهو الزفت ــ ويعظم جسده للنار حتى يكون ما بين منكبيه مسيرة شهر ، وغلظ كل فخذ من فخذيه مسيرة ثلاثة أيام ، وما بين شفتيه العليا والسفلى أربعون ذراعاً ، وقد خرجت أنيابه وأضراسه من بين شفتيه بادية وعيناه زرق ، وحدقتاه قد وقعتا على وجهه من شدة ما هو فيه من العذاب ، وكل ضرس من أضراسه أعظم من جبل أحد ، شعره كآجام القصب ، وله سبعة جلود غلظ ، كل جلد منها أربعون ذراعاً ، ما بين الجلد إلى الجلد مسيرة ثلاثة أيام فيها ديدان لها جلبة كجلبة الوحوش فى البرية ، فى جسده من الشعر ما لا يحصى عدده إلا الله ــ تعالى ــ ، فى أصل كل شعرة من الآلام والوجع والعذاب ما لو قسم على أهل الدنيا من يوم خلقهم الله ــ تعالى ــ إلى يوم يبعثهم لماتوا كلهم فى أسرع من طرفة عين . ثم يؤتى بسلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فتغل بها

(١) سورة هود آية ١٥
(٢) سورة القصص آية ٨٨
(٣) سمج : قبح ــ والسماجة : القباحة

يداه وعنقه ، ويدخل طرفها فى فيه وتخرج من دبره ، ثم يلف ما بقى منها على عنقه يتوقد ويشتعل ناراً ، ثم يؤتى بصخرة من كبريت أعظم من الجبل العظيم ، لو وضعت على جبال الدنيا لذابت من حرها فتعلق فى عنقه وهى تشتعل ناراً ، ثم يؤتى بتاج من نار فيوضع على رأسه فيصعد حر الصخرة إلى وجهه ، وينزل حر التاج إلى وجهه ، ويجتمع مع حر الصخرة ، ولا يقدر أن يرفع عن وجهه بيديه لأنهما مغلولتان إلى عنقه . قال الله تعالى : ﴿ **أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة** ﴾(١) وقال عز وجل : ﴿ **وتغشى وجوههم النار** ﴾(٢) تغشى وجوه الكفار . ثم يؤتى بسربال (قميص) من قطران وهو نحاس جهنم ، قد انتهى فى شدة الحر فيلبسه ، لو أن ذلك السربال ألقى فى الدنيا لصارت الدنيا من مشرقها إلى مغربها جمرة واحدة أسرع من لمح البصر ، ثم يقرن مع شيطان يكون ذلك الشيطان عليه أشد من كل عذاب يعذب به ، ثم يقال له : اخرج على الناس واخبر أصحابك أن لكل واحد منهم مثل هذا العذاب . فيخرج الأسود على أقبح الأحوال ، وكتابه بشماله ليس فيه حسنة واحدة ، وسيئاته ظاهرة للخلق ، والملك ينادى على الأسود ابن عبد الأسد : ياأهل الموقف ، قد شقى الأسود شقاوة لا يسعد بعدها أبدا . إلعنوه فإن الله تعالى قد لعنه وسخط عليه ، فينادى بأعلى صوته نداء يسمعه أهل الجمع : ﴿ **يا ليتنى لم أوت كتابيه** ﴾(٣) أى يا ليتنى لم أعط كتابى بشمالى ولا يحل بى هذا البلاء الذى أنا فيه ﴿ **ولم أدر ما حسابيه** ﴾(٤) اى يا ليتنى تبت وآمنت ولم أحاسب بهذا الحساب ، ولا نزل بى هذا العذاب . ﴿ **يا ليتها كانت القاضية** ﴾(٥) أى ياليت الموت عاد إلىّ حتى يريحنى من هذا العذاب . ﴿ **ما أغنى عنى مالية** ﴾(٦) يعنى المال الذى كان معه فى الدنيا وكان ينفقه فى غير ا لله ويبخل به فى ذات الله ــ تبارك وتعالى ــ ﴿ **هلك عنى سلطانيه** ﴾(٧) أى انقطعت عنى حجتى واضمحلت . ثم يأمر الله ــ تعالى ــ أن يخرج له منبر من جهنم منُ نار فينصب له ، ويصعد عليه وتبدو كل قبيحه عملها فى الدنيا ، ويلعنه كل من فى الموقف ويعيره حتى يود لو أمر به إلى النار ، ثم يقول الله ــ تبارك وتعالى ــ للملائكة : ﴿ **خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه** ﴾(٨)

فيبتدره سبعون ألف ملك خلقوا من نار السموم ، مع كل ملك منهم زمن العذاب خلاف ما مع الآخر فيأخذونه بينهم فيلقونه فى الهاوية من النار الحامية ، ويدخلون بسلسلة فى فيه ويخرجون طرفها

---

(١) سورة الزمر آية ٢٤
(٢) سورة ابراهيم آية ٥٠
(٣) سورة الحاقة اية ٢٥
(٤) سورة الحاقة آية ٢٦
(٥) سورة الحاقة آية ٢٧
(٦) سورة الحاقة آية ٢٨
(٧) سورة الحاقة آية ٢٩
(٨) سورة الحاقة الآيات ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢

من دبره كما تصنع الخروة فى السلك ، ثم يطعم الغسلين وهو شىء أسود نتن — لو أن قطرة من الغسلين (هو ما أنغسل من لحوم أهل النار ودمائهم ، ويقال هو صديدهم) لو أخرجت إلى الدنيا ، لمات جميع أهلها من النتن .

طعام أهل النار

وإنما يطعم أهل النار الغسلين لأنهم كانوا فى الدنيا لا يرون أن يغتسلوا من الجنابة ، ولا يتوضأوا للصلاة فيحرق الغسلين مواضع الوضوء والاغتسال وما سقط منه أطعموه إياه جزاء بما ضيعوا فى الدنيا من حقوق الله — تعالى — ، وهذا العذاب كله للأسود بن عبد الأسد ، وكذلك لكل من كان فى الشر رأساً يأمر به ويدعو إليه ، يفعل به كما فعل بالأسود بن عبد الأسد ، وكل من كان فى الدنيا فى الخير رأساً يأمر به ويدعو إليه يفعل به كما فعل بعبد الله بن عبد الأسد ، يجزى الله — تعالى — الناس كلهم على هذا المنهاج فى الخير والشر ، والله يفعل ما يشاء ، لا إله إلا هو ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، فنعوذ بالله من أعمال أصحاب الشمال .

مجلس فى قوله تبارك وتعالى

﴿ ووضع الكتاب ﴾ الآية .

يا أهل الذنوب مثلى ، يا أهل العيوب مثلى ، يا من يعصى ولا يتوب ، يا من الغى والمحال له صحوب ، يا من ضيع غاية المنى والمرغوب ، يا من سود كتابه بمعصية علام الغيوب ، اعلموا — عصمنا الله وإياكم — أن للعباد غداً صحائف يقرءون فيها الحسنات والقبائح ، فمن كتب له حافظاه خيرا فى الدار الفانية فهو خير له فى الدار الباقية ، ومن كان خائفا فى الدنيا من العذاب ، متحفظاً بما يثبت عليه فى الكتاب ، متجنباً لمعصية رب الأرباب ، وفقه الله مولاه للحق والصواب ، ويسر عليه برحمته الحساب ، ومحيت أوزاره من الكتاب ، ورضى عنه الملك الوهاب ، وأمر به إلى الجنة وحسن المآب .

ومن علم أن عمله يثبت عليه فى الديوان ، وهو يقرؤه لا محالة بين يدى الرحمن ، فكيف يألف العصيان ؟ وكيف يتحرك منه اللسان ، بالزور والبهتان ، ومخالفة كتاب الملك الديان ؟

الفرق بين الحسنة والسيئة

ذكر فى بعض الحكم أن رجلاً كان يسوق دابته فعثرت ، فقال الرجل : تعست الدابة — يعنى عثرت — فقال ملك اليمين لملك الشمال : ليست بحسنه فاكتبها ، فأوحى الله — تعالى — لملك الشمال ما ترك صاحب اليمين فاكتبه أنت ، فكتب صاحب الشمال قول الرجل : تعست الدابة .

وأعظم من هذا أنه ما من عبد ولا أمة يتنفس نفساً إلا أثبت عليه فى الكتاب ، فإن خرج النفس فى طاعة الله أثبته صاحب اليمين ، وإن خرج النفس فى غير طاعة الله — تعالى — أثبته صاحب الشمال حتى يحكم الله — تعالى — يوم الحساب فيه بحكمه ، فمن علم هذا يقيناً فلا يحتاج أن تمر عليه ساعة من ساعاته ، ولا وقت من أوقاته ، ولا لحظة من لحظاته إلا فى ذكر الله وفى الفكرة فى عظمة الله .

النجاة فى ذكر الله

روى عن النبى — ﷺ — أنه قال : « **ليس شىء أنجى للمؤمن من عذاب الله من ذكر الله ، وأكثر ما يجد المؤمن فى صحيفته يوم القيامة الإستغفار فى الليل والنهار** »[١] فكل من كان فى الدنيا من قراءة كتابه خائفاً مشفقاً ، كان الله — تبارك وتعالى — به عند قراءته إياه رحيماً مرفقاً . ومن كان فى الدنيا من الغافلين ، كان عند قراءته من النادمين .

فلو رأيتم يا أهل الذنوب ما قد أثبت عليكم فى الديوان ، من الخطايا والعصيان ، والزور والبهتان ، والزيادة والنقصان ، والغفلة والنسيان ، لعظمت منكم المصائب . وكثرت منكم النوائب ، وسارعتم إلى الثواب والرغائب ، ولتبتم إلى رب المشارق والمغارب . وأنشدوا :

ما بال عينك تبكى لما سلفا ذكر الذنوب وخوف النار والتلفا
يا أيها المذنب المحصى جرائمه لا تنس ذنبك واذكر منه ما سلفا
من الذنوب التى لم تبل جدتها وكيف تبلى وقد أودعتها صحفا
أما تخاف أما تخشى فضائحها إذا الغطاء انجلى عنهن وانكشفا

اعلموا معاشر المذنبين لو أن الله — تعالى — أطلع بعضنا على صحائف بعض ، وكشف له ما فيها من الذنوب لكان الناس يشتغلون عن معايشهم بتعيير بعضهم لبعض ، ولعنة بعضهم . فإنا لله وإنا إليه راجعون .

حكاية عن رقة ابن واسع

حكى عن محمد بن واسع — رحمه الله — أنه ما رآه أحد قط ضاحكاً ، وإن كان ليبكى حتى ترحمه الناس ، فذكر له ذلك فقال : يا أحبابى وكيف يضحك من لا يدرى ما أثبت عليه فى كتابه ولا يدرى بما يختم له ؟ اللهم اختم لنا بخير .

---

(١) انظر الترغيب والترهيب حـ ٢ صـ ٦٦٢ بمعناه
وانظر أيضا الدار المنثور للسيوطى حـ ٥ صـ ٣٤٧ تغير قوله — تعالى — فى سورة الإسراء (ويخرون للأذقان يبكون)

وكان رجل يكلم محمد بن واسع فى حاجة ، فقال له محمد بن واسع : ادن منى فلو كانت للذنوب رائحة لما قدرت أن تدنو منى . فيا معشر المذنبين مثلى ، وكلنا مذنب ، لا تغتروا بستر الله — تعالى — عليكم فإن له يوماً يهتك فيه الأستار ، ويحاسب عباده على ما عملوا فى الليل والنهار ، فقوم إلى الجنة وقوم إلى النار . فالخير والشر قد حصل عليكم فى الكتاب الذى يوضع لكم يوم العرض والحساب ، بين يدى رب الأرباب ، قال الملك الوهاب ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ﴾[1] . ووضع الكتاب للمؤمنين ، ووضع الكتاب للمجرمين . ووضع الكتاب لأهل الإيمان ، ووضع الكتاب لأهل النيران . ووضع الكتاب لأهل الثواب . ووضع الكتاب لأهل العقاب . ووضع الكتاب للطائعين . ووضع الكتاب للعاصين . ووضع الكتاب لأهل الإخلاص والوفاق ، ووضع الكتاب لأهل الرياء والنفاق . ووضع الكتاب لأهل الوفاء ، ووضع الكتاب لأهل الجفاء ، ووضع الكتاب للعاملين ، ووضع الكتاب للبطالين . ووضع الكتاب للقائمين ، ووضع الكتاب للنائمين ، ووضع الكتاب للمستغفرين ، ووضع الكتاب للغافلين . ووضع الكتاب للسعداء ، ووضع الكتاب للأشقياء .. ووضع الكتاب لأهل الجنة ، ووضع الكتاب لأهل المحنة . ووضع الكتاب للأبرار ، ووضع الكتاب للفجار ، ووضع الكتاب لأهل الكرامة ، ووضع الكتاب لأهل الندامة . ووضع الكتاب لأهل الرشاد ، ووضع الكتاب لأهل الفساد . وضع الكتاب لأهل الحسنات ووضع الكتاب لأهل السيئات . وضع الكتاب لأهل النعيم والسرور ، ووضع الكتاب لأهل الويل والقبور . فكتب تبشر بالجنة ، وكتب آخرها باللعنة والمحنة . جعلنا الله وإياكم ممن يبشره كتابه بالجنة برحمته .

إحاطة الكتاب بكل شىء

واعلموا يا معشر المذنبين أن الله تعالى — لم يدع شيئاً من القول إلا وقد فسره لعباده ، وأنزل بذلك كتابه العزيز فقال فيه — تبارك وتعالى — : ﴿ ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون ﴾[2] وقد أعلمنا إلهنا ومولانا أن ﴿ كل إنسان ألزمناه طائره ﴾[3] وأن كل إنسان لابد له من السؤال ولابد له من حساب ، ولابد له من ثواب أو حساب . ومولانا عز وجل قد أمرنا بالعمل الصالح ، ووعدنا عليه بالجنة ، ونهانا عن المعاصى وتوعدنا عليها بالنار . وما قدمتم من خير أو شر قد أثبت عليكم فى كتاب مكتوب ، بالحسنات والذنوب .

(١) سورة الكهف آية ٤٩
(٢) سورة الأنعام آية ٣٨
(٣) سورة الإسراء آية ١٣

حكاية فى كتابة الكتب

روى عن الحسن (هو الحسن البصرى) ــ رضى الله عنه ــ أنه قال : ما من عبد ولا أمة يدفن إلا دخل عليه ملك فى قبره معه دواة وقرطاس ، فيأخذ الملك برأس الميت ويقعده ويرفع إليه ذلك القرطاس ويناوله قلماً ويقول له : اكتب جميع ما عملت فى عمرك الذى وجبت عليك فيه الحدود من خير وشر ، فيأخذ الميت القلم فيكتب وإن لم يكن فى الدنيا كاتباً ، فإن كان العبد من أهل السعادة فأول ما يجرى القلم بيده بإذن الله ــ تبارك وتعالى ــ : « بسم الله الرحمن الرحيم » لأن بسم الله الرحمن الرحيم لا تكون فى كتاب أهل الشقاوة ، وإنما تكون فى كتاب أهل الإيمان والسنة والأمان والغفران . لأن بسم الله الرحمن الرحيم هى آية الإيمان ، وهى إخبار عن رحمة الله ولطفه جل جلاله . يا أهل السنة من هذه الأمة ، فإذا ثبت العبد فى كتابة بسم الله الرحمن الرحيم فقد أمن فى قبره من العذاب والضيقة .

البسملة وبركتها

وإذا لم يثبت فى كتابة بسم الله الرحمن الرحيم فقد حل به العذاب فى قبره ، فإذا كتب العبد ما عمل من خير وشر شقياً كان أو سعيدا ، يطوى الملك الكتاب ويعلقه فى عنقه . فإذا خرج العبد من قبره يوم القيامة جاءه ذلك الملك فأخذ الكتاب وناوله إياه وقال : يا ولى الله أو يا عدو الله ، أتعرف هذا ؟ فيقول : نعم أنا كتبته ، وأنا عملته ، فيقول له : فاقرأه فيستقبله منه ما سبق له من سعادة أو شقاوة .

فالله الله معشر المذنبين ، مثلى ، المؤمنين . لا تضيعوا أيامكم بالقبائح ، ولا تهملوا أعماركم فى الذنوب والفضائح ، فإن جميع أعمالكم قد حصلت عليكم فى الصحائف الصحائح ، وستقرؤونها بين يدى مولاكم ، وتشهد عليكم الجوارح بالقبيح والحسن من أعمالكم . وأنشدوا :

سوف يأتى عليك ساعة خوف ... حين تعطى صحائف الأعمال
وكأنى أرى فضائح قوم ... قد تجلى لكشفها ذو الجلال
ليت شعرى إذا قرأت كتابى ... بيمينى أعطاه أم بشمالى

حكاية عن عيسى ــ عليه السلام ــ

روى عن محمد بن اللباد ــ رحمه الله ــ أنه قال : دخل عيسى ابن مريم - ﷺ ــ وعلى نبينا محمد ــ ﷺ ــ مدينة خربة فدخل قصراً من قصورها فنادى : يا خراب الآخربين أين أهلك وعمارك ؟ فأجابه شىء من آخر القصر أيا ابن مريم بادوا وسيعودون . فاجتهد يا أخى لا تفرط فإن العظام قد بليت وبقيت أعمالهم فى رقابهم . وأنشدوا :

لا تحقرن من الذنوب صغيرها إن الصغير غداً يعود كبيرا
كل الذنوب وإن تقادم عهدها عند الإله مسطر مسطورا

أيها الرجل المقنع بالمشيب ، الملبس حلة المعاصى المريب ، قد خسرت أيام الشباب ، وبذلت مهجتك للعذاب ، بغفلتك عما فى الكتاب ، واتباعك اللعين الكذاب ، وتهاونك بالحساب ، وصدودك عن الصواب ، ومعصيتك لرب الأرباب . ما حيلتك يا مكروب ، مثلى ، سودت كتابك بالذنوب ، وعصيت مولاك علام الغيوب ، وبعت الحظ الجزيل بالكذب المشوب ، وضيعت الجنة التى ليس فيها نصب ولا لغوب[1] واعلموا معشر المذنبين أن العبد إذا وفقه مولاه وأعطاه الفكرة فى قراءة كتابه كان عند مولاه مستجاب الدعاء .

حكاية فى الاعتماد على الله

حكى : عن مطرف بن الشخير — رحمه الله — أنه أرسل رسولاً عن عوزماء[2] وكان فى زمان الحر ، فأبطأ عليه الرسول ، وكان عنده جماعة قد عطشوا ، وكان معه قليل ماء ، فقام فتوضأ بذلك الماء ، ثم صلى ركعتين دعا فيهما مولاة — سبحانه — ، فأرسل الله — تبارك وتعالى — سحابة حتى شرب هو وأصحابه ، فقيل له : بم بلغت هذه المنزلة ؟ فقال : جعلت كتابى نصب عينى ، فى ليلى ونهارى حتى كأنى أقرؤه بين يدى ربى — جل جلاله — .

حكاية عن مالك بن دينار

قال عبد الواحد بن زيد — رحمه الله — : كنا عند محمد بن واسع ومعه مالك بن دينار ، فجاء رجل فكلم مالكاً وأغلظ عليه فى الكلام فى قسمة قسمها وقال وضعتها فى غير حقها ، وفضلت بها أهل مجلسك ليكثروا جمعك ، ولتصرف وجوه الناس إليك ، قال : فبكى مالك بن دينار وقال : ما أردت بهذا ، هذا الذى تقول ، قال : بلى والله لقد أردته ، فلما أكثر على مالك الكلام رفع جيب يديه وقال : اللهم إن هذا قد شغلنا عن ذكرك فأرحنا منه كيف شئت . فسقط الرجل ميتاً بإذن الله .

---

(١) النصب — بالفتح — : شدة النصب . اللغو : الإعياء .

(٢) أى عن شدة عوزهم واحتياجهم للماء كما يحصل غالبا فى البلاد التى لم يكن بها نهر جار .

دعاء ابن واسع

وكان محمد بن واسع إذا جن عليه الليل يبكى ويقول فى بكائه : ويلى من ذنوب قد أحصيت ، ومن صحيفة قد ملئت ، وربى قد علم ذلك ولم يخف عليه من ذلك شىء . فأورثه الله تعالى ببكائه على كتابه ، وعلى حياته من ربه الإستجابة فى الدعاء وتنور القلب . وأنشدوا :

أرى المشيب بالعذار قد ألم ... كأن موتى عن قريب قد هجم
خط المشيب أسطراً فى مفرق ... فراعنى ما خطه وما رقم
هل الفتى إذا انقضى شبابه ... إلا كزرع هاج[1] سوف ينحطم
شاب الفؤاد قبل شيب لمتى[2] ... واعتادنى ضعف القوى قبل الهرم[3]
ويحى من التوبيخ من ربى غداً ... من ذلك الأمر الشديد المستهم
ويحى إذا نادى المنادى بى ألا ... قم عبد سوء مسرع للعرض قم
ويحى إذا ما قال لى مقرراً ... وخص شيئاً بعد شىء ثم عم
ما قد صنعت فى فروضى والذى ... قضيت منها هل صفا لى هل سلم
فجئت ربى خاسراً قد أثقلت ... ظهرى ذنوبى كالحساب المرتكم .

قال الله — تبارك وتعالى — : ﴿ **ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه** ﴾[4] وضع الكتاب لفصل القضاء ، ووضع الكتاب للحزن والبكاء ، وضع الكتاب لتبدو الفضائح ، ووضع الكتاب لتظهر القبائح ، وضع الكتاب لتصح الصحائح .

الله الله يا معشر المذنبين : حاسبوا أنفسكم قبل يوم الحساب وارحموا أنفسكم قبل نزول العذاب، وبادروا بالتوبة قبل غلق الباب ، واجتهدوا فى بقية أعماركم قبل وضع الكتاب ، وسارعوا إلى المغفرة من ربكم قبل الخجل بين يدى رب الأرباب ، وقبل أن تطلبوا برد الجواب ، وتحبس الألسنة عن النطق والخطاب ، وتشهد الجوارح بما عملت من عصيان أو ثواب . وأنشدوا :

أبك لذنبك طوال الدهر مجتهداً ... أن البكاء معول الأحزان
لا تنس ذنبك فى الكتاب وعظمة ... أن الذنوب تحيط بالإنسان

(١) هاج النبت : يبس وجف
(٢) اللمة : الشعر الذى يجاوز شحمة الأذن ، فإذا بلغ المنكبين سمى جمة .
(٣) الهرم : كبر السن ، والهرم مشهور بمصر
(٤) سورة الكهف . آية ٤٩

مساكين أهل الذنوب ، ما أطاعوا الشيطان ، وعصوا الرحمن ، مساكين أهل الذنوب : جلت كروبهم ، وعظمت خطوبهم ، وكبرت عيوبهم ، وأحصيت عليهم فى الكتاب ذنوبهم ، مساكين أهل الذنوب : عصوا الجبار فى الليل والنهار ، وبذلوا مهجتهم لعذاب النار ، وسودوا صحفهم الخطايا والأوزار . مساكين أهل الذنوب : غفلوا عن الطاعة ، وخالفوا السنة والجماعة ، وخسروا أنفسهم قبل قيام الساعة ، وأنشدوا :

(من كان) يخشى الله جل جلاله فليكثر العبرات فى الخلوات
فلعله بعد التذكر والبكا بدلت له العبرات بالحسنات
وتخفف الأوزار عن منشوره يوم الحساب وموقف الحسرات

عجائب الكتب

قال الله — تعالى — : ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ﴾[1] . عباد الله ، عند وضع الكتاب عجائب ، وأحزان ومصائب ، وكروب ونوائب . فواحد يوضع له الكتاب فيبكى ، وآخر يوضع له الكتاب فيفرح ويبكى . وآخر يوضع له الكتاب فتجرى على وجهه نضرة[2] النعيم . وآخر يوضع له الكتاب فتعلو وجهه ظلمة الجحيم . وآخر يوضع له الكتاب مختوماً بسخط الرب الجواد . وآخر يوضع له الكتاب مختوماً بالتوفيق والسداد .

اللهم وفقنا للطاعة ، وأمتنا على السنة والجماعة ، ونجنا من أهوال يوم الساعة ، وأدخلنا فى جملة أهل الشفاعة .

واعلموا معشر المذنبين : أن الماء يمحو الكتاب من ألواح الصبيان ، والدمع يمحو من كبتكم الأوزار والعصيان ، والهموم والغموم والأحزان . فاجتهدوا فى البكاء معشر الإخوان ، وأكثروا الندامة فإنها توجب الغفران وأنشدوا :

دعونى على نفسى أنوح وأندب بدمع غزير واكف يتصبب
دعونى على نفسى أنوح فإننى أخاف على نفسى الضعيفة تعطب
وإنى حقيق بالتضرع والبكا إذا ما هدا النوام والليل غيهب[3]
وجالت دواعى الحزن من كل جانب وغارت نجوم الليل وانفض كوكب

---

(١) سورة الكهف آية ٤٩

(٢) النضرة : الحسن والرونق . والنضار : الذهب .

(٣) الليل غيهب : شديد الظلام

كفى أن عينى بالدموع بخيلة وأنى بآفات الذنوب معذب
فمن لى إذا نادى المنادى بمن عصى إلى أين الجانى إلى أين أهرب ؟
وقد ظهرت تلك الفضائح كلها وقد قرب الميزان والنار تلهب
فياطول حزنى ثم ياطول حسرتى لئن كنت فى قاع الجحيم أعذب
فقد فاز بالملك العظيم عصابة تبيت قياماً فى دجى الليل ترهب
إذا أشرف الجبار من فوق عرشه وقد زينت حور الجنان الكواعب
فناداهم سهلاً وأهلاً ومرحباً أبحت لكم دارى وما شئتم اطلبوا

فبادروا ، رحمكم الله فى هذه الأيام الشريفة ، إلى محو السيئات من الصحيفة .

ضرب مثل فى رقة القلب

يأخى : الخشبة اليابسة إذا دخل طرفها الواحد فى النار ، عرق طرفها الآخر ، وكذلك القلب إذا كانت فيه حرقة ندامة الذنوب التى حصلت فى الكتاب المكتوب الموضوع جادت العينان بواكف الدموع ، ولانت الجوارح بالخضوع ، والقلب بالإنابة والخشوع وأنشدوا :

كتبت بأدمعى فى صحن خدى كتاباً بالتذلل والخضوع
فقالوا قد عفونا عنك لما محوت قبيح فعلك بالدموع

حكاية عن التوبة

ذكر عن بعض الخائفين أنه قال : رأيت رجلاً واقفاً على صبى من الصبيان فى المكتب وهو يمحو لوحاً ، وكان اللوح قد كتبه بالحبر ، وكانت الكتابة قد ثبتت ولا تزول بالماء ، فجعل الصبى يحك اللوح بالحبل والتراب ، فقال الرجل الواقف عليه : يا بنى مالك تحك اللوح بالحبل ؟ فقال : ليزول الحبر الذى ثبت . فيه فقال له الرجل : والحبل يا بنى يزيل الحبر ؟ قال : نعم ، ألا ترى أن الحبل شبه الخنادق فقال الرجل : ذلك بطول المدة ، فقال الصبى : لا ، يا نعم الرجل إلا بالحزم والإجتهاد وإياك يا نعم الرجل : بعيد الذهن ، قال الرجل : كيف ذلك يا بنى ؟ قال : لأنى قد قلت لك إشارة لو ألقيتها على قلبك لأفاق وامحى الحبر الذى عليه

فقال الرجل : يا بنى : كان على قلبى حبر قال يا عم وأى لون هو الحبر ؟ قال : هو أسود قال الصبى :

يا عم ألم أقل لك إنك بعيد الذهن ؟ وأى سواد أشد من سواد الذنوب على القلوب ؟ فصاح الرجل صيحة وخر مغشياً على وجهه ، ثم أخذه البكاء فقال له الصبى : أما الآن فقد وجدت الدواء لذنوبك **ومحوها من كتابك وقلبك فقال الرجل يا بنى وما الدواء ؟ فقال له البكاء فقال : يا بنى : والبكاء يمحو الذنوب من الكتاب والقلب ؟ قال له : نعم ، والدليل على ذلك قول النبى - ﷺ - « إن الدموع تطفىء بحار النار يوم القيامة عن الباكى »** .

الدموع تمحو الذنوب

فإذا محت الدموع بحار النار ، فإحرى أن تمحو من الكتاب القبائح والأوزار ، وإذا زالت من الكتاب الفضائح والأوزار ، رضى عنك الملك الغفار ، وأمر بك إلى دار الراحة والقرار ، وخلصت من عذاب البوار .

فابكوا يا جماعة المسلمين على ما أذنبتم فى الشهور والأعوام ، وفى الساعات والأيام ، عن الخطايا والإجرام ، واكتساب الربا والحرام ، وظلم الضعفاء والأرامل والأيتام ، وما فرطتم فيه من أداء حقوق الملك العلام ، وأنشدوا :

وددت أن دموعى بحر فأسفحها ... من مقلتى على ما فات من زمنى
واها على أسف منى على وهل ... يجنى التأسف إلاغلة الشجن
والله لوصح تحقيق التأسف ما ... ألغيت مع .إلا مع النوم فى الحزن
يا ليت لى عيناً فى كل جارحة ... تبكى على بدمع مانع الوسن

فضل البكاء

فالواجب ـــ والله يا أهل الإعلام ـــ على كل مسلم علم من نفسه ذنباً أن يكثر البكاء عليه عساه يمحوه من كتابه مولاه ، ويتفضل عليه ويغفر له ما قد جناه ، فهو المنان الكريم ، المتفضل العظيم .

اللهم يا أكرم الأكرمين ، ويا آخر الغافرين ، تفضل علينا بتوبة وعلى جميع المذنبين ، تنقلنا بها من ذل المعصية إلى عز الطاعة ، وثبتنا عليها حتى تخرجنا من الدنيا بلا ذنب ولا تباعه[1] على منهاج أهل السنة والجماعة ، الذين أوجبت لهم الرحمة والشفاعة

(١) التباعة والتبعة : ما اتبع به

اللهم إن الطاعة والمعاصى بقدرك ، وفى يدك القلوب والنواصى ، فطهر قلوبنا بماء التوبة ، واغسلها من دنس الحوبة ، ومتعنا بالسلامة فى ديننا ودنيانا ، وفى أسماعنا وأبصارنا ، وجميع جوارحنا ما أبقيتنا ، ولا تردنا على أعقابنا بعد إذ هديتنا ، فإنك على كل شىء قدير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

العلم المحيط

قوله تعالى : ﴿ **ألم تر أن الله يعلم ما فى ا لسموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم** ﴾[1] .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . علمت ما كان وعلمت ما يكون وعلمت ما سيكون وعلمت ما لايكون لو كان كيف، كان يكون وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين . يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير .

الله يـــدرى كل ما تضمـــر ... يعلـــم ما تخفـــى وما تظهـــر
وإن خـدعت النــاس لم تستطــع ... خـداع مــن يطـوى ومــن يـنشر

قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله .

يا مـن يـرى مد البعوض جناحـه ... فى ظلمــة الليــل البهيم الأليــل
ويـرى ويسمـع ما يـرى مـا دونها ... فى قــاع بحر ذاخــر متجنــدل

سبحانك أنت القائل : ﴿ **وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين** ﴾ ، وأنت القائل : ﴿ **ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور . وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين** ﴾[2] وأنت القائل :

---

(١) سورة المجادلة آية ٧

(٢) سورة هود آية ٥ ، ٦

﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾[١] .

يقول تعالى مخبراً عن إحاطة علمه بخلقه واطلاعه عليهم ، وسماعه كلامهم ، ورؤيته مكانهم حيث كانوا ، وأين كانوا ، فقال ـــ تعالى ـــ : ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة ﴾ أى من سر ثلاثة ﴿ إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ﴾[٢] أى مطلع عليهم يسمع كلامهم وسرهم ونجواهم ورسله أيضاً مع ذلك تكتب ما يتناجون به مع علم الله به وسمعه له كما قال تعالى : ﴿ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب ﴾[٣] . وقال تعالى : ﴿ أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴾[٤] ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علمه تعالى ولا شك فى إرادة ذلك ، ولكن سمعه أيضاً مع علمه محيط بهم ، وبصره نافذ فيهم ، فهو ـــ سبحانه وتعالى ـــ مطلع على خلقه لا يغيب عنه من أمورهم شيء ، ثم قال تعالى : ﴿ ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴾[٥] قال الإمام أحمد : إفتتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم .

أحكام تتعلق بالنجوى

قوله تعالى :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

(١) سورة الملك الآيتان ١٣ ، ١٤
(٢) سورة المجادلة آية ٧
(٣) سورة التوبة آية ٧٨
(٤) سورة الزخرف آية ٨٠
(٥) سورة المجادلة آية ٧

معانى المفردات

الذين نهوا عن النجوى : هم اليهود والمنافقون ، بالإثم : أى : بما هو معصية وذنب ، والعدوان : الإعتداء على غيرهم كمعصية الرسول ومخالفته ، لولا يعذبنا الله : أى : هلا يعذبنا بسبب ذلك ، حسبهم جهنم : أى : عذاب جهنم كاف لهم ، يصلونها : أى : يقاسون حرّها .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر ــ سبحانه ــ أنه عليم بالسر والنجوى ، وأنه لا تخفى عليه خافية من أمرهم ، فهو عليم بما يكون من التناجى بين الثلاثة والخمسة والأكثر والأقل ، ومجازيهم على ما يكون به التناجى ــ خاطب رسوله معجِّباً له من اليهود والمنافقين الذين نهوا عن التناجى دون المؤمنين ، فعادوا لما نهوا عنه ، وما كان تناجيهم إلا بما هو إثم وعدوان على غيرهم ، ثم ذكر أنهم كانوا إذا جاءوا الرسول حيَّوه بغير تحية الله ، فيقولون له : السام عليك (يريدون الموت) ثم يقولون فى أنفسهم : لو كان رسولاً لعذبنا الله للإستخفاف به ، وإن جهنم لكافية جد الكفاية لعذابهم ، ثم نهى المؤمنين أن يفعلوا مثل فعلهم ، بل يتناجون بالبر والتقوى ؛ ثم بين أن التناجى بالإثم والعدوان من الشيطان ولن يضيرهم شىء منه إلا بإذن الله ، فعليه فليتوكلوا .

سبب النزول

قال ابن عباس : نزلت فى اليهود والمنافقين ، كانوا يتناجون فيما بينهم ، وينظرون للمؤمنين ويتغامزون بأعينهم ، فيقول المؤمنون : لعلهم بلغهم عن إخواننا وقرابتنا من المهاجرين والأنصار قتل أو مصيبة أو هزيمة ، ويسوؤهم ذلك ، فشكوا إلى رسول الله فنهاهم ــ أى اليهود والمنافقين ــ عن النجوى فلم ينتهوا فنزلت هذه الآية ﴿ **ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى** ﴾ .

وروى البخارى أن اليهود أتوا النبى ﷺ فقالوا : السام عليك ــ أى الموت عليك ــ قالت عائشة : ففهمتها . فقلت : عليكم السام ولعنكم الله ، وغضب عليكم ، فقال ــ عليه الصلاة والسلام ــ : مهلاً يا عائشة ، عليك بالرفق ، وإياك والعنف والفحش ، قالت : أو لم تسمع ما قالوا ؟ قال : أو لم تسمعى ما قلت ؟ وردت عليهم ، فيستجاب لى فيهم ، ولا يستجاب لهم . وفى رواية أخرى فأنزل الله تعالى : ﴿ **وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله** ﴾(١) .

---

(١) انظر صحيح البخارى . جـ ٨ صـ ١٥ كتاب الأدب باب لم يكن النبى ــ ﷺ ــ فاحشا ولا متفحشا .

أضواء كاشفة

إن أمر هؤلاء الذين يؤمرون بترك شيء ، وينهون عنه ثم يعودون إليه إن أمر هؤلاء لعجيب ! ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى من المنافقين واليهود ، فإنهم كانوا يتناجون دون المؤمنين ، ثم ينظرون إليهم ، ويتغامزون بأعينهم عليهم ، مع إيهامهم أن أقاربهم وإخوانهم أصابهم شر ، ولا يزالون كذلك حتى تعود أقارب المسلمين ، فلما كثر ذلك من المنافقين وإخوانهم اليهود ، شكاهم المسلمون للنبى — ﷺ — فنهاهم عن ذلك ، فعادوا لمثل فعلهم ﴿ **ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه** ﴾ (الإستفهام فى الآية للإنكار والتعجب ، والتعبير بالمضارع فى « يعودون » للدلالة على تكرر عودتهم وتجددها واستحضار صورتها العجيبة) ، ومع ذلك فهم يتناجون بما هو إثم عند أنفسهم ، ووبال عليهم لأن ضرره عائد لهم ، وبما هو عدوان على المؤمنين ، وبما هو تواص بمخالفة الرسول — ﷺ — ، انظر إلى هؤلاء أيها المسلم ، واحذر أن تكون ممن يتناجى بالإثم والعدوان ومعصية الرسول التى هى رمز الأنتهاك القانون العام .

ولقد جر ذكر بعض صفاتهم إلى ذكر صفة أخرى ، تدل على سوء القصد ، وخبث النية ، فهؤلاء المنافقون واليهود كان يأتى بعضهم إلى النبى ، ويحييه بتحية لم يشرعها الله ، ولم يأذن بها ، وهى قولهم : السام عليك ، يريدون الدعاء عليه بالموت والهلاك ، فكان النبى ﷺ يرد عليهم قائلاً : وعليكم ، ويا ليتهم وقفوا عند هذا الحد بل يقولون فى أنفسهم : هل يعذبنا الله بما نقول ، والمراد : لو كان محمد نبياً لعذبنا الله بسبب قولنا هذا . والله يرد عليهم بقوله الفصل : حسبهم جهنم وكفى ، يدخلونها ويصطلون بنارها ، فبئس المصير مصيرهم .

يأيها الذين آمنوا : إن مقتضى هذا الإيمان أن تمتثلوا أمر الله ، وتبتعدوا عن كل ما يتنافى مع الإيمان الصحيح ، وخاصة التناجى بالإثم والعدوان فلا تتناجوا كما يتناجى المنافقون واليهود ، وليكن تناجيكم المشروع بالبر والتقوى ، وبالخير والصالح ، واتقوا الله فى السر والعلن ، فإنه مطلع عليكم ، ثم إليه تحشرون . روى عن النبى — ﷺ — أنه قال : « **إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن ذلك يحزنه** »[1] . **أى من أجل أن يقع فى نفسه ما يحزن لأجله إن كثيراً ما يفهم** أن الحديث عنه بما يكره .

(١) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ صـ ١٧١٨ كتاب السلام . باب تحريم مناجاة اثنين دون الثالث بغير رضاه . رقم ٣٦ / ٢١٨٣
— وانظر سنن الترمذى جـ ٥ صـ ١١٧ ، ١١٨ كتاب الأدب . باب ما جاء لا يتناجى إثنان دون ثالث . رقم ٢٨٢٥ .
— وانظر صحيح البخارى . كتاب الاستئذان . جـ ٧ صـ ٨٠ ط / الشعب

إنما التناجي سراً أى مع وجود من يظن شراً من تزين الشيطان ليحزن الذين آمنوا إذ قد فهموا من تناجى اليهود والمنافقين أن إخوانهم أصيبوا بشر ، وليس التناجى بضارهم فى شيء إلا بإذن الله ، وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون . أنظر إلى أدب القرآن فى المناجاة ، وكيف يوجهها إلى البر والتقوى ، ويمنعها عن الإثم والعدوان .

التفسير

قال ابن أبى نجيح عن مجاهد : (ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه) قال اليهود ، وكذا قال مقاتل بن حيان وزاد : كان بين النبى ـ ﷺ ـ وبين اليهود موادعة وكانوا إذا مر بهم الرجل من أصحاب النبى ـ ﷺ ـ جلسوا يتناجون بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكره المؤمن ، فإذا رأى المؤمن ذلك خشيهم فترك طريقه عليهم ، فنهاهم النبى ـ ﷺ ـ عن النجوى فلم ينتهوا وعادوا إلى النجوى ، فأنزل الله ـ تعالى ـ : ﴿ **ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه** ﴾ وقال ابن حاتم بسنده عن ربيح بن عبد الرحمن بن أبى سعد الخدرى عن أبيه عن جده قال : كنا نتاوب رسول الله ـ ﷺ ـ نبيت عنده ، يطرقه من الليل أمر وتبدو له حاجة فلما كانت ذات ليلة كثر أهل النوب والمحتسبون حتى كنا أندية نتحدث ، فخرج علينا رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : « **ما هذه النجوى ؟ ألم تنهوا عن النجوى ؟** » قلنا : تبنا إلى الله يارسول الله . إنا كنا فى ذكر المسيح فرقاً منه . فقال : « **الشرك الخفى أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل** »(١) هذا إسناد غريب وفيه بعض الضعفاء .

قوله تعالى : ﴿ **ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول** ﴾ أى يتحدثون فيما بينهم بالإثم وهو ما يختص بهم (والعدوان) وهو ما يتعلق بغيرهم ومنه معصية الرسول ومخالفته يصرون عليها ويتواصون بها .

قوله تعالى : ﴿ **وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله** ﴾ قال ابن أبى حاتم بسنده عن عائشة قالت : دخل على رسول الله ـ ﷺ ـ يهود فقالوا : السام عليك ياأبا القاسم . فقالت عائشة : وعليكم السام قالت : فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **يا عائشة إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش** » . قلت : ألا تسمعهم يقولون : السام عليك ؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **أو ما سمعت أقول وعليكم ؟** » فأنزل الله تعالى : ﴿ **وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله** ﴾ . وفى

---

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ ٨ صـ ٦٨ ط / الشعب وتفسير القرطبى ٥ / ١٨١

رواية فى الصحيح أنها قالت لهم : عليكم السام والذام واللعنة وأن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « **إنه يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا** »(١) . وقال ابن جرير بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله ـ ﷺ ـ بينما هو جالس مع أصحابه ، إذ أتى عليهم يهودى فسلم عليهم ، فردوا عليه ، فقال النبى ـ ﷺ ـ « **هل تدرون ما قال ؟** » قالوا : سلم يارسول الله . قال « **بل قال سام عليكم** » أى تسامون دينكم ، قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **ردوه** » فردوه عليه ، فقال نبى الله : « **أقلت سام عليكم** » قال نعم ، فقال رسول الله ـ : « **إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب فقولوا عليك** »(٢) . أى عليك ما قلت ، وأصل حديث أنس مخرج فى الصحيح ، وهذا الحديث فى الصحيح عن عائشة بنحوه .

قوله تعالى : ﴿ **ويقولون فى أنفسهم : لولا يعذبنا الله بما نقول** ﴾ أى يفعلون هذا ويقولون ما يحرفون من الكلام ، وإيهام السلام ، وإنما هو شتم فى الباطن ، ومع هذا يقولون فى أنفسهم لو كان هذا نبياً لعذبنا الله بما نقول له فى الباطن لأن الله يعلم ما نسره ، فلو كان هذا نبياً حقاً لأوشك أن يعاجلنا الله بالعقوبة فى الدنيا ، فقال الله تعالى : ﴿ **حسبهم جهنم** ﴾ أى جهنم كفايتهم فى الدار الآخرة ﴿ **يصلونها فبئس المصير** ﴾ . وقال الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو أن اليهود كانوا يقولون بما نقول ؟ فنزلت هذه الآية ﴿ **وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير** ﴾(٣) إسناد حسن ولم يخرجوه ؛

وقال العوفى عن ابن عباس : ﴿ **وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله** ﴾ قال : كان المنافقون يقولون لرسول الله ـ ﷺ ـ إذا حيوه : سام عليك ، قال الله تعالى : ﴿ **حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير** ﴾ . ثم قال ـ تعالى ـ مؤدباً عباده المؤمنين أن لا يكونوا مثل الكفرة والمنافقين : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول** ﴾ أى كما يتناجى به الجهلة من كفرة أهل الكتاب ومن ما لأهم على ضلالهم من المنافقين ﴿ **وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذى إليه تحشرون** ﴾ أى : فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم التى قد أحصاها عليكم وسيجزيكم بها . قال الإمام أحمد بسنده عن صفوان بن محرز قال : كنت آخذاً بيد ابن عمر إذ عرض له رجل فقال : كيف

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ ٤ صـ ١٧٠٦ ، ١٧٠٦ كتاب السلام . باب السلام . باب النهى عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام ، وكيف يرد عليهم رقم ١٠ ، ١١ / ٢١٦٥

وانظر تفسير ابن كثير جـ ٨ صـ ٦٨ ، ٦٩ . تفسير سورة المجادلة ط / الشعب .

(٢) انظر تفسير ابن كثير جـ ٨ صـ ٦٩ ط / الشعب وانظر تفسير الطبرى جـ ٢٧ صـ ١١ .

أنظر سنن الترمذى جـ ٥ صـ ٣٧٩ ، ٣٨٠ كتاب تفسير القرآن باب سورة المجادلة . رقم ٣٣٠١

(٣) انظر مسند الإمام أحمد جـ ٢ صـ ١٧٠ مسند عبد الله بن عمرو .

ـ وانظر تفسير ابن كثير جـ ٨ صـ ٦٩ ط / الشعب

سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول فى النجوى يوم القيامة ؟ قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « **إن الله يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى فى نفسه أن قد هلك ، قال : فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين** »(١) أخرجاه فى الصحيحين من حديث قتادة .

ثم قال تعالى : ﴿ **إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ أى : إنما النجوى وهى المسارة حيث يتوهم مؤمن بها سوءاً . ﴿ **من الشيطان ليحزن الذين آمنوا** ﴾ يعنى : إنما يصدر هذا من المتناجين من تسويل الشيطان وتزيينه ﴿ **ليحزن الذين آمنوا** ﴾ أى : ليسوءهم وليس ذلك بضارهم شيئا إلا بإذن الله ، ومن أحس من ذلك شيئاً فليستعذ بالله واليتوكل على الله فإنه لا يضره شىء بإذن الله . وقد وردت السنة بالنهى عن التناجى حيث يكون فى ذلك تأذ على مؤمن كما قال الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه** »(٢) أخرجاه من حديث الأعمشى . وقال عبد الرازق بسنده عن ابن عمر قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون الثالث إلا بإذنه فإن ذلك يحزنه** »(٣) انفرد بإخراجه مسلم عن أبى الربيع وأبى كامل كلاهما عن حماد بن زيد عن أيوب به .

---

(١) انظر صحيح البخارى تفسير سورة هود ٦ صـ ٩٣
الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ صـ ٢١٢٠ كتاب التوبة ـ باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله . رقم ٥٢ / ٢٧٦٨ .
انظر تفسير ابن كثير جـ ٨ صـ ٧٠ ط / الشعب
وانظر مسند الإمام أحمد جـ ٢ صـ ٧٤

(٢) انظر مسند الإمام أحمد جـ ١ صـ ٤٣١ ، ٤٣٢

(٣) انظر صحيح البخارى . كتاب الاستئذان جـ ٧ صـ ٨٠ ط / الشعب وانظر صحيح مسلم . كتاب السلام . باب تحريم مناجاة اثنين دون الثالث بغير رضاه . جـ ٤ صـ ١٧١٨ رقم ٣٦ / ٢١٨٣

من آداب الإسلام

قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ

ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ

فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ

تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا

تَعْمَلُونَ (١٣) ﴾

التحليل اللفظى

تفسحوا : توسعوا فى المجلس وليفسح بعضكم عن بعض ، من قولهم : افسح عنى أى تنحّ ، يقال : بلدة فسيحة ، ومغازة فسيحة ، ولك فيه فسحة أى : سعة .

قال القرطبى : وفسَحَ يفسح مثل قنَعَ يمنع ، أى وسّع فى المجلس ، وفسُح يفسّح مثل كروم يكرُم ، أى : صار واسعاً ، ومنه مكان فسيح .

انشزوا : انهضوا وارتفعوا ، وأصله من النشز وهو المرتفع من الأرض ، قال فى اللسان : النّشز : المرتفع عن الأرض ، ونشز الشىء : ارتفع ، وتل ناشز : مرتفع ، وفى التنزيل (وإذا قيل لكم انشزوا فانشزوا) قرأها الناس بكسر الشين ، وأهل الحجاز يرفعونها ، وهى لغتان ومعناه : إذا قيل انهضوا فانهضوا وقوموا .

درجات : أى : منازل رفيعة ، جمع درجة وهى الرفعة فى المنزلة . فأخوذ من الدّرج الذى يرقى به إلى السطح .

قال فى اللسان : والدرجة : الرفعة فى المنزلة ، والدرجة واحدة الدرجات ، وهى الطبقات من المراتب ، ودرجات الجنة : منازل أرفع من منازل .

نجواكم : النجوى مصدر بمعنى التناجى وهو المسارّة . مأخوذة من (النجوة) وهى ما ارتفع من الأرض ، فالمتناجيان يخلوان بسرهما كخلوّ المرتفع من الأرض عما يتصل به .

وقيل : النجوى من المناجاة وهي الخلاص ، وكأن المتناجيين يتعاونان على أن يخلص أحدهما الآخر .
ومعنى الآية : إذا أردتم مناجاة الرسول — ﷺ — لأمر من الأمور فتصدقوا قبلها .
أطهر : أى أزكى لأنفسكم وأطيب عند الله .
أأشفقتم : الإشفاق : الخوف من المكروه ، والمعنى : أخفتم وبخلتم بالصدقة وشقّ ذلك عليكم ؟
قال ابن عباس : « أأشفقتم » أى : أبخلتم بالصدقة وهو استفهام معناه التقرير .

المعنى الإجمالى

يقول الله — جل ثناؤه — ما معناه : يأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم توسعوا فى المجلس لأخوانكم القادمين ، فتوسعوا لهم ، وافسحوا لهم ، حتى يأخذ القادم مكانه فى المجلس ، فإن ذلك سبب المودة والمحبة بينكم ، ومدعاة للألفة وصفاء النفوس ، وإذا فسحتم لهم فإن الله تعالى يفسح لكم فى رحمته ، وينور قلوبكم ، ويوسع لكم فى الدنيا والآخرة . وإذا قيل لكم — أيها المؤمنون — انهضوا إلى الصلاة ، والجهاد ، وعمل الخير فانهضوا ، أو قيل لكم قوموا من مقاعدكم للتوسعة على غيركم فأطيعوا ، فإن الله — تعالى — يحب من عباده الطاعة ، ويرفع درجات المؤمنين ، والعلماء العاملين الذين يبتغون بعلمهم وجه الله ، فالعلماء ورثة الأنبياء ، ومن يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ، وليست الرافعة عند الله — تعالى — بالسبق إلى صدور المجالس ، وإنما هى بالعلم والإيمان .

ثم أمر — تعالى — عباده المؤمنين إذا أرادوا مناجاته — عليه الصلاة والسلام — لأمر من الأمور ، أن يتصدقوا قبل هذه المناجاة ، تعظيماً لشأن الرسول — ﷺ — ونفعاً للفقراء ، وتمييزاً بين المؤمن المخلص والمنافق المراوغ ، فإن ذلك أزكى للنفوس ، وأطهر للقلوب ، وأكرم عند الله — تعالى — ، فإذا لم يتيسر للمؤمن الصدقة فلا بأس عليه ولا حرج . ثم أخبر تعالى بأن عمل الخير كالصدقة وغيرها لا ينبغى أن يخاف منها الإنسان فقال ما معناه : أخفتم تقديم الصدقات لما فيها من إنفاق المال ، فإذا لم تفعلوا ما أمرتم به ، وتاب الله عليكم ، ورخّص لكم فى الترك ، فأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ولا تفرطوا فيهما وفى سائر الطاعات ، لأن الله خبير بما تعملون .

سبب النزول

أ — روى أن النبى — ﷺ — كان يوم جمعة فى الصفّة ، وفى المكان ضيق ، وكان عليه — الصلاة والسلام — يكرم أهل بدر من (المهاجرين والأنصار) فجاء ناس من أهل بدر ، منهم (ثابت بن قيس بن شمّاس) وقد سبقوا إلى المجلس ، فقاموا حيال النبى — ﷺ — فقالوا : السلام عليك أيها النبى

ورحمة الله وبركاته ، فرد النبى — ﷺ — ثم سلموا على القوم فردوا عليهم ، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسّع لهم ، فلم يفسحوا لهم ، فشقّ ذلك علىّ رسول الله — ﷺ — فقال لبعض من حوله : قم يا فلان ، وقم يا فلان ، فأقام نفراً مقدار من قدم ، فشق ذلك عليهم ، وعرفت كراهيته فى وجوههم ، وقال المنافقون : ما عدل بإقامة من أخذ مجلسه ، وأحبّ قربه لمن تأخر عن الحضور ، فأنزل الله — تعالى — هذه الآية ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم** ﴾(١) (أخرجه ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان) .

ب — وروى عن ابن عباس وقتادة : « أن قوماً من المسلمين كثرت مناجاتهم للرسول — ﷺ — ، فى غير حاجة إلا لتظهر منزلتهم وكان — ﷺ — سمحاً لا يرد أحداً فنزلت هذه الآية ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول ..** ﴾ الآية .

حـ — وروى عن مقاتل : أن الأغنياء كانوا يأتون النبى — ﷺ — فيكثرون مناجاته ، ويغلبون الفقراء على المجالس ، حتى كره — ﷺ — طول جلوسهم ومناجاتهم فنزلت الآية : ﴿ **إذا ناجيتم الرسول** ﴾ .

وجوه القراءات

١ — قوله تعالى : ﴿ **إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس** ﴾ قرأ الجمهور ﴿ **تفسّحوا** ﴾

٢ — قرأ الجمهور ﴿ **فى المجلس** ﴾ بالإفراد على إدارة معنى الجمع ، وقرأ عاصم وقتادة ﴿ **المجالس** ﴾بالجمع .

٣ — قوله تعالى : ﴿ **انشُزُوا فانشُزُوا** ﴾ قرأ الجمهور بضم الشين فيهما . قال الفراء : وهما لغتان مثل : يعكفُون ويعرِشُون .

٤ — قرأ الجمهور ﴿ **فقدموا بين يدى نجواكم صدقة** ﴾ بالإفراد ، وقرئ ﴿ **صدقات** ﴾ بالجمع لجمع المخاطبين .

وجوه الإعراب

١ — قوله تعالى : ﴿ **يفسح الله لكم** ﴾ يفسح مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب ، وحرّك بالكسر للتخلص من التقاء الساكنين ، ومثله ﴿ **يرفع الله** ﴾ مجزوم لأنه جواب الأمر كأنه قيل : إن تنشزُوا يرفع الله عز وجل المؤمنين جزاء امتثالهم درجات .

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ ٨ صـ ٧١ ط / الشعب .

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ **والذين أوتوا العلم درجات** ﴾ قال أبو حيان معطوفاً على الذين آمنوا عطف صفات .

والمعنى : يرفع الله المؤمنين العلماء درجات ، فالوصفان لذات واحدة واختار الطيبى : أن يكون فى اللفظ تقدير يناسب المقام نحو أن يقال : يرفع الله الذين آمنوا فى الدنيا بالنصر وحسن الذكر ، ويرفع الذين أوتوا العلم درجات تعظيماً لهم .

٣ ـ قوله تعالى : ﴿ **أأشفقتم أن تقدّموا** ﴾ أن وما بعدها فى تأويل مصدر مفعول لـ (أشفقتم) والله أعلم .

لطائف التفسير

ـ اللطيفة الأولى : لما نهى سبحانه وتعالى عباده المؤمنين عما يكون سبباً للتباغض والتنافر ، أمرهم فى هذه الآيات بما يكون سبباً لزيادة المحبة والمودة ، وقد كان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ شديدى الحرص على القرب من رسول الله ـ ﷺ ـ والجلوس بين يديه حرصاً على استماع كلامه ، فأمروا بالتوسعة على إخوانهم فى المجلس تطييباً لقلوبهم ، وهذا هو السر فى مجىء هذه الآيات عقب آيات النهى عن التناجى بالإثم والعدوان .

ـ اللطيفة الثانية : ذكر ـ تعالى ـ فى أول الآية مكانة المؤمنين ، ثم عطف عليها بذكر مكانة العلماء ، والعطف فى مثل هذا الموطن هو من باب (عطف الخاص على العام) تعظيماً لشأن العلماء كأنهم جنس آخر ، ولذا أعيد اسم الموصول فى النظم الكريم فى قوله تعالى : ﴿ **والذين أوتوا العلم درجات** ﴾ .

ـ اللطيفة الثالثة : الأمر للمؤمنين بالصدقة عند مناجاة الرسول ـ ﷺ ـ فيه فوائد عديدة :

أولها : تعظيم الرسول ـ ﷺ ـ وتعظيم مناجاته .

ثانيها : نفع كثير من الفقراء بتلك الصدقة .

ثالثها : الزجر عن الإفراط فى الأسئلة لرسول الله ـ ﷺ ـ .

رابعها : التمييز بين المخلص والمنافق ، ومحب الدنيا ومحب الآخرة .

ـ اللطيفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ **فقدموا بين يدى نجواكم صدقة** ﴾ : فى هذا اللفظ استعارة يسميها علماء البلاغة (استعارة تمثيلية) وأصل التركيب يستعمل فيمن له يدان كالإنسان فقد استعار

اليدين للنجوى ، وقيل إنها (استعارة مكنية) حيث شبه النجوى بإنسان ، وحذف المشبه به وهو الإنسان ، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو اليدان على سبيل الاستعارة المكنية ومثله قوله تعالى : ﴿ **بين يدى عذاب شديد** ﴾ وذكر اليدين تخييل .

ــ اللطيفة الخامسة : أشاد القرآن بمنزلة العلماء الرفيعة ، ومكانتهم السامية عند الله ــ تعالى ــ ، ويكفيهم هذا الشرف والفخر وقد قال ــ ﷺ ــ : (**من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيى به الإسلام ، فبينه وبين النبيين درجة**)[1] . (أخرجه الدارمى عن عمر بن كثير عن الحسن) .
وقد ذكر بعض الظرفاء مناظرة رمزية بين (العقل والعلم) نذكرها لطرافتها قال بعض الأدباء :

عِلْمُ العليم وعقلُ العاقل اختلفا ... من ذا الذى منهما قد أحرز الشرفا ؟
فالعلم قال : أنا أدركتُ غايته ... والعقل قال : أنا الرحمن بى عُرفا
فأفصح العلم إفصاحاً وقال له : ... بأيّنا الله فرقانه اتصفا ؟
فبان للعقل أن العلم سيّدُه ... فقبل العقل رأس العلم وانصرفا

الأحكام الشرعية

ــ الحكم الأول : ما المراد بـ (المجالس) فى الآية الكريمة ؟ اختلف المفسرون فى المراد بالمجلس على ثلاثة أقوال :

أحدها : أن المراد به مجلس الرسول ــ ﷺ ــ خاصة ، وهو قول مجاهد

والثانى : أن المراد به مجلس الحرب ، ومقاعد القتال ، حيث كانوا لحرصهم على الشهادة يأبون التوسع ، وهو قول ابن عباس ، والحسن .

والثالث : أن المراد به مجالس الذكر كلها ، وهو قول قتادة وهو الأرجح .

قال الطبرى : « والصواب من القول فى ذلك أن يقال : إن الله تعالى ذكره أمر المؤمنين ، أن يتفسحوا فى المجلس ، ولم يخصص بذلك مجلس النبى ــ ﷺ ــ دون مجلس القتال ، وكلا الموضعين يقال له : مجلس ، فذلك على جميع المجالس ، من مجالس رسول الله ــ ﷺ ــ ومجالس القتال » .

وقال القرطبى : الصحيح فى الآية أنها عامة فى كل مجلس اجتمع المسلمون فيه للخير والأجر ، سواء كان مجلس حرب أو ذكر ، أو مجلس يوم الجمعة ، فإن كل واحد أحق بمكانه الذى سبق إليه .

---

(١) انظر سنن الدارمى جـ ١ صـ ٨٥ . باب فضل العلم والعالم .
ــ انظر اتحاف السادة المتقين جـ ١ صـ ١٠٠

ـ الحكم الثاني : هل يباح الجلوس مكان الشخص بدون إذنه ؟ .

دلت الآية الكريمة على وجوب التوسع فى المجلس للقادم ، وهذا من مكارم الأخلاق التى أرشد إليها الإسلام ، ولكن لا يباح للإنسان أن يأمر غيره بالقيام ليجلس مجلسه لقوله ـ ﷺ ـ : (**لا يقيم الرجلُ الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا**)[١] وقد جرى الحكم أن من سبق إلى مباح فهو أولى به ، والمجلس من هذا المباح ، وعلى القادم أن يجلس حيث انتهى به المجلس ، إلا أن الآداب الإجتماعية تقضى على الناس بتقديم أولى (الفضل والعلم) وبذلك جرى عرف الناس وعوائدهم فى القديم والحديث .

ولقد كان هذا الأدب السامى شأن الصحابة فى مجلس الرسول ـ ﷺ ـ فكانوا يقدّمون بالهجرة ، وبالعلم ، وبالسن ، وما فعله النبى ـ ﷺ ـ فى جماعة (ثابت بن قيس) من أهل بدر ، فإنما كان لتعليم الناس مكارم الأخلاق ، وخاصة مع أهل الفضل والعلم ، من المهاجرين والأنصار .

أ ـ روى ابن العربى بسنده عن انس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : « بينما رسول الله ـ ﷺ ـ فى المسجد وقد طاف به أصحابه ، إذ أقبل على بن أبى طالب فوقف وسلّم ، ثم نظر مجلساً يشبهه ، فنظر رسول الله ـ ﷺ ـ فى وجوه أصحابه أيهم يوسع له ، وكان أبو بكر جالساً على يمين النبى ـ ﷺ ـ فتزحزح له عن محله ، وقال : ها هنا ياأبا الحسن . فجلس بين النبى ـ ﷺ ـ وبين أبى بكر ، فقال ياأبا بكر : إنما يعرف الفضل ، لأهل الفضل ، ذوو الفضل »[٢] .

ب ـ وثبت فى الصحيح أن عمر بن الخطاب كان يقدم عبد الله بن عباس على الصحابة ، فكلموه فى ذلك فدعاهم ودعاه ، وسألهم عن تفسير : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ فسكتوا ، فقال ابن عباس : هو أجل رسول الله ـ ﷺ ـ أعلمه إياه ، فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تعلم ، ثم قال : بهذا قدّمت الفتى »[٣] .

وإذا قام الإنسان من مجلسه لحاجة ثم رجع إليه فهو أحق بالمجلس لقوله ـ ﷺ ـ : (**من قام من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحق به**)[٤] .

---

(١) انظر صحيح البخارى كتاب الجمعة باب . لا يقيم الرجل أخاه يوم الجمعة ويقعد فى مكانه جـ ٢ صـ ١٠ ط / الشعب
انظر صحيح مسلم . كتاب السلام . باب تحريم إقامة الإنسان من موضعه المباح الذى سبق إليه
وانظر مسند الإمام أحمد جـ ٢ صـ ٣٣٨ ، ٤٣٨ ، ٥٢٣ .

(٢) انظر كشف الخفاء جـ ١ صـ ٢٥٠

(٣) انظر تفسير ابن كثير جـ ٨ صـ ٥٢٩ ، ٥٣٠ تفسير سورة . إذا جاء نصر الله والفتح . ط / الشعب

(٤) انظر صحيح مسلم جـ ٤ صـ ١٧١٥ . كتاب السلام . باب إذا قام من مجلسه ثم عاد فهو أحق به . رقم ٣١ / ٢١٧٩ .

ـ الحكم الثالث : هل يجوز القيام للقادم إذا كان من أهل الفضل والصلاح ؟ .

ذهب جمهور الفقهاء إلى جواز القيام للقادم إذا كان مسلماً من أهل الفضل والصلاح على وجه التكريم ، لأن احترام المسلم واجب ، وتكريمه لدينه وصلاحه مما يدعو إليه الإسلام ، لأنه سبيل المحبة والمودة ، وقد قال ـ ﷺ ـ « **لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تُكلّم أخاك وأنت منبسط إليه بوجهك** »(١) .

فالقيام للقادم جائز على وجه التكرمة ، إن لم يكن فاسقاً ، ولم يكن سبيلاً للكبرياء والخيلاء ، وما لم يصبح ديدناً للإنسان عند كل دخول أو خروج ، وفى كل حين وآن فعند ذلك يكره .

قال العلامة ابن كثير : وقد اختلف الفقهاء فى جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال ، فمنهم من رخّص فى ذلك محتجاً بحديث : (**قوموا إلى سيدكم**)(٢) ومنهم من منع من ذلك محتجاً بحديث : (**من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار**)(٣) . ومنهم من فصل فقال : يجوز عند القدوم من سفر ، وللحاكم فى محل ولايته ، كما دلّ عليه قصة (سعد بن معاذ) فإنه لما استقدمه النبى ـ ﷺ ـ حاكماً فى بنى قريظة فرآه مقبلاً قال للمسلمين : « **قوموا إلى سيدكم** » ومازال إلا ليكون أنفذ لحكمه والله أعلم .

أقول : جمهور العلماء على جواز القيام للقادم ، إلا إذا كان فاسقاً ، أو عاصياً أو مرتكباً لكبيرة ، أو مشهوراً بالكبر وحب الظهور ، وأما ما استدل به بعضهم من منع القيام بحديث .. (**من أحب أن يتمثل له الناس قياماً** ...)(٤) الحديث ، فليس فيه دليل لهم ، لأن الرسول ـ ﷺ ـ لم يطلق اللفظ وإنما قيّده بوصف يدل على الكبرياء وحب الظهور (من أحب أن يتمثل له الناس قياماً) ولم يقل ـ صلوات الله عليه ـ : (**من قام له الناس فليتبوأ مقعده من النار**) ولا شك أن هذا الوصف لا ينطبق إلا على المتكبر المغرور ، والفرق دقيق بين اللفظين فلا ينبغى أن يغفل عنه .

(١) انظر صحيح ابن حيان جـ ١ صـ ٣٤٦ . باب حسن الخلق .
ـ انظر الخرائطى . فى مكارم الأخلاق صـ ١٦ . بلفظ لا تذهدن ...... المطبعة السلفية .
(٢) الحديث فى صحيح مسلم . جـ ٣ صـ ١٧١٥ كتاب الجهاد وسير . باب جواز قتال من نقض العهد . رقم ٦٤ /١٧٦٨
(٣) انظر سنن أبى داود جـ ٥ صـ ٣٩٠ ، ٣٩١ رقم ٥٢١٥ كتاب الأدب
انظر تفسير ابن كثير جـ ٨ صـ ٧٢ . ط / الشعب
انظر كنز العمال جـ ٩ صـ ١٣٨ رقم ٢٥٣٨٧
انظر تحفة الأحوذى جـ ٨ صـ ٣٠ رقم ٢٩٠٣ .
(٤) انظر سنن أبى داود جـ ٥ صـ ٣٩٠ ، ٣٩١ . كتاب الأدب

وأما ما يقوله بعضهم : من أن القيام ركن من أركان الصلاة فلذلك يحرم ، لأنه يشبه العبادة ، فهذا جهل مطبق لا يصدر من فقيه عالم يتصدى لاستنباط الأحكام .

كيف والصلاة تشتمل على أركان كثيرة كالقعود ، وقراءة القرآن والتشهد ، والصلاة على النبى ـــ ﷺ ـــ فى بعض الأقوال ـــ كما هو مذهب الإمام الشافعى ـــ فهل يقول أحد : إن الجلوس بين يدى العالم حرام لأنه ركن من أركان الصلاة ؟ وإن الصلاة ـــ على النبى عليه السلام ـــ حرام فى حضرة الناس لأنها ركن من أركان الصلاة ؟

وقياس القيام على الركوع والسجود فى الحرمة ، قياس مع الفارق ، وهو قياس باطل ، لأن الركوع والسجود لا يجوز لغير الله كما قال ـــ عليه السلام ـــ : (**لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها**)[١] وقد ورد فى تحريمه النص القاطع ، أما القيام ، والقعود ، والإضطجاع ، فليس من هذا القبيل ، وكفانا الله شر الجهل ، وحماقة المتطفلين على العلم والعلماء .

ـــ الحكم الرابع : هل الصدقة عند مناجاة الرسول ـــ ﷺ ـــ واجبة ؟

اختلف العلماء فى قوله تعالى : ﴿ **فقدموا بين يدى نجواكم صدقة** ﴾ هل الأمر للوجوب أو الندب ؟

فقال بعضهم : إن الأمر للوجوب ، ويؤيد هذا قوله ـــ تعالى ـــ فى آخر الآية : ﴿ **فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم** ﴾ ومثل هذا لا يقال إلا فى الواجبات التى لا يصح تركها .

وقال آخرون : إن الأمر للندب والاستحباب ، وذلك لأن الله تعالى قال فى الآية : ﴿ **ذلك خير لكم وأطهر** ﴾ ومثل هذا قرينة تصرف الأمر عن ظاهرة ، وهو إنما يستعمل فى التطوع دون الفرض .

ومن جهة أخرى : فإن الله تعالى قال فى الآية التى بعد هذه مباشرة : ﴿ **أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات ؟** ﴾ وهذا يزيل ما فى الأمر الأول من احتمال الوجوب ، ويبقى الأمر للندب .

واتفق العلماء على أن الآية منسوخة نسختها الآية التى بعدها : ﴿ **أأشفقتم أن تقدموا** ﴾ وقد اختلفوا فى مقدار تأخر الناسخ عن المنسوخ فقيل : بقى التكليف عشرة أيام ثم نسخ ، وقيل : ما بقى إلا ساعة من النهار ثم نسخ .

---

(١) الحديث فى سنن الترمذى جـ ٣ صـ ٤٦٥ كتاب الرضاع . باب ما جاء فى حق الزوج على المرأة . رقم ١١٥٩ . وقال الترمذى : هذا حديث حسن

وقد روى عن على ـ كرم الله وجهه ـ أنه قال : (إن فى كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلى ، ولا يعمل بها أحد بعدى ، كان لى دينار ، فاشتريت به عشرة دراهم ، فكلما ناجيت الرسول ـ ﷺ ـ قدمت بين يدى نجواى درهماً ، ثم نسخت فلم يعمل بها أحد)(١) .

قال القرطبى : (وهذا يدل على جواز النسخ قبل الفعل ، وما روى عن على ـ رضى الله عنه ـ ضعيف ، لأن الله ـ تعالى ـ قال : ﴿ فإذ لم تفعلوا ﴾ وهذا يدل على أن أحداً لم يتصدق بشىء ، والله أعلم) .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

أولاً : وجوب التوسعة فى المجلس للقادم لأنها من مكارم الأخلاق .

ثانياً : التوسعة للمؤمن فى المجلس سبب لرحمة الله ـ عز وجل ـ وطريق لرضوانه .

ثالثاً : الرفعة عند الله والعزة والكرامة إنما تكون بالعلم والإيمان .

رابعاً : وجوب تعظيم الرسول ـ ﷺ ـ وعدم الإثقال عليه فى المناجاة .

خامساً : تقديم الصدقة قبل المناجاة مظهر من مظاهر تكريم الرسول ـ ﷺ ـ .

سادساً : نسخ الأحكام الشرعية لمصلحة البشر تخفيف من الله ـ تعالى ـ على عباده .

سابعاً : الصلاة والزكاة أعظم أركان الإسلام ولهذا قرن القرآن الكريم بينهم فى كثير من الآيات .

حزب الشيطان

قال تعالى :

* ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ ٤ صـ ٣٢٦ ، ٣٢٧ . فى تفسير سورة المجادلة

لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ
فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾

معانى المفردات

ألم تر : أى : أخبرنى ، وهو أسلوب من الكلام يراد به التعجب وإظهار الغرابة للمخاطب ، والمراد من الذين تولوا : المنافقون ، والتولى : من الموالاة وهى المودة والمحبة ، والقوم : هم اليهود ، وغضب الله : سخطه والطرد من رحمته ، ما هم منكم ولا منهم : أى : لأنهم مذبذبون ، على الكذب : أى : على أنهم معكم على الإيمان ، جنة : أى وقاية وستراً على المؤاخذة ، على شىء : أى : من جلب منفعة أو دفع مضرة ، استحوذ على الشىء : حواه وأحاط به ، قال المبرد : ويقال : حاوزتُ الإبل ، وحزتُها إذا استوليت عليها وجمعتها ، قالت عائشة : كان عمر أحوذياً نسيج وحدِه : أى : سائساً ضابطاً للأمور لا نظير له ، فأنساهم ذكر الله : أى : لم يمكنهم من ذكره بما زين لهم من الشهوات ، وحزب الشيطان : جنوده وأتباعه ، يحادون : أى يعادون ويشاقون ، فى الأذلين : أى : فى جملة أذلِّ خلق الله ، لأن ذلة أحد المتخاصمين على مقدار عزة الآخر .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر أن أصحاب رسول الله — ﷺ — كانوا يتنافسون فى القرب من مجلس رسول الله — ﷺ — لتلقى الدين عنه والإهتداء بهديه حتى كان يضيق بهم المجلس ، فأمروا أن يتوسعوا ولا يتضاموا ، ذكر هنا حال قوم من المنافقين يوادون اليهود ويطلعونهم على أسرار المؤمنين ، فهم عيون لهم عليهم ، وإذا لاقوا المؤمنين قالوا لهم : إنا معكم نؤيدكم على أعدائكم بكل ما أوتينا من قوة وهم **كاذبون فى كل مايقولون ، وقد جعلوا الإيمان وقاية لستر ما يبطنون ، فأمنوا من المؤاخذة وجاسوا خلال** ضعفاء المؤمنين يصدونهم عن الدين ، ويذكرون لهم ما يبغضهم فيه ؛ ثم أبان أن الله قد أعدّ لمثل هؤلاء عذاباً شديداً يوم القيامة ، وما هم فيه من مال وولد فى الدنيا لن يغنى عنهم شيئاً حينئذ ؛ ثم ذكر أن الذى جرأهم على ما فعلوا هو الشيطان ، فقد استولى على عقولهم ، وزين لهم قبيح أعمالهم ، فأنساهم عذاب اليوم الآخر ، ثم ذكر أن أولئك هم جند الشيطان ، وجنود الشيطان لن تفلح فى شىء ، وسيرد

الله عليهم كيدهم فى نحورهم ، ويحبط سعيهم ، ويظهر نور دينه ولو كره الكافرون . وبعد أن ذكر حال أولئك المنافقين الذين يحلفون كذباً إنهم مؤمنون ، ويمالئون المؤمنين طوراً واليهود طوراً آخر اكتساباً لرضا الفريقين ، ثم بين أن الذى حملهم على ذلك هو الشيطان ، إذ غلبهم على أمرهم حتى أنساهم ذكر الله ومايجب لله من تعظيم . والإيمان باليوم الآخر . ثم حكم عليهم بأن صفقتهم خاسرة ، لأنهم باعوا الباقى بالفانى ، والزائل الذى لا دوام له بما هو دائم أبداً سرمداً ، بين هنا سبب خسرانهم وهو أنهم شاقوا الله ورسوله وعصوا أمره ، فكتب عليهم الذلة فى الدنيا والآخرة .

أضواء كاشفة

انظر يا من يتأتى منه النظر — متعجباً — إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ، وهم اليهود وقد تولاهم المنافقون يسرون اليهم بالمودة ، ويحلفون لهم إنهم لمعكم ، ويعلم الله إن المنافقين لكاذبون ، كيف يتولون قوماً غضب الله عليهم ؟ حالة كونهم ما هم منكم ، ولا منهم أى : هؤلاء الذين تولوا اليهود ليسوا من المؤمنين الخلص ، ولا من الكافرين الخلص بل هم مذبذبون بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء .

روى أن هذه الآية نزلت فى عبد الله بن نبتل ، المنافق — وكان أزرق أسمر قصيراً خفيف اللحية — وكان يجالس النبى — ﷺ — ، ثم يرفع حديثه إلى اليهود ، فبينا نحن جلوس مع النبى فى إحدى حجراته إذ قال : « **يدخل عليكم الآن رجل قلبه جبار وينظر بعينى شيطان** »[1] فدخل عبد الله بن نبتل ، فقال النبى له : علام تشتمنى أنت وأصحابك ؟ فحلف بالله ما فعل ، فقال له النبى : « **فعلت** » فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه فنزلت الآية ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ **ويحلفون على الكذب وهم يعلمون** ﴾ نعم ، حلفوا بالله أيماناً فاجرة ، وهم يعلمون أنهم كاذبون ، وتلك هى اليمين الغموس .

هؤلاء أعد الله لهم عذاباً شديداً ، وهو الدرك الأسفل من جهنم ، إنهم بئس العمل عملهم ، هؤلاء اتخذوا أيمانهم الفاجرة الكاذبة جنة ووقاية لهم حتى أمنوا القتل ، وفى قراءة : « إيمانهم ، أى : الظاهرى كان وقاية لهم من القتل ، فصدوا المؤمنين عن سبيل الله ، وهو جهادهم بقتلهم وأخذ أموالهم ، وقيل صدهم عن سبيل الله بإلقاء الأراجيف وتثبيط المسلمين عن الجهاد وتخويفهم من القتل ، وقد كان المنافقون كذلك ، ويترتب عليه أن لهم عذاباً ذا إهانة فى الدنيا والآخرة ، لن تنفعهم أموالهم التى جمعوها ، ولا أولادهم الذين يعتزون بهم ، ولن يغنوا عنهم من عذاب الله شيئاً من الإغناء ، وكيف تنفعهم فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ؟ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

---

(١) انظر تفسير القرطبى جـ ١٧ صـ ٣٠٤
— انظر تفسير ابن كثير جـ ٨ صـ ٧٨ ط / الشعب

اذكر يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له أنهم مؤمنون ، وما علموا أن ذلك لا ينفعهم أبداً ، ولا يليق بعاقل أبداً ، يحلفون لله كما يحلفون لكم ، ويحسبون أنهم على شىء من منفعة بسبب يمينهم ، ألا إنهم هم الكاذبون المبالغون فى الكذب ، حيث كذبوا بين يدى علام الغيوب يوم القيامة فى الحال التى يؤمن فيها الفاجر ، فلا عجب إذ يحلفون لكم الآن ، ولسائل أن يسأل عن السبب فى هذا ، والجواب أنه : استحوذ عليهم الشيطان فملك عنانهم ، وغلب على عقولهم حتى اتبعوه بلا عقل ولا روية ، وهذا هو سبب كذبهم وضلالهم السابق ، استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله . حتى نسوا أنفسهم فتركوها ترتكب الآثام والأباطيل أولئك — والإشارة لبعدهم فى الغواية والبهتان — حزب الشيطان وجماعته المتجمعون على الإثم والعدوان ، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون وأى خسارة بعد هذا ؟

إن الذين يحادون الله ورسوله بمخالفة أمره ، واتباع الشيطان ، أولئك فى عداد الأذلين .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون** ﴾ . هذا إخبار من الله — تبارك وتعالى — عن المنافقين الذين اتخذوا اليهود والنصارى أولياء . وهؤلاء المنافقون فى الحقيقة ليسوا من المؤمنين ولا من اليهود والنصارى . إنما هم كما قال — تعالى — : ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون . وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون . صم بكم عمى فهم لا يرجعون . أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير** ﴾[1]

(١) سورة البقرة الآيات من ٨ إلى ٢٠ .

وكما قال تعالى فى سورة النساء : ﴿ إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً . بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً . الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً . وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذاً مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعاً . الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا . إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا . مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً . يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبيناً . إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا . إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً ﴾(١) .

وما أعظم قول الله تبارك وتعالى فى سورة المائدة : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين . فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد إيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين . يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون . يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين . وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لايعقلون . قل ياأهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وماأنزل إلينا وماأنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون . قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل . وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون ، وترى كثيرا منهم يسارعون فى الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون ﴾(٢) ﴿ لولا ينهاهم

(١) سورة النساء الآيات ١٣٧ ــ ١٤٦
(٢) سورة المائدة الآيات ٥١ ــ ٥٨

الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت ، لبئس ما كانوا يصنعون . وقالت اليهود يد الله مغلولةٌ غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون فى الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين . ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون ﴾(١)

ثم قال تعالى منكراً على المنافقين فى موالاتهم الكفار فى الباطن وهم فى نفس الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين كما قال تعالى : ﴿ **مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا** ﴾(٢) وقال ههنا : ﴿ **ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم** ﴾ يعنى اليهود الذين كان المنافقون يمالئونهم ويوالونهم فى الباطن . ثم قال تعالى : ﴿ **ما هم منكم ولا منهم** ﴾ أى : هؤلاء المنافقون ليسوا فى الحقيقة منكم أيها المؤمنون ولا من الذين يوالونهم وهم اليهود .

ثم قال تعالى : ﴿ **ويحلفون على الكذب وهم يعلمون** ﴾ يعنى المنافقين يحلفون على الكذب وهم عالمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا وهى اليمين الغموس ولا سيما فى مثل حالهم اللعين عياذاً بالله منه فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا . وإذا جاءوا الرسول حلفوا بالله أنهم مؤمنون . وهم فى ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه وإن كان فى نفس الأمر مطابقاً ولهذا شهد الله بكذبهم فى أيمانهم وشهادتهم لذلك . ثم قال تعالى : ﴿ **أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون** ﴾ أى : أرصد الله لهم على هذا الصنيع العذاب الأليم على أعمالهم السيئة وهى موالاة الكافرين ونصحهم ومعاداة المؤمنين وغشهم ولهذا قال تعالى : ﴿ **اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله** ﴾ أى : أظهروا الإيمان فأبطنوا الكفر واتقوا بالأيمان الكاذبة فظن كثير ممن لا يعرف حقيقة أمرهم صدقهم فاغتر بهم فحصل بهذا صد عن

---

(١) سورة المائدة الآيات : ٥٩ — ٦٦

(٢) سورة النساء الآية : ١٤٣

سبيل الله لبعض الناس ﴿ **فلهم عذاب مهين** ﴾ أى : فى مقابلة ما امتهنوا من الحلف باسم الله العظيم فى الأيمان الكاذبة الحانثة . ثم قال تعالى : ﴿ **لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً** ﴾ أى : لن يدفع ذلك عنهم بأساً إذا جاءهم . ﴿ **أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ **يوم يبعثهم الله جميعاً** ﴾ أى : يحشرهم يوم القيامة عن آخرهم فلا يغادر منهم أحدا ﴿ **فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء** ﴾ أى : يحلفون بالله ــ عز وجل ــ أنهم كانوا على الهدى والاستقامة كما كانوا ــ يحلفون للناس فى الدنيا لأن من عاش على شيء مات عليه وبعث عليه ، ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله كما كان ينفعهم عند الناس ، فيجرون عليهم الأحكام الظاهرة ولهذا قال : ﴿ **ويحسبون أنهم على شيء** ﴾ أى : حلفهم ذلك لربهم ــ عز وجل ــ ثم قال تعالى منكراً عليهم حسبانهم : ﴿ **ألا إنهم هم الكاذبون** ﴾ فأكد الخبر عنهم بالكذب . وقال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس قال : أن النبى ــ ﷺ ــ كان فى ظل حجره من حجره وعنده نفر من المسلمين قد كاد يقلص عنهم الظل قال : « إنه سيأتيكم إنسان ينظر بعينى شيطان ، فإذا أتاكم فلا تكلموه » فجاء رجل أزرق فدعاه رسول الله ــ ﷺ ــ فكلمه فقال : « علام تشتمنى أنت وفلان وفلان » نفر دعاهم بأسمائهم . قال فانطلق الرجل فدعاهم فحلفوا له . واعتذروا إليه قال فأنزل الله عز وجل : ﴿ **فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون** ﴾[١] .

وحال هؤلاء كما أخبر الله ــ تعالى ــ عن المشركين فى قوله : ﴿ **ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون . ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين . انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ماكانوا يفترون** ﴾[٢] .. ثم قال تعالى : ﴿ **استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله** ﴾ أى : استحوذ على قلوبهم الشيطان حتى أنساهم أن يذكروا الله ــ عز وجل ــ وكذلك يصنع بمن استحوذ عليه ، ولهذا قال أبو داود بسنده عن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله ــ ﷺ ــ يقول : « ما من ثلاثة فى قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان فعليك **بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية »[٣] . قال زائدة : قال السائب : يعنى الصلاة فى الجماعة . . ثم قال تعالى : ﴿ أولئك حزب الشيطان ﴾ يعنى الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله . ثم قال تعالى : ﴿ ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾** .

---

(١) مسند أحمد ١ / ٢٤٠ ، ٢٦٧ ، ٣٥٠ .
(٢) سورة الأنعام الآيات : ٢٢ ــ ٢٤
(٣) سنن أبى داود ــ كتاب الصلاة ــ باب فى التشديد فى ترك الجماعة ١ / ٣٧١ رقم ٥٤٧

ثم يقول تعالى مخبراً عن الكفار المعاندين المحادين لله ورسوله يعنى الذين هم فى حد والشرع فى حد أى مجانبون للحق مشاقون له هم فى ناحية والهدى فى ناحية : ﴿ **أولئك فى الأذلين** ﴾ أى : فى الأشقياء المبعدين المطرودين عن الصواب الأذلين فى الدنيا والآخرة .

النفاق والمنافقون

إن المؤمنين فى العهد المكى كانوا مبتلين ، يعذبون ويضطهدون ومع ذلك صبروا واحتسبوا فلم يكن فى مكة حينئذ إلا فريقان : فريق المؤمنين الصابرين ، وفريق الكفار والمشركين الجبابرة و لم يكن هناك « منافقون » لأن النفاق طبيعة المراوغة والاحتيال وهذا الدين لم يكن يقدر عليه فى مكة إلا المؤمنون الصادقون أما فى المدينة ، وبعد قيام دولة المسلمين وهيمنة حكم الله وشرعه فقد وجد المنافقون وهذا أمر معهود من أصحاب النفوس الضعيفة الجبانة ، التى تخاف السلطة الإسلامية فتظهر لها الإسلام ، وتحب الكفر وأهله ولكنها لا تجرؤ على المصارحة به .

والمنافقون : قوم أظهروا الإسلام ومتابعة الرسل ، وابطنوا الكفر ومعاداة الله ورسله ، فهم فى الدرك الأسفل من النار كما قال تعالى : ﴿ **إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا** ﴾ ١٤٥ النساء .

« فالكافرون المجاهرون أخف منهم ، وهم فوقهم فى درجات النار ، لأن الطائفتين اشتركا فى الكفر ومعاداة الله ورسله ، وزاد عليهم المنافقون بالكذب والنفاق . وبلية المسلمين بهم أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين ولهذا قال تعالى فى حقهم : ﴿ **هم العدو فاحذرهم** ﴾ ٤ المنافقون .

ومثل هذا اللفظ يقتضى الحصر . أى : لا عدو إلا هم ، ولكن لم يردها هنا حصر العداوة فيهم ، وأنهم لا عدو للمسلمين سواهم ، بل هذا من إثبات الأولوية والأحقية لهم فى هذا الوصف ، وأنه لا يتوهم بانتسابهم للمسلمين ظاهرا ، وموالاتهم له ومخالطتهم إياهم أنهم ليسوا بأعدائهم بل هم أحق بالعداوة ممن باينهم فى الدار ، ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها .

« فإن ضرر هؤلاء المخالطين المعاشرين لهم ــ وهم فى الباطن على خلاف دينهم ــ أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم . لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أياماً ثم ينقضى ويعقبه النصر والظفر ، أما هؤلاء فمعهم فى الديار والمنازل صباحاً ومساءً ، يدلون العدو على عوراتهم ، ويتربصون بهم الدوائر ولا يمكنهم مناجزتهم .. صحبتهم توجب العار والشنار ، ومودتهم تحل غضب الجبار ، وتوجب دخول النار .

« من علقت به كلاليب كلبهم ومخاليب رأيهم مزقت منه ثياب الدين والإيمان وقطعت له مقطعات من البلاء والخذلان ، فهو يسحب من الحرمان والشقاوة أذيالاً ، ويمشى على عقبة القهقرى إدباراً منه وهو يحسب ذلك إقبالاً » .

وكان من نعمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ على هذه الأمة أن لا يتركها مختلطة بغير تمييز بين المؤمن والمنافق ، ذلك أن عدم التمييز يؤدى إلى ضياع القدوة الحسنة فى المجتمع الإسلامى ، ويؤدى أيضاً إلى ذوبان الصورة الصادقة للمسلم الصادق .

« وفى المنتسبين للإسلام أناس « نفعيون » لا هم لهم إلا الحصول على المال أو أى مأرب من ماربهم الدنيئة ، فإذا انتصر المؤمنون كانوا معهم ، وإذا أصيبوا كانوا عليهم ، ثم إن منهم أصحاب الأهداف الخبيثة والأغراض الهدامة ممن قد امتلأت قلوبهم بالحقد والحسد ، فهم يتربصون بالمسلمين الدوائر ويتظاهرون لهم بأنهم معهم ، ولكنهم يخونونهم فى أحرج المواقف » .

ولما كان الأمر كذلك ميز الله الصادق من الكاذب عن طريق الإبتلاء والإمتحان قال تعالى : **﴿ آلم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾** ١ ـ ٣ العنكبوت **﴿ إن يمسسكم قرح فقد مسَّ القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾** ١٤٠ ـ ١٤١ آل عمران **﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾** ١٧٩ آل عمران .

أجل : إنه لابد من التمييز بين الخبيث والطيب ، فالإبتلاء سنة ربانية عبوديتهم على السراء والضراء ، وفى حال العافية والبلاء ، فلله سبحانه على العباد فى كلتا الحالين عبودية بمقتضى الحال .. لا تحصل إلا بها ، ولا يستقيم القلب بدونها ، كما لا تستقيم الأبدان إلا بالحر والبرد ، والجوع والعطش ، والتعب والنصب ، فتلك المحن والبلايا شرط فى حصول الكمال الإنسانى والاستقامة المطلوبة منه .

والحديث عن المنافقين طويل والحديث هنا عن أبرز أفعال وصفات المنافقين فى كيدهم للدعوة الإسلامية .

(١) من أخطر ما ارتكبه المنافقون : موالاة اليهود والنصارى ضد المسلمين وقد فضحهم القرآن فى

عدة مواضع ومنها سورة الحشر ، قال تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون** ﴾ ١١ ـــ ١٢ الحشر

وقال تعالى :﴿ **ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون** ﴾ ١٤ المجادلة

ذكر السدى ومقاتل : أنها نزلت فى عبد الله بن أبىّ وعبد الله بن نبتل المنافقين : فقد كان أحدهما يجالس النبى ـــ ﷺ ـــ ثم يرفع حديثه إلى اليهود . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ **مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً** ﴾ ١٤٣ النساء

ولقد نزلت سورة كاملة فيهم هى سورة « المنافقون » بيّن الله فيها أنهم يظهرون مالا يبطنون ، وأنهم يحرضون على إضعاف صف المسلمين .

﴿ **هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون** ﴾ ٧ المنافقون .

وفيها أيضاً :

﴿ **يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون** ﴾ . ٨ المنافقون .

روى البخارى ومسلم فى سبب نزولها عن جابر بن عبد الله ـــ رضى الله عنهما ـــ قال : « كنا غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال الأنصارى : ياللأنصار ، وقال المهاجرى : ياللمهاجرين ، فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ : « ما بال دعوى الجاهلية ؟ قالوا يارسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال : « دعوها فإنها منتنة » فسمعها عبد الله بن أبىّ فقال : قد فعلوها ، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، قال عمر : دعنى أضرب عنق هذا المنافق : قال ـــ ﷺ ـــ « دعه . لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه »(١) .

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـــ كتاب البر والصلة ـــ باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما رقم ١٦٦٩

قال محمد بن إسحق عن عاصم بن عمرو بن قتادة : أن عبد الله بن عبد الله بن أبَىّ لما بلغه ما كان عن أبيه أتى رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ فقال : يا رسول الله : إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلاً فمرنى به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل ابر بوالديه منى ، إنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبَىّ يمشى فى الناس فأقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر ، فأدخل النار . فقال رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ :« بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا »[1] .

وذكر عكرمة وغيره : أن الناس قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله بن أبَىّ على باب المدينة ، واستل سيفه ، فجعل الناس يمرون عليه ، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبَىّ قال له ابنه : وراءك ، فقال : مالك ويلك ؟ قال : والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن رسول الله ـــ ﷺ ـــ وكان إنما يسير ساقه ـــ « من صفته ـــ ﷺ ـــ أنه يسوق أصحابه أى يقدمهم ويمشى خلفهم تواضعاً ولا يدع أحداً يمشى خلفه » فشكى له عبد الله بن أبَىّ ابنه ، فقال الابن : والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له ،فأذن له رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال : أما إذا أذن لك رسول الله ـــ ﷺ ـــ فجز الآن[2] .

وحقاً إنها صورة رائعة لصدق الإيمان أن يقول الإبن لرسول الله : إن كنت فاعلاً فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه . إنه ما حمل هذا الإبن على هذا الفعل إلا قوة الإيمان وعمق الولاء والبراء فى نفسه .

(٢) من أقبح صفاتهم : رفض التحاكم إلى شريعة الله ، والتحاكم إلى الطواغيت التى تحقق رغباتهم ، قال تعالى :

﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً . وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا . فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً . أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغاً ﴾ . ٦٠ ـــ ٦٣ النساء

ورفضهم لحاكمية الله رفض للإيمان كما قال تعالى :

(١) تفسير الطبرى ٢٨ / ٧٦ سورة المنافقون آية ٨

(٢) تفسير ابن كثير ـــ طبعة الشعب . سورة المنافقون آية ٨ ٨ / ١٥٩

• ﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين . أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون ﴾ ٤٨ ـــ ٥٠ النور

ثم يضع الله ميزاناً دقيقاً فى هذه القضية بين المؤمن والمنافق . فأما المؤمن الصادق فإنه ينقاد إلى حكم الله ويرضى به ويقول : سمعت وأطعت ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾ ٥١ النور

هذه هى صفة المؤمن ، أما المنافق فصفته الإعراض والاستكبار عن حكم الله .

(٣) من صفاتهم وأفعالهم الدنيئة : التخذيل فى صف المسلمين ، والتجسس للكفار وكشف عورات المسلمين لهم . قال الله عنهم :

﴿ الذين قالوا لأخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾ . ١٦٨ آل عمران .

ولقد أصيب المسلمون فى غزوة أحد بالدهشة حيث رجع ثلث الجيش بزعامة ابن أبّى . وكذلك قعودهم عن غزوة تبوك وغيرها .

وفى موالاتهم للكفار يقول الله فى شأنهم :

﴿ أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً ﴾ ١٣٨ ـــ ١٣٩ النساء .

وأخبرنا سبحانه أنهم هم :

﴿ الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ، فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ﴾ . ١٤١ النساء .

ولقد فضحتهم سورة التوبة خاصة فقد ورد فيها قوله تعالى : ﴿ إنما يستئذنك الذين لا يؤمنون بالله

واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون . ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين . لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين . لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلّبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون . ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون ﴾ . ٤٥ ــ ٥٠ التوبة .

ففى هذه الآيات بيان من الله للمؤمنين أن هؤلاء المنافقين لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا لأنهم جبناء ، مخذلون ، ولأسرعوا بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة . وقال الله فيهم أيضاً :

﴿ وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين . رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ ٨٦ ــ ٨٧ التوبة .

ولهم مواقف أخرى كثيرة ، ولكنه سبحانه وتعالى حذر المؤمنين منهم وبين لرسوله ﷺ ــ أنه سبحانه وتعالى لو شاء لأراهم لرسول الله عياناً ولكنهم يعرفون بلحن القول ﴿ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول والله يعلم أعمالكم ﴾ ٣٠ محمد .

حزب الله

قال الله تعالى :

كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ

معانى المفردات

كتب الله : أى قضى وحكم ، لأغلبن : أى بالحجة والسيف ، وأيدهم : أى قواهم ، بروح منه : أى بنور يقذفه فى قلب من يشاء من عباده ، لتحصل له الطمأنينة والسكينة .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد ما حكم الله تعالى على المنافقين بالخسران وحكم على الذين يحادون الله ورسوله بأنهم فى الأذلين ، قضى قضاءً لا يتغير بأن الغلبة والنصر له سبحانه ولرسله الكرام وأن الذلة لأعدائه ثم ذكر أن الإيمان الحق لا يجتمع مع موالاة أعدائه مهما قرب بهم النسب بأن كانوا آباء أو أبناء أو إخوانا أو من ذى العشيرة ، لأن المحادين كتبت عليهم الذلة ، وأولئك كتبت لهم العزة ، وقواهم ربهم بالطمأنينة والثبات على الإيمان ، وهم جند الله وناصرو دينه ، وحزب الله مفلح لا محالة وقد كتبت له السعادة فى الدارين ، كما قال : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** ﴾(١) .

أضواء كاشفة

إن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وما سبب ذلك ؟ الجواب : كتب الله لأغلبن أنا ورسلى أى قدر وأراد إرادة مؤكدة كأنه أقسم عليها ، ولذا جاء الجواب باللام المؤكدة فى قوله : لأغلبن أنا ورسلى ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون ﴾(٢) ولا غرابة إن ربك لقوى قادر عزيز غالب . لا تجد قوماً يؤمنون بالله ورسوله حقاً إيماناً كاملاً ، يوادون من حاد الله ورسوله بقلوبهم مخلصين ، والغرض من هذا الأسلوب بيان أنه لا ينبغى أن يجتمع فى قلب واحد إيمان كامل مع موادة الكفار ، وحقه أن يمتنع ، ولا يوجد بحال ، وهذا مبالغة فى النهى عنه والزجر عن سلوك طريقه ، والنهى عنه الإخلاص القلبى للكافر ، ولو كان أباً أو إبناً أو أخاً أو من العشيرة ، وقد كان الصحابة لا يفضلون على حب الله ورسوله شيئاً بل بعضهم قتل وصفع وأهان بعض أقاربه فى سبيل الله ، أولئك الممتثلون أمر الله ، الذين يجدون حلاوة الإيمان فى حب الله ورسوله . وهم بالطبع لا يوادون أعداء الله وأعداء الإسلام والقرآن ، أولئك كتب الله فى قلوبهم الإيمان وثبته ، وأيدهم بروح من عنده ، وأنار قلوبهم للحق فاعتنقوه ،

(١) سورة محمد الاية : ٧

(٢) سورة الصافات الآيات : ١٧١ ــ ١٧٣

وسيدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الرحمن المختصون بالقرآن ، ألا إن حزب الله هم المفلحون وحدهم ، وأى فلاح بعد ذلك ؟ ! !

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **كتب الله لأغلبن أنا ورسلى** ﴾ أى : قد حكم وكتب فى كتابه الأول وقدره الذى لا يخالف ولا يمانع ولا يبدل بأن النصرة له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين فى الدنيا والآخرة ، وأن العاقبة للمتقين ، كما قال تعالى : ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار** ﴾(١) وقال ههنا : ﴿ **كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز** ﴾ أى : كتب القوى العزيز أنه الغالب لأعدائه وهذا قدر محكم وأمر مبرم أن العاقبة والنصرة للمؤمنين فى الدنيا والآخرة .

ثم قال تعالى : ﴿ **لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم** ﴾ أى لا يوادون المحادين ولو كانوا من الأقربين . كما قال تعالى : ﴿ **لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه** ﴾(٢) . الآية . وقال تعالى : ﴿ **قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين** ﴾(٣) .

وقد قال سعيد بن عبد العزيز وغيره : أنزلت هذه الآية : ﴿ **لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾ إلى آخرها ، فى أبى عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر ولهذا قال عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ حين جعل الأمر شورى بعده فى أولئك الستة ــ رضى الله عنهم ــ ولو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته . وقيل فى قوله تعالى : ﴿ **ولو كانوا آباءهم** ﴾ نزلت فى أبى عبيدة قتل أباه يوم بدر ﴿ **أو أبناءهم** ﴾ فى الصديق همَّ يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن ﴿ **أو إخوانهم** ﴾ فى مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ ﴿ **أو عشيرتهم** ﴾ فى عمر قتل قريباً له يومئذ فالله أعلم .

---

(١) سورة غافر الآيتان : ٥١ ــ ٥٢

(٢) سورة آل عمران الآية : ٢٨

(٣) سورة التوبة الآية : ٢٤

ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله ـ ﷺ ـ المسلمين فى أسارى بدر فأشار الصديق بأن يفادوا فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين ، وهم بنوا العم والعشيرة ولعل الله تعالى أن يهديهم وقال عمر : لا أرى ما رأى يارسول الله ، هل تمكننى من فلان . قريب لعمر فأقتله ، وتمكن علياً من عقيل وتمكن فلاناً من فلان ليعلم الله أنه ليست فى قلوبنا موادة للمشركين .

وقوله تعالى : ﴿ **أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه** ﴾ أى : من اتصف أنه لا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أباه أو أخاه فهذا ممن كتب الله فى قلبه الإيمان أى كتب له السعادة وقررها فى قلبه وزين الإيمان فى بصيرته . قال السدى : (كتب فى قلوبهم الإيمان) جعل فى قلوبهم الإيمان . وقال ابن عباس : (وأيدهم بروح منه) أى : قواهم وقوله تعالى : ﴿ **ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه** ﴾ هذا جزاؤهم عند الله فالكريم إذا وعد وفّى وأنجز إذا أوعد فهو بالخيار إن شاء عفا وإن شاء عاقب .

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر ... وبينى وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذى فوق التراب تراب

سبحانك أنت القائل : ﴿ **وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون** ﴾ وأنت القائل : ﴿ **وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم** ﴾[1] .

رضاك خير من الدنيا وما فيها ... يا مالك النفس قاصيها ودانيها
فليس للنفس آمال تحققها ... سوى رضاك فذا أقصى أمانيها
فنظرة منك ياسؤلى ويا أملى ... خير إلىّ من الدنيا وما فيها

سمع أحد الصالحين رجلاً فى مجلسه يقول : اللهم ارض عنى ، فقال له : لو رضيت عن الله لرضى الله عنك . قال الرجل : وكيف أرضى عن الله ؟ قال له : يوم تسر بالنقمة سرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله .

(١) سورة التوبة الآية ٧٢

ما مسنى قدر بكرة أو رضى ... إلا اهتديت به إليك طريقا
أمضى القضاء على الرضا منى به ... إنى عرفتك فى البلاء رفيقاً

إلهى : ــ شعاع من رضاك يطفىء غضب ملوك أهل الأرض ، ولمحة من غضبك تزهق الروح ولو انغمست فى نعيم الدنيا .

أنا لا أضام وفى رحابك عزتى ... أنا لا أخاف وفى رضاك أمانى
يارب حبك فى دمى وكيانى ... نور أغر يذوب فى وجدانى

أستحى أن أسألك وأنا أنا ولكن كيف لا أسألك وأنت أنت إن كانت ذنوبى لها حد وغاية ، فإن عفوك لا حد له ولا نهاية .

فعلنا خطايانا وسترك مسبل ... وليس لشىء أنت ساتره كشف
إذا نحن لم نخطىء وتعفو تكرماً ... فمن غيرنا يهفو وغيرك من يعفو

يارب : ــ إن لم أكن أهلاً لبلوغ رحمتك فإن رحمتك أهل لأن تبلغنى ، فأنت القائل : ﴿ **ورحمتى وسعت كل شىء** ﴾ وأنا شىء فلتسعنى رحمتك .

يا بارىء الكون فى عز وتمكين ... وكل أمر جرى بالكاف والنون
يا من لطفت بحالى قبل تكوينى ... لا تجعل النار يوم الحشر تكوينى

قوله تعالى : ﴿ **أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون** ﴾ أى : هؤلاء حزب الله أى عباد الله وأهل كرامته .

وقوله تعالى : ﴿ **ألا إن حزب الله هم المفلحون** ﴾ تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرتهم فى الدنيا والآخرة فى مقابلة ما ذكر عن أولئك بأنهم حزب الشيطان . ثم قال : ﴿ **ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون** ﴾ . وقد قال ابى حاتم بسنده كتب أبو حازم الأعرج إلى الزهرى : اعلم أن الجاه جاهان ، جاه يجريه الله تعالى على أيدى أوليائه لأوليائه ، وأنهم الخامل ذكرهم ، الخفية شخوصهم ، ولقد جاءت صفتهم على لسان رسول الله ــ ﷺ ــ « إن الله يحب الأخفياء الأتقياء الأبرياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإذا

حضروا لم يدعوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، يخرجون من كل فتنة سوداء مظلمة » فهؤلاء أولياء الله تعالى الذين قال الله فيهم : ﴿ **أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون** ﴾[١]

وقال نعيم بن حماد بسنده عن الحسن قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندى يداً ولا نعمة ، فإنى وجدت فيما أوحيته إلىّ » . ﴿ **لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله** ﴾ . قال سفيان : يرون أنها نزلت فيمن يخالط السلطان . رواه أبو أحمد العسكرى[٢] .

قضية ذات أهمية بالغة

بعد الحديث عن حزب الله وحزب الشيطان ، أرى لزاماً على كل مسلم أن يقف طويلاً طويلا أمام تلك القضية التى يجب على كل مسلم أن يعلمها ويعمل بمقتضاها ويدرك مبناها ومعناها ويقف على حقيقة مرماها ومغزاها . وهذه القضية تدور حول سؤالين : لمن يكون الولاء ؟ وممن يكون البراء ؟

وعندما نتحدث عن هذه القضية نبدأ حديثنا بقوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فاولئك هم الظالمون . قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين** ﴾[٣]

وقوله جل شأنه : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق . يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل . إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون . لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة . يفصل بينكم والله بما تعملون بصير** ﴾[٤] .

فاللهم إنا نستعينك ونستهديك ، ونستغفرك ونتوب إليك ونؤمن بك ونتوكل عليك ، ونثنى عليك الخير كله ، نشكرك ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك ، اللهم إياك نعبد ولك نصلى ونسجد وإليك

(١) سند ابن ماجه ـ كتاب الفتن ـ باب من ترجى له السلامة من الفتن ٢ /١٣٢٠ رقم ٣٩٨٩
(٢) انظر تفسير ابن كثير ـ طبعة الشعب . سورة المجادلة . آية ٢٢ ٨ /٨٠
(٣) سورة التوبة الآيتان : ٢٣ ، ٢٤
(٤) سورة الممتحنة الآيتان : ١ ، ٢

نسعى ونحفر ، نرجو رحمتك ونخشى عذابك إن عذابك الجد بالكفار ملحق . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم . فلمن يكون الولاء وممن يكون البراء ؛ وتحت هذين السؤالين تندرج بحوث كثيرة نسأل الله تعالى أن يلهمنا العمل بما نعلم كما نسأله أن يبصرنا بعيوبنا .

قال الشيخ : محمد بن سعيد بن سالم فى هذه القضية التى بين أيدينا :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فهو المهتدى ومن يضلل الله فلن تجد له ولياً مرشداً وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ ــ وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيله واهتدى بهداه وسلم تسليماً كثيراً أما بعد :

فإنه من رحمة الله ــ سبحانه وتعالى ــ وعظيم لطفه بخلقه : أن جعل الرسالة المحمدية هى خاتمة الرسالات السماوية وجعلها سبحانه وتعالى كاملة صافية نقية لا يزيغ عنها إلا هالك . وكتب تبارك اسمه وتعالى جله السعادة فى الدارين **لأتباع هذه الرسالة الذين قدروها حق قدرها وقاموا بها على وفق ما أراد الله وعلى هدى نبى الله - ﷺ - وسماهم أولياء الله وحزبه ، وكتب عز وجل الشقاء والذلة على من حاد عن هذه الشريعة وتنكب الصراط المستقيم سماهم أولياء الشيطان وجنده .**

وأصل هذه الرسالة الخالدة : كلمة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله) .

هذه الكلمة العظيمة ــ كما يقول ابن القيم : ــ « التى لأجلها نصبت الموازين ووضعت الدواوين ، وقام سوق الجنة والنار ، وبها انقسمت الخليقة إلى المؤمنين والكفار والأبرار والفجار وأسست الملة ولأجلها جردت السيوف للجهاد وهى حق الله على جميع العباد » وحقيقة هذه الكلمة : « مركبة من معرفة ما جاء به الرسول ــ ﷺ ــ علماً ، والتصديق به عقداً ، والاقرار به لطفاً والانقياد له محبة وخضوعاً ، والعمل به باطناً وظاهراً وتنفيذه والدعوة إليه بحسب الإمكان وكماله فى الحب فى الله والبغض فى الله والمنع فى الله وأن يكون الله وحده إلهه ومعبوده والطريق إليه : تجريد متابعة رسوله ــ ﷺ ــ ظاهراً وباطناً ، وتغميض عين القلب عن الالتفات إلى سوى الله ورسوله . هذه الكلمة العظيمة بكل مفاهيمها ومقتضياتها قد غابت عن حس الناس اليوم إلا من رحم الله ، ومن هذه المفاهيم بل من أهمها موضوع : الولاء والبراء .

ولئن كان هذا المفهوم العقدى الهام قد غاب اليوم عن واقع حياة المسلمين ــ إلا من رحم ربك ــ فإن ذلك لا يغير من حقيقته الناصعة شيئاً .

ذلك أن الولاء والبراء : هما الصورة الفعلية للتطبيق الواقعى لهذه العقيدة وهو مفهوم ضخم فى حس المسلم بمقدار ضخامة وعظمة هذه العقيدة .

ولن تتحقق كلمة التوحيد فى الأرض إلا بتحقيق الولاء لمن يستحق الولاء والبراء ممن يستحق البراء .

ويحسب بعض الناس أن هذا المفهوم العقدى الكبير يدرج ضمن القضايا الجزئية أو الثانوية ولكن حقيقة الأمر بعكس ذلك . إنها قضية إيمان وكفر كما قال الله تعالى : ـــ

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون . قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله . وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾[١] .

وقال جل جلاله :

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾[٢]

وقد قال أحد العلماء ـــ وهو الشيخ حمد بن عتيق رحمه الله ـــ « إنه ليس فى كتاب الله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم ـــ أى الولاء والبراء ـــ بعد وجوب التوحيد وتحريم ضده » ولقد قامت الأمة الإسلامية بقيادة البشرية دهراً طويلاً حيث نشرت هذه العقيدة الغراء فى ربوع المعمورة وأخرجت الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ثم ما الذى حدث ؟

لقد تقهقرت هذه الأمة إلى الوراء بعد أن تركت الجهاد وأخذت بأذناب اللهو .

تراجعت بعد أن زهدت فى الجهاد وهو ذروة سنام الإسلام .

تبعت الأمم الأخرى بعد أن ركنت إلى حياة الدعة والرفاهية والبذخ والمجنون .

---

(١) سورة التوبة الآيتان : ٢٣ ، ٢٤

(٢) سورة المائدة الآية : ٥١

تبلبلت أفكارها بعد أن خلطت نبعها الصافى بالفلسفات الجاهلية والهرطقة البشرية .

دخلت هذه الأمة فى طاعة الكافرين واطمأنت إليهم ، وطلبت صلاح دنياها بذهاب دينها فخسرت الدنيا والآخرة .

وبرزت صور موالاة الكفار فى أمور شتى منها : —

(١) محبة الكفار وتعظيمهم ونصرتهم على حرب أولياء الله ، وتنمية شريعة الله عن الحكم فى الأرض ورميها بالقصور والجمود وعدم مسايرة العصر ومواكبة التقدم الحضارى .

(٢) ومنها : استيراد القوانين الكافرة — شرقية كانت أم غربية — وإحلالها محل شريعة الله الغراء وغمز كل مسلم يطالب بشرع الله بـ : التعصب والرجعية والتخلف .

(٣) ومنها : التشكيك فى سنة رسول الله — ﷺ — والطعن فى دواوينها الكريمة والحط من قدر أولئك الرجال الأعلام الذين خدموا هذه السنة حتى وصلت إلينا .

(٤) قيام دعوات جاهلية جديدة تعتبر ردة جديدة فى حياة المسلمين ذلك مثل دعوة القومية الطورانية والقومية العربية والقومية الهندية .. و .. و .. الخ .

(٥) إفساد المجتمعات الاسلامية عن طريق وسائل التربية والتعليم وبث سموم الغزو الفكرى فى المناهج والوسائل الإعلامية بكل أصنافها .

وأمام هذه الصورة وغيرها من الصور الكثيرة تنشأ أسئلة كثيرة تحتاج إلى إجابات صادقة وافية يدعمها الدليل من الكتاب والسنة والاسترشاد بآراء العلماء الأعلام ومن هذه الأسئلة : لمن ينتمى المسلم ؟ ولمن يكون ولاؤه ؟ وممن يكون براؤه ؟ ما حكم تولى الكفار ونصرتهم ؟ وما حكم الإسلام فى المذاهب الفكرية التى يروج لها المستغفلون أو الحاقدون من أبناء أمتنا وممن ينطقون بألسنتنا ؟

كيف ينبغى أن تكون صورة الولاء للمسلمين الذين يضطهدون اليوم وغير اليوم فى مشارق الأرض ومغاربها حيث تكالبت عليهم قوى الشر والكفر ؟

ما هو طريق الخلاص بعدما تقبل المسلمون لباس العبودية العقلية الذى خلعته عليهم المدنية الأجنبية ؟

يستثير هذه الأسئلة وغيرها غياب المفهوم الصحيح لكلمة التوحيد وبعد ذلك عن واقع المسلمين اليوم حيث مسخت مفاهيمها حتى صار من يقر بتوحيد الربوبية فقط دون توحيد الألوهية يعتبر موحداً عند كثير من الناس .

أما كون لا إله إلا الله ولاء وبراء أما كونها توحيد ألوهية وعبادة : فهذه معان لا تخطر على أذهان الكثير ـــ إلا من رحمه الله ـــ ورحم الله الإمام الداعية شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب حين قال : « إن الانسان لا يستقيم له إسلام ولا وحدانية وترك الشرك إلا بعداوة المشركين كما قال تعالى فى سورة المجادلة : ـــ

﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبنائهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ .

لما عرف الصحابة رضوان الله عليهم الجاهلية ، ثم عرفوا الإسلام خرجوا ـــ نتيجة للتربية القرآنية والعناية النبوية وهم أعظم جيل عرفه تاريخ هذه الدعوة .

ترى ما سر تلك العظمة التى نقرأ عنها ونسمع وكأنها شبه أحلام نظراً للهوة السحيقة التى وصلنا إليها ؟ ذلك الجيل الذى كان الواحد منهم إذا دخل فى الإسلام خلع علّى عتبته كل ماضيه فى الجاهلية وانتقل نقلة بعيدة من عالم مظلم سحيق وتصور ومفاهيم كليلة وعبودية للمال والعبيد إلى حياة رحبة فسيحة وعالم يملؤه نور الله وتصور كامل شامل ، واستعلاء على كل عبودية إلا العبودية لله ـــ عز وجل ـــ

إن سر ذلك النجاح وتلك العظمة هو نقطة البدء التى بدأ بها رسول الله ـــ ﷺ ـــ وهى كلمة « لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم » هذه الكلمة التى مزقت كل رابطة ، وأهدرت كل وشيمة إلا وشمة العقيدة . رابطة الحب فى الله ، رابطة المؤاخاة الإيمانية التى يتهاوى دونها كل عرق ودم وتراب وجنس ولون .

ورد فى صحيح مسلم عن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ قال « قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ « إن الله يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالى . اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى »[1] .

---

(١) صحيح مسلم ـــ كتاب البر والصلة ـــ باب فى فضل الحب فى الله ٤ /١٩٨٨ رقم ٢٥٦٦

وعن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ قال : قال النبى ــ ﷺ ــ « إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى » قالوا : يارسول الله تخبرنا من هم ؟ قال : « هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فوالله إن وجوههم لنور وإنهم على نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس »(١) وقرأ هذه الآية : ــ

﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾(٢)

ولقد مكث رسول الله ــ ﷺ ــ بمكة ثلاثة عشر عاماً يدعو الناس إلى هذه العقيدة ويمكنها فى نفوس العصبة المسلمة مما جعل آثار ذلك تنعكس فى أفعالهم الحميدة وجهادهم المستمر لنشر كلمة الله فى الأرض حين قامت دولة المصطفى فى المدينة المنورة . إن الذى يجعلنا نتحدث عن قضية الألوهية ومفهومها الصحيح الذى جاء به الإسلام هو الحاجة الماسة لشرحها اليوم وبيانها للناس . بعد أن انحرف الناس ــ إلا من رحمه الله ــ عن العقيدة الصافية التى جاء بها الرسول ــ ﷺ ــ

لقد أصبحت هذه القضية عند سواد الناس اليوم مجرد لفظة ترددها الألسنة دون وعى وتدبر لمعناها ولوازمها و لم يقتصر الأمر على هذا فحسب بل تعداه إلى إيراد بعض النصوص للاستشهاد بها على ما يرون من معتقد ، دون نظر لكامل النصوص فى هذه القضية ، ودون رجوع إلى بيان ذلك فى كتب أهل العلم من كتب الحديث وشروحها وكتب التفسير وشروح جهابذة رجال الدعوة والإصلاح على مدار تاريخ هذه الأمة .

ومسخ أيضاً مفهوم العبادة الشامل الكامل للحياة الدنيا والآخرة إلى جزء يسير منها وهو الشعائر التعبدية من صلاة وصيام وزكاة وحج .

أما النظام الذى تقوم عليه الحياة . أما الولاء لمن يكون ؟ والبراء ممن يكون ؟ أما الحب لمن ؟ والبغض لمن ؟ فهذه معانٍ بعيدة عن تصورهم ومجال تفكيرهم ! !

إن هذا الدين لم يكن توحيد ربوبية فحسب . وإنما هو أيضاً توحيد ألوهية وتوحيد أسماء وصفات تليق بجلال الله وعظمته . وتأمل ــ كما يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب ــ رحمه الله ــ « وحال رسول الله ــ ﷺ ــ لما قام ينذر المشركين من الشرك ويأمرهم بضده وهو التوحيد لم يكرهوا واستحسنوا وحدثوا

---

(٢) سنن أبى داود ــ كتاب البيوع والإجارات ــ باب فى الرهن ٣ / ٧٩٩ رقم ٣٥٢٧

(٣) سورة يونس الآيتان : ٦٢ ، ٦٣

أنفسهم بالدخول فيه إلى أن صرح بسبب دينهم وتجهيل علمائهم فحينئذ شمروا له ولأصحابه عن ساق العداوة ، وقالوا : سفه أحلامنا وعاب ديننا وشتم آلهتنا ومعلوم أنه صلى الله عليه وسلم لم يشتم عيسى وأمه ولا الملائكة ولا الصالحين ولكن لما ذكر أنهم لا يدعون ولا ينفعون ولا يضرون جعلوا ذلك شتماً .

فإذا عرفت هذا عرفت أن الإنسان لا يستقيم له إسلام ـــ ولو وحد الله وترك الشرك ـــ إلا بعداوة المشركين ، والتصريح لهم بالعداوة والبغض ، كما قال تعالى فى سورة المجادلة : ـــ

﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوآدون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان ﴾ .

فإذا فهمت هذا جيداً عرفت أن كثيراً من الذين يدعون الدين لا يعرفونها ـــ أى لا إله إلا الله ـــ وإلا فما الذى حمل المسلمين على الصبر على ذلك العذاب والأسر والضرب والهجرة للحبشة مع أنه ـــ ﷺ ـــ أرحم الناس لو يجد لهم رخصة لأرخص لهم » .

وما دام أن هناك من يجهل حقيقة « لا إله إلا الله » فلابد من الشرح لها والبيان لمدلولها وحقيقتها وشروطها ونواقضها ولوازمها وإليك ذلك مفصلاً .

ومن الله نستمد العون والسداد .

كلمة التوحيد « لا إله إلا الله محمد رسول الله »

ومعناها : لا معبود بحق إلا الله وبذلك تنفى الإلهية عما سوى الله وتثبتها لله وحده .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية ـــ رحمه الله ـــ : « ليس للقلوب سرور ولا لذة تامة إلا فى محبة الله والتقرب إليه بما يحبه ولا تمكن محبة إلا بالإعراض عن كل محبوب سواه وهذا حقيقة « لا إله إلا الله » وهى ملة إبراهيم الخليل ـــ عليه السلام ـــ وسائر الأنبياء والمرسلين صلاة الله وسلامه عليهم : أجمعين أما شقها الثانى « محمد رسول الله » فمعناه تجريد متابعته فيما أمر والانتهاء عما نهى عنه وزجر .

ومن هنا كانت « لا إله إلا الله » ولاء وبراء نفياً وإثباتاً . ولاء لله ولدينه وكتابه وسنة نبيه وعباده الصالحين . وبراء من كل طاغوت عبد من دون الله .

﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد إستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾[(١)]

وفى هذا يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب : واعلم أن الإنسان ما يصير مؤمناً بالله إلا بالكفر بالطاغوت والدليل هذه الآية . يعنى الآية السابقة .

وكلمة التوحيد ولاء لشرع الله .

﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون ﴾[(٢)] .

﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التى فطر الناس عليها ﴾[(٣)]

وبراء من حكم الجاهلية : —

﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾[(٤)] .

وبراء من كل دين غير دين ا لاسلام : —

﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾[(٥)] .

ثم هى نفى وإثبات تنفى أربعة أمور . وتثبت أربعة أمور : —

« تنفى : الآلهة ، والطواغيت والأنداد والأرباب .

فالآلهة : ما قصدته بشىء من جلب خير أو دفع ضر أنت متخذه إلهاً .

والطواغيت : من عبد وهو راض أو رشح للعبادة .

والأنداد : ما حزبك عن دين الإسلام من أهل أو مسكن أو عشيرة أو مال . فهو ند لقوله تعالى : —

﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ﴾[(٦)]

والأرباب : من أفتاك بمخالفة الحق وأطعته مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾[(٧)] .

وتثبت أربعة أمور : —

التعبد : وهو كونك ما تقصد إلا الله .

والتعظيم والمحبة : لقوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾[(٨)] والخوف والرجاء : لقوله تعالى :

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢٥٦
(٢) سورة الأعراف الآية : ٢
(٣) سورة الروم الآية : ٣٠
(٤) سورة المائدة الآية : ٥٠
(٥) سورة آل عمران الآية : ٨٥
(٦) سورة البقرة الآية : ١٦٥
(٧) سورة التوبة الآية : ٣١
(٨) سورة البقرة الآية : ١٦٥

﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يُردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم ﴾(١) .

فمن عرف هذا قطع العلاقة مع غير الله ولا تكبر عليه جهامة الباطل كما أخبر تعالى عن إبراهيم ــ عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ــ بتكسير الأصنام وتبريه من قومه : ــ

﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا بُرَءآؤُ منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾(٢) .

ولقد جاء القرآن من أوله إلى آخره يبنى معنى لا إله إلا الله بنفى الشرك وتوابعه ، ويقرر الإخلاص وشرائعه ، فكل قول وعمل صالح يحبه الله ويرضاه هو من مدلول كلمة الإخلاص لأن دلالتها على الدين كله إما مطابقة وإما تضمناً وإما التزاماً يقرر ذلك أن الله سماها كلمة التقوى والتقوى : ــ أن يتقى سخط الله وعقابه بترك الشرك والمعاصى وإخلاص العبادة لله واتباع أمره على ما شرعه . كما قال ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ « أن تعمل بطاعة الله ، على نور من الله ، ترجو ثواب الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله »

أما كيف تم لأصحاب رسول الله ــ ﷺ ــ معرفة هذه الكلمة والتزام أحكامها والعمل بمقتضياتها ولوازمها فيشرح ذلك الإمام الجليل سفيان بن عيينه : حدث محمد بن عبد الملك المصيصى قال : كنا عند سفيان بن عيينه فى سبعين ومائة فسأله رجل عن الإيمان ؟ فقال : قول وعمل قال : يزيد وينقص ؟ قال : يزيد ما شاء الله وينقص حتى لا يبقى منه مثل هذه وأشار سفيان بيده . قال الرجل : كيف نصنع بقوم عندما يزعمون : أن الإيمان قول بلا عمل ؟ قال سفيان : كان القول قولهم قبل أن تقرر أحكام الإيمان وحدوده .

إن الله ــ عز وجل ــ بعث نبينا محمداً ــ ﷺ ــ إلى الناس كلهم كافة أن يقولوا : لا إله إلا الله وأنه رسول . فلما قالوها عصموا بها دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ــ عز وجل ــ فلم علم الله ــ عز وجل ــ صدق ذلك من قلوبهم ، أمره أن يأمرهم بالصلاة فأمرهم ففعلوا فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم .

---

(١) سورة يونس الآية : ١٠٧

(٢) سورة الممتحنة الآية : ٤

فلما علم الله — جل وعلا — صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأمرهم بالهجرة إلى المدينة فأمرهم ففعلوا فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم فلما علم الله تبارك وتعالى صدق ذلك من قلوبهم أمرهم بالرجوع إلى مكة ليقاتلوا آباءهم وأبناءهم حتى يقولوا كقولهم ويصلوا صلاتهم ويهاجروا هجرتهم فأمرهم ففعلوا ، حتى أتى أحدهم برأس أبيه فقال : يا رسول الله : هذا رأس شيخ الكافرين ، فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم ولا هجرتهم ولا قتالهم فلما علم الله — عز وجل — صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأمرهم بالطواف بالبيت تعبدا وأن يحلقوا رؤوسهم تذللاً ففعلوا فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم ولا هجرتهم ولا قتلهم آباءهم فلما علم الله — عز وجل — صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم بها فأمرهم ففعلوا حتى أتوا بها قليلها وكثيرها والله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم ولا هجرتهم ولا قتلهم آباءهم ولا طوافهم ، فلما علم الله — تبارك وتعالى — **الصدق من**/قلوبهم فيما تتابع عليهم من شرائع الإيمان وحدوده قال عز وجل : قل لهم : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا** ﴾[1] قال سفيان : فمن ترك خلة من خلال الإيمان كان بها عندنا كافراً ومن تركها كسلاً أو تهاوناً بها ، أدبناه وكان بها عندنا ناقصاً . هكذا السنة أبلغها عنى من سألك من الناس وقد ذكر العلماء — رحمهم الله — شروطاً سبعة لـ « لا إله إلا الله » لا تنفع صاحبها إلا باجتماع هذه الشروط فيه وإليك شرحها : —

شروط « لا إله إلا الله »

ينبغي أن نعلم أنه « ليس المراد من هذا عد ألفاظها وحفظها فكم من عامي اجمعت. فيه والتزمها ولو قيل له أعددها لم يحسن ذلك وكم حافظ لألفاظها يجرى فيها كالسهم ، وتراه يقع كثيراً فيما يناقضها والتوفيق بيد الله » .

وقد قال وهب بن منبه لمن سأله : أليس « لا إله إلا الله » مفتاح الجنة ؟

قال : بلى ، ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح لك .

وأسنان هذا المفتاح هى شروط « لا إله إلا الله » الآتية : —

الشرط الأول : —

العلم بمعناها المراد منها نفياً وإثباتاً المنافى للجهل بذلك قال تعالى :

---

(١) سورة المائدة الآية : ٣

﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾[١]

وقال ﴿ إلا من شهد بالحق ﴾[٢]

أى : بلا إله إلا الله ﴿ وهم يعلمون ﴾ بقلوبهم ما نطقوا به بألسنتهم .

وقال تعالى : ـــ

﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾[٣] .

وفى الصحيح عن عثمان ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة »[٤] .

الشرط الثانى : ـــ

اليقين المنافى للشك . ومعنى ذلك : أن يكون قائلها مستيقناً بمدلول هذه الكلمة ، يقيناً جازماً ، فإن الإيمان لا يغنى فيه إلا علم اليقين لا علم الظن قال تعالى :

﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾[٥] .

وفى الصحيح من حديث أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ « أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة »[٦] .

وفى رواية « لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما فيحجب عن الجنة »[٧] وعن أبى هريرة أيضاً من حديث طويل « من لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة »[٨] وقال القرطبى : ـــ فى « الفهم على صحيح مسلم » باب لا يكفى مجرد التلفظ بالشهادتين بل لابد من استيقان القلب وهذه الترجمة تنبيه على فساد مذهب غلاة المرجئة القائلين بأن التلفظ بالشهادتين كاف فى الإيمان وأحاديث هذا الباب تدل على فساده بل هو مذهب معلوم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها ولأنه يلزم منه تسويغ النفاق والحكم للمنافق بالإيمان الصحيح وهو باطل قطعاً » .

(١) سورة محمد الآية : ١٩
(٢) سورة الزخرف الآية : ٨٦
(٣) سورة آل عمران الآية : ١٨
(٤) صحيح مسلم ـــ كتاب الإيمان ـــ باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة ١ / ٥٥ رقم ٤٣
(٥) سورة الحجرات الآية : ١٥
(٦) صحيح مسلم ـــ كتاب الإيمان ـــ باب الدليل على أن لمن مات على التوحيد دخل الجنة ١ / ٥٦ رقم ٤٤
(٧) صحيح مسلم ـــ كتاب الإيمان ـــ باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة ١ / ٥٧ رقم ٤٥
(٨) صحيح مسلم ـــ كتاب الإيمان ـــ باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة ١ / ٥٩ رقم ٥٢

الشرط الثالث : ـــ

القبول لما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه وقد قص الله ـــ عز وجل ـــ علينا من أنباء ما قد سبق من إنجاء من قبلها وانتقامه ممن ردها وأباها كما قال تعالى : ـــ

﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قل أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾(١)

وقال تعالى : ـــ

﴿ ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننجى المؤمنين ﴾(٢)

ويقول تعالى : ـــ

﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ، ويقولون أئنا لتاركوا إلهتنا لشاعر مجنون ﴾(٣) .

الشرط الرابع : ـــ

الانقياد لما دلت عليه ، المنافى لترك ذلك .

قال تعالى : **﴿ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له ﴾**(٤)

وقال : **﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾**(٥)

وقال : **﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾**(٦) .

وفى الحديث « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »(٧) هذا هو تمام الانقياد وغايته .

وقال تعالى : **﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾**(٨)

---

(١) سورة الزخرف الآيات : ٢٣ ـــ ٢٥
(٢) سورة يونس الآية : ١٠٣
(٣) سورة الصافات : الآيتان : ٣٦ ـــ ٣٧
(٤) سورة الزمر الآية : ٥٤
(٥) سورة النساء الآية : ١٢٥
(٦) سورة لقمان الآية : ٢٢
(٧) شرح السنة للإمام النبوى ١ / ٢١٣ رقم ١٠٤
(٨) سورة النساء الآية : ٦٥

قال ابن كثير ــ رحمه الله ــ فى تفسيرها : يقسم الله تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول فى جميع الأمور فما حكم به فهو الحق الذى يجب الانقياد له باطناً وظاهراً ولهذا قال : ﴿ **ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً** ﴾ أى : إذا حكموك يطيعونك فى بواطنهم فلا يجدون فى أنفسهم حرجاً مما حكمت به وينقادون له فى الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليماً كلياً من غير ممانعة ولا مدافعه ولا منازعة كما ورد فى الحديث « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

الشرط الخامس : ــ

الصدق المنافى للكذب وهو أن يقولها صدقاً من قلب يواطىء قلبه لسانه قال تعالى : ــ

﴿ **آلم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم . فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين** ﴾[1]

وقال تعالى : ــ

﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً . ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون** ﴾[2] .

وفى الصحيحين عن معاذ بن جبل ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ــ ﷺ ــ [ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار][3] .

قال العلامة ابن القيم : « والتصديق بلا إله إلا الله يقتضى الإذعان والإقرار بحقوقها وهى شرائع الإسلام التى هى تفصيل هذه الكلمة بالتصديق بجميع أخباره وامتثال أوامره واجتناب نواهيه فالمصدق بها على الحقيقة هو الذى يأتى بذلك كله ومعلوم أن عصمة المال والدم على الإطلاق لم تحصل إلا بها وبالقيام بحقها وكذلك النجاة من العذاب على الإطلاق لم تحصل إلا بها وبحقها »

---

(١) سورة العنكبوت الآيات : ١ ــ ٣

(٢) سورة البقرة الآيات : ٨ ــ ١٠

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ــ كتاب الإيمان ــ باب من لقى الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار رقم ٢٠

وفى الحديث : قال — ﷺ — : [شفاعتى لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً يصدق قلبه لسانه ولسانه قلبه][(١)] .

وقال ابن رجب : « أما من قال : لا إله إلا الله بلسانه ثم أطاع الشيطان وهواه فى معصية الله ومخالفته فقد كذب فعله قوله ونقص من كمال توحيده بقدر معصية الله فى طاعة الشيطان والهوى .

﴿ **ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله** ﴾[(٢)]

وقال تعالى : ﴿ **ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله** ﴾[(٣)] .

الشرط السادس : —

الإخلاص وهو تصفية العمل بصالح النية من جميع شوائب الشرك قال تعالى : —

﴿ **ألا لله الدين الخالص** ﴾[(٤)]

وقال تعالى : — ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء** ﴾[(٥)] .

وفى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى — ﷺ — « قال أسعد الناس بشفاعتى من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه »[(٦)]

وفى الصحيح عن عتبان بن مالك — رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ — قال : « إن الله حرم على النار من قال : لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله — عز وجل — »[(٧)] .

وللنسائى فى اليوم والليلة من حديث رجلين من الصحابة عن النبى — ﷺ — قال « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير مخلصاً بها قلبه ، يصدق بها لسانه إلا فتق الله لها السماء فتقاً حتى ينظر إلى قائلها من أهل الأرض وحق لعبد نظر الله إليه أن يعطيه سؤاله »[(٨)]

(١) مسند أحمد ٢ / ٣٠٧
(٢) سورة القصص الآية : ٥٠
(٣) سورة ص الآية : ٢٦
(٤) سورة الزمر الآية : ٣
(٥) سورة البينة الآية : ٥
(٦) صحيح البخارى — كتاب الرقاق — باب صفحة الجنة والنار ٨ / ١٤٦
(٧) صحيح البخارى — كتاب الصلاة — باب المساجد بيوت الله ١ /١١٦
(٨) عمل اليوم والليلة للنسائى صفحة ٢٨ رقم ٢٨

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : « إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً . والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة . ولقد ضرب الله سبحانه فى القرآن العظيم مثلاً واضحاً للمخلص فى توحيده وللمشرك قال تعالى :

﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً ﴾(١)

ويقول الأستاذ سيد قطب ــ رحمه الله ــ فى تفسيرها : « هذا مثل يضربه الله للعبد الموحد والعبد المشرك بعبد يملكه شركاء يخاصم بعضهم بعضاً فيه وهو بينهم موزع ولكل منهم فيه توجيه ولكل منهم عليه تكليف وهو بينهم حائر لا يستقر على نهج ولا يستقيم على طريق ولا يملك أن يرضى أهواءهم المتنازعة المتشاكسة . وعبد يملكه سيد واحد وهو يعلم ما يطلبه منه ويكلفه به فهو مستريح مستقر على منهج واحد صريح « هل يستويان » ؟ لا . لأن الذى يخضع لسيد واحد ينعم براحة الاستقامة والمعرفة واليقين وتجمع الطاقة ووحدة الاتجاه ووضوح الطريق والذى يخضع لسادة مشتركين معذب مقلقل لا يستقر على حال ، ولا يرضى واحداً منهم فضلاً عن أن يرضى الجميع . وهذا المثل يصور حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك فى جميع الأحوال فالقلب المؤمن بحقيقة التوحيد هو القلب الذى يسير على هدى من الله يستمد منه وحده ويتجه إليه وحده » .

ويقول الشيخ القاسمى ــ رحمه الله ــ : « إن القصد هو توحيد المعبود فى توحيد الوجهة ودرء الفرقة كما قال تعالى :

﴿ أأرباب متفرقون خيرٌ أم الله الواحد القهار ﴾(٢)

إن الاسلام لابد فيه من الاستسلام لله وحده وترك الاستسلام لما سواه وهذا حقيقة « لا إله إلا الله » فمن أسلم لله ولغير الله فهو مشرك والله لا يغفر أن يشرك به ومن لم يستسلم له فهو مستكبر عن عبادته وقد قال تعالى :

﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾

الشرط السابع : ــ

المحبة لهذه الكلمة ولما اقتضته ودلت عليه ولأهلها العاملين بها الملتزمين بشروطها وبغض ما ناقض ذلك ، قال تعالى : **﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾** . وقال تعالى : **﴿ يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم**

(١) سورة الزمر الآية : ٢٩
(٢) سورة يوسف الآية : ٣٩

ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾[١] .

وفى الحديث : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار »[٢]

قال الشيخ حافظ الحكمى ــ رحمه الله ــ : « وعلامة حب العبد ربه : تقديم محابه إن خالفت هواه وبغض ما يبغض ربه وإن مال إليه هواه وموالاة من والى الله ورسوله . ومعاداة من عاداه واتباع رسوله ــ ﷺ ــ واقتفاء أثره وقبول هداه » .

ويقول ابن القيم فى القونية : ــ

شرط المحبة أن توافق من تحب ... على محبته بلا عصيان
فإذا ادعيت له المحبة مع خلا ... فك ما يحب فأنت ذوى بهتان
أتحب أعداء الحبيب وتدعى ... حباً له ما ذاك فى إمكان
وكذا تعادى جاهداً أحبابه ... أين المحبة يأخا الشيطان
ليس العبادة غير توجيه المحبة ... مع خضوع القلب والأركان

إلى أن يقول :

ولقد رأينا من فريق يدعى الإ ... سلام شركا ظاهر البنيان
جعلوا له شركاء والوهم وس ... وهم به فى الحب لا السلطان

« الولاء والبراء من لوازم لا إله إلا الله »

« لما كان أصل الموالاة : الحب . وأصل المعاداة : البغض . وينشأ عنهما من أعمال القلوب والجوارح ما يدخل فى حقيقة الموالاة والمعاداة كالنصرة والأنس والمعاونة وكالجهاد والهجرة ونحو ذلك » فإن الولاء والبراء من لوازم لا إله إلا الله . وأدلة ذلك كثيرة من الكتاب والسنة .

أما الكتاب فمن ذلك قوله تعالى :

---

(١) سورة المائدة الآية : ٥٤

(٢) صحيح البخارى ــ كتاب الإيمان ــ باب حلاوة الإيمان ١ / ١٢

﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير ﴾(١) .

ويقول تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم . قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾(٢)

ويقول تباركت أسماؤه : عن أهداف أعداء الله : ﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله ﴾(٣) .

ويقول تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾(٤) .

ويقول تعالى :

﴿ يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ﴾(٥) .

أما الأحاديث والآثار : فكثيرة وأذكر منها : —

(١) ما رواه الامام أحمد عن جرير بن عبد الله البجلى أن رسول الله — ﷺ — بايعه على أن « تنصح لكل مسلم وتبرأ من الكافر »(٦) .

(٢) روى ابن شيبة بسنده قال : قال رسول الله — ﷺ — « أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله »(٧) .

(٣) روى الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أن رسول الله — ﷺ — قال : « أوثق عرى الإيمان الموالاة فى الله والمعاداة فى الله والحب فى الله والبغض فى الله »(٨) .

(٤) أخرج ابن جرير ومحمد بن نصر المروزى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : « من أحب فى الله وأبغض فى الله ووالى فى الله وعادى فى الله فإنما تنال ولاية الله بذلك ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك وقد صارت مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدى على أهله شيئاً »

(١) سورة آل عمران الآية : ٢٨
(٢) سورة آل عمران الآيتان : ٣١ ، ٣٢
(٣) سورة النساء الآية : ٨٩
(٤) سورة المائدة الآية : ٥١
(٥) سوزة المائدة الآية : ٥٤
(٦) مسند أحمد ٤ / ٣٥٧
(٧) مصنف ابن أبى شيبة — كتاب الإيمان ١١ / ٤١ رقم ١٠٤٧٠
(٨) الطبرانى الكبير ١١ / ٢١٥ رقم ١١٥٣٧

يقول الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب فى شرح قول ابن عباس هذا : قوله « ووالى فى الله » هذا بيان للازم المحبة فى الله وهو الموالاة فيه ، إشارة إلى أنه لا يكفى فى ذلك مجرد الحب بل لابدفع ذلك من الموالاة التى هى لازم الحب. وهى النصرة والإكرام والاحترام والكون مع المحبوبين باطناً وظاهراً . وقوله « وعادى فى الله » هذا بيان للازم البغض فى الله ، وهو المعاداة فيه . أى : إظهار العداوة بالفعل كالجهاد لأعداء الله والبراء منهم والبعد عنهم باطناً وظاهراً إشارة إلى أنه لا يكفى مجرد بغض القلب بل لابد مع ذلك من الإتيان بلازمه كما قال تعالى :

﴿ **قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاؤ منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدأ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده** ﴾(١)

قلت : ومما سبق يتضح أن الولاء فى الله هو : محبة الله ونصرة دينه ومحبة أوليائه ونصرتهم . والبراء هو : بغض أعداء الله ومجاهدتهم وعلى ذلك جاءت تسمية الشارع الحكيم للفريق الأول بـ : (أولياء الله) والفريق الثانى بـ : (أولياء الشيطان) قال تعالى : —

﴿ **الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾(٢) .

وقال تعالى :

﴿ **الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً** ﴾(٣) . وأعلم أن الله سبحانه لم يبعث نبياً بهذا التوحيد إلا جعل له أعداء كما قال تعالى : ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً** ﴾(٤) .

﴿ **فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون** ﴾(٥) .

والواجب على المسلم أن يتكلم من دين الله ما يصير له سلاحاً يقاتل به هؤلاء الشياطين ومن ثم لا خوف ولا حزن لأن : ﴿ **كيد الشيطان كان ضعيفاً** ﴾ والعامى من الموحدين يغلب الألف من علماء المشركين كما قال تعالى : ﴿ **وإن جندنا لهم الغالبون** ﴾(٦) .

---

(١) سورة الممتحنة الآية : ٤
(٢) سورة البقرة الآية : ٢٥٧
(٣) سورة النساء الآية : ٧٦
(٤) سورة الأنعام الآية : ١١٢
(٥) سورة غافر الآية : ٨٣
(٦) سورة الصافات الآية : ١٧٣

فجند الله هم الغالبون بالحجة واللسان كما أنهم الغالبون بالسيف والسنان وإذا كانت أهداف أعداء الإسلام من ملحدين ويهود ونصارى ومستغربين وصهيونية عالمية وشيوعية عالمية هى تمييع عقيدة المسلمين وتذويب شخصيتهم المتفردة لجعلهم جمداً للشعب المختار كما تنص على ذلك بروتوكولات حكماء صهيون . فإنه يتضح لدى المسلم أهمية هذا الموضوع حتى يحذر هو ومن معه بل يحذر المسلمون عامة من الانزلاق فى مهاوى الروى خاصة وإن الدعوات المشبوهة الملحدة تدعو إلى ما يسمى بالأخوة والمساواة وإن الدين لله والوطن للجميع

فبان بهذه الأدلة الواضحة من الكتاب والسنة أن الولاء والبراء من لوازم « لا إله إلا الله » وهو أيضاً تحقيق معناها كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله — « أن تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله يقتضى أن لا يحب إلا لله ولا يبغض إلا لله ولا يوالى إلا لله ولا يعادى إلا لله وأن يحب ما أحبه الله ويبغض ما أبغضه الله » ويوالى المؤمنين فى أى مكان خلوا ويعادى الكافرين ولو كانوا أقرب قريب .

الرد على من زعم أن كلمة التوحيد لفظ فقط مع بيان المذهب الصحيح فى الأحاديث الواردة **بخصوصها** .

يقول العلامة ابن القيم — رحمه الله — : « ليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه : لا خالق إلا الله وأن الله رب كل شىء ومليكه كما كان عباد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون . بل التوحيد يتضمن من محبة الله والخضوع له والذل له وكمال الانقياد لطاعته وإخلاص العبادة له وإرادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال والمنع والعطاء والحب والبغض ما يحول بين صاحبه وبين الأقوال والأعمال والمنع والعطاء والحب والبغض ما يحول بين صاحب وبين الأسباب الداعية إلى المعاصى والإصرار عليها ومن عرف هذا عرف قول النبى — ﷺ — « إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله »[1] .

وقوله : ﴿ **يخرج من النار من قال لا إله إلا الله** ﴾[2] .

وما جاء من هذا الضرب من الأحاديث ، التى أشكلت على كثير من الناس حتى ظنها بعضهم

(١) صحيح البخارى — كتاب الجمعة — باب صلاة النوافل جماعة ٢ / ٧٥
(٢) صحيح البخارى — كتاب الإيمان — باب زيادة الإيمان ونقصه ١ /١٨
وصحيح مسلم — كتاب الإيمان — باب أدنى أهل الجنة منزلة ١ / ١٨٢ رقم ٣٢٥

منسوخة وظنها بعضهم قيلت قبل ورود الأوامر والنواهى واستقرار الشرع وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار وأول بعضهم الدخول بالخلود وقال : المعنى لا يدخلها خالداً ، ونحو ذلك من التأويلات المستكرهه . فإن الشارع صلوات الله وسلامه عليه لم يجعل ذلك حاصلاً بمجرد قول اللسان فقط فإن هذا خلاف المعلوم بالضرورة من دين الإسلام ، لأن المنافقين يقولونها بألسنتهم وهم تحت الجاحدين لها فى الدرك الأسفل من النار .

بل لابد من قول القلب ، وقول اللسان .

وقول القلب : يتضمن من معرفتها والتصديق بها ومعرفة حقيقة ما تضمنته من النفى والإثبات ومعرفة حقيقة الإلهية المنفعية عن غير الله المختصة به التى يستحيل ثبوتها لغيره وقيام هذا المعنى بالقلب علماً ومعرفة ويقيناً وحالاً : ما يوجب تحريم قائلها على النار .

وتأمل حديث البطاقة التى توضع فى كفه ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً ، كل سجل منها مد البصر فتثقل البطاقة وتطيش السجلات فلا يعذب صاحبها ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة ولكن السر الذى ثقل بطاقة ذلك الرجل هو أنه حصل له ما لم يحصل لغيره من أرباب البطاقات .

وتأمل أيضاً ما قام بقلب قاتل المائة من حقائق الإيمان التى لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية فجعل ينوء بصدره ويعالج سكرات الموت ، لأن ذلك كان أمراً آخراً ، وإيمانا آخر ولذلك الحق بأهل القرية الصالحة ، وقريب من هذا ما قام بقلب البغى التى رأت ذلك الكلب وقد اشتد به العطش ، يأكل الثرى فقام بقلبها ذلك الوقت ــ مع عدم الآلة وعدم المعين وعدم من ترائيه بعملها . وملء الماء فى خفها ولم تعبأ بتعرضها للتلف وحملها خفها بغيها وهو ملآن حتى أمكنها الرقى من البئر ثم تواضعها لهذا المخلوق الذى جرت عادة الناس بضربه ، فأمسكت له الخف بيدها حتى شرب من غير أن ترجو منه جزاء ولا شكوراً ، فأحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء فغفر لها »

وقد ورد فى صحيح مسلم قوله ــ ﷺ ــ « من قال : لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله ، حرم ماله ودمه وحسابه على الله »(١) .

يقول محمد بن عبد الوهاب ــ رحمه الله ــ : وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال بل ولا معرفة معناها مع لفظها ، بل ولا الإقرار بذلك بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له ، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من

(١) صحيح مسلم ــ كتاب الإيمان باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ١ /٥٣ رقم ٣٧

دون الله فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه . ومن هنا نعلم فساد عقيدة المرجئة : الذين يقولون : إن الإيمان هو المعرفة فقط والكفر هو الجهل فقط وأخروا العمل عن الإيمان .

ومن المعلوم أن كفار مكة قد علموا مراد النبى — ﷺ — من كلمة لا إله إلا الله فأبوا واستكبروا ولم يكن ينفعهم إيمانهم بأن الله واحد رازق محى مميت . ولما قال لهم النبى ﷺ — قولوا : لا إله إلا الله قالوا :

﴿ أجعل الألهة إلهاً واحداً إن هذا لشىء عجاب ﴾ ٥ سورة ص

« فإذا عرفت أن جهال الكفار يعرفون ذلك ، فالعجب ممن يدعى الإسلام وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرفه جهال الكفار ، بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب بشىء من المعانى ، والحاذق من يظن أن معناها : لا يخلق ولا يرزق ولا يحيى ولا يميت ولا يدبر الأمر كله إلا الله ، فلا خير فى رجل جهال الكفار أعلم منه بمعنى لا إله إلا الله » . ويتابع الإمام محمد بن عبد الوهاب رده عليهم فيقول : وهنا شبهة ، وهى قول من يقول : أن النبى — ﷺ — أنكر على أسامة قتل من قال : « لا إله إلا الله وكذلك قوله — ﷺ — : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله »[1] . وأحاديث أخر فى الكف عمن قالها .

ومراد هؤلاء الجهلة : أن من قالها لا يكفر ، ولا يقتل ولو فعل ما فعل . فيقال لهؤلاء المشركين الجهال : معلوم أن رسول الله — ﷺ — قاتل اليهود وسباهم وهم يقولون : لا إله إلا الله » وأن أصحاب رسول الله — ﷺ — قاتلوا بنى حنيفة وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويصلون ويدّعون الإسلام ، وكذلك الذين حرقهم على بن أبى طالب بالنار (هم الغلاة الذين ادعوا ألوهية علىّ — رضى الله عنه —) وهؤلاء الجهلة مقرون أن من أنكر البعث كفر وقتل ولو قال لا إله إلا الله ، وأن من جحد شيئاً من أركان الإسلام كفر وقتل ولو قالها .

فكيف لا تنفعه إذا جحد فرعاً من الفروع وتنفعه إذا جحد التوحيد الذى هو أصل دين الرسل ورأسه ؟ !

ولكن أعداء الله ما فهموا معنى الأحاديث . فمعلوم أن الرجل إذا أظهر الإسلام وجب الكف

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الإيمان — باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله رقم ١٣

عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك كما قال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا** ﴾ ٩٤ **النساء أى فتثبتوا . فدلت الآية على وجوب الكف حتى يثبت منه ، فإذا تبين منه بعد ذلك ما يخالف الإسلام قتل لقوله تعالى :** ﴿ **فتبينوا** ﴾ ولو كان لا يقتل إذا قالها لم يكن للتثبت معنى .

وأيضاً أمره ــ ﷺ ــ بقتل الخوارج ﴿ **أينما لقيتموهم فاقتلوهم لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد** ﴾[1] . مع كونهم من أكثر الناس عبادة وتهليلاً وتسبيحاً ، حتى أن الصحابة يحقرون صلاتهم عندهم . وقد تعلموا العلم من الصحابة ، فلم تنفعهم « لا إله إلا الله » ولا كثرة العبادة ولا إدعاء الإسلام لما ظهر منهم مخالفة الشريعة .

ويعلم كل ذى لب أنها لو كانت كلمة ــ مجرد كلمة ــ لكان أمرها على قريش سهلاً فتنطقها وتتخلص من هذا العناء وتسفيه الآلهة . ولكنها تعلم أن هذه الكلمة لها مدلولها الذى يغير أوضاع قريش الجاهلية ولها مقتضياتها التى تحطم طغيان قريش واستعبادها للناس . ولها أهميتها فى تحرير الناس من عبودية بعضهم لبعض إلى عبودية الواحد القهار وجعل التقوى هى الميزان والفخار الذى ينشده الناس ، وليس العادات والتقاليد الجاهلية التى توارثها الأبناء عن الآباء والأجداد .

فحرى بكل مسلم جاد فى إسلامه أن يقدر لهذه الكلمة قدرها حتى يكون ممن عبد الله على بصيرة وعلم ويقين .

آثار الإقرار بلا إله إلا الله فى حياة الإنسان

ذكر الأستاذ المودودى ــ رحمه الله ــ فى كتابه القيّم « مبادىء الإسلام » تسعة آثار لكلمة التوحيد أذكر ملخصها فيما يلى :

(١) إن المؤمن بهذه الكلمة لا يكون ضيق النظر ، بخلاف من يقول بآلهة متعددة . أو من يجحدها .

(٢) إن الإيمان بهذه الكلمة ينشىء فى النفس من الأنفة وعزة النفس ما لا يقوم دونه شىء ، لأنه لا نافع إلا الله ولا ضار إلا الله ، وهو المحيى المميت . وهو صاحب الحكم والسلطة والسيادة . ومن ثم ينزع من القلب كل خوف إلا منه سبحانه ، فلا يطأطىء الرأس أمام أحد من الخلق ، ولا يتضرع إليه ولا يتكفف له ، ولا يرتعب من كبريائه وعظمته . لأن الله هو العظيم القادر . وهذا بخلاف المشرك والكافر والملحد .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ــ كتاب الزكاة ــ باب ذكر الخوارج وصفاتهم رقم ٦٣٩

(٣) ينشأ من الإيمان بهذه الكلمة مع أنفة النفس وعزتها : تواضع من غير ذل وترفع من غير كبر ، فلا يكاد ينفخ أوداجه شيطان الغرور ويزهيه بقوته وكفاءته لأنه يعلم ويستيقن أن الله الذى وهبه كل ما عنده قادر على سلبه إياه إذا شاء . أما الملحد فإنه يتكبر ويبطر إذا حصلت له نعمة عاجلة .

(٤) المؤمن بهذه الكلمة : يعلم علم اليقين أنه لا سبيل إلى النجاة والفلاح إلا بتزكية النفس والعمل الصالح . أما المشركون والكفار فإنهم يقضون حياتهم على أمانى كاذبة . فمنهم من يقول : إن ابن الله قد أصبح كفارة عن ذنوبنا ، عند أبيه ، ومنهم من يقول : نحن أبناء الله وأحباؤه فلن يعذبنا بذنوبنا . ومنهم من يقول : إننا سنستشفع عند الله بكبرائنا وأتقيائنا ، ومنهم من يقدم النذور والقرابين إلى آلهته زاعماً أنه قد نال بذلك رخصة فى العمل بما يشاء . أما الملحد الذى لا يؤمن بالله فيعتقد أنه حر فى هذه الدنيا غير مقيد بشرع الله وإنما إلهه هواه وشهوته وهو عبدهما .

(٥) قائل هذه فى الدنيا لا يتسرب إليه اليأس . ولا يقعد به القنوط ، لأنه يؤمن أن الله له خزائن السموات والأرض . ومن ثم فهو على طمأنينة وسكينة وأمل ، حتى ولو طرد وأهين وضاقت عليه سبل العيش .

إن عين الله لا تغفل عنه ولا تسلمه إلى نفسه ، وهو يبذل جهده متوكلاً على الله ، بخلاف الكفار الذين يعتمدون على قواهم المحدودة ، وسرعان ما يدب له اليأس ، ويساورهم القنوط عند الشدائد مما يفضى بهم أحياناً إلى الانتحار .

(٦) الإيمان بهذه الكلمة يربى الإنسان على قوة عظيمة من العزم والإقدام والصبر والثبات والتوكل حينما يضطلع بمعالى الأمور ابتغاء مرضاة ا لله . إنه يشعر أن وراءه قوة مالك السماء والأرض . فيكون ثباته ورسوخه وصلابته التى يستمدها من هذا التصور ، كالجبال الراسية وأبى للكفر والشرك بمثل هذه القوة والثبات ؟

(٧) هذه الكلمة تشجع الإنسان وتملأ قلبه جرأة ، لأن الذى يُجبن الإنسان ويوهن عزمه شيئان : حبه للنفس والمال والأهل ، أو اعتقاده أن هناك أحداً غير الله يميت الإنسان ، فإيمان المرء بلا إله إلا الله ينزع عن قلبه كلاً من هذين السببين ، فيجعله موقناً أن الله هو المالك الوحيد لنفسه وماله فعند ذلك يضحى فى سبيل مرضاة ربه بكل غال ورخيص عنده . وينزع الثانى بأن يلقى فى روعه أنه لا يقدر على سلب الحياة منه إنسان ولا حيوان ولا قنبلة ولا مدفع ، ولا سيف ولا حجر وإنما يقدر على ذلك الله وحده .

من أجل ذلك لا يكون فى الدنيا أشجع ولا أجرأ ممن يؤمن بالله تعالى ، فلا يكاد يخيفه أو يثبت فى وجهه زحف الجيوش ، ولا السيوف المسلولة ، ولا مطر فهذا كفر عمل . وكذلك قوله : (من

أتى كاهناً فصدقه بما يقول أو أتى امرأته فى دبرها فقد برئ مما أنزل على محمد)[1] **وقوله : (إذا قال الرجل لأخيه : يا كافر فقد باء بها أحدهما)**[2] .

« وقد سمى الله ــ سبحانه وتعالى ــ من عمل ببعض كتابه ، وترك العمل ببعضه مؤمناً بما عمل به وكافراً بما ترك العمل به فقال تعالى :

﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون . ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون ﴾ ٨٤ ــ ٨٥ سورة البقرة .

فأخبر سبحانه أنهم أقروا بميثاقه الذى أمرهم به والتزموه ، وهذا يدل على تصديقهم به أنهم لا يقتل بعضهم بعضاً ، ولا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم ، ثم أخبر أنهم عصوا أمره ، وقتل فريق منهم فريقاً وأخرجوهم من ديارهم ، فهذا كفرهم بما أخذ عليهم فى الكتاب . ثم أخبر أنهم يفدون من أسر من ذلك الفريق ، وهذا إيمان منهم بما أخذ عليهم فى الكتاب ، فكانوا مؤمنين بما عملوا به من الميثاق ، كافرين بما تركوه منه . « فالإيمان العملى يضاده الكفر العملى والإيمان الاعتقادى يضاده الكفر الاعتقادى . وقد أعلن النبى ــ ﷺ ــ بما قلناه فى قوله فى الحديث الصحيح « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر »[3] ففرق بين قتاله وسبابه وجعل أحدهما فسوقاً لا يكفر به والآخر كفراً ومعلوم إنما أراد الكفر العملى لا الاعتقادى وهذا الكفر لا يخرجه من الدائرة الإسلامية والملة بالكلية كما لا يخرج الزانى والسارق والشارب من الملة وإن زال عنه اسم الإيمان .

« وهذا التفصيل هو قول الصحابة الذين هم أعلم الأمة بكتاب الله وبالإسلام والكفر ولوازمهما فلا تتلقى هذه المسائل إلا منهم فإن المتأخرين لم يفهموا مرادهم فانقسموا فريقين : فريقاً أخرجوا من الملة بالكبائر وقضوا على أصحابها بالخلود فى النار وفريقاً جعلوهم مؤمنين كاملى الإيمان فهؤلاء غلوا وهؤلاء جفوا . وهدى الله أهل السنة للطريقة المثلى والقول الوسط الذى هو فى المذاهب كالإسلام فى الملل . فها هنا كفر دون كفر ونفاق دون نفاق وشرك دون شرك . وفسوق دون فسوق ، وظلم دون

---

(١) سنن أبى داود ــ كتاب الطب ــ باب فى الكاهن ٤ / ٢٢٥ رقم ٣٩٠٤ والترمذى فى الطهارة رقم ١٣٥ وابن ماجه فى الطهارة رقم ٦٣٩

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ــ كتاب الإيمان ــ باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم يا كافر رقم ٣٩

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ــ كتاب الإيمان ــ باب بيان قول النبى ــ ﷺ ــ باب المسلم فسوق وقتاله كفر رقم ٤٣

ظلم . قال سفيان بن عينية : عن هشام بن حجير عن طاووس عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ .

الرصاصات والقنابل فإنه عندما يتقدم فى سبيل الله للجهاد ، يهزم قوة تزيد على قوته بعشر مرات وأنى بمثل هذا للمشركين والكفار والملحدين ؟

(٨) الإيمان بلا إله إلا الله يرفع قدر الإنسان وينشىء فيه الترفع والقناعة والاستغناء ويطهر قلبه من أوساخ الطمع والشره والحسد والدناءة واللؤم وغيرها من الصفحات القبيحة .

(٩) وأهم شيء وأجدره فى هذا الصدد : أن الإيمان بـ « لا إله إلا الله » يجعل الإنسان متقيدا بشرع الله ومحافظا عليه فإن المؤمن يعتقد بتعين أن الله خبير بكل شيء وهو أقرب إليه من حبل الوريد وأنه اذا كان يستطيع أن يفلت من بطش أى كان فإنه لا يستطيع أن يفلت من الله ـ عز وجل ـ .

وعلى قدر ما يكون هذا الإيمان راسخاً فى ذهن الإنسان يكون متبعاً لأحكام الله قائماً عند حدوده لا يجرؤ على اقتراف ما حرم الله ويسارع إلى الخيرات والعمل بما أمر الله . ومن أجل ذلك جُعل بلا إله إلا الله أول ركن وأهمه ليكون الإنسان مسلماً والمسلم هو : العبد المطيع المنقاد لله تعالى ولا يكون كذلك إلا إذا كان مؤمناً من قلبه بأن لا إله إلا الله . وهذا هو أصل الإسلام ومصدر قوته وكل ما عداه من معتقدات الإسلام وأحكامه إنما هى مبنية عليه ولا تستمد قوتها إلا منه والإسلام لا يعى منه شيء لو زال هذا الأساس .

ومن فضائلها ما ذكره ابن رجب حيث أورد قول سفيان بن عينية : ما أنعم الله على عبد من العباد نعمة أعظم من أن عرفهم لا إله إلا الله وأن لا إله إلا الله لأهل الجنة كالماء البارد لأهل الدنيا ولأجلها أعدت دار الثواب ودار العقاب ولأجلها أمرت الرسل بالجهاد فمن قالها عصم ماله ودمه ، ومن أباها فماله ودمه اهدر ، وهى مفتاح الجنة ومفتاح دعوة الرسل . ولو أردت أن أذكر ما أورده العلماء ــ رحمهم الله تعالى ــ حول فضلها وما فى ذلك من الأحاديث النبوية وآثار السلف لطال المقام .

نواقض « لا إله إلا الله »

« حرص الإسلام على بيان حقيقته وحقيقة ما يناقضه »

سبق الكلام على مفهوم « لا إله إلا الله » وشروطها ، وحقيقتها وآثارها . وهنا أذكر نواقضها ، من أجل أن تتضح معالم الصورة الكاملة لحقيقة « لا إله إلا الله » ذلك أن معرفة الضد يميز الشيء المراد إيضاحه . كما قيل : « وبضدها تتميز الأشياء » . ومعلوم أن الكفر والشرك والنفاق والردة هى

نواقض الإسلام ، بشتى صورها ، وقبل إيراد ذلك ، لابد من أن نورد ــ قاعدة جليلة لأهل السنة والجماعة ، بها تنضبط المسائل أصولاً وفروعاً . وسيتضح من خلال هذه القاعدة الرد على فرقة المرجئة ، الذين ميعوا وضيعوا مفهوم هذه العقيدة . والرد أيضاً على الخوارج الذين غلوا وحادوا عن الصراط ودين الإسلام وسط بين الإفراط والتفريط .

وقد كثر كلام الناس حول هذا فى القديم والحديث ولكل وجهة هو موليها . بيد أنى وجدت للعلامة ابن القيم كلاماً قيماً فى هذا الموضوع ــ وهى القاعدة التى أشرت إليها آنفاً . قال رحمه الله فى كتاب الصلاة :

« الكفر والإيمان متقابلان ، إذا زال أحدهما خلفه الآخر . ولما كان الإيمان أصلاً له شعب متعددة ، وكل شعبة منها تسمى إيماناً : فالصلاة من الإيمان ، وكذلك الحج والزكاة والصيام ، والأعمال الباطنة كالحياء والتوكل ، والخشية من الله والإنابة إليه ، حتى تنتهى هذه الشعب إلى إماطة الأذى عن الطريق فإنه شعبة من شعب الإيمان .

وهذه الشعب منها ما يزول الإيمان بزوالها كشعبة الشهادة . ومنها ما لا يزول بزوالها كترك إماطة الأذى عن الطريق . وبينهما شعب متفاوتة تفاوتاً عظيماً . منها ما يلحق بشعبة الشهادة ويكون إليها أقرب ، ومنها ما يلحق بشعبة إماطة الأذى ويكون إليها أقرب . وكذلك الكفر ذو أصل وشعب ، فكما أن شعب الإيمان إيمان ، فشعب الكفر كفر . والحياء شعبة من الإيمان ، وقلة الحياء شعبة من شعب الكفر . والصدق شعبة من شعب الإيمان ، والكذب شعبة من شعب الكفر ، والصلاة والزكاة والحج والصيام من شعب الإيمان وتركها من شعب الكفر . والحكم بما أنزل الله من شعب الإيمان ، والحكم بغير ما أنزل الله من شعب الكفر ، والمعاصى كلها من شعب الكفر كما أن الطاعات كلها من شعب الإيمان . « وشعب الإيمان قسمان : قولية وفعلية ، وكذلك شعب الكفر نوعان : قولية وفعلية . ومن شعب الإيمان القولية شعب يوجب زوالها زوال الإيمان ، فكذلك من شعبه الفعلية ما يوجب زوالها زوال الإيمان ، وكذلك شعب الكفر القولية والفعلية . فكما يكفر بالإتيان بكلمة الكفر اختياراً ــ وهى شعبة من شعب الكفر ــ فكذلك يكفر بفعل شعبة من شعبه كالسجود للصنم ، والاستهانة بالمصحف ، فهذا أصل » .

« وهاهنا أصل آخر : وهو أن حقيقة الإيمان مركبة من قول وعمل ، والقول قسمان : قول القلب : وهو الاعتقاد . وقول اللسان : وهو التكلم بكلمة الإسلام .

والعمل قسمان : عمل القلب ، وهو نيته وإخلاصه ، وعمل الجوارح . فإذا زالت هذه الأربعة

زال الإيمان بكماله . وإذا زال تصديق القلب لم تنفع بقية الأجزاء ، فإن تصديق القلب شرط فى اعتقادها وكونها نافعة ، وإذا زال عمل القلب مع اعتقاد الصدق : فهذا موضع المعركة بين المرجئة وأهل السنة . فأهل السنة : مجمعون على زوال الإيمان ، وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب وهو محبته وانقياده ، كما لم ينفع إبليس وفرعون وقومه واليهود والمشركين الذين كانوا يعتقدون صدق الرسول ، بل ويقرون به سراً وجهراً ويقولون : ليس بكاذب ولكن لا نتبعه ولا نؤمن به .

« وإذا كان الإيمان يزول بزوال عمل القلب ، فغير مستنكر أن يزول بزوال أعظم أعمال الجوارح ولا سيما إذا كان ملزوماً لعدم محبة القلب وانقياده ، الذى هو ملزوم لعدم التصديق الجازم كما تقدم تقريره ، فإنه يلزم من عدم طاعة القلب عدم طاعة الجوارح ، إذ لو أطاع القلب وانقاد ، أطاعت الجوارح وانقادت ، ويلزم من عدم طاعته وانقياده عدم التصديق المستلزم للطاعة ، وهو حقيقة الإيمان . فإن الإيمان ليس مجرد التصديق ، وإنما هو التصديق المستلزم للطاعة والانقياد . وهكذا الهدى ليس هو مجرد معرفة الحق وتبينيه ، بل هو معرفته المستلزمه لاتباعه والعمل بموجبه ، وإن سمى الأول هدى فليس هو الهدى التام المستلزم للاهتداء ، كما أن اعتقاد التصديق وإن سمى تصديقاً — فليس هو التصديق المستلزم للإيمان . فعليك بمراجعة هذا الأصل ومراعاته .

« وهاهنا أصل آخر : وهو أن الكفر نوعان : كفر عمل ، وكفر جحود وعناد ، فكفر الجحود : أن يكفر بما علم أن الرسول جاء به من عند الله جحوداً وعناداً ، من أسماء الرب وصفاته وأفعاله وأحكامه . وهذا الكفر يضاد الإيمان من كل وجه . وأما كفر العمل : فينقسم إلى ما يضاد الإيمان ، وإلى ما لا يضاده . فالسجود للصنم ، والاستهانة بالمصحف ، وقتل النبى وسبه يضاد الإيمان .

وأما الحكم بغير ما أنزل الله ، وترك الصلاة فهو من الكفر العملى قطعاً ولا يمكن أن ينفى عنه اسم الكفر بعد أن أطلقه الله ورسوله عليه . فالحاكم بغير ما أنزل الله كافر وتارك الصلاة كافر بنص رسول الله — ﷺ — ولكن هو كفر عمل لا كفر اعتقاد . ومن الممتنع أن يسمى الله — سبحانه الحاكم بغير ما أنزل الله كافراً ، ويسمى رسول الله — ﷺ — تارك الصلاة كافراً ، ولا يطلق عليهما اسم الكفر . وقد نفى رسول الله — ﷺ — عن الزانى والسارق وشارب الخمر ، وعمن لا يأمن من جاره بوائقه . وإذا نفى عنه اسم الإيمان فهو كافر من جهة العمل ، وانتفى عنه كفر الجحود والاعتقاد . »

« وكذلك قوله : ﴿ **لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض** ﴾[1] قال : هو بهم

---

(١) صحيح مسلم — كتاب الإيمان — باب بيان معنى تحول النبى — ﷺ — : لأرجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ١ /٨٢ رقم ١٢٠

الكفر ، وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وقال فى رواية أخرى عنه : كفر لا ينقل عن الملة . وقال طاووس : ليس بكفر ينقل عن الملة... وقال وكيع بن سفيان عن ابن جريج عن عطاء : كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق وهذا الذى قاله عطاء بين فى القرآن لمن فهمه ، **فإن الله سبحانه سمى الحاكم بغير ما أنزل كافراً ، وسمى جاحد ما أنزله على رسوله كافراً . وليس الكافران على حد سواء .**

﴿ **والكافرون هم الظالمون** ﴾ ٢٥٤ البقرة

وسمى متعدى حدوده فى النكاح والطلاق والرجعة والخلع ظالماً فقال :

﴿ **ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه** ﴾ ١ الطلاق

وقال نبيه يونس :

﴿ **لا إله إلا انت سبحانك إنى كنت من الظالمين** ﴾ ٨٧ الأنبياء

وقال صفيه آدم :

﴿ **ربنا ظلمنا أنفسنا** ﴾ ٢٣ الأعراف .

وقال كليمه موسى :

﴿ **رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى** ﴾ ١٦ القصص

وليس هذا الظلم مثل ذلك الظلم .

ويسمى الكافر فاسقاً : كما فى قوله :

﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه** ﴾ ٢٦ — ٢٧ البقرة

وقال :

﴿ **ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون** ﴾ ٩٩ البقرة

وهذا كثير فى القرآن . ويسمى المؤمن فاسقاً كما فى قوله تعالى :

﴿ **يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين** ﴾ ٦ الحجرات

نزلت فى الحكم بن أبى العاص. وليس الفاسق كالفاسق . وقال تعالى : ﴿ **والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون** ﴾ ٤ النور

وقال عن إبليس :

﴿ **ففسق عن أمر به** ﴾ ٥٠ الكهف

وقال :

﴿ **فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق** ﴾ ١٩٧ البقرة

وليس الفسوق كالفسوق .

والكفر كفران ، والظلم ظلمان ، والفسق فسقان ، وكذا الجهل جهلان : جهل كفر كما فى قوله تعالى :

﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ ١٩٩ الأعراف

وجهل غير كفر كقوله تعالى :

﴿ **إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب** ﴾ ١٧ النساء

وكذلك الشرك شركان : شرك ينقل عن الملة وهو الشرك الأكبر ، وشرك لا ينقل عن الملة وهو الشرك الأصغر ، وهو شرك العمل كالرياء . قال تعالى فى الشرك الأكبر :

﴿ **إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار** ﴾ ٧٢ المائدة

وقال :

﴿ **ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق** ﴾ ٣١ الحج

وفى شرك الرياء :

﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً** ﴾ ١١٠ الكهف

ومن هذا الشرك الأصغر قوله ــ ﷺ ــ : « من حلف بغير الله فقد أشرك »[1] رواه أبو داود وغيره . ومعلوم أن حلفه بغير الله لا يخرجه عن الملة ، ولا يوجب له حكم الكفار . ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم : « الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل »[1] .

فانظر كيف انقسم الشرك والكفر والفسوق والظلم والجهل إلى ما هو كفر ينقل عن الملة ، وإلى ما لاينقل عنها . وكذا النفاق نفاقان : نفاق اعتقاد ، ونفاق عمل ، فنفاق الاعتقاد : هو الذى أنكره الله على المنافقين فى القرآن وأوجب لهم الدرك الأسفل من النار .

« ونفاق عمل كقوله ــ ﷺ ــ فى الحديث الصحيح : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان »[2] . وفى الصحيح أيضاً : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن ، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر ، وإذا أؤتمن خان[3] . فهذا نفاق عمل ، قد يجتمع مع أصل الإيمان ، ولكن إذا استحكم وكمل فقد ينسلخ صاحبه عن الإسلام بالكلية ، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم ، فإن الإيمان ينهى المؤمن عن هذه الخلال ، فإذا كملت فى العبد ولم يكن له ما ينهاه عن شىء منها فهذا لا يكون إلا منافقاً خالصاً .

---

(١) سنن أبى داود ــ كتاب الإيمان والنذور ــ باب فى كراهية الحلف بالآباء ٣ / ٥٧٠ رقم ٣٢٥١ وسنن الترمذى ــ كتاب النذور ــ باب كراهية الحلف بغير الله تعالى ٤ /١١٠ رقم ١٥٣٥

(٢) مسند أحمد ٤ / ٤٠٣

(٣) صحيح مسلم ــ كتاب الإيمان ــ باب بيان خصل المنافق ١ /٧٨ رقم ١٠٧

« وكلام الإمام أحمد يدل على هذا ، فإن اسماعيل بن سعيد الشالنجى قال : سألت أحمد بن حنبل عن المصر على الكبائر يطلبها بجهده ، إلا أنه لم يترك الصلاة والزكاة والصوم ، هل يكون مصراً من كانت هذه حاله ؟ قال : هو مصر مثل قوله : **﴿ لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ﴾** ، يخرج من الإيمان ويقع فى الإسلام ، ونحو قوله : **﴿لا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ﴾**[1] . ونحو قول ابن عباس فى قوله :

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ ٤٤ المائدة

قال اسماعيل : فقلت له ما هذا الكفر ؟ قال : لا ينقل عن الملة ، مثل الإيمان بعضه دون بعض ، فكذلك **الكفر حتى يجىء من ذلك أمر لا يختلف فيه .**

« وهاهنا أصل آخر : وهو أن الرجل قد يجتمع فيه كفر وإيمان ، وشرك وتوحيد وتقوى وفجور ، ونفاق وإيمان . وهذا من أعظم أصول أهل السنة ، وخالفهم فيه غيرهم من أهل البدع كالخوارج والمعتزلة والقدرية .

« ومسألة خروج أهل الكبائر من النار وتخليدهم فيها مبنية على هذا الأصل ، وقد دل عليه القرآن والسنة والفطرة وإجماع الصحابة . قال تعالى : **﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾**١٠٦ يوسف .

فأثبت لهم إيماناً به سبحانه مع الشرك ، وقال تعالى :

﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم ﴾ ١٤ الحجرات

فأثبت لهم إسلاماً وطاعة لله ورسوله مع نفى الإيمان عنهم وهو الإيمان المطلق الذى يستحق اسمه بمطلقه . **﴿ الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ﴾**١٥ الحجرات .

وهؤلاء ليسوا منافقين فى أصح القولين ، بل هم مسلمون بما معهم من طاعة الله ورسوله ، وليسوا مؤمنين . وإن كان معهم جزء من الإيمان أخرجهم من الكفار .

« قال الإمام أحمد : من أتى هذه الأربعة أو **مثلهن** أو فوقهن ــ يريد الزنا والسرقة وشرب الخمر والانتهاب ــ فهو مسلم ولا اسميه مؤمناً ، ومن أتى دون ذلك ــ يريد دون الكبائر ــ سميته مؤمناً

---

(١) صحيح مسلم ــ كتاب الإيمان ــ باب خصال المنافق ١ /٧٨ رقم ١٠٦
اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ــ كتاب الإيمان ــ باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصى رقم ٣٦

ناقص الإيمان ، فقد دل على هذا قوله صلى الله عليه وسلم : « فمن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة منْ النفاق » . فدل على أنه يجتمع فى الرجل نفاق وإسلام . كذلك الرياء شرك ، فإذا راءى الرجل فى شيء من عمله إجتمع فيه الشرك والإسلام .

« وإذا حكم بغير ما أنزل الله ، أو فعل ما سماه رسول الله — ﷺ — كفراً ، وهو ملتزم للإسلام وشرائعه فقد قام به كفر وإسلام .

وقد بينا أن المعاصى كلها شعب من شعب الكفر ، كما أن الطاعات كلها شعب من شعب الإيمان فالعبد تقوم به شعبة أو أكثر من شعب الإيمان ، وقد يسمى بتلك الشعبة مؤمناً ، وقد لا يسمى . كما أنه قد يسمى بشعبة من شعب الكفر كافراً ، وقد لا يطلق عليه هذا الإسلام . فهى هنا أمران : أمر إسمى لفظى ، وأمر معنوى حكمى .

فالمعنوى : هل هذه الخصلة كفر أم لا ؟ واللفظى : هل يسمى **من قام به** كافراً أم لا ؟

فالأمر الأول : شرعى محض ، والثانى لغوى وشرعى .

« وهاهنا أصل آخر : وهو أنه لا يلزم من قيام شعبة من شعب الإيمان بالعبد أن يسمى مؤمناً وإن كان ما قام به إيماناً ، ولا من قيام شعبة من شعب الكفر به أن يسمى كافراً ، وإن كان ما قام به كفراً . كما أنه لا يلزم من قيام جزء من أجزاء العلم به أن يسمى عالماً : ولا من معرفة بعْض مسائل الفقه والطب أن يسمى فقيهاً ولا طبيباً ، ولا يمنع ذلك أن تسمى شعبة الإيمان إيماناً ، وشعبة النفاق **نفاقاً ، وشعبة الكفر كفراً . وقد يطلق عليه الفعل كقوله : (فمن تركها فقد كفر) و (من حلف بغير الله فقد كفر) وقوله : (من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر ، ومن حلف بغير الله فقد كفر)**[١] **. رواه الحاكم فى صحيحه بهذا اللفظ . فمن صدر منه خلة من خلال الكفر فلا يستحق اسم كافر على الإطلاق ، ولا يلزمه اسم فاسق إلا بغلبة ذلك عليه »** .

يقول الشيخ محمد بن سعيد بن سالم : ولى على هذا النص تعليق :

فى النص المتقدم بعض العبارات التى قد توهم بعض الناس فى قضية « الحاكمية » حيث ذكر ابن القيم أن الحكم بغير ما أنزل الله كفر دون كفر . وهنا لابد من إيضاح هذه القضية حتى يزول ما قد يحصل من إشكال .

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم — كتاب الإيمان ١ / ٨ وقال الحاكم : حديث صحيح على شرطهما جميعا

إن المجتمع الإسلامى منذ قيامه على يد رسول الله ــ ﷺ ــ قد قام على الحكم بشريعة الله ، ومضى على ذلك خلفاؤه الراشدون ، ثم الخلفاء الأمويون مضوا على ذلك وإن كان بدر منهم بعض الانحرافات ، إلا أن الحكم الذى يتحاكم إليه الناس هو شرع الله ، يظلهم برايته ويرعاهم بحكمته وعدالته . ثم جاءت الدولة العباسية وكان الشرع أيضاً هو نظام الحكم مع وجود ثغرات قوية بعض الشىء . ثم جاء التتار ، وأتى « هولاكو » بالياسق .

ولما كان الأمر كذلك فإن كلام السلف ومنهم ابن القيم كلام لا غبار عليه ، فإذا حكم الحاكم برشوة أو لقرابة ، أو شفاعة أو ما أشبه ذلك فلا شك أن ذلك كفر دون كفر .

وأما ما وجد فى حياة المسلمين ــ ولأول مرة فى تاريخهم ــ وهو تنحية شريعة الله ورميها بالرجعية والتخلف وأنها لم تعد تواكب التقدم الحضارى ، والعصر المتطور فهذه ردة جديدة على حياة المسلمين . إذا الأمر لم يقتصر على تلك الدعاوى التافهة ، بل تعداه إلى إقصائها فعلاً عن واقع الحياة واستبدال الذى هو أدنى بها ، فحل محلها القانون الفرنسى أو الإنجليزى أو الأمريكى أو الإشتراكية الإلحادية وما أشبه ذلك من تلك النظم الجاهلة الكافرة ولى على هذا الكلام أدلة كثيرة منها :

(١) ما أورده ابن القيم نفسه ــ رحمه الله ــ من قول الإمام أحمد « حتى يجىء من ذلك أمر لا يختلف فيه » .

نعم ، إنه أمر لا يختلف فيه أبداً وهو تنحية الشريعة ورميها بالقصور والنقصان وأن القانون أكمل منها ، وألين منها فى مسايرة تطورات العصر كُفر صريح .

(٢) ما أورده ابن القيم أيضاً من أن الكفر الذى هو كفر دون كفر ينطبق على الحاكم « الملتزم للإسلام وشرائعه » فهذا إذا خالف النص أو حاد عنه ، هو الذى ينطبق عليه هذا الحكم . وليس الأمر سارياً على من يحل القانون محل شرع الله .

(٣) قضية التحليل والتحريم ، والتشريع للناس ، اتفقت أقوال العلماء قديماً وحديثاً على أن ذلك من خصائص رب العالمين جل جلاله فمن ادعاها لنفسه فقد ألّه نفسه ونصبها نداً يعبد من دون الله .

(٤) إن إقصاء الشريعة الربانية وإحلال أهواء البشر محلها ، هذا من الأشياء التى كفّر العلماء قديماً وحديثاً فاعلها لأنها من المعلوم من الدين بالضرورة . وهل يجادل أحد فى ذلك والله يقول :

﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ ٥٤ الأعراف

فكما أنه سبحانه ــ وباعتراف الناس ــ مؤمنهم وكافرهم ــ هو خالق السماء والأرض ، فهو أيضاً صاحب الأمر والسلطان ، والحكم والسيادة .

(٥) يوضح كلمة الإمام أحمد ــ رحمه الله ــ وهى قوله ﴿ **حتى يجيء من ذلك أمر لا يختلف فيه** ﴾ علم من أعلام المسلمين هو الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ــ رحمه الله ــ حيث يقول :

« إن من الكفر الأكبر المستبين تنزيل القانون اللعين منزلة ما نزل به الروح الأمين على قلب محمد ــ « ــ ليكون من المنذرين بلسان عربى مبين » .

(٦) ما ذكره أيضاً ابن القيم ــ رحمه الله ــ فى كتاب : « مدارج السالكين » حيث قال بعد أن أورد الأقوال فى قضية الحكم قال : « والصحيح أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين : الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله فى هذه الواقعة ، وعدل عنه عصياناً مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة ، فهذا كفر أصغر . وإن اعتقد أنه غير واجب « وأنه مخير فيه ، مع تيقنه أنه حكم الله . فهذا كفر أكبر ، وإن جهله وأخطأ : فهذا مخطىء له حكم المخطئين » .

(٧) ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ فى كتاب « منهاج السنة » حيث قال : « ولا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر . فمن استحل أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلاً من غير اتباع لما أنزل الله فهو كافر . فإنه ما من أمة إلا وهى تأمر بالحكم بالعدل ، وقد يكون العدل فى دينها ما رآه أكابرهم ، بل كثير من المنتسبين إلى الإسلام يحكمون بعاداتهم التى لم ينزلها الله ، كسواليف البادية وكانوا الأمراء المطاعين ، ويرون أن هذا هو الذى ينبغى الحكم به دون الكتاب والسنة ، وهذا هو الكفر ، فإن كثيراً من الناس أسلموا ولكن لا يحكمون إلا بالعادات الجارية التى يأمر بها المطاعون ، فهؤلاء عرفوا أنه لا يجوز لهم الحكم إلا بما أنزل الله ، فلم يلتزموا ذلك ، بل استحلوا أن يحكموا بخلاف ما أنزل الله فهم كفار » .

(٨) يقول العلامة ابن القيم فى تفسير قوله تعالى :

﴿ **تالله إنا كنا لفى ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين** ﴾ ٩٧ ــ ٩٨ الشعراء

« هذه التسوية إنما كانت فى الحب والتأليه واتباع ما شرعوا ، لا فى الخلق والقدرة والربوبية ، وهى العدل الذى أخبر به عن الكفار كقوله : ﴿ **الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون** ﴾ الأنعام .

وأصح القولين : أن المعنى : ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ، فيجعلون له عدلاً يحبونه ويقدسونه ويعبدونه ، كما يعبدون الله ويعبدونه ، ويعظمون أمره وهذه التسوية لم تكن منهم فى الأفعال والصفات ، بحيث اعتقدوا أنها مساوية لله سبحانه فى أفعاله وصفاته ، وإنما كانت تسوية منهم بين الله وبينها فى المحبة والعبودية والتعظيم مع إقرارهم بالفرق بين الله وبينها ، فتصحيح هذه : هو تصحيح شهادة « أن لا إله إلا الله » .

وأن مما يزيد إيضاح الحقيقة فى أمر إحلال القانون والهوى محل الشرع ، ما ذكره العلماء من أن كفر الاعتقاد ينقسم إلى خمسة أنواع هى .

(١) كفر تكذيب : وهو اعتقاد كذب الرسل . وهذا القسم قليل فى الكفار ، فإن الله تعالى أيد رسله ، وأعطاهم من البراهين والآيات على صدقهم ما أقام به الحجة وأزال به المعذرة . قال تعالى عن فرعون وقومه :

﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوّاً ﴾ ١٤ النمل

وقال لرسوله ـــ ﷺ ـــ :

﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ ٣٣ الأنعام

(٢) كفر إباء واستكبار : مثل كفر إبليس : ومن هذا كفر من عرف الرسول و لم ينقد له إباء واستكباراً وهو الغالب على كفر أعداء الرسل كما قال تعالى عن فرعون وقومه :

﴿ أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ﴾ ٤٧ المؤمنون

ومنه كفر أبى طالب فإنه صدقه و لم يشك فى صدقه ولكن أخذته الحمية ، وتعظيم **آبائه** أن يرغب عن ملتهم .

(٣) كفر إعراض : مثل من يعرض عن الرسول ـــ ﷺ ـــ لا يسمعه ، ولا يصدقه ، ولا يكذبه ولا يواليه ولا يعاديه ولا يصغى إلى ما جاء به البتة ، كما قال أحد بنى عبد ياليل للنبى ـــ ﷺ ـــ :

« والله ما أقول لك كلمة : إن كنت صادقاً فأنت أجل فى عينى من أن أرد عليك وإن كنت كاذباً فأنت أحقر من أن أكلمك » .

(٤) كفر الشك : حيث لا يجزم بصدقه ، ولا يكذبه ، بل يشك فى أمره ، وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر فى آيات صدق الرسول ـــ ﷺ ـــ جملة ، وأما مع التفاته إليها ونظره فيها فإنه لا يبقى معه شك لأنها مستلزمة للصدق .

(٥) كفر نفاق : وهو أن يظهر بلسانه الإيمان وينطوى بقلبه التكذيب وهذا هو النفاق الأكبر .

وبعد أن وضحنا الكفر بنوعيه ـــ نعوذ بالله منه ـــ ننتقل إلى تبيان الشرك ـــ نعوذ بالله منه ، وهو كما قال ابن القيم ينقسم إلى أكبر مخرج من الملة ، وإلى أصغر وهو الرياء . أما الشرك الأكبر فدليله قوله تعالى :

﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ ١١٦ النساء

وهو أربعة أنواع كما ذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب وهى :

(١) شرك الدعوة : قال تعالى :

﴿ فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ ٦٥ العنكبوت

(٢) شرك النية والإرادة والقصد : قال تعالى :

﴿ **من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون** ﴾ ١٥ ــ ١٦ هود

(٣) شرك الطاعة : قال تعالى :

﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله** ﴾ ٣١ التوبة

وفى الحديث : عن عدى بن حاتم حين سمع النبى ــ ﷺ ــ يقرأ هذه الآية : ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله** ﴾ قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم ؟ فقال : **بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلو لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم**» (١) . قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما فى تفسيرها : إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا .

(٤) شرك المحبة : قال تعالى :

﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله** ﴾ ١٦٥ البقرة

وأما النفاق : فمنه ما هو مخرج من الملة ، وهذا هو النفاق الأكبر وفيه يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « والنفاق منه ما هو أكبر ، يكون صاحبه فى الدرك الأسفل من النار ، كنفاق عبد الله بن أبّى وغيره ، بأن يظهر تكذيب الرسول ، أو جحود بعض ما جاء به ، أو بغضه ، أو عدم اعتقاد وجوب اتباعه ، أو المسرة بانخفاض دينه ، ونحو ذلك مما لا يمكن صاحبه إلا عدواً لله ورسوله » .

وأما الردة : فهى الكفر بعد الإيمان فمن (قال الكفر أو فعله أو رضى به مختاراً للكفر ، وإن كان مع ذلك يبغض بقلبه ، وبهذا قال علماء السنة والحديث ، وذكروا ذلك فى كتبهم فقالوا : إن المرتد هو الذى يكفر بعد إسلامه إما نطقاً وإما فعلاً ، وإما اعتقاداً . وقرروا أن من قال الكفر كفر وإن لم يعتقده ولم يعمل به إذا لم يكن مكرهاً .

وكذلك إذا فعل الكفر كفر وإن لم يعتقده ولا نطق به ، وكذلك إذا شرح بالكفر صدره أى فتحه ووسعه وإن لم ينطق بذلك ولم يعمل به

ومن باب التفصيل والتوضيح وذكر التفصيل بعد الإجمال : إليك نواقضَ الإسلام العشرة كما قررها أهل العلم .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ــ طبعة الشعب ــ آية ٣١ من سورة براء ٤ / ٧٧

نواقض الإسلام

ذكر أهل العلم أن هناك عشرة نواقض هامة هى :

(١) الشرك فى عبادة الله وحده لا شريك له ، قال تعالى :

﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ ١١٦ النساء

(٢) من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة . كفر إجماعاً .

(٣) من لم يكفر المشركين ، أوشكَّ فى كفرهم ، أو صحح مذهبهم . كفر إجماعاً .

(٤) من اعتقد أن غير هدى النبى — ﷺ — أكمل من هديه ، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه ، كالذين يفضلون حكم الطاغوت على حكمه فهو كافر .

(٥) من أبغض شيئاً مما جاء به الرسول — ﷺ — ولو عمل به كفر إجماعاً . والدليل قوله تعالى :

﴿ ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم ﴾ ٩ محمد

(٦) من استهزأ بشىء من دين الله ، أو ثوابه أو عقابه ، كفر والدليل قوله تعالى :

﴿ قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون . لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ ٦٥ — ٦٦ التوبة .

(٧) السحر ، ومنه الصرف ، والعطف فمن فعله أو رضى به كفر والدليل قوله تعالى :

﴿ وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ ١٠٢ البقرة .

(٨) مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين والدليل قوله تعالى :

﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ ٥١ المائدة

(٩) من اعتقد أن بعض الناس لا يجب عليه اتباع النبى — ﷺ — وأنه يسعه الخروج من شريعته كما وسع الخضر الخروج من شريعة موسى — عليهما السلام —

(١٠) الإعراض عن دين الله لا يتعلمه ، **ولا يعمل** به ، والدليل قوله تعالى :

﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون ﴾ السجدة ٢٢

ولا فرق فى جميع النواقض بين الهازل والجاد والخائف إلا المكره ، وكلها من أعظم ما يكون خطراً ، ومن أكثر ما يكون وقوعاً ، فينبغى للمسلم أن يحذرها ويخاف منها على نفسه .

ويجدر بنا ونحن نستعرض هذه النواقض أن نقف عند اثنين منها ، نظراً لأهميتها وخطورتهما على حياة المسلمين وليتضح سبب الاسهاب فى قضية الحاكمية وعلاقة الولاء والبراء بذلك .

الأول : (من اعتقد أن غير هدى النبى — ﷺ — أكمل من هديه ، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه كالذين يفضلون حكم الطاغوت على حكمه فهو كافر) .

إن تنحية شريعة الله عن مجرى الحياة ، واستيراد قوانين البشر القاصرة : ردة جديدة برزت فى القرون الأخيرة من حياة المسلمين ، ذلك أن المجتمع الإسلامى عاش قروناً طوالاً يستظل بشرع الله وتهيمن الشريعة على حياة أفراده حكاماً ومحكومين — مع وجود بعض المعاصى سواء كانت كبائر أم صغائر — ولكن نظام حياة الناس ، والتشريع المنفذ فى أمورهم هو شرع الله وحكمه ، وكذلك جهاد الكفار ونشر كلمة الإسلام فى الأرض كانت كل هذه الأمور فى ازدياد وتوسع . أما رمى الشريعة الإسلامية بالقصور والرجعية وعدم مسايرة تطورات العصر ، فهذا شىء لم يحدث إلا بعد أن مكن المسلمون الاستعمار العالمى من ذلك وبعد أن نسوا الله فأنساهم أنفسهم .

ولقد جاء القرآن الكريم والسنة المطهرة بنصوص كثيرة صريحة واضحة حول قضية الحكم وأنها من عقيدة المسلم ، ومن أهم أمور الدين قال تعالى :

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ ٤٤ المائدة .

﴿ ولم لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ ٤٥ المائدة

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ ٤٧ المائدة .

﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾ ٥٠ المائدة

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ ٦٥ النساء

﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾ ٢١ الشورى

وقال تعالى :

﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين . أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله . بل أولئك هم الظالمون . إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾ ٤٧ — ٥١ النور

ويقول سبحانه :

﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾ ١١٥ النساء

ثم يبين سبحانه زيف زعم من يدعى الإيمان ويريد التحاكم إلى الطاغوت فيقول :

﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيدا . وإذا قيل لهم تعالوا

إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً ﴾ ٦٠ ــ ٦١ النساء

ولقد أحسن أحد العلماء فى وصف من طمست بصيرته فاستبدل بالشريعة القانون حيث قال : إن مثل هذا مثل « الجعل يتأذى من رائحة المسك والورد الفواح ، ويحيا بالعذرة والغائط فى المستراح » . ولقد قال تعالى :

﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين ﴾ ٢٠ المجادلة .

ومن أعظم المحادة لله ورسوله التولى عن حكم الله وشرعه وسنة نبيه ــ ﷺ ــ وما هذه الذلة التى يعيشها المسلمون اليوم فى الأرض إلا نتيجة طبيعية لترك شرع الله . فهاهم أولاء اليوم كثير ولكنهم غثاء كغثاء السيل ، طمعت فيهم أحقر الأمم وسيطرت عليهم أراذل الناس ، ولقد صدقت فيهم نبوءة محمد ــ ﷺ ــ حين قال :

« يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها » فقال قائل : أو من قلة نحن يومئذ ؟ قال : « بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن » فقال قائل : يارسول الله : وما الوهن ؟ قال : « حب الدنيا وكراهية الموت »[(١)] .

وإن جزءاً كبيراً من هذا الانحراف الذى سيطر اليوم على حياة المسلمين يتحمله الذين يتزيون بزى العلماء ويحسنون للناس أن يستبدلوا بشرع الله أهواء البشر ، إن هؤلاء ليحملون أوزارهم كاملة ومن أوزار الذين يضلونهم إلى يوم القيامة والإسلام برىء من هؤلاء . ويرحم الله علماء السلف الذين كانوا حماة على ثغور الإسلام حتى لا يؤتى الإسلام من قبل أحدهم .

فهذا الإمام الجليل الحافظ ابن كثير ــ رحمه الله ــ يذكر فى كتابه « تفسير القرآن العظيم » ما حل بالأمة الإسلامية أيام التتار ، وذلك عند قوله تعالى :

﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ﴾ ٥٠ المائدة

قال : ينكر الله تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير ، الناهى عن كل شر ، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التى وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات ، ما يضعونها بآرائهم وأهوائهم ، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيز خان ، الذى وضع لهم «الياسق» وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى ، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية ،

(١) سنن أبى داود ــ كتاب الملاحم ــ باب فى تداعى الأمم على الإسلام ٤ / ٤٨٣ رقم ٤٢٩٧

وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه ، فصارت فى بنيه شرعاً متبعاً ، يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ـــ ﷺ ـــ ، ومن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله ، حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا يحكم سواه فى قليل ولا كثير »

(١) إذا جحد الحاكم بغير ما أنزل الله أحقية حكم الله ورسوله . وهو معنى ما روى عن ابن عباس ، واختاره ابن جرير ، وجحود ما أنزل الله من الحكم الشرعى لا نزاع فيه بين أهل العلم ، فإن الأصول المتقررة المتفق عليها بينهم ، أن من جحد أصلاً من أصول الدين أو فرعاً مجمعاً عليه ، أو أنكر حرفاً مما جاء به الرسول ـــ ﷺ ـــ قطعياً فإنه كافر كفراً ينقل عن الملة .

(٢) إن لم يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله أن حكم الله ورسوله حق ، ولكنه اعتقد أن حكم غير الرسول ـــ ﷺ ـــ أحسن من حكمه ، وأتم وأشمل لما يحتاجه الناس وما استجد لهم من حوادث نشأت عن تطور الزمان ، وتغير الأحوال فهذا أيضاً لا ريب فى كفره لتفضيله أحكام المخلوقين التى هى زبالة الأذهان وحثالة الأفكار على حكم الحكيم الخبير ، فإنه ما من قضية كائنة ما كانت إلا وحكمها فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ـــ ﷺ ـــ نصاً أو ظاهراً أو استنباطاً أو غير ذلك ، علم ذلك من علمه وجهله من جهله .

(٣) أن لا يعتقد كونه أحسن من حكم الله ورسوله ، لكن اعتقد أنه مثله ، فهذا كالنوعين السابقين كافر كفراً ينقل عن الملة لما فى ذلك من تسوية المخلوق بالخالق .

(٤) من اعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله ورسوله فهو كالذى قبله .

(٥) من أعظم ذلك وأظهرها معاندة للشرع ومكابرة لأحكامه ، ومشاقة لله ولرسوله : إيجاد المحاكم الوضعية التى مراجعها القانون الوضعى ، كالقانون الفرنسى أو الأمريكى أو البريطانى أو غيرها من مذاهب الكفار ، وأى كفر فوق هذا الكفر ؟ وأى مناقضة للشهادة بأن محمداً رسول الله بعد هذه المناقضة ؟

(٦) ما يحكم به كثير من رؤساء العشائر والقبائل من البوادى ونحوهم من حكايات آبائهم وأجدادهم وعاداتهم والتى يسمونها « سلومهم » يتوارثون ذلك منهم ويحكمون به رغبة وإعراضاً عن حكم الله .

(أما الكفر الذى لا ينقل عن الملة : والذى ورد عن ابن عباس ـــ رضى الله عنهما ـــ بأنه كفر دون كفر وقوله أيضاً : « ليس بالكفر الذى تذهبون إليه » فذلك مثل ، أن تحمله شهوته وهواه على الحكم فى القضية بغير ما أنزل الله مع اعتقاده أن حكم الله ورسوله هو الحق ، واعترافه على نفسه بالخطأ ومجانبة الهدى . وهذا وإن لم يخرجه كفره عن الملة فإنه معصية عظمى أكبر من الكبائر كالزنا وشرب الخمر والسرقة وغيرها فإن معصية سماها الله فى كتابه كفراً أعظم من معصية لم يسمها الله كفراً) .

وإن الذى جعلنا نهب فى ذكر شئون الحاكمية وتفصيل أحكامها هو خطورتها وعظمها . فإن موالاة الحاكم بغير ما أنزل الله وإقرار تشريعه للناس من عند نفسه وتحليله وتحريمه ما لم يأذن به الله ، مناقضة للشهادة بأن الله هو الإله الذى تألهه القلوب بالحب والتعظيم والطاعة والإنقياد ، ومناقضة للشهادة بأن محمداً رسول الله فهو المطاع فيما أمر ونهى عنه وزجر ولو فهم الناس هذا لما بقى لطاغية فى الأرض حق الوجود والتشريع . وإقرار الكفر وتنحية شرع الله المحكم .

الثانى : من الأمور التى يجب أن نتدبرها بروية ــ من نواقض الإسلام ــ مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين ، والدليل قوله تعالى :

﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ ٥١ المائدة

وهذا من أعظم النواقض التى وقع فيها سواد الناس اليوم فى الأرض ، وهم بعد ذلك يحسبون على الإسلام ويتسمون بأسماء إسلامية . فلقد صرنا فى عصر يستحى فيه أن يقال للكافر : يا كافر ! ! بل زاد الأمر عتواً بنظرة الإكبار والتعظيم والمهابة لأعداء الله ، وأصبحوا موضع القدوة والأسوة لضعاف الإيمان ، ينظرون إلى أعداء الله نظرة انبهار ملؤها التمنى أن يكونوا مثلهم حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه .

مظاهرة أخذت صوراً شتى فمن الميل القلبى إلى انتحال مذاهبهم الإلحادية إلى مجاراتهم فى تشريعاتهم ، إلى كشف عورات المسلمين لهم ، إلى كل صغير وكبير فى حياتهم .

من هنا فإن إدراك حقيقة هذه العقيدة ونواقضها ، أمر كفيل بأن يجعل المسلم على بصيرة من أمره فى عقيدة الولاء والبراء . حسب المقياس الشرعى الصحيح ، وليس حسب مقياس أهواء البشر . إنه لا ولاء إلا لله ولرسوله ودينه والمؤمنين . والبراء من كل متبوع أو مرغوب أو مرهوب يحاد الله ورسوله .

مفهوم الولاء والبراء
تعريفه وأهميته فى الكتاب والسنة

ــ الولاء فى اللغة : جاء فى لسان العرب : الموالاة ــ كما قال ابن الأعرابى : ــ أن يتشاجرا اثنان فيدخل ثالث بينهما للصلح ، ويكون له فى أحدهما هوى فيواليه أو يحابيه . ووالى فلان فلاناً إذا أحبه .

والمولى : اسم يقع على جماعة كثيرة ، فهو : الرب ، والمالك ، والسيد ، والمنعم ، والمعتق ، والناصر ، والمحب والتابع والجار ، وابن العم ، والحليف والعقيد والصهر ، والعبد والمعتق والمنعم عليه . ويلاحظ فى هذه المعانى أنها تقوم على النصرة والمحبة .

والوَلاية — بالفتح — فى النسب والنصرة والعتق . والموالاة — بالضم — من والى القوم . قال الشافعى فى قوله — ﷺ — : « من كنت مولاه فعلى مولاه »[1] يعنى بذلك ولاء الإسلام كقوله تعالى :

﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ ١١ محمد

والموالاة ضد المعاداة ، والولى ضد العدو ، قال تعالى :

﴿ يأبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا ﴾ ٤٥ مريم

قال ثعلب : كل من عبد شيئاً من دون الله فقد اتخذه ولياً . وقوله تعالى :

﴿ الله ولى الذين آمنوا ﴾ ٢٥٧ البقرة .

وليهم فى نصرهم على عدوهم ، وإظهار دينهم على دين مخالفيهم . وقيل : وليهم أى : يتولى ثوابهم ومجازاتهم بحسن أعمالهم .

والوَلْى : القرب والدنو . والموالاة : المتابعة .

والتولى : يكون بمعنى الإعراض ، ويكون بمعنى الإتباع . قال تعالى :

﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ﴾ ٣٨ محمد

أى : إن تعرضوا عن الإسلام .

وقوله تعالى :

﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ ٥١ المائدة

معناه : من يتبعهم وينصرهم .

وقال صاحب « المصباح المنير » : الولى : فعيل بمعنى فاعل ، من وليه إذا قام به ، ومنه قوله تعالى :

﴿ الله ولى الذين آمنوا ﴾ ٢٥٧ البقرة

ويكون الولى بمعنى مفعول ، فى حق المطيع ، فيقال : المؤمن ولى الله .

ووالاه موالاة وولاء : من باب « قاتل » أى تابعه .

---

(١) مسند أحمد ٤ / ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢

تعريف البراء فى اللغة : قال ابن الأعرابى : برىء إذا تخلص ، وبرىء : إذا تنزه وتباعد ، وبرىء إذا أعذر وأنذر ، ومنه قوله تعالى :

﴿ براءة من الله ورسوله ﴾ ١ التوبة

أى إعذار وإنذار .

وفى حديث أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ لما دعاه عمر إلى العمل فأبى قال عمر : إن يوسف قد سأل العمل ، فقال أبو هريرة : إن يوسف منى برىء وأنا منه براء . أى برىء عن مساواته فى الحكم وأن أقاس به ، ولم يرد براءة الولاية والمحبة لأنه مأمور بالإيمان به ، انتهى من النهاية . والبراء والبرىء سواء .

وليلة البراءْ : ليلة يتبرأ القمر من الشمس ، وهى أول ليلة من الشهر .

ــ تعريف الولاء بالمعنى الاصطلاحى : الولاية هى النصرة والمحبة والإكرام والاحترام والكون مع المحبوبين ظاهراً أو باطناً . قال تعالى :

﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾ ٢٥٧ البقرة

فموالاة الكفار تعنى التقرب إليهم وإظهار الود لهم ، بالأقوال والأفعال والنوايا .

ــ تعريف البراء بالمعنى الاصطلاحى : هو البعد والخلاص والعداوة بعد الإعذار والإنذار .

ــ شرح تعريف الولاء والبراء : قال شيخ الإسلام ابن تيمية : الولاية : ضد العداوة . وأصل الولاية : المحبة والقرب ، وأصل العداوة : البغض والبعد .. والولى : القريب يقال : هذا يلى هذا : أى يقرب منه ، ومنه قوله ــ ﷺ ــ : « الحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فهو لأولى رجل ذكر »(١) أى لأقرب رجل إلى الميت .

فإذا كان ولى الله هو الموافق المتابع له فيما يحبه ويرضاه ، ويبغضه ويسخطه ويأمر به وينهى عنه ، كان المعادى لوليه معادياً له . كما قال تعالى :

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ﴾ ١ الممتحنة .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ــ كتاب الفرائض ــ باب ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فلأولى

فمن عادى أولياء الله فقد عاداه ، ومن عاداه فقد حاربه ، ولهذا جاء فى الحديث :
« ومن عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة »[١]
ومسمى الموالاة (لأعداء الله) : يقع على شعب متفاوتة منها ما يوجب الردة وذهاب الإسلام بالكلية ، ومنها ما هو دون ذلك من الكبائر والمحرمات . ولما عقد الله الأخوة والمحبة والموالاة والنصرة بين المؤمنين ، ونهى عن موالاة الكافرين **كلهم** من يهود ونصارى وملحدين ومشركين وغيرهم كان من الأصول المتفق عليها بين المسلمين : أن كل مؤمن موحد تارك لجميع المكفرات الشرعية تجب محبته وموالاته ونصرته ، وكل من كان بخلاف ذلك وجب التقرب إلى الله ببغضه ومعاداته ، وجهاده باللسان واليد بحسب القدرة والإمكان .

وحيث أن الولاء والبراء تابعان للحب والبغض ، فإن أصل الإيمان أن تحب فى الله أنبياءه وأتباعهم ، وتبغض فى الله أعداءه وأعداء رسله . وقد ورد عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قوله : « من أحب فى الله ، وأبغض فى الله ، ووالى فى الله ، وعادى فى الله ، فإنما تنال ولاية الله بذلك ، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك ، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا ، وذلك لا يجدى على أهله شيئاً » . وإذا كان صبر هذه الأمة يذكر أن مؤاخاة الناس فى زمانه قد أصبحت على أمر الدنيا وأن ذلك لا يجدى على أهله شيئاً ، وهذا فى القرن الذى هو خير القرون : فجدير بالمؤمن أن يعى ويعرف من يحب ومن يبغض ، ومن يوالى ومن يعادى ثم يزن نفسه بميزان الكتاب والسنة ليرى أواقف هو فى صف الشيطان وحزبه أم فى صف عباد الرحمن وحزب الله الذين هم المفلحون ، وما عداهم فأولئك هم الذين خسروا الدنيا والآخرة ! وإذا أصبحت المؤاخاة والمحبة على أمر الدنيا — كما قال الصحابى الجليل عبد الله بن عباس — فإن تلك المحبة والمؤاخاة لا تلبث أن تزول بزوال العرض الزائل ، وحينئذ لا يكون للأمة شوكة ومنعة أمام أعدائها .

وفى عصرنا الحاضر عصر المادة والدنيا قد أصبحت محبة الناس فى الأغلب على أمر الدنيا وذلك لا يجدى على أهله شيئاً .

ولن تقوم للأمة الإسلامية قائمة إلا بالرجوع إلى الله والاجتماع على الحب فيه والبغض فيه والولاء له والبراء ممن أمرنا الله بالبراء منه وعندئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

---

(١) صحيح البخارى — كتاب الرقاق — باب التواضع ٨ / ١٣١

أهمية هذا الموضوع فى الكتاب والسنة ونصيبه من الدراسة والتأليف

إنه من الجدير بالذكر أن هذا الموضوع ـــ الولاء والبراء ـــ رغم أهميته ووضوحه فى الكتاب والسنة إلا أن نصيبه من الدراسة والتأليف فى الكتب العقدية القديمة قليل جداً . وذلك راجع إلى ثلاثة أمور :

(١) إن هذا المفهوم العقدى كان من الوضوح والنصاعة عند المسلمين الأولين بمكان ، حيث إنهم ـــ من خلال سيرتهم وتاريخهم الوضىء ـــ كانوا على درجة عالية جداً من الصفاء العقيدى ، والتميز الواضح ، وقيامهم أيضاً بالجهاد فى سبيل الله . كل هذا جعل الأمر واضحاً وجلياً فى حسهم ، وأيضاً رجوعهم للكتاب والسنة فى كل شىء وهذا الأمر فيهما واضح جداً .

(٢) إن طبيعة المجتمع الإسلامى الأول ، خاصة بعد الخلافة الراشدة لم تظهر فيه مشاكل عقدية حول هذا الموضوع ، وإنما نشأت حول صفات الله ـــ جل جلاله ـــ وقامت الفرق المختلفة بالخوض فيها . فكان لابد أن يتصدى أهل السنة والجماعة لمعالجة ذلك الانحراف بأن يبينوا للناس أن لله صفات تليق بجلاله وعظمته . نثبتها له كما جاءت فى الكتاب والسنة من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تشبيه ولا تمثيل .

من هنا ظهرت مؤلفاتهم ـــ رحمهم الله ـــ بالحديث فى هذا الشأن ، ولا تجد لهم ذكراً لقضية الولاء والبراء إلا فى كلمات موجزة صغيرة كقولهم : « ونحن أصحاب رسول الله ـــ ﷺ ـــ ولا نفرط فى حب أحد منهم ، ولا نتبرأ من أحد منهم ، ونبغض من يبغضهم ، وبغير الخير يذكرهم » .

(٣) وبعد دخول علم الكلام فى مؤلفات المسلمين العقائدية ، وتعكير صفوها بما ليس منها : لم يعد لهذا الموضوع ذكر البته : وليس هو المنفرد بهذا الإقصاء ، بل إنه تابع لإقصاء موضوع « لا إله إلا الله وما تقتضيه من توحيد الألوهية وما يضاد ذلك من نواقض الإسلام ، التى لو شغل المسلمون أنفسهم ببيانها وعرضها للناس عرضاً سليماً صحيحاً بدلاً من تحويلها إلى قضايا ذهنية تجريدية لا علاقة لها بالسلوك الواقعى ولا بمعانى الإسلام الحقيقية لكان ذلك أجدى وأنفع للناس ، وأقوم للقيام بما أراده الله منهم . ولو أن الأمة الإسلامية تقيدت بقول رسولها ـــ ﷺ ـــ « تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك »[1] وعضت على ذلك بالنواجذ ما طمع فيها شرق ولا غرب ، ولا تخبطت فى متاهات التبعية العمياء للإلحاد والفكر الجاهلى سواء كان شرقياً أم غربياً على حد سواء .

(١) سنن ابن ماجة ـــ المقدمة ١ / ١٦ رقم ٤٣

وحين اقتصر المسلمون الأوائل على الوحيين العزيزين خرج منهم جيل فريد ليس له مثال لا سابق ولا لاحق ، جيل اعتز بانتمائه لدينه الخالص ، ففتح الدنيا ومزق ظلام الكفر والشرك وصدع باسم الله فى الأرض من مشارف فرنسا غرباً إلى حدود الصين شرقاً .

ولعله من المناسب هنا أن نتحدث عن طريقة القرآن والسنة فى عرض العقيدة بصفة عامة وجناية الكلام على المسلمين لنقف من خلال هذه النبذة على مدى الهوة بين صفاء النبع العقيدى الربانى وبين جهالات علم الكلام .

لقد أدرك سلف هذه الأمة ـــ رحمهم الله ـــ أن كتاب الله العزيز هو : كتاب هداية وليس كتاب فلسفة ونظريات فارغة لا تمس الواقع . وأيقن ذلك الجيل أن الله هو خالق النفس البشرية وأنه هو العليم وحده بما يصلحها ، فلما أنزل كتابه على رسوله ـــ ﷺ ـــ كان هو النور الهادى للنفوس ، ومصدر كل خير لها ، وهو أيضاً النذير لها من كل ما يوردها موارد الهلاك والخسران . وميزة الخطاب القرآنى : أنه يخاطب « الإنسان » كوحدة متصلة فيها الروح والجسد وفيها العقل والعاطفة ، وفيها حب الخير وكره الشر :

﴿ ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها ﴾ ٧ ـــ ١٠ الشمس .

هكذا هى الطريقة القرآنية فى عرضها للعقيدة أنها : (طريقة لا تخاطب الذهن المجرد ولكنها تخاطب « الإنسان » كله ، وتخاطبه ـــ أول ما تخاطبه ـــ عن طريق الوجدان ، ولا يمنع هذا أن تدعو عقله للمشاركة فى الأمر ، ولكنها لا تخاطبه منفرداً إنما تخاطبه دائماً والوجدان مستجاش ، فيأخذ دورة فى التلقى منفعلاً بالقضية ، متحركاً للإيمان بها ، لا مجرد مُسَاجِل فيها بالمنطق والبرهان : والقرآن حين يصنع ذلك فهو مستجيب للفطرة البشرية كما خلقها الله ، فالله الذى خلق هذه الفطرة هو الذى أنزل هذا القرآن مفصلاً على قدها ، مستجيباً لها ، ومحيياً لها ، وباعثاً ومقوماً فى آن . والعقل جزء من هذه الفطرة ولا شك ، وله دور فى قضية الإيمان .. ولكن الله يعلم الشروط اللازمة لهذا العقل حين يتناول قضية من قضايا « الحياة » إنه يمكن أن يعمل وحده حين يكون دوره هو التعرف على سنة من سنن الكون لا مجال فيها للوجدان ، أما فى قضية الإيمان فإنه لا يستقل بهذا الأمر وحده ، بل تشاركه العاطفة والوجدان » .

وإذا تصفحنا التاريخ الإسلامى لنبحث عن تاريخ الإنحراف فى الدراسات العقدية لوجدنا أن ذلك

قد وقع فى العهد الأموى بشكل بسيط ، ولكنه بلغ قمته فى العهد العباسى إبّان ترجمة العلوم الهندية واليونانية والفارسية إلى اللغة العربية .

فبعد أن اتسعت الفتوحات وامتدت رقعة الدولة الإسلامية ودخل فى الإسلام أناس أظهروا الإسلام وأبطنوا النفاق والزندقة حصل خلط فى المترجمات ، فلم يفرق بين الغث والسمين من تلك العلوم الأجنبية . ولما أصبح شغل أكثر الناس هو الترف العقلى ، رأوا أن يستوردوا غثاء الجاهلية الإغريقية وسمى ذلك عند المخدوعين به « فلسفة » ! ! وانبهروا بهذا المستورد الدخيل وما فيه من عجمة وتعقيد ولعب بالألفاظ ودلالتها . وقادهم هذا الانبهار إلى إلباس التصور الإسلامى قناعاً غريبا عليه . غريباً عليه فى ذاته ، وغريباً عليه فى عرضه ، وغريباً أيضاً على أهله . وسر ذلك أن : (هناك جفوة أصيلة بين منهج الفلسفة ومنهج العقيدة ، وبين أسلوب الفلسفة وأسلوب العقيدة ، وبين الحقائق الإيمانية الإسلامية وتلك المحاولات الصغيرة المضطربة المفتعلة التى تتضمنها الفلسفات والمباحث اللاهوتية البشرية) .

وحرى بنا أن نسأل : ما هو سر محاولة التوفيق بين الفلسفة البشرية الجاهلية التى نمت وترعرعت فى جو وثنى كافر ، وبين المورد العذب دين الله « الإسلام » ؟

هل كان ذلك نتيجة للتقليد الأعمى والسعى وراء كل ناعق ؟

أم أنه نتيجة للقعود عن الجهاد ونشر العقيدة فى ربوع الأرض ؟

أم أن وراء ذلك كيداً من أعداء الإسلام فى محاولة تشويه صفاء هذه العقيدة وخلطها بالشوائب الغريبة عنها ؟ !

والذى يظهر والله أعلم أن هذه الأسباب مجتمعة لها دورها كل بحسب أهميته إلا أنه من خلال تتبع قصة الترجمة فى عهدها الأول يظهر : أن كيد أعداء الدين وافق هوى عند بعض المسلمين خاصة بعض الحكام فى العهد العباسى ــ كالمأمون مثلاً ــ فحدث ما حدث من ترجمة لكتب المباحث السوفسطائية اليونانية وغيرها .

ويصدق ذلك أن المأمون بعث إلى حاكم صقلية المسيحى يطلب منه أن يبادر بإرسال مكتبة صقلية الشهيرة الغنية بكتب الفلسفة . وتردد الحاكم فى إرسالها ، وجمع رجالات دولته واستشارهم حول هذا

الطلب فأشار عليه المطران الأكبر بقوله : (ارسلها إليه ، فوالله ما دخلت هذه العلوم فى أمة إلا أفسدتها) فأذعن الحاكم لمشورته وعمل بها . ثم أحضر المأمون حنين بن اسحاق ـــ وكان فتى لسناً ـــ وأمره بنقل ما يقدر عليه من كتب حكماء اليونان إلى العربية ، فامتثل لأمره . وكان المأمون يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربية مثلاً بمثل . مما جعل حنيناً يكتب على ورق غليظ ويباعد بين الأسطر ويكتب بالحروف الكبيرة . وصدق ـــ والله ـــ المطران القبرصى : إن هذه الكتب ما دخلت أمة إلا أفسدتها ترى من أين جاءت محنة الإمام أحمد بن حنبل ـــ رحمه الله ـــ فى مسألة خلق القرآن ؟ ومن أين جاء اضطهاد علماء السنة ـــ ومحاربتهم وظهور المبتدعة أيام المأمون وغيره ؟ ومن أين جاءت المصطلحات المبتدعة كالجوهر والعرض والواجب والممكن وغيرها ؟ إنه لم يأت كل ذلك إلا من ترجمة علم الكلام الجاهلى وخلطة بالعقيدة الإسلامية ليصنع من ذلك كله ما سمى بـ « الفلسفة الإسلامية » .

وإذا علمنا : أن المترجمين كان جلهم نصارى . وقد كتبوا فى الترجمة العربية ما يعتقدونه ويدينون به . فكيف يوثق بنصرانى يعتقد التثليث وهو يترجم للمسلمين كتباً يتعلمونها ويعلمونها أبناءهم ويستفيدون منها فى مؤلفاتهم لقد صدق الشاعر حين قال :

ومن جعل الغراب له دليلاً ... يمر به على جيف الكلاب

ولمزيد من إيضاح وبيان البون الشاسع بين طريقة القرآن والسنة فى عرض العقيدة وبين علم الكلام ، نذكر الأمور التالية فى المباينة بينهما ، لا من باب المقارنة ، فلا وجه للمقارنة فى الحقيقة ، إذ الأمر كما يقول الشاعر : ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل أن السيف أمضى من العصا وإنما من باب التنبيه والتذكير .

(١) فى المصدر : فمصدر العقيدة القرآنية : الله رب العالمين . أما مصدر « علم الكلام » فعقول البشر القاصرة الهزيلة .

(٢) فى المنهج والسبيل : فغاية علم الكلام : إثبات وحدانية الخالق ، وأنه لا شريك له ويظن المتكلمون أن هذا هو المراد بـ « لا إله إلا الله » .

ثم إن علم الكلام ـــ يسعى لتحقيق « المعرفة » فى الوقت الذى نجد فيه الطريقة القرآنية تهدف إلى « الحركة » من وراء المعرفة ، فتحول تلك المعرفة إلى قوة دافعة لتحقق مدلولها فى عالم الواقع وتستجيش الضمير الإنسانى ليحقق وجوده فى الأرض حسب الخطة التى رسمها له التصور الربانى ، وحينئذ ترجع البشرية إلى ربها ، وتحيا حياة كريمة رفيعة تتفق مع الكرامة التى كتبها الله للإنسان .

ثم إن المنهج القرآنى يدعو إلى (عبادة الله وحده) قال تعالى :

﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ الأنبياء : ٢٥

وأوصى المصطفى — ﷺ — معاذاً حين بعثه إلى اليمن : أن يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، فإذا عرفوا ذلك دعاهم للفرائض ولم يأمره أن يدعوهم أولاً إلى « الشك » أو « النظر » كما هى طريقة المتكلمين .

(والله سبحانه عندما يبعث الناس لا يسألهم عن العلوم الحسية والبدهية ، والمنطق ، والطبيعى ، والجوهر والعرض — بل يسألهم عن استجابتهم للرسل أو عدمها .

﴿ **تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير . قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزّل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير . وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير** ﴾

٨ — ١١ الملك

ووحدانية الخالق التى هى غاية علم الكلام : لم تنفع المشركين الذين حاربهم الرسول — ﷺ — فإنهم كانوا يقرون بها كما أخبر الله عنهم :

﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله . قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون** ﴾ ٢٥ لقمان

(٣) قوة التأثير : الذى هو طابع العقيدة الربانية : مما يجعل لها سلطاناً قوياً على نفوس معتنقيها . بعكس الفلسفة والكلام اللذين يدلان على جهل أصحابهما كما قال أحدهم — وهو سقراط — (الشىء الذى لا أزال أعلمه جيداً هو أننى لست أعلم شيئاً) .

(٤) الأسلوب : فالعقيدة الربانية تخاطب الكينونة الإنسانية بأسلوبها الخاص وهو أسلوب يمتاز بالحيوية والإيقاع . واللمسة المباشرة والإيحاء بالحقائق الكبيرة ، مع بساطة فى العرض ووضوح فى البيان وإعجاز فى اللفظ والمعنى . مما يجعل إدراك هذه العقيدة سهلاً لكافة المستويات البشرية . وهذا كله بخلاف الفلسفة والكلام ، وبخلاف تلك المصطلحات المعقدة التى لا تزيد الشك إلا شكاً وحيرة وضلالاً .

وأسلوب المتكلمين يسير على خط واحد فى كل قضية يتحدث عنها فهو لا يخرج عن قوله : (فإن قيل لنا كذا ، قلنا لهم كذا) .

أما الأسلوب القرآنى فإنه يعرض العقيدة على نمطين :

الأول : توحيد فى الإثبات والمعرفة . أى إثبات حقيقة الرب وصفاته وأفعاله وأسمائه كما أخبر بها عن نفسه وكما أخبر رسوله الكريم ، وهذا موجود فى أول سورة الحديد ، وطه ، وآخر الحشر ، وأول السجدة ، وأول آل عمران ، وسورة الإخلاص بكاملها

الثانى : توحيد فى الطلب والقصد : وهذا ما تضمنته سورة : ﴿ **قل يأيها الكافرون** ﴾

﴿ **قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** ﴾

٦٤ آل عمران

وأول سورة تنزيل الكتاب وآخرها ، وأول سورة يونس وأوسطها وآخرها وأول سورة الأعراف وآخرها وجملة سورة الأنعام .

ويعّرف الأول بأنه : توحيد علمى خبرى ، والثانى بأنه : توحيد إرادى طلبى . ونظرة واحدة إلى سيرة المصطفى — ﷺ — فى عرضه لهذه العقيدة وتربيته الفذة لصحابته كافية فى الدلالة على أن من سلك طريقاً غير طريق القرآن والسنة فى عرض العقيدة فقد سلك (سبلاً) لا تلتقى مع صراط الله المستقيم .

روى الأعمش عن أبى وائل عن ابن مسعود — رضى الله عنه — قال : كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن .

وقال أبو عبد الرحمن السلمى : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا : أنهم كانوا يستقرئون من النبى — ﷺ — فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً .

يقول الأستاذ سيد قطب — رحمه الله — : لقد كان تلقى صحابة رسول الله — ﷺ — لهذه العقيدة أشبه ما يكون بتلقى الجندى فى الميدان « الأمر اليومى » ليعمل به فور تلقيه ، ولذلك لم يكن أحدهم ليستكثر من واجبات وتكاليف يجعلها على عاتقه ، فكان يكتفى بعشر آيات حتى يحفظها ويعمل بها كما جاء فى حديث ابن مسعود .

هكذا كان صدر هذه الأمة مقتصراً على كتاب الله وسنة رسوله فى عقيدته ولكن الإنحراف الذى طرأ على المسائل العقدية فى العصور المتأخرة سببه حركة الترجمة والانبهار بفلسفة اليونان وعلومهم . ولو كان هناك وعى وتفكير فى الأشياء المترجمة لا تقتصر على ترجمة العلوم البحتة كالهندسة والكيمياء والطب وغيرها من العلوم النافعة وبشرط أن تكون صياغة ترجمتها متفقة مع عقيدة المسلمين . ولكن الخطأ الذى حصل كان ترجمة جميع العلوم ومنه « الإلهيات » عند أرسطو وأفلاطون وغيرهم .

إنه خطأ فاحش وقع فيه من وقع وإلا فما هو الدافع لاستيراد ما عند الوثنيين واستخدام أهل الكتاب فى ذلك ؟

وصدق حبر هذه الأمة عبد الله بن عباس — رضى الله عنهما — حين قال محذراً : (أولا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم فلا والله ما رأينا رجلاً منهم يسألكم عن الذى أنزل إليكم) .

والذى حصل كما يقول الشيخ محمد الغزالى : إن صفو هذه العقيدة قد تعكر بالفكر الأجنبى الذى أقحم على الحياة الإسلامية وبضروب الجدل التى زجى بها المتبطلون أوقات فراغهم .

ولكن رحمة الله بعباده وتكفلهم — جل جلاله — بحفظ هذا الدين تجلت فى إيجاد علماء أعلام ، فى كل عصر ومصر ، قاموا بواجب الدعوة إلى الله والجهاد فى سبيله ، وتبصير الأمة بما شردت عنه ، وزهدت فيه

لهذا حين رأى كثير من الأئمة — رحمهم الله — هذا الداء الدخيل يحل على المسلمين فى تصورهم وعقيدتهم قاموا بواجبهم الجهادى نحوه .

فهذا الإمام الجليل الشافعى — رحمه الله — يقول : « فى أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ويطاف بهم فى العشائر والقبائل ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة ، وأقبل على الكلام » .

ويقول أبو يوسف صاحب أبى حنيفة — رحمهما الله — « العلم بالكلام هو الجهل ، والجهل بالكلام هو العلم » .

ثم عقب شارح الطحاوية على ذلك بقوله : « كيف يرام الوصول إلى علم الأصول بغير اتباع ما جاء به الرسول » .

وذكر ابن الجوزى ــ رحمه الله ــ : أن أصل الدخل فى العلم والاعتقاد : من الفلسفة وذلك أن خلقاً من العلماء فى ديننا لم يقنعوا بما قنع به رسول الله ــ ﷺ ــ من الانعكاف على الكتاب والسنة ، بل أوغلوا فى النظر فى مذاهب أهل الفلسفة وخاضوا فى الكلام الذى حملهم على مذاهب ردية أفسدوا بها العقائد .

أما شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ فيقول :

(هؤلاء أهل الكلام المخالفون للكتاب والسنة الذين ذمهم السلف والأئمة ، إنهم لم يقوموا بكمال الإيمان ولا بكمال الجهاد ، بل أخذوا يناظرون أقواماً من الكفار وأهل البدع الذين هم أبعد عن السنة منهم ، بطريق لا يتم إلا برد بعض ما جاء به الرسول ، وهذا لا يقطع أولئك الكفار بالعقول ، فلا آمنوا بما جاء به الرسول حق الإيمان ، ولا جاهدوا الكفار حق الجهاد . وأخذوا يقولون :

إنه لا يمكن الإيمان بالرسول ولا جهاد الكفار ، والرد على أهل الإلحاد والبدع إلا بما سلكناه من المعقولات ، وإن ما عارض هذه المعقولات من السمعيات يجب رده تكذيباً ، أو تأويلاً أو تفويضاً . لأنها أصل السمعيات ، وإذا حقق الأمر عليهم وجد الأمر بالعكس) .

وكلمة أخيرة نذكرها للعبرة والعُظة ، وهى كلمة لأحد أولئك الذين خاضوا فى بحر الكلام اللجى ثم خرجوا منه يطلبون النجاة . إنها كلمة أبى عبد الله محمد بن عمر الرازى حيث قال : « لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفى عليلاً ، ولا تروى غليلاً . ورأيت أقرب الطرق . طريقة القرآن .. ومن جرب مثل تجربتى ، عرف مثل معرفتى . هذا وإنه لحرى بالأمة ، بعد أن عاشت قروناً من الضياع والتخبط أن تعود إلى المشكاة الربانية كتاب الله وسنة رسوله ، فتتدبر معانيها ، وتعمل بما فيها ففى ذلك النجاح والفلاح وطمأنينة القلب .

﴿ **ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾ ٢٨ الرعد

ثم يستطرد الشيخ محمد بن سعيد بن سالم فيقول :

إن من أولى البدهيات فى هذا الشأن أن الإسلام قد حرص على أن يكون انتماء المسلم لدينه فقط منذ أول لحظة يعلن فيها (لا إله إلا الله محمد رسول الله) . والبراءة من كل معبود أو متبوع أو مطاع سوى الله تعالى .

والأدلة على ذلك كثيرة جداً فى كتاب الله وسنة رسوله ــ ﷺ ــ

قال تعالى :

﴿ **فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى** ﴾ ٢٥٦ البقرة

وقال :

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾
١٠٣ آل عمران

﴿ قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين ﴾
٧١ الأنعام

﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾
٢٢ لقمان

﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾
٨٥ آل عمران

﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين ﴾
٣٣ فصلت

فهذه النصوص الكريمة تثبت مدى منة الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ بإنعامه على المسلمين بهذا الدين ، فالولاء له مصدر القوة والعزة .

فمن استمسك بهذا الولاء ، وحققه فقد استمسك بالعروة الوثقى .

أما الحديث ـــ فعن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ :

« إن الله قد أذهب عنكم عبيَّة (كبر ونخوة) الجاهلية ، وفخرها بالآباء ، مؤمن تقى ، أو فاجر شقى ، أنتم بنو آدم وآدم من تراب ، ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التى تدفع بأنفها النتن[1] » وحرص المصطفى ـ ﷺ ـ على تربية أمته والبعد بها عن مفاخر الأنساب والأحساب التى لا تستمد قوتها وحيوتها من هذا الدين القيم ، فنجده ـ ﷺ ـ يحثهم على أن يكون انتمائهم للصف الإسلامى وحسب . ففى الحديث عن أبى عقبة ـ وكان مولى من أهل فارس ـ قال : شهدت مع رسول الله ـ ﷺ ـ أحداً ، فضربت رجلاً من المشركين ، فقلت : خذها منى وأنا الغلام الفارسى ، فالتفت إلىّ رسول الله ـ ﷺ ـ وقال : « فهلا قلت خذها منى وأنا الغلام الأنصارى »[2] .

---

(١) سنن أبى داود ـــ كتاب الأدب ـــ باب فى التفاخر بالأحساب ٥ / ٣٣٩ رقم ٥١١٦ وسنن الترمذى ـــ كتاب المناقب ـــ باب فضل الشام واليمن ٥ / ٧٣٤ رقم ٣٩٥٥

(٢) سنن أبى داود ـــ كتاب الأدب ـــ باب العصبية ٥ / ٣٤٢ رقم ٥١٢٣ وسنن ابن ماجه ـــ كتاب الجهاد باب النية فى القتال ٢ / ٩٣١ رقم ٢٧٨٤

ولقد كان ديدن العقيدة الإسلامية هو : إفراد الله ــ تعالى ــ بالتعلق والحب والتعظيم والطاعة والإنابة والخشوع والخوف والرجاء ، وتجريد النفس من كل محبوب أو مرهوب أو مرغوب سوى الله تعالى ، قال جل شأنه :

﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله ﴾(١)

وقال رسول الله ــ ﷺ ــ لعبد الله بن عباس ــ رضى الله عنهما ــ « .... واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ﴾(٢) .

فإذا جرد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله ، بل يفرد الله بالمخافة .. ويتجرد لله محبة وخشية وإنابة وتوكلاً ، واشتغالاً به عن غيره ، فيرى أن **إعماله** فكره فى أمر عدوه وخوفه منه ، واشتغاله به من نقص توحيده ، وإلا فلو جرد توحيده لكان له فيه شغل شاغل ، والله يتولى حفظه والدفع عنه ، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا . ومعلوم أن التوحيد حصن الله الأعظم من دخله كان من الآمنين . قال بعض السلف : من خاف الله خافه كل شىء ومن لم يخف الله أخافه من كل شىء

هذا طريق من طرق منهج العقيدة فى غرسها للولاء والبراء فى النفوس .

وطريق آخر : وهو استخدام مشاهد يوم القيامة ، لتصوير الخصومة والعداء بين الأتباع والمتبوعين ، الذين سلكوا غير منهج الله فى الدنيا ووالوا وعادوا حسب العادات ودين الآباء ــ وتبرؤ كل فريق من صاحبه .

قال تعالى :

﴿ إذا تبرأ الذين اتُبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾(٣)

ولا شك أن هذه حال من اتخذ من دون الله ورسوله وليجة وأولياء ، يوالى لهم ويعادى لهم ، ويرضى لهم ويغضب لهم ، فإن أعماله كلها باطلة ، يراها يوم القيامة حسرات عليه مع كثرتها ، وشدة تعبه فيها ونصبه ، إذ لم يخلص موالاته ومعاداته ، ومحبته وبغضه ، وانتصاره وإيثاره لله ورسوله . ويوم القيامة ينقطع كل سبب ووسيلة وموالاة كانت لغير الله ، لا يبقى إلا من كان له سبب يصل بينه وبين

(١) سورة يونس الآية : ١٠٧

(٢) سنن الترمذى ــ كتاب صفة القيامة ــ باب ٥٩ ، ٤ / ٦٦٧ رقم ٢٥١٦

(٣) البقرة ١٦٦-١٦٧ .

ربه وهو حظه من الهجرة إلى الله ورسوله وعبادة الله وحده وما يلزم ذلك من الحب والبغض والعطاء والمنع والولاء والعداء والقرب والبعد، وتجريد متابعة رسول الله ـــ ﷺ ـــ والإعراض والترك لما خالف سنته وهديه .

ومن منهج القرآن أيضاً فى موضوع الولاء والبراء : ضرب المثل ، وهذا كثير فى القرآن الكريم وأبرز مثال فى هذه القضية هو إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ خليل الرحمن وأبو الأنبياء . فإنه هو القدوة الأولى فى الولاء والبراء .

وإذا وجدت محبة الله فى القلب ، تحمل المؤمن من حينئذ وتقبل تكاليف هذه المحبة ولوازم عبادته لله ـــ تعالى ـــ ومن ذلك جهاد أعداء الله وبغضهم وهجرهم والصبر على الأذى فى سبيل الله .

ثم يمضى القرآن الكريم فى أسلوب عرض هذه العقيدة مستخدماً التهديد والوعيد بعد البيان والإيضاح وإقامة الحجة على الناس فيقول عز وجل :

﴿ يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ﴾ ٥٤ المائدة

أما المستجيبون لأمر الله فإن الله يحبهم وهو ناصرهم ومولاهم :

﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾ ٤ الصف

﴿ بل الله مولاكم وهو خير الناصرين ﴾ ١٥٠ آل عمران

﴿ واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير ﴾ ٧٨ الحج

ومن لوازم محبة الله اتباع رسوله ـــ ﷺ ـــ

﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى ـــ يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ ٣١ آل عمران

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : فاتباع سنة رسوله ـــ ﷺ ـــ واتباع شريعته باطناً وظاهراً هو موجب محبة الله ، كاأن الجهاد فى سبيل الله ، وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه هو حقيقتها .

ويقول الحسن البصرى ـــ رحمه الله ـــ : زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم بهذه الآية : **﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾** . لقد ربى الكتاب والسنة الأمة على الحب فى الله والبغض فى الله ، والولاء فى الله والبراء فى الله ، حتى وصلت إلى حد أن لو قذفت فى النار لكان أحب إليها من أن تعود فى الكفر بعد إذ أنقذها الله منه . ولئن كان الولاء والبراء قد غاب اليوم فى واقع حياة المسلمين ـــ إلا من رحم ربك ـــ فإن هذا الغياب لا يغير من الحقيقة الناصعة الجلية شيئاً لأن هذا الأمر العظيم كما يقول الشيخ حمد بن عتيق : « ليس فى كتاب الله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم بعد وجوب التوحيد وتحريم ضده » . وما سر استيراد مذاهب البشرية الإلحادية

وأفكارهم القاصرة إلا نتيجة حتمية لغياب ولائهم لله ورسوله وعدم براءتهم من الطواغيت المقنعة ببهرج الباطل وزيف الحقيقة .

أولياء الرحمن وأولياء الشيطان وطبيعة العداوة بينهما

إن وجود أولياء الرحمن وأولياء الشيطان أمر قديم نشأ منذ خلق آدم ــ عليه السلام ــ وأمر الله للملائكة بالسجود له فسجدت إلا إبليس أبى واستكبر .

وقد تحدث القرآن الكريم عن قصة هذه العداوة بين آدم وإبليس فى سور شتى من أبرزها سورة البقرة وسورة الأعراف وسورة طه وغيرها .

قال تعالى :

﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾(١)

وفى سورة الأعراف يأتى بيان عدم سجود إبليس :

﴿ قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾(٢)

لقد كان أمر الله لإبليس أن يسجد فكان رده ــ لعنه الله ــ الامتناع والاستكبار مستخدماً فى ذلك قياسه الفاسد : إن النار أشرف من الطين ، وهو بهذا ينصب نفسه نداً لله ــ سبحانه وتعالى ــ : الله يقول كذا ، فيقول إبليس أنا أرى كذا ولذلك استحق اللعنة والطرد من رحمة الله .

وانقسام الناس إلى فريق الهدى وفريق الضلال بدأ بهذه البداية كما ذكر ذلك المولى سبحانه :

﴿ هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير ﴾(٣)

فأما الفريق الذى أجاب دعوة الرسل وآمن بكتب الله المنزلة ورسله المبعوثين رحمة للناس فهؤلاء أولياء الرحمن .

وأما الفريق الذى أعرض واستكبر فهم أولياء الشيطان .

وقبل الحديث عن الفريقين ، لابد أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى قد أقام الحجة على عباده فبين لهم عداوة الشيطان ــ حتى بعد قصته مع آدم ــ فهو سبحانه لم يذكر قصة آدم وعداوة إبليس له عدة مرات فى القرآن فحسب ، بل زاد الأمر بياناً فحذر بنى آدم فى مواضع كثيرة من القرآن أن يستمعوا

(١) الآية من ٣٤ - ٣٨ البقرة .
(٢) الآية ١٢ من الأعراف .
(٣) الآية ٢ من سورة التغابن .

لغواية الشيطان ويعرضوا عن طريق الله المستقيم . قال تعالى :

﴿ يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ (١)

ثم يأتى التذكير مع التحذير فى قوله تعالى :

﴿ يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ (٢)

ولم يقتصر البيان القرآنى الكريم على هذا بل قد كشف للناس المخطط الشيطانى ، حتى يبصر كل ذى عينين ويتفكر أولوا الألباب فقال تعالى عن إبليس : ﴿ لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً . ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً . يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ (٣)

ثم يذكر الله للناس مشهداً من مشاهد يوم القيامة حين يندم أولياء الشيطان ولات ساعة مندم فيقول سبحانه :

﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون . ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ﴾ (٤)

ومشهداً آخر لإبليس حتى يتبرأ من أتباعه :

﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي . إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ (٥)

إنه ليس بعد بيان الله بيان ، والأشياء لأصلها تعود كما يقولون فما دام أن إبليس عدو لآدم فلا شك أن اتباع إبليس وحزبه أعداء لأولياء الرحمن وأتباع المرسلين . ومن ثم فلا التقاء بين الفريقين ولا هوادة بينهما إنها الحرب والعدواة والحسد والاستهزاء والسخرية والمكر والخديعة وكل ما يوحى به إبليس لأتباعه ذلك سلاح حزب الشيطان .

وحزب الشيطان أناس يتربصون بالمؤمنين يحاولون ما استطاعوا أن يصدوهم عن ذكر الله ، ولقد أخبرنا الله ـــ جل جلاله ـــ بذلك فى مواضع عدة من كتابه الكريم فقال سبحانه عن سخرية أعداء الله بحزب الله :

﴿ زُيّن للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ (٦)

---

(١) ٢٠٨ سورة البقرة .
(٢) ٢٧ سورة الأعراف .
(٣) ١١٨ - ١٢٠ سورة النساء .
(٤) ٥٩ - ٦١ سورة يس .
(٥) ٢٢ سورة ابراهيم .
(٦) ٢١٢ سورة البقرة .

﴿ قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾(١)

﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون . وإذا مروا بهم يتغامزون . وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين . وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ﴾(٢)

وانظر إلى التصوير القرآنى لعداوة حزب الشيطان ، وما تنطوى عليه نفوسهم ضد المؤمنين فى قوله تعالى :

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير ﴾(٣)

وهاهنا حقيقة هامة وهى : إن العداوة التى وقعت بين آدم ـــ عليه السلام ـــ وبين إبليس هى عداوة قائمة إبليس وبنى آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وتاريخ البشرية كله ما هو إلا مصداق لحقيقة انقسام الناس إلى فريق الهدى والرشاد وفريق الهوى والشهوة والشيطان .

﴿ خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾(٤) .

وعلى ذلك فإنه لا التقاء بين الفريقين فى الدنيا ولا فى الآخرة ولذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـــ رحمه الله ـــ : (ومن سنّة الله : أنه إذا أراد إظهار دينه ، أقام من يعارضه ، فيحق الحق بكلماته ، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) .

وانظر إلى عداوة قوم نوح ـــ عليه السلام ـــ له ، وقوم عاد وقوم صالح وشعيب وإبراهيم وموسى وعيسى ثم محمد ـــ ﷺ ـــ ، ثم العداوة التى تقابل بها الجاهلية أهل الإيمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وإذا كان أولياء الرحمن مصرين على اتباع هدى ربهم فإن أولياء الشيطان يصرون أيضاً على التردى فى حمأة الجهل والضلال ، عابدين للطاغوت سواء كان هذا الطاغوت نداً يعبد ، أو شهوة يراد إشباعها أو جنساً أو لغة أو سلطة أو أرضاً أو دين الآباء الأولين . وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾(٥)

أما حزب الرحمن فهم « الذين ينتمون إليه سبحانه ، ويستظلون برايته ، ويتولونه ولا يتولون أحداً غيره ، وهم أسرة واحدة وأمة واحدة من وراء الأجيال والقرون ، ومن وراء المكان والأوطان ، ومن وراء القوميات والأجناس ، ومن وراء الأرومات والبيوت » .

وقد جاء الدين الإسلامى بفيصل التفرقة بين الحق والباطل ، وبين الأسلام والجاهلية ، فلم يجعل التقاء الناس على أساس العرق أو اللون أو الجنس أو التراب . كما تفعل ذلك الجاهليات القديمة والحديثة

---

(١) ٧٦ سورة الأعراف .
(٢) الآيات من ٢٩ - ٣٢ من سورة المطففين .
(٣) ٧٢ سورة الحج .
(٤) ٢ سورة التغابن .
(٥) ٢٥٧ سورة البقرة .

على السواء — بل جعل التقاء الناس على العقيدة فى الله ، وجعل المفاضلة بينهم بالعمل الصالح .

قال تعالى :

﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ ١٣ الحجرات .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ولا لأسود على أبيض ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى . كلكم لآدم وآدم من تراب »[١] .

وقال أيضاً : « إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء ، مؤمن تقى وفاجر شقى »[٢] . ولقد تبرأ المصطفى — ﷺ — من أقرباء له ليسوا على دينه ، ليضع من نفسه قدوة للمؤمنين فقال فيما رواه عمرو بن العاص — رضى الله عنه — سمعت رسول الله — ﷺ — يقول جهاراً من غير سر : « إن آل فلان — أناس من أقاربه — ليسوا لى بأولياء ، إنما وليى الله وصالح المؤمنين »[٣] متفق عليه .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن أولى الناس بى المتقون من كانوا وحيث كانوا » وهذا موافق لقوله تعالى[٤] :

﴿ فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ﴾ ٤ التحريم .

من هنا كان المؤمنون هم أولياء الله لأنهم استجابوا لما أراد الله فتلقوا منه وحده ، وعبدوه وحده ، وخافوه وحده . بعكس الفريق الثانى فإنهم كلما دعاهم رسول من رسل الله قالوا :

﴿ بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾ ١٧٠ البقرة .

﴿ وإذ قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ﴾ ١٠٤ المائدة

ومن صفات أولياء الرحمن : الاستجابة والانقياد لحكم الله وشرعه واتباع أمره . قال تعالى :

﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾ ٥١ النور

أما أولياء الشيطان : فمن سماتهم الإعراض عن حكم الله وشرعه ، واتباع الهوى والشيطان .

---

(١) مسند أحمد ٥ / ٤١١

(٢) سنن الترمذى — كتاب المناقب — باب فضل الشام واليمن ٥ / ٧٣٤ رقم ٣٩٥٥ وقال : حديث حسن غريب ، وسنن أبى داود — كتاب الأدب — باب فى التفاخر بالأحساب ٥ / ٣٣٩ رقم ٥١١٦

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الإيمان — باب موالاة المؤمنين ومقاطعة غيرهم رقم ١٢٨

(٤) مسند أحمد ٥ / ٢٣٥

قال تعالى :

﴿ ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليّا بألسنتهم وطعناً فى الدين ﴾
٤٦ النساء .

وقال :

﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون ﴾ ٢٢ السجدة .

يقول العلامة ابن القيم : « كل من كذب رسول الله ـــ ﷺ ـــ وأعرض عن متابعته ، وحاد عن شريعته ، ورغب عن ملته ، واتبع غير سنته ، ولم يتمسك بعهده ، ومكن الجهل من نفسه ، والهوى والفساد من قلبه ، والجحود والكفر من صدره ، والعصيان والمخالفة من جوارحه ، فهو ولى الشيطان » .

ومن سمات أولياء الشيطان أنهم : (إذا جاء الحق معارضاً فى طريق رسالتهم طحنوه ، وداسوه بأرجلهم ، فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل ، فإن عجزوا عن ذلك حبسوه فى الطريق ، وحادوا عنه إلى طريق أخرى ، وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان ، فإن لم يجدوا منه بداً أعطوه السكة والخطبة ، وعزلوه عن التصرف والحكم والتنفيذ ، وإن جاء الحق ناصراً لهم ، وكان لهم ، صالوا به وجالوا ، وأتوا إليه مذعنين لا لأنه حق ، بل لموافقته غرضهم وأهوائهم .

﴿ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين . أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون ﴾
٤٨ ـــ ٥٠ النور

طبيعة العداوة بين الفريقين

بعد أن بينا سمات الفريقين ، نتحدث الآن عن العداوة بينهما ، ومعرفة هذه العداوة أمر لابد منه لتمييز الخبيث من الطيب .

﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ ١٧٩ آل عمران

ومعرفة العداوة بين الفريقين أمر هام يكشف العوبة بعض المتسمين بأسماء إسلامية وهم يسعون لتذويب المسلم فى خضم الجو الجاهلى المعاصر وتمييع ولائه لربه ودينه وإخوانه المسلمين . وأمانة براءته وعداوته لكل عدو لهذا الدين . هذه الحقيقة الهامة الناصعة يحاول أعداؤنا تزييفها : بأن الكفار أصدقاء أوفياء شرفاء يجب أن يكون لهم الحب والتقدير ، والإجلال والإكبار والتعظيم ، يقولون إننا متأخرون وهؤلاء القوم متقدمون يجب أن نسلك مسلكهم ، وننهج نهجهم **نقتفى** آثارهم فى كل وضع وحال ، نأخذ حضارتهم بكاملها حلوها ومرها ، حقها وباطلها ، بل إنه لا بطال فيها .

ولكن هيهات خسئوا وخابوا ، إن حزب الله هم الأعلون عند الله قدراً ، وهم الأعلون ولو كانوا أقل عدداً ، وحزب الشيطان هم الخاسرون ولو كانوا عدد الحصى .

ولابد أن يسبق حديث العداوة بين الفريقين ، نبذة بسيطة عن عداوة إبليس للإنسان حتى نعلم **مداخل الشيطان لهذه النفس البشرية ، ومدى تلبيسة الحق بالباطل على أوليائه فيبيّن الحق للمؤمن فيأخذ الحذر على نفسه ومن معه ، ويعبد الله على بصيرة منه ونور من شرعه .**

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أن عداوة الشيطان للإنسان تتمثل فى ست مراتب نذكرها هنا باختصار :

(١) الكفر والشرك ، ومعاداة الله ورسوله ، فإذا ظفر الشيطان بذلك من ابن آدم برد أنينه ، واستراح من تعبه معه ، وهو أول ما يريد من العبد ، فإن ظفر به صيره من عسكره ونوابه ، فصار من دعاة إبليس ، فإن يئس من ذلك نقله للمرتبة الثانية من الشر وهى :

(٢) البدعة : لأنها أحب إليه من : الفسوق والعصيان ، وذلك أن ضررها فى نفس الدين وهو ضرر متعد ، وهى مخالفة لدعوة الرسل ، فإن كان الشخص ممن يعادى أهل البدع والضلال نقله إلى المرتبة الثالثة وهى :

(٣) الكبائر : على اختلاف أنواعها : فيحرص أن يوقعه فيها ، خاصة إذا كان عالماً متبوعاً لينفر الناس عنه . ومن المعلوم أن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم ، هذا إذا أحبوا **إشاعتها ، فكيف إذا تولوا هم إذاعتها ؟ فإن عجز عن هذه نقله للتى بعدها وهى :**

(٤) الصغائر : التى إذا اجتمعت ربما أهلكت صاحبها ، كما قال النبى — ﷺ — : « إياكم ومحقرات الذنوب ، فإن مثل ذلك قوم نزلوا بغلاة من الأرض »[١] . وذكر حديثاً معناه : أن كل واحد منهم جاء بعود حطب حتى أوقدوا ناراً عظيمة فطبخوا واشتووا . ولا يزال يسهل عليه أمر الصغائر حتى يستهين بها ، فيكون صاحب الكبيرة الخائف أحسن حالاً منه ، فإن أعجزه العبد عن هذه نقله للخامسة .

(٥) اشتغاله بالمباحات التى لا ثواب فيها ولا عقاب ، بل عاقبتها فوات الثواب الذى ضاع عليه باشتغاله بها ، فإن أعجزه العبد عن هذه بأن كان حافظاً لوقته شحيحاً به ، يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها وما يقابلها من النعيم والعذاب نقله للتى بعدها .

(٦) اشتغاله بالعمل المفضول عن الفاضل ليزيح عنه الفضيلة ويفوته ثواب العمل الفاضل ، ويفتح له أبواب خير كثيرة ، كما ورد أنه يأمر بسبعين باباً من أبواب الخير إما ليتوصل إلى باب واحد من الشر وإما ليفوت بها خيراً أعظم من تلك السبعين وأجل وأفضل . وهذا أمر لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور الله يقذفه فى قلب العبد ، يكون سببه تجريد متابعة الرسول — ﷺ — وشدة عنايته بمراتب الأعمال

(١) مسند أحمد ١ / ٤٠٢ ، ٥ / ٣٣١

عند الله ، وأحبها إليه ، وأرضاها له ، وهذا لا يعرفه إلا من كان من ورثة الرسول – ﷺ – ونوابه فى الأمة ، وخلفائه فى الأرض والله يمن بفضله على من يشاء من عباده .

وما دام أن هذا هو كيد الشيطان للإنسان ، فما هو سبب العداوة ومثيرها بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ؟

والجواب على ذلك أحد أمور أربعة أو الأربعة مجتمعة :

(١) الكبر : فأولياء الشيطان استكبروا على الحق وعلى الرسول وعلى الرسالة .

قال الله تعالى فيهم :

﴿ إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان آتاهم إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير ﴾ ٥٦ غافر

﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾ ٨٧ البقرة .

وقال تعالى :

﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأنَّ فى أذنيه وقراً فبشره بعذاب أليم ﴾ ٧ لقمان .

(٢) استحباب الحياة الدنيا على الآخرة ، واللصوق بالشهوات واللذائذ . قال تعالى :

﴿ ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ ١٠٧ النحل .

﴿ الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً أولئك فى ضلال بعيد ﴾ ٣ إبراهيم .

وإذا وجد الكبر وحب الدنيا على الآخرة أو أحدهما : فإن أرباب ذلك ينزعجون من وجود عباد الله المخلصين ، حتى ولو لم يظهر لهم منهم أى احتكاك فإن وجودهم بهذا النقاء وبهذه الطهارة وبذلك الاستعلاء أمر يغيظ أعداء الله .

قال تعالى :

﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ﴾ ٨٩ النساء .

ذلك أن وجود الفريق الطاهر يشعر الفريق الدنس بخبث طويته وقبيح فعله ، فمن هنا يبدأ كيد أعداء الله لأولياء الله بكل ما تعنى كلمة « كيد » سواء كان ذلك بالسخرية أو الاستهزاء ، أو العذاب والاضطهاد ، أو التربص للمؤمنين بكل ما يسوء .

(٣) الحسد : فثائرة أولياء الشيطان لا تهدأ ، ولذلك يكنون للمؤمنين الحسد والحقد ، وقد بين الله ذلك فى كتابه العزيز بقوله تعالى :

﴿ ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره إن الله على كل شىء قدير ﴾ ١٠٩ البقرة

أجل هذه هى أمنيتهم أن يكفر عباد الله ليتساوا معهم فى الكفر والضلال ، وقد بين الله عظيم حقدهم وحسدهم لو ظهروا على المؤمنين فقال تعالى :

﴿ كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلّاً ولاذمة ﴾ ٨ التوبة

(٤) سلب الهيمنة والولاء : وهذا أمر يختص بـ « الملأ » أى السيادة والطواغيت الذين يستعبدون الناس ، حيث يتقدم الناس لهم بالإجلال والتعظيم والرغبة والرهبة والخوف والرجاء . فإذا جاء دين الله وشرعه الذى يحرر الناس من عبودية العبيد إلى عبادة الواحد القهار فإن « الملأ » يثورون ويعادون دعاة الخير لأنهم يشعرون حينئذ أن سلطانهم قد سلب وإن شرفهم قد زال وإن الناس لم يعودوا يخشونهم أو يرهبونهم لأن دين الله قد حررهم وأعزهم وعبّدهم لله فخوفهم من الله وحبهم لله وولائهم لله وبغضهم فى الله .

ودليل هذا فعل كسرى حين جاءه كتاب رسول الله ــ ﷺ ــ يدعوه إلى الدخول فى الإسلام فاستكبر فى نفسه وكأنه يقول : أمر عجيب الأعراب الذين كانوا رعاة لنا يأتون إلىّ لأدخل فى دينهم **الجديد وظن أن ملكه سيزول إذا دخل فى الدين الجديد فما كان منه إلا أن مزق الكتاب قد استجاب** الله دعوة نبيه ــ ﷺ ــ فمزق الله ملك كسرى شر ممزق فهكذا الطواغيت التى لا تدين لله بالولاء والسلطة والحاكمية تعادى أولياء الرحمن وتصب عليهم أشد أنواع العذاب كما قال تعالى :

﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ البروج الآية : ٨

والجاهلية لا تكره الإسلام لأنها ـ فى دخيلة نفسها ـ لا تعرف ما فيه من الحق والخير أو لأنها ـ بينها وبين نفسها ـ تعتقد حقاً أن باطلها الذى تعيش فيه أصوب وأقوم من الإسلام ! كلا ! فهى تكرهه وهى عالمة بما فيه من الحق والخير وبأنه هو الذى يقوم ما اعوج من شؤون الحياة وإنما تكرهه لأنها حريصة على هذا العوج لا تريد تقويمه وتود أن تبقى الأمور على اعوجاجها ولا تستقيم ، تكرهه لأنها هى الجاهلية ..... وهو الإسلام ! .

﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ فصلت الآية : ١٧

أما طبيعة عداوة أولياء الرحمن لأعدائهم : فهى جزء من عقيدتهم وأحسب أنى فضلت القول فى هذا فى التمهيد حين تكلمت عن لوازم لا إله إلا الله من أنهم يبغضون فى الله من حاد الله ورسوله .

قال تعالى :

﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوآدون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾[1] .

« إنهم لا يلتقون مع أعدائهم فى منتصف الطريق بل يقولون كما قال إمامهم إبراهيم ــ عليه السلام ــ

(١) سورة المجادلة الآية : ٢٢

« إنا برءاؤ منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده » .

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله : « إنه لا يستقيم للإنسان إسلام ــ ولو وحد الله وترك الشرك ــ إلا بعداوة المشركين والتصريح لهم بالعداوة والبغض كما قال تعالى : ﴿ **لا تجد قوماً** ﴾ وما دمنا قد عرفنا منطلق العداوة وحقيقتها فيجب أن نعلم أن هذا هو (القاسم المشترك) بين أعداء **الإسلام بشتى أصنافهم كفار ومشركين ومنافقين وكل من كره الإسلام وعاداه ..**

إن طبيعة المنهج الإسلامى التى يعرفها جيداً أصحاب المناهج الأخرى طبيعة الإصرار على إقامة مملكة الله فى الأرض وإخراج الناس كافة من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . وتحطيم الحواجز المادية التى تحول بين الناس كافة . وبين حرية الاختيار الحقيقية ... ثم إنها طبيعة التعارض بين منهجين للحياة ، لا التقاء بينهما فى صغيرة ولا كبيرة وحرص أصحاب المناهج الأرضية على سحق المنهج الربّانى الذى يهدد وجودهم ومناهجهم وأوضاعهم قبل أن يسحقهم فهى حتمية لا اختيار فيها فى الحقيقة لهؤلاء ولا لهؤلاء .... وهذه الظاهرة يقررها القرآن بقوله : ﴿ **ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا** ﴾(١)

ونذكر بعض عداوات هذه الأصناف حسبما نص عليه القرآن الكريم فأما الكفار فقد قال الله تعالى عنهم : -

﴿ **يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون** ﴾(٢)

وقال فى شأن « المشركين » : ــ

﴿ **ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم** ﴾(٣) .

﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾(٤)

وأما عداوة أهل الكتاب فالله يقول عنهم : ــ

﴿ **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم** ﴾(٥) .

﴿ **لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود** ﴾(٦)

﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل** ﴾(٧) .

﴿ **وإذا لقوكم قالوا ءامنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور** ﴾(٨) .

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢١٧
(٢) سورة الصف الآية : ٨
(٣) سورة البقرة الآية : ١٠٥
(٤) سورة التوبة الآية : ٣٣
(٥) سورة البقرة الآية : ١٢٠
(٦) سورة المائدة الآية : ٨٢
(٧) سورة النساء . الآية : ٤٤
(٨) سورة آل عمران الآية : ١١٩

أما عداوة المنافقين : فقد نبه القرآن الكريم على ذلك فى مواضع كثيرة ومن ذلك ما ورد فى أول سورة البقرة حيث ذكرهم فى ثلاثة عشرة آية من آية ٨ ـ ٢٠ وذلك لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله فإن بلية الإسلام بهم شديدة جداً ، لأنهم منسوبون إليه وإلى نصرته وموالاته وهم أعداؤه فى الحقيقة يخرجون عداوته فى كل قالب يظن الجاهل أنه علم وإصلاح وهو غاية الجهل والإفساد .

« فيال الله كم معقل للاسلام هدموه ! وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخربوه وكم من لواء مرفوع قد وضعوه ... اتفقوا على مفارقة الوحى فهم على ترك الاهتداء به مجتمعون :

﴿ فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾[1] رأس مالهم الخديعة والمكر وبضاعتهم الكذب وعندهم العقل المعيشى : إن الفريقين عنهم راضون وهم بنبيهم آمنون .

﴿ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾[2]

« من علقت مخالب شكوكهم بأديم إيمانه مزقته كل تمزيق ، ومن تعلق شرر فتنتهم بقلبه ألقاه فى عذاب الحريق ، خرجوا فى طلب التجارة البائرة فى بحار الظلمات فركبوا مراكب الشبه والشكوك ، تجرى بهم فى موج الخيالات فلعبت بسفنهم الريح العاصف ، فألقتها بين سفن الهالكين .

﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾[3]

وقد نزلت بخصوصهم سورة كاملة فى القرآن هى سورة ﴿ المنافقون ﴾ وقد ورد فيها صريح عداوتهم للمؤمنين فى قوله تعالى عنهم : ـــ

﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون . يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾[4]

وما دمنا قد عرفنا عداوات هذه الأصناف للإسلام فإنه لجدير بنا أن نؤكد خطورة عداوة اليهود والنصارى لأنهم هم المسيطرون اليوم على معظم بقاع الأرض وهم الذين يشون غزوهم بشتى الأساليب وهم رمز « البهرج والانبهار » أمام المخدوعين من أبناء المسلمين .

يقول الأستاذ سيد قطب ـــ رحمه الله ـــ : إن حقيقة المعركة التى يشنها اليهود والنصارى فى كل أرض وفى كل وقت ضد الجماعة المسلمة هى من أجل العقيدة . وهم قد يختصمون فيما بينهم ولكنهم يلتقون دائماً فى المعركة ضد الإسلام والمسلمين وقد يرفعون لهذه المعركة أعلاماً شتى ـــ فى خبث ومكر ـــ لأنهم قد جربوا حماسة المسلمين لدينهم وعقيدتهم حين واجهوهم تحت راية العقيدة ، فخوفاً من حماس العقيدة الإسلامية وجيشانها : أعلنوا الحرب باسم الأرض والاقتصاد والسياسة والمراكز العسكرية ، وألقوا فى روع المخدوعين منا : إن حكاية العقيدة قد صارت حكاية قديمة لا معنى لها !

(١) سورة المؤمنون الآية : ٥٣
(٢) سورة البقرة الاية : ٩
(٣) سورة البقرة الآية : ١٦
(٤) سورة المنافقون الآيتان : ٧ ، ٨

ولا يجوز رفع رايتها وخوض المعركة باسمها فهذه سمة المتخلفين المتعصبين ! وذلك ليأمنوا جيشان العقيدة من جديد ، بينما هم فى قرارة نفوسهم جميعاً : يخوضون المعركة أولاً وقبل كل شىء لتحطيم هذه الصخرة العاتية التى نطحوها طويلاً **فأدمتهم** جميعاً !

فإذا نحن خدعنا بخديعتهم فلا نلومن إلا أنفسنا ونحن نبتعد عن توجيه الله لنبيه ــ ﷺ ــ ولأمته وهو سبحانه أصدق القائلين .

﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾(١)

هذا هو الثمن الوحيد الذى يرتضونه وما سواه فمرفوض ومردود ولكن الأمر الحازم والتوجيه الصادق **﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ﴾**(٢) على سبيل القصر والحصر هدى الله هو الهدى وما عداه فليس بهدى وخلاصة القول :

إن حقيقة العداوة وطبيعتها هو إختلاف الدينين وافتراق المنهجين . فإما دين الله واتباع شرعه وموالاة عباده المؤمنين .

وإما دين الباطل واتباع الهوى والشهوات والشيطان والانضمام إلى حزب الشيطان . فعلى أولياء **الله أن يعتزوا بدينهم ، وأن يستعلوا فوق وطأة الباطل فإنهم هم المنصورون ، وإذا كان أعداء الله يتباهون بقوتهم وكثرة عددهم وعدتهم فإن المؤمنين يفخرون بنصر الله وكريم معيته وعونه لهم .**

فقد ورد فى جملة البخارى عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ــ ﷺ ــ قال :

« يقول الله تعالى : « من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلىّ عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ولئن إستعاذنى لأعيذنه وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبضه نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ولابد له منه ﴾(٣) ويقول الله تبارك وتعالى :

﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾(٤)

﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ﴾(٥)

﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ﴾(٦)

وإذا قلبنا صفحات التاريخ وجدنا مصداق ذلك ، ففى غزوة بدر نصر الله القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة وأعز دينه ونصر حزبه وفتوحات المسلمين شرقاً وغرباً وتحطيم عروش كسرى وقيصر ليست

(١) سورة البقرة الآية : ١٢٠ (٢) سورة البقرة الآية : ١٢٠

(٣) صحيح البخارى ــ كتاب الرقائق ــ باب التواضع ٨ / ١٣١

(٤) سورة النحل الاية : ١٢٨ (٦) سورة محمد الآية : ٣٥

(٥) سورة الأنفال الآية : ١٢

بغائبة عن الأذهان . ونصر الله وتأييده للمؤمنين فى معركتهم مع التتار ومع الصليبيين الحاقدين . وغيرها من مئات الحوادث سواء كانت على مستوى الفرد أم الجماعة خير شاهد على ما نقول .

وسيبقى النصر والعون والمدد لأولياء الله إن شاء الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وما على المؤمنين إلا الصدق مع الله والإخلاص فى العمل ابتغاء مرضاته هو وحده والعمل وفق كتابه وسنة نبيه ولن يضيع الله أجر من أحسن عملاً .

« عقيدة أهل السنة والجماعة فى الولاء والبراء »

لابد أن نذكر معتقد أهل السنة والجماعة فى الولاء والبراء حتى يخرج بذلك أرباب البدع والأهواء **التى لا تستند إلى دليل قوى من كتاب الله أو سنة رسوله - ﷺ -**

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـــ رحمه الله ـــ : على المؤمن أن يعادى فى الله ويوالى فى الله فإن كان هناك مؤمن فعليه أن يواليه وإن ظلمه ـــ فإن الظلم لا يقطع الموالاة الإيمانية » .

قال تعالى : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما** ﴾ (١)

فجعلهم إخوة مع وجود القتال والبغى وأمر بالإصلاح بينهم فليتدبر المؤمن : إن المؤمن تجب موالاته وإن ظلمك واعتدى عليك والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن إليك فإن الله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب ليكون الدين كله لله فيكون الحب لأوليائه والبغض لأعدائه والإكرام والثواب لأوليائه والإهانة والعقاب لأعدائه .

وإذا اجتمع فى الرجل الواحد : خير وشر وفجور وطاعة ومعصية وسنة وبدعة استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر فيجتمع فى الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة كاللص يقطع يده لسرقته ويعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته هذا هو الأصل الذى اتفق عليه أهل السنة والجماعة وخالفهم الخوارج والمعتزلة ومن **وافقهم** .

ولما كان الولاء والبراء مبنيين على قاعدة الحب والبغض كما أسلفنا فيما سبق فإن الناس فى نظر أهل السنة والجماعة ـــ بحسب الحب والبغض والولاء والبراء ـــ ثلاثة أصناف :

الأول : ـــ من يحب عمله وهو من آمن بالله ورسوله وقام بوظائف الإسلام ومبانيه العظام علماً وعملاً واعتقاداً ، وأخلص أعماله وأفعاله وأقواله لله ، وانقاد لأوامره وانتهى عما نهى الله عنه ورسوله وأحب فى الله ووالى فى الله وأبغض فى الله ، وعادى فى الله وقدم قول رسول الله ـــ ﷺ ـــ على قول كل أحد كائناً من كان .

الثانى : ـــ من يحب وجه ويبغض من وجه ، فهو المسلم الذى خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، فيحب ويوالى على قدر ما معه من الخير ، ويبغض أكثر مما يصلح .. وإذا أردت الدليل على ذلك فهذا عبد

(١) سورة الحجرات الآية : ٩

الله بن حماز وهو رجل من أصحاب رسول الله — ﷺ — كان يشرب الخمر فأتى به إلى رسول الله — ﷺ — فلعنه رجل وقال: ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبى — ﷺ — « لا تلعنوه فوالله ما علمت **إلا أنه يحب الله ورسوله »(١) مع أنه - ﷺ - لعن الخمر وشاربها وبائعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه .**

الثالث : — من يبغض جملة وهو من كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ولم يؤمن بالقدر خيره وشره وأنه كله لقضاء الله وقدره وأنكر البعث بعد الموت أو ترك أحد أركان الإسلام الخمسة أو أشرك بالله فى عبادته أحداً من الأنبياء والأولياء والصالحين وصرف لهم نوعاً من أنواع العبادة كالحب والدعاء والخوف والرجاء والتعظيم والتوكل والاستعانة والاستعاذة والاستغاثة والذبح والنذر والإنابة والذل **والخضوع والخشية والرغبة والرهبة والتعلق ، أو الحد فى أسمائه وصفاته واتبع غير سبيل المؤمنين وانتحل ما كان عليه أهل البدع والأهواء المضلة وكذلك كل من قامت به نواقض الإسلام العشرة أو أحدها .**

فأهل السنة والجماعة — إذن — يوالون المؤمن المستقيم على دينه ولاء كاملاً ويحبونه وينصرونه نصرة كاملة — ويتبرأون من الكفرة والملحدين والمشركين والمرتدين ويعادونهم عداوة وبغضاً كاملين أما من خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً فيوالونه بحسب ما عنده من الإيمان ويعادونه بحسب ما هو عليه من الشر ، وأهل السنة والجماعة يتبرأون ممن حاد الله ورسوله ولو كان أقرب قريب .

﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوآدون من حاد الله ورسوله ولو كانوا أباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾(٢)

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون . قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾(٣)

ويلخص الامام ابن تيمية مذهب أهل السنة والجماعة فيقول :

الحمد والذم والحب والبغض والموالاة والمعاداة إنما تكون بالأشياء التى أنزل الله بها سلطانه وسلطانه كتآبه فمن كان مؤمنا وجبت موالاته من أى صنف كان ومن كان كافراً وجبت معاداته من أى صنف كان .

قال تعالى : **﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ، ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾(٤)**

---

(١) صحيح البخارى — كتاب الحدود — باب ما يكره من لعن شارب الخمر ٨ /١٩٧

(٢) سورة المجادلة الآية : ٢٢ (٣) سورة التوبة الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ (٤) سورة المائدة الآيتان : ٥٥ ، ٥٦

وقال ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض** ﴾[(١)]

وقال : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض** ﴾[(٢)] .

ولايجعل الأنبياء والصديقون والشهداء الصالحون بمنزلة الفساق فى الإيمان والدين والحب والبغض والموالاة والمعاداة . قال تعالى :

﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما إلى قوله ﴿ إنما المؤمنون إخوة** ﴾[(٣)]

فجعلهم إخوة مع وجود الاقتتال والبغي .

ولهذا كان السلف مع الاقتتال يوالى بعضهم بعضاً موالاة الدين لا يعادون كمعاداة الكفار ، فيقبل بعضهم بشهادة بعض ويأخذ بعضهم العلم من بعض ويتوارثون ويتناكحون ويتعاملون بمعاملة المسلمين بعضهم مع بعض مع ما كان بينهم من القتال والتلاعن وغير ذلك .

الولاء والبراء القلبى

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة فى هذا الموضوع أن الولاء القلبى وكذلك العداوة يجب أن تكون كاملة .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : فأما حب القلب وبغضه وإرادته وكراهته فينبغى أن تكون كاملة جازمة لا توجب نقص ذلك إلا بنقص الإيمان وأما فعل البدن فهو بحسب قدرته ومتى كانت إرادة القلب وكراهته كاملة تامة وفعل العبد معها بحسب قدرته فلن يعطى ثواب الفاعل الكامل .

ذلك أن من الناس من يكون حبه وبغضه وإرادته وكراهته بحسب محبة نفسه وبغضها لا بحسب محبة الله ورسوله وبغض الله ورسوله وهذا نوع من الهوى فإن اتبعه الإنسان فقد اتبع هواه ﴿ **ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله** ﴾[(٤)] .

« موقف أهل السنة والجماعة من أصحاب البدع والأهواء »

يدخل فى معتقد أهل السنة والجماعة البراءة من أرباب البدع والأهواء والبدعة : مأخوذة من الابتداع وهو الاختراع وهو الشىء يحدث من غير أصل سبق ولا مثال احتذى ولا إلف مثل ومنه قولهم : ابتدع الله الخلق أى خلقهم ابتداء ومنه قوله تعالى :

﴿ **بديع السموات والأرض** ﴾[(٥)]

وقوله ﴿ **قل ما كنت بدعاً من الرسل** ﴾[(٦)]

---

(١) سورة المائدة الآية : ٥١
(٢) سورة التوبة الآية : ٧١
(٣) سورة الحجرات الآيات : ٩ ، ١٠
(٤) سورة القصص الآية : ٥٠
(٥) سورة البقرة الآية : ١١٧
(٦) سورة الأحقاف الآية : ٩

أى لم أكن أول رسول إلى أهل الأرض .

وهذا الاسم يدخل فيما تخترعه القلوب وفيما تنطق به الألسنة وفيما تفعله الجوارح .

قال ابن الجوزى : « البدعة عبارة عن فعل لم يكن فابتدع . والأغلب فى المبتدعات أنها تصادم الشريعة بالمخالفة وتوجب التعاطى عليها بزيادة أو نقصان » .

ولقائل أن يقول : ما شأننا الآن وأصحاب البدع لاسيما وأنت تتكلم عن ولاء الكفار والبراء منهم وموالاة المؤمنين ونصرتهم ؟ ؟

والجواب على ذلك : أولاً : أن البدعة خطرها عظيم وكبير والدليل على ذلك أنها تنقسم إلى رتب متفاوته ما بين الكفر الصريح إلى الكبيرة والصغيرة وفى هذا يقول الإمام الشاطبى : « البدعة تنقسم إلى رتب متفاوته منها ما هو كفر صراح كبدعة الجاهلية التى نبه عليها القرآن بقوله :

﴿ **وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا** ﴾(١)

وقوله تعالى :

﴿ **وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم علىّ أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء** ﴾(٢)

وقوله : ﴿ **ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام** ﴾(٣)

وكذلك بدعة المنافقين حين اتخذوا الدين ذريعة تحفظ النفس والمال وما أشبه ذلك مما لا يشك أنه كفر صراح .

وقضية التحليل والتحريم خصوصية لله ــ عز وجل ــ فمن ادعى التحليل والتحريم فقد شرّع ومن شرع فقد أله نفسه . وكما أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ هو الخالق فهو أيضاً صاحب الأمر والسلطان : قال تعالى :

﴿ **ألا له الخلق والأمر** ﴾(٤)

وقال سبحانه :

﴿ **ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب** ﴾(٥)

فهذه البدعة الكفرية وأمثالها لأصحابها منا العداء والبغض والكره والجهاد بعد الإعذار والإنذار والبراءة منهم لا تختلف عن البراءة من الكافر الأصلى .

فقد قال ــ ﷺ ــ « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد »(٦)

---

(١) سورة الأنعام الآية : ١٣٦
(٢) سورة الأنعام الآية : ١٣٩
(٣) سورة المائدة : ١٠٣
(٤) سورة الأعراف الآية : ٥٤
(٥) سورة النحل الآية : ١١٦
(٦) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ــ كتاب الأقضية ــ باب نقض الأحكام الباطلة رقم ١١٢٠

قال البغوى : « وقد أتفق علماء السنة على معاداة أهل البدعة ومهاجرتهم ونعود لرتب البدع كما ذكرها الشاطبى فقال : « ومن البدع ما هو من المعاصى التى ليست بكفر أو يختلف فيها هل هى كفر أم لا ؟ كبدعة الخوارج والقدرية والمرجئة ومن أشبههم من الفرق الضالة . ومنها ما هو معصية ويتفق على أنها ليست بكفر ، كبدعة التبتل والصيام قائماً فى الشمس والخصاء بقصد قطع شهوة الجماعة .

ومنها : ما هو مكروه كالاجتماع للدعاء عشية عرفة ، وذكر السلاطين فى خطبة الجمعة على ما قاله ابن عبد السلام الشافعى . وما أشبه ذلك »

فأرباب هذه البدع يتبرأ منهم أهل السنة والجماعة .

ثانياً : ــ لخطورة البدع على الدين أورد هنا نماذج من أقوال سلف الأمة فى التحذير من البدع وأصحابها .

ومن ذلك ما قاله الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود ــ رضى الله عنه ــ حيث يقول : ــ « من كان مستناً فليتسنى بمن قد مات : أولئك أصحاب محمد ــ ﷺ ــ كانوا خير هذه الأمة أبرها قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ــ ﷺ ــ ونقل دينه فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم فهم كانوا على الهدى المستقيم »

وقال سفيان الثورى ــ رحمه الله ــ : البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ، المعصية يتاب منها ، والبدعة لا يتاب منها . وقال الامام مالك ــ رحمه الله ــ : من أحدث فى هذه الأمة شيئاً لم يكن عليه سلفها فقد زعم أن رسول الله ــ ﷺ ــ خان الدين لأن الله تعالى يقول :

﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾[1] « فما لم يكن يومئذ ديناً لا يكون اليوم ديناً »

وذكر الشاطبى ــ رحمه الله ــ أن مفاسد البدع تنحصر فى أمرين : ــ

(١) أنها مضادة للشارع ومراغمة له حيث نصب المبتدع نفسه منصب المستدرك على الشريعة لا منصب المكتفى بما حوله .

(٢) أن كل بدعة ــ وإن قلت ــ تشريع زائد أو ناقص أو تغيير للأصل الصحيح وكل ذلك قد يكون على الانفراد وقد يكون ملحقاً بما هو مشروع فيكون قادماً فى المشروع ولو فعل أحد مثل هذا فى نفس الشريعة عامداً لكفر إن الزيادة والنقصان فيها أو التغيير ــ قل أو كثر ــ كفر . وبعض هذا النظر عموم الأدلة فى ذم البدع ومنها : قوله ــ ﷺ ــ « كل بدعة ضلالة »[2]

وقوله ــ ﷺ ــ : « من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً »[3]

---

(١) سورة المائدة الآية : ٣

(٢) سنن أبى داود ــ كتاب السنة ــ باب فى لزوم السنة ٥ /١٥ رقم ٤٦٠٧ وابن ماجه ــ المقدمة ١ /١٦ رقم ٤٢

(٣) صحيح مسلم ــ كتاب العلم ــ باب من سن سنة حسنة أو سيئة ٤ / ٢٠٦٠ رقم ١٦ والترمذى كتاب العلم رقم ٢٦٧٦ باب فيمن دعا إلى هدى . وابن ماجه فى المقدمة ــ باب من سن سنة حسنة رقم ٢٠٦ وقال : الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

وقال أحد علماء السلف لا تجالسوا أصحاب الأهواء ، أو قال أصحاب الخصومات فإنى لا آمن أن يغمسوكم فى ضلالتهم ويلبسوا عليكم بعض ما تعرفون »

فالخلاصة : أنه من معتقد أهل السنة والجماعة البراء من البدعين خاصة أصحاب البدع الكفرية .

سورة الحشر

قال صاحب البصائر :

« السورة مدنية بالاتفاق . آياتها أربع وعشرون ، كلماتها أربعمائة وخمس وأربعون . حروفها ألف وتسعمائة وثلاث عشرة . فواصل آياتها (من بر) على الباء آيتان : العقاب فى موضعين . سميت سورة الحشر ، لقوله : لأول الحشر » .

معظم مقصود السورة : الخبر عن جلاء نبى النضير وقسم الغنائم وتفصيل حال المهاجرين والأنصار والشكاية من المنافقين فى واقعة قريظة وذكر برصيصاء العابد والنظر إلى العواقب وتأثير نزول القرآن وذكر أسماء الحق تعالى وصفاته وبيان أن جملة الخلائق فى تسبيحه وتقديسه فى قوله (الأسماء الحسنى) إلى آخر السورة .

ليس فيها منسوخ .

المتشابهات :

قوله تعالى : (وما أفاء الله) وبعده : (ما أفاء الله) بغير واو ، لأن الأول معطوف على قوله : (ما قطعتم) والثانى استئناف ليس له به تعلق . وقول من قال : انه بدل من الأول زيف عند أكثر المفسرين . قوله : ﴿ ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ وبعده : ﴿ قوم لا يعقلون ﴾ لأن الأول متصل بقوله : ﴿ لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ﴾ لأنهم يرون الظاهر ولا يفقهون على ما استتر عليهم. والفقة معرفة ظاهر الشرع وغامضة بسرعة فطنة فنفى عنهم ذلك والثانى متصل بقوله : ﴿ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى) أى لو عقلوا لاجتمعوا على الحق ولم يتفرقوا .

وجه إرتباطها بما قبلها :

وذلك من وجوه

(١) إن من آخر السالفة قال : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى) وفى أول هذه قال « فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب » .

(٢) إن فى السابقة ذكر من حاد الله ورسوله وفى أول هذه ذكر من شاق الله ورسوله .

(٣) إن فى السالفة ذكر حال المنافقين واليهود وتولى بعضهم بعضا وفى هذه ذكر ما حل باليهود وبيان عدم فائدة تولى المنافقين إياهم « روى أن بنى النضير كانوا قد صالحوا رسول الله ـــ ﷺ ـــ على ألا يكونوا عليه ولا له فلما ظهر يوم بدر قالوا هو النبى الذى نعت فى التوراة لا ترد له راية

فلما هزم المسلمون يوم أحد **ارتابوا** ونكثوا فخرج كعب بن الأشرف فى أربعين راكباً إلى مكة فحالفوا عليه قريشاً عند الكعبة ، فأخبر جبريل النبى — ﷺ — بذلك فأمر بقتل كعب **فقتله** محمد بن سلمة **غيلة وهو عروس وكان عليه الصلاة والسلام قد أطلع منهم على خيانة حين أتاهم ليستعينهم فى رية المسلمين من بنى عامر عند منصرفه من بئر معونة إذ هموا بطرح حجر عليه فعصمه الله ».**

وبعد أن قتل كعب بأشهر تهيأ المسلمون لقتالهم وساروا مع رسول الله — ﷺ — واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم حتى إذا نزل فى بنى النضير وجدهم ينوحون على كعب وقالوا ذرنا نبكى شجوناً ثم ائتمر أمرك) فقال : اخرجوا من المدينة ، فقالوا الموت أقرب إلينا من ذلك ، فتنادوا بالحرب ودس المنافقون عبد الله بن أبى وأخذابه إليهم ألا يخرجوا من الحصن فإن قاتلوكم فنحن معكم .

وإن أخرجتم لنخرجن معكم ، فحصنوا الأزقة وحاصروهم إحدى وعشرين ليلة وقذف الله الرعب فى قلوبهم وأيسوا من نصر المنافقين فطلبوا الصلح فأبى إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على **بعير ما شاءوا من متاعهم ، فحملوا إلى الشام إلى أريحا وأذرعات إلا أهل بيتين منهم هما آل أبى الحقيق وآل حُيى بن أخطب فإنهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة بالحيرة وقبض النبى - ﷺ - أموالهم وسلاحهم فوجد خمسين درعاً وخمسين سيفاً ».**

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ
حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ
وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَٰأُولِي الْأَبْصَٰرِ (٢) وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي
الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ
الْفَٰسِقِينَ (٥)

معانى المفردات

الذين كفروا : هم بنو النضير (بزنة أمير) قبيلة عظيمة من اليهود كبنى قريظة ، والحشر : إخراج جمع من مكان إلى آخر ، ولأول الحشر : أى فى أول حشرهم ، أى : جمعهم وإخراجهم من جزيرة العرب ونفيهم إلى بلاد الشام ، وآخر حشر : إجلاء غمر إياهم من خيبر إلى الشام ، والحصون : واحدها حصن وهو القصر الشاهق والقلعة المَشيدة ، مانعتهم حصونهم من الله : أى : مانعتهم من بأسه وعقابه ، فأتاهم الله : أى : جاءهم عذابه ، من حيث لم يحتسبوا : أى : من حيث لم يخطر لهم ببال ، وقذف الشيء : رميه بقوة ، والمراد هنا إثباته وركزه فى قلوبهم ، والرعب : الخوف الذى يملأ الصدر . يخربون : أى : يهدمون ، فاعتبروا : أى : فا تعظوا ، والاعتبار : النظر فى حقائق الأشياء وجهات دلالتها ، ليُعرَف بالنظر فيها شيء آخر من جنسها ، وأجليت القوم عن منازلهم : أى : أخرجتهم منها ، وجَلوا : خرجوا ، وقد فرقوا بين الاجلاء والاخراج من وجهين : أن الأول لا يكون إلا الجماعة ، والثانى يكون لواحد ولجماعة وأن الأول ما كان مع الأهل والولد والثانى يكون مع بقائهما : واللينة : النخلة .

المناسبة وإجمال المعنى

لقد نقض اليهود عهد رسول الله — ﷺ — وظاهروا المشركين اتكالاً على مساعدة المنافقين لهم ومناعة حصونهم ، فتهيأ رسول الله — ﷺ — وسار لقتالهم ، فلما علموا بقدومه حصنوا الأزقة فحاصرهم عليه الصلاة والسلام عدة أيام وألقى الله الرعب فى قلوبهم ، فطلبوا الصلح فأبى إلا الجلاء ، وأخرجهم من حصونهم بعد تخريبها بأيديهم وأيدى المؤمنين ، ولولا جلاؤهم لعذبهم فى الدنيا بالقتل والأسر ، ولهم فى الآخرة عذاب شديد ، وما كان ذلك إلا بإذن الله وتقديره للأمور وفق الحكمة والمصلحة .

أضواء كاشفة

اجلاء بنى النضير يحتاج فهمه إلى مقدمة تاريخية بسيطة ، تتلخص فى أن النبى — ﷺ — حينما هاجر إلى المدينة وادع اليهود ، وعقد معهم العهود على أن لا يقاتلهم ، ولا يقاتلوه ، وظل الحال كذلك حتى وقع ما جعل المسلمون يحاصرون بنى قينقاع ويجلوهم عن المدينة ، عقب غزوة بدر ، ثم كانت غزوة أحد التى هزم فيها جيش المسلمين ، وكان لهذا أثر عميق فى نفوس المنافقين واليهود ، وقبائل العرب مما كان سبباً فى حوادث تتابعت كيوم الرجيع — وفيه قتلت هزيل ثلاثة من خيار الصحابة وأسرت ثلاثة قتلت منهم واحداً فى الطريق ، وباعت إثنين لقريش فقتلوهما ، وهما زيد بن الدثنة وخبيب — ويوم بئر معونة ، وفيه قتل من المسلمين أربعون غيلة . ووجد المنافقون واليهود فيما أصاب المسلمين فى بئر

معونة والرَّجيع وغزوة أحد ما شجعهم على الانتقاص من محمد وصحبه ، ووجدوا ماأضعف فى نفوسهم هيبته ، وفكر النبى — ﷺ — كثيراً فى هذا الأمر ، وعمل على تقوية الجبهة الداخلية حتى لا يكون هناك خلاف فى وجهة النظر فى المدينة وما حواليها ، ورأى النبى أن من الحكمة السياسية أن يستطلع نوايا اليهود ؛ فذهب يوماً إلى بنى النضير يسألهم المعونة فى دية قتيلين قتلهما أحد المسلمين خطأ ، وهما من بنى عامر حلفائهم ، ذهب إليهم فى عشرة من أصحابه . فلما ذكر لهم ما جاء من أجله أظهروا الغبطة والسرور ، إلا أنه بدت فيهم حركة مريبة وأنهم يدبرون قتله على يد عمر بن جحاش بن كعب اليهودى بواسطة حجر يلقيه على النبى من فوق السطح وهو جالس بجوار الجدار ، فلما أطلعه الله على ذلك خرج الرسول وحده وقصد المدينة ، وظن من معه من الصحابة أنه قام لبعض شأنه فلما استبطأوا النبى طلبوه فعلموا أنه قصد المدينة ودخل المسجد ، فلما ذكر ما رابه من أمر اليهود ، ومن اعتزامهم الغدر به ، قرر المسلمون إجلاءهم من المدينة حتى يهدأ الجو ، ويصفو ، فأرسل النبى لهم محمد بن مسلمة وقال لهم على لسان الرسول : أخرجوا من بلادى لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بى . ولقد أجلتكم عشراً ، فمن رئى بعد ذلك ضربت عنقه » . ضاقت الدنيا فى وجه بنى النضير وتشاوروا فى أمرهم ، **وبينا هم** كذلك إذ جاءهم رسول عبد الله بن أبى المنافق بشير عليهم بالبقاء والتحصن ، ويعرض عليهم ألفين من قومه وغيرهم. فانتهى الأمر فيما بينهم إلى التحصن بالحصون ، وظنوا أنها تمنعهم من النبى — ﷺ — أما المسلمون فساروا إليهم وحاصروهم عشرين ليلة ، وأمر النبى المسلمين أن يقطعوا نخلهم أو يحرقوه حتى لا تبقى اليهود متعلقة بأموالها متحمسة لديارها ، وجزع اليهود ، ونادوا يا محمد : قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب من يصنعه ، فما بال قطع النخل وتحريقها و وفى ذلك نزل قوله تعالى : ﴿ **ما قطعتم من لينة أو تركتموها** ﴾[1] الآية .

وفى الآيات التى بين أيدينا يخبر الحق — تبارك وتعالى — بأن جميع ما فى السموات وما فى الأرض يسبحه ويقدسه ويصلى له ويوحده ، وينقاد له ويسجد : ﴿ **تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾[2] وكيف لا يكون ذلك كذلك ؟ وهو العزيز الجبار الحكيم الفعال ، ومن مظاهر هذا إجلاء بنى النضير الذى ذكر فى قوله تعالى بما معناه : هو الحق سبحانه الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب — وهم بنو النضير من ديارهم وأموالهم بعد ما نقضوا العهود ، وعادوا الرسول والمؤمنين أخرجهم فى وقت الحشر الأول من ديارهم .

سبحانه أخرج بنى النضير من ديارهم رغم كثرة عددهم ، ووفرة عُددهم ، وقرب بنى قريظة وأهل خيبر منهم ، وعرض المنافقين مساعدتهم عليهم ، لهذا كله ما ظن المسلمون أنهم يخرجون ، وقد ظنوا هم أن حصونهم تمنعهم من بأس الله إذ جاءهم ، فما أغنى عنهم من ذلك شىء أبداً ، وجاءهم

(١) سيرة ابن هشام — أمر إجلاء بنى النضير ٣ / ١٩٩

(٢) سورة الإسراء الآية : ٤٤

من الله ما لم يكن ببالهم ، وقد قذف الله فى قلوبهم الرعب ، وكيف لا .. ؟ والنبى نصر بالرعب من مسيرة شهر ، فكان ما أراد المسلمون ، وصالحوهم على أن يخرجوا من ديارهم ، ولكل ثلاثة منهم بعير ، يحملون عليه ما شاءوا من مال أو طعام أو شراب ليس لهم غيره ، فكانوا يخربون بيوتهم بأيديهم ليأخذوا ما غلا ثمنه وخف حمله ﴿ **يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار** ﴾ وتفكروا فى عاقبة من خاف الله ورسوله ، ومن لم يخف الله ورسوله .

ولولا أن كتب الله عليهم هذا الجلاء لكان لهم عذاب فى الدنيا أشد ، وهو القتل والأسر ، ولهم فى الآخرة على كفرهم عذاب النار . ذلك كله بسبب أنهم شاقوا الله ورسوله وعادوه ، وأرادوا قتله ، وأطلقوا عليه ألسنتهم وأيديهم بالسوء ، ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ، وانظر إلى القرآن حيث جعل عداوة الرسول عداوة لله ، كما أن طاعته كذلك .

وقد كان المسلمون أثناء الحصار يقطعون نخيلهم ويحرقونه ، فقيل إن هذا سعى فى الأرض بالفساد والله حرمه ، فأجاب العزيز الحكيم بقوله : ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها كما هى بلا قطع فذلك كله بإذن الله وأمره ، وفى هذا خير بلا شك ، والله أمر بهذا ليعز المؤمنين ، وليذل ويخزى الفاسقين .

غزوة بنى النضير

أ) قوات الطرفين :

أولاً : المسلمون :

مسلمو المدينة بقيادة الرسول ـ ﷺ ـ

ثانياً : اليهود :

بنو النضير : الذين كانت منازلهم بناحية « الغَرْس » وما والاها .

ب) الهدف :

التخلص من بنى النضير لتآمرهم على اغتيال الرسول ـ ﷺ ـ

ج) الحوادث :

ذهب النبى ـ ﷺ ـ إلى منازل بنى النضير فى ضواحى المدينة ليستعين بهم فى دية قتيلين معاهدين للمسلمين قتلهما عمرو بن أمية الضَّمْرى خطأ دون أن يعلم بعهدهما فلما فاوضهم الرسول ، أظهروا الرضا بمعونته ، فجلس إلى جنب جدار من بيوتهم مع عشرة من أصحابه بينهم أبو بكر وعمر وعلى . وفى أثناء تبسّط بعضهم معه فى الحديث رأى أن بعضهم يأتمرون به ، فيذهب أحدهم إلى ناحية ، ويبدو عليهم كأنهم يذكرون مقتل كعب بن الأشرف ، ثم يدخل أحدهم « عمرو بن جحاش » البيت الذى كان الرسول ـ ﷺ ـ مستنداً إلى جداره .

حينذاك رابه أمرهم وزاده ريبة ما كان يبلغه سابقاً من حديثهم عنه وائتمارهم به ، فترك موقعه بالقرب من الجدار ، وقفل راجعاً إلى المدينة وحده . ولما استبطأه أصحابه ، قاموا للتفتيش عنه ، فرأوا رجلاً مقبلاً من المدينة أخبرهم أن النبي — ﷺ — هناك ، فأسرعوا يلحقون به . فلما ذكر ما رابه من أمر اليهود ومن اعتزامهم الغدر به ، تنبهوا إلى حركات اليهود التى تدل على مؤامرتهم للقضاء على حياة الرسول — ﷺ —

وقد عرف — بعد — أن عمرو بن جحاش هو الذى أراد قتل النبى — ﷺ — بإلقاء حجر الرحى عليه من فوق سطح الجدار الذى كان الرسول تحته .

استدعى الرسول - ﷺ - محمد بن مسْلَمة وقال له : «اذهب إلى يهود بنى النضير وقل لهم إن رسول الله أرسلنى إليكم أن اخرجوا من بلادى ، لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم ما هممتم به من الغدر بى . لقد أجلتكم عشراً ، فمن رئى بعد ذلك ضربت عنقه » .

لم يجد اليهود بعد ذلك مناصاً من الخروج ، فأخذوا يتجهزون للرحيل ، إلا أن منافقى المدينة وعلى رأسهم عبد الله بن أبىّ أرسلوا إليهم : « أن اثبتوا ونحن ننصركم على محمد وصحبه » .

عند ذاك عادت لليهود ثقتهم بأنفسهم ، واستقر رأيهم على القتال ، وأرسلوا للنبى — ﷺ — من يقول له : « لن نخرج فافعل ما بدالك » .. ثم اجتمعوا بحصونهم ونقلوا الحجارة إلى شوارعهم وأقاموا منها متاريس وخنادق للاحتماء وراءها فى القتال ، وكدسوا أرزاقاً تكفيهم لمدة سنة فى حصارهم ، وكان الماء متيسراً لديهم باستمرار . تحرك المسلمون بقيادة الرسول القائد إلى ديار بنى النضير ، فحاصروهم عشرين ليلة ، كانوا أثناءها يحتلون شارعاً بعد شارع وداراً بعد دار ولما رأى الرسول — ﷺ — إصرار اليهود على القتال مستفيدين من حصونهم القوية ، أمر أصحابه أن يقطعوا نخل اليهود وأن يحرقوه ، حتى لا تبقى اليهود على حماسها فى القتال طمعاً فى المحافظة على أموالها .

وجزع اليهود وانتظروا عبثاً إسراع عبد الله بن أبىّ أو القبائل الأخرى لنجدتهم ، فسألوا محمداً — ﷺ — أن يؤمنهم على أموالهم ودمائهم وذراريهم ، حتى يخرجوا من المدينة .

وافق الرسول — ﷺ — على مصالحتهم بشرط أن يخرجوا من المدينة ولكل ثلاثة منهم بعير يحملون عليه ما شاءوا من مال أو طعام أو شراب ليس لهم غيره ، فخرج بعضهم إلى « خيبر » وبعضهم إلى ضواحى الشام ، وتركوا للمسلمين وراءهم مغانم كثيرة من سلاح بلغ خمسين درعاً وثلاثمائة وأربعين سيفاً ، وغلالاً عظيمة ، كما أصبحت أرضهم للمسلمين .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ هذا إخبار منه تبارك وتعالى أن جميع ما فى السموات والأرض من شىء يسبح له ويمجده ويقدسه ويصلى له ويوحده كقوله تعالى : ﴿ **تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **وهو العزيز** ﴾ أى : منيع الجناب (الحكيم) فى قدره وشرعه . وقوله تعالى : ﴿ **هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب** ﴾ : يعنى يهود بنى النضير . قاله ابن عباس ومجاهد والزهرى وغير واحد كان رسول الله ـ ﷺ ـ لما قدم المدينة هادنهم وأعطاهم عهداً وذمة على أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه فنقضوا العهد الذى كان بينهم وبينه فأحل الله بهم بأسه الذى لا مرد له وأنزل عليهم قضاءه الذى لا يصد فأجلاهم النبى ـ ﷺ ـ وأخرجهم من حصونهم الحصينة التى ما طمع فيها المسلمون وظنوا هم أنها ما نعتهم من بأس الله فما أغنى عنهم من الله شيئاً وجاءهم **إلى أذرعات من أعالى الشام وهى أرض المحشر والمنشر ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر ، وكان قد أنزلهم منها على أن لهم ما حملت إبلهم فكانوا يخربون ما فى بيوتهم من المنقولات** التى يمكن أن تحمل معهم ولهذا قال تعالى : ﴿ **يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا ياأولى الأبصار** ﴾ أى : تفكروا فى عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله وكذب كتابه كيف يحل به من بأسه المخزى له فى الدنيا مع ما يدخره له فى الآخرة من العذاب الأليم .

قال أبو داود بسنده عن **عبدالرحمن** بن كعب بن مالك عن رجل من أصحاب النبى ـ ﷺ ـ أن كفار قريش كتبوا إلى ابن أبىّ ومن كان يعبد معه الأوثان من الأوس والخزرج ورسول الله ـ ﷺ ـ يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر إنكم آويتم صاحبنا وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلكم ونستبيح نساءكم ، فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبىّ ومن كان معه من عبدة الأوثان اجمعوا لقتال النبى ـ ﷺ ـ فلما بلغ ذلك النبى ـ ﷺ ـ لقيهم فقال : « لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم تريدون أن يقاتلوا أبناءكم وإخوانكم » . فلما سمعوا ذلك من النبى ـ ﷺ ـ تفرقوا فبلغ ذلك كفار قريش فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود : إنكم أهل الحلقة والحصون وإنكم لتقاتلن صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شىء وهو الخلاخيل . فلما بلغ كتابهم النبى ـ ﷺ ـ أجمعت بنو النضير بالغدر فأرسلوا إلى النبى ـ ﷺ ـ : أخرج إلينا فى ثلاثين رجلاً من أصحابك وليخرج منا ثلاثون حبراً حتى نلتقى بمكان المنصف ، فيسمعوا منك فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا بك فقص خبرهم فلما كان الغد ، غدا عليهم رسول الله ـ ﷺ ـ بالكتائب فحصرهم فقال لهم : « إنكم والله لا تؤمنون عندى إلا بعهد تعاهدونى عليه فأبوا أن يعطوه عهداً فقاتلهم يومهم ذلك ثم غدا الغد على بنى قريظة

بالكتائب وترك بنى النضير بالكتائب، فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء فجلت بنو النضير واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها فكان نخل بنى النضير لرسول الله ـــ ﷺ ـــ خاصة أعطاه الله إياها وخصه بها فقال تعالى: ﴿ **وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب** ﴾ يقول بغير قتال، فأعطى النبى ـــ ﷺ ـــ أكثرها للمهاجرين وقسمها بينهم وقسم منها لرجلين من الأنصار وكانا ذوى حاجة ولم يقسم لأحد من الأنصار غيرهما وبقى منها صدقة رسول الله ـــ ﷺ ـــ التى فى أيدى بنى فاطمة ـــ رضى الله عنها ـــ(١)

وهذا ملخص لغزوة بنى النضير كما ذكره أصحاب المغازى والسير: وإنه لما قتل أصحاب بئر معونة من أصحاب رسول الله ـــ ﷺ ـــ رضى الله عنهم وكانوا سبعين. وأفلت منهم عمرو بن أمية الضمرى فلما كان فى أثناء الطريق راجعاً إلى المدينة قتل رجلين من بنى عامر وكان معهما عهد من رسول الله ـــ ﷺ ـــ وأمان لم يعلم به عمرو فلما رجع أخبر رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال له رسول الله ـــ ﷺ ـــ: « لقد قتلت رجلين لأدينهما » وكان بين بنى النضير وبنى عامر حلف وعهد فخرج رسول الله ـــ ﷺ ـــ إلى بنى النضير ليستعينهم فى دية ذينك الرجلين وكانت منازل بنى النضير ظاهر المدينة على أميال منها شرقيها. قال محمد بن اسحاق بن يسار فى كتابه السيرة: ثم خرج رسول الله ـــ ﷺ ـــ إلى بنى النضير يستعينهم فى دية ذينك القتيلين من بنى عامر اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى للجوار الذى كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ عقد لهما فيما حدثنى يزيد بن رومان وكان بين بنى النضير وبنى عامر عقد وحلف فلما آتاهم رسول الله ـــ ﷺ ـــ يستعينهم فى دية ذينك القتيلين قالوا: نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ـــ ورسول الله ـــ ﷺ ـــ إلى جنب جدار من بيوتهم ـــ فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه، فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم فقال: أنا لذلك، **فصعد ليلقى** عليه صخرة. كما قال: ورسول الله ـــ ﷺ ـــ فى نفر من أصحابه منهم أبو بكر وعمر وعلى ـــ رضى الله عنهم ـــ فأتى رسول الله ـــ ﷺ ـــ الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة فلما استلبث النبى ـــ ﷺ ـــ أصحابه قاموا فى طلبه فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة فسألوه عنه فقال: رأيته داخلاً المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله ـــ ﷺ ـــ حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به وأمر رسول الله ـــ ﷺ ـــ بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم ثم سار حتى نزل بهم فتحصنوا منه فى الحصون فأمر رسول الله ـــ ﷺ ـــ بقطع النخل والتحريق فيها. فنادوه: أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد فى الأرض وتعيب على من يصنعه فما بال قطع النخل وتحريقها؟.

(١) سنن أبى داود ـــ كتاب الخراج والإمارة والفىء ـــ باب فى خبر النضير ٣ / ٤٠٤ رقم ٣٠٠٤

وقد كان رهط من بنى عوف بن الخزرج منهم عبد الله بن أبىّ بن سلول ووديعة ومالك بن أبى قوقل وسويد وداعس قد بعثوا إلى بنى النضير أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن خرجتم خرجنا معكم ، فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا وقذف فى قلوبهم الرعب ، فسأل رسول الله — ﷺ — أن يجليهم عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ففعلوا فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل فكان الرجل منهم يهدم بيته عن إيجاف بابه فيضعه على ظهر بعيره ، فينطلق به فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام وخلوا الأموال لرسول الله — ﷺ — فكانت لرسول الله خاصة يضعها حيث يشاء فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار إلا سهل بن حنيف وأبا دجانة — سماك بن خرشة — ذكرا فقراً فأعطاهما رسول الله — ﷺ — قال : ولم يسلم من بنى النضير إلا رجلان : يامين بن عمرو بن كعب عم عمرو بن جحاش وأبو سعد بن وهب ، أسلما على أموالهما فأحرزاها . قال ابن اسحاق : وقد حدثنى بعض آل يامين أن رسول الله — ﷺ — قال ليامين : « ألم تر ما لقيت من ابن عمك وما هم به من شأنى ، فجعل يامين بن عمرو لرجل جعلاً على أن يقتل عمرو بن جحاش فقتله فيما يزعمون . قال ابن اسحاق : ونزل فى بنى النضير سورة الحشر بأسرها .(١) فقوله تعالى : ﴿ **هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب**) يعنى بنى النضير . ﴿ **من ديارهم لأول الحشر** ﴾ . قال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس قال : من شك فى أن أرض المحشر ههنا — يعنى الشام — فليقرأ هذه الآية : ﴿ **هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر** ﴾ قالوا : إلى أين ؟ قال : « إلى أرض المحشر »(٢) . وحدثنا أبو سعيد الأشج بسنده عن الحسن قال : لما أجلى رسول ا لله — ﷺ بنى النضير قال : « هذا أول الحشر وأنا على الأثر » ورواه ابن جرير عن ابن بشار عن ابن أبى عدى عن عوف عن الحسن به(٣)

وقوله تعالى : ﴿ **ما ظننتم أن يخرجوا** ﴾ أى : فى مدة حصاركم لهم وقصرها وكانت ستة أيام مع شدة حصونهم ومنعتها ولهذا قال تعالى : ﴿ **وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فآتاهم الله من حيث لم يحتسبوا** ﴾ أى جاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم فى بال . كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ **قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون** ﴾(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ **وقذف فى قلوبهم الرعب** ﴾ أى : الخوف والهلع والجزع وكيف لا يحصل لهم ذلك وقد حاصرهم الذى نصر بالرعب مسيرة شهر صلوات الله وسلامه عليه .

---

(١) سيرة ابن هشام ٣ / ٢٠٠ — ٢٠١ — ٢٠٢

(٢) انظر تفسير ابن كثير — طبعة الشعب ٨ / ٨٤

(٣) تفسير الطبرى — طبعة الحلبى ٢٨ / ٢٩

(٤) سوره النحل الآية : ٢٦

وقوله : ﴿ **يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين** ﴾ هو نقص ما استحسنوه من سقوفهم وأبوابهم وتحملها على الإبل . قال مقاتل بن حيان : كان رسول الله — ﷺ — يقاتلهم فإذا ظهر على درب أو دار هدم حيطانها ليتسع المكان للقتال . وكان اليهود إذا علوا مكاناً أو غلبوا على درب أو دار نقبوا من أدبارها ثم حصنوها ودربوها . يقول الله تعالى : ﴿ **فاعتبروا ياأولى الأبصار** ﴾ . وقوله : ﴿ **ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا** ﴾ أى : لو أن كتب الله عليهم هذا الجلاء وهو النفى من ديارهم وأموالهم لكان لهم عند الله عذاب آخر من القتل والسبى ونحو ذلك قاله الزهرى عن عروة والسدى وابن زيد لأن الله قد كتب عليهم أنه سيعذبهم فى الدار الدنيا مع ما أعد لهم فى الدار الآخرة من العذاب فى نار جهنم . قال ابن أبى حاتم بسنده عن عروة بن الزبير قال : ثم كانت وقعة بنى النضير وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من وقعة بدر وكان منزلهم بناصية من المدينة ، فحاصرهم رسول — ﷺ — حتى نزلوا على الجلاء وأن لهم ما أقلت الإبل من الأموال والأمتعة إلا الحلقة وهى السلاح فأجلاهم رسول الله — ﷺ — قبل الشام . قال : والجلاء أنه كتب عليهم فى آى من التوراة وكانوا من سبط لم يصيبهم الجلاء قبل ما سلط عليهم رسول الله — ﷺ — وأنزل الله فيهم : ﴿ **سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض — إلى قوله — وليخزى الفاسقين** ﴾ وقال عكرمة : الجلاء : القتل ، وفى رواية عنه : الفناء ، وقال قتادة : الجلاء خروج الناس من البلد إلى البلد : وقال الضحاك أجلاهم إلى الشام وأعطى كل ثلاثة بعيراً وسقاء . فهذا الجلاء .

وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقى بسنده عن ابن عباس قال : كان النبى — ﷺ — قد حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ فأعطوه ما أراد منهم فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم وأن يخرجهم من أرضهم ومن ديارهم وأوطانهم وأن يسيرهم إلى أذرعات الشام وجعل لكل ثلاثة منهم بعيراً وسقاء . والجلاء : إخراجهم من أرضهم إلى أرض أخرى(١) .

وروى أيضاً من حديث يعقوب بن محمد الزهرى بسنده عن محمد بن مسلمة أن رسول الله — ﷺ — بعثه إلى بنى النضير وأمره أن يؤجلهم فى الجلاء ثلاثة أيام(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ **ولهم فى الآخرة عذاب النار** ﴾ أى : حتم لازم لابد لهم منه .

وقوله تعالى : ﴿ **ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله** ﴾ أى : إنما فعل الله بهم ذلك وسلط عليهم رسله المتقدمين فى البشارة بمحمد — ﷺ — وهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم . ثم قال : ﴿ **ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب** ﴾ .

(١) أخرجه البيهقى فى الدلائل — انظر الدار المنثور ٦ / ١٩١

(٢) الدار المنثور للسيوطى — طبعة دار الفكر ٨ / ٩١

وقوله تعالى : ﴿ **ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين** ﴾ : اللين : نوع من التمر وهو جيد . قال أبو عبيدة : وهو ما خالف العجوة والبرنى من التمر . وقال كثيرون من المفسرين : اللينة ألوان التمر سوى العجوة . قال ابن جرير : هو جميع النخلة ونقله عن مجاهد : وهو البويرة أيضاً . وذلك أن رسول الله ـ ﷺ ـ لما حاصرهم أمر بقطع نخيلهم إهانة لهم وإرهاباً وإرعاباً لقلوبهم . فروى محمد بن اسحاق عن يزيد بن رومان وقتادة ومقاتل بن حيان أنهم قالوا فبعث بنو قريظة يقولون لرسول الله ـ ﷺ ـ : إنك تنهى عن الفساد فما بالك تأمر بقطع الأشجار ؟ فأنزل الله هذه الآية الكريمة[1] أى ما قطعتم من لينة وما تركتم من الأشجار فالجميع بإذنه ومشيئته وقدره ورضاه وفيه نكاية للعدو وخزى لهم ، وإرغام لأنوفهم . وقال مجاهد : نهى بعض المهاجرين بعضاً عن قطع النخل وقالوا : إنما هى مغانم المسلمين . فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطعه وتحليل من قطعه من الإثم وإنما قطعه وتركه بإذنه ، وقد روى نحو هذا مدفوعاً فقال الترمذى بسنده عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين** ﴾ قال : استنزلوهم من حصونهم وأمروا بقطع النخل فحك فى صدورهم ، فقال المسلمون : قطعنا بعضاً وتركنا بعضاً فلنسألن رسول الله ـ ﷺ ـ هل لنا فيما قطعنا من أجر ؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر ؟ فأنزل الله : ﴿ **ما قطعتم من لينة** ﴾ . وقال الحافظ أبو يعلى فى مسنده بسنده عن جابر قال : رخص لهم فى قطع النخيل ثم شدد عليهم فأتوا النبى ـ ﷺ ـ فقالوا : يا رسول الله : علينا إثم فيما قطعنا أو علينا وزر فيما تركنا فأنزل الله ـ عز وجل ـ : ﴿ **ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله** ﴾[1] . وقال الإمام أحمد بسنده عن ابن عمر أن رسول الله ـ ﷺ ـ قطع نخل بنى النضير وحرق[2] ، وأخرجه صاحبا الصحيح من رواية موسى بن عقبة[3] بنموه ، ولفظ البخارى من طريق عبد الرزاق عن ابن جريج عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر قال : أحاربت النضير وقريظة فأجلى بنى النضير وأقر قريظة ومن عليهم حتى حاربت قريظة فقتل رجالهم وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين إلا بعضهم لحقوا بالنبى ـ ﷺ ـ فآمنهم وأسلموا وأجلى يهود المدينة فآمنهم وأسلموا وأجلى يهود المدينة كلهم بنى قينقاع وهم رهط عبد الله ابن سلام **ويهود بنى حارثة وكل يهود بالمدينة ، ولهما أيضا عن قتيبة عن الليث بن سعد عن نافع عن ابن عمر** أن رسول الله ـ ﷺ ـ حرق نخل بنى النضير وقطع وهى البويرة فأنزل الله ـ ﷺ ـ فيه : ﴿ **ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين** ﴾ .

---

(١) تفسير الطبرى ـ طبعة الحلبى ٢٨ / ٣٤

(٢) سنن الترمذى ـ كتاب التفسير ـ تفسير سورة الحشر ٥ / ٨١ رقم ٣٣٥٧

ما هو الفىء وما حكمه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾

معانى المفردات

(وما أفاء) : المراد ما رده الله على رسوله ، والفىء فى اصطلاح علماء الإسلام ما أخذ من الكفار بلا حرب ولا إيجاف خيل بخلاف الغنيمة فإنها ما أخذت بحرب ، ولكل تقسيم يخالف الآخر . (فما أوجفتم) وجف الفرس والبعير وجيفاً : عدا ، وأوجفه : جعله يعدو أى يسرع فى الجرى (من خيل ولا ركاب) الخيل معروفة ، والركاب هى الإبل خاصة (دولة) : يقال : تداول القوم الكرة كانت فى يد هذا ثم فى يد هذا ، والإسم : الدولة بضم الدال وفتحها ، وقال بعضهم : الدَّولة فى المُلك ، والدُّولة فى المِلْك . (تبوءوا الدار والإيمان) إتخذوها مباءاً ومنزلاً مع الإيمان (ويؤثرون) **الإيثار** هو تقديم الغير على النفس فى أغراض الدنيا (خصاصة) حاجة (شح نفسه) الشح لؤم الطبع ويلزمه البخل مع الحرص (غلاً) حقداً وحسداً .

وهذا شروع فى بيان حكم الأموال التى أخذت منهم بعد بيان ما حل بهم فى الدنيا ، وما أعد لهم فى الآخرة ، ثم استطرد فذكر أصناف المؤمنين الذين يستحقون الفىء .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن بين سبحانه ما حل ببني النضير من العذاب العاجل كتخريب بيوتهم بأيديهم وتحريق نخيلهم وتقطيعها ، ثم إجلائهم من بعد ذلك عن الديار إلى الشام دون أن يحملوا إلا القليل من المتاع — ذكر هنا حكم ما أخذ من أموالهم فجعله فيئاً لله ورسوله ينفق منه على أهله نفقة سنة ثم يجعل ما بقى فى السلاح والكراع عُدّة فى سبيل الله ، ولا يقسم بين المقاتلة كالغنيمة ، لأنهم لم يقاتلوا لأجله ،

روى أن الصحابة — رضى الله عنهم — طلبوا من الرسول — ﷺ — أن يقسم الفىء بينهم كما قسم الغنيمة فى بدر وغيرها بينهم ، فبين سبحانه الفرق بين الأمرين ، بأن الغنيمة تكون فيما أتعبتم أنفسكم فى تحصيله وأوجفتم عليه الخيل والركاب ، والفىء فيما لم تتحملوا فى تحصيله تعباً ، وحينئذ يكون أمره مفوضاً إلى الرسول يضعه حيث يشاء

وبعد أن بين مصارف الفىء ، وذكر أنه لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين — ذكر أنه أراد بهم فقراء المهاجرين الذين لهم هذه الصفات السامية ، والمناقب الرفيعة ، ثم مدح الأنصار ساكنى المدينة وبالغ فى مدحهم ، فذكر لهم هذه الفضائل :

(١) إنهم يحسبون المهاجرين .

(٢) إنهم ليس فى قلوبهم حقد ولا حسد لهم .

(٣) إنهم يفضلونهم على أنفسهم ويعطونهم ما هم فى أشد الحاجة إليه ، وما ذاك إلا لأن الله عصمهم من الشح المردى والبخل المهلك ، الذى يدسّى النفوس ويمنعها من اكتساب الخير وعمل البر .

ثم ذكر أن التابعين لهم بإحسان ، وهم الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار إلى يوم القيامة ، يدعون لأنفسهم ومن سبقهم من المؤمنين بالمغفرة ، ويطلبون من الله ألا يجعل فى قلوبهم حقداً وحسداً لهم .

أضواء كاشفة

وما أعاده الله على **رسوله** من أموال بنى النضير فما ركبتم لأجلها خيلاً ولا إبلاً ولا تجشمتم فى تحصيلها مشقة ، ولا لقيتم بها حرباً ، ولذا كانت هذه الأموال لرسول الله بعد تقسيم خمسها على مستحقيه كما فى الآية .

ولكن الله يسلط رسله على من يشاء من أعدائه ، وفى هذا بيان أن الأموال للرسول وليست

لأصحابه لأنهم لم يوجفوا لها خيلاً ، ولم يركبوا لها إبلاً ، ولم يقاسوا فيها من شدائد الحروب ، والله على كل شيء قدير يسلط من يشاء على من يشاء .

وكأن الله خلق المال والمتاع ليتقرب به العبد إلى ربه ، فإذا صرف فى غير محله ، واستولى عليه الكفار ليصرفوه فى غير وجوهه فقد خرج عن وضعه الأصلى ثم إذا عاد إلى المسلم الذى ينفقه فى وجوه الخير فقد عاد إلى الوجه الأول ، ولذا عبّر الله بقوله : ما أفاء الله على رسوله .

وكأن سائلاً سأل وقال : قد علمنا حكم ما أفاء الله على رسوله من أموال بنى النضير فما حكم الفيء إذا كان من غيرهم ؟ والجواب هو : ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى **فلله** وللرسول ، ولذى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل .

والفيء يقسم خمسة أقسام ، خمس منها يقسم خمسة أخماس : سهم لله وللرسول ، وكان له فى حياته ثم يصرف على مصالح المسلمين بعد وفاته ، وسهم لذوى القربى من أقارب الرسول وهم بنو **هاشم وبنوعبد المطلب ، والأربعة أخماس الباقية فهى للنبى - ﷺ - خاصة ، وقد وزعها فى حياته على المهاجرين ولم يعط من الأنصار إلا رجلين أظهرا الفقر ، وبعد وفاته تصرف للمرتزقة من الجند أى للجيش الم يوجد لهم تبرع أومرتب خاص ، أما الغنيمة فتقسم خمسة : - خمس لهؤلاء الخمسة كما فى سورة الأنفال والأربعة أخماس الباقية للمقاتلين الذين حضروا المعركة كما فى سورة الأنفال ، وإنما كان تقسيم الفيء على هذا النظام كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم يتداولونه بينهم ، ويحرم الفقير منه ، فإذاً : يفهم من هذا التعليل أن هذا المال يصرف للفقراء المحتاجين كما أنفقه النبى على المهاجرين دون الأنصار .**

من هذا التعليل أن هذا المال يصرف للفقراء المحتاجين كما أنفقه النبى على المهاجرين دون الأنصار .

أيها المسلمون ، ما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله وهذا هو دستور الإسلام الحق الجامع لكل أمر ونهى ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب « للفقراء المهاجرين فى سبيل الله .. » فكأن الله قال : أعنى بأولئك الأربعة ــ لذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . هؤلاء الفقراء المهاجرين أو الأنصار أو التابعين . وقال بعضهم : المعنى اعجبوا لهؤلاء الفقراء حيث تركوا الأوطان والأموال وتحملوا الضيق والتغرب فى حب النبى ــ ﷺ ــ وهل الفقر شرط فى إعطائهم أولاً ؟ قولان : للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله : حالة كونهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ناوين نصرة الرسول ودينه ، أولئك الموصوفون بما ذكر من الصفات الجليلة هم الصادقون فى دعوى الإيمان حيث نالهم ما نالهم من أجله ؛ ﴿ **والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم** ﴾ هم الأنصار ــ رضى الله عنهم ــ نزلوا المدينة واتخذوها مباءة ومنزلاً للإسلام ، وموئلاً له ، وألفوا الإيمان وأخلصوا له من قبل هجرة المهاجرين إليهم يحبون من هاجر إليهم من المهاجرين ، ولا يجدون فى صدورهم حسداً ولا غيظاً مما أوتوا أى مما أعطى المهاجرون من الفيء وغيره ، مع حرمانهم منه ، فنفوسهم لم تتبع ما أعطى المهاجرون ولم تطمع إلى شيء منه تحتاج إليه ،

على أنهم يؤثرون على أنفسهم غيرهم ، ويقدمون المهاجرين على أنفسهم فى كل شىء من الطيبات مع الحاجة إليه ، حتى إن من كان عنده امرأتان نزل لأخيه المهاجر عن واحدة وخيره فيهما ، وهذا هو مظهر من مظاهر الإخاء الذى فعله النبى ـ ﷺ ـ عندما استقر بالمدينة ، وهذا بلا شك يدل على صفاء النفس من أكدار المادة والدنيا ، ويدل على قوة الروح ومبلغ العزوف عنها ، ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون لا غير ، فالشح داء عضال لا يصدر عنه خير ، وهو سبب الكثير من الجرائم :

والذين جاءوا من بعدهم إلى الدين الجديد حيث تأخر زمنهم أو جاءوا بعد المهاجرين وآمنوا بعد الفتح **واستتباب** الدولة الإسلامية حالة كونهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان فهى أخوة فى الدين ، ولا شك أنها أعز من أخوة النسب ، اللهم لا تجعل فى قلوبنا غلاً ولا حقداً للذين آمنوا مطلقاً ، ربنا إنك رءوف بنا رحيم بخلقك ، ومن هذا يظهر موقف الصحابة ومكانتهم ، وأن الواجب أن ندعوا لهم بخير وأن نفهم فيهم الصدق والإخلاص الكامل . وفى الحديث : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم »[1] .

التفسير

يقول تعالى مبيناً ما الفىء وما صفته وما حكمه ، فالفىء كل مال أخذ من الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب كأموال بنى النضير هذه فإنها مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، أى لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة **والمصاولة** بل نزل أولئك من الرعب الذى ألقى الله فى قلوبهم من هيبة رسول الله ـ ﷺ ـ فأفاءه الله على رسوله ولهذا تصرف فيه كما يشاء فرده على المسلمين فى وجوه البر والصالح التى ذكرها الله ـ عز وجل ـ فى هذه الآيات فقال تعالى : ﴿ **وما أفاء الله على رسوله منهم** ﴾ أى من بنى النضير ﴿ **فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب** ﴾ يعنى الإبل ﴿ **ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شىء قدير** ﴾ أى : هو قدير لا يغالب ولا يمانع بل هو القاهر لكل شىء . ثم قال تعالى : ﴿ **ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى** ﴾ أى جميع البلدان التى تفتح هكذا فحكمها حكم أموال بنى النضير . ولهذا قال تعالى : ﴿ **فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل** ﴾ إلى آخرها . والتى بعدها . فهذه مصارف أموال الفىء ووجوهه .

قال الإمام أحمد بسنده عن عمر ـ رضى الله عنه ـ قال : كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب فكانت لرسول الله ـ ﷺ ـ خالصة فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته ، وقال مرة : قوت سنته وما بقى جعله فى الكراع والسلاح فى سبيل الله ـ عز وجل ـ[2]

---

(١) قال العجلونى فى كشف الخفا : رواه البيهقى . وأسنده الديلمى عن ابن عباس بلفظ : « أصحابى بمنزله النجوم فى السماء بأيهم اقتديتم اهتديتم » .

(٢) مسند أحمد ١ / ٢٥ ، ٤٨

وفى الصحيحين عن مالك بن أوس قال : أرسل إلَّى عمر بن الخطاب ــ رضى ا لله عنه ــ حين تعالى النهار فجئته فوجدته جالساً على سرير مفضياً إلى رماله فقال حين دخلت عليه : يا مالك إنه قد دَفَّ أهل أبيات من قومك وقد أمرت فيهم بشىء فأقسم فيهم ، قلت : لو أمرت غيرى بذلك . فقال : خذه فجاءه يرفا فقال : يا أمير المؤمنين : هل لك فى عثمان بن عفان وعبد الرحمن ابن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص ؟ قال : نعم ، فأذن لهم فدخلوا ثم جاءه يرفا فقال : ياأمير المؤمنين : هل لك فى العباس وعلى ؟ قال نعم ، فأذن لهما فدخلا . فقال **العباس** : ياأمير المؤمنين : اقض بينى وبين هذا ــ يعنى علياً ، فقال بعضهم : أجل ياأمير المؤمنين ، اقض بينهما وارحهما ، قال مالك بن أوس : خيل إلّى أنهما قدما أولئك النفر لذلك ، فقال عمر ــ رضى الله عنه ــ : اتئد ، ثم أقبل على أولئك الرهط فقال : أنشدكم بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض ، هل تعلمون أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : « لا نورث ما تركنا صدقة » قالوا نعم ، ثم أقبل على علّى **والعباس** فقال : أنشدكما بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمان أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : « لا نورث ما تركنا صدقة » **فقالا : نعم . فقال : إن الله خص رسوله بخاصة لم يخص بها أحداً من الناس فقال تعالى : ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شىء قدير ﴾** فكان الله تعالى أفاء على رسوله أموال بنى ا لنضير فوالله ما استأثر بها عليكم ولا أحرزها دونكم ، فكان رسول الله ــ ﷺ ــ يأخذ منها نفقة سنة أو نفقته ونفقة أهله سنة ويجعل ما بقى أُسْوَة الْمَالِ ثم أقبل على أولئك الرهط فقال : أنشدكم بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمون ذلك ؟ قالوا : نعم ، ثم أقبل على علّى **والعباس** فقال : أنشدكما بالله بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمان ذلك ؟ قالا نعم ، فلما توفى رسول الله ــ ﷺ ــ قال أبو بكر : أنا ولى رسول الله ــ ﷺ ــ فجئت أنت وهذا إلى أبى بكر تطلب أنت ميراثك من ابن أخيك ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها . فقال أبو بكر ــ رضى الله عنه ــ : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : « لا نورث ما تركنا صدقة » والله يعلم إنه لصادق بار راشد تابع للحق فوليها أبو بكر ، فلما توفى قلت : أناولى رسول الله ــ ﷺ ــ وولى أبى بكر فوليتها ما شاء الله أن أليها فجئت أنت وهذا وأنتما جميع وأمركما واحد فسألتمانيها فقلت إن شئتما فأنا أدفعها إليكما على أن عليكما عهد الله أن تلياها بالذى كان رسول الله ــ ﷺ ــ يليها فأخذتماها منى على ذلك ثم جئتمانى لأقضى بينكما بغير ذلك ، والله لا أقضى بينكما بغير ذلك حتى تقوم الساعة فإن عجزتما عنها ، فرداها إلّى(١) ، أخرجاه من حديث الزهرى به قال الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك عن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : إن الرجل كان يجعل له من ماله النخلات أو كما شاء الله حتى فتحت عليه قريظة والنضير قال : فجعل يرد بعد ذلك ، قال وإن أهلى أمرونى أن آتى النبى ــ ﷺ ــ فأعطانيهن فجاءت أم أيمن فجعلت الثوب فى عنقى وجعلت

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ــ كتاب الجهاد ــ باب حكم الفىء رقم ١١٤٧

تقول : كلا والله الذى لا إله إلا هو لا يعطيكهن وقد أعطانيهن أو كما قالت ، فقال نبى الله : « لك كذا وكذا » قال : وتقول كلا والله . قال ويقول : « لك كذا وكذا » قال وتقول : كلا والله ، قال : ويقول : « لك كذا وكذا » قال حتى أعطاها حسبت أنه قال عشرة أمثاله أو قال قريباً من عشرة أمثاله ، أو كما قال[١] . ورواه البخارى ومسلم[٢] من طرق عن معمر به .

وهذه المصارف المذكورة في هذه الآية هى المصارف المذكورة فى خمس الغنيمة وقوله تعالى : ﴿ **كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم** ﴾ أى جعلنا هذه المصارف لمال الفيء كي لا يبقى مأكله يتغلب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها بمحض الشهوات والآراء ولا يصرفون منه شيئاً إلى الفقراء .

وقوله تعالى : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ أى مهما أمركم به فافعلوه ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن مسروق قال : جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت : بلغنى أنك تنهى عن الواشمة والواصلة ، أشيء وجدته فى كتاب الله تعالى وعن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قالت : والله لقد تصفحت ما بين دفتى المصحف فما وجدت فيه الذى تقول . تقول : فما وجدت فيه : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ قالت بلى ، قال : فإنى سمعت رسول الله ـــ ﷺ ـــ ينهى عن الواصلة والواشمة والناقصة ، قالت : فلعله فى بعض أهلك ، قال : فادخلى فانظرى ، فدخلت فنظرت ثم خرجت قالت : ما رأيت بأساً ، فقال لها : أما حفظت وصية العبد الصالح : ﴿ **وما أريد أن أخالفكم إلى ماأنهاكم عنه** ﴾[٣]

وقال الإمام أحمد بسنده عن عبدالله بن مسعود قال : لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن ، المغيرات خلق الله ـــ عز وجل ـــ قال فبلغ امرأة من بنى أسد فى البيت يقال لها أم يعقوب فجاءت اليه فقالت : بلغنى أنك قلت كيت وكيت ، قال : مالى لا ألعن من لعن رسول الله ـــ ﷺ ـــ وفى كتاب الله تعالى ، فقالت : إنى لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته ، فقال : إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه أنا قرأت (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) قالت بلى ؟ قال : اذهبى فانظرى فذهبت فلم تر من حاجتها شيئاً ، فجاءت فقالت : ما رأيت شيئاً قال : لو كان كذا لم تجامعنا . **أخرجاه فى الصحيحين[٤] من حديث عبدالله بن مسعود وقد ثبت فى الصحيحين أيضاً عن أبى هريرة** أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قال : « إذا أمرتكم بأمر فائتوا به ما استطعتم ، ومانهيتكم عنه فاجتنبوه[٥] »

---

(١) مسند أحمد ٣ / ٢١٩

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـــ كتاب الجهاد ـــ باب رد المهاجرين إلى الأنصار منائحهم رقم ١١٦٠

(٣) انظر تفسير ابن كثير ـــ طبعة الشعب ٨ /٩٢

(٤) مسند أحمد ١ /٤٣٣ ، ٤٣٤

(٥) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـــ كتاب اللباس والزينة ـــ باب قتل الواصلة والمستوصلة رقم ١٣٧٧
صحيح البخاري ـــ كتاب الاعتصام ـــ باب الاقتداء بسنن رسول الله ـــ ﷺ ٩ / ١١٦
مسلم ـــ كتاب الفضائل ـــ باب توقيره ـــ ﷺ ـــ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه ٤ /١٨٣٠ رقم ١٣٠

وقال النسائى بسنده عن سعد بن جبير عن عمرو ابن عباس أنهما شهدا على رسول الله ــ ﷺ ــ : أنه نهى عن الدباء والحنتم والمزفت والنقير ثم تلا رسول الله ــ ﷺ ــ : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **واتقوا الله إن الله شديد العقاب** ﴾ أى : خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضات الله ورضوانه ﴿ **وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون** ﴾ أى : هؤلاء الذين صدقوا قولهم بفعلهم وهؤلاء هم سادات المهاجرين .

ثم قال تعالى مادحاً للأنصار ومبيناً فضلهم وشرفهم وكرمهم وعدم حسدهم وإيثارهم مع الحاجة فقال تعالى : ﴿ **والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم** ﴾ أى :سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم . قال عمر : وأوصى الخليفة بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم كرامتهم ، وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبل ، أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن **مسيئهم**. رواه البخارى[2] .

وقوله تعالى : ﴿ **يحبون من هاجر إليهم** ﴾ أى من كرمهم وشرف أنفسهم يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم . قال الإمام أحمد بسنده عن أنس قال : قال المهاجرون أيا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة فى قليل ولا أحسن بذلاً فى كثير لقد كفونا المؤنة وأشركونا فى المهنأ **حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله . قال : « لا ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم وقال البخارى بسنده عن يحيى بن سعيد أنه سمع أنس بن مالك حين خرج معه إلى الوليد قال : دعا النبى - ﷺ - الأنصار أن يقطع لهم البحرين قالوا : لا إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها قال : « إما لا فاصبروا حتى تلقونى فإنه سيصيبكم أثره » . تفرد به البخارى من هذا الوجه[3] .**

وقال البخارى بسنده عن أبى هريرة قال : قالت الأنصار اقسم بيننا وبين إخواننا النخل . قال : لا . فقالوا يكفونا المؤنة وتشركونا فى التمر قالوا سمعنا وأطعنا . تفرد به دون مسلم[4] ﴿ **ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا** ﴾ أى : لا يجدون فى أنفسهم حسداً للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف والتقديم فى الذكر والرتبة . قال الحسن البصرى : ﴿ **ولا يجدون فى صدورهم حاجة** ﴾ يعنى الحسد ﴿ **مما أوتوا** ﴾ قال قتادة : يعنى فيما أعطى إخوانهم . وكذا قال ابن زيد ، ومما يستدل

---

(١) سنن النسائى ــ كتاب الأشربة ــ باب ذكر الدلالة على النهى للموصوف من الأدعية ٨ /٣٠٨

(٢) صحيح البخارى ــ كتاب التفسير ــ سورة الحشر ٦ /١٨٥

(٣) مسند أحمد ٣ /٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٤

(٤) صحيح البخارى ــ كتاب مناقب الأنصار ــ باب قول النبى ــ ﷺ ــ للأنصار : « اصبروا حتى تلقونى على الحوض » ٥ /٤٢

(٥) صحيح ا لبخارى ــ كتاب الفضائل ــ باب أخاء النبى بين المهاجرين والأنصار ٥ /٣٩

به على هذا المعنى ما رواه الإمام أحمد بسنده عن أنس قال : كنا جلوساً مع رسول الله ــ ﷺ ــ فقال : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه قد علق نعليه بيده الشمال فلما كان الغد قال رسول الله ــ ﷺ ــ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى ، فلما كان فى اليوم الثالث قال رسول الله ــ ﷺ ــ مثل مقالته أيضاً ، فطلع ذلك الرجل مثل حالته الأولى فلما قام رسول الله ــ ﷺ ــ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال إنى لاحيت أبى فأقسمت أنى لا أدخل عليه ثلاثاً فإن رأيت أن تؤوينى إليك حتى تمضى فعلت . قال : « نعم » قال أنس : فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالى الثلاث فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا تعار تقلب على فراشه ذكر الله وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر ، قال عبد الله : غير أنى لم أسمعه يقول : إلا خيراً ، فلما مضت الليالى الثلاث وكدت أن أحتقر عمله قلت : ياعبد الله لم يكن بينى وبين أبى غضب ولا هجرة ولكن سمعت رسول الله ــ ﷺ ــ يقول لك ثلاث مرات : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » فطلعت أنت الثلاث المرات فأردت أن آوى إليك لأنظر ما عملك فأقتدى به فلم أرك تعمل كبير عمل فما الذى بلغ بك ما قال رسول الله ــ ﷺ ــ ؟ قال : ما هو إلا ما رأيت ، فلما وليت دعانى فقال : ما هو إلا ما رأيت غير أنى لا أجد فى نفسى لأحد من المسلمين غشاً ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه . قال عبد الله : فهذه التى بلغت بك وهى التى لا تطاق[1] .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله تعالى : ﴿ **ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا** ﴾ يعنى مما أوتوا المهاجرون . قال : وتكلم فى أموال بنى النضير بعض من تكلم فى الأنصار فعاتبهم الله فى ذلك فقال تعالى : ﴿ **وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شىء قدير** ﴾ قال : وقال رسول الله ــ ﷺ ــ : « إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم » فقالوا أموالنا بيننا قطائع فقال رسول الله ــ ﷺ ــ « أو غير ذلك » قالوا وما ذاك يارسول الله ؟ قال : « هم قوم لا يعرفون العمل فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر » فقالوا : نعم يارسول الله[2] .

وقوله تعالى : ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾ يعنى حاجة أى : يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ويبدءون بالناس قبلهم فى حال احتياجهم إلى ذلك .

وقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله ــ ﷺ ــ أنه قال : « أفضل الصدقة جهد المقل »[3]

---

(١) مسند أحمد ٣ /١٦٦

(٢) تفسير الطبرى ٢٨ /٤٢ طبعة الحلبى

(٣) سنن أبى داود ــ كتاب الزكاة . باب الرخصة للرجل يخرج من ماله ٢ /٣١٢ رقم ١٦٧٧

وهذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله بقوله تعالى : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه ﴾ وقوله : ﴿ وآتى المال على حبه ﴾ فإن هؤلاء تصدقوا وهم يحبون ما تصدقوا به وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه ، ومن هذا المقام تصدق الصديق ــ رضى الله عنه ــ بجميع ماله فقال له رسول الله ــ ﷺ ــ « ما أبقيت لأهلك » ؟ فقال ــ رضى الله عنه ــ أبقيت لهم الله ورسوله(١) ، وهكذا الماء الذى عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه وهو جريح مثقل أحوج ما يكون إلى الماء ، فرده الآخر إلى الثالث فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ولم يشربه أحد منهم ــ رضى الله عنهم ــ وأرضاهم ــ .

وقال البخارى بسنده عن أبى هريرة قال : أتى رجل رسول الله ــ ﷺ ــ فقال يارسول الله أصابنى الجهد . فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً ، فقال النبى ــ ﷺ ــ « ألا رجل يضيف هذه الليلة رحمه الله » فقال رجل من الأنصار فقال : أنا يارسول الله ، فذهب إلى أهله فقال لامرأته هذا ضيف رسول الله ــ ﷺ ــ لا تدخريه شيئاً . فقالت : والله ما عندى إلا قوت الصبية قال : فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالى فأطفىء السراج ونطوى بطوننا الليلة ففعلت ، ثم غدا الرجل على رسول الله ــ ﷺ ــ فقال : « لقد عجب الله ــ عز وجل ــ أو ضحك ــ من فلان وفلانة » وأنزل الله تعالى : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾(٢)

وقوله تعالى : ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ أى من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح .

قال أحمد بسنده عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : « إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم »(٣) . إنفرد بإخراجه مسلم فرواه عن القعنبى عن داود بن قيس به(٤) .

وقال الأعمش بسنده عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الفحش فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش ، وإياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالظلم فظلموا ، وأمرهم بالفجور ففجروا ، وأمرهم بالقطيعة

---

(١) سنن الترمذى ــ كتاب المناقب ــ باب فى مناقب أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ٥ /٣٦٧٥ وقال الترمذى حديث حسن صحيح . وسنن أبى داود ــ كتاب الزكاة ــ باب الرخصة للرجل يخرج من ماله ٢ /٣١٢ رقم ١٦٧٨

(٢) صحيح البخارى ــ كتاب التفسير ــ سورة الحشر ٦ /١٨٥

(٣) مسند أحمد ٣ /٣٢٣

(٤) صحيح مسلم ــ كتاب البر والصلة ــ باب تحريم الظلم ٤ /١٩٩٦ رقم ٥٦

فقطعوا »[١] ورواه أحمد بسنده عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى جوف عبد أبداً ، ولا يجتمع الشح والإيمان فى قلب عبد أبداً »[٢] وقال ابن أبي حاتم بسنده عن الأسود بن هلال قال : جاء رجل إلى عبد الله فقال يا أبا عبد الرحمن إنى أخاف أن تكون أصابتنى هذه الآية .

وقال سفيان الثورى بسنده عن أبى الهياج الأسدى قال : كنت أطوف بالبيت فرأيت رجلاً يقول : اللهم قنى شح نفسى . لا يزيد على ذلك ، فقلت له ، فقال : إنى إذا وقيت شح نفسى لم أسرق ولم أزن ولم أفعل وإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنه ـ رواه ابن جرير . وقال ابن جرير بسنده عن أنس بن مالك عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « برىء من الشح من أدى الزكاة وقرى الضيف وأعطى فى النائبة »[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ **والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم** ﴾ هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفىء وهم المهاجرون ثم الأنصار ثم التابعون لهم بإحسان كما قال فى آية براءة : ﴿ **والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين آتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه** ﴾ فالتابعون لهم بإحسان هم المتبعون لآثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة ، الداعون لهم فى السر والعلانية . ولهذا قال تعالى فى هذه الآية الكريمة : ﴿ **والذين جاءوا من بعدهم يقولون** ﴾ أى : قائلين ﴿ **ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلاً** ﴾ أى : بغضاً وحسداً ﴿ **للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم** ﴾ وما أحسن ما استنبط الصحابة ليس له فى مال الفىء نصيب لعدم إتصافه بما مدح الله به هؤلاء فى قولهم ﴿ **ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم** ﴾ وقال ابن أبى حاتم بسنده عن عائشة أنها قالت : أمروا أن يستغفروا لهم فسبوهم ثم قرأت هذه الآية ﴿ **والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا أغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بلإيمان** ﴾ الآية[٤] .

وقال اسماعيل بن عليه بسنده عن عائشة قالت : أمرتم بالإستغفار ولأصحاب ـ محمد صلى الله عليه وسلم ـ فسببتموهم . سمعت نبيكم ـ ﷺ ـ يقول : « لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها

---

(١) سنن أبى داود ـ كتاب الزكاة ـ باب فى الشح ٢ / ٣٢٤ رقم ١٦٩٨

(٢) مسند أحمد ٢ / ٢٥٦ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٥٠٥

(٣) تفسير الطبرى ٢٨ / ٤٣ طبعة الحلبى

(٤) تفسير الطبرى ٢٨ / ٤٤ طبعة الحلبى

أولها » رواه البغوى(١) . وقال أبو داود بسنده عن الزهرى قال : قال عمر ــ رضى الله عنه ــ : ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ﴾ قال الزهرى : قال عمر ــ رضى الله عنه ــ : هذه لرسول الله ــ ﷺ ــ خاصة وقرى عرينة وكذا وكذا مما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ــ وللفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ــ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ــ والذين جاوا من بعدهم ، فاستوعبت الآية ا لناس فلم يبق أحد من المسلمين إلا له فيها حق . قال أيوب : إلا بعض من تملكون من أرقائكم(٢)

وقال ابن جرير بسنده عن مالك بن أوس بن الحدثان قال : قرأ عمر بن ا لخطاب : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين ــ حتى بلغ ــ عليم حكيم) ثم قال : هذه لهؤلاء . ثم قرأ : (واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذى القربى) الآية : ثم قال : هذه لهؤلاء . ثم قرأ : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى ــ حتى بلغ للفقراء ــ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ــ والذين جاءوا من بعدهم) ثم قال : إستوعبت هذه المسلمين عامة وليس أحد إلا له فيها حق ، ثم قال : لئن عشت ليأتين الراعى يسير / حُمْرَةُ نصيبه فيها لم يعرق فيها جبينه .(٣)

هكذا المنافقون واليهود

* أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ

---

(١) تفسير البغوى ــ سورة الحشر ٤ / ٣٢١

(٢) سنن أبى داود ــ كتاب الخراج والإمارة والفىء ــ باب فى صفايا رسول الله ــ ﷺ ــ من الأموال ٣ / ٣٧٢ رقم ٢٩٦٦

(٣) تفسير الطبرى ٢٨ / ٣٧ طبعة الحلبى

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ
اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾

معانى المفردات

نافقوا : أى : أظهروا غير ما أضمروا ، وبالغوا فى إخفاء عقائدهم ، والإخوان الأصدقاء . واحدهم : أخ ، والأخ من النسب جمعه إخوة ، لننصرنكم : أى : لنعاونكم ، ليولن الأدبار : أى : ليفرن هاربين ، أشد رهبة فى صدورهم من الله : أى : إنهم يخافونكم فى صدورهم أشد من خوفهم لله ، لا يفقهون : أى : لا يعلمون عظمته تعالى حتى يخشوه حق خشيته ، جميعاً : أى : مجتمعين ، محصنة : أى : بالدروب والخنادق وغيرها ، جُدُر : أى : حيطان ، واحدها جدار ، بأسهم : أى : جربهم ، وشتى : أى : متفرقة ، واحدها شتيت ، وبال أمرهم : سوء عاقبتهم ، من قولهم : كلأ وبيل : أى : وخيم سيىء العاقبة .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه ما حدث لبنى النضير من الاستسلام خوفاً ورهبة ، لما قذفه فى قلوبهم من الرعب ، ثم ذكر مصارف الفىء ، أردفه ذكر ما حصل من مناصحة المنافقين عبد الله بن أبىّ بن سلول ورفقته لأولئك ا ليهود ، وتشجيعهم لهم على الدفاع عن ديارهم ومحاربتهم رسول الله ــ ﷺ ــ بما قصّه الله علينا وفصله أتم تفصيل ، ليكون فى ذلك عبرة لنا ، وإنا لنشاهد كل يوم أن الناس يضل بعضهم بعضاً ويغوونهم ثم يتركونهم فى حيرة من أمرهم لا يجدون لهم مخلصاً مما وقعوا فيه .

أخرج ابن اسحاق وابن المنذر وأبو نُعيم عن ابن عباس : أنها نزلت فى رهط من بنى عوف ، منهم عبد الله بن أبىّ بن سلول ، ووديعة بن مالك ، وسويد وداعس بعثوا إلى بنى النضير بما قصه الله علينا فى كتابه .

أضواء كاشفة

انظر ــ يا من يتأتى منه النظر ــ متعجباً إلى الذين نافقوا فى إيمانهم وبعثوا إلى بنى النضير بما تضمنته الجمل التى حكيت فى القرآن ــ يقول هؤلاء المنافقون لإخوانهم الذين كفروا من اليهود ، وهم بنو النضير ، وكانوا إخوانهم فى الدين والكفر والصداقة يقولون : والله لئن أخرجتم من دياركم كما يطلب

محمد وصحبه منكم لنخرجن معكم ، ولا نطيع فى شأنكم أحداً يمنعنا من الخروج وإن طال الزمن ، ووالله لئن قوتلتم لننصرنكم ، ولنعاوننكم على عدوكم ، ولو كانوا هم المسلمين . والله يشهد إن المنافقين لكاذبون فى مواعيدهم وعهودهم المؤكدة بالإيمان ، والله لئن أخرج اليهود لا يخرجون معهم لأنهم منافقون ، ووالله لئن قوتل اليهود أى بنو النضير لا ينصرهم المنافقون أبداً ، وهذا وعد إخبار بالغيب وقد تحقق ذلك كله ، ولئن نصروهم فرضاً وتقديراً ليولن الأدبار ويمعنون فى الفرار ، ولا يلوون على شىء فإنهم المنافقون وكفى .

لأنتم أيها المسلمون أشد رهبة فى صدورهم من الله - عز وجل - ذلك بسبب أنهم قوم لايفقهون ولايعرفون عظمة الله فيخشونه حق خشيته .

لا يقاتلونكم أى اليهود والمنافقون جميعاً إلا فى قرى محصنة بالتحصينات التى عرفوها والتى ستعرف فى المستقبل ، أو من وراء جدار ، نعم رأيناهم فى حروب فلسطين لا يقاتلون الناس إلا كذلك ، فإن أفئدتهم هواء ، وقلوبهم مليئة بالجبن والخور والضعف وحب الدنيا وكراهية الموت والخوف الموروث من المسلمين ، وهم إن أبدوا شجاعة فشجاعة ظاهرية لا تلبث أن تماع ، ولقد صدق الله فى وصفهم هذا الوصف الدقيق « بأسهم بينهم شديد » فهم كما يقول الشاعر :

وإذا ما خلا الجبان بأرض طالب الطعن وحده والنزالا

وما أروع قول الله : « بينهم » أما إذا كان البأس والحرب بينهم وبين غيرهم كانوا أجبن من الجبن تحسبهم جميعاً مجتمعين ، والواقع أن قلوبهم واتجاههم شتى .

الله يقول ذلك عن اليهود ، وهو أصدق القائلين ، بقى من يقاتلهم هل هو مثلهم أو أشد ؟ أم أصبح المسلمون تتوزعهم الفرق والخلافات وأصبحوا يجرون وراء أمريكا وانجلترا ، وتركوا دينهم وقرآنهم وراءهم ظهريا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

أيها المسلمون تشجعوا واتحدوا ، ولا يهمنكم أمر تلك الشرزمة من العصابات اليهودية مهما ساعدتها أمريكا وانجلترا وروسيا فالله يقول : تحسبهم جميعاً ، وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون . مثل اليهود من بنى النضير كمثل الذين من قبلهم حيث ذاقوا وبال أمرهم ، وعاقبة كفرهم قريباً ، فلم تتأخر عقوبتهم إلى يوم القيامة ، ولهم فى الآخرة عذاب النار ، وقد كان ذلك مع المشركين يوم بدر ، ومع بنى قريظة قبل بنى النضير . ومثل المنافقين الذين وعدوا بنى النضير بالمساعدة ثم خانوهم ، كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ، وأغراه على الكفر ، فلما كفر بالله وعصى رسله ، ووقع فى عاقبة كفره تبرأ الشيطان منه ولم يقف معه وقال : كذباً ورياء إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين ، فكان عاقبتهما — من وسوس بالكفر ومن كفر — أنهما فى النار خالدين فيها ، وذلك جزاء الظالمين مطلقاً .

التفسير

يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أبيّ وأضرابه حين بعثوا إلى يهود بنى النضير يعدونهم النصر من أنفسهم فقال تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم** ﴾ قال الله تعالى : ﴿ **والله يشهد إنهم لكاذبون** ﴾ أى : كاذبون فيما وعدوهم به إما لأنهم قالوا لهم قولاً ومن نيتهم أن لا يفوا لهم به ، وإما لأنهم لا يقع منهم الذى قالوه ولهذا قال تعالى : ﴿ **ولئن قوتلوا لا ينصرونهم** ﴾ أى : لا يقاتلون معهم ﴿ **ولئن نصروهم** ﴾ أى : قاتلوا معهم ﴿ **ليولن الأدبار ثم لا ينصرون** ﴾ وهذه بشارة مستقلة بنفسها .

ثم قال تعالى : ﴿ **لا يقاتلونكم جميعاً إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر** ﴾ يعنى أنهم من جبنهم وهلعهم لا يقدرون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقابلة بل إما فى حصون أو من وراء جدر محاصرين فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة . ثم قال تعالى : ﴿ **بأسهم بينهم شديد** ﴾ أى : عداوتهم فيما بينهم شديدة كما قال تعالى : ﴿ **ويذيق بعضكم بأس بعض** ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ **تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى** ﴾ أى : تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين وهم مختلفون غاية الاختلاف قال إبراهيم النخعى : يعنى أهل الكتاب والمنافقين ﴿ **ذلك بأنهم قوم لا يعقلون** ﴾

ثم قال تعالى : ﴿ **كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم** ﴾ قال مجاهد والسدى ومقاتل بن حيان : يعنى كمثل ما أصاب كفار قريش يوم بدر . وقال ابن عباس : كمثل الذين من قبلهم يعنى يهود بنى قينقاع وكذا قال قتادة ومحمد بن إسحاق وهذا القول أشبه بالصواب فإن يهود بنى قينقاع كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ قد أجلاهم قبل هذا .

وقوله تعالى : ﴿ **كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك** ﴾ يعنى مثل هؤلاء اليهود فى اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من **المنافقين** ، وقول المنافقين لهم لئن قوتلتم لننصرنكم ، ثم لما حققت الحقائق وجد بهم الحصار والقتال تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة مثالهم فى هذا كمثل الشيطان إذ سول للإنسان والعياذ بالله ـــ الكفر فإذا دخل فيما سوله له تبرأ منه وتنصل وقال : ﴿ **إنى أخاف الله رب العالمين** ﴾ .

وقد ذكر بعضهم ههنا قصة لبعض عباد بنى إسرائيل هى كالمثال لهذا المثل لا أنها المرادة وحدها بالمثل بل هى منه مع غيرها من الوقائع الشاكلة لها ، فقال ابن جرير بسنده عن أبى اسحاق قال : سمعت عبد الله بن نهيك قال سمعت علياً ـــ رضى الله عنه يقول : إن راهباً تعبد ستين سنة وإن الشيطان أراده فأعياه فعمد إلى إمرأة فأجنها ولها إخوة فقال لإخوتها : عليكم بهذا القس فيداويها قال : فجاءوا إليه فداواها وكانت عنده فبينما هو يوماً عندها إذ أعجبته فأتاها فحملت فعمد إليها فقتلها فجاء

إخوتها ، فقال الشيطان للراهب : أنا صاحبك إنك أعييتنى أنا صنعت هذا بك فأطعنى أنجك مما صنعت بك فاسجد لى سجدة فسجد له ، قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين فذلك قوله : ﴿ **كمثل الشيطان إذ قال للإنسان أكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين** ﴾[1]

وقال ابن جرير بسنده عن عبد الله بن مسعود فى هذه الآية : ﴿ **كمثل الشيطان إذ قال للإنسان أكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين** ﴾ قال : كانت امرأة ترعى الغنم وكان لها أربعة إخوة وكانت تأوى بالليل إلى صومعة راهب قال : فنزل الراهب ففجر بها فحملت فأتاه الشيطان فقال له اقتلها ثم ادفنها فإنك رجل مصدق يسمع قولك فقتلها ثم دفنها قال : فأتى الشيطان إخوتها فى المنام فقال لهم : إن الراهب صاحب الصومعة فجر بأختكم فلما أحبلها قتلها ثم دفنها فى مكان كذا وكذا فلما أصبحوا قال رجل منهم : والله لقد رأيت البارحة رؤيا ما أدرى أقصها عليكم أم أترك ؟ قالوا لا بل قصها علينا ، قال فقصها فقال الآخر وأنا والله لقد رأيت ذلك ، فقال الآخر وأنا والله لقد رأيت ذلك ، قالوا فوالله ما هذا إلا لشىء قال فانطلقوا فاستعدوا ملكهم على ذلك الراهب فأتوه فأنزلوه ثم انطلقوا به فلقيه الشيطان فقال : إنى أنا الذى أوقعتك فى هذا ولن ينجيك منه غيرى فاسجد لى سجدة واحدة وأنجيك مما أوقعتك فيه . قال فسجد له ، فلما أتوا به ملكهم تبرأ منه وأخذ فقتل[2] . وكذا روى عن ابن عباس وطاوس ومقاتل بن حيان نحو ذلك .

واشتهر عند كثير من الناس أن هذا العابد هو برصيص فالله أعلم . وهذا القصة مخالفة لقصة جريج العابد ، فإن جريجاً اتهمته / امرأة بغى بنفسها وادعت أن حملها منه ورفعت أمرها إلى ولى الأمر فأمر به فأنزل من صومعته وخربت صومعته وهو يقول : مالكم مالكم . قالوا : ياعدو الله فعلت بهذه المرأة كذا وكذا ، فقال جريج اصبروا ثم أخذ ابنها وهو صغير جداً ثم قال : ياغلام من أبوك . قال : أبى الراعى وكانت قد أمكنته من نفسها فحملت منه . فلما رأى بنو اسرائيل ذلك عظموه كلهم تعظيماً بليغاً وقالوا نعيد صومعتك من ذهب ، قال : لا بل أعيدوها من طين كما كانت .

وقوله تعالى : ﴿ **فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها** ﴾ أى : فكان عاقبة الأمر بالكفر والفاعل له ومصيرهما إلى نار جهنم خالدين فيها ﴿ **وذلك جزاء الظالمين** ﴾ أى : جزاء كل ظالم .

---

(١) تفسير الطبرى ٢٨ / ٤٩ طبعة الحلبى

(٢) تفسير الطبرى ٢٨ / ٤٩ طبعة الحلبى

موجبات التقوى

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا
تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾
لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ
عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ
﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ
إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا
يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

معانى المفردات

(لغدٍ) : المراد به يوم القيامة أطلق عليه لقربه وتحقق وقوعه كالغد . (الملك) : المالك المتصرف فى خلقه وملكه تصرفا تاما . (القدوس) : البليغ فى البعد عن النقص أو الكامل فى ذاته وصفاته وأفعاله (السلام) : ذو السلامة من كل نقص وعيب . (المؤمن) : المصدق لنفسه ورسله فيما بلغوه عنه بالقول أو بخلق المعجزات على أيديهم أو هو واهبا لأمن لعباده . (المهيمن) : الرقيب الحافظ لكل شيء مأخوذ من قولهم : أمن الراعى الذئب على غنم إذا حفظهم حفظاً كاملاً من كل سوء . (العزيز) : الغالب من عز إذا غلب ، أو هو الذى لا مثل له من قولهم هذا شيء عزيز أو نادر المثال (الجبار) : الذى جبر خلقه على ما أراد (المتكبر) : البليغ الكبرياء والعظمة . (الخالق) : المقدر لخلقه على حسب ما تقضيه حكمته . (البارىء) : الموجد لخلقه برئياً من التفاوت المخل به . (المصور) : ا لموجد لصور الأشياء وكيفياتها . (الاسماء) : الأسماء الدالة على محاسن المعانى . ما مضى كان فى الكلام على اليهود والمنافقين ، وبيان نهايتهم فى الدنيا والآخرة . ولما أتم هذا شرع فى وعظ المسلمين وتنبيهم إلى يوم القيامة وما فيه وأنه لا يستوى العاصى والمطيع ولفت نظرهم إلى القرآن الكريم وما فيه ثم ذكر بعض صفات الحق ــ تبارك وتعالى ــ التى تغرس فى النفوس الإيمان الصحيح والعقيدة الراسخة وكان هذا ختاماً للسورة ما أجمله !

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر المضلين من المنافقين ، وبين أن ما يقولون غير ما يبطنون وأن مثلهم كمثل الشيطان فى الإغواء والإضلال ، ثم أعقبه بذكر الضالين من بنى النضير وكيف خدعوا بتلك الوعود الخلابة التى **كانت عليهم وبالاً ونكالاً وكان فيها سوء حالهم فى دنياهم ودينهم - شرع ينصح المؤمنين بلزوم التقوى ، وأن يعملوا فى دنياهم ما ينفعهم فى أخراهم حتى ينالوا الثواب العظيم والنعيم المقيم وألا ينسوا حقوق الله فيجعل الله الدين على قلوبهم ، فلا يقدموا لأنفسهم ما به رشادهم وفلاحهم .**

وبعد أن ذكر فرق المضلين من المنافقين ، والضالين من اليهود وغيرهم وأمر عباده المؤمنين بالتقوى إستعدادا ليوم القيامة ــ ذكر هنا أن لهم مرشدا عظيما وإماما هاديا هو القرآن الذى يجب أن تخشع لهيبته القلوب وتتصدع لدى سماع عظاته الأفئدة لما فيه من وعيد وبشارة وإنذار وحكم وأحكام فلو أنا الهمنا الجبل عقلا وفهمه وتدبر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله ــ عز وجل ــ فكيف بكم أيها البشر لا تلين قلوبكم ، ولا تخشع وتتصدع من خشيته ؟ وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه .

وبعد أن وصف القرآن بالعظيم أتبعه بوصف عظمة المنزل للقرآن ذى الأسماء الحسنى الذى يخضع له ما فى السموات والأرض وينقادون لحكمه وأمره ونهيه .

أضواء كاشفة

قوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله** ﴾ أى حيثما كنتم وفى أى عمل عملتم ولتنظر نفس **واحدة أى شىء قدمته من الأعمال ليوم القيامة ولتحاسب كل نفس نفسها عما عملت ، قبل أن تحاسب هى عليه وفى هذا حث عظيم على النظر فيما ينفع لغد وبيان أن النظر فيه قليل واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون وسيجازيكم عليه إن خيراً فخير وإن شراً فشر .**

وإياكم أن تكونوا كالذين نسوا حقوق الله ، وما قدروا الله حق قدره ولم يراعوا الواجب عليهم نحو الذات الأقدس ــ جل شأنه ــ لا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم الله بسبب ذلك أنفسهم حتى لم يعملوا لخيرها ولم يحصلوا ما يخلصها يوم القيامة أولئك الذين **نسوا الله** هم الفاسقون الكاملون فى الفسق والفجور فإياكم أن تكونوا مثلهم واعلموا أنه لا يستوى أصحاب النار الذين عملوا لها حيث خالفوا أمر الله فى كل شىء . وأصحاب الجنة الذين اتقوا الله فاستحقوا الخلود فى الجنة ؛ أصحاب الجنة **هم الفائزون وحدهم . وفى هذا تنبيه وأى تنبيه للناس وإيذاناً لهم بأنهم لفرط فضلهم وقلة تفكيرهم . وفى الآخرة وأحوالها كأنهم لا يعرفون أن هناك فرقاً بين أصحاب الجنة وأصحاب النار وهذا كما تقول لمن يسىء إلى أخيه : هذا أخوك .**

يأيها الذين آمنوا : ألم تعلموا أن معكم حبل الله المتين وكلامه الكريم ، وقرآنه المجيد فكيف لا تتعظون به ؟ وكيف لا تملأ قلوبكم خشية عند سماع كلامه ؟ مع العلم أنه لو أنزل هذا القرآن على

جبل وكان له عقل يميز مع أن الجبل علم فى القساوة لرأيته خاشعاً متشققاً من خشية الله وهذا تمثيل وتخيل لعلو شأن القرآن وقوة تأثير ما فيه من المواعظ والزواجر . وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون .

واعلم أن الذى أنزل القرآن وأمر بالتقوى هو الله جل جلاله واجب الوجود أزلا وأبداً الحاضر الذى لا يزول المعبود فلا أحد يستحق العبادة غيره ولا معبود بحق سواه هو الرحمن الرحيم بخلقه فى الدنيا والآخرة « ورحمتى وسعت كل شيء »[1] هو الله الذى لا إله إلا هو صاحب الملك والملكوت بيده الأمر « ألا له الخلق والأمر »[2] يعز من يشاء ويذل من يشاء وهو كل شيء قدير هو الملك القدوس المتنزه عن كل نقص وعيب ، الكامل فى كل شيء ذو السلامة من كل **ما يشينه ذاتا وصفاتا** وأفعالاً وهو المؤمن المصدق لنفسه ولرسله بما أنزل من كتاب وما خلق من معجزات ، سبحانه وتعالى وهب الأمن لعباده فى الدنيا والآخرة وهو المهيمن والرقيب على خلقه وملكه أو هو الذى أمن على خلقه وملكه من كل شيء لإحاطة علمه وكمال قدرته وهو العزيز الجبار الذى جبر خلقه على ما أراد ، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه وهو المتكبر الذى تكبر بربوبيته فلا شيء مثله والكبرياء فى صفات الله مدح وفى صفات المخلوقات ذم وفى الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله — ﷺ — قال فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال : ﴿ **الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى فى واحدة منهما قصمته ثم قذفته فى النار** ﴾[3] .

سبحانه وتعالى عما يشركون ! ! هو الله الخالق المقدر لكل شيء البارىء لهذا الكون والموحد له خالياً من تفاوت يخل به وهو الذى أوجد صوره وكيفياته على حسب حكمته وإرادته .

لله سبحانه الأسماء الحسنى الدالة على محاسن المعانى وفضائلها وأشرافها . يسبح له لأجل هذا كله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم الجامع للكمال كله .

روى عن ابن عباس : اسم الله الأعظم فى ست آيات من آخر سورة الحشر وفى رواية عن البراء عن على — رضى الله عنهما — أنه قال : يابراء إذا أردت أن تدعو الله باسمه الأعظم فاقرأ من أول سورة الحديد عشر آيات . وآخر الحشر ثم قل : يا من هو كذلك وليس شيء هكذا غيره أسألك أن تفعل لى كذ وكذا . والعبرة فى هذا كله بالإخلاص وصفاء الروح والقرآن كله وخاصة أمثال هذه الآيات مما يصفى الروح وينقيها ويجعل دعاءها مقبولاً .. نفعنا الله بالقرآن آمين .

---

(١) سورة الأعراف الآية : ١٢٦

(٢) سورة الأعراف الآية : ٥٤

(٣) سنن أبى داود — كتاب اللباس — باب ما جاء فى الكبر ٤ / ٣٥٠ رقم ٤٠٩٠ وسنن ابن ماجه — كتاب الزهد — باب البراءة من الكبر والتواضع ٤ /١٣٩٧ رقم ١٤٧٤ ومسند أحمد ٣٧٦/٢ ، ٤١٤ ، ٤٢٧ ، ٤٤٢

التفسير

﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون . لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ .

قال الإمام أحمد بسنده عن المنذر بن جرير عن أبيه قال : كنا عند رسول الله ـ ﷺ ـ فى صدر النهار قال : فجاءه قوم حفاة عراة مجتابى الثمار أو العباء متقلدى السيوف عامتهم من مضر بل كلهم من مضر فتغير وجه رسول الله ـ ﷺ ـ لما رأى بهم من الفاقة قال فدخل ثم خرج فأمر بلالا فأذن وأقام الصلاة فصلى ثم خطب فقال « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ـ إلى آخر الآية وقرأ الآية التى فى الحشر ـ ولتنظر نفس ما قدمت لغد ـ تصدق رجل من ديناره من درهمه من ثوبه من صاع بره من صاع تمره ـ حتى قال ـ ولو بشق تمرة » قال فجاء رجل من الأنصار **بصرة كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب حتى رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ : يتهلل وجهه كأنه مذهبه فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شىء ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شىء »(1) فقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ أمر بتقواه وهو يشمل فعل ما به أمر وترك ما عنه زجر .**

وقوله تعالى : ﴿ **ولتنظر نفس ما قدمت لغد** ﴾ أى : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم (واتقوا الله) تأكيد ثان (إن ا لله خبير بما تعملون) أى :**اعلموا أنه عالم** بجميع أعمالكم وأحوالكم لا تخفى عليه منكم خافية **ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير .**

المراقبة والمحاسبة

فى كتابه (إحياء علوم الدين) كتب حجة الإسلام أبو حامد الغزلى ـ رحمه الله تعالى ـ تحت هذا العنوان فقال :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت الرقيب على كل جارحة بما أجترحت المطلع على ضمائر القلوب إذا هجست الحسيب على خواطر عباده إذا إختلجت الذى لا يغزب عن علمه مثقال ذره فى

---

(1) مسند أحمد ٤ / ٣٥٨

صحيح مسلم ـ كتاب الزكاة ـ باب الحث على الصدقة ٢ / ٧٠٥ رقم ٦٩

السموات والأرض تحركت أو سكنت المحاسب على النقير والقطمير والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت . المتفضل لقبول طاعات العباد وإن صغرت المتطول بالعفو عن معاصيهم وإن كثرت وإنما يحاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت وتنظر فيما قدمت وأخرت فتعلم أنه لولا لزومها للمراقبة والمحاسبة فى الدنيا لشقيت فى صعيد القيامة وهلكت وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراجعة لولا فضله بقبول بضاعتها المزجاة لخابت وخسرت فسبحان من عمت نعمته كافة العباد وشملت واستغرقت رحمته الخلائق فى الدنيا والآخرة وغمرت بنفحات فضله اتسعت القلوب للإيمان وانشرحت وبيمن توفيقه تقيدت الجوارح بالعبادات وتأدبت وبحسن هدايته انحلت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشعت وبتأييده ونصرته انقطعت مكايد الشيطان واندفعت وبلطف عنايته تترجح كفة الحسنات إذا ثقلت وبتيسيره تيسرت من الطاعات ما تيسرت فمنه العطاء والجزاء والإبعاد والإرثاء والإسعاد والإشقاء والصلاة والسلام على محمد سيد الأنبياء وعلى آله سادة الأصفياء وعلى أصحابه قادة الأتقياء .

أما بعد . فقد قال الله تعالى : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾[١] ــ وقال تعالى : ﴿ **ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحداً** ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ **يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد** ﴾[٣] وقال تعالى : ــ ﴿ **يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ **ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾[٥]

وقال تعالى : ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خيراً محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه** ﴾[٦] وقال تعالى : ــ ﴿ **واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه** ﴾[٧] فعرف أرباب البصائر ومن جملة العباد أن الله تعالى لهم بالمرصاد وأنهم سيناقشون فى الحساب ويطالبون بمثاقيل الذرات والخطرات واللحظات وتحققوا أنه **لاينجيهم** من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس فى الأنفاس والحركات ومحاسبتها فى الخطرات واللحظات

(١) سورة الأنبياء الآية : ٤٧
(٢) سورة الكهف الآية : ٤٩
(٣) سورة المجادلة الآية : ٦
(٤) سورة الزلزلة الآيات : ٦ ، ٧ ، ٨
(٥) سورة البقرة الآية : ٢٨١
(٦) سورة آل عمران الآية : ٣٠
(٧) سورة البقرة الآية : ٢٣٥

فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خفَّ فى القيامة حسابه وحضر عند السؤال جوابه وحسن متقلبه ومآبه ومن لم يحاسب نفسه راحت حسراته وطالت فى عرضات يوم القيامة وقفاته وقادته إلى الخزى والمقت سيئاته فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا الله وقد أمرهم بالصبر والمرابطة فقال عز من قائل : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا** ﴾[1] فرابطوا أنفسهم أولاً بالمشارطة ثم بالمراقبة ثم بالمحاسبة ثم بالمعاقبة ثم بالمجاهدة ثم بالمعاتبة فكانت لهم فى المرابطة ست مقامات ولابد من شرحها وبيان حقيقتها وفضيلتها وتفصيل الأعمال فيها وأصل ذلك المحاسبة ولكن لك حساب فبعد مشارطة ومراقبة ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة فلنذكر شرح هذه المقامات وبالله التوفيق .

المقام الأول من المرابطة المشارطة

أعلم أن مطلب المتعاملين فى التجارات المشتركين فى البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكما أن التاجر يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه فكذلك العقل هو التاجر فى طريق الآخرة وإنما مطلبه وربحه تزكية النفس لأن بذلك فلاحها قال الله تعالى : ﴿ **قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها** ﴾ وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة والعقل يستعين بالنفس فى هذه التجارة إذ يستعملها ويستنجرها فيما يزكيها كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذى يتجر فى ماله وكما أن الشريك يصير خصماً منازعاً يجاذبه فى الربح فيحتاج إلى أن يشارطه أولاً ويراقبه ثانياً ويحاسبه ثالثاً ويعاقبه أو يعاتبه رابعاً فكذلك العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أولاً فيوظف عليها الوظائف ويشرط عليها الشروط ويرشدها إلى طرق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة فإنه لو أهملها لم **ير منها إلا الخيانة وتضييع رأس المال كالعبد الخائن إذا خلا له الجو وانفرد بالمال ثم بعد الفراغ ينبغى أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها .**

فإن هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى ، وبلوغ سدرة المهتى مع الأنبياء والشهداء ، فتدقيق الحساب فى هذا مع النفس أهم كثيراً من تدقيقه فى أرباح الدنيا ، مع أنها محتقرة بالاضافة إلى نعيم العقبى ، ثم كيفما كانت فمصيرها إلى التقدم والانقضاء ، ولا خير فى خير لا يدوم . بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم ، لأن الشر الذى لا يدوم إذا انقطع بقى الفرح بانقطاعه دائماً وقد انقضى الشر ، والخير الذى لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائماً وقد انقضى الخير ولذلك قيل : —

أشد الغم عندى فى سرور تيقن عنه صاحبه انتقالاً

فحتم على كل ذى حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه ، والتضييق عليها فى حركاتها ، وسكناتها ، وخطراتها ، وخطواتها ، فان كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها ،

(١) سورة ال عمران الآية : ٢٠٠

يمكن أن يشترى بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد . فانقضاء هذه الأنفاس ضائعة أو معروفة إلى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل ، فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح . ينبغى أن يفرغ قلبه ساعة لمشاركته فيقول للنفس : ما لى بضاعة إلا العمر ومهما فنى فقد فنى رأس المال ، ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح ، وهذا اليوم الجديد قد أمهلنى الله فيه ، وأنسأ فى أجلى ، وأنعم على به ، ولو توفانى لكنت أتمنى أن يرجعنى إلى الدنيا يومًا واحداً حتى أعمل فيه صالحاً . فاحسبى أنك قد توفيت ثم قد رددت ، فإياك ثم إياك أن تضيعى هذا اليوم ، فإن كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها ، واعلمى يا نفس أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة ، وقد ورد فى الخبر « أنه ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة ، فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نوراً من حسناته التى عملها فى تلك الساعة ، فيناله الفرح والسرور والاستبشار لمشاهدة تلك الأنوار التى هى وسيلته عند الملك الجبار ، ما لو وزع على أهل النار لأدهشتهم ذلك الفرح عند الإحساس بألم النار / ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة ، يفوح نتنها ، ويغشاه ظلامها ، وهى الساعة التى عصى الله فيها ، فيناله من الهول والفزع ما لو قسم على أهل الجنة لتنغص عليهم نعيمها ، ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس له فيها ما يسره ولا ما يسوءه ، وهى الساعة التى نام فيها أو غفل أو اشتغل بشىء من مباحات الدنيا ، فيتحسر على خلوها ، ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الربح الكثير والملك الكبير ، إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاته ، وناهيك به حسرة وغبناً . وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره ، فيقول لنفسه : اجتهدى اليوم فى أن تعمرى خزانتك ، ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التى هى أسباب ملكك ، ولا تميلى إلى الكسل والدعة والاستراحة ، فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك ، وتبقى عندك حسرة لا تفارقك ، وإن دخلت الجنة ، فألم الغبن وحسرته لا يطاق وإن كان دون ألم النار[1] .

وقد قال بعضهم هب أن المسىء قد عفى عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين ، أشار به إلى الغبن والحسرة : وقال الله ــ تعالى ــ : ﴿ **يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن** ﴾[2] فهذه وصيته لنفسه فى أوقاته ثم ليستأنف لها وصيته فى أعضائه السبعة : وهى العين ، والأذن ، واللسان ، والبطن ، والفرج ، واليد ، والرجل ، وتسليمها إليها فإنها رعايا خادمة لنفسه فى هذه التجارة ، وبها تتم أعمال هذه التجارة . وإن لجهنم سبعة أبواب ، لكل باب منهم جزء مقسوم . وإنما تتعين تلك الأبواب لمن عصى الله ــ تعالى ــ بهذه الأعضاء فيوحيها بحفظها عن معاصيها ، أما العين فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بمحرم ، أو إلى عورة مسلم ، أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار ، بل عن كل فضول مستغنى عنه ، فإن الله ــ تعالى ــ يسأل عبده عن فضول النظر ، كما يسأله عن فضول الكلام ، ثم إذا صرفها عن هذا لم تقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها

(١) انظر الحديث : ينشر للعبد كل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة ... فى كتاب إحياء علوم الدين ج ٤ ص ٢٧٤١ . كتاب المحاسبة والمراقبة ط / الشعب . وقال محققه : الحديث بطوله لم أجد له أصلا .

(٢) سورة التغابن الآية ٩

وربحها ، وهو ما خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله بعين الاعتبار والنظر إلى أعمال الخير للإقتداء ، والنظر فى كتاب الله وسنة رسوله ، ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة . وهكذا ينبغى أن يفصل الأمر عليها فى عضو عضو ، لا سيما اللسان ، والبطن ، أما اللسان فلأنه منطلق بالطبع ، ولا مؤنة عليه فى الحركة ، وجنايته عظيمة بالغيبة ، والكذب ، والنميمة ، وتزكية النفس وقذفه الخلق والأطعمة ، واللعن ، والدعاء على الاعداء ، والمماراة فى الكلام وغير ذلك ، فهو بصدد ذلك كله مع أنه خلق للذكر والتذكير وتكرار العلم والتعليم ، وإرشاد عباد الله إلى طريق الله ، واصلاح ذات البين ، وسائر خيراته فليشترط على نفسه أن لا يحرك اللسان طول النهار إلا فى الذكر ، فنطق المؤمن ذكر ، ونظره عبرة ، وصمته فكرة ﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾[1] .

وأما البطن فيكلفه ترك الشره ، وتقليل الأكل من الحلال ، واجتناب الشبهات ويمنعه من الشهوات ويقتصر على قدر الضرورة . ويشرط على نفسه أنها إن خالفت شيئاً من ذلك عاقبها بالمنع عن شهوات البطن ليفوتها أكثر مما نالته بشهواتها ، وهكذا يشرط عليها فى جميع الأعضاء ، واستقصاء ذلك يطول ، ولا تخفى معاصى الأعضاء وطاعاتها ، ثم يستأنف وصيتها فى وظائف الطاعات التى تكرر عليه فى اليوم والليلة ، ثم فى النوافل التى يقدر عليها ويقدر على الاستكثار منها ، ويرتب لها تفصيلها وكيفيتها وكيفية الاستعداد لها بأسبابها ، وهذه شروط يفتقر إليها فى كل يوم ولكن إذا تعود الإنسان شرط ذلك على نفسه أياماً وطاوعته نفسه فى الوفاء بجميعها استغنى عن المشاركة فيها ، وإن أطاع فى بعضها بقيت الحاجة إلى تجديد المشاركة فيما بقى ، ولكن لا يخلو كل يوم عن فهم جديد وواقعة حادثة لها حكم جديد ، ولله عليه فى ذلك حق ، ويكثر هذا على من يشتغل بشىء من أعمال الدنيا ، من ولاية أو تجارة أو تدريس ، إذ قلما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضى حق الله فيها ، فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها والانقياد للحق فى مجاريها ويحذرها مغبة الإهمال ، ويعظها كما يوعظ العبد الآبق المتمرد فان النفس بالطبع متمردة عن الطاعات مستعصية عن العبودية ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها ﴿ **وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين** ﴾[2] .

فهذا وما يجرى مجراه هو أول مقام المرابطة مع النفس وهى محاسبة قبل العمل . والمحاسبة تارة تكون بعد العمل وتارة قبله للتحذير قال الله تعالى : ﴿ **واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه** ﴾[3] وهذا للمستقبل وكل نظر فى كثرة ومقدار لمعرفة ، زيادة ونقصان ، فانه يسمى محاسبة . فالنظر فيما بين يدى العبد فى نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة وقد قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا**

---

(١) سورة ق الآية ١٨
(٢) سورة الذاريات الآية ٥٥
(٣) سورة البقرة الآية ٢٣٥

ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ﴾[١] ، وقال ــ تعالى ــ : **﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾**[٢] ، وقال تعالى : **﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ﴾**[٣] ذكر ذلك تحذيراً وتنبيهاً للإحتراز منه فى المستقبل . وروى عبادة بن الصامت أنه ــ عليه السلام ــ قال لرجل سأله أن يوصيه ويعظه : « إذا أردت أمراً فتدبر عاقبته فإن كان رشداً فامضه وإن كان غياً فانته عنه »[٤] .

وقال بعض الحكماء : إذا أردت أن يكون العقل غالباً للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة فإن مكث الندامة فى القلب أكثر من مكث خفة الشهوة .

وقال لقمان : إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة .

وروى شداد بن أوس عنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه قال : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله »[٥] . (دان نفسه : أى حاسبها ويوم الدين : يوم الحساب ، وقوله : ــ ائنا لمدينون ــ أى لمحاسبون) .

وقال عمر ــ رضى الله عنه ــ : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا ، وتهيأوا للعرض الأكبر ، وكتب إلى أبى موسى الأشعرى : حاسب نفسك فى الرخاء قبل حساب الشدة . وقال **لكعب : قبل أن تجدها فى كتاب الله قال : ويل لديان الأرض من ديان السماء فعلاه بالدرة . وقال إلا من حاسب نفسه فقال كعب : يا أمير المؤمنين : إنها إلى جنبها فى التوراة ما بينهما حرف إلا من حاسب نفسه . وهذا كله إشارة إلى المحاسبة للمستقبل إذ قال من دان نفسه يعمل لما بعد الموت ومعناه وزن الأمور أولاً وقدرها ونظر فيها وتدبرها ثم أقدم عليها فباشرها .**

(المرابطة الثانية : المراقبة) إذا أوصى الإنسان نفسه وشرط عليها ما ذكرناه فلا يبقى إلا المراقبة لها عند الخوض فى الأعمال وملاحظتها بالعين الكالئة ، فإنها إن تركت طغت وفسدت . ولنذكر فضيلة المراقبة ثم درجاتها : أما الفضيلة : فقد سأل جبريل ــ عليه السلام ــ عن الإحسان فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه » . وقال ــ عليه السلام ــ : « أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[٦] . وقد قال ــ

(١) سورة النساء الآية ٩٤
(٢) سورة الحجرات الآية ٦
(٣) سورة ق الآية ١٦
(٤) انظر اتحاف السادة المتقين ج ١٠ ص ١٠٣
(٥) الحديث فى سنن الترمذى ج ٤ ص ٥٥٠ كتاب صفة القيامة رقم ٢٤٥٩ وقال : هذا حديث حسن .
ــ انظر سنن ابن ماجة ج ٢ ص ١٤٢٣ . كتاب الزهد . باب ذكر الموت والاستعداد له . رقم ٤٢٦٠ .
(٦) الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ٣٦ . كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان رقم ١ / ٨ .
ــ انظر سنن الترمذى ج ٥ ص ٨ ، ٩ كتاب الإيمان رقم ٢٦١٠ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

تعالى ـــ : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾[١] وقال ـــ تعالى ـــ : ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾[٢] . وقال الله ـــ تعالى ـــ : ﴿ إن الله كان عليكم رقيبًا ﴾[٣] . وقال ـــ تعالى ـــ : ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قائمون ﴾[٤]

وقال ابن المبارك لرجل : راقب الله ـــ تعالى ـــ ، فسأله عن تفسيره فقال : كن أبداً كأنك ترى الله ـــ عز وجل ـــ .

وقال عبد الواحد بن زيد : إذا كان سيدى رقيبًا علىّ فلا أبالى بغيره وقال أبو عثمان المغربى : أفضل ما يلزم الإنسان نفسه فى هذه الطريقة المحاسبة والمراقبة وسياسة عمله بالعلم .

وقال ابن عطاء : أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات : وقال الجريرى : أمرنا هذا مبنى على أصلين : أن تلزم نفسك المراقبة لله ـــ عز وجل ـــ ويكون العلم على ظاهرك قائماً .

وقال أبو عثمان : قال لى أبو حفص : إذا جلست للناس فكن واعظًا لنفسك وقلبك ، ولا يغرنك اجتماعهم عليك ، فإنهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك .

وحكى أنه كان لبعض المشايخ من هذه الطائفة تلميذ شاب وكان يكرمه ويقدمه ، فقال له بعض أصحابه : كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ ؟ فدعا بعدة طيور ، وناول كل واحد منهم طائراً وسكيناً وقال : ليذبح كل واحد منكم طائره فى موضع لا يراه أحد ودفع إلى الشاب مثل ذلك وقال له كما قال لهم ، فرجع كل واحد بطائره مذبوحاً ورجع الشاب والطائر حى فى يده فقال : مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك ؟ فقال : لم أجد موضعاً لا يرانى فيه أحد إذ الله مطلع علىّ فى كل مكان فاستحسنوا منه هذه المراقبة وقالوا حق لك أن تكرم .

وحكى أن زليخا لما خلت بيوسف ـــ عليه السلام ـــ قامت فغطت وجه صنم كان لها . فقال يوسف : مالك أتستحيين من مراقبة جماد ولا أستحيى من مراقبة الملك الجبار .

وحكى عن بعض الأحداث أنه راود جارية عن نفسها ، فقالت له : ألا تستحيى ؟ فقال : ممن أستحيى ؟ وما يرانا إلا الكواكب . قالت : فأين مكوكبها ؟ .

وقال رجل للجنيد : بم أستعين على غض البصر ؟ فقال : بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه .

---

(١) سورة الرعد الآية ٣٣
(٢) سورة العلق الآية ١٤
(٣) سورة النساء الآية ١
(٤) سورة المعارج الآيتان ٣٢ ، ٣٤

وقال الجنيد : إنما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه عز وجل ، وعن مالك بن دينار قال : جنات عدن من جنات الفردوس وفيها حور خلقن من ورد الجنة قيل له : ومن يسكنها ؟ قال : يقول **الله - عز وجل - : إنما يسكن جنات عدن الذين إذا هموا بالمعاصي وذكروا عظمتي فراقبوني ، والذين انثنت** أصلابهم من خشيتي ، وعزتي وجلالي إني لأهم بعذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب . وسئل المحاسبي عن المراقبة فقال : أولها علم القلب بقرب الرب ـــ تعالى ـــ . وقال المرتعش : المراقبة مراعاة السر بملاحظة الغيب مع كل لحظة ولفظة .

ويروى أن الله ـــ تعالى ـــ قال لملائكته : أنتم موكلون بالظاهر وأنا الرقيب على الباطن .

وقال محمد بن على الترمذى : إجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك ، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك ، واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه .

وقال سهل : لم يتزين القلب بشيء أفضل ولا أشرف من علم العبد بأن الله شاهده حيث كان .

وسئل بعضهم عن قوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه** ﴾[1] فقال : معناه : ذلك لمن راقب ربه ـــ عز وجل ـــ وحاسب نفسه وتزود لمعاده .

وسئل ذو النون : بم ينال العبد الجنة ؟ فقال بخمس : إستقامة ليس فيها روغان ، واجتهاد وليس معه سهو ، ومراقبة الله ـــ تعالى ـــ فى السر والعلانية ، وانتظار الموت بالتأهب له ، ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب . وقد قيل :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل ... خلوت ولكن قل علىّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما تخفيه عنه يغيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب ... وان غداً للناظرين قريب

وقال حميد الطويل لسليمان بن على : عظنى فقال : لئن كنت إذا عصيت الله خالياً ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت .

وقال سفيان الثورى : عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية ، وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء ، وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة .

وقال فرقد السنجى : إن المنافق ينظر ، فإذا لم ير أحداً دخل مدخل السوء وإنما يراقب الناس ولا يراقب الله ـــ تعالى ـــ .

---

(1) سورة البينة الآية ٨

وقال عبد الله بن دينار : خرجت مع عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ إلى مكة ، فعرسنا فى بعض الطريق فانحدر عليه راع من الجبل فقال له : يا راعى بعنى شاة من هذه الغنم ، فقال : إنى مملوك . فقال : قل لسيدك أكلها الذئب . قال : فأين الله ؟ قال فبكى عمر ــ رضى الله عنه ــ ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه وقال : أعتقتك فى الدنيا هذه الكلمة وأرجو أن تعتقك فى الآخرة .

بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها

إعلم أن حقيقة المراقبة هى ملاحظة الرقيب ، وانصراف الهم إليه ، فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال إنه يراقب فلاناً ويراعى جانبه ، ويعنى بهذه المراقبة حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة وتثمر تلك الحالة أعمالاً فى الجوارح وفى القلب ، أما الحالة فهى مراعاة القلب للرقيب ، واشتغاله به والتفاته إليه ، وملاحظته إياه وانصرافه إليه ، وأما المعرفة التى تثمر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت وأن سر القلب فى حقه مكشوف كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف بل أشد من ذلك ، فهذه المعرفة إذا صارت يقيناً ، أعنى أنها خلت على الشك ، ثم استولت بعد ذلك على القلب وقهرته فرب علم لا شك فيه لا يغلب على القلب كالعلم بالقلب فإذا استولت على القلب إستجرت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه إليه ، والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون ، وهم ينقسمون إلى الصديقين وإلى أصحاب اليمين ، فمراقبتهم على درجتين .

الدرجة الأولى : مراقبة المقربين من الصديقين ، وهى مراقبة التعظيم والإجلال ، وهو أن يصير القلب مستغرقاً بملاحظة ذلك الجلال ومنكسراً تحت الهيبة فلا يبقى فيه متسع للإلتفات إلى الغير أصلاً ، وهذه المراقبة لا نطول النظر فى تفصيل أعمالها فإنها مقصورة على القلب .

أما الجوارح فإنها تتعطل عن التلفت إلى المباحات فضلاً عن المحظورات ، وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة بها فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت فى حفظها على سنن السداد ، بل يسدد الرعية من ملك كلية الراعى والقلب هو الراعى فإذا صار مستغرقاً بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والإستقامة من غير تكلف ، وهذا هو الذى صار همه هماً واحداً فكفاه الله سائر الهموم ، ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل عن الخلق حتى لا يبصر من يحضر عنده وهو فاتح عينيه ، ولا يسمع ما يقال له مع أنه لا صمم به وقد يمر على ابنه مثلاً فلا يكلمه حتى كان بعضهم يجرى عليه ذلك ، فقال لمن عاتبه : إذا مررت بى فحركنى ولا تستبعد هذا فإنك تجد نظير هذا فى القلوب المعظمة لملوك الأرض ، حتى إن خدم الملك قد لا يحسون بما يجرى عليهم فى مجالس الملوك لشدة إستغراقهم بهم ، بل قد يشتغل القلب بمهم حقير من مهمات الدنيا فيغوص الرجل فى الفكر فيه ويمشى فربما يجاوز الموضع الذى قصده وينسى الشغل الذى نهض له .

وقد قيل لعبد الواحد بن زيد : هل تعرف فى زمانك هذا رجلاً قد اشتغل بحاله عن الخلق ؟ قال :

ما أعرف إلا رجلاً سيدخل عليكم الساعة فما كان إلا سريعاً حتى دخل عتبة الغلام ، فقال له عبد الواحد ابن زيد: من أين جئت يا عتبة ؟ فقال : من موضع كذا وكان طريقه على السوق ، فقال : من لقيت فى الطريق ؟ فقال : ما رأيت أحداً .

ويروى عن يحيى بن زكريا ــ عليهما السلام ــ أنه مر بامرأة فدفعها فسقطت على وجهها فقيل له : لم فعلت هذا ؟ فقال : ما ظننتها إلا جداراً .

وحكى عن بعضهم أنه قال : مررت بجماعة يترامون وواحد جالس بعيداًمنهم فتقدمت إليه فأردت أن أكلمه فقال : ذكر الله ــ تعالى ــ أشهى . فقلت : أنت وحدك ؟ فقال : معى ربى وملكاى . فقلت : من سبق من هؤلاء ؟ فقال : من غفر الله له . فقلت : أين الطريق ؟ فأشار نحو السماء وقام ومشى . وقال : أكثر خلقك شاغل عنك فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله ــ تعالى ــ لا يتكلم إلا منه ولا يسمع إلا فيه ، فهذا لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه ، فإنها لا تتحرك إلا بما هو فيه .

ودخل الشبلى على أبى الحسن النورى وهو معتكف فوجده ساكناً حسن الإجتماع لا يتحرك من ظاهره شىء فقال له : من أين أخذت هذه المراقبة والسكون ، فقال : من سنور كانت لنا . فكانت إذا أرادت الصيد رابطت رأس الجحر لا تتحرك لها شعرة .

وقال أبو عبد الله بن خفيف : خرجت من مصر أريد الرملة للقاء أبى علىّ الروذبارى ، فقال له عيسى بن يونس المصرى المعروف بالزاهد : إن فى صور شاباً وكهلاً قد اجتمعا على حال المراقبة ، فلو نظرت إليهما نظرة لعلك تستفيد منهما ، فدخلت صور وأنا جائع عطشان وفى وسطى خرقة وليس على كتفى شىء ، فدخلت المسجد فإذا بشخصين قاعدين مستقبلى القبلة ، فسلمت عليهما فما أجابانى ، فسلمت ثانية وثالثة فلم أسمع الجواب . فقلت : نشدتكما بالله إلا رددتما علىّ السلام ، فرفع الشاب رأسه من مرقعته فنظر إلىّ وقال : يا ابن خفيف : الدنيا قليل وما بقى من القليل إلا القليل فخذ من القليل الكثير . يا ابن خفيف : ما أقل شغلك حتى تتفرغ إلى لقائنا . قال : فأخذ بكليتى ثم طأطأ رأسه فى المكان فبقيت عندهما حتى صلينا الظهر والعصر فذهب جوعى وعطشى وعنائى . فلما كان وقت العصر قلت عظنى فرفع رأسه إلىّ وقال : يا ابن خفيف : نحن أصحاب المصائب ليس لنا لسان العظة فبقيت عندهما ثلاثة أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام ولا رأيتهما أكلا شيئاً ولا شربا فلما كان اليوم الثالث قلت فى سرى : أحلفهما أن يعظانى لعلى أن أنتفع بعظتهما فرفع الشاب رأسه وقال لى : يا ابن خفيف : عليك بصحبة من يذكرك الله رؤيته ، وتقع هيبته على قلبك يعظك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قوله والسلام قم عنا . فهذه درجة المراقبين الذين غلب على قلوبهم الإجلال والتعظيم فلم يبق فيهم متسع لغير ذلك .

الدرجة الثانية : مراقبة الورعين من أصحاب اليمين وهم قوم غلب يقين إطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم على قلوبهم . ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حدّ الإعتدال متسعة للتلفت

إلى الأحوال والأعمال إلا أنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن المراقبة . نعم ، ويمتنعون عن كلّ ما يفتضحون به في القيامة فإنهم يرون الله فى الدنيا مطلعاً عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات فإنك فى خلوتك قد تتعاطى أعمالاً فيحضرك صبى أو امرأة فتعلم أنه مطلع عليك فتستحى منه فتحسن جلوسك وتراعى أحوالك لا عن إجلال وتعظيم بل عن حياء فإن مشاهدته وإن كانت لا تدهشك ولا تستغرقك فإنها تهيج الحياء منك . وقد يدخل عليك ملك من الملوك أو كبير من الأكابر فيستغرقك التعظيم حتى تترك كل ما أنت فيه شغلاً به لا حياء منه ، فهكذا تختلف مراتب العباد فى مراقبة الله ــ تعالى ــ ومن كان فى هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته وبالجملة جميع اختياراته ، وله فيها نظران : نظر قبل العمل ونظر فى العمل . أما قبل العمل ، فلينظر أن ما ظهر له وتحرك بفعله خاطره أهو لله خاصة أو هو فى هوى النفس ومتابعة الشيطان ، فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق ، فإن كان لله ــ تعالى ــ أمضاه ، وإن كان لغير الله استحيا من الله وانكف عنه ثم لام نفسه على رغبته فيه وهمه به وميله إليه وعرّفها سوء فعلها وسعيها فى فضيحتها وأنها عدوة نفسها إن لم يتداركها الله بعصمته ، وهذا التوقف فى بداية الأمور إلى حد البيان واجب محتوم لا محيص لأحد عنه فإن فى الخبر : « إنه ينشر للعبد فى كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين : الديوان الأول : لِمَ ، والثانى : كيف ، والثالث : لمن » ومعنى لم : أى لم فعلت هذا ؟ أكان عليك أن تفعله لمولاك أو ملت إليه بشهوتك وهواك فإن سلم منه بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه سئل عن الديوان الثانى فقيل له : كيف فعلت هذا ؟ فإن لله فى كل عمل شرطاً وحكماً لا يدرك قدره ووقته وصفته إلا بعلم ، فيقال له : كيف فعلت ؟ أبعلم محقق أم بجهل وظن فإن سلم من هذا نشر الديوان الثالث : وهو المطالبة بالإخلاص فيقال له : لمن عملت ؟ ألوجه الله خالصاً وفاء بقولك لا إله إلا الله ، فيكون أجرك على الله أو لمراءات خلق مثلك فخذ أجرك منه . أم عملته لتنال عاجل دنياك فقد وفيناك نصيبك من الدنيا أم عملته بسهو وغفلة فقد سقط أجرك ، وحبط عملك ، وخاب سعيك . وإن عملت لغيرى فقد استوجبت مقتى وعقابى إذ كنت عبداً لى تأكل رزقى وتترفه بنعمتى ثم تعمل لغيرى ، أما سمعتنى أقول : ﴿ **إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم** ﴾[1] ، ﴿ **إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه** ﴾[2] . ويحك أما سمعتنى أقول : ﴿ **ألا لله الدين الخالص** ﴾[3] .

فإذا عرف العبد أنه بصدد هذه المطالبات والتوبيخات ، طالب نفسه قبل أن تطالب ، وأعد للسؤال جواباً وليكن الجواب صواباً فلا يبدىء ولا يعيد إلا بعد التثبت ولا يحرك جفناً ولا أنملة إلا بعد التأمل .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٩١

(٢) سورة العنكبوت الآية ١٧

(٣) سورة الزمر الآية ٣

وقد قال النبى ــ ﷺ ــ لمعاذ : « إن الرجل ليُسأل عن كحل عينيه وعن فته الطين بإصبعيه ، وعن لمسه ثوب أخيه »(١) .

وقال الحسن : كان أحدهم إذا أراد أن يتصدق بصدقة نظر وتثبت فإن كان لله أمضاه .

وقال الحسن : رحم الله ــ تعالى ــ عبداً وقف عند همه فإن كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر .

وقال فى حديث سعد حين أوصاه سلمان : « اتق الله عند همك إذا هممت » . وقال محمد بن علىّ : إن المؤمن وقاف متأن يقف عند همه ليس كحاطب ليل فهذا هو النظر الأول فى هذه المراقبة ولا يخلص من هذا إلا العلم المتين والمعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال وأغوار النفس ومكايد الشيطان ، فمتى لم يعرف نفسه وربه وعدوه إبليس و لم يعرف ما يوافق هواه ، و لم يميز بينه وبين ما يحبه الله ويرضاه فى نيته وهمته وفكرته وسكونه وحركته فلا يسلم فى هذه المراقبة بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله ــ تعالى ــ وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، ولا تظنن أن الجاهل بما يقدر على التعلم فيه يعذر ، هيهات ، بل طلب العلم فريضة على كل مسلم ، ولهذا كان ركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم لأنه يعلم آفات النفوس ومكايد الشيطان ، ومواضع الغرور فيتقى ذلك . والجاهل لا يعرفه فكيف يحترز منه فلا يزال الجاهل فى تعب والشيطان منه فى فرح وشماته ، فنعوذ بالله من الجهل والغفلة فهو رأس كل شقاوة وأساس كل خسران فحكم الله ــ تعالى ــ على كل عبد أن يراقب نفسه عند همه بالفعل وسعيه بالجارحة فيتوقف عن الهم وعن السعى حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله ــ تعالى ــ فيمضيه أو هو لهوى النفس فيتقيه ويزجر القلب عن الفكر فيه وعن الهم به ، فإن الخطرة الأولى فى الباطن إذا لم تدفع أورثت الرغبة ، والرغبة تورث الهم ، والهم يورث جزم القصد ، والقصد يورث الفعل ، والفعل يورث البوار والمقت ، فينبغى أن تحسم مادة الشر من منبعه الأول وهو الخاطر فإن جميع ما وراءه يتبعه ، ومهما أشكل على العبد ذلك وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له فيتفكر فى ذلك بنور العلم ، ويستعيذ بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى فإن عجز عن الاجتهاد والفكر بنفسه فيستضى بنور علماء الدين ، وليفر من العلماء المضلين المقبلين على الدنيا فراره من الشيطان بل أشد ، فقد أوصى الله تعالى إلى داود ــ عليه السلام ــ : لا تسأل عنى عالماً أسكره حب الدنيا فيقطعك عن محبتى أولئك قطاع الطريق على عبادى ، فالقلوب المظلمة بحب الدنيا وشدة الشرة والتكالب عليها محجوبة عن نور الله ــ تعالى ــ فإن مستضاء أنوار القلوب حضرة الربوبية فكيف يستضىء بها من استدبرها وأقبل على عدوها وعشق بغيضها ومقيتها ، وهى شهوات الدنيا فلتكن همة المزيد أولاً فى أحكام العلم أو فى طلب عالم معرض عن الدنيا أو ضعيف الرغبة فيها ، إن لم يجد من هو عديم الرغبة فيها وقد قال رسول الله ــ

(١) انظر إحياء علوم الدين ج ٤ ص ٣٨٨ . وقال العراقى لم أجد له أصلا ، ولكن انظر حلية الأولياء ج ١ ص ٣١ . ترجمة أحمد ابن أبى الحوارى . حديث بلفظ « يا معاذ إن المؤمن لدى الحق أسير ... وفيه » . (إن المؤمن يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى كحل عينيه) .

ـ ﷺ ـ : « إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند هجوم الشهوات »[(١)] . جمع بين الأمرين وهما متلازمان حقاً فمن ليس له عقل وازع عن الشهوات فليس له بصر ناقد فى الشبهات ولذلك قال ـ عليه السلام ـ : « من قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً »[(٢)] . فما قدر العقل الضعيف الذى سعد الآدمى به حتى يعمد إلى محوه ومحقه بمقارفة الذنوب ومعرفة آفات الأعمال قد اندرست فى هذه الأعصار فإن الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم واشتغلوا بالتوسط فى الخصومات الثائرة فى اتباع الشهوات ، وقالوا : هذا هو الفقه ، وأخرجوا هذا العلم الذى هو فقه الدين عن جملة العلوم ، وتجردوا لفقه الدنيا الذى ما قصد به إلا دفع الشواغل عن القلوب ليتفرغ لفقه الدين ، فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه . وفى الخبر : « أنتم اليوم فى زمان خيركم فيه المسارع وسيأتى عليكم زمان خيركم فيه المتثبت » .

ولهذا توقف طائفة من الصحابة فى القتال مع أهل العراق وأهل الشام لما أشكل عليهم الأمر كسعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن عمر ، وأسامة ، ومحمد بن مسلمة ، وغيرهم . فمن لم يتوقف عند الإشتباه كان متبعاً لهواه معجباً برأيه وكان ممن وصفه رسول الله ـ ﷺ ـ إذ قال : « فإذا رأيت شحًا مطاعًا وهوى متبعاً وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك »[(٣)] . وكل من خاض فى شبهة بغير تحقيق فقد خالف قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **ولا تقف ما ليس لك به علم** ﴾[(٤)] . وقوله ـ عليه السلام ـ : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث »[(٥)] . وأراد به ظناً بغير دليل كما يستفتى بعض العوام قلبه فيما أشكل عليه ويتبع ظنه ، ولصعوبة هذا الأمر وعظمه كان دعاء الصديق ـ رضى الله تعالى عنه ـ : اللهم أرنى الحق حقاً وارزقنى اتباعه ، وأرنى الباطل باطلاً وارزقنى اجتنابه ، ولا تجعله متشابهاً علىّ فأتبع الهوى . وقال عيسى ـ عليه السلام ـ : « الأمور ثلاثة : أمر استبان رشده فاتبعه ، وأمر استبان غيه فاجتنبه وأمراً شكل عليك فكله إلى عالمه »[(٦)] . وقد كان من دعاء النبى ـ ﷺ ـ : « اللهم إنى أعوذ بك أن أقول فى الدين بغير علم »[(٧)] . فأعظم نعمة الله على عباده هو العلم وكشف الحق والإيمان عبارة عن نوع كشف وعلم ولذلك

---

(١) انظر اتحاف السادة المتقين ج ١٠ ص ١٠٥
(٢) انظر المرجع السابق
(٣) انظر اتحاف السادة المتقين ج ١٠ ص ١٠٦ .
(٤) سورة الإسراء .
(٥) انظر إحياء علوم الدين ج ٢ ص ١٧٥ ـ ١٧٧ .
(٦) انظر اتحاف السادة المتقين ج ١٠ ص ١٠٦ . وقال رواه الطبرانى من حديث ابن عباس بسند ضعيف .
(٧) انظر اتحاف السادة المتقين ج ١٠ ص ١٠٦ .

قال ــ تعالى ــ إمتناناً على عبده : ﴿ **وكان فضل الله عليك عظيماً** ﴾[(١)] وأراد به العلم وقال ــ تعالى ــ : ﴿ **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** ﴾[(٢)] ، وقال تعالى : ﴿ **إن علينا للهدى** ﴾[(٣)] . وقال : ﴿ **ثم إن علينا بيانه** ﴾[(٤)] . وقال : ﴿ **وعلى الله قصد السبيل** ﴾[(٥)] . وقال علىّ كرم الله وجهه : الهوى شريك العمى ، ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ونعم طارد الهم اليقين وعاقبة الكذب الندم وفى الصدق السلامة رب بعيد أقرب من قريب ، وغريب من لم يكن له حبيب ، والصديق من صدق غيبه ، ولا يعدمك من حبيب سوء ظن ، نعم الخلق التكرم ، والحياء سبب إلى كل جميل ، وأوثق العرى التقوى ، وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله ــ تعالى ــ ، إنما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك والرزق رزقان : رزق تطلبه ورزق يطلبك فإن لم تأته أتاك وإن كنت جازعاً على ما أصيب مما فى يديك فلا تجزع على ما لم يصل إليك ، واستدل على ما لم يكن بما كان ، فإنما الأمور أشباه والمرء يسره درك ما لم يكن ليفوته ، ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه ، فما نالك من دنياك فلا تكثرن به فرحاً ، وما فاتك منها فلا تتبعه نفسك أسفا ، وليكن سرورك بما قدمت ، وأسفك على ما خلفت ، وشغلك لآخرتك ، وهمك فيما بعد الموت . وغرضنا من نقل هذه الكلمات قوله : ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ، فإذن النظر الأول للمراقب نظره فى الهم والحركة أهى لله أم للهوى وقد قال ــ ﷺ ــ : « ثلاث من كن فيه إستكمل إيمانه لا يخاف فى الله لومة لائم ولا يرائى بشىء من عمله وإذا عرض عليه أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر الآخرة على الدنيا »[(٦)] . وأكثر ما ينكشف له فى حركاته أن يكون مباحاً ولكن لا يعنيه فيتركه لقوله ــ ﷺ ــ : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »[(٧)] .

النظر الثانى للمراقبة عند الشروع فى العمل وذلك يتفقد كيفية العمل ليقضى حق الله فيه ويحسن النية فى إتمامه ويكمل صورته ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه وهذا ملازم له فى جميع أحواله فإنه لا يخلو فى جميع أحواله عن حركة وسكون فإذا راقب الله ــ تعالى ــ فى جميع ذلك قدر على عبادة الله ــ تعالى ــ فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الأدب فإن كان قاعداً مثلاً فينبغى أن يقعد مستقبل القبلة لقوله ــ ﷺ ــ : « خير المجالس ما استقبل به القبلة »[(٨)] . ولا يجلس متربعاً إذ لا يجالس الملوك كذلك وملك الملوك مطلع عليه .

---

(١) سورة النساء الآية ١١٣

(٢) سورة النحل الآية ٤٣

(٣) سورة الليل الآية ١٢

(٤) سورة القيامة الآية ١٩

(٥) سورة النحل الآية ٩

(٦) انظر اتحاف السادة المتقين . ج ٩ ص ٩٧٨ . وقال الواقى فيه سالم المرادى . ضعفه ابن معين والنسائى . ووثقه ابن حيان . انظر الديلمى فى مسند الفردوس . ورقة ١٢٠ / مخطوط .

(٧) الحديث فى سنن الترمذى ج ٤ ص ٤٨٣ كتاب الزهد باب ١١ رقم ٢٣١٧ . وقال : هذا حديث غريب . ــ انظر سنن ابن ماجة ص ٢ ص ١٣١٥ . كتاب الفتن . باب كف اللسان فى الفتنة رقم ٣٩٧٦ .

(٨) انظر كشف الخفاء ج ١ ص ٤٧٤

قال إبراهيم بن أدهم ــ رحمه الله ــ : جلست مرة متربعاً فسمعت هاتفاً يقول : هكذا تجالس الملوك ! فلم أجلس بعد ذلك متربعاً وإن كان ينام ، فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة مع سائر الآداب التى ذكرناها فى مواضعها ، فكل ذلك داخل فى المراقبة بل لو كان فى قضاء الحاجة فمراعاته لآدابها وفاء بالمراقبة فإذن لا يخلو العبد إما أن يكون فى طاعة أو فى معصية أو فى مباح الآفات وإن كان فى معصية فمراقبته بالتوبة والندم والإقلاع والحياء والإشتغال بالتفكر ، وإن كان فى مباح فمراقبته بمراعاة الأدب ثم بشهود المنعم فى النعمة وبالشكر عليها ولا يخلو العبد فى جملة أحواله عن بلية لا بدله من الصبر عليها ، ونعمة لابد له من الشكر عليها ، وكل ذلك من المراقبة بل لا ينفك العبد فى كل حال من فرض لله ــ تعالى ــ عليه ، إما فعل يلزمه مباشرته أو محظور يلزمه تركه أو ندب حث عليه ليسارع به إلى مغفرة الله ــ تعالى ــ ويسابق به عباد الله أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته ، ولكل واحد من ذلك حدود لابد من مراعاتها بدوام المراقبة ﴿ **ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه** ﴾[1] . فينبغى أن يتفقد العبد نفسه فى جميع أوقاته فى هذه الأقسام الثلاثة فإذا كان فارغاً من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغى أن يلتمس أفضل الأعمال ليشتغل بها فإن من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغبون ، والأرباح تنال بمزايا الفضائل فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته كما قال تعالى : ﴿ **ولا تنس نصيبك من الدنيا** ﴾[2] وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة فإن الساعات ثلاث : ساعة مضت لا تعب فيها على العبد كيفما انقضت فى مشقة أو رفاهية ، وساعة مستقبلة لم تأت بعد لا يدرى العبد أيعيش إليها أم لا ، ولا يدرى ما يقضى الله فيها ، وساعة راهنة ينبغى أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه ، فإن لم تأته الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة ، وإن أتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها ، بل يكون ابن وقته كأنه فى آخر أنفاسه فينبغى أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة وتكون جميع أحواله مقصورة على ما رواه أبو ذر ــ رضى الله تعالى عنه ــ من قوله ــ عليه السلام ــ : « لا يكون المؤمن ظاعناً إلا فى ثلاث : تزود لمعاد ، أو مرمة لمعاش ، أو لذة فى غير محرم »[3] وما روى عنه أيضاً فى معناه : (وعلى العاقل أن تكون له أربع ساعات : ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة ينظر فيها فى صنع الله ــ تعالى ــ ، وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب) . فإن فى هذه الساعة عوناً له على بقية الساعات ثم هذه الساعات التى هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والمشرب لا ينبغى أن يخلو عن عمل هو أفضل الأعمال وهو الذكر

---

(١) سورة الطلاق الآية ١

(٢) سورة القصص الآية ٧٧

(٣) انظر تحاف السادة المتقين ج ١٠ ص ١٠٨

انظر حلية الأولياء ج ١ ص ١٦٦ حديث . يا أبا ذر ان للمسجد تحية .

والفكر فإن الطعام الذى يتناوله مثلاً فيه من العجائب ما لو تفكر فيه وفطن له كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح والناس فيه أقسام :

قسم ينظرون إليه بعين التبصر والإعتبار ، فينظرون فى عجائب صنعته ، وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به ، وكيفية تقدير الله لأسبابه ، وخلق الشهوات الباعثة عليه ، وخلق الآلات المسخرة للشهوة فيه ، وهذا مقام ذوى الألباب .

وقسم ينظرون فيه بعين المقت والكراهة ، ويلاحظون وجه الإضطرار إليه وبودهم لو استغنوا عنه ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه مسخرين لشهواته ، وهذا مقام الزاهدين .

وقوم يرون فى الصنعة الصانع **ويترقون** منها إلى صفات الخالق فتكون مشاهدة ذلك سبباً لتذكر أبواب من الفكر تنفتح عليهم بسببه وهو أعلى المقامات ، وهو من مقامات العارفين ، وعلامات المحبين ، إذ المحب إذا رأى صنعة حبيبه وكتابه وتصنيفه نسى الصنعة واشتغل قلبه بالصانع ، وكل ما يتردد العبد فيه صنع الله ــ تعالى ــ فله فى النظر منه إلى الصانع مجال رحب إن فتحت له أبواب الملكوت وذلك عزيز جداً .

وقسم رابع ينظرون إليه بعين الرغبة والحرص فيتأسفون على مافاتهم منه ، ويفرحونَ بما حضرهم من جملته ، ويذمون منه ما لا يوافق هواهم ويعيبونه ، ويذمون فاعله ، فيذمون الطبيخ والطباخ ولا يعلمون أن الفاعل للطبيخ والطباخ ــ **ولقدرته ولعلمه ــ** هو الله ــ تعالى وأن من ذم شيئاً من خلق الله بغير اذن الله فقد ذم الله ، ولذلك قال النبى ــ ﷺ ــ : « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر »(١) .

المرابطة الثالثة : محاسبة النفس بعد العمل ولنذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها

أما الفضيلة ، فقد قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد** ﴾(٢) وهذه اشارة على المحاسبة لما مضى من الأعمال ، ولذلك قال عمر ــ رضى الله تعالى عنه ــ : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا .

وفى الخبر : « أنه ــ عليه السلام ــ جاءه رجل فقال : يا رسول الله : أوصنى ، فقال : أمستوص

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ١٧٦٣ كتاب ألفاظ الأدب رقم ٥ / ٢٢٤٦ .
(٢) سورة الحشر الآية ١٨

أنت ؟ فقال نعم ، قال : إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته ، فإن كان رشداً فامضه ، وإن كان غياً فانته عنه »[١] .

وفى الخبر : ويتبغى للعاقل أن يكون له أربع ساعات : ساعة يحاسب فيها نفسه .

وقال ــ تعالى ــ : ﴿ **وتوبوا إلى الله جميعاً أيُّهَ المؤمنون لعلكم تفلحون** ﴾[٢] . والتوبة نظر فى الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه ، وقد قال النبى ــ ﷺ ــ : « إنى لأستغفر الله ــ تعالى ــ وأتوب إليه فى اليوم مائة مرة »[٣] .

وقال الله ــ تعالى ــ : ﴿ **إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون** ﴾[٤] . وعن عمر ــ رضى الله تعالى عنه ــ أنه كان يضرب قدميه بالدرة إذا جنه الليل ويقول لنفسه : ماذا عملت اليوم ؟!! وعن ميمون بن مهران أنه قال : لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه ، والشريكان يتحاسبان بعد العمل . وروى عن عائشة ــ رضى الله تعالى عنها ــ أن أبا بكر ــ رضوان الله عليه ــ قال لها عند الموت : ما أحد من الناس أحب إلىّ من عمر ثم قال لها : كيف قلت فأعادت عليه ما قال . فقال : لا أحد أعز علىّ من عمر . فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكلمة فتدبرها وأبد لها بكلمة غيرها .

« وحديث أبى طلحة حين شغله الطائر فى صلاته فتدبر ذلك فجعل حائطه صدقة لله تعالى ندماً ورجاء للعوض مما فاته » .

وفى حديث ابن سلام أنه حمل حزمة من حطب فقيل له : يا أبا يوسف قد كان فى بنيك وغلمانك ما يكفونك هذا ، فقال : أردت أن أجرب نفسى هل تنكره .

وقال الحسن : المؤمن قوام على نفسه يحاسبها لله ، وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم فى الدنيا ، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة . ثم فسر المحاسبة فقال : إن المؤمن يفجؤه الشىء يعجبه فيقول : والله إنك لتعجبنى وإنك من حاجتى ، ولكن هيهات ، حيل بينى وبينك ، وهذا حساب قبل العمل . ثم قال : ويفرط منه الشىء فيرجع إلى نفسه فيقول : ماذا أردت بهذا ؟ والله لا أعذر بهذا ، والله لا أعود لهذا أبداً إن شاء الله .

وقال أنس بن مالك : سمعت عمر بن الخطاب ــ رضى الله تعالى ــ عنه يوماً ، وقد خرج وخرجت

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ج ٤ ص ٢٧٥٧ . كتاب المراقبة والمحاسبة . الرابطة الثالثة . محاسبة النفس بعد العمل . ط / الشعب .
(٢) سورة النور من الآية ـ٣١
(٣) انظر سنن ابن ماجة ج ٢ ص ١٢٥٤ . كتاب الأدب . باب االاستغفار رقم ٣٨١٥ .
(٤) سورة الأعراف الآية ٢٠١

معه حتى دخل[1] حائطاً ، فسمعته يقول ، وبيني وبينه جدار ، وهو فى الحائط : عمر بن الخطاب أمير المؤمنين : بخ بخ ، والله لتتقين الله أو ليعذبنك .

وقال الحسن فى قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **ولا أقسم بالنفس اللوّامة** ﴾[2] قال لا يلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه ، ماذا أردت بكلمتى ؟ ماذا أردت بأكلتى ؟ ماذا أردت بشربتى ؟ والفاجر يمضى قدماً لا يعاتب نفسه . وقال مالك بن دينار ــ رحمه الله تعالى ــ : رحم الله عبداً قال لنفسه : ألست صاحبة كذا ؟ ألست صاحبة كذا ؟ ثم ذمها ثم خطمها ، ثم ألزمها كتاب الله ــ تعالى ــ فكان له قائداً . وهذا من معاتبة النفس .

وقال ميمون بن مهران : التقى أشد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ، ومن شريك شحيح ، وقال إبراهيم التيمى : مثلت نفسى فى الجنة آكل من ثمارها ، وأشرب من أنهارها ، وأعانق أبكارها . ثم مثلت نفسى فى النار آكل من زقومها ، وأشرب من صديدها ، وأعالج سلاسلها وأغلالها ، فقلت لنفسى : يا نفس أى شىء تريدين ؟ فقالت : أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحاً . قلت : فأنت فى الأمنية فاعملى .

وقال مالك بن دينار : سمعت الحجاج يخطب وهو يقول : رحم الله امرأ حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره ، رحم الله امرأ أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به ، رحم الله امرأ نظر فى مكياله ، رحم الله امرأ نظر فى ميزانه ، فما زال يقول حتى أبكانى .

وحكى صاحب للأحنف بن قيس قال : كنت أصحبه ، فكان عامة صلاته بالليل الدعاء وكان يجىء إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار ، ثم يقول لنفسه : يا حنيف : ما حملك على ما صنعت يوم كذا ؟ ما حملك على ما صنعت يوم كذا ؟

بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل

اعلم أن العبد كما يكون له وقت فى أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق فينبغى أن يكون له فى آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها كما يفعل التجار فى الدنيا مع الشركاء فى آخر كل سنة ، أو شهر ، أو يوم ، حرصاً منه على الدنيا ، وخوفاً من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم فى فواته ، ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أياماً قلائل فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد ! ، ما هذه المساهلة إلا عن الغفلة ، والخذلان ، وقلة التوفيق ، نعوذ بالله من ذلك .

ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر فى رأس المال وفى الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان . فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره ، وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه فى المستقبل .

---

(١) حائطاً : بستاناً

(٢) سورة القيامة الآية ٢

فكذلك رأس مال العبد فى دينه الفرائض ، وربحه النوافل والفضائل ، وخسرانه المعاصى . وموسم هذه التجارة جملة النهار ، ومعاملة نفسه الأمارة بالسوء فيحاسبها على الفرائض أولاً ، فإن أداها على وجهها شكر الله — تعالى — عليه ، ورغبها فى مثلها ، وإن فوتها من أصيلها طالبها بالقضاء ، وإن أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل ، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعاتبتها ، ليستوفى منها ما يتدارك به ما فرط ، كما يصنع التاجر بشريكه وكما أنه يفتش فى حساب الدنيا عن الحبة والقيراط ، فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يغبن فى شيء منها ، فينبغى أن يتقى غبينة النفس ومكرها ، فإنها خداعة ملبسة مكارة فليطالبها أولاً بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره ، وليتكفل بنفسه من الحساب ما سيتولاه غيره فى صعيد القيامة ، وهكذا عن نظره ، بل عن خواطره ، وأفكاره ، وقيامه ، وقعوده ، وأكله ، وشربه ، ونومه ، حتى عن سكوته أنه لم سكت ؟ وعن سكونه لم سكن ؟ فإذا عرف مجموع الواجب على النفس ، وصح عنده قدر أدى الواجب فيه ، كان ذلك القدر محسوباً له ، فيظهر له الباقى على نفسه فليثبته عليها ، وليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباقى الذى على شريكه على قلبه وفى جريدة حسابه .

ثم النفس غريم يمكن أن يستوفى منه الديون . أما بعضها فبالغرامة والضمان ، وبعضها برد عينه ، وبعضها بالعقوبة لها على ذلك ، ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقى من الحق الواجب عليه ، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء . ثم ينبغى أن يحاسب النفس على جميع العمر يوماً يوماً ، وساعة ساعة ، فى جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة ، كما نقل عن توبة ابن الصمة ، وكان بالرقة ، وكان محاسباً لنفسه ، فحسب يوماً فإذا هو ابن ستين سنة ، فحسب أيامها ، فإذا هى أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم ، فصرخ وقال : يا ويلتى ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب فكيف ؟ وفى كل يوم عشرة آلاف ذنب ، ثم خر مغشياً عليه فإذا هو ميت . فسمعوا قائلاً يقول : يا لك ركضة إلى الفردوس الأعلى .

فهكذا ينبغى أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصيته بالقلب والجوارح فى كل ساعة ، ولو رمى العبد بكل معصية حجراً فى داره لامتلأت داره فى مدّة يسيرة قريبة من عمره ، ولكنه يتساهل فى حفظ المعاصى والملكان يحفظان عليه ذلك أحصاه الله ونسوه .

المرابطة الرابعة : فى معاقبة النفس على تقصيرها

مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية ، وارتكاب تقصير فى حق الله — تعالى — فلا ينبغى أن يهملها ، فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصى ، وأنست بها نفسه وعسر عليه فطامها ، وكان ذلك سبب هلاكها ، بل ينبغى أن يعاقبها ، فإن أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغى أن يعاقب البطن بالجوع ، وإذا نظر إلى غير محرم ينبغى أن يعاقب العين بمنع النظر ، وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه

عن شهواته ، هكذا كانت عادة سالكى طريق الآخرة . فقد روى عن منصور بن ابراهيم أن رجلاً من العباد كلم امرأة ، فلم يزل حتى وضع يده على فخذها ، ثم ندم فوضع يده على النار حتى يبست .

وروى أنه كان فى بنى اسرائيل رجل يتعبد فى صومعته ، فمكث كذلك زمناً طويلاً ، فأشرف ذات يوم فإذا هو بإمرأة ، فافتتن بها وهم بها ، فأخرج رجله لينزل إليها ، فأدركه الله بسابقة فقال : ما هذا الذى أريد أن أصنع ؟ فرجعت إليه نفسه وعصمه الله — تعالى — . فندم ، فلما أراد أن يعيد رجله إلى الصومعة قال : هيهات هيهات ، رجل خرجت تريد أن تعصى الله تعود معى فى صومعتى ! لا يكون والله ذلك أبداً فتركها معلقة فى الصومعة تصيبها الأمطار ، والرياح ، والثلج ، والشمس ، حتى تقطعت فسقطت ، فشكر الله له ذلك ، وأنزل فى بعض كتبه ذكره .

ويحكى عن الجنيد قال : سمعت ابن الكريبى يقول : أصابتنى ليلة جنابة ، فاحتجت أن أغتسل ، وكانت ليلة باردة ، فوجدت فى نفسى تأخراً وتقصيراً ، فحدثتنى نفسى بالتأخير حتى أصبح وأسخن الماء ، أو أدخل الحمام ولا أعنى على نفسى . فقلت : واعجباه ! . أنا أعامل الله فى طول عمرى ، فيجب له علىّ حق ، فلا أجد فى المسارعة ، وأجد الوقوف والتأخر ! . آليت أن لا أغتسل إلا فى مرقعتى هذه ، وآليت أن لا أنزعها ، ولا أعصرها ، ولا أجففها فى الشمس . ويحكى أن غزوان وأبا موسى كانا فى بعض مغازيهما ، فتكشفت جارية فنظر إليها غزوان فرفع يده فلطم عينه حتى بترت . وقال : إنك للحاظة إلى ما يضرك ، ونظر بعضهم نظرة واحدة إلى امرأة فجعل على نفسه ألا يشرب الماء البارد طول حياته ، فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش .

ويحكى أن حسان بن أبى سنان مر بغرفة فقال : متى بنيت هذه ؟ ثم أقبل على نفسه فقال : تسألين عما لا يعنيك لأعاقبنك بصوم سنة ، فصامها .

وقال مالك بن ضيغم : جاء رباح القيسى يسأل عن أبى بعد العصر ، فقلنا : إنه نائم . فقال : أنوم هذه الساعة ! هذا وقت نوم ؟ ثم ولى منصرفاً فأتبعناه رسولاً وقلنا له : ألا نوقظه لك ، فجاء الرسول وقال : هو أشغل من أن يفهم عنى شيئاً ، أدركته وهو يدخل المقابر وهو يعاتب نفسه ويقول : أقلت وقت نوم هذه الساعة ؟ أفكان هذا عليك ؟ ينام الرجل متى شاء . وما يدريك أن هذا ليس وقت نوم ؟ تتكلمين بما لا تعلمين ؟ أما إن لله على عهداً لا أنقضه أبداً لا أوسدك الأرض لنوم حولا إلا لمرض حائل ، أو لعقل زائل ، سوأة لك ، أما تستحين ؟ كم توبخين ؟ وعن غيك لا تنتهين ؟ قال وجعل يبكى وهو لا يشعر بمكانى . فلما رأيت ذلك انصرفت وتركته .

ويحكى عن تميم الدارى أنه نام ليلة لم يقم فيها يتهجد فقام سنة لم ينم فيها للذى صنع .

وعن طلحة — رضى الله تعالى عنه — قال : « انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ فى الرمضاء ، فكان يقول لنفسه : ذوقى ، ونار جهنم أشد حراً ، أجيفة بالليل بطالة بالنهار ، فبينما هو كذلك إذ أبصر

النبى - ﷺ - فى ظل شجرة فأتاه فقال : غلبتنى نفسى ، فقال له النبى - ﷺ - : « ألم يكن لك بد من الذى صنعت ؟ أما لقد فتحت لك أبواب السماء ولقد باهى الله بك الملائكة » ثم قال لأصحابه : « تزودوا من أخيكم » فجعل الرجل يقول له : يا فلان : ادع لى ، يا فلان : ادع لى ، فقال النبى - ﷺ - : « عُمَّهُمْ » ، فقال : اللهم اجعل التقوى زادهم واجمع على الهدى أمرهم فجعل النبى - ﷺ - يقول : « اللهم سدده » . فقال الرجل : اللهم اجعل الجنة مآبهم » .

وقال حذيفة بن قتادة : قيل لرجل : كيف تصنع بنفسك فى شهواتها ؟ فقال : ما على وجه الأرض نفس أبغض إلىَّ منها ، فكيف أعطيها شهواتها ! .

ودخل ابن السماك على داود الطائى حين مات وهو فى بيته على التراب ، فقال : يا داود : سجنت نفسك قبل أن تسجن ، وعذبت نفسك قبل أن تعذب ، فاليوم ترى ثواب من كنت تعمل له .

وعن وهب بن منبه أن رجلاً تعبد زماناً ثم بدت له إلى الله — تعالى — حاجة ، فقام سبعين سبتاً يأكل فى كل سبت احدى عشرة تمرة ، ثم سأل حاجته فلم يعطها ، فرجع إلى نفسه وقال : منك أتيت ، **لو كان فيك خيراً لأعطيت حاجتك . فنزل إليه ملك وقال : يا ابن آدم : ساعتك هذه خير من عبادتك التى مضت ، وقد قضى الله حاجتك .**

وقال عبد الله بن قيس . كنا فى غزاة لنا ، فحضر العدو فصيح فى الناس ، فقاموا إلى المصاف فى يوم شديد الريح ، وإذا رجل أمامى وهو يخاطب نفسه ويقول : أى نفسى : ألم أشهد مشهد كذا وكذا ، فقلت لى : أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت ؟ والله لأعرضنك اليوم على الله أخذك أو تركك . فقلت لأرمقنه اليوم ، فرمقته ، فحمل الناس على عدوهم فكان فى أوائلهم ، ثم إن العدو حمل على الناس فانكشفوا ، فكان فى موضعه حتى انكشفوا مرات ، وهو ثابت يقاتل فو الله مازال دأبه حتى رأيته صريعاً . **فعددت به** وبدابته ستين أو أكثر من ستين طعنة . وقد ذكرنا حديث أبى طلحة لما اشتغل قلبه فى الصلاة بطائر فى حائطه فتصدق بالحائط كفارة لذلك .

وإن عمر كان يضرب قدميه بالدرة كل ليلة ويقول : ماذا عملت اليوم . وعن مجمع أنه رفع رأسه إلى السطح فوقع بصره على امرأة فجعل على نفسه ألا يرفع رأسه إلى السماء مادام فى الدنيا .

وكان الأحنف بن قيس لا يفارقه المصباح بالليل ، فكان يضع أصبعه عليه ويقول لنفسه : ما حملك على أن صنعت يوم كذا وكذا ؟

وأنكر وهيب بن الورد شيئاً على نفسه ، فنتف شعرات على صدره حتى عظم ألمه ، ثم جعل يقول لنفسه : ويحك إنما أريد بك الخير .

ورأى محمد بن بشر داوود الطائى وهو يأكل عند إفطاره خبزاً بغير ملح ، فقال له : لو أكلته بملح ، فقال : إن نفسى تدعونى إلى الملح منذ سنة ، ولا ذاق داوود ملحاً مادام فى الدنيا ، فهكذا كانت عقوبة أولى الحزم لأنفسهم .

والعجب أنك تعاقب عبدك ، وأمتك ، وأهلك ، وولدك ، على ما يصدر منهم من سوء خلق ، وتقصير فى أمر ، وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار ، وبغوا عليك ، ثم تهمل نفسك وهى أعظم عدولك ، وأشد طغياناً عليك ، وضررك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك ، فإن غايتهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا ، ولو عقلت لعلمت أن العيش عيش الآخرة وأن فيه النعيم المقيم ، الذى لا آخر له ، ونفسك هى التى تنغص عليك عيش الآخرة ، فهى بالمعاقبة أولى من غيرها .

المرابطة الخامسة : المجاهدة

وهو أنه إذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية ، فينبغى أن يعاقبها بالعقوبات التى مضت . وإن رآها تتوانى بحكم الكسل فى شئ من الفضائل أو ورد من الأوراد ، فينبغى أن يؤدبها بتثقيل الأوراد عليها ، ويلزمها فنوناً من الوظائف جبراً لما فات منه ، وتداركاً لما فرط ، فهكذا كان يعمل عمال الله ــ تعالى ــ . فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر فى جماعة ، بأن تصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم . وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة فى جماعة أحيا تلك الليلة . وآخر ليلة صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتين . وفات ابن أبى ربيعة ركعتا الفجر فأعتق رقبة . وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة ، أو الحج ماشياً ، أو التصدق بجميع ماله . كل ذلك مرابطة للنفس ومؤاخذة لها بما فيه نجاتها . فإن قلت : إن كانت نفسى لا تطاوعنى على المجاهدة والمواظبة على الأوراد ، فما سبيل معالجتها ؟ . فأقول سبيلك فى ذلك أن تسمعها ما ورد فى الأخبار من فضل المجتهدين . ومن أنفع أسباب العلاج ان تطلب صحبة عبد من عباد الله مجتهد فى العبادة ، فتلاحظ أقواله وتقتدى به . وكان بعضهم يقول : كنت إذا اعترتنى فترة فى العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع وإلى اجتهاده ، فعملت على ذلك أسبوعاً ، إلا أن هذا العلاج قد تعذر ، إذ قد فقد فى هذا الزمان من يجتهد فى العبادة اجتهاد الأولين ، فينبغى أن يعدل من المشاهدة إلى السماع ، فلا شئ أنفع من سماع أحوالهم ، ومطالعة أخبارهم ، وما كانوا فيه من الجهد الجهيد ، وقد انقضى تعبهم وبقى ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع فما أعظم ملكهم وما أشد حسرة من لا يقتدى بهم فيمتع نفسه أياماً قلائل بشهوات مكدرة ، ثم يأتيه الموت ، ويحال بينه وبين كل ما يشتهيه أبد الآباد ، نعوذ

بالله ـ تعالى ـ من ذلك ونحن نورد من أوصاف المجتهدين ، وفضائلهم ، ما يحرك رغبة المريد فى الاجتهاد إقتداء بهم فقد قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « رحم الله أقواماً يحسبهم الناس مرضى وما هم بمرضى »[(١)] .

قال الحسن أجهدتهم العبادة . قال الله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة** ﴾[(٢)] . قال الحسن : يعملون ما عملوا من أعمال البر ، ويخافون ألا ينجيهم ذلك من عذاب الله . وقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ : « طوبى لمن طال عمره وحسن عمله »[(٣)] . ويروى أن الله ـــ تعالى ـــ يقول لملائكته : ما بال عبادى مجتهدين ؟ فيقولون : إلهنا : خوفتهم شيئاً فخافوه وشوّقتهم إلى شىء فاشتاقوا إليه . **فيقول الله ـ تبارك وتعالى ـ : فكيف لو رآنى عبادى لكانوا أشد اجتهاداً .**

وقال الحسن : أدركت أقواماً ، وصحبت طوائف منهم ما كانوا يفرحون بشىء من الدنيا أقبل ، ولا يتأسفون على شىء منها أدبر ، ولهى كانت أهون فى أعينهم من هذا التراب الذى تطؤونه بأرجلكم ، إن كان أحدهم ليعيش عمره كله ما طوى له ثوب ، ولا أمر أهله بصنعة طعام قط ، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئاً قط ، وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم ، إذا جنهم الليل فقيام على أطرافهم ، يفترشون وجوههم ، تجرى دموعهم على خدودهم يناجون ربهم فى فكاك رقابهم ، إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ، ودأبوا فى شكرها ، وسألوا الله أن يتقبلها ، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم ، وسألوا الله أن يغفرها لهم ، والله مازالوا كذلك ، وعلى ذلك ، ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة .

ويحكى أن قوماً دخلوا على عمر بن عبد العزيز يعودونه فى مرضه وإذا فيهم شاب ناحل الجسم ، فقال عمر له : يا فتى : ما الذى بلغ بك ما أرى ؟ فقال : يا أمير المؤمنين : أسقام وأمراض . فقال : سألتك بالله إلا صدقتنى فقال : يا أمير المؤمنين : ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرة ، وصغر عندى زهرتها وحلاوتها ، واستوى عندى ذهبها ، وحجرها ، وكأنى أنظر إلى عرش ربى ، والناس يساقون إلى الجنة والنار ، فأظمأت لذلك نهارى ، وأسهرت ليلى ، وقليل حقير كل ما أنا فيه فى جنب ثواب الله وعقابه .

وقال أبو نعيم : كان داوود الطائى يشرب الفتيت ، ولا يأكل الخبز ، فقيل له فى ذلك فقال : بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية . ودخل رجل عليه يوماً فقال : إن فى سقف بيتك جذعاً مكسوراً فقال : يا ابن أخى ، إن لى فى البيت منذ عشرين سنة ما نظرت إلى السقف ، وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام .

وقال محمد بن عبد العزيز : جلسنا إلى أحمد بن رزين من غدوة إلى العصر فما التفت يمنة ولا يسرة ،

---

(١) انظر احياء علوم الدين . جـ ٤ كتاب المراقبة والمحاسبة . وقال محققه لم أجد له أصلا . إلا أن أحمد قد رواه فى الزهد .

(٢) سورة المؤمنون الآية ٦٠

(٣) انظر اتحاف السادة المتقين جـ ١٠ كتاب المراقبة والمحاسبة .

ـ انظر كشف الخفاء ج ١ ص ٤٦١ . بلفظ خيركم من طال عمره وحسن عمله .

فقيل له فى ذلك . فقال : إن الله ــ تعالى ــ خلق العينين لينظر بهما العبد إلى عظمة الله ــ عز وجل ــ ، فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة .

وقالت امرأة مسروق : ما كان يوجد مسروق إلا وساقاه منتفختان من طول الصلاة ، وقالت : والله إن كنت لأجلس خلفه فأبكى رحمة له .

وقال أبو الدرداء : لولا ثلاث ما أحببت العيش يوماً واحداً : الظمأ لله بالهواجر ، والسجود لله فى جوف الليل ، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر . وكان الأسود بن يزيد يجتهد فى العبادة ويصوم فى الحر حتى يخضر جسده ويصفر ، فكان علقمة بن قيس يقول له : لم تعذب نفسك ؟ فيقول : كرامتها أريد ، وكان يصوم حتى يخضر جسده ويصلى حتى يسقط ، فدخل عليه أنس بن مالك والحسن فقالا له : إن الله ــ عز وجل ــ لم يأمرك بكل هذا فقال : إنما أنا عبد مملوك لا أدع من الإستكانة شيئاً إلا جئت به .

وكان بعض المجتهدين يصلى كل يوم ألف ركعة حتى أقعد من رجليه فكان يصلى جالساً ألف ركعة فإذا صلى العصر احتبى ثم قال : عجبت للخليقة كيف أرادت بك بدلاً منك ، عجبت للخليقة كيف أنست بسواك ، **بل عجبت للخليقة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك .**

وكان ثابت البنانى قد حببت إليه الصلاة فكان يقول : اللهم إن كنت إذنت لأحد أن يصلى لك فى قبره فائذن لى أن أصلى فى قبرى .

وقال الجنيد : ما رأيت أعبد من السرى ، أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رؤى مضطجعاً إلا فى علة الموت .

وقال الحرث بن سعد : مر قوم براهب فرأوا ما يصنع بنفسه من شدة اجتهاده فكلموه فى ذلك فقال : وما هذا عند ما يراد بالخلق من شدة الأهوال وهم غافلون قد اعتكفوا على حظوظ أنفسهم ، ونسوا حظهم الأكبر من ربهم ، فبكى القوم عن آخرهم .

وعن أبى محمد المغازلى قال : جاور أبو محمد الجريرى بمكة سنة فلم ينم ، ولم يتكلم ، ولم يستند إلى عمود ، ولا إلى حائط ، ولم يمد رجليه . فعبر عليه أبو بكر الكتانى ، فسلم عليه ، وقال له : يا أبا محمد : بم قدرت على اعتكافك هذا ؟ فقال : علم صدق باطنى فأعاننى على ظاهرى ، فأطرق الكتانى ومشى مفكراً .

وعن بعضهم قال : دخلت على فتح الموصلى فرأيته قد مد كفيه يبكى حتى رأيت الدموع تنحدر من بين أصابعه ، فدنوت منه ، فإذا دموعه قد خالطها صفرة فقلت : ولم بالله يا فتح : بكيت الدم ؟ فقال : لولا أنك أحلفتنى بالله ما أخبرتك ، نعم بكيت دماً ، فقلت له : على ماذا بكيت الدموع ؟ فقال : على تخلفى عن واجب حق الله ــ تعالى ــ وبكيت الدم على الدموع لئلا يكون ما صحت لى الدموع ، قال :

فرأيته بعد موته فى المنام فقلت : ما صنع الله بك ؟ قال : غفر لى ، فقلت له : فماذا صنع فى دموعك ؟ فقال : قربنى ربى — عز وجل — وقال : يا فتح : الدمع على ماذا ؟ قلت على دموعى أن لا تصح لى . فقال لى : يا فتح : ماذا أردت بهذا كله ، وعزتى وجلالى لقد صعد حافظاك أربعين سنة بصحيفتك ما فيها خطيئة .

وقيل إن قوماً أرادوا سفراً فحادوا عن الطريق ، فانتهوا إلى راهب منفرد عن الناس فنادوه ، فأشرف عليهم من صومعته فقالوا : يا راهب : إنا قد أخطأنا الطريق فكيف الطريق ؟ : فأومأ برأسه إلى السماء ، فعلم القوم ما أراد فقالوا : يا راهب : إنا سائلوك فهل أنت مجيبنا ؟ فقال : سلوا ولا تكثروا ، فإن النهار لن يرجع ، والعمر لا يعود ، والطالب حثيث ، فعجب القوم من كلامه فقالوا : يا راهب : علام الخلق غداً عند مليكهم ؟ فقال : على نياتهم . فقالوا : أوصنا ، فقال : تزودوا على قدر سفركم فإن خير الزاد ما بلغ البغية ، ثم أرشدهم إلى الطريق وأدخل رأسه فى صومعته . وقال عبد الواحد بن زيد : مررت بصومعة راهب من رهبان الصين فناديته : يا راهب : فلم يجبنى ، فناديته ثانية : فلم يجبنى ، فناديته الثالثة : فأشرف علَّى وقال : يا هذا ما أنا براهب . إنما الراهب من رهب الله فى سمائه ، وعظمه فى كبريائه ، وصبر على بلائه ، ورضى بقضائه ، وحمده على آلائه ، وشكره على نعمائه ، وتواضع لعظمته ، وذل لعزته ، واستسلم لقدرته ، وخضع لمهابته ، وفكر فى حسابه وعقابه ، فنهاره صائم ، وليله قائم ، قد أسهره ذكر النار ، ومسألة الجبار ، فذلك هو الراهب . وأما أنا فكلب عقور . حبست نفسى فى هذه الصومعة عن الناس لئلا أعقرهم . فقلت : يا راهب : فما الذى قطع الخلق عن الله بعد أن عرفوه ؟ : فقال : يا أخى : لم يقطع الخلق عن الله إلا حب الدنيا ، وزينتها ، لأنها محل المعاصى والذنوب ، والعاقل من رمى بها عن قلبه وتاب إلى الله — تعالى — من ذنبه ، وأقبل على ما يقربه من ربه . وقيل لداوود الطائى : لو سرحت لحيتك فقال : إنى إذن لفارغ . وكان أويس القرنى يقول : هذه ليلة الركوع ، فيحيى الليل كله فى ركعة . وإذا كانت الليلة الآتية قال : هذه ليلة السجود . فيحيى الليل كله فى سجدة . وقيل لما تاب عتبة الغلام ، كان لا يتهنا بالطعام والشراب ، فقالت له أمه : لو رفقت بنفسك قال : الرفق أطلب ، دعينى أتعب قليلاً وأتنعم طويلاً ، وحج مسروق فما نام قط إلا ساجداً .

وقال سفيان الثورى : عند الصباح يحمد القوم السرى ، وعند الممات يحمد القوم التقى .

وقال عبد الله بن داود : كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه أى كان لا ينام طول الليل .

وكان كهمس بن الحسن يصلى كل يوم ألف ركعة ، ثم يقول لنفسه : قومى يامأوى كل شر . فلما ضعف اقتصر على خمسمائة ، ثم كان يبكى ويقول : ذهب نصف عملى .

وكانت ابنة الربيع بن خيثم تقول : ياأبت مالى أرى الناس ينامون وأنت لا تنام ؟ فيقول : ياابنتاه إن أباك يخاف البيات . ولما رأت أم الربيع ما يلقى الربيع من البكاء والسهر ، نادته يابنى : لعلك قتلت قتيلا

قال : نعم يأماه ، قالت : فمن هو حتى نطلب أهله فيعفو عنك ، فوالله لو يعلمون ما أنت فيه لرحموك ، وعفوا عنك . فيقول : يأماه : هى نفسى ، وعن عمر بن أخت بشر بن الحرث قال : سمعت خالى بشر بن الحرث يقول لأمى : يأأختى : جوفى وخواصرى تضرب علىّ . فقالت له أمى : يأأخى : أتأذن لى حتى أصلح لك قليل حساء بكف دقيق عندى تتحساه يرم جوفك ، فقال لها : ويحك أخاف أن يقول : من أين لك هذا الدقيق ؟ فلا أدرى أيش أقول له . فبكت أمى ، وبكى معها ، وبكيت معهم ، قال عمر : ورأت أمى ما ببشر من شدة الجوع وجعل يتنفس نفسا ضعيفا فقالت له أمى : يأأخى : ليت أمى لم تلدنى ، فقد والله تقطعت كبدى مما أرى بك ، فسمعته يقول لها ، وأنا فليت أمى لم تلدنى وأذ ولدتنى لم يدر ثديها على . قال عمر : وكانت أمى تبكى عليه الليل والنهار .

وقال الربيع : **أتيت أويساً** فوجدته جالسا قد صلى الفجر ثم جلس فجلست فقلت : ألا أشغله عن التسبيح . فمكث مكانه حتى صلى الظهر ، ثم قام إلى الصلاة حتى صلى العشاء ، ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ، ثم جلس فغلبته عيناه فقال : اللهم إنى أعوذ بك من عين نوامة ، ومن بطن لا تشبع فقلت : حسبى هذا منه ثم رجعت . ونظر رجل إلى أويس فقال : يأبا عبد الله : مالى أراك كأنك مريض ، فقال وما لأويس أن لا يكون مريضا ، يطعم المريض وأويس غير طاعم ، وينام المريض وأويس غير نائم .

وقال أحمد بن حرب : ياعجبا لمن يعرف أن الجنة تزين فوقه وأن النار تسعر تحته كيف ينام بينهما .

وقال رجل من النساك : أتيت إبراهيم بن أدهم فوجدته قد صلى العشاء ، فقعدت أرقبه ، فلف نفسه بعباءة ثم رمى بنفسه فلم ينقلب من جنب إلى جنب الليل كله حتى طلع الفجر ، وأذن المؤذن ، فوثب إلى الصلاة و لم يحدث وضوءا فحاك ذلك فى صدرى ، فقلت له : رحمك الله قد نمت الليل كله مضطجعا ثم لم تجدد الوضوء ؟ فقال : كنت الليل كله جائلا فى رياض الجنة أحيانا ، وفى أودية النار أحيانا ، فهل فى ذلك نوم ؟

وقال ثابت البنانى : أدركت رجالا كان أحدهم يصلى فيعجز عن أن يأتى فراشه إلا حبوا .

وقيل : مكث أبو بكر بن عياش أربعين سنة لا يضع جنبه على فراش ، ونزل الماء فى إحدى عينيه فمكث عشرين سنة لا يعلم به أهله وقيل كان ورد سمنون فى كل يوم خمسمائة ركعة .

وعن أبى بكر المطوعى قال : كان وردى فى شبيبتى كل يوم وليلة أقرأ فيه : قل هو الله أحد ، إحدى وثلاثين ألف مرة أو أربعين ألف مرة (شك من الراوى) . وكان منصور المعتمر إذا رأيته قلت : رجل أصيب بمصيبة منكسر الطرف منخفض الصوت رطب العينين ، إن حركته جاءت عيناه بأربع ولقد قالت **له أمه : ما هذا الذى تصنع بنفسك ؟ تبكى الليل عامته لا تسكت : لعلك يا بنى : أصبت نفساً ، لعلك قتلت قتيلاً ؟ فيقول : يا أمه أنا أعلم بما صنعت بنفسى .**

وقيل لعامر بن عبد الله كيف صبرك على سهر الليل ، وظمأ الهواجر ، فقال : هل هو إلا أنى صرفت طعام النهار إلى الليل ، ونوم الليل إلى النهار . وليس فى ذلك خطير أمر وكان يقول : ما رأيت مثل الجنة ، نام طالبها ، ولا مثل النار نام هاربها . وكان إذا جاء الليل قال : أذهب حر النار النوم فما ينام حتى يصبح ، فإذا جاء النهار قال : أذهب حر النار النوم فما ينام حتى يمسى فإذا جاء الليل قال : من خاف أولج ، وعند الصباح يحمد القوم السرى . وقال بعضهم : صحبت عامر بن القيس أربعة أشهر فما رأيته نام بليل ولا نهار .

ويروى عن رجل من أصحاب على بن أبى طالب ــ رضى الله تعالى عنه ــ أنه قال : صليت خلف علىّ ــ رضى الله تعالى عنه ــ الفجر ، فلما سلم انفتل عن يمينه وعليه كآبة فمكث حتى طلعت الشمس ، ثم قلب يده وقال : والله لقد رأيت أصحاب محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وما أرى اليوم شيئا يشبههم ، كانوا يصبحون شعثاً غبراً صفراً ، قد باتوا لله سجداً وقياماً ، يتلون كتاب الله يراوحون بين أقدامهم وجباههم . وكانوا إذا ذكر الله مادوا كما يميد الشجر فى الريح ، وهملت أعينهم حتى تتبل ثيابهم ، وكأن القوم باتوا غافلين ، يعنى من كان حوله . وكان أبو مسلم الخولانى قد علق سوطاً فى مسجد بيته يخوف به نفسه ، وكان يقول لنفسه : قومى فو الله لأزحفن بك زحفاً حتى يكون الكلل منك لا منى .
فاذا دخلت الفترة تناول سوطه وضرب به ساقه ويقول : أنت أولى بالضرب من دابتى وكان يقول : أيظن أصحاب محمد ــ ﷺ ــ أن يستأثروا به دوننا ؟ ، كلا والله لنزاحمهم زحاماً حتى يعلموا أنهم قد خلفوا وراءهم رجالاً .

وكان صفوان بن سليم قد تعقدت ساقاه من طول القيام وبلغ من الإجتهاد ما لو قيل له القيامة غداً ما وجد متزايداً ، وكان إذا جاء الشتاء اضطجع على السطح ليضربه البرد ، وإذا كان فى الصيف إضطجع فى داخل البيوت ليجد الحر ، فلا ينام ، وأنه مات وهو ساجد ، وأنه كان يقول : اللهم إنى أحب لقاءك فأحب لقائى .

وقال القاسم بن محمد : غدوت يوماً وكنت إذا غدوت بدأت بعائشة ــ رضى الله عنها ــ أسلم عليها ، فغدوت يوماً إليها فإذا هى تصلى صلاة الضحى ، وهى تقرأ : ﴿ **فمنَّ الله علينا ووقانا عذاب السموم** ﴾[1] وتبكى وتدعو وتردد الآية . فقمت حتى مللت ، وهى كما هى ، فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق ، فقلت أفرغ من حاجتى ثم أرجع ففرغت من حاجتى ثم رجعت وهى كما هى ، تردد الآية وتبكى وتدعو .

وقال محمد بن اسحاق : لما ورد علينا عبد الرحمن بن الأسود حاجاً اعتلت إحدى قدميه ، فقام يصلى على قدم واحدة حتى صلى الصبح بوضوء العشاء .

(١) سورة الطور الآية ٢٧

وقال بعضهم : ما أخاف من الموت إلا حيث يحول بينى وبين قيام الليل . وقال على بن أبى طالب ـــ كرم الله وجهه ـــ : سيما الصالحين صفرة الألوان من السهر ، وعمش العيون من البكاء ، وذبول الشفاه من الصوم ، عليهم غبرة الخاشعين .

وقيل للحسن : ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهاً ؟ فقال : لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره .

وكان عامر بن عبد القيس يقول : إلهى : خلقتنى و لم تؤامرنى ، وتميتنى ولا تعلمنى ، وخلقت معى عدواً ، وجعلته يجرى منى مجرى الدم ، وجعلته يرانى ولا أراه ، ثم قلت لى : استمسك . إلهى : كيف أستمسك إن لم تمسكنى ، إلهى : فى الدنيا الهموم والأحزان ، وفى الآخرة العقاب والحساب ، فأين الراحة والفرح ؟! .

وقال جعفر بن محمد : كان عتبة الغلام يقطع الليل بثلاث صيحات ، كان إذا صلى العتمة وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر ، فإذا مضى ثلث الليل صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر ، فإذا مضى الثلث الثانى صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر ، فإذا كان السحر صاح صيحة قال جعفر بن محمد : فحدثت به بعض البصريين فقال : لا تنظر إلى صياحه ولكن انظر إلى ما كان فيه بين الصيحتين حتى صاح .

وعن القاسم بن راشد الشيبانى قال : كان زمعة نازلاً عندنا بالمحصب ، وكان له أهل وبنات ، وكان يقوم فيصلى ليلاً طويلاً فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته : أيها الركب المعرسون ، أكل هذا الليل ترقدون ؟ أفلا تقومون فترحلون ؟ فيتواثبون ، فيسمع من ههنا باك ، ومن ههنا داع ، ومن ههنا قارىء ، ومن ههنا متوضىء ، فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته : عند الصباح يحمد القوم السرى .

وقال بعض الحكماء : إن لله عباداً أنعم عليهم فعرفوه ، وشرح صدورهم فأطاعوه ، وتوكلوا عليه ، فسلموا الخلق والأمر إليه ، فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين ، وبيوتاً للحكمة ، وتوابيت للعظمة ، وخزائن للقدرة ، فهم بين الخلق مقبلون ، ومدبرون ، وقلوبهم تجول فى الملكوت ، وتلوذ بمحجوب الغيوم ، ثم ترجع ومعها طوائف من لطائف الفوائد ، وما لا يمكن واصفاً أن يصفه فهم فى باطن أمورهم ، كالديباج حسناً ، وهم فى الظاهر مناديل مبذولون لمن أرادهم تواضعاً ، وهذه طريقة لا يبلغ إليها بالتكلف وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء .

وقال بعض الصالحين : بينما أنا أسير فى بعض جبال بيت المقدس إذ هبطت إلى واد هناك ، فإذا أنا بصوت قد علا ، وإذا تلك الجبال تجيبه ، لها دوى عال ، فاتبعت الصوت ، فإذا أنا بروضة عليها شجر ملتف ، وإذا أنا برجل قائم فيها يردد هذه الآية : ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً** ﴾ إلى قوله :

﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾[١] قال : فجلست خلفه أسمع كلامه وهو يردد هذه الآية ، إذ صاح صيحة خر مغشياً عليه ، فقلت : وأسفاه ! هذا لشقائى ، ثم انتظرت إفاقته ، فأفاق بعد ساعة ، فسمعته وهو يقول : أعوذ بك من مقام الكذابين ، أعوذ بك من أعمال البطالين ، أعوذ بك من إعراض الغافلين ، ثم قال لك خشعت قلوب الخائفين ، وإليك فزعت آمال المقصرين ، ولعظمتك ذلت قلوب العارفين ، ثم نفض يده فقال : ما لى وللدنيا ، وما للدنيا ولى ، عليك يا دنيا بأبناء جنسك ، وألّاف نعيمك ، إلى محبيك فاذهبى ، وإياهم فاخدعى ، ثم قال : أين القرون الماضية ، وأهل الدهور السالفة فى التراب يبلون ، وعلى الزمان يفنون ، فناديته . يا عبد الله : أنا منذ اليوم خلفك أنتظر فراغك فقال : وكيف يفرغ من يبادر الأوقات وتبادره ، يخاف سبقها بالموت إلى نفسه ، أم كيف يفرغ من ذهبت أيامه ، وبقيت آثامه ، ثم قال : أنت لها ولكل شدة أتوقع نزولها ، ثم لها عنى ساعة ، وقرأ : ﴿ وبداهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾[٢] . ثم صاح صيحة أخرى أشد من الأولى ، وخرّ مغشياً عليه ، فقلت قد خرجت روحه . فدنوت منه فإذا هو يضطرب ، ثم أفاق وهو يقول : من أنا ؟ ما خاطرى ؟ هب لى إساءتى من فضلك ! وجللنى بسترك ، واعف عن ذنوبى بكرم وجهك ، إذا وقفت بين يديك ، فقلت له بالذى ترجوه لنفسك وتثق به إلا كلمتنى ، فقال عليك بكلام من ينفعك كلامه ، ودع كلام من أوبقته ذنوبه ، إنى لفى هذا الموضع مذ شاء الله ، أجاهد إبليس ويجاهدنى ، فلم يجدعوناً علىّ ليخرجنى مما أنا فيه غيرك ، فإليك عنى يا مخدوع : فقد عطلت على لسانى ، وميلت إلى حديثك شعبة من قلبى ، وأنا أعوذ بالله من شرّك ، ثم أرجو أن يعيذنى من سخطه ، ويتفضل علىّ برحمته . قال : فقلت هذا ولى الله أخاف أن أشغله فأعاقب فى موضعى هذا ، فانصرفت وتركته .

وقال بعض الصالحين : بينما أنا أسير فى مسير لى ، إذ ملت إلى شجرة لأستريح تحتها فإذا أنا بشيخ قد أشرف علىّ فقال لى : يا هذا : قم فإن الموت لم يمت ، ثم هام على وجهه ، فاتبعته فسمعته وهو يقول : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾[٣] اللهم بارك لى فى الموت ، فقلت وفيما بعد الموت ، فقال : من أيقن بما بعد الموت شمر مئزر الحذر ولم يكن له فى الدنيا مستقر ، ثم قال : يا من لوجهه عنت الوجوه ، بيض وجهى بالنظر إليك ، واملأ قلبى من المحبة لك ، وأجرنى من ذل التوبيخ غداً عندك ، فقد آن لى الحياء منك ، وحان لى الرجوع عن الإعراض عنك ، ثم قال : لولا حلمك لم يسعنى أجلى ، ولولا عفوك لم ينبسط فيما عندك أملى ، ثم مضى وتركنى ، وقد أنشدوا فى هذا المعنى :

نحيل الجسم مكتئب الفؤاد ... تراه بقمة أو بطن وادى
ينوح على معاص فاضحات ... يكدّر ثقلها صفو الرّقاد

(١) سورة آل عمران الآية ٣٠
(٢) سورة الزمر الآية ٤٧
(٣) سورة آل عمران الآية ١٨٥

فإن هاجت مخاوفه وزادت ... فدعوته أغثني يا عمادى
فأنت بما ألاقيه عليم ... كثير الصفح عن زلل العباد

وقيل أيضاً :

ألذ من التلذذ بالغوانى ... إذا أقبلن فى حلل حسان
منيب فر من أهل ومال ... يسبح إلى مكان من مكان
ليخمل ذكره ويعيش فرداً ... ويظفر فى العبادة بالأمانى
تلذذه التلاوة أين ولى ... وذكر بالفؤاد وباللسان
وعند الموت يأتيه بشير ... يبشر بالنجاة من الهوان
فيدرك ما أرادو ما تمنى ... من الراحات فى غرف الجنان

وكان كرز بن وبرة يختم القرآن فى كل يوم ثلاث مرات . ويجاهد نفسه فى العبادات غاية المجاهدة ، فقيل له : قد أجهدت نفسك . فقال : كم عمر الدنيا ؟ فقيل : سبعة آلاف سنة ، فقال : كم مقدار يوم القيامة ؟ فقيل خمسون ألف سنة . فقال : كيف يعجز أحدكم أن يعمل سبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم ! يعنى أنك لو عشت عمر الدنيا ، واجتهدت سبعة آلاف سنة ، وتخلصت من يوم واحد كان مقداره خمسين ألف سنة ، لكان ربحك كثيراً ، وكنت بالرغبة فيه جديراً ، فكيف وعمرك قصير ، والآخرة لا غاية لها .

فهكذا كانت سيرة السلف الصالحين فى مرابطة النفس ومراقبتها فمهما تمردت نفسك عليك ، وامتنعت من المواظبة على العبادة ، فطالع أحوال هؤلاء فإنه قد عز الآن وجود مثلهم ، ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو أنجع فى القلب ، وأبعث على الإقتداء ، فليس الخبر كالمعاينة . وإذا عجزت عن هذا فلا تغفل عن سماع أحوال هؤلاء ، فإن لم تكن إبل فمعزى وخير نفسك بين الإقتداء بهم ، والسكون فى زمرتهم ، وغمارهم وهم العقلاء ، والحكماء ، وذوو البصائر فى الدين ، وبين الإقتداء بالجهلة الغافلين من أهل عصرك ، ولا ترض لها أن تنخرط فى سلك الحمقى ، وتقنع بالتشبه بالأغبياء ، وتؤثر مخالفة العقلاء ، فإن حدثتك نفسك بأن هؤلاء رجال أقوياء لا يطاق الإقتداء بهم ، فطالع أحوال النساء المجتهدات ، وقل لها يا نفس لا تستنكفى أن تكونى أقل من امرأة . فأخسس برجل يقصر عن امرأة فى أمر دينها ودنياها .

ولنذكر الآن نبذة عن أحوال المجتهدات : فقد روى عن حبيبة العدوية أنها كانت إذا صلت العتمة قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت : إلهى : قد غارت النجوم ، ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامى بين يديك ، ثم تقبل على صلاتها فإذا طلع الفجر قالت : إلهى : هذا الليل قد أدبر وهذا النهار قد أسفر فليت شعرى ، أقبلت منى ليلتى فأهنأ ؟ أم رددتها علىّ فأعزى ؟ وعزتك لهذا دأبى ودأبك ما أبقيتنى . وعزتك لو انتهرتنى عن بابك ما برحت لما وقع فى نفسى عن وجودك وكرمك .

ويروى عن عجرة أنها كانت تحيي الليل ، وكانت مكفوفة البصر ! فإذا كان فى السحر نادت بصوت لها محزون : إليك قطع العابدون دجى الليالى يستبقون إلى رحمتك وفضل مغفرتك ، فبك يا إلهى : أسألك لا بغيرك أن تجعلنى فى أول زمرة السابقين ، وأن ترفعنى لديك فى عليين ، فى درجة المقربين ، وأن تلحقنى بعبادك الصالحين ، فأنت أرحم الرحماء ، وأعظم العظماء ، وأكرم الكرماء يا كريم ، ثم تخر ساجدة فيسمع لها وجبة ، ثم لا تزال تدعو وتبكى إلى الفجر .

وقال يحيى بن بسطام : كنت أشهد مجلس شعوانة فكنت أرى ما تصنع من النياحة والبكاء . فقلت لصاحب لى : لو أتيناها إذا خلت فأمرناها بالرفق بنفسها ؟ فقال : أنت وذاك قال فأتيناها فقلت لها : لو رفقت بنفسك وأقصرت عن هذا البكاء شيئاً فكان لك أقوى على ما تريدين ، قال فبكت ثم قالت : والله لوددت أنى أبكى حتى تنفد دموعى ، ثم أبكى دماً حتى لا تبقى قطرة من دم فى جارحة من جوارحى ، وأنى لى بالبكاء ، وأنى لى بالبكاء ، فلم تزل تردد وأنى لى بالبكاء ، حتى غشى عليها .

وقال محمد بن معاذ : حدثتنى امرأة من المتعبدات قالت : رأيت فى منامى كأنى أدخلت الجنة ، فإذا أهل الجنة قيام على أبوابهم . فقلت : ما شأن أهل الجنة قيام ، فقال لى قائل : خرجوا ينظرون إلى هذه المرأة التى زخرفت الجنان لقدومها فقلت : ومن هذه المرأة فقيل : أمة سوداء من أهل الأيكة ، يقال لها شعوانة . قالت : فقلت : أختى والله ، قالت فبينما أنا كذلك إذ أقبل بها على نجيبة تطير بها فى الهواء ، فلما رأيتها ناديت : يا أختى : أما ترين مكانى من مكانك . فلو دعوت لى مولاك فلحقنى بك قالت : فتبسمت إلّى وقالت : لم يأن لقدومك ولكن إحفظى عن اثنتين : إلزمى الحزن قلبك ، وقدمى محبة الله على هواك ، ولا يضرك متى مت وقال عبد الله بن الحسن : كانت لى جارية رومية وكنت بها معجباً فكانت فى بعض الليالى نائمة إلى جنبى فانتبهت ، فالتمستها فلم أجدها ، فقمت أطلبها فإذا هى ساجدة وهى تقول : بحبك لى ألا ما غفرت لى ذنوبى . فقلت لها : لا تقولى بحبك لى ، ولكن قولى بحبى لك ، فقالت : يا مولاى بحبه لى أخرجنى من الشرك إلى الإسلام ، وبحبه لى أيقظ عينى وكثير من خلقه ينام .

وقال أبو هاشم القرشى : قدمت علينا امرأة من أهل اليمن يقال لها سرية فنزلت فى بعض ديارنا قال : فكنت أسمع لها من الليل أنيناً وشهيقاً ، فقلت يوماً لخادم لى أشرف على هذه المرأة ماذا تصنع . قال : فأشرف عليها ، فما رآها تصنع شيئاً غير أنها لا ترد طرفها عن السماء ، وهى مستقبلة القبلة ، تقول : خلقت سرية ، ثم غذيتها بنعمتك من حال إلى حال ، وكل أحوالك لها حسنة ، وكل بلائك عندها جميل ، وهى مع ذلك متعرضة لسخطك بالتوثب على معاصيك فلتة بعد فلتة ، أتراها تظن أنك لا ترى سوء فعالها وأنت عليم خبير ، وأنت على كل شىء قدير . وقال ذو النون المصرى : خرجت ليلة من وادى كنعان ، فلما علوت الوادى إذا سواد مقبل على وهو يقول : ﴿ **وبدالهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون** ﴾[1] ويبكى فلما قرب منى

(١) سورة الزمر الآية ٤٧

السواد إذا هى امرأة عليها جبة صوف وبيدها ركوة ، فقالت لى : من أنت ؟ غير فزعة منى فقلت : رجل غريب فقالت : يا هذا وهل يوجد مع الله غربة . قال : فبكيت لقولها فقالت لى : ما الذى أبكاك ؟ فقلت قد وقع الدواء على داء قد قرح فأسرع فى نجاحه قالت : فإن كنت صادقاً فلم بكيت . قلت : يرحمك الله والصادق لا يبكى قالت : لا . قلت : و لم ذاك قالت : لأن البكاء راحة القلب ، فسكت متعجباً من قولها . وقال أحمد بن على ، إستأذنا على عفيرة ، فحجبتنا ، فلازمنا الباب ، فلما علمت ذلك قامت لتفتح الباب لنا فسمعتها وهى تقول : اللهم إنى أعوذ بك ممن جاء يشغلنى عن ذكرك ، ثم فتحت الباب ودخلنا عليها فقلنا لها : يا أمة الله : ادعى لنا فقالت : جعل الله قراكم فى بيتى المغفرة ، ثم قالت لنا : مكث عطاء السلمى أربعين سنة فكان لا ينظر إلى السماء فحانت منه نظرة فخر مغشياً عليه ، فأصابه فتق فى بطنه . فياليت عفيرة إذا رفعت رأسها لم تعص ، وياليتها إذا عصت لم تعد .

وقال بعض الصالحين : خرجت يوماً إلى السوق ومعى جارية حبشية ، فاحتسبتها فى موضع بناحية السوق ، وذهبت فى بعض حوائجى ، وقلت لا تبرحى حتى أنصرف إليك قال : فانصرفت فلم أجدها فى الموضع ، فانصرفت إلى منزلى وأنا شديد الغضب عليها ، فلما رأتنى عرفت الغضب فى وجهى فقالت : يا مولاى : لا تعجل على ، إنك أجلستنى فى موضع لم أر فيه ذاكر الله ــ تعالى ــ فخفت أن يخسف بذلك الموضع . فعجبت لقولها وقلت لها : أنت حرة . فقالت : ساء ما صنعت ، كنت أخدمك فيكون لى أجران وأما الآن فقد ذهب عنى أحدهما .

وقال ابن العلاء السعدى : كانت لى ابنة عم يقال لها بريدة . تعبدت وكانت كثيرة القراءة فى المصحف ، فكلما أتت على آية فيها ذكر النار بكت ، فلم تزل تبكى حتى ذهبت عيناها من البكاء ، قال : فدخلنا عليها ، فقلنا : يا بريدة : كيف أصبحت ! قالت : أصبحنا أضيافاً منيخين بأرض غربة ننتظر متى ندعى فنجيب . فقلنا لها : كم هذا البكاء قد ذهبت عيناك منه ، فقالت : إن يكن لعينى عند الله خير فما يضرهما ما ذهب منهما ، فى الدنيا ، وإن كان لهما عند الله شر فسيزيدهما بكاء أطول من هذا ، ثم أعرضت . قال : فقال القوم قوموا بنا فهى والله فى شيء غير ما نحن فيه .

وكانت معاذة العدوية إذا جاء النهار تقول : هذا يومى الذى أموت فيه فما تطعم حتى تمسى ، فإذا جاء الليل تقول : هذه الليلة التى أموت فيها فتصلى حتى تصبح .

وقال أبو سليمان الدارانى : بت ليلة عند رابعة ، فقامت إلى محراب لها ، وقمت أنا إلى ناحية من البيت فلم تزل قائمة إلى السحر ، فلما كان السحر قلت : ما جزاء من قوانا على قيام هذه الليلة ، قالت : جزاؤه أن تصوم له غداً .

وكانت شعوانة تقول فى دعائها إلهى : ما أشوقنى إلى لقائك ، وأعظم رجائى لجزائك ، وأنت الكريم الذى لا يخيب لديك أمل الآملين ، ولا يبطل عندك شوق المشتاقين . إلهى : إن كان دنا أجلى و لم يقربنى

منك عمل فقد جعلت الاعتراف بالذنب وسائل عللى ، فإن عفوت فمن أولى منك بذلك ، وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك ، إلهي : قد جرت على نفسى فى النظر لها وبقى لها حسن نظرك ، فالويل لها أن لم تسعدها . إلهي : إنك لم تزل بى براً أيام حياتى ، فلا تقطع عنى برك بعد مماتى ، ولقد رجوت ممن تولانى فى حياتى بإحسانه أن يسعفنى عند مماتى بغفرانه . إلهي : كيف أيأس من حسن نظرك بعد مماتى و لم تولنى إلا الجميل فى حياتى . إلهي : إن كانت ذنوبى قد أخافتنى فإن محبتى لك قد أجارتنى ، فتول من أمرى ما أنت أهله ، وعد بفضلك على من غره جهله : إلهي : لو أردت إهانتى لما هديتنى ، ولو أردت فضيحتى لم تسترنى ، فمتعنى بماله هديتنى ، وأدم لى بما به سترتنى . إلهي ما أظنك تردنى فى حاجة أفنيت فيها عمرى . إلهي : لولا ما قارفت من الذنوب ما خفت عقابك ، ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك .

وقال الخواص : دخلنا على رحلة العابدة ، وكانت قد صامت حتى اسودت ، وبكت حتى عميت ، وصلت حتى أقعدت ، وكانت تصلى قاعدة ، فسلمنا عليها . ثم ذكرناها شيئاً من العفو ليهون عليها الأمر . قال : فشهقت ثم قالت : علمى بنفسى قرَّح فؤادى وكلم كبدى . والله لوددت أن الله لم يخلقنى و لم أك شيئاً مذكوراً ، ثم أقبلت على صلاتها .

فعليك إن كنت من المرابطين المراقبين لنفسك أن تطالع أحوال الرجال والنساء من المجتهدين لينبعث نشاطك ، ويزيد حرصك ، وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك ، فإنك أن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله . وحكايات المجتهدين غير محصورة وفيما ذكرناه كفاية للمعتبر ، وإن أردت مزيداً فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب حلية الأولياء فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، وبالوقوف عليه يستبين لك بعدك ، وبعد أهل عصرك من أهل الدين ، فإن حدثتك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك ، وقالت إنما يتيسر الخير فى ذلك الزمان لكثرة الأعوان . والآن فإن خالفت أهل زمانك رأوك مجنوناً وسخروا بك فوافقهم فيما هم فيه ، وعليه فلا يجرى عليك إلا ما يجرى عليهم ، والمصيبة إذا عمت طابت ، فإياك أن تتدلى بحبل غرورها وتنخدع بتزويره ، وقل لها : أرأيت لو هجم سيل جارف يغرق أهل البلد ، وثبتوا على مواضعهم . و لم يأخذوا حذرهم لجهلهم بحقيقة الحال ، وقدرت أنت على أن تفارقيهم وتركبى فى سفينة تتخلصين بها من الغرق فهل يختلج فى نفسك أن المصيبة إذا عمت طابت ، أم تتركين موافقتهم وتستجهلينهم فى صنيعهم ، وتأخذين حذرك مما دهاك ، فإذا كنت تتركين موافقتهم خوفاً من الغرق وعذاب الغرق لا يتمادى إلا ساعة ، فكيف لا تهربين من عذاب الأبد وأنت متعرضة له فى كل حال ؟ ومن أين تطيب المصيبة إذا عمت ؟ ولأهل النار شغل شاغل عن الإلتفات إلى العموم والخصوص ، و لم يهلك الكفار إلا بموافقة أهل زمانهم حيث قالوا : ﴿ **إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون** ﴾[1] . فعليك إذا اشتغلت بمعاتبة نفسك ، وحملها على الإجتهاد فاستعصت ، أن لا تترك معاتبتها وتوبيخها ، وتقريعها ، وتعريفها سوء نظرها لنفسها ، فعساها تنزجر عن طغيانها .

---

(١) سورة الزخرف الآية ٢٣

الرابطة السادسة : فى توبيخ النفس ومعاتبتها

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك ، وقد خلقت أمارة بالسوء ، ميالة إلى الشر ، فرارة من الخير ، وأمرت بتزكيتها ، وتقويمها ، وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ، ومنعها عن شهواتها ، وفطامها عن لذاتها ، فإن أهملتها جمحت وشردت ، و لم تظفر بها بعد ذلك ، وإن لازمتها بالتوبيخ ، والمعاتبة ، والعذل ، والملامة ، كانت نفسك هى النفس اللوّامة التى أقسم الله بها ، ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل فى زمرة عباد الله راضية مرضية فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ، ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغل أولاً بوعظ نفسك . أوحى الله — تعالى — إلى عيسى عليه السلام : يا ابن مريم : عظ نفسك ، فإن اتعظت فعظ الناس ، وإلا فاستحيى منى . وقال — تعالى — : ﴿ **وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين** ﴾[1] . وسبيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها ، وأنها أبداً تتعزز بفطنتها وهدايتها ، ويشتد أنفها وإستنكافها إذا نسبت إلى الحمق ، فتقول لها : يا نفس : ما أعظم جهلك ، تدعين الحكمة ، والذكاء والفطنة ، وأنت أشد الناس غباوة وحمقاً ، أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار ، وأنك صائرة إلى إحداهما على القرب ، فما لك تفرحين ، وتضحكين ، وتشتغلين باللهو ، وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم ، وعساك اليوم تختطفين أو غداً ! فأراك ترين الموت بعيداً ويراه الله قريباً ، أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب ، وأن البعيد ما ليس بآت ؟ اما تعلمين أن الموت يأتى بغتة من غير تقديم رسول ؟ ومن غير مواعدة ، ومواطأة ، وأنه لا يأتى فى شىء دون شىء ، ولا فى شتاء دون صيف ، ولا فى صيف دون شتاء ، ولا فى نهار دون ليل ، ولا فى ليل دون نهار ، ولا يأتى فى الصبا دون الشباب ، ولا فى الشباب دون الصبا ، بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة ، فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة ، ثم يفضى إلى الموت فما لك لا تستعدين للموت وهو أقرب إليك من كل قريب ، أما تتدبرين قوله تعالى : ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم** ﴾[2] . ويحك يا نفس إن كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك وإن كان مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حياءك . ويحك يا نفس : لو واجهك عبد من عبيدك ، بل أخ من إخوانك بما تكرهينه ، كيف كان غضبك عليه ، ومقتك له ، فبأى جسارة تتعرضين لمقت الله ، وغضبه ، وشديد عقابه ، أفتظنين أنك تطيقين عقابه ؟ هيهات هيهات ، جربى نفسك إن ألهاك البطر عن أليم عذابه ، فاحتبسى ساعة فى الشمس أو فى بيت الحمام ، أو قربى أصبعك من النار ، ليتبين لك قدر طاقتك ، أم تغترين بكرم الله وفضله ؟ وإستغنائه عن طاعتك ، وعبادتك ، فما لك لا تعولين على كرم الله تعالى فى مهمات دنياك ، فإذا قصدك عدو فلم تستبطين الحيل فى دفعه ولا تكلينه

---

(١) سورة الذاريات الآية ٥٥

(٢) سورة الأنبياء الآيات ١ ، ٢ ، ٣

إلى كرم الله ــ تعالى ــ . وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضى إلا بالدينار والدرهم فلم تنزعين الروح فى طلبها ، وتحصيلها ، من وجوه الحيل ، فلم لا تعولين على كرم الله حتى يعثر بك على كنز أو يسخر عبداً من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعى منك ولا طلب ، أفتحسبين أن الله كريم فى الآخرة دون الدنيا ؟ وقد عرفت أن سنّة الله لا تبديل لها وأن رب الآخرة والدنيا واحد ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى .

ويحك يا نفس : ما أعجب نفاقك ، ودعاويك الباطلة ، فإنك تدعين الإيمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ، ألم يقل لك سيدك ومولاك : ﴿ **وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها** ﴾[1] وقال فى أمر الآخرة : ﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ما سعى** ﴾[2] فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة وصرفك عن السعى فيها ، فكذبته بأفعالك ، وأصبحت تتكالبين على طلبها تكالب المدهوش المستهتر ، ووكل أمر الآخرة إلى سعيك ، فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر ، ما هذا من علامات الإيمان لو كان الإيمان باللسان فلم كان المنافقون فى الدرك الأسفل من النار .

ويحك يا نفس : كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب ، وكأنك تظنين أنك إذا مت إنفلت وتخلصت وهيهات ، أتحسبين أنك تتركين سدى ، ألم تكونى نطفة من منّى يمنى ، ثم كنت علقة فخلق فسوى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ، فإن كان هذا من إضمارك فما أكفرك ، وأجهلك ، إما تتفكرين أنه مما ذا خلقك ؟ من نطفة خلقك فقدرك ، ثم السبيل يسرك ، ثم أماتك فأقبرك ، أفتكذبينه فى قوله ، ثم إذا شاء أنشرك ، فإن لم تكونى مكذبة فما لك لا تأخذين حذرك ؟ ولو أن يهودياً أخبرك فى ألذ أطعمتك بأنه يضرك فى مرضك لصبرت عنه وتركته ، وجاهدت نفسك فيه ، أفكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات ، وقول الله ــ تعالى ــ فى كتبه المنزلة أقل عندك تأثيراً من قول يهودى يخبرك عن حدس وتخمين ، وظن مع نقصان عقل ، وقصور علم . والعجب أنه لو أخبرك طفل بأن فى ثوبك عقرباً لرميت ثوبك فى الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان . أفكان قول الأنبياء ، والعلماء ، والحكماء ، وكافة الأولياء ، أقل عندك من قول صبى من جملة الأغبياء ، أم صار حر جهنم ، وأغلالها ، وأنكالها ، وزقومها ، ومقامعها ، وصديدها ، وسمومها ، وأفاعيها ، وعقاربها ، أحقر عندك من عقرب لا تحسين بألمها إلا يوماً أو أقل منه ؟ ما هذه أفعال العقلاء . بل لو انكشفت للبهائم حالك لضحكوا منك ، وسخروا من عقلك ، فإن كنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك ، وآمنت به ، فمالك تسوفين العمل ، والموت لك بالمرصاد ، ولعله يختطفك من غير مهلة ، فبماذا أمنت إستعجال الأجل . وهبك أنك وعدت بالإمهال مائة سنة ، أتظنين أن من يطعم ، الدابة فى حضيض العقبة يفلح ويقدر على قطع العقبة بها ؟ إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك . أرأيت لو سافر رجل ليتفقه فى الغربة ، فأقام فيها سنين متعطلاً ، بطالاً ، يعد نفسه بالتفقه فى السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه ،

(١) سورة هود الآية ٦
(٢) سورة النجم الآية ٣٩

هل كنت تضحكين من عقله وظنه أن تفقيه النفس مما يطمع فيه بمدة قريبة ، أو حسبانه أن مناصب الفقهاء تنال من غير تفقه إعتماداً على كرم الله — سبحانه وتعالى — . ثم هبى أن الجهد فى آخر العمر نافع ، وأنه موصل إلى الدرجات العلا ، فلعل اليوم آخر عمرك فلم لا تشتغلين فيه بذلك ، فإن أوحى إليك بالإمهال ، فما المانع من المبادرة ، وما الباعث لك على التسويف ! هل له سبب إلا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة ، أفتنتظرين يوماً يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات ، هذا يوم لم يخلقه الله قط ، ولا يخلقه ، فلا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالمكاره ، ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس . وهذا مجال وجوده ، أما تتأملين مذكم تعدين نفسك وتقولين غداً غداً ، فقد جاء الغد وصار يوماً ، فكيف وجدته ، أما علمت أن الغد الذى جاء وصار يوماً كان له حكم الأمس ، لا ، بل تعجزين عنه اليوم ، فإنت غداً عنه أعجز ، وأعجز ، لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التى تعبد العبد بقلعها ، فإذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها ، كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوى ، فأخرها إلى سنة أخرى ، مع العلم بأن طول المدة يزيد الشجرة قوة ورسوخاً ، ويزيد القالع ضعفاً ووهناً ! فما لا يقدر عليه فى الشباب ، لا يقدر عليه قط فى المشيب ، بل من العناء رياضة الهرم ، ومن التعذيب تهذيب المشيب . والقضيب الرطب يقبل الإنحناء ، فإذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك .

فإن كنت أيتها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجلية ، وتركنين إلى التسويف ، فما بالك تدعين الحكمة ، وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة ؟ ولعلك تقولين ما يمنعنى عن الإستقامة إلا حرصى على لذة الشهوات ، وقلة صبرى على الآلام والمشقات ، فما أشد غباوتك ، وأقبح إعتذارك ! ان كنت صادقة فى ذلك فاطلبى التنعم بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة أبد الآباد ، ولا مطمع فى ذلك إلا فى الجنة ، فإن كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها فى مخالفتها فرب أكلة تمنع أكلات ، وما قولك فى عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويهنأ بشربه طول عمره ، وأخبره أنه إن شرب ذلك مرض مرضاً مزمناً وامتنع عليه شربه طول العمر ، فما مقتضى العقل فى قضاء حق الشهوة ؟ أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر ؟ أم يقضى شهوته فى الحال خوفاً من ألم المخالفة ثلاثة أيام ، حتى يلزمه ألم المخالفة ثلاثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم ؟ وجميع عمرك بالاضافة إلى الذى هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار ، أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر وإن طالت مدته ، وليت شعرى ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة ، أو ألم النار فى دركات جهنم فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله : ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفى ، أو لحمق جلى : أما الكفر الخفى فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب ، وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب .

وأما الحق الجلى فاعتمادك على كرم الله — تعالى — وعفوه ، من غير التفات إلى مكره ، واستدراجه ، واستغنائه عن عبادتك ، مع أنك لا تعتمدين على كرمه فى لقمة من الخبز ، أو حبة من المال ، أو كلمة واحدة

تسمعينها من الخلق ، بل تتوصلين إلى غرضك فى ذك بجميع الحيل ، وبهذا الجهل تستحقين لقب الحماقة من رسول الله — ﷺ — حيث قال : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى »[1] . ويحك يا نفس لا ينبغى أن تغرك الحياة الدنيا ، ولا يغرنك بالله الغرور ، فانظري لنفسك فما أمرك بمهم لغيرك ، ولا تضيعى أوقاتك فالأنفاس معدودة ، فإذا مضى منك نفس فقد ذهب بعضك فاغتنمى الصحة قبل السقم ، والفراغ قبل الشغل ، والغنى قبل الفقر ، والشباب قبل الهرم ، والحياة قبل الموت ، واستعدى للآخرة على قدر بقائك فيها ، يا نفس : أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته ، فتجمعين له القوت ، والكسوة ، والحطب ، وجميع الأسباب . ولا تتكلين فى ذلك على فضل الله وكرمه ، حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ، ولبد ، وحطب ، وغير ذلك ، فإنه قادر على ذلك ، أفتظنين أيتها النفس أن زمهرير جهنم أخف برداً وأقصر مدة من زمهرير الشتاء ؟ أم تظنين أن ذلك دون هذا . كلا أن يكون هذا كذلك ، أو أن يكون بينهما مناسبة فى الشدة والبرودة ، أفتظنين أن العبد ينجو منها بغير سعى ؟ هيهات ، كما لا يندفع حر النار وبردها إلا بحصن التوحيد وخندق الطاعات . وإنما كرم الله — تعالى — فى أن عرفك طريق التحصن . ويسر لك أسبابه ، لا فى أن يندفع عنك العذاب دون حصنه . كما أن كرم الله — تعالى — فى دفع برد الشتاء أن خلق النار ، وهداك لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر ، حتى تدفعى بها برد الشتاء عن نفسك . وكما أن شراء الجبة والحطب مما يستغنى عنه خالقك ومولاك ، إنما تشترينه لنفسك إذ خلقه سبباً لاستراحتك ، فطاعاتك ومجاهداتك أيضاً هو مستغن عنها ، وإنما هى طريقك إلى نجاتك ، فمن أحسن فلنفسه ، ومن أساء فعليها والله غنى عن العالمين .

ويحك يا نفس : اترعى عن جهلك ، وقيسى آخرتك بدنياك ، فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ، وكما بدأنا أول خلق نعيده . وكما بدأكم تعودون ، وسنة الله — تعالى — لا تجدين لها تبديلاً ولا تحويلاً .

ويحك يا نفس : ما أراك إلا ألفت الدنيا ، وأنست بها ، فعسر عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مقاربتها ، وتؤكدين فى نفسك مودتها ، فاحسبى أنك غافلة من عقاب الله وثوابه ، وعن أهوال القيامة وأحوالها ، فما أنت مؤمنة بالموت المفرق بينك وبين محابك . أفترين أن من يدخل دارملك ليخرج من الجانب الآخر ، فمد بصره إلى وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ، ثم يضطر لا محالة إلى مفارقته ، أهو معدود من العقلاء أم من الحمقى ، أما تعلمين أن الدنيا دار لملك الملوك ، ومالك فيها إلا مجاز ، وكل ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت . ولهذا قال سيد البشر — صلى الله عليه وسلم — « إن روح القدس نفث فى روعى أحبب

(١) الحديث فى سنن الترمذى جـ ٤ ص ٥٥٠ كتاب صفة القيامة رقم ٢٤٥٩ وقال : هذا حديث حسن .
— وانظر سنن ابن ماجة جـ ٢ ص ١٤٢٣ كتاب الزهد باب ذكر الموت والاستعداد له رقم ٤٢٦٠ .

من أحببت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزى به وعش ما شئت فإنك ميت »[1] ويحك يا نفس : أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ، ويأنس بها مع أن الموت من ورائه ، فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة ، وإنما يتزود من السم المهلك وهو لا يدرى ، أو ما تنظرين إلى الذين مضوا كيف بنوا وعلوا ، ثم ذهبوا وخلوا ، وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم ؟ . أما ترينهم كيف يجمعون ما لا يأكلون ، ويبنون ما لا يسكنون ، ويؤملون ما لا يدركون ، يبنى كل واحد قصراً مرفوعاً إلى جهة السماء ، ومقره قبر محفور تحت الأرض ، فهل فى الدنيا حمق وانتكاس أعظم من هذا ؟ يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقيناً ، ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعاً ؟ . أما تستحيين يا نفس : من مساعدة هؤلاء الحمقى على حماقتهم ؟

واحسبى أنك لست ذات بصيرة تهتدى إلى هذه الأمور ، وإنما تميلين بالطبع إلى التشبه والإقتداء ، فقيسى عقل الأنبياء ، والعلماء ، والحكماء ، بعقل هؤلاء المنكبين على الدنيا ، واقتدى من الفريقين بمن هو أعقل عندك إن كنت تعتقدين فى نفسك العقل والذكاء .

يا نفس : ما أعجب أمرك ، وأشد جهلك ، وأظهر طغيانك ! عجباً لك ، كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجلية ! ولعلك يا نفس : أسكرك حب الجاه ، وأدهشك عن فهمها ، أو ما تتفكرين أن الجاه لا معنى له إلا ميل القلوب من بعض الناس إليك ، فاحسبى أن كل من على وجه الأرض سجد لك ، وأطاعك ، أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقين أنت ولا أحد ممن على وجه الأرض ، ممن عبدك ، وسجد لك ، وسيأتى زمان لا يبقى ذكرك ، ولا ذكر من ذكرك ، كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك ، فهل تحس منهم من أحد ، أو تسمع لهم ركزاً ، فكيف تبيعين يا نفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقى ؟ هذا إن كنت ملكاً من ملوك الأرض ، سلم لك الشرق والغرب ، حتى أذعنت لك الرقاب ، وانتظمت لك الأسباب ، كيف ويأبى إدبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك ؟ بل أمر دارك فضلاً عن محلتك ، فإن كنت يا نفس لا تتركين الدنيا رغبة فى الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك ، فما لك لا تتركينها ترفعاً عن خسة شركائها ، وتنزهاً عن كثرة عنائها ، وتوقياً من سرعة فنائها ، أم مالك لا تزهدين فى قليلها بعد أن زهد فيك كثيرها ؟ ومالك تفرحين بدنيا إن ساعدتك فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ، ويزيدون عليك فى نعيمها وزينتها ؟ فأف لدنيا يسبقك بها هؤلاء الأخساء . فما أجهلك ، وأخس همتك ، وأسقط رأيك إذا رغبت عن أن تكونى فى زمرة المقربين من النبيين والصديقين ، فى جوار رب العالمين أبد الآبدين ، لتكونى فى صف النعال من جملة الحمقى الجاهلين أياماً قلائل . فيا حسرة عليك إن خسرت الدنيا والدين .

فبادرى ويحك يا نفس فقد أشرفت على الهلاك ، واقترب الموت ، وورد النذير ، فمن ذا يصلى عنك بعد الموت ؟ ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ؟ ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت ؟

---

(١) انظر اتحاف السادة المتقين جـ ١٠ ص ١٥٢ . وقال العراق : رواه الشيرازى والطبرانى فى الأوسط والأصغر وكلاهما ضعيف .

ويحك يا نفس ، مالك إلا أيام معدودة هى بضاعتك ، إن اتجرت فيها وقد ضيعت أكثرها ، فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيعت منها لكنت مقصرة فى حق نفسك ، فكيف إذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك ؟

أما تعلمين يا نفس : أن الموت موعدك ، والقبر بيتك ، والتراب فراشك والدود أنيسك ، والفزع الأكبر بين يديك . أما علمت يا نفس : أن عسكر الموتى عندك على باب البلد ينتظرونك ، وقد آلوا على أنفسهم كلهم بالأيمان المغلظة أنهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يأخذوك معهم . أما تعلمين يا نفس : أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا يوماً ليشتغلوا بتدارك ما فرط منهم ، وأنت فى أمينتهم ، ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه لو قدروا عليه ، وأنت تضيعين أيامك فى الغفلة والبطالة . ويحك يا نفس : أما تستحيين ؟ تزينين ظاهرك للخلق ، وتبارزين الله فى السر بالعظائم ، أفتستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق ؟ ويحك أهو أهون الناظرين عليك ، أتأمرين الناس بالخير وأنت متلطخة بالرذائل ، تدعين إلى الله وأنت عنه فارة ، وتذكرين بالله وأنت له ناسية ، أما تعلمين يا نفس : أن المذنب أنتن من العذرة ، وأن العذرة لا تطهر غيرها ، فلم تطمعين فى تطهير غيرك ، وأنت غير طيبة فى نفسك .

ويحك يا نفس : لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس ما يصيبهم بلاء إلا بشؤمك . ويحك يا نفس : قد جعلت نفسك حماراً لإبليس يقودك إلى حيث يريد ، ويسخر بك ، ومع هذا فتعجبين بعملك وفيه من الأفات ما لو نجوت منه رأساً برأس لكان الربح فى يديك ، وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وزللك ، وقد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد أن عبده مائتى ألف سنة ، وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه .

ويحك يا نفس : ما أغدرك ، ويحك يا نفس : ما أوقحك ، ويحك يا نفس : ما أجهلك ! وما أجرأك على المعاصى ، ويحك كم تعقدين فتنقضين ، ويحك كم تعهدين فتغدرين ، ويحك يا نفس : أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك ، كأنك غير مرتحلة عنها ، أما تنظرين إلى أهل القبور ، كيف كانوا جمعوا كثيراً ، وبنو مشيداً ، وأملوا بعيداً ، فأصبح جمعهم بوراً ، وبنيانهم قبوراً ، وأملهم غروراً . ويحك يا نفس : أمالك بهم عبرة ؟ أمالك إليهم نظرة ؟ أتظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين ؟ هيهات ، هيهات ، ساء ما تتوهمين . ما أنت إلا فى هدم عمرك مند سقطت من بطن أمك . فابنى على وجه الأرض قصرك ، فإن بطنها عن قليل يكون قبرك . أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقى أن تبدو رسل ربك منحدرة إليك بسواد الألوان وكلح الوجوه ، وبشرى بالعذاب ؟ فهل ينفعك حينئذ الندم أو يقبل منك الحزن أو يرحم منك البكاء ؟
والعجب كل العجب منك يا نفس أنك مع هذا تدعين البصيرة والفطنة . ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك . ولا تحزنين بنقصان عمرك ، وما نفع مال يزيد وعمر ينقص . ويحك يا نفس : تعرضين عن الآخرة وهى مقبلة عليك ، وتقبلين على الدنيا وهى معرضة عنك . فكم من مستقبل يوماً لا يستكمله ، وكم من مؤمل لغد لا يبلغه . فأنت تشاهدين ذلك فى إخوانك ، وأقاربك ، وجيرانك ، فترين تحسرهم عند

الموت ثم لا ترجعين عن جهالتك . فاحذرى أيتها النفس المسكينة يوماً آلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبداً أمره فى الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله ، دقيقه وجليله ، سرّه وعلانيته . فانظرى يا نفس : بأى بدن تقفين بين يدى الله ، وبأى لسان تجيبين ، وأعدى للسؤال جواباً ، وللجواب صواباً ، واعملى بقية عمرك فى أيام قصار لأيام طوال ، وفى دار زوال لدار مقامة ، وفى دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود ، إعملى قبل أن لا تعملى ، اخرجى من الدنيا اختياراً خروج الأحرار قبل أن تخرجى منها على الاضطرار ، ولا تفرحى بما يساعدك من زهرات الدنيا ، فرب مسرور مغبون ، ورب مغبون لا يشعر . فويل لمن له الويل ثم لا يشعر ، يضحك ويفرح ، ويلهو ويمرح ، ويأكل ويشرب ، وقد حق له فى كتاب الله أنه من وقود النار ، فليكن نظرك يا نفس : إلى الدنيا اعتباراً ، أو سعيك لها إضطراراً ، ورفضك لها اختياراً ، وطلبك للآخرة ابتداراً ، ولا تكونى ممن يعجز عن شكر ما أوتى ، ويبتغى الزيادة فيما بقى ، وينهى الناس ولا ينتهى ، واعلمى يا نفس : أنه ليس للدين عوض ، ولا للإيمان بدل ، ولا للجسد خلف ، ومن كانت مطيته الليل والنهار فإنه يسار به وإن لم يسر ، فاتعظى يا نفس بهذه الموعظة ، واقبلى هذه النصيحة ، فإن من اعرض عن الموعظة فقد رضى بالنار ، وما أراك بها راضية ، ولا بهذه الموعظة واعية ، فإن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة فاستعينى عليها بدوام التهجد والقيام ، فإن لم تزل فبالمواظبة على الصيام ، فإن لم تزل فبقلة المخالطة والكلام ، فإن لم تزل فبصلة الأرحام ، واللطف بالأيتام ، فإن لم تزل فاعلمى أن الله قد طبع على قلبك وأقفل عليه ، وأنه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه ، فوطنى نفسك على النار ، فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلاً ، وخلق النار وخلق لها أهلاً ، فكل ميسر لما خلق له ، فإن لم يبق فيك مجال للوعظ فاقنطى من نفسك ، والقنوط كبيرة من الكبائر نعوذ بالله من ذلك ، فلا سبيل لك إلى القنوط ، ولا سبيل لك إلى الرجاء ، مع انسداد طرق الخير عليك ، فإن ذلك اغترار وليس برجاء ، فانظرى الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التى ابتليت بها ، وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك ، فإن سمحت فمستقى الدمع من بحر الرحمة ، فقد بقى فيك موضع للرجاء ، فواظبى على النياحة والبكاء ، واستعينى بأرحم الراحمين ، واشتكى إلى أكرم الأكرمين ، وأدمنى الإستغاثة ، ولا تملى طول الشكاية لعله أن يرحم ضعفك ويغيثك ، فإن مصيبتك قد عظمت ، وبليتك قد تفاقمت ، وتماديك قد طال ، وقد انقطعت منك الحيل ، وراحت عنك العلل ، فلا مذهب ولا مطلب ، ولا مستغاث ولا مهرب ، ولا ملجأ ولا منجا إلا إلى مولاك ، فافزعى إليه بالتضرع ، واخشعى فى تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك ، لأنه يرحم المتضرع الذليل ، ويغيث الطالب المتلهف ، ويجيب دعوة المضطر ، وقد أصبحت إليه اليوم مضطرة ، وإلى رحمته محتاجة ، وقد ضاقت بك السبل ، وانسدت عليك الطرق ، وانقطعت منك الحيل ، ولم تنجع فيك العظات ! ولم يكسرك التوبيخ ، فالمطلوب منه كريم ، والمسئول جواد ، والمتغاث به بد رءوف ، والرحمة واسعة ، والكرم فائض ، والعفو شامل ، وقولى يا أرحم الراحمين ، يا رحمن يا رحيم ، يا حليم يا عظيم ، يا كريم أنا المذنب المصرّ ، أنا الجرىء الذى لا أقلع ، أنا المتمادى الذى لا أستحى ، هذا مقام المتضرع المسكين ، والبائس الفقير ، والضعيف الحقير ،

وامثالك الغريق ، فعجل أغاثتي وفرجي ، وأرنى آثار رحمتك ، وأذقنى برد عفوك ومغفرتك ، وارزقنى قوة عصمتك يا أرحم الراحمين ، إقتداء بأبيك آدم — عليه السلام — فقد قال وهب بن منبه : لما أهبط الله آدم من الجنة إلى الأرض مكث لا ترقأ له دمعة فاطلع الله — عز وجل — عليه فى اليوم السابع وهو محزون كئيب كظيم منكس رأسه ، فأوحى الله — تعالى — إليه : يا آدم : ما هذا الجهد الذى أرى بك ؟ قال : يارب : عظمت مصيبتى ، وأحاطت بى خطيئتى ، وأخرجت من ملكوت ربى ، فصرت فى دار الهوان بعد الكرامة ، وفى دار الشقاء بعد السعادة وفى دار النصب بعد الراحة ، وفى دار البلاء بعد العافية ، وفى دار الزوال بعد القرار ، وفى دار الموت والفناء بعد الخلود والبقاء ، فكيف لا أبكى على خطيئتى ؟ ، فأوحى الله — تعالى — إليه يا آدم : ألم أصطفك لنفسى ، وأحللتك دارى ، وخصصتك بكرامتى ، وحذرتك سخطى ، ألم أخلقك بيدى ، ونفخت فيك من روحى ، وأسجدت لك ملائكتى ، فعصيت أمرى ، ونسيت عهدى ، وتعرضت لسخطى ؟ ، فو عزتى وجلالى لو ملأت الأرض رجالاً كلهم مثلك . يعبدوننى ، ويسبحوننى ، ثم عصونى ، لأنزلتهم منازل العاصين . فبكى آدم — عليه السلام — عند ذلك ثلاثمائة عام .

وكان عبيد الله البجلى كثير البكاء ، يقول فى بكائه طول ليله **إلهى** أنا الذى كلما طال عمرى زادت ذنوبى ، أنا الذى كلما هممت بترك خطيئة عرضت لى شهوة أخرى ، واعبيداه ، خطيئة لم تبل وصاحبها فى طلب أخرى ، واعبيداه ، إن كانت النار لك مقيلاً ومأوى ، واعبيداه إن كانت المقامع لرأسك تهيأ ، واعبيداه قضيت حوائج الطالبين ولعل حاجتك لا تقضى .

وقال منصور بن عمار : سمعت فى بعض الليالى بالكوفة عابداً يناجى ربه وهو يقول : يارب : وعزتك ما أردت بمعصيتك مخالفتك ، ولا عصيتك إذ عصيتك وأنا بمكانك جاهل ولا لعقوبتك متعرض ، ولا لنظرك مستخف ، ولكن سولت لى نفسى ، وأعاننى على ذلك شقوتى ، وغرنى سترك المرضى علىّ ، فعصيتك بجهلى ، وخالفتك بفعلى ، فمن عذابك الآن من يستنقذنى ؟ . أو بحبل من أعتصم إن قطعت حبلك عنى ؟ واسوأتاه مِنَ الوقوف بين يديك غداً . إذا قيل للمخفين جوزوا ، وقيل للمثقلين حطوا . أمع المخفين أجوز ، أم مع المثقلين أحط ؟ . ويلى ! كلما كبرت سنى كثرت ذنوبى . ويلى ! كلما طال عمرى كثرت معاصىّ ، فإلى متى أتوب وإلى متى أعود ؟ ، أما آن لى أن أستحيى من ربى . فهذه طرق القوم فى مناجاة مولاهم ، وفى معاتبة نفوسهم . وإنما مطلبهم من المناجاة الاسترضاء ، ومقصدهم من المعاتبة التنبيه والإسترعاء ، فمن أهمل المعاتبة والمناجاة لم يكن لنفسه مراعياً ، ويوشك أن لا يكون الله — تعالى — عنه راضياً .

تحذير

قوله تعالى : ﴿ **ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم** ﴾ أى :لا تنسوا ذكر الله تعالى ، فينسيكم العمل لمصالح أنفسكم التى تنفعكم فى معادكم ، فإن الجزاء من جنس العمل ، ولهذا قال — تعالى — :

﴿ **أولئك هم الفاسقون** ﴾ أى : الخارجون عن طاعة الله الهالكون يوم القيامة ، الخاسرون يوم معادهم كما قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون** ﴾(١) ، وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى بسنده عن نعيم بن نمحة قال : كان فى خطبة أبى بكر الصديق ـــ رضى الله عنه ـــ : أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم ؟ فمن استطاع أن يقضى الأجل وهو فى عمل الله ـــ عز وجل ـــ فليفعل ، ولن تنالوا ذلك إلا بالله ـــ عز وجل ـــ ، إن قوماً جعلوا آجالهم لغيرهم فنهاكم الله ـــ عز وجل ـــ أن تكونوا أمثالهم ﴿ **ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم** ﴾ أين من تعرفون من إخوانكم ؟ قدموا على ما قدموا فى أيام سلفهم وخلوا بالشقوة والسعادة ، أين الجبارون الأولون الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط ؟ . قد صاروا تحت الصخر والآبار ، هذا كتاب الله لا تفنى عجائبه فاستضيئوا منه ليوم ظلمة ، واستضيئوا بسنائه وبيانه ، إن الله ـــ تعالى ـــ أثنى على زكريا وأهل بيته فقال ـــ تعالى ـــ : ﴿ **إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين** ﴾(٢) لا خير فى قول لا يراد به وجه الله ، ولا خير فى مال لا ينفق فى سبيل الله . ولا خير فيمن يغلب جهله حلمه ، ولا خير فيمن يخاف فى الله لومة لائم . هذا إسناد جيد ورجاله كلهم ثقات .

وقوله تعالى : ﴿ **لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة** ﴾أى : لا يستوى هؤلاء وهؤلاء فى حكم الله ـــ تعالى ـــ يوم القيامة ، كما قال ـــ تعالى ـــ : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون** ﴾(٣) وقال تعالى : ﴿ **وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيىء قليلاً ما تتذكرون** ﴾(٢) ، وقال تعالى : ﴿ **أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار** ﴾(٣) .

ومثل ذلك قوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون . إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم . أفنجعل المسلمين كالمجرمين . ما لكم كيف تحكمون** ﴾(٤) ، وقوله ـــ جل شأنه ـــ : ﴿ **أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون . أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون . وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون** ﴾(٧) .

---

(١) سورة المنافقون الآية ٩
(٢) سورة الأنبياء الآية ٩٠
(٣) سورة الجاثية الآية ٢١
(٤) سورة غافر الآية ٥٨
(٥) سورة ص الآية ٢٨
(٦) سورة ن الآيات ٣٢ ـــ ٣٦
(٧) سورة السجدة الآيات ١٨ ، ١٩ ، ٢٠

أما قوله تعالى : ﴿ **أصحاب الجنة هم الفائزون** ﴾ فهذا منطق العدالة الإلهية إذ المساواة بينهما ظلم . والله ــ تبارك وتعالى ــ هو الحكم العدل ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً** ﴾[1] .

عظمة القرآن وأسماء الله الحسنى

قوله تعالى : ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون . هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ .

يقول ــ تعالى ــ معظماً لأمر القرآن ومبيناً علو قدره وأنه ينبغى أن تخشع له القلوب ، وتتصدع عند سماعه ، لما فيه من الوعد الحق ، والوعيد الأكيد ، ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله** ﴾ . أى : فإذا كان الجبل فى غلظته وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله ــ عز وجل ــ فكيف يليق بكم أيها البشر أن لا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية الله ؟ وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه ولهذا قال تعالى : ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون** ﴾ . قال العوفى عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً** ﴾ إلى آخرها . يقول : لو أنى أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه لتصدع وخشع من ثقله ومن خشية الله ، فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع ، ثم قال ــ تعالى ــ : ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون** ﴾ وكذا قال قتادة وابن جرير . وقد ثبت فى الحديث المتواتر أن رسول الله ــ ﷺ ــ لما عمل له المنبر وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد فلما وضع المنبر أول ما وضع وجاء النبى ــ ﷺ ــ ليخطب فجاوز الجذع إلى نحو المنبر فعند ذلك حن الجذع وجعل يئن كما يئن الصبى الذى يسكت لما كان يسمع من الذكر والوحى عنده . ففى بعض روايات هذا الحديث قال الحسن البصرى بعد إيراده : فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى رسول الله ــ ﷺ ــ من الجذع . وهكذا هذه الآية الكريمة إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته لخشعت ، وتصدعت من خشيته فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم ؟ وقد قال ــ تعالى ــ : ﴿ **ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى** ﴾[2] الآية . وقد قال تعالى : ﴿ **وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله** ﴾[3] .

---

(١) سورة النساء الآية ٤٠

(٢) سورة الرعد الآية ٣١

(٣) سورة البقرة الآية ٧٠

ثم قال — تعالى — : ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ﴾ أخبر — تعالى — أنه الذى لا إله إلا هو فلا رب غيره ، ولا إله للوجود سواه ، وكل ما يعبد من دونه فباطل ، وأنه عالم الغيب والشهادة ، أى : يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا ، والغائبات عنا ، فلا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء من جليل وحقير وكبير ، وصغير ، حتى الذر فى الظلمات . وقوله — تعالى — : ﴿ هو الرحمن الرحيم ﴾ أى : أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات ، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ، وقد قال — تعالى — : ﴿ ورحمتى وسعت كل شيء ﴾[١] ، وقال — تعالى — : ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾[٢] ، وقال — تعالى — : ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾[٣] .

ثم قال تعالى : ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو الملك ﴾ أى المالك لجميع الأشياء ، المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة . وقوله — تعالى — : ﴿ القدوس ﴾ . قال وهب بن منبه : أى : الطاهر . وقال مجاهد وقتادة : أى : المبارك . وقال ابن جريج : تقدسه الملائكة الكرام . ﴿ السلام ﴾ أى : من جميع العيوب والنقائص . لكماله فى ذاته ، وصفاته ، وأفعاله . وقوله — تعالى — : ﴿ المؤمن ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس أى : أمن خلقه من أن يظلمهم . وقال قتادة : أمن بقوله أنه حق . وقال ابن زيد : صدق عباده المؤمنين فى إيمانهم به . وقوله — تعالى — : ﴿ المهيمن ﴾ قال ابن عباس وغير واحد : أى : الشاهد على خلقه بأعمالهم ، بمعنى هو رقيب عليهم ، كقوله : ﴿ والله على كل شيء شهيد ﴾[٤] ، وقوله : ﴿ ثم الله شهيد على ما يفعلون ﴾[٥] ، وقوله : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾[٦] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ العزيز ﴾ أى : الذى قد عز كل شيء فقهره وغلب الأشياء فلا ينال جنابه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه ، ولهذا قال — تعالى — : ﴿ الجبار المتكبر ﴾ أى : الذى لا تليق الجبرية إلا له ، ولا التكبر إلا لعظمته ، كما جاء فى الصحيح : « العظمة ازارى والكبرياء ردائى فمن نازعنى واحداً منهما عذبته »[٧] . وقال قتادة : الجبار الذى جبر خلقه على ما يشاء . وقال ابن جرير : الجبار : المصلح أمور خلقه المتصرف فيهم بما فيه صلاحهم . وقال قتادة : المتكبر يعنى عن كل سوء . ثم قال — تعالى — : ﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾ .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٦
(٢) سورة الأنعام الآية ٥٤
(٣) سورة يونس الآية ٥٨
(٤) سورة المجادلة من الآية ٦
(٥) سورة يونس من الآية ٤٦
(٦) سورة الرعد الآية ٣٣
(٧) انظر سنن أبى داوود . كتاب اللباس ، باب ما جاء فى الكبر . جـ ٤ ص ٣٥٠ رقم ٤٠٩٠ .
وانظر سنن ابن ماجة . كتاب الزهد . باب البراءة من الكبر جـ ٢ ص ١٣٩٧ رقم ٤١٧٤ .
انظر مسند احمد جـ ٢ ص ٣٧٦ ، ٤١٤ .

وقوله تعالى : ﴿ **هو الله الخالق البارىء المصور** ﴾ الخلق : التقدير ، والبرء هو الفرى وهو التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود ، وليس كل من قدر شيئاً ورتبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله عز وجل . قال الشاعر يمدح آخر :

ولأنــت تفــرى مــا خلقــت وبعــ ض القــوم يخـلق ثم لا يفــرى

أى أنت تنفذ ما خلقت أى قدرت ، بخلاف غيرك فإنه لا يستطيع ما يريد فالخلق التقدير ، والفرى : التنفيذ ومنه يقال : قدر الجلاد ثم فرى أى قطع على ما قدره بحسب ما يريده .

وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **الخالق البارىء المصور** ﴾ أى الذى إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون على الصفة التى يريد والصورة التى يختار . كقوله تعالى : ﴿ **فى أى صورة ما شاء ركبك** ﴾ ولهذا قال : المصور أى الذى ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التى يريدها . وقوله تعالى : ﴿ **له الأسماء الحسنى** ﴾ فقد روى فى الصحيحين عن أبى هريرة عن رسول الله ــ ﷺ ــ : « إن لله ــ تعالى ــ تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر »(١) . وسياق الترمذى وابن ماجة له عن أبى هريرة أيضاً وزاد بعد قوله : « وهو وتر يحب الوتر » . واللفظ للترمذى : « هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارىء المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلى الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوى المتين الولى الحميد المحصى المبدىء المعيد المحيى المميت الحى القيوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالى المتعالى البر التواب المنتقم العفو الرءوف ، مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغنى المغنى المعطى المانع الضار النافع النور الهادى البديع الباقى الوارث الرشيد الصبور »(٢) . وقوله تعالى : ﴿ **يسبح له ما فى السموات والأرض** ﴾ كقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً** ﴾(٣) . وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **وهو العزيز** ﴾ : أى : فلا يرام جنابه (الحكيم) فى شرعه وقدره . وقد قال الإمام أحمد بسنده عن معقل بن يسار عن النبى ــ ﷺ ــ قال : « من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ثم قرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسى وإن مات فى ذلك اليوم مات شهيداً ، ومن قالها حين يمسى كان بتلك المنزلة »(٣) .

(١) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٦٣ . كتاب الذكر والدعاء . باب أسماء الله تعالى رقم ٥ ، ٦ / ٢٦٧٧ .

(٢) الحديث بكماله فى سنن الترمذى جـ ٥ ص ٤٩٦ . كتاب الدعوات باب ٨٣ . رقم ٣٥٠٧ .

انظر سنن ابن ماجه جـ ٢ ص ١٢٧٩ ، ١٢٧٠ . كتاب الدعاء باب أسماء الله عز وجل . رقم ٣٨٦١ .

(٣) سورة الاسراء الآية ٤٤

(٤) انظر مسند الامام أحمد جـ ٥ ص ٢٦ مسند معقل بن يسار .

أسماء الله الحسنى
دستور الأخلاق فى الإسلام

﴿ **هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم** ﴾ ، ﴿ **هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون** ﴾ ، ﴿ **هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ (الحشر / ٢٢ — ٢٤) . إنها تسبيحة مديدة بهذه الصفات المجيدة ، ذات ثلاث مقاطع يبدأ كل مقطع منها بصفة التوحيد : ﴿ **هو الله الذى لا إله إلا هو** ﴾ أو ﴿ **هو الله** ﴾ .

ولكل اسم من هذه الأسماء الحسنى أثر فى هذا الكون وأثر فى حياة البشر ملموس . فهى توحى إلى القلب بفاعلية هذه الأسماء والصفات فاعلية ذات أثر وعلاقة بالناس والأحياء . وليست هى صفات سلبية منعزلة عن كيان هذا الوجود ، وأحواله وظواهره المصاحبة لوجوده . ﴿ **هو الله الذى لا إله إلا هو** ﴾ فتقرر فى الضمير وحدانية اعتقاد ، ووحدانية العبادة ، ووحدانية الاتجاه ، ووحدانية الفاعلية من مبدأ الخلق إلى منتهاه . ويقوم على هذه الوحدانية مبدأ كامل فى التفكير والشعور والسلوك ، وارتباطات الناس بالكون وبسائر الأحياء وارتباطات الناس بعضهم ببعض على أساس وحدانية الإله . ﴿ **عالم الغيب والشهادة** ﴾ فيستقر فى الضمير الشعور بعلم الله للظاهر والمستور . ومن ثم تستيقظ مراقبة هذا الضمير لله فى السر والعلانية ، ويعمل الإنسان كل ما يعمل بشعور المراقب من الله المراقب لله ، الذى لا يعيش وحده ، ولو كان فى خلوة أو مناجاة ، ويتكيف سلوكه بهذا الشعور الذى لا يغفل بعده قلب ولا ينام .

﴿ **هو الرحمن الرحيم** ﴾ فيستقر فى الضمير شعور الطمأنينة لرحمة الله والاسترواح ويتعادل الخوف والرجاء ، والفزع والطمأنينة ، فالله فى تصور المؤمن لا يطارد عباده ولكن يراقبهم ، ولا يريد الشر بهم بل يحب الهدى ، ولا يتركهم بلا عون ، وهم يصارعون الشرور والأهواء .

﴿ **هو الله الذى لا إله إلا هو** ﴾ يعيدها فى أول التسبيحة التالية لأنها القاعدة التى تقوم عليها سائر الصفات .

﴿ **الملك** ﴾ فيستقر فى الضمير لأن لا ملك إلا الله الذى لا إله إلا هو . وإذا توحدت الملكية ، لم يبق للمملوكين إلا سيد واحد يتوجهون إليه ، ولا يخدمون غيره . فالرجل لا يخدم سيدين فى وقت واحد ﴿ **ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه** ﴾[1] .

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٤

﴿ القدوس ﴾ وهو اسم يشع القداسة المطلقة ، والطهارة المطلقة ، ويلقى فى ضمير المؤمن هذا الإشعاع الطهور ، فينظف قلبه هو ويطهره ، ليصبح صالحاً لتلقى فيوض الملك القدوس والتسبيح له والتقديس .

﴿ السلام ﴾ وهو اسم كذلك يشع السلام ، والأمن ، والطمأنينة ، فى جنبات الوجود ، وفى قلب المؤمن تجاه ربه ، فهو آمن فى جواره ، سالم فى كنفه ، وحيال هذا الوجود وأهله من الأحياء والأشياء . ويؤوب القلب من هذا الإسم بالسلام والراحة والإطمئنان . وقد هدأت شرته وسكن بلباله وجنح إلى الموادعة والسلام .

﴿ المؤمن ﴾ واهب الأمن وواهب الإيمان . ولفظ هذا الاسم يشعر القلب بقيمة الإيمان ، حيث يلتقى فيه بالله ، ويتصف منه بإحدى صفات الله . ويرتفع إذن إلى الملأ الأعلى بصفة الإيمان .

﴿ المهيمن ﴾ وهذا بدء صفحة أخرى فى تصور صفة الله ــ سبحانه ــ إذ كانت الصفات السابقة : ﴿ القدوس السلام المؤمن ﴾ صفات تتعلق مجردة بذات الله . فأما هذا فتتعلق بذات الله فاعلة فى الكون والناس . توحى بالسلطان والرقابة .

وكذلك ﴿ العزيز الجبار المتكبر ﴾ فهى صفات توحى بالقهر والغلبة والجبروت والاستعلاء . فلا عزيز إلا هو ، ولا جبار إلا هو . ولا متكبر إلا هو . وما يشاركه أحد فى صفاته هذه . وما يتصف بها سواه فهو المتفرد بها بلا شريك ومن ثم يجىء ختام الآية : ﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾ .

ثم يبدأ المقطع الأخير فى التسبيحة المديدة .

﴿ هو الله ﴾ فهى الألوهية الواحدة . وليس غيره بإله .

﴿ الخالق ﴾ . ﴿ البارىء ﴾ والخلق : ألتصميم والتقدير ، والبرء : التنفيذ والإخراج ، فهما صفتان متصلتان والفارق بينهما لطيف دقيق .

﴿ المصور ﴾ وهى كذلك صفة مرتبطة بالصفتين قبلها . ومعناها إعطاء الملامح المتميزة والسمات التى تمنح لكل شىء شخصيته الخاصة . وتوالى هذه الصفات المترابطة اللطيفة الفروق ، يستجيش القلب لمتابعة عملية الخلق والإنشاء والإيجاد والإخراج مرحلة مرحلة ــ حسب التصور الإنسانى ــ فأما فى عالم الحقيقة فليست هناك مراحل ولا خطوات . وما نعرفه من مدلول هذه الصفات ليس هو حقيقتها المطلقة ، فهذه لا يعرفها إلا الله إنما نحن ندرك شيئاً من آثارها هو الذى نعرفه بها فى حدود طاقاتنا الصغيرة ﴿ له الأسماء الحسنى ﴾ الحسنى فى ذاتها بلا حاجة إلى استحسان من الخلق ولا توقف على استحسانهم . والحسنى التى توحى بالحسن المقلوب وتفيضه عليها ، وهى الأسماء التى يتدبرها المؤمن ليصوغ نفسه وفق ايحائها واتجاهها دليل أن الله يحب له أن يتصف بها . وأن يتدرج فى مراقبة وهو يتطلع إليها .

وخاتمة هذه التسبيحة المديدة بهذه الأسماء الحسنى ، والسبحة البعيدة مدلولاتها الموحية وفى فيوضها العجيبة ، هى مشهد التسبيح لله يشيع فى جنبات الوجود ، وينبعث من كل موجود .

﴿ يسبح له ما فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ وهو مشهد يتوقعه القلب بعد ذكر تلك الأسماء ، ويشارك فيه مع الأشياء والأحياء ، كما يتلاقى فيه المطلع والختام . فى تناسق والتئام . (للأستاذ سيد قطب) .

الأسماء الحسنى
ألفاظ الحديث النبوى الشريف
والروايات الواردة فى الأسماء الحسنى

جاء فى صحيح الترمذى :

حدثنا يوسف بن حماد البصرى بسنده عن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ — قال : « إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة غير واحد ، من أحصاها دخل الجنة »[1] .

قال يوسف : حدثنا عبد الأعلى ، عن هشام بن حسان عن محمد عن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ — أنه قال : « إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة » .

حدثنا ابراهيم بن يعقوب الجوزجانى ، حدثنى صفوان بن صالح ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا شعيب بن أبى حمزة ، عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة ، قال رسول الله — ﷺ — : « إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة » . وهى :

« الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارىء المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلى الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوى المتين الولى الحميد المحصى المبدىء المعيد المحيى المميت الحى القيوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول والآخر الظاهر الباطن الوالى المتعالى البر التواب المنتقم العفو الرءوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغنى المغنى المانع الضار النافع النور الهادى البديع الباقى الوارث الرشيد الصبور »[2] .

حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، قال : حفظناه من أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رواية قال : « لله تسعة وتسعون إسماً مائة إلا واحداً ، لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر »[3] .

---

(١) انظر سنن الترمذى جـ ٥ ص ٤٩٦ كتاب الدعوات . باب ٨٣ رقم ٣٥٠٦ .

(٢) انظر سنن الترمذى جـ ٥ ص ٤٩٦ — ٤٩٧ كتاب الدعوات باب ٨٣ رقم ٣٥٠٧ .

(٣) انظر صحيح البخارى بحاشيته السندى جـ ٤ ص ١١٥ كتاب الدعوات باب لله مائة اسم غير واحد . ط / الحلبى .

وقد أخرج الطبرانى الحديث المذكور ، عن أبى زرعة الدمشقى ، عن صفوان بن صالح ، مخالف فى عدة أسماء فقال : (القائم الدائم بدل القابض الباسط) (والشديد بدل الرشيد) ، (والأعلى المحيط مالك يوم الدين بدل الودود المجيد الحكيم) .

ووقع عن ابن حيان عن الحسن بن سفيان عن صفوان ، (الرافع بدل المانع) . ووقع فى صحيح ابن خزيمة فى رواية صفوان أيضاً ، مخالفة فى بعض الأسماء قال : (الحاكم بدل الحكيم) ، (المولي بدل الوالى) .

وجاء فى سنن ابن ماجة ، باب أسماء الله عز وجل : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا عبده بن سليمان عن أبى هريرة ، قال رسول الله — ﷺ — : « إن لله تسعة وتسعين إسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة »[١] .

حدثنا هشام بن عمار بسنده عن أبى هريرة أن رسول الله — ﷺ — قال : إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، إنه وتر يحب الوتر ، من حفظها دخل الجنة وهى :

الله الواحد الصمد الأول الآخر الظاهر الباطن الخالق البارىء المصور الملك الحق السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الرحمن الرحيم اللطيف الخبير السميع البصير العليم العظيم البار المتعال الجليل الجميل الحى القيوم القادر القاهر العلى الحكيم القريب المجيب الغنى الوهاب الودود الشكور الماجد الواحد الوالى الراشد العفو الغفور الحليم الكريم التواب الرب المجيد الولى الشهيد المبين البرهان الرءوف (مرة أخرى) الرحيم المبدى المعيد الباعث الوارث القوى الشديد الضار النافع الباقى الواقى الخافض الرافع القابض الباسط المعز المذل المقسط الرزاق ذو القوة المتين القائم الدائم الحافظ الوكيل الناظر السامع المعطى المحيى المميت المانع الجامع الهادى الكافى الأبد العالم الصادق النور المنير التام القديم الوتر .

الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، قال زهير : فبلغنا من غير واحد من أهل العلم أن أولها يفتتح بقول « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، بيده الخير وهو على كل شىء قدير ، لا إله إلا الله له الأسماء الحسنى »[٢] .

وبذلك تكون رواية زهير كما وردت فى سنن ابن ماجة مخالفة **لرواية الوليد** ، كما جاءت فى صحيح الترمذى فى خمسة وعشرين اسماً ، فليس فى بداية زهير ، الأسماء والصفات التالية :

القدوس الغفار القهار الفتاح الحكم العدل الكبير الحفيظ المميت الحسيب الرقيب الواسع الحميد المحصى المقتدر المقدم المؤخر البر المنتقم مالك الملك ذو الجلال والإكرام المغنى البديع الرشيد الصبور .

وذكر بدلها :

---

(١) انظر سنن ابن ماجة جـ ٢ ص ١٢٦٩ كتاب الدعاء باب أسماء الله عز وجل ، رقم ٣٨٦٠ .

(٢) انظر سنن ابن ماجة جـ ٢ ص ١٢٦٩ ، ١٢٧٠ . كتاب باب أسماء الله عز وجل ، رقم ٣٨٦١ .

البار الجميل القاهر القريب الراشد الرب المبين البرهان الشديد الواقى ذو القوة القائم الدائم الحافظ الناظر السامع المعطى الكافى الأبد العالم الصادق المنير التام القديم الوتر .

الأسماء الحسنى
كما جاءت فى الكتاب العربى المبين

نزلت فى القرآن العظيم « الأسماء الحسنى » التالية ، حسب ترتيبها فى المصحف .

(١) الله

(٢) الرحمن

(٣) الرحيم

﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ (١ ــ الفاتحة) .

(٤) الرب . رب العالمين

﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ (٢ ــ الفاتحة)

(٥) الملك

﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ (٤ ــ الفاتحة)

﴿ **فتعالى الله الملك الحق** ﴾ (١١٤ طه) .

(٦) المحيط

﴿ **والله محيط بالكافرين** ﴾ (١٩ البقرة)

﴿ **ألا إنه بكل شىء محيط** ﴾ (٥٤ فصلت)

(٧) القدير

﴿ **إن الله على كل شىء قدير** ﴾ (٢٠ البقرة)

(٨) العليم

﴿ **فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم** ﴾ (٢٩ البقرة)

(٩) الحكيم

﴿ **قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم** ﴾ (٣٢ البقرة) .

(١٠) التواب

﴿ **فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم** ﴾ (٣٧ البقرة) .

(١١) البارىء

﴿ ... فتوبوا إلى بارئكم ﴾ (٥٤ البقرة) .

(١٢) البصير

﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ (٩٦ البقرة)

(١٣) الولى

﴿ وهو الولى الحميد ﴾

(١٤) النصير

﴿ وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾ (١٠٧ البقرة)

(١٥) الواسع

﴿ ان الله واسع عليم ﴾ (١١٥ البقرة)

(١٦) البديع

﴿ بديع السموات والأرض ﴾ (١١٧ البقرة)

(١٧) السميع

﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ (١٢٧ البقرة)

(١٨) العزيز

﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (١٢٩ البقرة) .

(١٩) الإله

(٢٠) الواحد

﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم واسماعيل واسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾ (١٣٣ البقرة)

(٢١) الرءوف

﴿ إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ (١٤٣ البقرة)

(٢٢) الشاكر

﴿ ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم ﴾ (١٥٨ البقرة)

(٢٣) الغفور

﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ (١٧٣ البقرة)

(٢٤) القريب

﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ﴾ (١٨٦ البقرة)

(٢٥) الحليم

﴿ والله غفور حليم ﴾ (٢٢٥ البقرة)

(٢٦) الخبير

﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ (٢٣٤ البقرة)

(٢٧) الحى

(٢٨) القيوم

﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾

(٢٩) العلى

(٣٠) العظيم

﴿ وهو العلى العظيم ﴾ (٢٥٥ البقرة)

(٣١) الغنى

﴿ والله غنى حليم ﴾ (٢٦٣ البقرة)

(٣٢) الحميد

﴿ واعلموا أن الله غنى حميد ﴾ (٢٦٧ البقرة)

(٣٣) الوهاب

﴿ وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾ (٨ آل عمران)

(٣٤) الجامع

﴿ ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ﴾ (٩ آل عمران)

(٣٥) القائم

﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط ﴾ (١٨ آل عمران)

﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ (٣٣ الرعد)

(٣٦) مالك الملك

﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ﴾ (٢٦ آل عمران)

(٣٧) الشهيد

﴿ والله شهيد على ما تعملون ﴾ (٩٨ آل عمران)

(٣٨) الناصر

﴿ بل الله مولاكم وهو خير الناصرين ﴾ (١٥ آل عمران)

(٣٩) الوكيل

﴿ فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ (١٧٣ آل عمران)

(٤٠) الرقيب

﴿ إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ (١ النساء)

(٤١) الحسيب

﴿ وكفى بالله حسيباً ﴾ (٦ النساء)

(٤٢) الكبير

﴿ إن الله كان علياً كبيراً ﴾ (٣٤ النساء)

(٤٣) العفو

﴿ إن الله كان عفواً غفوراً ﴾ (٤٣ النساء)

(٤٤) المقيت

﴿ وكان الله على كل شيء مقيتاً ﴾ (٨٥ النساء)

(٤٥) الرزاق

﴿ وارزقنا وأنت خير الرازقين ﴾ (١١٤ النساء)

(٤٦) الفاطر

﴿ قل أغير الله اتخذ ولياً فاطر السموات والأرض ﴾ (١٤ الانعام)

(٤٧) القاهر

﴿ وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير ﴾ (١٨ الانعام)

(٤٨) القادر

﴿ قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ (٣٧ الانعام)

(٤٩) الحق

﴿ ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ (٦٢ الانعام)

٥٠ عالم الغيب والشهادة

﴿ عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير ﴾ (٧٣ الانعام)

(٥١) الخالق

﴿ ذالكم الله ربكم ، لا إله إلا هو ، خالق كل شى فاعبدوه ﴾ (١٠٢ الانعام)

(٥٢) اللطيف

﴿ لا تدركه الابصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ (١٠٣ الانعام)

(٥٣) الحكم

﴿ أفغير الله أبتغى حكماً وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلاً ﴾ (١١٤ الانعام)

(٥٤) الصادق

﴿ ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ﴾ (١٤٦ الأنعام)

(٥٥) المولى

﴿ فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير ﴾ (٤٠ الأنفال)

(٥٦) القوى

﴿ إن الله قوى شديد العقاب ﴾ (٥٢ الأنفال)

(٥٧) الحفيظ

﴿ إن ربى على كل شيء حفيظ ﴾ (٥٧ هود)

(٥٨) المجيب

﴿ فاستغفروه ثم توبوا إليه ، إن ربى قريب مجيب ﴾ (٦١ هود)

(٥٩) المجيد

﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾ (٧٣ هود)

(٦٠) الودود

﴿ إن ربى رحيم ودود ﴾ (٩٠ هود)

(٦١) المستعان

﴿ فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾ (١٨ يوسف)

(٦٢) الغالب

﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (٢١ يوسف) .

(٦٣) القهار

﴿ أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾ (٣٩ يوسف)

(٦٤) الحافظ

﴿ فالله خير حافظاً ، وهو أرحم الراحمين ﴾ (٦٤ يوسف)

(٦٥) المتعالى

﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾ (٩ الرعد)

(٦٦) الوالى

﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴾ (١١ الرعد)

(٦٧) الشديد

﴿ وهم يجادلون فى الله وهو شديد المِحَالِ ﴾ (١٣ الرعد)

ذكر هذا الاسم الحسن فى رواية زهير ، ومن أسرار القرآن العظيم أن ينزل هذا الاسم « الشديد » هذا الاسم الكريم فى الآية الثالثة عشرة ، من السورة الثالثة عشرة ، من الجزء الثالث عشر من الكتاب العزيز ، ذلك بأن سورة الرعد هى السورة الثالثة عشرة حسب ترتيبها فى المصحف الشريف .

(٦٨) الوارث

﴿ وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون ﴾ (٢٣ الحجر)

(٦٩) الخلاق

﴿ إن ربك هو الخلاق العليم ﴾ (٨٦ الحجر)

(٧٠) الكفيل

﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴾ (٩١ النحل)

(٧١) المقتدر

﴿ وكان الله على كل شيء مقتدرا ﴾ (٤٥ الكهف)

(٧٢) الحفى

﴿ قال سلام عليك ، سأستغفر لك ربى ، إنه كان بى حفيا ﴾ (٤٧ مريم)

(٧٣) الغفار

﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾ (٨٢ طه)

(٧٤) الهادى

﴿ وإن الله لهادِ الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ (٥٤ الحج)

(٧٥) المبين

﴿ ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾ (٢٥ النور)

٧٦ ـــ النور

﴿ الله نور السموات والأرض ﴾[١]

٧٧ ـــ الكريم

﴿ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم ﴾[٢]

٧٨ ـــ المنتقم

﴿ ومن أظلم ممن ذُكِّر بآيات ربه ثم أعرض عنها ، إنا من المجرمين منتقمون ﴾[٣]

٧٩ ـــ الفتاح

﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم ﴾[٤]

٨٠ ـــ الشكور

﴿ ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ، إنه غفور شكور ﴾[٥]

٨١ ـــ الكافى

﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾[٦]

٨٢ ـــ الغافر

﴿ غافر الذنب ﴾[٧]

٨٣ ـــ الرفيع الدرجات

٨٤ ـــ ذو العرش

﴿ رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ﴾[٨] غافر

---

(١) النور آية : ٣٥

(٢) النمل آية : ٤٠

(٣) السجدة آية : ٢٢

(٤) سبأ آية : ٢٦

(٥) فاطر آية : ٣٠

(٦) الزمر آية : ٣٦

(٧) غافر آية : ٣

(٨) غافر آية : ١٥

٨٥ ــ المحيى

﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذى أحياها لمحيى الموتى ، إنه على كل شىء قدير ﴾[١] .

٨٦ ــ الرزاق

٨٧ ــ ذو القوة

٨٨ ــ المتين

﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾[٢] .

٨٩ ــ البر

﴿ إنا كنا من قبل ندعوه ، إنه هو البر الرحيم ﴾[٣] .

٩٠ ــ المليك

﴿ فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾[٤] .

٩١ - ذو الجلال والإكرام

﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾[٥] .

٩٢ ــ الأول

٩٣ ــ الآخر

٩٤ ــ الظاهر

٩٥ ــ الباطن

﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم ﴾[٦] .

٩٦ ــ القدوس

٩٧ ــ السلام

٩٨ ــ المؤمن

٩٩ ــ المهيمن

١٠٠ ــ الجبار

١٠١ ــ المتكبر

﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون ﴾[٧] .

---

(١) فصلت آية : ٣٩

(٢) الذاريات آية : ٥٨

(٣) الطور آية : ٢٨

(٤) القمر آية : ٥٥

(٥) الرحمن آية : ٢٢

(٦) الحديد آية : ٣

(٧) الحشر آية : ٢٣

١٠٢ ــ المصور

﴿ هو الله الخالق البارىء المصور ، له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾(١) .

١٠٣ ــ الأعلى

﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾(٢)

١٠٤ ــ الأكرم

﴿ اقرأ وربك الأكرم ﴾(٣)

١٠٥ ــ الأحد

﴿ قل هو الله أحد ﴾(٤)

١٠٦ ــ الصمد

﴿ الله الصمد ﴾(٥)

الذى ﴿ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾

تلك هى الأسماء الحسنى التى جاءت فى القرآن العظيم ، بصيغة الاسم ، وفى مواضع ظاهرة من آيات الكتاب العزيز ، وقد قرأت مائة وستة اسماء نزلت بلفظ الاسم فى آى الذكر الحكيم . والحكمة فى قوله ﷺ « تسعة وتسعين » :

نلاحظ أن العدد « تسعة وتسعين » ذكر فى كلام الرسول أكثر من مرة كقوله ﷺ :

« إن الله عز وجل خلق مائة رحمة فمنها رحمة يتراحم بها الخلق .. وأخّر تسعة وتسعين إلى يوم **القيامة**(٦)

كما ذكر هذا العدد فى القرآن الكريم مرة ، فى الآية الثالثة والعشرين من سورة « ص » وأغلب الظن أن هذا العدد ذكر فى كتب الله التى نؤمن بها فما الحكمة فى اختيار هذا العدد بالذات ، مع إجماع العلماء أن الاسماء الحسنى أكثر من هذا ؟ بل إن بعض الاسماء الحسنى قد استأثر بها الله سبحانه ، فى علم الغيب عنده . بدليل هذا الدعاء للنبى ــ ﷺ ــ :

---

(١) سورة الحشر آية : ٢٤

(٢) سورة الأعلى آية : ١

(٣) سورة العلق آية : ٣

(٤) سورة الاخلاص آية : ١

(٥) سورة الاخلاص آية : ٢

(٦) أخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير حـ ٦ رقم ٦١٢٦ صـ ٣٠٧ وأخرجه أيضا صحيح مسلم فى كتاب التوبة باب فى سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه حـ ٤ صـ ٢١٠٨ رقم ٢٠ / ٢٧٥٣ وهما ما أسند عن سلمان الفارسى .

« . . . أسألك بكل اسم سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى وغمى »[١] .

ويرى الفخر الرازى ، أن الحكمة فى القصر على هذا العدد المخصوص ، أنه تعبد لا يعقل معناه ، كما قيل فى عدد الصلوات وغيرها .. ، إشارة إلى أن الأسماء لا تؤخذ قياساً ، وربما كان السبب فى اختيار هذا العدد أنه يطلق على الأشياء ، التى يصعب حصرها ، وربما كانت الحكمة أن معانى الأسماء ولو كانت كثيرة جداً ، إلا أنها موجودة — على قدر احتياجنا — فى هذه الأسماء الحسنى التسعة والتسعين ، أو أن الأسماء المذكورة هى أشهر الأسماء وأبينها معانى ، وذلك بقدر حاجتنا إلى الاسماء ، التى ندعو بها الله سبحانه ، وليس بعد أسماء الله الذى لا إله إلا هو . وأخيراً أحب أن أضيف أن كثيراً ممن عنى بكتابة الأسماء الحسنى ، قد ذكر مائة اسم ، كما فعل الإمام أبو بكر البيهقى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ فقد ذكر البيهقى الأسماء كما جاءت برواية الوليد عن شعيب ، ثم أضاف الاسم : « الكافى » فيكون المجموع مائة ، وقد جزم الهيلى فقال : الأسماء الحسنى مائة على عدد درجات الجنة ، والحديث الشريف يقول : « مائة غير واحد فى رواية الوليد عن شعيب » . ويقول الرسول محمد — ﷺ — : « مائة إلا واحداً »[٢] . فى رواية زهير ويكون « الواحد » هو الله الذى لا إله إلا هو الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد والله ورسوله أعلم .

الله

هو الاسم العظيم الدال على الموجود الحق الجامع لجميع صفات الكمال الإلهية ، وهو أكبر الأسماء وأجمعها للمعانى ،

وهو الاسم الذى تفرد به الله سبحانه وتعالى ، واختصه لنفسه ، وقدمه على جميع اسمائه ، وأضاف اسماءه كلها إليه ، وكل ما يأتى بعده من الاسماء نعت له ، وصفة ، ومتعلّقة به ، وتوصف سائر الأسماء بأنها اسماء الله تعالى ، وتعرف فى الأغلب بالإضافة إليه ، أو تجرى له مجرى الصفات ، وقد سبقت الأسماء الحسنى : الرب الرحمن العزيز ، الحميد ، الحكيم ، قليلاً نادراً فى بعض آيات القرآن الكريم :

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده حـ ٢ صـ ٢٦٧ .
(٢) أخرجه أحمد فى مسنده حـ ١ صـ ٣٩١ ، صـ ٤٥٢ .

فقد ذكر اسم الرب مسنداً إليه فى الآية ١٣٣ من سورة الأنعام :

﴿ وربك الغنى ذو الرحمة ﴾

﴿ وربك الغفور ذو الرحمة ﴾ ٥٨ الكهف

كما ذكر اسم « الحكيم » مسنداً إليه فى الآية الأولى من سورة هود :

﴿ آلر ، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾

الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ، يقال : من الأسماء الحسنى من أسماء الله تعالى ، ولا يقال الأسماء الحسنى من أسماء الحليم ، أو من أسماء الغفور ، أو من أسماء الصبور » .

وإذا قلت : « الله » لم ينطلق إلا عليه سبحانه وتعالى ، ولهذا جاز أن ينادى اسم الله وفيه لام التعريف ، ويقطع همزته فيقال : ياالله واللهم أصله ياالله ، حذف حرف النداء ، وعوّض عنه ميم مشددة بالآخر للتعظيم والتفخيم .

والاسلام لا يتم إلا بذكر هذا الاسم الكريم : « الله » ولا يقبل اسم عوض منه ، فلا يقال إلاه .

لا إله إلا الله

قال محمد ـ ﷺ ـ : « أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله »

فتعالوا معى لنرى بعض النور الذى فى هذه الكلمة ، الكلمة الطيبة ، كلمة التقوى : لا إله إلا الله .

« لا » نافية

« إله » كلمة إلاه ، على وزن كتاب ، اسم بمعنى مألوه ، على وزن مفعول ، مثل كتاب هو اسم بمعنى مكتوب ، ومثل إمام وهو مأموم . وخير الطرق لمعرفة مدلول هذا اللفظ ، هو طريق الاشتقاق : يقال : ألَّه ، أى عَبَدَ . ويقال : ألّه إلا الله ، وأله أكوهة ، أى ألّه ألوهية ، أى عبد عبادة ، ويقال يتأله ، يتعبد ، ويقال : هو عابد متأله فيكون الإله هو المعبود .

والعبادة هى الطاعة وتنفيذ الدين ، والمقصود من العبادة هو العمل للوصول إلى غاية ، أى أن العبادة هى الطريق إلى غاية .

فمن عبد الله ليتوصل بعبادته إلى كسب ثواب ، أو دفع عقاب ، كان المعبود فى الحقيقة ، هو ذلك الخير ، قال الله تعالى :

﴿ ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد ﴾[١] « يشرى نفسه : أى يبيع نفسه » .

﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين ﴾[٢] .

فالعبادة يجب أن تكون لغير غاية إلا الله ، وإلا كانت غير ثبات على دين الحق ، وانحراف عن سبيل الله ، وهذا هو الشرك الذى ربما لا يراه بعض الناس ، وأولى بمن يفعل ذلك أن يخلص دينه لله ، قال تعالى :

﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص ﴾[٣]

والإخلاص : هو قصد المؤمن بعمله ونيته مرضاة الله وحده ، والقصد : هو اتجاه الإنسان بنفسه إلى المقصود علناً ، ومثله الاتجاه إلى المقصود سراً ، ولا يجوز أن يكون المقصود سراً أو علناً إلا الله وحده . وفى اللغة : خَلَصَ الشئ ، فهو خالص ، أى سلم ونجا . يقال : خلص الماء من الكدر ، أى صفا ، وهذا ثوب خالص إذا كان صافى البياض ، والدين الخالص أى خلوصه من الشرك ومن الرياء ، والذين هم يراءون لهم من المشركين .

ولما كان الدعاء هو مخ العبادة ، بل إن سؤال الله وحده ، هو العبادة ، ثم ينبغى أن نعلم علم اليقين ، أن ما عند الله هو أقرب إلينا مما فى أيدينا ، من أجل ذلك ، فلا يسأل إلا إياه ، ولا يقصد إلا إياه ، ومَنْ غير الله ، صاحب الأسماء الحسنى ، يقصد فى الرغائب كلها ؛ وهو الذى يحب أن يسأل ، وهو الذى يجيب دعوة الداعى إذا دعاه ، وكل مولود يولد على الفطرة ، والفطرة هى الميل الفطرى من القلب إلى الذى فطره ، وهذه هى فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وهذا هو دين الله ، ولا تبديل لدين الله ، قال الله تعالى :

(١) البقرة آية : ٢٠٧
(٢) الحج آية : ١١
(٣) الزمر الآيتان : ٢ ، ٣

﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾(١) . « وخلق الله هو دين الله » .

وقد أجمع العلماء على أن تفسير : « لا تبديل لخلق الله » ، فى الآية الكريمة المحكمة السابقة ، هو : « لا تبديل لدين الله » . وقد ذكر من قال ذلك فى تفسير الطبرى :

حدثنى محمد بن عمرو بسنده عن مجاهد : « لا تبديل لخلق الله : قال : « لدينه » . أى لدين الله .

وجاء فى صحيح البخارى فى تفسير سورة الروم : **﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ : لدين الله ، خلْق الأولين : دين الأولين ، والفطرة الإسلام ، وهذا هو الدين الحنيف**(٢) .

والدين هو الشريعة ، والدين هو الطاعة والانقياد ، والدين الحنيف هو الحب فى الله ، أى أن عبادة الرحمن ، هى اعتصام بالله بحبل من الحب .

﴿ ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ﴾(٣)

والحب هو ميل القلب إلى من يحب ، يقال : مال إليه — أى أحبَّه . وهذا الحب الحنيف ، هو ميل قلب العابد إلى المعبود ، الذى لا إله إلا هو ، وهو ميل القلب الفطرى إلى فاطر السموات والأرض ، وهو من لدن الله ، وهو من روح الله ، وهو من نور الله ، وهو من آيات الله ، وهو فطرة الله ، وهو ملك للذى فطره ، مقلب القلوب الذى لا إله إلا هو الرحمن ، وهو هدى الله — يهدى به من يشاء من عباده إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، قال تعالى : **﴿ إن ربى على صراط مستقيم ﴾**(٤) .

وهذا الميل من القلب إلى صاحب الفضل ، خلقه وطبيعة فى الإنسان ، فإن المولود يحب ويميل ويطرب إلى أمه ، التى ترضعه وتحنو عليه ، لينام آمناً ويقوم ، والمريض يحب الطبيب ، الذى كان سبباً فى ذهاب الآم مرضه ، والفضل كله لله ، فمن باب أولى- أن يميل القلب الذى هداه الله إلى الحق ، ومن حق هذا القلب ، أن يميل إلى الذى خلقه ، وخلق كل شىء ، قال تعالى على لسان إبراهيم :

---

(١) الروم آية : ٣٠

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب التفسير . تفسير سورة الروم حـ ٦ صـ ١٤٣ ط / الشعب

(٣) آل عمران آية : ١٠١

(٤) هود آية : ٥٦

﴿ الذى خلقنى فهو يهدين ﴾
﴿ والذى هو يطعمنى ويسقين ﴾
﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾
﴿ والذى يميتنى ثم يحيين ﴾[١]

وإن الله تعالى أرحم بنا جميعاً من الأم بابنها ، ومن رحمته أن جعل لنا هذا الميل الفطرى ، الذى يهدى الله به من يشاء إلى سبيله وإلى الصراط المستقيم ، صراط الله ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، وهذا هو دين الحق ، وهو الدين القيم ، وهو الدين الحنيف .

معنى الحنف فى اللغة :

الحاء والنون والفاء ، ح ن ف ، حنف ، أصل مستقيم ، وهو « الميل » يقال : حنف يحنف حنفاً ، أى مال يميل ميلاً بسكون الياء ، ويقال : قد تحنف فلان إلى الشىء إذا مال إليه ، ومنه قيل لمن مال عن كل دين أعوج : هو حنيف ، وله دين حنيف ، وتحنف فلان إذا أسلم ، والحنيف : هو المخلص الذى أسلم لأمر الله ، فلم يلقو فى شىء من دينه ، وجمعه حنفاء ، قال الله تعالى : **﴿ حنفاء لله غير مشركين به ﴾**[٢]

أى مستقيمين لله على إخلاص التوحيد له ، كما جاء فى كتب التفسير ويقال : مال إلىّ ، أى أقبل إلىّ ، أو عدل إلى — والعدل : هو ما قام فى النفوس أنه المستقيم ، وهو ضد الجور — يقال : اعتدل أى استقام ، جاء فى لسان العرب لابن منظور :

وفى أسماء الله سبحانه ، العدل : هو تعالى الذى لا يميل به الهوى ، فيجور فى الحكم والتعديل هو التقويم .

والميل هو الرغبة ، يقال : مال إلىّ : أى رغب إلىّ ، ويقال : رغب يرغب رغبة ، إذا حرص على الشىء وطمع فيه ، ومنها الرغبة إلى الله تعالى ، ويقال رغب فيه رغباً ورغبة ، أى أراده بالحرص

---

(١) الشعراء الآيات : ٧٨ — ٨١
(٢) الحج آية : رقم ٣١

عليه وأحبه ، قال الله تعالى : ﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون ﴾(١) .

﴿ عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون ﴾(٢) .

﴿ وإلى ربك فارغب ﴾ (٣) .

غير أن الرغبة إلى الله الواحد القهار ، امتزج فيها الرهبة مع الرغبة ، والخوف مع الطمع ، قال الله تعالى :

﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين ﴾ .

﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون ﴾(٥) .

وهكذا نرى أن الحنف معناه : « الميل » فإن كان الحنف خلقة فى الشيء ، فهو « قتيل » بفتح الياء ، يقال مال يميل ميلاً ، بفتح الياء ، أى أعوج . يقال : رجل أحنف ، أى به اعوجاج فى الرِّجلين ، ويمشى على ظهر قدميه ، وبه حنف ، وقد حنفت رجله ، وهى حنفاء بفتح الحاء .

والمِّلة هى طريقة للوصول ، وخير الملل هى ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، الذى أخلص دينه لله ، واستعمل ميل قلبه الفطرى للوصول إلى الله الرحمن الرحيم .

﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سَفِه نفسه ﴾(٦) .

ومن يميل عن صراط الله إلا من جهل فطرته .

من أجل ذلك ، اتفق ذكر الحنيفية السمحة فى القرآن الكريم مع تأكيد الإخلاص لله ، وعدم الشرك به سبحانه .

١ ــ ﴿ قل بل ملة إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين ﴾(٧)

---

(١) التوبة آية رقم : ٥٩

(٢) القلم آية رقم : ٣٢

(٣) الشرح آية : ٨

(٤) الأنبياء آية رقم : ٩٠

(٥) السجدة اية رقم : ١٦

(٦) البقرة آية : ١٣٠

(٧) البقرة آية : ١٣٥

٢ ــ ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾ (١) .
٣ ــ ﴿ قل صدق الله ، فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين ﴾ (٢) .
٤ ــ ﴿ إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً ، وما أنا من المشركين ﴾(٣) .
٥ ــ ﴿ قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾(٤) .
٦ ــ ﴿ وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين ﴾(٥) .
٧ - ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ﴾(٦) .
٨ ــ ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ (٧) .
٩ ــ ﴿ حنفاء لله غير مشركين به . . . ﴾(٨) .
﴿ . . . ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾(٩) .

كما اتفق ذكر الحنف ، وهذا الميل من القلب إلى الله الواحد القهار ، مع ذكر « إبراهيم الذى وفى » ــ فى بضع آيات من القرآن العظيم .

ذلك بأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، استعمل ميل قلبه الفطرى ، للوصول إلى الله الحق المتين ، إذ لم ينشرح صدره أن تكون تماثيل أبيه آلهة وكفر بالكوكب ، ولم يشعر بأن يكون القمر أو الشمس رباً له ، ولم يشعر معهما إلا بقلب سقيم ، ورجع وذهب وأناب إلى الله ، وعلم أن لا سبيل له إلا طريق واحد ، يهدى إلى إله واحد ، وجاء ربه بقلب سليم « وسلام على إبراهيم » .

القلب السليم وطرق الوقاية والعلاج

هذا الاتجاه وهذا « الميل » وهذا الهدى إلى الإيمان هو من فضل الله ، يؤتيه من يشاء من عباده ، ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ، ويزدادوا هدى .

﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴾(١٠) .

(١) آل عمران آية : ٦٧
(٢) آل عمران آية : ٩٥
(٣) الأنعام آية : ٧٩
(٤) الأنعام آية : ١٦١
(٥) يونس آية : ١٠٥
(٦) النحل آية رقم : ١٢٠
(٧) النحل آية رقم : ١٢٣
(٨) الحج آية رقم : ٣١
(٩) النساء آية رقم : ٨٢
(١٠) النساء آية رقم : ٦٩

﴿ **ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله** ﴾[١] ذلك بأن اتباع الشهوات ، هو ميل عظيم عن الحق من الذين فى قلوبهم مرض ، ليزدادوا مرضاً على مرضهم ، ورجساً على رجسهم ﴿ **ولكن الله يهدى من يشاء** ﴾[٢] .

وهذا من علم الله ، عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ، وإن مثل علم الله فينا ، كمثل السماء التى **تظلنا والأرض التى تقلنا** .

ولا نستطيع الخروج من علم الله ، وكما لا تحملنا السماء والأرض على الذنوب ، كذلك لا يحملنا علم الله .

أما هذا الإيمان الفطرى ، فينبغى للإنسان المحافظة عليه ومن إغواء شياطين **الإنس والجن** ، كما **نحافظ على الجسد من ضرر الجراثيم والفيروسات** .

درجات القلوب التى فى الصدور :

ويمكن تقسيم سلامة القلب من المرض على قدر استجابة القلب إلى داعي الله ، أو استسلامه إلى كيد الشيطان على النحو التالى : ـــ

أولاً : ـــ القلب السليم :

وهذه هى أعظم درجة من الصحة القلبية ، وهى درجة المتقين ، كما وصفهم الله تعالى بهذه الآية الكريمة :

﴿ **إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون** ﴾[٣] .

ثانياً : ـــ ثم تأتى بعد ذلك درجة الذين استجابوا لله ولرسوله ، إذا دعاهم لما يحييهم من النور والقرآن العظيم ، وهذه هى درجة الذين آمنوا وعملوا الصالحات وعلى ربهم سيتوكلون ، فليس للشيطان عليهم سلطان قال تعالى :

﴿ **إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون** ﴾[٤] .

ثالثاً : ثم تأتى بعد ذلك ، **ومبادىء** المرض عند الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ، قال الله تعالى :

﴿ **إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً** ﴾[٥] .

(١) القصص آية رقم : ٥٠
(٢) القصص آية : ٥٦
(٣) الأعراف آية رقم : ٢٠١
(٤) النحل آية رقم : ٩٩
(٥) النساء آية رقم : ١٧

رابعاً : ــ ثم تأتى بعد ذلك حالة القلب المريض ، الذى لايزال فى حالة صحية ، تسمح له بلاستجابة إلى المؤثرات الخارجية القوية ، فوق العادية ثم تزول هذه الاستجابة بزوال المؤثر .

ويمكن الكشف على مثل هذا القلب ، كما يمكن للطبيب أن يختبر الفعل غير الإرادى المنعكس ، فإن الطبيب إذا مس قرنية العين ــ القرنية ، هى الجزء الشفاف أمام حدقة العين ــ فإنه إذا مس الرمدى قرينة العين بطرف خيط رفيع من القطن مثلاً ، تكون أو الحركة المرتدة المنتظرة أن ترمش وتنقبض جفون العينين معاً ، ويكون هذا دليل على أن جميع الأعصاب الموصلة من قرينة العين إلى الجهاز العصبى المركزى ، ومنه إلى عضلات الجفون لتنقبض ، أى أن الأعصاب والعضلات مازالت سليمة ، وهذه علامة طيبة ، كما أن الرجوع إلى الحق ، والإنابة والتضرع إلى الله تعالى علامة على أن القلب لا يزال يستجيب ، ويذكر الله تضرعة ، وإن كان لم يتضرع إلا فى الشدائد . قال عز وجل :-

﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فاليه تجأرون ﴾[1] .
﴿ ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ﴾ وهكذا نرى أن مس الضر ربما كان علاجاً للفريق الآخر .

خامساً : ــ حالة القلب المريض المزمن فى المرض إلى درجة القسوة ، ومثل هذا القلب القاسى ، لا تنفعه هزات ا لبأساء ، ولا صدمات الضراء ليخشع أو أن يرجع إلى الله ، قال تعالى :

﴿ فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ﴾[1]

الوقاية : ــ

وكما أنه يجب تحصين كل مولود ضد الأمراض المعدية ، حتى يكتسب الطفل المناعة لهذه الأمراض ، لكى لا تفتك ببدنة ويبقى جسمه سليماً ، كذلك يجب أن يلقن الأطفال مبادىء الإسلام ، منذ نعومة أظفارهم ، حتى إذا ما بلغوا أشدهم ، أقاموا الدين الذى اصطفاه لنا الله ، حتى لا يضيعوا الصلاة ، وحتى لا يتبعوا الشهوات ، وحتى لا يكون دينهم لعباً ولهواً ، وحتى لا تكون الشياطين لهم أولياء ، تدخل عليهم فى مجال الدم واللحم ، وتبث فى عروقهم سموم الرجس والفحشاء والمنكر ، كالخمر والميسر ، وهكذا يطغى الدنس على قلوبهم بما اكتسبوا من الإثم ، فيقسو القلب ويدخله المرض ، والقلب المريض

---

(١) النحل آية رقم : ٥٣
(٢) الأنعام آية رقم : ٤٣

لا يعقل ولا يسمع ولا يرى ، إذا يفقد بياضه وشفافيته ، ولا ينفذ إليه نور الهداية ، ويرجع الإنسان إلى طبيعته الطينية السوداء ، قبل أن يفيض الله تعالى عليه من نوره ، وقبل أن ينفخ الله سبحانه فيه من روحه ، ويصبح كالأنعام ، أو أضل سبيلاً ، إذ يرد الإنسان أجوف لا يتمالك ، ويكون مرتعاً للشياطين ، تستعينه وتستهوية ، ولا يصغى مثل هذا القلب المريض إلا إلى هواه ، قال تعالى :

﴿ **أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً** ﴾[1] وهذه هى أقصى درجات المضاعفات من المرض ، وليس بعدها إلا الهلاك .

العلاج : —

ويتلخص العلاج فى الإنابة والرجوع إلى الله تعالى ، حتى لا يُعبد إلا اياه ، والتمسك بكتابه الكريم **حتى لا نضل الطريق** ، قال الله تعالى فى كتابه الحكيم : —

﴿ **قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم** ﴾[2] .

وقال سبحانه : —

﴿ **إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً** ﴾[3] .

وقال جل ثناؤه : —

﴿ **وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى** ﴾[4] .

وقال تعالى :

﴿ **. . . منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين** ﴾[5] .

والتوبة الخالصة براءة وطهور للقلب ، ورجوع إلى الفطرة ، وكأنها ميلاد جديد فينفذ نور الإيمان إلى القلب ، فيخرجه الله من الظلمات إلى النور ، فيمكن للإنسان أن يحارب أولياء الشيطان ، ويمكنه العمل بكتاب الله ، الذى يهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله ، ويكون الميل كله لله ، ويكون الحب كله لله ، وتكون العبادة كلها لله ، وتكون الألوهية كلها لله ، ويكون لا إله إلا الله .

(١) الفرقان آية رقم : ٤٣

(٢) الزمر آية رقم : ٥٣

(٣) مريم آية رقم : ٦٠

(٤) طه آية رقم : ٨٢

(٥) الروم آية رقم : ٣١

٢ ــ والتفسير الثانى لكلمة « إله » يأتى من قولنا : أله الرجل إذا فزع من أمر نزل به : فيقال : ألهه بمعنى أجاره يجيره فألهه : أى أجاره وأغاثه وأمنه ، قال الله تعالى :

﴿ قل من بيده ملكوت كل شيء . . ؟ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ﴾[١]

والله وحده هو الذى يغيث من يستجير به ، ولا يجرؤ مخلوق أن يحمى مخلوقاً من الخالق ، وما من خالق غير الله .

٣ ــ والتفسير الثالث لكلمة « إله » يعرف من قولنا : أله بمعنى تحير ، يقال أَلِهَ ــ يأله ، إذا تحير . والآلِهُ : هو المتحير .

ومن المجاز : حار الماء فى المكان وتحير ، واستحار إذا اجتمع ووقف . والألهانية ، فعلانية من أله : إذا تحير ، وفى قول وهب بن الورد : « إذا وقع العبد فى ألهانية الرب ومهيمنية الصديقين ورهبانية الأبرار ، لم يجير أحداً يعجبه ولم يحب إلا الله سبحانه » .

أى : إذا وقع العبد فى عظمة الله وجلاله ، وغير ذلك من صفات الربوبية ، وحرف همه الها ، أبغض كل شيء حتى ما « يميل » قلبه إلا إلى الله ، ذلك بأن الله هو الأول والآخر ، وهو الظاهر والباطن ، وهو الكبير المتعال الذى تأله العقول فى عظمته .

قال الفخر الرازى فى مفاتيح الغيب ، الجزء الأول ، صفحة : ٨٥ : (فالعبد إذا تفكر فيه تحير ، لأن كل ما يتخيله الإنسان ويتصوره ، فهو بخلافه ، مع الاعتراف بالعجز عن الإدراك ، فههنا العجز عن درك الإدراك إدراك ، ولا شك أن هذا موقف عجيب ، تتحير العقول فيه) وأى شيء أكثر حيرة أن يكون سبحانه : ــ

﴿ . . . ليس كمثله شيء ﴾[٢]

٤ ـ **ويجوز أن تشتق كلمة** ولاه من كلمة إله . وذلك لأن الألف من الحروف المتحركة ، ويمكن أن تكون قد أبدلت الواو همزة ، فيكون أصله : ولاة ، فأبدلت الواو فقيل إله ، كما قالوا : أشاح فى وشاح ، واشتق من ألوله وهو شدة الطرب والسرور أو شدة الحزن والخوف ، يقال : وله ، يله ويوله ولهاً إلى أمه وغيرها ، أى حسن واشتد وحيره ، كما يقال أله **الفصيل** إذا وله بأمه ، ويكون التفسير

١ ــ المؤمنون آية رقم : ٨٨
٢ ــ الشورى آية رقم : ١١

الرابع لكلمة أله ، أو ولاه أن الخلق يولهون إلى الله تعالى فى حوائجهم ، ويضرعون إليه فيما ينوبهم من الأهوال والشدائد ، قال الله تعالى : ـــ

﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون ﴾[١]

قال الراغب الأصفهانى : وكل مخلوق ، واله نحو الله تعالى ، إما بالتسخير فقط ، كالجمادات والحيوانات وإما بالتسخير والإرادة معاً ، كبعض الناس ، ومن هذا الوجه قال بعض الحكماء : الله محبوب الأشياء كلها ، وعليه دل قول الله تعالى :

﴿ . . . وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾[٢] وجاء فى معجم ألفاظ القرآن الكريم ، الذى وضعه مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، تحت كلمة سبح : سبح يسبح سبحاً وسباحة : عام ومَرّ فى الماء . وسبح سبحاً : جرى :

﴿ وكل فى فلك يسبحون ﴾[٣]

ويقال : حف أى طف ، وسبحان الله الذى لا إله إلا هو ، مالك يوم الدين ، **الذى** قال فى كتابه المبين : ـــ

﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ، وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾[٤] ولما كان الاشتقاق ، هو أخذ كلمة من كلمة ، مع تناسب بينهما فى اللفظ والمعنى ، ولما كان من الممكن إشتقاق كلمات من كلمة « إله » وهى المركبة من ثلاث حروف ، لأنه يمكن جعل كل واحد من تلك الحروف الثلاثة إبتداء ، وبذلك يمكن أن نشتق منها الكلمات والأصول التالية : ـــ أولاً : ل أ هـ ، لا ه

١ ـــ يقال : لاه يليه ليها ، بمعنى علا وارتفع ، يقال : لاهت الشمس ، إذا علت وتوسطت كبد السماء ، وسميت الشمس ألاهة ، لارتفاعها فى السماء .

وقال الجوهرى : (كأنهم سموها ألاهة ، لتعظيمهم لها فى عبادتهم إياها) . هذا وقد سمى القمر مثل ذلك ، ويوجد من يعظم النار ، لأنها جوهر علوى كما يقولون ، ولكن :

---

١ ـــ الأنعام آية رقم : ٦٤
٢ ـــ الاسراء الآية رقم : ٤٤
٣ ـــ يس آية رقم : ٤٠
٤ ـــ الزمر آية رقم ٧٥

﴿. . . أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ﴾(١) .

وهو الذى سخر الشمس والقمر وهو :

﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾(٢) .

والله سبحانه وتعالى هو المتعال على خلقه بالقهر وهو ﴿ القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴾(٣) .

﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير ﴾(٤) .

ذلك بأنه سبحانه ، العلى فوق كل شيء لقدرته وهو :

﴿ رفيع الدرجات ذو العرش ﴾(٥) .

وسبحان الله عظيم الصفات وسبحان ربى الأعلى .

ثانياً : ـــ لاه بمعنى تستر . يقال لاه يليه ليها . أى احتجب وسبحان من احتجب عن الخلق ، فلا عين تراه ، وهو الذى تخشع القلوب من كلمات كتابه .

﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾(٦) .

﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴾(٧) .

وكيف تراه العيون وهو الذى :

﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾(٨) .

ومع ذلك ، فإننا نرى آيات الله فى كل شيء قال تعالى :

﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾(٩) .

ثالثا : أ هـ ل ، أهل ، يقال : هو أهل لكذا ، أى مستوجب ، ويقال : قد استأهل وهو مستاهل له . . . ومن غير الله أهل للألوهية . كلها ؟

﴿ . . . هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾(١٠) .

---

(١) يوسف آية : ٣٩
(٢) الرعد آية : ٩
(٣) الأنعام آية : ١٨
(٤) لقمان آية : ٣٠
(٥) غافر آية : ١٥
(٦) الحشر آية : ٢١
(٧) الأعراف آية : ١٢٣
(٨) الأنعام آية : ١٠٣
(٩) فصلت آية : ٥٣
(١٠) المدثر آية : ٥٦

رابعاً : هـ أ ل ، هاك ، والهول : هو المخافة من الأمر والله وحده ، هو الذى نرجو رحمته ونخاف عذابه .
قال تعالى : ﴿ **أليس الله بكاف عبده ؛ ويخوفونك بالذين من دونه** ﴾(١)

﴿ **بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾(٢)

خامساً : هـ ل ل ، هلل ، الهاء واللام أصل يدل على رفع الصوت (كما جاء فى كتاب مقاييس اللغة لابن فارس ، المتوفى سنة ٣٩٥ هـ) واستهلال المولود ، هو صياحه ساعة ولادته ، واستهلال المطر ، هو صوت وقوعه على الأرض ، والله وحده هو الذى مستغيثاً به تعالى :

﴿ **وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون** ﴾(٣)

(جأر ــ صاح)

ويفسر العلماء ﴿ **وما أهل به لغير الله** ﴾(٤) أى ما ذكر عليه اسم غير اسم الله وهو ما كان يذبح للأصنام ، لذلك حرم الله لحومها على المؤمنين كما حرم عليهم الميتة والدم المسفوح ، قال تعالى :

﴿ **إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله** ﴾(٤) .

وقيل أيضاً للملبى فى حجة أو عمرة : مهل ، ويقال : أهل بالحج أى رفع صوته بالتلبية ، وقيل : الإهلال والتهلل ، أن يقال : لا إله إلا الله ، قال الراغب الأصفهانى ، المتوفى سنة ٥٠٢ هجرية : ومن هذه الجملة : « لا إله إلا الله » ركبت هذه اللفظة . التهلل وسبحان الله :

﴿ . . . **عالم الغيب ، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض** ﴾(٥)

وهو الله الذى لا إله إلا هو ، وهو الذى قال فى كتابه الكريم :

﴿ **وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا اياه** . . ﴾(٦)

الله ٢٦٩٩

ذكر الاسم « الله » سبحانه وتعالى ألفين وستمائة وتسع وتسعين مرة فى القرآن الكريم ، كما ورد فى المعجم الفهرسى ، وزيادة ذكر « الله » مرة فى بسم الله الرحمن الرحيم ، باعتبار البسمله آية فى فاتحة الكتاب وفى الكتاب الحكيم آيات بينات محكمات ، ذكر فى أول كل منها الاسم الأعظم الله ومنها :

---

(١) الزمر آية : ٣٦
(٢) البقرة آية : ١١٢
(٣) النحل آية : ٥٣
(٤) البقرة آية : ١٧٣
(٥) سبأ آية : ٣
(٦) سورة الاسراء آية : ٦٧

١ ـ ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم ﴾(١) .

٢ ـ ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾(٢) .

٣ ـ ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾(٣) .

٤ ـ ﴿ الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثا ﴾(٤)

٥ - ﴿ الله الذى رفع السموات بغير عمدٍ ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنونَ ﴾(٥) .

٦ ـ ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار ﴾(٦) .

٧ - ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع ﴾(٧) .

٨ ـ ﴿ الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد ﴾(٨)

٩ ـ ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ﴾(٩) .

---

(١) البقرة آية : ٢٥٥
(٢) البقرة آية : ٢٥٧
(٣) آل عمران آية : ٢
(٤) النساء آية : ٨٧
(٥) الرعد آية : ٢
(٦) الرعد آية : ٨
(٧) الرعد آية : ٢٦
(٨) ابراهيم آية : ٢
(٩) ابراهيم آية : ٣٢

١٠ ـ ﴿ الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾[١] .

١١ - ﴿ الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون ﴾[٢] .

١٢ - ﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلًا ومن الناس إن الله سميع بصير ﴾[٣] .

١٣ ـ ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم ﴾[٤] .

١٤ - ﴿ الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾[٥] .

١٥ - ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شىء عليم ﴾[٦] .

١٦ ـ ﴿ الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون ﴾[٧] .

١٧ - ﴿ الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾[٨] .

١٨ ـ ﴿ الله الذى يُرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى ﴾ الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴾[٩]

١٩ ـ ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾[١٠] .

---

١ ـ طه آية : ٨
٢ ـ الحج آية : ٦٩
٣ ـ الحج آية : ٧٥
٤ ـ النور آية : ٣٥
٥ ـ النمل آية : ٢٦
٦ ـ العنكبوت آية : ٦٢
٧ ـ الروم آية : ١١
٨ ـ الروم آية : ٤٠
٩ ـ الروم آية : ٤٨
١٠ ـ الروم آية : ٥٤

٢٠ ـ ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾[١] .

٢١ - ﴿ الله ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾[٢] .

٢٢ ـ ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾[٣] .

٢٣ ـ ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[٤] .

٢٤ - ﴿ الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل ﴾[٥] .

٢٥ ـ ﴿ الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً ، إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾[٦] .

٢٦ ـ ﴿ الله الذى جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ﴾[٧] .

٢٧ ـ ﴿ الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ﴾[٨] .

٢٨ ـ ﴿ الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب ﴾[٩] .

٢٩ ـ ﴿ الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز ﴾[١٠] .

٣٠ ـ ﴿ الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾[١١] .

---

(١) السجده آية : ٤
(٢) الصافات آية : ١٢٦
(٣) الزمر آية : ٢٣
(٤) الزمر آية : ٤٢
(٥) سورة الزمر آية : ٦٢
(٦) غافر آية : ٦١
(٧) غافر آية : ٦١
(٨) غافر آية : ٦٤
(٩) الشورى آية : ١٧
(١٠) الشورى آية : ١٩
(١١) الجاثيه آية : ١٢

٣١ ــ ﴿ الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾[١] .

٣٢ ــ ﴿ الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علماً ﴾[٢] .

٣٣ - ﴿ الله الصمد ﴾[٣] .

الذى

﴿ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾[٤] .

ومن أسرار القرآن العظيم أن نزلت فيه تسع وعشرون سورة لم يذكر فيها لفظ الجلالة (الله) وهى سور : القمر ــ الرحمن ــ الواقعة ــ القلم ــ القيامة ــ المرسلات ــ النبأ ــ عبس ــ **المطففين ـ الطارق ـ الفجر ـ البلد ـ الليل ـ الشرح ـ القدر ـ الزلزلة ـ القارعة ـ التكاثر ـ العصر ـ الفيل ـ قريش ـ الماعون ـ الكوثر ـ الكافرون ـ المسد ـ الفلق ـ الناس .**

وإذا تدبرنا القرآن وجدنا أن السور التى ذكر فيها اسم (الله) كثيراً وبعدد أكثر من عدد آيات هذه السور ، هى سور آل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة . كما نلاحظ أن لفظ الجلالة (الله) ذكر مرة واحدة فى أول الآية الرابعة من الثلاثين آية فى سورة السجدة ، وذكرت كلمة (الله) ثلاث مرات فى سورة يس مرتين فى الآية السابعة والأربعين .

﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا فى ضلال مبين ﴾[٥] .

والثالثة فى الآية الرابعة والسبعين .

﴿ واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون ﴾[٦] .

وذكر اسم الجلالة (الله) مرة واحدة فى سورة (ق) فى الآية السادسة والعشرين :

﴿ الذى جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه فى العذاب الشديد ﴾[٧] .

---

١ ــ التغابن آية : ١٣
٢ ــ الطلاق آية : ١٢
٣ ــ الإخلاص آية : ٢
(٤) سورة الاخلاص آية : ٣ ، ٤
(٥) سورة يس آية : ٤٧
(٦) سورة يس آية : ٧٤
(٧) سورة ق آية : ٢٦

وذكر الاسم الله مرة واحدة فى كل من سور الحاقة والمعارج والنازعات والتكوير والانفطار والانشقاق والأعلى والغاشية والشمس والتين والعلق والهمزة .

وذكر لفظ (الله) مرتين فى كل من سور :

الحجر ــ والنصر ــ الاخلاص ــ وفاتحة الكتاب .

وقد ذكر « الله الله » أى مرتين متتابعتين فى آية واحدة فى سورة الأنعام : فى قوله تعالى :

﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾[1] .

٢ ـ الرحمــــن

﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾[2] .

﴿ الرحمن ﴾ من الأسماء الحسنى مختص بالله سبحانه لا يجوز أن يسمى به غيره ، **وهو يجرى غالباً** مجرى الصفة له تعالى ، نحو « بسم الله الرحمن الرحيم »

وقد يذكر موصوفاً ، كما قال الله : **﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾** .

والرحمن هو الاسم الدال على أن الرحمة قائمة به سبحانه وتعالى ، ومعناه عند أهل اللغة ذو الرحمة التى لا غاية بعدها فى الرحمة ، والتى لا نظير له فيها ، ولذلك لا يثنى ولا يجمع .

والرحمن صيغة تعظيم من الرحمة كالرحيم ، لكن الرحمن من زيادة المعنى وأكبر تعظيماً ، لأن صيغة الرحمن تتناول جلائل النعم وعامها وأصولها .

واسم الرحمن قريب من اسم الله الجارى مجرى العلم ــ وإن كان اسم الرحمن مشتقاً من الرحمة أى أن « الرحمن » اسم وصفه لا ينافى أحدهما الآخر ، وجاء استعمال القرآن بالأمرين جميعاً .

ولم أر اسما من أسماء الله الحسنى حل محل اسم الجلالة فى القرآن الكريم ، أكثر من هذا الاسم .

٤ ــ الأنعام آية : ١٢٤

٥ ــ الاسراء آية : ١١٠

قال الله تعالى : ـ

١ ـ ﴿ كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن كل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ﴾[١] .

٢ ـ ﴿ قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴾[٢] .

٣ ـ ﴿ فكلى واشربى وقرى عيناً فإما ترين من البشر أحداً فقولى إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً ﴾[٣] .

٤ ـ ﴿ يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً ﴾[٤] .

٥ ـ ﴿ يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً ﴾[٥] .

٦ ـ ﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً ﴾[٦] .

٧ ـ ﴿ جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتيا ﴾[٧] .

٨ ـ ﴿ ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً ﴾[٨] .

٩ ـ ﴿ قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مداً ﴾[٩] .

١٠ ـ ﴿ أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾[١٠] .

١١ ـ ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ﴾[١١] .

١٢ ـ ﴿ لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾[١٢] .

١٣ ـ ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ﴾[١٣] .

١٤ ـ ﴿ . . . وتخر الجبال هدّا أن دعوا للرحمن ولداً ﴾[١٤] .

١٥ ـ ﴿ وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً ﴾[١٥] .

١٦ ـ ﴿ إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ﴾[١٦] .

١٧ ـ ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾[١٧] .

---

(١) الرعد آية : ٣٠
(٢) مريم آية : ١٨
(٣) مريم آية : ٢٦
(٤) مريم آية : ٤٤
(٥) مريم آية : ٤٥
(٦) مريم آية : ٥٨
(٧) مريم آية : ٦١
(٨) مريم آية : ٦٩
(٩) مريم آية : ٧٥
(١٠) مريم آية : ٧٨
(١١) مريم آية : ٨٥
(١٢) مريم آية : ٨٧
(١٣) مريم آية : ٨٨
(١٤) مريم الآيتان : ٩٠ ـ ٩١
(١٥) مريم آية : ٩٢
(١٦) مريم آية : ٩٣
(١٧) مريم آية : ٩٦

١٨ ـــ ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾[١] .
١٩ ـــ ﴿ . . . وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ﴾[٢] .
٢٠ ـــ ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولاً ﴾[٣] .
٢١ ـــ ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ، سبحانه بل عباد مكرمون ﴾[٤] .
٢٢ ـــ ﴿ وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون ﴾[٥] .
٢٣ ـــ ﴿ قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون ﴾[٦] .
٢٤ ـــ ﴿ الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً ﴾[٧] .
٢٥ ـــ ﴿ الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، الرحمن فاسأل به خبيرا ﴾[٨] .
٢٦ ـــ ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما
٢٧ ـــ الرحمن . أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً ﴾[٩] .
٢٨ ـــ ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾[١٠] .
٢٩ ـــ ﴿ وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين ﴾[١١] .
٣٠ ـــ ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم ﴾[١٢] .
٣١ ـــ ﴿ قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون ﴾[١٣] .
٣٢ ـــ ﴿ أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ﴾[١٤] .
٣٣ ـــ ﴿ قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾[١٥] .
٣٤ ـــ ﴿ تنزيل من الرحمن الرحيم ﴾[١٦] .
٣٥ ـــ ﴿ وإذا بُشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ﴾[١٧] .
٣٦ ـــ ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، أشهدوا خلقهم ؛ ستكتب شهادتهم ويسألون ﴾[١٨] .

---

(١) طه آية : ٥
(٢) طه آية : ١٠٨
(٣) طه آية : ١٠٩
(٤) الأنبياء آية : ٢٦
(٥) الأنبياء آية : ٣٦
(٦) الأنبياء آية : ٤٢
(٧) الفرقان آية : ٢٦
(٨) الفرقان آية : ٥٩
(٩) الفرقان آية : ٦٠
(١٠) الفرقان آية : ٦٣
(١١) الشعراء آية : ٥
(١٢) يس آية : ١١
(١٣) يس آية : ١٥
(١٤) يس آية : ٢٣
(١٥) يس آية : ٥٢
(١٦) فصلت آية : ٢
(١٧) الزخرف آية : ١٧
(١٨) الزخرف آية : ١٩

٣٧ ــ ﴿ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم ان هم إلا يخرصون ﴾[١] .
٣٨ ــ ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ﴾[٢] .
٣٩ ــ ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾[٣] .
٤٠ ــ ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ، أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾[٤] .
٤١ ــ ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾[٥] .
٤٢ ــ ﴿ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ﴾[٦] .

٤٣ ــ ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾[٧] .

٤٤ ــ ﴿ الذى خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور ﴾[٨] .

٤٥ - ﴿ أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شىء بصير ﴾[٩] .

٤٦ ــ ﴿ أمن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا فى غرور ﴾[١٠] .

٤٧ - ﴿ قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو فى ضلال مبين ﴾[١١] .

٤٨ ــ ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً ، لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾[١٢] .

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ذكرت فى فواتح السور غير التوبة و لم تكتب ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فى أول سورة التوبة ، لأن النبى - ﷺ - لم يؤمر بذلك كما يؤخذ من حديث رواه الحاكم ، وأخرج فى معناه أن البسملة أمان ـ والسورة نزلت لرفع الأمن بالسيف والقتال ، كما ذكرت البسملة فى الآية الثلاثين . من سورة النمل :

(١) الزخرف آية : ٢٠
(٢) الزخرف آية : ٣٣
(٣) الزخرف آية : ٣٦
(٤) الزخرف آية : ٤٥
(٥) الزخرف آية : ٨١
(٦) ق آية : ٣٣
(٧) الرحمن الآيتان : ١ ــ ٢
(٨) الملك آية : ٣
(٩) الملك آية : ١٩
(١٠) الملك آية : ٢١
(١١) الملك آية : ٢٩
(١٢) النبأ آية : ٣٨

وذكر اسم الرحمن سبعاً وخمسين مرة فى كتاب الله الكريم على النحو التالى : ذكر ﴿ **الرحمن** ﴾ ذكر مرتين فى فاتحة الكتاب وذلك باعتبار ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ الآية الأولى من سورة الفاتحة ، وفى الآية الثالثة من فاتحة الكتاب وهى :

﴿ **الرحمن الرحيم** ﴾ .

وذكر الرحمن مرة واحدة فى سورة البقرة :

﴿ **وإلهكم إله واحد ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم** ﴾ .

٤ — وذكر الرحمن مرة واحدة فى سورة الرعد فى الآية الثلاثين . وذكر الرحمن مرة واحدة فى سورة الإسراء .

﴿ **قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ماً تدعوا فله الأسماء الحسنى** ﴾ .

وأكثر سورة ذكر فيها الرحمن سورة مريم ، ذكر الرحمن ستة عشرة مرة فى الآيات ١٨ ، ٢٦ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٩ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٦ .

وذكر الرحمن أربع مرات ، فى سورة طه فى الآيات ٥ ، ٩٠ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، وذكر الرحمن أربع مرات ، فى سورة الأنبياء فى الآيات ٢٦ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ١١٢ ، وذكر الرحمن خمس مرات فى سورة الفرقان فى الآيات ٢٦ ؛ ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ذلك بأن الرحمن ، سبحانه ذكر مرتين فى الآية الستين من سورة الفرقان .

وذكر الرحمن مرة واحدة ، فى سورة الشعراء فى الآية الخامسة . وذكر الرحمن مرة واحدة ، فى الآية الثلاثين من سورة النمل .

وذكر الرحمن أربع مرات ، فى سورة يس فى الآيات ١١ ، ١٥ ، ٣٣ ، ٥٢ ، وذكر الرحمن سبع مرات ، فى سورة الزخرف فى الآيات ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٤٥ ، ٨١ . وذكر الرحمن مرة واحدة ، فى أول سورة الرحمن . وذكر الرحمن مرة واحدة فى سورة الحشر وذلك فى الآية الكريمة الثانية والعشرين .

وذكر الرحمن أربع مرات ، فى سورة الملك فى الآيات ٣ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٩ وذكر الله باسمه الرحمن مرتين ، فى سورة النبأ فى الآيتين ٥٦ ، ٥٧ وجاء فى كتاب « الأسماء والصفات » للامام أبى بكر بن على البيهقى المتوفى سنة ٤٥٨ ، طبعة الهند ، صفحة ٣٦ ما يلى : —

قال الحليمى رحمة الله فى معنى الرحمن ، أنه المزيح للعلل — وذلك أنه لما أراد من الجن والإنس أن يعبدوه ، يعنى لما أراد أن يأمر من شاء منهم بعبادته ، عرفهم وجوه العبادات — وبين لهم حدودها وشروطها ، وخلق لهم مدارك ومشاعر وقوى وجوارح ، فخاطبهم وكلفهم وبشرهم وأنذرهم وأمهلهم ، فصارت العلل مزاحه ، وحجج العصاة والمقصرين منقطعة . وقال أبو سليمان الخطابى رحمه الله « اختلف الناس فى تفسير الرحمن . ومعناه ، وهل هو مشتق من الرحمة ! فذهب بعضهم إلى أنه غير مشتق ، لأنه غير مشتق ، لأنه لو كان مشتقاً من الرحمة لا تصل بذكر المرحوم ، فجاز أن يقال الله رحمن بعباده ، كما يقال رحيم بعباده ، ولأنه لو كان مشتق من الرحمة ، لا تنكره العرب حين سمعوه ، إذا كانوا لا ينكرون رحمة ربهم . . وقد قال الله عز وجل :

﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً ﴾(١) .

وذهب الجمهور من الناس ، إلى أنه مشتق من الرحمة ، مبنى على المبالغة ، ومعناه ذو الرحمة لا نظير له فيها .

وكتب أبو بكر البيهقى ، قال أخبرنا أبومحمد عبدالله بن يوسف الأصبهانى ، قال أخبرنا أبوبكر محمد بن الحسين القطان ، قال : أخبرنا أحمد بن يوسف السلمى ، قال : حدثنا عبدالرزاق قال : حدثنا معمر عن عبدالرحمن بن عوف رضى الله عنه أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول : قال الله عز وجل : ﴿ أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته ﴾(٢) .

قال الخطابى رحمه الله : فالرحمن ذو الرحمة الشاملة ، التى وسعت الخلق فى آرزاقهم ، وأسباب معايشهم ومصالحهم ، وعمت المؤمن والكافر ، والصالح والطالح .

---

١ — الفرقان آية : ٦٠

٢ — انظر فتح البارى بشرح صحيح البخارى حـ ١٠ صـ ٤١٨ . كتاب الأدب باب من وصل وصله الله .
انظر صحيح البخارى . كتاب الأدب . باب من وصل وصله الله . حـ ٨ صـ ٧٥٦

وقد ذهب الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالى الطوسى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ ، إلى أن اسم « الرحمن » قريب من اسم الله الجارى مجرى العلم ، وإن كان مشتقاً من الرحمة قطعاً . فبالأحرى أن يكون المفهوم من الرحمن نوعاً من الرحمة ، أبعد من مقدور العباد ، فالرحمن هو العطوف على العباد .

أولاً : بالايجاد .
ثانياً : بالهداية إلى الايمان وأسباب السعادة .
ثالثاً : بالإسعاد فى الآخرة .
رابعاً : الإنعام بالنظر إلى وجهه الكريم .

والرحمن هو الخالق الذى يريد الخير لعباده ، فأنعم علينا بكتابه المبين .

والحمد لله الذى لا إله إلا هو الرحمن ، الذى علم القرآن ، وهو الذى خلق الإنسان ، وعلمه البيان .

٣ - الرحيـــــم

« اللهم إنى أسألك باسمك الطاهر الطيب المبارك الذى إذا استُرحِمت به رحِمت » . الحمد لله الذى أرسل رسوله رحمة للعالمين ، ونزّل القرآن رحمة للمؤمنين ، الرحيم من أسماء الله تعالى ، وهو اسم مشتق من الرحمة ، ومعنى الرحمة هو تخليص من رحمهم الله من الضر والضلال ، والإنعام عليهم بالهدى والمغفرة والإيمان ، والرّحيم وزنه فعيل بمعنى فاعل أى راحم ، وبناء فعيل للمبالغة كعالم وعليم ، وقادر وقدير ، أى أن الرحيم صيغة تعظيم من الرحمة .

والرحمة تقتضى الإحسان إلى المرحوم ، قال الله تعالى :
﴿ **هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً** ﴾[1] . والله يقسم رحمته كيف يشاء ، ويدخل رحمته من يشاء ، والرحمة من الله إنعام وإفضال ، ونحن لا نكاد نرى آثار رحمة الله لكثرتها ، ذلك بأن نعم الله لا تحصى ، ولكننا نحس إن أمسك الله بعض رحمته ، ونشعر وكأنها تنزع نزعاً .

---

١ ــ الأحزاب آية : ٤٣

قال الله تعالى :

﴿ **ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور** ﴾[١] ولا يوجد شيء فى الوجود يعادل رحمة الله غير علمه عز وجل .

﴿ **ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً** ﴾[٢] .

وأن الله يرحمنا فى هذه الحياة الدنيا التى لا نلبث فيها إلا قليلا ، وينعم الله علينا بشتى صنوف الإحسان ، ويفضل بعضنا على بعض ، فكيف تكون رحمة ربى فى الدار الآخرة ، التى هى خير للذين يتقون ، والتى هى دار القرار ؟

١ ــ ﴿ ولأجر الآخرة خير للذين آمنو وكانوا يتقون ﴾[٣] .

٢ ــ ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾[٤] .

٣ ــ ﴿ أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾[٥] .

من أجل ذلك كتب الله على نفسه الرحمة ، وأرسل نبى الرحمة ، محمداً بن عبد الله ، شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وجعل طاعة خاتم النبيين والصلاة والسلام عليه سبباً فى تحصيل الرحمة ، التى هى سعادة الآخرة ، وجعل سبحانه ، نصيب الأتقى منها أكبر ، قال تعالى :

﴿ **ورحمتى وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون** ﴾ فجعلها بشرى التقوى والإحسان ، قال تعالى :

﴿ **إن رحمة الله قريب من المحسنين** ﴾[٧]

وهو الذى لا يرد عذابه عن القاسية قلوبهم ، قال رسول الله ﷺ : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء »[٨] وقال الله تعالى : ﴿ **فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين** ﴾[٩]

والرحيم من صفات الرحمن ، ويجوز أن يفيض الله على عباده بنصيب من الرحمة ، فيكون رحيماً بإذن الله ، وأكثر عباد الله نصيبا من هذه الرحمة ، هو سيدنا محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، قال الله تعالى فى كتابه الكريم :

---

١ ــ هود آية : ٩

٢ ــ غافر آية : ٧

٣ــ يوسف آية : ٥٧

٤ ــ النحل آية : ٤١

٥ ــ الاسراء آية : ٢١

٦ ــ الأعراف آية : ١٥٦

٧ ــ الأعراف آية : ٥٦

٨ ــ أخرجه البخارى فى صحيحه ج ٢ ص ١٠٠ كتاب الجائز باب قول النبى يعذب الميت ببعض بكاء أهله .

٩ ــ الأنعام آية : ١٤٧ .

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾(١) .

قال رسول الله ﷺ : « **إن الله عز وجل خلق مائة رحمة ، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق ، فبها تعطف الوحوش على أولادها ، وأخر تسعا وتسعين إلى يوم القيامة** » .

ورد هذا الحديث بهذا النص فى مسند ابن حنبل الجزء الخامس . كما ورد مع إختلاف فى النص لصحيح مسلم وفى سنن ابن ماجه . وورد اللفظ مطولاً فى تفسير الطبرى الجزء السابع ، حدثنا محمد بن المثنى ــ قال : حدثنا عبد الوهاب قال : حدثنا داود عن أبى عثمان ، عن سليمان قال : « **إن الله تعالى ذكره ، لما خلق السموات والأرض . خلق مائة رحمة ، كل رحمة ملء ما بين السماء والأرض فعنده تسع وتسعون رحمة ، وقسم رحمة بين الخلائق . فبها يتعاطفون ، وبها تشرب الوحوش والطير الماء ، فإذا كان يوم القيامة ، قصرها الله على المتقين وزادهم تسعاً وتسعين** »(٢) .

أما رحمة الله فهى رحمة واسعة ، ولا يمكن لمخلوق أن يحسبها ، أو أن يعقلها ، لكن بفضل الله وواسع رحمته ، يمكن لقلب المؤمن أن يؤمن بها ، وهذه الرحمة التى أودعها الله الرحماء من الخلق فى الدنيا ، **يصح** أن تقارن بالعلم الذى علمه الله تعالى عباده من الحكماء والعلماء ، أو أن **توازى** الرزق الذى رزقه الله عباده فى هذه الحياة الدنيا ، وكل من عند الله ، وببعض هذه الرحمة التى بين الخلائق ، تتابع الطير فى جو السماء ، وتتابع الحيتان فى الماء ، وتحنُّ الأمهات على أبنائها ، والحب ، وكل الحب الذى أوصى به سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام ، وبمثل هذه الرحمة التى وهبها الله لعباده ، يؤلف الله تعالى بين قلوب من يشاء ... و :

﴿ **لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم** ﴾(٣) .

﴿ **ومن آياته** أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾(٤) .

كل هذا قليل من الرحمة ، التى أفاض الرحمن بها على عباده الرحماء ، وهى كما ترى لا يمكن أن تعد أو أن تحصى .

والرحمة التى وهبها الله عباده المتقين فى الآخرة ، خير وأبقى ، وهى مائة ضعف الرحمة السابقة ، وأنها لرزق الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الرحمة ، ماله من نفاذ . وفى يوم القيامة ، ترى المؤمنين والمؤمنات ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويسرون سروراً عظيماً ، ويخبرون بما بينهم من هذه الرحمة

---

١ ــ التوبة آية : ١٢٨ .

٢ ــ أخرجه ابن ماجه فى سننه فى (كتاب الزهد) باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة ح ٢ ص ١٤٣٥ من رواية أبى سعيد ــ رضى الله عنه ــ قال فى الزوائد : حديث أبى سعيد بن صحيح رجال ثقات .

وأخرجه الإمام أحمد فى مسنده (من حديث جندب البحلى) ح ٤ ص ٣١٢

٣ ــ الأنفال آية : ٦٣

٤ ــ الروم آية : ٢١

والحب ، والكافرون والمنافقون مالهم من نصيب من هذه الرحمة والحب والمودة ، حتى الأحباب منهم ويقصر الله هذه الرحمة على المتقين :

﴿ **الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين** ﴾[١] وببعض هذه الرحمة ، يتبادل أصحاب النعيم العشق مع الأزواج المطهرة من الحور العين ، والحور : هن الجميلات ، شديدات سواد العيون فى شدة بياضها ، العين : أى الحسان واسعات العيون ، كأمثال اللؤلؤ المكنون ، الحسان الأبكار ، الكواعب : جمع كاعب ، وهى الفتاه التى بدأ ثديها يستدير ، والتى تكعبت ثديها أى نهد الأتراب ، وهن الصواحب الأمثال الأكفاء ، العُرُب ــ بضم العين والراء ــ قاصرات الطرف ، والقصر : أى الحبس ، والطرف هنا **معناه** النظر ، والمراد حابسات أعينهن على أزواجهن ، لا ينظرون إلى غيرهم لجمالهم فى نظرهن ، وبجزء من هذه الرحمة ، ينزع الله ما فى صدور المتقين من غلٍّ ، إذا حصل ما فى الصدور ، ويخرج ما فى قلوبهم من بعض حقد للذين آمنوا ، ويألفون ويؤلفون ، ويصبحون إخوانا ، وتجرى من تحتهم الأنهار ، على سرر متقابلين ، وبذلك تكاد تضىء حكمةَ أحكم الحاكمين ، جل ثناؤه ، الذى أوحى لعباده بهذا الدعاء .

﴿ **ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم** ﴾[٢] .

والله سميع الدعاء ، ثم يوّفى المتقين نصيبهم من الرحمة ، يوم القيامة ، غير منقوص ، وإنا لنطمع أن يكون أجرنا من الرحمة فى الآخرة ، بغير حساب ، وخالصات لوجه الله الكريم .

ولماكان ما أوتينا من العلم هو « كلمات » ولا علم لنا برحمة الله ، إلا إنها وسعت كل شىء ، وإلا أن تكون خزائن رحمة ربى مثل كلمات ربى ، و : ﴿ **قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً** ﴾[٣] .

﴿ **ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم** ﴾[٤] .

فإنه ليس لأحد منا ينجيه عمله ، إلا أن يتغمدنا الله برحمة منه وفضل ولا سبيل لنا إلا أن نسأله تعالى أن يرحمنا ، والله هو الغنى ذو الرحمة ، وهو خير الراحمين ، وهو أرحم الراحمين .

وهكذا نرى أن من عرف شيئاً عن رحمة الله ، اشتاق إلى الله ، ومن اشتاق إلى الله ، رحمه الله .

---

(١) الزخرف آية : ٦٧
(٢) الحشر آية : ١٠
(٣) الكهف آية : ١٠٩
(٤) لقمان آية : ٢٧

ومرة أخرى مع الاسم الكريم : الرحيم

ذكر « **الرحيم** » مائة وأربعة عشر مرة فى القرآن الكريم على النحو التالى :

ــ **الرحمن الرحيم** :

ذكر الرحمن الرحيم ست مرات فى ست آيات من آى الذكر الحكيم وهى : الآية الأولى والثالثة من سورة الفاتحة ، والآية ١٦٣ من سورة البقرة ، والآية الثلاثين من سورة النمل ، والآية الثانية من سورة فصِّلت ، والآية الثانية والعشرين من سورة الحشر .

ــ **التواب الرحيم**

ذكر التواب الرحيم ست مرات فى الكتاب المبين :

﴿ **فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم** ﴾ ٣٧ البقرة كما ذكر التواب الرحيم فى الآيات : ٥٤ ، ١٢٨ ، ١٦٠ من سورة البقرة وذكر التواب الرحيم مرتين فى سورة التوبة .

١١ ــ ﴿ **ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم** ﴾ ١٠٤ التوبة

١٢ ــ والآية ١١٨ من سورة التوبة .

﴿ **إن الله هو التواب الرحيم** ﴾

١٣ ــ ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ؟ واتقوا الله ، إن الله تواب رحيم ﴾ ١٢ الحجرات

وسبحانه ﴿ **تواباً رحيماً** ﴾ .

١٤ ــ الآية من سورة النساء :

١٥ ــ ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ، ولو أنهم إذا ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما** ﴾ ٦٤ النساء

وهو ﴿ **العزيز الرحيم** ﴾

ذكر العزيز الرحيم ثلاث عشرة مرة فى الكتاب العربى الكريم على النحو التالى : تسع مرات فى سورة الشعراء وهى ثمان مرات من الآيات : ٩ ، ٦٨ ، ١٠٤ ، ١٢٢ ، ١٤٠ ، ١٥٩ ، ١٧٥ ، ١٩١ التى نصها جميعاً .

﴿ ... **وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ .

والتاسعة فى الآية ٢١٧ من سورة الشعراء .

٢٤ ـ ﴿ وتوكل على العزيز الرحيم ﴾

وذكر العزيز الرحيم فى الآية الخامس من سورة الروم

٢٥ ـ ﴿ بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾

٢٦ ـ ﴿ ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ﴾ ٦٠ سجدة

٢٧ ـ ﴿ تنزيل العزيز الرحيم ﴾ ٥ يس

٢٨ ـ ﴿ إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم ﴾ ٤٢ الدخان .

﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾

٢٩ ـ ﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده ، وهو الغفور الرحيم ﴾ ١٠٧ يونس

٣٠ ـ ﴿ قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم ﴾ ٩٨ يوسف

٣١ ـ ﴿ نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ﴾ ٤٩ الحجر .

٣٢ ـ ﴿ قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفرلى ، فغفر له ، إنه هو الغفور الرحيم ﴾ ١٦ القصص

٣٣ ـ ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾ ٥٣ الزمر

٣٤ ـ ﴿ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن ، والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾ ٥ الشورى .

٣٥ ـ ﴿ أم يقولون افتراه ، قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا ، هو أعلم بما تفيضون فيه ، كفى به شهيداً بينى وبينكم ، وهو الغفور الرحيم ﴾ الأحقاف .

وهو الرحيم الغفور

ذكر الرحيم الغفور مرة واحدة فى كتاب الله العزيز وذلك فى الآية الثانية من سورة سبأ :

٣٦ ـ ﴿ يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو الرحيم الغفور ﴾ .

غفور رحيم :

ذكر اسم « **غفور رحيم** » تسعاً وأربعين مرة فى القرآن الكريم فى الآيات التسع والأربعين التالية ، وهى الآيات :

١٧٣ ـ ١٨٢ ـ ١٩٢ ، ١٩٩ ، ٢١٨ ، ٢٢٦ من سورة البقرة . والآيات : ٣١ ـ ٨٩ ـ ١٢٩ من سورة آل عمران . والآية ٢٥ من سورة النساء ـ والآيات : ٣ ـ ٣٤ ـ ٣٩ ـ ٧٩ ـ ٩٨ من سورة الأنعام . والآيتين ١٥٢ ـ ١٦٧ من سورة الأعراف والآيتين ٦٩ ـ ٧٠ من سورة

الأنفال ــ والآيات ٥ ــ ٢٧ ــ ٩١ ــ ١٠٢ من سورة التوبة . والآية ٤١ من سورة هود والآية ٥٣ من سورة يوسف . والآية ٣٦ من سورة إبراهيم والآيات ٥ ــ ٢٢ ــ ٣٣ ــ ٦٢ من سورة النور . والآية ٢٨ من سورة الحديد . والآية ١٢ من سورة المجادلة ، والآية ٧ من سورة الممتحنة والآية ١٤ من سورة التغابن . والآية الأولى من سورة التحريم ، والآية ٢٠ من سورة المزمل .

وسبحانه .

غفورا رحيما .

ورد ذكرها خمس عشة ة مرة فى الخمس عشرة آية التالية :

الآيات : ٢٣ ــ ٩٦ ــ ١٠٠ ــ ١٠٦ ــ ١١٠ ــ ١٢٩ ــ ١٥٢ من سورة النساء . والآيتين ٦ ــ ٧٠ من سورة الفرقان . والآيات ٥ ــ ٢٤ ــ ٥٠ ٥٩ ــ ٧٣ من سورة الاحزاب ــ والآية : ١٤ من سورة الفتح .

وهو رءوف رحيم .

ذكرت كلمة رءوف رحيم ثمان مرات فى الثمان الآيات التالية الآية ١٤٣ من سورة البقرة ، والآية ١١٧ من سورة التوبة ، والآية السابعة من سورة النحل ، والآية ٤٧ من سورة النمل ، والآية ٦٥ من سورة الحج . والآية ٢٠ من سورة النور ، والآية ٩ من سورة الحديد ، والآية ١٠ من سورة الحشر وهى :

١٠٨ ــ **﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا أغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ﴾** .

وهو رحيم ودود .

١٠٩ ــ ﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود ﴾ ٩٠ هود

وهو رب رحيم .

١١٠ ــ **﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾** ٥٨ يس

وهو البر الرحيم

١١١ ــ ﴿ إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ﴾ ٢٨ الطور .

وسبحانه رحيما :

١١٢ ــ ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما ﴾ ٢٩ النساء .

١١٣ ــ **﴿ ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما ﴾** ٦٦ الإسراء .

١١٤ ـ ﴿ **هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً** ﴾ ٤٣ الأحزاب .

وهكذا ذكر اسم « الرحيم » سبحانه ، **فى القرآن العظيم مائة وأربع عشرة مرة بعدد سور القرآن العظيم** .

٤ ـ الملـــك

﴿ **فتعالى الله الملك الحق** ﴾(١) .

تبارك الذى له ملك السموات والأرض ، وما بينهما وما فوقهن ، ولم يتخذ ولداً .

فاطر وبديع السموات والأرض ، وخلق كل شىء فقدره تقديراً . والإبداع هو الخلق أول مرة ، وإخراج الشىء مما لا نعلم إلى الوجود ، من أجل ذلك لا يعقل أن يملك ، بمعنى المُلك ، إلا الله الملك الحق المبين ، وهو سُبحانه المتصرف فى كل شىء بالإبداع والخلق والموت والحياة والنشور .

والملك الحق هو الغنى مطلقاً عن كل ما سواه ، وعن كل ما يحتاج إليه سواه ، أما من يحتاج إلى الغير فلا يصح أن يسمى مطلقاً ، إلا أن يؤتى ملكاً محدداً موقوتاً ، أو أن يكون ذلك مجازاً وهذا واضح جداً للمؤمنين اليوم ، ولجميع المخلوقات يوم القيامة ، ﴿ **يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء ، لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار** ﴾ ١٦ غافر .

﴿ **وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ ٦٧ الزمر .

وقد ذكر الملك فى بضع آيات من القرآن العظيم :

١ ـ ﴿ **الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين** ﴾

٢ ـ ﴿ **فتعالى الله الملك الحق** ﴾ ١١٤ طه .

٣ ـ ﴿ **فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم** ﴾ ١١٦ المؤمنون .

٤ ـ ﴿ **هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام** ﴾ ٢٣ الحشر .

٥ ـ ﴿ **يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم** ﴾ ١ الجمعة .

٦ ـ ﴿ **قل أعوذ برب الناس ملك الناس** ﴾ ١ ـ ٢ الناس .

جاء فى صحيح البخارى الجزء التاسع ، كتاب التوحيد : قول الله تعالى : ﴿ **ملك الناس** ﴾ : عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال : **يقبض الله الأرض يوم القيامة ، ويطوى السماء بيمينه ثم يقول : « أنا الملك أين ملوك الأرض »**(٢) .

---

(١) المؤمنون آية : ١١٦ وطه آية : ١١٤

(٢) اخرجه البخارى فى صحيحه جـ ٩ ص ١٤٢ . كتاب التوحيد . باب قول الله تعالى . ﴿ أنا الرزاق ذو القوة المتين ﴾ .

﴿ **فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون** ﴾ ٨٣ يس والملكوت هو الملك العظيم الواسع المطلق ، كالرحموت للرحمة الواسعة ، والرهبوت للرهبة الشديدة ، وهو فعلوت من الملك ، فهذا الوزن فى اللغة يفيد المنتهى .

﴿ **تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير** ﴾ ١ الملك واليد مجاز عن القدرة والإحاطة والملك ، فالذى يملك السمع **والأبصار** والأفئدة ، والموت والحياة ، والنشور والشفاعة ، والرحمة والرزق ، هو الله ، ونحن لا نملك مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، من أجل ذلك ، فلا مُلك إلا لله ، ولا مَلك إلا الله ، مالك الملك لا شريك له .

وهنا دعاء عرفة : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

٥ ــ القــدوس

﴿ رب الملائكة والروح ﴾

القدوس بالضم والتشديد من أسماء الله تعالى الحسنى ، وهو اسم جميل مشتق من القدس أى الطهر .

والقدوس سبحانه ، هو الطاهر المنزه .

والتقديس والتطهير ، هو تنزيه الله عز وجل ، وقوله تعالى : ﴿ **ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك** ﴾[١] .

قال الزجاج : أى نطهر أنفسنا ، وكذلك نفعل بمن أطاعك ، نقدسه أى نطهره .

ذلك بأن القدس هو الطهر والنزاهة .

وقد ذكر القدوس مرتين فى كتاب الله الكريم ، مرة فى سورة الحشر ، والثانية فى الآية الأولى من سورة الجمعة : ﴿ **يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم** ﴾[٢] .

عن قتادة عن مطرف عن عائشة رضى الله عنهم قالت : أن رسول الله ﷺ كان يقول فى ركوعه :

« سُبُّوح قدوس رب الملائكة والروح »[٣] .

---

١ ــ البقرة الآية : ٣٠

٢ ــ الجمعة الآية ١

٣ ــ أخرجه مسلم فى صحيحه . جـ ١ ص ٣٥٣ . كتاب الصلاة . باب . ما يقال فى الركوع والسجود . رقم ٢٢٣ / ٤٨٧ .

٦ ـــ السـلام

﴿ التحيات لله والصلوات والطيبات ﴾

﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام ﴾[١] . ومعنى السلام فى اللغة ، السلامة والأمان ، والسلام هو الذى ليس فى الوجود سلامة إلا وكانت صادرة منه تعالى ، فسبحان السلام مانح السلامة فى الدنيا والآخرة ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وأسأل ربى « السلام » أن يصلى ويسلم على رسول السلام سيدنا محمد نبى الاسلام ، كان رسول الله ﷺ ، إذا أراد أن ينصرف من صلاته ، استغفر ثلاث مرات ثم قال : « اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يعود السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام »[٢] .

اللهم أنت السلام
ومنك السلام
وإليك يرجع السلام
فحينا ربنا بالسلام
وأدخلنا دارك دار السلام
تباركت وتعاليت ياذا الجلال والإكرام

٧ ـــ المـؤمـــن

﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم ﴾[٣] .

سبحان الذى شهد لنفسه بالوحدانية قبل شهادة خلقه ، والإيمان هو التصديق ، والله هو المؤمن المصدق لنفسه ، ومن أصدق من الله ـــ قيلاً ، ومن أصدق من الله حديثًا .

وسبحان المؤمن الذى يعزى إليه الأمن والأمان ، فلا أمن ولا أمان إلا من عنده .

وسبحان المؤمن واهب الأمن ، والأمن ضد الخوف ، وسبحان الذى أطعمنا من جوع وآمنا من خوف .

وهنا مكان حسن لتتدبر الثلاث الآيات من سورة الأنعام : ﴿ وحاجه قومهُ ، قال : اتحاجونى فى الله وقد هدان . ولاأخاف ماتشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا ، وسع ربى كل شىء علما ، أفلا تتذكرون * وكيف أخاف ماأشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا * فأى الفريقين أحق بالأمن ، إن كنتم تعلمون * الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾[٤]

---

(١) الحشر الآية : ٢٣
(٢) اخرجه ابن ماجة فى سننه جـ ١ ص ٢٩٨ . كتاب اقامة الصلاة . باب ما يقال بعد التسليم . رقم ٩٢٤ .
(٣) آل عمران الآية : ١٨ .
(٤) الأنعام الآيات ٨٠ ـ ٨٢

٨ ــ المهيــــمن

﴿ **إن الله كان عليكم رقيباً** ﴾[١] .

سبحان المهيمن بعلمه ، وكمال قدرته على كل شيء ، والمهيمن هو الرقيب على كل شيء ، وهو الحافظ لكل شيء ، والخاضع لسلطانه كل شيء ، وهو القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم ، والمهيمن هو الشاهد المطلع على أفعال مخلوقاته .

قال تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه** ﴾[٢] ، (مهيمناً عليه) : أى رقيباً على ما سبقه من الكتب ، يقر الحق ويظهر خطأ الباطل ، قال أهل اللغة : الهيمنة : القيام على الشيء والرعاية له ، والمهيمن : الشاهد ، وهو من آمن غيره من الخوف ، وقيل المهيمن : هو الشهيد لنفسه بالوحدانية .

وقال أهل التفسير فى المهيمن : أنه الأمين . قال أبو سليمان : وأصله مؤيمن فقلبت الهمزة هاء ، لأن الهاء أخف من الهمزة ، وهو على وزن مسيطر .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله : مهيمناً عليه ، قال : مؤتمنًا عليه ومهيمنًا عليه . قال : المهيمن الأمين ، قال : القرآن أمين على كل كتاب قبله .

وقال مجاهد فى قوله تعالى : ومهيمنًا عليه : قال المهيمن الشاهد على ما قبله من الكتب .

قال أبو سليمان : فالله عز وجل المهيمن أى الشاهد على خلقه ، بما يكون منهم من قول وفعل .

كقوله تعالى : ﴿ **وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودًا إذ تفيضون فيه ..** ﴾[٣] .

والإفاضة هى الاندفاع فى الشيء بقوة ، أى تفعلونه بسرعة . ولنتدبر باقى الآية الكريمة : ﴿ **وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين** ﴾[٤] . وسبحان المهيمن الذى لا يغيب عنه من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر .

وقد ذكر الاسم المحيط « المهيمن » مرة واحدة فى الكتاب المبين .

---

(١) النساء الآية : ١
(٢) المائدة الآية : ٤٨
(٣) يونس الآية : ٦١
(٤) يونس الآية : ٦١

٩ ــ العزيز

﴿ سبحان ربك رب العزة ﴾[١] .

سبحان العزيز الذى لا يوجد مثله ، ويا من ليس له ضد ولا شبيه ، ويا من تشتد إليه الحاجة ، ويا من يصعب الوصول إليه . والعزيز ، سبحانه ، هو القوى ، الذى لا يجوز عليه مكر الماكرين ، وقد ذكر العزيز ثمانية وثمانين مرة فى كتاب الله الكريم ، وهو العزيز الرحيم ، وهو العزيز العليم ، وهو عزيز ذو انتقام ، وهو القوى العزيز ، وهو العزيز الغفار ، وهو العزيز الغفور ، وهو العزيز الحميد ، وهو العزيز الوهاب ، وهو عزيز مقتدر . ﴿ ... **وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار** ﴾[٢] .

١٠ الجبار

﴿ **الجبار المتكبر** ﴾[٣] .

سبحان الجبار القهار ، الذى قهر خلقه ، ويجبرهم على ما أراده ، إرادة حكيم فى لطف الخبير ، ذلك بأن من معانى الجبر ، القهر ، يقال : جبره وأجبره على الأمر يجبره ، أى أكرهه وقهره ونفذت مشيئته : ﴿ **وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير** ﴾[٤] . والجبار فعال من جبر ، إذا أغنى الفقير ، وأصلح الكسير ، وجبْرُ الشىء : إصلاحه ، قال تعالى : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم** ﴾[٥] .

والبال : الحال والشأن ، والبال : رخاء النفس ، والبال : القلب . يقال : ما يخطر فلان ببالى ، ويقال خطر الشىء ببالى ، وأخطره الله بباله . والجبار هو العالى ، الذى لا ينال ، قال ابن الأبنارى : الجبار فى صفة الله تعالى الذى لا ينال ، ومنه قيل للنخلة التى فاتت يد المتناول جبارة ، فسبحان الجبار الذى لا تصل العقول إلى الإحاطة بجلاله . وقال ابن عباس : الجبار هو الملك العظيم ، وقد ذكر « الجبار المتكبر » سبحانه ، مرة واحدة فى الكتاب العزيز .

١١ ــ المتكبر

﴿ **سبحان الله عما يشركون** ﴾[٦] .

سبحان الجبار المتكبر ، ذى الكبرياء ، الذى له الكبرياء فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم .

---

(١) الصافات الآية : ١٨٠
(٢) غافر الآية : ٤٢
(٣) الحشر الآية : ٢٣
(٤) الأنعام الآية : ١٨
(٥) محمد الآية : ٢
الحشر الآية : ٢٣

والكبرياء : هى الرفعة فى الدرجات والعظمة ، والعظمة والكبرياء لله . جاء فى الحديث الصحيح عن رب كل شىء : « الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى فى احداهما قصمته »[1] أى أهلكته .

وأعوذ بالله من كل قلب متكبر جبار ، ذلك بأن الكبر والكبرياء من صفات الله ، ولا يدخل الجنة من فى قلبه ذرة من كبر ، ويطبع الله على قلبه : ﴿ **كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار** ﴾[2] . وسبحانه الجبار المتكبر عما يقولون علواً كبيراً .

وقد ذكر المتكبر تعالى مرة واحدة فى الكتاب المبين فى الآية الثالثة والعشرين من سورة الحشر : ﴿ **العزيز الجبار المتكبر** ﴾ .

١٢ ـ الخـالـق

﴿ **وخلق كل شىء فقدره تقديرًا** ﴾[3]

الخالق هو الفاطر وهو الموجود المبدع على غير مثال سبق . وأُحب أن أدخر هذا الاسم العظيم (الخالق) إلى الخلق فى عالم الملكوت ، عالم الخلق الأول :

يوم خلق الله السموات والأرض ، ويوم خلق الله الملائكة ، ويوم خلق الله الآجال حين يموت من مات ، ويوم ألقى الآفة على كل شىء مما ينتفع به الناس ، ويوم خلق الله آدم فى أحسن تقويم ، وأسكنه الجنة ، ويوم خلقنا فى ظهر آدم ، واستخرجنا وأخذ علينا الميثاق ، ثم أماتنا .

وهو الذى خلق بقضاء وأمر ، أو بقول وإرادة ، سبحانه ، قال تعالى : ﴿ **ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة** ﴾[4] .

والخالق والبعث كلاهما من أمر ربى ، والخالق الباعث ، سبحانه ، هو الذى خلق كل شىء فى عالم الغيب ، والخالق من الخلق ، وأصله التقدير المستقيم ، وقد ذكر « الخالق » فى نهاية سورة الحشر ، ثم لنتدبر الآيات السبع الآتية :

١ ـ ﴿ ذلكم الله ربكم ، لا إله إلا هو ، خالق كل شىء فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل ﴾[5] .

٢ - ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون ﴾[6] .

---

(١) اخرجه ابن ماجة فى سننه جـ ٢ ص ١٣٩٧ . كتاب الزهد . رقم ٤١٧٤ . انظر سنن أبى داود جـ ٤ ص ٣٥٠ ، ٣٥١ . كتاب اللباس . باب ما جاء فى الكبر رقم ٤٠٩٠ .

(٢) غافر الآية : ٣٥

(٣) الفرقان الآية :٢٠

(٤) لقمان الآية : ٢٨

(٥) الانعام الآية : ١٠٢

(٦) النحل الآية : ١٧

٣ ــ ﴿ قل الله خالق كل شيء ، وهو الواحد القهار ﴾[١] .

٤ ــ ﴿ وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ﴾[٢] .

٥ ــ ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾[٣] .

٦ ــ ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾[٤] .

٧ ــ ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾[٥] .

١٣ ــ البـــارىء

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ﴾[٦] .

أجمع أهل الذكر ، أن البُراية شي بين الخلق والتصوير ، وذلك وفقًا لترتيب الأسماء الحسنى ، الخالق البارىء المصور ، ذلك بأن التصوير مسبوق بالتقدير أولاً ، والبُراية بينهما .

والبارىء من البرء ، وهو خلوص الشىء من غيره ، كبرء المريض من مرضه ، والمدين من دينه ، وقد قرأت فى كتب الأسماء والصفات أن ندعو الله بهذا الاسم الحسن « البارىء » للسلامة من الآفات ، ويحتمل أن يكون معنى البارىء ، هو الذى يبرىء جوهر المخلوق من الآفات ،حتى يمكنه اجتياز هذه النقلة من عالم التقدير والخلق الأول ، إلى عالم الشهادة والظهور للاختيار فى عالم الملك .

أو بكلمات أخرى : أنه من كتب له الرحيل من عالم الغيب والملكوت ، إلى عالم الشهادة والملك ، للابتلاء والتنافس ، يجب عليه أن يحصن ضد الآفة ــ أى ينبغى له أن يحصل على هذه الحصانة والبراءة من الآفات من البارىء سبحانه ، أو أنه من قدر له أن يحمل وسام الحياة ، لا يستطيع ذلك ، إلا إذا منح براءة هذا الوسام من البارىء الحق ، وقد ذكر البارىء تعالى مرتين فى القرآن الكريم ، مرة فى سورة الحشر ، ثم لنتدبر ثلاث كلمات من الآية الرابعة والخمسين من سورة البقرة : **﴿ فتوبوا إلى بارئكم ﴾** .

١٤ ــ المصـــور

﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ﴾[٧] .

سبحان الذى أنشأ الانسان على صور مختلفة ، متميزًا بعضها عن بعض فى الأشكال والأحجام والألوان ، ليتعارفوا ، وسبحان من صورنا فى الأرحام أطوارًا ، وتشكيلاً بعد تشكيل ، فى ظلمات البطن

---

(١) الرعد الآية : ١٦
(٢) فصلت الآية : ٢١
(٣) المؤمنون الآية : ١١٥
(٤) ق الآية : ٣٨
(٥) التين الآية : ٤
(٦) البينة الآية : ٧
(٧) آل عمران الآية : ٦

والرحم والمشيمة ، وهذا التشكيل يتم من تركيب ذرات بنى آدم ، التى سبق لها التقدير يوم أشهدهم الله ربنا على أنفسهم .

وفى عالم الشهادة ، يتم تركيب الصورة ، كما شاء الله على هيئة الأصل فى أحسن تقويم يوم الخلق الأول .

ثم بعد ذلك ، فلنتدبر الآيات البينات من سورة النجم :

﴿ وأنه هو أمات وأحيا ﴾

﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ﴾

﴿ من نطفة إذا تمنى ﴾

﴿ وأن عليه النشأة الأخرى ﴾(١)

فما هى النشأة الأخرى ؟ يقول الامام الفخر الرازى محمد فخر الدين فى تفسيره الكبير ، مفاتيح الغيب : [والذى ظهر لى بعد طول التفكير والسؤال من فضل الله تعالى ، والهداية فيه إلى الحق ، أنه يحتمل أن يكون المراد من النشأة الأخرى : نفخ الروح الانسانية فيه ، وذلك لأن النفس الشريفة ، تخالط الأجسام الكثيفة المظلمة ، وبها كرم الله بنى آدم] .

وفى الأرحام كما يتم التصوير يتم نفخ الروح كما جاء فى الحديث الشريف ، فقد جاء فى صحيح مسلم بشرح النووى باب القدر . روى أن رسول الله ﷺ قال :

« إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال : يارب أذكر أم أنثى ؟ فيقضى ربك ما يشاء . ويكتب الملك »(٢) .

كما جاء فى نفس الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن أحدكم يُجمَع خلقه فى بطن أمه أربعين يومًا نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يُرسَل الملك فينفخ فيه الروح »(٣) .

كما قيل فى معنى : (ثم أنشأناه خلقاً آخر) ، هو نفخ الروح ، غير خلق النطفة علقة ، والعلقة مضغة ، والمضغة عظاماً ، وبهذا الخلق الآخر ، أو نفخ الروح ، أو النشأة الأخرى ، تميز الانسان عن أنواع الحيوانات . وبعد ، يجوز أن تكون النشأة الأخرى ، هى نفخ الروح ، وتخصص النشأة الآخرة للحشر .

﴿ فانظر كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ﴾(٤) .

---

(١) النجم الآيات : ٤٤ ـــ ٤٧

(٢) اخرجه صحيح مسلم « كتاب القدر » باب « كيفية الخلق » جـ ٤ ص ٢٠٣٧ رقم ٣ / ٢٦٤٥ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعبد الله بن مسعود .

(٣) اخرجه صحيح مسلم « كتاب القدر » باب « كيفية الخلق » جـ ٤ ص ٢٠٣٦ رقم ١ / ٢٦٤٣

(٤) العنكبوت الآية : ٢٠

١٥ ــ الغفار

﴿ ألا هو العزيز الغفار ﴾[١] .

الغفر والغفران فى اللغة ، معناهما الستر ، وسبحان الغفار الذى أظهر الجميل ، وستر القبيح ، والذنوب من جملة القبائح التى سترها الله تعالى ، وذلك لأن الله تعالى هو ساتر الذنب .

جاء فى كتاب الأسماء والصفات عن هذا الاسم الكريم : الغفار هو المبالغ فى الستر ، فلا يشهر الذنب لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وقيل لصحابى : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى يوم القيامة ؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله عز وجل يُدنى من المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس فيقول : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى فى نفسه أنه قد هلك ، قال فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم . قال : فيعطى كتاب حسناته »[٢] هذا للمؤمنين أما الكفار والمنافقون فلهم شأن آخر ، وقد ذكر الغفار فى تنزيل العزيز الحكيم خمس مرات فى الآيات :

١ ــ ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾[٣] .

وقد ذكر العزيز الغفار ثلاث مرات فى القرآن الكريم .

٢ ــ ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار ﴾[٤] .

٣ ــ ﴿ خلق السموات والأرض بالحق ، يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار ﴾[٥] .

٤ ــ ﴿ تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ﴾[٦] .

٥ ــ ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ﴾[٧] .

ونوصى بذكر هذا الاسم الكريم كثيراً . ففيه معانى الإنابة والرجوع إلى الله .

١٦ ــ القهار

﴿ سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾

القهر فى اللغة : هو الاستيلاء على الشىء ظاهرًا وباطنًا ، ولا موجود إلا هو مسخر تحت قهره وقدرته ، عاجز فى قبضته تعالى .

---

(١) الزمر الآية : ٥

(٢) اخرجه صحيح البخارى « كتاب المظالم » باب قوله تعالى : ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ جـ ٣ ص ١٦٨ فقد ورد الحديث عن رواية لابن عمر .

(٣) طه الآية : ٨٢

(٤) ص الآية : ٦٦

(٥) الزمر الآية : ٥

(٦) الزمر الآية : ٥٢

(٧) نوح الآية : ١٠

وإذا تدبرنا الأسماء الحسنى لله الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارىء المصور الغفار ، نجد أن مردَّ جميع الأفعال إلى إله (واحد) وإلى تدبير (واحد وليس للانسان إلا التسليم إلى الله ، وذلك العزيز الغفار الذى يكور الليل على النهار ، ويكور النهار على الليل ، هو الواحد القهار الذى إن أسلمنا له ما يريد كفانا ما نريد ، وإن لم نسلم له ما يريد أتعبنا فيما نريد ، ثم لا يكون إلا ما يريد سبحانه .

وقد ذكر « الواحد القهار » ست مرات فى القرآن الكريم :

١ ــ ﴿ أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾[1]

٢ ــ ﴿ قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار ﴾[2]

٣ ــ ﴿ وبرزوا لله الواحد القهار ﴾ ٤٨ ابراهيم .

٤ ــ ﴿ قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار ﴾[3] .

٥ ــ ﴿ سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾[4]

٦ ــ ﴿ لمن الملك اليوم ، لله الواحد القهار ﴾[5] .

١٧ ــ الوهــاب

﴿ وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾[6]

سبحان الله الوهاب : الكثير المواهب ، أى الكثير الهبات ، يقال : هذه هبة فلان وموهبته وهباته ومواهبه . والهبة هى العطيّة الخالية من العوض والغرض ، فإذا كثرت سمى صاحبها وهاباً ، ولا يكون حقيقة إلا الله تعالى .

ويقال للمولود له : شكرت الواهب وبورك لك فى الموهوب . ويقال : اللهم هب لى ذنوبى ، والله استوهبُ ذنوبى . أى استغفر ذنوبى .

والوهاب الحق ، هو الذى يملك ما يعطى ، ولا مالك فى الواقع سوى الله .. وقد ذكر الوهاب سبحانه ثلاث مرات فى الكتاب الحكيم :

١ ــ ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾[7]

٢ ــ أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ﴾[8]

٣ ــ ﴿ قال رب اغفر لى وهب لى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب [9]

---

(١) يوسف الآية : ٣٩
(٢) الرعد الآة : ١٦
(٣) ص الآية : ٦٥
(٤) الزمر الآية : ٤
(٥) غافر الآية : ١٦
(٦) آل عمران : ٨
(٧) آل عمران : ٨
(٨) ص الآية : ٩
(٩) ص الآية : ٣٥

١٨ ـــ الـــرزاق

﴿ **إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾[١] .

سبحان الله الرازق رزقًا بعد رزق ، وهو تعالى المكثر الموسع للرزق ، والحمد لله الذى غذى نفوس الأبرار بغذاء القلوب ، وأوصل إليهم للرزق ، والحمد لله الذى غذى نفوس الأبرار بغذاء القلوب ، وأوصل إليهم نوره ، وهداهم إلى الإيمان ، ووفقهم إلى الطاعات ، وهو تعالى المتكفل بالرزق ، والقائم على كل نفس بما يقيمها من قوتها ، وسبحان الذى يطعِم ولا يطعَم ، والرازق هو الذى خلق الرزق ، والمرزوق ، وخلق أسباب التمتع بهذا الرزق ، والرزق على قسمين .

١ ـــ ظاهر للأبدان كالأطعمة .

٢ ـــ باطن للقلوب كالعلم .

وهو سبحانه خالق الرزقين .

﴿ **وفى السماء رزقكم وما توعدون** ﴾[٢]

روى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، أنه قال : أُمر الرزق بطلبك ، وأُمرت بطلب الجنة . اللهم يا رزاق ، إنا نسألك رضاك والجنة ، فلا عيش إلا عيش الآخرة . ﴿ **ورزق ربك خير وأبقى** ﴾[٣] .

قال القشيرى : من عرف أن الله هو الرازق ، أفرده بالقصد إليه . ﴿ **وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ، لا نسألك رزقاً ، نحن نرزقك والعاقبة للتقوى** ﴾[٤] .

وقد ذكر الرازق ، سبحانه وتعالى ، مرة واحدة فى القرآن الكريم .

١٩ ـــ الفتـــاح

﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو** ﴾[٥] .

سبحان الفتاح الذى يفتح خزائن رحمته على عباده ، وهو الذى فتح على النفوس باب توفيقه ، وهو الذى رفع الحجاب عن قلوب أوليائه ، ويفتح قلوبهم وعيون بصائرهم ، ليبصروا الحق . وهو الذى يفتح الأبواب لهم إلى ملكوته سبحانه ؛ فيكون معنى الفتح الكشف والتبين .

وقيل فى معنى الفتاح : « الحاكم بين الخلائق » من الفتح وهو الحكم ، والفتاح هو الذى يفتح ما انغلق بين عباده ، ويميز الحق على الباطل ، ويعلى الحق ، ويخزى المبطل .

---

(١) الذاريات الآية : ٥٨

(٢) الذاريات الآية ٥٨

(٣) طه الآية : ١٣١

(٤) طه الآية : ١٣٢

(٥) الانعام الآية ٥٩

قال تعالى : ﴿ **ربنا افتح بيننا** ﴾[١] أى احكم .

ويكون الفاتح بمعنى الناصر ، لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح** ﴾[٢]

وقد ذكر « الفتاح » مرة واحدة فى الكتاب العزيز :

﴿ **قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم** ﴾[٣] .

﴿ **وسع ربنا كل شىء علمًا ، على الله توكلنا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين** ﴾[٤] .

٢٠ ــ العليـــم

﴿ **وفوق كل ذى علم عليم** ﴾[٥]

سبحان البالغ فى العلم ، فعلمه تعالى شامل لجميع المعلومات ، محيط بها ، سابق على وجودها ، وسبحان الذى لا تخفى عليه خافية ، ولا يعزب عن علمه شىء .

وسبحان من عنده « علم » الساعة ، وسبحان « عالم » غيب السموات والأرض « علام » الغيوب ، وسبحان من « علم » آدم الأسماء كلها ، وصلى الله على سيدنا محمد . والله « أعلم » حيث يجعل رسالته . وقد ذكر « العليم » تعالى ، مائة وأربعة وخمسين مرة فى كتاب الله الكريم : « وهو عليم بالمتقين ، وهو عليم بما تفعلون ، والله بما تعملون عليم ، وهو عليم بما يصنعون ، والله عليم بما يعملون ، والله عليم بما تعملون ، والله عليم بالمفسدين ، والله عليم بالظالمين ، والله عليم بكل شىء ، والله عليم بذات الصدور ، وهو السميع العليم ، وهو العليم الحكيم ، وهو الحكيم العليم ، وهو العزيز العليم ، وهو الواسع العليم ، وهو العليم الخبير ، وهو العليم القدير ، وهو الفتاح العليم ، وهو العليم الحليم ، وهو سبحانه شاكر عليم » .

وحين أكتب « العليم » تعالى ، أذكر « الرحيم » سبحانه : ﴿ **ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً** »[٦] .

٢١ ــ القابـــض

والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون ﴾[٧] .

(١) الأعراف الآية : ٨٩
(٢) الأنفال الآية : ١٩
(٣) سبأ الآية : ٢٦
(٤) الأعراف الآية : ٨٩
(٥) يوسف الآية : ٧٦
(٦) غافر الآية : ٧
(٧) البقرة الآية : ٢٤٥

٢٢ ــ الباســـط

﴿ بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ﴾[١] .

سبحان القابض الباسط ، والقبض عكس البسط ، والبسط من التوسعة ، ويجوز أن يكون معنى القبض الأخذ .

وقيل فى معنى القابض : المخرج للأرواح من الأشباح عند الموت . وقيل غير ذلك .

والقبض يكون معه الخوف .

سبحان موسع الرزق لمن يشاء من عباده . وسبحان مبسط النفوس بالسرور والفرح .

وقيل : هو الذى ينشر الأرواح فى الأجساد عند الحياة ، ويبسطها فى الأشباح عند البعث لعرض الأعمال .

والبسط يكون معه الإزجاء والرجاء والطمع .

وفى اللغة يقال : بسط بمعنى : نشر ، والبسطة معناها : السعة . والبسيط ، الواسع ، ويقل بسط فى العلوم أو فى الآفاق ، توسع فيها وجال فى مناحيها .

والباسط صفة من صفات الله ، لأنه يبسط الرزق لمن يشاء ، أى يوسعه ، ولكنها لم ترد نصًا فى القرآن ، بل وردت صورة الفعل فى سورة الرعد .

﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ﴾[٢] .

٢٣ ــ الخافــض

٢٤ ــ الرافــع

﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان ﴾[٣] .

سبحان الذى يخفض الكفار بالاشقاء ، ويرفع المؤمنين بالاسعاد ، وسبحان من يرفع أولياءه بالتقريب ، ويخفض أعداءه بالإبعاد ، وسبحان مالك يوم الدين .

وسبحان رب الواقعة الخافضة الرافعة ، أى خافضة لقوم إلى النار ، ورافعة آخرين إلى الجنة .

وسبحان من بيده الميزان ، يخفض ويرفع .

﴿ إذا وقعت الواقعة ﴾

﴿ ليس لوقعتها كاذبة ﴾

﴿ خافضة رافعة ﴾[٤] .

---

(١) المائدة الآية : ٦٤

(٢) الرعد الآية : ٢٦

(٣) الرحمن الآية : ٧

(٤) الواقعة الآيات : ١ ــ ٣

٢٥ ـ المعز

٢٦ ـ المذل

﴿ وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ﴾(١) .

سبحان من أعز الطائعين بطاعته .

وسبحان من أعز أولياءه بعصمته ، ثم غفر لهم برحمته ، ثم نقلهم إلى دار كرامته ، ثم أكرمهم برؤيته ومشاهدته .

وسبحان الذى يجعل من شاء ذا مال وذا إعزاز دنيوى ، بحيث يصير مرغوباً فيه قليل المثال .

وسبحان من أذل العاصين بمعصيته .

وسبحان من أذل أعداءه بحرمان معرفته ، وركوب محارمه ، ثم نقلهم إلى دار عقوبته ، وقابلهم بطرده ولعنته .

وسبحان الذى يجعل من شاء ذا وصف فى الدنيا بسببه يرغب عنه ، ويسقط من درجة الاعتبار .

فمن أطاع الله واجتنب معاصيه ، أعزه الله إذ ما من طاعة ، إلا والعز معها ، وما من معصيته ، إلا والذل معها . أفتعصيه ويعزك ؟ كلا . فقد ربط ــ سبحانه ــ العز بالطاعة ، فهى طاعة ونور وكشف حجاب ، وربط ــ تعالى ــ الذل بالمعصية ، فهى معصية وذل وظلمة وحجاب بينك وبينه تعالى .

٢٧ ـ السميع

﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾(٢) .

سبحان الذى يسمع دعوات عباده وتضرعاتهم ، ولا يشغله نداء عن نداء ، ولا تمنعه اجابة دعاء شخص ، عن اجابة دعاء آخر ، وسبحان من يجيب المضطر إذا دعاه ، وسبحان من يكشف السوء ، وسبحان غافر الذنب عند الاستغفار ، وقابل التوب عند الانابة ، وقابل الأعذار عند العثرات ، وسبحان من يعلم ما تخفى الصدور ، ويسمع كل نجوى ، ولا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وسبحان

---

(١) آل عمران الآية : ٢٦

(٢) الشورى الآية : ١١

الله السميع البصير ، المجيب الرقيب ، فيكون السماع بمعنى السمع أى الاجابة ، كقوله ﷺ : « اللهم إنى أعوذ بك من دعاء لا يسمع »(١) أى من دعاء لا يستجاب .

وقد يكون السماع بمعنى القبول كقولنا : سمع الله لمن حمده ، أى قبل الله حمد من حمده .

كان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من الأربع : من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعاء لا يسمع »(٢) .

وقد ذكر « السميع » تعالى خمسًا وأربعين مرة فى الكتاب العربى المبين ، فهو السميع العليم ، وهو السميع البصير ، وهو سميع الدعاء ، وهو سميع قريب .

٢٨ - البصـــير

﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾(٣) .

سبحان الذى يدرك ويبصر خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وسبحان العالم بخفيات الأمور .

ومتى علمنا أن الله بصير ، وجب علينا أن نعبده كأننا نراه ، فإن لم نكن نراه ، فإن الله يرى ، فينبغى لنا ألا يرانا حيث نهانا ، إشفاقًا من قوله ﷺ : « من لم يكن له ورع يحجزه عن محارم الله تعالى لم يعبأ الله تعالى بشىء من عمله »(٤) . وقيل فى هذا المعنى : « إذا أردت أن تعصى الله فاعصه فى موضع لا يراك فيه » . ويكفى أن نعلم أن الله بصير بكل شىء نعمله .

وقد ذكر « البصير » سبحانه ، واحداً وأربعين مرة فى كتاب الله العزيز وهو : « السميع البصير ، وهو الخبير البصير ، وهو بصير بالعباد ، وهو بما تعملون بصير ، وهو بصير بما تعملون » .

﴿ إن الله يعلم غيب السموات والأرض ، والله بصير بما تعملون ﴾(٥) .

٢٩ ــ الحكـــم

﴿ والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ﴾(٦) .

الحكم بفتحتين ومعناه : الحاكم الذى لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه . وقيل فى معنى الحكم : هو الذى حكم على القلوب بالرضا ، وعلى النفوس بالإنقياد والطاعة . وقيل فى معناه : هو الذى يفصل بين الحق والباطل ، والبار والفاجر ، ويبين لكل نفس ما عملت من خير وشر .

(١) اخرجه ابن ماجة فى سننه جـ ٢ ص ١٢٦١ رقم ٣٨٣٧ .

(٢) اخرجه ابن ماجة فى سننه جـ ٢ ص ١٢٦١ . كتاب الدعاء . باب دعاء رسول الله رقم ٣٨٣٧ . وانظر كنز العمال رقم ٣٧٧٩ والحاكم جـ ١ ص ١٠٤ .

(٣) الأنعام الآية : ١٠٣

(٤) اخرجه ابن عساكر جـ ٢ ص ٦٥ عن أنس بلفظ : « الورع سيد العمل من لم ين له ورع يرده عن معصية الله إذا خلابها لم يعبأ الله بسائر عمله شيئان .

(٥) الحجرات الآية : ١٨

(٦) الرعد الآية : ٤١

وسبحان القائل فى كتابه الكريم : ﴿ **فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين** ﴾(١).

وقد ذكر الحكم مرة واحدة فى الذكر الحكيم : ﴿ **أفغير الله أبتغى حكمًا وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلاً** ﴾(٢) .

٣٠ ـ العــدل

﴿ **وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلاً ، لا مبدل لكلماته** ﴾(٣) .

سبحان الله الحكم العدل ، والعدل هو فى اللغة مصدر أقيم مقام الاسم للزيادة ، أى البالغ فى العدل ، أى الذى لا يظلم أحداً .

والعدل مأخوذ من الاعتدال ، وهو الاستواء ، ويقع صفة للحكم والحاكم معاً ، فيقال حاكم عدل وحكم عدل .

وسبحان الكريم العفو ذى العدل ، الذى قد ملأ كل شىء عدله . ثم لنتدبر هذه الآية الكريمة من سورة النحل : ﴿ **وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم** ﴾(٤) .

٣١ ـ اللطيــف

﴿ **ان ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم** ﴾(٥) .

سبحان من يعلم بخفيات الأمور ، ودقائق الأشياء وغوامضها ، وما رق منها وما لطف ، وهو المدرك العليم بذات الصدور ، ذلك بأنه تعالى هو خالق كل شىء .

﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾(٦) .

وقيل فى معانى اللطيف : هو الذى يريد بعباده الخير واليسر ، ويفيض لهم أسباب الصلاح والبِّر .

وقيل عن اللطيف ، هو البر بعباده الذى يلطف بهم من حيث لا يعلمون ، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون ، كقوله تعالى : ﴿ **الله لطيف بعباده يرزق من يشاء** ﴾(٧) .

وقد ذكر اللطيف سبع مرات فى الكتاب العربى المبين .

---

(١) الأعراف الآية : ٨٧
(٢) الأنعام الآية : ١١٤
(٣) الأنعام الآية : ١١٥
(٤) النحل الآية : ٧٦
(٥) يوسف الآية : ١٠٠
(٦) الملك الآية : ١٤
(٧) الشورى الآية : ١٩

٣٢ ــ الخبيــــر

﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾(١) .

الخبير من الخبرة ، وهى العلم بالخبايا الباطنة ، علم اليقين ، ولا يعزب عنه شيء ، فلا يجرى فى الملك والملكوت شيء ، ولا تتحرك ذرة ، ولا تطمئن نفس ولا تضطرب إلا ويكون علمها عند ربى .

وقد ذكر « الخبير » تعالى خمسًا وأربعين مرة فى الكتاب الكريم : فهو الحكيم الخبير ، وهو الخبير البصير ، وهو اللطيف الخبير ، وهو العليم الخبير ، وهو بما تعملون خبير ، وهو خبير بما تعملون ، وهو خبير بما تفعلون وهو خبير بما يصنعون .

﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾(٢) .

٣٣ ــ الحليــــم

﴿ والله غنى حليم ﴾(٣) . ﴿ والله غفور حليم ﴾(٤) .

سبحان الحليم ذى الصفح والأناة ، الذى لا يحبس أنعامه وأفضاله عن عبادة لأجل ذنوبهم ، ولكنه يرزق العاصى كما يرزق المطيع ، ذلك بأنه تعالى هو الصفوح مع القدرة ، المتأنى الذى لا يعجل بالعقوبة .

﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾(٥) .

وكيف يعجل من لا يخاف الفوْت . قال تعالى : ﴿ يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ، لا تنفذون إلا بسلطان ﴾(٦) .

وإليكم هذا الدعاء عن رسول الله ﷺ : « لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله وتبارك الله رب العرش العظيم ، والحمد لله رب العالمين »(٧) . وسبحان الله الحليم ، الذى يمهل العاصى ، فإن تاب قبل توبته ، وإن أصر أخر العقاب عنه ، لعلمه تعالى أنه لا يخرج من ملكه .

وهذا دعاء للإنابة : « يا من عصمت المعصومين وحفظت المحفوظين ويا من أصلحت الصالحين ، إن عصمتنى ، تجدنى معصوماً ، وإن أهملتنى تجدنى مخذولاً ، ناصيتى بيدك يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك .

(١) فاطر الآية : ١٤

(٢) الملك الآية : ١٤

(٣) البقرة الآية : ٢٦٣

(٤) البقرة الآية : ٢٢٥

(٥) النحل الآية : ٦١

(٦) الرحمن الآية : ٣٣

(٧) اخرجه صحيح مسلم فى كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب دعاء الكرب جـ ٤ ص ٢٠٩٢ ــ ٢٠٩٣ رقم ٨٣ / ٢٧٣٠ .

وقد ذكر الحليم سبحانه أحدى عشرة مرة فى الكتاب العربى الكريم : فهو غفور حليم ، وهو حليم غفور ، وهو عليم حليم ، وهو غنى حليم ، وهو تعالى ، شكور حليم .

٣٤ ــ العظيـــم

﴿ وهو العلى العظيم ﴾(١) .

العظيم صيغة مبالغة من العظم . والعظم هو الفخامة والعز والمجد والكبرياء . وسبحان الله العظيم المستحق لصفات العُلوّ والمجد ورفعة القدر ، وسبحان من ليس لعظمته بداية ، ولا لكنه جلاله نهاية وسبحان العظيم الذى لا تهتدى العقول لوصف عظمته ، ولا يحيط بكنهه بصيرة ، وسبحان العظيم بوجوب وجوده ، وسبحان العظيم ذى القوة المتين ، وهو القادر الذى لا يعجزه شىء ، فهو سبحان الله العظيم بتنزهه عن صفات خلقه ، ذو الثناء الفاخر ، كان النبى ﷺ يقول عند الكرب : « **لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش الكريم** »(٢) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من دخل على مريض لم يحضره أجله فقال : « أسأل الله العظيم ، **رب العرش العظيم أن يشفيك سبع مرات شفى بإذن الله** »(٣) ، **ولله المثل الأعلى ، وإليكم هذه البشرى** للمؤمنين من محمد رسول الله . قوله ﷺ : « من تعلم وعلّم وعمل فذلك يدعى فى ملكوت السماء **عظيماً** »(٤) . وقد ذكر العظيم تعالى ، ست مرات فى القرآن الكريم : مرة فى سورة البقرة فى نهاية آية الكرسى ، وهى الآية ٢٥٥ ، ومرة فى الآية الرابعة من سورة الشورى ، ومرتين فى الآيتين ٧٤ — ٩٦ من سورة الواقعة ومرتين فى الآيتين : ٣٣ ، ٥٢ من سورة الحاقة . **﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾** .

٣٥ ــ الغفــور

﴿ ومن يغفر الذنوب إلا الله ﴾(٥) .

سبحان ربى الغفور ، كثير المغفرة والستر . قال تعالى : ﴿ أنى أنا الغفور الرحيم(٦) .

وسبحان ربى الغفور الغفار ، وقيل فى معنى الغفور : هو كثير الغفر من جهة الكيفية ، فيغفر الذنوب العظام ، وقيل فى معنى الغفار : هو كثير العفو من جهة الكمية ، فيغفر الذنوب الكثيرة .

---

(١) الشورى الآية : ٤

(٢) اخرجه مسلم فى صحيحه جـ ٤ ص ٢٠٩٢ ، ٢٠٩٣ . كتاب الذكر والدعاء باب دعاء الكرب . رقم٨٣ / ٢٧٣٠ .

(٣) اخرجه الطبرانى فى الصغير جـ ١ ص ٢١ . انظر كنز العمال جـ ٩ ض ١٠٤ رقم ٢٥١٩٧

(٤) انظر اتحاف السادة المتقين جـ ١ ص ١٠٦ . وكنز العمال جـ ١٠ ص ١٦٤ رقم ٢٨٨٥٠

(٥) آل عمران آية : ١٣٥

(٦) الحجر آية : ٤٩

عن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه أنه قال لرسول الله ﷺ : « علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى » . **قال : قل : « اللهم إنى ظلمت** نفسى ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى **مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم »**(١) . **رواه البخارى .**

كما روى البخارى هذا الدعاء أو « سيد الاستغفار » كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى ، وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب **إلا أنت »**(٢) ، **وقد** ذكر (الغفور تعالى) واحداً وتسعين مرة فى كتاب الله الكريم ، وهو الغفور الرحيم ، وهو الرحيم الغفور ، وهو الغفور الحليم ، وهو حليم غفور وهو العزيز الغفور ، وهو الغفور الودود ، وهو الغفور الشكور .

٣٦ ـ الشكور

﴿ إن ربنا لغفور شكور ﴾(٣) ..

سبحان كثير الثناء ، الذى يجازى بيسير الطاعات كثير الدرجات ، وسبحان الذى يعطى العمل فى أيام معدودة ، نعيماً فى الآخرة غير محدود .

وقد ذكر الشكور تعالى أربع مرات فى القرآن المجيد :

١ ـ ﴿ ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ، إنه غفور شكور ﴾(٤) .

٢ ـ ﴿ وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، إن ربنا لغفور شكور ﴾(٥) .

٣ ـ ﴿ ومن يقترف حسنة تزد له فيها حسناً ، إن الله غفور شكور ﴾(٦) .

٤ ـ ﴿ والله شكور حليم ﴾(٧) .

٣٧ ـ العلى

﴿ فالحكم لله العلىِّ الكبير ﴾(٨) .

سبحان العالى علو الجلال والكمال ، قال الحليمى فى معنى العلى : « إنه الذى ليس فوقه فيما يجب له من معالى الجلال أحد ، ولا معه من يكون العلو مشتركاً بينه وبينه ، لكنه العلى بالاطلاق » .

عن إياس بن سلمة عن أبيه قال : ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح دعاء قط **إلا استفتح « بسبحان ربى الأعلى العلى الوهاب »**(٩) . **وجاء فى كتاب الأسماء والصفات ، أن رسول**

(١) اخرجه البخارى جـ ١ ص ٢١١ . كتاب الصلاة . باب الدعاة قبل السلام .
(٢) اخرجه البخارى جـ ٨ ص ٨٣ . كتاب الدعوات باب أفضل الاستغفار
(٣) فاطر آية : ٣٤
(٤) فاطر آية : ٣٠
(٥) فاطر آية : ٣٤
(٦) الشورى آية : ٢٣
(٧) التغابن آية : ١٧
(٨) غافر آية : ١٢
(٩) اخرجه الامام احمد فى مسنده جـ ٤ ص ٥٤

الله ﷺ ليلة أسرى به ، سمع تسبيحاً فى السموات العُلى : « سبحان العلى الأعلى سبحانه وتعالى » .
وقد ذكر العلى سبحانه ثمان مرات فى القرآن العظيم فى الآيات : ٢٥٥ البقرة ، ٦٢ الحج ، ٣٠ لقمان ، ٢٣ سبأ ، ١٢ غافر ، ٤ الشورى ، ٥١ الشورى ، ٣٤ النساء .
وهو العلى العظيم ، وهو العلى الكبير ، وأنه علىّ حكيم .

٣٨ ـ الكبيــــر

﴿ الكبير الذى لا تهتدى العقول لوصف عظمته ﴾

سبحان الكبير الذى فاق مدح المادحين ، ذلك بأن الله أكبر من مشاهدة الحواس وإدراك العقول ، ومن كل شىء .

عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال رسول الله ﷺ : كان يعلّمهم دعاء رُقْيَةً من الأوجاع كلها ومن الحمّى : « بسم الله الكبير ، نعوذ بالله العظيم من شر كل عرق نعّار وشر حر النار »(١) .

وذكر الكبير تعالى ، خمس مرات فى القرآن العظيم :

١ ـ ﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾(٢)

٢ ـ ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير ﴾(٣) .

٣ ـ ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير ﴾(٤)

٤ ـ ﴿ قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق وهو العلى الكبير ﴾(٥)

٥ ـ فالحكم لله العلى الكبير ﴾(٦)

٣٩ ـ الحفيــــظ

﴿ إن ربى على كل شىء حفيظ ﴾(٧)

سبحان الحفيظ ، وهو الحافظ ، والحفيظ معناه : صون الشىء من الزوال ، فسبحان الذى يحفظ السموات والأرض وما فيهما ، لتبقى مدة بقائهما ، فلا تزولا ولا تختلا .

قال الله عز وجل : **﴿ ولا يؤوده حفظهما ﴾(٨)** وقال جل وعلا : **﴿ وحفظاً من كل شيطان مارد ﴾(٩)** أى حفظناها حفظاً ، وهو الذى يحفظ عباده من المهالك ويقيهم مصارع الشر .

(١) اخرجه ابن ماجة جـ ٢ ص ١١٦٥ كتاب الطب . باب ما يعوذ به من الحمى . رقم ٢٣٥٦ ، انظر سنن الترمذى جـ ٣ ص ٢٧٣ كتاب الطب . باب ما جاء فى تبريد الحمى بالماء . رقم ٢١٥٧ .
(٢) الرعد آية : ٩
(٣) الحج آية : ٦٢
(٤) لقمان آية : ٣٠
(٥) سبأ آية : ٢٣
(٦) غافر آية : ١٢
(٧) هود آية : ٥٧
(٨) البقرة آية : ٢٥٥
(٩) الصافات آية : ٧

قال الله عز وجل : ﴿ **له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله** ﴾[١] أى بأمره .

وسبحان الذى يحفظ على الخلق أعمالهم ، ويحصى عليهم أقوالهم ، ويعلم نياتهم وما تكن صدورهم ، فلا تغيب عنه غائبة ، ولا تخفى عليه خافية ، وسبحان الذى يحفظ أولياءه ، فيعصمهم عن مواقعة الذنوب ، ويحرسهم من مكائد الشيطان ، ليسلموا من شره وفتنته .

وقد ذكر « الحفيظ » تعالى ثلاث مرات فى القرآن الحكيم :

١ ـ ﴿ **إن ربى على كل شىء حفيظ** ﴾[٢]

٢ ـ ﴿ **وربك على كل شىء حفيظ** ﴾[٣]

٣ ـ ﴿ **والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل** ﴾[٤] .

٤٠ ـ المقيت

﴿ **وكان الله على كل شىء مقيتاً** ﴾[٥]

سبحان الذى يعطى الأقوات ، وقيل فى **معنى المقيت** : أى خالق الأقوات البدنية والروحانية وموصلها أى الأشباح والأرواح .

وصلى الله على سيدنا محمد الذى جعل من القوت ذكر **الحى** الذى لا يموت قال عليه الصلاة والسلام : « أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى »[٦] .

وقال الأزهرى أن « المقيت » هو « المقتدر » بلغة قريش فيكون قوله تعالى : ﴿ **وكان الله على كل شىء مقيتاً** ﴾[٧] ، وقوله تعالى : ﴿ **وكان الله على كل شىء مقتدراً** ﴾[٨] أى مطلقاً قادراً .

وقد ذكر « المقيت » تعالى مرة واحدة فى القرآن العزيز : ﴿ **من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شىء مقيتا** ﴾[٩]

---

(١) الرعد آية : ١١

(٢) هود آية :٥٧

(٣) سبأ آية : ٢١

(٤) الشورى آية : ٦

(٥) النساء آية : ٨٥

(٦) اخرجه مسلم جـ ٢ ص ٧٧٤ . كتاب الصوم . باب النهى عن الوصال فى الصوم رقم ٥٧ / ١١٠٣

(٧) النساء آية : ٨٥

(٨) الكهف آية : ٤٥

(٩) النساء آية : ٨٥

٤١ ــ الحسيب

﴿ وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾[(١)]

سبحان الكافى ، ويجوز أن يكون الحسيب من الحسب ، الذى هو الاكتفاء فيكون معناه الكافى سبحانه . ولنتدبر الآيتين : ﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ﴾[(٢)]

﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾[(٣)]

ويجوز أن يكون الحسيب من الحساب ، فيكون معناه المحاسب ، ولنتعلم هذه الآيات :

١ ــ ﴿ وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[(٤)]

٢ ــ ﴿ ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ، ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾[(٥)]

٣ ــ ﴿ فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾[(٦)]

كما ورد عن سيدنا عمر : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا »[(٧)]

وقد ذكر الحسيب سبحانه ثلاث مرات فى القرآن العظيم :

١ ــ ﴿ وكفى بالله حسيباً ﴾[(٨)]

٢ ــ ﴿ إن الله كان على كل شىء حسيباً ﴾[(٩)]

٣ ــ ﴿ ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً ﴾[(١٠)]

٤٢ ــ الجليل

﴿ تبارك اسم ربك ذى الجلال والاكرام ﴾

سبحان الجامع لجميع صفات الجلال ، ذو الجلال والاكرام ، وسبحان الذى جلَّ قدره فى قلوب العارفين .

« والجليل » اسم من الجلال والعظمة ، ومعناه منصرف إلى جلال القدر وعظم الشأن ، ومعناه المستحق للأمر والنهى ، ومن حق البارىء جل ثناؤه على من أبدعه أن يكون أمره عليه نافذاً ، وطاعته له لازمة ، وهو الذى يصغر دونه كل جليل ، ويتضع معه كل رفيع .

وفى اللغة : ج ل ل ، و « جلال » الله عظمته ، ويقال فعلته من « جلالك » أى من أجلك ، وجلَّ (يجلّ) بالكسر (جلاله) أى عظم قدره ، فهو (جليل) و (أجلّه) فى المرتبة .

من ذلك نرى أن الجليل بحق هو الله ، ويجوز أن ندعوه تعالى بهذا الاسم .

---

(١) آل عمران آية : ١٧٣
(٢) الأنفال آية : ٦٢
(٣) الطلاق آية : ٣
(٤) الأنبياء آية : ٤٧
(٥) الأنعام آية : ٦٢
(٦) الانشقاق آية : ٨
(٧) اخرجه ابن كثير جـ ٤ ص ٤١٢ . سورة الحاقة آية ١٧
(٨) النساء آية : ٦
(٩) النساء آية : ٩
(١٠) الأحزاب آية : ١٠

٤٣ ـ الكريـــم

﴿ إن ربى غنى كريم ﴾[١] :

هو أحكم الحاكمين الغنى الأكرم ، الذى يعطى ما يشاء ، لمن يشاء وكيف يشاء ، بغير سؤال ، وإذا سئل أعطى .

قال رسول الله ﷺ : « إن ربكم عز وجل حيٌّ كريم يستحى من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردها صفراً » .

وقال رسول الله ﷺ : « إن الله عز اسمه ، كريم يحب مكارم الأخلاق ويبغض سفسافها » .

قال أهل اللغة فى معنى الكريم : أنه النَّفَّاحُ ، نسأله ، تعالى أن ينفحنا نفحة خير ، إنه على كل شىء قدير .

ويقال : أكرمه الله ، وكرمه الله ، وأكرم نفسه بالتقوى ، وأكرمها عن المعاصى ، وهو يتكرم عن الشوائن ، وإن أجل المكارم اجتناب المحارم .

ويقال : هو كريمة قومه ، وفى الحديث : « إذا أتاكم كريمة قوم فأكرموه »[٣] . وقد يتجمل المسلم بهذه الصفة ، ويوصف بالسخاء .

قال رسول الله ﷺ : « لا تقولوا لشجرة العنب الكرم ، فإن الكرم هو الرجل المسلم »[٤] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « السخى قريب من الله ، قريب من الناس ، قريب من الجنة ، بعيد عن النار . والبخيل بعيد عن الله ، بعيد عن الناس ، بعيد عن الجنة ، قريب من النار »[٥] .

قال الغنى الكريم :

﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها** ﴾[٦] .

وإليكم هذا الوعد الكريم من الله :

﴿ **مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة** ﴾[٧] .

---

(١) النمل آية : ٤٠

(٢) اخرجه أبو داود فى سننه جـ ٢ ص ١٦٥ . كتاب الصلاة باب الدعاء . رقم ١٤٨٨ . والترمذى فى الدعوات . باب كرم الله تعالى .

(٤) اخرجه ابن ماجة فى سننه . جـ ٢ ص ١٢٢٣ . كتاب الأدب باب إذا أتاكم كريم قوم . رقم ٣٧١٢ .

(٥) اخرجه أبو داود فى سننه جـ ٥ ص ٢٥٥ . كتاب الأدب . باب فى الكرم وحفظ المنطق . رقم ٤٩٧٤ . ومسلم فى فضائل على بن أبى طالب حديث رقم ٢٤٠٨ .

انظر البخارى جـ ٨ ص ٥١ ، ٥٢ . كتاب الأدب . باب . قول النبى « إنما الكرم قلب المؤمن » .

(٥) اخرجه الترمذى فى سننه جـ ٣ ص ٢٣١ . أبواب البر والصلة . باب ٤٠ (ما جاء فى السماء) رقم ٢٠٢٧ .

(٦) الانعام آية : ١٦٠

(٧) البقرة آية : ٢٦١

تلك هى الحدود الدنيا من الأجور الكريمة ، ولكن باب الله مفتوح ، ومع الإخلاص لله تضاعف الأجور أضعافاً كثيرة :

﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾(١) .

﴿ من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ، ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾(٢) .

فأى حساب هذا ، وأى أجر عظيم ، إلا أن يكون من لدن الكريم الحق ، بل إنا لنطمع من « كريم العفو » ما هو أكثر من ذلك ، والحمد لله كثيراً على هذا الوعد الكريم ، وعد الله :

﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدِّل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيماً ﴾(٣) بالفرقان وقد ثبت عن النبى ﷺ فى الأخبار عن كرم عفو الله تعالى ما هو أبلغ من ذلك . قال رسول الله ﷺ : « إنى لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة ، وآخر أهل النار خروجاً منها رجل يؤتى فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه ، وارفعوا عنه كبارها ، فيعرض عليه صغار ذنوبه ، فيقال : عملت يوم كذا وكذا ، كذا وكذا أو عملت يوم كذا وكذا ، كذا وكذا ، فيقول : نعم ، لا يستطيع أن ينكر ، وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه ، قال ، فيقال : فإن لك مكان كل سيئة حسنة ، قال : فيقول : رب قد عملت أشياء ما أراها ها هنا ، قال : فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه »(٤) رواه مسلم فى الصحيح .

وقد ذكر الكريم المطلق الذى لا يضيع من لاذبه والتجأ إليه ، مرتين فى القرآن الكريم :

١ ـــ ﴿ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنى كريم ﴾(٥)

٢ ـــ ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ﴾(٦) .

وأى شيء خدعك وجرأك على عصيانه ، سبحانه .

قال رسول الله ﷺ : « غره جهله » وقيل : غره حمقه ، وقيل : غره شيطانه . ونقول : غرنا ستورك المرخاة ، وإنا نغتر فى كرم الكريم ، وعفو الرحيم ، ونعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم . وسبحان الله الكريم الأكرم ، كريم العفو وهو أكرم الأكرمين .

---

(١) الزمر آية : ١٠

(٢) غافر آية : ٤٠

(٣) الفرقان آية : ٧٠

(٤) اخرجه مسلم جـ ١ ص ١٧٧ . كتاب الإيمان . باب أدنى أهل الجنة منزلة . رقم ٣١٤ / ١٩٠ .

(٥) النمل آية : ٤٠

(٦) الانفطار آية : ٦

٤٤ ــ الرقيب

﴿ إن الله كان عليكم رقيباً ﴾[١] .

سبحان الرقيب القريب ، الذى لا يخفى عليه شيء من أفعال العباد ، قال تعالى :

﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾[٢] .

وقد ذكر الرقيب سبحانه وتعالى ، ثلاث مرات فى الكتاب العربى الحكيم :

١ ــ ﴿ فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ﴾[٣] .

٢ ــ ﴿ واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً ﴾[٤] .

٣ ــ ﴿ وكان الله على كل شيء رقيباً ﴾[٥] .

٤٥ ــ المجيب

﴿ إن ربى قريب مجيب ﴾[٦] .

سبحان ربى القريب المجيب ، الذى يجيب دعوة الداع إذا دعاه ، ونسأله تعالى أن نستجيب له بطاعته ، سبحانه ، وطاعة رسوله ﷺ .

قال تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾[٧] .

﴿ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله ﴾[٨]

﴿ للذين استجابوا لربهم الحسنى ﴾[٩]

وقد ذكر « المجيب » تعالى فى الآية التالية :

﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه ، إن ربى قريب مجيب ﴾[٥]

ثم لنقرأ خمس كلمات من النور :

﴿ ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ﴾[١١] .

(١) النساء آية : ١

(٢) ق آية : ١٦

(٣) المائدة آية : ١١٧

(٤) النساء آية : ١

(٥) الأحزاب آية : ٥٢

(٦) هود آية : ٦١

(٧) الأنفال آية : ٢٤

(٨) الشورى آية : ٢٦

(٩) الرعد آية : ١٨

(١٠) هود آية : ٦١

(١١) الصافات آية : ٧٥

٤٦ ـ الواسـع

﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ﴾[١] .

سبحان الواسع الرحمة . قال تعالى :

﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾[٢] .

وسبحان الواسع العلم ، المحيط علمه بكل شيء :

وقد ذكر الواسع العليم سبع مرات فى القرآن العظيم :

﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ، إن الله واسع عليم ﴾[٣] .

﴿ والله يؤتى ملكه من يشاء ، والله واسع عليم ﴾[٤] .

﴿ والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم ﴾[٥] .

٤ ـ ﴿ والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً ، والله واسع عليم ﴾[٦] .

٥ ـ ﴿ قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم ﴾[٧] .

٦ ـ ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم ﴾[٨] .

٧ ـ ﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ، والله واسع عليم ﴾[٩] .

وسبحان الواسع المغفرة . قال تعالى :

﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ، إن ربك واسع المغفرة ، هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم ، فلا تزكوا أنفسكم ، هو أعلم بمن اتقى ﴾[١٠]

وسبحان الواسع الحكيم . قال تعالى :

﴿ وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته ، وكان الله واسعاً حكيماً ﴾[١١].

وقد ذكر الواسع سبحانه وتعالى ، تسع مرات فى الكتاب الحكيم .

---

(١) غافر آية : ٧
(٢) الأعراف آية : ١٥٦
(٣) البقرة آية : ١١٥
(٤) البقرة آية : ٢٤٧
(٥) البقرة آية : ٢٦١
(٦) البقرة آية : ٢٦٨
(٧) آل عمران آية : ٧٣
(٨) المائدة آية : ٥٤
(٩) النور آية : ٣٢
(١٠) النجم آية : ٣٢
(١١) النساء آية : ١٣٠

٤٧ ــ الحكيم

﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ﴾[١] .

سبحان المحسن فى التدبير ، الذى أصاب كل شىء قدره ، وسبحان الحكيم ذو الحكمة البالغة ، وكمال العلم وإحسان العمل ، وقيل إن الحكمة هى العلم مع العمل والعدل ، وقيل إن الحكمة مجموعة معان من العدل والتنظيم والتقويم والعلم .

« والحكيم » صيغة تعظيم لذى الحكمة ، فيكون معنى الحكيم ، العظيم فى حكمته .

وقد ذكر « الحكيم » سبحانه ، واحداً وتسعين مرة فى مجموع سور القرآن الكريم ، فهو العزيز الحكيم ، وهو العليم الحكيم ، وهو الحكيم العليم ، وهو الحكيم الخبير ، وهو التواب الحكيم ، وهو العلىّ الحكيم ، وهو الواسع الحكيم .

﴿ وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم ﴾[٢] .

٤٨ ــ الودود

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وُدا ﴾[٣] .

الودود من الود وهو الحب ، وسبحان المحب للمؤمنين ، وهو المحبوب لهم ، ومحبة الله لعباده ، رحمته إياهم ، ومحبة المؤمنين لله تعالى طاعته ، وطاعة الله رحمة من الله ، والله نور السموات والأرض ، فمن أصابه من ذلك النور ، فقد سبق له من الله الهدى ، وما أحب المؤمن لله ! وما أحبه لله !

وقيل فى معنى الودود ، أن عباده الصالحين يودونه ويحبونه ، لما عرفوا من كماله فى ذاته وصفاته وغفرانه تعالى .

وكلتا الصفتين مدح ، لأنه جلّ ذكره ، إذا أحب عباده المطيعين ، فهو فضل منه ، وإذا أحبه عباده العارفون ، فلما تقرر عندهم من كريم إحسانه .

وهنا مكان هذا الدعاء الجميل : « يا ودود ، يا ذا العرش المجيد يامبدىء يامعيد ، يا فعال لما يريد ، أسألك بنور وجهك ، الذى ملأ أركان عرشك ، وبقدرتك » ، التى قدرت بها على جميع خلقك ، وبرحمتك التى وسعت كل شىء ، لا إله إلا أنت ، يا مغيث اغثنى » .

وقد ذكر الودود سبحانه ، مرتين فى القرآن الكريم :

١ ــ ﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، إن ربى رحيم ودود ﴾[٤] .

٢ ــ ﴿ وهو الغفور الودود ﴾[٥] .

---

(١) البقرة آية : ٢٦٩
(٢) آل عمران آية : ٦٢
(٣) مريم اية : ٩٦
(٤) هود آية ٩٠
(٥) والبروج آية ١٤

٤٩ ــ المجيــد

﴿ **إنه حميد مجيد** ﴾[١] .

سبحان المجيد ، ذو الشرف التام الكامل ، المفيض على العباد بالمجد والعطايا ، والمجد هو الشرف العظيم الرفيع القدر ، والمجيد فى اللغة : هو الذى عظم كرمه .

وقيل فى معنى « المجيد » . سبحانه ، هو الشريف ذاته ، الجميل أفعاله ، الجزيل عطاؤه ، وقيل : البالغ المنتهى فى الكرم .

وقد ذكر « المجيد » ، تعالى مرّة واحدة فى القرآن المجيد ﴿ **... رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد** ﴾[٢] .

٥٠- الباعــث

﴿ **لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم** ﴾[٣] .

سبحان الله ، باعث النبيين ، مبشرين ومنذرين ، والحمد لله الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ، محمد رسول الله خير مبعوث .

وسبحان باعث الموتى . قال تعالى : ﴿ **وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور** ﴾[٤] ويجوز أن يكون معنى الباعث ، مثير الساكن ، وسبحان باعث الهمم ، وباعث ما فى عالم الغيب .

جاء فى سنن ابن ماجة أن النبى ﷺ كان إذا آوى إلى فراشه ، وضع يده اليمنى تحت خده الأيمن ثم قال : « اللهم قنى عذابك يوم تبعث أو تجمع عبادك »[٥] .

وكان رسول الله يقول عند الاستيقاظ : « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور »[٦] .

وهذا الاسم العظيم « الباعث » غير وارد بصيغة الاسم فى القرآن الكريم ، ثم لنقرأ هذه الآية الكريمة :

﴿ **ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً** ﴾[٧] .

---

(١) هود آية : ٧٣
(٢) هود اية : ٧٣
(٣) آل عمران : ١٦٤
(٤) الحج آية : ٧
(٥) اخرجه ابن ماجه جـ ٢ ص ١٢٧٦ كتاب الدعاء . باب ما يدعو إذا آوى إلى فراشه . رقم ٣٨٧٧ .
(٦) اخرجه البخارى جـ ٨ ص ٨٥ كتاب الدعوات . باب وضع اليد اليمنى تحت الخد الأيمن .
(٧) الاسراء آية : ٧٩

٥١ ــ الشهيد

﴿ قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ﴾[١]

سبحان الشهيد العليم بظواهر الأشياء ، وسبحان الخبير العليم ببواطن ، الأشياء ، وقيل الشهيد مبالغة فى الشاهد ، والشهادة ترجع إلى العلم مع الحضور .

وسبحان الذى كرم الإنسان بنعمة المشاهدة ، فرأى من آيات الله ما أفعم القلوب بالشهادة ، شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم .

قال تعالى :

﴿ **قل أى شيء أكبر شهادة ، قل الله ، شهيد بينى وبينكم ، وأوحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ، أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى . قل لا أشهد . قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون** ﴾[٢] .

وقد ذكر « الشهيد » سبحانه تسعة عشر مرة فى القرآن العظيم ، والله شهيد على ما تعملون ، والله على كل شيء شهيد ، وأنه على كل شيء شهيد ، وكفى بالله شهيداً .

٥٢ ــ الحق

﴿ ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾[٣]

سبحان الموجود اليقين الثابت ، والله ــ سبحانه ــ هو الحق ، ومنه الحق ، وإليه يرجع كل حق ، وصفات الله سبحانه حق ، والعدل حق ، والصدق حق ، يقال : أحق الله الحق ، أى أثبته وأظهره .

﴿ ويحق الله الحق بكلماته ﴾[٤] .

قال رسول الله ﷺ : أصدق كلمة قالها شاعر كبير : « ألا كل شيء ما خلا الله باطل »[٥] .

وكان النبى ﷺ إذ تهجد من الليل يدعو : « اللهم لك الحمد أنت رب السموات والأرض وما فيهن ولك الحمد ، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق ، وقولك الحق ، ووعدك حق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك

---

(١) الاسراء آية : ٩٦
(٢) الأنعام آية : ١٩
(٣) النور آية : ٢٥
(٤) يونس آية : ٨٢
(٥) اخرجه البخارى « باب أيام الجاهلية » جـ ٥ ص ٥٣ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هرير

توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت إلهى لا إله إلا أنت »[١] . رواه البخارى فى الصحيح .

وقد ذكر « الحق » تعالى ست مرات فى القرآن الحكيم فى الآيات : ٦٢ : الأنعام ، ٣٢ : يونس ، ٦ : الحج ، ٦٢ : الحج ، ١١٦ : المؤمنون ، ٢٥ : النور .

هذا وإن كانت كلمة الحق ، قد ذكرت مئات المرات فى القرآن المجيد ٢٢٧ مرة ، ثم نقرأ الآية : ﴿ **فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ، فأنى تصرفون** ﴾[٢] ، هدانا الله إلى الحق ، ونسأل الله أن نتبع الحق لوجه الحق وحده .

٥٣ ــ الوكيـــل

﴿ **وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا** ﴾[٣]

سبحان الوكيل الكافى لمن توكل عليه ، القائم بأمور العباد ، وهو الذى من استغنى به أغناه عما سواه ، وهو المتصرف فى الأمور على حسب إرادته ، وهو سبحانه ، الموكول إليه تدبير أمر كل شىء ، وقد ذكر « الوكيل » سبحانه ، ثلاث عشرة مرة فى الكتاب الحكيم ، وهو على كل شىء وكيل ، والله على ما نقول وكيل ، وكفى بالله وكيلاً وكفى بربك وكيلاً ، وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلاً .

﴿ **رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً** ﴾[٤]

﴿ **وعلى الله فليتوكل المتوكلون** ﴾[٥]

﴿ **فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين** ﴾[٦] .

---

(١) اخرجه البخارى جـ ٨ ص ٨٥ ، ٨٦ كتاب الدعوات باب النوم على الشق الأيمن . ط / الشعب .
(٢) يونس آية : ٣٢
(٣) الأحزاب آية : ٣
(٤) المزمل آية : ٩
(٥) ابراهيم آية : ١٢
(٦) آل عمران آية : ١٥٩

٥٤ ـ القــوى

﴿ إن ربك هو القوى العزيز ﴾[١] .

سبحان الخلاق العليم ، ذى القوة المتين ، والقوة لله جميعاً ، ولا قوة إلا بالله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ولنقرأ هذه الآية الكريمة :

﴿ فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا : من أشد منا قوة ؟ أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ، وكانوا بآياتنا يجحدون ﴾[٢] .

وقد ذكر « القوى » سبحانه تسع مرات فى القرآن الكريم ، فهو تعالى قوى شديد العقاب : الآيات : ٥٢ ـ الأنفال ، ٢٢ ـ غافر .

وهو سبحانه : القوى العزيز ، الآيات : ٦٦ ـ هود ، ٤٠ الحج ، ٧٤ الحج ، ١٩ ـ الشورى ، ٢٥ ـ الحديد ، ٢١ ـ المجادلة ، ٢٥ ـ الأحزاب .

﴿ وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، إن الله قوى عزيز ﴾[٣] .

٥٥ ـ المتين

﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾[٤] .

سبحان الله الرزاق ذى القوة المتين .

وسبحان الذي لا تتناقص قوته .

عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى قوله تعالى : « المتين » يقول : « الشديد » وفى اللغة يقال : هو متين القوى .

ومن المجاز يقال : رأى متين .

واسمه تعالى « المتين » يدل على شدة القوة ، والقدرة ، والله ـ سبحانه ـ متم قدره ، وبالغ أمره .

وقد ذكر « المتين » سبحانه ، مرة واحدة فى الكتاب المبين ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾[٥] .

---

(١) سورة هود آية : ٦٦

(٢) سورة فصلت آية : ١٥

(٣) سورة الحديد آية : ٢٥

(٤ ، ٥) سورة الذاريات آية : ٥٨

٥٦ - الولى

﴿ إن وليى الله الذى نزل الكتاب ، وهو يتولى الصالحين ﴾[١] .

سبحان المتكفل بأمور العباد كلها ، وسبحان الذى يتولى الصالحين من عباده ، الناصر لمن أطاعه ، وذلك بأن الله هو الذى نصر أولياءه ، وقهر أعداءه وقيل : الولىّ : هو الذى أحب أولياءه ونصرهم على أنفسهم باجتناب المعاصى ، وقيل : هو المتولى لأمر عباده المختصين بإحسانه .

وفى اللغة : (ولى) الواو ، اللام ، والياء ، أصل صحيح يدل على القرب ، يقال : تباعد بعد وُلْى ، أى : تباعد بعد قرب ، ويجرز أن يكون من معانى الولى : القريب .

وقد ذكر « الولى » سبحانه ثلاث عشرة مرة فى الكتاب العربى المبين :

﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾[٢] ، والله ولى المؤمنين .

قال تعالى : ﴿ أم اتخذوا من دونه أولياء ، فالله هو الولى ﴾[٣] وقوله : ﴿ وهو الولى الحميد ﴾[٤] ، والله ولى المتقين ، ﴿ وكفى بالله ولياً ، وكفى بالله نصيرا ﴾[٥] ، وقوله تعالى : ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ﴾[٦] ، وقوله : ﴿ أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ﴾[٧] ، وقوله : ﴿ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم ﴾[٨] ، وقوله : ﴿ لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون ﴾[٩] ، وقوله : ﴿ أنت وليى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين ﴾[١٠] .

٥٧ - الحميد

﴿ وهدوا إلى صراط الحميد ﴾[١١] .

سبحان الحميد مستوجب الحمد ، أهل الثناء بما أثنى على نفسه ، وأحمد الله تعالى بجميع محامده ، والحمد لله صاحب الحمد ومستحقه ، فمن ذا الذى يستحق الحمد سواه ؟ بل له الحمد كله لا لغيره ، وهو الذى يحمد على كل حال ، وفى السراء والضراء ، ذلك بأنه سبحانه ، حكيم حميد ، وهو الذى اتصل

---

(١) سورة الأعراف آية : ١٩٦
(٢) سورة البقرة آية : ٢٥٧
(٣) سورة الشورى آية : ٩
(٤) سورة الشورى آية : ٢٨
(٥) سورة النساء آية : ٤٥
(٦) سورة المائدة آية : ٥٥
(٧) سورة الأعراف آية : ١٥٥
(٨) سورة سبأ آية : ٤١
(٩) سورة الأنعام آية : ١٢٧
(١٠) سورة يوسف آية : ١٠١
(١١) سورة الحج آية : ٢٤

حمد المؤمنين له - تعالى - فى أول أم الكتاب : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾[١] . فى الدنيا ، وفى الآخرة . ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾[٢] .

وإن أقوال أهل الجنة وأحوالها لا آخر لها .

اللهم إنا نسألك أن نحمدك ، كما ينبغى لجلال وجهك ، وعظيم سلطانك حمداً لا ينتهى .

وقيل فى معنى الحميد - سبحانه - : هو الذى يوفقك للخيرات ، ويحمدك عليها ، ويمحو عنك السيئات .

وقد ذكر « الحميد » - تعالى - سبع عشرة مرة فى القرآن المجيد ، وهو - سبحانه - الغنى الحميد ، وهو العزيز الحميد ، وهو حميد مجيد ، وهو حكيم حميد ، وهو الولى الحميد .

٥٨ - المحصى

﴿ وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عدداً ﴾[٣] .

سبحان الذى أحصى كل شىء - علمه ، وسبحانه المحيط بكل شىء جملة وتفصيلاً ، وسبحان العالم بخفيات الأمور ومحصيها ، وقيل المحصى من الإحصاء : وهو الإحاطة بحساب الأشياء ، وما شأنه التعداد . وفى اللغة يقال : أرضى محصاة ، أى كثيرة الحصى ، ويقال : هم أكثر من الحصى وحسناتك لا تحصى ، وهذا أمر لا أحصيه ، أى لا أطيقه ولا أضبطه .

وهذا الإسم الكريم لم يرد فى القرآن المبين بصيغة الإسم ، ومن شاء فليقرأ :

﴿ إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ﴾[٣] ﴿ لقد أحصاهم وعدَّهم عدًّا ﴾[٤] ، ﴿ .... وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين ﴾[٥] ، ﴿ وكل شىء أحصيناه كتاباً ﴾[٦] .

٥٩ - المبــدىء

﴿ إنه هو يبدىء ويعيد ﴾[٧] .

سبحان الذى بدأ الخلق وابتدأه ، وأظهر جميع الخلق من العدم إلى الوجود ، وفى اللغة ، يقال : أمر بدىءٌ أى أمر عجيب .

قال تعالى :

---

(١) سورة الفاتحة آية : ٢
(٢) سورة يونس آية : ١٠
(٣) سورة الجن آية :
(٤) سورة مريم الآيتان ٩٣ ، ٩٤
(٥) سورة يس آية : ١٢
(٦) سورة النبأ آية : ٩
(٧) سورة البروج آية : ١٣

﴿ أمّن يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ ومن يرزقكم من السماء والأرض ﴾(١) ، ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم ﴾(٢) .

٦٠ - المعيـــــد

﴿ إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾(٣) .

سبحان الذى يعيد الخلق بعد الحياة إلى الممات ، ثم يعيدهم ، بعد الموت إلى الحياة . وفى اللغة يقال : فلان ما يبدىء وما يعيد ، إذا لم يكن له حّيلة .

قال تعالى :

﴿ يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب ، كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعداً علينا ، إنا كنّا فاعلين ﴾(٤) .

٦١ - المحيى

﴿ ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير ﴾(٥) .

سبحان خالق الحياة ومعطيها لمن شاء ، وسبحان الذى أحيا قلوب المؤمنين بنوره ، والحمد لله الذى أرسل رسوله بالحق ، ونزل الكتاب لينذر به من كان حياً ويحق القول على الكافرين .

وسبحان الذى أنزل من السماء ماء ، وجعل من الماء كل شىء حى .

﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها ، إن ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شىء قدير ﴾(٦) .

﴿ أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ؟ ﴾(٧) .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أصبحتم فقولوا : اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا ، وبك نحيا وبك نموت وإليك المصير »(٨) .

---

(١) سورة النمل آية : ٦٤
(٢) سورة الروم آيه : ٢٧
(٣) سورة الروم آية :
(٤) سورة الأنبياء آية : ١٠٤
(٥) سورة الحج آية : ٦
(٦) سورة الروم آية : ٥٧
(٧) سورة الأنعام آية : ٨
(٨) رواه الترمذى فى (أبواب الدعوات) باب : ماجاء فى الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى حـ ٥ ص ١٣٤ رقم ٣٤٥١ وقال : هذا حديث حسن .
- ورواه ابن ماجه فى سننه فى (كتاب الدعاء) باب : مايدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى حـ٢ ص ١٢٧٢ رقم ٣٨٦٨
- ورواه ابن السنى رقم ٤٨،٣٣ وابن حبان ٢٣٥٤ ومجمع الزوائد ١١٤/١٠ والإمام أحمد ٣٥٤١٢ .

٦٢ - المميت

﴿ وأنه هو أمات وأحيا ﴾[١] .

سبحان الذى خلق الموت والحياة ، وسبحان الذى يخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها .

وسبحان من أحيا العارفين بالطاعات والموافقات ، وأمات المذنبين بالمخالفات ، وسبحان خالق الموت وموجهه على من يشاء من الأحياء متى شاء ، وكيف شاء ، وسبحان من أحيا القلوب بذكره ، ونعوذ بالله السميع العليم من أن نكون فى غفلة عن ذكره تعالى ﴿ وما يستوى الأحياء ولا الأموات ﴾[٢] .

كان النبى - صلى الله عليه وسلم - إذا أوى إلى فراشه يقول : « اللهم باسمك أحيا ، وباسمك أموت ، وإذا أصبح قال : الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور »[٣] .

٦٣ - الحى

﴿ وتوكل على الحى الذى لا يموت ﴾[٤] .

سبحان الحى الموجود الواجب الوجود ، الباقى الدائم من أزل الأزل إلى أبد الأبد ، والأزل هو دوام الوجود فى الماضى ، والأبد هو دوام الوجود فى المستقبل ، وقيل أن معنى أزلية الله تعالى ، وأزلية صفاته سبحانه ، أنه موجود حيث لا زمان . وهو من أسماء الله القديم فى الأزل حيث لا موجود غيره تعالى ، والحى سبحانه هو الذى لا يموت . وهو تعالى : ﴿ كل شىء هالك إلا وجهه ﴾[٥] .

(يا حى أحيى قلوبنا بنور معرفتك ومحبتك فى الدنيا قبل الآخرة) جاء فى كتاب الأسماء والصفات لأبى بكر البيهقى ، صفحة ١٤ ، .

عن أبى أمامة الباهلى - رضى الله عنه - عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « اسم الله الأعظم لفى سور من القرآن ثلاث : البقرة وآل عمران وطه »[٦] .

ولنتدبر معاً الآيات الثلاث :

---

(١) سورة النجم آية ٤٤

(٢) سورة فاطر آية ٢٢

(٣) أخرجه أبو داود فى (الأدب) حـ٥ ص٣٠٠ رقم : ٥٠٤٩ والبخارى فى باب مايقول إذا نام حـ٨ ص٨٥ والترمذى فى (أبواب الدعوات) حـ٥ ص١٤٦ رقم : ٣٤٧٧ ، رواه ابن ماجه باختصار برقم ٣٨٨٠ .

(٤) سورة الفرقان آية ٥٨

(٥) سورة القصص آية ٨٨

(٦) أخرجه ابن كثير فى التفسير : تفسير آية الكرسى حـ١ صـ٤٥٤ وعزاه لأبن مردودية ، وأول الحديث « اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب فى ثلاث : .... الحديث »

١ - ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾[١] .
٢ - ﴿ آلم . الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾[٢] .
٣ - ﴿ وعنت الوجوه للحى القيوم ﴾[٣] .

وجاء فى نفس الصفحة ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال : كنت مع رسول الله ﷺ جالساً فى الحلقة ورجل قائم يصلى ، فلما ركع وسجد تشهد ودعا ، فقال فى دعائه : « اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنّان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حى يا قيوم . . إنى أسألك » . فقال النبى ﷺ : « لقد دعا باسمه العظيم الذى إذا دُعِىَ به أجاب وإذا سئل به أعطى »[٤] .

وقد ذكر « الحى » خمس مرات فى الكتاب المبين :

٤ - ﴿ وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده ﴾[٥] .
٥ - ﴿ هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين ﴾[٦] .

ذلك بأن :

﴿ كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾[٧] .

فسبحان الحى الذى ليس لحياته زوال ، وسبحانك اللهم أنت الحىّ الذى لا يموت . والجن والإنس يموتون .

٦٤ - القيــوم

﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾[٨] .

سبحان القائم بنفسه ، الغنى عن غيره ، وعن رسول الله ﷺ أنه قال : « كان الله ولا شىء معه »[٩] .

وقيل القيوم هو الدائم الباقى الذى لا يزول ، فيكون تأكيداً للحىّ ، والقيوم هو الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه ، وهو القائم بتدبير خلقه ، وهو مدبر السمٰوات والأرض ، وهو المقيم لكلِ شىء ، وكل شىء قائم بأمره .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٥٥
(٢) سورة آل عمران الآيتان : ١ ، ٢
(٣) سورة طه آية : ١١١
(٤) أخرجه أبو داود فى سننه فى (كتاب الصلاة) باب الدعاء حـ٢ صـ١٦٧ ، ١٦٨رقم : ١٤٩٥ وأخرجه النسائى فى (كتاب الافتتاح) باب الدعاء بعد الذكر .
(٥) سورة الفرقان آية ٥٨
(٦) سورة غافر آية ٦٥
(٧) سورة الرحمن الآيتان ٢٦ ، ٢٧

(٨) سورة البقرة آية ٢٥٥ وآل عمران آية رقم : ٢
(٩) أخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب بدء الخلق) حـ٢ صـ٢٠٧ طبع دار احياء الكتب العربية من رواية عمران بن حصين بلفظ : « كان الله ولم يكن شىء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شىء ، وخلق السموات والأرض . . . » ورواه الطبرانى ايضا .

﴿ إن الله يمسك السمٰوات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ﴾ [١] .
﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ [٢] .

. . . . . إذا أنتم تخرجون ، قيام تنظرون ، إلى دار المقامة ، يوم تقوم الساعة ، ويوم يقوم الأشهاد ، ويوم يقوم الروح والملائكة صفاً ، ويوم يقوم الناس لرب العالمين .

وهو سبحانه « القائم » أى الرقيب على كل نفس بما كسبت .

﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ [٣] .

وهو تعالى المقيم للعدل . وهو عز وجل القائم بالقسط :

﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط ﴾ [٤] .

وإذا تدبرنا القرآن ، حيث تتلاقى معانى القيوم ، والقائم ، والقيام ، والقوام ، والمقيم ، وإذا علمنا أن من معانى « القائم » الرقيب ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ؟ ﴾ [٥] ، ثم إذا قال المفسرون أن تفسير قائماً بالقسط ، أى مقيماً للعدل . فلقلوب المؤمنين أن تخشع ، ولجلودهم أن تقشعر لما نزل من الحق : ﴿ وعنت الوجوه للحى القيوم ، وقد خاب من حمل ظلماً ﴾ [٦] .

« يا حى يا قيوم برحمتك نستغيث » ، « اللهم أصلح لى شأنى كله ، ولا تكلنى إلى نفسى ولا إلى أحد من خلقك ، طرفة عين ولا أقل من ذلك » .

وقيل أنه من معانى القيوم : الذى لا ينام .

وقد ذكر « قيِّم » السمٰوات والأرض ، وقيوم السمٰوات والأرض فى روايتين لدعاء للنبى ، وفى الصحيح أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا قام من الليل يصلى يقول : « اللهم لك الحمد أنت رب السمٰوات والأرض ، ولك الحمد أنت قيوم السمٰوات والأرض » [٧] .

وقد ذكر الحى « القيوم » مقلب القلوب ، ثلاث مرات فى القرآن المجيد ، نسأله تعالى أن يثبت قلوبنا على دينه القيم .

٦٥ - الواجـــــد

﴿ وإن من شىء إلا عندنا خزائنه ﴾ [٨]

سبحان الذى لا يخرج من العدم إلى الوجود شيئاً إلا هو ، وسبحان الغنى فى كل شىء ، ولكل شىء وكل شىء حاضر لديه .

(١) سورة فاطر آية : ٤١
(٢) سورة الروم آية : ٢٥
(٣) سورة الرعد آية : ٣٣
(٤) سورة آل عمران آية : ١٨
(٥) سورة الرعد آية : ٣٣
(٦) سورة طه آية : ١١١
(٧) أخرجه النسائى فى عمل اليوم والليلة برقم : ٨٧٤ من رواية ابن عباس ، ضمه حديث طويل .
(٨) سورة الحجر آية رقم : ٢١

وقيل الواجد : الذى لا يضل عنه شىء ولا يفوته شىء .

وقيل الواجد : مأخوذ من الوجدان بمعنى العلم . يقال : وجدت فلاناً فقيهاً . أى علمت كونه كذلك .

ويقال : وجدت طعم الشىء إذا أدركته ، ويجوز أن يكون الواجد بمعنى العليم .

وقيل : الواجد : هو الله يجد كل ما يطلبه ويريده ، ولا يعوزه شىء من ذلك ، ولا يعجزه شىء ولا يفوته شىء .

٦٦ - المــاجد

(اللهم أنت الماجد المجيد الفعال لما يريد ، نسألك الأمن يوم الوعيد) .

سبحان الذى تعطف بالمجد وتكرم به ، وسبحان العظيم القدر ، العظيم الشرف ، الواسع الكرم .

ويجوز أن يكون الماجد بمعنى المجيد كالعالم بمعنى العليم .

عن أبى ذر رضى الله عنه ، عن النبى - ﷺ - عن ربه عز وجل قال : يقول : « يا عبادى كلكم مذنب إلا من عافيت ، فاستغفرونى أغفر لكم بقدرتى ، من علم منكم أنى ذو مقدرة على المغفرة فاستغفرنى غفرت له ولا أبالى ، وكلكم هالك إلا من هديت فسلونى الهدى أهديكم ، وكلكم فقير إلا من أغنيت فسلونى أرزقكم . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم ورطبكم ويابسكم وحيكم وميتكم اجتمعوا على أتقى قلب عبد من عبادى ، لم يزد ذلك فى ملكى جناح بعوضة . ولو اجتمعوا على أشقى قلب عبد من عبادى لم ينقص ذلك من ملكى جناح بعوضة ولو أن أولكم وآخركم ورطبكم ويابسكم وحيكم وميتكم اجتمعوا فسأل كل سائل منكم ما سأل لم ينقص ذلك مما عندى شيئاً ، كما لو أن أحدكم مرّ على شفة البحر فغمس فيه إبرة ثم انتزعها ، ذلك بأنى جوّاد « ماجد » أفعل ما أشاء عطائى كلام وإذا أردت شيئاً فإنما أقول له كن فيكون »[1] .

وهذا الإسم الكريم غير مذكور فى القرآن ، بل المذكور المجيد .

٦٧ - الواحــــد

﴿ وليعلموا أنما هو إله واحد ﴾[2] .

سبحان الواحد فى ذاته لا قسيم له .

وسبحان الواحد فى صفاته الأزلية ، لا نظير له .

وسبحان الواحد فى أفعاله ، لا شريك له .

أى أن « الواحد » هو الفرد ، المنفرد فى ذاته ، وصفاته ، وأفعاله :

(١) اخرجه الترمذى فى كتاب (القيامة) باب فضل الرفق رقم : ٢٦١٣ وقال : هذا حديث حسن

(٢) سورة ابراهيم آية رقم : ٥٢

فهو واحد فى ذاته لا يتجزأ ، ولا يتناهى .

واحد فى صفاته لا يشبه شىء ، ولا يشبهه شىء .

واحد فى أفعاله لا شريك له .

ومن عرف أنه « الواحد » أفرد قلبه له .

وأنقل إليكم هذا الدعاء : « اللهم إنى أسألك أن تملأ قلبى بحبك حتى لا يكون لى شغل ولا همّ سواك » .

وقد فُسِّرَ قوله عليه الصلاة والسلام : « إن الله وتر يحب الوتر »[٣] ، يعنى يحب القلب المنفرد له تعالى .

وإذا كان من تهواه فى الحسن واحداً
فكن واحداً فى الحب إن كنت تهواه

وفى الحديث ، أنه عليه الصلاة والسلام سمع رجلاً يقول فى دعائه : « اللهم إنى أسألك بأنك أنت الله الواحد الأحد ، الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » ، فقال : (لقد سأل الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى)[١] . وقد ذكر « الواحد » إحدى وعشرين مرة فى الكتاب العظيم .

٦٨ - الصـــمد

﴿ الله الصمد ﴾[٢] .

سبحان الصمد الذى يصمد إليه فى الحوائج ، أى الذى يقصد إليه فيها . والصمد سبحانه ، هو المقصود فى الحوائج على الدوام ، ولا يقصد فى قضائها إلا هو ، والقصد هو اتجاه الإنسان بنفسه إلى المقصود علناً ، ومثله الاتجاه إلى المقصود بالقلب سراً ، وما ينبغى أن يكون القصد سراً أو علناً إلا لله وحده ، وما ينبغى للإنسان أن يتجه بنفسه أو بقلبه إلى غير الله ، وما ينبغى للإنسان أن يكون من المشركين .

وقيل الصمد : هو الذى أصمدت إليه الأمور ، فلا يقضى فيها غيره ، ولا يقضى دونه . وقد ذكر « الصمد » مرة واحدة فى القرآن المجيد فى سورة الإخلاص .

---

(١) أخرجه : رواه أبو نصر عن ابى هريرة : أنظر كنز العمال حـ٧ رقم : ١٩٥٣٢ ورواه الترمذى فى (أبواب الوتر) باب ما جاء الوتر ليس بحتم حـ١ صـ٢٨٢ رقم ٤٥٢ عن على - رضى الله عنه - مع زيادة : « فأوتروا ياأهل القرآن » .

وقال الترمذى : حديث على حديث حسن .

ورواه ابن ماجه فى سننه فى (كتاب الصلاة) باب ماجاء فى الوتر حـ١ صـ٣٧٠ رقم : ١١٩٦ من رواية على - رضى الله عنه - مع تقديم وتأخير ، وبرقم ١١٧٠ عن عبدالله بن مسعود بمثل رواية الترمذى .

(٢) أخرجه ابن ابى شيبة فى مصنفه فى (كتاب الزهد) حـ١٤ ص٣١ عن بريدة ورواه ابن ماجه فى (كتاب الدعاء) حـ٢ صـ١٢٦٧ ، ١٢٦٨ برقم : ٣٨٥٧ ورواه ابن حبان برقم : ٨٨٩

(٣) سورة الأخلاص آية ٢

قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « والذى نفسى بيده » ﴿ قل هو الله أحد ﴾ السورة « إنها لتعدل ثلث القرآن »[١] . أخرجه البخارى .

« إن القرآن أنزل ثلثاً منها أحكاماً ، وثلثاً منها وعداً ووعيداً ، وثلثاً منها الأسماء والصفات . وقد جمع فى قل هو الله أحد ، أحد الأثلاث وهو الأسماء والصفات ، فقيل : « إنها ثلث القرآن » .

٦٩ ـ القــادر

﴿ فقدرنا فنعم القادرون ﴾[٢] .

سبحان الله القادر ، ذو القدرة التامة ، الذى لا يعجزه شىء ، بل يستتب له ما يريد على ما يريد .

﴿ .. وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض ، إنه كان عليماً قديراً ﴾[٣]

والقَدَر ـ بفتحتين ـ اسم لما صدر مقدراً عن فعل القادر ـ سبحانه ـ وقدْر الشىء مبلغه ، بسكون الدال ـ وهو مصدر ـ قال الله تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾[٤] أى ما عظموه حق عظمته ، والقدر ـ بالفتح ـ ما يقدِّره الله من القضاء .

وليلة القدر ، هى ليلة الشرف العظيم ، وفسِّر القدْر بالتقدير . وفى القرطبى : قال مجاهد فى : ﴿ وما أدراك ما ليلة القدر ﴾ قال : ليلة الحكم . والمعنى : ليلة التقدير ، سميت بذلك ، لأن الله تعالى يقدر فيها ما يشاء من أمر إلى مثلها من السنة المقبلة ، من أمر الموت والأجل والرزق ، وغير ذلك .

جاء فى صحيح البخارى ، الجزء السادس ، صفحة ٧١ ، لما نزلت هذه الآية : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « أعوذ بوجهك »[٥] .

وقد ذكر « القادر » سبحانه وتعالى : سبع مرات فى كتاب الله الكريم .

ولنقرأ معاً هذه الآية البينة :

﴿ أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلاق العليم ﴾[٦] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه فى فضائل القرآن ، فضل سورة « قل هو الله أحد » حـ٦ صـ٢٣٣

(٢) سورة المرسلات آية : ٢٣

(٣) سورة فاطر آية : ٤٤

(٤) سورة الأنعام آية : ٩١ والزمر آية : ٦٧

(٥) أخرجه البخارى فى صحيحه ٧٧/٦ من رواية جابر بن عبدالله ـ رضى الله عنه .

(٦) سورة يس آية : ٨١

٧٠ - المقتـــدر

﴿ إن المتقين فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾[١] .

سبحان ربى المقتدر ، ذو القدرة العظيم ، المسيطر بقدرته البالغة على خلقه ، وعلى كل ممن أعطاه حظاً من قدره .

وهو المقتدر على جميع الممكنات ، والمقتدر يفيد معنى القادر مبالغة وأكثر تعظيماً وفى اللغة : ق د ر - قدر ، يقال : هو قادر مقتدر ذو قدرة ومقدرة ، وقدر الشىء مبلغه ، بسكون الدال وفتحها .

والأمور تجرى بقدر الله ومقداره وتقديره وأقداره ، ومقاديره .

و (القدرُ) بالفتح لا غير ، ما يقدره الله من القضاء ، وإذا وافق الشىء قالوا : جاء على قدر ، ويقال : قدر الشىء أى قدره من التقدير ، وبابه ضرب وفى الحديث : « إذا غمَّ عليكم الهلال فأقدروا له »[٤] ، أى أتموا ثلاثين ، ويقال : مالى عليه مقدرة بكسر الدال وفتحها أى « قدرة » وسنة قولهم : المقدرة تذهب الحفيظة ، وقد ذكر « المقتدر » سبحانه وتعالى مرتين فى القرآن الكريم ، والمرتين فى سورة القمر . ﴿ . . كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴾

كتب الفخر الرازى : وفى قوله : ﴿ عزيز مقتدر ﴾ لطيفه : وهى أن العزيز المراد منه الغالب ، لكن العزيز قد يكون ، يغلب على العدو ويظفر به ، وفى الأول يكون غير متمكن من أخذه ، لبعده إن كان هارباً ، ولمنعته إن كان محارباً .

قال : أخذ غالب لم يكن عاجزاً ، وإنما كان ممهلاً .

٧١ - المقـــدم ٧٢ - المؤخـــر

(اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شىء قدير) .

سبحان المقدم والمؤخر لما شاء كما شاء بحكمته ، وسبحان المقدم من شاء بالتقوى والإنابة والصدق والاستجابة ، وسبحان من أخر من شاء عن طاعته وعن فرقته ورده إلى حوله وقوته .

وسبحان الذى قدم الأبرار وأخر الفجار ، وسبحان الذى يقرب ويبعد ، فمن قربه فقد قدمه ، ومن أبعده فقد أخره .

وسبحان الذى يقدم بعض الأشياء على بعض بأمره ، إما بالوجود كتقديم الأسباب على مسبباتها ، أو بالشرف كتقديم الأنبياء والصالحين من عباده .

---

(١) سورة القمر الآيتان ٥٤ ، ٥٥

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب الصيام) حـ٣ صـ٣٣ وأخرجه مسلم فى (كتاب الصيام) باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال برقم :١٠٨٠/٣

وصلى الله على سيدنا محمد الذى قدمه ربه على جميع خلقه : قال تعالى : ﴿ .. قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ﴾[١] .. وقال تعالى : ﴿ لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أوَّل المسلمين ﴾[٢] . وقال تعالى : ﴿ قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين وأُمرت لأن أكون أوَّل المسلمين ﴾[٣] .

كان رسول الله - ﷺ - يدعو بهذا الدعاء : « اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى وإسرافى فى أمرى وما أنت به أعلم منى ، اللهم أغفر لى خطاياى وعمدى وجهلى وجدِّى وهزلى وكل ذلك عندى اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت المقدم وأنت المؤخروأنت على كل شىء قدير »[٤] .

ثم لنتدبر معاً هذه الآيات البينات : قوله تعالى :

﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدَّم وأخر ﴾[٥] ، وقوله تعالى :

﴿ قال لا تختصموا لدى وقد قدَّمت إليكم بالوعيد ﴾[٦] ، وقوله تعالى :

﴿ ولا تَحْسَبَنَّ الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾[٧] .

٧٣ - الأول

(هو الأول قبل كل شىء بلا بداية) .

سبحان الأول قبل كل شىء بلا بداية ، والآخر بعد كل شىء بلا نهاية ، وسبحان الموجود الواجب الوجود ، الأول لكل ما سواه ، المتقدم على كل ما عداه ، وهذه الأولية وهذا التقدم ، ليس بالزمان ولا بالمكان ولا بأى شىء ، فى حدود العقل أو محاط العلم .

والله سبحانه « ظاهر باطن » فى كونه أولاً : هو الأول ، أظهر من كل ظاهر ، لأن العقول تشهد بأن المحدثات لها موجد متقدم عليها ، فكونه تعالى أولاً واضح جداً من هذه الجهة .

وهو الأول « أبطن من كل باطن » لأنك إذا أردت أن تعرف حقيقة تلك الأولية عجزت ، لأن كل ما أحاط به عقلك وعلمك ، فهو محدود عقلك وعلمك ، فيكون متناهياً ، فتكون الأولية خارجة عنه ، وليس فى حدود العقل إلا أن يتدبر القرآن :

﴿ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ﴾[٨] .

قيل : ويجوز أن يكون معنى ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ أنه هو « الأول » لم يكن قبله شىء .

---

(١) سورة الانعام آية : ١٤

(٢) سورة الأنعام آية : ١٦٣

(٣) سورة الزمر الآيتان : ١١ ، ١٢

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب الدعوات) حـ٨ صـ١٠٥ ، ورواه مسلم فى صحيحه فى (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب التعوذ من شر ماعمل ومن شر مالم يعمل حـ٤ صـ٢٠٨٧ رقم : ٢٧١٩/٧٠

(٥) سورة القيامة آية : ١٣

(٦) سورة ق آية : ٢٨

(٧) سورة ابراهيم آية : ٤٢

(٨) سورة الواقعة آية : ٦٠

٧٤ - الآخـــر

(هو الآخر بعد كل شىء بلا نهاية) .

سبحان الآخر الأبدى الباقى الدائم بلا نهاية ، وسبحان الله رب الآخرة والأولى .

﴿ الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير ﴾[١] .

عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو بهؤلاء الكلمات : « يا كائن قبل أن يكون شىء والمكون لكل شىء والكائن بعدما لا يكون شىء : أسألك بلحظة من لحظاتك الحافظات الغافرات الاجيات المنجيات »[٢] .

﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم ﴾ .

٧٥ - الظـاهـر

(وأنت الظاهر فليس فوقك شىء) .

سبحان الظاهر وجوده لكثرة دلائله ، وهو البادى بالأدلة عليه وفى أفعاله ، فلا يمكن نجحد وجوده ، وهو الظاهر بحججه الباهرة ، وبراهينه النيرة ، وشواهد أحلامه الدالة على ثبوت ربوبيته ، وصحة وجدانيته .

« والظاهر » هو الغالب العالى ، ومنه قوله تعالى :

﴿ ... فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾[٣] . أى : فأصبحوا غالبين عالين .

قيل أن عثمان - رضى الله عنه - سأل النبى ﷺ عن تفسير : ﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ فقال له النبى ﷺ (ما سألنى أحد تفسيرها ، لا إله إلا الله ، والله أكبر وسبحان الله وبحمده استغفر الله لا حول ولا قوة إلا بالله الأول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير »[٤] .

---

(١) سورة سبأ آية : ١

(٢) أخرجه كنز العمال برقم : ٤٩٩٨

(٣) سورة الصف آية : ١٤

(٤) أخرجه ابن كثير فى تفسيره ، فى تفسير سورة الزمر حـ٧ صـ٦١ طبع دار الفكر ونبه على ضعفه .

٧٦ - الباطن

(وأنت الباطن . فليس دونك شىء) .

سبحان الباطن حقيقة ذاته ، فلا تكنهها العقول ، وسبحان من احتجب عن إدراك الحواس ، مع شدة ظهوره ، وكمال نوره ، وسبحانه من ليس له شبيه ولا ضد .

وسبحان الباطن على كل شىء رحمة وعلماً ، وسبحانه الذى أسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة ، ومالنا من دون الله من ولى ولا نصير .

عن أبى هريرة عن النبى ﷺ هذا الدعاء :

« اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شىء خالق الحب والنوى منزل التوراة والانجيل والقرآن أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها . اللهم أنت الأول فليس قبلك شىء وأنت الآخر فليس بعدك شىء وأنت الظاهر فليس فوقك شىء وأنت الباطن فليس دونك شىء أقض عنا الدين واغننا من الفقر »[١] .

وقد ذكر « الأول والآخر والظاهر والباطن » - سبحانه وتعالى - مرة واحدة فى القرآن العظيم ، فى الآية الثالثة من سورة الحديد :

﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم ﴾[٢] .

وكتب الفخر الرازى : سمعت والدى - رحمه الله - يقول : إنه كان يروى أنه لما نزلت الآية : ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم ﴾ أقبل المشركون نحو البيت وسجدوا .

٧٧ - الـوالى

﴿ وما لهم من دونه من وال ﴾[٣] .

سبحان المالك للأشياء ، والمتولى لها ، والمتصرف فيها كيف يشاء ، وهو المنفرد بالتدبير ، القائم على كل شىء ، ولا دوام ولا بقاء إلا بإذنه ، وكل شىء يجرى بحكمه وبأمره .

ويحتمل أن يكون الوالى بمعنى المنعم بالعطاء الدافع للبلاء . ولنتدبر الآية الحادية عشرة من سورة الرعد :

---

(١) أخرجه مسلم فى (كتاب الذكر والدعاء) بأرقام ٦١ ،٦٢ ، ٦٣ ورواه الترمذى برقم :٣٤٨١ وابن ماجه رقم :٣٨٣١
(٢) سورة الحديد آية : ٣
(٣) سورة الرعد آية : ١١

﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴾(١) .

٧٨ - المتعالى

﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾(٢) .

سبحان البالغ فى العلوّ ، المتعالى بوجوب وجوده ، رفيع الدرجات ذو العرش .

وقيل : المتعالى ، معناه الرفيع فى كبريائه وعظمته ، وعلا مجده عن كل ما يدرك أو يفهم من أوصاف خلقه ، فكل من اسمه المجيد والعلى والعظيم والكبير والمتعالى ، يدخل فى الذى يليه بمعناه طرداً وعكساً : فهو العظيم فى مجده ، المجيد فى عظمته ، العلى فى ذلك ، والمجيد العظيم فى علوّه ، الكبير فى مجده وعلوّه وعظمته ، العظيم المجيد العلى فى كبريائه ، وهو تعالى ، المتعالى فى ذلك كله .

قال رسول الله ﷺ : « بئس عبدٌ تخيل واختال ونسى الكبير المتعال »(٣) .

وقد ذكر « المتعالى » سبحانه ، مرة احدة فى الكتاب العظيم فى الآية التاسعة من سورة الرعد .

﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾ .

٧٩ - البر

﴿ إنه هو البر الرحيم ﴾(٤) .

سبحان العطوف على عباده بلطفه ، الذى من على السائلين بعطائه . وعلى العابدين بجميل جزائه ، وسبحان الذى منه كل مبرة وإحسان . والبر بفتح الباء معناه : فاعل البر بكسرها ، أى الإحسان ، وهى كلمة جامعة لكل صفات الخير ، وهو من أسماء الله تعالى .

وفى اللغة « البر » هو الاتساع كما يرى المفسرون ، واللغويون أن البر هو الصلة والخير والاتساع فى الإحسان والصدق . ويجوز أن يكون معنى البر الكثير الطاعة ، وجمعه : أبرار . ومن المجاز : فلان يبر ربه ، أى : يطيعه ، وفى هذا يكون البر إسم جامع للطاعات وأعمال الخير المقربة إلى الله ، أو اسم جامع لجميل الخصال ولكل فعل مرضى .

وطاعة الله سبحانه هى عبادته تعالى وبر الوالدين والتوسع فى الإحسان إليهما ، والجنة تحت أقدام الأمهات .

---

(١) سورة الرعد آية : ١١
(٢) سورة الرعد آية : ٩
(٣) أخرجه الترمذى برقم ٢٤٥٠ فى أبواب صفة القيامة
(٤) سورة الطور آية : ٢٨

والبار : من يصدر عنه البر والطاعة وجمعه بررة . قال تعالى :

﴿ بأيدى سفرة كرام بررة ﴾[(١)] .

وأولى بالإنسان أن يكون مشتغلاً بأعمال البر ، واستباق الخيرات ، وأن لا يضمر الشر ، ولا يؤذى أحداً ، فإن البار هو الذى لا يؤذى . ولذا قيل : « البر شىء هين وجه طلق وكلام لين » وعن ابن عمر رضى الله عنهما . قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لاينام كما تزرع تحصد وكما تدين تدان »[(٢)] .

ورضاء الرب فى رضاء الوالدين ، فلا أقل من البر بهما وشدة الإحسان إليهما ، وبالقول الكريم والدعاء لهما :

وسبحان ربى الحنان المنان ، الذى من على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وهو الذى من على المؤمنين بأن جعلهم من أهل اليمين ، وهو الذى ألهمهم القيام بصالح الأعمال ، وهو الذى رزقهم القبول وقبول أحسن ما عملوا . . وهو الذى يتجاوز عن سيئاتهم .

﴿ ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون ﴾[(٣)] .

فياله من بر من ذى المن والكرم . . . البر الرحيم .

قال تعالى :

﴿ ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ، حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال : رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لى فى ذريتى إنى تبت إليك وإنى من المسلمين . أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون ﴾[(٤)] .

وقال تعالى :

﴿ . . . إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم . إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ﴾[(٥)] .

وقد ذكر « البر الرحيم » مرة واحدة فى سورة الطور من القرآن الكريم .

---

(١) سورة عبس الآيتان : ١٥ ، ١٦

(٢) أخرجه العجلونى فى كشف الخفاء برقم ٩٠٢ وقال : رواه ابونعيم وابن عدى والديلمى عن ابن عمر ، ورواه عبدالرزاق فى الزهد عن ابى قلابة مرسلا ، وأحمد عن ابى الدرداء موقوفا

(٣) سورة الزمر آية : ٣٥

(٤) سورة الأحقاف الآيتان : ١٥ ، ١٦

(٥) سورة الطور الآيات : ٢٦ - ٢٨

٨٠ - التـواب

﴿ ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾[(١)] .

سبحان الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات وهو التواب الحكيم ، وسبحان الذى يقابل الدعاء بالعطاء ، والاعتذار بالاغتفار ، والإنابة بالاجابة . وفى اللغة ، يقال : تاب الله عليه ، أى غفر له وأنقذه من المعاصى . والتوبة لغة : الرجوع . يقال : تاب إذا رجع ، وآب أى رجع قال تعالى :

﴿ فإنه كان للأوابين غفوراً ﴾[(٢)] .

ويقال : ناب بمعنى رجع ، قال تعالى : ﴿ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له ﴾[(٣)] أى ارجعوا .

ويقال : ثاب بالمثلثة إذا رجع .

فتحصل أنه يقال : تاب ، وثاب ، وناب ، أناب ، وآب وكلها بمعنى : رجع .

والتوبة بالنسبة للعباد ، هى الندم على المعصية والرجوع إلى الطاعة ، والله تعالى يتوب على من يشاء من عباده برجوعه بالقبول .

وقيل : إذا تاب العبد إلى الله بسؤاله تاب الله عليه بنواله .

والتوبة الخالصة هى لقاء الله تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾[(٤)] .

وقد ذكر « التواب » ـ سبحانه ـ أحد عشرة مرة فى القرآن الكريم .

٨١ - المنتقم

﴿ والله عزيز ذو انتقام ﴾[(٥)]

سبحان الذى نخشى نقمته لقدرته وعظمته وهو الذى نرجو رحمته .

وإنا ندعوه ، تعالى ، خوفاً وذمعاً ، قال تعالى :

﴿ إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً ﴾[(٦)] .

---

(١) سورة التوبة آية : ١١٨
(٢) سورة الاسراء آية : ٢٥
(٣) سورة الزمر آية : ٥٤
(٤) سورة الكهف آية : ١١٠
(٥) سورة آل عمران آية : ٤
(٦) سورة الانسان الآيتان : ١٠ ، ١١

وقال تعالى :

﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾[(١)] .

وقال تعالى :

﴿ يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾[(٢)]

وقال تعالى :

﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾[(٣)] .

٨٢ - العفو

﴿ إن الله لعفو غفور ﴾[(٤)] .

الحمد لله الذى يمحو الذنوب ، ويتجاوز عن السيئات ، وهو المريد لمحو الزلة والتجاوز عنها بكرمه .

قال رسول الله ﷺ : « ... وأتبع السيئة الحسنة تمحها .. »[(٥)] . والعفو ، إزالة الأثر ، ومنه عفت الديار ، وأن الغفران يشعر بالستر ، والعفو بالمحو .

وقيل معنى العفو : الذى يعطى الكثير ، ويهب الجزيل ، مأخوذ من قولهم : عفا مال فلان أى كثر .

وفى اللغة يقال : هذا من عفو مالى أى من حلاله وطيبه . ويقال : خذ ما عفا وصفا ، وخذ عفوه وصفوه وعفوته وصفوته .

ويقال : أعطيته عفواً من غير مسألة : ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾[(٦)] أى : فضل المال ، أى الفاضل عن الحاجة .

ويقول : أطعمونا من عوافيكم ، دامت بكم عوافيكم ، جمع عافى القدر وهو بقية المرق فيها .

ويقال : « على الكريم عافيته » أى سؤاله . ويقال : فى واديهم كلأ عاف ، وعشب واف ، أى كثير .

وقد ذكر : « العفو » سبحانه خمس مرات فى القرآن الكريم : أربع مرات مع الاسم « الغفور » والخامسة مع الاسم « القدير » .

---

(١) سورة الدخان آية : ١٦

(٢) سورة النور آية : ٣٧

(٣) سورة الاسراء آية : ٥٧

(٤) سورة الحج آية : ٦٠

(٥) أخرجه : الترمذى حـ٤ ص٣١٢ رقم ١٩٨٧ كتاب البر والصلة ـ باب ماجاء فى معاشرة الناس .

(٦) سورة البقرة آية : ٢١٩

١ - ﴿ .. إن الله لعفو غفور ﴾[١] .
٢ - ﴿ .. وإن الله لعفو غفور ﴾[٢] .
٣ - ﴿ .. إن الله كان عفواً غفوراً ﴾[٣] .
٤ - ﴿ فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوا غفوراً ﴾[٤] .
٥ - ﴿ إن تبدو خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوا قديراً ﴾[٥] .

٨٣ - الرءوف

﴿ ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله ، والله رءوف بالعباد ﴾[٦] .

سبحان ربى الرءوف الرحيم ، الذى كلف الثرى بما لم يكلف به المسكين ، وأخذ المقيم بما لم يأخذ به المسافر وخفف الفرائض فى حال الضعف .

والحمد لله الذى يحب أن تؤتى رخصه ، كما يحب أن تؤتى عزائمه .

وفى اللغة ، وفى معجم ألفاظ القرآن الكريم ، لمجمع اللغة العربية - يقال : رأف به ، أى أشفق عليه من مكروه يحل به . والرأفة : أشد الرحمة - والرأفة من الله : دفع السوء .

وإليكم هذا الدعاء الذى فيه سبعة أسماء : « اللهم افعل بى وبهم عاجلاً وآجلاً ، فى الدين والدنيا والآخرة ما أنت له أهل ولا تفعل بنا يامولانا ما نحن له أهل ، إنك أنت غفور حليم ، جواد كريم ، رءوف رحيم » .

وقد ذكر « الرءوف » سبحانه عشر مرات فى الكتاب الكريم وهو الرءوف الرحيم .

ثم لنتدبر هذه الآية الكريمة :

﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد ﴾[٧] .

---

(١) سورة الحج آية : ٦٠
(٢) سورة المجادلة آية : ٢
(٣) سورة النساء آية : ٤٣
(٤) سورة النساء آية : ٩٩
(٥) سورة النساء آية : ١٤٩
(٦) سورة البقرة آية : ٢٠٧
(٧) سورة آل عمران آية : ٣٠

٨٤ ـ مالك الملك

﴿ تؤتى الملك من تشاء ﴾[١] .

سبحان الذى له التصرف المطلق ، مالك الملك الذى تنفذ مشيئته فى ملكه كيف يشاء ، وكما يشاء ، لا مرد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، والملك هنا بضم الميم ، مصدر بمعنى السلطان ، والقدرة . وقيل : الملك بمعنى المملكة . والمالك بمعنى القادر التام القدرة .

وتبارك الذى بيده الملك ، مالك الملك ، الذى يملك كل شىء ، مالك السمع والأبصار والأفئدة ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ﴿ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء ، لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾[٢] .

وقد ذكر « مالك الملك » سبحانه ، مرة واحدة فى الكتاب العزيز . وذلك فى الآية المحكمة البينة ، السادسة والعشرين من سورة آل عمران : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ﴾[٣] .

٨٥ ـ ذو الجلال والاكرام

﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ﴾[٤] .

سبحان الذى لا جلال ولا كمال ولا شرف إلا وهو له . ولا كرامة ولا إكرام إلا وهو صادر منه . فالجلال له فى ذاته ، والكرامة فائضة منه على خلقه . وقيل : « ذو الجلال » اشارة إلى صفات الكمال .

﴿ والاكرام ﴾ اشارة إلى صفات التنزيه .

وقيل ﴿ الجلال ﴾ هو الوصف الحقيقى .

﴿ والاكرام ﴾ هو الوصف الاضافى .

وقيل : ﴿ الجلال ﴾ صفة ذاته ـ سبحانه .

﴿ والاكرام ﴾ صفة فعله ، تعالى .

جاء فى بعض الروايات أنه اسم الله الأعظم ، فقد قيل فى ذلك أنه كان ﷺ ماراً فى طريق ، إذ رأى أعرابيا يقول : « اللهم إنى أسألك باسمك الأعظم العظيم الحنان المنان مالك الملك ذو الجلال والاكرام » .

(١ ، ٣) سورة آل عمران آية : ٢٦
(٢) سورة غافر آية : ١٦
(٣) سورة آل عمران آية : ٢٦
(٤) سورة الرحمن آية : ٢٧

فقال النبى ﷺ : « إنه دعا باسم الله الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى »(١) .

وقد ذكر ﴿ ذو الجلال والاكرام ﴾ مرتين فى القرآن العظيم . والمرتين فى سورة الرحمن :

﴿ ... ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ﴾(٢) .

﴿ تبارك اسم ربك ذى الجلال والاكرام ﴾(٣) .

٨٦ - المقسط

﴿ وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ﴾(٤) .

سبحان المقسط ، القائم بالقسط ، المقيم للعدل ، العادل فى الحكم . وسبحان الذى ينتصف للمظلوم من الظالم ، وكماله فى أن يضيف إلى ارضاء المظلوم إرضاء الظالم ، وذلك غاية العدل والانصاف ولا يقدر عليه إلا الله تعالى . ومثاله ما روى عن النبى ﷺ أنه قال : « بينما رسول الله جالس إذ ضحك حتى بدت ثناياه ، فقال عمر : بأبى أنت وأمي يا رسول الله ما الذى أضحكك ، قال : رجلان من أمتى جثياً بين يدى رب العزة فقال أحدهما : يا رب خذ لى مظلمتى من هذا ، فقال الله عز وجل : رد على أخيك مظلمته . فقال : يا رب لم يبق من حسناتى شىء ؟ فقال عز وجل للطالب : كيف تصنع بأخيك ولم يبق من حسناته شىء ، فقال : يا رب فليحمل عنى من أوزارى .. ثم فاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء ، وقال : إن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس أن يحمل عنهم من أوزارهم .. قال : فيقول الله عز وجل أى للمتظلم : ارفع بصرك فانظر فى الجنان ، فقال : يا رب أرى مدائن من فضة ، وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ لأى نبى هذا ؟ أو لأى صديق هذا ؟ أو لأى شهيد هذا ؟ قال الله عز وجل : لمن أعطى الثمن . فقال : يا رب : ومن يملك ذلك ، قال : « أنت تملكه » . قال : بماذا يا رب ؟ فقال : « بعفوك عن أخيك » قال : يا رب قد عفوت عنه . قال الله عز وجل : « خذ بيد أخيك فأدخله الجنة » ثم قال ﷺ « اتقوا الله . اتقوا الله . وأصلحوا ذات بينكم ، فإن الله يعدل بين المؤمنين يوم القيامة »(٥) .

٨٧ - الجامع

﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ﴾(٦) .

سبحان الذى جمع الكمالات كلها ذاتا ووصفاً ، وفعلاً . فليس كذاته ذات ، ولا كصفاته ، صفات ، ولا كفعله فعل .

---

(١) أخرجه الطحاوى فى شكل الاثار حـ١ ص٦٢ عن أنس رضى الله عنه .

(٢) سورة الرحمن آية : ٢٧

(٣) سورة الرحمن آية : ٧٨

(٤) سورة يونس آية : ٥٤

(٥) أخرجه فى كنز العمال برقم ٤٣٠٩٨ وعزاه الى الحاكم عن أنس والحديث فى المستدرك للحاكم فى (كتاب الأهوال) حـ٤ صـ٥٧٦ وقد قال : « فإن الله يصلح بين المسلمين » .

(٦) سورة التغابن آية : ٩

وسبحان جامع الناس ليوم لا ريب فيه :

﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ، ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴾ .

و « يوم يجمع » هو يوم القيامة ، يسمى بذلك ، لأن الله تعالى يجمع فيه بين الأولين والآخرين ، من الانس والجن ، وجميع أهل السماء والأرض ، وبين كل عبد وعمله ، وبين الظالم والمظلوم ، وبين كل نبى وأمته ، وبين ثواب أهل الطاعة ، وعتاب أهل المعصية .

« والتغابن » تفاعل من الغبن ، وهو فوت الحظ ، والمراد بالمغبون من غبن من منازله ومنازل ، أهله فى الجنة ، وهذا التغابن أى التفاعل ليس من أثنين . فالمغابنة بين الشخص ونفسه ، فيظهر يومئذ غبن كل مؤمن بتقصيره فى الإحسان ، والمغابنة على سبيل التجريد ، وسبحان الجامع الذى جمع بين قلوب الأحباب ، وألف بين القلوب :

قال تعالى :

﴿ ... واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ﴾[1] .

وقال تعالى :

﴿ وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾[2] .

٨٨ - الغنى

﴿ وربك الغنى ذو الرحمة ﴾[3] .

سبحان الغنى الذى لا يحتاج إلى شىء فى ذاته ، ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ، وهو المستغنى عن كل ما سواه ، والمفتقر إليه كل ما عداه .

قال تعالى :

﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد ﴾[4] .

وقيل فى معنى « الغنى » : أنه الكامل بماله وبما عنده ، فلا يحتاج معه إلى غيره ، وربنا جل ثناؤه بهذه الصفة ، لأن الحاجة نقص ، والمحتاج عاجز عما يحتاج إليه إلى أن يبلغه ويدركه ، وللمحتاج إليه

---

(١) سورة آل عمران آية : ١٠٣
(٢) سورة الأنفال آية : ٦٣
(٣) سورة الأنعام آية : ١٣٣
(٤) سورة فاطر آية : ١٥

فضل بوجود ما ليس عند المحتاج ، فالنقص منفى عن الغنى المطلق بكل حال ، والعجز غير جائز عليه سبحانه ، ولا يمكن أن يكون لأحد عليه فضل .. إذ كل شىء سواه خلق له ، وبدع أبدعه لا تملكه من أمره شيئاً ، وإنما يكون كل شىء كما يريد الله خالق كل شىء .

والفقير ما سوى الله تعالى ، وهو « سبحانه » الغنى عن العالمين .

وروى عن النبى ﷺ أنه قال : « ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس »[(١)] .

فغنى النفوس هو العفاف فأن أبت
فجميع ما فى الأرض لا يكفيها

وأعلى درجة الغنى ، الاكتفاء بالموجود ، فلا غنى إلا غنى النفس . وقد يكون الإنسان فقيراً جداً ، وعند الناس متحملاً غنياً . كما قال تعالى : ﴿ **يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف** ﴾ فسبحان الذى يعطى من يشاء ويكفيه ، ثم إذا شاء يرضيه .

وقد ذكر « الغنى » ثمان عشرة مرة فى الكتاب الكريم :

وهو الغنى الحميد وهو غنى حليم وهو غنى كريم وهو الغنى ذو الرحمة ، وسبحانه هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض .

قال تعالى :

﴿ **.. ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم** ﴾[(٢)] .

وقال تعالى :

﴿ **قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض إن عندكم من سلطان بهذا ؟ اتقولون على الله ما لاتعلمون ؟** ﴾[(٣)] .

٨٩ - المغنى

﴿ **وأنه هو أغنى وأقنى** ﴾[(٤)] .

سبحان معطى الغنى والكفاية لمن شاء من عباده ، على طبق ما اقتضته حكمته ، وسبقت به مشيئته ، فهو الذى يعطى السائلين سؤالهم .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ٢ ص٧٢٦ كتاب الزكاة باب ليس الغنى عن كثرة العرض رقم ١٢٠/١٠٥٧
(٢) سورة النمل آية : ٤٠
(٣) سورة يونس آية : ٦٨
(٤) سورة النجم آية : ٤٨

قال تعالى :

﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾[١] .

والمغنى الحق ، هو الذى لا حاجة له إلى أحد من الخلق أصلاً ، والذى يحتاج ومعه ما يحتاج إليه ، فهو غنى مجازاً .

ومن عرف أن الله تعالى هو الغنى المغنى .. استغنى بالاعتماد عليه .

قال تعالى :

﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾[٢] .

وقال تعالى :

﴿ ... وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم ﴾[٣] .

٩٠ ـ المـانع

(اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت) .

سبحان الذى منع البلاء حفظاً وعناية ، ويمنع العطاء عمن يشاء ابتلاء أو حماية .

وسبحان الذى يعطى الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب ، ولا يعطى الآخرة الا لمن يحب .

وهذا الاسم لم يرد فى القرآن لكنه مجمع عليه فقد ذكر فى كل من رواية الوليد ورواية زهير فى الحديث النبوى الشريف .

وجاء فى صحيح البخارى أن النبى ﷺ كان يقول دبر كل صلاة مكتوبة (لاإله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد)[٤] .

وسبحان الذى يرد أسباب الهلاك والنقصان فى الأديان والأبدان ، بما يخالفه من أسباب الحفظ ، ومن فهم معنى « الحفيظ » فهم معنى المانع .

وأن المنع ايراد الحفظ ، وقد يكون الحفظ ايراد المنع .

وكل حافظ مانع ، وليس كل مانع حافظ إلا إذا كان مانعاً مطلقاً لجميع الأسباب المهلكة ـ فسبحان من قال :

(١) سورة ابراهيم آية : ٣٤
(٢) سورة الضحى آية : ٨
(٣) سورة التوبة آية : ٢٨
(٤) أخرجه البخارى بحاشية السندى حـ١ صـ١٥٣ كتاب الصلاة باب الذكر بعد الصلاة .

﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم ﴾(١) .

٩١ - الضـــار

﴿ قل لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ﴾(٢) .

٩٢ - النافع

﴿ قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ﴾ .

سبحان الذى يُصيب من يشاء من عباده برحمته ، وهو الذى يملك الضر والنفع ، وهو على كل شىء قدير ، وقد يكون من الضر نفعاً ، أونوعاً من أنواع العلاج ، للذين هم بربهم لا يشركون .

قال تعالى :

﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون . ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ﴾(٣) .

وقال تعالى :

﴿ وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ﴾(٤) .

وسبحان الذى بيده أسباب كل شىء مسخرات بأمره .

﴿ .. وليس بضارهم شيئا الا بإذن الله .. ﴾(٥) وأكبر دليل قصة إبراهيم عليه السلام : أولا بإن السكين لا تقطع بنفسها فى ولده اسماعيل .

وثانيا : بأن النار لا تحرق نفسها ، بل كانت برداً وسلاماً على إبراهيم بأمر الله . اللهم إنا لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه . فى الدنيا ، ويوم القيامة .

---

(١) سورة يونس آية : ١٠٧

(٢) سورة يونس آية : ٤٩

(٣) سورة النحل الآيتان : ٥٣ ـ ٥٤

(٤) سورة الروم الآية : ٣٣

(٥) سورة البقرة الآية : ١٠٢

قال تعالى :

﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾[١] .

وقال تعالى :

﴿ قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً الا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾[٢] .

وقال تعالى :

﴿ قل لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ، لكل أمة أجل ، إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾[٣] .

والحمد لله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وهو السميع العليم .

٩٣ - النــــور

﴿ الله نور السماوات والأرض ﴾[٤] .

سبحان الذى نور قلوب الصادقين بتوحيده ، وسبحان الذى نور السماء والأرض بما خلق فيهما من الأنوار .

قال ابن عباس : « النور ، الهادى الرشيد الذى يرشد بهدايته من يشاء ، فيبين له الحق ويلهمه اتباعه » .

وقال الحليمى : « وهو الهادى لا يعلم العباد إلا ما علمهم ، ولا يدركون إلا ما يرهم إدراكه ، فالحواس والعقل فطرته وخلقه وعطيته » .

وقيل : « النور » الظاهر الذى ظهر كل الظهور ، فإن الظاهر فى ذاته المظهر بغيره ، سمى نوراً ، فهو مظهر لكل شىء ، ولكل موجود باخراجه من العدم إلى الوجود .

وقيل : هو الذى منه النور ، والعرب تسمى من منه الشىء باسم ذلك الشىء . وقيل : هو خالق الأنوار ، وقيل غير ذلك .

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١٨٥

(٢) سورة الأعراف الآية : ١٨٨

(٣) سورة يونس الآية : ٤٩

(٤) سورة النور الآية : ٣٥

سأل ابن عباس النبى - ﷺ - « هل رأيت ربك ليلة أسرى بك ؟ قال : نعم نور أنى أراه »[١] .

وكان النبى - ﷺ - يدعو بهذا الدعاء بالغدو ، عند ظهور أول النهار وهو صلاة الفجر : « . . اللهم اجعل لى نوراً فى قلبى ونوراً فى قبرى ونوراً فى سمعى ونوراً فى بصرى ونوراً فى شعرى ونوراً فى بشرى ونوراً فى لحمى ، ونوراً فى دمى ، ونوراً فى عظامى ، ونوراً من بين يدى ، ونوراً من خلفى ، ونوراً عن يمينى ، ونوراً عن شمالى ، ونوراً من فوقى ، ونوراً من تحتى ، اللهم زدنى نوراً ، واعطنى نوراً واجعل لى نوراً »[٢] .

ولنتدبر آية النور ، من سورة النور ، من النور والكتاب المبين الذى أنزله نور السمٰوات والأرض :

﴿ الله نور السمٰوات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم ﴾[٣] .

وقد قال ابن عباس رضى الله عنه ، قوله : « الله نور السمٰوات والأرض » يقول سبحانه وتعالى : هادى أهل السمٰوات والأرض مثل نوره :- مثل هداه فى قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافى يضىء قبل أن تمسه النار ، فإذا مسته النار ازداد ضوءاً على ضوء ، كذلك يكون قلب المؤمن يعمل الهدى قبل أن يأتيه العلم ، فإذا أتاه العلم ، ازداد هدى على هدى ، ونوراً على نور .

قال تعالى : **﴿ وما يعلم تأويله الا الله ﴾**[٤] . .

وقال تعالى : **﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾**[٥] .

٩٤ - الهادى

﴿ وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾[٦] .

سبحان الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، وهو الذى هدى ما خلق لما أراد منه فى دينه ودنياه ، وجميع أمره .

وسبحان المرشد لعباده ، وهو الذى دل المؤمنين إلى الدين الحق .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه حـ١ ص١٦١ كتاب الايمان باب قوله عليه السلام نوراني أراه . انظر سنن الترمذى حـ٥ صـ٣٦٩ رقم ٣٢٨٢ .

(٢) أنظر سنن الترمذى حـ٥ صـ٤٥١ كتاب الدعوات باب ٣٠ مايقول اذا قام من الليل الى الصلاة

(٣) سورة النور آية : ٣٥

(٤) سورة آل عمران آية : ٧

(٥) سورة النور آية : ٤٠

(٦) سورة الحج آية : ٥٤

وسبحان الذى يهدى القلوب إلى معرفته ، والنفوس إلى طاعته ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، وإن الهدى هدى الله .

وقد ورد عن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال :

« سألت عائشة - رضى الله عنها - بأى شىء كان نبى الله - ﷺ - يفتح الصلاة إذا قام من الليل ؟ قالت : « كان إذا قام من الليل كان يفتح صلاته بـ : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . اهدنى لما أختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم »[1] .

وقد ذكر « الهادى » سبحانه بلفظ الاسم مرتين فى القرآن الكريم :

١ - ﴿ ... وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ .
اللهم إنا نسألك أن تهدينا إلى الصراط المستقيم .
٢ - ﴿ ... وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾ .

٩٥ - البديع

﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ﴾[2] .

سبحان الخالق البديع فى ذاته ، ولا يماثله أحد فى صفاته ، ولا فى حكم من أحكامه ، أو أمر من أوامره فهو البديع المطلق ، الذى أبدع الخلق من غير مثال سبق ، وسبحان الذى أظهر عجائب صنعته ، وغرائب حكمته ، يقال هذا شىء بديع إذا كان عديم المثل .

وفى اللغة ب د ع - (أبدع) الشىء اخترعه لا على المثال ، والله بديع السموات والأرض ، أى (مبتدعها) و (البديع) المبتدع أيضا ، وشىء (بدع) بالكسر أى مبتدع ، ومنه قول الله تعالى : ﴿ قل ماكنت بدعاً من الرسل ﴾[3] .

أى ما أنا بأول رسول جاء بالتوحيد ، وذلك ، بأن البدع والبديع ، هو الذى لم يسبق له مثيل .

وعن أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - سمع رجلا يقول :

---

(١) أخرجه مسلم حـ١ صـ٥٣٤ كتاب صلاة المسافرين باب الدعاء فى صلاة الليل وقيامه - أنظر أبوداود فى كتاب الصلاة باب من ذكر أنه يرفع يديه اذا قام من الثنيتين ، وباب مايستفتح به الصلاة من الدعاء .
(٢) سورة الأنعام آية : ١٠١
(٣) سورة الأحقاف آية : ٩

« اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد لا إله الا أنت المنان بديع السموات والأرض ، ذو الجلال والاكرام . أسألك الجنة وأعوذ بك من النار » فقال النبى - ﷺ - : « لقد كاد يدعو الله باسمه الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى »[١] .

وقد ذكر « البديع » سبحانه مرتين فى الكتاب العزيز :

١ - ﴿ بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾[٢]

٢ - ﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء ، وهو بكل شىء عليم ﴾[٣] .

٩٦ - الباقى

﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ﴾[٤] .

سبحان الموجود الواجب وجوده بذاته وهو الدائم الوجود ، الموصوف بالبقاء ، والبقاء لله تعالى ، هو بقاء أبدى أزلى . . من أبد الأبد . . إلى أزل الأزل .

وليست صفة بقائه ودوامه سبحانه وتعالى ، كبقاء الجنة والنار ودوامهما ، ذلك بأن الجنة والنار مخلوقتان كائنتان بعد أن لم تكونا .

فيكون بقاء الجنة والنار أبدياً غير أزلى .

والأبد بالنسبة إلى الجنة ، هو استمرار الوجود إلى ما شاء الله ، ومن شاء فليتدبر هذه الآية الكريمة :

﴿ وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ، عطاء غير مجذوذ ﴾[٥] .

وقد قيل فى معنى الأزلى : هو ما لايكون مسبوقاً بالعدم وهذه الصفة من صفات الله وحده . كما أن كل شىء يستولى عليه الفناء وكل شىء هالك الا وجهه .

وقد قيل أن معنى أزلية الله تعالى وأزلية صفاته ، أنه موجود حيث لا مكان .

فسبحان الموجود الذى ليس لوجوده ابتداء ، وسبحان الباقى .

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ البيهقى فى السنن الكبرى ، وبلفظ : « لقد دعا » ابن ابى شيبه ، وأحمد ، وأبوداود والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، وابن حبان ، والحاكم فى المستدرك ، وسعيد بن منصور فى سننه .

(٢) سورة البقرة آية : ١١٧

(٣) سورة الأنعام آية : ١٠١

(٤) سورة الرحمن آية : ٢٧

(٥) سورة هود آية : ١٠٨

٩٧ - الوارث

﴿ وإنا لنحن نحى ونميت ونحن الوارثون ﴾(١) .

سبحان من له ما فى السمٰوات وما فى الأرض ، رب كل شىء ووارثه ورازقه وراحمه .

وسبحان الباقى بعد فناء خلقه ، الذى ليس لملكه أمد ، وإليه يرجع كل شىء والعمل الصالح يرفعه .

ثم لنتدبر هذا الدعاء من سورة الأنبياء :

﴿ . . . رب لا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين ﴾(٢) .

يا الله ، أنت الوارث الحق المبين : ﴿ رب لا تذرنى فرداً . . ﴾

إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وإذا بعثر ما فى القبور وحصل ما فى الصدور نسألك أن تورثنا من الأرض من الكتاب القول الثابت ، والطيب من القول :

شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، يا من قوله الحق وله الملك يوم ينفخ فى الصور ، يوم هم بارزون ، لايخفى على الله منهم شىء . .

لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار ﴿ . . وأنت خير الوارثين ﴾ .

٩٨ - الرشيد

﴿ ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً ﴾(٣) .

سبحان ربى الرشيد المرشد ، ملهم الرشد لأهل طاعته ، وهو الذى أرشد الخلائق إلى هدايته ، ذى الحبل الشديد والأمر الرشيد .

قال الحليمى ـ رحمه الله ـ « الرشيد » هو المرشد ، سبحانه ، ومعناه الدال على المصالح والداعى إليها ، وهذا من قوله تعالى :

﴿ وهيء لنا من أمرنا رشداً ﴾ .

وقال عز وجل :

﴿ ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾(٤) .

(١) سورة الحجر آية : ٢٣
(٢) سورة الأنبياء آية : ٨٩
(٣) سورة الكهف آية : ١٠
(٤) سورة الكهف آية : ١٧

فإن مهيء الرشد مرشد .

أى هاديا .

والرشد هو الصلاح ، وهو الاستقامة ، وهو خلاف الغىّ والضلال .

ومن دعاء للنبى عليه الصلاة والسلام : « اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى ، وتجمع بها شملى ، وتلم بها شعثى وترد بها الفتن عنى وتصلح بها دينى وتحفظ بها غائبى وترفع بها شاهدى وتزكى بها عملى وتبيض بها وجهى وتلهمنى بها رشدى وتعصمنى بها من كل شىء . . إلى أن يقول - ﷺ - فى هذا الدعاء . . اللهم هذا الدعاء وعليك الاجابة وهذا الجهد وعليك التكلان »[1] وإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ذى الحبل الشديد والأمر الرشيد .

٩٩ - الصبور

﴿ وما نؤخره إلا لأجل معدود ﴾[2] .

سبحان الصبور ، الذى يملى ويمهل ، وينظر ولا يعجل ، ولا يعاجل ولا يسارع إلى الفعل قبل أوانه ، وينزل الأمر بقدر معلوم ولا يؤخرها عن آجالها .

وربما كان معنى الصبور ، هو الذى يسقط العقوبة بعد وجوبها ، وقد ينطلق على من يؤخرها ، فيكون كالحليم الذى لا يعجل بالعقوبة على من يعصاه .

وقد يكون معناه : ملهم الصبر لجميع خلقه .

وفى اللغة : الصبر هو حبس النفس عن الجزع ، وبابه ضرب قال الله تعالى :

﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ﴾[3] .

(واصبر نفسك) أى أحبسها . يقال : صبره أى حبسه وفى حديث النبى - ﷺ - فى رجل أمسك رجلاً وقتله آخر قال : « اقتلوا القاتل واصبروا الصابر »[4] أى أحبسوا الذى حبسه للموت حتى يموت ، ويقال هو صبير القوم : للذى يصبر لهم ومعهم فى أمورهم وهو صبور ومصطبر ومتصبر .

ويقال استعبد الشىء إذا اشتد . ويقال : اصطبرت منه أى اقتصد منه . وفى حديث عثمان : « هذه يدى لعمار فليصطبر » وأصبرنى القاضى : أقصنى وملأ المكيال إلى أصباره ، وأدهق الكأس إلى أصبارها : حروفها وشربها بأصبارها . كلها

وفى الحديث : « سدرة المنتهى صبر الجنة » أى أعلاها .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه حـ٥ صـ٤٥٠ ، ٤٥١ كتاب الدعوات باب تابع لما يقول اذا قام من الليل إلى الصلاة . رقم ٣٤١٩

(٢) سورة هود آية : ١٠٥

(٣) سورة الكهف آية : ٢٨

(٤) أخرجه فى كنز العمال برقم ٣٩٨٣٩ وعزاه إلى ابى عبيد فى الغريب ، والبيهقى عن اسماعيل بن أمية مرسلا .

ولنتدبر القرآن : ،

﴿ إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود . وما نؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد ﴾ [1] .

البحث السابق من كتاب (الأسماء الحسنى) لمؤلفه دكتور/ حسن عز الدين الجمل .

سورة الممتحنة

قال صاحب البصائر :

بصيرة فى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى ﴾ .

السورة مدنية بالاتفاق وآياتها ثلاثة عشر ، وكلماتها ثلاثمائة وأربعون ، وحروفها ألف وخمسمائة وعشر ، مجموع فواصل آياتها (لم نرد) على اللام منها آية : السبيل وعلى الدال آية : الحميد : ولها ثلاثة أسماء . سورة الممتحنة ، سورة الامتحان ، كلاهما لقوله فيها (فامتحنوهن) والثالث : سورة المودة . لقوله (تُلقون إليهم بالمودة) . (وتسرون إليهم بالمودة) . (بين الذين عاديتم منهم مودة) .

معظم مقصود السورة : النهى عن موالاة الخارجين عن ملة الإسلام ، والاقتداء بالسلف الصالح فى طريق الطاعة والعبادة ، وانتظار المودة بعد العداوة ، وامتحان المدعين بمطالبة الحقيقة ، وأمر الرسول بكيفية البيعة مع أهل الستر والعفة ، والتجنب من أهل الزيغ والضلالة فى قوله : **﴿ لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم ﴾** .

المتشابهات :

قوله تعالى : **﴿ تلقون إليهم بالمودة ﴾** وبعده : **﴿ تسرون اليهم بالمودة ﴾** الأول حال من المخاطبين . وقيل : أتلقون إليهم والاستفهام مقدر . وقيل : خبر مبتدأ ، أى أنتم تلقون . والثانى بدل من الأول على الوجوه المذكورة . والباء زيادة عند الأخفش . وقيل بسبب أن تودوا وقال الزجاج : تلقون إليهم أخبار النبى - ﷺ - وسره بالمودة .

قوله : **﴿ كانت لكم أسوة حسنة ﴾** وبعده : **﴿ لقد كان لكم فيهم أسوة ﴾** أنث الفعل الأول مع الحائل ، وذكر الثانى لكثرة الحائل ، وإنما كرر ، لأن الأول فى القول ، والثانى فى الفعل وقيل : الأول فى إبراهيم والثانى فى محمد - ﷺ - .

---

(١) سورة هود الآيات ١٠٣ - ١٠٥

مناسبتها لما قبلها :

١ - إنه ذكر هناك موالاة الذين نافقوا للذين كفروا من أهل الكتاب ، وذكر هنا نهى المؤمنين عن اتخاذ الكفار أولياء ، لئلا يشبهوا المنافقين .

٢ - إنه ذكر هناك المعاهدين من أهل الكتاب ، وذكر هنا المعاهدين من المشركين .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

معانى المفردات

تلقون إليهم بالمودة : أى ترسلون إليهم أخبار الرسول بسبب المودة التى بينكم وبينهم ، يخرجون الرسول وإياكم : أى من مكة ، أن تؤمنوا بالله : أى لأجل إيمانكم با؟ ، ضل : أى أخطأ . وسواء السبيل : أى الطريق المستوى ، وهو طريق الحق ، إن يثقفوكم : أى يظفروا بكم ، وأصل الثقف : الحذق فى إدراك الشىء وفعله ، ومنه رجل يثقف يقف ، بالسوء : أى بما يسوءكم من القتل والأسر والشتم ، وودّوا لو تكفرون : أى وتمنوا كفركم ، أرحامكم : أى قراباتكم ، يفصل بينكم : أى يفرق بينكم من شدة الهول .

المناسبة وإجمال المعنى

روى البخارى ومسلم وغيرهما : « أن سارة التى كانت مغنية ونائحة بمكة أتت المدينة تشكو الحاجة ، فأمر رسول الله - ﷺ - بنى عبد المطلب أن يعطوها ما يدفع حاجتها ، فأعطوها نفقة وكسوة وحملوها ، فجاءها حاطب بن أبى بلتعة (مولى عبد الله بن حُميد بن عبد العزّى) فأعطاها عشرة دنانير وكتب معها كتاباً إلى أهل مكة ، هذا صورته .

(من حاجب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة . إن رسول الله - ﷺ - يريدكم فخذوا حذركم ، فأخبره جبريل به ، فبعث إليها علياً وعماراً وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد وكانوا فرساناً . وقال : أنطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ (موضع) فإن بها ظعينة (امرأة) معها كتاب من حاطب إلى أهل مكة ، فخذوه منها وخلوها فإن أبت فاضربوا عنقها ، فأدركوها فجحدت وحلفت ، فهموا بالرجوع ، فقال عليّ : والله ما كُذِبنا ولا كذب رسول الله - ﷺ - وسلَّ سيفه وقال لها : أخرجى الكتاب ، أو ألقى ما معك من الثياب ، فأخرجته من عقاصِ شعرها ، فأحضر رسول الله - ﷺ - حاطباً وقال له : ما حملك عليه ؟ فقال : يا رسول الله ، ما كفرتُ منذ أسلمت ، ولا غششتك منذ نصحتك ، ولا أحببتهم منذ فارقتهم ، ولكنى كنت امرأ ملصقاً فى قريش ، ولم أكن من أنفسها ، وكل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهلهم وأموالهم ، فأحببت إذ فاتنى النسب فيهم أن أصطنع إليهم يداً يحمون بها قرابتى ، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن دينى ، فصدقه رسول الله - ﷺ - وقبل عذره ، فقال عمر : دعنى يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال - ﷺ - : إنه شهد بدراً ، وما يدريك لعل الله أطلع على أهل بدر فقال : افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، فنزلت : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء** ﴾[1] **- الآية** .

أضواء كاشفة

يا أيها الذين اتصفتم بالايمان ، لا يليق بكم لأجل هذا الوصف ، أن تتخذوا عدو الله وعدوكم أولياء وأصدقاء ، ولوفى الظاهر ، فالله ينهانا عن موالاتهم والاسرار اليهم بأخبارنا ، ولوكان هذا فى الظاهر ، لا عن عقيدة وايمان : لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء حالة كونكم تلقون اليهم بالمودة ، وتسرون إليهم بها ، كما فعل أخوكم حاطب بن أبى بلتعة عن حسن نية ، لا تتخذوهم أولياء والحال أنهم كفروا بما جاءكم من الحق والقرآن ، فأنتم مؤمنون به مصدقون له ، وهم كافرون فبينكم عداوة شديدة فى العقيدة ، فكيف تلتقون ؟ هم كفروا بالله ورسوله ، والحال أنهم يخرجون الرسول وإياكم من دياركم وأموالكم وأوطانكم لا لشىء أبداً ، إلا لأنكم تؤمنون بالله ربكم ، عجبا كيف تجعلونهم أولياء وتسرون إليهم بالمودة ؟ !! إن كنتم خرجتم للجهاد فى سبيل الله ، وابتغاء مرضاته ، فلا تتخذوهم أولياء ، أى : لا تتولوا أعدائى إن كنتم أوليائى .

كيف تلقون إليهم بالمودة ، تسرون إليهم بأخبار الرسول سراً ، وأنا أعلم السر وأخفى ، نعم الله يعلم ما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ، وأخطأ طريق الهدى والحق .

---

(١) أخرجه : البخارى فى المغازى باب غزوة الفتح ، والجهاد والسير باب - الجاسوس ، والتفسير (سورة الممتحنة) - وأخرجه مسلم . كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل أهل بدر وقصة حاطب بن ابى بلتعة حـ٤ صـ١٩٤١ - وانظر الترمذى حـ٥ صـ٣٨١ ، ٣٨٣ كتاب التفسير . باب ٦٠

كيف هذا مع أنهم إن يظفروا بكم ويدركوكم على أى وضع ، يكونوا لكم أعداء ، ويعاملوكم معاملة العدو اللدود ، ويبسطوا اليكم أيديهم بالضرب والسبى والقتل ، وألسنتهم بالشتم والسب والذم ، ولا عجب فإنهم يودون من صميم قلوبهم لو تكفرون .

وما لكم توادون أعداء الله وأعداءكم من أجل قرابتكم وأولادكم ؟ مع أنه لن تنفعكم أرحامكم ولا قراباتكم ، ولن تنفعكم أولادكم وأموالكم فى شىء ، يوم القيامة يفصل بينكم ويقضى بحكمه ، فاعملوا لأجل هذا اليوم ، وأنظروا ماذا قدمتموه لهذا الغد ، وأعلموا أن الله بما تعملون بصير فسيجازيكم على كل عمل .

التفسير

كان سبب نزول صدر هذه السورة الكريمة ، قصة حاطب بن أبى بلتعة ، وذلك أن حاطباً هذا كان رجلاً من المهاجرين ، وكان من أهل بدر أيضا ، وكان له بمكة أولاد ومال ولم يكن من قريش أنفسهم ، بل كان حليفاً لعثمان فلما عزم رسول الله - ﷺ - على فتح مكة لما نقض أهلها العهد ، فأمر النبى - ﷺ - المسلمين بالتجهيز لغزوهم وقال : « اللهم عم عليهم خبرنا » فعمد حاطب هذا ، فكتب كتابا وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة ، يعلمهم بما عزم عليه رسول الله - ﷺ - من غزوهم ، ليتخذ بذلك عندهم يداً فأطلع الله تعالى على ذلك رسول الله - ﷺ - استجابة لدعائه ، فبعث فى أثر المرأة فأخذ الكتاب منها . وهذا بين فى هذا الحديث المتفق على صحته .

قال الامام أحمد بسنده عن مرة إن عبيد الله بن أبى رافع أخبره أنه سمع علياً - رضى الله عنه - يقول : بعثنى رسول الله - ﷺ - أنا والزبير والمقداد فقال : « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة قلنا : أخرجى الكتاب ، قالت : ما معى كتاب ، قلنا ، لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب ، قال : فأخرجت الكتاب من عقاصها فأخذنا الكتاب فأتينا به رسول الله - ﷺ - فإذا فيه من حاطب بن أبى بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله - ﷺ - فقال رسول الله - ﷺ - : « يا حاطب ما هذا » قال : لا تعجل على ، انى كنت امرأ ملصقاً فى قريش ولم أكن من أنفسهم ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات ، يحمون أهليهم بمكة ، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم ، أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتى ، وما فعلت ذلك كفراً ، ولا ارتداداً عن دينى ، ولا رضا بالكفر بعد الاسلام ، فقال رسول الله - ﷺ - : « إنه صدقكم » .

فقال عمر : دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، فقال رسول الله - ﷺ - : « إنه شهد بدراً ، ومايدريك لعل الله أطلع إلى أهل بدر فقال : « أعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »[1] . وزاد البخارى فى كتاب

(١) أنظر تفسير ابن كثير حـ٤ صـ٣٤٥

المغازى فأنزل الله السورة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ﴾ . وقال فى كتاب التفسير قال عمرو ونزلت فيه ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ﴾ وقال لا أدرى الآية فى الحديث أو قال عمرو قال البخارى قال على يعنى ابن المدينى قيل لسفيان : فى هذا نزلت ﴿ لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ﴾ فقال سفيان هذا فى حديث الناس حفظته من عمرو وما تركت منه حرفاً ولا أرى أحداً حفظه غيرى .

وقد أخرجاه فى الصحيحين من حديث حصين بن عبد الرحمن عن سعد بن عبيدة عن أبى عبد الرحمن السلمى عن على قال : بعثنى رسول الله - ﷺ - وأبا مرثد والزبير بن العوام وكلنا فارس وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضد خاخ فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب بن أبى بلتعة إلى المشركين ، فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله - ﷺ - فقلنا : الكتاب ؟ فقالت : ما معى كتاب فأنخناها فالتمسنا ، فلم نر كتاباً فقلنا : ما كذب رسول الله - ﷺ - لتخرجن الكتاب أو لنجردنك ، فلما رأت الجد أهوت إلى حجرتها وهى محتجزة بكساء فأخرجته فانطلقنا بها إلى رسول الله - ﷺ - فقال عمر يا رسول الله : قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فدعنى فلأضرب عنقه ، فقال النبى - ﷺ - : « ما حملك على ما صنعت ؟ » قال حاطب : والله ما بى الا أن أكون مؤمناً بالله ورسوله - ﷺ - ، أردت أن تكون لى عند القوم يد.يدفع الله بها عن أهلى ومالى ، وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله فقال : « صدق لا تقولوا له إلا خيراً » فقال عمر إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين فدعنى فلأضرب عنقه فقال : « أليس من أهل بدر ؟ فقال : لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : أعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة ، أو قد غفرت لكم »[(1)] . فدمعت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم . هذا لفظ البخارى فى المغازى فى غزوة بدر .

وقد روى من وجه آخر عن على قال ابن أبى حاتم بسنده عن الحارث عن على قال : لما أراد النبى - ﷺ - أن يأتى مكة أسر إلى أناس من أصحابه أنه يريد مكة منهم حاطب بن أبى بلتعة وأفشى فى الناس أنه يريد خيبر قال : فكتب حاطب بن أبى بلتعة إلى أهل مكة أن رسول الله - ﷺ - يريدكم ، فأخبر رسول الله - ﷺ - قال فبعثنى - ﷺ - وأبا مرثد وليس منا رجل إلا وعنده فرس فقال : « ائتوا روضة خاخ فإنكم ستلقون بها امرأة معها كتاب فخذوه منها » فانطلقنا حتى رأيناها بالمكان الذى ذكر رسول الله - ﷺ - فقلنا لها : هات الكتاب فقالت ما معى كتاب فوضعنا متاعها وفتشناها فلم نجده فى متاعها فقال أبو مرثد لعله ألا يكون معها فقلت : ما كذب رسول الله - ﷺ - ولا كذبنا فقلنا لها لتخرجنه أو لنعرينه ، فقالت أما تتقون الله ألستم مسلمين فقلنا : لتخرجنه أو لنعرينك قال عمرو بن مرة فأخرجته من حجزتها ، وقال حبيب بن أبى ثابت : أخرجته من قبلها فأتينا به رسول الله - ﷺ - فإذا الكتاب من حاطب بن أبى بلتعة ، فقام عمر فقال : يا رسول الله خان الله ورسوله فائذن لى فلأضرب عنقه فقال رسول الله - ﷺ - : « أليس قد شهد بدراً » قالوا بلى ، قال عمر بلى ، ولكنه قد نكث وظاهر أعداءك عليك ، فقال رسول الله

(1) أخرجه البخارى كتاب المغازى باب فضل من شهد بدرا جـ٣ ص٧ ط/ الحلبى

- ﷺ - : « فلعل الله أطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم إنى بما تعملون بصير » ففاضت عينا عمر ، وقال : الله ورسوله أعلم ، فأرسل رسول الله - ﷺ - إلى حاطب فقال : « يا حاطب ما حملك على ما صنعت ؟ » فقال يا رسول الله إنى كنت امرأ ملصقاً فى قريش ، وكان لى بها مال وأهل ، ولم يكن أحد من أصحابك إلا وله بمكة من يمنع أهله ، وماله ، فكتبت بذلك إليهم ، ووالله يا رسول الله إنى لمؤمن بالله ورسوله ، فقال رسول الله - ﷺ - : « صدق حاطب ، فلا تقولوا لحاطب إلا خيراً »[1] قال حبيب بن أبى ثابت فأنزل الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة** ﴾ الآية .

قد ذكر ذلك أصحاب المغازى والسير فقال محمد بن اسحاق بن يسار فى السيرة حدثنى محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا قال : لما أجمع رسول الله - ﷺ - المسير إلى مكة ، كتب حاطب بن أبى بلتعة كتاباً يخبرهم بالذى أجمع عليه رسول الله - ﷺ - من الأمر فى السير إليهم ، ثم أعطاه امرأة ، زعم محمد بن جعفر إنها من مزينة ، وزعم غيره انها سارة مولاة لبنى عبد المطلب ، وجعل لها جعلاً على أن تبلغه لقريش ، فجعلته فى رأسها ، ثم فتلت عليه قرونها ثم خرجت به ، وأتى رسول الله - ﷺ - الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث على بن أبى طالب والزبير بن العوام فقال : « أدركا أمرأة قد كتب حاطب معها كتاباً إلى قريش يحذرهم ما قد أجمعنا لهم من أمرنا » فخرجا حتى أدركاها بالحليفه حليفة بنى أبى أحمد فاستنزلاها بالحليفة فالتمسا فى رحلها فلم يجدا شيئا ، فقال لها على بن أبى طالب : إنى أحلف بالله ما كذب رسول الله وما كذبنا ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك ، فلما رأت الجد منه قالت : أعرض فأعرض فحلت قرون رأسها ، فاستخرجت الكتاب منها ، فدفعته إليه ، فأتى به رسول الله - ﷺ - فدعا رسول الله - ﷺ - حاطباً فقال : « يا حاطب ما حملك على هذا ؟ » فقال يا رسول الله : أما والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ، ما غيرت ولا بدلت ، ولكنى كنت امرأ ليس لى فى القوم من أهل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل ، فصانعتهم عليهم ، فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله دعنى فلأضرب عنقه ، فإن الرجل قد نافق ، فقال رسول الله - ﷺ - : « وما يدريك يا عمر ، لعل الله قد اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » . فأنزل الله عز وجل فى حاطب : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة - إلى قوله - قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدأ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده** ﴾[2] . إلى آخر القصة .

وروى معمر عن الزهرى عن عروة نحو ذلك ، وهكذا ذكر مقاتل بن حيان أن هذه الآيات نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة ، أنه بعث سارة مولاة بنى هاشم ، وأنه أعطاها عشرة دراهم ، وأن رسول الله - ﷺ - بعث فى أثرها عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب - رضى الله عنهما - فأدركاها بالجحفة ، وذكر تمام القصة على نحو ما تقدم .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير حـ٤ صـ٣٤٥ ، ٣٤٦ تفسير سورة الممتحنة

(٢) انظر سيرة ابن هشام حـ٤ صـ٨٥٨ بعنوان . حاطب ابن أبى بلتعة يرسل لأهل مكة خطابا .

وعن السدى قريبا منه ، وهكذا قال العوفى عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وغير واحد أن هذه الآيات نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة فقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق** ﴾ يعنى المشركين والكفار الذين هم محاربون لله ولرسوله وللمؤمنين ، الذين شرع الله عداوتهم ومصارعتهم ، ونهى أن يتخذوا أولياء وأصدقاء وأخلاء ، كما قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم** ﴾(١) وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد ، وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين** ﴾(٢) وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً** ﴾(٣) . وقال تعالى : ﴿ **لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء الا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه** ﴾(٤) ولهذا قبل رسول الله - ﷺ - عذر حاطب ، لما ذكر أنه إنما فعل ذلك مصانعة لقريش ، لأجل ما كان له عندهم من الأموال والأولاد .

ويذكر هنا الحديث الذى رواه الامام أحمد بسنده عن حذيفة قال : ضرب لنا رسول الله - ﷺ - أمثالا واحداً وثلاثة وخمسة وسبعة وتسعة وأحد عشر قال : فضرب لنا منها مثلا وترك سائرها قال : « إن قوماً كانوا أهل ضعف ومسكنة قاتلهم أهل تجبر وعداء ، فأظهر الله أهل الضعف عليهم ، فعمدوا إلى عدوهم فاستعملوهم وسلطوهم ، فأسخطوا الله عليهم إلى يوم يلقونه »(٥) .

وقوله تعالى : ﴿ **يخرجون الرسول وإياكم** ﴾ هذا مع ما قبله من التهييج على عداوتهم وعدم موالاتهم ، لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم ، كراهة لما هم عليه من التوحيد ، وأخلاص العبادة لله وحده ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **أن تؤمنوا بالله ربكم** ﴾ أى لم يكن لكم عندهم ذنب ، إلا ايمانكم بالله رب العالمين ، كقوله تعالى : ﴿ **وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد** ﴾(٦) وكقوله تعالى : ﴿ **الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله** ﴾(٧) .

وقوله تعالى : ﴿ **إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى** ﴾ أى إن كنتم كذلك ، فلا تتخذوهم أولياء إن كنتم خرجتم مجاهدين فى سبيلى باغين لمرضاتى عنكم ، فلا توالوا أعدائى وأعداءكم ، وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم ، حنقاً عليكم وسخطاً لدينكم .

---

(١) سورة المائدة آية : ٥١
(٢) سورة المائدة آية : ٥٧
(٣) سورة النساء آية : ١٤٤
(٤) سورة آل عمران آية : ٢٨
(٥) أخرجه : ابن كثير فى تفسيره حـ٤ صـ٣٤٧
(٦) سورة البروج آية : ٨
(٧) سورة الحج آية : ٤٠

وقوله تعالى : ﴿ تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ﴾ أى تفعلون ذلك ، وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر ﴿ ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل . ان يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا اليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ﴾ أى لو قدروا عليكم لما اتقوا فيكم من أذى ينالونكم به بالمقال والفعال ﴿ وودوا لو تكفرون ﴾ أى ويحرصون على أن لا تنالوا خيراً ، فعداوتهم لكم كامنة وظاهرة ، فكيف توالون مثل هؤلاء ؟ وهذا تهييج على عداوتهم أيضا .

وقوله تعالى : ﴿ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير ﴾ أى قراباتكم لا تنفعكم عند الله ، إذا أراد الله بكم سوءً ونفعهم لا يصل اليكم ، إذا أرضيتموهم بما يسخط الله ، ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم ، فقد خاب وخسر وضل عمله ، ولا ينفعه عند الله قرابته من أحد ، ولو كان قريبا إلى نبى من الأنبياء .

ولما كانت هذه الآيات الكريمة لها تعلق كبير بالولاء والبراء ، فإننا نسوق هذا البحث القيم ، الذى كتبه الشيخ محمد بن سعيد بن سالم القحطانى عن الولاء والبراء فى العهد المكى ، والعهد المدنى قال :

نتحدث هنا عن الولاء والبراء من خلال سيرة نبينا محمد - ﷺ - ، مستمدين ذلك من كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ - وكتب السير والمغازى .

وقد اعتمدنا فى تقسيم الآيات إلى مكّى ومدنى ، على ما ذكره علماء التفسير وعلوم القرآن من أن المكى : - على الأشهر - هو ما نزل قبل الهجرة والمدنى ما نزل بعدها .

ومن المعروف أن المسلم منذ أن يعلن شهادة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » فإن ذلك يعنى إفراد الله سبحانه وتعالى بالوحدانية والألوهية والربوبية ، وخلع كل ولاء وعبودية ، وطاعة وخضوع ، وخوف ورجاء ، لأى معبود أو متبوع أو مطاع من دون الله ، وقصد هذا الولاء والحب والتعظيم لله سبحانه وتعالى .

وقد نزل الوحى الإلهى أول ما نزل على المصطفى - ﷺ - فى غار حراء بقوله سبحانه :

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ﴾(١) .

ثم بعد ذلك نزل قوله تعالى :

﴿ يا أيها المدثر ، قم فأنذر ﴾(٢) .

وبدأ المصطفى - ﷺ - ، يدعو الناس سراً إلى الإسلام ، وأسلم معه نفر قليل منهم أبو بكر الصديق ، وعلىّ بن أبى طالب ، وخديجة بنت خويلد زوجته - رضى الله عنهم - جميعاً ، وبدأ رسول الله - ﷺ - ، يغرس فى نفوس أصحابه محبة الله ومحبة رسوله ، والاجتماع على ذلك ، وإخلاص الحب والولاء والنصرة للمؤمنين ، وبغض الكفر والشرك وأهله ، وهذا هو لازم كلمة التوحيد « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

---

(١) سورة العلق الآيات : ١ - ٥

(٢) سورة المدثر آية : ١

وهنا نشأت الوشيجة الجديدة ، وشيجة العقيدة فى نفوس المؤمنين ، وبدأ يقر فى نفوسهم أن هذه هى الرابطة الحقيقية ، وهى الرابطة التى تطمئن لها نفس المؤمن ، ومع نمو هذه الغرسة الجديدة ، بدأت تذبل شجرة العصبية الجاهلية ، والروابط الجاهلية ، وبدأت نظرة الريب والاحتقار لتلك الروابط ، تكبر يوماً فيوماً فى نفس كل من آمن بالله ورسوله .

الملتقى الأول وأولى خطوات الطريق

اختار المصطفى - ﷺ - دار الأرقم ، لتلقين من آمن معه أمور هذا الدين ، ولقد كانت هذه الدار هى الملتقى الأول لأولئك القادة العظام ، كانت هى الدار التى بدأ يشع منها ذكر الله وتوحيده فى الأرض .

ترى ما هو حال المسلمين آنذاك ؟ وماذا بعد النطق بالشهادتين ؟ يجيب على ذلك الأستاذ/ سيد قطب رحمه الله فيقول : إنه لم يكن للإسلام والمسلمين فى مكة شريعة ولا دولة ، ولكن الذين كانوا ينطقون بالشهادتين ، كانوا يسلمون قيادهم من فورهم للقيادة المحمدية ويمنون ولاءهن من فورهم للعصبة المسلمة ، وكان الرجل حين يدخل فى الإسلام يخلع على عتبته كل ماضيه فى الجاهلية ، ويبدأ عهداً جديداً ، منفصلاً كل الانفصال عن حياته التى عاشها فى الجاهلية ، إنه يقف من كل ما عهده فى جاهليته موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف . « لقد كانت هناك عزلة شعورية كاملة بين ماضى المسلم فى جاهليته وحاضرة ، فى إسلامه ونشأت عن هذه العزلة عزلة فى صلاته بالمجتمع الجاهلى من حوله وروابطه الاجتماعية أيضاً » .

« إنه قد انفصل نهائياً من بيئة الجاهلية ، واتصل نهائياً ببيئته الإسلامية ، حتى لو كان يأخذ من بعض المشركين ، ويعطى فى عالم التجارة والتعامل اليومى .

فالعزلة الشعورية شىء والتعامل اليومى شىء آخر .

وحين انخلع المسلم من عقيدة الشرك إلى عقيدة التوحيد ، ومن تصور الجاهلية إلى تصور الإسلام ، فإنه أيضاً كان ينسلخ من القيادة الجاهلية ، وينزع ولاءه من الأسرة والعشيرة والقبيلة ، ويترجم ذلك إلى واقع وحقيقة يقوم عليها الإسلام ، وهذا هو الذى أزعج « الملأ » من قريش !

« أزعجهم زحف الإسلام وأزعجهم القرآن ، ولم يزعجهم من قبل أن (الحنفاء) اعتزلوا معتقدات المشركين وعباداتهم ، واعتقدوا بألوهية الله وحده ، وقدموا له الشعائر وحده ، فهذا لا يهم الطاغوت كما يفهم بعض الطيبين الخيرين اليوم الذين لا يدركون ولا يعرفون حقيقة الإسلام .

« إنما الإسلام هو تلك الحركة المصاحبة للنطق بالشهادتين ، ثم الانخلاع من المجتمع الجاهلى وتصوراته وقيمه وقيادته وسلطانه وشرائعه ، والولاء لقيادة الدعوة الإسلامية ، التى تريد أن تحقق الإسلام فى عالم الواقع ، ولذلك قاوم « الملأ » من قريش هذه الدعوة بشتى الأساليب ، والتقى المؤمنون على حب الله ورسوله ، فكان لقاء عميقاً ، لأن كلا منهم جاء إلى الله ورسوله يتلقى منه ، ويهتدى بهديه ، ويتوجه إليه ، وأحس كل منهم نحو أخيه برباط من نوع جديد ، يربطه بأخوته فى الله ، إنه يحبه كنفسه مع أنه ليس من قبيلته ولا بينهما آحدة دم .

وأخذ القرآن الكريم ينزل حسب النوازل والحوادث على ما يشاء الله سبحانه وتعالى ، لتربية الأمة على أسس العقيدة ، فكان الولاء والبراء يزيد كلما ازدادت التكاليف ، وكان من الطرق التى سلكها القرآن فى عرض هذه العقيدة ضرب المثل ، لأنه كما يقال : بالمثال يتضح المقال ، ومعلوم أن كلام الله واضح ، ولكن سياق المثل ، يستثير فى الإنسان نوعاً من التفكر ، وتدبر العبرة والعظة ، لتغيير المسار الخاطىء ، والاتجاه فى الطريق الصحيح .

ومن هذه الأمثلة فى موضوعنا قوله تعالى :

﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾(١) .

وبتقرير هذه الحقيقة الضخمة فى النفوس ، كان المؤمنون أقوى من جميع القوى التى وقفت فى طريقهم ، وداسوا بها على كبرياء الجبابرة فى الأرض ، ودكوا الولاية وما عداها فهو واهن ضئيل هزيل ، مهما علا واستطال ، ومهما تجبر وطغى ، ومهما ملك من وسائل البطش والطغيان والتنكيل .

ومكث المصطفى - ﷺ - فى دعوته للناس بالسر ثلاث سنوات ، كما قال ذلك علماء السير والمغازى .

وبعد أن فشا ذكر الإسلام فى مكة ، وتحدث الناس به ، أمر الله عز وجل رسوله - ﷺ - أن يصدع بما جاء منه ، وأن يبادىء الناس بأمره ، وأن يدعو إليه ونزل قوله تعالى :

﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾(٢) .

وقال الله له : -

﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾(٣) .

وهنا بدأ الابتلاء للمسلمين ، وهذا الابتلاء الذى ظاهره الشدة ، هو فى حقيقته نعمة ، لأنه يتضح من خلاله ، الصادق من الكاذب ، والخبيث من الطيب . قال تعالى :

﴿ آلم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾(٤) .

وحدث لأصحاب رسول الله - ﷺ - من الابتلاء والشدة الشىء الكثير ، حتى أنهم كانوا يذهبون للشعاب يستخفون بصلاتهم عن قومهم .

ردود الفعل

ماذا فعل المؤمنون تجاه العذاب الذى صبه عليهم أعداء الله ؟ ما هو رد فعل المسلمين تجاه ما فعل بهم عامة ، وما فعل ببلال وآل ياسر وغيرهم من المستضعفين خاصة ؟

---

(١) سورة العنكبوت آية : ٤١
(٢) سورة الحجر آية : ٩٤
(٣) سورة الشعراء الآيتان : ٢١٤ - ٢١٥
(٤) سورة العنكبوت الآيات : ١ - ٣

إنه الصبر على الأذى والهجر الجميل . قال تعالى : -

﴿ **واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً ، وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلاً** ﴾[1] .

وصبر المصطفى - ﷺ - ، وكانت تربيته الربانية كفيلة بتطهير نفوس المؤمنين معه ، فكانوا كل يوم يزدادون من سمو الروح ، ونقاء القلب ، ونظافة الخلق ، والتحرر من سلطان الماديات والشهوات . شيئاً كثيراً .

(كان - ﷺ - يأخذهم بالصبر على الأذى ، والصفح الجميل ، وقهر النفس ، مع أنهم قوم قد رضعوا حب الحرب ، وكأنهم ولدوا مع السيف ، وهم أمة من أيامها حرب البسوس، وداحس والغبراء ، وما يوم الفجار ببعيد !

ولكن رسول الله - ﷺ - قد كبح نخوتهم العربية ، فانقهروا لأمره ، وكفوا أيديهم وتحملوا من قريش ما يشيب منه النفوس فى غير جبن وفى غير عجز) . هذا بالنسبة لموقف المسلمين من أعدائهم .

أما ولاؤهم فيما بينهم ، فنقول : إن المصطفى - ﷺ - ، قد حرص على غرس ركيزتين أساسيتين فى نفوسهم هما : -

١ - الإيمان بالله ذلك الإيمان المنبثق من معرفته سبحانه ، وتمثل صفاته فى الضمائر وتقواه ، ومراقبته ، مع اليقظة والحساسية التى بلغت فى نفوسهم حداً غير معهود إلا فى النادر من الأحوال .

٢ - الحب الفياض والتكافل الجاد العميق ، حيث بلغت فيه الجماعة المسلمة مبلغاً ، لولا أنه وقع بالفعل لعدد من أحلام العالمين ، إن نقطة الحب فى الله التى التقى عليها هؤلاء المؤمنون ، كانت أيضاً لقاء على ما يتبع هذه الدعوة من جهد أو عزم ، وما يستتبع ذلك من ألم أو سرور ، وجعل العاطفة الإنسانية تحب وتبغض ، تبعاً لما يصيب الإسلام من خير أو شر .

ولكى يكون لهذا الكلام ما يدعمه من دليل ، وحتى نعلم ما هى نتائج تربية « دار الأرقم » أذكر موقفاً واحداً لصديق هذه الأمة أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - .

وطىء أبو بكر رضى الله عنه فى مكة يوماً بعد ما أسلم ، وضرب ضرباً شديداً ، ودنا منه عتبة بن ربيعة ، فجعل يضربه بنعلين مخصوفين ، ويحرفهما لوجهه ثم نزا على بطن أبى بكر ، حتى ما يعرف وجهه من أنفه ، وحملت بنو تيم أبا بكر فى ثوب حتى أدخلوه منزله ، ولا يشكون فى موته فتكلم آخر النهار ، فقال : ما فعل رسول الله - ﷺ - ، فمسوا منه بألسنتهم وعزلوه ثم قالوا ، وقالوا لأمه أم الخير : انظرى أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إيّاه فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول : ما فعل رسول الله - ﷺ - ؟ فقالت : والله ما لى علم بصاحبك فقال اذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه ، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت : أن أبا بكر يسأل عن محمد بن عبد الله قالت ما أعرف أبا بكر ولا محمد ابن عبد الله ، وأن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك ذهبت قالت : نعم فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دنفاً ، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح ، وقالت والله أن قوماً نالوا منك هذا لأهل فسق وكفر ، وإنى لأرجو أن ينتقم الله لك منهم ، قال : فما فعل رسول الله - ﷺ - ، قالت : هذه أمك تسمع ! قال : فلا شىء عليك منها قالت : سالم صالح ، قال : أين هو؟ قالت : فى دار ابن الأرقم قال : فإن لله على أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب أو آتى رسول الله - ﷺ - ، فأمهلها حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس

(١) سورة المزمل الآيتان : ١٠ - ١١

خرجنا به يتكىء عليهما حتى أدخلناه على رسول الله - ﷺ - ، ياالله رجل مضروب ، مثخن بالجراح لا يتناول حتى شربة الماء ، وهو أشد ما يكون حاجة إليها حتى يرى رسول الله - ﷺ - ؟

حقاً إنها تربية دونها كل تربية ، وحقاً نقول إن ذلك الجيل الذى رباه المصطفى - ﷺ - ، جيل فريد على غير مثال سابق ولا لاحق .

سمات العلاقة بين المسلمين وأعدائهم فى العهد المكى :

إن المرحلة المكية كانت تقتضى أن تكون العلاقة بين المسلمين والمشركين علاقة غير قتالية ، علاقة بيان للحق وصبر على الأذى فيه ، واحتساب لكل ما عرفته رباع مكة ورمضاؤ ها ، والطائف وفجاجها من أذى للمصطفى - ﷺ - ، وعذاب واضطهاد لبلال وعمار وخباب وآل ياسر وغيرهم - رضى الله عنهم أجمعين -

ذلك أن ظروف تلك المرحلة كانت تقتضى أتخاذ الأساليب السلمية ، وعرض الحقائق الايمانية عرضاً مؤثراً ، عله يكون فى هذا وفيما أبداه المؤمنون الصابرون من تحمل وصبر ، ما يرجع لأصل اللب صوابهم ، وما أجدر ذلك باستجابة القوم لولا اتباع الهوى وسلطان المصالح الزائلة من زعامة ووجاهة ومكاسب مادية ، وما إلى ذلك .

والتربية النبوية فى هذا العهد ذات شأن عظيم ، ذلك أنها كانت تربية تقوم على ضبط النفس والصبر على الأذى وإعداد العدة مع حبس دواعى الانطلاق وكف حدة الأقدام ، وإحتمال جهل الجاهلين وبغى الطاغين ، وكل ذلك من غير ذل ولا استهزاء ولا يأس ولا وهن ، بل أن عيونهم قريرة ، وقلوبهم مطمئنة إلى نصر الله ، ونفوسهم مستعلية على شرك المشركين وضلالهم وفتنتهم .

ومن المهم فى هذا الموضوع أن نلاحظ الحكمة الربانية فى عدم فرضية القتال فى مكة ، فإنه إنما شرع فى العهد المدنى ، أما (حين كان المسلمون فى مكة ، فقد كان المشركون أكثر عدداً ، فلو أمر المسلمون - وهم أقل من العشر - بقتال الباقين لشق عليهم ، ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ ، وكانوا نيفاً وثمانين ، قالوا : يارسول الله ألا نميل على أهل الوادى - يعنون أهل منى - ليالى منى فنقتلهم ؟ فقال رسول الله - ﷺ - « إنى لم أؤمر بهذا » .

ونحن حين نلتمس الحكمة فى هذه الحالة وفى غيرها من التكاليف الشرعية - كما يقول الاستاذ سيد قطب رحمه الله - لا نجزم بما نتوصل إليه ، لأننا حينئذ نتألى على الله مالم يبين لنا من حكمة ، ونفرض أسباباً وعللاً قد لا تكون هى الأسباب والعلل الحقيقية أو قد تكون .

ذلك أن شأن المؤمن أمام أى تكليف ، أو أى حكم من أحكام الشريعة ، هو التسليم المطلق ، لأن الله سبحانه هو العليم الخبير ، وإنما نقول هذه الحكمة ، والأسباب من باب الاحتياء وعلى أنه مجرد إحتمال ، لأنه لا يعلم الحقيقة إلا الله ، ولم يحددها هو لنا ويطلعنا عليها بنص صريح .

وهذه الأسباب والعلل ذكرها الأستاذ سيد قطب رحمه الله فى كتابيه القيمين « فى ظلال القرآن » عند تفسير سورة النساء وفى « معالم فى الطريق » .

فصل الجهاد فى سبيل الله موجز فيما يلى :

١ - إن الكف عن القتال فى مكة ، ربما كان لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد ، فى بيئة معينة ، لقوم معينيين ، وسط ظروف معينة ومن أهداف التربية فى مثل هذه البيئة : تربية الفرد العربى على الصبر على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم ، حين يقع عليه أو على من يلوذون به ، ليخلص من شخصه ويتجرد من ذاته ، فلا يندفع لأول مؤثر ولا يهتاج لأول مهيج ، ومن ثم يتم الاعتدال فى طبيعته وحركته ، ثم تربيته على أن يتبع نظام المجتمع الجديد والتقيد بأوامر القيادة الجديدة ، حيث لا يُتصرف إلا وفق ما تأمره - مهما يكن مخالفاً لمألوفه وعادته - وقد كان هذا هو حجر الأساس فى إعداد شخصية العربى المسلم لإنشاء « المجتمع المسلم »

٢ - وربما كان ذلك أيضاً ، لأن الدعوة السلمية أشد أثراً وأنفذ فى مثل بيئة قريش ذات العنجهية والشرف والتى قد يدفعها القتال معها - فى مثل هذه الفترة - إلى زيادة العناد ونشأة ثارات دموية جديدة كثارات العرب المعروفة أمثال داحس والغبراء وحرب البسوس وحينئذ يتحول الاسلام من دعوة إلى ثارات تنسى معها فكرته الأساسية .

٣ - وربما كان ذلك أيضاً ، اجتناباً لانشاء معركة ومقتلة داخل كل بيت ، فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة هى التى تعذب المؤمنين ، وإنما كان ذلك موكولاً إلى أولياء كل فرد ومعنى الاذن بالقتال - فى مثل هذه البيئة - أن تقع معركة ومقتلة فى كل بيت ثم يقال : هذا هو الاسلام ولقد قيلت حتى والاسلام يأمر بالكف عن القتال ، فقد كانت دعاية قريش فى المواسم ، أن محمداً يفرق بين الوالد وولده فوق تفريقه لقومه وعشيرته ! فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد ، والمولى بقتل الولى ؟

٤ - وربما كان ذلك أيضا ، لما يعلم الله من أن كثيرين من المعاندين ، الذين يفتنون المسلمين عن دينهم ويعذبونهم ، هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص بل من قادته ، ألم يكن عمر ابن الخطاب من بين هؤلاء ؟

٥ - وربما كان ذلك أيضاً ، لأن النخوة العربية فى بيئة قبلية من عادتها أن تثور للمظلوم الذى يحتمل الأذى ، ولا يتراجع وبخاصة إذا كان الأذى واقعاً على كرام الناس فيهم ، وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة فى هذه البيئة - فابن الدغنة لم يرض أن يترك أبا بكر - وهو رجل كريم - يهاجر ويخرج من مكة ورأى فى ذلك عاراً على العرب وعرض عليه جواره وحمايته . . وآخر هذه الظواهر نقض صحيفة الحصار لبنى هاشم فى شعب أبى طالب .

٦ - وربما كان ذلك أيضاً ، لقلة عدد المسلمين حينذاك وانحصارهم فى مكة ، حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة ، أو بلغت ولكن بصورة متناثرة ، حيث كانت القبائل تقف على الحياد من معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها لترى ماذا يكون مصير الموقف ، ففى مثل هذه الحالة قد تنتهى المعركة المحدودة

إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة - حتى ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم - ويبقى الشرك ولا يقوم للإسلام فى الأرض نظام ، ولا يوجد له كيان واقعى ، وهو دين جاء ليكون منهج حياة ونظام دنيا وآخرة .

٧ - إنه لم تكن هناك ضرورة قاهرة ملحة لتجاوز هذه الاعتبارات كلها والأمر بالقتال ودفع الأذى ، لأن الأمر الأساسى فى هذه الدعوة كان قائماً ومحققاً وهو « وجود الدعوة » ووجودها فى شخص الداعية محمد - ﷺ - وشخصه فى حماية سيوف بنى هاشم ، فلا تمتد إليه يد إلا وهى مهددة بالقطع ، ولذلك لا يجرؤ أحد على منعه من إبلاغ الدعوة وإعلانها فى ندوات قريش ، حول الكعبة ، ومن فوق جبل الصفا وفى الاجتماعات العامة ، ولا يجرؤ أحد على سجنه أو قتله ، أو أن يفرض عليه كلاما بعينه يقوله ، بل إنهم حين طلبوا إليه أن يكف عن سب آلهتهم وعيبها لم يكف ، وحين طلبوا إليه أن يسكت عن سب دين آبائهم وأجدادهم ، لم يسكت ، وحين طلبوا إليه أن يدهن فيدهنوا ، أى يجاملهم فيجاملوه ، بأن يتبع بعض تقاليدهم ليتبعوا بعض عبادته لم يدهن .

إن هذه الاعتبارات كلها . فيما نحسب - كانت بعض ما اقتضت حكمة الله - معه - أن يأمر المسلمين بكف أيديهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، لتتم تربيتهم ، واعدادهم ، وليقف المسلمون فى انتظار أمر القيادة فى الوقت المناسب ، وليخرجوا انفسهم من المسألة كلها ، فلا يكون لذواتهم فيها حظ . . لتكون خالصة لله ، وفى سبيل الله .

والناظر فى الفترة المكّية والتى كانت ثلاثة عشر عاماً كلها تربية وإعداد وغرس لمفاهيم لا إله إلا الله ، يدرك ما لأهمية هذه العقيدة من شأن فى عدم الإستعجال واستباق الزمن ، فالعقيدة بحاجة إلى غرس يتعهد بالرعاية والعناية والمداومة بحيث لا يكون للعجلة والفوضى فيها نصيب ، وما أجدر الدعاة إلى الله أن يقفوا أمام تربية المصطفى - ﷺ - لأصحابه على هذه العقيدة وقفة طويلة ، فيأخذوا منها العبرة والأسوة ، لأنه لا يقف فى وجه الجاهلية - أياً كانت قديمة أم حديثة أم مستقبلة - إلا رجال إختلطت قلوبهم ببشاشة العقيدة الربانية ، وعمقت جذور شجرة لا إله إلا الله فى نفوسهم ، فيصدق عليهم حينئذ أنهم :

﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾(١)

لا تهمهم قوة عدو ، ولا تنقصهم عزيمة باسل لأن الله هو وليهم وناصرهم :

﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾(٢) .

قال ابن اسحاق لما رأى رسول الله - ﷺ - ما يصيب أصحابه من البلاء ، وما هو فيه من العافية بمكانة من الله ثم من عمه أبى طالب ، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم : « لوخرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه » ، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله - ﷺ - إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة ، وفراراً إلى الله بدينهم فكانت أول هجرة فى الإسلام .

(١) سورة الاحزاب الآية : ٢٣
(٢) سورة الحج الآية : ٤٠

ثم أن لطف الله ورحمته غمرت المؤمنين المستضعفين وذلك بإسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، حيث أعز الله به الإسلام ، ولذلك قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه « إن إسلام عمر كان فتحاً ، وإن هجرته كانت نصراً ، وإن إمارته كانت رحمة ، ولقد كنا ما نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه » إنها نعمة كبرى تجلت فى إسلام عمر ، الذى منح ولاءه ونصرته للمسلمين ، وصبر بغضه وعداوته وبراءة للكافرين ، كيف لا وهو الذى أشتبك مع القوم بعد إسلامه ثم قال : « افعلوا ما بدا لكم فوالله لو أن كنا ثلاث مائة رجل لقد تركناها ـ أى مكة ـ لكم أو تركتموها لنا » .

وسمع المؤمنون بإسلام عمر رضى الله عنه وهم فى الحبشة ، ففرحوا بذلك ورجع منهم من رجع إلى مكة ، ولكن قريشاً صبت عليهم ألواناً من العذاب والإضطهاد ، فلم يزدهم ذلك إلا صلابة فى العود ، وثباتاً على الحق ، وأملاً فى فرج من الله قريب .

ثم تعرض رسول الله ـ ﷺ ـ ومن معه لدرس آخر من دروس الابتلاء ، التى هى من سنن الدعوة إلى الله : ذلك الدرس هو موت أبى طالب عم رسول الله ، الذى كان مناصراً له وحامياً ، وموت زوجة رسول الله خديجة ـ رضى الله عنها ـ أول امرأة أسلمت ، وكانت مثالاً للمرأة المسلمة الصالحة ، وهنا يطمع أعداء الله فى رسول الله ـ ﷺ ـ ولكن الله أكبر من كل شىء ، ثم رأى المصطفى ـ ﷺ ـ أن يتجه إلى غير قريش عسى أن يجد مجيباً وناصراً ، فخرج إلى الطائف ، ولكن ثقيفاً خيبت أمله وآذته وسخرت منه ، فاتجه إلى ربه قائلاً : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وانت ربى ، إلى من تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى ؟ أو إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى ، غير أن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحلّ علىّ غضبك ، أو أن ينزل بى سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك ، ثم رجع إلى مكة .

وعلى الدعاة أن يقفوا طويلاً على قول المصطفى ـ ﷺ ـ :

« إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى » فإن هم الداعية المسلم ، هو رضاء الله وكفى ، ثم بعد ذلك ليكن ما يكون من أمر الناس ، فإن ذلك ليس له كبير حسبان ، طالما أن الغاية هى رضاء الله »

بر الأقارب المشركين

ومن خلال تتبع القرآن المكى ، نجد أنه ـ رغم قطع الولاء سواء فى الحب أو النصرة ـ بين المسلم وأقاربه الكفار ، فإن القرآن أمر بعدم قطع صلتهم وبرهم ، والإحسان إليهم ، ومع ذلك فلا ولاء بينهم قال تعالى :

﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حُسناً ، وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾[١]

قال البغوى : إن هذه الآية وآية لقمان وهى قوله تعالى :

﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلىّ ثم إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾[٢] .

نزلت فى سعد بن أبى وقاص - رضى الله عنه - وأمه حمنة بنت أبى سفيان ، فقد كان سعد من السابقين الأولين للإسلام ، وكان باراً بأمه .

قالت له أمه : ما هذا الدين الذى أحدثت ؟ والله لا آكل ولا أشرب ، حتى ترجع إلى ما كنت عليه ، أو أموت ، فتعيرّ بذلك أبد الدهر ، يقال : ياقاتل أمه ، ثم إنها مكثت يوماً وليلة لم تأكل ، ولم تشربْ ، ولم تستظل ، فأصبحت قد جهدت ثم مكثت يوماً آخر وليلة ، لم تأكل ، ولم تشرب ، فجاء سعد إليها وقال : يا أماه ، لو كانت لك مائة نفس ، فخرجت نفساً نفساً ، ما تركت دينى ، فكلى وإن شئت فلا تأكلى ، فلما يأست منه أكلت وشربت ، فأنزل الله هذه الآية وأمرة بالبر بوالدية ، والاحسان إليهما وعدم طاعتهما فى الشرك ، لأنه (لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق) .

لذلك فالولاء لله ودينه والمؤمنين شىء لا طاعة لمخلوق فى مخالفته ، وبر القريب المشرك شىء ، قد يكون من باب تأليفه وترغيبه فى الإسلام .

كيف كانت صورة البراء فى العهد المكى

١ - إن المسلم من حين أن يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وهو يحس بأنه قد دخل فى دين جديد غير دين آبائه وأجداده ، إنه يشعر فى اللحظة التى يجىء فيها إلى الإسلام ، أنه يبدأ عهداً جديداً ، منفصلاً كل الانفصال عن حياته التى عاشها فى الجاهلية ، وكان يقف من كل ما عاشه فى الجاهلية ، موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف ، الذى يحس أن كل هذا رجس ، لا يصلح للإسلام ، وبهذا الإحساس كان يتلقى هدى الإسلام الجديد ، ويمكننا أن نسمى هذا « بالعزلة الشعورية » فالمسلم قد انخلع من البيئة الجهلية ، وعرفها وتصورها وتصور عاداتها وروابطها ، وانخلع من عقيدة الشرك إلى عقيدة التوحيد ، ومن تصور الجاهلية إلى تصور الإسلام عن الحياة والوجود ، وانضم إلى التجمع الإسلامى الجديد ، بقيادته الجديدة ، ومنح هذا التجمع وهذه القيادة كل ولائه وطاعته وحبه وتبعيته .

---

(١) سورة العنكبوت آية : ٨
(٢) سورة لقمان آية : ١٥

٢ ـ بعد ذلك جاء الأمر بالإعراض عن الكفار :

﴿ فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴾(١)

٣ ـ وجاء الأمر أيضاً بالصبر والهجر الجميل . قال تعالى :

﴿ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً ﴾(٢)

وقال تعالى :

﴿ فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يؤمنون ﴾(٣)

ثم يذكّر الله سبحانه المؤمنين بفعل أبيهم إبراهيم ـ عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ ليأخذوا منه أسوة وقوة فيقول سبحانه :

﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون ، إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين . وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون ﴾(٤)

وإلى جانب هذا التذكير الربانى ، يضرب أيضاً المثل المحسوس والملموس ، فى حياة الناس لمن يوزّع ولاءه بين أرباب متفرقة ، ومن يكون ولاؤه لرب واحد ، واتجاه واحد .

قال تعالى :

﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً ، الحمدلله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾(٥)

فقد وضح الله فى هذا المثال القرآنى حال المشرك الذى لا يؤمن بالله ، ولا يكون ولاؤه وحبه لله وفى الله ، بحال العبد الذى تملكه جماعة مشتركين فى خدمته لهم ، لا يمكنه إرضاؤهم أجمعين ، وحال الموحد الذى يعبد الله وحده ، ويوالى فى الله وحده ، مثله كمثل عبد لمالك واحد ، قد سلم له ، وعلم مقاصده ، وعرف الطريق إلى رضاه ، فهو فى راحة من تشاحن الخلطاء فيه ، بل هو سالم لمالكه من غير منازع فيه ، مع رأفة مالكه به ، ورحمته له ، وشفقته عليه ، وإحسانه إليه ، وتوليته بمصالحه ، فهل يستوعب هذان العبدان ؟ لا إنهما لا يستويان ﴿ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ وعلى طريقة القرآن فى اهتمامه بقضية اليوم الآخر ، لما لها من أثر عظيم فى قضية الإيمان : نجد القرآن الكريم يسوق مشهداً من مشاهد يوم القيامة ، لمن يكون ولاؤه لغير الله ، وكيف انقلب هذا الولاء إلى عداء وبغضاء ، ثم كيف أصبحت الخلة عداوة وشحناء .

---

(١) سورة النجم الآيتان : ٢٩ ـ ٣٠

(٢) سورة المزمل آية : ١٠

(٣) سورة الروم آية : ٦٠

(٤) سورة الزخرف الآيات : ٢٦ ـ ٢٨

(٥) سورة الزمر آية : ٢٩

قال تعالى :

﴿ وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين ﴾[١]

وقال تعالى :

﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين ﴾[٢]

وقال تعالى :

﴿ ويوم يعضُّ الظالم على يديهّ يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا . ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلاً . لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولاً ﴾[٣]

٤ ـ ثم جاء التصريح الكامل لأعداء الله ، بأن دينكم باطل لا ندخل فيه ، وديننا هو الحق الذى ندين الله به ، فلا نعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما نعبد .

لكم دينكم ولى دين[٤]

ولما رأى المشركون صلابة المسلمين واستعلائهم بدينهم ، ورفعة نفوسهم فوق كل باطل ، ولما بدأت خطوط اليأس فى نفوسهم من أن المسلمين يستحيل رجوعهم عن دينهم ، سلكوا مهزلة أخرى من مهازلهم ، الدالة على طيش أحلامهم ، ورعونتهم الحمقاء .

فقد دعوا رسول الله ـ ﷺ ـ إلى عبادة أوثانهم سنة ، ويعبدون معبوده سنة فأنزل الله سورة الكافرون :

بسم الله الرحمن الرحين . ﴿ قل يأيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين ﴾[٥] ومثل هذه السورة آيات أخرى تشابهها فى إعلان البراء من الكفر وأهله مثل قوله تعالى :

﴿ وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون ﴾[٦]

وقوله تعالى :

﴿ قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين . قل إنى على بينة من ربى وكذبتم به ، ما عندى ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين ﴾[٧]

---

(١) سورة فصلت آية : ٢٩

(٢) سورة الزخرف آية : ٦٧

(٣) سورة الفرقان الآيات : ٢٧ ـ ٢٩

(٤) سورة الكافرون اية : ٦

(٥) سورة الكافرون الآيات : ١ : ٦

(٦) سورة يونس آية : ٤١

(٧) سورة الأنعام الآيتان : ٥٦ ، ٥٧

وقوله تعالى :

﴿ يأيها الناس إن كنتم فى شك من دينى فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين . وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين ﴾[١]

بهذه النصاعة وهذا الوضوح ، جاءت هذه الآيات الكريمات ، لترسم معالم الطريق بين الصف الإسلامى ، والصف الكافر المشرك ، الذى لا يؤمن بالله ورسوله ، ومع هذا الوضوح القرآنى ، نجد أن بعض المتنسبين للعلم ، قد فهم من هذه الآيات ـ وخاصة سورة الكافرون ـ إنها إقرار من رسول الله ﷺ للكفار على دينهم الباطل ، وهذا زعم باطل ، مخالف لحقيقة الإسلام ، ودعوة رسول الإسلام ، ومضاد لدعوة الرسل جميعاً . يقول العلامة ابن القيم رحمه الله : « إن هذه السورة ـ سورة الكافرون ـ تشتمل على النفى المحصن ، وهذه خاصية هذه السورة ، فإنها سورة براءة من الشرك كما جاء فى وصفها .

« ومقصودها الأعظم البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشركين ، ولهذا أتى بالنفى فى الجانبين تحقيقاً للبراءة المطلوبة ، مع تضمنها للإثبات بأن له معبوداً يعبده ، وأنتم بريئون من عبادته ، وهذا يطابق قول إمام الحنفاء .

﴿ إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى ﴾[٢]

فانتظمت حقيقة لا إله إلا الله . « ولهذا كان النبى ـ ﷺ ـ يقرنها بسورة الاخلاص فى سنة الفجر ، وسنة المغرب ، وحين أخبر الله أن لهم دينهم وله دينه : هل هو إقرار ، فيكون منسوخاً ، أو مخصوصاً ؟ أولا نسخ فى الآية ولا تخصيص ؟

« هذه مسألة شريفة من أهم المسائل ، وقد غلط فى السورة خلائق ، وظنوا أنها منسوخة باية السيف ، لاعتقادهم أن هذه الآية اقتضت التقرير لهم على دينهم ، وظن آخرون : أنها مخصوصة بمن يقرون على دينهم وهم أهل الكتاب .

وكلا القولين غلط محض ، فلا نسخ فى السورة ولا تخصيص ، بل هى محكمة وهى من السور التى يستحيل دخول النسخ فى مضمونها ، فإن أحكام التوحيد التى اتفقت عليه دعوة الرسل يستحيل دخول النسخ فيه .

« وهذه السورة أخلصت التوحيد ، ولهذا تسمى أيضاً سورة الإخلاص . ومنشأ الغلط : ظنهم أن الآية اقتضت إقرارهم على دينهم . ثم رأوا أن هذا الإقرار زال بالسيف فقالوا : منسوخة وقالت طائفة : زال عن بعض الكفار وهم من لا كتاب لهم فقالوا هذا مخصوص . ومعاذ الله أن تكون الآية اقتضت تقريراً لهم أو إقراراً على دينهم أبداً . بل لم يزل رسول الله ـ ﷺ ـ فى أول الأمر وأشد عليه وعلى أصحاب أشد على الإنكار عليهم ، وعيب دينهم وتقبيحه ، والنهى عنه ، والتهديد والتوعيد فى كل وقت وفى كل ناد . فكيف يقال : إن الآية اقتضت تقريراً لهم ؟ معاذ الله من هذا الزعم الباطل .

---

(١) سورة يونس الآيتان : ١٠٤ ، ١٠٥

(٢) سورة الزخرف الآيتان : ٢٦ ، ٢٧ .

وإنما الآية اقتضت البراءة المحضة كما تقدم ، وأن ما أنتم عليه من الدين لا نوافقكم عليه أبداً ، فإنه دين باطل فهو مختص لا نشرككم فيه ، ولا أنتم تشركوننا فى ديننا الحق .

« فهذه غاية البراءة والتنصل من موافقتهم فى دينهم ، فأين الإقرار حتى يدعى النسخ أو التخصيص ؟ !

أفترى إذاً جوهدوا بالسيف كما جوهدوا بالحجة لا يصح أن يقال : لكم دينكم ولى دين .

بل هذه آية قائمة محكمة ثابتة بين المؤمنين والكافرين إلى أن يطهر الله منهم عباده وبلاده . وكذلك حكم هذه البراءة بين أتباع الرسول - ﷺ - أهل سنته وبين أهل البدع المخالفين لما جاء به ، الداعين إلى غير سنته إذا قال لهم خلفاء الرسول وورثته لكم دينكم ولنا ديننا لا يقتضى هذا إقرارهم على بدعتهم ، بل يقولون لهم هذه براءة منها . وهم مع هذا منتصبون للرد عليهم ولجهادهم بحسب الإمكان .

وزاد هذا الأمر إيضاحاً وبياناً : شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - فقال :

« قوله تعالى : ﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾ اللام فى لغة العرب يدل على الاختصاص فأنتم مختصون فى دينكم لا أشرككم فيه ، وأنا مختص بدينى لا تشركونني فيه كما قال تعالى :

﴿ لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون ﴾ ٤١ يونس

وليس فى هذه الآية أنه رضى بدين المشركين ، ولا أهل الكتاب . كما يظنه بعض الملحدين ، ولا أنه نهى عن جهادهم كما ظنه بعض الغالطين ، وجعلوها منسوخة . بل فيها براءته من دينهم ، وبراءتهم من دينه ، وأنه لا تضره أعمالهم ولا يجزون بعمله ولا ينفعهم ، وهذا أمر محكم لا يقبل النسخ ، ولم يرض الرسول بدين المشركين ، ولا أهل الكتاب طرفة عين قط .

« ومن زعم أنه رضى بدين الكفار ، واحتج بقوله تعالى :

﴿ قل يأيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين ﴾ ١ - ٦ الكافرون

فظن هذا الملحد أن قوله : **﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾** معناه أنه رضى بدين الكفار ، ثم قال هذه الآية منسوخة فيكون قد رضى بدين الكفار ، فهذا من أبين الكذب والإفتراء على محمد - ﷺ - فهو لم يرض قط إلا بدين الله الذى أرسل به رسله ، وأنزل به كتبه . . ونظير هذه الآية قوله تعالى :

﴿ وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون ﴾ ٤١ يونس

وقوله تعالى :

﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ ١٥ الشورى

وإذا قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون ﴾ ٢١٥ - ٢١٦ الشعراء

فبرأ من معصية من عصاه من أتباعه المؤمنين ، فكيف لا يبرئه من كفر الكافرين الذين هم أشد له معصية ومخالفة ؟ » .

ورحم الله عبد الله بن عباس حين قال فى شأن هذه السورة : « ليس فى القرآن أشد غيظاً لإبليس منها ، لأنها توحيد وبراءة من الشرك » . وقال الأصمعى : كان يقال لـ « قل يأيها الكافرون » و « قل هو الله أحد » المقشقشتان . أى أنهما تبرئان من النفاق .

فرج من الله قريب

قال ابن إسحاق : « فلما أراد الله - عز وجل - إظهار دينه وإعزاز نبيه - ﷺ - وإنجاز موعده له ، خرج رسول الله - ﷺ - فى الموسم الذى لقيه فيه النفر من الأنصار ، فعرض نفسه على قبائل العرب ، كما كان يصنع فى كل موسم ، فبينما هو عند العقبة لقى رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً ، فقال لهم - ﷺ - من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج . قال : « أمن موالى اليهود » قالوا : نعم قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى . فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله - عز وجل - وعرض عليهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فقال بعضهم لبعض : ياقوم تعلموا ، والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود فلاتسبقنكم إليه . فأجابوه فيما دعاهم إليه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام . وقالوا : إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك ، ثم انصرفوا إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا ، فلما قدموا المدينة ذكروا لقومهم رسول الله - ﷺ - ودعوهم إلى الاسلام حتى فشا فيهم ، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله - ﷺ - أجل : بعد كل ذلك العناء وتلك المصابرة هيأ الله اللطيف الخبير من ينصر هذا الدين ويعلى كلمته ، وينشره فى الأرض بعد أن آوى رسول الله وأصحابه الأوائل . إنه لشرف دونه كل شرف أن يُسمّوا « الأنصار » أنصار الله ، أنصار نبيه ، أنصار دينه ، أنصار عباده المؤمنين ، وليسوا أنصار الجاهلية وطواغيتها وجبابرتها الذين هم فى أعين الناس كبار وهم فى حقيقة الأمر صغار وأقزام .

ولما كان العام المقبل وصل إلى مكة من الأنصار اثنا عشر رجلاً ، فلقوا رسول الله - ﷺ - بالعقبة الأولى فبايعوه ، وكانت البيعة على الاسلام وأرسل معهم رسول الله - ﷺ - مصعب بن عمير رضى الله عنه يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم فى الدين ، ويؤمهم فى الصلاة .

وقدم مصعب بن عمير - رضى الله عنه - ومعه وفد كريم من الأنصار فى موسم الحج ، فكانت بيعة العقبة الكبرى « حيث تساءلوا وهم خارجون من المدينة : حتى متى نترك رسول الله يطوف ويطرد فى جبال مكة ويخاف ؟ « لقد بلغ الإيمان أوجه فى هذه القلوب الفتية ، وآن لها أن تنفس عن حماسها ، وأن تفك هذا الحصار الخانق المضروب حول الدعوة والداعية .

صيغة البيعة

تكلم رسول الله - ﷺ - فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب فى الاسلام ثم قال : « أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم »[١] ، فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم والذى بعثك بالحق نبياً لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب ، وأهل الحلقة ، ورثناها كابراً عن كابر . فاعترض أبو الهيثم بن التيهان فقال : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها - يعنى اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ قال : فتبسم رسول الله - ﷺ - ثم قال : « بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم »[٢] .

قال ابن هشام : الهدم الهدم : يعنى الحرمة ، أى ذمتى ذمتكم وحرمتى حرمتكم .

ثم قام أسعد بن زرارة فقال : رويداً يا أهل يثرب : فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وأن إخراجه اليوم مناوأة للعرب كافة ، وقتل خياركم وأن تعضكم السيوف ، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله ، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جبنة فبينوا ذلك ، فهو أعذر لكم عند الله ، فقالوا يا أسعد : أمط عنا بيدك ، فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها ، ثم قاموا إليه رجلاً رجلاً فبايعوه[٣] .

أجل : (إنه الإيمان بالله والحب فيه ، والأخوة على دينه ، والتناصر باسمه ذلك كله كان يتدافع فى النفوس المجتمعة فى ظلام الليل بجوار مكة السادرة فى غيها ، يتدافع ليعلن أن أنصار الله سوف يحمون رسوله كما يحمون أعراضهم ، وسوف يمنعونه بأرواحهم ، فلا يخلص إليه أذى وهم أحياء) .

ترى : أى صورة أعظم من هذه الصورة لهذا الولاء الصادق ؟ لقد كانت بيعة على دين الله ومرضاته . وانظر إلى رد المصطفى - ﷺ - « بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » هذه هى الصلة الحقيقية والوشيجة الصادقة لعلاقة المسلم بأخيه المسلم . لقد أصبح الدم واحداً . « أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » وهكذا تنقطع علائق الدم الجاهلى والتناصر الجاهلى والولاء الجاهلى ليحل محلها الولاء الإسلامى والوقوف فى الصف الإسلامى والبراءة من الكفر وأهله واعتناق الأخوة الجديدة التى أمر الله بها . إنها البديل الصالح لتلك الوشائج الجاهلية كما قال - ﷺ - : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً »[٤] .

وهكذا نصل إلى معرفة ما فعل الله بنبيه ودعوته ومن معه ، وما هيأ لهم من النصرة والمنعة والدار التى يقام فيها حكم الله وشريعته ومنهاجه فى الأرض . أرض الأنصار . أرض الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

فإلى صورة جديدة مشرقة للولاء فى العهد المدنى .

(١) انظر سيرة النبى - ﷺ - لابن هشام - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد جـ ٢ ص ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠

(٢) انظر سيرة النبى - ﷺ - لابن هشام - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد جـ ٢ ص ٥٠ ، ٥١

(٣) انظر سيرة النبى - ﷺ - لابن هشام - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد جـ ٢ ص ٥٠ ، ٥١

(٤) الحديث فى جمع الجوامع - الجامع الكبير للسيوطى - جـ ١ ص ٤٤٠ برواية البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن حبان ، عن بريدة ، عن أبى بردة ، عن أبى موسى ، وفى صحيح مسلم - كتاب البر والصلة - جـ ٤ ص ١٩٩٩ رقم ٢٥٨٥/٦٥

الولاء والبراء فى العهد المدنى

لما أراد الله إظهار دينه ، وإعزاز عبده ورسوله محمد - ﷺ - ومن معه ، أمره بالهجرة لتكون مبدأ فاصلاً بين الحق والباطل ، وبين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان .

ولقد كانت الهجرة إيذاناً من المولى - جل وعلا - بقرب وعده الذى وعد به المؤمنين وهو وعد دائم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها : قال تعالى : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** ﴾ ٥٥ النور

ولقد وقع هذا التمكين الربانى بالفعل ولذلك نجد القرآن يذكّر المؤمنين بهذا التمكين والنصر فيقول :

﴿ **واذكروا إذا أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون** ﴾٢٦ الأنفال .

وسيبقى هذا الوعد بالتمكين ما دام المسلمون ملتزمون بالشرط وهو عبادته وحده لا شريك له .

نبذة تاريخية

لما أذن الله بالهجرة : خرج المسلمون إلى المدينة زرافات ووحداناً ، ولم يبق منهم إلا رسول الله - ﷺ - وأبو بكر وعلىّ حيث أقاما بأمر منه - ﷺ - وإلا من احتبسه المشركون كرهاً .

ولما رأى المشركون أصحاب رسول الله - ﷺ - قد تجهزوا ، وخرجوا وساقوا الذرارى والأطفال والأموال إلى المدينة ، وعرفوا أنها دار منعة ، وأن أهلها أهل حلقة وشوكة وبأس : خافوا خروج رسول الله - ﷺ - ولحوقه بهم حيث سيشتد أمره وتقوى شوكته ، فلذلك اجتمعوا فى دار الندوة ولم يتخلف أحد من أهل الرأى والحجا منهم ليتشاوروا فى أمره .

وخرجوا من ذلك الاجتماع برأى واحد : وهو أن يقوم من كل قبيلة شاب ثم يضربوه ضربة رجل واحد ليتفرق دمه فى القبائل .

ولكن حماية الله ونصرته لنبيه - ﷺ - أكبر من مكر أولئك المجرمين ، فقد نزل جبريل عليه السلام على المصطفى - ﷺ - يأمره أن لا ينام فى مضجعه تلك الليلة .

وخرج رسول الله - ﷺ - ومعه صاحبه الأمين أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - وبقى علىّ بن أبى طالب - رضى الله عنه - حيث نام تلك الليلة فى فراش المصطفى - ﷺ - وينتهى الأمر بخسارة وذلة (الملأ) من قريش .

ووصل المصطفى - ﷺ - إلى دار الهجرة ، دار النصرة والمنعة ، حيث وجد « أنصار الله » فكانت هذه الهجرة نصراً للمؤمنين المهاجرين الذين وجدوا من يؤويهم وينصرهم ويشاركهم الأموال والمساكن وحتى الأزواج ، وكانت نصراً أيضاً للأنصار حيث قضى على الإحن والأحقاد الجاهلية بين أوسهم وخزرجهم ، وعلى كيد اليهود الذين كانوا يشيعون بينهم الفرقة والفتنة .

وكان أول عمل قام به رسول الله - ﷺ - فى المدينة هو بناء المسجد لينطلق منه النداء الربانى « الله أكبر الله أكبر » وليكون هذا المسجد الطاهر هو الملتقى التربوى للأمة المسلمة يتلقون فيه وحى الله عن رسول الله ، ويتعلمون أمور دينهم ، وهذا المسجد هو أيضاً مكان القيادة العسكرية الإسلامية التى انطلقت للجهاد فى سبيل الله .

وبعد ذلك : « آخى رسول الله - ﷺ - بين المهاجرين والأنصار فى دار أنس بن مالك ، وكانوا تسعين رجلاً نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار آخى بينهم على المواساة ، يتوارثون بعد الموت دون ذوى الأرحام إلى حين وقعة بدر ، فلما أنزل الله - عز وجل - ﴿ **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله** ﴾ ٦ الأحزاب .

رد التوارث إلى الرحم دون عقد الأخوة » .

إن هذه الأخوة الإيمانية هى الوشيجة العظمى ، والرابطة الفريدة فى علاقات البشر بعضهم مع بعض ، فلقد أحس كل مؤمن - كما يقول الأستاذ محمد قطب - سواء كان مهاجريا أم أنصاريا برباط جديد يربطه بأخوته فى الله ، فكل واحد منهم يحب أخاه كحبه لنفسه ، مع أنه ليس من قبيلته ولا بينهما آصرة دم بل أن آصرة الدم . حين كانت فى الجاهلية - لم تكن تنشىء فى نفس أحدهم ذلك الحب الصافى العجيب الذى يحسه الآن لأخيه فى العقيدة .

ترى ما الفرق بين لقاء الجاهلية ولقاء الإسلام ؟

لماذا لا توجد هذه المشاعر إلا على العقيدة ؟

والجواب : أن الأمر ليس سراً ، ولا سحراً ، ولكنه الاسلام يلتقى فيه الناس على العقيدة فى الله ، لأن كلاً منهم يحب الله ورسوله ، فلا تكون ذواتهم بارزة ولا متوفرة لاقتناص المصلحة من الآخر كما هى الحال فى العلاقات الجاهلية ، وإنما الجانب البارز هو الحب فى الله .

وقفة عند المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

إن هذه الأخوة جديرة بالدراسة والاعتبار ، ذلك أنه نتج عنها أمور عظيمة فى حياة المسلمين سواء فى مستوى « الأمة والدولة » أم على مستوى الأفراد فأما ما يتعلق بهم كأمة : فقد كانت هذه المؤاخاة هى الركيزة الأساسية فى تكوين مفهوم « الأمة المسلمة » أمة التقت على العقيدة فى الله ، وعاشت لأجل تلك العقيدة وليس لرابطة الدم أو الحسب والنسب أو الأرض أو اللون أو اللغة ، أو الجنس فيها أى حساب يذكر إذا تعارض ذلك مع العقيدة . والله سبحانه وتعالى هو صاحب المنة والفضل فى ذلك فهو القائل :

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون . ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون . ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾ ١٠٣ - ١٠٥ آل عمران

لقد أصبح المؤمنون أولياء بعضهم البعض ، كل منهم يحب أخاه كحبه لنفسه ، ويناصره ويجاهد من أجله ، ويؤثر على كل قريب وحبيب من مال أو أهل أو عشيرة أو ولد .

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ ٧١ التوبة .

واشتد كيانهم فكانوا كالجسد الواحد **﴿ المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ثم شبّك - ﷺ - بين أصابعه ﴾**[١] . وعن النعمان ابن بشير قال : قال رسول الله - ﷺ - : « ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى »[٢] .

ولقد أثنى الله سبحانه وتعالى على المهاجرين والأنصار . فقال سبحانه عن المهاجرين :

﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله . أولئك هم الصادقون ﴾ ٨ الحشر .

ثم يثنى سبحانه على الأنصار بقوله :

﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ ٩ الحشر .

بل إن الأمر أصبح أكبر من ذلك ، فهؤلاء الأنصار الذين آووا رسول الله - ﷺ - ومن معه وآزروهم ونصروهم وبذلوا لهم النفس والنفيس ابتغاء رضوان الله قد أصبح حبهم من العقيدة التى يدين بها المسلم ربه ، وبغضهم وكراهيتهم نفاق ففى الحديث الصحيح : « آية الإيمان حب الأنصار ، وآية النفاق بغض الأنصار »[٣] .

وقال - ﷺ - : « الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق ، فمن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله »[٤] وبهذه الأخوة تكون « المجتمع الاسلامى » ذلك المجتمع الذى تظلله راية لا إله إلا الله وتحكمه الشريعة الربانية ويسوده الحب والتفانى ويؤمر فيه بالمعروف وينهى فيه عن المنكر ، الجهاد رهبانيته ، والدعوة إلى الله سبيله ومنهاج حياته ، القوى فيه ضعيف حتى يؤخذ الحق منه ، والضعيف فيه قوى حتى يأخذ حقه ، ولاؤه لله ورسوله والمؤمنين ، وبغضه وكراهيته لأعداء الله ولو كانوا أقرب قريب ، وجدوا حلاوة الإيمان وطعمه ، وعرفوا الكفر وأهله حتى أن أحدهم يحب أن يلقى فى النار ولا يعود إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما قال - ﷺ - وهذا ما تحقق فيهم - « لا يجد أحد حلاوة الايمان حتى يحب

---

(١) الحديث فى جمع الجوامع - الجامع الكبير - للسيوطى جـ١ ص ٤٤٠ برواية البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن حبان وفى صحيح مسلم - كتاب البر والصلة - جـ٤ ص ١٩٩٩ رقم ٢٥٨٥/٦٥

(٢) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب البر والصلة - جـ٤ ص ١٩٩٩ رقم ٢٥٨٦/٦٦

(٣) الحديث فى جمع الجوامع - الجامع الكبير للسيوطى - جـ١ ص ٣ برواية أحمد والبخارى ومسلم والنسائى ، عن أنس وفى صحيح مسلم - كتاب الايمان - جـ١ ص ٨٥ رقم ٧٤/١٢٨

(٤) الحديث فى جمع الجوامع - الجامع الكبير للسيوطى - جـ١ ص ٣٩٦ برواية ابن أبى شيبة عن البراء .

المرء لا يحبه إلا لله ، وحتى أن يقذف فى النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما »(١) .

وبهذه المؤاخاة الايمانية وجد « التكافل الاجتماعى » وبرزت فيه صورة خالدة لم توجد قط إلا فيه وحده .

ومنها ما رواه البخارى أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله - ﷺ - بين عبدالرحمن بن عوف وسعد بن الربيع ، فقال سعد لعبد الرحمن : إنى أكثر الأنصار مالاً ، فأقسم مالى نصفين ، ولى امرأتان فانظر إلى أعجبهما إليك فسمها لى أطلقها ، فإذا انقضت عدتها فتزوجها قال عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، أين سوقكم ؟ فدلوه على سوق بنى قينقاع فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن ، ثم تابع الغدو حتى جاء يوماً وبه أثر صفرة ، فقال النبى - ﷺ - : « مهيم » ؟ قال : تزوجت . قال : « كم سقت إليها » ؟ قال : نواة من ذهب (وإن إعجاب المرء بسماحة سعد لا يعدله إلا إعجابه بنبل عبد الرحمن الذى زاحم اليهود فى سوقهم وبزهم فى ميدانهم ، واستطاع بعد أيام أن يكسب ما يعف به نفسه ويحصن به فرجه ، ذلك أن علو الهمة من خلائق الإيمان)(٢) .

وخلاصة القول : إن هذه المؤاخاة (كانت تدريباً عملياً على الأخوة الإسلامية التى تبعثها تلك العقيدة فى نفوس المؤمنين بها « إنما المؤمنون إخوة » ١٠ الحجرات . وكان تدريباً ناجحاً فذاً فى نجاحه ، فريداً فى التاريخ .

وكانت كذلك تدريباً عملياً على « التكافل » وهو معنى من المعانى العميقة فى بناء الجماعة الإسلامية . القادرون يكفلون غير القادرين ، على أساس الأخوة فى الله من جانب وعلى أساس التصرف فى مال الله بما يرضى الله من جانب آخر) .

سمات الولاء والبراء فى العهد المدنى

لئن كانت سمات العهد المكى هى : بيان الحجة وإقامتها ، والصبر على الأذى وكف الأيدى ، والهجر الجميل ، فإن ذلك كان لحكمة ربانية منها : أن ذلك كان لتربية الأمة على هذا الدين الحنيف ، وصقل النفوس على ضوء منهاجه ، والتقيد الكامل بأمر الله ورسوله فى الفعل والترك على حد سواء .

ولكن الأمر أخذ صورة أخرى فى العهد المدنى ، فمن الهجرة إلى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، إلى قيام الدولة المسلمة إلى الجهاد فى سبيل الله وهيمنة الشريعة الإسلامية .

وأول ما نذكره فى هذا العهد : هو الوثيقة التى كتبها رسول الله - ﷺ - بين المهاجرين والأنصار ، ومن تبعهم ، حيث وادع فيها اليهود ، وعاهدهم ، وتركهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط

---

(١) الحديث فى مسند أحمد - جـ٣ ص٢٤٨ بلفظ : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان ، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب العبد لا يحبه إلا الله - عز وجل - وأن يقذف فى النار أحب إليه من أن يعاد فى الكفر »

(٢) انظر البخارى - باب إخاء النبى - ﷺ - بين المهاجرين والأنصار جـ٥ ص٣٨ طبعة دار الشعب .

عليهم . وقد أوردها ابن اسحاق دون سند وأوردها الامام أحمد فى مسنده ، وأوردها أصحاب السير والمغازى .

وسوف نقتصر على بعض فقراتها التى تخص موضوع الموالاة . جاء فى أولها : « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من محمد النبى - ﷺ - بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم ، وجاهد معهم ، أنهم أمة واحدة من دون الناس »[1] .

« . . . وألّا يحالف مؤمن مولى مؤمن من دونه ، وأن المؤمنين المتقين على من بغي منهم أو ابتغى دسيعة (عظيمة) ظلم ، أو إثم أو عدوان ، أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً . ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمناً فى كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن ، وأن ذمة الله واحدة ، يجبر عليهم أدناهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس ، وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ، وإن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم » .

« وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل ، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شىء فإن مرده إلى الله - عز وجل - وإلى محمد - ﷺ - وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين » .

وهذه الوثيقة هي الصورة الصادقة لحقوق الانسان « حيث وردت بما يجعل المجتمع الاسلامى مجتمعاً متلاحماً متماسكاً ، وكفلت - أيضا - حقوق أهل الديانات الأخرى ما داموا يعيشون تحت مظلة الحكم الاسلامى .

وقد لخص الامام ابن القيم - رحمه الله - صورة المجتمع المدنى آنذاك بقوله : (لما قدم النبى - ﷺ - المدينة صار الكفار معه ثلاثة أقسام : قسم صالحهم ووادعهم على ألا يحاربوه ، ولا يظاهروا عليه ، ولا يوالوا عليه عدوه وهم على كفرهم ، آمنون على دمائهم وأموالهم . وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة .

وقسم تاركوه ، فلم يصالحوه ولم يحاربوه ، بل انتظروا ما يؤول إليه أمره وأمر أعدائه ، ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره فى الباطن ، ومنهم من كان يحب ظهور عدوه عليه وانتصارهم ، ومنهم من دخل معه فى الظاهر وهو مع عدوه فى الباطن ، ليأمن الفريقين ، وهؤلاء هم المنافقون .

فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره به ربه - تبارك وتعالى - . وقد اتضح لنا من خلال هذا البحث أن هناك ثلاثة أمور هامة هى سمات هذا العهد :

١ - كيد أهل الكتاب للإسلام ، ثم النهى والتحذير من موالاتهم وطاعتهم .

٢ - ظهور النفاق والمنافقين .

٣ - البراء من هؤلاء وأولئك : أى : المفاصلة التامة بين المسلمين وأعدائهم ولها صور ترد فى موضعها .

---

(١) انظر سيرة النبى - ﷺ - لابن هشام - تحقيق الشيخ/ محمد محى الدين عبد الحميد جـ٢ ص ١١٩ .

أولًا : كيد أهل الكتاب للإسلام وتحذير المسلمين من موالاتهم

تتفق نظرة المنصفين الباحثين فى التاريخ اليهودى : أن اليهود أمة حاقدة ، الخداع طبعها والغدر دينها ، ومحادة الله ورسله خلقها ولحكمة الله علمها انتقلت الرسالة من بين اسرائيل فكان خاتم الأنبياء هو محمد بن عبد الله الهاشمى القرشى العربى ـ ﷺ ـ وقد كان كيد اليهود ـ خاصة ـ قد بدأ منذ أن كان رسول الله ـ ﷺ ـ فى مكة حيث كانت تعاون قريشا فى أسئلة العناد التى توجه للمصطفى ـ ﷺ ـ وذلك مثل قولهم لقريش : اسألوه عن الروح ، وعن أصحاب الكهف ، وغير ذلك مما هو معلوم من سورة الكهف .

ولما هاجر رسول الله ـ ﷺ ـ ومن معه إلى المدينة ، قامت قيامة اليهود ، فلم يهدأ لهم بال ، ولم يهنأ لهم عيش . ذلك أن قيام الدولة المسلمة فى الأرض له أثره الكبير عليهم ، فالإسلام هو الذى يكسر شوكتهم ، ويفضح مكنوناتهم ، وتحرير الناس من شرورهم ، ومزق شملهم وسيطرتهم وجبروتهم . ومن هنا لم يفتأوا يكيدونَ للإسلام ورسوله والمؤمنين وينصبون العراقيل فى وجه من يريد الإسلام وولد النفاق والمنافقون فى أحضانهم ، وخانوا الله ورسوله فلم يتقيدوا بالوثنية الآنفة الذكر ، وغدروا بالمسلمين فوالوا المشركين والكفار ، وآذوا رسول الله ـ ﷺ ـ وهموا بما لم ينالوا .

ولذلك عنى القرآن المدنى وخاصة أكبر سورة ـ وهى البقرة وآل عمران والنساء والمائدة ـ بكشف سترهم وفضحهم ، وبيان كيدهم . والآيات الكريمة فى هذا كثيرة جدا ولكننى أورد طرفا منها هنا ليتضح (للمسلمين) المخدوعين بهم اليوم ، الذين يوالونهم ويبجلوهم بل يقتدون بهم . ما عليه أعداء الذين هم قتلة الأنبياء ودعاة الفساد فى الأرض .

قال تعالى :

﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره إن الله على كل شىء قدير ﴾ ١٠٩ البقرة .

وفى سورة آل عمران :

﴿ ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ ٦٩ آل عمران .

﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون) ٧٢ آل عمران .

﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قُل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ ١٣٥ البقرة .

﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ ١٠٥ البقرة .

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ﴾ ١١٨ آل عمران .

فهذه الآيات وغيرها مما فى مثل معناها : تبين كيدهم وما يتربصون به للإسلام وأتباعه . ولذلك جاءت آيات كثيرة فى تحذير المؤمنين ونهيهم عن الاستماع للكفار عامة ولأهل الكتاب خاصة ، أو طاعتهم أو اتخاذهم أولياء أو الركون إليهم . قال تعالى : **﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير ﴾ ١٢٠** البقرة .

﴿ يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين . بل الله مولاكم وهو خير الناصرين ﴾ ١٤٩ ـ ١٥٠ آل عمران .

﴿ يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ﴾ ١٠٠ ـ ١٠١ آل عمران .

ورد فى سبب نزول هاتين الآيتين : أن شاس بن قيس اليهودى . وكان شيخاً قد غبر فى الجاهلية ، عظيم الكفر ، شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم ـ مر على نفر من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ من الأوس والخزرج فى مجلس جمعهم ، يتحدثون فيه فغاظه ما رأى من جماعتهم وألفتهم ، وصلاح ذات بينهم فى الإسلام بعد الذى كان بينهم فى الجاهلية من العداوة فقال : قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد ، لا والله مالنا معهم إذا اجتمعوا بها من قرار ، فأمر شاباً من اليهود كان معه فقال : اعمد إليهم فاجلس معهم ، ثم ذكرهم بعاث ـ أحد أيامهم فى الجاهلية ـ وما كان فيه ، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار ، ففعل . وتكلم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين ، فتقاولا وقال أحدهما لصاحبه : إن شئت رددتها جذعة ، وغضب الفريقان جميعاً وقالا : ارجعا السلاح السلاح ، موعدكم الظاهرة ـ وهى الحرة ، فخرجوا إليها ، وانضمت الأوس والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التى كانوا عليها فى الجاهلية .

وبلغ رسول الله ـ ﷺ ـ ذلك فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين ، حتى جاءهم فقال : « يا معشر المسلمين : الله الله أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر ، وألف به بينكم ، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً »(١) .

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا ، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله ـ ﷺ ـ سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله فأنزل الله : **﴿ يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب ﴾** الآية (٢) .

---

(١) الحديث فى تفسير الطبرى ـ تفسير سورة آل عمران جـ ٤ ص ١٦

(٢) الآية ١٠٠ من سورة آل عمران .

قال جابر بن عبد الله : ما كان طالع أكره إلينا من رسول الله - ﷺ - فأومأ إلينا بيده ، فكففنا وأصلح الله - تعالى - ما بيننا فما كان شخص أحب إلينا من رسول الله - ﷺ - فما رأيت يوماً أقبح ولا أوحش أولا وأحسن آخرا من ذلك اليوم . ويوجه الله عباده المؤمنين ويرشدهم - بعد أن ذكر قصة بنى إسرائيل مع موسى - عليه السلام - فى قصة ذبح البقرة - بقوله :

﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون . أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون) ٧٥ - ٧٧ البقرة .

ثم يأتى التحذير الأقوى فى سورة المائدة :

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ ٥١ المائدة .

﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون . يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾ ٥٥ - ٥٧ المائدة .

إن هذه النصوص وغيرها : قد ربت المسلمين على معرفة كيد أهل الكتاب للإسلام والمسلمين ، فقطعت ما فى نفوس بعض المسلمين من ود وولاء لهؤلاء الأعداء ، من أجل أن يكون الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين فقط .

ثانياً : النفاق والمنافقون

إن المؤمنين فى العهد المكى كانوا مبتلين ، يعذبون ، ويضطهدون ومع ذلك صبروا واحتسبوا فلم يكن فى مكة حينئذ إلا فريقان : فريق المؤمنين الصابرين ، وفريق الكفار والمشركين والجبابرة . ولم يكن هناك « منافقون » ، لأن النفاق طبيعته المراوغة والاحتيال وهذا الدين لم يكن يقدر عليه فى مكة إلا المؤمنون الصادقون .

أما فى المدينة ، وبعد قيام دولة المسلمين وهيمنة حكم الله وشرعه فقد وجد المنافقون وهذا أمر معهود من أصحاب النفوس الضعيفة الجبانة ، التى تخاف السلطة الإسلامية فتظهر لها الإسلام ، وتحب الكفر وأهله ، ولكنها لا تجرؤ على المصارحة به .

والمنافقون : (قوم أظهروا الإسلام ومتابعة الرسل ، وأبطنوا الكفر ومعاداة الله ورسله ، فهم فى الدرك الأسفل من النار ، كما قال تعالى :

﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً ﴾ ١٤٥ النساء .

« فالكافرون المجاهرون أخف منهم ، وهم فوقهم فى دركان النار ، لأن الطائفتين اشتركتا فى الكفر ومعاداة الله ورسله ، وزاد عليهم المنافقون بالكذب والنفاق . وبلية المسلمين بهم أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين ولهذا قال تعالى فى حقهم :

﴿ هم العدو فاحذرهم ﴾ ٤ المنافقون

ومثل هذا اللفظ يقتضى الحصر . أى : لا عدو إلا هم ، ولكن لم يردها هنا حصر العداوة فيهم ، وأنهم لا عدو للمسلمين سواهم ، بل هذا من إثبات الأولوية والأحقية لهم فى هذا الوصف ، وأنه لا يتوهم بانتسابهم إلى المسلمين ظاهراً ، وموالاتهم لهم ومخالطتهم إياهم أنهم ليسوا بأعدائهم ، بل هم أحق بالعداوة ممن باينهم فى الدار ، ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها .

« فإن ضرر هؤلاء المخالطين المعاشرين لهم - وهم فى الباطن على خلاف دينهم - أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم ، لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أياماً ثم ينقضى ويعقبه النصر والظفر أما هؤلاء فمعهم فى الديار والمنازل صباحاً ومساء ، يدلون العدو على عوراتهم ، ويتربصون بهم الدوائر ولا يمكنهم مناجزتهم . . صحبتهم توجب العار والشنار ، ومودتهم تحل غضب الجبار ، وتوجب دخول النار .

« من علقت به كلاليب كلبهم ومخاليب رأيهم مزقت منه ثياب الدين والإيمان وقطعت له مقطعات من البلاء والخذلان ، فهو يسحب من الحرمان والشقاوة أذيالاً ، ويمشى على عقبه القهقرى إدباراً منه وهو يحسب ذلك إقبالاً » .

وكان من نعمة الله سبحانه وتعالى على هذه الأمة ألا يتركها مختلطة بغير تمييز بين المؤمن والمنافق ، ذلك أن عدم التمييز يؤدى إلى ضياع القدوة الحسنة فى المجتمع الإسلامى ، ويؤدى أيضاً إلى دوبان الصورة الصادقة للمسلم الصادق .

« وفى المتنسبين للإسلام أناس « نفعيون » لا هم لهم إلا الحصول على المال أو أى مأرب من مآربهم الدنيئة ، فإذا انتصر المؤمنون كانوا معهم ، وإذا أصيبوا كانوا عليهم ، ثم إن منهم أصحاب الأهداف الخبيثة والأغراض الهدامة ممن قد امتلأت قلوبهم بالحقد والحسد ، فهم يتربصون بالمسلمين الدوائر ، ويتظاهرون لهم بأنهم معهم ، ولكنهم يخونوهم فى أحرج المواقف » .

ولما كان الأمر كذلك ، ميز الله الصادق من الكاذب عن طريق الابتلاء والامتحان . قال تعالى :

﴿ الم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ . ١ - ٣ العنكبوت .

﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾ ١٤٠ - ١٤١ آل عمران .

﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ ١٧٩ آل عمران .

أحل : إنه لابد من التمييز بين الخبيث والطيب ، فالابتلاء سنة ربانية فى تمحيص النفوس وصقلها على الحق ، ثم إنه سبحانه يحب من عباده تكميل عبوديتهم على السراء والضراء ، وفى حال العافية والبلاء ، فلله سبحانه على العباد فى كلتا الحالين عبودية بمقتضى الحال . . لا تحصل إلا بها ، ولا يستقيم القلب بدونها ، كما لا تستقيم الأبدان إلا بالحر والبرد ، والجوع والعطش ، والتعب والنصب ، فتلك المحن والبلايا شرط فى حصول الكمال الإنسانى والاستقامة المطلوبة منه .

ولنتكلم هنا عن أبرز أفعال وصفات المنافقين فى كيدهم للدعوة الإسلامية .

١ ـ من أخطر ما ارتكبه المنافقون : موالاة اليهود والنصارى ضد المسلمين وقد فضحهم القرآن فى عدة مواضع ومنها سورة الحشر ، قال تعالى : **﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون ﴾** ١١ ـ ١٢ الحشر .

وقال تعالى :

﴿ ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون ﴾ ١٤ المجادلة .

ذكر السدى ومقاتل : أنها نزلت فى عبد الله بن أبىّ وعبد الله بن نبتل المنافقين : فقد كان أحدهما يجالس النبى ـ ﷺ ـ ثم يرفع حديثه إلى اليهود . وهذه الآية كقوله تعالى :

﴿ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ﴾ ١٤٣ النساء .

ولقد نزلت سورة كاملة فيهم هى سورة « المنافقون » بيّن الله فيها أنهم يظهرون ما لايبطنون ، وأنهم يحرضون على إضعاف صف المسلمين .

﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون ﴾ ٧ المنافقون .

وفيها أيضاً :

﴿ يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ ٨ المنافقون .

روى البخارى ومسلم فى سبب نزولها عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : « كنا غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال الأنصارى : يا للأنصار ، وقال المهاجرى : يا للمهاجرين ، فقال رسول الله ﷺ : « ما بال دعوى الجاهلية ؟ قالوا : يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال : « دعوها فإنها فتنة » فسمعها عبد الله بن أبىّ فقال : قد فعلوها ، والله لئن رجعنا إلى

المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، قال عمر : دعنى أضرب عنق هذا المنافق : قال ﷺ : « دعه . لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه »(١) .

قال محمد بن اسحاق عن عاصم بن عمرو بن قتادة : أن عبد الله بن عبد الله بن أبى لما بلغه ما كان من أبيه أتى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : يا رسول الله : إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلاً فمرنى به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالديه منى ، إنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبى يمشى فى الناس فأقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر ، فأدخل النار . فقال رسول الله ﷺ : « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا »(٢) .

وذكر عكرمة وغيره : أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله بن أبى على باب المدينة ، واستل سيفه ، فجعل الناس يمرون عليه ، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبى قال له ابنه : وراءك ، فقال : مالك ويلك ؟ قال : والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله ـ ﷺ ـ وكان إنما يسير ساقه ـ فشكى له عبد الله بن أبى ابنه ، فقال الابن : والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له ، فإذن له رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : أما إذ أذن لك رسول الله ـ ﷺ ـ فجز الآن .

وحقاً ، إنها صورة رائعة لصدق الإيمان أن يقول الابن لرسول الله : إن كنت فاعلاً فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه ، إنه ما حمل هذا الابن على هذا الفعل إلا قوة الإيمان وعمق الولاء والبراء فى نفسه .

٢ ـ من أقبح صفاتهم : رفض التحاكم إلى شريعة الله ، والتحاكم إلى الطواغيت التى تحقق رغباتهم ، قال تعالى :

﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً . وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً . فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً . أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغاً ﴾ . ٦٠ ـ ٦٣ النساء .

ورفضهم لحاكمية الله رفض للإيمان كما قال تعالى :

﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وان يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين . أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون ﴾ ٤٧ ـ ٥٠ النور .

ثم يضع الله ميزاناً دقيقاً فى هذه القضية بين المؤمن والمنافق . فأما المؤمن الصادق فإنه ينقاد إلى حكم الله ويرضى به ويقول : « سمعت وأطعت » .

---

(١) انظر البخارى ـ كتاب التفسير ـ جـ ٦ ص ١٩١ ط الشعب

(٢) الحديث فى سيرة النبى ـ ﷺ ـ لابن هشام ـ تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابيارى وعبد الحفيظ شلبى جـ ٣ ص ٣٠٥

﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾ ٥١ سورة النور .

هذه هى صفة المؤمن ، أما المنافق فصفته الإعراض والاستكبار عن حكم الله .

٣ ـ من صفاتهم وأفعالهم الدنيئة : التخذيل فى صف المسلمين ، والتجسس للكفار وكشف عورات المسلمين لهم . قال الله عنهم : ﴿ الذين قالوا لاخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾ ١٦٨ آل عمران .

ولقد أصيب المسلمون فى غزوة أحد بالدهشة حين رجع ثلث الجيش بزعامة ابن أبىّ . وكذلك قعودهم عن غزوة تبوك وغيرها .

وفى موالاتهم للكفار يقول الله فى شأنهم .

﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً . الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً ﴾(١) .

وأخبرنا سبحانه أنهم هم :

﴿ الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ﴾(٢) .

ولقد فضحتهم سورة التوبة خاصة فقد ورد فيها قوله تعالى :

﴿ إنما يستئذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون . ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل إقعدوا مع القاعدين . لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين . لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون . ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون ﴾(٣)

ففى هذه الآيات بيان من الله للمؤمنين أن هؤلاء المنافقين لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ، لأنهم جبناء مخذولون ولأسرعوا بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة . وقال الله فيهم أيضاً .

﴿ وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استئذنك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين . رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾(٤) .

---

(١) الآية ١٣٨ من سورة النساء

(٢) الآية ١٤١ من سورة النساء

(٣) الآيات ٤٥ إلى ٥٠ من سورة التوبة

(٤) الآيتان ٨٦ ، ٨٧ من سورة التوبة

ولهم مواقف أخرى كثيرة ، ولكنه سبحانه وتعالى حذر المؤمنين منهم وبين لرسوله - ﷺ - أنه سبحانه وتعالى لو شاء لأراهم لرسول الله عيانا ولكنهم يعرفون بلحن القول ولو تشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول .

﴿ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول والله يعلم أعمالكم ﴾[1] .

ثالثا - البراء فى العهد المدنى

أى (المفاصلة التامة بين المسلمين وجميع أعدائهم) .

لئن كانت التربية فى العهد المكى تمتاز بضبط النفس والصبر على الأذى وتبليغ الدعوة واعداد العدة مع حبس دواعى الانطلاق وكف حدة الإقدام . فإن التربية فى المدينة مبنية على هذه الأسس ولكن فى شكل جديد حيث انطلق المؤمنون فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله والضرب على يد أعداء الله بقوة لا تعرف الضعف وعزيمة لا تعرف الوهن . من هنا كان الجهاد فى سبيل الله هو أبرز سمات هذا العهد الزاهر وهو أول صورة من صور البراء والمفاصلة بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان فى العهد المدنى وبعد الهجرة النبوية والجهاد وجه جديد من وجوه الثبات على العقيدة واحتمال المشقات والأذى فى سبيل الذود عنها من الأعداء .

والحديث عن الجهاد طويل طويل وآياته كثيرة وكذلك الأحاديث النبوية فيه وفهم الناس لمقصده مختلف خاصة فى العصور المتأخرة ، فقد وجد من المسلمين أناس أصيبوا بالهزيمة النفسية أمام شبهات الكفار والملحدين والمستشرقين والمستغربين على حد سواء .

ففى الوقت الذى يقول فيه أعداء الله . إن دين الاسلام انتشر بالسيف وجد ممن ينتسبون للعلم والعلماء من يدافع - حسب زعمه - عن الإسلام ؟ فيلوى أعناق النصوص الشرعية لتوافق ما زعمه دفاعاً عن الإسلام ! ومن هنا يوضع الإسلام فى مقام الدفاع ويصور على أنه كالذى يقاتل فى معركة إنسحاب حيث كلما طرأت شبهة انبرى لها من يدافع .

والذى نعتقده ونراه الحق فى هذه القضية : أن هذه مهزلة سخيفة لم تحدث إلا فى القرون المتأخرة ، حين صارت الغلبة للكفروأربابه ، وأندحر المسلمون من مقام القيادة والجهاد إلى مقام الاستخذاء والضعف والدفاع والتبعية العمياء .

وقد كتب علماء فضلاء من علماء المسلمين حول هذا الموضوع ما يكفى ويشفى ويغنى . ومن المهم فى هذا المقام : أن نعرف هدى المصطفى - ﷺ - وسيرته مع أعداء الله وجهاده لهم . وللإمام ابن القيم - رحمه الله - تلخيص قيم نورده هنا بتمامه نظراً لأهميته .

قال - رحمه الله - فى زاد المعاد : (أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى : أن يقرأ باسم ربه الذى خلق ، وذلك أول نبوته فأمره أن يقرأ فى نفسه ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ . ثم أنزل عليه .

---

(١) الآية ٣٠ من سورة محمد

﴿ يأيها المدثر . قم فأنذر ﴾ .

فنبأه بقوله : « اقرأ » وأرسله بـ « يا أيها المدثر » ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين ثم أنذر قومه ، ثم أنذر من حولهم من العرب ثم أنذر العرب قاطبة ثم أنذر العالمين فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية ويؤمر بالكف والصبر والصفح .

ثم أذن له فى الهجرة وأذن له فى القتال ، ثم أمره أن يقاتل من قاتله ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله ، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله .

ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام : (١) أهل صلح وهدنة . (٢) وأهل حرب . (٣) وأهل ذمة .

فأمر أن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم وأن يوفى لهم به ما استقاموا على العهد فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد . وأمر أن يقاتل من نقض عهده . ولما نزلت سورة « براءة » نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها فأمره فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا فى الإسلام وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم فجاهد الكفار بالسيف والسنان والمنافقين بالحجة واللسان .

وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار ، ونبذ عهودهم إليهم وجعل أهل العهد فى ذلك ثلاثة أقسام:

١ - قسما أمره بقتالهم وهم الذين نقضوا عهده ولم يستقيموا له فحاربهم وظهر عليهم .

٢ - وقسماً لهم عهد مؤقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه ، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم .

٣ - وقسماً لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه أو كان لهم عهد مطلق فأمره أن يؤجلهم أربعة أشهر فإذا انسلخت قاتلهم . وهى الأشهر الأربعة المذكورة فى قوله :
﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين ﴾(١) .

فالحرم هاهنا أشهر التسيير أولها يوم الآذان وهو اليوم العاشر من ذى الحجة وهو يوم الحج الأكبر الذى وقع فيه التأذين بذلك . وآخرها العاشر من ربيع الآخر . وليست هى الأربعة المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ﴾(٢) .

فإن تلك : واحد فرد ، وثلاثة سرد . رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم . ولم يسير المشركين فى هذه الأربعة . فإن هذا لا يمكن لأنها غير متوالية ، وهو إما أجلهم أربعة أشهر ثم أمره بعد انسلاخها أن يقاتلهم فقتل الناقض لعهده وأجل من لا عهد له أوله عهد مطلق أربعة أشهر وأمره أن يتم للموفى بعهده عهده إلى مدته فأسلم هؤلاء كلهم ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم وضرب على أهل الذمة الجزية .

---

(١) الآية ٥ من سورة التوبة
(٢) الآية ٣٦ من سورة التوبة

فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول « براءة » على ثلاثة أقسام : محاربين له ، وأهل عهد ، وأهل ذمة .

ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام وضاروا معه قسمين : محاربين وأهل ذمة ، والمحاربون له خائفون منه فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام : مسلم مؤمن به ومسالم آمن وخائف محارب .

وقد ركز القرآن الكريم على أهداف الجهاد فى غير ما آية . فمنها قوله تعالى :

﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ (١) .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم « ويكون الدين كله لله » لا يكون مع دينكم كفر .

وقال تعالى :

﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ (٢) .

وقال :

﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾ (٣) .

إن الجهاد فى الإسلام : هدفه أن يعبد الله وحده فى الأرض وأن تهيمن شريعته ، ويتحرر الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن تأليه البشر إلى ألوهية الواحد الأحد ومن هدف الجهاد أيضاً إنقاذ المستضعفين فى الأرض .

﴿ ومالكم لاتقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً ﴾ (٤) .

واليك تفصيل صور البراء من كل طائفة وكيفية جهاد المسلمين لهم :

(أ) صور البراء من المشركين :

١ ـ بعد أن قامت الدولة المسلمة فى المدينة كان لابد من اجتثاث شجرة الشرك فى مكة وغيرها وقد نزلت سورة التوبة بقتال المشركين وتفصيل ذلك ورد بتلخيص ابن القيم الذى سبق ذكره .

قال تعالى :

(١) الآية ٣٩ من سورة الأنفال
(٢) الآية ٩ من سورة الصف
(٣) الآيتان ٤٠ ، ٤١ من سورة الحج
(٤) الآية ٧٥ من سورة النساء

﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين . وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وان توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم الى مدتهم إن الله يحب المتقين . فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون . كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتمعند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين . كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدوا عن سبيله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون . لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون . فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون . وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون . ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين . ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم ﴾(١) .

٢ ـ منعهم من دخول المسجد الحرام قال تعالى :

﴿ يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم ﴾(٢) .

قال ابن كثير : كان نزول هذه الآية سنة تسع ولهذا بعث رسول الله ـ ﷺ ـ علياً صحبة أبى بكر ـ رضى الله عنهما ـ عامئذ وأمره أن ينادى فى المشركين .

« ألا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان »(٣) .

فأتم الله ذلك وحكم به شرعاً وقدراً .

٣ ـ منع النكاح بالمشركات : ذكر ابن جرير ـ وهو يتحدث عن صلح الحديبية ـ إنه جاء إلى النبى ـ ﷺ ـ نسوة مؤمنات فأنزل الله عز وجل :

﴿ يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهم مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار . لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وءاتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا ءاتيتموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾(٤)

---

(١) الآيات ١ ـ ١٥ من سورة التوبة

(٢) الآية ٢٨ من سورة التوبة

(٣) الحديث فى صحيح البخارى ـ تفسير سورة براءة ـ جـ ٦ ص ٨١

(٤) الممتحنة آية : ١٠

قال فطلق عمر ـ رضى الله عنه ـ يومئذ امرأتين كانتا له فى الشرك .

٤ ـ منع اقامة المسلم فى دار الشرك وذلك بعد أن أعز الله دينه وعباده وقامت لهم دولة فحينئذ تحرم الإقامة بدار الشرك خشية على المسلم أن يفتن ، ولكى ينضم إلى جماعة المسلمين فهم إخوته وأولياؤه من دون الناس . قال ـ ﷺ ـ « أنا برىء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين » قالوا : يا رسول الله لم ؟ قال : « لا تراءى ناراهما »[1] .

(ب) البراء من أهل الكتاب

إن الجهاد هو أكبر مظاهر المفاصلة بين المسلمين وجميع أعدائهم ـ ومنهم أهل الكتاب ـ فإنه لابد أن نشير إلى بعض ما نزل فى مفاصلة أهل الكتاب إضافة إلى مبدأ جهادهم .

ومن ذلك قوله تعالى فى سورة آل عمران التى عنيت بهم كثيراً وكشفت ما لديهم .

﴿ يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون . يأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ﴾[2] .

﴿ قل يأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون . قل يأهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من أمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون ﴾[3] .

وفى سورة المائدة قوله تعالى :

﴿ قل يأهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أُنزل الينا وما أُنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون . قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل ﴾[4] .

ففى هذه الآيات وغيرها نجد التقريع لأهل الكتاب والتنديد بباطلهم ومخازيهم .

ثم يأتى النص القرآنى للرسول ـ ﷺ ـ وللمؤمنين من ورائه بأن يقولوا لأهل الكتاب إنهم ليسوا على شىء حتى يقيموا شرع الله ويحكموا كتابه .

﴿ قل يأهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أُنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل اليك من ربك طغياناً وكفراً فلا تأس على القوم الكافرين ﴾ .

وهذه الآية الكريمة من أعظم ما بين صورة البراء من أهل الكتاب . ولقد كان جهاد المصطفى ـ ﷺ ـ وأصحابه لأهل الكتاب : بنى قينقاع وبنى قريظة وبين بنى النضير . صورة واضحة بارزة فى مفاصلتهم وجهادهم والبراءة منهم .

(١) الحديث فى الجامع الكبير ـ للسيوطى جـ ١ ص ٣٢٦ برواية أبى داود والترمذى والطبرانى فى الكبير والبيهقى فى السنن الكبرى ، عن قيس بن أبى حازم
وفى سنن أبى داود ـ كتاب الجهاد ـ جـ٣ ص ١٠٤ ، ١٠٥
(٢) الآيتان ٧٠ ، ٧١ من سورة آل عمران
(٣) الآيتان ٩٨ ، ٩٩ من سورة آل عمران
(٤) الآيتان ٥٩ ، ٦٠ من سورة المائدة

(جـ) البراء من المنافقين

مفاصلة المنافقين والبراءة منهم تؤخذ من هدى رسول الله - ﷺ - معهم وفى ذلك يقول العلامة ابن القيم : (وأما سيرته - ﷺ - فى المنافقين : فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ، ويكل سرائرهم إلى الله وأن يجاهدهم بالعلم والحجة . وأمره أن يعرض عنهم ويغلظ عليهم وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم ونهاه أن يصلى عليهم وأن يقوم على قبورهم وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم) .

وإنه لمن أبرز صفات المنافقين موالاة الكفار وكراهية دين الله والتخذيل فى صف المسلمين لذلك حين بين الله حالهم للمؤمنين : كان لابد من مفاصلتهم والبراءة منهم ونزل فى ذلك آيات توضح صور هذه المفاصلة وذلك البراء ومنها :

١ - الاعراض عنهم والغلظة عليهم : وقد جاء ذلك مقروناً بجهاد الكفار فالغلظة على المنافق من أنواع الجهاد قال تعالى :

﴿ يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴾ .

وهى نفس آية « ٩ من سورة التحريم » .

وسورة التوبة فضحتهم فضحاً عظيماً حتى أنها سميت (بالفاضحة) ، ففى صحيح البخارى عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة التوبة ؟ قال : التوبة هى الفاضحة ، مازالت تنزل : ومنهم ومنهم حتى ظنوا أنها لم تبق أحداً منهم إلا ذكر فيها »[1] .

وفى سورة النساء :

﴿ ويقولون طاعة فإذ برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول والله يكتب مايبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾[2] .

٢ - النهى عن الصلاة عليهم أو القيام على قبورهم :

﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره ، إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾[3] .

قال ابن كثير : وهذا حكم عام فى كل من عرف نفاقه وان كان سبب نزول الآية فى عبدالله بن أبى ابن سلول رأس المنافقين .

٣ - لا يقبل لهم عذر فى التخلف عن الجهاد ومن ثم عدم قبولهم فيه مرة أخرى قال تعالى

﴿ فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستئذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين ﴾[4] .

---

(١) انظر تفسير القرطبى - تفسير سورة براءة - جـ٨ ص ٦١

(٢) الآية ٨١ من سورة النساء

(٣) الآية ٨٤ من سورة التوبة

(٤) الآية ٨٣ من سورة التوبة

﴿ يعتذرون اليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون . سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون . يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾[1] .

٤ - عدم الاستغفار لهم قال تعالى :

﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾[2] .

﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون . سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾[3] .

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَٰهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ (٦) ﴾

معانى المفردات

الأسوة : (بضم الهمزة وكسرها وبهما قرىء) من يؤتسى به كالقدوة لمن يقتدى به والجمع أسى ، براء واحد هم برىء كظرفاء وظريف :

أى : متبرئون ومنكرون لما تعملون ، وما تعبدون : أى من الأصنام والكواكب وغيرها ، البغضاء : أى البغض والكراهة ، لا تجعلنا فتنة للذين كفروا : أى : لا تسلطهم علينا فيفتنوننا بعذاب لا نحتمله .

من قولهم : فتن الفضة : أى : أذابها ، يرجو الله : أى يؤمل ثوابه ، واليوم الآخر : أى : مجيئه ، ومن يقول : أى : ومن يعص النصيحة .

(١) الآيات ٩٤ إلى ٩٦ من سورة التوبة
(٢) الآية ٨٠ من سورة التوبة
(٣) الآيتان ٥ ، ٦ من سورة المنافقون

المناسبة وإجمال المعنى :

بعد أن أنكر عليهم موالاتهم للكافرين وذكر لهم الموانع التى تمنع من ذلك كإخراجهم من الديار وتمنى الكفر لهم وصدهم عن هداية الدين وكفرهم بالرسول وبما جاء به وأنهم متى وجدوا سبيلاً لأذاهم بقول أو فكر سلكوه غير آبهين لصلة رحم ولا قربى أكد هنا ذلك فأمرهم أن يأتسوا بإبراهيم وأصحابه إذ تبرءوا من قومهم وعادوهم وقالوا لهم : إنا براء منكم ، قال الفراء : يقول : أفلا تأسيت يا حاطب بإبراهيم حين تبرأ من أهله ، لتعلم أن الحب فى الله والبغض فى الله من أوثق عرا الإيمان » .

أضواء كاشفة :

أسوة إبراهيم فى هذا :

كيف تتخذون أعدائى وأعداءكم أولياء ؟ ألا تقتدون بأبيكم إبراهيم ؟ قد كانت لكم أسوة حسنة ، وقدوة طيبة فىَ أبيكم إبراهيم الخليل والذين معه من المؤمنين إذ قالوا لقومهم : إنا برءاؤا منكم ومما تعبدون فنحن لا نعتد بكم ولا نحفل بألهتكم بل أنكرناكم وبدا بيننا وبينكم العداوة لا المحبة والبغضاء لا الصداقة فى كل وقت كل هذا حتى تؤمنوا بالله وحده وتكفروا بشركم اقتدوا بأقوال إبراهيم وأفعاله إلا قوله لأبيه : لأستغفرن لك .

واستثناء قول إبراهيم هذا من الأسوة الحسنة ، لأنها واجب اتباعها وتقليد إبراهيم فيها حيث ذكر بعدها هذا الوعيد « ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد » .

واستغفار إبراهيم لأبيه حيث لم يعرف اصراره على الكفر وموته عليه بمعنى الدعاء له بالتوفيق جائز شرعاً بدليل قوله فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه والحكم فى الإسلام على هذا بالجواز حيث لم نعلم أن الكافر مصر على الكفر أو مات عليه فالاستغفار بهذا المعنى جائز لا واجب ولهذا استثنى من القدوة الواجب اتباعها وبعضهم أجاب عن هذا بقوله : إبراهيم عليه السلام استغفر حيث لم يعلم إصرار أبيه وقد كان وعده أما أنتم فتعرفون إصرار هؤلاء وفظاعة عنادهم وشدة كراهيتهم لكم فلا ينبغى أبداً أن تجاملوهم وتدعوا لهم بالخير بعد أن وصف الله لكم نياتهم ورأيتم أنتم أفعالهم وهذا تجريح حسن بلا شك .

لأستغفرن لك ربى والحال أنى لا أملك لك من الله شيئا فاعمل بما يرضيه فلن أغنى عنك من الله شيئا يا أبت !

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير .

ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا فتعذبنا على أيديهم أو بعذاب من عندك فيظنوا أنهم على حق ونحن على باطل فيفتنوا لذلك وللأسف ما يحصل اليوم هو هذا فيا رب لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا سيئاتنا ، وقنا عذاب الخزى فى الدنيا والآخرة ربنا انك أنت العزيز الحكيم .

لقد كان لكم فى إبراهيم ومن معه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يقول عن ذلك

ولايقتدى بالصالحين فليعلم أن الله هو الغنى عنه وعن عمله المحمود فى السموات والأرض وهذا تهديد لمن لم يقتد بالقدوة الحسنة » .

التفسير

وهل الايمان إلا الحب فى الله والبغض فى الله إن الإيمان عقيدة لا تقبل المساومة ولا أنصاف الحلول لا مجال فيها للمراوغة أو المكر والخداع إنها صريحة واضحة والإيمان إذا باشرت بشاشته شغاف القلوب يكاد يجعل المستحيل ممكنا والملح الأجاج عذباً فراتاً سلسبيلا ومعيار ذلك الإيمان أن تحب فى الله وتبغض فى الله وتعطى فى الله وتمنع فى الله .

يقول تعالى لعباده المؤمنين الذين أمرهم بمصارمة الكافرين وعداوتهم ومجانبتهم والتبرى منهم « قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه » أى وأتباعه الذين آمنوا معه « إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم » أى : تبرأنا منكم « ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم » أى : بدينكم وطريقكم « وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً » يعنى وقد شرعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم ما دمتم على كفركم فنحن أبداً نتبرأ منكم ونبغضكم حتى تؤمنوا بالله وحده » .

أى : إلى أن توحدوا الله فتعبدوه وحده لا شريك له وتخلعوا ما تعبدون معه من الأوثان والأنداد . وقوله تعالى ﴿ إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ﴾ أى : لكم فى إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها إلا فى استغفار إبراهيم لأبيه فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه وذلك أن بعض المؤمنين كانو يدعون لآبائهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم ويقولون إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه فأنزل الله ـ عز وجل ـ ﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولوكانوا أولى قربى من بعدما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدةٍ وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاؤا منكم ـ إلى قوله تعالى ـ إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شىء ﴾ أى ليس لكم فى ذلك أسوة أى فى الاستغفار للمشركين هكذا قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومقاتل بن حيان والضحاك غير واحد .

ثم قال تعالى مخبراً عن قول إبراهيم والذين معه حين فارقوا قومهم وتبرءوا منهم فلجأو إلى الله وتضرعوا إليه فقالوا : ﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ﴾ .

أى : توكلنا عليك فى جميع الأمور وسلمنا أمورنا إليك وفوضناها إليك ، وإليك المصير أى : المعاد فى الدار الآخرة ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ﴾ قال مجاهد : معناه لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا ، وكذا قال الضحاك . وقال قتادة : لا تظهرهم علينا فيفتنوا بذلك يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحق هم عليه واختاره ابن جرير وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : لا تسلطهم علينا فيفتنونا وقوله تعالى ﴿ واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ أى : واستر ذنوبنا من غيرك واعف عنها فيما بيننا وبينك ﴿ إنك أنت العزيز ﴾ أى : الذى لا يضام من لاذ بجنابك ﴿ الحكيم ﴾ فى أقوالك وأفعالك وشرعك وقدرك

ثم قال تعالى ﴿ لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾ وهذا تأكيد لما تقدم هو مستثنى منه ما تقدم أيضاً ، لأن هذه الأسوة المثبتة هنا هى الأولى بعينها وقوله تعالى ﴿ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾ تهييج إلى ذلك لكل مؤمن بالله والمعاد وقوله تعالى ﴿ ومن يتول ﴾ أى : عما أمر الله به ﴿ فإن الله هو الغنى الحميد ﴾ كقوله تعالى ﴿ إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعاً فإن الله لغنى حميد ﴾[1] . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : الغنى الذى قد كمل فى غناه وهو الله هذه صفته لا تنبغى إلا له ليس له كفء وليس كمثله شىء سبحان الله الواحد القهار والحميد المستحمد إلى خلقه أى : هو المحمود فى جميع أقواله وأفعاله لا إله غيره ولا رب سواه .

(أسوة حسنة فى الولاء والبراء من الأمم الماضية)

(أ) إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ :

لقد كان نبى الله إبراهيم عليه السلام . أسوة حسنة وقدوة طيبة وفى ولأئه لربه ودينه وعباد الله المؤمنين وبرائه ومعاداته لأعداء الله ومنهم أبوه .

لقد كانت سيرة نبى الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع قومه كأى نبى رسول حيث دعاهم بالتى هى أحسن إلى عبادة الله وتوحيده وإقراره بالعباده والكفر بكل طاغوت يعبد من دون الله .

قال تعالى ﴿ واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً . إذ قال لأبيه يأبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً . ياأبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً . ياأبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمان عصيا يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً . قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك . واهجرنى ملياً . قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفياً . وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوا ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقياً . فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً ﴾[2] .

تلك هى نقطة البدء فى دعوة خليل الرحمن ، دعوة بالحسنى متبرئاً بأقرب الناس إليه فإن لم يكن هناك تجاوب مع هذه الدعوة فالاعتزال لهذا الباطل وأصحابه عَلَّ فى ذلك ردعاً وزجراً وتفكراً فى هذا الأمر الجديد ونجاة للداعى من مشاركة أهل الباطل فى باطلهم إذا لابد له من مخالطتهم ومعاشرتهم وعدم تمكنه من الهجرة من أرضهم .

ثم يمضى القرآن فى بيان إبراهيم ـ عليه السلام ـ مبيناً أنه استخدم مع قومه كل حجة ودليل : **﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم . إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون قال أفرءيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ﴾**[3]

---

(١) الاية ٨ من سورة إبراهيم

(٢) الآيات ٤١ إلى ٤٩ من سورة مريم

(٣) الآيات ٦٩ إلى ٧٧ من سورة الشعراء

ولما لم يجدوا حجة وإنما هو التقليد الأعمى لفعل الآباء والأجداد قال لهم إبراهيم - عليه السلام - أنا عدو آلهتكم هذه وهذا كما قال نوح عليه السلام فيما أخبر الله عنه بقوله : ﴿ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلى ولا تنظرون ﴾(١)

وقال هود عليه السلام :- ﴿ إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعاً ثم لاتنظرون . إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم ﴾(٢) وقال تعالى ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾(٣)

وعقيدة إبراهيم - عليه السلام - هذه هى التى عبر عنها علماؤنا الأجلاء علماء سلف هذه الأمة بقولهم : لا موالاه إلا بالمعاداة كما قال العلامة ابن القيم رحمه الله : لا تصح الموالاة إلا بالمعاداة كما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحبين إنه قال لقومه : ﴿ أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ﴾(٤) فلم تصح لخليل الله هذه الموالاة والخلة إلا بتحقيق هذه المعاداة .

فإنه لا ولاء إلا لله ، ولا ولاء إلا بالبراءة من كل معبود سواه قال تعالى : , ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين . وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون(٥)

أى جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية فى عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض وهى كلمة لا إله إلا الله وهى التى ورثها إمام الحنفاء ولأتباعه إلى يوم القيامة .

ويقول الامام الطبرى : قد كانت لكم يا أمة محمد أسوة حسنة فى فعل إبراهيم والذين معه فى هذه الأمور من مباينة الكفار ومعاداتهم وترك موالاتهم إلا فى قول إبراهيم ﴿ لأستغفرن لك ﴾

فإنه لا أسوة لكم فيه فى ذلك ، لأن ذلك كان من إبراهيم عن موعدة وعدها إياه قبل يتبين له أنه عدو لله فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه فتبرأوا من أعداء الله ، ولا تتخذوا منهم أولياء حتى يؤمنوا بالله وحده ويتبرءوا من عبادة ما سواه ، وأظهروا لهم العداوة والبغضاء .

وقد كان من نتيجة هذه المعاداة وهذا البراء القوى أن أجمع الطغاة على قتل إبراهيم - كما هو حال كل طاغية على مر عصور التاريخ فى إبادة الدعاة إلى الله ، لا لشىء إلا لأنهم يدعونهم إلى عبادة الله وحده . ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ ٨ البروج- وجمعوا له ناراً عظيمة فكانت رعاية الله وحفظه تحوطان خليله الصادق - عليه الصلاة والسلام - فصارت النار برداً وسلاماً عليه ﴿ قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه فى الجحيم فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين ﴾ ٩٧ - ٩٨ الصافات

---

(١) من الآية ٧١ من سورة يونس
(٢) من الآية ٥٤ إلى ٥٦ من سورة هود
(٣) من الآية ٤ من سورة الممتحنة
(٤) من الآية ٧٥ إلى ٧٧ من سورة الشعراء
(٥) من الآية ٢٦ إلى ٢٨ من سورة الزخرف

لقد عدلوا عن الجدال والمناظرة لما انقطعوا وغلبوا ، ولم تبق لهم حجة ولا شبهة إلى إستعمال قوتهم وسلطانهم لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم فكادهم الرب ـ جل جلاله ـ وأعلى كلمته ودينه وبرهانه كما قال تعالى : ﴿ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ﴾ ٦٨ ـ ٧٠ الأنبياءوتأتى التوجيهات الربانية لخاتم الأنبياء محمد ـ ﷺ ـ باتباع ملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ : ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ ١٢٣ النحل ﴿ قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ ٩٥ آل عمران ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ، قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ ١٣٥ البقرة ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين ﴾ ٦٨ آل عمران

﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ ١٢٥ النساء

﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل ﴾ ٧٨ الحج

﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ﴾ ١٣٠ البقرة

فهذه الأخبار من الله لأمة محمد ـ ﷺ ـ عن فعل إبراهيم عليه السلام من أجل الإقتداء به فى الإخلاص ، والتوكل على الله وحده ، وعبادة الله وحده والبراءة من الشرك وأهله ومعاداة الباطل وحزبه

(ب) أمثلة أخرى على طريق الحق والهدى :

إن دعوة الأنبياء واحدة . دعوة لعبادة الله وحده وإفراده بالعبودية والتأله والحب والرضى بحكمه وشرعه ، والبراءة من كل طاغوت معبود من دون الله سواء بالرغبة أو الرهبة .

﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ ٣٦ النحل فإننا نجد أمثلة مشرقة ونماذج إيمانية رفيعة على طريق العقيدة الغراء إنهم المؤمنون ، أينما وحيثما كانوا وحلوا وفى أى عصر ومصر عاشوا يوردها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ فى محكم تنزيله ، حتى تكون لنا أسوة حسنة . وتسلية لرسوله الكريم ـ ﷺ ـ عما كان يلاقيه هو وصحابته الأخيار .

وما أحوج الداعية المسلم ـ وهو الحريص على حب الخير لكل الناس ـ أن يتدبر هذه الأمثلة والنماذج الإيمانية فسيجد فيها العزاء والتسلية فيما يلاقيه من مشقة وعنت . وإذا كانت هذه سنة الله فى أنبيائه وعباده الصالحين أن يتعرضوا للأذى والعنت ـ وهم أكرم خلق الله على الله ـ فمن باب أولى أن يلاقى دعاة الهدى والخير صنوفاً شتى من الأذى والسخرية والاستهزاء والعذاب وسيجدون معية الله تصحبهم وترعاهم وحفظه وقدره يحوطهم وكل ما يلقونه إنما هو ابتلاء واختبار كما قال تعالى : ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ ١٧٩ آل عمران وحين يثبت المؤمنين على الحق ، ويتوكلون على الله حق توكله ، ويخافونه وحده ، ولا يخافون إلا الله ، فسيكون هذا دافعاً عظيماً لدخول الناس فى

دين الله ، والاهتداء بهديه ، والاقتداء بهؤلاء الصادقين الذين ضحوا بكل غال ونفيس ، وزهدوا فيما عند الناس راغبين ومؤملين فيما عند الله .

ومن هذه الأمثلة التى نريد الحديث عنها باختصار ، نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقد دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً فلم يؤمن معه إلا القليل ، والموقف الذى نريد أن نتحدث عنه من مواقفه ـ عليه السلام ـ هو موقفه مع ابنه الذى عصاه وأبى أن يستجيب لدعوة أبيه . قال تعالى : ﴿ ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . وقيل ياأرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين . ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين . قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين . قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين ﴾[١]

إن الوشيجة التى يجتمع عليها الناس فى هذا الدين ليست وشيجة الدم والنسب ، وليست وشيجة الأرض والوطن ، وليست وشيجة القوم والعشيرة ، وليست وشيجة اللون واللغة ، ولا الجنس والعنصر ، ولا الحرفة والطريقة إنها وشيجة العقيدة « أما الوشائج الأخرى فقد توجد ثم تنقطع العلاقة بين الفرد والفرد وبين الله لنوح لماذا لا يكون ابنه من أهله ؟ « إنه عمل غير صالح ، فوشيجة الإيمان قد انقطعت بينكما ﴿ فلا تسألن ما ليس لك به علم ﴾ إنه ليس من أهلك ولو كان هو ابنك من صلبك .

وهنا يأتى الإذعان الكامل والخوف من الله سبحانه وطلب مرضاته ورحمته . فيقول العبد الصالح نوح : ﴿ رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين ﴾[٢]

لقد استعلى نبى الله على العاطفة ورضى بحكم الله ، فلا لحاجة ولا التواء ، ولا معذرة ولا تأويل ، بل تسليم مطلق ، واتباع لما يحب الله ويرضى ، وإعراض عما يكره ويبغض وولاء لمن يحب الله وبراء وعداء لمن حاد الله ولو كان أقرب قريب .

ولم يكن شأن نبى الله نوح ـ عليه السلام ـ هذا مقصوراً على هذا الابن الكافر ، بل أيضاً مع زوجته ، وياله من امتحان عظيم فى الزوجة والابن هذه الزوجة تحدث عنها القرآن وعن نظيرة لها وشبيهة لفعلها وهى زوجة لوط ـ عليه السلام ـ فقد ابتلى هذان النبيان بزوجتين فاسدتين ضربهما الله لنا مثلاً فى كتابه العزيز فقال :

﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين ﴾ ١٠ التحريم

على أن ما يجب التنويه عنه هنا ، أن هذه الخيانة فى الدين وليست فى الفاحشة ، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع فى الفاحشة لحرمة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ

---

(١) من الآية ٤٢ إلى ٤٧ من سورة هود
(٢) من الآية ٤٧ من سورة هود

أما امرأة نوح فكانت تفشى سره ، إذا آمن معه أحد أخبرت الجبابرة من قومها ، وامرأة لوط تخبر قومها بضيوف زوجها من أجل فعل السوء القبيح » .

وعلى النقيض من هذا الفعل المشين من هاتين المرأتين يضرب لنا القرآن مثلاً عالياً فى الإيمان والاستعلاء على الكفار من قبل إمرأة مؤمنة هى زوجة فرعون اللعين . قال تعالى : ﴿ **وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين** ﴾ ١١ التحريم إن هذه المرأة لم يصدها طوفان الكفر الذى تعيش فيه ، فى قصر فرعون عن طلب النجاة وحدها ، وقد تبرأت من قصر فرعون طالبة إلى ربها بيتاً فى الجنة وتبرأت من صلتها بفرعون فسألت ربها النجاة منه ، وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقها من عمله شىء وهى ألصق الناس به . ﴿ **ونجنى من فرعون وعمله** ﴾(١) وتبرأت من قوم فرعون وهى تعيش بينهم ﴿ **ونجنى من القوم الظالمين** ﴾(٢) إنه مثل للاستعلاء على عرض الدنيا فى أزهى صوره ، فقد كانت امرأة فرعون ، أعظم ملوك الأرض يومئذ ، فى قصر فرعون أمتع مكان تجد فيه امرأة ما تشتهى ، لقد استعلت على هذا بالإيمان ولم تعرض عنه فحسب ، بل اعتبرته شراً ودنساً وبلاء تستعيذ بالله منه .

إنها امرأة واحدة فى مملكة عريضة قوية . وقفت وحدها فى وسط ضغط المجتمع وضغط القصر ، وضغط الملك ، وضغط الحاشية ، ورفعت رأسها للسماء ، إنه التجرد الكامل من كل هذه المؤثرات والأواصر إن وقوف المرأة أمام ذلك الجبار من الأهمية بمكان ، علّ فى ذلك ما يدفع تثبيط الشيطان وحزبه لبعض دعاة الإسلام وهم يخافون أن يمسهم الناس بشىء لم يكتبه الله عليهم .

ألا فلنأخذ من قرآننا عبرة وعظة ، وشحنة عمل ، ومنهاج دينا وآخرة حتى نقوم بما كلفنا الله به وشرفنا بالإنتساب إليه وهى الدعوة إلى الله . يقول قتادة : كان فرعون أعتى أهل الأرض وأبعده ، فوالله ما ضر إمرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها لتعلموا أن الله حكم عدل ، لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه .

وهناك أيضاً نموذج آخر ، وعلم من أعلام دعاة صراط الله المستقيم . إنه مثل رفيع فى الولاء لله ودينه وعباده الصالحين فى النصرة والجهاد بقدر الطاقة لإعلاء كلمة الله ، والبراءة من الكفار بعد إقامة الحجة والبرهان عليهم ، إنه مؤمن آل فرعون .

لننظر فى موقفه وفى ولائه حين عزم الطاغية فرعون على قتل رسول الله موسى ـ عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ـ لقد قال مؤمن آل فرعون كما حكاه القرآن عنه : ﴿ **وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب** ﴾ ٢٨ غافر

واسم هذا الرجل حبيب النجار والمشهور أنه كان قبطياً من آل فرعون . وكان يكتم إيمانه عن قومه القبط ، ولم يظهره إلا هذا اليوم حين قال فرعون : ﴿ **ذرونى أقتل موسى** ﴾ ٢٦ غافر فأخذت الرجل غضبة لله ـ عز وجل ـ و« أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر »(٣) ولا أعظم من هذه الكلمة وهى

(١ ، ٢) من الآية ١١ من سورة التحريم

(٣) الحديث فى جمع الجوامع ـ الجامع الكبير ـ للسيوطى جـ ١ ص ١٢٨ برواية أبى داود وابن ماجه ، عن أبى سعيد ، وأحمد وابن ماجه والطبرانى فى الكبير والبيهقى فى شعب الايمان ، عن أبى أمامة
وفى سنن أبى داود ـ كتاب الملاحم ـ جـ ٤ ص ٥١٤

قوله ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله ﴾ فانظر إلى ولاء هذا الرجل المؤمن لنبى الله موسى ونصرته له ، وتدبر برائه من الطاغية حتى وهو يصب عليه العذاب .

وأخيراً نقف مع الفتية الصلحاء ﴿ أصحاب الكهف ﴾ الذين تركو الأهل والولد والوطن والعشيرة حين علموا أنه لا طاقة لهم بمواجهة ومجابهة قوم فنجوا بأنفسهم إلى ذلك الكهف الذى تجلت فيه معجزة عظيمة يسوقها الله لنا عبرة وعظة فى حفظه لعباده الصالحين : قال تعالى : ﴿ إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذاً شططاً . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بيّن فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً . وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيء لكم من أمركم مرفقاً ﴾ . ـ ١٦ الكهف لقد كان موقف هؤلاء الفتية صريحاً وواضحاً وحاسماً . وحين تتباين الطريقان ويختلف المنهجان لا يعود هناك سبيل إلى الالتقاء ولا للمشاركة فى الحياة . بل لابد من الفرار بالعقيدة

إنهم ليسوا رسلاً إلى قومهم فيواجهوهم بالعقيدة الصحيحة ويدعوهم إليها ، ويتلقوا ما يتلقاه الرسل ، إنما هم فتية تبين لهم الهدى فى وسط ظالم كافر ، ولا حياة لهم فى هذا الوسط إن هم أعلنوا عقيدتهم وجاهروا بها . وهم أيضاً لا يطيقون صد أراء قومهم ، وعبادة آلهتهم على سبيل التقية وإخفاء عبادتهم لله .

على أن الأرجح أن أمرهم قد كشف فلابد من الفرار بدينهم إلى الله ، وقد فروا إلى الكهف خشن ضيق ، مؤثرين له على كل زينة من زينة الحياة الدنيا .

إنهم يستروحون رحمة الله ويحسونها ظليلة فسيحة ممتدة ﴿ ينشر ﴾ تلقى ظلال السعة والبحبوحه والانفساح فإذا الكهف فضاء فسيح رحيب ، تنتشر فيه الرحمة وتتسع خيوطها .

إنه الإيمان ، وما قيمة الظواهر ، وما قيمة القيم والأوضاع والمدلولات التى تعارف عليها الناس فى حياتهم الأرضية ؟ إن هنالك علماً آخر فى جنبات القلب المغمور بالإيمان ، المأنوس بالرحمن . عالماً تظلله الرحمة والرفق والاطمئنان والرضوان .

وهكذا تتعدد الأمثال فى جميع الوشائج والروابط ، وشيجة الأبوة فى قصة نوح ، ووشيجة النبوة والوطن فى قصة إبراهيم ، ووشيجة الأهل والعشيرة والوطن جميعاً فى قصة أصحاب الكهف ، ورابطة الزوجية فى قصص امرأتى نوح ولوط وامرأة فرعون .

هكذا يمضى الموكب الكريم حتى تجيء الأمة الوسط ، فتجد هذا الرصيد من الأمثال والنماذج والتجارب ، فتمضى على النهج الربانى للأمة المؤمنة وتفترق العشيرة الواحدة والبيت الواحد حيث تفترق العقيدة ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾ ٢٢ المجادلة

لقد جمعت هذه العشيرة صهيباً الرومى وبلالاً الحبشى ، وسلمان الفارسى وأبا بكر العربى القرشى تحت راية لا إله الا الله محمد رسول الله « وتوارت عصبية القبيلة والجنس والأرض وقال لهم ﷺ ـ

﴿ دعوها فإنها فتنة ﴾[1] وقال : ﴿ ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية ﴾[2] فانتهى أمر هذه الفتن ، وماتت نعرة الجنس . واختفت لوثة القوم ، واسترو ح البشر أرج الآفاق العليا ، ومنذ ذلك اليوم لم يعد وطن المسلم هو الأرض ، وإنما وطنه هو :﴿ دار الاسلام ﴾ تلك الدار التى تسيطر عليها عقيدته ، وتحكم فيها شريعة الله وحدها .

وتبقى سيرة المصطفى -ﷺ- وسيرة صحابته الأخيار منار هدى وإصلاح لمن سلك ذلك السبيل ، ورضى بذلك النهج القويم .

أما من حاد عن ذلك وابتعد فالله ليس بوليه ، وإنما وليه الطاغوت ﴿ والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ ٢٥٧ البقرة

توجيهات إلهية

﴿ * عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

معانى المفردات

عسى : كلمة تفيد رجاء حصول ما بعدها ، فإذا صدرت من الله فما بعدها واجب الوقوع ، أن تبروهم : أى : تفعلوا البر والخير لهم ، وتقسطوا إليهم : أى : تعدلوا فيهم بالبر والإحسان ، المقسطين : أى : العادلين ، وظاهروا : أى : ساعدوا ، أن تولوهم : أى : أن تكونوا أولياء وأنصاراً لهم

المناسبة وإجمال المعنى

لما نهاهم عن موالاة الكفار وإلقاء المودة إليهم ، وضرب لهم المثل بإبراهيم وقومه . حملهم ذلك على أن يظهروا براءتهم من أقربائهم ، والتشدد فى معاداتهم ومقاطعتهم ، وكان ذلك عزيزاً على نفوسهم ، ويتمنون أن يجدوا المخلص منه ـ أردف ذلك سبحانه أن سيغير من طباع المشركين ، ويغرس فى قلوبهم محبة الإسلام ، فيتم التواد والتصافى بينكم وبينهم .

وفى ذلك إزالة للوحشة من قلوب المؤمنين ، وتطييب لقلوبهم ، وقد أنجز الله وعده ، فأتاح للمسلمين فتح مكة ، فأسلم قومهم ، وتم لهم ما كانوا يريدون من التحاب والتواد ، ثم رخص لهم فى صلة الذين لم يقاتلوهم من الكفار ولم يخرجوهم من ديارهم ، ولم يظاهروا على إخراجهم

روى أحمد فى جماعة آخرين عن عبد الله بن الزبير قال : قدمت قُتَيلة بنت عبد العزى على إبنتها

(١ ، ٢) الحديث فى صحيح مسلم ـ كتاب البر والصلة ـ باب نصر الأخ ظالما أومظلوما جـ ٤ ص ١٩٩٩ رقم ٦٣ ، ٦٤

أسماء بنت أبي بكر بهدايا - صناب (صباغ يتخذ من الخردل والزبيب) وأقط وسمن وهي مشركة ، فأبت أسماء أن تقبل هديتها أو تدخل بيتها حتى أرسلت إلى عائشة رضي الله عنها - أن تسأل رسول الله - ﷺ - عن هذا فسألت فأنزل الله : ﴿ لا ينهاكم الله ﴾ الآية . فأمرها أن تقبل هديتها وتُدخلها بيتها ، وقال الحسن وأبو صالح : نزلت الآية في خزاعة وبني الحرث بن كعب وكنانة ومزينة وقبائل من العرب ، كانوا صالحوا رسول الله - ﷺ - على ألا يقاتلوه ولا يعينوا عليه .[1]

أضواء كاشفة

وأما أنتم أيها المسلمون فلا يشق ذلك عليكم عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتموهم في الدين من أقاربكم وأهليكم المشركين ، عسى الله أن يجعل بينكم وبينهم مودة وصلة وأخوة في الإسلام ، والله على كل شيء قدير ، وهو الغفور لما فرط من الذنوب الرحيم بخلقه إذا تابوا وأنابوا .

وفي هذه الآية حدد علاقتنا بالكفار لقد نهانا عن مودتهم واصطفائهم بأخبار الحروب والأخبار التي تضر الأمة الإسلامية ، ولكن هل نحن منهيون عن البر بهم مادياً والقسط إليهم والعدل معهم ؟ ولقد أجاب الله عن ذلك جواباً شافياً فقال ما معناه : لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في أمر الدين وشأنه ، ولم يخرجوكم من دياركم ، لا ينهاكم الله عن الذين لم يفعلوا هذا أن تبروهم بالخير ، وتقسطوا إليهم بالعدل ، وتعاملوهم بالحسنى ماداموا لم يسيئوا إليكم في الدين أو الدنيا إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن موالاة ومحبة من قاتلوكم في الدين ، وجاهدوكم عليه بكل نفس ونفيس كما فعلت قريش مثلاً حيث قاتلوكم لأجل الدين ، وأخرجوكم من دياركم وأموالكم ، وظاهروا الغير وتعاونوا على إخراجكم ، ينهاكم الله عن موالاتهم ومحبتهم ومن يتولهم ويتخذهم أنصاراً وأحباباً فأولئك هم الظالمون .

التفسير

يقول تعالى لعباده المؤمنين بعد أن أمرهم بعداوة الكافرين ﴿ **عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة** ﴾ أي : محبة بعد البغضة ومودة بعد النفرة وألفة بعد الفرقة ﴿ **والله قدير** ﴾ أي : على ما يشاء من الجمع بين الأشياء المتنافرة والمتباينة والمختلفة فيؤلف بين القلوب بعد العداوة والقساوة فتصبح مجتمعة متفقة كما قال تعالى ممتناً على الأنصار:﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها** ﴾ الآية[2] . وكذا قال لهم النبي - ﷺ - « ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ؟ »[3] وقال الله تعالى : ﴿ **هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم** ﴾[4] ، وفي الحديث : « أحبب حبيبك هوناً ما فعسى أن يكون بغيضك يوماً ما وأبغض بغيضك هوناً ما فعسى أن يكون حبيبك يوماً ما »[5] . وقال الشاعر :

---

(١) الحديث في تفسير ابن كثير - تفسير سورة الممتحنة - جـ ٨ ص ١١٦ وقال رواه أحمد جـ ٤ ص ٤

(٢) الآية ١٠٣ من سورة آل عمران

(٣) الحديث في صحيح البخاري - باب غزوة الطائف جـ ٥ ص ٢٠٠ ط الشعب

(٤) الآية ٦٢ من سورة الأنفال

(٥) الحديث في جمع الجوامع - الجامع الكبير - للسيوطي - جـ ١ ص ٢٣ برواية الترمذي وقال : غريب ، وابن جرير والبيهقي في شعب الايمان ، عن أبي هريرة ، والطبراني في الكبير ، عن ابن عمر
وفي سنن الترمذي رقم ١٩٩٧ ط الحلبي من رواية أبي هريرة

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

وقوله تعالى : ﴿ والله غفور رحيم ﴾ أى : يغفر للكافرين كفرهم إذا تابوا منه وأنابوا إلى ربهم وأسلموا له وهو الغفور الرحيم بكل من تاب إليه من أى ذنب كان .

وقد قال مقاتل بن حيان إن هذه الآية نزلت فى أبى سفيان بن صخر بن حرب فإن رسول الله - ﷺ - تزوج ابنته فكانت هذه مودة ما بينه وبينه ، وفى هذا الذى قاله مقاتل نظر فإن رسول الله - ﷺ - تزوج بأم حبيبة بنت أبى سفيان قبل الفتح وأبو سفيان إنما أسلم ليلة الفتح بلا خلاف ، وأحسن من هذا ما رواه ابن أبى حاتم حيث قال : قرىء على محمد بن عزيز حدثنى سلامة حدثنى عقيل حدثنى ابن شهاب أن رسول الله - ﷺ - استعمل أبا سفيان بن صخر بن حرب على بعض اليمن فلما قبض رسول الله - ﷺ - أقبل فلقى ذا الخمار مرتداً فقاتله فكان أول من قاتل فى الردة وجاهد عن الدين قال ابن شهاب : وهو ممن أنزل الله فيه : ﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ﴾ الآية .

وفى صحيح مسلم عن ابن عباس أن أبا سفيان قال : يارسول الله : ثلاث أعطينهن ، قال : « نعم » قال : تأمرنى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين ، قال « نعم » قال : ومعاوية تجعله كاتباً بين يديك ، قال « نعم » قال وعندى أحسن العرب وأجمله أم حبيبة بنت أبى سفيان أزوجكها - الحديث -[1]

وقوله تعالى : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ﴾ ولم يظاهروا أى : يعاونوا على إخراجكم أى : لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة الذين لا يقاتلونكم فى الدين كالنساء والضعفة منهم ﴿ أن تبروهم ﴾ أى : تحسنوا إليهم ﴿ وتقسطوا إليهم ﴾ أى : تعدلوا ﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾ قال الامام أحمد بسنده عن أسماء بنت أبى بكر - رضى الله عنهما - قالت : قدمت أمى وهى مشركة فى عهد قريش إذ عاهدوا فأتيت النبى - ﷺ - فقلت : يارسول الله إن أمى قدمت وهى راغبة أفأصلها ؟ قال : « نعم صلى أمك » أخرجاه[2]

وقال الإمام أحمد بسنده عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال : قدمت قتيلة على ابنتها أسماء بنت أبى بكر بهدايا ضباب وقرظ وسمن وهى مشركة فأبت أسماء أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها . فسألت عائشة النبى - ﷺ - فأنزل الله تعالى : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ﴾ إلى آخر الآية فأمرها أن تقبل هديتها وأن تدخلها بيتها . وهكذا رواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث مصعب بن ثابت به وفى رواية لأحمد وابن جرير قتيلة بنت عبد العزى بن سعد من بنى مالك ابن حسل وزاد ابن أبى حاتم فى المدة التى كانت بين قريش ورسول الله - ﷺ - وقال أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار بسنده عن عروة عن عائشة وأسماء أنهما قالتا : قدمت علينا أمنا المدينة وهى مشركة فى الهدنة التى كانت بين رسول الله - ﷺ - وبين قريش فقلنا يارسول الله إن أُمنا قدمت علينا المدينة وهى راغبة أفنصلها ؟ قال :

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب فضائل الصحابة - ٤ ص ١٩٤٥ رقم ١٦٨/٢٥٠٧

(٢) الحديث فى مسند أحمد جـ٦ ص ٣٤٤ ، ٣٤٧

« نعم فصلاها »[١] وقوله تعالى : ﴿ **إن الله يحب المقسطين** ﴾ قال ﷺ : « المقسطون على منابر من نور عن يمين العرش ، الذين يعدلون فى حكمهم وأهاليهم وماولوا »[٢] وقوله تعالى : ﴿ **إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم** ﴾ أى : إنما ينهاكم عن موالاة هؤلاء الذين ناصبوكم بالعداوة فقاتلوكم وأخرجوكم وعاونوا على إخراجكم ينهاكم الله - عز وجل - عن موالاتهم ويأمركم بمعاداتهم .

ثم أكد الوعيد على موالاتهم فقال : ﴿ **ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون** ﴾ كقوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾

الممتحنة وبيعة النســاء

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ

---

(١) الحديث فى تفسير ابن كثير - تفسير سورة الممتحنة - جـ ٨ ص ١١٦ ، ١١٧

وقال المحقق : وقع لنا الحديث فى المسند من غير هذا الطريق انظر مسند أحمد - جـ ٦ ص ٣٤٤ ، ٣٤٧ ، ٣٥٥ ، وانظر البخارى - كتاب الهبة - باب الهدية للمشركين جـ ٣ ص ٢١٥

(٢) الحديث فى تفسير ابن كثير - تفسير سورة الممتحنة - جـ ٨ ص ١١٧ وقال انظر ابن كثير جـ ٧ ص ٣٥٥

وقال ابن كثير فى جـ ٧ ص ٣٥٥ الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الامارة - باب فضيلة الامام العادل جـ ٦ ص ٧ والنسائى - كتاب آداب القضاة - باب فضل الحاكم العادل فى حكمه - جـ ٨ ص ٣٢١ ، ٣٢٢

فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ ٱلْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ
ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾

لما كان هذا النص الكريم له تعلق وثيق ببعض الأحكام الشرعية ، فقد آثرنا أن نسجله على تلك الصفحات من كتاب « روائع البيان فى تفسير آيات الأحكام » للشيخ الصابونى . قال فى تفسير هذه الآيات :

التحليل اللفظى :

مهاجرات : أى : من دار الكفر ، والهجرة فى اللغة الخروج من أرض إلى أرض ، وفى الشرع : الانتقال من دار الكفر إلى دار الإيمان وفى الحديث : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية »(١) المراد بعد فتح مكة ، حيث أصبحت دار إسلام كالمدينة وانقطعت الهجرة .

قال الأزهرى : وأصل الهجرة عند العرب خروج البدوى من باديته إلى المدن ، وسمى المهاجرون مهاجرين ، لأنهم تركوا ديارهم ومساكنهم ابتغاء مرضاة الله . ولحقوا بدار ليس لهم بها أهل ولا مال .

فامتحنوهن : الامتحان فى اللغة الاختبار . والمراد اختبارهن على الإيمان . بما يغلب على الظن ، أما حقيقة الإيمان فلا يمكن أن تعلم ؛ لأنه لا يطلع على القلوب إلا علام الغيوب ، فلنا الظاهر والله ـ سبحانه ـ يتولى السرائر ، ويدل عليه قوله (الله أعلم بإيمانهن) .

وآتوهم ما أنفقوا : يعنى أعطوا أزواجهن الكفار مثل ما دفعوا إليهن من المهور .
قال مقاتل : هذا إذا تزوجها مسلم ، فإن لم يتزوجها أحد ، فليس لزوجها الكافر شىء .

وقال قتادة : الحكم فى رد الصداق إنما هو فى نساء أهل العهد ، فأما من لا عهد بينه وبين المسلمين فلا يرد إليه الصداق . قال القرطبى : والأمر كما قاله .

أجورهن : يعنى مهورهن ، وسمى المهر أجراً ؛ لأنه فى الظاهر أجر البضع وأما فى الحقيقة فهو بذل وعطية لإظهار خطر المحل وشرفه .

بعصم الكوافر : جمع عِصمة ، وهى ما يعتصم به من عهد وسبب ، وأصل العصمة : الحبل ، وكل ما أمسك شيئاً فقد عصمه ، والمراد بالعصمة هنا النكاح . والكوافر : جمع كافرة .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم ـ كتاب الامارة ـ باب لا هجرة بعد الفتح ـ جـ٣ ص١٤٨٨ رقم ١٨٦٤/٨٦

والمعنى : لا تعتدوا بنكاح زوجاتكم الكافرات فقد انقطعت العلاقة بينكم وبينهن .

قال ابن عباس : « من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتدن بها ، فليست له امرأة ، فقد انقطعت عصمتها لاختلاف الدارين .

قال الزجاج : إنها إن كفرت فقد زالت العصمة بينها وبين المؤمن ، أى : قد أنبتَّ عقد النكاح .

واسألوا ما أنفقتم : أى : إن لحقت إمرأة منكم بأهل العهد من الكفار مرتدة فاسألوهم ما أنفقتم من المهر على نسائكم اللاحقات بهم .

وليسألوا ما أنفقوا : يعنى المشركين الذين لحقت أزواجهم بكم مؤمنات إذا تزوجن منكم ، فليسأل أزواجهن المهر .

والمعنى : عليكم أن تغرموا لهم الصداق كما يغرمون لكم .

فاتكم : سبقكم وانفلت من أيديكم .

فعاقبتم : قال الزجاج : أى : أصبتموهم فى القتال بعقوبة حتى غنمتم منهم .

ببهتان : البهتان : الكذب والباطل ، والافتراء الذى يتحيز من بطلانه ، ومنه حديث (فقد بهتّه)[(١)] أى : افتريت عليه ما لم يقله .

والمراد به فى الآية : اللقيط .

قال ابن عباس : لا يُلحقن بأزواجهن غير أولادهم .

وقال الفراء : كانت المرأة فى الجاهلية تلتقط المولود فتقول : هذا ولدى منك ، فذلك البهتان المفترى بين أيديهم وأرجلهن . وهو قول الجمهور .

معروف : المعروف : ما يستحسنه الشرع ، وترتضيه العقول السليمة وهو ضد المنكر .

لا تتولوا قوماً أى : لا تتخذوهم أصدقاء ، وأولياء . تودوهم من دون المؤمنين ، والمراد بالقوم : اليهود ، أو جميع الكفرة .

يئسوا من الآخرة ، أى : يئسوا من ثواب الآخرة ، واليأس : انقطاع الأمل من الشىء ، وهو ضد الرجاء .

المعنى الإجمالى

يقول الله تعالى ما معناه :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات المهاجرات من دار الكفر إلى دار الايمان ، فراراً بدينهن ، وحباً فى الله ورسوله ، فاختبروهن على هذا الإيمان ، لتعلموا هل هن راغبات فى الاسلام حقاً ، أم

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم ـ كتاب البر والصلة ـ باب تحريم الغيبة جـ ٤ ص ٢٠٠١

أنهن هاربات من أزواجهن طمعاً فى دنيا ، أو حباً لرجل ، فإذا علمتم - أيها المؤمنون - بالدلائل والأمارات أنهن مؤمنات ، فلا يحل لكم ردهن إلى الكفار ﴾ لأنه الله تعالى لا يبيح مؤمنة لمشرك ، وعليكم أن تدفعوا لأزواجهن الكفرة ما أنفقوا عليهم من مهر ، ولا حرج عليكم أن تتزوجوا بهن بصداق جديد ، بعد أن تؤدوا لهن حقوقهن كاملة .

ومن كانت له امرأة كافرة لم تهاجر مع زوجها ، فلا يعتد بهذه الزوجة ، فقد زالت عصمة النكاح بينهما بسبب الكفر ، وانبتّ عقد النكاح ؛ لأن الإسلام لا يبيح الزواج بالمشركة ، ومن ارتدت بعد إسلامها ولحقت بدار الكفر ، فعاملوها معاملة المشركة ، فقد زال النكاح وانفصمت الروابط الزوجية بالردة ، وأصبحت غير صالحة لأن تبقى فى عصمة المؤمن ، ولكم أن تطالبوهم بما دفعتم من مهور نسائكم اللاحقات بالكفار ، كما يطالبونكم بمهور أزواجهم المهاجرات إليكم .

ذلكم هو حكم الله الذى شرعه لكم ، فلا تحيدوا عنه ولا تعتدوا بغيره ، لأن الله عليم حكيم ، لا يشرع إلا ما تقتضيه الحكمة البالغة .

وإن انفلت منكم - أيها المؤمنون - بعض النساء ، ولم يدفع لكم المشركون ما تستحقونه من مهورهن ، وأصبتموهم فى القتال ، وغنمتم منهم ، **فأعطوا الأزواج من رأس الغنيمة ما أنفقوا من المهر** قصاصاً ، واتقوا الله الذى صدقتم به ، وآمنتم بتشريعه الحكيم العادل .

وأما أنت - يا محمد - فإذا جاءك المؤمنات للبيعة ، فبايعهن على السمع والطاعة ، وأشرط عليهم ألا يشركن بالله شيئاً ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يئدن أولادهم ، كما كان يفعل أهل الجاهلية ، ولا يلحقن بأزواجهن لقيطاً من غير أولادهم ، ولا يعصينك فى طاعة أو معروف ، فإذا وافقن على هذه الشروط فبايعهم على ذلك ، وعلى سائر أحكام الإسلام ، واطلب لهن من الله الرحمة والمغفرة ، إذا وفين بالبيعة فإن الله غفور رحيم ، مبالغ فى المغفرة والرحمة لمن استقام وتاب وأناب .

سبب النزول

أولاً : روى عن ابن عباس أنه قال : إن مشركى مكة صالحوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عام الحديبية ، على أن من أتاه من أهل مكة رده إليهم ، ومن أتى أهل مكة من أصحابه فهو لهم ، وكتبوا بذلك الكتاب وختموه ، فجاءت (سُبَيْعة بنت الحارث الأسلمية) بعد الفراغ من الكتاب ، والنبى - صلى الله عليه وسلم - بالحديبية ، فأقبل زوجها - وكان كافراً - فقال يا محمد : أردد علىّ امرأتى فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منا ، وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد ، فنزلت هذه الآية الكريمة .

أقول : ذكر فى هذه الرواية أنها (سبيعة) والمشهور عند المفسرين أنها (أم كلثوم بنت عقبة ابن أبى معيط) كما نبه عليه القرطبى وابن الجوزى وغيرهما .

ثانياً : وروى أن ناساً من فقراء المسلمين ، كانوا يخبرون اليهود بأخبار المؤمنين ، ويواصلونهم فيصيبون بذلك من ثمارهم وطعامهم فنزلت الآية **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم ﴾** الآية .

وجوه القراءات

أولاً : قوله تعالى : ﴿ إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات ﴾ قرأ الجمهور (مهاجراتٍ) بالنصب على الحال ، وقرىء (مهاجراتٌ) بالرفع على البدل من المؤمنات ، فكأنه قيل : إذا جاءكم مهاجرات .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر) قرأ الجمهور : ﴿ تُمْسِكُوا ﴾ بضم التاء والتخفيف من الإمساك ، وقرأ أبو عمرو ويعقوب ﴿ تُمِسّكوا ﴾ بضم التاء والتشديد من التمسيك ، وقرأ عكرمة والحسن ﴿ تَمسّكوا ﴾ بفتح التاء والميم والسين المشددة .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم ﴾ قرأ الجمهور ﴿ فعاقبتم ﴾ وقرأ ابن مسعود والنخعي : ﴿ فعقبتم ﴾ بغير ألف وبالتخفيف . وقرأ ابن عباس والأعمش ﴿ فعقّبتم ﴾ بتشديد القاف قال الزجّاج : والمعنى فى التشديد والتخفيف واحد ، أى : كانت العقبى لكم بأن غلبتم ، وقرأ مجاهد ﴿ فأعقبتم ﴾ .

وجوه الإعراب

١ ـ قوله تعالى : ﴿ إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات ﴾ .

مهاجرات : حال منصوب بالكسرة نيابة عن الفتحة ؛ لأنه جمع مؤنث سالم .

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ الله أعلمُ بإيمانهن ﴾ لفظ الجلالة مبتدأ .
وأفعل التفضيل ﴿ أعلم ﴾ خبره ، والجملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب .

٣ ـ قوله تعالى : ﴿ ولا جناح عليكم أن تنكحوهن ﴾ أن : فى موضع نصب بتقدير حذف حرف الجر أى : منصوب بنزع الخافض ، والتقدير : ولا جناح عليكم فى أن تنكحوهن .

٤ ـ قوله تعالى : ﴿ ولا يأتين ببهتان ﴾ يفترينه : جملة فعلية وفى موضعها وجهان من الإعراب : النصب على الحال من المضمر فى ﴿ يأتين ﴾ والجر على الوصف لـ ﴿ بهتان ﴾ .

٥ ـ قوله تعالى : ﴿ كما يئس الكفار من أصحاب القبور ﴾ .

من أصحاب القبور فى موضع نصب ، لأنه يتعلق بـ (يئس) وتقديره يئسوا من بعث أصحاب القبور ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه .

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى :

ما الفائدة فى امتحان المهاجرات مع أنهن مؤمنات ؟
الجواب : أن الامتحان إنما هو لمعرفة سبب الهجرة ، هل كان حباً فى الله ورسوله . أم كان من أجل الدنيا ؟

قال ابن زيد : وإنما أمرنا بامتحانهن ؛ لأن المرأة كانت إذا غضبت على زوجها بمكة قالت : لألحقن بمحمد .

وقد روى عن ابن عباس أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يستحلف المرأة فيقول : « بالله الذى لا إله إلا هو ، ما خرجت من بغض زوج ، بالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض ، بالله ما خرجت التماس دنيا ، بالله ما خرجت إلا حباً لله ورسوله »[1] . فإذا حلفت على ذلك أعطى زوجها مهرها وما أنفق عليها ولم يردها .

اللطيفة الثانية :

السر فى ذكر هذه الجملة الاعتراضية ﴿ **الله أعلم بإيمانهن** ﴾ هو بيان أنه يكفى لنا العلم الظاهر ، أما العلم الحقيقى الذى تطمئن به النفس وهو الإحاطة بحليّة الأمر ، ومعرفة حقيقة الإيمان فإن ذلك مما استأثر به علام الغيوب ، فنحن لنا الظاهر ، والله يتولى السرائر فسبحانه من إله عليم ، يعلم السر وأخفى .

اللطيفة الثالثة :

الحكمة فى عدم رد المهاجرات هى أن النساء أرق قلوباً ، وأسرع تقلباً ، وأشد فتنة من الرجال ، لأنه لا صبر لهن على تحمل البلاء والأذى فى سبيل الله ، فرحم الله ضعفهن ، ومنع من ردهن إلى الكفرة المشركين .

اللطيفة الرابعة :

أمر الله تعالى برد المهر على الزوج الكافر إذا أسلمت زوجته ، وذلك من الوفاء بالعهد الذى رعاه الإسلام .

قال القرطبى : وذلك لئلا يقع على الزوج خسران من الوجهين : (الزوجة والمال) ؛ لأنه لما منع من أهله بحرمة الإسلام ، أمر برد المال إليه وذلك من الوفاء بالعهد .

اللطيفة الخامسة :

قوله تعالى : ﴿ **لاهن حل لهم ولاهن يحلون لهن** ﴾ فيه إشارة إلى أنه لاصلة بين الايمان والكفر ، فإذا أسلمت الزوجة وزوجها كافر حرمت عليه لعدم التجانس بينهما ، فهى مؤمنه وهو كافر ، وقد قطعت العلاقة بينهما ، وهذا يدل على أن رابطة (العقيدة) أقوى من رابطة (النسب) فتدبره .

اللطيفة السادسة :

روى أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما أخذ البيعة على النساء كانت (هند بنت عقبة) فى النساء المبايعات وهى زوجة (أبى سفيان) وكانت منتقبة خوفاً من أن يعرفها النبى ـ صلى الله عليه

---

(١) الحديث فى تفسير ابن كثير ـ تفسير سورة الممتحنة ـ جـ٨ ص١١٨ وقال : انظر تفسير الطبرى جـ٢٨ ص ٤٤

وسلم ـ لما صنعته بحمزة يوم أحد. فلما قرأ قوله تعالى: ﴿ ولا يسرقن ﴾ قالت هند: إن أبا سفيان زجل شحيح، وإنى أصيب من ماله قوتنا، فقال أبو سفيان: هو لك حلال، فضحك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعرفها، وقال؛ أنت هند؟ فقالت: عفا الله عما سلف، أعف يا نبى الله عفا الله عنك[1].

فلما قرأ: ﴿ ولا يزنين ﴾ قالت هند: أو تزنى الحرة؟

فلما قرأ ﴿ ولا يقتلن أولادهن ﴾ قالت هند: ربيناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً، فضحك عمر ابن الخطاب حتى استلقى.. وكان حنظلة ولدها قتل يوم بدر.

فلما قرأ: ﴿ ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ﴾ قالت: والله إن البهتان لأمر قبيح، ولا تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق.

فلما قرأ: ﴿ ولا يعصينك فى معروف ﴾ قالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك فى شىء.

اللطيفة السابعة:

قال الفراء: كانت المرأة فى الجاهلية تلتقط المولود فتقول لزوجها: هذا ولدى منك، فذلك البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن.

وقال الزمخشرى: «كنى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها، عن الولد الذى تلصقه بزوجها كذباً؛ لأن (بطنها) الذى تحمله فيه بين اليدين، و(فرجها) الذى تلده به بين الرجلين، وقيل: كنى بذلك عن الولد الدعى (غير الشرعى) فنهين عن ذلك؛ لأنه من شعار الجاهلية، المنافى لشعار المسلمات».

الأحكام الشرعية

*** الحكم الأول:**

هل كان عقد الصلح يشمل الرجال والنساء؟

كان صلح الحديبية الذى تم بين الرسول ـ ﷺ ـ وبين مشركى قريش قد نص على أن من أتى محمداً من قريش رده عليهم، ومن جاء قريشاً من عند محمد لم يردوه عليه، وقد جاءت (أم كلثوم بنت عقبة) بعد أن كتب عقد الصلح مهاجرة إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وجاء أهلها يطلبونها فقالت: يا رسول الله: أنا امرأة، وحال النساء إلى الضعف ما قد علمت، فتردنى إلى الكفار يفتنونى عن دينى، ولا صبر لى؟ فقال ـ ﷺ ـ لأهلها: كان الشرط فى الرجال لا فى النساء، فأنزل الله هذه الآية فامتحنها ـ ﷺ ـ ولم يردها إليهم[2].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ـ تفسير سورة الممتحنة ـ جـ٨ ص ١٢٥، وقال: انظر تفسير الطبرى جـ٨ ص ٥١٢

(٢) انظر تفسير ابن كثير ـ تفسير سورة الممتحنة ـ جـ٨ ص ١٨، وقال المحقق: ساق ابن الأثير هذا الحديث من هذه الرواية فى ترجمة (عبد الله بن أبى أحمد بن جحش)

قال القرطبى : وقد اختلف العلماء هل دخل النساء فى عهد المهادنة لفظاً ، أو عموماً ؟

فقالت طائفة : قد كان شرط ردهن فى عقد المهادنة لفظاً صريحاً فنسخ الله ردهن من العقد ، ومنع منه ، وابقاه فى الرجال على ما كان . وقالت طائفة : لم يشترط ردهن فى العقد لفظاً ، وإنما أطلق العقد ردّ من أسلم ، فكان ظاهر العموم اشتماله عليهن مع الرجال ، فبين الله تعالى خروجهن عن عمومه ، وفرق بينهن وبين الرجال لأمرين :

أحدهما : أنهن ذوات فروج يحرمن عليهم .

الثانى : أنهن أرق قلوباً ، وأسرع تعباً منهم ، فأما المقيمة على شركها فمردودة عليهم .

ثم قال : وأكثر العلماء على أن هذا ناسخ لما كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ عاهد عليه قريشاً من أنه يرد إليهم من جاء منهم مسلماً ، فنسخ من ذلك النساء ، وهذا مذهب من يرى نسخ السنة بالقرآن .

أقول : ذكر الإمام الفخر نقلاً عن الضحاك أن العهد كان على غير الصيغة المتقدمة ، وأنه كان يشتمل على نص خاص بالنساء صورته كالتالى :

(لا تأتيك منا امرأة ليست على دينك إلا رددتها إلينا ، فإن دخلت فى دينك ولها زوج رددت على زوجها ما أنفق عليها ، وللنبى ـ ﷺ ـ من الشرط مثل ذلك) .

وعلى هذا الرأى تكون الآية موافقة للعهد ، مقررة له ، وهذا الذى تطمئن إليه النفس وترتاح ، وما عداه من الأقوال فيحتاج إلى تمحيص وتدقيق ، لأنها تنافى روح التشريع الإسلامى ، من جهة أن الوفاء بالعهد واجب على المسلمين ، ولا ينبغى لأحد الطرفين أن يستبد بتخصيص نصوصه أو إلغائها دون موافقة الطرف الثانى . فما ذهب إليه الضحاك هو الأولى .

يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ :

« ويظهر أن النص لم يكن قاطعاً فى موضوع النساء ، فنزلت هاتان الآيتان تمنعان رد المهاجرات المؤمنات إلى الكفار ، خشية أن يفتن فى دينهن وهن ضعاف ، ونزلت أحكام هذه الحالة الدولية معها ، تنظم التعامل فيها على أعدل قاعدة تتحرى العدل فى ذاته ، دون تأثر بسلوك الفريق الآخر ، وما فيها من شطط وجور على طريقة الإسلام ، فى كل معاملاته الداخلية والدولية » .

*** الحكم الثانى :**

ما هو حكم المشركة إذا خرجت إلينا مسلمة ؟

دلّ قوله تعالى : ﴿ **لا هنّ حل لهم ولا هم يحلون لهن** ﴾ على أن المرأة إذا أسلمت وقعت الفرقة بينها وبين زوجها ، فلا تحل له ، ولا يحل لها . وقد اختلف الفقهاء هل تحصل الفرقة بالإسلام . أم باختلاف الدارين ؟ على مذهبين :

(أ) مذهب أبى حنيفة : أن الفرقة تقع باختلاف الدارين .

(ب) مذهب الجمهور (الشافعية والمالكية والحنابلة) أن الفرقة تقع بالإسلام وذلك عند انتهاء عدتها . فإن أسلم الزوج قبل انتهاء عدتها فهى امرأته .

دليل الحنفية :

(أ) قوله تعالى : ﴿ **فلا ترجعوهن إلى الكفار** ﴾ فلو كانت الزوجية باقية لكان الزوج أولى بها بأن تكون معه حيث أراد .

(ب) قوله تعالى : ﴿ **وآتوهم ما أنفقوا** ﴾ قالوا : ولو كانت الزوجية باقية لما استحق الزوج رد المهر ؛ لأنه لا يجوز أن يستحق البُضع وبدله .

(جـ) قوله تعالى : ﴿ **ولا جناح عليكم أن تنكحوهن** ﴾ ولو كان النكاح الأول باقياً لما جاز لأحد أن يتزوج بها .

(د) قوله تعالى : ﴿ **ولا تمسكوا بعصم الكوافر** ﴾ ؛ لأن معناه عندهم : لا تتمسكوا بعصمة الكافرة ، ولا تعتدوا بها ، ولا تمنعكم من التزوج بها .

(هـ) وقالوا أيضاً : لقد اتفق الفقهاء على جواز وطء (المسبيّة) بعد الاستبراء ، وإن كان لها زوج فى دار الحرب ، ولا سبب يبيح هذا إلا اختلاف الدار ، وقد قال - ﷺ - فى السبايا : (لا توطأ حامل حتى تضع ، ولا حائل « المرأة التى لا تحمل » حتى تستبرأ بحيضة)[1] .

أدلة الجمهـــور :

(أ) قالوا : إن سبب الفرقة هو الإسلام ؛ لأنها لم تعد صالحة لأن تكون فراشاً لكافر ، ولو كان اختلاف الدار هو سبب الفرقة ، لوجب أن تحصل الفرقة بمجىء المشركة إلينا ودخولها بعهد أمان ولو لم تسلم ، ولم يقل به أحد .

(ب) ما روى عن مجاهد أنه قال : (إذا أسلم الكافر وهى فى العدة فهى امرأته ، وإن لم يسلم فُرِّق بينهما) .

(جـ) ما روى عن ابن عباس أنه قال : (رد النبى - ﷺ - ابنته زينب على (أبى العاص بن الربيع) بالنكاح الأول ، وقد كانت زينب هاجرت إلى المدينة وبقى زوجها بمكة مشركاً ، ثم ردها عليه بعد إسلامه) .

قال القرطبى : « قوله تعالى : ﴿ **فلا ترجعوهن إلى الكفار ، لا هن حل لهم ، ولا هم يحلون لهن** ﴾ أى : لم يحل الله مؤمنة لكافر ، ولا نكاح مؤمن لمشركة .

وهذا أدل دليلٍ على أن الذى أوجب فرقة المسلمة من زوجها ، إسلامها لا هجرتها ، فبين أن العلة فى عدم الحلّ الاسلام ، وليس باختلاف الدار .

والخلاصة : فإن الحنفية يقولون : إن أحد الزوجين إذا خرج من دار الحرب مسلماً وبقى الآخر

---

(١) الحديث فى مسند أحمد جـ٣ ص٦٢

حربياً فقد وقعت الفرقة بينهما ، ولا يرون العدة على المهاجرة ، ويبيحون نكاحها من غير عدة إلا أن تكون حاملاً ، عملاً بالآية الكريمة : ﴿ ولا جناح عليكم أن تنكحوهن ﴾ حيث لم تلزمها العدة ، وقد بانت من زوجها بمجرد الهجرة .

والجمهور يقولون : لا تقع الفرقة إلا بإسلامها ، وأما بمجرد الخروج فلا ، فإن أسلمت قبل أن يدخل زوجها تنجزت الفرقة وبانت منه ، لأنه لا عدة عليها ، وإن أسلمت بعد الدخول بها توقفت إلى انقضاء العدة ، فإن أسلم قبل انقضاء العدة فهى زوجته ، وإلا بانت منه .

وحجتهم فى ذلك الأدلة التى سبقت وما روى أن (أبا سفيان) أسلم قبل زوجته (هند بنت عتبة) ثم أسلمت بعده بأيام فاستقروا على نكاحهما ، لأن عدتها لم تكن قد انقضت .

*** الحكم الثالث :**

هل يجوز الزواج بالمشركة الوثنية ؟

دل قوله تعالى : ﴿ **ولا تمسكوا بعصم الكوافر** ﴾ على حرمة النكاح بالكافرة المشركة ؛ لأن معنى الآية : ولا تمسكوا بعصم نسائكم المشركات أى : لا تعتدوا بنكاحهن فإنه باطل .

كما دل قوله تعالى : ﴿ **ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ** ﴾[1] على حرمة نكاح المشركة ، وقد اتفق العلماء على أن هذه الآيات خاصة بالمشركات من غير أهل الكتاب ؛ لأن الكتابيات يجوز الزواج بهن لقوله تعالى : ﴿ **والمحصنات من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم** ﴾[2] الآية .

قال ابن المنذر : ولا يصح عن أحد من الأوائل أنه حرم نكاح الكتابيات .

أقول : أجمع الفقهاء على حرمة الزواج بالمشركة ـ وهى التى لا تدين بدين سماوى ـ وعلى جواز النكاح بالنصرانية أو اليهودية من أهل الكتاب للنص السابق ، اللهم إلا ما روى عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ كان إذا سئل عن زواج الرجل بالنصرانية أو اليهودية قال :

« حرم الله المشركات على المؤمنين ، ولا أعرف شيئاً من الإشراك أعظم من أن تقول المرأة : ربها عيسى ، أو عبد من عباد الله » .

وهذا القول من عبد الله بن عمر محمول على (الكراهة) لا على (التحريم) ؛ لأن النص صريح بالحلّ ، ولعله خشى الفتنة على الرجل فى دينه ، أو خشى على الأولاد من التنصر فكرهه لذلك والله أعلم .

---

(١) الاية ٢٢١ من سورة البقرة
(٢) من الآية ٥ من سورة المائدة

* **الحكم الرابع :**

كيف كانت بيعة النبى - ﷺ - للنساء

بايع النبى ﷺ - النساء - بعد أن فتح مكة ، وكانت بيعته لهن بالشرائط المذكورة فى هذه الآية :
﴿ يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً ﴾ .

وقد صح فى الحديث أن النبى - ﷺ - لم يصافح فى البيعة امرأةً ، وإنما بايعهن بالكلام ، ودل ذلك على حرمة مصافحة النساء[١] .

وقد كانت بيعة الرجال أن يضع الرجل يده فى يد الرسول - ﷺ - ويبايعه على الإسلام والجهاد ، والسمع والطاعة ، وأما النساء فلم يثبت عنه - ﷺ - أنه صافح امرأة ، ولا وضع يده فى يدها ، إنما كانت البيعة بالكلام فقط ، ويدل عليه ما يلى :

النصوص الشرعية الدالة على حرمة المصافحة

أولاً : روى البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت :
« كان - ﷺ - يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية ، بقول الله تعالى : **﴿ يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات ﴾** إلى قوله **﴿ غفور رحيم ﴾** قالت عائشة : فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات ، قال لها رسول الله - ﷺ - : قد بايعتك كلاماً ، والله ما مسّت يده يد امرأة قط فى المبايعة ، ما يبايعهن إلا بقوله : قد بايعتك على ذلك »[٢] .

ثانياً : وروى الإمام أحمد عن (أميمة بنت رقيقة) قالت :
« أتيت رسول الله - ﷺ - فى نساء لنبايعه ، فأخذ علينا ما فى القرآن ، ألا نشرك بالله شيئاً . . الآية . . وقال : « فيما استطعتن وأطقتن » قلنا : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا .

قلنا يا رسول الله : ألا تصافحنا ؟ قال : إنى لا أصافح النساء ، إنما قولى لامرأة واحدة قولى لمائة امرأة »[٣] .

ثالثاً : وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها بعد أن ذكرت البيعة قالت « وكان رسول الله ﷺ إذا أقررن بذلك من قولهن ، قال لهن : « أنطلقن فقد بايعتكن » . ولا والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط ، غير أنه بايعهن بالكلام ، وكان يقول لهن إذا أخذ عليهن : « قد بايعتكن كلاماً » .

قال الحافظ بن حجر اقوله : « قد بايعتك كلاماً » أى : يقول ذلك كلاماً فقط لا مصافحة باليد ، كما جرت العادة بمصافحة الرجال عند المبايعة ، أقول : الروايات كلها تشير إلى أن البيعة كانت بالكلام ، ولم يثبت عنه - ﷺ - أنه صافح النساء فى بيعة أو غيرها ، ورسول الله - ﷺ - عندما يمتنع عن

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى - تفسير سورة الممتحنة - جـ٦ ص١٨٧ ط الشعب
(٢) الحديث فى مسند أحمد - جـ٦ص٣٥٧
(٣) الحديث فى صحيح مسلم - جـ١٤٨٩ رقم ٨٨ ، ٨٩

مصافحة النساء مع أنه المعصوم ، فإنما هو تعليم للأمة وإرشاد لها لسلوك طريق الاستقامة ، وإذا كان رسول الله - ﷺ - وهو الطاهر الفاضل ، الشريف ، الذى لا يشك إنسان فى نزاهته وطهارته ، وسلامة قلبه ، لا يصافح النساء ، ويكتفى بالكلام فى مبايعتهن ، مع أن أمر البيعة أمر عظيم الشأن ، فكيف يباح لغيره من الرجال مصافحة النساء ، مع أن الشهوة فيهم غالبة ؟ والفتنة غير مأمونة ، والشيطان يجرى فيهم مجرى الدم .

وكيف يزعم بعض الناس أن مصافحة النساء غير محرمة فى الشريعة الإسلامية ؟ « سبحانك هذا بهتان عظيم » .

* **الحكم الخامس :**

فالمراد من قوله تعالى : ﴿ ولا يعصينك فى معروف ﴾ ؟

اختلف العلماء فى المراد من الآية الكريمة على ثلاثة أقوال :

أحدها : أن المراد به النوح على الميت ، قاله ابن عباس ، وروى عن النبى - ﷺ - مرفوعاً .

والثانى : أن المراد أن لا يدعون ويلاً ، ولا يخدشن وجهاً ، ولا يقطعن شعراً ، ولا يشققن ثوباً ، قال زيد بن أسلم .

والثالث : جميع ما يأمرهن به رسول الله - ﷺ - من شرائع الإسلام وآدابه وهذا هو الأرجح .

قال العلامة القرطبى : « والصحيح أنه عام فى جميع ما يأمر به النبى - ﷺ - وينهى عنه ، فيدخل فيه النوح ، وتخريق الثياب ، وجز الشعر ، والخلوة بغير محرم ، إلى غير ذلك ، وهذه كلها كبائر ، ومن أفعال الجاهلية ، وفى صحيح مسلم عن النبى - ﷺ - أنه قال : « أربع فى أمتى من أمر الجاهلية . . وذكر منها النياحة »[1] .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

أولاً : امتحان المهاجرات المؤمنات للتعرف على سبب الهجرة .

ثانياً : نحن نحكم بالظاهر ، والله - جل وعلا - يتولى السرائر .

ثالثاً : حرمة نكاح المشركات اللواتى لا يؤمن بالله تعالى .

رابعاً : إسلام المرأة يقطع الصلة بينها وبين زوجها المشرك وتحرم عليه .

خامساً : البيعة للنساء تكون بالشرائط التى ذكرها القرآن الكريم .

سادساً : الطاعة لأولى الأمر تكون فى حدود ما شرع الله تعالى .

سابعاً : جواز نكاح الكتابيات اللاتى يؤمن بكتاب منزل من عند الله .

حكمة التشريع

حرمت الشريعة الإسلامية الغراء نكاح المشركات ، وحظرت على المسلم أن يُبقى فى عصمته

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم - جـ٢ ص٦٤٤ رقم ٢٩/٩٣٤

امرأة لا تؤمن بالله ، ولا تعتقد بكتاب أو رسول ، وتنكر البعث والنشور ، وذلك لما يترتب على هذا الزواج من مخاطر دينية ، واجتماعية ، وأضرار عظيمة تلحق بالزوج والأولاد ، وبالتالى تهدد حياة الأسرة التى هى النواة لبناء المجتمع الأكبر .

وقد قضت السنة الإلهية أن تمتزج الأرواح بالأرواح ، وتتلاءم الأنفس مع الأنفس عند الزواج ، لينعم الزوجان فى حياة آمنة سعيدة ، يرفرف عليها الحب ، وتظللها السعادة ، ويخيم عليها التعاون والتفاهم ، والوئام .

ولما كان هذا الانسجام والتفاهم ، لا يكاد يوجد بين قلبين متنافرين ونفسين مختلفين ، لنفس مؤمنة خيرة ، ونفس مشركة فاجرة ، وكان هذا يؤدى بدوره إلى التنافر ، والخصام ، والنزاع ، لذلك حرم الإسلام الزواج بالوثنية المشركة ، وعدّه زواجاً باطلاً لا يستقيم مع شريعة الله .

فالمشركة التى ليس لها دين يزجرها عن الشر ، ويأمرها بالخير ، ويحرم عليها الخيانة ، ويوجب عليها الأمانة ، هذه الزوجة لا يمكن أن يسعد المرء فى حياته معها ، ولا تصلح أن تكون (رفيقة الحياة) لرجل يؤمن بالله واليوم الآخر مع الفارق الكبير بين نفسيهما . والزوجية حالة امتزاج واندماج واستقرار ، ولا يمكن أن تقوم الحياة بدون هذا الامتزاج ، والإيمان هو قوام الحياة السعيدة ، الذى لا تقوم مقامه عاطفة أخرى ، فإذا خوى منه قلب لم يستطع قلب مؤمن أن يتجاوب معه ، ولا أن يأنس به ، ولا أن يسكن إليه ويطمئن فى جواره ، وصدق رسول الله ـ ﷺ ـ حين قال :

(الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف)(١) .

التفسير

يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات من دار الشرك إلى دار الإيمان ، فامتحنوهن بما يغلب على ظنكم أنهن صادقات فى إيمانهن ، ولم يأتين حباً فى الانتقال من دار إلى دار أو بغضاً فى زوج بل كان الدافع لهن هو حب الله ورسوله واعلموا أن الله أعلم بإيمانهن حقيقة ، فلا سبيل لكم إلى ما تطمئن به قلوبكم ، من الإحاطة بحقيقة إيمانهن ، ولكن هذا ما يمكن فعله ، فإن علمتم فيهن صدق الإيمان فلا ترجعوهن إلى الكفار .

ـ وهذا تقيد للشرط المطلق فى عقد الصلح ـ بل أبقوهن معكم وقد فرق الشارع الحكيم هنا بين الرجل والمرأة فإن الرجل قوى يمكنه أن يستقل ويترك دار الكفر ، والمرأة لا تقوى على الإغراء فيخشى معها الفتنة .

لا هن حل لهم حالاً ، ولا أزواجهم الكفار يحلون لهم فى المستقبل بأى شكل ما داموا مشركين ، وهن مؤمنات ، ويلزم على هذا أن تؤتوا الأزواج ما أنفقوا ، محل ذلك فى الأزواج الذين

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى ـ كتاب بدء الخلق ـ باب خلق آدم جـ ٤ ص ١٦٢ ط الشعب

بيننا وبينهم عهد أما الحربيون فلا يلزمنا شىء لهم ، على أن هذا الأمر للندب ، وبشرط أن يطلبه الزواج وإلا فلا يجب شىء .

وهؤلاء المهاجرات لا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا أتيتموهن مهورهن وما حكم المرأة التى يتركها زوجها فى دار الشرك وهو مسلم ؟ الحكم أنه إذا أسلم الزوج ، وكان إسلامه حقيقياً فيجب فسخ عقد النكاح السابق بينه وبين المشركة الوثنية أما الكتابية فلا فسخ ؛ لأنه يجوز العقد عليها ابتداء ، ومحل قطع العلاقة الزوجية بين المسلم والمشركة مشروط بألا يجمعها الإسلام فى العدة .

﴿ واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ﴾ قال المفسرون : كان من ذهب من المسلمات مرتدات إلى الكفار من أهل العهد يقال للكفار : هاتوا مهرها ، ويقال للمسلمين إذا جاء أحد من الكافرات مسلمة مهاجرة . ردوا إلى الكفار مهرها ، وكان ذلك نصفة وعدلاً بين الناس ، ثم نسخ هذا الحكم ، ذلكم حكم الله يحكم بينكم بالعدل ، والله عليم حكيم .

وإن فاتكم شىء من أزواجكم وذهبن إلى الكفار ثم لم يعطوكم شيئاً من المهر فعاقبتم ، وأتت العاقبة لكم فغنمتم شيئاً منهم ، فآتوا الذين ذهبت أزواجهم ، ولم يأخذوا مهورهن مثل ما أنفقوا لفواته عليهم من جهة الكفار ، واتقوا الله فى كل شىء ، اتقوه فأنتم به مؤمنون ، ومن الواجب على المؤمن تقوى الله فى السر والعلانية ، وقد فعل المؤمنون ما أمروا به من الإيتاء للكفار والمؤمنين ، وقد رفع هذا الحكم العام ، وأصبح الحكم شخصياً ليس على الإمام والمسلمين عامة .

يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على عدم الشرك بالله شيئاً وعدم السرقة ، والزنا ، وقتل الأولاد خوف الفقر أو العار كما كان يفعل فى الجاهلية من وأد البنات أحياء ، ولا يعصينك فى معروف عرف حسنه شرعاً وعقلاً من طاعة الله ورسوله والإحسان للناس ، وكل ما أمر به الشرع الشريف .

إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على هذا الأساس فبايعهن ، واستغفر لهن الله على ما فرط منهن ، وقد كانت مبايعة الرجال على الإسلام والجهاد ومبايعة النساء على ما ذكر فى الآية نزلت ، وقيل هما سواء فى كل ذلك ، ولعل السر فى مبايعة النساء لهذا أن النساء كثيراً ما يرتكبن مثل هذه الأعمال ، والثابت أن هذه الآيات نزلت فى مبايعة النبى - ﷺ - للنساء فى فتح مكة ، وكانت فيهن هند بنت عتبة ، ولها قصة مذكورة فى كتب السيرة ، بدئت هذه السورة بالنهى عن موالاة الكفار وخاصة اليهود ، وختمت بمثل ذلك تأكيداً لعدم موالاتهم وتنفيراً للمسلمين عنها .

يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً قد غضب الله عليهم ، ولعنهم ، وهم اليهود قد يئسوا من الآخرة وثوابها مع أنهم يوقنون بها ، وذلك لعنادهم مع النبى مع علمهم بصدقه ، هؤلاء يئسوا كما يئس الكفار حالة كونهم من أصحاب القبور ، وقيل كما يئس الكفار الأحياء من أصحاب القبور الذين ماتوا ، يئسوا من الرجوع إليهم والالتقاء بهم فى أى وقت .

سورة الصف

قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاتفاق . آياتها أربع عشرة . وكلماتها مائتان وإحدى وعشرون . وحروفها تسعمائة . ولها اسمان : سورة الصف لقوله : ﴿ **يقاتلون فى سبيله صفاً** ﴾ ، وسورة الحواريين ، لقوله : ﴿ **قال الحواريون نحن أنصار الله** ﴾ وقيل تسمى سورة عيسى .

معظم مقصود السورة : عتاب الذين يقولون أقوالاً لا يعملون بمقتضاها وتشريف صفوف الغزاة والمصلين ، والتنبيه على جفاء بنى إسرائيل ، وإظهار دين المصطفى على سائر الأديان ، وبيان التجارة الرابحة مع الرحيم الرحمن ، والبشارة بنصر الإيمان ، على أهل الكفر والخذلان ، وغلبة بنى إسرائيل على أعدائهم ذوى العدوان ، فى قوله : ﴿ **فأصبحوا ظاهرين** ﴾ والسورة محكمة ، خالية عن الناسخ والمنسوخ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب** ﴾ بالألف واللام ، وفى غيرها : ﴿ **افترى على الله كذباً** ﴾ بالنكرة .

لأنها أكثر استعمالاً مع المصدر من المعرفة ، وخصت هذه السورة بالمعرفة ، لأنه إشارة إلى ما تقدم من قول اليهود والنصارى .

قوله : ﴿ **ليطفئوا** ﴾ باللام ؛ لأن المفعول محذوف . وقيل : اللام زيادة . وقيل : محمول على المصدر .

قوله : ﴿ **يغفر لكم ذنوبكم** ﴾ جزم على جواب الأمر ، فإن قوله : ﴿ **تؤمنون** ﴾ محمول على الأمر أى : آمنوا وليس بعده : (من) ولا (خالدين) .

مناسبتها لما قبلها :

ووجه مناسبتها لما قبلها أنها اشتملت على الحث على الجهاد والترغيب فيه ، وفى ذلك تأكيد للنهى الذى تضمنته السورة السابقة من اتخاذ الكفار أولياء من دون المؤمنين .

روى أحمد بسنده عن عبد الله بن سلام قال : تذاكرنا أيكم يأتى رسول الله - ﷺ - فيسأله : أى : الأعمال أحب إلى الله ؟ فلم يقم منا أحد فأرسل رسول الله - ﷺ - إلينا رجلاً فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة (الصف) كلها .

بسم الله الرحمن الرحيم

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ (٤)

معانى المفردات

(لم) أى : لأى شىء تقولون قد فعلنا كذا وكذا ، وأنتم لم تفعلوا ؟ والمراد بذلك التأنيب والتوبيخ ، على صدور هذا الكذب منهم ، كبر : أى : عظم ، والمقت : أشد البغض وأعظمه ، ورجل مقيت وممقوت إذا كان يبغضه كل أحد ، والمرصوص : المحكم ، قال المبرد : تقول : رصصت البناء إذا لاءمت بين أجزائه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة .

المناسبة وإجمال المعنى

قال ابن عباس : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : لوددنا أن الله دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به ، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إليه إيمان بالله لا شك فيه ، وجهاد لأهل معصيته الذين جحدوا الإيمان به ، وإقرار برسالة نبيه ، فلما نزل الجهاد وكره ذلك ناس من المؤمنين وشق عليهم أمره فأنزل الله الآية .

* أضواء كاشفة *

يا أيها الذين آمنوا بالله وبرسوله لأى شىء تقولون مالا تفعلونه من الخير والمعروف ، ومدار التوبيخ والانكار فى الحقيقة عدم فعلهم ، وإنما وجه إلى قولهم أولاً للدلالة على أنهم مؤاخذون على شيئين الوعد وترك العمل « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان »[(١)] . كبر المقت عند الله وفى حسابه أن تقولوا مالا تفعلون ، نعم إن قولهم سنفعل الخير ثم لا يفعلون مقت خالص لا شوب فيه ، ومبغوض عند الله أشد البغض ، ومن هنا كان الخلف فى الوعد ، والكذب ، مذمومين شرعاً ، ولا يرضى عنهما الله ، أما الذى يرضى عنه الله فها هو ذا : ﴿ **إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص** ﴾ نعم إن الله يحبهم ويرضى عنهم ، لأنهم يقاتلون فى سبيله وابتغاء مرضاته ، يقاتلون بنظام ودقة وحكمة صافين أنفسهم مستعدين للقتال على حسب زمانهم ، حالة كونهم كالبنيان المرصوص الذى يحمى بعضه بعضاً ، البنيان المحكم الدقيق الذى لا فرجة فيه ولا خلل ، وهذه إشارة إلى إحكام الأمر فى القتال والاستعداد له استعداداً مناسباً مع الوحدة والاجتماع التام على الكلمة ، ومقابلة العدو بقلوب ثابتة راسخة رسوخ البنيان الشامخ المحكم .

---

(١) الحديث فى الجامع الكبير للسيوطى جـ ١ ص ٣ بلفظ : « آية المنافق ثلاثة وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم ، وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان » من رواية الأمام أحمد والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى ، عند أبى هريرة ، وأبن النجار عن ابن مسعود وفى مسند أحمد جـ ٢ ص ٣٥٧ . وفى صحيح البخارى ـ كتاب الايمان ـ باب علامة المنافق ـ جـ ١ ص ١٦ ط الشعب .

التفسير

قوله تعالى ﴿ سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ هذا إخبار منه ـ سبحانه وتعالى ـ بأنه سبح له ما فى السموات وما فى الأرض ، أى : من الحيوانات والنباتات كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴾(١) .

والتسبيح تنزيه لله ـ تعالى ـ عن كل ما لا يليق بذاته ، فهو ـ سبحانه ـ متصف بكل كمال منزه عن كل نقص . وكمالات الله لا تتناهى ، لا يحصرها عد ، ولا يحيط بها حد ، ومن ثم ، فقد جاء التسبيح فى الكتاب العزيز فى صور متنوعة وصيغ متعددة ، جاء بصيغة الماضى كما فى هذه الآية التى افتتح الله ـ تعالى ـ بها سورة (الصف) وجاء بصيغة المضارع كما فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ﴾(٢) وكما فى قوله جل شأنه : ﴿ يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ﴾(٣) .

وجاء بصيغة الأمر كما فى قوله جل شأنه : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾(٤) وجاء بصيغة المصدر كما فى قوله تبارك اسمه : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴾(٥) وجاء بصيغة الصفة كما فى قوله ـ جل جلاله ـ : ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين . للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون ﴾(٦) . وما ذلك كله إلا لعظم مكانة المسبحين عند الله ، وقد أمر تعالى بتسبيحه على كل حال : ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون ﴾(٧) . وقد نادى نبى الله يونس ربه مهللاً ومسبحاً قال تعالى : ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين ﴾(٨) . هذا الإله العظيم الكبير الحقيق بالتنزيه ، هو العزيز الذى لا يغلب ، ﴿وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴾(٩) الحكيم الذى لا يضع الأمور إلا فى نصابها ، المنزه عن العبث ، المنصف بالحكمة البالغة الباهرة ، ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾(١٠) سبحه الطير فى وكره ، ومجده الوحش فى قفره ، ومن آياته أن تقوم السموات والأرض بأمره ، سبحه كل سابح فى الماء ، ومحلق فى الهواء ، وسارب فى الخضراء ، ومستكن فى الأحشاء ، وذاهب فى لجج الماء ، ومستقر فى الصخرة الصماء .

---

(١) سورة الاسراء آية ٤٤
(٢) سورة الجمعة آية ١
(٣) سورة التغابن آية ١
(٤) سورة الأعلى آية ١
(٥) سورة الاسراء آية ١
(٦) سورة الصافات الآيتان ١٤٣ ، ١٤٤
(٧) سورة الروم آية ١٧ ، ١٨
(٨) سورة الأنبياء آية ٨٧ ، ٨٨
(٩) سورة الأنعام آية ١٨
(١٠) سورة الاسراء آية ٤٤

الشمس والبدر من أنوار حكمته والبر والبحر فيض من عطاياه
الطير سبحه والوحش مجده والموج كبره والحوت ناجاه
والنمل تحت الصخور الصم قدسه والنحل يهتف حمداً فى خلاياه
والناس يعصونه جهراً فيسترهم والعبد ينسى وربى ليس ينساه

فلو سألت السموات والأرض ومن فيهن وسألت العالم من عرشه إلى فرشه ، وقلت له من خالقك لأجابك بلسان الحال والمقال : أنا مخلوق للواحد الديان .

سل الواحة الخضراء والماء جاريا وهذى الصحارى والجبال الرواسيا
سل الروض مزداناً سل الزهر والندى سل الليل والإصباح والطير شاديا
وسل هذه الأنسام والأرض والسما وسل كل شىء تسمع الحمد ساريا
فلو جنَّ هذا الليل وامتد سرمدا فمن غير ربى يرجع الصبح ثانياً
ولو غاض هذا الماء فى القاع هل لكم سوى الله يجريه كما شاء راوياً
ولو أن هذى الريح هاجت وأعصرت فمن غير ربى يمسك الريح ناهياً

ولعظم شأن التسبيح نسوق هذه الأحاديث النبوية الشريفة حتى نكون قد جمعنا بين ما جاء فى الكتاب الكريم ، والسنة المطهرة ، عسى الله أن ينفعنا بما نقرأ ونسمع .

١ - عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم »[(١)] رواه البخارى ومسلم ، والترمذى والنسائى وابن ماجه .

٢ - وعن أبى ذر - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله ؟ قلت : يا رسول الله : أخبرنى بأحب الكلام إلى الله ، فقال : إن أحب الكلام إلى الله : (سبحان الله وبحمده)[(٢)] . رواه مسلم والنسائى والترمذى إلا أنه قال : سبحان ربى وبحمده . وقال حديث حسن صحيح .

٣ - وفى رواية مسلم : أن رسول الله - ﷺ - سئل أى الكلام أفضل ؟ . قال : (ما اصطفى « اختار ورضى » الله لملائكته ، أو لعباده ، سبحان الله وبحمده)[(٣)] .

---

(١) انظر صحيح البخارى جـ ٤ ص ١١٤ كتاب الدعوات . باب فضل التسبيح
انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٧٢ كتاب الذكر والدعاء . باب فضل التسبيح والتهليل رقم ٢٦٩٤/٣١
انظر سنن ابن ماجة جـ ٢ ص ١٢٥١ . كتاب الأدب . باب فضل التسبيح رقم ٣٨٠٦
انظر سنن الترمذى جـ ٥ ص ٤٧٨ . كتاب الدعوات . باب ٦٠ رقم ٣٤٦٧ وقال : هذا حديث حسن غريب صحيح .
انظر عمل اليوم والليلة للنسائى ص ٢٤٦ .

(٢) انظر صحيح مسلم جـ ٥٤ ص ٢٠٩٣ ، ٢٠٩٤ كتاب الذكر والدعاء . باب فضل سبحان الله وبحمده رقم ٢٧٣١/٨٥
انظر عمل اليوم والليلة للنسائى ص ٢٤٥

(٣) انظر الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٩٣ . كتاب الذكر والدعاء . باب ٢٢ فضل سبحان الله وبحمده . رقم ٢٧٣١/٨٤ .

٤ - وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - عن النبى - ﷺ - قال : من قال سبحان الله وبحمده ، كتب له مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة ، ومن قال لا إله إلا الله له بها عهد عند الله يوم القيامة »(١) . رواه الطبرانى بإسناد فيه نظر .

زاد فى رواية عن أيوب بن عتبة عن عطاء عنه بنحوه ، فقال رجل : كيف نهلك بعد هذا يا رسول الله ؟ قال : إن الرجل ليأتى يوم القيامة بالعمل لو وضع على جبل لأثقله فتقوم النعمة من نعم الله تكاد أن تستنفذ (تذهب) ذلك كله إلا أن يتطول (يتفضل وينعم ويسامح) الله برحمته .

٥ - وعن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة فى الجنة »(٢) رواه البزار بإسناد جيد .

٦ - وعن أبى أمامة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : من هاله (شق عليه ، صعب عليه قيام الليل للعبادة) الليل أن يكابده ، أو بخل بالمال أن ينفقه ، أو جبن عن العدو أن يقاتله ، فليكثر من : « سبحان الله وبحمده ، فإنها أحب إلى الله من جبل ذهب ينفقه فى سبيل الله عز وجل »(٣) . رواه الفريانى والطبرانى واللفظ له .

٧ - وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « ومن قال سبحان الله وبحمده ، فى يوم مائة مرة غفرت له ذنوبه ، وإن كانت مثل زبد البحر »(٤) (كناية عن المبالغة فى الكثرة) رواه مسلم والترمذى . والنسائى .

٨ - وعن سليمان - بن يسار - رضى الله عنه - عن رجل من الأنصار أن النبى - ﷺ - قال : قال نوح لابنه : إنى موصيك بوصية وقاصرها لكى لا تنساها ، أوصيك باثنتين ، وأنهاك عن اثنتين : أما اللتان أوصيك بهما ، فيستبشر الله بهما ، وصالح خلقه ، وهما يكثران الولوج على الله ، أوصيك بلا إله إلا الله ، فإن السموات والأرض لو كانت حلقة قصمتها ، ولو كانتا فى كفة وزنتهما ، وأوصيك بسبحان الله وبحمده ، فإنها صلاة الخلق ، وبها يرزق الخلق ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفورا . وأما اللتان أنهاك عنهما ، فيحتجب الله منهما ، وصالح خلقه ، أنهاك عن

---

(١) انظر الطبرانى فى معجمه الكبير جـ ١٢ ص ٤٣٧ رقم ١٣٥٩٧ .
انظر مجمع الزوائد جـ ١٠ ص ٨٧ كتاب الأذكار فصل فيمن قال لا اله إلا الله وسبحان الله وبحمده .
(٢) انظر سنن الترمذى جـ ٥ ص ٤٧٧ . كتاب الدعوات . باب ٦٠ رقم ٣٤٦٥/٣٤٦٤ وقال : حديث حسن غريب صحيح .
انظر كشف الأستار عن زوائد الدار جـ ٤ ص ١٣ رقم ٣٠٧٩
(٣) انظر الطبرانى فى معجمه الكبير جـ ٨ ص ٢٣٠ رقم ٧٨٠٠
انظر مجمع الزوائد جـ ١٠ ص ٩٤ كتاب الأذكار فصل ما جاء فى سبحان الله وبحمده وما ضم معه .
(٤) انظر صحيح البخارى جـ ٤ ص ١١٤ كتاب الدعوات . باب فضل التسبيح .
انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٧١ كتاب الذكر والدعاء . باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء رقم ٢٦٩١/٢٨ فى حديث أوله « من قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له » .
انظر سنن الترمذى جـ ٥ ص ٤٧٨ كتاب الدعوات . باب ٦٠ رقم ٣٤٦٦ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

الشرك (أن تجعل لله شريكا فى ذاته ، أو فى صفاته أو فى أفعاله) والكبر[١] . (العظمة والغطرسة ، والعجب بالنفس ، وقلة الأدب ، وعدم الذوق فى المعاملة ، واحتقار الناس والتقصير فى واجباتهم) رواه النسائى واللفظ له والبزار والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو ، وقال الحاكم : صحيح الاسناد (الولوج : الدخول) .

٩ - وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم ، أستغفر الله وأتوب إليه . من قالها كتبت له كما قالها ، ثم علقت بالعرش لا يمحوها ذنب عمله صاحبها حتى يلقى الله يوم القيامة وهى مختومة كما قالها »[٢] رواه البزار ورواته ثقات .

١٠ - وعن مصعب بن سعد - رضى الله عنه - قال : حدثنى أبى قال : كنا عند رسول الله - ﷺ - فقال) : « أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ، ألف حسنة ؟ » فسأله سائل من جلسائه : كيف يكسب أحدنا ألف حسنة ؟ » قال : « يسبح مائة تسبيحة ، فتكتب له ألف حسنة . أو يحط عنه ألف خطيئة »[٣] . رواه مسلم والترمذى .

١٠ - وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « لأن أقول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، أحب إلىّ مما طلعت عليه الشمس »[٤] . رواه مسلم والترمذى .

١١ - وعن سمرة بن جندب - رضى الله عنه - قال : « قال رسول الله - ﷺ - : أحب الكلام إلى الله أربع : « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، لا يضرك بأيهن بدأت »[٥] . رواه مسلم وابن ماجة والنسائى وزاد : وهن من القرآن . ورواه النسائى أيضاً وابن حبان فى صحيحه من حديث أبى هريرة .

١٢ - وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى - ﷺ - مر به وهو يغرس غرساً ، فقال : « يا أبا هريرة ما الذى تغرس ؟ قلت : غراساً . « قال ألا أدلك على غراس خير من هذا ؟ سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، تغرس لك بكل واحدة شجرة فى الجنة »[٦] . رواه ابن ماجة بإسناد حسن ، واللفظ له ، والحاكم وقال : صحيح الاسناد .

---

(١) انظر عمل اليوم والليلة للنسائى ص ٢٤٦ .

(٢) انظر كشف الأستار عن زوائد البزار جـ ٤ ص ١٤ رقم ٣٠٨١ .

(٣) انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٧٣ كتاب الذكر والدعاء . باب فضل التهليل والتسبيح رقم ٢٦٩٨/٣٧
انظر سنن الترمذى جـ ٥ ص ٤٧٧ كتاب الدعوات . باب ٥٩ رقم ٣٤٦٣ وقال : هذا حديث حسن صحيح . طبعة دار الكتب العلمية .

(٤) انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٧٢ كتاب الذكر والدعاء باب فضل التهليل والتسبيح رقم ٢٦٩٥/٣٢ .
انظر سنن الترمذى جـ ٥ ص ٥٣٩ كتاب الدعوات . باب ١٢٩ رقم ٣٥٩٧ وقال : هذا حديث صحيح .

(٥) انظر صحيح مسلم جـ ٣ ص ١٦٨٥ كتاب الآداب باب كراهية التسمية بالأسماء القبيحة رقم ٢١٣٧/١٢ .
انظر عمل اليوم والليلة للنسائى ص ٢٥٠ رقم ٨٥٣ بلفظ إذا حدثتك بحديث .

(٦) انظر سنن ابن ماجة جـ ٢ ص ١٢٥١ كتاب الأدب . باب فضل التسبيح رقم ٣٨٠٧
انظر كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم جـ ١ ص ٥١٢ . كتاب فضيلة التسبيح .

١٣ - وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « لقيت ابراهيم - عليه السلام - ليلة أسرى بى ، فقال : يا محمد أقرىء أمتك منى السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء ، وأنها قيعان (أمكنة مستوية مبسوطة منبسطة واسعة فى وطأة من الأرض يعلوها ماء السماء : أى المطر فتمسكه ، ويستوى نباتها . القيعان جمع قاع) وأن غراسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر »(١) رواه الترمذى والطبرانى فى الأوسط والصغير وزاد : ولا حول ولا قوة إلا بالله .

١٤ - وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من قال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، غرس له بكل واحدة منهن شجرة فى الجنة »(٢) رواه الطبرانى واسناده حسن .

١٥ - وعن أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « من هلل مائة مرة ، وسبح مائة مرة ، وكبّر مائة مرة ، كان خيراً له من عشر رقاب يعتقهن وسبع بدنات (جمع بدنة) ، وانما سميت بها الابل لعظم بدنها » . قال - تعالى - : ﴿ **والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون** ﴾ينحرهن »(٣) .

١٦ - وعن أم هانىء - رضى الله عنها - قالت : مر بى رسول الله - ﷺ - ذات يوم ، فقلت : يا رسول الله قد كبرت سنى ، وضعفت ، أو كما قالت : فمرنى بعمل أعمله وأنا جالسة ، قال : « سبحى الله مائة تسبيحة ، فإنها تعدل لك مائة رقبة تعتقينها من ولد إسماعيل ، واحمدى الله مائة تحميدة ، فإنها تعدل لك مائة فرس مسرجة ملجمة تحملين عليها فى سبيل الله ، وكبرى الله مائة تكبيرة ، فإنها تعدل لك مائة بدنة مقلدة متقبلة ، وهللى الله مائة تهليلة : قال أبو خلف : أحسبه قال : تملأ ما بين السماء والأرض ، ولا يرفع يومئذ لأحد عمل أفضل مما يرفع لك إلا أن يأتى بمثل ما أتيت »(٤) رواه أحمد بإسناد حسن ، واللفظ له والنسائى ولم يقل : ولا يرفع إلى آخره ، والبيهقى بتمامه .

١٧ - وعن أبى هريرة وأبى سعيد - رضى الله عنهما - عن النبى - ﷺ - قال : « إن الله اصطفى من الكلام أربعاً : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، فمن قال سبحان الله كتبت له عشرون حسنة ، وحُطت عنه عشرون سيئة ، ومن قال الله أكبر فمثل ذلك ، ومن قال لا إله الا الله فمثل ذلك ، ومن قال الحمد لله رب العالمين من قبل نفسه كتبت له ثلاثون حسنة وحطت عنه ثلاثون سيئة »(٥) رواه أحمد وابن أبى الدين والنسائى واللفظ له .

---

(١) انظر سنن الترمذى جـ ٥ ص ٢٤٦ . كتاب الدعوات باب ٥٩ رقم ٣٤٦٢ وقال : هذا حديث حسن غريب . من حديث ابن مسعود .
(٢) انظر الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٤٣٥
(٣) انظر الأدب المفرد لأبى عبد الله البخارى جـ ٢ ص ٩٢ رقم ٦٣٦
(٤) انظر عمل اليوم للنسائى ص ٢٤٩ ثم ٨٥٠ . انظر مسند الامام أحمد جـ ٦ ص ٣٤٤ مسند أم هانىء .
(٥) انظر عمل اليوم والليلة للنسائى ص ٢٤٨ رقم ٨٤٦ . انظر مسند الامام أحمد جـ ٢ ص ٣٠٢

١٨ ـ وعن أبي مالك الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان (أى أن العبد إذا سئل يوم القيامة عن مصرف ماله كانت صدقاته براهين . ويجوز أن يوسم المتصدق بسيماء يعرف بها فيكون برهاناً له على حاله ولا يسأل عن مصرف ماله) والصبر ضياء والقرآن حجة لك أوعليك ، (أى تنتفع به إن تلوته وعملت به ، وإلا فشاهد على تقصيرك) كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أوموبقها (أى كل إنسان يسعى بنفسه فمنهم من يبيعها لله ـ تعالى ـ بطاعته فيعتقها من العذاب ، ومنهم من يبيعها للشيطان والهوى باتباعهما فيوبقها ، أى يهلكها »(١) رواه مسلم والترمذى والنسائى .

١٩ ـ وعن رجل من بنى سُلَيْم قال : عدهن رسول الله ـ ﷺ ـ فى يدى أوفى يده . قال : « التسبيح نصف الميزان ، والحمد لله تملؤه ، والتكبير يملأ ما بين السماء والأرض ، والصوم نصف الصبر ، والطهور نصف الايمان »(٢) رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

٢٠ ـ وعن أبي ذر ـ رضى الله عنه ـ أن ناساً من أصحاب النبى ـ ﷺ ـ قالوا للنبى ـ ﷺ ـ : يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضول أموالهم . قال : « أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به ؟ . إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن منكر صدقة ، وفى بضع أحدكم صدقة . قالوا يا رسول الله : أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجرا ؟ قال : أرأيتم لو وضعها فى حرام (بطريق الزنا وهتك الأعراض ، وتمزيق حجاب العفاف) كان عليه وزر (ذنب) فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر »(٣) رواه مسلم وابن ماجه .

(الدثور : بضم الدال : جمع دثر بفتحها ، وهو المال الكثير) .

(والبضع : بضم الموحدة : هو الجماع وقيل هو الفرج نفسه) .

٢١ ـ وعن أبي سلمى ـ رضى الله عنه ـ راعى رسول الله ـ ﷺ ـ قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : بخ بخ (كلمة تقال عند المدح والرضا بالشىء وتكرر للمبالغة والإحسان) لخمس ما أثقلهن (ترجح كفتها ويكثر أجرها) فى الميزان : لا إله إلا الله ، وسبحان الله ، والحمد لله والله أكبر ، والولد الصالح يتوفى للمرء المسلم فيحتسبه (يطلب من الله العوض) ، ويسلمه ذخيرة عند ربه ولا يجزع . ولا يقول ما يغضب الرب تبارك وتعالى »(٤) رواه النسائى واللفظ له ، وابن حبان فى صحيحه والحاكم وصححه ورواه البزار بلفظه من حديث ثوبان ، وحسن اسناده .

(١) انظر صحيح مسلم جـ١ ص٢٠٣ كتاب الطهارة . باب ١ رقم ٢٢٣/١ .
انظر سنن الترمذى جـ٥ ص٥٠١ كتاب الدعوات . باب ٨٦ رقم ٣٥١٧ .
(٢) انظر سنن الترمذى جـ٥ ص٥٠١ كتاب الدعوات باب ٨٧ رقم ٣٥١٩ .
(٣) انظر صحيح مسلم جـ٢ ص٦٩٧ ، ٦٩٨ كتاب الزكاة باب ١٦ رقم ١٠٠٥/٥٢ .
(٤) انظر كشف الأستار هم زوائد البزار جـ٤ ص٩ رقم ٣٠٧٢ .
انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم جـ١ ص٥١١
انظر عمل اليوم والليلة للنسائى ص٧١ رقم ١٦٧
انظر صحيح ابن حبان جـ٢ ص١٠٠ رقم ٨٣٠

٢٢ ـ وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « خلق كل انسان من بنى آدم على ستين وثلاثمائة مفصل . فمن كبر الله وحمد الله ، وهلل الله ، وسبح الله واستغفر الله ، وعزل (أبعد عن طريق الناس) حجراً عن طريق المسلمين ، أو شوكة أو عظماً عن طريق المسلمين ، أو أمر بمعروف ، أو نهى عن منكر عدد تلك الستين والثلثمائة ، فإنه يمسى يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار »[١] . رواه مسلم والنسائى .

٢٣ ـ وعن ابن أبى أوفى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال أعرابى : يا رسول الله : إنى قد عالجت القرآن (أخذت فى تلاوته فصعبت على قراءته قراءة تامة) فلم أستطعه ، فعلمنى شيئاً يجزى من القرآن (يعطينى ثواباً جزيلاً كأنى قرأت من القرآن) قال : « قل : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، فقالها وأمسكها بأصابعه ، فقال : يا رسول الله هذا لربى فمالى ؟ قال : تقول : « اللهم اغفر لى وارحمنى وعافنى وارزقنى ، واحسبه قال واهدنى ، ومضى الأعرابى فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : ذهب الأعرابى وقد ملأ يديه خيراً »[٢] . رواه ابن أبى الدنيا عن الحجاج بن أرطأة عن ابراهيم السكسكى عنه ، ورواه البيهقى مختصراً ، وزاد فيه : ولا حول ولا قوة إلا بالله . واسناده جيد .

٢٤ ـ وعن سعد بن أبى وقاص ـ رضى الله عنه ـ قال : جاء أعرابى إلى النبى ـ ﷺ ـ فقال : علمنى كلاماً أقوله ، قال : « قل : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، الله أكبر كبيراً . والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله رب العالمين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم . قال : هؤلاء . فمالى ؟ . قال : قل : اللهم اغفر لى ، وارحمنى ، واهدنى ، وارزقنى »[٣] وزاد من حديث أبى مالك الأشجعى : وعافنى ، وفى رواية قال : فإن هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك . رواه مسلم .

٢٥ ـ وروى عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : جاء رجل بدوى إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : يا رسول الله علمنى خيراً . قال : « قل : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر . قال : وعقد بيده أربعاً ، ثم ذهب وقال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ثم رجع فلما رآه رسول الله ـ ﷺ ـ تبسم ، وقال : تفكر البائس ، فقال : يا رسول الله : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر هذا كله لله فمالى ؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : إذا قلت سبحان الله ، قال الله : صدقت ، وإذا قلت : الحمد لله ، قال الله : صدقت ، وإذا قلت : لا إله إلا الله ، قال الله صدقت ، وإذا قلت الله أكبر قال الله : صدقت فتقول : اللهم اغفر لى ، فيقول الله : قد فعلت ، فتقول : اللهم ارحمنى ، فيقول الله : قد فعلت ، وتقول : اللهم ارزقنى ، فيقول الله : قد فعلت ، قال : فعقد الأعرابى سبعاً فى يده »[٤] رواه ابن أبى الدنيا ، والبيهقى ، وهو فى المسند وسنن النسائى من حديث أبى هريرة بمعناه .

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ٢ ص٦٩٨ كتاب الزكاة باب ١٦ رقم ١٠٠٧/٥٤ .
انظر عمل اليوم والليلة للنسائى ص٢٤٧ ، ٢٤٨ رقم ٨٤٣ .

(٢) انظر السنن الكبرى للبيهقى جـ٢ ص٣٨١ كتاب الصلاة باب الذكر يقوم مقام القراءة إذا لم يحسن من القرآن شيئا .

(٣) انظر صحيح مسلم جـ٤ ص٢٠٧٢ كتاب الذكر والدعاء باب فضل التهليل والتسبيح رقم ٢٦٩٦/٣٣٠ .

(٤) رواه ابن أبى الدنيا والبيهقى .

٢٦ ـ وعن سلمى أم بنى رافع ـ رضى الله عنها ـ مولى رسول الله ـ ﷺ ـ أنها قالت : يا رسول الله أخبرنى بكلمات ، ولا تكثر علىّ ، فقال : « قولى : الله أكبر عشر مرات ، يقول الله : هذا لى ، وقولى سبحان الله عشر مرات ، يقول الله : هذا لى ، وقولى : اللهم اغفر لى ، يقول الله قد فعلت ، فتقولين عشر مرات : ويقول قد فعلت »[1] . رواه الطبرانى ورواته محتج بهم فى الصحيح .

٢٧ ـ وعن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : استكثروا من الباقيات (الدائم ثوابها ونعيمها) الصالحات (المقبول ذكر الله بها ، الداعية إلى تبجيل الله وتقديسه) . قيل : وماهن يا رسول الله ؟ قال : « التكبير ، والتهليل ، والتسبيح ، والحمد لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله »[2] رواه أحمد وأبو يعلى والنسائى واللفظ له ، وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

٢٨ ـ وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « خذوا جنتكم . قالوا يا رسول الله عدو حضر ؟ قال : لا . ولكن جنتكم من النار . قولوا : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، فإنهن يأتين يوم القيامة مجنبات ومعقبات . وهن الباقيات الصالحات »[3] رواه النسائى واللفظ له ، والحاكم والبيهقى .

وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم . (جنتكم) : بضم الجيم وتشديد النون : أى ما يستركم ويقيكم ، (ومجنبات) بفتح النون : أى مقدمات أمامكم ، وفى رواية الحاكم منجيات بتقديم النون على الجيم ، وكذا رواه الطبرانى فى الأوسط ، وزاد ولا حول ولا قوة إلا بالله ورواه فى الصغير من حديث أبى هريرة فجمع بين اللفظين فقال : ومنجيات ومجنبات ، واسناده جيد قوى . (ومعقبات) بكسر القاف المشددة أى تتعقبكم ، وتأتى من ورائكم .

٢٩ ـ وعن أبى الدرداء ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « قل سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . فإنهن الباقيات الصالحات ، وهن يحططن الخطايا (تزيلها وتلقيها) كما تحط الشجرة ورقها ، وهى من كنوز الجنة »[4] رواه الطبرانى بإسنادين أصلحهما فيه عمر بن راشد .

٣٠ ـ وعن النعمان بن بشير ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن مما تذكرون من جلال الله : التسبيح والتهليل والتحميد . ينعطفن (يملن) نحو العرش . لهن دوىّ (صوت) كدوى النحل . تذكِّر بصاحبها ، أما يحب أحدكم أن يكون له ، أو لا يزال له من يذكر به »[5] . رواه ابن أبى الدنيا وابن ماجة واللفظ له ، والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم .

---

(١) انظر المعجم الكبير للطبرانى جـ ٢٤ ص ٣٠٢ رقم ٧٦٦ .
(٢) انظر صحيح ابن حبان جـ ٢ ص ١٠٢ رقم ٨٣٧
انظر الحاكم فى مستدركه ج ١ ص ٥١٢ كتاب الدعاء باب بيان الباقيات الصالحات .
انظر مسند الامام أحمد ج ٣ ص ٧٥ .
(٣) انظر عمل اليوم والليلة للنسائى ص ٢٥٠ رقم ٨٥٤ .
انظر كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم جـ ١ ص ٥٤١ .
(٤) انظر سنن ابن ماجة جـ ٢ رقم ٣٨٠٧ .
(٥) انظر سنن ابن ماجة جـ ٢ ص ١٢٥٢ كتاب الأدب فضل التسبيح رقم ٣٨٠٩ .
انظر كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم جـ ١ ص ٥٠٠ كتاب الدعاء باب من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة .

٣١ ـ وعن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : إذا حدثتكم بحديث ، أتيناكم بتصديق ذلك فى كتاب الله : إن العبد إذا قال : سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، وتبارك الله . قبض عليهن ملك فضمهن تحت جناحه ، وصعد بهن ، لا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يُحيَّا بهن وجه الرحمن . ثم تلا عبد الله : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾(١) رواه الحاكم وقال : صحيح الاسناد .

٣٢ ـ وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ أخذ غصناً فنفضه فلم ينتفض ، ثم نفضه فلم ينتفض ، ثم نفضه فانتفض ، فقال ـ ﷺ ـ : « إن سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، تنفض الخطايا كما تنفض الشجرة ورقها »(٢) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

٣٣ ـ وعن معاذ بن عبد الله بن رافع ـ رضىَ الله عنه ـ قال : كنت فى مجلس فيه عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن أبى عميرة ـ رضى الله عنهم ـ فقال ابن أبى عميرة : سمعت معاذ ابن جبل يقول : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « كلمتان إحداهما ليس لها ناهية دون العرش ، والأخرى تملأ ما بين السماء والأرض . لا إله إلا الله ، والله أكبر ، فقال ابن أبى عميرة : أنت سمعته يقول ذلك ؟ قال نعم ، فبكى عبد الله بن عمر حتى اختضبت (ابتلت وغمرتْ) لحيته بدموعه ، وقال : هما كلمتان نعلقهما ونألفهما »(٣) نحفظهما ونكثر من ذكر الله بهما) رواه الطبرانى .

٣٤ ـ وروى عن أبى الدرداء ـ رضى الله عنه ـ ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « من قال لا إله إلا الله ، والله أكبر ، أعتق الله ربعه من النار ، ولا يقولها اثنين إلا أعتق الله شطره من النار ، وإن قالها أربعاً أعتقه الله من النار »(٤) رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط .

٣٥ ـ وعن عمران يعنى ابن حصين ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « مايستطيع أحدكم أن يعمل كل يوم مثل أُحد ؟ قالوا : يارسول الله : ومن يستطيع أن يعمل كل يوم عملاً مثل أُحد ؟ قال : كلكم يستطيعه . قالوا يارسول الله : ماذا ؟ قال : سبحان الله أعظم من أُحد ، (ثوابها أكبر عند الله وأثقل من جبل أُحد) ولا إله إلا الله أعظم من أُحد ، والحمدلله أعظم من أُحد ، والله أكبر أعظم من أُحد »(٥) رواه ابن أبى الدنيا والنسائى والطبرانى والبزار .

٣٦ ـ وعن عبد الله ، يعنى ابنَ مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله يؤ تى المال من يحب ومن لا يحب ، ولا يؤ تى الإيمان إلا من أحب ، فإذا أحب الله عبداً أعطاه الإيمان ، فمن ضنَّ بالمال أن ينفقه ، وهاب العدو أن يجاهده ، والليل أن يكابده ، فليكثر من قول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر »(٦) . رواه الطبرانى .

---

(١) انظر المستدرك على الصحيحين جـ٢ ص ٤٢٥ .
(٢) انظر مسند أحمد جـ٣ ص١٥٢ معاذ بن عبد الله بن رافع.
(٣) انظر مجمع الزوائد . كتاب الأذكار باب ما جاء فى لا إله إلا الله والله أكبر جـ١٠ ص٨٦ .
(٤) انظر الترغيب والترهيب جـ٢ ص٥٣٤ .
(٥) انظر عمل اليوم والليلة للنسائى ص٢٤٧ رقم ٨٤٢ بلفظ ايعجز أحدكم .
انظر المعجم الكبير للطبرانى جـ١٨ ص١٧٤ ، ١٧٥ رقم ٣٩٨ .
نظر كشف الأستار عن زوائد البزار جـ٤ ص١٠ ، ١١ رقم ٣٠٧٥ .
(٦) انظر المعجم الكبير للطبرانى جـ٩ ص٢٢٩ رقم ٨٩٩٠ .

٣٧ ـ وعن أبي المنذر الجهني ـ رضى الله عنه ـ قال : قلت يانبى الله : علمنى أفضل الكلام ؟ قال : « يا أبا المنذر قل : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، يحيى ويميت وبيده الخير ، وهو على كل شيء قدير ، مائة مرة فى كل يوم ، فإنك يومئذ أفضل الناس عملاً . إلا من قال مثل ما قلت ، وأكثر من قول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله ، إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فإنها سيد الاستغفار ، وإنها ممحاة للخطايا (مزيلة) أحسبه قال موجبة للجنة (مسببة دخول الجنة حتما)[1] رواه البزاز من رواية جابر الجعفر .

٣٨ ـ وعن عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « من قال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، كتب له بكل حرف عشر حسنات »[2] رواه ابن ابى الدنيا .

٣٩ ـ وعن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ أنه سمع النبى ـ ﷺ ـ يقول : من قال سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، قال الله : أسلم (انقاد وأطاع) عبدى واستسلم (فوض أمره لى)[3] . رواه الحاكم وقال : صحيح الاسناد

٤٠ ـ وعن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا . قلت يارسول الله : وما رياض الجنة ؟ قال : المساجد . قلت وما الرتع ؟ قال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر »[4] رواه الترمذى

٤١ ـ وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « أول من يدعون إلى الجنة الذين يحمدون الله ـ عز وجل ـ فى السراء والضراء »[5] رواه ابن أبى الدنيا والبزار .

٤٢ ـ وعن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « التأنى من الله والعجلة من الشيطان ، وما أحد أكثر معاذير من الله ، وما من شيء أحب إلى الله من الحمد »[6] رواه أبو يعلى ورجاله الصحيح .

٤٣ ـ وعن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « ما أنعم الله على عبد من نعمة فقال : الحمد لله ، إلا أدى شكرها ، فإن قالها ثانياً جدد الله له ثوابها ، فإن قالها الثالثة غفر الله له ذنوبه »[7] رواه الحاكم وقال صحيح الاسناد .

---

(١) انظر كشف الأستار عن زوائد البزار جـ٤ ص٩ ، ١٠ كتاب الأذكار باب فى التسبيح والتحميد والتهليل رقم ٣٠٧٣ .
(٢) انظر المعجم الكبير للطبرانى جـ١٢ ص٣٨٨ رقم ١٣٤٣٥ .
(٣) انظر كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم جـ١ ص٥٠٢ .
(٤) انظر سنن الترمذى جـ٥ ص٤٩٧ ، ٤٩٨ كتاب الدعوات باب ٨٣ رقم ٣٥٠٩ وقال : هذا حديث حسن غريب .
(٥) انظر كشف الأستار عن زوائد البزار جـ٤ ص٢٨ كتاب الأذكار باب الحمد لله على كل حال . رقم ٣١١٤ .
(٦) انظر سنن الترمذى بلفظ الأناة من الله جـ٣ ص٢٤٨ كتاب البر والصلة . باب ما جاء فى التأنى والعجلة .
انظر كنز العمال جـ٣ ص١٠١ رقم ٥٦٧٥ .
(٧) انظر المستدرك على الصحيحين جـ١ ص٥٠٧ .

٤٤ - وروى عن أبى أمامة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - « ما أنعم الله - عز وجل - على عبد نعمة فحمد الله - عز وجل - عليها إلا كان ذلك أفضل من تلك النعمة ، وإن عظمت »[١] رواه الطبرانى .

٤٥ - وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - « كل كلام لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم »[٢] . رواه أبوداود واللفظ له وابن ماجة والنسائى وابن حبان فى صحيحه .

* فضل سبحان الله وبحمده *

أولاً : محبوبة عند الله - جل وعلا -

ثانياً : تجلب آلاف الحسنات لذاكر الله بها ، وتكاد تؤدى شكر النعم على إنعامه وترجح كفة قائلها أمام وزن ما أنعم الله به على عباده ، إن شاء غفر له وسامحه وعفا عنه .

ثالثاً : تغرس له نخلة فى الجنة .

رابعاً : الفقير يكثر من تسبيح الله - تعالى - رجاء أن يشيد له فى الصالحات مكاناً عليا .

خامساً : تسبب غفران الخطايا وإن كثر عددها « مثل زبد البحر » .

سادساً : سبب بسط الرزق وسعته ، وإزالة الضيق وتفريج الكروب .

سابعاً : ثوابها يكتنز بجوار العرش يدخر لطالبه .

ثامناً : أحب صيغة اختارها رسول الله - ﷺ -

تاسعاً : غراس الجنة بكل كلمة شجرة .

عاشراً : الإكثار من تسبيح الله بها تتحرر عشرة نفوس ذليلة ، ونحر إبل فى الإنفاق لله - تعالى .

الحادى عشر : بكل تسبيحة صدقة وذكر الله بها يؤدى الصدقات عن ٣٦٠ مفصلاً ، وهى الدروع الحصينة المانعة عذاب الله .

الثانى عشر : تلاوتها تنبىء عن تفويض العبد كل أعماله لربه ظاهرها وباطنها والشعور بالذلة والانقياد له ، والضعف والإستكانة ، وأنه وحده الفعال المنفذ القادر القهار .

الثالث عشر : بقدر تلاوتها ثمرات الجنة تدخر لذاكر الله .

الرابع عشر : الذاكرون أول زمرة يقدم لهم نعيم الله .

الخامس عشر : أعمالهم كاملة وأجورهم وافية ، والغافلون أعمالهم ناقصة قليلة البركة .

السادس عشر : تلاوتها . هذه الصيغ محمودة ومحبوبة ، وزائدة الثواب ومرجوة القبول لأنها من ألفاظ سيدنا المصطفى - ﷺ - قال - تعالى - ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾[٣]

---

(١) انظر مجمع الزوائد جـ ١٠ ص ٩٥ .
انظر كنز العمال رقم ١٧١٩٥ .
انظر الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٤٣٨ .

(٢) انظر عمل اليوم والليلة للنسائى ص ١٥٧ رقم ٤٩٩ ولفظه : « كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أقطع » .
انظر سنن أبى داود جـ ٥ ص ١٧٢ رقم ٤٨٤٠ .
انظر سنن ابن ماجة جـ ١ ص ٦١٠ كتاب النكاح . باب خطبة النكاح رقم ١٨٩٤ بلفظ « كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بالحمد . . »

(٣) سورة الضحى آية ٥ .

قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ إنكار على من يعد وعداً أو يقول قولاً لا يفي به . ولهذا استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً ، سواء ترتب عليه عزم للموعود أم لا . واحتجوا أيضا من السنة بما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « آية المنافق ثلاث : إذا وعد أخلف ، وإذا حدث كذب ، وإذا اؤتمن خان »(١) . وفى الحديث الآخر فى الصحيح : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها »(٢) فذكر منهن إخلاف الوعد ولهذا أكد الله هذا الإنكار عليهم بقوله تعالى : ﴿ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ . وقد روى الإمام أحمد وأبو داود عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال : قال : أتانا رسول الله ـ ﷺ ـ وأنا صبى ، فذهبت لأخرج لألعب ، فقالت أمى : ياعبد الله : تعالى أعطك ، فقال لها رسول الله ـ ﷺ ـ « وما أردت أن تعطيه ؟ » قالت تمراً فقال « أما إنك لو لم تفعلى كتبت عليك كذبة »(٣)

وذهب الإمام مالك ـ رحمه الله ـ إلى أنه إذا تعلق بالوعد عزم على الموعود وجب الوفاء به ، كما لو قال لغيره تزوج ولك على كل يوم كذا ، فتزوج وجب عليه أن يعطيه مادام كذلك لأنه تعلق به حق آدمى وهو مبنى على المضايقة وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقاً وحملوا الآية على أنها نزلت حين تمنوا فريضة الجهاد عليهم فلما فرض نكل عنه بعضهم كقوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لما كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾(٤) وقال ـ تعالى ـ ﴿ ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت ﴾(٥) الآية . وهكذا هذه الآية معناها كما قال على بن أبى طالب عن ابن عباس فى قوله ـ تعالى ـ ﴿ يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ﴾ قال : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون لوددنا أن الله ـ عز وجل ـ دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به ، فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين وشق عليهم أمره ، فقال الله ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿ يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ؟ ﴾ وهذا اختيار ابن جرير .

وقال مقاتل بن حيان : قال المؤمنون لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملنا به ، فدلهم الله على أحب الأعمال إليه ، فقال : ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا ﴾ فبين لهم فابتلوا يوم أحد بذلك

(١) انظر صحيح البخارى جـ١ ص١٥ كتاب الايمان . باب علامة المنافق طبعة الحلبى .
انظر صحيح مسلم جـ١ ص٧٨ كتاب الايمان باب بيان خصال المنافق رقم ٥٩/١٠٧ .
(٢) انظر صحيح البخارى جـ١ ـ ١٥ كتاب الايمان باب علامة المنافق .
انظر صحيح مسلم جـ١ ص٧٨ كتاب الايمان . باب بيان خصال المنافق رقم ٥٨/١٠٦ .
(٣) انظر سنن أبى داود جـ٥ ص٢٦٥ كتاب الأدب باب فى التشديد فى الكذب رقم ٤٩٩١
انظر مسند الامام أحمد جـ٣ ص٤٤٧ .
(٤) سورة النساء آية ٧٧ ، ٧٨ .
(٥) سورة محمد آية ٢٠ .

فولوا عن النبى - ﷺ - مدبرين فأنزل الله فى ذلك : ﴿ **يأيها الذين امنوا لم تقولون مالا تفعلون** ﴾ وقال : أحبكم إلى من قاتل فى سبيلى . ومنهم من يقول : أنزلت فى شأن القتال ، يقول الرجل قاتلت ولم يقاتل ، وطعنت ولم يطعن وضربت ولم يضرب ، وصبرت ولم يصبر .

وقال قتادة والضحاك نزلت توبيخاً لقوم يقولون قتلنا ، ضربنا ، طعنا ، وفعلنا ، ولم يكونوا فعلوا ذلك . وقال ابن زيد نزلت فى قوم من المنافقين كانوا يعدون المسلمين النصر ولا يفون بذلك . وقال مالك عن زيد بن أسلم : ﴿ **لم تقولون مالا تفعلون** ﴾ قال الجهاد . وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد ﴿ **لم تقولون مالا تفعلون - إلى قوله - كأنهم بنيان مرصوص** ﴾ فما بين ذلك فى نفر من الأنصار فيهم عبد الله بن رواحة قالوا فى مجلس : لو نعلم أى الأعمال أحب إلى الله لعملنا به حتى نموت . فأنزل الله تعالى فيهم فقال عبد الله بن رواحة لا أبرح حبيساً فى سبيل الله حتى أموت فقتل شهيداً .

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن أبى حرب بن أبى الأسود الديلى عن أبيه قال : بعث أبو موسى إلى قراء أهل البصرة فدخل عليه منهم ثلثمائة رجل كلهم قد قرأ القرآن فقال : أنتم قراء أهل البصرة وخيارهم . وقال كنا نقرأ سورة نشبهها بإحدى المسبحات فأنسيناها غير أنى قد حفظت منها ﴿ **يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون** ﴾ فتكتب شهادة فى أعناقكم ، فتسألون عنها يوم القيامة . لقد قرن الإسلام القول بالعمل ، وأوجب ذلك على المؤمنين كما قال - تعالى - ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً** ﴾(١) فالإيمان والإسلام نطق باللسان وعمل بالأركان وتصديق بالجنان . ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل . وإن قوماً غرتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا نحن نحسن الظن بالله ، وكذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل .

كان المسيح بن مريم - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - يقول : « يابنى إسرائيل لا تأتونى تلبسون ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضوارى ولكن البسوا ثياب الملوك وألينوا قلوبكم بخشية الله » .

لقد ألقى القرآن باللائمة على قوم أمروا ولم يأتمروا ، ونهوا غيرهم ولم ينتهوا . قال - عز من قائل - : ﴿ **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون** ﴾ لذلك فإن أنبياء الله ضربوا المثل الأعلى فى الإلتزام بالصدق قولاً وعملاً ، قال القرآن الكريم حكاية عن خطيب الأنبياء شعيب - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - : ﴿ **قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقاً حسناً وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه . إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب** ﴾

كم تكون المسئولية خطيرة وجسيمة ، وكم يكون العقاب شديداً ومضاعفاً لقوم أمروا غيرهم ولم يأتمروا ونهوا الناس ولم ينتهوا . قال - تعالى - فى الحديث القدسى الجليل : « لقد خلقت خلقا ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصبر ، فبى حلفت لأتيحنهم فتنة تدع الحليم منهم حيران أبى يغترون أم علىّ يجترأون »

•

---

(١) سورة الكهف آية ١٠٧ .

يأيها الرجل المعلم غيره … هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنا … كيما يصح به وأنت سقيم
ونراك تصلح بالرشاد عقولنا … أبداً وأنت من الرشاد عديم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها … فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يسمع ما تقول ويشتفى … بالقول منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتى مثله … عار عليك إذا فعلت عظيم

وما أجمل قول القائل :

ياواعظ الناس قد أصبحت متهماً … إذ عبت منهم أموراً أنت تأتيها
تعيب دنيا وناساً عاملين لها … وأنت أعظم منهم رغبة فيها

كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يقول لأهله : (ياآل عمر اتقوا الله فإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم) وكان يقول : (رحم الله امرءا أهدى إلىّ عيوبى) .

وقد رُويت أحاديث شريفة عن رسول الله ـ ﷺ ـ ترهب من أن يأمر بمعروف ، وينهى عن منكر ويخالف قوله فعله .

١ ـ عن أسامة بن زيد ـ رضى الله عنهما ـ قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « يُؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار ، فتندلق أقتاب بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحى ، فيجتمع إليه أهل النار ، فيقولون : يا فلان ، مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر وآتيه »(١) . رواه البخارى ومسلم . (الأقتاب : الأمعاء) .

٢ ـ وعن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « رأيت ليلة أسرى بى رجالاً تقرض شفاهم (تقطع شفاهم) بمقاريض من النار ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : الخطباء من أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون »(٢) رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الصمت ، وابن حبان فى صحيحه واللفظ له والبيهقى .

٣ ـ وعن الحسن ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « ما من عبد يخطب خطبة إلا الله سائله عنها يوم القيامة ما أردت بها » . قال : فكان مالك يعنى ابن دينار إذا حدث بهذا بكى ، ثم يقول : أتحسبون أن عينى تقر بكلامى عليكم ، وأنا أعلم أن الله سائلى عنه يوم القيامة . قال : ما أردت به ،

---

(١) انظر صحيح البخارى جـ ٤ ص ١٤٧ كتاب بدأ الخلق . باب صفة النار وأنها مخلوقة .
انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٢٠٠ كتاب الزهد والرقائق . باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله رقم ٢٩٨٩/٥١ .
(٢) انظر صحيح ابن حبان جـ ١ ص ١٣٥ .
انظر البيهقى فى شعب الايمان نسخة مصورة من المخطوطة ص ١١٩ . باب طلب العلم . فصل ما ينبغى للعالم والمتعلم أن يكون تعليمه لوجه الله تعالى .

فأقول : أنت الشهيد على قلبى لو لم أعلم أنه أحب إليك لم أقرأ على اثنين أبداً »[١] رواه ابن أبى الدنيا والبيهقى باسناد وحيد .

٤ ـ وروى عن الوليد بن عقبة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن ناساً من أهل الجنة ينطلقون إلى اناس من أهل النار فيقولون : بم دخلتم النار ؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم ، فيقولون : إنا كنا نقول ولا نفعل »[٢] . رواه الطبرانى فى الكبير .

٥ ـ وعن أبى تميمة عن جندب بن عبد الله الأزدى صاحب رسول الله ـ ﷺ ـ ، ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « مثل الذى يعلم الناس الخير وينسى نفسه ، كمثل السراج يضىء للناس ويحرق نفسه »[٣] رواه الطبرانى وأسناده حسن ، ورواه البزار من حديث أبى برزة إلا أنه قال : مثل الفتيلة .

٦ ـ وعن عمران بن حصين ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن أخوف ما أخاف عليكم بعدى كل منافق عليم باللسان »[٤] رواه الطبرانى فى الكبير والبزار ، ورواته محتج بهم فى الصحيح .

٧ ـ وعن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « إن الرجل لا يكون مؤمناً حتى يكون قلبه مع لسانه سواء . ويكون لسانه مع قلبه سواء ، ولايخالف قوله عمله ، ويأمن جاره بوائقه »[٥] . رواه الأصبهانى .

٨ ـ وعن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إنى لا أتخوف على أمتى مؤمناً ولا مشركاً . أما المؤمن فيحجزه (فيمنعه) إيمانه ، وأما المشرك فيقمعه كفره ، ولكن أتخوف عليكم منافقاً عالم اللسان ، يقول ما تعرفون ، ويعمل ما تنكرون »[٦] رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط من رواية الحارث .

٩ ـ وعن الأعز بن أبى مالك قال : لما أراد أبو بكر أن يستخلف عمر ، بعث إليه فدعاه فأتاه فقال : إنى أدعوك لأمر متعب لمن وليه ، فاتق الله يا عمر بطاعته ، وأطعه بتقواه ، فإن التقى آمن محفوظ ، ثم إن الأمر معروض لا يستوجبه إلا من عمل به ، فمن أمر بالحق وعمل بالباطل ، وأمر بالمعروف وعمل بالمنكر يوشك أن تنقطع أمنيته ، وأن يحبط عمله ، فإن أنت وليت عليهم أمرهم ، فإن استطعت أن تجف يدك من دمائهم وأن تضمر بطنك من أموالهم ، وأن تُجفَّ لسانك عن أعراضهم فافعل ولا قوة إلا بالله » رواه الطبرانى ورواته ثقات .

---

(١) انظر جامع الأحاديث جـ٥ ص٥٩٢ رقم ١٨٨٤٠ .
انظر البيهقى فى شعب الايمان . باب العلم .
(٢) انظر مجمع الزوائد جـ١ ص١٨٥ باب فى من لم ينتفع بعلمه .
انظر المعجم الكبير للطبرانى جـ٢٢ ص١٥٠ رقم ٤٠٥ .
(٣) انظر مجمع الزوائد جـ١ ص١٨٤ باب فى من لم ينتفع بعلمه
(٤) انظر زوائد البزار جـ١ ص٩٧ رقم ١٦٨ عن عمر .
انظر الترغيب والترهيب جـ١ ص١٢٧
انظر كنز العمال رقم ٢٨٩٧٠ . اتحاف السادة المتقين جـ١٠ ص ٢٢ .
(٥) انظر حلية الأولياء للأصبهانى جـ٤ ص١٦٦ .
(٦) انظر المعجم الصغير للطبرانى جـ٢ ص٩٣ .

١٠ ـ وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « يبصر أحدكم القذاة فى عين أخيه وينسى الجذع فى عينه »(١) رواه ابن حبان فى صحيحه .

* فضل القتال فى سبيل الله *

قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾ فهذا اخبار من الله ـ تعالى ـ بمحبته عباده المؤمنين إذا صفوا مواجهين لأعداء الله فى حومة الوغى ، يقاتلون فى سبيل الله من كفر بالله لتكون كلمة الله هى العليا ، ودينه هو الظاهر العالى على سائر الأديان .

قال الامام أحمد بسنده عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « ثلاثة يضحك الله إليهم : الرجل يقوم من الليل ، والقوم إذا صفوا للصلاة ، والقوم إذا صفوا للقتال »(٢) . رواه ابن ماجه بسنده عن عبد الله بن الشخير قال : قال مطرف كان يبلغنى عن أبى ذر حديث كنت أشتهى لقاءه فلقيته . فقلت : يا أبا ذر : كان يبلغنى عنك حديث فكنت أشتهى لقاءك ، فقال لله أبوك فقد لقيت فهات : فقلت كان يبلغنى عنك أنك تزعم أن رسول الله ـ ﷺ ـ حدثكم « أن الله يبغض ثلاثة ويحب ثلاثة . قال أجل . فلا إخالنى أكذب على خليلى ـ ﷺ ـ قلت فمن هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم الله عز وجل ؟ قال : رجل غزا فى سبيل الله خرج محتسباً مجاهداً فلقى العدو فقتل ، وأنتم تجدونه فى كتاب الله المنزل ثم قرأ : ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾(٣) .

وعن كعب الأحبار أنه قال : يقول الله ـ تعالى ـ لمحمد ـ ﷺ ـ « عبدى المتوكل المختار ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، مولده بمكة وهجرته بطيبة ، وملكه الشام وأمته الحمادون يحمدون الله على كل حال ، وفى كل منزلة لهم دوى كدوى النحل فى جو السماء بالسحر ، يوضئون أطرافهم ويأتزرون على أنصافهم صفهم فى القتال مثل صفهم فى الصلاة » . ثم قرأ : ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾ رعاة الشمس يصلون الصلاة حيث أدركتهم ولو على ظهر دابة(٤) رواه ابن أبى حاتم .

---

(١) انظر صحيح ابن حبان جـ٧ ص٥٠٦

(٢) انظر مسند الامام أحمد جـ٣ ص٨٠

(٣) انظر تفسير ابن كثير جـ٨ ص١٣٣ طبعة الشعب .
انظر سنن الترمذى حديث رقم ٢٥٦٨ .
انظر مسند أحمد جـ٥ ص١٧٦ .

(٤) انظر الشفاء للقاضى عياض جـ١ ص١٥ ، ١٦ .
انظر تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٣٤ طبعة الشعب .

وقال سعيد بن جبير فى قوله - تعالى - : ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً ﴾ قال : كان رسول الله - ﷺ - لا يقاتل العدو إلا أن يصافهم ، وهذا تعليم من الله للمؤمنين . قال : وقوله - تعالى - : ﴿ كأنهم بنيان مرصوص ﴾ أى : ملتصق بعضه فى بعض من الصف فى القتال . وقال مقاتل بن حيان : ملتصق بعضه إلى بعض . وقال ابن عباس : (كأنهم بنيان مرصوص) مثبت لا يزول ملصق بعضه ببعض . وقال قتادة : (كأنهم بنيان مرصوص) ألم تر إلى صاحب البنيان كيف لا يحب أن يختلف بنيانه . فكذلك الله - عز وجل - لا يحب أن يختلف أمره وإن الله صف المؤمنين فى قتالهم وصفهم فى صلاتهم فعليكم بأمر الله فإنه عصمة لمن أخذ به . أورد ذلك كله ابن أبى حاتم . وقال ابن جرير بسنده عن أبى بحرية قال : كانوا يكرهون القتال على الخيل ويستحبون القتال على الأرض لقول الله عز وجل : ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾ قال : وكان أبو بحرية يقول : إذا رأيتمونى ألتفت فى الصف فجؤا فى لحيى (1) .

* بعض ما ورد من الآيات القرآنية * فى فضل الجهاد بالنفس والمال

قال الله - تعالى - : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم ﴾ البقرة - ٢٤٤ ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾ البقرة - ٢٦١ ، ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴾ آل عمران ١٦٩ - ١٧١ .

وقال - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ ، آل عمران ٢٠٠ .

وقال - تعالى - : ﴿ فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾ النساء - ٧٤ .

وقال - تعالى - : ﴿ الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾ النساء - ٧٦ .

وقال - تعالى - : ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً . درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ النساء ٩٥ - ٩٦ .

---

(1) انظر تفسير ابن كثير جـ٨ ص١٣٤ .
انظر تفسير الطبرى ٥٧/٢٨ .

وقال - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾ المائدة - ٥٤ .

وقال - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ الأنفال ١٥ - ١٦ .

وقال - تعالى - : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ الأنفال - ٣٩ .

وقال - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون . وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ الأنفال ٤٥ - ٤٦ .

وقال - تعالى - : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون . وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ﴾ الأنفال ٦٠ - ٦١ .

وقال - تعالى - : ﴿ يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون . الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ الأنفال ٦٥ - ٦٦

وقال - تعالى - : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ التوبة - ٢٩ .

وقال - تعالى - : ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ التوبة ٣٦ .

وقال - تعالى - : ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ التوبة - ٤١ .

وقال - تعالى - : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ التوبة - ١١١ .

وقال - تعالى - : ﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾ الحج - ٧٨ .

وقال - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ محمد - ٤ .

وقال - تعالى - : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾ الحجرات - ١٥ .

وقال - تعالى - : ﴿ يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴾ التوبة - ٧٣ .

وقال - تعالى - : ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ البقرة - ٢١٦ .

وقال - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب ﴾ الصف ١٠ - ١٣ .

وغير ذلك من الآيات القرآنية الواردة فى فضل الجهاد .

وأما الأحاديث الأربعون فهى هذه :

الحديث الأول

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها (١) وحسابهم على الله » رواه مسلم .

١ - ذكر القاضى عياض معنى هذا وزاد عليه وأوضحه فقال : اختصاص عصمة المال والنفس بمن قال لا إله إلا الله تعبير عن الإجابة إلى الإيمان ، وأن المراد بهذا مشركوا العرب وأهل الأوثان ومن لا يوجد ، وهم كانوا أول من دعى إلى الإسلام وقوتل عليه ، فأما غيرهم ممن يقر بالتوحيد - كأهل الكتاب وإن كان توحيدهم غير صحيح ولا ينفعهم شيئا - فلا يكتفى فى عصمته بقوله لا إله إلا الله ، إذا كان يقولها فى كفره وهى من اعتقاده ، فلذلك جاء الحديث : « وأنى رسول الله ويقيم الصلاة ويؤتى الزكاة » هذا كلام القاضى .

قلت - أى الامام النووى : ولابد مع هذا من الإيمان بجميع ما جاء به رسول الله - ﷺ - لما جاء فى الرواية الأخرى لأبى هريرة - رضى الله عنه - وهى مذكورة فى الكتاب - مسلم (٢١) : « حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بى وبما جئت به » والله أعلم .

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ١ ص٥٢ ، ٥٣ كتاب الايمان باب ٨ رقم ٢١/٣٥ .
انظر صحيح البخارى بحاشية السندى جـ١ ص١٣ كتاب الايمان باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة . طبعة الحلبى .

الحديث الثانى

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : سئل رسول الله ـ ﷺ ـ : أى العمل أفضل ؟ قال : « إيمان بالله ورسوله » قيل ثم ماذا ؟ قال : « جهاد فى سبيل الله » . قيل : ثم ماذا ؟ قال : « حج مبرور »(١) رواه البخارى ومسلم .

١ ـ قال الحافظ بن حجر : فإن قيل : لم قدم الجهاد وليس بركن على الحج وهو ركن ؟ فالجواب : إن نفع الحج قاصر غالبا ، ونفع الجهاد متعد غالباً . أو كان ذلك حيث كان الجهاد فرض عين ، ووقوعه فرض عين إذ ذاك متكرر ، فكان أهم منه فقدّم .

وعن أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ قال : قلت : يا رسول الله أى الأعمال أفضل ؟ قال : « الإيمان بالله والجهاد فى سبيل الله »(٢) رواه البخارى ومسلم .

وعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : قلت : يا رسول الله أى العمل أحب إلى الله ـ تعالى ـ ؟ قال : « الصلاة على وقتها » قلت : ثم أى ؟ قال : « بر الوالدين » قلت ثم أى ؟ قال : « الجهاد فى سبيل الله »(٣) رواه البخارى ومسلم .

٢ ـ محصل ما أجاب به العلماء عن هذا الحديث وغيره مما أختلفت فيه الأجوبة بأنه أفضل الأعمال : أن الجواب اختلف لاختلاف أحوال السائلين ، بأن أعلم كل قوم بما يحتاجون إليه ، أو بما لهم فيه رغبة ، أو بما هو لائق بهم . أو كان الاختلاف باختلاف الأوقات بأن يكون العمل فى ذلك الوقت أفضل منه فى غيره .

فقد كان الجهاد فى ابتداء الإسلام أفضل الأعمال لأنه الوسيلة إلى القيام بها والتمكن من أدائها . وقد تضافرت النصوص على أن الصلاة ـ للنوافل ـ أفضل من الصدقة . ومع ذلك ففى وقت مواساة المضطر تكون الصدقة أفضل .

الحديث الثالث

عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال : أتى رجل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : أى الناس أفضل ؟ قال : « مؤمن يجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله » . قال : ثم من ؟ قال : « مؤمن فى شعب من الشعاب يعبد الله ربه ، ويدع الناس من شره »(٤) رواه البخارى ومسلم .

---

(١) انظر صحيح البخارى جـ١ ص ١٤ كتاب الايمان باب ١٧ طبعة الحلبى

(٢) انظر صحيح مسلم جـ١ ص ٨٨ ، ٨٩ كتاب الايمان باب بيان أن الايمان بالله تعالى أفضل الأعمال رقم ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ .

(٣) انظر صحيح مسلم جـ٢ ص ١٣٤ كتاب الجهاد والسير باب ١ .

(٤) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى جـ٢ ص ١٣٥ كتاب الجهاد والسير باب أفضل الناس مؤمن يجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله . انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥٠٣ كتاب الامارة . باب فضل الجهاد والمرابطة رقم ١٢٢ ، ١٨٨٨/١٢٣ .

١ ـ الحديث محمول على الاعتزال فى زمن الفتن والحروب ـ بين المسلمين ـ أو هو فيمن لا يسلم الناس منه ولا يصبر عليهم ، أو نحو ذلك من الخصوص .

وقد كانت الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وجماهير الصحابة والتابعين والعلماء والزهاد مختلطين ، فيحصِّلون منافع الاختلاط كشهود الجمعة والجماعة ، والجنائز ، وعيادة المرضى ، وحِلَق الذكر ، وغير ذلك .

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : مر رجل من أصحاب النبى ـ ﷺ ـ بشعب ـ هو ما انفرج بين جبلين ـ فيه عيينة ـ تصغير عين ـ من ماء عذبة فأعجبته لطيبها ، فقال : لو اعتزلت الناس فأقمت فى هذا الشعب ، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ـ ﷺ ـ . فذكر ذلك لرسول الله ـ ﷺ ـ فقال : « لاتفعل فإن مقام أحدكم فى سبيل الله أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاماً ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة اغزوا فى سبيل الله ، من قاتل فى سبيل الله فُواق الناقة ـ هو ما بين الحلبتين من الوقت ـ وجبت له الجنة »[(١)] رواه الترمذى وقال : هذا حديث حسن .

الحديث الرابع

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قيل يا رسول الله ما يعدل الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : « لا تستطيعونه » . فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً ، كل ذلك يقول : « لا تستطيعونه » . ثم قال : « مثل المجاهد فى سبيل الله ، كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله ، لا يفْتُر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد فى سبيل الله »* . رواه البخارى ومسلم .

١ ـ قال الامام النووى : فى هذا الحديث عظيم فضل الجهاد ، لأن الصلاة والصيام والقيام بآيات الله ـ تعالى ـ أفضل الأعمال ، وقد جعل المجاهد مثل من لا يفتر عن ذلك فى لحظة من اللحظات . ومعلوم أن هذا لا يتأتى لأحد ، ولهذا قال ـ ﷺ ـ : « لاتستطيعونه » . والله أعلم . شرح مسلم .

الحديث الخامس

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رجلاً قال : يا رسول الله دلنى على عمل يعدل الجهاد ؟ قال : « لا أجده » ثم قال : « هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر ، وتصوم ولا تفطر ؟ »[(٢)] فقال ومن يستطيع ذلك ؟[(٢)] رواه البخارى .

١ ـ قال العلامة ابن حجر : هذه فضيلة ظاهرة للمجاهد فى سبيل الله ، تقتضى أن لا يعدل الجهاد شىء من الأعمال . قال عياض : اشتمل الحديث على تعظيم أمر الجهاد ، لأن الصيام وغيره مما ذكر من

---

(١) انظر سنن الترمذى جـ ٤ ص ١٥٥ كتاب فضائل الجهاد . باب ما جاء فى فضل الغدو والرواح فى سبيل الله رقم ١٦٥٠ .

(*) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى جـ ٢ ص ١٣٥ باب أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله .
انظر صحيح مسلم جـ ٣ ص ١٤٩٨ كتاب الامارة . باب فضل الشهادة فى سبيل الله رقم ١٨٧٨/١١٠ .

(٢) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى . جـ ٢ ص ١٣٥ كتاب الجهاد والسير باب ١ .

فضائل الأعمال قد عدلها كلها الجهاد ، حتى صارت جميع حالات المجاهد وتصرفاته المباحة معادلة لأجر المواظب على الصلاة وغيرها . فتح البارى .

الحديث السادس

عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض »(١) رواه البخارى .

١ - ليس فى سياق الحديث التصريح بأن العدد المذكور هو جميع درج الجنة من غير زيادة ، إذ ليس فيه ما ينفيها . ويؤيد ذلك أن فى حديث أبي سعيد المرفوع الذى أخرجه أبو داود وصححه الترمذى وابن حبان : « ويقال لصاحب القرآن اقراء وارق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا ، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها »(٢) . وعدد أى القرآن أكثر من ستة آلاف ومائتين ، والخلف فيما زاد على ذلك من الكسور .

الحديث السابع

عن أبي سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « من رضى بالله رباً ، وبالاسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ، وجبت له الجنة » . فعجب لها أبو سعيد فقال : أعدها علىّ يا رسول الله . فأعادها عليه ، ثم قال : « وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة فى الجنة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض » . قال : وما هى يا رسول الله ؟ قال : « الجهاد فى سبيل الله »(٣) رواه مسلم .

١ - قال القاضى عياض - رضى الله عنه - يحتمل أن هذا على ظاهره وأن الدرجات هنا المنازل التى بعضها أرفع من بعض فى الظاهر ، وهذه صفة منازل أهل الجنة . كما جاء فى أهل الغرف أنهم يتراءون كالكوكب الدرى الشديد الإنارة ويحتمل أن المراد الرفعة بالمعنى فى كثرة النعيم وعظيم الإحسان ، مما لم يخطر على قلب بشر ولا يصفه مخلوق ، وأن أنواع ما أنعم الله به عليه من البر والكرامة يتفاضل تفاضلاً كثيراً ويكون تباعده فى الفضل كما بين السماء والأرض فى البعد قال القاضى : والاحتمال الأول أظهر . شرح مسلم .

الحديث الثامن

عن أبي بكر بن أبي موسى الأشعرى - رضى الله عنه - قال : « سمعت أبي وهو بحضرة العدو يقول : قال رسول الله - ﷺ - : « إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف » . فقام رجل رثّ الهيئة فقال : يا أبا موسى ، أأنت سمعت رسول الله - ﷺ - يقول هذا ؟ قال نعم ، فرجع إلى أصحابه فقال : اقرأ

---

(١) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى . جـ٢ ص١٣٦ . كتاب الجهاد والسير باب درجات المجاهدين فى سبيل الله .

(٢) انظر سنن الترمذى جـ٤ ص١٦٣ كتاب فضائل القرآن . باب ١٨ رقم ٢٩١٤ .
انظر صحيح ابن حبان جـ٢ ص ٧١ رقم ٧٦٣

(٣) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥٠١ كتاب الامارة باب ما أعده الله للمجاهد . رقم ١٨٨٤/١١٦ .

عليكم السلام . ثم كسر جفن سيفه* فألقاه ، ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قتل* رواه مسلم .

١ ـ قال النووى فى شرح مسلم : قال العلماء معناه أن الجهاد وحضور معركة القتال طريق إلى الجنة وسبب لدخولها .

وقال المناوى فى شرح الجامع : هو كناية عن الدنو من العدو فى الحرب بحيث تعلوه السيوف فيصير ظلها عليه . وقال أبواب الجنة ولم يقل الجنة لأن المراد أن الجهاد طريق لذلك ، وهذا التعبير أدل عليه .

الحديث التاسع

عن البراء بن عازب ـ رضى الله عنه ـ قال : أتى النبى ـ ﷺ ـ رجل مقنع بالحديد فقال : يا رسول الله : أقاتل أو أسلم ؟ قال : « أسلم ثم قاتل » . فأسلم ثم قاتل فقُتل ، فقال رسول الله ﷺ : « عمل قليلاً وأجر كثيراً »[1] . رواه البخارى ومسلم .

وعنه ـ رضى الله عنه ـ قال : جاء رجل من بنى النبيت ـ قبيل من الأنصار ـ فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك عبده ورسوله . ثم تقدم فقاتل حتى قتل ، فقال النبى ﷺ : « عمل هذا يسيراً وأجر كثيراً » رواه مسلم .

الحديث العاشر

عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : انطلق رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر ، وجاء المشركون فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « لايقدمن أحد منكم إلى شىء حتى أكون أنا دونه » . فدنا المشركون ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض » . قال عمير بن الحمام[1] يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض ؟ قال : « نعم » . قال : بخ . بخ . فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « مايحملك على قولك بَخٍ . بَخٍ » قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها . قال : « فإنك من أهلها » . فأخرج ثمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال : إن أنا حييت حتى آكل ثمراتى هذه إنها لحياة طويلة . فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل رضى الله عنه »* . رواه مسلم .

(*) جَفن السيف : أى : غمده .
(*) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص ١٥١١ كتاب الامارة . باب ٤١ رقم ١٩٠٢/١٤٦
انظر صحيح مسلم جـ٣ ص ١٥٠٩ كتاب الامارة باب ثبوت الجنة للشهيد رقم ١٩٠٠/١٤٤ .
انظر صحيح مسلم جـ٣ ص ١٥١٠ ، ١٥١١ كتاب الامارة . باب ٤١ رقم ١٩٠١/١٤٥ .

قوله : (بخ . بخ) : كلمة تقال عند التعجب من الشىء واستحسانه وقوله (من قرنه) : هو جُعبة النِّشاب .

١ ـ عمير بن الحمام الأنصارى السلمى ـ رضى الله عنه ـ أول شهيد من الأنصار فى الاسلام فى حرب . كان رسول الله ـ ﷺ ـ قد آخى بينه وبين عبيدة بن الحارث المطلبى فاستشهدا يوم بدر . وقد روى هذا الحديث ابن اسحاق وزاد : أنه أخذ السيف فقاتل القوم وهو يقول :

ركضاً إلى الله بغير زاد إلا التُّقى وعمل المعاد
والصبر فى الله على الجهاد إن التقى من أعظم السداد
وخير ما قاد إلى الرشاد وكل حى فإلى نفاد .

الحديث الحادى عشر

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « لا يجتمع كافر وقاتله فى النار أبداً » . رواه مسلم(*)

يعنى : قاتل الكافر فى الجهاد فى سبيل الله .

١ ـ فى شرح مسلم قال القاضى عياض : يحتمل أن هذا مختص بمن قتل كافراً فى الجهاد ، فيكون ذلك مكفراً لذنوبه حتى لا يعاقب عليها ، وأن يكون عقابه بغير النار . أو يعاقب فى غير مكان عقاب الكفار ، ولا يجتمعان فى أدراكها . قال الطيبى : والأول هو الوجه وهو من الكناية التلويحية نفى الاجتماع فيلزم منه نفى المساواة بينهما . فيلزم ألا يدخل المجاهد النار أُبداً ، فإنه لو دخلها لساواه .

وقوله أُبداً بمعنى قط فى الماضى وعوض فى المستقبل تنزيلاً للمستقبل منزلة الماضى . قال الجوهرى . يقال : لا أفعله أبد الأبد وأبد الآبدين ، كما يقال دهر الداهرين وعوض العائضين . والمقام يقتضيه لأنه ترغيب فى الجهاد والحث عليه .

الحديث الثانى عشر

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « ما من مكلوم يكلم فى سبيل الله الا جاء يوم القيامة وكلمه يدمى ، اللون لون دم والريح ريح مسك »(١) رواه البخارى ومسلم ومعنى كلم : جرح .

١ ـ الحكمة فى كون الدم يأتى يوم القيامة على هيئته أنه يشهد لصاحبه بفضله وعلى ظالمه بفعله . وفائدة رائحته الطيبة أن تنتشر فى أهل الموقف إظهاراً لفضيلته أيضاً ، ومن ثم لم يشرع غسل الشهيد فى المعركة .

(*) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥٠٥ كتاب الامارة . باب ٣٦ رقم ١٣٠/١٨٩١ .
(١) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى ط/الحلبى جـ٢ ص١٣٨ كتاب الجهاد والسير . باب من يجرح فى سبيل الله . انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٤٩٦ كتاب الامارة باب ٢٨ رقم ١٠٥/١٨٧٦

الحديث الثالث عشر

عن أنس - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - كان يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه (١) . وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت ، فدخل عليها رسول الله ﷺ فأطعمته ثم جلست تفلى رأسه . فنام رسول الله - ﷺ - ثم استيقظ وهو يضحك . قالت : فقلت : يا رسول الله ما يضحكك ؟ قال : « ناس من أمتى عرضوا علىّ غزاة فى سبيل الله ، يركبون ثبج هذا البحر ملوكاً على الأسرَّة أو مثل الملوك على الأسرة »(٢) .

قالت : فقلت : يا رسول الله أدع الله أن يجعلنى منهم . فدعا لها ثم وضع رأسه فنام ، ثم استيقظ وهو يضحك . قالت : فقلت ما يضحكك يا رسول الله ؟ قال : « ناس من أمتى عرضوا على غزاة فى سبيل الله » ، كما قال فى الأولى قالت : فقلت : يا رسول الله أدع الله أن يجعلنى منهم . قال : « أنت من الأولين » . فركبت أم حرام بنت ملحان البحر فى زمن معاوية ، فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت - رضى الله عنها - . رواه البخارى ومسلم .

ومعنى ثبج البحر : وسطه ومعظمه .

قال الحافظ المنذرى فى كتابه الترغيب والترهيب : كان معاوية - رضى الله عنه - قد أغزى عبادة بن الصامت قبرس ، فركب البحر غازياً وركبت معه زوجته أم حرام .

١ - قال النووى : اتفق العلماء على أنها كانت محرماً له - ﷺ - واختلفوا فى كيفية ذلك . فقال ابن عبد البر وغيره : كانت احدى خالاته من الرضاعة ، وقال آخرون : بل كانت خالة لأبيه أو لجده لأن عبد المطلب كانت أمه من بنى النجار .

٢ - قال ابن عبد البر : أراد - والله أعلم - أنه رأى الغزاة فى البحر من أمته ملوكاً على الأسرة فى الجنة ، ورؤياه وحى ، وقد قال تعالى فى صفة أهل الجنة : ﴿ على سُرُر متقابلين ﴾(٣) وقال : ﴿ على الأرائك متكئون ﴾(٤) والأرائك هى السرر فى الحجال . فتح البارى .

٣ - فى الحديث معجزات للنبى - ﷺ - منها اخباره ببقاء أمته بعده وأنه تكون لهم شوكة وقوة وعدد ، وأنهم يغزون وأنهم يركبون البحر وأن أم حرام تعيش إلى ذلك الزمان وأنها تكون معهم . وقد وجد - بحمد الله تعالى - كل ذلك . شرح مسلم .

٤ - كان ذلك سنة ثمان وعشرين ، وكان فى خلافة عثمان ومعاوية يومئذ أمير الشام . فتح البارى .

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥١٨ ، ١٥١٩ كتاب الامارة باب ٤٩ رقم ١٦٠/١٩١٢

(٢) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى جـ٢ ص١٤٩ كتاب الجهاد والسير . باب غزو المرأة فى البحر ط/الحلبى

(٣) سورة الصافات آية ٤٤

(٤) سورة يس آية ٥٦

الحديث الرابع عشر

عن أبي موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ أن اعرابياً أتى النبى ـ ﷺ ـ فقال : يا رسول الله الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل لِيُذكر ، والرجل يقاتل لِيُرى مكانه فمن فى سبيل الله ؟ فقال : رسول الله ـ ﷺ ـ : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله »[١] . رواه البخارى ومسلم

١ ـ قال الحافظ بن أبي حمزة : الجواب هنا احتمل وجوهاً لكل واحد منها حكم أحدهما : وهو أعلاها بلا خلاف وهو أن يكون لله ولا يكون هناك غير ذلك .

والثانى : أن يكون المثير للقتال أحد الوجوه المذكورة فى الحديث ، أو الزيادة التى فى غيره ، وهى أن يقاتل طبعاً ، ثم عند الشروع يجرد النية أن تكون كلمة الله هى العليا ، فهذا هو الذى يعطيه نص الحديث . لأن المثير للشىء لا يُلتفت إليه إذا لم يُستصحب به الحال حتى يكون الفعل له ، لأن الحكم للأحداث فالأحداث .

الثالث : أن يكون لذلك المؤثر ولله معاً ـ على حدٍّ واحد ـ فهذا ليس من الله فى شىء . لما جاء أن الله ـ جل جلاله ـ إذا كان فى العمل شرك لغيره يقول الله يوم القيامة لصاحب العمل : « أنا أغنى الشركاء ، اذهب فاطلب الأجر من غيرى »[٢]

الرابع : أن يكون لأحد الوجوه المذكورة لا غير ، فهذا له ما يقتضيه فعله ونيته من إثم أو إباحة بحسب قواعد الشرع فى كل قضية . بهجة النفوس .

الحديث الخامس عشر

عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها »[٣] رواه البخارى ومسلم .

١ ـ قال ابن دقيق العيد : يحتمل ـ الحديث ـ وجهين ، أحدهما أن يكون من باب تنزيل المغيَّب منزلة المحسوس تحقيقاً له فى النفس . لكون الدنيا محسوسة فى النفس مستعظمة فى الطباع ، فلذلك وقعت المفاضلة بها . وإلا فمن المعلوم أن جميع ما فى الدنيا لا يساوى ذرة مما فى الجنة . والثانى : أن المراد أن هذا القدر من الثواب خير من الثواب الذى يحصل لمن لو حصلت له الدنيا كلها لأنفقها فى طاعة الله ـ تعالى ـ .

---

(١) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى جـ٢ ص ١٣٩ كتاب الجهاد باب من قاتل لتكون كلمة هى العليا .
(٢) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص ١٥١٢ ، ١٥١٣ كتاب الامارة باب ٤٢ رقم ١٤٩/١٩٠٤
(٣) انظر صحيح البخارى جـ٢ ص ١٣٦ كتاب الجهاد والسير . باب الغدوة والروحة فى سبيل الله ط/الحلبى .
انظر صحيح مسلم جـ٣ ص ١٤٩٩ كتاب الامارة باب ٣٠ رقم ١١٢/١٨٨٠

قال ابن حجر : إن سبب التأخير عن الجهاد الميل إلى سبب من أسباب الدنيا ، فنبه هذا المتأخر أن هذا القدر اليسير من الجنة أفضل من جميع ما فى الدنيا .

الغدوة : الذهاب قبل الظهر ، والروحة : الرجوع بعده والمراد هنا : الذهاب والرجوع مطلقاً .

الحديث السادس عشر

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « تضمَّن الله[1] لمن خرج فى سبيله ، لا يخرجه إلا جهاداً فى سبيلى وإيماناً بى وتصديقاً برسلى ، فأنا ضامن أن أدخله الجنة ، أو أرجعه إلى منزله الذى خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة . والذى نفس محمد بيده ما كلم يكلم فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كُلِمَ ، لونه لون دم ، وريحه مسك ، والذى نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلف سرية تغزو فى سبيل الله أبداً ، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ، ولا يجدون سعة ، ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى . والذى نفس محمد بيده لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل »[2] رواه مسلم .

ورواه البخارى بلفظ : « تكفل الله لمن جاهد فى سبيله لا يخرجه من بيته إلا الجهاد فى سبيله وتصديق لكلماته ، أن يدخله الجنة أو يرده إلى مسكنه بما نال من أجر أو غنيمة » . الحديث .

١ ـ وفى الرواية الأخرى « تكفل الله » ومعناهما : أوجب الله تعالى له الجنة بفضله وكرمه سبحانه وتعالى . وهذا الضمان والكفالة موافق لقوله تعالى ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾[3] .

٢ ـ قال الإمام النووى : فى الحديث ما كان عليه ـ ﷺ ـ من الشفقة على المسلمين والرأفة بهم ، وأنه كان يترك بعض ما يختاره للرفق بالمسلمين وأنه إذا تعارضت المصالح بدأ بأهمها .

٣ ـ قال الحافظ بن حجر : ظاهر الحديث أنه إذا غنم لا يحصل له أجر ، وليس ذلك مراداً . بل المراد أو غنيمة معها أجراً نقص من أجر من لم يغنم . لأن القواعد تقتضى أن الجهاد عند عدم الغنيمة أفضل منه وأتم أجراً عند وجودها فالحديث صريح فى نفى الحرمان ، وليس صريحاً فى نفى الجمع .

الحديث السابع عشر

عن عبد الرحمن بن جبير ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « ما اغبرّت قدما عبد فى سبيل الله فتمسَّه النار[4] » رواه البخارى .

١ ـ قال ابن حجر : فى هذا إشارة إلى عظيم قدر التصرف فى سبيل الله ، فإذا كان مجرد مس الغبار للقدم يحرم عليها النار ، فكيف بمن سعى وبذل جهده واستنفد وسعه .

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٤٩٥ ، ١٤٩٦ كتاب الامارة باب ٢٨ رقم ١٠٣/١٨٧٦

(٢) سورة التوبة آية ١١١

(٣) انظر صحيح البخارى جـ٤ ص٢٥ كتاب الجهاد والسير بباب ما غبرت قدماه فى سبيل الله .

وهذا ليس منحصراً بالجهاد فى سبيل الله ، بل كل طاعة يجاهد المسلم فيها نفسه داخله فى هذا المعنى . قال ابن أبى حمزة : وهو الأظهر كما ذهب إليه بعض الصحابة حيث قال لأخيه حين لقيه فى طريق المسجد قد اغبرت قدماه فسأله : أغير الصلاة أخرجك ؟ . قال : لا ، لم أخرج لغيرها . فقال : شهدت على رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال : « ما اغبرّت قدما رجل فى سبيل الله إلا حرمه الله على النار » . فقال له الرجل : ذلك خاص بالقتال ، فقال الصحابى : أفعال الخير كلها فى سبيل الله . وقد قال ـ عليه السلام ـ : فى الخارج للمسجد : « هو فى ذمة الله إن مات أدخله الله الجنة ، وإن رجع إلى منزله كان كالمجاهد رجع بالأجر والغنيمة » وهذا نص فى المسألة فيجب تعديه فى جميع وجوه البر ، ويكون الأول ـ أى الجهاد ـ منها أظهرها وأعلاها .

الحديث الثامن عشر

عن سهل بن سعد ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها[1] » رواه البخارى ومسلم .

١ ـ الرباط : ههنا مرابطة الغزو فى نحور العدو ، وحفظ ثغور الإسلام وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حوزة بلاد المسلمين . قال ابن قتيبة : أصل الرباط أن يربط هؤلاء خيلهم وهؤلاء خيلهم استعداداً للقتال ، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل** ﴾[2] .

ولقد كان الرباط دأب السلف كالأوزاعى والشافعى وغيرهم من علماء هذه الأمة . وروى الحافظ بن عساكر فى ترجمة عبد الله بن المبارك أنه أرسل إلى الفضيل بن عياض من مكان مرابطته بطرسوس هذه الأبيات :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك فى العبادة تلعب
من كان يخضب خدّه بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله فى باطل ... فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا ... وهج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا ... قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوى غبار خيل الله فى ... أنف إمرىء ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا ... ليس الشهيد بميت لا يكذب

قال ـ ناقل الرسالة ـ : فلقيت الفضيل بن عياض بكتابه فى المسجد الحرام ، فلما قرأه ذرفت عيناه وقال : صدق أبو عبد الرحمن ـ ابن المبارك ـ ونصحنى .

---

(١) انظر صحيح البخارى جـ ٤ ص ٤٣ . كتاب الجهاد والسير . باب فضل رباط يوم فى سبيل الله .
(٢) سورة الأنفال آية ٦٠ .

الحديث التاسع عشر

عن سلمان الفارسى ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه . وإن مات فيه جرى عليه عمله الذى كان يعمله[(١)] » ، وأجرى عليه رزقه ، وأمن الفتّان »[(٢)] . رواه مسلم . يعنى فتنة القبر .

١ ـ قال الإمام النووى : هذه فضيلة ظاهرة للمرابط ، وجريان عمله عليه بعد موته فضيلة مختصة به لا يشاركه فيها أحد . وقد جاء جريحاً فى غير مسلم ـ عند أبى داود والترمذى وأحمد ـ : « كل ميت يختم على عمله إلا المرابط فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة » .

الحديث العشرون

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه فى سبيل الله ، أشعث رأسه ، مغبرة قدماه ، إن كان فى الحراسة كان فى الحراسة ، وإن كان فى الساقة كان فى الساقة ، إن استأذن لم يؤذن له ، وإن شفع لم يُشفَّع[(٣)] رواه البخارى .

١ ـ قال ابن الجوزى : المعنى أنه خامل الذكر لا يقصد السمو ، فإن اتفق له السير سار . فكأنه قال : إن كان فى الحراسة استمر فيها ، وإن كان فى الساقة استمر فيها .

وطوبى : فعْلَى من كل شىء طيب . وقال بعضهم : المراد الدعاء له بالجنة ، لأن طوبى أشهر شجرها وأطيبه فدعا له أن ينالها .

الحديث الحادى والعشرون

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « من خير معاش الناس لهم ، رجل يُمسك بعنان فرسه فى سبيل الله[(٤)] » . يطير على متنه . كلما سمع هيعة أو فزعة طار على متنه . يبتغى القتل أو الموت مظَانَّه[(٥)] . أو رجل فى غنيمة فى رأس شعفة من هذه الشعف . أو بطن واد من هذه الأودية . يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة . ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين . ليس من الناس إلا فى خير »[(ب)] رواه مسلم . والشعفة : رأس الجبل .

(١) قال النووى : المعاش هو العيش وهو الحياة ، وتقديره . والله أعلم من خير أحوال عيشهم رجل ممسك .

(٢) هيعة : الصوت عند حضور الأعداء . والفزعة : النهوض إلى العدو . ومعنى يبتغى القتل مظانة : يطلبه فى مواطنه التى يرجى فيها لشدة رغبته فى الشهادة .

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥٢٠ . كتاب الامارة باب ٥٠ رقم ١٩١٣/١٦٣ .

(٢) انظر سنن الترمذى جـ ٤ ص١٤٢ . كتاب فضائل الجهاد رقم ١٦٢١ وقال : حديث حسن صحيح .

(٣) انظر مسند الامام احمد جـ ٤ ص ١٥٠ ، ١٥٧ ، ٢٠٦ .

(٤) انظر صحيح البخارى جـ ٤ ص ٤١ ، ٤٢ . كتاب الجهاد باب الحراسة فى الغزو فى سبيل الله . وأول الحديث تعس عبد الدينار وعبد الدرهم .

(٥) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥٠٣ ، ١٥٠٤ . كتاب الامارة . باب ٣٤ رقم ١٨٨٩/١٢٥ .

الحديث الثانى والعشرون

عن زيد بن خالد الجهنى ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « من جهز غازياً فى سبيل الله فقد غزا ، ومن خلف غازياً فى أهله بخير فقد غزا »[١] رواه البخارى ومسلم .

وعن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ بعث إلى بنى لحيان : « ليخرج من كل رجلين رجل[٢] ، ثم قال للقاعد : « أيكم خلف الخارج ، فى أهله فله مثل أجره » . رواه مسلم .

(١) أى حصل له أجر بسبب الغزو . وهذا الأجر يحصل بكل جهاد سواء قليله وكثيره ، ولكل خالف له فى أهله بخير من قضاء حاجة لهم وإنفاق عليهم أو ذب عنهم أو مساعدتهم فى أمر لهم . ويختلف قدر الثواب بقلة ذلك وكثرته . وفى الحديث الحث على الإحسان إلى من فعل مصلحة للمسلمين أو قام بأمر من مهماتهم .

(٢) قال النووى : اتفق العلماء على أن بنى لحيان كانوا فى ذلك الوقت كفاراً ، فبعث إليهم بعثاً يغزونهم وقال لذلك البعث ليخرج من كل قبيلة نصف عددها وهو المراد بقوله : « من كل رجلين رجل » .

الحديث الثالث والعشرون

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « من احتبس فرساً فى سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعده ، فإن شبعه ورِيّه وروثه وبوله فى ميزانه يوم القيامة[٣] يعنى حسنات . رواه البخارى .

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قيل : يا رسول الله فالخيل ؟ قال : « الخيل لثلاثة : هى لرجل وزر ، وهى لرجل ستر ، وهى لرجل أجر فأما التى هى وِزر ، فرجل ربطها رياء وفخراً ونواء على أهل الإسلام[٣] . فهى له وزر ، وأما التى هى له ستر ، فرجل ربطها فى سبيل الله ، ثم لم ينس حق الله فى ظهورها ولا رقابها[٤] . فهى له ستر . وأما التى هى له أجر ، فرجل ربطها فى سبيل الله لأهل الإسلام ، فى مرج وروضة فما أكلت من ذلك المرج أو الروضة من شىء ، إلا كتب له ، عدد ما أكلت حسنات ، وكتب له ، عدد أرواثها وأبوالها حسنات ، ولا تقطع طِوَلها فاستنّت شرفاً أو شرفين إلا كتب له ، عدد آثارها ، وأرواثها حسنات ، ولا مر بها صاحبها على نهر فشربت منه ولا يريد أن يسقيها ، إلا كتب الله له ، عدد ما شربت حسنات »[٥] . رواه البخارى ومسلم .

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥٠٧ . كتاب الامارة باب ٣٨ رقم ١٨٩٥/١٣٦ .
(٢) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥٠٧ . كتاب الامارة باب فضل اعانة الغازى فى سبيل الله . رقم ١٨٩٣/١٣٣
(٣) انظر صحيح البخارى جـ٤ ص٣٤ كتاب الجهاد والسير . باب من احتبس فرساً .
(٤) انظر صحيح البخارى جـ٤ ص٦٥ ـ ٣٦ . كتاب الجهاد والسير . باب الخيل لثلاثة .
(٥) انظر صحيح مسلم جـ٢ ص٦٨١ كتاب الزكاة . باب اثم مانع الزكاة . رقم ٩٨٧/٢٤ .

طولها : حبلها الذى تربط به فى المرعى .

واستنت : عدت ومرحت .

وشرفاً : شوطاً .

(١) أى معاداة لأهل الإسلام .

(٢) المراد أنه يجاهد عليها .

(٣) هذا من باب التنبيه لأنه إذا كان يحصل له هذه الحسنات من غير أن يقصد سقيها فإذا قصده فأولى بأضعاف الحسنات .

الحديث الرابع والعشرون

عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « ما من عبد يصوم يوماً فى سبيل الله ، إلا باعد الله ، بذلك اليوم ، وجهه عن النار سبعين خريفاً »[١] . رواه البخارى ومسلم .

(١) قال ابن الجوزى : إذا أطلق ذكر « فى سبيل الله » فالمراد به الجهاد .

وقال القرطبى : سبيل الله طاعة الله ، فالمراد من صام قاصداً وجه الله .

قال الحافظ بن حجر : ويحتمل أن يكون ما هو أعم من ذلك ، ثم وجدته فى « فوائد أبى الطاهر الذهلى » عن أبى هريرة بلفظ : « ما من مرابط يرابط فى سبيل الله فيصوم يوماً فى سبيل الله ، ولا يعارض ذلك أن الفطر فى الجهاد أولى ، لأن الصائم يضعف عن اللقاء . والفضل المذكور محمول على من لم يخش ضعفاً ، ولا سيما من اعتاده فصار ذلك من الأمور النسبية . فمن لم يضعفه الصوم عن الجهاد فالصوم فى حقه أفضل ليجمع بين الفضيلتين .

(٢) الخريف زمان معلوم من السنة والمراد به هنا العام . وتخصيص الخريف بالذكر دون باقى الفصول ، الصيف والشتاء والربيع ، لأن الخريف أزكى الفصول لكونه يجنى فيه الثمار . قال القرطبى : ورد ذكر السبعين لإرادة التكثير كثيراً .

---

(١) انظر صحيح البخارى جـ٤ ص٣٢ . كتاب الجهاد والسير باب فضل الصوم فى سبيل الله ط/الشعب .
انظر صحيح مسلم جـ٢ ص٨٠٨ . كتاب الصيام . باب فضل الصيام فى سبيل الله . رقم ١١٥٣/١٦٧

الحديث الخامس والعشرون

عن أنس - رضى الله عنه - أن النبى - ﷺ - قال : « ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وأن له ما على الأرض من شىء غير الشهيد[١] فإنه يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات ، لما يرى من الكرامة »[٢] . وفى رواية : « لما يرى من فضل الشهادة » . رواه البخارى ومسلم .

(١) أما سبب تسميته شهيداً فقال النضر بن شميل : لأنه حى فإن أرواحهم شهدت وحضرت دار السلام ، وأرواح غيرهم إنما تشهدها يوم القيامة . وقال ابن الأنبارى : لأن الله - تعالى - وملائكته - عليهم الصلاة والسلام - يشهدون له بالجنة .

(٢) قال ابن بطال : هذا الحديث أحلّ ما جاء فى فضل الشهادة ، قال : وليس فى أعمال البر ما تبذل فيه النفس غير الجهاد فلذلك عظم فيه الثواب .

الحديث السادس والعشرون

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - : أن رسول الله - ﷺ - قال : « والذى نفس محمد بيده لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأُقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأُقتل »[٣] . رواه البخارى ومسلم .

الحديث السابع والعشرون

عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - : أن رسول الله - ﷺ - قال : « يُغفر للشهيد كل ذنب إلا الدَّيْن »[٤] . رواه مسلم .

وعن قتادة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قام فيهم فذكر : أن الجهاد فى سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال » . فقام رجل فقال : يا رسول الله : أرأيت إن قتلت فى سبيل الله تكفّر عنى خطاياى ؟ فقال رسول الله - ﷺ - : « نعم ، إن قتلت فى سبيل الله وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر » . ثم قال رسول الله - ﷺ - : « كيف قلت ؟ قال : أرأيت إن قتلت فى سبيل الله أتكفر عنى خطاياى ؟ قال رسول الله - ﷺ - : « نعم ، وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر إلا الدَّيْن ، فإن جبريل قال لى ذلك »[٥] . رواه مسلم .

وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة فى حديث : « اجتنبوا السبع الموبقات »[٦] . إن منها : « التولى يوم الزحف » . أى : الفرار عند لقاء العدو .

---

(١) انظر صحيح البخارى جـ ٤ ص ٢٦ . كتاب الجهاد والسير باب ثمن المجاهد أن يرجع إلى الدنيا .
(٢) انظر صحيح مسلم جـ ٣ ص ١٤٩٨ . كتاب الامارة . باب فضائل الشهادة فى سبيل الله رقم ١٨٧٧/١٠٩
(٣) انظر صحيح البخارى جـ ٤ ص ٢١ . كتاب الجهاد والسير . باب ثمن الشهادة ط/الشعب .
(٤) انظر صحيح مسلم جـ ٣ ص ١٤٩٦ . كتاب الامارة باب ٢٨ رقم ١٨٧٦/١٠٣
(٥) انظر صحيح مسلم جـ ٣ ص ١٥٠٢ . كتاب الامارة . باب ٣٢ رقم ١٨٨٦/١٢٠ .
(٦) انظر صحيح مسلم جـ ٣ ص ١٥٠١ . كتاب الامارة باب ٣٢ رقم ١٨٨٥/١١٧ .

(١) قوله - ﷺ - : « إلا الدين » فيه تنبيه على جميع حقوق الآدميين وأن الجهاد والشهادة وغيرهما من أعمال البر لا يكفر حقوق الآدميين وإنما يكفر حقوق الله - تعالى - .

(٢) قوله - ﷺ - : « نعم » ثم قال بعد ذلك : « إلا الدين فمحمول على أنه أوحى إليه به فى الحال ولهذا قال : « فإن جبريل قال لى ذلك » .

(٣) أى : المهلكات ، وسميت بذلك لأنها سبب لإهلاك مرتكبها . وبقية السبع : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات المؤمنات ، أى : رميهن بالزنا والفاحشة .

الحديث الثامن والعشرون

عن سَمُرة بن جندب - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « رأيت الليلة رجلين أتيانى فصعدا بى الشجرة وأدخلانى داراً هى أحسن وأفضل ، لم أرَ قط أحسن منها . قالا لى : أمّا هذه الدار فدار الشهداء »[(١)] . رواه البخارى .

الحديث التاسع والعشرون

عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - قال : جىء بأبى إلى النبى - ﷺ - قد مثِّل به ، فوضع بين يديه ، فذهبت أكشف عن وجهه فنهانى قومى . فسمع صوت صائحة ، فقيل ابنة عمرو أو أخت عمرو[(١)] ، فقال : « لِمَ تبْكى ، أو فلا تبكى ، ما زالت الملائكة تظلّه بأجنحتها »[(أ)] . رواه البخارى ومسلم .

(١) قال الحافظ بن حجر : الصواب بنت عمرو وهى فاطمة بنت عمرو كما فى الرواية الأخرى وهى عمة جابر .

(٢) قال القاضى عياض : يحتمل أن ذلك لتزاحمهم عليه لبشارته بفضل الله ورضاه عنه ، وما أعدَّ من الكرامة عليه ، إزدحموا عليه إكراماً له وفرحاً به .

الحديث الثلاثون

عن أنس - رضى الله عنه - قال : بعث رسول الله - ﷺ - زيداً وجعفراً وعبد الله بن رواحة ودفع الراية إلى زيد فأصيبوا جميعاً . قال أنس : فنعاهم رسول الله - ﷺ - قبل أن يجىء الخبر فقال : « أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب ، ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله - خالد بن الوليد »[(ب)] . قال : فجعل يحدّث الناس وعيناه تذرفان . وفى رواية قال : « وما يسرهم أنهم عندنا » . رواه البخارى .

---

(١) انظر صحيح البخارى جـ ٤ ص ٢٠ كتاب الجهاد والسير . باب درجات المجاهدين ط/الشعب .
(أ) انظر صحيح البخارى جـ ٤ ص ٢٦ كتاب الجهاد والسير . باب ظل الملائكة على الشهيد .
انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ١٩١٧ ، ١٩١٨ . كتاب الفضائل باب فضائل عبد الله بن عمرو بن حرام رقم ٢٤٧١/١٢٩
(ب) انظر كتاب صحيح البخارى جـ ٤ ص ٢١ كتاب الجهاد والسير باب تمنى الشهادة .

(١) أطلع الله - سبحانه وتعالى - على ذلك رسوله من يومهم ذلك ، فأخبر به أصحابه وقال : « لقد رُفعوا إلىّ فى الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب » . وفى رواية : « مُثِّل لى جعفر وزيد وابن رواحة فى خيمة من دُرّ ، كل واحد منهم على سرير » .

الحديث الحادى والثلاثون

عن أنس - رضى الله عنه - : أن أم الربيع بن البراء وهى أم حارثة بن سراقة أتت النبى - ﷺ - فقالت : يا رسول الله : ألا تحدثنى عن حارثة - وكان قتل يوم بدر - فإن كان فى الجنة صبرت ، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه بالبكاء . فقال : « يا أم حارثة إنها جنان فى الجنة ، وإن إبنك أصاب الفردوس الأعلى »[أ] . رواه البخارى .

(١) الفردوس هو البستان الذى يجمع كل شىء . وفى حديث البخارى : « فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة » ، قال ابن حبان : المراد بالأوسط السعة وبالأعلى : الفوقية .

الحديث الثانى والثلاثون

عن مسروق قال : سألنا عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - عن هذه الآية : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾ ، آل عمران - ١٩ فقال : أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله - ﷺ -(١) فقال : « أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل . فاطّلع عليهم ربهم اطّلاعه فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا : أى شىء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث نشاء ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يسألوا قالوا : يا رب نريد أن تُرد أرواحنا فى أجسادنا حتى نُقتل فى سبيلك مرة أخرى . فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا »[١] . رواه مسلم .

(١) ليس فى رواية مسلم ذكر الرسول - ﷺ - ، وإنما زادها المؤلف ليتضح المعنى . قال ابن القيم الجوزية فى شرحه على أبى داود : كان ابن مسعود يشتد عليه أن يقول : قال رسول الله - ﷺ - ، وكان إذا سماه أرعد وتغير لونه . وكان كثيراً ما يقول ألفاظ الحديث موقوفة ، وإذا رفع شيئاً منها تحرى فيه وقال : أو شبه هذا ، أو قريباً من هذا . فكأنه جرى على عادته فى هذا الحديث وخاف أن لا يؤديه بلفظه فلم يذكر رسول الله - ﷺ - .

(٢) أى يخلق الله لأرواحهم بعد ما فارقت أبدانهم هياكل على تلك الهيئة تتعلق بها ، وتكون خلفاً على أبدانهم . وإليه الإشارة بقوله - تعالى - : ﴿ أحياء عند ربهم ﴾ فيتوسلون بها إلى نيل ما يشتهون من اللذائذ الحسية . والقناديل بمنزلة أوكار الطير . تحفه الأحوذى .

(أ) انظر صحيح البخارى جـ ٤ ص ٢٤ . كتاب الجهاد والسير . باب من أتاه سهم عزب فقتله .

(١) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥٠٢ . كتاب الامارة . باب ٣٣ رقم ١٢١/١٨٨٧

الحديث الثالث والثلاثون

عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق »(١) . رواه مسلم .

(١) المراد أن من فعل هذا فقد أشبه المنافقين المتخلفين عن الجهاد فى هذا الوصف ، فإنّ ترك الجهاد أحد شعب النفاق . وفى هذا الحديث : أن من نوى فعل عبادة فمات فعلها لا يتوجه عليه من الذم ما يتوجه على من مات ولم ينوها .

الحديث الرابع والثلاثون

عن سهل بن حنيف - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « من سأل الله - تعالى - الشهادة بصدق بلّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه »(٢) . رواه مسلم .

وعن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ -: « من طلب الشهادة صادقاً أعطيها ولو لم تُصبه »(٣) . رواه مسلم .

(١) ومعنى هذه الرواية مفسر من الرواية الأولى ، ومعناها جميعاً ، أنه إذا سأل الشهادة بصدق أعطى من ثواب الشهداء وإن كان على فراشه . وفيه استحباب سؤال الشهادة واستحباب نية الخير .

الحديث الخامس والثلاثون

عن عبد الرحمن بن أبي أوفى - رضى الله عنهما - : أن رسول الله - ﷺ - كان فى بعض أيامه التى لقى فيها العدو ، انتظر حتى مالت الشمس ثم قام فى الناس فقال : « أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا (٣) . واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » . ثم قال : « اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم »(٤) . رواه البخارى ومسلم .

(١) قال ابن دقيق العبد : لما كان لقاء الموت من أشق الأشياء على النفس ، وكانت الأمور الغائبة ليست كالأمور المحققة لم يؤمن أن يكون عند الوقوع كما ينبغى فيكره التمنى لذلك ، ولما فيه لو وقع من احتمال أن يخالف الإنسان ما وُعد من نفسه . ثم أمر بالصبر عند وقوع الحقيقة .

(٢) فى هذا الدعاء التنبيه على عظم هذه النعم الثلاث . فإن بإنزال الكتاب حصلت النعمة الأخروية ، وهى الإسلام . وبإجراء السحاب حصلت النعمة الدنيوية وهى الرزق . وبهزيمة الأحزاب حصل حفظ النعمتين .

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥١٧ . كتاب الامارة . باب ذم من مات ولم يغز رقم ١٩١٠/١٥٨ .
(٢) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥١٧ كتاب الامارة . باب استحباب طلب الشهادة فى سبيل الله رقم ١٩٠٩/١٥٧
(٣) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥١٧ رقم ١٩٠٨/١٥٦
(٤) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٣٦٢ ، ١٣٦٣ . كتاب الجهاد والسير باب ٦ رقم ١٧٤٢/٢٠ .

الحديث السادس والثلاثون

عن أبى مسعود البدرى ـ رضى الله عنه ـ قال : جاء رجل إلى النبى ـ ﷺ ـ بناقة مخطومة(١) فقال : هذه فى سبيل الله . فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة(٢) » رواه مسلم .

(١) مخطومة : أى فيها خِطام . وخطام البعير أن يؤخذ حبل من ليف ، أو شعر أو كتان فيجعل فى أحد طرفيه حلقة ثم يُشد فيه الطرف الآخر حتى يصير كالحلقة ثم يقاد البعير .

(٢) يحتمل أن المراد له أجرى سبعمائة ناقة ويحتمل أن يكون على ظاهره ويكون له فى الجنة بها سبعمائة ناقة كل واحدة منهن مخطومة يركبهن حيث شاء للتنزه كما جاء فى خَيل الجنة .

الحديث السابع والثلاثون

عن عقبة بن عامر الجهنى ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ وهو على المنبر يقول : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى » رواه مسلم .

وعن عقبة بن عامر أيضاً قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « من عَلِمَ الرمى ثم تركه فليس منا أو فقد عصى »(٣) . رواه مسلم .

وعن عقبة بن عامر أيضاً قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « ستُفتح عليكم أرضون ويكفيكم الله ، فلا يعجز أحدكم أن يلهو باسمه »(٤) . رواه مسلم .

وعن سلمة بن الأكوع ـ رضى الله عنه ـ قال : مر النبى ـ ﷺ ـ على نفر ينتصلون فقال : « ارموا بنى اسماعيل فإن أباكم كان رامياً »(٥) . رواه البخارى .

(١) فى الحديث والأحاديث بعده فضيلة الرمى والمناضلة والاعتناء بذلك بنية الجهاد فى سبيل الله ـ تعالى ـ . وكذلك المنافقة وسائر أنواع استعمال السلاح ، وكذا المسابقة بالخيل وغيرها . والمراد بهذا كله التمرن على القتال ، والتدرب والتحذق فيه ، ورياضة الأعضاء لذلك .

الحديث الثامن والثلاثون

عن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال : كنا مع النبى ـ ﷺ ـ فى غزاة فقال : « إن بالمدينة لرجالاً

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥٠٥ . كتاب الامارة باب فضل الصدقة فى سبيل الله وتضعيفها رقم ١٨٩٢/١٣٢ .
(٢) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥٢٣ . كتاب الامارة . باب فضل الرمى والحث عليه رقم ١٩١٧/١٦٧ .
(٣) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥٢٣ كتاب الامارة باب فضل الرمى والحث عليه . رقم ١٩١٩/١٦٩ .
(٤) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥٢٢ . كتاب الامارة . باب فضل الرمى والحث عليه رقم ١٩١٨/١٦٨ .
(٥) انظر صحيح البخارى جـ٤ ص٤٥ كتاب الجهاد والسير . باب التحريض على الرمى ط/الشعب .

ما سرتم مسيراً ولا قطعتم واديا ، إلا كانوا معكم . حبسهم المرض » . وفى رواية : « حبسهم العُذر »[١] وفى رواية : « إلا شركوكم فى الأجر »[٢] . رواه مسلم ورواه البخارى عن أنس - رضى الله عنه - .

(١) قال المهلب : يشهد لهذا الحديث قوله - تعالى -: ﴿ **لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر** ﴾[٣] . فإنه فاضل بين المجاهدين والقاعدين ، ثم استثنى أولى الضرر من القاعدين فكأنه ألحقهم بالفاضلين . وفى الحديث : أن المرء يبلغ بنيته أجر العامل إذا منعه العذر عن العمل .

الحديث التاسع والثلاثون

عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « ما من سرية تغزو فتغنم وتسلم إلا كانوا قد تعجلوا ثلثى أجورهم . وما من سرية تخفق وتصاب إلا تمَّ أجورهم » . رواه مسلم .

(١) أما معنى الحديث ، فالصواب الذى لا يجوز غيره ، أن الغزاة إذا سلموا أو غنموا يكون أجرهم أقل من أجر من لم يسلم أو سلم ولم يغنم . وأن الغنيمة هى فىَ مقابلة جزء من أجر غزوهم ، فإذا حصلت لهم فقد تعجلوا ثلثى أجرهم المترتب على الغزو .

الحديث الأربعون

عن سليمان بريدة عن أبيه - رضى الله عنه - قال : كان رسول الله - ﷺ - إذا أمّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ، ثم قال : « اغزوا باسم الله فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله . اغزوا فلا تغلّوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً . وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال ، فأتيهن ما أجابوك ، فاقبل منهم وكف عنهم . ثم ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين . فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين . ولا يكون لهم فى الغنيمة والفىء شىء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوْا فسلهم الجزية ، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم . وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك . فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله .

---

(١) انظر صحيح البخارى جـ ٤ ص ٣١ كتاب الجهاد والسير باب من حبسه العذر عن الغزو .
(٢) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥١٨ . كتاب الامارة باب من حبسه العذر عن الغزو رقم ١٥٩/١٩١١ .
(٣) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥١٥ . كتاب الامارة باب بيان قد ثواب من غزا فغنم ومن لم يغنم . رقم ١٥٤/١٩٠٦ .

وإن حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ، ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا »[١] . رواه مسلم .

(١) السرية : قطعة من الجيش تخرج منه تُغير وترجع إليه . قال ابراهيم الحربى : هى الخيل تبلغ أربعمائة . وسميت سرية لأنها تسرى فى الليل ويخفى ذهابها .

(٢) قال العلماء : الذمة هنا العهد ، وتُخفروا بضم التاء يقال : أخفرت الرجل إذا نقضت عهده ، وخفرته أمّنته وحميته . قالوا وهذا نهى تنزيه ، أى : لا تجعل لهم ذمة الله ، فإنه قد ينقضها من لا يعرف حقها وينتهك حرمتها بعض الأعراب وسواد الجيش .

* طرف من ذكر موسى وعيسى - عليهما السلام

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾

معانى المفردات

تؤذوننى : أى : تخالفون أمرى بترك القتال ، زاغوا : أى : أصرّوا على الزيغ والانحراف عن الحق الذى جاء به موسى - عليه السلام - ، أزاغ الله قلوبهم : أى : صرفها عن قبول الحق ، الفاسقين : أى : الخارجين عن الطاعة ، ومنهاج الصدق ، المصرّين على الغواية ، وأحمد : من أسماء نبينا محمد - ﷺ - قال حسان :

صلى الإله ومن يحف بعرشه ... والطيبون على المبارك أحمد

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أنّب التاركين للقتال الهاربين منه بقوله : « **لم تقولون مالا تفعلون** » ذكر هنا أن حالهم ، يشبه حال بنى إسرائيل مع موسى ، حين ندبهم إلى قتال الجبارين بقوله : « **يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين** »[٢] . فلم يمتثلوا أمره ، وعصوه أشد العصيان ، و « **قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون** » . وقالوا : « **فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون** »[٣] وأصروا على ذلك ،

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٣٥٧ . كتاب الجهاد والسير رقم ١٧٣١/٣ .
(٢) سورة المائدة الآيتان ٢١ ، ٢٢ .
(٣) سورة المائدة الآية ٢٤ .

وآذوه أشد الإيذاء ، فوبخهم على ذلك ، بما جاء فى الآية الكريمة ، وقد صرفهم الله عن قبول الحق ، وألحق بهم الضيم والذل فى الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأنكى .

ومثلهم أيضاً فى عصيانهم مثل بنى إسرائيل حين قال لهم عيسى : إنى رسول الله وجاءهم بالبينات والمعجزات الدالة على صدقه وقال : إنى مبشر برسول سيأتى من بعدى يسمى أحمد ، فعصوه وكذبوه ولم يمتثلوا أمره .

أضـواء كاشـفة

« وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذوننى ؟ » وهذا كلام مستأنف مكرر لما قبله من شفاعة ترك القتال ، ومخالفة أمر الرسول ، واذكر وقت قول موسى لقومه - والمراد ذكر ما حصل فى الوقت - يا قوم لأى شىء تؤذوننى بمخالفة أمرى ، وتخلفكم عن القتال حين ندبتم قتال الجبارين ، وقولكم : **« إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . . فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون »** . يا قوم لم تؤذوننى ؟ والحال أنكم تعلمون علماً أكيداً أنى رسول الله إليكم ، فلما أصروا على الزيغ والانحراف عن الجادة ، أزاغ الله قلوبهم وصرفها عن الخير لاختيارهم العمى وتركهم الهدى مطلقاً ، ولا عجب فهم مالوا عن الحق أولاً باختيارهم ، وهذا بلا شك يؤثر فيهم ، فإذا استمروا على ذلك طمس الله على قلوبهم ، فأمالها عن الحق دائماً ، وكيف يهديهم ربهم إلى الصواب ؟ والله لا يهدى القوم الفاسقين ، فاحذروا يا أمة محمد أن تكونوا كهؤلاء ، واذكر إذ قال عيسى بن مريم : يا بنى إسرائيل ، إنى رسول الله إليكم ، حالة كونى مصدقاً لما تقدمنى من الكتب ، وخاصة التوراة وصاحبها موسى ، وحالة كونى مبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ، فشريعتى تؤيد الرسل السابقين واللاحقين ، وهذا الإسم الجليل - أحمد - من أسماء النبى - ﷺ - ، يقول حسان بن ثابت :

صـلى الإله ومن يحف بعرشـه والطيبون على المبـارك أحمـد

وبشارته - عليه السلام - بالنبى محمد - ﷺ - مما نطق به القرآن . وهو الصادق فى خبره . الذى لا يقبل الشك ، فهو الكتاب الوحيد الذى نقل بالتواتر عن صاحبه ، وقيد كتابة وحفظاً قبل لحوق النبى بالرفيق الأعلى ، وأما إنكار النصارى لتلك البشارة فأمر لا يعبأ به ، كشأنهم فى بقية عقائدهم ، على أن الإنجيل الذى وصل إلينا فيه البشارة ، وشأنها أن تكون كناية لا صريحة ، ففى إنجيل يوحنا طبع (نيويورك بأمريكا) الإصحاح السادس عشر آية ٧ « لكنى أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق ، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المُعزِّى ، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم[٨] ، ومتى جاء ذلك يبكت العالم على خطيته ، وعلى بر ، وعلى دنيوية[٩] ، أما على الخطيئة فلأنهم لا يؤمنون بى[١٠] ، وأما على بر فلأنى ذاهب إلى أبى ولا تروننى أيضاً[١١] ، وأما على دنيوية فلأن رئيس هذا العالم قد دين[١٢] ، إن لى أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن[١٣] ، وأما متى جاء ذلك ذاك روح الحق ، فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمور آتية[١٤] ، ذاك يمجدنى لأنه يأخذ مما لى ويخبركم » . هذه بشارة بالنبى المرسل ، الذى لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، يجىء والعالم يكفر بعيسى ، إذ يعتقد فيه الألوهية ، أو أنه ابن الله ،

مع أنه ابن مريم ، يجىء ليرشد الخلق إلى جميع الحق ، فمن غير محمد - ﷺ - جاء بهذا ؟ على أننا لا ننسى أن هذا ما سلم من التحريف والتغيير والتبديل والنصارى يؤولون فى هذا تأويلاً غير مستساغ ، ولفظ (البارا قليط) ورد كثيراً فى كتبهم قال يسوع المسيح : « إن البار قليط روح الحق الذى يرسله أبى - إلهى - يعلمكم كل شىء »(والبار قليط)لفظ يفيد معناه الحمد ، ولفظ المعزى السابق كناية عن خاتم الأنبياء ، ولذا جاءت البشارة فى إنجيل برنابا صريحة بلفظ محمد ، والظاهر أنها مترجمة عن البار قليط والمعزى . فلما جاء عيسى - عليه السلام - بالمعجزات الظاهرة قالوا هذا سحر مبين ، فانظر إلى الناس جميعاً وقد كذبوا برسلهم مع ظهور الآيات والمعجزات الدالة على صدق الرسل ، وتلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، وكانت عاقبة أمرهم خسراً ، فاحذروا يا أمة محمد مثل هذه العاقبة .

التفسير

هذا طرف من قصة الكليم موسى - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - يبين الله - تعالى - فيه مدى ما تحمله هذا النبى الكريم من قومه حتى كان نبينا محمد - ﷺ - يقول : « يرحم الله أخى موسى لقد أوذى أكثر من هذا فصبر »[(١)] وفى هذه الآية الكريمة يخبر تعالى قائلاً :

﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ .

يقول الله تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران - عليه السلام - أنه قال لقومه (**لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم**) ، أى لم توصلون الأذى إلى وأنتم تعلمون صدقى فيما جئتكم به من الرسالة ؟ وفى هذا تسلية لرسول الله - ﷺ - فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم ، وأمر له بالصبر ، ولهذا قال « رحمة الله على موسى : لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر » وفيه نهى للمؤمنين أن ينالوا من النبى - ﷺ - أو يوصلوا إليه أذى ، كما قال - تعالى - : **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً »**[(٢)] .

وقوله تعالى : **﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾** أى : فلما عدلوا عن أتباع الحق مع علمهم به أزاغ الله قلوبهم عن الهدى ، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان . كما قال - تعالى - : **﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون »**[(٣)] ، وقال - تعالى - : **﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً ﴾**[(٤)] ، ولهذا قال تعالى فى هذه الآية **﴿ والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾** .

(١) انظر مسند الامام أحمد جـ١ ص ٤٤ ، ٤١١ .
(٢) سورة الاحزاب آية ٦٩ .
(٣) سورة الانعام آية ١١٠ .
(٤) سورة النساء آية ١١٥ .

وقوله تعالى : ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾ ، يعنى التوراة قد بشرت بى ، وأنا مصدق ما أخبرت عنه ، وأنا مبشر بمن بعدى ، وهو الرسول النبى الأمى العربى المكى أحمد . فعيسى - عليه السلام - هو خاتم أنبياء بنى إسرائيل ، وقد أقام فى ملأ بنى إسرائيل مبشراً بمحمد ، وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، الذى لا رسالة بعده ، ولا نبوة ، وما أحسن ما أورد البخارى ، الحديث الذى قال فيه حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيباً عن الزهرى قال أخبرنى محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « إن لى أسماء أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو الله به الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب »(١) . ورواه مسلم من حديث الزهرى به نحوه .

وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا المسعودى عم عمرو بن مروة عن أبى عبيدة عن أبى موسى قال سمى لنا رسول الله - ﷺ - نفسه أسماء منها ما حفظنا فقال : « أنا محمد وأنا أحمد والحاشر والمقفى ونبى الرحمة والتوبة والملحمة »(٢) ورواه مسلم من حديث الأعمش عن عمرو بن مرة به ، وقد قال الله - تعالى - : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾(٣) ، قال ابن عباس : ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه العهد لئن بعث محمد وهو حى لتتبعنه ، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته ، لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه ، وقال محمد ابن اسحاق حدثنى ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله - ﷺ - أنهم قالوا : يا رسول أخبرنا عن نفسك قال « دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمى حين حملت بى كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام »(٤) وهذا إسناد جيد وروى له شواهد من وجوه أخر فقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد الكلبى عن عبد الأعلى بن هلال السلمى عن العرباض بن سارية قال : قال رسول الله - ﷺ - :

« إنى عند الله لخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل فى طينته وسأنبئكم بأول ذلك دعوة أبى ابراهيم ، وبشارة عيسى بى ، ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات النبيين يرين »(٥) وقال أحمد أيضاً حدثنا أبو النضر حدثنا الفرج بن فضالة حدثنا لقمان ابن عامر قال سمعت أبا أمامة قال : قلت يا رسول الله

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ١٨٢٨ كتاب الفضائل . باب فى أسمائه صل الله عليه وسلم رقم ١٢٥/٢٣٥٤ .
انظر صحيح البخارى . كتاب الفضائل . باب فى أسماء ورسول الله جـ ٢ ص ٢٧٠ ط/الحلبى .

(٢) انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ١٨٢٨ ، ١٨٢٩ . كتاب الفضل . باقى أسمائه صل الله عليه وسلم رقم ١٢٦/٢٣٥٥ .

(٣) سورة آل عمران آية ٨١

(٤) انظر تفسير البغوى جـ ١ ص ١١١ .
انظر كنز العمال حديث رقم ٣١٨٣٤ .

(٥) انظر تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٦٨ ، جـ ٦ ص ٤٢٥ ط/الشعب .
انظر مجمع الزوائد جـ ٨ ص ٢٢٣

ما كان بدء أمرك ، قال : « دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمى أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام » ، وقال أحمد أيضاً حدثنا حسن بن موسى سمعت خديجاً خدىً أخا زهير بن معاوية عن أبى إسحاق عن عبد الله بن عتبة عن عبد الله بن مسعود قال بعثنا رسول الله ـ ﷺ ـ إلى النجاشى ونحن نحو من ثمانين رجلاً منهم عبد الله بن مسعود وجعفر وعبد الله بن رواحة وعثمان بن العاص وعمارة ابن الوليد بهديه ، فلما دخلا على النجاشى سجدا له ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله ، ثم قالا له إن نفراً من بنى عمنا نزلوا أرضك ورغبوا عنا وعن ملتنا قال فأين هم قالا : هم فى أرضك فابعث إليهم ، فبعث إليهم فقال جعفر أنا خطيبكم اليوم ، فاتبعوه ، فسلم ولم يسجد . فقالوا له مالك لا تسجد للملك . قال إنا لا نسجد إلا لله ـ عز وجل ـ قال وما ذاك . قال إن الله بعث إلينا رسوله فأمرنا أن لا نسجد لأحد إلا الله ـ عز وجل ـ وأمرنا بالصلاة والزكاة قال عمرو بن العاص : فإنهم يخالفونك فى عيسى بن مريم ، قال ما تقولون فى عيسى بن مريم وأمه . قال نقول كما قال الله عز وجل هو كلمة الله وروحه ألقاها إلى العذراء البتول التى لم يمسها بشر ، ولم يعترضها ولد ، قال فرفع عوداً من الأرض ، ثم قال يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان : والله ما يزيدون على الذى نقول فيه ما يساوى هذا ، مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده ، أشهد أنه رسول الله ، وأنه الذى نجد فى الإنجيل ، وأنه الذى بشر به عيسى بن مريم ، انزلوا حيث شئتم ، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه ، وأوضئه وأمر بهدية الآخرين فردت إليهما ، ثم تعجل عبد الله بن مسعود حتى أدرك بدراً وزعم أن النبى ـ ﷺ ـ استغفر له حين بلغه موته . وقد رويت هذه القصة عن جعفر ، وأم سلمة ـ رضى الله عنهما ـ وموضع ذلك كتاب السيرة . والمقصد أن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لم تزل تنعته وتحكيه فى كتبها على أممها ، وتأمرهم باتباعه ، ونصره ، ومؤازرته إذا بعث ، وكان ما اشتهر الأمر فى أهل الأرض على لسان إبراهيم الخليل ، والد الأنبياء ، بعده حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولا منهم ، وكذا على لسان عيسى بن مريم ، ولهذا قالوا أخبرنا عن بدء أمرك يعنى فى الأرض قال « دعوة أبى إبراهيم وبشارة عيسى بن مريم ورؤ يا أمى التى رأت » أى أظهرت فى أهل مكة أثر ذلك ، والإرهاص فذكره ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ . وقوله تعالى : ﴿ فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾ قال ابن جريج وابن جرير (فلما جاءهم) أحمد أى : المبشر به فى الأعصار المتقادمة ، المنوه بذكره فى القرون السالفة . لما ظهر أمره وجاء بالبينات قال الكفرة والمخالفون (هذا سحر مبين) .

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيلاً
لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فاطفئوا القنديلاً

يقول الشيخ المراغى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعد اسمه أحمد ﴾

يقول رحمه الله تعالى :

أى : واذكر لقومك ما قال عيسى ابن مريم لقومه : ياقوم إنى مرسل إليكم من الله وإنى مصدق بالتوراة وبكتب الله وأنبيائه جميعاً من تقدم منهم ومن تأخر .

﴿ ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾ أى : وداعياً إلى التصديق بهذا الرسول الكريم الذى جاءت البشارة به فى التوراة . فقد جاء فى الفصل العشرين من السفر الخامس منها : أقبل الله من سينا وتجلَّى من ساعير وظهر من جبال فاران معه الربوات الأطهار عن يمينه ، « سينا مهبط الوحى على موسى ، وساعير مهبط الوحى على عيسى ، وفاران جبال مكة مهبط الوحى على محمد - ﷺ -.

وفيها فى الفصل الحادى عشر من هذا السفر : ياموسى : إنى سأقيم لبنى إسرائيل نبياً من إخوتهم مثلك ، أجعل كلامى فى فيه ويقول لهم ما آمره به والذى لا يقبل قول ذلك النبى يتكلم بأسمى أنا أنتقم منه ومن سبطه .

وكذلك جاء فى الانجيل ما هو بشارة به - ففى انجيل يوحنا فى الفصل الخامس عشر . قال يسوع المسيح : إن الفارقليط روح الحق الذى يرسله أبى يعلمكم كل شىء .

وفيه أيضاً : قال المسيح من يحفظ كلمتى يحبنى وأبى يحبه ، وعنده تتميز المنزلة ، كلمتكم بهذا لأنى لست عندكم بمقيم ، والفار قليط روح القدس الذى يرسله أبى ، هو يعلمكم كل شىء ، و يذكركم كل ما قلت لكم ، أستودعكم سلامى ، لا تقلق قلوبكم ولا تجزع ، فإنى منطلق وعائد إليكم ، لوكنتم تحبونى تفرحون بمضيى إلى الأب .

وفيه أيضاً : إن خيراً لكم أن انطلق لأبى ، لأنى إن لم أذهب لم يأتكم الفارقليط ، فإذا انطلقت أرسلته إليكم ، فإذا جاء فهو يوبخ العالم على خطيئة ، وإن لى كلاماً كثيراً أريد قوله ولكنكم لا تستطيعون حمله ، ولكن إذا جاء روح الحق ذاك الذى يرشدكم إلى جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بما يسمع ، ويخبركم بكل ما يأتى ويعرفكم جميع ما للأب .

(والفارقليط لفظ يؤذن بالحمد فسره بعضهم بالحماد وبعضهم بالحامد ، ففى مدلوله إشارة إلى اسمه - عليه السلام أحمد)

كما لا يخفى على من كشف الله - تعالى - غشاوة التعصب عن عينيه ﴿ فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾ أى : فحين جاءهم أحمد المبشر به بالأدلة الواضحة والمعجزات الباهرة فاجئوه بالتكذيب والإعراض عنه استكباراً وعناداً وقالوا : إن ما جئت به ما هو إلا ترّهات ، وأباطيل ، وسحر واضح لاشك فيه . ونحو الآية قوله تعالى﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والانجيل ﴾[1] وقوله جل شأنه : : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيماً ﴾[2]

(١) سورة الأعراف آية ١٥٧ .

(٢) سورة الفتح آية ٢٩ .

أشرق النور فى العوالم لما ... بشرتها بأحمد الأمناء
جاء للناس والسرائر فوضى ... لم يؤلف شتاتهم لواء
وحمى الله مستباح وشرعه ... والحق والصواب وراء
تلك آى الفرقان أيها الله ... ضياء يهدى به من يشاء
ولجبريل جيئة وذهاب ... وهبوط إلى الثرى وارتقاء
نسخت لسنة النبيين والرسل ... كما ينسخ الضياءُ الضياءَ

الله متم نوره

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَـٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾
يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ
رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾

معانى المفردات

الإسلام : الاستسلام والانقياد والخضوع لله ـ عز وجل ـ والمراد من إبطال نور الله بأفواههم إرادتهم إبطال الإسلام ، بنحو قولهم هذا سحر مفترى ، والله متم نوره : أى : : والله متم الحق ومبلغه غايته بالهدى أى بالقرآن ، ودين الحق : أى بالملة السمحة ، ليظهره : أىَ : ليعليه على الدين كله : على سائر الأديان .

المناسبه وإجمال المعنى

بعد أن ذكر فيما سلف أن الجاحدين لنبوته ـ ﷺ ـ من المشركين وأهل الكتاب لما جاءهم بالبينات ، قالوا هذا سحر مفترى ، أردف ذلك ببيان أنهم دعوا إلى الإسلام والخضوع لخالق الخلق ، ومبدع العالم ، وأقيمت لهم على ذلك الأدلة ، ونصب لهم المنار ، لكنهم ظلموا أنفسهم ، وجحدوا النور الواضح ، والبرهان الساطع .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

ثم بين أن السبب فى ذلك هو سوء استعدادهم وقدسيتهم لأنفسهم ، وأن مثلهم فى صد الدعوة عن الدين مثل من يريد إطفاء نور الشمس بالنفخ بفيه ، وأنى له بذلك ؟

فالله متم نوره ومكمل دينه مهما جد المشركون فى إطفائه ؛ فالرسول - ﷺ - ما جاء إلا بما فيه هداية البشر وسعادتهم فى معاشهم ومعادهم وبالدين الحق الذى لا تجد العقول مطعنا فيه ولا طريقاً إلا الاعتراف بما جاء به من حكم وأحكام .

أضواء كاشفة

هنا تطرق الكلام إلى المكذبين بمحمد - عليه الصلاة والسلام - فقال الله معناه : أى الناس أشد ظلما ممن يدعى إلى الإسلام ، الذى هو دين الحق والعدل والكرامة ، الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة ، فتكون إجابته على تلك الدعوة الافتراء على الله كذباً وزوراً بتكذيب رسوله وتسمية آياته سحراً نعم لا أحد أظلم من هذا ، والله لا يهدى القوم الظالمين يريدون بهذا التكذيب أن يطفئوا نور الله بأفواههم وأنى لهم ذلك ، والله متم نوره ولو كره الكافرون .

هو الله الذى أرسل رسوله محمداً - صلى الله عليه وسلم - بمصدر الهداية والنور ، بالقرآن الذى يدعو إلى الهدى والفلاح ، أرسله بدين الحق والعزة والكرامة ، والشريعة السهلة الصالحة لكل زمان ومكان ، ليظهره على الدين كله ، وليعليه على جميع الأديان ، ولو كره المشركون ذلك ، لأنه هو الدين الوحيد الذى يدعو إلى التوحيد الخالص البرىء من شوائب الشرك ، وقد أنجز الله وعده وأظهر دينه بالحجة والبرهان على جميع الأديان . . الخ .

التفسير

قوله - تعالى - ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الاسلام** ﴾ أى لا أحد أظلم ممن يفترى الكذب على الله ، ويجعل له أنداداً وشركاء وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص ولهذا قال تعالى ﴿ **والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ .

ثم قال - تعالى ﴿ **يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم** ﴾ أى : يحاولون أن يردوا الحق بالباطل ، ومثلهم فى ذلك كمثل من يريد أن يطفىء شعاع الشمس بفيه ، وكما أن هذا مستحيل ! كذاك ذلك مستحيل ، ولهذا قال - تعالى - ﴿ **والله متم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾ وقد تقدم الكلام على هاتين الآيتين فى سورة براءة بما فيه كفاية .

التجارة المنجية

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ
بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ
وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ
قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ
لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ
بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

معانى المفردات

التجارة هنا : ما يقدمه المرء من عمل صالح لينال به الثواب كما قال ـ سبحانه ـ : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** ﴾[1] .

طيبة : أى طاهرة مستلذه ، جنات عدن : أى : بساتين إقامة وخلود ، قريب : أى : عاجل وهو فتح مكة ، وحوارىّ الرجل : صفيه وخليله ، وأنصار الله : أى : الناصرون لدينه ، فأيدنا : أى قوينا وساعدنا ، على عدوهم : أى : الكفار ، ظاهرين : أى : غالبين .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن حث فى الآيات السابقة على الجهاد فى سبيله ، ونهاهم أن يكونوا مثل قوم موسى ، فى التواكل والتخاذل إذ قالوا له : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ، ونهاهم أيضاً عن أن يكونوا مثل قوم عيسى فى العصيان ، بعد أن أتى لهم بالأدلة الباهرة على صدق نبوته ـ ذكر هنا أن الإيمان بالله ، والجهاد بالمال والنفس ، فى سبيله تجارة رابحة ، فإن المجاهد ينال الفوز العاجل والثواب

(١) سورة التوبة آية ١١١ .

الآجل ، فيظفر بالنصرة فى الدنيا والغلبة على العدو ، وأخذ الغنائم وكرائم الأموال ، ويحظى فى الآخرة بغفران الذنب ورضوان الرب ، والكرامة فى جنات الخلود ، والإقامة ولا فوز أعظم من هذا .

ثم ضرب لهم مثلاً بقوم عيسى فقد انقسموا فرقتين : فرقة آمنت به ، وهم حواريه ، وفرقة كفرت به ، وهم البقية الباقية منهم ، فأمد الله المؤمنين بروح من عنده فتم لهم الفوز والنصر على الكافرين ، وغلبوهم بإذن الله ، كما هى سنة الله فى البشر كما قال :

﴿ **كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز** ﴾[١] وقال : ﴿ **إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** ﴾[٢] .

أضـواء كاشـفة

يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة عظيمة الشأن كثيرة الربح ؟ ربحها عشرة أمثال وقد تزيد إلى سبعمائة مثل والله يضاعف بعد ذلك لمن يشاء ، وتلك تجارة رابحة وأى ربح أكثر من هذا ؟

﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** ﴾[٣] ، الآية من سورة التوبة .

وكأنه قيل : ما هذه التجارة ؟ دلنا عليها فقيل : تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله ، وابتغاء مرضاته ، بأموالكم وأنفسكم . والمعنى على أن المؤمنين يداومون على ذلك من باب قوله تعالى : ﴿ **فاستقم كما أمرت** ﴾[٤] .

ذلكم الإيمان والجهاد خير لكم من كل شىء إن كنتم تعلمون . أنه خير فهو خير إن تؤمنوا وتجاهدوا يغفر لكم ذنوبكم ويسترها ، أو يباعد بينكم وبينها ، ويدخلكم جنات عالية تجرى من تحتها الأنهار ، ويدخلكم مساكن طيبة جيدة حسنة لا عيب فيها ولا خوف عليكم فيها ، ولا أنتم تحزنون ، وهى فى جنات عدن لا زوال فيها ذلك هو الفوز العظيم . نعم هو الفوز العظيم والربح الكثير والفضل العميم .

ولكم إلى جانب ما ذكر نعمة أخرى جليلة أنتم تحبونها ، هى : نصر من الله على الأعداء ، وفتح قريب للأقطار والأمصار ، وانظر ـ وفقك الله ـ إلى عاقبة الإيمان الصحيح والجهاد فى سبيل الله .

يا أيها الذين آمنوا ـ والخطاب للنبى ـ ﷺ ـ ولأمته ـ آمنوا وجاهدوا يكن لكم الثواب الجزيل . وبشرهم يا محمد بذلك فأنت الصادق المصدق .

يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله وأعوانا لرسول الله ، كما كان الحواريون أنصاراً لعيسى حين طلب منهم ذلك وقال لهم : من أنصارى متوجهاً إلى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار نبى الله .

---

(١) سورة المجادلة آية ٢١ .
(٢) سورة محمد آية ٧ .
(٣) سورة التوبة آية ١١١ .
(٤) سورة هود اية ١١٢

ولما لحق عيسى بالرفيق الأعلى ، آمنت طائفة من بنى إسرائيل ، آمنت بالله الواحد الأحد ، وبعيسى بن مريم رسوله إليهم ، وكفرت طائفة أخرى ، حيث ادعت أنه الإله ، أو ابنه ، أو هو ثالث ثلاثة ، وغلب أهل الباطل على أهل الحق فلما جاء محمد - ﷺ - أيدنا به الذين آمنوا على عدوهم - الكافرين - فأصبحوا ظاهرين عليهم بالحجة والبرهان .

التفسير

قوله - تعالى - ﴿ **يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم** ﴾ .

سبب النزول

ورد فى حديث عبد الله بن سلام أن الصحابة - رضى الله عنهم - أرادوا أن يسألوا رسول الله - ﷺ - عن أحب الأعمال إلى الله - عز وجل - ليفعلوه . فأنزل الله - تعالى - هذه السورة ومن جملتها هذه الآية .

ثم فسر هذه التجارة العظيمة التى لا تبور ، التى هى محصلة للمقصود ، ومزيلة للمحذور ، فقال - تعالى - : ﴿ **تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ أى : من تجارة الدنيا والكد لها ، والتصدى لها وحدها . ثم قال - تعالى : ﴿ **يغفر لكم ذنوبكم** ﴾ أى : إن فعلتم ما أمرتكم به ودللتكم عليه غفرت لكم الزلات ، وأدخلتكم الجنات ، والمساكن الطيبات ، والدرجات العاليات ، ولهذا قال - تعالى : ﴿ **ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم** ﴾ .

ومثل هذه الآية قوله جل شأنه : « **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا فى التورٰة والإنجيل والقرءان ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذالك هو الفوز العظيم * التائبون العٰبدون الحٰمدون السٰيحون الراكعون السٰجدون الأٰمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحٰفظون لحدود الله وبشر المؤمنين** »(١)

ومن الجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال ، الدفاع عن أرض المسلمين ، بل إن هذا الدفاع من أهم فروض الأعيان .

كتب الدكتور عبد الله عزام تحت هذا العنوان :

(الدفاع عن أراضى المسلمين أهم فروض الأعيان)

فقال :

لقد اختار الله برحمته هذا الدين ليكون رحمة للعالمين ، وأرسل سيد المرسلين - ﷺ - ليكون خاتماً للنبيين بهذا الدين ونصر هذا الدين بالسيف ، والسنان بعد أن وضحه رسول الله - ﷺ - بالحجة

(١) سورة التوبة اية ١١١ ، ١١٢ .

والبيان . فقد قال - ﷺ - فى الحديث الصحيح الذى رواه أحمد والطبرانى : « بعثت بين يدى الساعة بالسيف ، حتى يعبد الله - تعالى - وحده لا شريك له . وجعل رزقى تحت ظل رمحى ، وجعل الذل والصغار على من خالف أمرى ، ومن تشبه بقوم فهو منهم »[١] .

وقد اقتضت حكمة الله أن يقيم صلاح الأرض على قانون الدفع فقال - سبحانه وتعالى - : ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين** ﴾[٢] .

أى : أن الله - عز وجل - تفضل على البشرية بأن سن لهم هذا الناموس ، وبين لهم هذا القانون ، (قانون الدفع) أو بعبارة أخرى ، الصراع بين الحق والباطل ، وذلك من أجل صلاح البشرية ، وسيادة الحق وانتشار الخير ، بل إن الشعائر التعبدية ودور العبادة محمية بهذا القانون . لقوله - تعالى - : ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز** ﴾[٣] .

وهذا القانون « قانون الدفع » أو الجهاد قد احتل صفحات كثيرة من كتاب الله - عز وجل - لأن الحق لابد له من قوة تحميه . فكم من حق وضع بسبب خذلان أهله له ؟ وكم من باطل رفع لأن له أنصاراً ورجالاً يضحون من أجله ؟ .

والجهاد يقوم على ركنين أساسيين هما : الصبر الذى يظهر شجاعة القلب والجنان ، والكرم الذى هو بذل المال والروح - والجود بالنفس أقصى غاية الجود . ففى الحديث الصحيح الذى أخرجه أحمد « الإيمان الصبر والسماحة »[٤] .

يقول ابن تيمية (ولما كان صلاح بنى آدم لا يتم فى دينهم ودنياهم إلا بالشجاعة والكرم ، بين سبحانه أن من تولى عن الجهاد بنفسه أبدل الله به من يقوم بذلك ﴿ **إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شىء قدير** ﴾[٥]

ولذا فقد أشار - ﷺ - إلى شر الصفات وهى البخل والجبن التى تؤدى إلى فساد النفوس وتدمير المجتمعات . ففى الحديث الصحيح « شر ما فى رجل شح هالع وجبن خالع »[٦] . رواه أبو داود وهو صحيح .

---

(١) انظر مسند الامام أحمد جـ٢ ص ٥٠ ، ٩٢ .
(٢) سورة البقرة آية ٢٥١ .
(٣) سورة الحج آية ٤٠ .
(٤) انظر مسند الامام أحمد جـ٤ ص ٣٨٥ مسند عمرو بن عبسة .
(٥) التوبة اية : ٣٩
(٦) انظر سنن أبى داود جـ٣ ص ٢٦ . كتاب الزهد . باب ما جاء فى الزهد فى الدنيا رقم ٢٥١١ .

ولقد مرت أزمان على سلفنا الصالح أخذوا بهذا القانون فسادوا الدنيا وأصبحوا أساتذة الأنام . كما قال الله ـ تعالى : ﴿ **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون** ﴾(١) .

وكما قال ـ ﷺ ـ فى الحديث الصحيح : « صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين ويهلك آخرها بالبخل والأمل »(٢) . رواه أحمد والطبرانى فى الأوسط والبيهقى .

ثم جاءت ذرارى المسلمين ، وأهملت قوانين الله ونسيت ربها فنسيها ، وضيعوا أحكامه فضاعوا ، ﴿ **فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً** ﴾(٣) .

زين لهم سوء أعمالهم واتبعوا أهواءهم ، جاء فى الحديث الصحيح « أن الله يبغض كل جعظرى جواظ فى الأسواق جيفة بالليل حمار بالنهار عالم الدنيا جاهل بالآخرة »(٤) .

ومن أهم الفرائض الغائبة ، والواجبة المنسية ، فريضة الجهاد . التى غابت عن واقع المسلمين ، فأصبحوا كغثاء السيل . كما قال ـ ﷺ ـ : « يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة إلى قصعتها قيل : يا رسول الله أمن قلة نحن يومئذ ؟ قال : لا ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، يجعل الوهن فى قلوبكم وينزع الرعب من قلوب أعدائكم لحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت » وفى رواية ، قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : « حبكم للدنيا وكراهيتكم للقتال »(٥) . رواه أحمد بإسناد جيد وأبو داود فى رواية وكراهية الموت وهو حديث صحيح .

وجهاد الكفر نوعان

١ ـ جهاد الطلب (طلب الكفار فى بلادهم) بحيث يكون الكفار فى حالة لا يحشدون لقتال المسلمين ، فالقتال فرض كفاية ، فأقل فرض الكفاية سد الثغور بالمؤمنين لإرهاب أعداء الله ، وإرسال جيش فى السنة على الأقل ، وعلى الإمام أن يبعث سرية إلى دار الحرب كل سنة مرة ، أو مرتين . وعلى الرعية إعانته ، فإن لم يبعث كان الإثم عليه ، وقد ساقها الفقهاء على الجزيت . قال الأصوليون : « الجهاد دعوة قهرية فتجب إقامته بقدر الإمكان حتى لا يبقى مسلم أو مسالم » .

٢ ـ جهاد الدفع . (دفع الكفار من بلادنا) وهذا يكون فرض عين ، بل أهم فروض الأعيان ويتعين فى حالات :

---

(١) سورة السجدة آية ٢٤ .
(٢) انظر كنز العمال جـ ٣ ص ٤٤٨ رقم ٧٣٨٣ . وعزاه إلى أحمد فى الزهد والطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى شعب الايمان عن ابن عمرو .
(٣) سورة مريم آية ٥٩ .
(٤) انظر كنز العمال جـ ١٦ ص ٤ رقم ٤٣٦٧٩ .
انظر السنن الكبرى للبيهقى جـ ١٠ ص ١٩٤ .
(٥) انظر مسند الامام أحمد جـ ٥ ص ٢٧٨ .
انظر سنن أبى داود جـ ٤ ص ٤٨٣ رقم ٣٢٩٧

(أ) إذا دخل الكفار بلدة من بلاد المسلمين .
(ب) إذا التقى الصفان وتقابل الزحفان .
(جـ) إذا استنفر الإمام أفراداً أو قوماً وجب عليهم النفير .
(د) إذا أسر الكفار مجموعة من المسلمين .

الحالة الأولى - دخول الكفار بلدة من بلاد المسلمين :

ففي هذه الحالة اتفق السلف والخلف وفقهاء المذاهب الأربعة والمحدثون والمفسرون فى جميع العصور الإسلامية إطلاقاً ، أن الجهاد فى هذه الحالة يصبح فرض عين على أهل هذه البلدة التى هاجمها الكفار ، وعلى من قرب منهم ، بحيث يخرج الولد دون إذن والده ، والزوجة دون إذن زوجها ، والمدين دون إذن دائنه ، فإن لم يكف أهل تلك البلدة أو قصروا أو تكاسلوا أو قعدوا يتوسع فرض العين على شكل دوائر الأقرب فالأقرب ، فإن لم يكفوا أو قصروا فعلى من يليهم ، ثم على من يليهم ، حتى يعم فرض العين الأرض كلها » .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « **وأما قال الدفع فهو أشد أنواع دفع الصائل عن الحرمة والدين واجب إجماعا ، فالعدو الصائل الذى يفسد الدين والدنيا لا شيء أوجب بعد الإيمان من دحضه فلايشترط له شرط (كالزاد والراحلة) بل يدفع بحسب الإمكان وقد نص على ذلك العلماء أصحابنا وغيرهم** » . .
ويعلل ابن تيمية رأيه بعدم اشتراط الراحلة فى رده على القاضى الذى قال : إذا تعين فرض الجهاد على أهل بلد فمن شرط وجوبه الزاد والراحلة إذا كانوا على مسافة القصر قياسا على الحج ، قال ابن تيمية : « **وماقاله القاضى من القياس على الحج لم ينقل عن أحد وهو ضعيف ، فإن وجوب الجهاد يكون لدفع العدو فيكون أوجب من الهجرة . ثم الهجرة لاتعتبر فيها الراحلة فبعض الجهاد أولى وثبت فى الصحيح عن حديث عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ أنه قال : (على المرء المسلم السمع والطاعة فى عسره ويسره ومنشطه ومكرهه وأثره عليه)**[1] .

فأوجب الطاعة عمادها الاستنفار فى العسر واليسر وخصائص فى وجوبه مع الإعسار بخلاف الحج هذا فى قتال الطلب . وأما قتال الدفع . فهو أشد أنواع دفع الصائل عن الحرمة والدين واجب إجماعاً ، فالعدو الصائل الذى يفسد الدين والدنيا لا شيء أوجب بعد الإيمان من دفعه وإليك نصوص مذاهب الفقهاء الأربعة التى تجمع على هذه القضية .

أولا : فقهاء الحنفية

قال ابن عابدين : « وفرض عين إن هجم العدو على ثغر من ثغور الإسلام فيصير فرض عين على من قرب منه ، فأما من وراءهم ببعد من العدو فهو فرض كفاية إذا لم يحتج إليهم ، فإن احتيج إليهم بأن

(١) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٤٦٩ . كتاب الامارة باب وجوب طاعة الامراء فى غير معصية ١٨٣٩/٣٨

عجز من كان يقرب العدو عن المقاومة مع العدو أو لم يعجزوا عنها ولكنهم تكاسلوا ولم يجاهدوا ، فإنه يشترط على من يليهم ، فرض عين كالصلاة والصوم لا يسعهم تركه وثم وثم إلى أن يفترض على جميع أهل الإسلام شرقاً وغرباً على هذا التدريج » .

وبمثل هذا أفتى الكسائى وابن نجيم وابن الهمام .

ثانياً ـ عند المالكية

جاء فى حاشية الدسوقى : ويتعين الجهاد بفجىء العدو . قال الدسوقى : « أى توجه الدفع بفجىء (مفاجئة) على كل أحد وإن امرأة أو عبداً أو صبياً ويخرجون ولو منعهم الولى والزوج ورب الدين » .

ثالثاً : عند الشافعية

جاء فى نهاية المحتاج للرملى : « فإن دخلوا بلدة لنا وصار بيننا وبينهم دون مسافة القصر فيلزم أهلها الدفع حتى من لا جهاد عليهم من فقير وولد وعبد ومدين وامرأة » .

رابعاً : عند الحنابلة

جاء فى المغنى لابن قدامة : ويتعين الجهاد فى ثلاثة مواضع :

١ ـ إذا التقى الزحفان وتقابل الصفان .

٢ ـ إذا نزل الكافر ببلد تعين على أهله قتالهم ودفعهم .

٣ ـ إذا استنفر الإمام قوماً لزمهم النفير .

ويقول ابن تيمية : « إذا دخل العدو بلاد المسلمين فلا ريب أنه يجب دفعه على الأقرب فالأقرب ، إذ بلاد الإسلام كلها بمنزلة البلدة الواحدة ، وأنه يجب النفير إليه بلا إذن والد ولا غريم ، ونصوص أحمد صريحة بهذا » وهذه الحالة تعرف بالنفير العام .

أدلة النفير العام ومبرراته

١ ـ قال الله عز وجل : ﴿ **انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ . التوبة ٤١ ، وقد جاءت الآية قبلها ترتب العذاب والاستبدال جزاء لترك النفير ، ولا عذاب إلا على ترك واجب أو فعل حرام ، ﴿ **إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شىء قدير** ﴾ . التوبة ٣٩

قال ابن كثير : أمر الله تعالى بالنفير العام مع رسول الله ـ ﷺ ـ عام غزوة تبوك لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب ، وقد بوب البخارى (باب وجوب النفير وما يجب من الجهاد والسنية) وأورد هذه الآية وكان النفير العام بسبب أنه ترامى إلى أسماع المسلمين أن الروم يعدون على تخوم الجزيرة لغزو المدينة ، فكيف إذا دخل الكفار بلد المسلمين أفلا يكون النفير أولى ؟ قال أبو طلحة ـ

رضى الله عنه - فى معنى قوله تعالى ﴿ **خفافاً وثقالاً** ﴾ : كهولاً وشباباً ، ماسمع الله عذر أحد . وقال الحسن البصرى : فى العسر واليسر .

يقول ابن تيمية فى مجموع الفتاوى : « فأما إذا أراد العدو الهجوم على المسلمين فإنه يصير دفعه واجباً على المقصودين كلهم وعلى غير المقصودين ، كما قال - تعالى - : ﴿ **وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر** ﴾(١) ، كما أمر النبى - ﷺ - بنصر المسلم . وسواء كان الرجل من المرتزقة للقتال أو لم يكن وهذا يجب بحسب الإمكان على كل أحد بنفسه ، وماله ، مع القلة والكثرة ، والمشى والركوب ، كما كان المسلمون ، لما قصدهم العدو عام الخندق لم يأذن الله فى تركه لأحد » .

وقال الزهرى : خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه فقيل له : إنك عليل فقال « استنفر الله الخفيف والثقيل فإن لم يمكنى الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع » .

٢ - ويقول الله - عز وجل - : ﴿ **وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين** ﴾ . التوبة ٣٦ . قال ابن العربى : كافة يعنى محيطين بهم من كل جانب وحالة .

٣ - ويقول الله - عز وجل - ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾ . الأنفال ٤٠ . والفتنة هى الشرك كما قال ابن عباس والسدى وعند هجوم الكفار واستيلائهم على الديار فالأمة مهددة فى دينها ، ومعرضة للشك فى عقيدتها ، فيجب القتال لحماية الدين والنفس والعرض والمال .

٤ - قال - ﷺ - : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية فإذا استنفرتم فانفروا »(٢) . رواه البخارى .

فيجب النفير إذا استنفرت الأمة ، وفى حالة هجوم الكفار فالأمة مستنفرة لحماية دينها . ومدار الواجب على حاجة المسلمين أو استنفار الإمام كما قاله ابن حجر فى شرح هذا الحديث .

قال القرطبى : « كل من علم بضعف المسلمين عن عدوهم وعلم أنه يدركهم ويمكنه غياثهم لزمه أيضاً الخروج إليهم » .

٥ - إن كل دين نزل من عند الله جاء للحفاظ على الضرورات الخمس : الدين ، والنفس ، والعرض ، والعقل ، والمال .

ولذا فيجب المحافظة على هذه الضرورات بأى وسيلة ومن هنا شرع الإسلام دفع الصائل ، والصائل : هو الذى يسطو على غيره قهراً يريد نفسه ، أو ماله ، أو عرضه .

(أ) الصائل على العرض : ولو كان مسلماً إذا صال على العرض وجب دفعه باتفاق الفقهاء ولو أدى إلى قتله ، ولذا فقد نص الفقهاء على أنه لا يجوز للمرأة أن تستسلم للأسر ولو قتلت إذا خافت على عرضها .

---

(١) سورة الأنفال آية ٧٢ .

(٢) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى جـ٢ ص ١٣٥ كتاب الجهاد والسير باب ١ ط/الحلبى .
انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٤٨٨ . كتاب الامارة باب المبايعة بعد فتح مكة رقم ١٣٥٣/٨٥ .

(ب) أما الصائل على المال أو النفس فيجب دفعه عند جمهور العلماء ، ويتفق مع الرأى الراجح فى مذهب مالك والشافعى ولو أدى إلى قتل الصائل المسلم ، ففى الحديث الصحيح : « من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد »[1] . حديث صحيح رواه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى .

قال الجصاص بعد هذا الحديث : « لا نعلم خلافاً أن رجلاً لو شهر سيفاً على رجل ليقتله بغير حق أن على المسلمين قتله » .

وفى هذه الحالة (الصيال) إذا قتل الصائل فهو فى النار ولو كان مسلماً وإذا قتل العادل فهو شهيد . هذا حكم الصائل المسلم . فكيف إذا صال الكفار على أرض المسلمين حيث يتعرض الدين والعرض والنفس والمال للذهاب والزوال ألا يجب فى هذه الحالة على المسلمين دفع الصائل الكافر والدولة الكافرة ؟ .

٦ - تترس الكفار بأسرى المسلمين .

إذا اتخذ الكفار أسرى المسلمين كترس أمامهم وتقدموا لاحتلال بلاد المسلمين يجب قتال الكفار ولو أدى إلى قتل أسرى المسلمين . يقول ابن تيمية فى مجمع الفتاوى : (بل لو كان فيهم الكفار) قوم صالحون من خيار الناس ولم يكن قتالهم إلا بقتل هؤلاء لقتلوا أيضاً ، فإن الأئمة متفقون على أن الكفار لو تترسوا بأسرى المسلمين وخيف على المسلمين إذا لم يقاتلوا فإنه يجوز أن نرميهم - ونقصد الكفار - ولو لم نخف على المسلمين جاز رمى أولئك المسلمين أيضاً على أحد قولى العلماء » . وفى صفحة ٤٥ يقول : « والسنة والإجماع متفقان على أن الصائل المسلم إذا لم يندفع صوله إلا بالقتل قتل ، وإن كان المال الذى يأخذه قيراطاً من دينار ، ففى الصحيح : « من قتل دون ماله فهو شهيد »[2] .

وذلك لأن حماية بقية المسلمين من الفتنة والشرك وحماية دينهم وعرضهم ومالهم أولى من إبقاء بعض المسلمين أحياء ، وهم الأسرى فى يد الكفار المتترس بهم .

٧ - قتال الفئة الباغية :-

يقول الله - عز وجل - : **﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾** . الحجرات ٩ .

فإذا فرض الله علينا قتال الفئة الباغية المسلمة حفظاً لوحدة كلمة المسلمين وحماية دينهم ، وأعراضهم ، وأموالهم ، فكيف يكون الحكم فى قتال الدولة الكافرة الباغية أليس هذا أولى وأجدر ؟

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ١ ص١٢٥ . كتاب الايمان رقم ١٤٠/٢٥٥ .
انظر سنن الترمذى جـ٤ ص٢١ كتاب الديات باب ما جاء فى من قتل دون ماله فهو شهيد رقم ١٤١٨ .

(٢) انظر الحديث السابق

٨ ـ حد الحرابة :ـ

قال ـ تعالى ـ : ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ﴾ المائدة ٣٣ .

هذا حكم المحاربين من المسلمين الذين يخيفون عامة المسلمين ويفسدون فى الأرض . فيعبثون بأموال الناس وأعراضهم . ولقد فعل ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ بالعرينين كما جاء فى الصحيحين فكيف بالدولة الكافرة التى تفسد على الناس دينهم ومالهم وعرضهم أليس قتالها أوجب على المسلمين وأحرى ؟ .

هذه بعض الأدلة والمبررات للنفير العام إذا دخل الكفار أرض المسلمين . إن دفع العدو الكافر هو أوجب الواجبات بعد الإيمان وكما قال ابن تيمية : « فالعدو الصائل الذى يفسد الدين والدنيا لا شىء أوجب بعد الإيمان من دفعه » .

فرض العين وفرض الكفاية

فرض العين : هو الفرض الذى يجب على كل مسلم أن يفعله بنفسه ، كالصلاة والصوم فرض الكفاية : هو الفرض الذى إذا قام به البعض ، سقط عن الآخرين ومعنى فرض الكفاية : أى الذى إن لم يقم به من يكفى أثم الناس كلهم ، وإن قام به من يكفى ، سقط عن سائر الناس ، فالخطاب فى ابتدائه يتناول الجميع ، كفرض العين ، ثم يختلفان فى أن فرض الكفاية ، يسقط بفعل بعض الناس له ، وفرض العين لا يسقط بفعل غيره .

ولذا فقد عرف الفخر الرازى فرض الكفاية بأنه : يقصد حصوله من غير النظر بالذات إلى فاعله .

قال الشافعى : « إن الواجب الكفائى مطلوب على العموم ومراد به الخصوص » . والذى عليه جمهور الأصوليين ومنهم ابن الحاجب والآمدى وابن عبد الشكور ، أن فرض الكفاية يجب على الكل ، ويسقط بفعل البعض ، وبعض الناس الآن يجادلون فى حكم الجهاد ، فيعتبرونه فرض كفاية ، فالفرض يجب على الجميع ، ولكن يسقط بفعل البعض .

استئذان الوالدين والزوج والدائن

يتوقف حكم الاستئذان على حالة العدو :

١ ـ فإن كان فى بلاده ولا يحشد على الثغور وليس هنالك أثر على بلاد المسلمين ، فالثغور مشحونة بالجند ، ففى هذه الحالة الجهاد فرض كفاية ، ولابد من الاذن ، لأن طاعة الزوج والوالدين فرض عين ، والجهاد فرض كفاية ، وفرض العين مقدم على فرض الكفاية .

٢ ـ وإن هجم العدو على ثغر من ثغور المسلمين ، أو دخلوا بلدة إسلامية ، فهنا كما ذكرنا يصبح الجهاد فرض عين على أهل تلك البلدة ، وعلى من حولها ، وفى هذه الحالة يسقط الإذن ، فلا إذن لأحد على أحد ، حتى يخرج الولد دون إذن والده ، والزوجة دون إذن زوجها ، والمدين دون إذن دائنه .

وتبقى حالة سقوط استئذان الوالدين والزوج مستمرة ، حتى اخراج العدو من أرض المسلمين ، أو يتجمع عدد فيهم الكفاية لاخراج العدو ، ولو اجتمع كل المسلمين فى الأرض .

ويقدم الجهاد وهو فرض عين على طاعة الوالد ، وهى فرض عين ، لأن الجهاد حماية للدين ، وطاعة الوالدين حماية للنفس ، إذ أن الجهاد (مظنة حزنها وتعبها) والحفاظ على الدين مقدم على الحفاظ على النفس ، إذ الجهاد نفسه إتلاف لنفس المجاهد ، إذا استشهد من أجل حفظ الدين ، وحماية الدين يقين ، وتلف نفس الوالدين ظن ، واليقين مقدم على الظن .

مثال فرض العين والكفاية :

مثل قوم على شاطىء البحر يتنزهون ، وفيهم مجموعة تتقن السباحة ، ورأوا طفلاً يكاد يغرق ، وهو يصيح أنقذونى ، فلم يتحرك إليه أحد من السباحين ، وأراد سباح أن يتحرك لانقاذه ، فنهاه أبوه عن إنقاذه ، فهل يقول فقيه من فقهاء العصور كلها أنه يجب عليه طاعة والده وترك الطفل يغرق ؟ وهذا مثال أفغانستان اليوم إنها تستغيث ، فأطفالها يُذبحون ، وتُنتهك الأعراض فيها ، ويُقتل الأبرياء ، وتتناثر الأشلاء ، ويريد بعض الشباب الصادق أن يتحرك لانقاذهم ولمساعدتهم ، فيتعالى عليهم النكير ، كيف تذهب دون إذن والديك ؟

فإنقاذ الطفل الغريق ، فرض على كل السباحين الذين يرونه ، فقبل أن يتحرك أحد يتوجه خطاب وجوب الإنقاذ إلى الجميع ، فإن تحرك واحد لإنقاذه ، سقط الإثم عن الآخرين ، وإن لم يتحرك أحد ، فالإثم يلزم جميع السباحين ، وقبل أن يتحرك أحد لا إذن للوالدين ، ولو نهى الوالد ولده لإنقاذ الغريق ، فلا طاعة له ، لأن فرض الكفاية خطابه ابتداء كفرض العين ، وإنما يختلفان فى النهاية ، فإن قام به البعض ، سقط الإثم عن الآخرين ، وإن لم يقم به أحد أثم الجميع .

يقول ابن تيمية : « فأما إذا هجم العدو ، فلا يبقى للخلاف وجه ، فإن دفع ضررهم عن الدين والنفس والحرمة واجب إجماعياً » .

ودليل استئذان الوالدين فى فرض الكفاية ، وعدم استئذانها فى فرض العين الجمع بين الحديثين التاليين :

أولاً : حديث البخارى عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنهما ـ « جاء رجل إلى النبى ـ ﷺ ـ يستأذنه فى الجهاد فقال : « أحىّ والداك ؟ قال : نعم قال : ففيهما فجاهد » »[1] .

---

(١) اخرجه البخارى فى (كتاب الأدب) باب : لا يجاهد الا بإذن الأبوين جـ ٤ ص ٤٧ طبع دار احياء الكتب العربية .
واخرجه ابن حبان فى سننه فى باب : الاستحباب للمرء أن يؤثر بر الوالدين على الجهاد الفضل جـ ١ ص ٣٩٥ رقم ٤١٢

ثانياً : روى ابن حبان عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - « جاء رجل إلى رسول الله - ﷺ - فسأله عن أفضل الأعمال قال : الصلاة ، قال : ثم مه قال : الجهاد ، قال : فإن لى والدين ، فقال : آمرك بوالديك خيراً ، فقال : والذى بعثك بالحق لأجاهدن وأتركهما قال : فأنت أعلم »(١) . قال الحافظ : وهو محمول على جهاد فرض العين توفيقاً بين الحديثين .

استئذان الشيخ والمربى

لم ينص أحد من الفقهاء سلفاً وخلفاً ، أن للشيخ أو المربى حق الاذن على تلميذه فى العبادات ، سواء كانت فروض كفاية ، أم فروضاً عينية ، ومن قال بغير هذا فليأتنا بنص شرعى أوبسلطان مبين . فلكل إنسان مسلم أن يذهب إلى الجهاد دون استئذان شيخه أو معلمه ، لأن إذن رب العالمين هو المقدم ، وقد أذن بل فرض الجهاد . قال ابن هبيرة : « إن من مكائد الشيطان أن يقيم أوثاناً فى المعنى ، تعبد من دون الله ، مثل أن يتبين له الحق ، فيقول : ليس هذا مذهبنا تقليداً لمعظم عنده قد قدمه على الحق » .

ولو كان هذا التلميذ يريد دراسة الهندسة ، أو الطب ، أو التاريخ فى الدول الغربية ، أو أمريكا ، حيث الفتن كقطع الليل المظلم ، وحيث الخضم المتلاطم من المغريات ، وبحور تسعير الشهوات ، وتأجج النزوات أقول : لو ذهب هذا التلميذ دون إذن شيخه ، لما أنكر عليه الشيخ ولا غيره ، ولكن إذا نفر للرباط ، أوخرج للجهاد ، تجد الألسنة عليه من كل جانب ، حيث يقال : كيف يخرج دون استئذان ؟ وقد فات شيخه أن يسمع لكلام النبوة الشريف « حرس ليلة فى سبيل الله تعالى أفضل من ألف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها »(٢) .

وفى صحيح مسلم : « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه . وإن مات جرى عليه عمله الذى كان يعمله وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان »(٣) .

« غدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها »(٤) متفق عليه .

على الشيخ وتلاميذه أن يبادروا بالأعمال ، ويستبقوا الخيرات ، ولا تفوتنهم نصيحة رسول الله - ﷺ - : « اغتنم خمساً قبل خمس : حياتك قبل موتك وصحتك قبل سقمك وفراغك قبل شغلك ، وشبابك قبل هرمك ، وغناك قبل فقرك »(٥) . وعليهم أن يسمعوا الحديث الصحيح « قيام ساعة فى الصف للقتال فى سبيل الله خير من قيام ستين سنة »(٦) رواه أحمد والحاكم والدارمى .

قال الشافعى : « أجمع المسلمون على أن من استبان له سنة عن رسول الله - ﷺ - لم يحل له أن يدعها لقول أحد » .

---

(١) أخرجه ابن حبان جـ٣ ص ١١١ باب فضل الصلوات الخمس رقم ١٧١٩

(٢) أخرجه الحاكم جـ٢ ص ٨١ باب الجهاد .

(٣) أخرجه مسلم جـ٣ ص ١٥٢٠ كتاب الامارة باب فضل الرباط فى سبيل الله عزوجل رقم ١٩١٣/١٦٣

(٤) أخرجه مسلم جـ٣ ص ١٥٠٠ كتاب الامارة باب فضل الغدوة والروحة فى سبيل الله . رقم ١٨٨١/١١٤ وابن ماجة رقم ٢٧٥٥

(٥) أخرجه كنز العمال جـ١٥ ص ٨٧٩ رقم ٤٣٤٩٠ وعزاه إلى الحاكم والبيهقى وأحمد فى الزهد وإلى أبى نعيم فى الحلية .

(٦) أخرجه أحمد جـ٥ ص ٢٣٢ ، ٢٣٧ ، ٢٤٢

الجهاد بالمال

لا شك أن الجهاد بالنفس أعلى مرتبة من الجهاد بالمال ، ولذا فلم يعف الأغنياء فى زمن رسول الله - ﷺ - من المشاركة بأنفسهم ، أمثال عثمان ، وعبد الرحمن بن عوف - رضى الله عنهما - لأن صقل النفوس وتربية الأرواح ، إنما تتم على مستوى رفيع فى خضم المعركة ، ولذا فقد أوصى - ﷺ - أحد الصحابة قائلاً : « .. وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الاسلام »(١) حديث صحيح رواه أحمد .

ولذلك فعندما سئل رسول الله - ﷺ - أيفتن المرء فى قبره ؟ قال : « كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة »(٢) حديث صحيح رواه النسائى ولذا فقد حذر رسول الله - ﷺ - من الانشغال بالدنيا عن الجهاد ، فقد أشار ذات مرة إلى سكة محراث ، وقال : « لا يدخل هذا بيت قوم إلا أدخله الله الذل »(٣) رواه البخارى فى صحيحه . وفى الصحيح : « إذا تبايعتم العينة ، وأخذتم بأذناب البقر ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد ، سلّط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم »(٤) رواه أبو داود .

وفى الصحيح كذلك : « لا تتخذوا الضيعة فترغبوا فى الدنيا »(٥) رواه الترمذى . والضيعة : هى العقار أو الحرفة ، ففى هذه الأحاديث جمع رسول الله - ﷺ - متاع الدنيا وأسباب الانشغال : الزراعة ، التجارة بالربا . وحيلة (العينة) والانتاج الحيوانى والصناعة والحرفة (الضيعة) فالانشغال بهذه فى وقت ، يتعرض فيه الاسلام لمعركة الوجود أو الاجتثاث ، يعد حراماً وموبقة شرعية .

أما الجهاد بالمال ، فهو فرض إذا احتاج المجاهدون إليه ، فرض على النساء ، وفى أموال الصغار ، حتى لو كان الجهاد فرض كفاية ، كما قرر ذلك ابن تيمية .

ولذا يحرم على الناس الادخار فى حالة الحاجة للمال ، بل لقد سئل ابن تيمية سؤالا : « لو ضاق المال عن إطعام جياع ، والجهاد الذى يتضرر بتركه فقال : قدمنا الجهاد وإن مات الجياع ، كما فى مسألة التترس وأولى ، فإن هناك (التترس) نقتلهم بفعلنا وهنا يموتون بفعل الله » .

قال القرطبى : « اتفق العلماء على أنه إذا نزلت بالمسلمين حاجة بعد أداء الزكاة ، فإنه يجب صرف المال إليها » . وقال مالك : « يجب على الناس فداء أسراهم ، وإن استغرق ذلك أموالهم ، وهذا إجماع أيضا » . والحفاظ على الدين مقدم على الحفاظ على النفوس ، والحفاظ على النفوس أولى من الحفاظ على الأموال ، فأموال الأغنياء ليست أغلى ولا أثمن من دماء المجاهدين .

فلينتبه الأغنياء إلى حكم الله فى أموالهم ، حيث الجهاد فى أشد الحاجة ودين المسلمين وديارهم معرضة للزوال ، والأغنياء غارقون فى شهواتهم ، ولو صام الأغنياء يوماً واحداً عن شهواتهم ، وأمسكوا أيديهم عن إتلاف الأموال فى كمالياتهم ، وحولوها إلى المجاهدين فى أفغانستان ، الذين يموتون برداً ، وتنقطع أقدامهم من الثلج ، ولا يجدون قوت يومهم ، ولا ذخيرة يدفعون بها عن أنفسهم ، ويحقنون بها دماءهم .

---

(١) أخرجه أحمد جـ ٣ ص ٨٢
(٢) أخرجه النسائى جـ ٤ ص ٩٩
(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب ما جاء فى الحرج والمزارعة . باب ما يحذر من عواقب الاشتغال بآلة الزرع .
(٤) أخرجه أبو داود جـ ٣ ص ٧٤٠ رقم ٣٤٦٢
(٥) أخرجه الترمذى جـ ٤ ص ٤٨٨ ، ٤٨٩ كتاب الزهد باب ٢٠ رقم ٢٣٢٨

أقول : لو دفع الأغنياء مصروف يوم واحد للمجاهدين فى البوسنة ، لأحدثت أموالهم بإذن الله تغييراً كبيراً فى الجهاد نحو النصر ، ولقد أفتى كبار العلماء ، وعلى رأسهم الشيخ عبد العزيز بن لباز ، أن دفع الزكاة للمجاهدين من أعظم القربات ، وأفضل الصدقات .

الخلاصة :

أولاً : الجهاد بالنفس فرض عين على كل المسلمين فى الأرض .

ثانياً : لا إذن لأحد على أحد فى الجهاد فلا إذن للوالدين على الولد .

ثالثاً : الجهاد بالمال فرض عين ، ويحرم الادخار ما دام الجهاد بحاجة إلى مال المسلمين .

رابعاً : إن ترك الجهاد كترك الصلاة والصيام ، بل ترك الجهاد أشد فى هذه الأيام ، ونقل ابن رشد الاتفاق على أن الجهاد إذا تعين أقوى من الذهاب إلى حجة الفريضة .

أسئلة كبيرة وأسئلة مهمة

هل نستطيع تطبيق هذه الفتوى اليوم ؟

قد يقول قائل بعد هذا : قد علمنا أن الجهاد اليوم بالنفس فرض عين ، وأن الجهاد فرض كالصلاة والصيام ، بل الجهاد بالنفس مقدم على الصلاة والصيام كما يقول ابن تيمية : « فالعدو الصائل الذى يفسد الدين والدنيا لا شىء أوجب بعد الإيمان من دفعه » .

فالصلاة تؤخر وتجمع أو تختصر ركعاتها أو تتغير هيئتها بوجود الجهاد وفى الصحيحين : « ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس »[(١)] .

والمجاهد يفطر فى رمضان ، كما روى مسلم أن رسول الله - ﷺ - أفطر وهو فى طريقه إلى فتح مكة وقال : « إنكم مصبحو عدوكم والفطر أقوى لكم فأفطروا »[(٢)] .

وتبين لنا أنه لا يستأذن أحد فى أداء فريضة الجهاد إذا تعينت (أصبحت فرض عين) كما أنه لا يستأذن الوالد ، أو الشيخ ، أو السيد ، فى أداء فريضة الصبح قبل طلوع الشمس .

كذلك لا يستأذن أحد فى أداء فريضة الجهاد ، فإذا نام الأب وابنه فى مكان واحد ، وأراد الابن أن يصلى الفجر وأبوه نائم ، فهل يقول أحد بوجوب استئذان الابن لأبيه فى صلاة الفرض ؟ ولنفرض أن الأب قد نهى ابنه عن القيام للصلاة ، لأى سبب فى نفس الأب ، لئلا يزعج النائمين - الذين لا يصلون الفجر - أو لأن أباه لا يريد الصلاة ، فهل يطيع الابن أباه ؟ الجواب واضح « إنما الطاعة فى المعروف » . متفق عليه . « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق »[(٣)] حديث صحيح رواه أحمد والحاكم ، « لا طاعة لمن لم يطع الله »[(٤)] حديث صحيح رواه أحمد . وترك الجهاد معصية ، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

(١) أخرجه مسلم جـ١ ص٤٣٦ كتاب المساجد ومواضع الصلاة .رقم ٦٢٧/٢٠٢

(٢) أخرجه مسلم جـ٢ ص٧٨٩ كتاب الصيام باب التخيير فى الصيام والفطر فى السفر رقم ١١٢٠/١٠٢

(٣) أخرجه أحمد جـ٥ ص٦٦ ، ٦٧ والحاكم جـ٣ ص٣٥٦ ، ٣٥٧ والألبانى فى سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ١٧٩ ، وصحيح الجامع والصغير رقم ٧٣٩٦

(٤) أخرجه أحمد جـ ٣ ص٢١٣

الاستئذان

أمر الاستئذان : ولزيادة الايضاح فى هذه المسألة نقول وبالله التوفيق : إن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ لم يكونوا يستأذنون رسول الله ـ ﷺ ـ بعد عقد الراية واستنفار الأمة ، بل كان استئذان النبى ـ ﷺ ـ استشارة بعد عقد النية ، أو بعد تسجيل اسم الصحابى فى الغزوة ، ففى الحديث الصحيح الذى رواه أحمد والنسائى عن معاوية بن جاهمة السلمى « أن جاهمة أتى النبى ـ ﷺ ـ فقال : يا رسول الله ، أردت الغزو وجئتك أستشيرك فقال : هل لك من أم ؟ فقال : نعم فقال : الزمها فإن الجنة عند رجليها »[(١)] .

وفى رواية : إنى إستكتبت فى غزوة كذا ، أى : كتبت اسمى . هذا عندما كان الجهاد فرض كفاية .

فأما إذا أصبح الجهاد فرض عين بعد الاستنفار ، فإن استئذان النبى ـ ﷺ ـ يصبح علامة نفاق فقد جاء فى محكم التنزيل : ﴿ **لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين . إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون** ﴾[(٢)] .

وأما الخلفاء الراشدون ـ أبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ ـ رضى الله عنهم ـ فلا نعلم أن الصحابة والتابعين ، كانوا يستأذنوهم ، وما كان كل واحد يريد الغزو أو الجهاد ، يأتى إلى أبى بكر ليستأذنه ، فالمهم أن تعقد الراية وتخرج السرية .

وأمراء المؤمنين من بعد الخلفاء لا نعلم أن الذى كان ينوى الرّباط أو الجهاد ، يرسل إليهم يستأذنهم ، ولا نعلم أن واحداً من المسلمين فى التاريخ الإسلامى كله ، قد عوقب من قبل أمير المؤمنين ، بسبب الجهاد أو الغزو بدون إذنه ، وإنما يستأذن أمير الحرب وقائد المعركة فى الغزو والهجوم ، من أجل التنظيم والتنسيق ، وحتى لا يفسد المرء الذى يهجم على العدو خطة المسلمين .

وخصص بعض الفقهاء كالأوزاعى الاستئذان من الإمام فى حالة الجنود ، الذين يأخذون روايتهم من ديوان الجند . قال الرّملى فى نهاية المحتاج : « يكره الغزو بغير إذن الإمام أو نائبه ، ولا كراهة فى حالات :

١ ـ إذا فوّت الاستئذان المقصود .

٢ ـ أو عطل الإمام الغزو .

٣ ـ أو غلب على ظنه عدم الإذن كما بحث ذلك البلقينى » .

---

(١) أخرجه أحمد جـ٣ ص ٤٢٩ والنسائى جـ٦ ص ١١

(٢) التوبة الآيتان ٤٤ ، ٤٥

نعود فنقول : هذا كله إذا كان الجهاد فرض كفاية ، أما إذا أصبح الجهاد متعيناً (فرض عين) فلا إذن ولا استئذان . قال ابن رشد : « طاعة الإمام لازمة ، وإن كان غير عدل ما لم يأمر بمعصية ، ومن المعصية النهى عن الجهاد المتعين » ونزيد المسألة وضوحاً فنقول : إن الإذن والاستئذان فى فرض الكفاية ، إنما يكون بعد الكفاية ، أى بعد أن يكون عدد المجاهدين كافياً للقيام بالفرض ، أما قبل أن تحصل الكفاية ، فالخطاب موجه إلى الجميع ، ويجب على الكل ، ويسقط بفعل البعض ، ولا فرق بين فرض الكفاية . والعين ، قبل أن تتم الكفاية .

وقبل الكفاية : لا إذن ولا استئذان ، والإذن والاستئذان ، إنما يكون بعد العلم بكفاية المسلمين فى أرض المعركة للقيام بالفرض .

بعد هذا كله قد يقول قائل :

تيقنا الآن أن الجهاد فرض عين ، وأنه لا إذن ولا استئذان من أحد أبداً فى الجهاد ، ولكن هنالك أسئلة مهمة :

١ ـ هل يمكن تطبيق النفير عملياً فى هذه الأيام ؟

٢ ـ هل نجاهد وليس هنالك أمير واحد ؟

٣ ـ هل يقاتل المسلم وحده إذا قعد الناس ؟

٤ ـ هل نستعين بالكفار إذا كنا ضعافاً ؟

٥ ـ هل نقاتل مع المسلمين ليسوا على مستوى مقبول من التربية الاسلامية ؟

السؤال الأول

كيف نطبق النفير عملياً فى هذه الأيام ؟

يرى بعض الناس أن النفير كما يطلب الإسلام ، بحيث تخرج المرأة دون إذن زوجها ، والولد دون إذن والده ، هذا أمر عسير جداً لأسباب .

١ ـ إن أية بقعة إسلامية لا تتسع لعشر معشار المسلمين .

٢ ـ إن هذا يؤدى إلى الإخلال بعملية التربية الإسلامية ، التى تعتبر الأمل بإذن الله ـ عز وجل ـ فى إنقاذ الأمة .

٣ ـ إن هذا يؤدى إلى عملية تفريغ للبقاع الإسلامية ، إذ كل واحد يأتى للجهاد إنما يترك ثغرة للشيوعيين والبعثيين والقوميين والعلمانيين فى بلده

الجواب

لو طبق المسلمون أمر ربهم ، ونفذوا حكم شريعتهم فى النفير أسبوعاً واحداً لفلسطين ، فإن فلسطين ستتطهر نهائياً من اليهود ، وعندئذ لا نشغر أماكن الدعاة ، ولا تتدمر بيوتهم بخروج نسائهم ، ولكننا ننتظر فى كل مرة ونبقى ننظر إلى الإقليم الإسلامى ، الذى وقع تحت سيطرة الكفار ، حتى يبتلع ثم نؤنبه بخطب رنانة ودموع هتانة وحوقلات حرى وتأوهات كثيرة .

إننا نفكر بالاسلام تفكيراً إسلامياً قوميا ، فلا تتعدى نظراتنا حدود الجغرافية ، التى رسمتها لنا معاهدة سايكس ـ بيكو ، أوخطها جون أنطون البريطانى أو الفرنسى .

إن ابن مدينة الرمثا الأردنية على حدود سورية ليشعر بالانتماء ، ويشتد بتفكيره الإسلامى إلى ابن العقبة الأردنية ـ التى تبعد أكثر من ستمائة كم ـ أكثر من ارتباطه بابن مدينة درعا السورية ، التى لا تبعد عشرة كيلومترات عن الرمثا ، مع أن ابن درعا وابن العقبة الاثنان مسلمان متعبدان ، بل قد يكون ابن درعا أكثر تدينا والتزاما من ابن العقبة ـ الأردنية .

السؤال الثانى

هل نجاهد وليس لنا أمير واحد ؟

نعم نجاهد وليس لنا أمير ، ولم يقل أحد أن عدم اتحاد المسلمين على أمير يسقط فرضية الجهاد ، بل لقد رأينا المسلمين أيام الحروب الصليبية والتتار ، يقاتلون مع أن أمراءهم مختلفون ، وفى كل بلد أمير أو عدة أمراء ، ففى حلب وفى دمشق أمير ، وفى مصر أكثر من أمير ، وبعضهم يستنجد بالصليبيين على إخوانه الأمراء ، كما حصل من شاور الذى استعان بالصليبيين على أمير آخر فى مصر (ضرغام) .

ولم يقل أحد من العلماء أن هذا الحال يسقط فريضة الجهاد للدفاع عن أرض المسلمين بل يضاعف واجبهم .

وكذلك الحال فى الأندلس التى كانت كما يقول الشاعر :

وتفرقوا شيعاً فكل محلة فيها أمير المؤمنين ومنبر

وقال آخر :

مما يزهدنى فى أرض الأندلس ألقاب معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة فى غير موضعها كالهر يحكى انتفاخاً صولة الأسد

ولم يقل أحد من العلماء أنه لا جهاد فى هذا الحال ، بل كان أعيان العلماء فى مقدمة الصفوف فى الأندلس .

وقد تخلو المعركة من قائد شرعى معه الولاية من الأمير العام ، كما حدث يوم مؤتة ، فقام خالد ابن الوليد واستلم الراية ، وأنقذ الله به الجيش المسلم وأقره - ﷺ - وأثنى عليه .

وقد يكون الامام أو أمير المؤمنين غير موجود ، وهذا لا يسقط فرضية القتال والدفاع عن أرض المسلمين ، ولا ننتظر حتى تقوم الولاية الكبرى وتستأنف الخلافة .

لأن الولاية العامة . والخلافة لا تأتى نظرياً بالثقافة والدراسة ، بل الجهاد أسلم طريقة ، لكى تصبح الولاية الخاصة ، أى إمارة القتال ولاية عامة وخلافة .

والمجاهدون يختارون أميراً للجهاد من بينهم ، يصلح أمرهم ، ويلم شعثهم ، ويرد قويهم عن ضعيفهم ، ففى الحديث الصحيح عن عقبة بن عامر وكان من رهطه قال : « بعث رسول - ﷺ - سرية فسلمت رجلاً سيفاً قال ، فلما رجع قال : ما رأيت مثل ما لا منا رسول الله - ﷺ - قال : أعجزتم إذ بعثت رجلاً فلم يمض لأمرى أن تحصلوا مكانه من يمضى لأمرى »(١) .

فالرسول - ﷺ - حرضهم على تغيير أمير السرية الذى عقد له الراية بيده الشريفة ، فكيف إذا لم يكن أمير أصلاً ، إن الحاجة أشد إلى تأيد أمير للحرب .

قال ابن قدامة فى المغنى « فإن عدم الإمام لم يؤخر الجهاد ، لأن مصلحته تفوت بتأخيره » .

وإذا اختار الناس أميراً ، فيجب طاعته ، جاء فى فتح العلى المالك إذ فعل الشيخ ميارة إذا خلا الوقت من الأمير ، وأجمع الناس رأيهم على بعض كبراء الوقت ، يمهد سبيلهم ، ويرد قويهم عن ضعيفهم ، فقام بذلك قدر الجهد والطاقة .

فالظاهر أن القيام عليه لا يجوز والمعرض له يريد شق عصا الإسلام وتفريق جماعته ، ففى صحيح مسلم الحديث « إنها ستكون هنات وهنات فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهو جميع فاقتلوه كائناً من كان »(٢) « من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد تفريق جماعتكم فاقتلوه »(٣) .

---

(١) أخرجه أبوداود كتاب الجهاد باب فى الطاعة رقم ٢٦١٠
(٢) أخرجه مسلم جـ٣ ص١٤٧٩ كتاب الامارة باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع رقم ١٨٥٢/٥٩
(٣) أخرجه مسلم جـ٣ ص١٤٨٠ رقم ١٨٥٢/٦٠

السؤال الرابع

هل يقاتل الإنسان إذا قعد الناس ؟.

نعم يقاتل ، لأن الله عز وجل يخاطب نبيه - ﷺ - قائلاً : « فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً »(١) .

فالآية تأمر الرسول - ﷺ - بأمرين واجبين (لأن الأمر بالوجوب) .

١ - القتال ولو وحده .

٢ - تحريض المؤمنين .

ويذكر رب العزة الحكمة من القتال ، وهو كف بأس الكفار لا يخشون وجودنا إلا بالقتال « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله »(٢) . وبترك القتال يسود الشرك ، وهو الفتنة ، وينتصر الكفر ، وقد فهم الصحابة رضوان الله عليهم الآية على ظاهرها . فعن أبى اسحق قال : قلت للبراء بن عازب - رضى الله عنه - : الرجل يحمل على المشركين أهو يلقى بيده إلى التهلكة ؟

قال : لا لأن الله بعث رسوله - ﷺ - فقال : « فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك » إنما ذاك فى النفقة .

« وقد تكون حالة يجب فيها نفير الكل ، إذا تعين الجهاد على الأعيان ، لغلبة العدو على قطر من الأقطار ، أو لحلوله بالعقر ، فيجب على كافة الخلق الجهاد والخروج فإن قصروا عصوا ، فإذا كان النفير عاماً لغلبة العدو على الحوزة أو استيلائه على الأسارى ، كان النفير عاماً ووجب الخروج خفافاً وثقالاً ركباناً ورجالاً عبيداً وأحراراً ، من كان له أب من غير إذنه ، ومن لا أب له حتى يظهر دين الله ، وتحمى البيعة ، وتحفظ الحوزة ، ويخزى العدو ، ويستنقذ الأسرى ولا خلاف فى هذا .

فكيف يصنع الواحد إذا قعد الجميع ، يعمد إلى أسير واحد فيفديه ويغزو إن قدر وإلا جهز غازيا » .

بل إن قتال المرء وحده ، يرضى الله ويعجبه ، ففى الحديث الحسن الذى رواه أحمد وأبو داود قال - ﷺ - « عجب ربنا من رجل غزا فى سبيل الله فانهزم أصحابه فعلم ما عليه فرجع حتى أهرق دمه فيقول الله عز وجل لملائكته : انظروا إلى عبدى رجع رغبة فيما عندى وشفقة مما عندى حتى أهريق دمه »(٣) .

---

(١) سورة النساء آية ٨٤

(٢) سورة الانفال آية ٣٩

(٣) أخرجه أبو داود جـ٣ ص٤٢ رقم ٢٥٣٦

السؤال الخامس

هل نقاتل مع مسلمين ليسوا على مستوى مقبول من التربية الإسلامية ؟ هذا السؤال يثور من قبل بعض الناس ، وقسم منهم مخلصون ويتساءلون كيف نقاتل مع قوم ، فيهم الصادق ، وفيهم الكاذب ، وينتشر بينهم شرب الدخان والنسوار (كالدخان) وقد يبيع بعضهم سلاحه ؟ وهم أناس متعصبون لمذهبهم الحنفى ، وبعضهم يعلق الرقى والتمائم « وقبل أن أبين الحكم الشرعى أقول : أرونى شعباً مسلماً فى الأرض يخلو من هذه الأمور ؟ فهل نترك الكفار فى كل أراضى المسلمين ، لأن هذه الأمور موجودة ؟

الجواب

يجب القتال ، لأن القتال مبنى على دفع أعظم الضررين فهنالك القواعد الفقهية فى مجلة الأحكام العدلية رقم ٢٦ « يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام » وفى المادة ٢٧ « الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف » وفى المادة رقم ٢٨ « إذا تعارضت مفسدتان روعى أعظمهما ضرراً بارتكاب أحقهما » وفى المادة رقم ٢٩ « تختار أهون الشرين » . فلابد من اختيار أهون الشرين : أيهما أعظم شراً ، استيلاء الروس على أفغانستان ، وتحويلها إلى بلاد كفر ، يمنع فيها القرآن والإسلام ، أم الجهاد مع قوم فيهم ذنوب وأخطاء ؟

يقول ابن تيمية فى مجموع الفتاوى ٢٨/٥٠٦ ولهذا كان من أصول أهل السنة والجماعة ، الغزو مع كل بر وفاجر ، فإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ، وبأقوام لا خلاق لهم ، كما أخبر بذلك النبى - ﷺ - لأنه إذا لم يتفق الغزو إلا مع الأمراء الفجار ، أو مع عسكر كثير الفجور ، فإنه لابد من أحد أمرين إما ترك الغزو معهم ، فيلزم من ذلك استيلاء الآخرين الذين هم أعظم ضرراً فى الدين والدنيا ، وأما الغزو مع الأمير الفاجر فيحصل بذلك دفع الأفجرين ، وإقامة أكثر شعائر الإسلام ، وإن لم يمكن إقامة جميعها ، فهذا هو الواجب فى هذه الصورة وكل ما أشبهها ، بل كثير من الغزو الحاصل مع الخلفاء الراشدين ، لم يقع إلا على هذا الوجه ، وثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم « الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، الأجر والمغنم »(١) فما داموا مسلمين يجب القتال معهم ، والهدف المعلن هو إقامة دين الله فى الأرض .

ولو قاتل المسلمون فى فلسطين لما ضاعت فلسطين ، رغم المفاسد التى كانت فى البداية .

أما قادة الجهاد الأفغانى فكلهم صائمون مصلون ، يقيمون الشعائر ، وينادون بالاسلام .

يجب القتال مع أى قوم مسلمين ما داموا مسلمين ، مهما كان فسقهم وفجورهم إذا كان القتال ضد الكفار أو الملحدين .

يقول الشوكانى فى نيل الأوطار ٨/٤٤ « وتجوز الاستعانة بالفساق على الكفار إجماعياً » .

---

(١) أخرجه مسلم جـ٣ ص١٤٩٣ كتاب الامارة باب الخيل فى نواحيها الخير إلى يوم القيامة رقم ٩٨/١٨٧٣

سادساً : هل نستعين بالمشركين إذا كنا فى حالة ضعف يرى بعض الناس الاستعانة بأمريكا وبالدول الغربية فى الجهاد ضد اليهود فى فلسطين ، وهذا النوع من الاستعانة حرام باتفاق الفقهاء ، وتضييع لهدف الجهاد نهائيا ، وفى المسألة أحاديث متعارضة فمن الأحاديث المانعة للاستعانة :

١ - حديث فى صحيح مسلم قوله صلى الله عليه وسلم لمشرك يوم بدر : « فارجع فلن أستعين بمشرك » نيل الأوطار ١٢٨/٧

٢ - حديث آخر « إنا لا نستعين بالمشركين على المشركين » رواه أحمد والطبرانى قال الهيثمى فى مجمع الزوائد : رجال أحمد والطبرانى ثقات وهنالك نص صحيح أن صفوان بن أمية ، قاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو كافر .

قال النووى فى تهذيب الأسماء واللغات رقم ٢٦٣

« صفوان بن أمية شهد حنيناً مع النبى - ﷺ - كافرا » وقد استعار رسول الله - ﷺ - يوم حنين دروع صفوان ابن أمية ، وقال له - ﷺ - (عارية مؤداة) حديث صحيح رواه الحاكم انظر صحيح الجامع ٣٨٦٢ وثبت عند أهل السير أن قزمان خرج مع النبى - ﷺ - يوم أحد وقتل ثلاثة من حملة لواء المشركين ، وقال - ﷺ - عن قزمان : (إن الله ليأزر هذا الدين بالرجل الفاجر) وبناء على هذا التعارض ، فقد اختلف الفقهاء فى الجمع بين الأحاديث منها : أن الاستعانة بالمشركين كانت ممنوعة ثم رخص فيها قال الحافظ فى التلخيص ، وهذا أقربها وعليه نص الشافعى (نيل الأوطار ٤٤/٨) .

وقد اتفق الفقهاء الأربعة على جواز الاستعانة بالكفار بشروط :

١ - أن يكون حكم الاسلام هو الظاهر ، أى يكون المسلمون أقوى من مجموع المشركين ، الذين استعانوا بهم ، والمشركين الذين يقاتلونهم بحيث لو اتفق الكفار جميعاً غلبهم المسلمون .

٢ - أن يكون الكافر حسن الظن بالمسلمين ، وتؤمن خيانتهم ، ويعرف ذلك من خلال معاملته

٣ - أن يكون المسلمون بحاجة إلى الكافر ، أو الكفار المستعان بهم .

(أ) رأى الحنيفية : قال محمد بن الحسن « لا بأس بأن يستعين المسلمون بأهل الشرك على أهل الشرك ، إذا كان حكم الاسلام هو الغالب » . وقال الجصاص « قال أصحابنا : لا بأس بالاستعانة بالمشركين على قتال غيرهم من المشركين ، إذا كانوا متى ظهروا كان حكم الاسلام هو الظاهر » .

(ب) المالكية : قال ابن القاسم « ولا أرى أن يستعينوا بهم يقاتلون معهم ، إلا أن يكون نواتيه أوخرقا ، فلا أرى بذلك بأساً » وقال مالك : « لا أرى أن يستعان بالمشركين على المشركين إلا أن يكونوا خدماً » .

(جـ) الشافعية : قال الرملى : « وللإمام أو نائبه الاستعانة بكفار ولو أهل حرب ، كأن يعرف حسن رأيهم فنياً ، ويشترط لجواز الاستعانة احتياجنا له لنحو خدمة أو قتال لقلتنا » .

(د) الحنبلية : قال ابن قدامة : « وعن أحمد ما يدل على جواز الاستعانة بالمشرك ، بل روى عن أحمد أنه يسهم للكافر من الغنائم ، إذا غزا مع الامام خلافاً للجمهور الذين لا يسهمون له » .

كثير من الكتاب يخطئون عندما يكتبون عن جواز السلم ، ويستشهدون بالنصوص القرآنية دون معرفة المراحل التاريخية للنصوص ، فلابد من معرفة التدرج فى النصوص الجهادية فى القرآن حتى نزلت آية السيف فى سورة التوبة : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين »[١] .

﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصدٍ ﴾[٢] .

فقد قرر ابن القيم فى زاد المعاد أن الجهاد كان محرماً فى مكة المكرمة ثم مأذوناً فيه عند الهجرة ثم مأموراً به مع من بادأهم بالقتال ثم مأموراً به مع المشركين كافة .

ويقول ابن عابدين/حاشية ابن عابدين : اعلم أن الأمر بالقتال نزل مرتبا ، فقد كان رسول الله - ﷺ - مأموراً أولا بالتبليغ والاعراض .

يقول تعالى : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾[٣] ثم بالمجادلة بالأحسن ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾[٤] ثم أذن لهم بالقتال ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾[٥] .

ثم أمروا بالقتال إن قاتلوهم ﴿ فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ﴾[٦] .

ثم أمروا بالقتال بشرط انسلاخ الأشهر الحرم ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾[٧] . ثم أمروا به مطلقا ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾[٨] . ولذا لابد من معرفة المرحلة الزمنية التى نزلت فيها الآية ، ولابد من الاشارة ابتداء أنه لا تجوز المفاوضات السياسية فى مراحل الدعوة الأولى قبل أن يقوم للدعوة كيان وسلطان يحمى مبادءها ، وإذا دخلت الدعوة الاسلامية فى أوائل مراحلها فى المفاوضات السياسية ، فإن المبادىء تتميع وتختلط وتلتبس على الناس مفاهيمها ، ولا يقوم لها قائمة ، وتضيع الدعوة فى غمرة الألاعيب السياسية والأحابيل الدولية .

وهذه الفترة تمثلها السورة الكريمة : ﴿ قل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ ويمثل موقف المؤمن فيها ﴿ قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . إن وليى الله الذى نزل

(١) سورة التوبة آية ٣٦
(٢) سورة التوبة آية ٥
(٣) سورة الحجر آية ٩٤
(٤) سورة النحل آية ١٢٥
(٥) سورة الحج آية ٣٩
(٦) سورة البقرة آية ١٩١
(٧) سورة التوبة آية ٥
(٨) سورة البقرة آية ١٩٠

الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴾[1] لابد من اعلان المبادىء واستعلاء الدعاة ، حتى يصلب عودهم على نار المحنة ، وتصقل أرواحهم فى الصبر على الفتنة ، وهكذا كان موقف رسول الله - ﷺ - الواضح والصحابة معه فى مكة المكرمة ، أما بعد قيام دولة الإسلام ، فلا مانع من عقد المعاهدات .

شروط عقد المعاهدة مع الكفار

اختلف الفقهاء فى جواز عقد صلح مع الكفار ، فمنهم من أجازه على صلح الحديبية ، ومنهم من أجازه إذا كان المسلمون فى ضعف شديد ، ومنهم من لم يجز الصلح أبدا وقالوا نسخت آية السيف كل معاهدة مع الكفار . ولكن نقول :

يجوز للمسلمين عقد معاهدة مع الكفار ، إذا كان ذلك مصلحة للمسلمين ولكن بشرط أن لا تتضمن المعاهدة شرطاً يبطل المعاهدة أو يفسدها ومنها :

١ - لا يجوز أن تتضمن المعاهدة شرطاً فيه اعتراف أو إقرار الكفار على شبر من أراض المسلمين (نهاية المحتاج ٥٨/٨) لأن أرض الإسلام ليست لأحد ، فلا يحق لأحد أن يفاوض عليها ، وهذا الشرط يبطل العقد لأن الأرض لله ، ثم للاسلام ، فلا يجوز لأحد أن يتصرف فى ملك غيره ولا بيع لابن آدم فيما لا يملك ، ولذا بالنسبة للروس لا يجوز التفاوض معهم حتى ينسحبوا من كل شبر من أراضى أفغانستان ولا مع اليهود أبداً فى فلسطين .

٢ - إذا تعين الجهاد بطل الصلح ، كما إذا دخل العدو أرض المسلمين ، أو كان طالباً لهم . جاء فى فتح العلى المالك ٢٨٩/١ فى الصلح والمعاهدة فى المعيار - فى باب الجهاد - ما نصه : « أوقع الخليفة الصلح مع النصارى والمسلمون لا يرون إلا الجهاد ، فمهادنته منقوضة ، وفعله مردود » وحيثما تعين الجهاد فى موضع لم نجر فيه الصلح ، كما لو كان العدو غالياً على المسلمين ، وكل ما نقل فى تعين فرض الجهاد مانع من الصلح لاستلزامه إبطال فرض العين الذى هو الجهاد المطلوب فيه الاستنقاذ . نقل القاضى ابن رشد الاتفاق على أن الجهاد إذا تعين أقوى من الذهاب إلى حجة الفريضة ، لأن الجهاد إن تعين كان على الفور والحج قد قيل فيه أنه على التراخى ، فالصلح المذكور يجب نقضه ، لأنه بمقتضى الشرع غير منبرم فحكمه غير لازم عند كل من حقق أصول الشريعة . والصلح المذكور فيه ترك الجهاد المتعين ، وترك الجهاد المتعين ممتنع وكل ممتنع غير لازم .

٣ - كل شرط تضمن تعطيل شريعة الله أو إهمال شعائره ، فهو باطل فلا يجوز للكفار أن يتدخلوا فى نظام الحكم ، لأن هذا إفساد للجهاد وهدفه .

٤ - لا يجوز أن يتضمن العقد شرطاً فيه إذلال للمسلمين أو يشعر بهذا كما جاء فى الحديث عن الزهرى . قال : لما اشتد على الناس البلاء بعث رسول الله - ﷺ - إلى عيينة بن حصن بن حنيفة بن بدر

---

(١) سورة الاعراف الآيتان ١٩٥ - ١٩٦

وإلى الحارث بن أبي عسوف المزني - وهما قائدا غطفان - فأعطاهما ثلثى ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه فجرى بينه وبينهما الصلح ، ولم تقع الشهادة ، فلما أراد ذلك بعث إلى سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة فاستشارهما فيه فذكر الحديث مفصلا وفيه : قد علمنا أن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، فهل ترون أن ندفع إليهم شيئا من ثمار المدينة ؟ قالوا : يا رسول الله إن كنت قلت عن رأى فرأيك متبع ، كنا لا ندفع إليهم ثمرة إلا بشرى أو قرى ونحن كفار وقد أعزنا الله بالإسلام ؛ فسر النبى - ﷺ - بقولهم مرسل قوى .

وقد شعر الأنصار من هذا أن فيه إذلالا لهم ، ولذا جاء في بعض الروايات : لا نعطيكم إلا السيف .

٥ - أن لا يتضمن العقد شرطاً يخالف الشريعه الاسلامية مثل :

(أ) إقرار المشركين السكن فى أرض الحرمين لأنه فى الحديث : « أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب » .

(ب) أو إرجاع امرأة مسلمة إلى الكفار « فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن »(١) أما إرجاع المسلم إلى الكفار ، فقد اختلف الفقهاء فيه ، فبعضهم أجاز إرجاعه قياساً على شرط الحديبية ، ولكن الفقهاء الآخرين رجحوا عدم جواز هذا الشرط ، أما شرط الحديبية فهو خاص برسول الله - ﷺ - لأنه علم أن الله سيجعل لهم مخرجاً وهذا هو الراجح « عن البراء بن عازب قال : وادَعَ رسول الله - ﷺ - المشركين يوم الحديبية على ثلاث - من أتاهم من عند النبى - ﷺ - لن يردوه ، ومن أتى إلينا منهم ردوه إليهم ، قال - ﷺ - : من ذهب منا إليهم فأبعده الله » متفق عليه وزاد مسلم « ومن خرج منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً »(٢)

٦ - ولا يجوز كذلك أن يتضمن العقد إظهار شعائر الكفار فى بلاد المسلمين ، مثل السماح لهم ببناء الكنائس والأديرة ، أو إرسال المبشرين الذين يفتنون المسلمين ويفسدون عقائدهم وخاصة فى جزيرة العرب .

« النصر والفتح القريب »

قوله تعالى : ﴿ وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب ، وبشر المؤمنين ﴾(٣) .

هذا وعد منه سبحانه وتعالى بنصر المؤمنين نصراً مبينا مؤزراً ، كما أنه وعد بفتح قريب عاجل لهم ، وذلك كقوله جل شأنه : ﴿ يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾(٤) ، وقوله تعالى ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾(٥) وقوله تعالى : ﴿ وفتح قريب ﴾ أى عاجل فهذه الزيادة ، هى خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة لمن أطاع الله ورسوله ، ونصر الله ودينه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ .

---

(١) أخرجه مسلم جـ٣ ص١٤١١ كتاب الجهاد والسير . باب صلح الحديبية فى الحديبية رقم ١٧٨٤/٩٣

(٢) سورة الانفال اية ٦١

(٣) سورة الصف آية ١٣

(٤) سورة محمد آية ٧

(٥) سورة الحج آية ٤٠

ولقد أنجز الله تعالى وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، فكان من النصر المبين ، والفتح القريب ، ما حدث يوم الفتح الأعظم ، يوم دخل الرسول - ﷺ - البلد الحرام فاتحاً منتصراً يعلن كلمة التوحيد عالية مدوية ، وكان لهذا الفتح قصة لابد أن يقف عند دروبها كل قائد ، ولابد أن تعيها الأمة الاسلامية ، لتسلك الطريق ، وتتبع النهج ، الذى صار عليه أستاذ الانسانية الأكبر ، وقائد المسلمين الأعظم ، وصاحب الرسالة العصماء ، مبعوث العناية الالهية وشمس الهداية الربانية ونحن نسجل أحداث هذا اليوم بكل فخار واعزاز ، وتلكم قصة الفتح الأعظم كاملة لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية .

فى كتاب الرسول القائد قال اللواء محمود شيت خطاب تحت عنوان :

« عودة المستضعفين »

« ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين »(١) .

« فتح مكة »

الموقف العام

١ - المسلمون :

أتاحت هدنة الحديبية للمسلمين القضاء على اليهود عسكرياً فى المدينة وخارجها ، كما أتاحت لهم السيطرة على القبائل فى شمالى المدينة حتى حدود العراق والشام ، وانتشر الإسلام بين القبائل العربية كلها ، فأصبح المسلمون قوة لا تدانيها أية قوة فى بلاد العرب .

ولم يبق أمام المسلمين إلا فتح مكة ، تلك المدينة المقدسة التى انتشر الإسلام فيها أيضاً ، وما أسهل فتحها على المسلمين لولا عهد الحديبية الذى يحرص على الوفاء به الرسول - ﷺ - .

٢ - المشركون :

أدى انتشار الاسلام بين قسم كبير من القبائل ، ومن ضمنها قريش ، وبقاء القسم الآخر على الشرك إلى تفرق كلمتها ، واستحالة جمع هذه الكلمة على حرب المسلمين .

ولم يبق فى قريش زعيم مسيطر ، يستطيع توجيهها إلى ما يريد حين يريد .

المسلمون فيها لا يخضعون إلا لأوامر الإسلام ، والمشركون فيها بين متطرف يدعو للحرب مهما تكن نتائجها ، ومعتدل يعتبر الحرب كارثة تحيق بقريش .

أراد بنو بكر حلفاء قريش ، أن يأخذوا بثاراتهم القديمة من بنى خزاعة حلفاء المسلمين ، وحرضهم على ذلك ، متطرفو قريش بقيادة عكرمة بن أبى جهل وبعض سادات قريش ، وأمدوهم سراً بالرجال والسلاح ، فقامت بنو بكر بهجوم مباغت على بنى خزاعة ، فأوقعوا فيهم بعض الخسائر فى الأرواح والأموال ، ولما التجأت خزاعة إلى البيت الحرام ، طاردتهم بنو بكر مصممة على القضاء عليهم غير مكترثة بعهد الحديبية .

---

(١) سورة القصص آية ٥

وانتهت الهدنة بين قريش وحلفائها من جهة ، وبين المسلمين وحلفائهم من جهة أخرى ، وكان السبب فى انتهائها قريش وبنو بكر .

إعلان الحرب

١ - المسلمون :

سارع عمرو بن سالم الخزاعى بالتوجه إلى المدينة ، حاملاً أخبار نقض قريش وبنى بكر لعهد الحديبية ، فلما وصلها قصد المسجد ، وقص على الرسول - ﷺ - وأصحابه ما أصاب خزاعة من بنى بكر وقريش فى مكة وخارجها ، فأجابه الرسول - ﷺ - : « نصرت يا عمرو بن سالم » .

وخرج بديل بن ورقاء فى نفر من خزاعة ، حتى قدموا المدينة ، فأخبروا النبى - ﷺ - بما أصابهم ، فعزم الرسول - ﷺ - على فتح مكة .

٢ - قريش :

قدر معتدلو قريش وعقلاؤهم ، ماذا يعنيه انتهاء الهدنة بينهم وبين المسلمين ، فقرروا إيفاد أبى سفيان إلى المدينة للتشبث بتثبيت العهد وإطالة مدته .

ولما وصل أبو سفيان « عسفان » فى طريقه إلى المدينة رأى بديل بن ورقاء وأصحابه عائدين من المدينة ، فخاف أن يكونوا قد جاءوا محمداً رسول الله - ﷺ - وأخبروه بما حدث ، مما يزيد مهمته التى جاء من أجلها تعقيداً ، إلا أن بديلاً نفى مقابلة النبى - ﷺ - ولكن أبا سفيان ، عرف من فضلات راحلة بديل التى فيها نوى التمر ، أنه كان فى المدينة .

ووصل أبو سفيان إلى المدينة فقصد دار ابنته أم حبيبة زوج الرسول - ﷺ - وأراد أن يجلس على الفراش فطوته دونه ، فقال لها : يا بنية ما أدرى أرغبت لى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ؟ » قالت : « بل هو فراش رسول الله أنت مشرك نجس » . قال أبو سفيان : « والله لقد أصابك بعدى شر » .

واستشفع أبو سفيان بأبى بكر ليكلم الرسول - ﷺ - فأبى ، واستشفع بعمر بن الخطاب ، فأغلظ له فى الرد ، وقال : « أأنا أشفع لكم عند رسول الله - ﷺ - ؟ والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به » .

ودخل أبو سفيان ، على على بن أبى طالب وعنده فاطمة ، فرد عليه على « والله يا أبا سفيان لقد عزم رسول الله - ﷺ - على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه » .

واستشفع أبو سفيان بفاطمة بنت النبى - ﷺ - أن يجير ابنها الحسن بين الناس ، فقالت : « افيجير أحد على رسول الله ﷺ » .

فاستنصح أبو سفيان علياً بعد أن اشتدت عليه الأمور ، فنصحه أن يعود من حيث أتى ، فقفل أبو سفيان عائداً إلى قريش ، ليخبرهم بما لقى من صدود ، ولم يبق هنالك شك فى إعلان الحرب .

الاستعدادات

أمر الرسول - ﷺ - أصحابه بانجاز استعداداتهم للحركة ، وأرسل من يخبر قبائل المسلمين خارج المدينة ، بإنجاز استعداداتهم للحركة أيضاً ، كما أمر أهله أن يجهزوه . ولكنه لم يخبر أحداً بنواياه الحقيقية ولا باتجاه حركته .

بل أخفى هذه النوايا حتى لأقرب المقربين إليه ، ثم أرسل سرية أبى قتادة الأنصارى إلى بطن إخلم ، ليزيد من اسدال الستار الكثيف على نواياه الحقيقية .

دخل أبو بكر على ابنته عائشة زوج النبى - ﷺ - وهى تهىء جهاز الرسول ، فقال لها : « أى بنية . أأمركم رسول الله - ﷺ - أن تجهزوه ؟ قالت : نعم ، فتجهز . قال : « فأيه ترينه يريد ؟ قالت : والله لا أدرى » .

ولما اقترب موعد الحركة ، صرح الرسول - ﷺ - بأنه سائر إلى مكة ، وبث عيونه ليحول دون وصول أنباء حركته إلى قريش ، ولكن حاطب بن أبى بلتعة كتب رسالة أعطاها امرأة متوجهة إلى مكة يخبرهم فيها بنيات المسلمين فعلم الرسول - ﷺ - بهذه الرسالة ، فبعث علىَّ بن أبى طالب والزبير بن العوام ليدركا المرأة ويأخذا تلك الرسالة منها ، فأدركاها وأخذا الرسالة التى كانت معها .

ودعا رسول الله - ﷺ - حاطباً يسأله : ما حمله على ذلك ؟ قال حاطب : « يا رسول الله أما والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ما غيرت ولا بدلت ، ولكنى كنت أمرأ ليس له فى القوم من أهل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم » وقال عمر بن الخطاب : « يا رسول الله دعنى فلأضرب عنقه فإن الرجل قد نافق » .

قال الرسول : « أما إنه قد صدقكم ، وما يدريك ؟ لعل الله قد أطلع على من شهد بدرا فقال : أعملوا ما شئتم » . . ؟

شفع لحاطب ماضيه الحافل بالجهاد ، فعفا عنه الرسول - ﷺ - وأمر المسلمين أن يذكروه بأفضل ما فيه .

وأنجز المسلمون استعداداتهم للحركة

* قوات الطرفين *

١ - المسلمون :

عشرة آلاف رجل بقيادة الرسول - ﷺ - .

٢ - المشركون :

قريش وبنو بكر كل قبيلة لها قائد خاص .

فى الطريق إلى مكة

١ ـ ترك المسلمون المدينة فى رمضان من السنة الثامنة للهجرة قاصدين فتح مكة ، وكان جيش المسلمين مؤلفاً من الأنصار والمهاجرين ، وسليم ومزينة ، وغطفان وغفار وأسلم ، وطوائف من قيس وأسد وتميم ، وغيرهم من القبائل الأخرى فى عدد وعُدد لم تعرفه الجزيرة العربية من قبل ، وكلما تقدم الجيش نحو هدفه ازداد عدده ، بانضمام مسلمى القبائل التى تسكن على جانبى الطريق إليه .

ومع كثافة هذا الجيش وقوته وأهميته ، فقد بقى سر حركته مكتوماً لا تعرف قريش عنه شيئاً إذ مع اعتقاد قريش بأن محمداً ـ ﷺ ـ فى حل من مهاجمتها ، ولكنها لم تكن تعرف متى وأين وكيف سيجرى الهجوم المتوقع ، ولشعور قريش بالخطر المحدق بها ، أسرع كثير من رجالها بالخروج إلى المسلمين ، لاعلان اسلامهم ، فصادف بعض هؤلاء العباس بن عبد المطلب عم النبى ﷺ وجيش المسلمين فى طريقه إلى مكة .

وصل الجيش مساء موضع « مر الظهران » على مسافة أربعة فراسخ فعسكر هناك وأمر الرسول ـ ﷺ ـ أن يوقد كل مسلم ناراً ، حتى ترى قريش ضخامة الجيش دون أن تعرف هويته ، فيؤثر ذلك على معنوياتها وتستسلم للمسلمين دون قتال ، وبذلك يؤمن الرسول ـ ﷺ ـ هدفه فى دخول مكة دون إراقة الدماء .

وأوقد عشرة آلاف مسلم نيرانهم ، ورأت قريش تلك النيران تملأ الأفق البعيد ، فأسرع أبوسفيان بن حرب ، وبديل بن ورقاء ، وحكيم بن خزام بالخروج باتجاه النيران ، حتى يعرفوا مصدرها ونوايا أصحابها وأهوائهم ، فلما اقتربوا من موضع معسكر المسلمين ، قال أبو سفيان لصاحبه بديل : « ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً » . فرد عليه بديل بن ورقاء ؛ « هذه والله خزاعة حمشتها الحرب » فلم يقتنع أبو سفيان بهذا الجواب فقال : « خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها » .

وكان العباس عم النبى ـ ﷺ ـ قد خرج من معسكر المسلمين راكباً بغلة الرسول ـ ﷺ ـ ليخبر قريشاً بالجيش الضخم ، الذى جاء لقتالها ، والذى لا قبل لها به ، حتى يؤثر على معنوياتها وليضطرها للتسليم دون قتال ، فيحقن بذلك دماءها ، ويؤمن لها صلحاً شريفاً ، ويخلصها من معركة فاشلة معروفة النتائج سلفاً ، لا يمكن أن تثيرها غير العصبية الجاهلية ، فسمع وهو فى طريقه حديث أبى سفيان وبُديل بن ورقاء فعرف العباس صوت أبى سفيان ، فناداه وأخبره بوصول جيش المسلمين ونصحه بأن يلجأ إلى الرسول ـ ﷺ ـ حتى ينظر فى أمره قبل أن يدخل الجيش مكة صباح غد ، فيحيق به وبقومه العقاب .

أردف العباس أبا سفيان على بغلة الرسول ـ ﷺ ـ وتوجها نحو معسكر المسلمين ، فلما وصل العباس المعسكر ودخله وأخذ يمر بنيران الجيش فى طريقه إلى خيمة الرسول ـ ﷺ ـ رآه المسلمون ، فلم ينكروا شيئا ، لأنهم عرفوا العباس ، فلما مرّ العباس بنار عمر بن الخطاب عرف أبا سفيان ، وأدرك أن العباس يريد أن يجيره ، فأسرع عمر إلى خيمة النبى ـ ﷺ ـ وطلب منه أن يأمره بضرب عنق أبى سفيان ولكن الرسول ـ ﷺ ـ طلب من عمه أن يأخذ أبى سفيان إلى خيمته ويحضره إليه صباح غد ، فلما كان

الصباح وجيء بأبي سفيان إلى النبي - ﷺ - أسلم ليحقن دمه ، فقال العباس : « يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئاً » .

قال الرسول - ﷺ - : « نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن »[1] .

وأراد الرسول - ﷺ - أن يستوثق من سير الأمور كما يحب بعيداً عن وقوع الحرب ، فأوصى العباس باحتجاز أبي سفيان في مضيق الوادي ، حتى يستعرض الجيش الزاحف كله ، فلا تبقى في نفسه أية فكرة للمقاومة .

قال العباس : « خرجت بأبي سفيان حتى حبسته بمضيق الوادي ، حيث أمرني رسول الله ، ومرت القبائل على راياتها كلما مرت قبيلة ، قال : يا عباس من هؤلاء فأقول سُليم ! فيقول : ما لي ولسليم ؟ ثم تمر به القبيلة ، فيقول : يا عباس من هؤلاء ؟ فأقول : مزينة . فيقول : ما لي ولمزينة ؟ حتى نفدت القبائل ما تمر به قبيلة إلا سألني عنها ، فإذا أخبرته قال : ما لي ولبني فلان » .

« حتى مر الرسول - ﷺ - في كتيبته الخضراء ، وفيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم الا الحدُق من الحديد فقال : سبحان الله ! يا عباس ، من هؤلاء ؟ قلت : هذا رسول الله - ﷺ - في المهاجرين والأنصار . قال : ما لأحد بهؤلاء من قبل ولا طاقة ؟ والله - يا أبا الفضل - لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً » .

« قال العباس : يا أبا سفيان إنها النبوة . قال : نعم إذن » عند ذاك قال العباس لأبي سفيان : « النجاء إلى قومك ! » فأسرع أبو سفيان إلى مكة .

قبل دخول مكة

دخل أبو سفيان مكة مبهوراً مذعوراً ، وهو يحس أن من ورائه إعصاراً ، إذ انطلق اجتاح قريشاً وقضى عليها قضاءً لا تقوم لها قائمة بعده أبداً ، ورأى أهل مكة قوات المسلمين تقترب منهم ، ولم يكونوا حتى ذلك الوقت قد قرروا قراراً حاسماً ولا اتخذوا تدابير القتال الضرورية ، فاجتمعوا إلى ساداتهم ينتظرون الرأي الأخير ، فإذا بصوت أبي سفيان ينطلق بينهم مجلجلاً جازماً : « يا معشر قريش هذا محمد جاءكم فيما لاقبل لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن » .

دهشت امرأة أبي سفيان هند بنت عتبة ، التي كانت تشايع المتطرفين من مشركي قريش في عداوتهم للمسلمين ، وهي تسمع من زوجها هذا الكلام .

فوثبت إليه وأخذت بشاربه تلويه وصاحت : اقتلوا الحميت الدسم الأحمس « أي هذا الزق المنتفخ »

---

(١) انظر سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٨٦٢ باب بين العباس بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب في شأن أبي سفيان .

قبح من طليعة قوم ولم يكترث أبو سفيان لسباب امرأته فعاود تحذيره : « ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم ما لاقبل لكم به فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن . .) .

قالت قريش : قاتلك الله وما تغنى عنا دارك ؟ قال : « ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن » .

وأصبحت مكة تنتظر دخول المسلمين : اختفى الرجال وراء الأبواب الموصدة ، واجتمع بعضهم فى المسجد الحرام ، وبقى المتطرفون مصرين على القتال .

خطة الفتح

١ ـ كانت مجمل خطة الرسول لدخول مكة ما يلى :

(أ) الميسرة بقيادة الزبير بن العوام واجبها دخول مكة من شمالها .
(ب) الميمنة بقيادة خالد بن الوليد واجبها دخول مكة من جنوبها .
(جـ) قوات الأنصار بقيادة سعد بن أبى عبادة واجبها دخول مكة من الغرب .
(د) قوات المهاجرين بقيادة أبى عبيدة بن الجراح واجبها دخول مكة من الشمال الغربى من اتجاه جبل هند .
(هـ) مثابة اجتماع القوات بعد الفتح فى منطقة جبل هند .

٢ ـ كانت أوامر الرسول ﷺ لقواده بألا يقاتلوا إلا إذا اضطروا إلى القتال حتى يتم فتح مكة سلمياً وبدون قتال .

الفتح

١ ـ قبل شروع القطاعات فى دخول مكة ، سمع بعض المسلمين سعد بن عبادة يقول : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة . . لذلك رأى الرسول ـ ﷺ ـ حين بلغه ما قال سعد ، أن يأخذ الراية منه ، وأن يدفعها إلى ابنه قيس بن سعد ، فقد كان قيس أهدأ أعصاباً من أبيه ، وأكثر سيطرة على نفسه حتى يحول دون اندفاع سعد لإثارة الحرب .

دخلت قوات المسلمين مكة ، فلم تلق مقاومة ، إلا جيش خالد بن الوليد ، فقد تجمع متطرفو قريش مع بعض حلفائهم من بنى بكر فى منطقة « الخندمة » فلما وصلتها قطعات خالد أمطروها بوابل من نبالهم ، لكن خالداً لم يلبث أن فرقهم ولم يقتل من رجاله إلا اثنان ضلا طريقهما وانفصلا عنه ، ولم يلبث صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبى جهل ، حين رأوا الدائرة تدور عليهم أن تركوا مواضعهم فى « الخندمة » وفروا مع قواتهم .

واستسلمت المدينة المقدسة للمسلمين وفتحت أبوابها لهم .

فى مكة

عسكر النبى - ﷺ - فى منطقة جبل هند بعد أن سيطرت قواته على جميع مداخل مكة ، فلما استراح وتجمعت أرتاله نهض والمهاجرين والأنصار بين يديه ، وخلفه وحوله ، حتى دخل المسجد الحرام ، فأقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه ، ثم طاف بالبيت العتيق ، وكان فى الكعبة ستون وثلاثمائة صنما ، يطعنها بالقوس وهو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » . « جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد » .

ثم دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ودخلها ، فرأى الصور تملؤها ، ومن بينها صورتان إبراهيم واسماعيل ، يستقسمان بالأزلام ، فمحا ما فى الكعبة من صور ، ثم صلى ودار فى البيت يكبر ، ولما أنهى تطهير البيت من الأصنام والصور ، وقف على باب الكعبة وقريش تنظر ماذا يصنع ، فقال : « لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو مال فهو تحت قدمى هاتين ، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ، يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء :

الناس من آدم ، وآدم من تراب ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ﴾ . يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم ؟ .

قالوا : « خيراً أخ كريم وابن أخ كريم » .

قال : « فإنى أقول كما قال يوسف لإخوته : لا تثريب عليكم اليوم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء »[1] .

طهر المسلمون البيت من الأصنام ، وأتم محمد - ﷺ - بذلك فى أول يوم فتح مكة ما دعا إليه منذ عشرين سنة ، أتم تحطيم الأصنام والقضاء على الوثنية فى البيت الحرام بمشهد من قريش ، ترى أصنامها التى كانت تعبد ويعبد آباؤها ، وهى لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً .

وأقام محمد بمكة خمسة عشر يوما ، نظم خلالها شئون مكة ، وفقَّه أهلها فى الدين ، وأرسل بعض المفارز للدعوة إلى الإسلام ولتحطيم الأصنام من غير سفك للدماء .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٨٧٠ عفو رسول الله عن قريش .

خسائر الطرفين

١ ـ المسلمون :

شهيدان فقط .

٢ ـ المشركون :

ثلاثة عشر قتيلاً وبعض الجرحى .

سرايا الدعوة إلى التوحيد

الهدف :

١ ـ دعوة القبائل العربية المحيطة بمكة إلى الاسلام .
٢ ـ تحطيم الأصنام .

سرية خالد بن الوليد إلى العُزّى

بعث النبى ـ ﷺ ـ خالداً لخمس ليال بقين من رمضان ـ أى بعد خمسة أيام من فتح مكة ـ لهدم « العزى » فى ثلاثين فارساً من أصحابه ، فلما سمع سادتها بمسير خالد إليها ، علق عليها سيفه والتجأ إلى الجبل الذى هى فيه وهو يقول :

أيا عز شدى شدة لا شوى لها ... على خالد ألقى القناع وشمرى
ويا عز إن لم تقتلى اليوم خالداً ... فبوئى بإثم عاجل أو تنصرى

فلما انتهى إليها خالد هدمها وهو يقول :

يا عز كفرانك لا سبحانك ... إنى رأيت الله قد أهانك

وعاد خالد إلى النبى ـ ﷺ ـ بعد انتهاء واجبه .

سرية عمرو بن العاص إلى سواع

بعث رسول الله ـ ﷺ ـ فى شهر رمضان سنة ثمان للهجرة عمرو بن العاص إلى سواع صنم هُذيل ليهدمه . قال عمرو : « فانتهيت إليه وعنده السادن فقال : ما تريد ؟ قلت : أمرنى رسول الله ـ ﷺ ـ أن أهدمه ! فقال : لا تقدر على ذلك ! فقلت : لم ؟ فقال : تمنع ! فقلت : حتى الآن أنت فى الباطل ؟ ويحك هل يسمع أو يبصر ؟ ! فدنوت منه فكسرته وأمرت أصحابى فهدموا بيت خزانته فلم يجدوا فيه شيئاً ثم قلت للسادن : كيف رأيت ؟ فقال : أسلمت لله » .

سرية سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة

بعث رسول الله - ﷺ - فى شهر رمضان سنة ثمان للهجرة سعد بن أبى زيد الأشهلى إلى مناة ، وكانت بالمشلل للأوس والخزرج وغسان ، فخرج فى عشرين فارساً حتى انتهى إليها وعليها سادن فقال السادن : « ما تريد » ؟ قال : « هدم مناة » قال : « أنت وذاك ! » فأقبل سعد يمشى إليها هو وأصحابه ، فهدموا الصنم ولم يجدوا فى خزانتها شيئاً ، فانصرف إلى رسول الله - ﷺ - فى مكة ، وكان ذلك لست بقين من رمضان المبارك .

سرية خالد بن الوليد إلى جزيمة من كنانة

لما رجع خالد من هدم العزى ورسول الله - ﷺ - مقيم بمكة بعثه فى شوال سنة ثمان للهجرة إلى بنى جزيمة وكانوا بأسفل مكة ناحية « يلملم » بعثه « داعياً » إلى الإسلام ولم يبعثه « غازياً » فدعاهم إلى الإسلام ، فلم يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا ! فجعلوا يقولون : صبأنا .. صبأنا ! فجعل خالد يقتل منهم ويأسر ، ثم دفع إلى كل رجل أسيره ، إذا كان يوم من الأيام أمر خالد أن يقتل كل رجل أسيره ، فلما علم النبى - ﷺ - بذلك قال : « اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد » .

وفى رواية أخرى أن خالداً خرج فى ثلاثمائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار وبنى سُليم ، فلما انتهى إلى بنى جزيمة قال : « ما أنتم ؟ » قالوا : مسلمون ، قد صلينا وصدقنا بمحمد وبنينا المساجد فى ساحاتنا وأذنا فيها ! .

فقال : « ما بال السلاح عليكم ؟ » فقالوا : إن بيننا وبين قوم من العرب عداوة ، فخفنا أن تكونوا هم ، فأخذنا السلاح ! قال : « فضعوا السلاح » فلما وضعوه قال لهم : « استأسروا » فاستأسر القوم ، فأمر بعضهم فكتف بعضاً وفرقهم فى أصحابه ، فلما كان فى السحر نادى خالد : « من كان معه أسير فليدافه » والمدافه : الإجهاز عليه بالسيف . فأما بنوسليم فقتلوا من كان فى أيديهم ، وأما المهاجرون والأنصار فأرسلوا أسارهم ، فلما بلغ النبى - ﷺ - ذلك قال : « اللهم إنى أبرأ اليك مما صنع خالد » .

وبعث على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فورى لهم قتلاهم وما ذهب منهم » .

قال رسول الله - ﷺ - : « يا على ! اخرج إلى هؤلاء القوم ، فأنظر فى أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » فخرج على حتى جاءهم ، فودى لهم الدماء وما أصيب لهم من الأموال ، حتى إنه ليدى لهم مبلغة الكلب ، حتى إذا لم يبق شىء من دم ولا مال ، إلا وداه ، بقيت معه بقية من المال ، فقال لهم حين فرغ منهم : « إنى أعطيكم هذه البقية من المال احتياطيا لرسول الله - ﷺ - مما لايعلم وتعلمون ، فلما رجع وأخبر رسول الله ﷺ بما فعل ، قال له : « أصبت وأحسنت »(١) .

---

(١) أخرجه البخارى كتاب المغازى . باب بعث النبى ﷺ خالد بن الوليد إلى بنى جذيمة جـ٣ ص ٧١ بحاشية السندى . انظر سيرة ابن هشام جـ٤ ص ٨٨٤

ومن الواضح أن الرواية الأولى ، وهى الرواية التى رواها الامام البخارى ، فى صحيحه هى الصحيحة ، لأن صحيح البخارى هو أوثق المصادر فى روايته ، ولأنها أقرب للعقل والمنطق ، ولأن خالداً لو اقتنع باسلامهم لما تجرأ مطلقاً على قتلهم .

لقد قال بنو جزيمة : صبأنا . . صبأنا ، فحمل خالد هذه اللفظة على ظاهرها ، أى أنهم خرجوا من دين إلى دين ، فلم يكتف خالد بذلك حتى يصرحوا بالإسلام ، فالدليل على ذلك أنه قال لهم : « ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا » وهذا دليل قاطع على أنه لم يقتنع بأن كلمة : صبأنا هى بمعنى أسلمنا .

دروس من الفتح

١ - المباغتة :

حرص محمد - ﷺ - أشد الحرص ، على ألا يكشف نياته لأحد ، عندما أعتزم الحركة إلى مكة ، وكان سبيله إلى ذلك الكتمان الشديد .

لم يبح بنياته لأقرب أصحابه إلى نفسه أبى بكر ، بل لم يبح بنياته إلى أحب نسائه إليه عائشة بنت أبى بكر ، وبقيت نواياه سراً مكتوما ، حتى أنجز هو وأصحابه جميع استعدادات الحركة ، وحتى وصل أمره الانذارى إلى كافة المسلمين خارج المدينة وداخلها لإنجاز الاستحضارات ، ولكنه أباح بنواياه فى الحركة إلى مكة قبيل موعد خروجه من المدينة ، حيث لم يبق هنا مبرر للكتمان ، لأن الحركة أصبحت وشيكة الوقوع .

ومع ذلك فإنه بث عيونه وأرصاده ودورياته ، لتحول دون تسرب المعلومات عن حركته إلى قريش .

بث عيونه داخل المدينة ، ليقضى على كل خبر من أهلها إلى قريش ، وقد رأيت كيف أطلع على ارسال حاطب بن أبى بلتعة برسالته إلى مكة ، فاستطاع أن يحجز على تلك الرسالة قبل أن تصل إلى مثابتها .

وبث دورياته فى المدينة وخارجها ، ليحرم قريشاً من الحصول على المعلومات عن نوايا المسلمين ، وليحرم المنافقين والموالين لقريش من ارسال المعلومات إليها .

وبقى النبى - ﷺ - يقظا كل اليقظة ، حتى وصل ضواحى مكة ، ونجح بترتيباته فى حرمان قريش من معرفة تدابير المسلمين .

ولو انكشفت نيات المسلمين لقريش فى وقت مبكر ، لاستطاعت أن تحشد حلفاءها ، وتنظم قواتها ، وتقرر خطة مناسبة لمقاتلة المسلمين ، ولاستطاعت مقاومة النبى - ﷺ - وأصحابه أطول مدة ممكنة ، ولأوقعت بقواته خسائر فى الأرواح والأموال دون مبرر : « ولكن الله سلم » .

ليس من السهل أبداً ، أن يتحرك جيش كبير تبلغ قوته عشرة آلاف راكب وراجل إلى مكة ، دون أن تعرف قريش وقت حركته ونواياه ، حتى يصل ذلك الجيش إلى ضواحى مكة ، فيفلت الأمر من قريش ، ولا تعرف ما تصنع إلا أن تلجأ إلى التسليم .

إن ترتيبات الرسول - ﷺ - لحرمان قريش من معرفة نواياه ، أمنت له مباغتة ممتازة للغاية وأجبرت قريشا على الاستسلام دون قتال .

٢ - المعلومات :

يقرر القائد خطته بالنسبة إلى المعلومات ، التى يستطيع الحصول عليها عن نوايا العدو ، وعدد قواته وتنظيمه وتسليمه ومواضعه وأسلوب قتاله .

وكلما كانت المعلومات المتيسرة مفصلة وافية ، كانت خطة القائد دقيقة ، وكان احتمال نجاحها كبيراً .

لقد استطاع المسلمون أن يعرفوا من وفد بنى خزاعة أمر نقض الهدنة ، واستطاعوا معرفة تردد قريش فى قراراتها ، كما استطاعوا أن يعرفوا كل خبر مهم يدخل إلى المدينة أو يخرج منها فى أى وقت ما .

أما قريش فلم تستطع أن تحصل على أى نوع من المعلومات ، فى أى وقت كان قبل حركة الرسول - ﷺ - وأثناءها حتى وصوله ضواحى مكة .

حاول أبو سفيان أن يعرف نيات المسلمين من ابنته أم حبيبة زوج النبى - ﷺ - فلم يفلح وحاول أن يعرف ذلك من المسلمين فى المدينة ، ففشل وحاول أن يعرف شيئا من وفد خزاعة ، فأنكر الوفد ذهابه إلى الرسول - ﷺ - وهكذا بقيت قريش فى عماية من أمرها ، حتى وصل جيش المسلمين ضواحى مكة ، ونزل القضاء المحتوم بقريش وأثيب المسلمون بالفتح المبين .

٣ - بُعدُ النظر :

القائد الناجح هو الذى يتسم ببعد النظر بالاضافة إلى مزاياه الأخرى ، ويتخذ لكل أمر محتمل الوقوع التدابير الضرورية ، لمعالجته دون أن يترك مصائر قواته للأقدار .

إن النصر من عند الله يؤتيه من يشاء ، هذا أمر مفروغ منه ، ولكن الله يكتب النصر لمن أعد له عدته ، واحتاط لكل احتمال كبير أو صغير قد يصادفه ، ولذلك يشدد العسكريون لإدخال أسوأ الاحتمالات فى حسابهم عند الإقدام على أية حركة عسكرية .

أمر الرسول - ﷺ - أن يحبس أبو سفيان فى مدخل الجبل إلى مكة ، حتى تمرّ به جنود المسلمين ، فيحدث قومه عما رآه عن نية ويقين ، ولكى لا يكون اسراعه فى العودة إلى قريش قبل أن تتحطم معنوياته تماماً ، سبباً لاحتمال وقوع أية مقاومة من قريش مهما يكن نوعها ودرجة خطورتها .

وفعلاً اقتنع أبو سفيان بعد أن رأى قوات المسلمين كلها أن قريشاً لا قبل ها بالمقاومة .

وقد أدخل الرسول - ﷺ - فى حسابه أسوأ الاحتمالات أيضاً ، عند تنظيم خطته لفتح مكة ، فقد كانت تلك الخطة ، تؤمن تطويق البلد من جهاته الأربع بقوات مكتفية بذاتها بإمكانها العمل مستقلة عن القوات الأخرى عند الحاجة ، وبذلك تستطيع القضاء على أية مقاومة فى أية جهة من مكة ، كما تؤمن توزيع قوات قريش إلى أقسام لمقاومة كل رتل من ارتال المسلمين على انفراد ، فتكون قوات قريش ضعيفة فى كل مكان .

لقد اتخذ النبى - ﷺ - هذه التدابير الفعالة ، على الرغم من اعتقاده بأن احتمال مقاومة قريش للمسلمين ضعيف جداً ، وذلك ليحول دون مباغتة قواته وايقاع الخسائر بها مهما تكن الظروف والأحوال .

إن هذا العمل من أروع أمثلة بُعد النظر الذى يجب أن يتسم به القائد .

٤ - التنظيم :

كان جيش الفتح يتألف من المهاجرين والأنصار ، ومسلمى أكثر القبائل العربية المعروفة يومذاك ، ألف رجل من بنى سليم ، وألف رجل وثلاثة رجال من مزينة ، وأربعمائة من بنى غفار ، وأربعمائة وألف من بنى جهينة ، وأربعمائة من أسلم ، وعدد من تميم وأسد وقيس ، وغيرها من القبائل الأخرى .

إن هذا التنظيم جعل المشركين يترددون فى مقاومة جيش المسلمين ، لأن كل قبيلة لها فيه عدد كبير ، بل إن كثيراً من القبائل تعتبر نجاح هذا الجيش نجاحاً لها على الرغم من اختلاف العقيدتين ؟ والأكثر من ذلك ، فإن انتصار هذا الجيش لا يعتبر فخراً لقبيلة دون أخرى ، كما أن فشل أية قبيلة فى التغلب عليه لا يعتبر عاراً عليها ، لأن هذا الجيش لم يكن لقبيلة دون أخرى بل لم يكن للعرب دون غيرهم ، بل كان للإسلام ولمعتنقى هذا الدين من العرب وغير العرب .

إنى أعتقد أن تنظيم هذا الجيش ، بهذا الأسلوب الذى لا يخضع إلا للعقيدة الموحدة فقط دون غيرها من المؤثرات جعل القبائل كلها لا تحرص على مقاومته حرصها على مقاومة قبيلة خاصة ، وجعل أكثر تلك القبائل لا تريد فشله إذا لم تكن تريد النصر له ، وهذا أدى إلى تردد القبائل فى مقاومته ، وامتناعها عن نقل المعلومات عنه إلى قريش أو غيرها ، كما أعتقد أن قوة هذا الجيش وحدها ، لم تكن المانع الوحيد لتردد القبائل فى قتاله ونقل معلوماته للعدو ، لأن قتاله أو نقل المعلومات عنه لعدوه ، معناه ايقاع الخسائر فى المسلمين ، تلك الخسائر التى تكون على القبائل كلها لا على قبيلة واحدة ، وبذلك يشمل الضرر القبائل كلها لا المسلمين وحدهم ، ومن يضمن ألا تكون أكثر الخسائر من منتسبى تلك القبيلة ، التى سببت للمسلمين هذه الخسائر إنها لعبقرية جديرة بالتأمل .

٥ - المعنويات :

لم تكن معنويات المسلمين فى وقت من الأوقات ، أعلى وأقوى مما كانت عليه أيام فتح مكة البلد المقدس عند المسلمين ، الذى يتوجهون إليه فى صلاتهم كل يوم ، ويحجون بيته كل عام .

« وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى »[(١)] .

وقد كانت أهمية مكة للمهاجرين أكثر من أنها بلد مقدس ، فهى بلدهم الذى تركوه فراراً بدينهم ، وتركوا فيه أموالهم وأقرباءهم ، وكل عزيز عليهم .

لذلك لم يتخلف أحد من المسلمين عن هذه الغزوة إلا القليل من ذوى الاعذار الصعبة .

أما معنويات قريش ، فقد كانت متردية للغاية ومن حقها أن تتردى ، فقد أثرت عليها عمرة القضاء كما رأيت ، كما أثر عليها انتشار الاسلام فى كل بيت من بيوت مكة تقريبا ، وبذلك فقدت مكة روح المقاومة وروح القتال .

كان حماس بن قيس من بنى بكر يعد سلاحه قبل دخول الرسول - ﷺ - مكة فسألته امرأته المشركة : « لماذا تعدّ ما أرى ؟ » قال : « لمحمد وأصحابه » قالت : « والله ما أرى أنه يقوم لمحمد وأصحابه شىء » .

فإذا كان هذا حال معنويات المشركين فى مكة ، فكيف تستطيع المقاومة ، وكيف لا تتردد فى الاقدام على القتال ؟

إنى اعتبر أن فتح مكة قد تم للمسلمين من يوم عمرة القضاء ، لأن هذه العمرة أثرت على معنويات قريش أعظم التأثير .

إن عمرة القضاء فتحت قلوب قريش ، وغزوة الفتح فتحت أبوابها .

ومما زاد فى انحطاط معنويات قريش ، وشل كل روح للمقاومة فيها ما اتخذه الرسول - ﷺ - من ترتيبات ايقاد عشرة آلاف نار فى ليلة الفتح ، ومرور الجيش كله بأبى سفيان قائد قريش أو أكبر قائد فيها ، ودخول أرتال المسلمين من كل جوانب مكة .

لقد كانت معركة (الفتح) معركة معنويات لا معركة ميدان .

٦ - السلم :

حرص الرسول - ﷺ - منذ خروجه من المدينة حتى فتح مكة على نياته السلمية ، ليؤلف بذلك قلوب المشركين ويجعلها تقبل على الإسلام .

ايقاد النيران فى ليلة الفتح بشكل لم تعرف له العرب مثيلاً من قبل ، يستهدف القضاء على روح المقاومة فى قريش ، ويجبرها على التسليم دون قتال .

ومرور الجيش بأبى سفيان ، يستهدف اقناعه بعدم جدوى المقاومة ، ليعمل من جانبه على اقناع قريش بهذا الرأى .

---

(١) سورة البقرة آية ١٢٥

« ومن دخل دار أبي سفيان أو أغلق عليه بابه أو التجأ إلى البيت الحرام فهو آمن كما قال الرسول ﷺ [١] ومعناه : منع تجمع الناس للمقاومة ، واجبارهم على الاستسلام . بل إن دخول ارتال المسلمين من كل جانب من جوانب مكة ، لا يعنى إلا إقناع قريش باستحالة المقاومة .

كما عهد - ﷺ - إلى امرأته ، حين أمرهم أن يدخلوا مكة ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم .

كل ذلك كان يستهدف السلم وحقن الدماء .

وبقى الرسول - ﷺ - مصراً على نياته السلمية بعد الفتح أيضاً ، فقد أصدر العفو العام عن قريش وقال لهم : « أذهبوا فأنتم الطلقاء »[٢] .

وكما حرص الرسول - ﷺ - على السلم الإجماعى حرص على السلم للأفراد ، فمنع القتل حتى لفرد من المشركين : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه »[٣] .

قتلت خزاعة حلفاء المسلمين رجلاً من هذيل غداة يوم الفتح ، لثأر سابق لها عنده ، فغضب الرسول أشد الغضب ، وقام فى الناس خطيباً ومما قاله : « يا معشر خزاعة ! ارفعوا أيديكم عن القتل ، فقد كثر إن نفع ، لقد قتلتم قتيلاً لأدينه فمن قتل بعد مقامى هذا فأهله بخير النظرين : إن شاءوا قدم قاتله ، وإن شاءوا فعقله - أى دينه » .

ثم ورى بعد ذلك الرجل الذى قتلت خزاعة[٤] .

بل إن الرسول لم يقتل رجلاً من المشركين ، أراد اغتياله شخصياً ، وهو يطوف فى البيت بل تلطف معه ، فقد اقترب منه فضالة ابن عمير ، يريد أن يجد له فرصة لقتله ، فنظر إليه النبى - ﷺ - نظرة عرف بها طويته ، فاستدعاه وسأله : « ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ » قال : « لا شىء ! كنت أذكر الله » . فضحك النبى - ﷺ - وتلطف معه ووضع يده على صدره ، فأنصرف الرجل وهو يقول : « ما رفع يده عن صدرى ، حتى ما من خلق الله شىء أحب إلى منه »[٥] .

لقد كان الرسول يستهدف من حرصه على السلم ، تأليف قلوب الناس ، وتوحيد كلمتهم ، ليقبلوا طائعين على الإسلام ، فلم يكن من السهل على قريش أن تقبل بمصيرها الذى آلت إليه ، وهى كانت سيدة العرب غير منازع ، لأنها أعظمهم حضارة ، وأشدهم بأساً ، وأكثرهم مالاً ، وفى بلدها البيت الحرام .

ليس من السهل أن ترضى قريش بمصيرها هذا ، وتقبل على الإسلام طائعة ، وتحمل رايات الجهاد ، لو لم تعامل هذه المعاملة السلمية ، التى لم تكن تتوقعها ، وبذلك انقلب موقفها من أشد الناس

(١) أخرجه ابن هشام جـ ٤ ص ٨٦٢
(٢) أخرجه ابن هشام جـ ٤ ص ٨٧٠
(٣) سورة التوبة آية ٦
(٤) أخرجه ابن هشام جـ ٤ ص ٨٧٣ باب خطبة رسول الله ﷺ غداة الفتح .
(٥) أخرجه ابن هشام جـ ٤ ص ٨٧٤ . باب قصة فضالة الليثى .

عداوة للإسلام ، إلى أحرص الناس على رفع راية الإسلام ، : ﴿ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾[١] زد على ذلك أن « السلام » فى الإسلام دين ، أمر الله به فى محكم كتابه : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ﴾[٢] .

٧ - الوفـــاء :

التاريخ العسكرى طافح بأعمال الظلم والانتقام ، التى قام بها المنتصرون ، ويندر أن نجد فى التاريخ كله وفاء يشابه وفاء الرسول - ﷺ - بل لا نجد مثيلاً فى التاريخ كله لهذا الوفاء .

رأى الأنصار دخول الرسول - ﷺ - بلده الحبيب ، بعد فراق طال أمده ، وشاهدوا التفاف قومه وأهله حوله ، فقال بعضهم لبعض : أترون رسول الله - ﷺ - إذ فتح الله عليه أرضه وبلده ، يقيم بها ؟ ولكن محمداً - ﷺ - ما لبث أن سألهم : « ما قالوا ؟ » فلما أباحوا له بما يخالج نفوسهم بعد تردد ، قال : « معاذ الله المحيا محياكم والممات مماتكم » .

وقد كان من حقه أن يستقر بمكة ، وفيها أهله وقومه ، وفيها بيت الله الحرام ، ولكن وفاءه أبى عليه أن ينسى أصدقاء الشدة فى وقت الرخاء .

ورأى علىّ بن أبى طالب مفتاح الكعبة بيد الرسول - ﷺ - فقال له : يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية » .

قال الرسول - ﷺ - : « أين عثمان بن طلحة ؟ » فلما جاء عثمان قال له : « يا ابن طلحة ، هاك مفتاحك اليوم يوم بر ووفاء »[٣] .

أما وفاؤه بعهوده وحرصه الشديد على التمسك بها فحديث معاد .

تلك أمثلة من وفاء الرسول - ﷺ - حتى قال أعداؤه عنه قبل أصدقائه : « أنه أوصل الناس وأحلمهم وأكرمهم وأوفاهم » .

٨ - التواضـع :

السيطرة على الأعصاب فى حالتى النصر والفشل ، من أصعب الأمور التى يجب أن تتوفر فى القائد الممتاز ، وربما تكون السيطرة على الأعصاب فى حالة الهزيمة أسهل من السيطرة عليها فى حالة النصر ، فكم غير النصر من أخلاق القادة وجعلها تنقلب من حال إلى حال .

---

(١) سورة البقرة آية ٥

(٢) سورة الانفال آية ٦١

(٣) أخرجه ابن هشام جـ ٤ ص ٨٧٠ . باب رده مفتاح الكعبة لعثمان بن طلحة .

ولكن نصر المسلمين يوم الفتح ، جعل الرسول - ﷺ - يتواضع لله ، حتى رآه المسلمون يوم ذاك ورأسه قد انحنى على رحله ، وبدأ عليه التواضع الجم ، حتى كادت لحيته تمس واسطة راحلته خشوعاً ، وترقرقت فى عينيه الدموع تواضعاً وشكراً لله .

إن قيمة هذا التواضع فى موقف يُعدّ أكبر نصر للمسلمين ، تتضاعف قيمته فى النفس ، إذا قارناه بمواقف العظمة والجبروت ، التى أبداها مختلف القادة فى مختلف الظروف ، عندما حازوا نصراً أقل قيمة من فتح مكة بكثير .

إن تواضع الرسول - ﷺ - درس عملى لكل قائد منتصر ، وما أصعب الظهور بهذا المظهر ساعة النصر .

٩ - العقيدة :

رأيت كيف طوت أم حبيبة زوج الرسول - ﷺ - فراش النبى - ﷺ - عن والدها أبى سفيان ، وقد جاءها من سفر قاصد بعد غياب طويل ، ذلك لأنها رغبت به عن مشرك نجس ولو كان هذا المشرك أباها الحبيب .

وعندما جاء أبو سفيان مع العباس عم النبى - ﷺ - ليواجه الرسول - ﷺ - رآه عمر بن الخطاب ، فترك خيمته واشتد نحو خيمة الرسول ، فلما وصلها قال : « يا رسول الله دعنى أضرب عنقه » . قال العباس : « يا رسول الله إنى قد أجرته » فلما أكثر عمر قال العباس : (مهلاً يا عمر ، ما تصنع هذا إلا أنه من بنى عبد مناف ، ولو كان من بنى عدى ما قلت هذه المقالة) فقال عمر : « مهلاً يا عباس ، فوالله اسلامك يوم أسلمت كان أحب لى من اسلام الخطاب لو أسلم » هذا صحيح ، فقد كان عمر يمثل عقيدة المسلمين الأولين الراسخة ، بينما كان العباس حديث عهد بالإسلام .

وكيف تبرز إقدام المهاجرين على الاشتراك فى غزوة الفتح ، تلك الغزوة التى لم يكن من المستبعد أن تصطرع فيها قوات المسلمين ، وقوات قريش قوم المهاجرين وأهلهم فى بلدهم الحبيب .

إن عقيدة المسلمين لا تخضع للمصلحة الشخصية ، بل هى رهن المصلحة العامة وحدها .

١٠ - تحطيم الأصنام :

فى مكة يوم الفتح ، وفى غير مكة بعيد الفتح ، قضى على عقيدة الإشراك فى أقوى معقل من معاقلها فى البلاد العربية كلها .

إن تحطيم الأصنام - وهى التى كان يعبدها المشركون ، ويقربون القرابين إليها دون أن تذود عن نفسها ، أو تصيب من حطمها بأذى ، كما كان يعتقد المشركون بها - نزع من نفوسهم إلى الأبد آخر اعتقاد فى قدسية هذه الأصنام وفائدتها .

١١ - القضايا الإدارية :

كان موقف إعاشة المسلمين فى غزوة الفتح جيداً ، فلم يشك منهم أحد من نقص الأرزاق قبل الفتح وبعده ، حتى عادوا إلى المدينة .

كما كان موقف النقلية جيداً أيضاً ، فقد كان لدى جيش المسلمين عدد كبير من الإبل والخيل ، أفادوا منها فى تنقلهم للركوب وحمل أمتعتهم .

أما تسليحهم فكان ممتازاً ويكفى أن تسمع وصف الكتيبة الخضراء ، التى كان فيها النبى - ﷺ - فقد كان أفرادها لا يرى منهم إلا الحُدقُ من كثرة الحديد .

لقد تأمنت كافة القضايا الإدارية للمسلمين فى غزوة الفتح ، بشكل لم يسبق له مثيل فى غزوات الرسول - ﷺ - السابقة .

إرشـــاد ربانى

قوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بنى اسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين** ﴾ .

هذا خطاب كريم من رب عظيم إلى الجماعة المؤمنة ، يقول فيها رافع السماء بلا عمد آمراً عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله فى جميع أحوالهم وأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم ، وأن يستجيبوا لله ولرسوله ، كما استجاب الحواريون لعيسى حين قال : (**من أنصارى إلى الله**) أى من معين فى الدعوة إلى الله عز وجل ؟ (**قال الحواريون**) وهم أتباع عيسى عليه السلام (**نحن أنصار الله**) أى نحن أنصارك على ما أرسلت به ومؤازروك على ذلك ولهذا بعثهم دعاة إلى الناس فى بلاد الشام فى الاسرائيلين واليونانيين ، وهكذا كان رسول الله - ﷺ - يقول فى أيام الحج : « من رجل يؤوينى حتى أبلغ رسالة ربى فإن قريشاً قد منعونى أن أبلغ رسالة ربى »[(١)] حتى قيض الله عز وجل له الأوس والخزرج من أهل المدينة فبايعوه وآزروه وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وفوا له بما عاهدوا الله عليه ولهذا سماهم الله ورسوله الأنصار وصار ذلك علما عليهم رضى الله عنهم وأرضاهم .

وقوله تعالى : ﴿ **فآمنت طائفة من بنى اسرائيل وكفرت طائفة** ﴾ **أى لما بلغ عيسى ابن مريم - عليه الصلاة والسلام - رسالة ربه إلى قومه وآزره من الحواريين ، اهتدت طائفة من بنى اسرائيل بما جاءهم به ، وضلت طائفة فخرجت عما جاءهم به ، وجحدوا نبوته ورموه وأمه بالعظائم ، وهم اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة وغلت فيه طائفة ممن اتبعه ، حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة وافترقوا فرقاً وشيعاً فمن قائل منهم : إنه ابن الله ، وقائل : إنه ثالث ثلاثة : الأب والابن وروح القدس ومن قائل : إنه الله وكل هذه الأقوال مفصلة فى سورة النساء .**

---

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٦٢ تفسيرة سورة الصف .

وقوله تعالى : ﴿ فأيدنا الذين امنوا على عدوهم ﴾ أى نصرناهم على من عاداهم من فرق النصارى ﴿ فأصبحوا ظاهرين ﴾ أى عليهم وذلك ببعثة محمد - ﷺ - كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله ، حدثنى أبو السائب حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المنهال يعنى ابن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما أراد الله عز وجل أن يرفع عيسى إلى السماء خرج إلى أصحابه وهم فى بيت أثنا عشر رجلاً من عين فى البيت ورأسه يقطر ماء فقال : إن منكم من يكفر بى أثنتى عشرة مرة بعد أن آمن بى ، قال ثم قال : أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى ويكون معى فى درجتى : قال فقام شاب من أحدثهم سنا فقال : أنا ، فقال له : أجلس ثم أعاد عليهم ، فقام الشاب فقال : أنا ، فقال له : أجلس ثم عاد عليهم ، فقام الشاب فقال : أنا فقال : نعم أنت ذاك . قال فألقى عليه شبه عيسى ، ورفع عيسى عليه السلام من روزنة فى البيت إلى السماء ، قال وجاء الطلب من اليهود ، فأخذوا شبيهه فقتلوه وصلبوه وكفر به بعضهم أثنتى عشرة مرة بعد أن آمنوا به فتفرقوا فيه ثلاث فرق ، فقالت فرقة كان الله فينا ما شاء ، ثم صعد إلى السماء ، وهؤلاء اليعقوبية .

وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء الله ثم رفعه إليه ، وهؤلاء النسطورية ، وقالت فرقة كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ، ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء المسلمون فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً - ﷺ - « فآمنت طائفة من بنى اسرائيل وكفرت طائفة » يعنى الطائفة التى كفرت من بنى اسرائيل فى زمن عيسى والطائفة التى آمنت فى زمن عيسى ﴿ فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ بإظهار محمد - ﷺ - دينهم على دين الكفار . هذا لفظه فى كتابه عند تفسير هذه الآية الكريمة ، وهكذا رواه النسائى[1] عند تفسير هذه الآية من سننه عن أبى كريب عن محمد بن العلاء عن أبى معاوية بمثله سواء فأمة محمد - ﷺ - لا يزالون ظاهرين على الحق حتى يأتى أمر الله وهم كذلك ، وحتى يقاتل آخرهم الدجال مع المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام كما وردت بذلك الأحاديث الصحاح .

---

(١) النسائى

سورة الجمعة

بين يدى السورة

قال صاحب البصائر :

السورة مدنية بالاتفاق . وآياتها إحدى عشرة .
وكلماتها مائة وثمانون . وحروفها سبعمائة وعشرون . وتسمى سورة الجمعة لقوله : ﴿ إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة ﴾ .

معظم مقصود السورة :

بيان بعث المصطفى وتعييد اليهود والشكاية منهم وإلزام الحجة عليهم والترغيب فى حضور الجمعة ، والشكاية من قوم بإعراضهم عن الجمعة وتقوية القلوب بضمان الرزق لكل حى فى قوله : ﴿ والله خير الرازقين ﴾ .

والسورة خالية من الناسخ والمنسوخ .

المتشابهات :

قوله : (ولا يتمنونه) وفى البقرة (ولن يتمنوه) . مناسبتها لما قبلها :

وذلك من وجوه :

١ ـ إنه ذكر فى السورة قبلها حال موسى مع قومه بإيذائهم له ، ناعيا عليهم ذلك وذكر فى هذه حال الرسول ـ ﷺ ـ وفضل أمته تشريفاً لهم ، ليعلم الفرق بين الاثنين .

٢ ـ إنه حكى فى السورة قبلها قول عيسى : « ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » وذكر هنا « هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم » اشارة إلى أنه هو الذى بشر به عيسى .

٣ ـ لما ختم السورة قبلها بالأمر بالجهاد وسماه تجارة ختم هذه السورة بالأمر بالجمعة ، وأخبر أن ذلك خير من التجارة الدنيوية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي
بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن
كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾

معانى المفردات

القدوس : المنزه عن النقائص ، المتصف بصفات الكمال ، الأميين : هم العرب ، واحدهم أمى نسبة إلى الأم التى ولدته ، لأنه على الحال التى ولد عليها ، لم يتعلم الكتابة والحساب ، فهو على الجبلة الأولى .

يزكيهم : أى يطهرهم بتلاوة آياته ، آخرين : واحدهم آخر ، بمعنى غير ، لما يلحقوا بهم : أى لم يلحقوا بهم بعد وسيحلقون ، وهم من جاء بعد الصحابة إلى يوم الدين .

المناسبة وإجمال المعنى

يسبح لله كل ما فى السموات ، وما فى الأرض تسبيحاً متجدداً مستمراً ، لأنه صاحب الملك ، وبيده الأمر والخلق ، وهو القدوس المنزه عن كل نقص ، المتصف بكل كمال ، العزيز الذى لا يغلبه غالب ، الحكيم فى كل شىء .

وأول مظهر من مظاهر فضله ونعمه على خلقه ، إرسال الرسل وخاصة النبى محمداً - ﷺ - إماماً لهم ، وخاتماً للرسل كلهم ، ولا شك أن هذا من مظاهر عزته وحكمته هو الحق تبارك وتعالى ، الذى بعث فى العرب رسولاً من جنسهم أمياً مثلهم ، لا يقرأ ولا يكتب ، ومع ذلك فهو يتلو عليهم الآيات ، ويحملهم على طهارة النفس وزكاء الطبع ، ويخلق فيهم الضمير الحى والوازع الإلهى ، وهو الذى يعلمهم القرآن والحكمة النافعة المأخوذة من حديثه . وقوله وفعله ، فهو المثل الأعلى والقائد الأسمى ، الذى قاد أمته إلى الحياة الصميمة ، وأوصلهم إلى مناهل العلوم والمعارف فى التشريع والقضاء والسياسة والاقتصاد ، وإن كانوا من قبل لفى جاهلية جهلاء وضلالة عمياء ، وأى ضلال أكثر من ضلال العرب قبل الإسلام .!

يُعلم العرب الكتاب والحكمة ويزكيهم من دنس الرجس والشرك وسوء الفعل ، ويعلم آخرين منهم لم يلحقوا بهم وسيلحقون بهم ، هؤلاء هم الذين دخلوا فى الإسلام من العرب ومن غيرهم بعد الصحابة ، الذين ارتشفوا من معين النبوة مشافهة ، وما أروع كلمة « منهم » أى من الأمة الإسلامية ، إذ الإسلام لا يقر باختلاف الأجناس والألوان ، بل كل مسلم من أى جنس ولون ، فهو عضو فى أسرة الإسلام وأخو المسلم فى أى مكان ، وإن بعدت الدار وشط المزار .

ذلك الفضل العظيم فضل الله ونعمته ، يؤتيه من يشاء من عباده ، والله ذو الفضل العظيم ، ولا حرج على فضل الله ، حيث فضل الرسول وقومه وجعلهم متبوعين بعد أن كانوا أوزاعاً لا وزن لهم ، ولا قيمة لهم عند غيرهم من الأمم ، وظل الحال كذلك فالعرب لعبوا ويلعبون دوراً مهماً فى العالم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ﴾ . هذا إخبار منه سبحانه وتعالى بأنه يسبح له ما فى السموات وما فى الأرض ، أى من جميع المخلوقات ناطقها وجامدها ، كما قال تعالى : ﴿ وإن من شىء إلا يسبح بحمده ﴾(١) ثم قال تعالى : ﴿ الملك القدوس ﴾ أى هو مالك السموات والأرض المتصرف فيهما بحكمه ، وهو المقدس ، أى المنزه عن النقائص ، الموصوف بصفات الكمال ﴿ العزيز الحكيم ﴾ العزيز الذى لا يغلب ، بل هو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴿ قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ﴾(٢) كل شىء قائم به ، وكل شىء خاشع له ، عز كل ذليل ، ورضا كل بائس ، وغنى كل فقير ، وقوة كل ضعيف ، من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه ، فهو ـ سبحانه ـ مفزع كل ملهوف ، يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء عمن ناداه ، الحكيم الذى تنزه عن العبث وعن كل نقص ، فهو ذو الحكمة البالغة ، إذا قضى فلا راد لقضائه ، وإذا أراد قُضى المراد ، وإذا حكم فلا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ، فهو الجدير بأن يسبح لله كل من فى السموات والأرض ، إذ هو صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة . ولما كان للتسبيح فضل كبير عند الله ، فقد عقد الإمام المنذرى باباً تحت عنوان .

الترغيب فى جوامع من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير

١ ـ عن جويرية ـ رضى الله عنها ـ : أن النبى ـ ﷺ ـ خرج من عندها ثم رجع بعد أن أضحى وهى جالسة ، فقال : ما زلت على الحال التى فارقتك عليها ؟

قالت : نعم . قال النبى ـ ﷺ ـ : لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته ، رواه مسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجة والترمذى .

وفى رواية لمسلم : سبحان الله عدد خلقه ، سبحانه الله رضاء نفسه ، سبحان الله زنة عرشه ، سبحان الله مداد كلماته ، زاد النسائى فى آخره . والحمد لله كذلك .

(١) سورة الاسراء آية ٤٤
(٢) سورة المؤمنون آية ٨٨

وفى رواية له : سبحان الله وبحمده ولا إله إلا الله والله أكبر عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته .

ولفظ الترمذى : أن النبى - ﷺ - مر عليها - وهى فى المسجد ، ثم مر بها وهى فى المسجد قريب نصف النهار فقال : ما زلت على حالك ؟ فقالت : نعم ، فقال : أعلمك كلمات تقولينها : سبحان الله عدد خلقه وسبحان الله عدد خلقه ، سبحان الله عدد خلقه ، ثلاث مرات ، سبحان الله رضا نفسه ، سبحان الله رضا نفسه ثلاث مرات وذكر زنة عرشه ومداد كلماته ثلاثاً ثلاثاً ، وقال : حديث حسن صحيح ، وفى رواية للنسائى : تكرار كل واحدة ثلاثاً أيضاً .

نوع آخـــر

١ - عن عائشة بنت سعد بن أبى وقاص عن أبيها رضى الله عنه أنه دخل مع رسول الله - ﷺ - على امرأة وبين يديها نوى أو حصى تسبح به ، فقال : أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا أو أفضل ؟ فقال : سبحان الله عدد ما خلق فى السماء ، سبحان الله عدد ما خلق فى الأرض ، سبحان الله عدد ما بين ذلك ، سبحان الله عدد ما هو خالق ، والله أكبر مثل ذلك ، والحمد لله مثل ذلك ، ولا إله إلا الله مثل ذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله مثل ذلك .

رواه أبو داود والترمذى ، وقال : حديث حسن(١) .

٢ - وروى الترمذى والحاكم أيضاً عن صفية - رضى الله عنها - أن النبى - ﷺ - دخل عليها وبين يديها أربعة آلاف نواة تسبح بهن ، فقال : ألا أعلمك بأكثر مما سبحت به ؟ فقالت : بل علمنى ، فقال : قولى سبحان الله عدد خلقه ، وقال الحاكم : قولى سبحان الله عدد ما خلق من شىء ، وقال الترمذى : حديث غريب لا نعرفه من حديث صفية إلا من هذا الوجه من حديث هاشم بن سعيد الكوفى وليس إسناده معروف(٢) .

نوع آخـــر

١ - عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : رآنى النبى - ﷺ - ، وأنا أحرِّك شفتى ، فقال لى : بأى شىء تحرك شفتيك يا أبا أمامة ؟ فقلت : أذكر الله يا رسول الله ، فقال : ألا أخبرك بأكثر وأفضل من ذكرك بالليل والنهار ؟ قلت بلى يا رسول الله . قال تقول : سبحان الله عدد ما خلق ، سبحان الله ملء ما خلق سبحان الله عدد ما فى الأرض ، سبحان الله ملء ما فى الأرض والسماء ، سبحان الله عدد ما أحصى كتابه ، سبحان الله ملء ما أحصى كتابه ، سبحان الله عدد كل شىء ، سبحان الله ملء كل شىء ، الحمد لله عدد ما خلق ، والحمد لله ملء ما خلق ، والحمد لله عدد ما فى الأرض والسماء ، والحمد لله ملء ما فى الأرض والسماء ، والحمد لله عدد ما أحصى كتابه ، والحمد لله ملء ما أحصى كتابه ، والحمد لله عدد كل شىء ، والحمد لله ملء كل شىء . رواه أحمد وابن أبى الدنيا واللفظ له ،

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه جـ٥ ص٥٢٥ رقم ٣٥٦٨ كتاب الدعوات . باب فى دعاء النبى ﷺ وتعوذه دبر كل صلاة
أنظر سنن أبى داود . كتاب الصلاة . باب التسبيح بالحصى

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه جـ٥ ص٥١٩ رقم ٣٥٥٤ كتاب الدعوات باب ١٠٤

والنسائى وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحهما باختصار ، والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين(١) .

ورواه الطبرانى بإسنادين أحدهما حسن ولفظه قال : أفلا أخبرك بشىء إذا قلته ، ثم دأبت الليل والنهار لم تبلغه ؟ قلت : بلى . قال تقول : الحمد لله عدد ما أحصى كتابه ، والحمد لله ملء ما أحصى كتابه ، والحمد لله عدد ما أحصى خلقه ، والحمد لله ملء ما فى خلقه ، والحمد لله ملء سماواته وأرضه ، والحمد لله عدد كل شىء ، والحمد لله على كل شىء ، وتسبح مثل ذلك وتكبر مثل ذلك .

نوع آخــر

١ - عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - حدثهم أن عبداً من عباد الله قال : يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ولعظيم سلطانك ، فعضلت بالملكين ، فلم يدريا كيف يكتبانها ، فصعدا إلى السماء ، فقالا يا ربنا : إن عبدك قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها ؟ قال الله ، هو أعلم بما قال عبده : ماذا قال عبدى ؟ قال : يا رب إنه قد قال : يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ولعظيم سلطانك ، فقال الله لهما : اكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها .

رواه أحمد وابن ماجه(١) . وإسناد متصل ورواته ثقات .

إلا إنه لا يحضرنى الآن فى صدقة ابن بشير مولى العمر بنى جرح ، ولا عدالة (عضلت بالملكين) بتشديد الضاد المعجمة : أى اشتدت عليهما وعظمت واستغلق عليهما معناها .

نوع آخــر

١ - روى عن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : من قال : الحمد لله الذى تواضع كل شىء لعظمته ، والحمد لله الذى ذل كل شىء لعزته ، والحمد لله الذى خضع كل شىء لملكه ، والحمد لله الذى استسلم كل شىء لقدرته ، فقالها يطلب بها ما عند الله ، كتب الله له بها ألف حسنة ، ورفع له بها ألف درجة ، ووكل به سبعون ألف ملك ، يستغفرون له إلى يوم القيامة .

رواه الطبرانى(٢) .

نوع آخــر

١ - عن أبى أيوب - رضى الله عنه - قال : قال رجل عند رسول الله - ﷺ -: الحمد لله حمداً كثيراً طيباً . مباركاً فيه ، فقال رسول الله - ﷺ - : من صاحب الكلمة ؟ فسكت الرجل ورأى أنه قد هجم من رسول الله - ﷺ - على شىء يكرهه فقال رسول الله - ﷺ - : من هو ؟ فإنه لم يقل إلا صواباً فقال الرجل : أنا قلتها يا رسول الله أرجو بها الخير ، فقال : والذى نفسى بيده لقد رأيت ثلاثة عشر ملكاً

---

(١) أخرجه كنز العمال جـ١ رقم ٢٠٤٤

(٢) أخرجه ابن ماجة فى سننه جـ٢ ص١٢٤٩ كتاب الأدب باب فضل الحامدين رقم ٣٨٠١

يبتدرون كلمتك ، أيهم يرفعها إلى الله تبارك وتعالى ؟

رواه ابن أبى الدنيا والطبرانى بإسناد حسن واللفظ له والبيهقى(١) .

٢ ـ وعن أنس رضى الله عنه قال : كنت مع النبى ـ ﷺ ـ جالساً فى الحلقة ، إذ جاء رجل فسلم على النبى ـ ﷺ ـ والقوم فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، فرد النبى ـ ﷺ ـ : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، فلما جلس الرجل قال : الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، كما يحب ربنا أن يحمد وينبغى له ، فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ : كيف قلت ؟ فرد عليه كما قال ، فقال النبى ـ ﷺ ـ : والذى نفسى بيده ، لقد ابتدرها عشرة أملاك كلهم حريص على أن يكتبها ، فما دريا كيف يكتبونها حتى رفعوها إلى ذى العزة ، فقال : اكتبوها كما قال عبدى . رواه أحمد ورواته ثقات والنسائى وابن حبان فى صحيحه إلا أنهما قالا : كما يحب ربنا ويرضى(٢) .

نوع آخـر

١ ـ عن سلمان رضى الله عنه عن النبى ـ ﷺ ـ قال : قال رجل : الحمد لله كثيراً ، فأعظمها الملك أن يكتبها فراجع فيها ربه عز وجل ، فقال : اكتبها كما قال عبدى . رواه الطبرانى بإسناد فيه نظر(٣) .

٢ ـ وروى أبو الشيخ وابن حبان عن طريق عطية عن أبى سعيد مرفوعاً أيضاً : إذا قال العبد الحمد لله كثيراً . قال الله تعالى : اكتبوا لعبدى رحمتى كثيراً(٤) .

نوع اخـر

١ ـ عن على رضى الله عنه : أن النبى ـ ﷺ ـ نزل عليه جبرائيل ـ عليه السلام ـ فقال : يا محمد إذا سرك أن تعبد الله ليلة حق عبادته أو يوماً ، فقل : اللهم لك الحمد حمداً كثيراً خالداً مع خلودك ، ولك الحمد حمداً لا منتهى له دون علمك ، ولك الحمد حمداً لا منتهى له دون مشيئتك ، ولك الحمد حمداً لا آخر لقائله إلا رضاك . رواه البيهقى ، وقال : لم أكتبه إلا هكذا وفيه انقطاع بين على ومن دونه(٥) .

---

(١) أخرجه الطبرانى وذكره كنز العمال جـ٢ رقم ٣٥٧٠

(٢) أخرجه أحمد جـ٣ ص ١٥٨

انظر مجمع الزوائد جـ ١٠ ص ٩٦ باب ما جاء فى الحمد .

(٣) أخرجه مجمع الزوائد جـ ١٠ ص ٩٦ ، ٩٧ باب ما جاء فى الحمد .

(٤) أخرجه مجمع الزوائد جـ ١٠ ص ٩٦ باب ما جاء فى الحمد .

(٥) أخرجه مجمع الزوائد جـ ١٠ ص ٩٦ باب ما جاء فى الحمد .

البعثة النبوية

قوله تعالى : ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم ﴾ الأميون هم العرب ، كما قال تعالى : ﴿ وقل للذين أوتو الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾(١) . وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفى من عداهم ، ولكن المنة عليهم أبلغ وأكثر ، كما قال تعالى فى قوله : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾(٢) وهو ذكر لغيرهم يتذكرون به ، وكذا قال تعالى : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾(٣) وهذا وأمثاله لا ينافى قوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً ﴾(٤) وقوله : ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾(٥) وقوله تعالى إخباراً عن القرآن : ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾(٦) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق أحمرهم وأسودهم .

وهذه الآية هى مصداق إجابة الله لخليله إبراهيم ، حين دعا لأهل مكة أن يبعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، فبعثه الله سبحانه وتعالى ، وله الحمد والمنة على حين فترة من الرسل ، وطموس من السبل ، وقد اشتدت الحاجة إليه وقد خص الله أهل الأرض عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب ، أى نزراً يسيراً ممن تمسك بما بعث الله به عيسى بن مريم عليه السلام ، ولهذا قال تعالى : ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ . وذلك أن العرب كانوا قديماً متمسكين بدين إبراهيم الخليل عليه السلام ، فبدلوه وغيروه وقلبوه وخالفوه واستبدلوا بالتوحيد شركاً ، وباليقين شكاً ، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله ، وكذلك أهل الكتاب قد بدلوا كتبهم وحرفوها وغيروها وأولوها ، فبعث الله محمداً صلوات الله وسلامه عليه بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق فيه هدايته والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم ، والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة ورضا الله عنهم ، والنهى عما يقربهم إلى النار وسخط الله تعالى حاكم فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب . فى الأصول والفروع ، وجمع له تعالى وله الحمد والمنة جميع المحاسن ممن كان قبله وأعطاه ما لم يعط أحد من الأولين ولا يعطيه أحداً من الآخرين وصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين وقوله تعالى ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ﴾ قال الإمام أبو عبد الله البخارى رحمه الله تعالى حدثنا عبد العزيز ابن عبد الله حدثنا سليمان بن بلال عن ثور عن أبى الغيث عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كنا جلوساً عند النبى - ﷺ - فأنزلت عليه سورة الجمعة ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ﴾ قالوا من هم يا رسول الله ؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثاً ، وفينا سلمان

---

(١) سورة آل عمران الآية ٢٠
(٢) سورة الزخرف آية ٤٤
(٣) سورة الشعراء آية ٢١٤
(٤) سورة الأعراف آية ١٥٨
(٥) سورة الانعام آية ١٩
(٦) سورة الرعد آية ٣٦

الفارسى ، فوضع رسول الله - ﷺ - يده على سلمان الفارسى ثم قال : « لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال - أو رجل - من هؤلاء » ورواه مسلم والترمذى والنسائى وابن أبى حاتم وابن جرير من طرق عن ثور بن يزيد الديلى عن سالم أبى الغيث عن أبى هريرة به[1] ، ففى هذا الحديث دليل على أن هذه السورة مدنية ، وعلى العموم لبعثته - ﷺ - إلى جميع الناس لأنه فسر قوله تعالى : ﴿ وآخرين منهم ﴾ بفارس ، ولهذا كتب كتبه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم ، يدعوهم إلى الله عز وجل وإلى اتباع ما جاء به ، ولهذا قال مجاهد وغير واحد فى قوله تعالى : ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ﴾ قال هم الأعاجم وكل من صدق النبى - ﷺ - من غير العرب ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا ابراهيم بن العلاء الزبيدى حدثنا الوليد ابن مسلم حدثنا أبو محمد عيسى بن موسى عن أبى حازم عن سهل بن سعد الساعدى قال : قال رسول الله - ﷺ - « إن فى أصلاب أصلاب أصلاب رجال ونساء من أمتى يدخلون الجنة بغير حساب » . ثم قرأ : ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ﴾ يعنى بقية من لقى من أمة محمد - ﷺ - وقوله تعالى : ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ أى ذو العزة والحكمة فى شرعه وقدره ، وقوله تعالى : ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ يعنى ما أعطاه الله محمداً - ﷺ - من النبوة ، وما خص به من أمته من بعثه - ﷺ - إليهم .

الحديث عن اليهود

مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ

معانى المفردات

حملوا التوراة : المراد كلفوا العمل بها وليس هو من الحمل على الظهر بل هو من الحمالة أى الكفالة .

---

(١) أخرجه كنز العمال جـ ٢ ص ٦٣٥ رقم ٤٩٥٤
انظر الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٤٤٣
انظر مجمع الزوائد جـ ١٠ ص ٩٧ باب ما جاء فى الحمد .

أسفاراً : كتباً كباراً ، وسميت أسفاراً لأنها تسفر عن معناها إذا قرئت (أولياء الله) أحبابه .
(تفرون منه) تخافون منه .

وهذا مثل ضربه الله لليهود حيث أعطاهم التوراة ، ولم يعملوا بها ، فكانوا كالحمار الذى يحمل الكتب الكبار ، وفى ذكر هذا المثل هنا تحذير لأمة محمد - ﷺ - من أن يكونوا كاليهود ويدعون ولا يعملون ، ويحملون ولا ينتفعون .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أثبت الله سبحانه التوحيد والنبوة وذكر أن الرسول بعث للأميين ، قال اليهود : إن الرسول لم يبعث لنا ، فرد الله عليهم مقالهم بأنهم لو فهموا التوراة حق الفهم وعملوا بما فيها ، لرأوا فيها نعت الرسول والبشارة به وأنه يجب عليهم أتباعه ، وما مثلهم فى حملهم للتوراة وتركهم العمل بها إلا مثل الحمار يحمل الكتب ولا يجديه حملها نفعاً .

ثم رد عليهم مقالاً آخر إذ قالوا نحن أحباء الله وأولياؤه وإنه لن يدخلنا النار إلا أياماً معدودات - بأنه لو كان ما تقولونه حقاً لتمنيتم الموت ، حتى تخلصوا من هذه الدار دار الأكدار ، وتذهبوا إلى دار النعيم ، وإنكم لن تفعلوا ذلك فأنتم كاذبون فيما تدعون ، ولم تفرون منه ، وهو ملاقيكم ولا محالة ؟ وهناك ترجعون إلى ربكم فينبئكم بما قدمتم من عمل ، ويجازيكم عليه إن خيراً وإن شراً .

أضـــواء كاشـــفة

شبه الله سبحانه وتعالى اليهود - حيث حملوا التوراة وكلفوا بها وعملوا بما فيها وحفظوها ، ثم لم ينتفعوا بما فيها - كالحمار يحمل كتباً كباراً من كتب العلم ، فهو يمشى بها ولا يعلم عنها شيئاً ، وخص الحمار بالذكر ، لأنه علم فى الجهالة والبلادة ، وهذا مثل منطبق على من لم يعمل بالقرآن وأحكامه ويعرض عنه . بئس المثل ﴿ مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ .

وكان اليهود يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأن الآخرة لهم دون سواهم ، وأنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ، فنزل فى ذلك هذه الآية ، والمعنى: قل لهم يا محمد : (يا أيها الذين هادوا واتبعوا موسى والتوراة إن زعمتم صادقين أنكم أولياء الله وأحباؤه من دون الناس إن كنتم صادقين) فى هذا الزعم فتمنوا الموت الذى ينقلكم إلى دار الكرامة ، فتحظوا بالسعادة التى أعدها لكم ربكم)ولا يتمنونه أبداً بسبب ما قدمته أيديهم من الكفر والمعاصى وتكذيب الرسول - ﷺ - مع علمهم بصدقه ووصفه فى التوراة وفى حديث أن النبى - ﷺ - قال لما نزلت هذه الآية « والذى نفس محمد بيده لو تمنوا الموت ما بقى على ظهرها يهودى إلا مات »[1] . وفى هذا إخبار عن الغيب ومعجزة للنبى الكريم .

---

(١) أخرجه البخارى جـ٣ ص٢٠١ كتاب التفسير . تفسير سورة الجمعة .
انظر صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضل فارس .
انظر سنن الترمذى جـ٥ ص٣٨٥ كتاب التفسير باب تفسير سورة الجمعة رقم ٣٣١٠ ورقم ٣٩٣٣ كتاب المناقب باب فى فضل العجم

قل لهم إن الموت الذى تفرون منه وتخافونه ، فإنه ملاقيكم حتماً ، إذ كل شىء هالك إلا وجهه ، ثم تردون أيها اليهود إلى عالم الغيب والشهادة ، الذى لا يخفى عليه منكم خافية ، فينبئكم بما كنتم تعملون ويجازيكم عليه . وقد تحداهم الله تبارك وتعالى بهذا لعلمه أنهم أحرص الناس على حياة .

قال تعالى : ﴿ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون ﴾(١) .

التفســـــير

هذا إخبار منه ـ سبحانه وتعالى ـ عن اليهود الذين ورد ذكرهم فى كثير من آيات الكتاب الكريم خاصة سورة البقرة التى أفاضت فى الحديث عنهم وما قصة البقرة إلا دليل قاطع وبرهان ساطع على أن هذا الشعب شعب صلب الرقبة وحسبنا فى ذلك قوله تعالى : ﴿ ويسعون فى الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين ﴾(٢) وفى سورة الجمعة يخبر تعالى ذاماً لهؤلاء الناس الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بهائم لم يعملوا بها مثلهم فى ذلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً أى : كمثل الحمار إذا حمل كتباً لا يدرى ما فيها فهو يحملها حملاً حسياً ولا يدرى ما عليه ، وكذلك هؤلاء فى حملهم الكتاب الذى أوتوه حفظوه لفظاً ولم يتفهموه ولا عملوا بمقتضاه بل أولوه وحرفوه وبدلوه ، فهم أسوأ حالا من الحمير لأن الحمار لا فهم له وهؤلاء لهم فهم لم يستعملوها ولهذا قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾(٣) وقال تعالى هنا : ﴿ بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾(٤) ، وقال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا ابن نمير عن مجالد عن الشعبى عن ابن عباس قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كمثل الحمار يحمل أسفاراً والذى يقول له أنصت ليس له جمعة »(٥) ثم قال تعالى : ﴿ قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾(٦) أى : إن كنتم تزعمون أنكم على هدى وأن محمداً وأصحابه على ضلالة فادعوا بالموت على الضال من الفئتين إن كنتم صادقين أى فيما تزعمونه قال الله تعالى : ﴿ ولا يتمونه أبداً بما قدمت أيديهم ﴾(٧) . أى : بما يعملون لهم من الكفر والظلم والفجور ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾(٨) وقد قدمنا الكلام فى سورة البقرة على هذه المباهلة لليهود حيث قال تعالى : ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ، ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين . ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون ﴾(٩) .

---

(١) سورة البقرة آية ٩٦
(٢) سورة المائدة آية ٦٤
(٣) الأعراف آية ١٧٩
(٤) الجمعة آية : ٥
(٥) سند الامام احمد حـ١ ص٢١٠ مستند عبدالله بن عباس
(٦) الجمعة آية ٦
(٧) الجمعة آية ٧
(٨) الجمعة آية ٧
(٩) البقرة آية ٩٥ ، ٩٦

وقد ذكر القرآن الكريم مباهلة النصارى فى سورة آل عمران كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾(١) .

ومباهلة المشركين فى سورة مريم ﴿ قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا ﴾(٢) وقد قال الإمام أحمد : حدثنا اسماعيل بن يزيد الزرقى حدثنا أبو زيد حدثنا فرات عن عبد الكريم بن مالك الجزرى عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال أبو جهل لعنه الله إن رأيت محمداً عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه قال : فقال رسول الله - ﷺ - « لو فعل لأخذته الملائكة عياناً ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار ولو خرج الذين يباهلون رسول الله - ﷺ - لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً » (٣)

رواه البخارى والترمذى والنسائى من حديث عبد الرازق ، عن معمر ، عن عبد الكريم قال البخارى وتبعه عمرو بن خالد : عن عبيد الله بن عمرو ، عن عبد الكريم ، ورواه النسائى أيضاً عن عبد الرحمن بن عبد الله الحلبى عن عبيد الله بن عمرو الرقى به أتم .

وقوله تعالى : ﴿ قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ كقوله تعالى فى سورة النساء : ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾(٤) وفى معجم الطبرانى من حديث معاذ بن محمد الهزلى عن يونس عن الحسن عن سمرة مرفوعا « مثل الذى يفر من الموت كمثل الثعلب تطلبه الأرض بدين فجاء يسعى حتى إذا أعيى وانتهر دخل جحره فقالت له الأرض يا ثعلب دينى ، فخرج وله حصاص فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه فمات »(٥)

صلاة الجمعة

هذا مشهد كريم ليوم كريم هو خير يوم طلعت فيه الشمس وفيه ساعة الإجابة وله أفضال كثيرة إنه يوم الجمعة ومن ثم فقد تناوله المفسرون بما له من فضل عظيم تناولا شافياً كافياً قال صاحب الروائع فى تفسير هذا المشهد ما نصه :

(١) ال عمران ٦١

(٢) سورة مريم ٧٥

(٣) البخارى تفسير سورة أقرأ

(٤) النساء ٧٨

(٥) سنن الترمذى

التحليل اللفظى

نودى : النداء : الدعاء بأرفع الصوت تقول : ناديته نداءً ومناداة .

وفى الحديث (فإنه أندى صوتاً منك)[١] أى أحسن وأعذب ، وقيل : أرفع وأعلى ، والمراد بالنداء هنا : الأذان والإعلام لصلاة الجمعة .

الجمعة : هو اليوم المعروف ، وهو يوم عيد المسلمين الأسبوعى .

قال الفراء : يقال (الجمعة) بسكون الميم . و (الجمعة) بضم الميم . (والجمعة) بفتح الميم فيكون صفة اليوم أى تجمع الناس . كما يقال : ضحكة للذى يضحكك الناس ففيها ثلاث لغات[٢] .

والأفصح الأشهر (الجمعة) بضم الميم ، قال ابن عباس : نزل القرآن بالتثقيل والتفخيم فاقرءوها جمعة .

وقد صار يوم الجمعة علماً على اليوم المعروف من أيام الأسبوع ، وسميت جمعة لاجتماع الناس فيها للصلاة ، وكانت العرب تسمى يوم الجمعة (عروبة) وأول من سماها جمعة (كعب بن لؤى) .

قال السهيلى : ومعنى العروبة : الرحمة فيما بلغنا عن بعض أهل العلم .

فاسعوا : السعى : العدو فى المشى والإسراع فيه ، والمراد منه فى الآية : امشوا إلى الصلاة بدون إفراط فى السرعة لقوله ـ عليه الصلاة والسلام : « إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون . وأتوها وأنتم تمشون ، وعليكم السكينة ، فما أدركتم فصلّوا . وما فاتكم فأتموا »[٣] .

قال الفراء : المضى ، والسعى ، والذهاب ، بمعنى واحد واحتج بقولهم : هو يسعى فى البلاد يطلب فضل الله ، معناه يمضى يجدوا اجتهاد وليس معناه : العدو والركض .

واحتج أبو عبيدة بقول الشاعر :

أسعى على جُل بنى مالك . كل امرىء فى شأنه ساعى

وكان ابن مسعود : يقرؤها : (فامضوا إلى ذكر الله) ويقول : « لو كانت من السعى لسعيت حتى يسقط ردائى »[٤] .

---

(١) انظر لمعجم الكبير للطبرانى حـ٧ ص٢٦٨

(٢) سنن أبو داود .

(٣) القرطبى

(٤) زاد المسير

قال القرطبي : وقراءة ابن مسعود تفسير منه ، لا قراءة قرآن منزل ، وجائز قراءة القرآن بالتفسير في معرض التفسير ، ذكر الله : المراد بذكر الله صلاة الجمعة ، بدليل قوله تعالى : ﴿ **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض** ﴾ وقيل : المراد به الخطبة .

والصحيح الراجح : أن المراد به (الصلاة والخطبة) جميعاً لاشتمالهما على ذكر الله .

وذروا البيع : أي اتركوا البيع ، والمعاملة ، وسائر أمور التجارة والأعمال .

قال الألوسي : أي : اتركوا المعاملة فيعم البيع ، والشراء والإجارة وغيرها من المعاملات .

وقال القرطبي : وخص البيع لأنه أكثر ما يشتغل به أصحاب الأسواق . **قضيت الصلاة** : أي : أديتم الصلاة وفرغتم منها . يقال : قضى الرجل عمله أي : أداه ، ومنه قوله تعالى ﴿ **فإذا قضيتم مناسككم** ﴾[1] أي : أديتموها . وقضى دينه أي وفاه ، وليس من قضاء الغائبة في الصلاة ، وقد استدل الفقهاء بهذه الآية الكريمة على أن لفظ (القضاء) يطلق على (الأداء) وهو استدلال لطيف .

فانتشروا : أي : تفرقوا في الأرض لإقامة مصالحكم ، والانتشار معناه : التفرق ومنه قوله تعالى : ﴿ **فإذا طعمتم فانتشروا** ﴾[2] . **وابتغوا** : أي : اطلبوا من الابتغاء بمعنى الطلب . قال تعالى : ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا** ﴾[3] **فضل الله** : المراد به : الرزق والتجارة والكسب الحلال .

وعن ابن عباس : لم يؤمروا بطلب شيء من الدنيا ، وإنما هو عيادة المرضى ، وحضور الجنائز ، وزيارة الأخ في الله .

انفضوا إليها : بمعنى انصرفوا إليها . وتفرقوا عنك ، والانفضاض معناه : التفرق والانصراف ، قال ذو الرمة :

تكاد تنفض منهن الحياز يمسه

وأعاد الضمير إلى التجارة ، لأنها كانت أهم إليهم ، وقال الزجاج : المعنى : وإذا رأوا تجارة إنفضوا إليها أو لهواً انفضوا إليه . فحذف الثاني لدلالة الأول عليه مثل قوله تعالى : ﴿ **يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون** ﴾ وكما قال الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما   عندك راضٍ والرأي مختلف

---

(١) زاد المسير

(٢) الأحزاب : ٥٣

(٣) القصص ٧٧

وتركوك قائماً : أى : على المنبر تخطب ، قال بعض العلماء : وفيه دلالة على مشروعية القيام فى الخطبة .

خير الرازقين : لأنه يرزق من يؤمن به ويعبده . ومن يكفر به ويجحده . فهو يعطى من سأل سواء كان مؤمناً أم كافراً .

قال الطبرى : (والله خير الرازقين) يقول : والله خير رازق . فإليه فارغبوا فى طلب أرزاقكم ، وإياه فاسألوا أن يوسع عليكم من فضله دون غيره .

المعنى الإجمالى

يقول الله ـ تعالى ـ ما معناه : يا أيها المؤمنون يا من صدقتم بالله ورسوله ، إذا سمعتم المؤذن ينادى لصلاة الجمعة ويؤذن لها ، فاتركوا أعمالكم وأشغالكم ، ودعوا البيع والشراء ، وامضوا سراعاً إلى ذكر الله وعبادته ، وإلى أداء صلاة الجمعة مع إخوانكم المسلمين فإن ذلك خير لكم وأفضل وأرجى لكم عند الله ، وأعود عليكم بالخيرات والبركات إن كنتم من أهل العلم والفهم السليم ، فإذا أديتم الصلاة وفرغتم منها فانبثوا فى الأرض لقضاء مصالحكم واطلبوا من فضل الله ، فإن الرزق بيده ، وهو المنعم المتفضل الذى لا يخيب أمل السائل ، ولا يضيع عمل العامل ، ولا يمنع أحداً من فضله وإحسانه ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون .

ثم أخبراً تعالى أن هناك فريقاً من الناس يؤثرون الدنيا الفانية على الآخرة الباقية ، فإذا سمعوا بتجارة رابحة ، أو صفقة قادمة ، أو شىء من لهو الدنيا وزينتها ومهرجها تفرقوا عن رسول الله ـ عليه السلام ـ وانصرفوا إلى متاع الحياة وتركوا الرسول قائماً يخطب ، ولو عقلوا لعلموا أن ما عند الله خير وأبقى ، وأن ثوابه خير من اللهو والتجارة وأن الله ـ جل وعلا ـ هو خير الرازقين . يرزق من يشاء بغير حساب وما عند الله خير للأبرار . وصدق الله حيث يقول :

﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق . ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾(١) .

سبب النزول

١ ـ أخرج الإمام أحمد والبخارى ومسلم والترمذى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه أنه قال : « بينما النبى ـ ﷺ ـ يخطب يوم الجمعة قائماً ، إذ قدمت عير إلى المدينة . فابتدرها أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ حتى لم يبق منهم إلا إثنا عشر رجلاً أنا فيهم وأبو بكر وعمر . فأنزل الله تعالى : **﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها ﴾** إلى آخر السورة .

---

(١) النحل آية ٩٦

(ب) وروى ابن كثير عن أبى يعلى بسنده إلى جابر بن عبد الله أنه قال :

« بينما النبى - ﷺ - يخطب يوم الجمعة . فقدمت عير إلى المدينة . فابتدرها أصحاب رسول الله - ﷺ - حتى لم يبق مع رسول الله - ﷺ - إلا إثنا عشر رجلاً .

فقال رسول الله - ﷺ - : « والذى نفسى بيده لو تتابعتم حتى لم يبق منكم أحد لسال بكم الوادى ناراً » .

ونزلت هذه الآية : ﴿ وإذا رأوا تجارة . . . ﴾ .

(جـ) وروى أبو حيان فى تفسيره البحر المحيط فى سبب هذا الانصراف أن أهل المدينة أصابهم جوع وغلاء سعر . فقدم (دحية) بعير تحمل ميرة وكان من عرفهم أن يدخل بالطبل والمعازف من دري بها . فدخلت بها فانفضوا إلى رؤية ذلك وسماعه . وتركوه - ﷺ - قائماً على المنبر فى اثنى عشر رجلاً قال جابر : أنا أحدهم . فنزلت ﴿ وإذا رأوا تجارة ﴾[١] .

وجــوه القراءات

١ - قرأ الجمهور (من يوم الجمعة) بضم الجيم والميم . وقرأ الزهيرى والأعمش بضم الجيم وسكون الميم (الجمعة) وهى لغة تميم وقرأ أبو العالية والنخعى (الجمعة) بضم الجيم مع فتح الميم وهى ثلاث لغات .

قال الزجاج : من قرأ بتسكين الميم فهو تخفيف الجمعة لثقل الضمتين وأما فتح الميم فمعناها : الذى يجمع الناس ، كما تقول : « رجل لُعنه : يكثر لعنة الناس وضحكة : يكثر الضحك[٢] .

٢ - قرأ الجمهور (إنفضوا إليها) بضمير المؤنث عائداً إلى التجارة وقرأ ابن أبى عبلة بضمير المذكر (انفضوا إليه) عائداً إلى اللهو .

قال الأخفش : وكلاهما جائز عند العرب وقرىء (انفضوا إليها) بضمير التثنية عائداً إلى التجارة واللهو .

٣ - قرأ الجمهور (فاسعوا إلى ذكر الله) وروى عن ابن مسعود وعمر أنهما كانا يقرآنها (فامضوا إلى ذكر الله) وقراءتها محمولة على أنها وجه من وجوه التفسير . لا أنها قراءة من القراءات وقد مر معك كلام القرطبى فتدبره[٣]

---

(١) انظر صحيح البخارى حـ٨ ص٤٩٣

(٢) انظر الدر المنثور للسيوطى

(٣) أنظر البحر المحيط

وجوه الإعراب

١ ـ قوله تعالى : ﴿ إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة ﴾ .

(إذا) شرطية و (نودى) مبنى للمجهول ، و (من) بمعنى . (فى) أى : فى يوم الجمعة كقوله تعالى : ﴿ أرونى ماذا خلقوا من الأرض ﴾[١] أى : فى الأرض .

وجوّز أبو البقاء كون (من) للتبعيض .

وفى الكشاف : هى بيان لـ (إذا) وتفسير له ، وقد اعترض عليه فى هذا ، والصحيح أنها بمعنى (فى)[٢] .

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ واذكروا الله كثيراً .... ﴾ .

(اذكروا) فعل أمر مبنى على حذف النون لأن مضارعه من الأفعال الخمسة ، والواو فاعل ، ولفظ الجلالة منصوب على التعظيم تأدباً و (كثيراً) صنعة لمفعول مطلق محذوف تقديره : (ذكراً كثيراً) .

وقد صرح به في سورة الأحزاب فى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً ، وسبحوه بكرة وأصيلا ﴾[٣] .

٣ ـ قوله تعالى : ﴿ وتركوك قائماً ﴾ .

قائماً منصوب على الحال وصاحب الحال هو النبى ـ ﷺ ـ المشار إليه بـ (تركوك) أى : تركوك أيها النبى حال كونك قائماً .

٤ ـ قوله تعالى : ﴿ قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة .. ﴾ (ما) اسم موصول مبتدأ ، و (خير) خبره ، والجملة (ما عند الله خير) مقول القول .

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى :

يوم الجمعة كان يسمى فى الجاهلية يوم (العروبة) وأول من سماه جمعة (كعب بن لؤى) وروى فى سبب تسميته أن أهل المدينة اجتمعوا قبل قدوم النبى ـ ﷺ ـ فقالت الأنصار : لليهود يوم يجتمعون فيه بكل سبعة أيام وللنصارى مثل ذلك . فهلم فلنجعل يوماً نجتمع فيه فنذكر الله تعالى ونشكره . فقالوا يوم السبت لليهود ويوم الأحد للنصارى فاجعلوه يوم العروبة ، فاجتمعوا إلى أسعد بن زرارة فصلى بهم يومئذ ركعتين ، وذكرهم فسميت الجمعة حين اجتمعوا إليه فذبح لهم شاة فتغدوا وتعشوا منها فهى أول جمعة كانت فى الإسلام .[٤]

---

(١) تفسير الألوسى ٢٨/٩٩ والبحر المحيط
(٢) تفسير القرطبى
(٣) الأحزاب
(٤) الألوسى

اللطيفة الثانية :

فى التعبير لقوله تعالى : ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله . . ﴾ لطيفة وهى أنه ينبغى للمؤمن أن يقوم إلى صلاة الجمعة بجد ونشاط وعزيمة وهمة . لأن لفظ (السعى) يفيد القصد والجد والعزم وليس المراد منه العدو فى المشى فإن ذلك منهى عنه . قال الحسن : «والله ما هو سعى على الأقدام ، ولكنه سعى بالقلوب وسعى بالنية ، وسعى بالرغبة ، ولقد نُهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار »(١)

اللطيفة الثالثة :

أطلق لفظ البيع (وذروا البيع) وقصد به جميع أنواع المعاملة من بيع ، وشراء ، وإجارة ، وغيرها من المعاملات فهو على سبيل المجاز المرسل .

قال أبو حيان : « وإنما ذكر البيع من بين سائر المحرمات ، لأنه أكثر ما يشتغل به أصحاب الأسواق ، إذ يكثر الوافدون من القرى إلى الأمصار ويجتمعون للتجارة إذا تعالى النهار ، فأمروا بالبدار إلى تجارة الآخرة ، ونهوا عن تجارة الدنيا حتى الفراغ من الصلاة »(٢)

اللطيفة الرابعة :

كان السلف الصالح يقتدون برسول الله ـ ﷺ ـ فى جميع أفعاله وحركاته وسكناته ، حتى ولو لم يدركوا السر فيه ، وذلك من فرط حبهم لرسول الله ـ ﷺ ـ فقد روى عن بعضهم أنه كان إذا صلى الجمعة خرج فدار فى السوق ساعة ، ثم رجع إلى المسجد فصلى ما شاء الله تعالى أن يصلى ، فقيل له : لأى شىء تصنع هذا ؟ قال : إنى رأيت سيد المرسلين ـ ﷺ ـ هكذا يصنع ، وتلا هذه الآية : ﴿ فإذا قضيت الصلاة ﴾(٣)

اللطيفة الخامسة :

« كان عراك بن مالك إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال : « اللهم إنى أجبت دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتنى ، فارزقنى من فضلك وأنت خير الرازقين »(٤)

اللطيفة السادسة :

فى قوله : ﴿ واذكروا الله كثيرا ﴾ لطيفة وهى أن الله ـ عز وجل ـ أمر بالسعى فى طلب الرزق والاشتغال بالتجارة ، ولما كان هذا قد يسوق الإنسان إلى الغفلة وربما دفعته الرغبة فى جمع المال إلى الكذب والغش والاحتيال ، أمر المسلم أن يذكر الله تعالى ، ليعلم أن الدنيا ومتاعها فانية ، وأن الآخرة وما فيها باقية ، وأن ما عند الله خير وأبقى ، فلا تشغله تجارة الدنيا عن تجارة الآخرة كما قال تعالى فى وصف المؤمنين :

---

(١) تفسير القرطبى

(٢) البحر المحيط

(٣) ابن مردودية

(٤) الجامع لأحكام القرآن

﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾[1] وهذا هو السر فى الأمر بذكر الله كثيراً فتدبره .

اللطيفة السابعة :

الأصل فى (إذا) أنها للاستقبال ، والآية الكريمة نزلت بعد تلك الحادثة وبعد انفضاض الناس عن رسول ـ الله صلى الله عليه وسلم ـ لهذا فقد خرجت عن الاستقبال واستعملت فى الماضى ، على حد قول القائل :

ونَدمان يزيد الكأس طيباً سقيت (إذا) تغورت النجوم[2]

« ما ورد فى فضائل يوم الجمعة »

(أ) يوم الجمعة أفضل الأيام وأشرفها على الاطلاق فقد روى مسلم فى صحيحه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة . وفيه أخرج منها . ولا تقوم الساعة إلا فى يوم الجمعة »[3] .

(ب) وروى مالك فى الموطأ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أهبط من الجنة ، وفيه تيب عليه ، وفيه مات ، وفيه تقوم الساعة ، وما من دابة إلا وهى مصخيه يوم الجمعة . من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقاً من الساعة . إلا الإنس والجن . وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلى ، يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه)[4] .

(جـ) وروى أبو داود فى سننه أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة ، فأكثروا على من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة علىّ . قالوا يا رسول الله : كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟

يعنى (بليت) فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن الله ـ عز وجل ـ حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : ما هو الأذان الذى يجب السعى عنده ؟

دل قوله تعالى : ﴿ إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ﴾ على وجوب السعى إلى المسجد ، وترك البيع والشراء ، وقد اختلف العلماء فى الآذان الذى يجب السعى عنده .

---

(١) سورة النور آية ٣٧

(٢) روح المعانى

(٣) صحيح مسلم حـ٢ ص٥٨٥

(٤) رواه مالك فى الموطأ

١ ـ قال بعض العلماء : المراد به الأذان الأول الذى هو على المنارة .

٢ ـ وقال آخرون : المراد به الأذان الذى بين يدى الخطيب إذا صعد الإمام المنبر .

حجة الفريق الأول :

١ ـ أن المراد من النداء هو الإعلام ، والسعى إنما يجب عند الإعلام ، وهو (الأذان الأول) على المنارة ، الذى زاده عثمان ـ رضى الله عنه ، وذلك حين رأى كثرة الناس ، وتباعد مساكنهم عن المسجد ، فأمر بالتأذين الأول على دار له بالسوق يقال لها (الزوراء) وقد ثبت الأمر على ذلك من عهده إلى عصرنا هذا .

(ب) واستدلوا بما رواه البخارى فى صحيحه عن (السائب بن يزيد) ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : (كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبى بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ، فلما كان زمن عثمان ـ رضى الله عنه ـ وكثر الناس زاد النداء الثالث على الزوراء فثبت الأمر على ذلك) .

(جـ) وقالوا : السعى عند الأذان الثانى ، وقت صعود الخطيب المنبر ، يفوت على الناس سماع الخطبة التى من أجلها خفف الله تعالى الصلاة فجعلها ركعتين ، ولم تكن بالمسلمين حاجة إلى هذا فى زمن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقرب مساكنهم من المسجد ، ولحرصهم الشديد على أن يجيئوا من أول الوقت محافظة على أخذ الأحكام عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكان النداء الذى بين يدى الخطيب يسمعهم فيحضروا سراعاً ، ويدركون الخطبة من أولها لقرب المساكن من المسجد .

وهذا القول هو الظاهر المعتمد فى مذهب الحنفية . وقد نص عليه صاحب (الكنز) من أئمة فقهاء الحنفية فقال :

« ويجب السعى وترك البيع بالأذان الأول لقوله ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة** ﴾ الآية وإنما أعتبر لحصول الإعلام به . وهذا القول هو الصحيح فى المذهب .

وقيل : العبرة للأذان الثانى ، الذى يكون بين يدى الخطيب على المنبر لأنه لم يكن فى زمنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا هو ـ وهو ضعيف ـ لأنه لو اعتبر وجوب السعى لم يتمكن من السنة القبلية ومن الاستماع بل ربما يخشى عليه فوات الجمعة انتهى .

حجة الفريق الثانى :

١ ـ الأذان الذى يجب فيه السعى وترك البيع هو (الأذان الثانى) الذى يكون بين يدى الخطيب ، لأنه هو الأذان الذى كان فى زمنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو ـ عليه السلام ـ أحرص الناس على أن يؤدى المؤمنون الواجب عليهم فى وقته ، فلو كان السعى واجباً قبل ذلك لبينه لهم وجعل بين الأذان والخطبة زمناً يتسع لحضور الناس .

(ب) ما روى عن ابن عمر والحسن فى قوله تعالى : ﴿ إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة ﴾ قال : « إذا خرج الإمام وأذن المؤذن فقد نودى للصلاة »

قالوا : وهو التفسير المأثور فلا عبرة بغيره .

(جـ) وقالوا أيضا : إن المصلى يندب له أن يجىء مبكراً لفوائد جمة كما دلت على ذلك الأحاديث الكثيرة . ولكن تحريم البيع والشراء والحكم بالإثم شىء ، وإدراك الأمر المندوب شىء آخر .

ثم إن السنة القبلية ـ على فرض أنها بقيت مطلوبه فى الجمعة ـ فإنه لا يمكننا أن نوجب السعى قبل وقته لتحصيل سنة لم تثبت . فيبقى النداء الذى يحرم عنده البيع هو (النداء الثانى) الذى يكون عند صعود الخطيب المنبر . وهو الذى كان فى زمنه ـ عليه السلام وهذا المذهب هو رأى جمهور العلماء ، وقول عند فقهاء الحنفية ، ولعله يكون الأرجح ، والله تعالى أعلم .

الحكم الثانى : هل يفسخ البيع عند الأذان ؟

دل قوله ـ تعالى ـ ﴿ وذروا البيع ﴾ على حرمة البيع والشراء وسائر المعاملات عند الأذان ، وقد اختلف العلماء فى عقد البيع هل هو صحيح أم فاسد ؟ فقال بعضهم إنه فاسد لورود النهى (وذروا البيع) .

وقال الأكثرون إنه حرام ولكنه غير فاسد وهو يشبه الصلاة فى الأرض المغصوبة تصح مع الكراهة .

قال القرطبى فى تفسيره الجامع لأحكام القرآن : « وفى وقت التحريم قولان : الأول : أنه من بعد الزوال إلى الفراغ من الصلاة . قاله الضحاك ، والحسن ، وعطاء .

الثانى : من وقت أذان الخطبة إلى وقت الصلاة . قاله الشافعى . قال : ومذهب مالك : أن يترك البيع إذا نودى للصلاة ويفسخ عنده ما وقع من البيع فى ذلك الوقت ولا يفسخ العتق والنكاح والطلاق وغيره ، إذ ليس من عادة الناس الاشتغال به كاشتغالهم بالبيع ، قالوا : وكذلك الشركة والهبة والصدقة نادر لا يفسخ . قال ابن العربى : والصحيح فسخ البيع لأن البيع إنما منع منه للاشتغال به فكل أمر يشغل عن الجمعة من العقود كلها فهو حرام شرعاً مفسوخ ردعاً .

ورأى بعض العلماء البيع فى الوقت المذكور جائزاً وتأوله النهى عنه ندباً واستدل بقوله تعالى : ﴿ ذلكم خير لكم ﴾ وهذا مذهب الشافعى . فإن البيع عنده ينعقد ولا يفسخ .

وقال الزمخشرى فى تفسيره : إن عامة العلماء على أن ذلك لا يؤدى إلى فساد البيع ، قالوا : لأن البيع لم يحرم لعينه ولكن ما فيه من الذهول عن الواجب ، فهو كالصلاة فى الأرض المغصوبة والثوب المغصوب . والوضوء بماء مغصوب ، وعن بعض الناس أنه فاسد . وقال القرطبى : والصحيح فساده وفسخة لقوله عليه الصلاة والسلام (كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد) أى مردود عليه والله أعلم .

الحكم الثالث : هل الخطبة شرط لصحة الجمعة ؟

دل قوله تعالى : ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ على أن الخطبة شرط لصحة صلاة الجمعة . لأن ذكر الله سواء قلنا إنه : (الموعظة) أو إنه (الموعظة والصلاة معاً) يدخل فيه خطبة الجمعة ، فلابد أن تكون شرطاً لصحة الصلاة . ولأن صلاة الجمعة إنما خففت من أجل الخطبة وسماع الموعظة ، وعليه تكون الخطبة واجبة ، وهذا مذهب جمهور الفقهاء .

غير أن فقهاء الحنفية قالوا : لا يشترط فى الخطبة أن تكون مشتملة على ما يسمّى (خطبة) عرفا ، لأن الله ـ تعالى ـ ذكر الذكر من غير تفصيل بين كونه طويلا ، أو قصيراً ، يسمى خطبة أو لا يسمى خطبة ، فكان الشرط هو الذكر مطلقاً ، ويكفى فيه أقل ما يطلق عليه اسم الذكر ، غير أن المأثور عنه ـ ﷺ ـ هو الذكر المسمى بـ (الخطبة) والمواظبة عليه فكان ذلك واجباً أو سنة ، لا أنه الشرط الذى لا يجزىء غيره .

فقهاء الشافعية والحنابلة :

يشترطون أن يأتى الخطيب بخطبتين مستوفيتين لشروط خاصة منها : حمد الله ، والصلاة على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقراءة آية من كتاب الله ـ تعالى ـ والوصية بتقوى الله تعالى .

وزاد الشافعية الدعاء للمؤمنين والمؤمنات .

وفقهاء المالكية :

شرطوا فى الخطبة شرطاً واحداً وهى أن تكون مشتملة على تحذير أو تبشير مما يسمى فى العرف موعظة وخطبة .

قال فى الروضة الندية :

« ثم اعلم أن الخطبة المشروعة هى ما كان لقيادة ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ترغيب الناس وترهيبهم ، فهذا فى الحقيقة روح الخطبة الذى لأجله شرعت ، وأما اشتراط الحمد لله ، أو الصلاة على رسوله ، أو قراءة شىء من القرآن ، فجميعه خارج عن معظم المقصود من شرعية الخطبة ، واتفاق مثل ذلك فى خطبته ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يدل على أنه مقصود متحتم وشرط لازم .

ولا يشك منصف أن معظم المقصود هو الوعظ دون ما يقع قبله من الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد كان عُرف العرب المستمر أن أحدهم إذا أراد أن يقوم مقاماً ، ويقول مقالاً ، شرع بالثناء على الله ـ وعلى رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما أحسن هذا وأولاه ـ ولكن ليس هو المقصود ، بل المقصود ما بعده ولو قال : إن من قام فى محفل من المحافل خطيباً ، ليس له باعث على ذلك إلا أن يصدر منه الحمد ، والصلاة ، لما كان هذا مقبولا ، بل كل طبع سليم يمجه ويردّه ، إذا تقرر هذا عرفت أن الوعظ فى خطبة الجمعة هو الذى يساق إليه الحديث ، فإذا فعله الخطيب فقد فعل الأمر المشروع إلا أنه إذا قدم الثناء على الله وعلى رسوله ، أو استطرد فى وعظه القوارع القرآنية كان أتم وأحسن .

الحكم الرابع :

ما هو العدد الذى تنعقد به اجمعة ؟ .

لا خلاف بين الفقهاء أن الجماعة شرط من شروط صحة الجمعة ، لقوله عليه السلام : « الجمعة حق واجب على كل مسلم فى جماعة ، إلا أربعة : مملوك ، أو امرأة ، أو صبى ، أو مريض »[1] .

ولأن التسمية تقتضى ذلك ، فلا يقال لمن صلَّى وحده إنه صلى الجمعة . فلابد من الجماعة ، وقد اختلفوا فى العدد الذى تنعقد به الجمعة إلى خمسة عشر قولاً ذكرها الحافظ فى الفتح .

والآية الكريمة لم تنص على عدد معين ، وكذلك السنة المطهرة لم يرد فيها نص صريح صحيح على العدد الذى تنعقد به ، ولهذا اختلف الفقهاء على أقوال عديدة :

(أ) الحنفية قالوا : يكف أربعة أحدهم الإمام ، وقيل ثلاثة .

(ب) الشافعية والحنابلة قالوا : لابد من جمع غفير أقله أربعون .

(جـ) المالكية قالوا : لا يشترط عدد معين بل تشترط جماعة تسكن بهم قرية ، ويقع بينهم البيع ، ولا تنعقد بالثلاثة والأربعة ونحوهم .

قال الحافظ ابن حجر : ولعل هذا المذهب أرجح المذاهب من حيث الدليل ، وهناك أحكام أخرى تطلب من كتب الفروع ، ضربنا صفحاً عنها لأن الآية الكريمة لا تدل عليها ، والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

أولاً : الجمعة فريضة على المسلمين المكلفين بالشروط المعروفة .

ثانياً : وجوب السعى للاستماع إلى الخطبة وأداء فريضة الجمعة .

ثالثاً : حرمة البيع والشراء وسائر المعاملات عند الأذان .

رابعاً : جواز الاشتغال بأمور التجارة والمعاش قبل الصلاة وبعدها .

خامساً : الرزق بيد الله ومع ذلك ينبغى أن يأخذ الإنسان بأسباب الكسب .

سادساً : لا ينبغى للمؤمن أن تشغله تجارة الدنيا عن تجارة الآخرة .

حكمة التشريع

الصلاة صلة العبد بربه ، وعبادة تشد القلب ، وتقوى الإيمان فيه . وهى إلى جانب هذا تزيد المجتمع ترابطاً وتآلفاً . يلتقى فيها أفراده على الخير ، ويتعاونون على البر والتقوى ، وإذا كانت الصلوات

---

(١) أنظر سنن أبى داود حـ ص٦٤٤ كتاب الجمعة

الخمس فى كل يوم وليلة مفروضة فقد يُشغل المرء عن بعضها فى شغله الدنيوى الذى يُبعده عن المسجد ، أو يتساهل فى عدم المجىء إليها ، لذلك فقد فرض الله صلاة الجمعة فى كل أسبوع مرة واحدة ليسرع إلى الصلاة يستمع كلام الله وحديث المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وموعظة الخطيب ، فيكون له زاداً إيمانياً ، ويجتمع بإخوانه المؤمنين جميعاً . فيتفقد الغائب ، ويعين المحتاج ، ويعود المريض ، ويصالح المتخاصمين . ويبذل نصحه للمقصرين ، كما يتعلم الآداب الإسلامية فى الاجتماع من السلام ، والاحترام ، والبشاشة التى تجعل المجتمع فى سلام وأمان . لهذا كله فرض الله - سبحانه - صلاة الجمعة على كل مسلم ، وأمره أن يسعى إليها ، وحثه على أدائها . ا . هـ .

فضل يوم الجمعة والصلاة

إن يوم الجمعة سيد الأيام وأفضلها عند الله - تعالى - وصلاة الجمعة هى المؤتمر الاسلامى العظيم الذى يجمع الله فيه القلوب على ذكره ومعرفته والإرشاد إليه ، حتى لقد بلغ من أهمية هذا اليوم والصلاة فيه أن المستر جلادستون رئيس وزراء بريطانيا وقف فى مجلس العموم يقول لأعضائه إننا لن تقوم لنا قائمة فى الشرق إلا إذا قضينا على تلك الأشياء أولها صلاة الجمعة وثانيها يوم عرفة وثالثها ذلك الكتاب ، ورفع المصحف بيده أمام الأعضاء ، فهب أحدهم مذعوراً وخطف المصحف من يده ومزقه فقال له رئيس الوزراء : ما أردت تمزيق ورقة أيها الأحمق إنما أردت تمزيقه من صدور المسلمين . ألا فليتنبه القضاة الغافلون ، وليستيقظوا ليعلموا ماذا يراد بهم ، لقد قال الحكيم الأفغانى جمال الدين كلمة حق قال :

« إن المسلمين قد ماتت عزائمهم ، ومات فيهم كل شىء إلا شهواتهم » وقال طاغية الصهيونية موشى ديان :

« إن العرب لا يقرأون ، وإذا قرأوا لا يفهمون ، وإذا فهموا سرعان ما ينسون ، ولا يتذكرون ثم قال : وإنهم مثل الكلاب التى تنبح ولا تعض »

أيها المسلمون أفيقوا لقد هجرت المساجد وقل فيها الراكع والساجد ، وأصبحت تشكو لربها ظلم العباد ،حتى بلغ من جرأة أحد الذين يحملون الأقلام المسمومة أنه قال فى عام ١٩٦٥ راقبوا أولادكم فى المساجد ، ويومها رددت عليه فى خطبة الجمعة وقلت تراقبوهم فى المساجد أم فى المسارح ، أليس هذا قلباً للأوضاع ، وتذكرت قول أبى العلاء :

إذا وصف الطائى بالبخل مادرٌ وعيرقسا بالسفاهة باقلٌ
وقال السها للشمس أنت ضئيلة وقال الدجى للصبح لونك حائل
وطالت الأرض السماء سفاهة وفاخرت الشهب الحصى والجنادل
فياموت زر إن الحياة ذميمةٌ ويانفسى جدى إن دهرك هازل

﴿ يأيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل . إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شىء قدير إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما

فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم . ﴾[١]

على الأمة الإسلامية أن تنظر ثلاث نظرات إلى هذه الآيات الفذة حيث تكررت فيها كلمة إذ .

النظرة الأولى : استراتيجية العدد كم كان عدد جيش الحق « إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين »

النظرة الثانية : استراتيجية المكان من أين أدار معسكر الحق المعركة وأين كانت غرفة العمليات العسكرية . إذ هما فى الغار

النظرة الثالثة : استراتيجية العقيدة أى شعار رفعوه ، الاشتراكية ، أم الوطنية ، أم الإيمان بالأرض والتراب لم يكن إلا كلمة حق قال عنها الكتاب العزيز :
﴿ إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ ومن كان الله معه لا يخيب سعيه ولا يضل سؤله ، من كان الله معه فمن عليه ، ومن كان الله عليه فمن معه ، ومن وجد الله فماذا فقد . **﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ﴾ ﴿ ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ﴾**[٢]

أفيقوا أيها المسلمون واستيقظوا من سباتكم هل أنتم فى غفلة معرضون ، هل أصبحتم كما يقول القائل .

ناموا ولا تستيقظو ما فاز إلا النوّم .
وصوموا ولا تتكلموا إن الكلام محرم .
إن قيل إن نهاركم ليل فقولوا مظلم .
أو قيل هذا شهدكم مر فقولوا علقم .

يا أمة الإسلام ، أرضيتم بالذل والهوان وأنتم الأعلون **﴿ أنفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾**

لقد ركز جلادستون على صلاة الجمعة ومن ثم فإننا نسوق هذا الحشد المقدس من أقوال الرسول ـ ﷺ ـ عن فضل هذا اليوم ، والصلاة فيه كما جاء ذلك فى كتاب الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ـ رحمه الله تعالى :

كتاب الجمعة

الترغيب فى صلاة الجمعة والسعى إليها وماجاء فى فضل يومها وساعتها .

---

(١) التوبة آية ٤١

١ - عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى الجمعة فاستمع وأنصت غفر له مابينه وبين الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام ومن مس الحصا فقد لغا . »[١] رواه مسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه . (لغا) قيل : معناه خاب من الأجر ، وقيل : أخطأ ، وقيل : صارت جمعته ظهراً ، وقيل : غير ذلك .

المعنى

- قال النووى : فيه فضيلة الغسل ، وأنه ليس بواجب للرواية الثانية ، وفيه إستحباب وتحسين الوضوء ، ومعنى إحسانه : الإتيان به ثلاثاً ثلاثاً ، ودلك الأعضاء ، وإطالة الغرة والتجميل ، وتقديم الميامن ، والإتيان بسننه المشهورة ، وفيه إن التنقل قبل خروج الإمام يوم الجمعة مستحب ، وفيه أن النوافل المطلقة لا حد لها لقوله ﷺ : « فصلى ما قدر له » وفيه الإنصات للخطبة ، وفيه أن الكلام بعد الخطبة قبل الإحرام بالصلاة لا بأس به .

- سكت : قال الله تعالى : ﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ﴾[٢] .

- قال العلماء : معنى المغفرة له أن الحسنة بعشر أمثالها ، وصار يوم الجمعة الذى فعل فيه هذه الأفعال الجميلة فى معنى الحسنة التى تجعل بعشر أمثالها : أى : سبعة أيام وثلاثة ، والمعنى : أن الله تعالى يكفر خطاياه الصغيرة التى يفعلها مدة عشرة أيام ، وفيه فضلها ، وبركتها ، والحث على القيام بها ، فإنها مكفرات للصغائر داعية إلى التحلى بالمكارم ، وهى نور الإيمان يبعث فى قلوب المتقين .

ومن مس الحصا فقد لغا : معناه : من وضع يده على الأرض متلاعباً أثناء الخطبة أبطل جمعته وقال النووى : فيه النهى عن مس الحصا وغيره من أنواع العبث فى حالة الخطبة ، وفيه إشارة إلى إقبال القلب والجوارح على سماع الخطبة ، والمراد باللغو هنا الباطل المزموم المردود .

٢ - وعنه (أبى هريرة) - رضى الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مكفرات ما بينهن . إذا إجتنبت الكبائر »[٣] رواه مسلم وغيره .

المعنى

الفرائض : أداؤها يسبب غفران الصغائر ، وكذا أداء صلاة الجمعة يكفر ذنوب أسبوع ، وكذا صيام رمضان يستر عيوب عام كله مدة أجتناب الكبائر ، أى : عدم فعل الموبقات التى نهى الله عنها بوعيد شديد وزجر مؤلم ، قال الله تعالى : ﴿ ولله ما فى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾[٤] . أى بعقاب ما عملوا من السوء وبالمثوبة الجنة لمن بعد عما يكبر عقابه ، أو يوجب الحد ،

---

(١) انظر صحيح مسلم ص٥٨٨
(٢) الاعراف آية ٢٠٤
(٣) صحيح مسلم
(٤) سورة النجم ٣١ ، ٣٢

وما فحش من العيوب ، إلا ماقل من الذنوب وصغر ، فإنه مغفور من مجتنب الكبائر ﴿ **فلا تزكوا أنفسكم** ﴾ : أى : فلا تثنوا عليها بزكاء العمل وزيادة الخير أو بالطهارة عن المعاصى والرذائل ، والجمعة عيد المؤمنين خص الله به عز وجل هذه الأمة ، فيه يعتق الله ستمائة ألف عتيق من النار ، ومن مات فيه أعطى أجر شهيد ووقاه الله فتنة القبر ، وفيه الصلاة على النبى - ﷺ - ثوابها مضاعف ، وفرضت الجمعة بمكة ليلة الإسراء ، ولم تقم فيها لقلة المسلمين ولخفاء الإسلام إذ ذاك وهى أفضل الصلوات ، ونعمة جسيمة ، امتن الله بها على عباده المؤمنين من أمة سيدنا محمد - ﷺ - وكان يسمى فى الجاهلية بيوم العروبة ، ويسمى يوم المزيد لزيادة الخيرات فيه ، وكذا ليلته أفضل ليالى الأسبوع ، وأفضل منه يوم عرفه ، وأفضل الليالى ليلة مولده - ﷺ - وعند الإمام أحمد بن حنبل أفضل الأيام يوم الجمعة مطلقاً ، وعند الشافعية الأفضل يوم عرفة ، فيوم الجمعة ، فيوم عيد الأضحى ، فيوم عيد الفطر ، والليالى ليلة مولده المباركة - ﷺ - فليلة القدر فليلة الجمعة ، فليلة الإسراء ، وعنده - ﷺ - الأفضل ليلة الإسراء وقد رأى ربه بعينى رأسه - عليه الصلاة والسلام . وأول من فعلها بالمدينة الشريفة قبل الهجرة أسعد بن زرارة - رضى الله عنه - بمحل يقال له : نقيع الخضمات على ميل من المدينة . والأصل فى وجوبها قول الله تبارك وتعالى :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع** ﴾ .

فأمر بالسعى وظاهره الوجوب ، وإذا وجب السعى وجب ما يسعى إليه ، ونهى عن البيع وهو مباح ولا ينهى عن المباح إلا لواجب . والمراد بذكر الله الصلاة وقيل الخطبة ، وهى ركعتان ، وليست ظهراً مقصورة . قال عمر - رضى الله عنه - « الجمعة ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم ، وقد خاب من افترى » ، أى : كذب ، رواه الإمام أحمد وغيره ونزل - ﷺ - قباء حينما قدم المدينة فأقام بها إلى الجمعة ، ثم دخل المدينة وصلى الجمعة فى واد لبنى سالم بن عوف .

(ب) وقال تعالى : ﴿ **وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون** ﴾ قال البيضاوى : نزلت فى الصلاة كانوا يتكلمون فيها فأمروا باستماع قراءة الإمام والإنصات له ، وظاهر اللفظ يقتضى وجوبها حيث يقرأ القرآن مطلقاً ، وعامة العلماء على استحبابها خارج الصلاة واحتج به من لا يرى وجوب القراءة على المأموم .

وفى تفسير الجلالين : نزلت فى ترك الكلام فى الخطبة وعبر عنها بالقرآن لاشتمالها عليه ، وقيل : فى قراءة القرآن مطلقاً وعلق الصاوى عليه واجب عند مالك ومذهب الشافعى الجديد : الإنصات سنة ، والكلام مكرمة ، فيحرم الكلام فى مجلس القرآن للتخليط على القارىء بل يجب الإنصات والاستماع فإن أمن التخليط فلا حرمة .

- وهى فرض عين على كل مسلم ، بالغ ، عاقل ، ذكر ، حر ، مقيم ، صحيح ، وشروط صحتها :

أولا : إقامتها فى أبنية مصراً كانت أو قرية فلا تقام فى الصحراء وإن كان فيها خيام .

ثانيا : إقامتها بأربعين مسلمين أحراراً ، ذكوراً ، مستوطنين بمحل إقامتها ، لا يظعنون شتاء ولا صيفاً مكلفين .

ويحرم السفر ولو قصيراً على من تلزمه الجمعة بعد طلوع فجر يومها إلا إذا وثق أن يتمكن من صلاتها فى طريقه .

ثالثا : وقوعها فى وقت الظهر .

رابعا : وقوعها جماعة ولوفى الركعة الأولى بتمامها بأن يستمروا معه إلى السجود الثانى .

خامساً : أن لا يسبقها ولا يقارنها بتحرم جمعة أخرى بمحل اقامتها إلا إذا عسر اجتماع الناس بمكان واحد وان تعددت لحاجة فجمعة الكل صحيحة .

سادساً : تقدم خطبتين على صلاتها وشروطهما :

أولا : وقوعهما فى وقت الظهر . .

ثانيا : أن تكونا عربيتين .

ثالثا : أن لا يطول الفصل بغير الوعظ بين أركان كل منهما .

رابعا : ألا يطول الفصل بينهما وبين فراغهما والصلاة .

خامسا : وأن يكون الخطيب قائماً فيهما عند القدرة .

سادسا : وأن يكون متطهراً من الحدث والخبث .

سابعا : وأن يكون ساتر العورة .

ثامنا : وأن يسمع أربعين ممن تنعقد بهم الجمعة .

تاسعا : وأن يجلس بينهما ، ويسن كونه بقدر سورة الاخلاص .

*** وأركان الخطبتين :**

أولا : حمد الله تعالى فيهما .

ثانيا : والصلاة على النبى - ﷺ - فيهما ، ولا يكفى الضمير ولَوْمع تقدم ذكره على المعتمد .

ثالثا : والوصية بالتقوى فيهما .

رابعا : وقراءة آية مفهمة فى إحداهما وكونها فى الأولى أوّلى .

خامسا : والدعاء للمؤمنين والمؤمنات فى الثانية فى آخرها.

وسنن الخطبتين :

أولا : ترتيب أركانهما والإنصات فيهما لمن سمعهما .

ثانيا : كونه على منبر أومرتفع ثم يسلم على المسلمين . ثم يجلس فيؤذن بين يديه واحد .

ثالثا : وأن تكون الخطبة بلغة مفهمة متوسطة .

رابعا : وأن لا يلتفت فى شىء منهما .

خامسا : وأن يشغل يسراه بنحو سيف أوعصا ويمناه بحرف المنبر .

سادسا : وأن يقرأ فى جلوسه بينهما سورة الإخلاص .

وسنن الجمعة :

أولا : الغسل .

ثانيا : تنظيف الجسد .

ثالثا : تقليم الاظافر .

رابعا : نتف الإبط .

خامساً : حلق العانة .

سادسا : قص الشارب .

سابعا : تسريح اللحية ، وتخضيب الشيب بحمرة أو صفر للاتباع ، ويحرم بالسواد إلا لإرهاب الكفار ويكره نتف الشيب لأنه نور وقيل : حرام .

ثامنا : والتطيب بالمسك والاستياك والاكتمال وتراً ثلاثا .

تاسعا : والتزين بأحسن الثياب وأفضلها البياض .

عاشراً : والتبكير إلى المصلى ليأخذ مجلسه قبل ازدحام المصلين .

وهنا أشدد اللوم والعتاب على أولئك المتأخرين الذين يخطون الرقاب ويزاحمون الجالسين . هذا لعمرى مضيع الحسنات ومحبط الثواب فأسرع أخى وخذ لك مكاناً فى المجلس وسبح الله واستغفره وصل على حبيبه - ﷺ - تنجح وتربح .

والحادى عشر : المشى لها بسكينة ووقار .

الثانى عشر : والاشتغال بقراءة ، أو ذكر أو استغفار ، ويندب للإمام التأخير إلى وقت الخطبة ، ويجتهد أن لا يتخطى رقاب الناس ، ولا يمر بين أيديهم وهم مصلون ، ويجلس بقرب حائط أو عمود حتى لا يمروا بين يديه ، ولا يقعد حتى يصلى التحية .

الثالث عشر : الإنصات بترك الكلام ، والذكر للسامع ، وترك الكلام دون الذكر لغيره .

الرابع عشر : إكثار الصلاة على النبى - ﷺ - .

الخامس عشر : الصدقة ، وإكثار الدعاء فى يومها ليصادف ساعة الإجابة ولا بأس بهذا الدعاء :

« اللهم إنا نسألك فقهاً فى الدين ، وزيادة فى العلم ، وكفاية فى الرزق ، وعافية وصحة فى البدن ، وتوبة قبل الموت ، وراحة عند الموت ، ومغفرة بعد الموت ، ولذة النظر إلى وجهك الكريم ، يا أرحم الراحمين » .

وتسن قراءة سورة الكهف لقوله - ﷺ - : « من قرأها يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين[١] ومن دخل المسجد والإمام يخطب صلى ركعتين خفيفتين ثم يجلس » .

فائدة : من قرأ الفاتحة والإخلاص والمعوذتين سبعاً . . سبعاً عقب سلامه من الجمعة قبل أن يثنى رجليه وقبل أن يتكلم ، ثم قال : « اللهم يا غنى ، يا حميد ، يا مبدىء ، يا معيد ، يا رحيم ، يا ودود ، أغننى بحلالك عن حرامك ، وبفضلك عمن سواك ، وبطاعتك عن معصيتك أربع مرات أغناه الله تعالى ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وحفظ له دينه ودنياه ، وأهله وولده .

٣ - وروى عن الطبرانى فى الكبير من حديث أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله - ﷺ - : « الجمعة كفارة لما بينها وبين الجمعة التى تليها وزيادة ثلاثة أيام وذلك بأن الله عز وجل قال : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها »[٢] .

٤ - وعن أبى سعيد - رضى الله عنه - أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول : « خمس من عملهن فى يوم كتبه الله من أهل الجنة ، من عاد مريضاً ، وشهد جنازة ، وصام يوماً ، وراح إلى الجمعة ، وأعتق رقبة »[٣] . رواه ابن حبان فى صحيحه

٥ - وعن يزيد بن أبى مريم - رضى الله عنه - قال : لحقنى عباية بن رفاعة بن رافع ، - رضى الله عنه - وأنا أمشى إلى الجمعة ، فقال : أبشر . فإن خطاك هذه فى سبيل الله ، سمعت أبا عبس يقول : قال رسول الله - ﷺ - : « من أغبرت قدماه فى سبيل الله فهما حرام على النار »[٣] رواه الترمذى ، وقال حديث حسن صحيح ، ورواه البخارى وعنده قال عباية : أدركنى أبو عبس وأنا ذاهب إلى الجمعة ، فقال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « من أغبرت قدماه فى سبيل الله حرمه الله على النار »[٤] .

وفى رواية : « ما أغبرت قدما عبد فى سبيل الله فتمسه النار » وليس عنده قول عباية ليزيد .

٦ - وعن أبى أيوب الأنصارى - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب إن كان عنده ولبس من أحسن ثيابه ، ثم خرج حتى يأتى المسجد فيركع ما بداله ولم يؤذ أحداً ثم أنصت حتى يصلى كان كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى » . رواه أحمد والطبرانى وابن خزيمة فى صحيحه . ورواة أحمد ثقات .

---

(١) انظر الدر المنثور حـ٥ ص٣٥٥ باب سورة الكهف
(٢) انظر المعجم الكبير للطبرانى حـ٣
(٣) أنظر صحيح بن ماجة
(٤) أنظر سنن الترمذى حـ٤ ص١٤٦ فى كتاب فضائل الجهاد

٧ ـ وعن أبي الدرداء ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « من أغتسل يوم الجمعة ثم لبس من أحسن ثيابه ومس طيبا إن كان عنده ثم مشى إلى الجمعة وعليه السكينة ولم يتخط أحداً ولم يؤذه ثم ركع ما قضى له ثم انتظر حتى ينصرف الإمام غفر له ما بين الجمعتين »[1] رواه أحمد والطبرانى من رواية حرب عن أبي الدرداء .

٨ ـ وعن عطاء الخرسانى ـ رضى الله عنه ـ قال : كان نبيشة الهندلى ـ رضى الله عنه ـ يحدث عن رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن المسلم إذا اغتسل يوم الجمعة ، ثم أقبل إلى المسجد لا يؤذى أحداً فإن لم يجد الإمام خرج صلىّ ما بداله وإن وجد الإمام قد خرج جلس فاستمع وأنصت حتى يقضى الإمام جمعته وكلامه إن لم يغفر له فى جمعته تلك ذنوبه كلها أن يكون كفارة الجمعة التى تليها »[2] رواه أحمد .

٩ ـ وعن سلمان ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من الطهور ويدّهن من دهنه ويمس من طيب بيته ثم يخرج فلا يفرق بين أثنين ثم يصلى ما كتب له ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى »[3] . رواه البخارى والنسائى .

وفى رواية للنسائى : « ما من رجل يتطهر يوم الجمعة كما أمر ، ثم يخرج من بيته حتى يأتى الجمعة وينصت حتى يقضى صلاته إلا كان كفارة لما قبله من الجمعة »[4] . ورواه الطبرانى فى الكبير باسناد حسن نحو رواية النسائى ، وقال فى آخره :

إلا كان كفارة لما بينه وبين الجمعة الأخرى ما اجتنبت المقتلة وذلك الدهر كله »[5] .

١٠ ـ وروى عن عتيق أبي بكر الصديق وعن عمران بن حصين ـ رضى الله عنهما ـ قالا : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « من اغتسل يوم الجمعة كفرت عنه ذنوبه وخطاياه فإذا أخذ فى المشى كتب له بكل خطوة عشرون حسنة فإذا انصرف من الصلاة أجيز بعمل مائتى سنة »[6] . رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ، وفى الأوسط أيضاً عن أبي بكر رضى الله عنه وحده ، وقال فيه :

كان له بكل خطوة عمل عشرين سنة .

١١ ـ وعن أوس بن أوس الثقفى ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « من غسل يوم الجمعة واغتسل وبكر وابتكر ومشى ولم يركب ودنا من الإمام فاستمع ولم يلغ كان له بكل خطوة عمل سنة أجر صيامها وقيامها »[7] . رواه أحمد وأبو داود والترمذى .

---

(١) انظر مسند الامام أحمد حـ٣ وصحيح بن خزيمة

(٢ ، ٣) انظر مسند الامام احمد

(٤) صحيح البخارى حـ٢٠ كتاب الجمعة

(٥) سنن النسائى ٥، كتاب الجمعة

(٦ ، ٧) انظر المعجم الكبير للطبرانى وابوداود والترمذى

١٢ ـ وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنهما ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « من غسل واغتسل ودنا وابتكر واقترب واستمع كان له بكل خطوة يخطوها قيام سنة وصيامها »(١) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

١٣ ـ وعن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : « عرضت الجمعة على رسول الله ـ ﷺ ـ جاءه بها جبريل عليه السلام فى كفه كالمرآة البيضاء فى وسطها كالنكتة السوداء ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذه الجمعة يعرضها عليك ربك لتكون لك عيداً ولقومك من بعدك ولكم فيها خير تكون أنت الأول وتكون اليهود والنصارى من بعدك ، وفيها ساعة لا يدعو أحد ربه فيها بخير هو له قسم إلا أعطاه ، أو يتعوذ من شر إلا دفع عنه ما هو أعظم منه ، ونحن ندعوه فى الآخرة يوم المزيد »(٢) . الحديث . رواه الطبرانى فى الأوسط بإسناد جيد .

١٤ ـ وعن أبى لبابة بن عبد المنذر ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن يوم الجمعة سيد الأيام ، وأعظمها عند الله وهو أعظم عند الله من يوم الأضحى ويوم الفطر . وفيه خمس خلال : خلق الله فيه آدم . وأهبط الله فيه آدم إلى الأرض . وفيه توفى الله آدم . وفيه ساعة لا يسأل الله فيها العبد شيئا الا أعطاه إياه ، ما لم يسأل حراماً ، وفيه تقوم الساعة ، ما من ملك مقرب ولا سماء ولا أرض ولا رياح ولا جبال ولا بحر إلا وهن يشفقن من يوم الجمعة »(٣) رواه أحمد وابن ماجه بلفظ واحد .

١٥ ـ وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق الله آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها »(٤) رواه مسلم ، وأبو داود والترمذى والنسائى وابن خزيمة فى صحيحه ولفظه قال :

« ما طلعت الشمس ولا غربت على يوم خير من يوم الجمعة هدانا الله له ، وضل الناس عنه فالناس لنا فيه تبع فهو لنا ، واليهود يوم السبت ، والنصارى يوم الأحد ، إن فيه لساعة لا يوافقها مؤمن يصلى يسأل الله شيئا إلا أعطاه » فذكر الحديث .

المعنى

ـ قال العراقى : المراد تفضيل الجمعة بالنسبة إلى أيامها ، وتفضيل يوم عرفه ، أو يوم النحر بالنسبة إلى السنة .

قال صاحب المفهم : صيغة خير وشر يستعملان للمفاضلة ولغيرها فإذا كانت للمفاضلة فأصلها أخير وأشرر على وزن أفعل ، وإذا لم يكونا للمفاضلة فهما من جملة الأسماء كما قال تعالى : ﴿ إن ترك خيراً ﴾ وقال : ﴿ ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ قال : وهى فى حديث الباب للمفاضلة ومعناها فى هذا الحديث أن يوم الجمعة أفضل من كل يوم طلعت شمسه .

---

(١) سند الامام أحمد

(٢) الطبرانى فى الأوسط

(٣) سند الامام أحمد

(٤) رواه مسلم فى صحيحه

ـ وقال الشوكانى فى (فيه خلق آدم) فيه دليل على أن آدم لم يخلق فى الجنة بل خلق خارجها ثم أدخل فيها .

وقد قال جمع من العلماء منهم الرافعى ، وصاحب المغنى : إن ساعة الإجابة مخفية فى جميع اليوم كما أخفيت ليلة القدر . وقد روى الحاكم وابن خزيمة عن أبى سعيد أنه قال : سألت النبى ـ ﷺ ـ عنها فقال : قد علمتها ثم أنسيتها كما أنسيت ليلة القدر ، وقيل : إذا زالت الشمس ، وقيل : إذا أذن المؤذن لصلاة الجمعة ، وقيل : ما بين خروج الإمام إلى أن تقام الصلاة . وقيل : ما بين أن يحرم البيع إلى أن يحل . وقيل ما بين أن يجلس الإمام على المنبر إلى تنقضى الصلاة . وقيل : عند الجلوس بين الخطبتين . وقيل : من إقامة الصلاة إلى تمام الصلاة . وقيل : فى صلاة العصر ، والله أعلم بزمن وجودها رجاء التضرع ، وكثرة التذلل ، وخشية دائما فى ساعة كلها ، والإكثار من الصلاة والدعاء ، فيصادفها من اجتهد . ومن خطب الحسناء لم يغلها مهر . قال القاضى عياض : فى شرح حديث : « خير يوم » الظاهر أن هذه الفضائل المعدودة ليست الذكر فضيلته لأن اخراج آدم ، وقيام الساعة لا يعد فضيلة وإنما هو بيان لما وقع فيه من الأمور العظام ، وما سيقع ليتأهب العبد فيه بالأعمال الصالحة لنيل رحمة الله ودفع نقمته .

وقال أبو بكر بن العزى فى كتابه الأحوزى فى شرح الترمذى الجميع من الفضائل وخروج آدم من الجنة هو سبب وجود الذرية ، وهذا النسل العظيم ووجود الرسل والأنبياء والصالحين والأولياء ولم يخرج منها طرداً بل لقضاء أوطار ، ثم يعود إليها ، وأما قيام الساعة فسبب لتعميل جزاء الأنبياء والصديقين والأولياء وغيرهم ، وإظهار كرامتهم وشرفهم ، وفى هذا الحديث فضيلة يوم الجمعة ومزيته على سائر الأيام .

قال النووى : لو قال لزوجته أنت طالق فى أفضل الأيام فيه وجهان لأصحابنا : أصحهما تطلق يوم عرفة ، والثانى يوم الجمعة لهذا الحديث ، وهذا إذا لم يكن له نية ، أما إذا أراد أفضل أيام السنة فيتعين يوم عرفه ، وإن أراد أفضل أيام الأسبوع فيتعين الجمعة ، ولو قال أفضل ليلة تعنيت ليلة القدر ، وهى منحصرة فى العشر الأواخر .

١٦ ـ وعن أوس بن أوس ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم وفيه قبض وفيه النفخة وفيه الصعقه ، فأكثروا من الصلاة على فيه ، فإن صلاتكم يوم الجمعة معروضة على ، قالوا : وكيف تعرض صلاتنا عليك ، وقد أرمت : أى بليت ؟ فقال : إن الله ـ عز وجل وعلا ـ حرم على الأرض أن تأكل أجسامنا »[(١)] رواه أبو داود والنسائى . وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه ، واللفظ له ، وهو أتم ، وله علة دقيقة امتاز اليها البخارى وغيره .

١٧ ـ وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « لا تطلع الشمس ولا تغرب على أفضل من يوم الجمعة وما من دابة إلا وهى تفزع يوم الجمعة إلا هذين الثقلين الجن والإنس »[(٢)] رواه ابن خزيمة وابن حبان فى صحيحهما .

---

(١) انظر سنن ابن ماجة حـ١ انظر سنن النسائى حـ٣ ص٩١ انظر سنن ابى داود حـ١ ص٦٣٥

(٢) انظر صحيح ابن حبان حـ٤ ص١٩١

١٨ ـ وعن أبى موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « تحشر الأيام على هيئتها ، وتحشر الجمعة زهراء منيرة أهلها يحفون بها كالعروس تهدى إلى خدرها تضىء لهم يمشون فى ضوئها ألوانهم كالبلج بياضاً وريحهم كالمسك ، يخوضون فى جبال الكافور ينظر اليهم الثقلان ، لا يطرفون تعجباً حتى يدخلون الجنة ، لا يخالطهم أحد إلا المؤذنون المحتسبون »[١] رواه الطبرانى وابن خزيمة فى صحيحه ، وقال : إن صح هذا الخبر ، فإن فى النفس من هذا الإسناد شيئا .

١٩ ـ وعن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : « إن الله ـ تبارك وتعالى ـ ليس تبارك أحداً من المسلمين يوم الجمعة إلا غفر له »[٢] رواه الطبرانى فى الأوسط مرفوعاً فيما أرى بإسناد حسن .

٢٠ ـ وعن أبى هريرة وحذيفة ـ رضى الله عنهما ـ قالا : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « أضل الله ـ تبارك وتعالى ـ عن الجمعة من كان قبلنا ، كان لليهود يوم السبت ، والأحد للنصارى فهم لنا تبع إلى يوم القيامة نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة المقضى لهم قبل الخلائق »[٣] رواه ابن ماجه والبزار ، ورجالهما رجال الصحيح إلا أن البزار قال : نحن الآخرون فى الدنيا الأولون يوم القيامة ، المغفور لهم قبل الخلائق وهو فى مسلم بنحو اللفظ الأول من حديث حذيفة وحده .

٢١ ـ وروى عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن يوم الجمعة ، وليلة الجمعة أربعة وعشرون ساعة ليس فيها ساعة إلا ولله فيها ستمائة ألف عتيق من النار . قال : فخرجنا من عنده فدخلنا على الحسن فذكرنا له حديث ثابت . فقال : سمعته فزاد فيه : كلهم قد استوجبوا النار »[٤] رواه أبو يعلى والبيهقى باختصار ولفظه : « لله فى كل جمعة ستمائة ألف عتيق من النار » .

٢٢ ـ وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ ذكر يوم الجمعة فقال : « فيها ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلى يسأل الله شيئاً إلا أعطاه »[٥] وأشار بيده يقللها . رواه البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه .

(وأما تعيين الساعة) : فقد ورد فيه أحاديث كثيرة صحيحة واختلف العلماء فيها اختلافاً كثيراً بسطته فى غير هذا الكتاب وأذكر هنا نبذة من الأحاديث الدالة لبعض الأقوال .

٢٣ ـ وعن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال لى عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ : أسمعت أباك يحدثك عن رسول الله ـ ﷺ ـ فى شأن ساعة الجمعة ؟ قال قلت : نعم سمعته يقول : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « هى ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة »[٦] رواه مسلم وأبوداود وقال : يعنى على المنبر وإلى هذا القول ذهب طوائف من أهل العلم .

---

(١) رواه الطبرانى وابن خزيمة

(٢) الطبرانى فى الأوسط

(٣) رواه ابن ماجه والبراز

(٤) البيهقى وابويعلى

(٥) البخارى

(٦) رواه مسلم وأبوداود

٢٤ ـ وعن عمرو بن عوف المزنى ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « إن فى الجمعة ساعة لا يسأل الله العبد فيها شيئا إلا أتاه الله إياه . قالوا يا رسول الله أية ساعة هى ؟ قال هى : حين تقام الصلاة إلى الانصراف منها »(١) رواه الترمذى وابن ماجه .

٢٥ ـ وروى عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « التمسوا الساعة التى ترجى فى يوم الجمعة بعد صلاة العصر إلى غيبوبة الشمس »(٢) رواه الترمذى .

٢٦ ـ وعن عبد الله بن سلام ـ رضى الله عنه ـ قال : قلت ورسول الله ـ ﷺ ـ جالس ، إنا لنجد فى كتاب الله تعالى : فى يوم الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يصلى يسأل الله فيها شيئا إلا قضى الله له حاجته قال عبد الله : فأشار إلى رسول الله ـ ﷺ ـ أو بعض ساعة فقلت صدقت أو بعض ساعة . قلت أى ساعة هى ؟ قال : آخر ساعات النهار ، قلت : إنها ليست ساعة صلاة ؟ قال : بلى إن العبد إذا صلى ثم جلس لم يجلسه إلا الصلاة فهو فى صلاة »(٣) . رواه ابن ماجه واسناده على شرط الصحيح .

٢٧ ـ وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قيل للنبى ـ ﷺ ـ أى شىء يوم الجمعة . قال : لأن فيها طبعت طينة أبيك آدم ، وفيها الصعقة ، وفيها البعثة ، وفيها البطشة ، وفى آخر ثلاث ساعات منها : ساعة من دعا الله فيها استجيب له »(٤) رواه أحمد من رواية على بن أبى طالب عن أبى هريرة ولم يسمع منه ورجاله محتج بهم فى الصحيح .

٢٨ ـ وروى عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « الساعة التى يستجاب فيها الدعاء يوم الجمعة آخر ساعة من يوم الجمعة قبل غروب الشمس أغفل ما يكون الناس »(٥) رواه الأصبهانى .

٢٩ ـ وعن جابر ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : الجمعة أثنتا عشرة ساعة لا يوجد عبد مسلم يسأل الله ـ عز وجل ـ شيئا إلا أتاه إياه فالتمسوها آخر ساعة بعد العصر »(٦) رواه أبو داود والنسائى .

ورأى بعض أهل العلم من أصحاب النبى ـ ﷺ ـ وغيرهم أن الساعة التى ترجى بعد العصر إلى أن تغرب الشمس وبه يقول أحمد واسحق ، وقال أحمد : أكثر الحديث فى الساعة التى تُرجى فيها اجابة الدعوة أنها بعد صلاة العصر . قال : وترجى بعد الزوال ، ثم روى حديث عمرو بن عوف المتقدم . وقال الحافظ : أبو بكر المنذر :

اختلفوا فى وقت الساعة التى يستجاب فيها الدعاء من يوم الجمعة فروينا عن أبى هريرة قال : هى من بعد طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . ومن بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس ، وقال الحسن

(١) انظر مسند أبويعلى حـ٦ ص١٥٧ ـ ٢٠١
(٢) انظر شعب الايمان للبيهقى
(٣) انظر صحيح مسلم حـ٢ ـ كتاب الجمعة
(٤) أنظر مسلم
(٥) أنظر مجمع الزوائد حـ١
(٦) أنظر مجمع الزوائد حـ٢

البصرى ، وأبو العالية : هى عند زوال الشمس ، وفيه قول ثالث وهو أنه إذا أذن المؤذن لصلاة الجمعة روى ذلك عن عائشة وروينا عن الحسن البصرى أنه قال : هى إذا قعد الإمام على المنبر حتى يفرغ . وقال أبو بردة : هى الساعة التى اختار الله فيها الصلاة وقال أبو السوار العدوى : كانوا يرون الدعاء مستجاباً ما بين أن تزول الشمس إلى أن يدخل فى الصلاة ، وفيه قول سابع وهو أنها ما بين أن تزيغ الشمس يشير إلى ذراع وروينا هذا القول عن أبى ذر وفيه قول ثامن وهو أنها ما بين العصر إلى أن تغرب الشمس ، كذا قال أبو هريرة ، وبه قال طاوس ، وعبد الله بن سلام - رضى الله عنه . والله أعلم .

الترغيب فى الغسل يوم الجمعة

١ - عن أبى أمامة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال : « إن الغسل يوم الجمعة ليسل الخطايا من أصول الشعر استلالاً »(١) . رواه الطبرانى فى الكبير ورواته ثقات .

٢ - وعن عبد الله بن أبى قتادة - رضى الله عنه - قال : دخل علي أبى وأنا أغتسل يوم الجمعة فقال غسلك هذا من جنابة أو للجمعة ؟ قلت : من جنابة ؟ قال أعد غسلاً آخر إنى سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : من اغتسل يوم الجمعة كان فى طهارة إلى الجمعة الأخرى »(١) .

رواه الطبرانى فى الأوسط وإسناده قريب من الحسن وابن خزيمة فى صحيحه .

المعنى

معناه أمره أبوه أن يعيد كرة الغسل مرة أخرى بنية غسل الجمعة ويعمل بسنة النبى - ﷺ - وكانت نيته غسل الحدث الأكبر وإزالته . قال العلماء : لابد من النية . أى : ينوى الجنب رفع الجنابة أو الحدث الأكبر . أما إذا نوى الحديثين فتحصل الازالة والعمل بالسنة ، ولو نوى غسل السنة لمسه يتدرج الحدث الأكبر فيه ، وبهذه المناسبة أذكر فرائض الغسل وسننه ومكروهاته وشروطه :

فروض الغسل وسننه

أولا : النية : وتكون النية مقرونة بأول الفرض ، وهو أول ما يغسل من أعلى البدن أو أسفله ، فلو نوى بعد غسل جزء وجب إعادته .

ثانياً : إزالة النجاسة إن كانت على بدنه .

ثالثاً : إيصال الماء إلى جميع الشعر والبشرة ، ولا فرق بين شعر الرأس وغيره ، والشعر المضفور إن لم يصل الماء إلى باطنه إلا بالنقض وجب نقضه . فالسيدة تتنبه لهذا الحكم ، وتعتنى بالغسل لتبنى عبادتها على صحة ، ويجب غسل ما ظهر من صمامى أذنيه أى : خرقيها ، ومن أنف مشقوق مقطع ظهر بالقطع ، بخلاف الباطن الذى كان منفتحاً قبل القطع فلا يجب غسله ، وإن ظهر بعد قطع ما كان

---

(١) انظر مجمع الزوائد حـ٢

ساتره ، ومن شقوق بدن كشقوق الرجلين القلاحين والماشين ، ويجب إيصال الماء إلى ما تحت القلفة وهى الجلدة التى تزال بالختان للأقلف / وإلى ما يبدو من فرج المرأة عند قعودها لقضاء حاجتها ، ويجب غسل ملتقى المنفذ المسمى : (السربة) فيسترخى ليصل الماء إلى/ ذلك ، وينبغى لمن يغتسل من نحو إبريق أن ينوى رفع الحدث بعد الاستنجاء لئلا يحتاج إلى مسه بعد ذلك فينتقض وضوءه ، أو إلى كلفة فى لف يده بخرقة .

وسنن الغسل : التسمية ، والوضوء قبله ، وينوى المغتسل سنة الغسل إن تجردت جنابته عن الحدث الأصغر ، وإلا نوى به الأصغر وإمرار اليد على ما وصلت إليه من الجسد ، وعند مالك - رحمه الله - يجب الدلك والموالاة ، وتقديم اليمنى من شقيه على اليسرى ، وإزالة القذر وتعهد غضوان جلده (معاطفة) ، والتثليث وتخليل الشعر .

ومكروهاته : الزيادة على ثلاث ، والإسراف فى الماء . .

وشروطه : عدم المنافى ، وعدم الحائل .

٣ - وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إذا كان يوم الجمعة فاغتسل الرجل ، وغسل رأسه ، ثم تطيب من أطيب طيبه ، ولبس من صالح ثيابه ثم خرج إلى الصلاة ولم يفرق بين اثنين ، ثم استمع الإمام غفر له من الجمعة إلى الجمعة ، وزيادة ثلاثة أيام »[(١)] رواه ابن خزيمة فى صحيحه .

قال الحافظ : وفى هذا الحديث دليل على ما ذهب إليه مكحول ومن تابعه فى تفسير قوله : غسل واغتسل . والله أعلم .

٤ - وعن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - قال : « غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم ، وسواك ، ويمس من الطيب ما قدر عليه »[(٢)] رواه مسلم وغيره .

٥ - وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن هذا يوم عيد جعله الله للمسلمين / فمن جاء الجمعة فليغتسل وإن كان عنده طيب فليمس منه وعليكم بالسواك »[(٣)] ، رواه ابن ماجه بإسناد حسن .

الترغيب فى التبكير إلى الجمعة
/وما جاء فيمن يتأخر عن التبكير من غير عذر

١ - عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فى الساعة الأولى فكأنما قرب بدنه ، ومن راح فى الساعة الثانية ، فكأنما قرب بقرة ، ومن راح فى الساعة الثالثة ، فكأنما قرب كبشاً أقرن ، ومن راح فى الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ،

---

(١) انظر صحيح ابن خزيمة حـ٢ ص٣١

(٢) انظر مسلم حـ٢ ص٥٨١ بكتاب الجمعة

(٣) انظر سنن ابن ماجه حـ١

ومن راح فى الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر »[١] .

رواه مالك والبخارى ومسلم . وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

٢ - وفى رواية البخارى ومسلم وابن ماجه : « إذا كان يوم الجمعة وقفت الملائكة على باب المسجد يكتبون الأول فالأول ومثل المهجر كمثل الذى يُهدى بدنه ثم كالذى يُهدى بقرة ثم كبشاً ثم دجاجة ثم بيضة فإذا خرج الإمام طووا صحفهم يستمعون الذكر »[٢] ورواه ابن خزيمة فى صحيحه بنحو هذه .

٣ - وفى رواية له : أن رسول الله - ﷺ - قال : « المستعجل إلى الجمعة كالمهدى بدنه ، والذى يليه كالمهدى بقرة ، والذى يليه كالمهدى شاه ، والذى يليه كالمهدى طيراً ، وفى أخرى له قال : على كل باب من أبواب المساجد يوم الجمعة ملكان يكتبان الأول فالأول كرجل قدم بدنه ، وكرجل قدم بقرة ، وكرجل قدم شاة ، وكرجل قدم طيراً ، وكرجل قدم بيضة ، فإذا قعد الإمام طويت الصحف »[٣] .

(المهجر) : هو المبكر الآتى فى أول ساعة .

٤ - وعن سمرة بن جندب - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - ضرب مثل يوم الجمعة ثم التبكير كأجر البقرة كأجر الشاة حتى ذكر الدجاجة)[٤] . رواه ابن ماجه بإسناد حسن .

٥ - وعن أبى أمامه - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « تقعد الملائكة يوم الجمعة على أبواب المساجد معهم الصحف يكتبون الناس فإذا خرج الإمام طويت الصحف ، قلت : يا أبا أمامة ليس لمن جاء بعد خروج الإمام جمعه ؟ قال : بلى ، ولكن ليس ممن يكتب فى الصحف »[٥] . رواه أحمد والطبرانى فى الكبير .

٦ - وفى رواية لأحمد - رضى الله عنه - سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « تقعد الملائكة على أبواب المساجد يوم الجمعة فيكتبون الأول والثانى والثالث حتى إذا خرج الإمام رفعت الصحف »[٦] .

٧ - وعن علىّ ابن أبى طالب - رضى الله عنه - قال : « إذا كان يوم الجمعة خرجت الشياطين يريثون الناس إلى أسواقهم وتقعد الملائكة على أبواب المساجد يكتبون الناس على قدر منازلهم : السابق والمصلى والذى يليه حتى يخرج الإمام ، فمن دنا من الإمام فأنصت واستمع ، ولم يلغ كان له كفلان من الأجر ومن دنا من الإمام فلغا ولم ينصت ولم يستمع كان عليه كفلان من الوزر ومن قال صه

---

(١) صحيح مسلم

(٢) صحيح بن خزيمة حـ٣ كتاب الجمعة

(٣) صحيح بن خزيمة حـ٣ كتاب الجمعة

(٤) سنن ابن ماجة حـ١

(٥) أنظر مجمع الزوائد

(٦) مسند الامام أحمد

فقد تكلم ومن تكلم فلا جمعة له ، ثم قال : هكذا سمعت نبيكم - ﷺ - يقول »[١] رواه أحمد وهذا لفظه ، وأبو داود .

ولفظه : « إذا كان يوم الجمعة غدت الشياطين براياتها إلى الأسواق فيرمون الناس بالترابيث أو الربائث ، ويثبطونهم عن الجمعة ، وتغدو الملائكة فيجلسون على أبواب المساجد ، ويكتبون الرجل من ساعة ، والرجل من ساعتين ، حتى يخرج الإمام ، فإذا جلس مجلساً يستمكن فيه من الاستماع والنظر فأنصت ولم يلغ كان له كفلان من الأجر ، فإن نأى حيث لا يسمع فانصت ولم يلغ كان له كفل من الأجر فإن جلس مجلساً لا يستمكن فيه من الاستماع والنظر فلغا ولم ينصت كان له كفلان من وزر ، فإن جلس مجلساً يستمكن فيه من الاستماع والنظر ولغا ولم ينصت كان له كفل من وزر ، قال ومن قال لصاحبه يوم الجمعة : أنصت فقد لغا ومن لغا ليس له فى جمعته شىء ، ثم قال فى آخر ذلك : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول ذلك »[٢] .

(قال الحافظ) : وفى إسنادهما راوٍ لم يسمه .

(الربايث) : بالراء والباء الموحدة ، ثم ألف وياء مثناه تحت بعدها ثاء مثلثة : جمع ربيته وهى الأمر الذى يجلس المرء عن مقعده ويثبطه عنه ومعناه أن الشياطين تشغلهم وتفندهم عن السعى إلى الجمعة إلى أن تمضى الأوقات الفاضلة .

(قال الخطابى) : الترابيث ليس بشىء إنما هو (الربايث) وقوله : فيرمون الناس ، إنما هو فيربثون الناس ، قال وكذلك روى لنا فى غير هذا الحديث .

(قال الحافظ) : يشير إلى لفظ رواية أحمد المذكورة ، وقوله :

(صه) : بسكون الهاء وتكسر منونة ، وهى كلمة زجر للمتكلم : أى : اسكت . (والكفل) : بكسر الكاف : هو النصيب من الأجر أو الوزر .

٨ - وعن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - أنه قال : « إذا كان يوم الجمعة قعدت الملائكة على أبواب المساجد فيكتبون من جاء من الناس على منازلهم فرجل قدم جزوراً ورجل قدم بقرة ورجل قدم شاة ورجل قدم دجاجة ورجل قدم بيضة .

قال : فإذا أذن المؤذن وجلس الإمام على المنبر طويت الصحف . ودخلوا المسجد يستمعون الذكر »[٣] .

رواه أحمد بإسناد حسن ورواه النسائى بنحوه من حديث أبى هريرة .

(١) أنظر سنن ابن ماجه حـ١ ص٣٤٨ كتاب اقامة الصلاة والسنة فيها رقم ١٠٩٣

(٢) أنظر مجمع الزوائد حـ٢ ص١٧٦ باب التبكر الى الجمعة

(٣) أنظر مسند الامام احمد حـ٥ ص٢٦٠ مسند أبوامامة

٩ - وعن عمرو بن شعيب - رضى الله عنه - عن أبيه عن جده عن النبى - ﷺ - أنه قال : « يُبعث الملائكة على أبواب المساجد يوم الجمعة يكتبون مجيء الناس فإذا خرج الإمام طويت الصحف ورفعت الأقلام ، فتقول الملائكة بعضهم لبعض :

ما جلس فلاناً، فتقول الملائكة : اللهم إن كان ضالاً فاهده ، وإن كان مريضاً فاشفه ، وإن كان عائلاً فاغنه »(١).

رواه ابن خزيمة فى صحيحه .

(العائل) : الفقير .

١٠ - وعن أبى عبيدة - رضى الله عنه - قال : قال عبد الله : سارعوا إلى الجمعة فإن الله يبرز إلى أهل الجنة فى كل يوم جمعة فى كثيب كافورٍ فيكونون منه فى القرب على قدر تسارعهم ، فيحدث الله عز وجل لهم من الكرامة شيئاً لم يكونوا رأوه قبل ذلك . ثم يرجعون إلى أهليهم فيحدثونهم بما أحدث الله لهم ، قال : ثم دخل عبد الله المسجد فإذا هو برجلين يوم الجمعة قد سبقاه فقال عبد الله : رجلان وأنا الثالث إن شاء الله إن يبارك فى الثالث »(٢) .

رواه الطبرانى فى الكبير وأبو عبيدة اسمه عامر ولم يسمع من أبيه عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - وقيل سمع منه .

١١ - وعن علقمة - رضى الله عنه - قال : خرجت مع عبد الله بن مسعود يوم الجمعة فوجد ثلاثة قد سبقوه ، فقال : رابع أربعة وما أربع رابع أربعة من الله ببعيد ، إنى سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « إن الناس يجلسون يوم القيامة من الله عز وجل على قدر رواحهم إلى الجمعات الأول ، ثم الثانى ، ثم الثالث ، ثم الرابع ، وما رابع أربعة من الله ببعيد »(٣) . رواه ابن ماجه وابن أبى عاصم وإسنادهما حسن .

(قال الحافظ) : رحمه الله : وتقدم حديث عبد الله بن عمرو عن النبى - ﷺ - قال :

« من غسل واغتسل ودنا وابتكر واقترب واستمع كان له بكل خطوة يخطوها قيام سنة وصيامها »(٤) وكذلك تقدم حديث أوس بن أوس نحوه .

١٢ - وروى عن سمرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « أحضروا الجمعة وأدنوا من الإمام فإن الرجل ليكون من أهل الجنة فيتأخر عن الجمعة فيؤخر عن الجنة وإنه لمن أهلها »(٥) رواه الطبرانى والأصبهانى وغيرهما .

---

(١) انظر مسند الامام أحمد حـ٢ ص٢٥٩ مسند ابوسعيد الخدرى

(٢) انظر صحيح ابن خزيمة حـ٣ باب ذكر دعاء الملائكة للمتخلفين عن الجمعة

(٣) انظر مجمع الزوائد حـ٢ باب التبكير الى الجمعة

(٤) انظر سنن ابن ماجة حـ١ باب اقامة الصلاة

(٥) انظر مجمع الزوائد حـ٢

الترهيب من تخطى الرقاب يوم الجمعة

١ - عن عبد الله بن يُسر - رضى الله عنهما - قال : جاء رجل يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة والنبى - ﷺ - يخطب فقال النبى - ﷺ - : « اجلس فقد آذيت وآنيت »(١) . رواه أحمد وأبو داود والنسائى وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحهما وليس عند أبى داود والنسائى : وآنيت وعند ابن خزيمة : فقد آذيت وأوذيت ، ورواه ابن ماجه من حديث جابر بن عبد الله .

(آنيت) : بمد الهمزة وبعدها نون ثم ياء مثناة تحت . أى أخرت المجىء : وآذيت بتخطيك رقاب الناس .

٢ - وروى عن معاذ بن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من تخطى رقاب الناس يوم الجمعة اتخذ جسراً إلى جهنم »(٢) : رواه ابن ماجه والترمذى . وقال : حديث غريب ، والعمل عند أهل العلم .

٣ - وروى عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : بينما رسول الله - ﷺ - يخطب إذ جاء رجل يتخطى رقاب الناس حتى جلس قريباً من النبى - ﷺ - فلما قضى رسول الله - ﷺ - صلاته قال : « ما منعك يا فلان أن تجمع معنا ؟ قال يا رسول الله : قد حرصت أن أضع نفسى بالمكان الذى ترى . قال قد رأيتك تتخطى رقاب الناس وتؤذيهم ومن آذى مسلماً فقد آذانى ومن آذانى فقد آذى الله عز وجل »(٣) . رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط .

٤ - وروى عن الأرقم بن الأرقم - رضى الله عنه - وكان من أصحاب النبى - ﷺ - أن النبى - ﷺ - قال : « إن الذى يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة ويفرق بين الاثنين بعد خروج الإمام كجار قصبه فى النار »(٤) رواه أحمد والطبرانى فى الكبير .

المعنى

كجار قصبه فى النار : والجمع أقصاب : أى أمعاء وفيه كراهة التخطى يوم الجمعة وهى مختصة به ويحمل عليه مجالس العلم وغيرها ، ويؤيده أيضاً ما أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى أمامة قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من تخطى حلقة قوم بغير إذنهم فهو عاص »(٥) .
قال العراقى : وقد استثنى من التحريم والكراهة الإمام أو من كان بين يديه فرجة لا يصل إليها إلا بالتخطى .

---

(١) انظر صحيح بن خزيمة جـ٣ باب النهى عن تخطى الرقاب والامام يخطب

(٢) انظر سنن ابن ماجه جـ١ باب النهى عن تخطى الرقاب والامام يخطب

(٣) انظر مجمع الزوائد جـ٢ باب النهى عن تخطى الرقاب والامام يخطب

(٤) انظر مسند الامام أحمد ج٣

(٥) انظر مسند الفردوس جـ٣ ص٥٥٥ رقم ٥٤٣

وقال النووى : إذا لم يجد طريقاً إلى المنبر أو المحراب إلا بالتخطى لم يكره لأنه ضرورة .

وقد خص الكراهة بعضهم بغير من يتبرك الناس بمروره ويسرهم ذلك ، ولا يتأذن لزوال علة الكراهة التى هى التأذى .

الترهيب من الكلام والإمام يخطب والترغيب فى الإنصات

١ - عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى - ﷺ - قال : إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة : أنصت والإمام يخطب فقد لغوت »[١] ، رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى ، وابن ماجه وابن خزيمة .

(قوله) : لغوت : قيل معناه : خبت من الأجر ، وقيل : تكلمت ، وقيل : أخطأت ، وقيل : بطلت فضيلة حروبك ، وقيل : صارت جمعتك ظهراً ، وقيل : غير ذلك .

٢ - وعنه (أبى هريرة) - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال : « إذا تكلمت يوم الجمعة ، فقد لغوت وألغيت »[٢] يعنى والإمام يخطب ، رواه ابن خزيمة فى صحيحه .

٣ - وروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب ، فهو كمثل الحمار يحمل أسفاراً ، والذى يقول له : أنصت ليس له جمعة »[٣] رواه أحمد والبزار والطبرانى .

٤ - وعن أبى بن كعب - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قرأ يوم الجمعة تبارك وهو قائم يذكر بأيام الله وأبو ذر يغمز أبى كعب فقال : متى أنزلت هذه السورة إنى لم أسمعها إلى الآن ، فأشار إليه أن أسكت ، فلما انصرفوا قال سألتك متى أنزلت هذه السورة فلم تخبرنى ؟ فقال أبى : ليس لك من صلاتك اليوم إلا ما لغوت . فذهب أبو ذر إلى رسول الله - ﷺ - وأخبره بالذى قال أبى ، فقال رسول الله - ﷺ - « صدق أبى »[٤] . رواه ابن ماجه بإسناد حسن .

وروًاه ابن خزيمة فى صحيحه عن أبى ذر - رضى الله عنه - أنه قال : دخلت المسجد يوم الجمعة والنبى - ﷺ - يخطب فجلست قريباً من أبى بن كعب فقرأ النبى - ﷺ - سورة براءة فقلت لأبى : متى نزلت هذه السورة ؟ قال : فتجهمنى ولم يكلمنى ثم مكثت ساعة ، ثم سألته فتجهمنى ولم يكلمنى ثم مكثت ساعة ، ثم سألته فتهجمنى ولم يكلمنى فلما صلى النبى - ﷺ - قلت لأبى : سألتك فتجهمتنى ولم تكلمنى قال أبى : مالك من صلاتك إلا مالغوت فذهبنا إلى النبى - ﷺ - فقلت يا نبى الله : كنت

---

(١) انظر صحيح مسلم حـ٣ ص٥٨٣ كتاب الجمعة باب فى الانصات فى خطبة الجمعة

(٢) انظر صحيح ابن خزيمة حـ٣ باب الزجر عن الكلام يوم الجمعة عند الخطبة

(٣) انظر سنن ابن ماجه

(٤) انظر سنن ابن ماجة

بجنب أبى وأنت تقرأ براءة ، فسألته متى نزلت هذه السورة ، فتجهمنى ولم يكلمنى ثم قال : مالك من صلاتك إلا مالغوت ، قال النبى - ﷺ - : « صدق أبى »(١) .

(قوله) فتجهمنى : معناه قطب وجهه وعبس ونظر إلىَّ نظر المغضب المفكر .

٥ - وعن أبى الدرداء - رضى الله عنه - قال : جلس رسول الله - ﷺ - يوماً على المنبر فخطب الناس ، وتلا آية وإلى جنبى أبى بن كعب فقلت له يا أبى : ومتى أنزلت هذه الآية ؟ قال : فأبى أن يكلمنى ثم سألته فأبى أن يكلمنى ، حتى نزل رسول الله - ﷺ - ، فقال أبى : مالك من جمعتك إلا ما لغيت ، فلما انصرف رسول الله - ﷺ - جئته فأخبرته ، فقلت : أى رسول الله إنك تلوت آية وإلى جنبى أبى بن كعب فقلت له : متى أنزلت هذه الآية ؟ فأبى أن يكلمنى حتى إذا نزلت زعم أبى أنه ليس لى من جمعتى إلا ما لغيت ، فقال : « صدق أبى : إذا سمعت إمامك يتكلم ، فأنصت حتى يفرغ »(٢) ، رواه أحمد من رواية حرب بن قيس عن أبى الدرداء ولم يسمع منه .

٦ - وروى عن جابر - رضى الله عنه - قال : قال سعد بن أبى وقاص - رضى الله عنه - لرجل : لا جمعة لك ، فقال النبى - ﷺ - : (لم يا سعد ؟) قال : لأنه كان يتكلم وأنت تخطب فقال ﷺ - : « صدق سعد »(٣) رواه أبو يعلى والبزار .

٧ - وعن جابر أيضاً - رضى الله عنه - قال : دخل عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - المسجد والنبى - ﷺ - يخطب ، فجلس إلى جنب أبى بن كعب فسأله عن شىء أو كلمه بشىء فلم يرد عليه أبى بظن ابن مسعود أنها موجدة ، فلما انفتل النبى - ﷺ - من صلاته ، قال ابن مسعود يا أبى : ما منعك أن ترد علىَّ ؟ قال : إنك لم تحضر معنا الجمعة ، قال : لم ؟ قال تكلمت والنبى - ﷺ - يخطب ، فقام ابن مسعود : فدخل على النبى - ﷺ - فذكر ذلك له ، فقال رسول الله - ﷺ - : « صدق أبى ، صدق أبى ، أطع أبياً »(٤) ، رواه أبو يعلى بإسناد جيد وابن حبان فى صحيحه .

٨ - وعن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال : كفى لغواً أن تقول لصاحبك أنصت إذا خرج الإمام فى الجمعة »(٥) ، رواه الطبرانى فى الكبير موقوفاً بإسناد صحيح ، وتقدم فى حديث على المرفوع .

ومن قال يوم الجمعة لصاحبه أنصت فقد لغا ومن لغا فليس له فى جمعته تلك شىء .

٩ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - قال : « من اغتسل يوم الجمعة ومسَّ من طيب امرأته إن كان لها ولبس من صالح ثيابه ثم لم يتخط رقاب الناس ولم يلغ عند الموعظة كان كفارة لما بينهما ومن لغا وتخطى رقاب الناس كانت له ظهراً »(٦) ، رواه أبو داود

(١) انظر سنن ابن ماجه جـ١ ص

(٢) انظر مسند الامام أحمد جـ٥ مسند أبوالدرداء

(٣) أنظر مجمع الزوائد

(٤) انظر مسند ابى يعلى مسند جابر

(٥) انظر مجمع الزوائد

(٦) انظر سنن أبوداود جـ١ كتاب الطهارة

وابن خزيمة فى صحيحه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن عبد الله بن عمرو ، ورواه ابن خزيمة فى صحيحه من حديث أبى هريرة بنحوه وتقدم .

١٠ - وعنه - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « يحضُرُ الجمعة ثلاثة نفر فرجل حضرها بلغو فذلك حظه منها ، ورجل حضرها بدعاء فهو رجل دعا الله ، إن شاء أعطاه ، وإن شاء منعه ، ورجل حضرها بإنصات وسكوت ولم يتخط رقبة مسلم ولم يؤذ أحداً فهى كفارة إلى الجمعة التى تليها وزيادة ثلاثة أيام وذلك أن الله يقول : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها »[1] رواه أبو داود وابن خزيمة فى صحيحه وتقدم فى حديث على .

فمن دنا من الإمام واستمع ولم يلغ كان له كفلان من الأجر . والحديث .

الترهيب من ترك الجمعة لغير عذر

١ - عن ابن مسعود - رضى الله عنه - أن النبى - ﷺ - قال لقوم يتخلفون عن الجمعة : « لقد هممت أن آمر رجلاً يصلى بالناس ثم أحرِّق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم »[2] رواه مسلم والحاكم بإسناد على شرطهما ، وتقدم فى باب الحمام حديث أبى سعيد ، وفيه ومن كان يؤمن بالله ، واليوم الآخر فليسع إلى الجمعة ومن استغنى عنها بلهو أو تجارة استغنى الله عنه ، والله غنى حميد ، رواه الطبرانى .

٢ - وعن أبى هريرة وابن عمر - رضى الله عنهم - أنهما سمعا رسول الله - ﷺ - يقول على أعواد منبره : « لينتهن أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين »[3] .

رواه مسلم وابن ماجه وغيرهما .

(قوله) : ودعهم الجمعات . هو بفتح الواو ، وسكون الدال : أى تركهم الجمعات ورواه ابن خزيمة بلفظ تركهم من حديث أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى .

٣ - وعن أبى الجعد الضمرى وكانت له صحبة - رضى الله عنه ، عن النبى - ﷺ - قال : « من ترك ثلاث جمع تهاوناً بها طبع الله على قلبه »[4] رواه أحمد وأبو داود والنسائى والترمذى وحسنه ، وابن ماجه ، وابن خزيمة ، وابن حبان فى صحيحهما والحاكم ، وقال : صحيح على شرط مسلم .

وفى رواية لابن خزيمة وابن حبان ، « من ترك الجمعة ثلاثاً من غير عذر فهو منافق » . وفى رواية ذكرها رزين : وليستا فى الأصول : « فقد برىء من الله » .

(أبو الجعد) : اسمه أدرع وقيل جنادة ، وذكر الكرابيس أن اسمه عمر بن أبى بكر ، وقال الترمذى : سألت محمداً ، يعنى البخارى عن اسم أبى الجعد فلم يعرفه .

---

(١) انظر مسند ابى داود حـ١ كتاب الصلاة باب الكلام

(٢) انظر صحيح مسلم حـ١ ص٤٥٢ كتاب المساجد

(٣) انظر صحيح مسلم حـ٢ كتاب الجمعة باب التغليظ فى ترك الجمعة

(٤) انظر صحيح ابوخزيمة حـ٣ ذكر الختم على قلوب التاركين للجمعة

٤ ـ وعن أبى قتادة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « من ترك الجمعة ثلاث مرات من غير ضرورة طبع الله على قلبه »(١) . رواه أحمد بإسناد حسن والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد .

٥ ـ وعن أسامة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « من ترك ثلاث جمعات من غير عذر كتب من المنافقين »(٢) رواه الطبرانى فى الكبير من رواية جابر الجعفى ، وله شواهد .

٦ ـ وعن كعب بن مالك ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « لينتهين أقوام يسمعون النداء يوم الجمعة ثم لا يأتونها أو ليطبعن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين »(٣) رواه الطبرانى فى الكبير بإسناد حسن .

٧ ـ وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « ألا هل عسى أحدكم أن يتخذ الصبَّة من الغنم على رأس ميل أو ميلين فيتعذر عليه الكلأ فيرتفع ، ثم تجىء الجمعة فلا يجىء ولا يشهدها ، وتجىء الجمعة فلا يشهدها ، حتى يطبع على قلبه »(٤) رواه ابن ماجة بإسناد حسن ، وابن خزيمة فى صحيحه .

(الصبة) : بضم الصاد والمهملة ، وتشديد الباء الموحدة : هى السرية إما من الخيل أو الإبل أو الغنم : ما بين العشرين إلى الثلاثين تضاف إلى ما كانت منه ، وقيل : هى ما بين العشرة إلى الأربعين .

٨ ـ وعن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ قال : قام رسول الله ـ ﷺ ـ خطيباً يوم الجمعة ، فقال : « عسى رجل تحضره الجمعة وهو على قدر ميل من المدينة فلا يحضر الجمعة ، ثم قال فى الثانية : عسى رجل تحضره الجمعة وهو على قدر ميلين من المدينة فلا يحضرها وقال فى الثالثة : عسى يكون على قدر ثلاثة أميال من المدينة فلا يحضر الجمعة ويطبع الله على قلبه »(٥) رواه أبو يعلى بإسناد لين .

وروى ابن ماجه عنه بإسناد جيد مرفوعاً : « من ترك الجمعة ثلاثاً من غير ضرورة طبع الله على قلبه »(٦) .

٩ ـ وروى عن جابر ـ رضى الله عنه ـ أيضاً قال : خطبنا رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : « يا أيها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا ، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا ، وصلوا الذى بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له ، وكثرة الصدقة فى السر والعلانية ، ترزقوا وتنصروا وتجبروا ، واعلموا أن الله افترض

---

(١) انظر سنن ابى داود حـ١ كتاب الصلاة باب التشديد فى ترك الجمعة وصحيح بن خزيمة

(٢) انظر مستنتد الامام أحمد حـ٣ مسند جابر بن عبدالله

(٣) انظر مجمع الزوائد حـ٢ باب فيمن ترك الجمعة

(٤) انظر مجمع الزوائد حـ٢ باب فيمن ترك الجمعة

(٥) انظر سنن ابن ماجه

(٦) انظر صحيح ابن خزيمة حـ٣

عليكم الجمعة فى مقامى هذا ، فى يومى هذا فى شهرى هذا ، من عامى هذا إلى يوم القيامة ، فمن تركها فى حياتى أو بعدى وله إمام عادل ، أو جائر استخفافاً بها وجحوداً بها فلا جمع الله له شمله ولا بارك له فى أمره ، ألا ولا صلاة له ، ألا ولا زكاة له ، ألا ولا حج له ، ألا ولا صوم له ، ألا ولا بر له ، حتى يتوب ، فمن تاب تاب الله عليه »(١) ، رواه ابن ماجه ورواه الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى سعيد الخدرى أخضر منه .

١٠ - وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : من ترك الجمعة ثلاث جمع متواليات فقد نبذ الاسلام وراء ظهره »(٢) .

رواه أبو يعلى موقوفاً بإسناد صحيح .

١١ - وعن حارثة بن النعمان - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « يتخذ أحدكم السائمة فيشهد الصلاة فى جماعة فتتعذر عليه سائمته ، فيقول : لو طلبت لسائمتى مكاناً هو أكلأ من هذا فيتحول ، ولا يشهد إلا الجمعة فتتعذر عليه سائمته فيقول : لو طلبت لسائمتى مكاناً هو أكلأ من هذا فيتحول ، ولا يشهد الجمعة ولا الجماعة فيطبع الله على قلبه »(٣) .

رواه أحمد من رواية عمر بن عبد الله مولى غفرة وهو ثقة عنده ، وتقدم حديث أبى هريرة عند ابن ماجه وابن خزيمة بمعناه .

(قوله) : أكلأ من هذا ، أى أكثر كلأ والكلأ : بفتح الكاف واللام وفى آخره : همزة غير محدودة : هو العشب الرطب واليابس .

١٢ - وعن محمد بن عبد الرحمن بن زرارة - رضى الله عنه - سمعت عمر ولم أر رجلاً منابه شبيهاً قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من سمع نداء الجماعة فلم يأتها ثم سمعه فلم يأتها ثم سمعه ولم يأتها طبع الله على قلبه وجعل قلبه قلب منافق » .

رواه البيهقى .

وروى الترمذى عن ابن عباس : « أنه سئل عن رجل يصوم النهار ويقوم الليل ولا يشهد الجماعة ولا الجمعة . قال : « هو فى النار »(٤) .

---

(١) مجمع الزوائد حـ٢ باب من ترك الجمعة

(٢) انظر مسند الامام أحمد حـ٥ مسند حادثة ابن النعمان

(٣) انظر المطالب الغالية حـ١ باب صلاة الجماعة

(٤) سنن الترمذى حـ١ باب فيمن يسمع الأذان فلايجيب

الترغيب فى قراءة سورة الكهف وما يذكر معها ليلة الجمعة ويوم الجمعة

١ ـ عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين »(١) ، رواه النسائى والبيهقى مرفوعاً ، والحاكم مرفوعاً وموقوفاً أيضاً ، وقال صحيح الإسناد ، ورواه الدارمى فى مسنده موقوفاً على أبى سعيد ، ولفظه قال :

« من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق ، وفى أسانيدهم كلها إلا الحاكم أبو هاشم يحيى بن دينار الرومانى ، والأكثرون على توثيقه ، وبقية الإسناد ثقات ، وفى إسناد الحاكم الذى صححه يضم بن حماد ، ويأتى الكلام عليه وعلى أبى هاشم .

٢ ـ وعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة سطع له نور تحت قدمه إلى عنان السماء يضىء له يوم القيامة وغفر له ما بين الجمعتين »(٢) . رواه أبو بكر بن مردويه فى تفسيره بإسناد لا بأس به .

٣ ـ وروى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « من قرأ حم الدخان ليلة الجمعة غفر له » .

وفى رواية : « من قرأ حم الدخان فى ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك » . رواه الترمذى والأصبهانى ، ولفظه :

« من صلى بسورة الدخان فى ليلة بات يستغفر له سبعون ألف ملك » ، رواه الطبرانى والأصبهانى أيضاً من حديث أبى أمامة ، ولفظهما قال : قال رسول الله ـ ﷺ :

« من قرأ حم الدخان فى ليلة الجمعة أو يوم الجمعة بنى الله له بها بيتاً فى الجنة »(٣) .

٤ ـ وروى عنه ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « من قرأ سورة يس فى ليلة الجمعة غفر له »(٤) ، رواه الأصبهانى .

٥ ـ وروى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « من قرأ السورة التى يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى عليه الله وملائكته حتى تغيب الشمس »(٥) رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير .

---

(١) انظر السنن الكبرى للبيهقى حـ٣ كتاب الجمعة

(٢) انظر الدر المنثور حـ٥ سورة الكهف

(٣) سنن الترمذى حـ٥ فضائل القرآن

(٤) انظر اتحاف السادة المتقين حـ٣

(٥) انظر اتحاف السادة المتقين جـ٣

بحث قيم للعلامة ابن القيم

قال رحمه الله تعالى : (فصل فى هديه - ﷺ - فى الجمعة . وذكر خصائص يومها) .

ثبت فى الصحيحين عن النبى - ﷺ - أنه قال : « نحن الآخرون الأولون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، ثم هذا يومهم الذى فرض الله عليهم فاختلفوا فيه ، فهدانا له ، والناس لنا فيه تبع اليهود غداً والنصارى بعد غدٍ »(١) .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة ، وحذيفة - رضى الله عنهما - قالا : قال رسول الله - ﷺ - : « أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا ، فكان لليهود يوم السبت وكان للنصارى يوم الأحد فجاء الله بنا فهدانا ليوم الجمعة فجعل الجمعة والسبت والأحد وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة نحن الآخرون من أهل الدنيا ، والأولون يوم القيامة ، المقضى لهم قبل الخلائق »(٢) .

وفى « المسند » والسنن ، من حديث أوس بن أوس عن النبى - ﷺ - « من أفضل أيامكم يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه قبض وفيه النفخة وفيه الصعقة فأكثروا علىَّ من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة علىَّ » قالوا : يا رسول الله وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟ (يعنى : قد بليت) قال : « قال : « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء »(٣) .

ورواه الحاكم فى « المستدرك » وابن حبان فى « صحيحه » .

وفى جامع الترمذى من حديث أبى هريرة ، عن النبى - ﷺ - قال : « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق الله آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها ولا تقوم الساعة إلا فى يوم الجمعة »(٤) .

قال : حديث حسن صحيح وصححه الحاكم .

وفى « المستدرك » أيضاً عن أبى هريرة مرفوعاً « سيد الأيام يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها ولا تقوم الساعة إلا يوم الجمعة »(٥) .

وروى مالك فى « الموطأ » ، عن أبى هريرة مرفوعاً « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم وفيه أهبط وفيه يتب عليه ، وفيه مات ، وفيه تقوم الساعة وما من دابة إلا وهى مصيخه يوم الجمعة من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقاً من الساعة إلا الجن والإنس وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلى يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه »(٦) .

---

(١) انظر صحيح البخارى جـ٢ باب الجمعة

(٢) انظر سنن ابن ماجه جـ١ باب فرض الجمعة

(٣) انظر سنن ابن ماجه حـ١ باب فرض الجمعة

(٤) انظر سنن الترمزى جـ٢ باب فضل الجمعة

(٥) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم

(٦) انظر موطأ مالك جـ١ باب ماجاء فى الساعة التى فى يوم الجمعة

قال كعب : ذلك فى كل سنة يوم ، فقلت : بل فى كل جمعة ، فقرأ كعب التوراة ، فقال : صدق رسول الله - ﷺ - . . قال أبو هريرة : ثم لقيت عبد الله بن سلام ، فحدثته بمجلسى مع كعب ، قال : قد علمت أية ساعة هى ، قلت : فأخبرنى بها ، قال : هى آخر ساعة فى يوم الجمعة . فقلت : كيف وقد قال رسول الله - ﷺ - : « لايصادفها عبدٌ مسلمٌ وهو يصلى » .

وتلك الساعة لا يصلىَّ فيها ؟ فقال ابن سلام : ألم يقل رسول الله - ﷺ - : « من جلس مجلساً ينتظر الصلاة ، فهو فى صلاة حتى يصلى »[١] .

وفى صحيح ابن حبان مرفوعاً ، (لا تطلع الشمس على يوم خير من يوم الجمعة)[٢] وفى مسند الشافعى من حديث أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : أتى جبريل عليه السلام رسول الله - ﷺ - بمرآة بيضاء ، فيها وكتة . فقال النبى - ﷺ - : (ما هذه ؟ فقال : « هذه يوم الجمعة فضلت بها أنت وأمتك والناس لكم فيها تبع اليهود والنصارى ، ولكم فيها خير ، وفيها ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلا استجيب له ، وهو عندنا يوم المزيد ، فقال النبى - ﷺ - : (يا جبريل ! ما اليوم المزيد ؟ قال : إن ربك اتخذ فى الفردوس وادياً أقيم فيه كثب من مسك فإذا كان يوم الجمعة أنزل الله - سبحانه - ما شاء من ملائكته ، وحوله منابر من نور عليها مقاعد النبيين وحف تلك المنابر بمنابر من ذهب مكللة بالياقوت والزبرجد ، عليها الشهداء والصديقون فجلسوا من ورائهم على تلك الكتب ، فيقول الله - عز وجل : « أنا ربكم قد صدقتكم وعدى فسلونى أعطكم . فيقولون : ربنا نسألك رضوانك ، فيقول : « قد رضيت عنكم ولكم ما تمنيتم ولدىَّ مزيد » فهم يحبون يوم الجمعة لما يعطيهم فيه ربهم من الخير ، وهو اليوم الذى استوى فيه ربك - تبارك وتعالى - على العرش وفيه خلق آدم وفيه تقوم الساعة .[٣]

رواه الشافعى عن إبراهيم بن محمد ، حدثنى موسى بن عبيدة ، قال : حدثنى أبو الأزهر معاوية بن إسحق بن طلحة ، عن عبد الله . ابن عمير عن أنس بن مالك . ثم قال : وأخبرنا إبراهيم قال : حدثنى أبو عمران إبراهيم بن الجعد عن أنس شبيهاً به .

وكان الشافعى حسن الرأى فى شيخه إبراهيم هذا ولكن قال فيه الإمام أحمد رحمه الله : معتزلى جهمى قدرى كلُ بلاء فيه .

ورواه أبو اليمان الحكم بن نافع ، حدثنا صفوان : قال : قال أنس : قال النبى - ﷺ - : « أتانى جبريل فذكره » ورواه محمد بن شعيب عن عمر مولى غفرة ، عن أنس . ورواه أبو ظبية ، عن عثمان بن عمير ، عن أنس . وجمع أبو بكر بن أبى داود طرقه .

---

(١) انظر مسند الامام أحمد جـ٥

(٢) انظر صحيح ابن حيان جـ٤ باب صلاة الجمعة

(٣) انظر مسند الشافعى

وفى مسند الإمام أحمد من حديث على بن أبى طلحة ، عن أبى هريرة ، قال : قيل للنبى - ﷺ - : لأى شىء سمى يوم الجمعة ؟ قال : « لأن فيه طبعت طينة أبيك آدم ، وفيه الصعقة ، والبعثة ، وفيه البطشة ، وفى آخره ثلاث ساعات فمنها ساعة من دعا الله فيها استجيب له »(١)

وقال الحسن بن سفيان النسوى فى « مسنده » حدثنا أبو مروان هشام ابن خالد الأزرق ، حدثنا الحسن بن يحى الخشنى ، حدثنا عمر بن عبد الله مولى غفرة ، حدثنى أنس بن مالك ، قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول :

« أتانى جبريل وفى يده كهيئة المرآة البيضاء فيها نكتة سوداء ، فقلت : ما هذه يا جبريل ؟ فقال : هذه الجمعة بعثت بها إليك تكون عيداً لك ولأمتك من بعدك . فقلت : وما لنا فيها يا جبريل ؟ قال : فيها خير كثير أنتم الآخرون السابقون يوم القيامة وفيها ساعة لا يوافقها عبد مسلم يصلى يسأل الله شيئاً إلا أعطاه . قلت : فما هذه النكتة السوداء يا جبريل ؟ قال : هذه الساعة تكون فى يوم الجمعة وهو سيد الأيام ونحن نسميه عندنا يوم المزيد . قلت وما يوم المزيد يا جبريل ؟ قال : وذلك بأن ربك اتخذ فى الجنة وادياً أقيم من مسك أبيض فإذا كان يوم الجمعة من أيام الآخرة هبط الرب عز وجل من عرشه إلى كرسيه ويحف الكرسى بمنابر من النور فيجلس عليها النبيون وتحف المنابر بكراسى من ذهب فيجلس عليها الصديقون والشهداء ، وتهبط أهل الغرف من غرفهم فيجلسون على كثبان المسك لا يرون لأهل المنابر والكراسى فضلاً فى المجلس ثم يتبدى لهم ذو الجلال والإكرام تبارك وتعالى ، فيقول : سلونى فيقولون بأجمعهم : نسألك الرضى يارب فيشهد لهم على الرضى ثم يقول : سلونى ، فيسألونه حتى تنتهى نهمة كل عبد منهم قال : ثم يسعى عليهم بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ثم يرتفع الجبار من كرسيه إلى عرشه ويرتفع أهل الغرف إلى غرفهم ، وهى غرفة من لؤلؤة بيضاء ، أو ياقوتة حمراء ، أو زمرده خضراء ، ليس فيها فصم ولا وصم منورة ، فيها أنهارُها ، أو قال : مطردة متدلية فيها ثمارها ، فيها أزواجها وخدمها ومساكنها قال : فأهل الجنة يتباشرون فى الجنة بيوم الجمعة ، كما يتباشر أهل الدنيا فى الدنيا بالمطر »(٢)

وقال ابن أبى الدنيا فى كتاب « صفة الجنة » : حدثنى أزهر بن مروان الرقاش ، حدثنى عبد الله بن عرارة الثيابانى ، حدثنا القاسم بن مطيب عن الأعمس ، عن أبى وائل ، عن حذيفة ، قال : قال رسول الله - ﷺ - : « أتانى جبريل وفى كفه مرآه كأحسن المرائى وأضوائها وإذا فى وسطها لمعة سوداء ، فقلت : ما هذه اللمعة التى أرى فيها ؟ قال : هذه الجمعة ، قلت : وما الجمعة ؟ قال : يوم من أيام ربك عظيم وسأخبرك بشرفه وفضله فى الدنيا وما يرجى فيه لأهله وأخبرك باسمه فى الآخرة فأما شرفه وفضله فى الدنيا فإن الله عز وجل جمع فيه أمر الخلق وأما ما يُرجى فيه لأهله فإن فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم أو أمة مسلمة يسألان الله تعالى فيها خيراً إلا أعطاهما إياه وأما شرفه وفضله فى الآخرة واسمه ، فإن الله تبارك وتعالى إذا صيرَّ أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار ، جرت عليهم هذه الأيام وهذه الليالى ليس فيها

---

(١) مسند الامام أحمد جـ٥ مسند أبوهريرة

(٢) أنظر كنز العمال فى هذا المعنى جـ٧

ليل ولا نهار إلا قد علم الله عز وجل مقدار ذلك وساعاته ، فإذا كان يوم الجمعة حين يخرج أهل الجمعة إلى جمعتهم ، نادى أهل الجنة منادٍ ، يا أهل الجنة ! اخرجوا إلى وادى ووادى المزيد لا يعلم سعة طوله وعرضه إلا الله فيه كثبان المسك ، رؤوسها فى السماء قال : فيخرج غلمان الأنبياء بمنابر من نورٍ ويخرج غلمان المؤمنين بكراسى من ياقوت فإذا وضعت لهم وأخذ القوم مجالسهم ، بعث الله عليهم ريحاً تدعى المثيرة ، تثير ذلك المسك وتدخله من تحت ثيابهم وتخرجه فى وجوههم وأشعارهم ، تلك الريح أعلم كيف تصنع بذلك المسك من امرأة أحدكم لو دفع إليها كل طيب على وجه الأبيض . قال : ثم يوحى الله تبارك وتعالى إلى حملة عرشه : ضعوه بين أظهرهم ، فيكون أول ما يسمعونه منه : (إلىَّ يا عبادى الذين أطاعونى بالغيب ولم يرونى وصدقوا رسلى واتبعوا أمرى ، سلونى فهذا يوم المزيد) فيجتمعون على كلمة واحدة : رضينا عنك فارض عنا فيرجع الله إليهم : « أن يا أهل الجنة إنى لو لم أرض عنكم لم أسكنكم دارى فسلونى فهذا يوم المزيد » فيجتمعون على كلمة واحدة : يا ربنا وجهك ننظر إليه فيكشف تلك الحجب فيتجلى له عز وجل فيغشاهم من نوره شىء لولا أنه قضى ألا يحترقوا ، لاحترقوا لما يغشاهم من نوره ثم يقال لهم : ارجعوا إلى منازلكم ، فيرجعون إلى منازلهم وقد أعطى كل واحد منهم الضِعف على ما كانوا فيه ، فيرجعون إلى أزواجهم وقد خفوا عليهن وخفين عليهم مما غشيهم من نوره ، فإذا رجعوا ترادَّ النور حتى يرجعوا إلى صورهم التى كانوا عليها ، فتقول لهم أزواجهم : لقد خرجتم من عندنا على صورة ورجعتم على غيرها ، فيقول ذلك لأن الله عز وجل تجلى لنا .

فنظرنا منه قال : وإنه والله ما أحاط به خلق ، ولكنه قد أراهم من عظمته وجلاله ما شاء أن يريهم قال : فبذلك قولهم فنظرنا منه قال : فهم سيقلبون فى مسك الجنة ونعيمها فى كل سبعة أيام الضعف على ما كانوا فيه . قال رسول الله - ﷺ - : (فذلك قوله تعالى : **﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون ﴾**(١)

ورواه أبو نعيم فى « صفة الجنة » من حديث عصمة بن محمد ، حدثنا موسى بن عقبة ، عن أبى صالح ، عن أنس شبيهاً به .

وذكر أبو نعيم فى « صفة الجنة » من حديث المسعودى عن المنهال عن أبى عبيدة ، عن عبد الله قال : سارعوا إلى الجمعة فى الدنيا فإن الله تبارك وتعالى يبرز لأهل الجنة فى كل جمعة على كثيب من كافور أبيض فيكونون منه سبحانه بالقرب على قدر سرعتهم إلى الجمعه ويحدث لهم من الكرامة شيئاً لم يكونوا رأوه قبل ذلك فيرجعون إلى أهليهم وقد أحْدث لهم .

فصل فى مبدأ الجمعة

قال ابن اسحاق : حدثنى محمد بن أبى أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه قال : حدثنى عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال : كنت قائد أبى حين كفّ بصره فإذا خرجت به إلى الجمعة فسمع الأذان بها استغفر لأبى أمامة أسعد بن زرارة فمكث حينا على ذلك فقلت : إن هذا بى العجز ، ألا أسأله عن هذا ؟ فخرجت

(١) سورة السجدة آية ١٧

به كما كنت أخرج فلما سمع الأذان للجمعة استغفر له فقلت : يا أبتاه أرأيت استغفارك لأسعد بن زرارة كلما سمعت الأذان يوم الجمعة قال : أى بنى : كان أسعد أول من جمع بنا بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ فى هزم النبيت من حَرّة بنى بياضة فى نقيع يقال له : نقيع الخضمات قلت : فكم كنتم يومئذ ؟ قال : أربعون رجلاً(١) .

قال البيهقى ومحمد بن اسحاق إذا ذكر سماعه من الراوى وكان الراوى ثقة استقام الإسناد وهذا حديث حسن صحيح الإسناد انتهى(٢) .

قلت : وهذا كان مبدأ الجمعة ثم قدم رسول الله - ﷺ - المدينة فأقام بقباء فى بنى عمرو بن عوف كما قاله ابن اسحاق يوم الأثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس وأسسّ مسجدهم ، ثم خرج يوم الجمعة ، فأدركته الجمعة فى بنى سالم بن عوف ، فصلاها فى المسجد الذى فى بطن الوادى ، وكانت أوّل جمعة صلاها بالمدينة وذلك قبل تأسيس مسجده .

قال ابن اسحاق : وكانت أوّل خطبه خطبها رسول الله ﷺ فيما بلغني عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، نعوذ بالله أن نقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل - أنه قام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

(أما بعد أيها الناس فقدموا لأنفسكم ، تعلمن والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولى فبلغك ، وآتيتك مالا ، وأفضلت عليك ، فما قدمت لنفسك فلينظرن يمينا وشمالا فلا يرى شيئا ، ثم لينظرن قدّامه فلا يرى غير جهنم فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق من تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فإن بها تجزى الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته)(٣) .

قال ابن اسحاق : ثم خطب رسول الله ﷺ مرة أخرى فقال : إن الحمد لله ، أحمده وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إن أحسن الحديث كتاب الله قد أفلح من زينه الله فى قلبه وأدخله فى الاسلام بعد الكفر فاختاره على ما سواه من أحاديث الناس ، إنه أحسن الحديث ، وأبلغه ، أحبوا ما أحب الله ، أحبوا الله من كل قلوبكم ، ولا تملوا كلام الله وذكره ، ولا تقس عنه قلوبكم ، فإنه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفى ، قد سمّاه الله خيرته من الأعمال ، ومصطفاه عن العباد ، والصالح من الحديث ، ومن كل ما أوتى الناس من الحلال والحرام ، فأعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، واتقوه حق تقاته ، وأصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله بينكم ، إن الله يغضب أن ينكث عهده ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته)(٤) .

---

(١) انظر سيرة بن هشام جـ٢ أول جمعة أقيمت

(٢) أنظر سيرة ابن هشام جـ٢

(٣) أنظر سيرة بن هشام جـ٢

(٤) السنن الكبرى للبيهقى حـ٣ كتاب الجمعة

وكان من هديه ﷺ تعظيم هذا اليوم وتشريفه وتخصيصه بعبادات يختص بها عن غيره ، وقد اختلف العلماء : هل هو أفضل أم يوم عرفه ؟ على قولين : هما وجهان لأصحاب الشافعى .

وكان ﷺ يقرأ فى فجره بسورتى ﴿ ألم تنزيل ﴾ و﴿ هل أتى على الإنسان ﴾ ويظن كثير ممن لا علم عنده أن المراد تخصيص هذه الصلاة بسجده زائدة ويسمونها سجدة الجمعة وإذا لم يقرأ أحدهم هذه السورة استحب قراءة سورة أخرى فيها سجدة ولهذا كره من كره من الأئمة المداومة على قراءة هذه السورة فى فجر الجمعة دفعاً لتوهم الجاهلين ، وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية يقول : إنما كان النبى ﷺ يقرأ هاتين السورتين فى فجر الجمعة لأنهما تضمنتا ما كان ويكون فى يومها فإنهما إشتملتا على خلق آدم وعلى ذكر المعاد وحشر العباد وذلك يكون يوم الجمعة ، وكان فى قراءتهما فى هذا اليوم تذكير للأمة بما كان فيه ويكون والسجدة جاءت تبعاً ليست مقصودة حتى يقصد المصلى قراءتها حيث اتفقت فهذه خاصة من خواص يوم الجمعة

الخاصية الثانية : استحباب كثرة الصلاة على النبى ﷺ فيه وفى ليلته لقوله ﷺ « أكثروا من الصلاة على يوم الجمعة وليلة الجمعة »(١) .

ورسول الله ﷺ سيد الأنام ويوم الجمعة سيد الأيام فللصلاة عليه فى هذا اليوم مزيه ليست لغيره مع حكمة أخرى وهى أن كل خير نالته أمته فى الدنيا والآخرة فإنما نالته على يده فجمع الله لأمته به بين خيرى الدنيا والآخرة فأعظم كرامة تحصل لهم فإنما تحصل يوم الجمعة ، فإن فيه بعثهم إلى منازلهم وقصورهم فى الجنة ، وهو يوم المزيد لهم إذا دخلوا الجنة ، وهو يوم عيد لهم فى الدنيا ، ويوم فيه يسعفهم الله بطلباتهم ، وحوائجهم ، ولا يرد سائلهم ، وهذا كله إنما عرفوه وحصل لهم بسببه وعلى يده فمن شكره وحمده وإداء القليل من حقه ﷺ أن نكثر من الصلاة عليه فى هذا اليوم وليلته .

الخاصية الثالثة : صلاة الجمعة التى هى من آكد فروض الاسلام ومن أعظم مجامع المسلمين وهى أعظم من كل مجمع يجتمعون فيه وأفرضه سوى مجمع عرفة ، ومن تركها تهاونا بها طبع الله على قلبه ، وقرب أهل الجنة يوم القيامة وسبقهم إلى الزيارة يوم المزيد بحسب قربهم من الإمام يوم الجمعة وتكبيرهم .

الخاصة الرابعة : الأمر بالاغتسال فى يومها وهو أمر مؤكد جداً ووجوبه أقوى من وجوب الوتر ، وقراءة البسملة فى الصلاة ، ووجوب الوضوء من مس النساء ، ووجوب الوضوء من مس الذكر ، ووجوب الوضوء من القهقهة فى الصلاة ، ووجوب الوضوء من الرعاف والحجامة ، والقىء ، ووجوب الصلاة على النبى ﷺ فى المشهد الأخير ، ووجوب القراءة على المأموم ، وللناس فى وجوبه ثلاثة أقوال : النفى ، والاثبات ، والتفصيل بين من به رائحة يحتاج إلى ازالتها فيجب عليه ، ومن هو مستغن عنه فيستحب له والثلاثة لأصحاب أحمد .

الخاصة الخامسة : التطيب فيه وهو أفضل من التطيب فى غيره من أيام الأسبوع .

الخاصة السادسة : السواك فيه وله مزية على السواك فى غيره .

---

(١) الدر المنثور جـ٥ تفسير سورة الكهف

الخاصة السابعة : التبكير للصلاة .

الخاصة الثامنة : أن يشتغل بالصلاة ، والذكر ، والقراءة ، حتى يخرج الإمام .

الخاصة التاسعة : الإنصات للخطبة إذا سمعها وجوب« فى أصح القولين فإن تركه كان لاغيا ومن لغا فلا جمعة له وفى (المسند) مرفوعا (والذى يقول لصاحبه : أنصت فلا جمعة له .

الخاصة العاشرة : قراءة سورة الكهف فى يومها فقد روى عن النبى ﷺ : « من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء يضىء به يوم القيامة وغفر له ما بين الجمعتين »[1] .

وذكره سعيد بن منصور من قول أبى سعيد الخدرى وهو أشبه .

الحادية عشرة : أنه لا يكره فعل الصلاة فيه وقت الزوال عند الشافعى رحمه الله ومن وافقه وهو إختيار شيخنا أبى العباس بن تيمية ولم يكن اعتماده على حديث ليث عن مجاهد عن أبى الخليل عن أبى قتادة عن النبى ﷺ أنه كره الصلاة نصف النهار إلا يوم الجمعة وقال : إن جهنم تسجر إلا يوم الجمعة وإنما كان اعتماده على أن من جاء إلى الجمعة يستحب له أن يصلى حتى يخرج الإمام وفى الحديث الصحيح : (لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من طهر ويدّهن من دهنه أو يمس من طيب بيته ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين ثم يصلى ما كتب له ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى (١) رواه البخارى فندبه إلى الصلاة ما كتب له ولم يمنعه عنها الا فى وقت خروج الإمام ولهذا قال غير واحد من السلف منهم عمر ابن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وتبعه عليه الإمام أحمد بن حنبل : خروج الإمام يمنع الصلاة وخطبته تمنع الكلام فجعلوا المانع من الصلاة خروج الإمام لا إنتصاف النهار .

وأيضا فإن الناس يكونون فى المسجد تحت السقوف ولا يشعرون بوقت الزوال والرجل يكون متشاغلا بالصلاة لا يدرى بوقت الزوال ولا يمكنه أن يخرج ويتخطى رقاب الناس وينظر إلى الشمس ويرجع ولا يشرع له ذلك .

وحديث أبى قتادة هذا قال أبو داود : هو مرسل لأن أبا الخليل لم يسمع من أبى قتادة والمرسل إذا اتصل به عمل وعضده قياس أو قول صحابى أو كان مرسله معروفا باختيار الشيوخ ورغبته عن الرواية عن الضعفاء والمتروكين ونحو ذلك مما يقتضى قوته عمل به .

وأيضا فقد عضده شواهد أخر منها ما ذكره الشافعى فى كتابه فقال : (روى عن اسحاق بن عبد الله عن سعيد بن أبى سعيد عن أبى هريرة أن النبى ﷺ نهى عن الصلاة نصف النهار حتى تزول الشمس إلا يوم الجمعة . هكذا رواه رحمه الله فى كتاب (اختلاف الحديث) ورواه فى (كتاب الجمعة) : حدثنا ابراهيم بن محمد عن اسحاق ورواه أبو خالد الأحمر عن شيخ من أهل المدينة يقال له : عبد الله بن سعيد المقبرى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ وقد رواه البيهقى فى (المعرفة) من حديث عطاء بن عجلان عن أبى نضرة عن أبى سعيد وأبى هريرة قالا : كان النبى ﷺ ينهى عن الصلاة نصف النهار إلا يوم الجمعة ولكن اسناده فيه من لا يحتج به . قاله البيهقى قال : ولكن إذا انضمت هذه الأحاديث إلى حديث أبى قتادة أحدثت بعض القوة .

---

(١) الدر المنثور جـ٥ تفسير الكهف

قال الشافعى : من شأن الناس التهجير إلى الجمعة والصلاة إلى خروج الإمام قال البيهقى : الذى أشار إليه الشافعى موجود فى الأحاديث الصحيحة وهو أن النبى ﷺ رغب فى التبكير إلى الجمعة ، وفى الصلاة إلى خروج الإمام من غير استثناء ، وذلك يوافق هذه الأحاديث التى أبيحت فيها الصلاة نصف النهار يوم الجمعة ، وروينا الرخصة فى ذلك عن عطاء وطاووس والحسن ومكحول .

قلت : أختلف الناس فى كراهة الصلاة نصف النهار على ثلاثة أقوال أحدها : أنه ليس وقت كراهة بحال وهو مذهب مالك .

الثانى : أنه وقت كراهة فى يوم الجمعة وغيرها وهو مذهب أبى حنيفة والمشهور من مذهب أحمد .

والثالث : أنه وقت كراهة إلا يوم الجمعة فليس بوقت كراهة ، وهذا مذهب الشافعى .

الثانية عشرة : قراءة (سورة الجمعة) و (المنافقين) أو (سبح والغاشية) فى صلاة الجمعة فقد كان رسول الله ﷺ يقرأ بهن فى الجمعة ذكره مسلم فى صحيحه .

وفيه أيضا : أنه ﷺ كان يقرأ فيها بـ (الجمعة) و (هل أتاك حديث الغاشية) ثبت عنه ذلك كله .

ولا يستحب أن يقرأ من كل سورة بعضها أو يقرأ إحداهما فى الركعتين فإنه خلاف السنة وجهال الأئمة يداومون على ذلك .

الثالثة عشرة : أنه يوم عيد متكرر فى الأسبوع وقد روى أبو عبد الله ابن ماجه فى (سننه) من حديث أبى لبابة بن عبد المنذر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن يوم الجمعة سيد الأيام وأعظمها عند الله وهو أعظم عند الله من يوم الأضحى ويوم الفطر فيه خمس خلال : خلق الله فيه آدم وأهبط فيه آدم إلى الأرض ، وفيه توفى الله آدم ، وفيه ساعة لا يسأل الله العبد فيها شيئا إلا أعطاه ، ما لم يسأل حراما ، وفيه تقوم الساعة ، ما من ملك مقرب ولا سماء ولا أرض ولا رياح ولا جبال ولا شجر الا وهن يشفقن من يوم الجمعة »[1] .

الرابعة عشرة : أنه يستحب أن يلبس فيه أحسن الثياب التى يقدر عليها فقد روى الامام أحمد فى (مسنده) من حديث أبى أيوب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب إن كان له ولبس من أحسن ثيابه ثم خرج وعليه السكينة حتى يأتى المسجد ثم يركع إن بدا له ولم يؤذ أحداً ثم انصت إذا خرج إمامه حتى يصلى كانت كفارة لما بينهما »[2] .

وفى سنن أبى داود عن عبد الله بن سلام أنه سمع رسول الله ﷺ يقول على المنبر فى يوم الجمعة : « ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبى مهنته » وفى سنن ابن ماجه عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن النبى ﷺ خطب الناس يوم الجمعة فرأى عليهم ثياب النمار فقال : « ما على أحدكم إن وجد سعة أن يتخذ ثوبين لجمعة سوى ثوبى مهنته » .

---

(١) انظر الدر المنثور جـ٥ تفسير سورة الكهف

(٢) انظر سنن ابن ماجه

الخامسة عشرة : أنه يستحب تجمير المسجد فى يوم الجمعة . فقد ذكر ابن ماجة فى سننه عن واثلة بن الأسقع أن النبى ﷺ قال : « جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم وشراءكم وبيعكم وخصوماتكم ورفع أصواتكم واقامة حدودكم وسل سيوفكم ، واتخذوا على أبوابها المطاهر ، وجمروها فى الجمع »[١] .

السادسة عشرة : أنه لا يجوز السفر فى يومها لمن تلزمه الجمعة قبل فعلها بعد دخول وقتها وأما قبله فللعلماء ثلاثة أقوال وهى : روايات منصوصات عن أحمد أحدها : لا يجوز ، والثانى يجوز ، والثالث يجوز للجهاد خاصة .

وأما مذهب الشافعى - رحمه الله - فيحرم عنده انشاء السفر يوم الجمعة بعد الزوال ولهم فى سفر الطاعة وجهان : أحدهما : تحريمه وهو اختيار النووى والثانى : جوازه وهو اختيار الرافعى وأما السفر قبل الزوال فللشافعى فيه قولان : القديم : جوازه ، والجديد : أنه كالسفر بعد الزوال .

وأما مذهب مالك فقال صاحب (التفريع) ولا يسافر أحد يوم الجمعة بعد الزوال حتى يصلى الجمعة ولا بأس أن يسافر قبل الزوال ، والاختيار : أن لا يسافر إذا طلع الفجر وهو حاضر حتى يصلى الجمعة .

وذهب أبو حنيفة إلى جواز السفر مطلقا وقد روى الدارقطنى فى (الأفراد) من حديث ابن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : « من سافر من دار اقامته يوم الجمعة دعت عليه الملائكة الا يصحب فى سفره »[٢] وهو من حديث ابن لهيفة . وفى مسند الإمام أحمد من حديث الحكم عن مقسم عن ابن عباس قال : بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة فى سرية فوافق ذلك يوم الجمعة قال : فغدا أصحابه وقال : اتخلف وأصلى مع رسول الله ﷺ ثم الحقهم فلما صلى النبى ﷺ رآه فقال : ما منعك أن تغدو مع أصحابك ؟

فقال : أردت أن أصلى معك ثم ألحقهم فقال : « لو انفقت ما فى الأرض ما أدركت فضل غدوتهم »[٣] .

وأعلّ هذا الحديث : بأن لم يسمع من مقسم .

هذا إذا لم يخف المسافر فوت رفقته فإن خاف فوت رفقته وانقطاعه بعدهم جاز له السفر مطلقاً لأن هذا عذر يسقط الجمعة والجماعة ، ولعل ما روى عن الأوزاعى أنه سئل عن مسافر سمع أذان الجمعة وقد أسرج دابته فقال : ليمض على سفره محمول على هذا وكذلك قول ابن عمر رضى الله عنه : الجمعة لا تحبس عن السفر وإن كان مرادهم جواز السفر مطلقاً مسألة نزاع ، والدليل : هو الفاصل على أن عبد الرزاق قد روى فى (مصنفه) عن معمر عن خالد الحذاء عن ابن سيرين أو غيره أن عمر بن الخطاب رأى رجلاً عليه ثياب سفر بعدما قضى الجمعة فقال : ما شأنك قال : أُردت سفراً فكرهت أن أخرج حتى أصلى فقال عمر : إن الجمعة لا تمنعك السفر ما لم يحضر وقتها فهذا قول من يمنع السفر بعد الزوال ولا يمنع منه قبله .

وذكره عبد الرزاق أيضاً عن الثورى عن الأسود بن قيس عن أبيه قال : أبصر عمر بن الخطاب رجلاً

(١ ، ٢ ، ٣) أنظر صحيح البخارى جـ٢ ص٤ كتاب الجمعة باب الرهبة للجمعة

عليه هيئة السفر وقال الرجل : إن اليوم يوم جمعة ولولا ذلك لخرجت فقال عمر : إن الجمعة لا تحبس مسافراً فأخرج ما لم يحن الرواح وذكره أيضاً عن الثورى عن ابن أبى ذئب عن صالح بن كثير عن الزهرى قال : خرج رسول الله ﷺ مسافراً يوم الجمعة ضحى قبل الصلاة .

وذكر عن معمر قال : سألت يحيى بن أبى كثير : هل يخرج الرجل يوم الجمعة ؟ فكرهه فجعلت أحدثه بالرخصة فيه فقال لى : قلما يخرج رجل فى يوم الجمعة إلا رأى ما يكرهه . لو نظرت فى ذلك وجدته كذلك .

وذكر ابن المبارك عن الأوزاعى عن حسان بن أبى عطية قال : إذا سافر الرجل يوم الجمعة دعا عليه النهار أن لا يُعان على حاجته ولا يصاحب فى سفره .

وذكر الأوزاعى عن ابن المسيب أنه قال : السفر يوم الجمعة بعد الصلاة قال ابن جريج : قلت لعطاء : أبلغك أنه كان يقال : إذا أمسى فى قرية جامعة من ليلة الجمعة فلا يذهب حتى يجمع ؟ قال : إن ذلك ليكره قلت : فمن يوم الخميس ؟ قال : لا ، ذلك النهار فلا يضره .

السابعة عشر : إن للماش إلى الجمعة بكل خطوة أجر سنة صيامها وقيامها قال عبد الرزاق : عن معمر عن يحيى بن أبى كثير عن أبى قلابة عن أبى الأشعث الصنعانى عن أوس بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : « من غسّل واغتسل يوم الجمعة وبكر وابتكر ودنا من الإمام فأنصت كان له بكل خطوة يخطوها صيام سنة وقيامها وذلك على الله يسير »[(١)] رواه أحمد فى مسنده .

قال الإمام أحمد : غسّل بالتشديد : جامع أهله وكذلك فسّره .

الثامنة عشرة : أنه يوم تكفير السيئات فقد روى الإمام أحمد فى (مسنده) عن سلمان قال : قال لى رسول الله ﷺ : « أتدرى ما يوم الجمعة ؟ » قلت : هو اليوم الذى جمع الله فيه أباكم آدم قال : (ولكنى أدرى ما يوم الجمعة لا يتطهر الرجل فيحسن طهوره ثم يأتى الجمعة فينصت حتى يقضى الإمام صلاته ، إلا كانت كفارة لما بينه وبين الجمعة المقبلة ما اجتنبت المقتلة)[(٢)] .

وفى المسند أيضاً من حديث عطاء الخراسانى عن نبيشة الهذلى أنه كان يحدّث عن رسول الله ﷺ : « إن المسلم إذا اغتسل يوم الجمعة ثم أقبل إلى المسجد لا يؤذى أحداً فإن لم يجد الإمام خرج صلى ما بدا له وان وجد الإمام قد خرج جلس فاستمع وأنصت حتى يقضى الإمام جمعته وكلامه إن لم يغفر له فى جمعته تلك ذنوبه كلها أن تكون كفارة للجمعة التى تليها »[(٣)] .

وفى صحيح البخارى عن سلمانٌ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من طهر ويدهن من دهنه أو يمس من طيب بيته ثم يخرج فلا يفرق بين أثنين ثم يصلى ما كتب له ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى »[(٤)] .

وفى مسند أحمد من حديث أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « من اغتسل يوم الجمعة ثم لبس ثيابه ومسّ طيباً إن كان عنده ثم مشى إلى الجمعة وعليه السكينه ولم يتخط أحداً ولم يؤذه وركع ما قضى له ثم انتظر حتى ينصرف الإمام غفر له ما بين الجمعتين »[(٥)] .

---

(١) مسند الامام احمد جـ٣ ، جـ٥
(٢) انظر مسند الامام أحمد جـ٥
(٣) انظر صحيح البخارى جـ٢
(٤) انظر مسند الامام أحمد جـ٤
(٥) انظر مسند الامام أحمد جـ٥

الخاصة التاسعة عشرة : أن جهنم تسجّر كل يوم إلا يوم الجمعة ؛ لأنه أفضل الأيام عند الله ، ويقع فيه من الطاعات والعبادات والدعوات والابتهال إلى الله – سبحانه وتعالى – ما يمنع من تسجير جهنم فيه ، ولذلك تكون معاصي أهل الإيمان فيه أقل من معاصيهم في غيره ، حتى أن أهل الفجور ليمتنعون فيه مما لا يمتنعون منه في يوم السبت وغيره .

العشـــرون : أن فيه ساعة الإجابة ، وهي الساعة التي لا يسأل الله عبد مسلم فيها شيئاً إلا أعطاه ففي (الصحيحين) من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجمعة لساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه . وقال : بيده يقللها »[(١)].

وفي المسند من حديث أبي لبابة بن عبد المنذر عن النبي ﷺ قال : « سيد الأيام يوم الجمعة وأعظمها عند الله ، وأعظم عند الله من يوم الفطر ويوم الأضحى ، وفيه خمس خصال : خلق الله فيه آدم ، وأهبط الله فيه آدم إلى الأرض ، وفيه توفى الله – عز وجل – آدم ، وفيه ساعة لا يسأل الله العبد فيها شيئاً إلا آتاه ما لم يسأل حراماً ، وفيه تقوم الساعة ، ما من ملك مقرب ولا أرض ولا رياح ولا بحر ولا جبال ولا شجر إلا وهن يشفقن من يوم الجمعة »[(٢)].

وقد اختلف الناس في هذه الساعة : هل هي باقية أو قد رفعت ؟ على قولين حكاهما ابن عبد البر وغيره ، والذين قالوا : هي باقية ولم ترفع اختلفوا : هل هي في وقت من اليوم بعينه ؟ أم هي غير معينة ؟ على قولين ، ثم اختلف من قال بعدم تعيينها : هل هي تنتقل في ساعات اليوم أو لا ؟ على قولين أيضاً ، والذين قالوا بتعيينها اختلفوا على أحد عشر قولاً ، قال ابن المنذر : روينا عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أنه قال : هي من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، وبعد صلاة العصر إلى غروب الشمس .

الثاني : أنها عند الزوال ، ذكره ابن المنذر عن الحسن البصري وأبي العالية .

الثالث : أنها إذا أذن المؤذن بصلاة الجمعة ، قال ابن المنذر : روينا ذلك عن عائشة – رضي الله عنها – .

الرابع : أنها إذا جلس الإمام على المنبر يخطب حتى يفرغ ، قال ابن المنذر : رويناه عن الحسن البصري .

الخامس : قاله أبو بردة : هي الساعة التي اختار الله وقتها للصلاة .

السادس : قاله أبو السوار العدوي وقال : كانوا يرون أن الدعاء مستجاب ما بين زوال الشمس إلى أن تدخل الصلاة .

---

(١) أنظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الجمعة) باب فى الساعة التى فى يوم الجمعة حـ ١ص ١٦٦ رقم ٤٩٥

(٢) أنظر مسند الإمام أحمد (زيادة فى حديث أبى لبابة بن عبد المنذر البدرى ــ رضى الله عنه)حـ ٣ ص ٤٣٠

السابع : قاله أبو ذر : إنها ما بين أن ترتفع الشمس شبراً إلى ذراع .

الثامن : أنها ما بين العصر إلى غروب الشمس قاله أبو هريرة وعطاء وعبد الله بن سلام وطاووس حكى ذلك كله ابن المنذر .

التاسع : أنها آخر ساعة بعد العصر وهو قول أحمد وجمهور الصحابة والتابعين .

العاشر : أنها من حين خروج الإمام إلى فراغ الصلاة ، حكاه النووي وغيره .

الحادي عشر : أنها الساعة الثالثة من النهار ، حكاه صاحب (المغني) فيه ، وقال (كعب) : لو قسم الإنسان جمعة في جمع أتى على تلك الساعة وقال عمر : إن طلب حاجة في يوم ليسير .

وأرجح هذه الأقوال : قولان تضمنتهما الأحاديث الثابتة ، وأحدهما أرجح من الآخر :

الأول : أنها من جلوس الإمام إلى انقضاء الصلاة ، وحجة هذا القول ما روى مسلم في (صحيحه) من حديث أبي بردة بن أبي موسى أن عبد الله بن عمر قال له : أسمعت أباك يحدّث عن رسول الله ﷺ في شأن ساعة الجمعة شيئاً ؟ قال : نعم سمعته يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة »[(١)].

وروى ابن ماجه والترمذي من حديث عمرو بن عوف المزني عن النبي ﷺ قال : « إن في الجمعة ساعة لا يسأل الله العبد فيها شيئاً إلا آتاه الله إياه » قالوا : يا رسول الله أية ساعة هي ؟ قال : « حين تقام الصلاة إلى الانصراف منها »[(٢)].

والقول الثاني : أنها بعد العصر ، وهذا أرجح القولين ، وهو قول عبد الله بن سلام وأبي هريرة والإمام أحمد وخلق ، وحجة هذا القول ما رواه أحمد في (مسنده) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « إن في الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه وهي بعد العصر »[(٣)].

وروى أبو داود والنسائي عن جابر عن النبي ﷺ قال : « يوم الجمعة اثنا عشر ساعة ، فيها ساعة لا يوجد مسلم يسأل الله فيها شيئاً إلا أعطاه ، فالتمسوها آخر ساعة بعد العصر »[(٤)].

وروى سعيد بن منصور في (سننه) عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ اجتمعوا فتذاكروا الساعة التي في يوم الجمعة فتفرقوا ولم يختلفوا أنها آخر ساعة من يوم الجمعة .

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الجمعة) ح ٦ ص ١٤٠

(٢) أنظر سنن ابن ماجه (كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها) باب ماجاء فى الساعة التى ترجى فى الجمعة حـ ١ ص ٣٦٠ رقم ١١٣٨ ورواه الترمذى فى سننه فى (أبواب الصلاة) حـ ٢ ص ٣٦١ رقم ٤٩٠ وقال : حديث عمرو بن عوف حديث حسن غريب .

(٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده (مسند أبى هريرة ـــ رضى الله عنه) حـ ٢ ص ٢٧٢

(٤) أنظر سنن أبى داود (كتاب الصلاة) باب الإجابة آية ساعة هى فى يوم الجمعة حـ ١ ص ٢٧٥ رقم ١٠٤٨ ورواه النسائى فى سننه فى (كتاب الجمعة) باب وقت الجمعة حـ ٣ ص ٩٩ ، ١٠٠

وفي سنن ابن ماجه : عن عبد الله بن سلام قال : قلت – ورسول الله ﷺ جالس – : إنا لنجد في كتاب الله (يعني التوراة) في يوم الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يصلي يسأل الله – عز وجل – شيئا إلا قضى الله له حاجته . قال عبد الله : فأشار إليّ رسول الله ﷺ أو بعض ساعة . قلت : صدقت يا رسول الله ، أو بعض ساعة . قلت : أي ساعة هي ؟ قال : « هي آخر ساعة من ساعات النهار » قلت : إنها ليست ساعة صلاة . قال : بلى إن العبد المؤمن إذا صلى ثم جلس لا يجلسه إلا الصلاة فهو في صلاة[(١)].

وفي مسند أحمد من حديث أبي هريرة قال : قيل للنبي ﷺ : لأي شيء سمّى يوم الجمعة ؟ قال : « لأن فيها طبعت طينة أبيك آدم ، وفيها الصعقة ، والبعْثة ، وفيها البطشة ، وفي آخر ثلاث ساعات منها ساعة من دعا الله فيها استجيب له »[(٢)].

وفي سنن أبي داود والترمذي والنسائي من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال . قال رسول الله ﷺ : « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ؛ فيه خلق آدم ، وفيه أهبط ، وفيه يتب عليه ، وفيه مات ، وفيه تقوم الساعة ، وما من دابة إلا وهي مُصيخةٌ يوم الجمعة من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقاً من الساعة إلا الجن والإنس ، وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي يسأل الله – عز وجل – حاجة إلا أعطاه إياها » قال كعب : ذلك في كل سنة يوم ؟ فقلت : بل في كل جمعة . قال : فقرأ كعب التوراة فقال : صدق رسول الله ﷺ قال أبو هريرة : ثم لقيت عبد الله بن سلام فحدثته بمجلسي مع كعب ، فقال عبد الله بن سلام : وقد علمت أية ساعة هي . قال أبو هريرة : فقلت : أخبرني بها ، فقال عبد الله بن سلام : هي آخر ساعة من يوم الجمعة . فقلت : كيف هي آخر ساعة من يوم الجمعة وقد قال رسول الله ﷺ : « لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي » وتلك الساعة لا يصلي فيها ؟ فقال عبد الله بن سلام : ألم يقل رسول الله ﷺ : « من جلس مجلساً ينتظر الصلاة فهو في صلاة حتى يصلي » ؟ قال : فقلت : بلى . فقال : هو ذاك قال الترمذي : حديث حسن صحيح وفي (الصحيحين) بعضه[(٣)].

وأما من قال : إنها من حين يفتتح الإمام الخطبة إلى فراغه من الصلاة فاحتج بما رواه مسلم في (صحيحه) عن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري قال : قال عبد الله بن عمر : أسمعت أباك يحدّث عن

---

(١) سنن ابن ماجه (كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها) باب ما جاء فى الساعة التى ترجى فى الجمعة حـ ١ ض ٣٦٠ ، ٣٦١ رقم ١١٣٩

(٢) مسند أحمد (مسند أبى هريرة) حـ ٢ ص ٣١١

(٣) الحديث فى سنن أبى داود فى (كتاب الصلاة) باب فضل يوم الجمعة وليلة الجملة حـ١ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ رقم ١٠٤٦
ورواه الترمذى بنحوه فى سننه فى (أبواب الصلاة) باب ماجاء فى الساعة التى ترجى فى يوم الجمعة حـ ٢ ص ٣٦٢ ، ٣٦٣ رقم ٤٩١ ثم قال : وفى الحديث قصة طويلة ، وهذا حديث حسن صحيح .
ورواه النسائى فى سننه بقصته كاملة فى (كتاب الجمعة) باب الساعة التى يستجاب فيها الدعاء يوم الجمعة حـ ٣ ، ص ١١٤ ، ١١٥

رسول الله ﷺ في شأن ساعة الجمعة ؟ قال : قلت : نعم سمعته يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن يقضي الإمام الصلاة »(١).

وأما من قال : هي ساعة الصلاة فاحتج بما رواه الترمذي وابن ماجه من حديث عمرو بن عوف المزني قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن في الجمعة ساعة لا يسأل الله العبد فيها شيئاً إلا أتاه الله إياه » قالوا : يارسول الله ! أية ساعة هي ؟ قال : « حين تقام الصلاة إلى الانصراف منها »(٢) ولكن هذا الحديث ضعيف ، قال أبو عمر بن عبد البر : هو حديث لم يروه فيما علمت إلا كثير من عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده ، وليس هو ممن يحتج بحديثه ، وقد روى روح بن عبادة عن عوف عن معاوية بن قرة عن أبي بردة عن أبي موسى أنه قال لعبد الله ابن عمر : هي الساعة التي يخرج فيها الإمام إلى أن تقضي الصلاة فقال ابن عمر : أصاب الله بك .

وروى عبد الرحمن بن حجيرة عن أبي ذر أن امرأته سألته عن الساعة التي يستجاب فيها يوم الجمعة للعبد المؤمن فقال لها : هي مع رفع الشمس بيسير فإن سألتني بعدها فأنت طالق .

واحتج هؤلاء أيضاً بقوله في حديث أبي هريرة (وهو قائم يصلي) وبعد العصر لا صلاة في ذلك الوقت ، والأخذ بظاهر الحديث أولى . قال أبو عمر : يحتج أيضاً من ذهب إلى هذا بحديث علي عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا زالت الشمس وفاءت الأفياء وراحت الأرواح فاطلبوا إلى الله حوائجكم ؛ فإنها ساعة الأوابين . ثم تلا « فإنه كان للأوابين غفوراً »(٤).

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : الساعة التي تذكر يوم الجمعة : ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس ، وكان سعيد ابن جبير إذا صلى العصر لم يكلم أحداً حتى تغرب الشمس ، وهذا هو قول أكثر السلف ، وعليه أكثر الأحاديث ، ويليه القول : بأنها ساعة الصلاة ، وبقية الأقوال لا دليل عليها .

وعندي أن ساعة الصلاة ساعة ترجى فيها الإجابة أيضاً ، فكلاهما ساعة إجابة ، وإن كانت الساعة المخصوصة هي آخر ساعة بعد العصر فهي ساعة معينة من اليوم لا تتقدم ولا تتأخر ، وأما ساعة الصلاة فتابعة للصلاة تقدمت أو تأخرت ؛ لأن لاجتماع المسلمين وصلاتهم وتضرعهم وابتهالهم إلى الله – تعالى – تأثيراً في الإجابة ، فساعة اجتماعهم ساعة ترجى فيها الإجابة ، وعلى هذا تتفق الأحاديث كلها ، ويكون النبي ﷺ قد حض أمته على الدعاء والابتهال إلى الله – تعالى – في هاتين الساعتين ، ونظير هذا قوله ﷺ وقد سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى فقال : « هو مسجدكم هذا »(٥)

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الجمعة) حـ ٦ ص ١٤٠ (وقد سبق تخريجه)

(٢) سنن ابن ماجه رقم ١١٣٨ وسنن الترمذى رقم ٤٩٠ (وقد سبق تخرجه)

(٣) سنن ابن ماجه رقم ١١٣٨ وسنن الترمذى رقم ٤٩٠ (وقد سبق تخريجه)

(٤) رواه السيوطى فى الجامع الكبير وعزاه إلى البيهقي فى شعب الإيمان عن على ــ رضى الله عنه ــ والآية هى رقم ٢٥ من سورة الإسراء .

(٥) أنظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الحج) باب فضل المساجد الثلاثة حـ ٩ ص ١٦٨ ، ١٦٩

وأشار إلى مسجد المدينة . وهذا لا ينفي أن يكون مسجد قباء الذي نزلت فيه الآية مؤسساً على التقوى بل كل منهما مؤسس على التقوى .

وكذلك قوله في ساعة الجمعة : « هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تنقضي الصلاة » لا ينافي قوله في الحديث الآخر : « فالتمسوها آخر ساعة بعد العصر » .

ويشبه هذا في الأسماء قوله ﷺ : « ما تعدون الرّقوب فيكم قالوا : من لم يولد له . قال : الرقوب من لم يقدم من ولده شيئاً »[1] فأخبر أن هذا هو الرقوب إذا لم يحصل له من ولده من الأجر ما حصل لمن قدم منهم فرطاً ، وهذا لا ينافي أن يسمى من لم يولد له رقوباً .

ومثله قوله ﷺ : « ما تعدّون المفلس فيكم ؟ » قالوا : من لا درهم له ولا متاع . قال : « المفلس من يأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال ويأتي وقد لطم هذا ، وضرب هذا ، وسفك دم هذا ، فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته » الحديث[2].

ومثله قوله ﷺ : « ليس المسكين بهذا الطّوّاف الذي ترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس ولا يتفطن له فيتصدق عليه »[3].

وهذه الساعة هي آخر ساعة بعد العصر يعظمها جميع أهل الملل ، وعند أهل الكتاب هي ساعة الإجابة ، وهذا مما لا غرض لهم في تبديله وتحريفه وقد اعترف به مؤمنهم .

وأما من قال بتنقلها فى أيام الجمع بذلك بين الأحاديث ، كما قيل ذلك في ليلة القدر ، وهذا ليس بقوي ، فإن ليلة القدر قد قال فيها النبي ﷺ : « فالتمسوها في خامسةٍ تبقى ، في سابعةٍ تبقى في تاسعةٍ تبقى »[4].

ولم يجيء مثل ذلك في ساعة الجمعة .

وأيضاً فالأحاديث التي في ليلة القدر ليس فيها حديث صريح بأنها ليلة كذا وكذا بخلاف أحاديث ساعة الجمعة فظهر الفرق بينهما .

وأما قول من قال : إنها رفعت فهو نظير قول من قال : إن ليلة القدر رفعت ، وهذا القائل إن أراد أنها كانت معلومة فرفع علمها عن الأمة فيقال له : لم يرفع علمها عن كل الأمة وإن رفع عن بعضهم ،

(١) رواه مسلم فى صحيحه (مسلم بشرح النووى) فى (كتاب البر والصلة والآداب) باب فضل من يملك نفسه عند الغضب حـ ١٦ ص ١٦١ عن عبد الله بن مسعود ، ولفظه : « ماتعدون الرقوب فقيم ؟ » قال : قلنا : الذى لا يولد له . قال « ليس ذاك بالرقوب ، ولكنه الرجل الذى لم يقدم من ولده شيئا » قال : « فما تعدون الصرعة فيكم ؟ » قال : قلنا : الذى لا يصرعه الرجال . قال : « ليس بذلك ، ولكنه الذى يملك نفسه عند الغضب »

(٢) رواه أحمد ٣٠٣/٢ ، ٣٣٤ ، ٣٧١

(٣) أنظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الزكاة) باب : المسكين الذى لا يجد غنى ولا يفطن له فيتصدق عليه حـ ١ ص ٢١٩ رقم ٦١٦ والحديث من رواية أبى هريرة ــ رضى الله عنه .

(٤) رواه البخارى فى صحيحه بحاشية السندى حـ ١ ص ٣٤٤ فى (كتاب الصيام) بابه تحرى ليلة القدر فى الوتر من العشر الأواخر ، إلا أنه قال : « فى تاسعة تبقى ، فى سابعة تبقى ، فى خامسة تبقى » من رواية عباس رضى الله عنهما .

وإن أراد أن حقيقتها وكونها ساعة إجابة رفعت فقول باطل مخالف للأحاديث الصحيحة الصريحة ، فلا يعول عليه والله أعلم .

الحادية والعشرون : أن فيه صلاة الجمعة التي خصّت من بين سائر الصلوات المفروضات بخصائص لا توجد في غيرها : من الاجتماع ، والعدد المخصوص ، واشتراط الإقامة والاستيطان ، والجهر بالقراءة ، وقد جاء من التشديد فيها ما لم يأت نظيره إلا في صلاة العصر ففي السنن الأربعة من حديث أبي الجعد الضمري – وكانت له صحبة – أن رسول الله ﷺ قال : « من ترك ثلاث جمع تهاوناً طبع الله على قلبه »[1] قال الترمذي : حديث حسن ، وسألت محمد بن إسماعيل عن اسم أبي الجعد الضمري فقال : لم يعرف اسمه وقال : لا أعرف له عن النبي ﷺ إلا هذا الحديث .

وقد جاء في السنن عن النبي ﷺ : « الأمر لمن تركها أن يتصدق بدينار ، فإن لم يجد فنصف دينار » رواه أبو داود والنسائي من رواية قدامة بن وبرة عن سمرة بن جندب ، ولكن قال أحمد : قدامة بن وبرة لا يعرف . وقال يحيى بن معين : ثقة . وحكى عن البخاري أنه لا يصح سماعه من سمرة[2] .

وأجمع المسلمون على أن الجمعة فرض عين إلا قولاً يحكى عن الشافعي أنها فرض كفاية ، وهذا غلط عليه ؛ منشؤه أنه قال : وأما صلاة العيد فتجب على كل من تجب عليه صلاة الجمعة ، فظن هذا القائل أن صلاة العيد لما كانت فرض كفاية كانت الجمعة كذلك ، وهذا فاسد ، هذا نص من الشافعي أن العيد واجب على الجميع ، فإن فرض الكفاية يجب على الجميع كفرض الأعيان سواء ، وإنما يختلفان بسقوطه عن البعض بعد وجوبه بفعل الآخرين .

الثانية والعشرون : ان فيه الخطبة التي يقصد بها الثناء على الله وتمجيده والشهادة له بالوحدانية ولرسوله ﷺ بالرسالة ، وتذكير العباد بأيامه وتحذيرهم من بأسه ونقمته ، ووصيتهم بما يقربهم إليه وإلى جناته ، ونهيهم عما يقربهم من سخطه وناره ، فهذا هو مقصود الخطبة والاجتماع لها .

الثالثة والعشرون : أنه اليوم الذي يستحب أن يتفرغ فيه للعبادة ، وله على سائر الأيام مزية بأنواع من العبادات واجبة ومستحبة ، فالله – سبحانه – جعل لأهل كل ملة يوماً يتفرغون فيه للعبادة

---

(١) انظر سنن أبي داود حـ ١ ص ٢٧٦ (باب التشديد فى ترك الجمعة) رقم ١٠٥٢
وأنظر سنن الترمذى حـ ٢ ص ٣٧٣ (باب ما جاء فى ترك الجمعة من غير عذر) رقم ٥٠٠ وقال أبو عيسى : حديث أبى الجعد حديث حسن .
ورواه النسائى فى سننه حـ ٣ ص ٨٨ (باب التشديد فى التخلف عن الجمعة)
وكذلك رواه ابن ماجه حـ ١ ص ٣٥٧ (باب فيمن ترك الجمعة من غير عذر) رقم ١١٢٥

(٢) سنن أبي داود حـ ١ ص ٢٧٧ رقم ١٠٥٣ وقال : أبو داود : وهكذا رواه خالد بن قيس وخالفه فى الإسناد ووافقه فى المتن .
وأنظر سنن النسائى (باب كفارة من ترك الجمعة من غير عذر) حـ ٣ ص ٨٩ .
ورواه ابن ماجه حـ ١ ص ٣٥٧ ، ٣٥٨ رقم ١١٢٨ .

ويتخلون فيه عن أشغال الدنيا ، فيوم الجمعة يوم عبادة ، وهو في الأيام كشهر رمضان في الشهور ، وساعة الإجابة فيه كليلة القدر في رمضان ؛ ولهذا من صح له يوم جمعته وسلم سلمت له سائر جمعته ، ومن صح له رمضان وسلم سلمت له سائر سنتِه ، ومن صحت له حجته وسلمت له صح له سائر عمره ، فيوم الجمعة ميزان الأسبوع ، ورمضان ميزان العام ، والحج ميزان العمر . وبالله التوفيق .

الرابعة والعشرون : أنه لما كان في الأسبوع كالعيد في العام وكان العيد مشتملاً على صلاة وقربان ، وكان يوم الجمعة يوم صلاة جعل الله – سبحانه – التعجيل فيه إلى المسجد بدلاً من القربان وقائماً مقامه ، فيجتمع للرائح فيه إلى المسجد للصلاة ، والقربان ، كما في « الصحيحين » عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « من راح في الساعة الأولى ، فكأنما قرب بدنه ، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن »(١).

وقد اختلف الفقهاء في هذه الساعة على قولين :

أحدهما : أنها من أول النهار وهذا هو المعروف في مذهب الشافعي وأحمد وغيرهما .

والثاني : أنها أجزاء من الساعة السادسة بعد الزوال ، وها هو المعروف في مذهب مالك ، واختاره بعض الشافعية ، واحتجوا عليه بحجتين :

إحداهما : أن الرواح لا يكون إلا بعد الزوال ، وهو مقابل الغدو الذي لا يكون إلا قبل الزوال ، قال – تعالى – : ﴿ **غدوها شهر ورواحها شهر** ﴾(٢). قال الجوهري : ولا يكون إلا بعد الزوال .

الحجة الثانية : أن السلف كانوا أحرص شيء على الخير ، ولم يكونوا يغدون إلى الجمعة من وقت طلوع الشمس ، وأنكر مالك التبكير إليها في أول النهار ، وقال : لم ندرك عليه أهل المدينة .

واحتج أصحاب القول الأول بحديث جابر – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ : « يوم الجمعة ثنتا عشرة ساعة »(٣).

قالوا والساعات المعهودة هي الساعات التي هي ثنتا عشرة ساعة ، وهي نوعان : ساعات تعديلية ، وساعات زمانية ، قالوا : ويدل على هذا القول أن النبي ﷺ إنما بلغ بالساعات إلى ست ، ولم يزد عليها ولو كانت الساعة أجزاء صغاراً من الساعة التي تفعل فيها الجمعة لم تنحصر في ستة أجزاء ، بخلاف ما إذا كان المراد بها الساعات المعهودة فإن الساعة السادسة متى خرجت ودخلت السابعة خرج الإمام ، وطويت الصحف ، ولم يكتب لأحد قربان بعد ذلك ، كما جاء مصرحاً به في

(١) أنظر اللؤلؤ والمرجان حـ ١ ص ١٦٥ رقم ٤٩٣ فقد روى الحديث بأطول من هذا ، وأوله : « من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فطأنما قرب بدنة ... الحديث »

ورواه الترمذى فى سننه حـ ٢ ص ٣٧٢ رقم ٤٩٩

(٢) من الآية : ١٢ من سورة سبأ

(٣) أنظر سنن النسائى (باب وقت الجمعة) حـ ٣ ص ٩٩ وهذا جزء من الحديث .

سنن أبي داود من حديث علي – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ : « إذا كان يوم الجمعة غدت الشياطين براياتها إلى الأسواق فيرمون الناس بالترابيث أو الربائث ، ويثبطونهم عن الجمعة ، وتغدو الملائكة ، فتجلس على أبواب المساجد فيكتبون الرجل من ساعة ، والرجل من ساعتين حتى يخرج الإمام »(١) .

قال أبو عمر بن عبد البر : اختلف أهل العلم في تلك الساعات ، فقالت طائفة منهم : أراد الساعات من طلوع الشمس وصفائها ، والأفضل عندهم التبكير في ذلك الوقت إلى الجمعة وهو قول الثوري ، وأبي حنيفة والشافعي وأكثر العلماء ، بل كلهم يستحب البكور إليها .

قال الشافعي – رحمه الله – : ولو بكر إليها بعد الفجر وقبل طلوع الشمس كان حسناً ، وذكر الأثرم ، قال : قيل لأحمد بن حنبل: كان مالك بن أنس يقول : لا ينبغي التهجير يوم الجمعة باكراً ، فقال : هذا خلاف حديث النبي ﷺ وقال : سبحان الله !! إلى أي شيء ذهب في هذا والنبي ﷺ يقول : « كالمهدي جزوراً » . قال : وأما مالك فذكر يحيى بن عمر عن حرملة أنه سأل ابن وهب عن تفسير هذه الساعات : أهو الغدو من أول ساعات النهار ، أو إنما أراد بهذا القول ساعات الرواح ؟ فقال ابن وهب : سألت مالكاً عن هذا ، فقال : أما الذي يقع بقلبي ، فإنه إنما أراد ساعة واحدة تكون فيها هذه الساعات من راح من أول تلك الساعة أو الثانية أو الثالثة أو الرابعة أو الخامسة أو السادسة ولو لم يكن كذلك ، ما صُلِّيت الجمعة حتى يكون النهار تسع ساعات في وقت العصر أو قريباً من ذلك ، وكان ابن حبيب ينكر قول مالك هذا ، ويميل إلى القول الأول ، وقال : قول مالك هذا تحريف في تأويل الحديث ومحال من وجوه .

وقال : يدلك أنه لا يجوز ساعات في ساعة واحدة : أن الشمس إنما تزول في الساعة السادسة من النهار ، وهو وقت الأذان وخروج الإمام إلى الخطبة ، فدل ذلك على أن الساعات في هذا الحديث هي ساعات النهار المعروفات ، فبدأ بأول ساعات النهار فقال : من راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنه ، ثم قال : في الساعة الخامسة بيضة ثم انقطع التهجير وحان وقت الأذان فشرح الحديث بين في لفظه ، ولكنه حرف عن موضعه ، وشرح بالخلف من القول ومالا يكون ، وزهد شارحه الناس فيما رغبهم فيه رسول الله ﷺ من التهجير من أول النهار ، وزعم أن ذلك كله إنما يجتمع في ساعة واحدة قرب زوال الشمس ، قال : وقد جاءت الآثار بالتهجير إلى الجمعة في أول النهار . هذا كله قول عبد الملك بن حبيب ، ثم رد عليه أبو عمر ، وقال : هذا تحامل منه على مالك – رحمه الله تعالى – فهو الذي قال القول الذي أنكره وجعله خلقاً وتحريفاً من التأويل ، والذي قاله مالك تشهد له الآثار الصحاح من رواية الأئمة ، ويشهد له أيضاً العمل بالمدينة عنده ، وهذا مما يصح فيه الاحتجاج بالعمل ، لأنه أمر يتردد كل جمعة لا يخفى على عامة العلماء .

فمن الآثار التي يحتج بها مالك ، ما رواه الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن النبي

(١) أنظر سنن أبي داود (باب فضل الجمعة) حـ ١ ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ رقم ١٠٥١

ﷺ قال : « إذا كان يوم الجمعة ، قام على كل باب من أبواب المسجد ملائكة ، يكتبون الناس الأول ، فالمهجر إلى الجمعة كالمهدي بدنه ، ثم الذي يليه كالمهدي بقرة ، ثم الذي يليه كالمهدي كبشاً ، حتى ذكر الدجاجة والبيضة ، فإذا جلس الإمام طويت الصحف واستمعوا الخطبة »[1] قال : ألا ترى إلى ما في هذا الحديث ؟ فإنه قال : يكتبون الناس الأول فالأول ، فالمهجر إلى الجمعة كالمهدي بدنه ، ثم الذي يليه فجعل الأول مهجراً وهذه اللفظة إنما هي مأخوذة من الهاجرة والتهجير ، وذلك وقت النهوض إلى الجمعة ، وليس ذلك وقت طلوع الشمس ؛ لأن ذلك الوقت ليس بهاجرة ولا تهجير ، وفي الحديث : « ثم الذي يليه ثم الذي يليه » ولم يذكر الساعة . قال : والطرق بهذا اللفظ كثيرة مذكورة في « التمهيد » وفي بعضها « المتعجل إلى الجمعة كالمهدي بدنه » وفي أكثرها « المهجر كالمهدي جزوراً » الحديث . وفي بعضها ما يدل على أنه جعل الرائح إلى الجمعة في أول الساعة كالمهدي بدنه ، وفي آخرها كذلك ، وفي أول الساعة الثانية كالمهدي بقرة ، وفي آخرها كذلك . وقال بعض أصحاب الشافعي : لم يرد ﷺ بقوله : « المهجِّرُ إلى الجمعة كالمهدي بدنه » الناهض إليها في الهجير والهاجرة ، وإنما أراد التارك لأشغاله وأعماله من أغراض أهل الدنيا للنهوض إلى الجمعة ، كالمهدي بدنه ، وذلك مأخوذ من الهجرة وهو ترك الوطن والنهوض إلى غيره ، ومنه سمي المهاجرون ، وقال الشافعي – رحمه الله – : أحب التبكير إلى الجمعة ولا تؤتى إلا مشياً . هذا كله كلام أبي عمر . قلت : ومدار إنكار التبكير أول النهار على ثلاثة أمور : أحدها : على لفظة الرواح وأنها لا تكون إلا بعد الزوال ، والثاني : لفظة التهجير ، وهي إنما تكون بالهاجرة وقت شدة الحر ، والثالث : عمل أهل المدينة ، فإنهم لم يكونوا يأتون من أول النهار .

فأما لفظة الرواح : فلا ريب أنها تُطلق على المضي بعد الزوال وهذا إنما يكون في الأكثر إذا قُرنت بالغدو كقوله – تعالى – : ﴿ غدوها شهر ورواحها شهر ﴾ [سبأ : ١٢] وقوله ﷺ : « من غدا إلى المسجد وراح ، أعد الله له نزلاً في الجنة كلما غدا أو راح »[2] وقول الشاعر :

نروح ونغــــدو لحاجتنــــا   وحاجة من عاش لا تنقـضي

وقد يطلق الرواح بمعنى الذهاب والمضي ، وهذا إنما يجيء إذا كانت مجردة عن الاقتران بالغدو .

وقال الأزهري في « التهذيب » : سمعت بعض العرب يستعمل الرواح في السير في كل وقت ، يقال : راح القوم : إذا ساروا ، وغدوا كذلك ، ويقول أحدهم لصاحبه : تروَّح ، ويخاطب أصحابه فيقول : روحوا ، أي : سيروا ، ويقول الآخر : ألا تروحون ؟ ومن ذلك ما جاء في الأخبار الصحيحة الثابتة . وهو بمعنى المضي إلى الجمعة والخفة إليها ، لا بمعنى الرواح بالعشي .

(١) الحديث رواه ابن ماجه فى سننه (باب ما جاء فى التهجير إلى الجمعة) حـ ١ ص ٣٤٧ رقم ١٠٩٢ وقال : فى الزوائد : إسناد صحيح .

أنظر سنن النسائى (باب التبكير إلى الجمعة) حـ ٣ ص ٩٨

(٢) أنظر اللؤلؤ والمرجان حـ ١ ص ١٣٢ رقم ٣٩٠ فقد رواه من حديث أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ فى (باب المشى إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به الدرجات)

وأما لفظ التهجير فمن الهجير ، والهاجرة ، قال الجوهري : هي نصف النهار عند اشتداد الحر ، تقول منه : هجر النهار ، قال امرؤ القيس :

فدعها وسلِّ الهمَّ عنها بجسرة ... ذمولٍ إذا صام النهار وهجَّروا

ويقال : أتينا أهلنا مهجرين ، أي في وقت الهاجرة والتهجير ، والتهجر : السير في الهاجرة ، فهذا ما يقرر به قول أهل المدينة .

قال الآخرون : الكلام في لفظ التهجير كالكلام في لفظ الرواح فإنه يطلق ويراد به التبكير .

قال الأزهري في « التهذيب » : روى مالك ، عن سلمى ، عن أبي صالح عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لو يعلم الناس ما في التهجير لاستبقوا إليه »[1].

وفي حديث آخر مرفوع : « المهجِّرُ إلى الجمعة كالمهدي بدنه »[2] قال : ويذهب كثير من الناس إلى أن التهجير في هذه الأحاديث تفعيل من الهاجرة : وقت الزوال ، وهو غلط ، والصواب فيه ما روى أبو داود المصاحفي عن النقد به شميل ، أنه قال : التهجير إلى الجمعة وغيرها : التبكير والمبادرة إلى كل شيء ، قال : سمعت الخليل يقول ذلك ، قاله في تفسير هذا الحديث .

قال الأزهري : وهذا صحيح وهي لغة أهل الحجاز ومن جاورهم من قيس ، قال لبيد :

راح القطين بهجر بعد ما ابتكروا ... فما تواصله سلمى وما تذر

فقرن الهجر بالابتكار ، والرواح عندهم : الذهاب والمضي ، يقال : راح القوم : إذا خفوا ومروا أي وقت كان . وقوله ﷺ : « لو يعلم الناس ما في التهجير لاستبقوا إليه »[3] أراد به التبكير إلى جميع الصلوات ، وهو المضي إليها في أول أوقاتها .

قال الأزهري : وسائر العرب يقولون : هجَّر الرجل : إذا خرج بالهاجرة ، قال : وهي نصف النهار .

ثم قال الأزهري : أنشدني المنذري فيما روى لثعلب ، عن ابن الأعرابي في « نوادره » ، قال : قال جفنة بن جواس الرَّبعي في ناقته :

هل تذكرين قسمي فتدري ... أزمان أنت بعروض الجفر

إذ أنت مضرارٌ جواد الحضر ... عليَّ إن لم تنهضي بوقري

بأ, بعين قدرت بقدر ... بالخالدي لا بصاع حجر

---

(١) هذا جزء حديث فى اللؤلؤ والمرجان من رواية أبى هريرة — رضى الله عنه — فى (كتاب الصلاة) باب : تسوية الصفوف وإقامتها حـ ١ ص ٩٠ رقم ٢٥١ ولفظه : « لو يعلم الناس مافى النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا ، ولو يعلمون مافى التهجير ... » الحديث

(٢) أنظر سنن النسائى (باب التبكير إلى الجمعة) حـ ٣ ص ٩٨

(٣) سبق تخريجه .

وتصحبي أيانقاً في سفر ... يهجرون بهجير الفجر
ثمت تمشي ليلهم فتسري ... يطوون أعراض الفجاج الغبر
طيَّ أخي التجر برود التجر

قال الأزهري : يُهجرون بهجير الفجر ، أي : يبكرون بوقت السحر . وأما كون أهل المدينة لم يكونوا يروحون إلى الجمعة أول النهار ، فهذا غاية عملهم في زمان مالك – رحمه الله – وهذا ليس بحجة ولها عند من يقول : إجماع أهل المدينة حجة ؛ فإن هذا ليس فيه إلا ترك الرواح إلى الجمعة من أول النهار ، وهذا جائز بالضرورة . وقد يكون اشتغال الرجل بمصالحه ومصالح أهله ومعاشه وغير ذلك من أمور دينه ودنياه أفضل من رواحه إلى الجمعة من أول النهار ، ولا ريب أن انتظار الصلاة بعد الصلاة وجلوس الرجل في مصلاه حتى يصلِّ الصلاة الأخرى أفضل من ذهابه وعوده في وقت آخر للثانية . كما قال ﷺ : « والذي ينتظر الصلاة ، ثم يصليها مع الإمام أفضل من الذي يُصلي ثم يروح إلى أهله » وأخبر « أن الملائكة لم تزل تصلي عليه مادام في مصلاه » وأخبر « أن انتظار الصلاة بعد الصلاة مما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات وأنه الرباط » . وأخبر « أن الله يباهي ملائكته بمن قضى فريضة وجلس ينتظر أخرى »[1].

وهذا يدل على أن من صلى الصبح ثم جلس ينتظر الجمعة فهو أفضل ممن يذهب ثم يجيء في وقتها ؛ وكون أهل المدينة وغيرهم لا يفعلون ذلك لا يدل على أنه مكروه . فهكذا المجيء إليها والتبكير في أول النهار والله أعلم .

الخامسة والعشرون : أن للصدقة فيه مزية عليها في سائر الأيام ، والصدقة فيه بالنسبة إلى سائر أيام الأسبوع ؛ كالصدقة في شهر رمضان بالنسبة إلى سائر الشهور . وشاهدت شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – إذا خرج إلى الجمعة يأخذ ما وجد في البيت من خبز أو غيره ، فيتصدق به في طريقه سراً ، وسمعته يقول : إذا كان الله قد أمرنا بالصدقة بين يدي مناجاة رسول الله ﷺ ، فالصدقة بين يدي مناجاته – تعالى – أفضل وأولى بالفضيلة ، وقال أحمد بن زهير بن حرب : حدثنا أبي حدثنا جرير ، عن منصور ، عن مجاهد عن ابن عباس ، قال : اجتمع أبو هريرة وكعب ، فقال أبو هريرة : إن في الجمعة لساعة لا يوافقها رجل مسلم في صلاة يسأل الله – عز وجل – شيئاً إلا آتاه إياه ، فقال كعبٌ : أنا أحدثكم عن يوم الجمعة : إنه إذا كان يوم الجمعة فزعت له السموات والأرض ، والبر والبحر والجبال والشجر والخلائق كلها إلا ابن آدم والشياطين ، وحفت الملائكة بأبواب المسجد

---

(١) أنظر أحاديث انتظار الصلاة فى اللؤلؤ والمرجان (باب فضل صلاة الجماعة وانتظار الصلاة) حـ ١ ص ١٣١ رقم ٣٨٧ من رواية أبى هريرة .

وأنظر سنن أبى داود (باب فضل القعود فى المسجد) حـ ١ ص ١٢٧ ، ١٢٨ أرقام ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢
وفى سنن الترمذى (باب ماجاء فى العقود فى المسجد وانتظار الصلاة من الفضل) حـ ٢ ص ١٥٠ ، ١٥١ رقم ٣٣٠
وفى سنن النسائى حـ ٢ ص ٥٥ ، ٥٦ وفى سنن ابن ماجه (باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة) حـ ١ ص ٢٦٢ أرقام ٧٩٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١

فيكتبون من جاء الأول فالأول حتى يخرج الإمام ، فإذا خرج الإمام طووا صحفهم ، ممن جاء بعد ، جاء لحق الله ، لما كتب عليه ، وحق على كل حالم أن يغتسل يومئذ كاغتساله من الجنابة ، والصدقة فيه أعظم من الصدقة في سائر الأيام ، ولم تطلع الشمس ولم تغرب على مثل يوم الجمعة . فقال ابن عباس : هذا حديث كعب وأبي هريرة وأنا أرى إن كان لأهله طيب يمس منه .

السادسة والعشرون : أنه يوم يتجلى الله – عز وجل – فيه لأوليائه المؤمنين في الجنة وزيارتهم له فيكون أقربهم منه أقربهم من الإمام وأسبقهم إلى الزيارة أسبقهم إلى الجمعة ، وروى يحيى بن يمان عن شريك عن أبي اليقظان عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – ، في قوله – عز وجل – : ﴿ **ولدينا مزيد** ﴾[1] قال : « يتجلى لهم في كل جمعة » .

وذكر الطبراني في « معجمه » من حديث أبي نعيم المسعودي ، عن المنهال ابن عمرو عن أبي عبيدة قال : قال عبد الله : سارعوا إلى الجمعة ، فإن الله – عز وجل – يبرز لأهل الجنة في كل جمعة في كثيب من كافور فيكونون منه في القرب على قدر تسارعهم إلى الجمعة ، فيحدث الله – سبحانه – لهم من الكرامة شيئاً لم يكونوا قد رأوه قبل ذلك ، ثم يرجعون إلى أهليهم فيحدثونهم بما أحدث الله لهم ، قال : ثم دخل عبد الله المسجد ، فإذا برجلين ، فقال عبد الله : رجلان وأنا الثالث إن يشأ الله يبارك في الثالث .

وذكر البيهقي في « الشعب » عن علقمة بن قيس قال : رُحت مع عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – إلى جمعة فوجد ثلاثة قد سبقوه ، فقال : رابع أربعة ، وما رابع أربعة ببعيد . ثم قال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس يجلسون يوم القيامة من الله على قدر رواحهم إلى الجمعة الأول ، ثم الثاني ، ثم الثالث ، ثم الرابع » . ثم قال : « وما رابع أربعة ببعيد »[2] .

قال الدارقطني في كتاب « الرؤية » :

حدثنا أحمد بن سلمان بن الحسن ، حدثنا محمد بن عثمان بن محمد ، حدثنا مروان بن جعفر ، حدثنا نافع أبو الحسن مولى بني هاشم ، حدثنا عطاء بن أبي ميمونة ، عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة رأى المؤمنون ربهم ، فأحدثهم عهداً بالنظر إليه من بكر في كل جمعةٍ ، وتراه المؤمنات يوم الفطر ويوم النحر » .

حدثنا محمد بن نوح ، حدثنا محمد بن موسى بن سفيان السكري ، حدثنا عبد الله بن الجهم الرازي ، حدثنا عمرو بن أبي قيس ، عن أبي طيبة عن عاصم عن عثمان بن عمير أبي اليقظان ، عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – عن رسول الله ﷺ قال : « أتاني جبريل وفي يده كالمرآة البيضاء فيها كالنكتة السوداء فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذه الجمعة يعرضها الله عليك لتكون لك عيداً ولقومك من بعدك ، قلت : ومالنا فيها ؟ قال : لكم فيها خير أنت فيها الأول ، واليهود والنصارى من

(١) من الآية : ٣٥ من سورة ق

(٢) أنظر سنن ابن ماجة (باب ماجاء فى التهجير إلى الجمعة) حـ ١ ص ٣٤٨ رقم ١٠٩٤

بعدك ، ولك فيها ساعة لا يسأل الله – عز وجل – عبد فيها شيئاً هو له قسمٌ إلا أعطاه ، أو ليس له قسم إلا أعطاه أفضل منه ، وأعاذه الله من شر ما هو مكتوب عليه ، وإلا دفع عنه ما هو أعظم من ذلك قال : قلت : وما هذه النكتة السوداء ؟ قال : هي الساعة تقوم يوم الجمعة وهو عندنا سيد الأيام ويدعوه أهل الآخرة يوم المزيد .

قال : قلت : يا جبريل وما يوم المزيد ؟ قال : ذلك أن ربك – عز وجل – اتخذ في الجنة وادياً أفيح من مسك أبيض ، فإذا كان يوم الجمعة نزل على كرسيه ثم حُف الكرسي بمنابر من نور ، فيجيء النبيون حتى يجلسوا عليها ثم حف المنابر بمنابر من ذهب فيجيء الصديقون والشهداء حتى يجلسوا عليها ، ويجيء أهل الغرف حتى يجلسوا على الكُثُب قال : ثم يتجلى لهم ربهم – عز وجل – قال : فينظرون إليه ، فيقول : أنا الذي صدقتكم وعدي ، وأتممت عليكم نعمتي ، وهذا محل كرامتي فسلوني فيسألونه الرضا . قال : رضاي أنزلكم داري وأنا لكم كرامتي ، فسلوني ، فيسألونه الرضا قال فيشهد لهم بالرضا ثم يسألونه حتى تنتهي رغبتهم ، ثم يفتح لهم عند ذلك مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال : ثم يرتفع رب العزة ويرتفع معه النبيون والشهداء ، ويجيء أهل الغرف إلى غرفهم . قال : كل غرفة من لؤلؤة لا وصل فيها ولا فصم ياقوتة حمراء وغرفة من زبرجدة خضراء أبوابها وعلاليها وسقائفها وأغلاقها منها ، أنهارها مطردة ، متدلية فيها أثمارها ، فيها أزواجها وخدمها . قال : فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى يوم الجمعة ليزدادوا من كرامة الله – عز وجل – والنظر إلى وجهه الكريم فذلك يوم المزيد »(١) .

ولهذا الحديث عدة طرق ذكرها أبو الحسن الدارقطني في كتاب « الرؤية » .

السابعة والعشرون : أنه قد فُسِّرَ الشاهد الذي أقسم الله به في كتابه بيوم الجمعة ، قال حميد بن زنجويه : حدثنا عبد الله بن موسى ، أنبأنا موسى بن عبيدة عن أيوب بن خالد ، عن عبد الله بن رافع ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « اليوم الموعود : يوم القيامة واليوم المشهود : هو يوم عرفة ، والشاهد يوم الجمعة ، ما طلعت شمس ولا غربت على أفضل من يوم الجمعة ، فيه ساعة لا يوافقها عبدٌ مؤمن يدعو الله فيها بخير إلا استجاب له ، أو يستعيذه من شر إلا أعاذه منه »(٢) .

ورواه الحارث بن أبي أسامة في « مسنده » عن روح ، عن موسى ابن عبيدة .

وفي « معجم الطبراني » من حديث محمد بن إسماعيل بن عياش ، حدثني أبي حدثني ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « اليوم الموعود : يوم القيامة والشاهد يوم الجمعة ، والمشهود : يوم عرفة ، ويوم الجمعة ادخره الله لنا ، وصلاة الوسطى صلاة العصر »(٣) وقد روى من حديث جبير بن مطعم . قلت : والظاهر – والله أعلم – : أنه من

(١) أنظر مصنف ابن أبي شبية (كتاب الصلوات) باب فى فضل الجمعة ويومها حـ ٢ ص ١٥٠ ، ١٥١

(٢) أنظر تفسير ابن كثير (تفسير سورة البروج) حـ ٤ ص ٤٩١ طبع دار إحياء الكتب العربية (الحلبى) من رواية ابن أبى حاتم بسنده عن أبى هريرة

(٣) الحديث فى المعجم الكبير للطبرانى فى (ما رواه شريح بن عبيد الحضرمى عن أبى مالك) حـ ٣ ص ٣٣٨ رقم ٣٤٥٨

الثامنة والعشرون : أنه اليوم الذي تفزع فيه السموات والأرض والجبال والبحار والخلائق كلها إلا الإنس والجن فروى أبو الجوَّاب عن عمار بن رزيق ، عن منصور ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، قال : اجتمع كعب وأبو هريرة فقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجمعة لساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خير الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه » .

فقال كعب : ألا أحدثكم عن يوم الجمعة ؟ إنه إذا كان يوم الجمعة ، فزعت له السموات والأرض والجبال والبحار والخلائق كلها إلا ابن آدم والشياطين وحفت الملائكة بأبواب المساجد فيكتبون الأول فالأول حتى يخرج الإمام ، فإذا خرج الإمام طووا صحفهم ، ومن جاء بعد لحق الله ، ولما كتب عليه ، ويحق على كل حالم أن يغتسل فيه كاغتساله من الجنابة ، والصدقة فيه أفضل من الصدقة في سائر الأيام ، ولم تطلع الشمس ولم تغرب على يوم كيوم الجمعة »

قال ابن عباس هذا حديث كعب وأبي هريرة وأنا أرى ، من كان لأهله طيب أن يمس منه يومئذ .

وفي حديث أبي هريرة ، عن النبي ﷺ : « لا تطلع الشمس ولا تغرب على يوم أفضل من يوم الجمعة ، وما من دابة إلا وهي تفزع ليوم الجمعة إلا هذين الثقلين من الجن والإنس »(١) وهذا حديث صحيح . وذلك أنه اليوم الذي تقوم فيه الساعة ويطوى العالم وتخرب فيه الدنيا ويُبعث فيه الناس إلى منازلهم من الجنة والنار .

التاسعة والعشرون : أنه اليوم الذي ادَّخره الله لهذه الأمة وأضل عنه أهل الكتاب قبلهم كما في « الصحيح » من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « ما طلعت الشمس ولا غربت على يوم خير من يوم الجمعة ، هدانا الله له ، وضل الناس عنه ، فالناس لنا فيه تبع هو لنا ولليهود يوم السبت وللنصارى يوم الأحد » وفي حديث آخر « ذخره الله لنا »(٢).

وقال الإمام أحمد : حدثنا علي بن عاصم ، عن حصين بن عبد الرحمن ، عن عمر بن قيس ، عن محمد بن الأشعث ، عن عائشة قالت : بينما أنا عند النبي ﷺ إذ استأذن رجل من اليهود فأذن له فقال : السَّام عليك قال النبي ﷺ : « وعليك » قالت : فهممت أن أتكلم ، ثم دخل الثانية فقال مثل ذلك ، فقال النبي ﷺ : « وعليك » قالت : فهممت أن أتكلم ، ثم دخل الثالثة فقال : السَّام تفسير أبي هريرة ، فقد قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة : سمعت على بن زيد ويونس بن عبيد يحدثان عن عمار مولى بني هاشم ، عن أبي هريرة ، أما علي بن زيد ، فرفعه إلى النبي ، وأما يونس فلم يَعدُ أبا هريرة أنه قال في هذه الآية : ﴿ **وشاهد ومشهود** ﴾ قال : الشاهد : يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة ، والموعود : يوم القيامة .

= وأنظر مجمع الزوائد حـ ٢ ص ١٧٣ ، ١٧٤ وقال الهيثمي : وفيه محمد بن إسماعيل بن عياش عن أبيه ، قال أبو حاتم : لم يسمع من أبيه شيئا .

(١) أنظر الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (صلاة الجمعة) ذكر البيان بأن أفضل الأيام يوم الجمعة حـ ٤ ص ١٩١ رقم ٢٧٥٩

(٢) أنظر مسند الإمام أحمد (مسند أبي هريرة ــ رضى الله عنه) حـ ٢ ص ٥١٩

عليكم ، قالت : فقلت : بل السام عليكم وغضبُ الله - إخوان القردة والخنازير - أتحيون رسول الله بما لم يحيه به الله - عز وجل - ؟ قالت : فنظر إليّ فقال : صه إن الله لا يحب الفُحش ولا التفحش ، قالوا قولاً فرددناه عليهم فلم يضرنا شيئاً ، ولزمهم إلى يوم القيامة ، إنهم لا يحسدوننا على شيء كما يحسدوننا على الجمعة التي هدانا الله لها وضلوا عنها ، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضلوا عنها ، وعلى قولنا خلف الإمام . آمين »[1].

وفي « الصحيحين » من حديث أبي هريرة ، عن النبي ﷺ : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ، فهذا يومهم الذي فرض الله عليهم **فاختلفوا فيه ، فهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع ، اليهود غدا والنصارى بعد غد »**[2]

وفي « بيد » لغتان : بالباء وهي المشهودة ، وميد بالميم ، حكاها أبو عبيد . وفي هذه الكلمة قولان ، أحدهما : أنها بمعنى « غير وأشهد معنيها . والثاني : بمعنى « على » وأنشد أبو عبيد شاهداً له :

عمداً فعلت ذاك بَيْدَ أني ... إخالُ لو هلكت لم ترِنِّي

ترِنِّي : تفعلي من الرنين .

الثلاثون : أنه خِيرة الله من أيام الأسبوع ، كما أن شهر رمضان خيرته من شهور العام ، وليلة القدر خيرته من الليالي ، ومكة خيرته من الأرض ، ومحمد ﷺ خيرته من خلقه .

قال آدم بن أبي إياس : حدثنا شيبان أبو معاوية ، عن عاصم بن أبي النجود ، عن أبي صالح ، بن كعب الأحبار . قال : إن الله - عز وجل - اختار الشهور واختار شهر رمضان ، واختار الأيام واختار يوم الجمعة ، واختار الليالي واختار ليلة القدر ، واختار الساعات واختار ساعة الصلاة ، والجمعة تكفر ما بينها وبين الجمعة الأخرى وتزيد ثلاثاً ، ورمضان يُكفر ما بينه وبين رمضان ، والحج يكفر ما بينه وبين الحج ، والعمرة تُكفِّر ما بينها وبين العمرة ، ويموت الرجل بين حسنتين : حسنة قضاها وحسنة ينتظرها - يعني صلاتيه - وتصفد الشياطين في رمضان ، وتغلق أبواب النار ، وتفتح فه أبواب الجنة ، ويقال فيه : يا باغي الخير : هلم . رمضان أجمع ، وما من ليالٍ أحب إلى الله العمل فيهن من ليالي العشر .

الحادية والثلاثون : أن الموتى تدنو أرواحهم من قبورهم ، وتوافيها في يوم الجمعة ، فيعرفون زوارهم ومن يمر بهم ويسلم عليهم ويلقاهم في ذلك اليوم أكثر من معرفتهم بهم في غيره من الأيام ، فهو يوم تلتقي فيه الأحياء والأموات ، فإذا قامت فيه الساعة التقى الأولون والآخرون ، وأهل الأرض وأهل السماء ، والرب والعبد ، والعامل وعمله ، والمظلوم وظالمه ، والشمس والقمر ، ولم تلتقيا قبل ذلك قط ، وهو يوم الجمع واللقاء ، ولهذا يلتقي الناس فيه في الدنيا أكثر من التقائهم في غيره ، فهو

(١) مسند الإمام أحمد (مسند السيدة عائشة - رضى الله عنها) حـ ٦ ص ١٣٤ ، ١٣٥

(٢) اللؤلؤ والمرجان (كتاب الجمعة) باب : هداية هذه الأمة ليوم الجمعة حـ ١ ص ١٦٦ رقم ٤٩٦

يوم التلاق . قال أبو التياح يزيد بن حميد : كان مطرف بن عبد الله يبادر فيدخل كل جمعة ، فأدلج حتى إذا كان عند المقابر يوم الجمعة ، قال : فرأيت صاحب كل قبر جالساً على قبره ، فقالوا : هذا مطرف يأتي الجمعة ، قال : فقلت لهم : وتعلمون عندكم الجمعة ؟ قالوا : نعم ، ونعلم ما تقول فيه الطير ، قلت : وما تقول فيه الطير ؟ قالوا : تقول : رب سلم سلم ، يومٌ صالح . وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب (المقامات) وغيره عن بعض أهل عاصم الجحدري ، قال : رأيت عاصماً الجحدري في منامي بعد موته بسنتين ، فقلت : أليس قَدْ مُتَّ ؟ قال : بلى ، قلت : فأين أنت ؟ قال : أنا – والله – في روضة من رياض الجنة ، أنا ونفرٌ من أصحابي تجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد الله المزني ، فنتلقى أخباركم . قلت : أجسامكم أم أرواحكم ؟ قا : هيهات ؛ بليت الأجسام ، وإنما تتلاقى الأرواح ، قال : قلت : فهل تعلمون بزيارتنا لكم ؟ قال : نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة ، وليلة السبت إلى طلوع الشمس ، قال : قلت : فكيف ذلك دون الأيام كلها ؟ قال : لفضل يوم الجمعة وعظمته .

وذكر ابن أبي الدنيا أيضاً ، عن محمد بن واسع أنه كان يذهب كل غداة سبت حتى يأتي الجبانة فيقف على القبور فيسلم عليهم ويدعو لهم ثم ينصرف .

فقيل له : لو صيَّرت هذا اليوم يوم الإثنين ، قال : بلغني أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوماً قبله ويوماً بعده .

وذكر عن سفيان الثوري ، قال : بلغني عن الضحاك ، أنه قال : من زار قبراً يوم السبت قبل طلوع الشمس علم الميت بزيارته . فقيل له : كيف ذلك ؟ قال : لمكان يوم الجمعة .

الثانية والثلاثون : أنه يكره إفراد يوم الجمعة بالصوم ، هذا منصوص أحمد ، قال الأثرم : قال لأبي عبد الله : صيام يوم الجمعة ؟ فذكر حديث النهي عن أن يُفرد ، ثم قال : إلا أن يكون في صيام كان يصومه ، وأما أن يُفرد ، فلا. قلت : رجل كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، فوقع فطره يوم الخميس ، وصومه يوم الجمعة وفطره يوم السبت ، فصار الجمعة مفرداً ؛ قال : هذا إلا أن يتعمَّد صومه خاصة ، إنما كره أن يتعمد الجمعة .

وأباح مالك ، وأبو حنيفة صومه كسائر الأيام ، قال مالك : لم أسمع أحداً من أهل العلم والفقه ومن يقتدي به ينهى عن صيام يوم الجمعة ، وصيامه حسن ، وقد رأيت بعض أهل العلم يصومه وأراه كان يتحراه قال ابن عبد البر : اختلفت الآثار عن النبي ﷺ في صيام يوم الجمعة فروى ابن مسعود – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ « كان يصوم ثلاثة أيام من كل شهر ، وقال : قلما رأيته مفطراً يوم الجمعة »[١] وهذا حديث صحيح .

(١) مسند الإمام أحمد (مسند عبد الله بن مسعود ــ رضى الله عنه) حـ ١ ص ٤٠٦
والنسائى (باب صوم النبى ﷺ) حـ ٤ ص ٢٠٤
والترمذى (باب ماجاء فى صوم يوم الجمعة) حـ ٣ ص ١٠٩ رقم ٧٤٢

وقد روي عن ابن عمر – رضي الله عنهما – أنه قال : ما رأيت رسول الله ﷺ يفطر يوم الجمعة قط . ذكره ابن أبي شيبة ، عن حفص بن غياث ، عن ليث بن أبي سليم ، عن عمير بن أبي عمير ، عن ابن عمر(١).

وروى ابن عباس ، أنه كان يصومه ويواظب عليه(٢). وأما الذي ذكره مالك ، فيقولون : إنه محمد بن المنكدِر . وقيل : صفوان بن سليم .

وروي الداوردي ، عن صفوان بن سليم عن رجل من بني جشم أنه سمع أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « من صام يوم الجمعة كتب له عشرة أيام غرر زهر من أيام الآخرة لا يشاكلهن أيام الدنيا »(٢)

والأصل في صوم يوم الجمعة أنه عمل بر لا يمنع منه إلا بدليل لا معارض له .

قلت : قد صح المعارض صحة لا مطعن فيها البتة ، ففي « الصحيحين » : عن محمد بن عباد ، قال : سألت جابراً : أنَهَى رسول الله ﷺ عن صيام يوم الجمعة ؟ قال : نعم(٣).

وفي صحيح مسلم عن محمد بن عباد ، قال : سألت جابر بن عبد الله وهو يطوف بالبيت : أنَهَى رسول الله ﷺ عن صيام يوم الجمعة ؟ قال : نعم ورب هذه البنية(٤).

وفي (الصحيحين) : من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يصومن أحدكم يوم الجمعة إلا أن يصوم يوماً قبله ، أو يوماً بعده »(٥) واللفظ للبخاري .

وفي صحيح مسلم ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « لا تخصوا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي ، ولا تخصوا يوم الجمعة بصيام من بين سائر الأيام إلا أن يكون في صوم يصومه أحدكم »(٦).

وفي صحيح البخاري ، عن جويرية بنت الحارث ، أن النبي ﷺ دخل عليها يوم الجمعة وهي صائمة ، فقال : « أصُمْتِ أمس ؟ » قالت : لا . قال : « فتريدين أن تصومي غداً ؟ » قالت : لا . قال : فأفطري »(٧).

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (باب من رخص فى صوم يوم الجمعة) حـ ٣ ص ٤٦

(٢) الحديث فى كنز العمال (فى الباب الثانى فى صوم الفضل) من الإكمال حـ ٨ ص ٥٦١ رقم ٢٤١٧٢ وعزاه إلى أبى الشيخ ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن أبى هريرة .

(٣) اللؤلؤ والمرجان (كتاب الصيام) باب كراهة صيام الجمعة منفردا حـ ١ ص ٢٥٣ رقم ٧٠٠

(٤) أنظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الصيام) باب كراهة إفراد يوم الجمعة بصوم حـ ٨ ص ١٨ إلا أنه قال جابر : نعم ورب هذا البيت .

(٥) أنظر اللؤلؤ والمرجان حـ ١ ص ٢٥٣ (باب كراهة صيام الجمعة منفردا) رقم ٧٠١

(٦) مسلم بشرح النووى (باب كراهة إفراد يوم الجمعة بصوم) حـ ٨ ص ١٨ ، ١٩

(٧) أنظر صحيح البخارى بحاشية السندى (كتاب الصيام) باب صوم يوم الجمعة حـ ١ ص ٣٤٠ ومصنف ابن أبى شيبة (كتاب الصيام باب ما ذكر فى صوم الجمعة حـ ٣ ص ٤٤ ، ٤٥

وفي «مسند أحمد» عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «لاتصوموا يوم الجمعة وحده»(١).

وفي «مسنده» أيضاً عن جنازة الأزدي قال: دخلت على رسول الله ﷺ يوم جمعة في سبعة من الأزد، أنا ثامنهم وهو يتغدّى، فقال: «هلموا إليّ للغداء» فقلنا: يارسول الله إنا صيام. فقال: أصمتم أمس؟ قلنا: لا. قال: فتصومون غداً؟ قلنا: لا. قال فأفطروا. قال: فأكلنا مع رسول الله ﷺ قال: فلما خرج وجلس على المنبر دعا بإناء ماء فشرب وهو على المنبر والناس ينظرون إليه، يريهم أنه لا يصوم يوم الجمعة(٢)

وفي (مسنده) أيضاً عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يوم الجمعة عيد، فلا تجعلوا يوم عيدكم يوم صيامكم إلا أن تصوموا قبله أو بعده»(٣)

وذكر ابن أبي شيبةّ، عن سفيان بن عيينه، عن عمران بن ظبيان، عن حكيم بن سعد، عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: من كان منكم متطوعاً منْ الشهر أياماً، فليكن في صومه يوم الخميس، ولا يصم يوم الجمعة؛ فإنه يوم طعام وشراب وذكر، فيجمع الله له يومين صالحين: يوم صيامه ويوم نسكه مع المصلين(٤)

وذكر ابن جرير عن مغيرة عن إبراهيم: أنهم كرهوا صوم الجمعة ليقوُوا على الصلاة(٢).

قلت: المأخذ في كراهيته: ثلاثة أمور، هذا **أحدها**، ولكن يشكل عليه زوال الكراهية بضم يوم قبله، أو بعده إليه.

والثاني: أنه يوم عيد وهو الذي أشار إليه ﷺ وقد أورد على هذا التعليل إشكالان: **أحدهما**: أن صومه ليس بحرام وصوم يوم العيد حرام.

والثاني: أن الكراهة تزول بعدم إفراده. وأجيب عن الإشكالين، بأنه ليس عيد العام بل عيد الأسبوع، والتحريم إنما هو لصوم عيد العام وأما إذا صام يوماً قبله أو يوماً بعده فلا يكون قد صامه لأجل كونه جمعة وعيداً فتزول المفسدة الناشئة من تخصيصه، بل يكون داخلاً في صيامه تبعاً، وعلى هذا يحمل ما رواه الإمام أحمد - رحمه الله - في (مسنده) والنسائي، والترمذي من حديث عبد الله بن مسعود - إن صح - قال: قلّما رأيت رسول الله ﷺ يفطر يوم الجمعة(٦). فإن صح هذا، تعين

---

(١) مسند الإمام أحمد (مسند ابن عباس - رضى الله عنهما) جـ ١ ص ٢٨٨

(٢) مصنف ابن أبى شيبة (كتاب الصيام) باب صوم الجمعة جـ ٣ ص ٤٤

(٣) مسند الإمام أحمد (مسند أبى هريرة - رضى الله عنه) جـ ٢ ص ٥٣٢

(٤) مصنف ابن أبى شيبة (كتاب الصيام) باب ما ذكر فى صوم الجمعة جـ ٣ ص ٤٤ إلا أنه قال: «ويوم نسكه مع المسلمين» بدل «ويوم نسكه مع المصلين»

(٥) مصنف ابن أبى شيبة (كتاب الصيام) باب ما ذكر فى صوم يوم الجمعة جـ ٣ ص ٤٤

(٦) أنظر سنن النسائى (باب صوم النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم) جـ ٤ ص ٢٠٤
ورواه الترمذى فى سننه فى (كتاب الصوم) باب ماجاء فى صوم يوم الجمعة جـ ٣ ص ١٠٩ رقم ٧٤٢

حملة على أنه كان يدخل في صيامه تبعاً لا أنه كان يفرده ؛ لصحة النهي عنه . وأين أحاديث النهي الثابتة في الصحيحين ، من حديث الجواز الذي لم يروه أحد من أهل الصحيح ؟ وقد حكم الترمذي بغرابته ، فكيف تعارض به الأحاديث الصحيحة الصريحة ثم يقدم عليها ؟

والمأخذ الثالث : سد الذريعة من أن يُلحق بالدين ما ليس فيه ويوجب التشبه بأهل الكتاب في تخصيص بعض الأيام بالتجرد عن الأعمال الدنيوية ، وينضم إلى هذا المعنى : أن هذا اليوم لما كان ظاهر الفضل على الأيام كان الداعي إلى صومه قوياً فهو في مظنة تتابع الناس في صومه واحتفالهم به ما لا يحتفلون بصوم يوم غيره ، وفي ذلك إلحاق بالشرع ما ليس منه . ولهذا المعنى – والله أعلم – عني عن تخصيص ليلة الجمعة بالقيام من بين الليالي لأنها من أفضل الليالي ، حتى فضلها بعضهم على ليلة القدر ، وحكيت رواية عن أحمد ، فهي في مظنة تخصيصها بالعبادة فحسم الشارع الذريعة وسدها بالنهي عن تخصيصها بالقيام . والله أعلم .

فإن قيل : ما تقولون في تخصيص يوم غيره بالصيام ؟ قيل : أما تخصيص ما خصصه الشارع كيوم الإثنين ويوم عرفة ويوم عاشوراء فسُنَّة ، وأما تخصيص غيره كيوم السبت والثلاثاء والأحد والأربعاء فمكروه ، وما كان منها أقرب إلى التشبه بالكفار لتخصيص أيام أعيادهم بالتعظيم والصيام فأشد كراهة وأقرب إلى التحريم .

الثالثة والثلاثون : أنه يوم اجتماع الناس وتذكيرهم بالمبدأ والمعاد ، وقد شرع الله – سبحانه وتعالى – لكل أمة في الأسبوع يوماً يتفرغون فيه للعبادة ، ويجتمعون فيه لتذكير المبدأ والمعاد والثواب والعقاب ، ويتذكرون اجتماعهم يوم الجمع الأكبر قياماً بين يدي رب العالمين ، وكان أحق الأيام بهذا الغرض المطلوب اليوم الذي يجمع الله فيه الخلائق ، وذلك يوم الجمعة فادّخره الله لهذه الأمة ؛ لفضلها وشرفها ، فشرع اجتماعهم في هذا اليوم لطاعته ، وقدّر اجتماعهم فيه مع الأمم لنيل كرامتهم ، فهو يوم الاجتماع شرعاً في الدنيا وقدراً في الآخرة ، وفي مقدار انتصافه وقت الخطبة والصلاة ، يكون أهل الجنة في منازلهم وأهل النار في منازلهم كما ثبت عن ابن مسعود من غير وجه أنه قال : لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في منازلهم وأهل النار في منازلهم ، وقرأ : ﴿ **أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا** ﴾[1] وقرأ : ﴿ **ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم** ﴾[2].

وكذلك هي في قراءته (مرجعهم) ولهذا كون الأيام سبعة إنما تعرفه الأمم التي لها كتاب ، فأما أمة لا كتاب لها فلا تعرف ذلك إلا من تلقاه منهم عن أمم الأنبياء ، فإنه ليس هنا علامة حسية يعرف بها كون الأيام سبعة بخلاف الشهر والسنة وفصولها ، ولما خلق الله السموات والأرض وما بينهما في ستة

= قال أبو عيسى : حديث عبد الله حديث حسن غريب .

وأنظر مسند أحمد ح ١ ص ٤٠٦

(١) سورة الفرقان ، الاية : ٢٤

(٢) الآية : ٦٨ من سورة الصافات .

أيام وتعرّف بذلك إلى عباده على ألسنة رسله وأنبيائه شرع لهم في الأسبوع يوماً يذكرهم فيه بذلك ، وحكمة الخلق وما خُلقوا له ، وبأجل العالم ، وطيّ السموات والأرض ، وعود الأمر كما بدأه - سبحانه - وعداً عليه حقاً ، وقولاً صدقاً ، ولهذا كان النبي ﷺ يقرأ في فجر يوم الجمعة سورتي : ﴿ **الم تنزيل** ﴾ و ﴿ **هل أتى على الإنسان** ﴾ لما اشتملت عليه هاتان السورتان مما كان ويكون من المبدأ والمعاد وحشر الخلائق وبعثهم من القبور إلى الجنة والنار ، لا لأجل السجدة كما يظنه من نقص علمه ومعرفته ، فيأتي بسجدة من سورة أخرى ، ويعتقد أن فجر يوم الجمعة فضّل بسجدة ، وينكر على من لم يفعلها .

وهكذا كانت قراءته ﷺ في المجامع الكبار كالأعياد ونحوها بالسورة المشتملة على التوحيد والمبدأ والمعاد وقصص الأنبياء مع أممهم ، وما عامل الله به من كذّبهم وكفر بهم من الهلاك والشقاء ، ومن آمن منهم وصدقهم من النجاة والعافية .

كما كان يقرأ في العيدين بسورتي : ﴿ **ق والقرآن المجيد** ﴾ و ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر** ﴾ وتارة بـ ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ و ﴿ **هل أتاك حديث الغاشية** ﴾ وتارة يقرأ في الجمعة بسورة الجمعة لما تضمنت من الأمر بهذه الصلاة وإيجاب السعي إليها وترك العمل العائق عنها ، والأمر بإكثار ذكر الله ليحصل لهم الفلاح في الدارين ؛ فإن في نسيان ذكره - تعالى - العطب والهلاك في الدارين ، ويقرأ في الثانية بسورة ﴿ **إذا جاءك المنافقون** ﴾ تحذيراً للأمة من النفاق المردي ، وتحذيراً لهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن صلاة الجمعة وعن ذكر الله ، وأنهم إن فعلوا ذلك خسروا ولابد ، وحضاً لهم على الإنفاق الذي هو من أكبر أسباب سعادتهم ، وتحذيراً لهم من هجوم الموت وهم على حالة يطلبون الإقالة ويتمنون الرجعة ولا يجابون إليها .

وكذلك كان ﷺ يفعل عند قدوم وفد يريد أن يسمعهم القرآن ، وكان يُطيل قراءة الصلاة الجهرية لذلك ، كما صلى المغرب بـ (**الأعراف**) وبـ (**الطور**) و (**ق**) وكان يصلي الفجر بنحو مائة آية .

وكذلك كانت خطبته ﷺ إنما هي تقرير لأصول الإيمان من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه ، وذكر الجنة والنار ، وما أعدّ الله لأوليائه وأهل طاعته ، وما أعدّ لأعدائه وأهل معصيته ، فيملأ القلوب من خطبته إيماناً وتوحيداً ومعرفة بالله وأيامه ، لا كخطب غيره التي إنما تفيد أموراً مشتركة بين الخلائق وهي النوح على الحياة والتخويف بالموت ، فإن هذا أمر لا يحصل في القلب إيماناً بالله ولا توحيداً له ولا معرفة خاصة به ، ولا تذكيراً بأيامه ، ولا بعثاً للنفوس على محبته والشوق إلى لقائه ، فيخرج السامعون ولم يستفيدوا فائدة ، غير أنهم يموتون وتقسم أموالهم ويبلي التراب أجسامهم ، فياليت شعري أيّ إيمان حصل بهذا ؟ وأي توحيد ومعرفة وعلم نافع حصل به ؟

ومن تأمل خطب النبي ﷺ وخطب أصحابه وجدها كفيلة ببيان الهدى والتوحيد ، وذكر صفات الرب - جل جلاله - وأصول الإيمان الكلية ، والدعوة إلى الله وذكر آلائه - تعالى - التي

تحببه إلى خلقه ، وأيامه التي تخوفهم من بأسه ، والأمر بذكره وشكره الذي يحببهم إليه ، فيذكرون من عظمة الله وصفاته وأسمائه مـا يحببه إلى خلقه ، ويأمرون من طاعته وشكره وذكره ما يحببهم إليه ، فينصرف السامعون وقد أحبّوه وأحبهم ، ثم طال العهد وخفي نور النبوة ، وصارت الشرائع والأوامر رسوماً ، فقام من غير مراعاة حقائقها ومقاصدها فأعطوها صورها وزينوها بما زينوها به ، فجعلوا الرسوم والأوضاع سنناً لا ينبغي الإخلال بها ، وأخلُّوا بالمقاصد التي لا ينبغي الإخلال بها ، فرصعوا الخطب بالتسجيع والفِقَر وعلم البديع فنقص – بل عدم – حظ القلوب منها ، وفات المقصود بها .

فمما حفظ من خطبه ﷺ أنه كان يكثر أن يخطب بالقرآن وسورة (ق) .

قالت أم هشام بنت الحارث بن النعمان : ما حفظت (قٓ) إلا من رسول الله ﷺ مما يخطب بها على المنبر[1].

وحُفظ من خطبته ﷺ من رواية علي بن زيد بن جدعان – وفيها ضعف – : « يا أيها الناس : توبوا إلى الله – عز وجل – قبل أن تموتوا ، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا ، وصلوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له وكثرة الصدقة في السر والعلانية تؤجروا وتحمدوا وترزقوا ، واعلموا أن الله – عز وجل – قد فرض عليكم الجمعة فريضة مكتوبة في مقامي هذا في شهري هذا في عامي هذا إلى يوم القيامة ، من وجد إليها سبيلاً ، فمن تركها في حياتي أو بعد مماتي جحوداً بها أو استخفافاً بها وله إمام جائر أو عادل فلا جمع الله شمله ، ولا بارك له في أمره ألا ولا صلاة له ، ألا ولا وضوء له ، ألا ولا صوم له ، ألا ولا زكاة له ، ألا ولا حج له ، ألا ولا بركة له حتى يتوب ، فإن تاب تاب الله عليه ، ألا ولا يَؤُمَّنَّ امرأة رجلاً ، ألا ولا يَؤُمَّنَّ أعرابي مهاجراً ، ألا ولا يَؤُمَّنَّ فاجر مؤمنـاً إلا أن يقهره سلطان فيخاف سيفه وسوطه »[2].

وحفظ من خطبته أيضاً : « الحمد لله نستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، من **يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن** محمداً عبده ورسوله ارسله بالحق بشيرا ونذيرا بين يدى الساعة من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فإنه لا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئاً »[3].

---

(١) سنن أبى داود (كتاب الصلاة) باب الرجل يخطب على قوس حـ ١ ص ٢٨٨ رقم ١١٠٠
وأنظر سنن النسائى (باب القراءة فى الخطبة) حـ ٣ ص ١٠٧
وأنظر صحيح مسلم بشرح النووى حـ ٦ ص ١٦٢

(٢) أنظر سنن ابن ماجه (كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها) باب فى فرض الجمعة حـ ١ ص ٣٤٣ رقم ١٠٨١ فى الزوائد : إسناده ضعيف ؛ لضعف على بن زيد بن جدعان ، وعبد الله بن محمد العدوى .
وقد رواه ابن ماجه عن جابر بن عبد الله .

(٣) سنن أبى داود (باب الرجل يخطب على قوس » حـ ١ ص ٢٨٧ رقم ١٠٩٧ من رواية ابن مسعود ـــ رضى الله عنه .

فصـــــل
في هديـه ﷺ في خطبـــه

كان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول : « صبّحكم ومسّاكم » ويقول : « بعثت أنا والساعة كهاتين » ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى ويقول : « أما بعد : فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة » ثم يقول : « أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، من ترك مالاً فلأهله ، ومن ترك دَيْناً أو ضياعاً فإليَّ وعليَّ » رواه مسلم[١].

وفي لفظ : كانت خطبة النبي ﷺ يوم الجمعة يحمد الله ويثني عليه ثم يقول على إثر ذلك : وقد علا صوته . فذكره[٢].

وفي لفظ : يحمد الله ويثني عليه بما هو أهله ثم يقول : « من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وخير الحديث كتاب الله »[٣].

وفي لفظ النسائي : « وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار »[٤].

وكان يقول في خطبته بعد التحميد والثناء والتشهد : « أما بعد » . وكان يقصّر الخطبة ويطيل الصلاة ، ويكثر الذكر ، ويقصد الكلمات الجوامع ، وكان يقولُ : « إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته من فقهه »[٥].

وكان يعلّم أصحابه في خطبته قواعد الإسلام وشرائعه ، ويأمرهم وينهاهم في خطبته إذا عرض له أمر أو نهي ، كما أمر الداخل وهو يخطب أن يصلي ركعتين .

ونهى المتخطي رقاب الناس عن ذلك وأمره بالجلوس .

وكان يقطع خطبته للحاجة تعرض ، أو السؤال من أحد من أصحابه فيجيبه ثم يعود إلى خطبته فيتمها .

وكان ربما نزل عن المنبر للحاجة ثم يعود فيتمها ، كما نزل لأخذ الحسن والحسين – رضي الله

(١) صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الصلاة) باب خطبته ـــ ﷺ في الجمعة حـ ٦ ص ١٥٣ ، ١٥٤ من رواية جابر بن عبد الله ـــ رضى الله عنه .

(٢) المصدر السابق ص ١٥٦

(٣) المصدر السابق ص ١٥٦

(٤) انظر سنن النسائى (كتاب صلاة العيدين) باب كيف الخطبة حـ ٣ ص ١٨٨ ، ١٨٩ فقد روى هذا ، وهو جزء حديث لجابر بن عبد الله ـــ رضى الله عنه .

(٥) انظر صحيح مسلم بشرح النووى (باب صلاة الجمعة وخطبتها) حـ ٦ ص ١٥٨ فقد أورده جزءا من حديث عن عمار بن ياسر ـــ رضى الله عنهما .

عنهما – فأخذهما ثم رقى بهما المنبر فأتم خطبته ، وكان يدعو الرجل في خطبته : تعال يا فلان ، اجلس يا فلان ، صلِّ يا فلان .

وكان يأمرهم بمقتضى الحال في خطبته ، فإذا رأى منهم ذا فاقة وحاجة أمرهم بالصدقة وحضهم عليها .

وكان يشير بأصبعه السبابة في خطبته عند ذكر الله – تعالى – ودعائه وكان يستسقى بهم إذا قحط المطر في خطبته .

وكان يمهل يوم الجمعة حتى يجتمع الناس ، فإذا اجتمعوا خرج إليهم وحده من غير شاويش يصيح بين يديه ، ولا لبس طيلسان ، ولا طراحة ولا سواد ، فإذا دخل المسجد سلم عليهم ، فإذا صعد المنبر استقبل الناس بوجهه وسلم عليهم ، ولم يدع مستقبل القبلة ، ثم يجلس ، ويأخذ بلال في الأذان ، فإذا فرغ منه قام النبي ﷺ فخطب من غير فصل بين الأذان والخطبة لا بإيراد خبر ولا غيره .

ولم يكن يأخذ بيده سيفاً ولا غيره ، وإنما كان يعتمد على قوس أو عصا قبل أن يتخذ المنبر وكان في الحرب يعتمد على قوس وفي الجمعة يعتمد على عصا ، ولم يحفظ عنه أنه اعتمد على سيف ، وما يظنه بعض الجهال أنه كان يعتمد على السيف دائماً وأن ذلك إشارة إلى أن الدين قام بالسيف فمن فرط جهله ؛ فإنه لا يحفظ عنه بعد اتخاذ المنبر أنه كان يرقاه بسيف ولا قوس ولا غيره ، ولا قبل اتخاذه أنه أخذ بيده سيفاً البتة ، وإنما كان يعتمد على عصا أو قوس ، وكان منبره ثلاث درجات ، وكان قبل اتخاذه يخطب إلى جذع يستند إليه ، فلما تحول إلى المنبر حنّ الجذع حنيناً سمعه أهل المسجد فنزل إليه ﷺ وضمّه ، قال أنس : حنّ لما فقد ما كان يسمع من الوحي وفقده التصاق النبي ﷺ ولم يوضع المنبر في وسط المسجد ، وإنما وضع في جانبه الغربي قريباً من الحائط وكان بينه وبين الحائط قدر ممر الشاة .

وكان إذا جلس عليه النبي ﷺ في غير الجمعة أو خطب قائماً في الجمعة استدار أصحابه إليه بوجوههم ، وكان وجهه ﷺ قبلهم في وقت الخطبة .

وكان يقوم فيخطب ثم يجلس جلسة خفيفة ، ثم يقوم فيخطب الثانية ، فإذا فرغ منها أخذ بلال في الإقامة ، وكان يأمر الناس بالدنو فيه ، ويأمرهم بالإنصات ، ويخبرهم أن الرجل إذا قال لصاحبه : أنصت فقد لغا ، ويقول : « من لغا فلا جمعة له »[1] وكان يقول : « من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كمثل الحمار يحمل أسفاراً ، والذي يقول له : أنصت ليست له جمعة »[2] رواه أحمد .

وقال أُبيّ بن كعب : قرأ رسول الله ﷺ يوم الجمعة (تبارك) وهو قائم فذكرنا بأيام الله ، وأبو

---

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الجمعة) باب فى الإنصات يوم الجمعة فى الخطبة حـ ١ ص ١٦٥ رقم ٤٩٤
ورواه النسائى حـ ٣ ص ١٠٤ بمثل حديث الصحيحين = ورواه أبو داود حـ ١ ص ٢٩٠ رقم ١١١٢
وأنظر سنن ابن ماجه (باب ماجاء فى الاستماع للخطبة) حـ ١ ص ٣٥٢ رقم ١١١٠

(٢) انظر مسند الإمام أحمد حـ ١ ص ٢٣٠ فقد رواه عن ابن عباس = رضى الله عنهما .

الدرداء أو أبو ذر يغمزني . فقال : متى أنزلت هذه السورة ؟ فإني لم أسمعها إلا الآن . فأشار إليه أن اسكت ، فلما انصرفوا قال : سألتك : متى أنزلت هذه السورة فلم تخبرني ، فقال : إنه ليس من صلاتك اليوم إلا ما لغوت ، فذهب إلى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك وأخبره بالذي قال له أبي ، فقال رسول الله ﷺ : « صدق أُبَيّ »[1].

وقال ﷺ : « يحضر الجمعة ثلاثة نفر : رجل حضرها يلغو وهو حظه منها ، ورجل حضرها يدعو فهو رجل دعا الله - عز وجل - إن شاء أعطاه وإن شاء منعه ، ورجل حضرها بإنصات وسكوت ولم يتخط رقبة مسلم ولم يؤذ أحداً فهي كفارة له إلى يوم الجمعة التي تليها وزيادة ثلاثة أيام ، وذلك أن الله - عز وجل - يقول : (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) ذكره أحمد[2].

وكان إذا فرغ بلال من الأذان أخذ النبي ﷺ في الخطبة ولم يقم أحد يركع ركعتين البتة ، ولم يكن الأذان إلا واحداً ، وهذا يدل على أن الجمعة كالعيد لا سنة لها قبلها ، وهذا أصح قول العلماء ، وعليه تدل السنة ؛ فإن النبي ﷺ كان يخرج من بيته فإذا رقى المنبر أخذ بلال في أذان الجمعة ، فإذا أكمله أخذ النبي ﷺ في الخطبة من غير فصل ، وهذا كان رأي عين ، فمتى كانوا يصلون السنة ؟ ومن ظن أنهم كانوا إذا فرغ بلال - رضي الله عنه - من الأذان قاموا كلهم فركعوا ركعتين فهو أجهل الناس بالسنة ، وهذا الذي ذكرناه من أنه لا سنة قبلها هو مذهب مالك وأحمد في المشهور عنه وأحد الوجهين لأصحاب الشافعي .

والذين قالوا : إن لها سنة منهم من احتج بأنها ظهر مقصورة فيثبت لها أحكام الظهر ، وهذه حجة ضعيفة جداً ؛ فإن الجمعة صلاة مستقلة بنفسها تخالف الظهور في الجهر والعدد والخطبة والشروط المعتبرة لها ، وتوافقها في الوقت ، وليس إلحاق مسألة النزاع بموارد الاتفاق أولى من إلحاقها بموارد الافتراق ، بل إلحاقها بموارد الافتراق أولى لأنها أكثر مما اتفقا فيه . .

ومنهم من أثبت السنة لها هنا بالقياس على الظهر ، وهو أيضاً قياس فاسد ؛ فإن السنة ما كان ثابتاً عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو سنة خلفائه الراشدين ، وليس في مسألتنا شيء من ذلك ، ولا يجوز إثبات السنن في مثل هذا بالقياس ؛ لأن هذا مما انعقد بسبب فعله في عهد النبي ﷺ فإذا لم يفعله ولم يشرعه كان تركه هو السنة ، ونظير هذا أن يشرع لصلاة العيد سنة قبلها أو بعدها بالقياس ، فلذلك كان الصحيح أنه لا يسن الغسل للمبيت بمزدلفة ولا لرمي الجمار ولا للطواف ولا للكسوف ولا للاستسقاء لأن النبي ﷺ وأصحابه لم يغتسلوا لذلك مع فعلهم لهذه العبادات .

ومنهم من احتج بما ذكره البخاري في (صحيحه) فقال : باب الصلاة قبل الجمعة وبعدها : حدثنا عبد الله بن يوسف ، أنبأنا مالك ، عن نافع ، عن ابن عمر أن النبي ﷺ « كان يصلي قبل

---

(١) انظر سنن ابن ماجه (كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها) باب ماجاء فى الاستماع للخطبة حـ ١ ص ٣٥٢ رقم ١١١١

(٢) انظر سنن أبى داود (كتاب الصلاة) باب الكلام و الإمام يخطب حـ ١ ص ٢٩٠ ، ٢٩١ رقم ١١١٢ من رواية أبى هريرة عن رسول الله ﷺ والآية هى رقم ١٦٠ من سورة الأنعام .

الظهر ركعتين وبعدها ركعتين ، وبعد المغرب ركعتين في بيته ، وقبل العشاء ركعتين ، وكان لا يصلي بعد الجمعة حتى ينصرف فيصل ركعتين »(١) وهذا لا حجة فيه ولم يُرد به البخاري إثبات السنة قبل الجمعة ، وإنما مراده أنه هل ورد في الصلاة قبلها أو بعدها شيء ؟ ثم ذكر هذا الحديث ، أي : أنه لم يرد عنه فعل السنة إلا بعدها ولم يرد قبلها شيء .

وهذا ما فعل في كتاب العيدين ، فإنه قال : باب الصلاة قبل العيد وبعدها وقال أبو المعلي : سمعت سعيداً عن ابن عباس أنه كره الصلاة قبل العيد(٢). ثم ذكر حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس « أن النبي ﷺ خرج يوم الفطر فصلى ركعتين لم يصل قبلهما ولا بعدهما ومعه بلال »(٣) فترجم للعيد مثل ما ترجم للجمعة وذكر للعيد حديثاً دالاً على أنه لا تشرع الصلاة قبلها ولا بعدها ، فدل على أن مراده من الجمعة كذلك ، وقد ظن بعضهم أن الجمعة لما كانت بدلاً عن الظهر وقد ذكر في الحديث السنة قبل الظهر وبعدها دلّ على أن الجمعة كذلك ، وإنما قال : « وكان لا يصلي بعد الجمعة حتى ينصرف » بياناً لموضع صلاة السنة بعد الجمعة وأنه بعد الانصراف ، وهذا الظن غلط منه ؛ لأن البخاري قد ذكر في باب التطوع بعد المكتوبة حديث ابن عمر – رضي الله عنه – : صليت مع رسول الله ﷺ سجدتين قبل الظهر وسجدتين بعد الظهر وسجدتين بعد المغرب وسجدتين بعد العشاء وسجدتين بعد الجمعة فهذا صريح في أن الجمعة عند الصحابة صلاة مستقلة بنفسها غير الظهر وإلا لم يحتج إلى ذكرها لدخولها تحت اسم الظهر ، فلما لم يذكر لها سنة إلا بعدها عُلِمَ أنه لا سنة لها قبلها ، ومنهم من احتج بما رواه ابن ماجه في (سننه) عن أبي هريرة وجابر قال : جاء سليك الغطفاني ورسول الله ﷺ يخطب فقال له : « أصليت ركعتين قبل أن تجيء ؟ » قال : لا . قالا : « فصلّ ركعتين وتجوَّزْ فيهما »(٤).

قال أبو البركات ابن تيمية : وقوله : (قبل أن تجيء) يدل على أن هاتين الركعتين سنة الجمعة وليستا تحية المسجد ، قال شيخنا حفيده أبو العباس : وهذا غلط ، والحديث المعروف في (الصحيحين) عن جابر قال : دخل رجل يوم الجمعة ورسول الله ﷺ يخطب فقال : (أصليت ؟) قال : لا . قال : « فصل ركعتين » وقال : « إذا جاء أحدكم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين وليتجوز فيهما »(٥) فهذا هو المحفوظ في هذا الحديث ، وأفراد ابن ماجه في الغالب غير صحيحة ، هذا معنى كلامه .

---

(١) أنظر صحيح البخارى بحاشية السندى (باب الصلاة بعد الجمعة وقبلها) حـ ١ ص ١٦٧

(٢) ،(٣) صحيح البخارى بحاشية السندى (باب العيدين) باب الصلاة قبل العيد وبعدها حـ ١ ص ١٧٦

(٤) سنن ابن ماجه (كتاب إقامة الصلاة) باب فيمن دخل المسجد والإمام يخطب حـ ١ ص ٣٥٣ ، ٣٥٤ رقم ١١١٤ وأنظر سنن أبى داود حـ ١ ص ٢٩١ رقم ١١١٦

(٥) اللؤلؤ والمرجان (كتاب الجمعة) باب التحية والإمام يخطب حـ ١ ص ١٦٨ وهذا مركب من حديثين متتاليين برقمى ٥٠٢ ، ٥٠٣ وليس فيهما « وليتجوز فيهما » وقد وردت هذه العبارة فى رواية أبى داود حـ ١ ص ٢٩٢ رقم ١١١٧ من رواية جابر — رضى الله عنه .

وقال شيخنا أبو الحجاج الحافظ المزي : هذا تصحيف من الرواة ، إنما هو (أصليت قبل أن تجلس) فغلط فيه الناسخ ، وقال : وكتاب ابن ماجه إنما تداولته شيوخ لم يعتنوا به بخلاف صحيحي البخاري ومسلم فإن الحفاظ تداولوهما واعتنوا بضبطهما وتصحيحهما ، قال : ولذلك وقع فيه أغلاط وتصحيف .

قلت : ويدل على صحة هذا أن الذين اعتنوا بضبط سنن الصلاة قبلها وبعدها وصنفوا في ذلك من أهل الأحكام والسنن وغيرها لم يذكر واحد منهم هذا الحديث في سنة الجمعة قبلها ، وإنما ذكروه في استحباب فعل تحية المسجد والإمام على المنبر ، واحتجوا به على من منع من فعلها في هذه الحال ، فلو كانت هي سنة الجمعة لكان ذكرها هناك ، والترجمة عليها وحفظها وشهرتها أولى من تحية المسجد ، ويدل عليه أيضاً أن النبي ﷺ لم يأمر بهاتين الركعتين إلا الداخل لأجل أنها تحية المسجد ، ولو كانت سنة الجمعة لأمر بها القاعدين أيضاً ولم يخص بها الداخل وحده . ومنهم من احتج بما رواه أبو داود في (سننه) قال : حدثنا مسدّد قال : حدثنا إسماعيل ، حدثنا أيوب عن نافع قال ن: كان ابن عمر يطيل الصلاة قبل الجمعة ، ويصلي بعدها ركعتين في بيته ، وحدث أن رسول الله ﷺ « كان يفعل ذلك »[1] وهذا لا حجة فيه على أن للجمعة سنة قبلها وإنما أراد بقوله : إن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك أنه كان يصلي ركعتين بعد الجمعة في بيته ، لا يصليهما في المسجد ، وهذا هو الأفضل فيهما كما ثبت في (الصحيحين) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان يصلي بعد الجمعة ركعتين في بيته[2] وفي (السنن) عن ابن عمر أنه إذا كان بمكة فصلى الجمعة تقدم فصلى ركعتين ، ثم تقدم فصلى أربعاً ، وإذا كان بالمدينة صلى الجمعة ثم رجع إلى بيته فصلى ركعتين ولم يصل بالمسجد ، فقيل له ، فقال : كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك[3]. وأما إطالة ابن عمر الصلاة قبل الجمعة فإنه تطوع مطلق ، وهذا هو الأولى لمن جاء إلى الجمعة أنه يشتغل بالصلاة حتى يخرج الإمام .

قال أبو هريرة عن النبي ﷺ : « من اغتسل يوم الجمعة ثم أتى المسجد فصلى ما قدر له ثم أنصت حتى يفرغ الإمام من خطبته ثم يصلي معه غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى وفضل ثلاثة أيام »[4] وفي حديث نبيشة الهذلي : « إن المسلم إذا اغتسل يوم الجمعة ثم أقبل إلى المسجد لا يؤذي أحداً ، فإن لم يجد الإمام خرج صلى ما بدا له ، وإن وجد الإمام خرج جلس فاستمع وأنصت حتى يقضي الإمام

---

(١) أنظر سنن أبي داود (كتاب الصلاة) باب الصلاة بعد الجمعة حـ ١ ص ٢٩٤ رقم ١١٢٨

(٢) اللؤلؤ والمرجان (باب فضل السنن الراتبة قبل الفرائض وبعدهن وبيان عددهن حـ ١ ص ١٤٢ رقم ٤٢٣ ولفظه (وهو لفظ مسلم) : « صليت مع النبى ﷺ سجدتين قبل الظهر ، وسجدتين بعد الظهر ، وسجدتين بعد المغرب ، وسجدتين بعد العشاء ، وسجدتين بعد الجمعة ، فأما المغرب والعشاء ففى بيته »

ولفظ البخارى فى (باب التهجد بالليل) حـ ١ ص ٢٠٤ نفس اللفظ السابق ،

وأما لفظ الحديث الذى معنا فقد رواه أبو داود عن ابن عمر — رضى الله عنهما — حـ ١ ص ٢٩٥ رقم ١١٣٢ وفى سنن ابن ماجه حـ ١ ص ٣٥٨ رقم ١١٣١ وسنن الترمذى حـ ٢ ص ٣٩٩ رقم ٥٢١

(٣) أنظر سنن أبى داود (كتاب الصلاة) باب الصلاة بعد الجمعة حـ ١ ص ٢٩٤ رقم ١١٣٠

(٤) أنظر صحيح مسلم بشرح النووى (باب فضل من استمع وأنصت للخطبة) حـ ٦ ص ١٤٦

جمعته وكلامه ، إن لم يغفر له في جمعته تلك ذنوبه كلها أن تكون كفارة للجمعة التي تليها »[١] هكذا كان هدى الصحابة – رضي الله عنهم – .

قال ابن المنذر : روينا عن ابن عمر : أنه كان يصلي قبل الجمعة ثنتى عشرة ركعة .

وعن ابن عباس أنه كان يصلي ثماني ركعات ، وهذا دليل على أن ذلك كان منهم من باب التطوع المطلق ، ولذلك اختلف في العدد المروي عنهم في ذلك . وقال الترمذي في (الجامع) : وروى عن ابن مسعود أنه كان يصلي قبل الجمعة أربعاً وبعدها أربعاً[٢] وإليه ذهب ابن المبارك والثوري .

وقال إسحاق بن إبراهيم بن هانىء النيسابوري : رأيت أبا عبد الله إذا كان يوم الجمعة يصلي إلى أن يعلم أن الشمس قد قاربت أن تزول ، فإذا قاربت أمسك عن الصلاة حتى يؤذن المؤذن ، فإذا أخذ في الآذان قام فصلى ركعتين أو أربعاً يفصل بينهما بالسلام ، فإذا صلى الفريضة انتظر في المسجد ، ثم يخرج منه فيأتي بعض المساجد التي بحضرة الجامع فيصلي فيه ركعتين ثم يجلس ، وربما صلى أربعاً ثم يجلس ، ثم يقوم فيصلي ركعتين أخريين ، فتلك ست ركعات على حديث علي ، وربما صلى بعد الست ستاً أخر ، أو أقل أو أكثر ، وقد أخذ من هذا بعض أصحابه رواية : أن للجمعة قبلها سنة ركعتين أو أربعاً ، وليس هذا بصريح بل ولا ظاهر ، فإن أحمد كان يمسك عن الصلاة في وقت النهي فإذا زال وقت النهي قام فأتم تطوعه إلى خروج الإمام ، فربما أدرك أربعاً وربما لم يدرك إلا ركعتين ، ومنهم من احتج على ثبوت السنة قبلها بما رواه ابن ماجه في (سننه) : حدثنا محمد بن يحيى ، حدثنا يزيد بن عبد ربه ، حدثنا بقية ، عن مبشر بن عبيد ، عن حجاج بن أرطاة ، عن عطية العوفي ، عن ابن عباس قال : « كان النبي ﷺ يركع قبل الجمعة أربعاً لا يفصل في شيء منهن »[٣] . قال ابن ماجه : باب الصلاة قبل الجمعة فذكره .

وهذا الحديث فيه عدة بلايا إحداها : بقية بن الوليد : إمام إلمدلسين ، وقد عنعنه ولم يصرح بالسماع .

الثانية : مبشر بن عبيد المنكر الحديث ، وقال عبد الله بن أحمد : سمعت أبي يقول : شيخ كان يقال له : مبشر بن عبيد كان بحمص أظنه كوفياً ، روى عنه بقية وأبو المغيرة ، أحاديثه أحاديث موضوعة كذب ، وقال الدارقطني : مبشر بن عبيد متروك الحديث ، أحاديثه لا يتابع عليها .

الثالثة : الحجاج بن أرطأة الضعيف المدلس .

الرابعة : عطية العوفي ، قال البخاري : كان هشيم يتكلم فيه ، وضعفه أحمد ، وقال البيهقي : عطية العوفي لا يحتج به . ومبشر بن عبيد الحمصي منسوب إلى وضع الحديث . والحجاج بن أرطأة

(١) أنظر مسند الإمام أحمد (حديث نبيشة الهذلى — رضى الله عنه) حـ ٥ ص ٧٥

(٢) أنظر سنن الترمذى (أبواب الجمعة) باب ماجاء فى الصلاة قبل الجمعة وبعدها حـ ٢ ص ٤٠١

(٣) أنظر سنن ابن ماجه (كتاب إقامة الصلاة) باب ماجاء فى الصلاة قبل الجمعة حـ ١ ص ٣٥٨ رقم ١١٢٩ وقال : فى الزوائد : إسناده مسلسل بالضعفاء ، عطية متفق على ضعفه . وحجاج مدلس ومبشر بن عبيد كذاب . وبقية — هو ابن الوليد — مدلس .

لا يحتج به . قال بعضهم : ولعل الحديث انقلب على بعض هؤلاء الثلاثة الضعفاء لعدم ضبطهم وإتقانهم ، فقال : قبل الجمعة أربعاً ، وإنما هو بعد الجمعة ، فيكون موافقاً لما ثبت في (الصحيح) .

ونظير هذا : قول الشافعي في رواية عبد الله بن عمر : العمري : (للفارس سهمان وللراجل سهم) قال الشافعي : كأنه سمع نافعاً يقول : للفرس سهمان وللراجل سهم ، فقال للفارس سهمان وللراجل سهم حتى يكون موافقاً لحديث أخيه عبيد الله ، قال : وليس يشك أحد من أهل العلم في تقديم عبيد الله بن عمر على أخيه عبد الله في الحفظ .

قلت : ونظير هذا ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية في حديث أبي هريرة : « لا تزال جهنم يُلقى فيها وهي تقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه فيزوى بعضها إلى بعض ، وتقول : قط قط . وأما الجنة : فينشيء الله لها خلقاً »[1] فانقلب على بعض الرواة فقال : أما النار فينشيء الله لها خلقاً .

قلت : ونظير هذا حديث عائشة : « إن بلالاً يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم »[2] وهو في (الصحيحين) فانقلب على بعض الرواة فقال : « ابن أم كلثوم يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى يؤذن بلال » .

ونظيره أيضاً عندي حديث أبي هريرة : « إذا صلى أحدكم فلا يبرك كما يبرك البعير ، وليضع يديه قبل ركبتيه »[3] وأظنه وهم - والله أعلم - فيما قاله رسوله الصادق المصدوق (وليضع ركبتيه قبل يديه) كما قال وائل ابن حجر : كان رسول الله ﷺ إذا سجد وضع ركبتيه قبل يديه ، وقال الخطابي وغيره :

وحديث وائل بن حجر أصح من حديث أبي هريرة .

وكان ﷺ إذا صلى الجمعة دخل إلى منزله فصلى ركعتين سنتها ، وأمر من صلاها أن يصلي بعدها أربعاً ، قال شيخنا أبو العباس بن تيمية : إن صلى في المسجد صلى أربعاً ، وإن صلى في بيته صلى ركعتين ، قلت : وعلى هذا تدل الأحاديث وقد ذكر أبو داود عن ابن عمر أنه كان إذا صلى في المسجد صلى أربعاً ، وإذا صلى في بيته صلى ركعتين .

وفي الصحيحين عن ابن عمر أن النبي ﷺ كان يصلي بعد الجمعة ركعتين في بيته[4].

---

(١) فى صحيح مسلم بشرح النووى حـ ١٧ ص ١٨٢ رواية أبى هريرة ، ولكن بغير هذا اللفظ ، ولفظها : « تحاجت الجنة والنار ... ... » الحديث ، وأما لفظ : « لاتزال جهنم ... » الحديث فهو من رواية أنس بن مالك ص ١٨٤ من نفس المصدر .

(٢) اللؤلؤ والمرجان (كتاب الصيام) باب بيان أن الدخول فى الصوم يحصل بطلوع الفجر ... الخ حـ ٢ ص ٢٤٢ رقم ٦٦٣ مع إختلاف فى بعض الألفاظ .

(٣) أنظر سنن أبى داود (كتاب الصلاة) باب كيف يضع ركبتيه قبل يديه حـ ١ ص ٢٢٢ رقم ٨٤٠ إلا أنه قال : « إذا سجد أحدكم ... » الحديث . بدلا من « إذا صلى أحدكم ... » الحديث

(٤) صحيح مسلم بشرح النووى (باب الصلاة بعد الجمعة) حـ ٦ ص ١٦٩ ، ١٧٠ وليس الحديث فى البخاري ، اللهم إلا الحديث السابق فى بيان ما كان يصلى رسول الله ﷺ من الروايت ، وهو برقم ٤٢٣ فى اللؤلؤ والمرجان .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : « إذا صلى أحدكم الجمعة فليصل بعدها أربع ركعات »[1] والله أعلم .

عود على بدء

وبعد ما طالت مسيرتنا في رحاب التفسير لهذا النص الكريم نعيد هنا موجزاً لتفسيره فنقول وبالله التوفيق :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ۚ قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ۚ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾

المفـــردات :

﴿ **نودي للصلاة** ﴾ : أذن لها . ﴿ **يوم الجمعة** ﴾ : هو اليوم المعروف من أيام الأسبوع ، وتصلى فيه صلاة الجمعة . ﴿ **فاسعوا** ﴾ : فامضوا إلى ذكر الله بقصد حسن . ﴿ **وذروا البيع** ﴾ : اتركوه . ﴿ **قضيت الصلاة** ﴾ : أديت وفرغ منها . ﴿ **انفضوا إليها** ﴾ : أسرعوا لها .

أضـــواء كاشـــفة

خاطب الله – سبحانه وتعالى – المؤمنين خاصة بهذا النداء تشريعاً لهم وتكريماً ، وليعلموا أن إيمانهم يقتضي الإسراع في إجابة هذا الطلب وتحقيق الأمر . يا أيها المؤمنون إذا أذن لصلاة الجمعة في يوم الجمعة فالواجب عليكم أن تسعوا إلى ذكر الله سعياً يتحقق به شهود الصلاة وحضورها من أولها لتحصلوا على الثواب كاملاً ، والمطلوب هو السعي بالإقدام والعمل مع الإخلاص بقلوب ذاكرة ونفوس راغبة في الحضور والمشاهدة بين يدي الله – جل جلاله – .

اسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع والشراء وما شابههما .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (باب الصلاة بعد الجمعة) حـ ٦ ص ١٦٨ إلا أنه قال : « فليصل أربعا » مكان « فليصل أربع ركعات »

ومن الذي تجب عليه الجمعة ويجب عليه السعي لها ؟ هم الرجال المقيمون الأحرار الذين لا عذر لهم ، وما المراد بهذا النداء ؟ هل هو الأذان الأول أو هو الأذان الذي بين يدي الخطيب ؟

الذي كان أيام النبي ﷺ أنه كان يؤذن المؤذن بين يديه ثم يقيم الصلاة ، والأذان الأول حصل أيام عثمان ، وعلى ذلك فالمراد هو الأذان الثاني لا الأول ، ولكن في الواقع أن الاستعداد المعقول في هذه الأيام يقتضي أن يترك البيع ونسعى للصلاة عند سماع الأذان الأول حتى يكمل الاستعداد للصلاة بهدوء وطمأنينة .

وقد ورد حديث عن النبي ﷺ : « من ترك الجمعة ثلاث مرات تهاوناً بها طبع الله على قلبه »[1] والجمعة كأي صلاة يلزمها الوضوء والطهارة ويسن لها الغسل .

فإذا قضيت آلصلاة ، وفرغتم منها فانتشروا في الأرض للتجارة والتصرف في حوائجكم وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً رجاء أن تكونوا من الفالحين ، وروى عن بعضهم أنه كان يقول عقب صلاة الجمعة : اللهم إني أجبت دعوتك وصليت فريضتك وانتشرت كما أمرتني فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين .

روى أن النبي ﷺ كان يخطب قائماً يوم الجمعة ، فجاءت عير من الشام فانفتل الناس إليها حتى لم يبق إلا إثنا عشر رجلاً ، فأنزلت هذه الآية ﴿ **وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً** ﴾[2].

قل لهم : ما عند الله من الثواب الجزيل والفضل العميم والرزق الواسع والبركة التي يعطيها بعض عباده خير من اللهو ومن التجارة التي تسرعون إليها قصداً ، والله وحده خير الرازقين ، فاطلبوا منه الرزق واستعينوا بطاعته على نيل ما عنده من خيري الدنيا والآخرة .

---

(١) انظر سنن أبي داود حـ ١ ص ٢٧٦ رقم ١٠٥٢ وسنن الترمذى حـ ٢ ص ٣٧٣ رقم ٥٠٠ والنسائى حـ ٣ ص ٨٨ وابن ماجه حـ ١ ص ٣٥٧ رقم ١١٢٥

(٢) انظر اللؤلؤ والمرجان حـ ١ ص ١٦٧ رقم ٥٠٠ باب قوله تعالى : (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما) من رواية جابر بن عبد الله ــ رضى الله عنه .

سورة المنافقون

مقدمة

قال صاحب البصائر :

السورة مدنية بالاتفاق . آياتها إحدى عشرة . كلماتها مائة وثمانون . حروفها سبعمائة وستة وسبعون . فواصل آياتها (نون) سميت سورة المنافقين بمفتتحها .

فعظم مقصود السورة : تقريع المنافقين وتبكيتهم ، وبيان ذلهم وكذبهم ، وذكر تشريف المؤمنين وتبجيلهم ، وبيان عزهم وشرفهم ، والنهي عن نسيان ذكر الحق - تعالى - والغفلة عنه ، والإخبار عن ندامة الكفار بعد الموت ، وبيان أنه لا تأخير ، ولا إمهال بعد حلول الأجل ، في قوله : ﴿ **ولن يؤخر الله نفساً** ﴾ ... الآية .

وليس فيها ناسخ ولا منسوخ .

المتشابهات :

قوله : ﴿ **ولكن المنافقين لا يفقهون** ﴾ وبعده : ﴿ **لا يعلمون** ﴾ ، لأن الأول متصل بقوله : ﴿ **ولله خزائن السموات والأرض** ﴾ وفي معرفتها غموض يحتاج إلى فطنة ، والمنافق لا فطنة له ، والثاني متصل بقوله : ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون** ﴾ أي : لا يعلمون بأن الله معز لأوليائه ومذل لأعدائه .

فضل السورة :

روى فيه من الأحاديث المردودة حديث أبيّ : من قرأها بريء من النفاق ، وحديث علي : « يا علي من قرأها أعطاه الله مثل ثواب من أنفق حمل بعير ديناراً في طاعة الله ، وخرج من الدنيا على رضا الله ، وله مثل ثواب من يقضي دين أبويه بعد موتهما ، وجعل الله اثنى عشر منافقاً فداه من النار » .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ

ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ * وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟
تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ
فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ
رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ
أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ
وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن
رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ
وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

معاني المفردات

﴿ **جاءك المنافقون** ﴾ : حضروا مجلسك . ﴿ **نشهد** ﴾ : نحلف ، ولا شك أن الحلف والشهادة كل فيهما إثبات لأمر معين . ﴿ **جنة** ﴾ : سترة ووقاية . ﴿ **فطبع** ﴾ : ختم عليها بالخاتم . ﴿ **خشب مسندة** ﴾ : أي خشب ممالة إلى الجدار . ﴿ **قاتلهم** ﴾ : لعنهم وطردهم . ﴿ **يؤفكون** ﴾ : يصرفون عن الحق إلى الباطل . ﴿ **لووا رءوسهم** ﴾ : عطفوها وأمالوها إلى غير جهة . ﴿ **ينفضوا** ﴾ : يتفرقوا . ﴿ **العزة** ﴾ : العزة .

روى البخاري عن زيد بن أرقم قال : كنت مع عمي فسمعت عبد الله بن أبي بن سلول يقول : « لا تنفقوا على من عند رسول الله حين ينفضوا » وقال : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » فذكرت ذلك لعمي فذكر عمي لرسول الله ﷺ فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبيّ وأصحابه ، فحلفوا ما قالوا ، وصدقهم رسول الله وكذبني ، فأصابني هم لم يصبني مثله ، فجلست في بيتي فأنزل الله - عز وجل - : « إذا جاءك المنافقون - إلى قوله - هم الذين يقولون لاتنفقوا على من عند رسول الله - إلى قوله - : ليخرجن الأعز منها الأذل » . فأرسل إليّ رسول الله ﷺ ثم قال : « إن الله صدقك »[1] .

(١) رواه البخارى فى صحيحة فى (كتاب التفسير) تفسير سورة المنافقون حـ ٣ ص ٢٠٢ (أنظر صحيح البخارى بحاشية السندى)

أضـــواء كاشـــفة :

إذا جاءك المنافقون وحضروا مجلسك قالوا بألسنتهم : نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله حقاً والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ، فالتكذيب من الله لهم ليس لقولهم : إنك لرسول الله ولكنه راجع إلى ادعائهم الصدق والموافقة في الشهادة بين اللسان والقلب ، ولا شك أنهم كاذبون في قولهم هذا لأنهم لا يؤمنون به بناء على أن الكذب ما خالف الاعتقاد .

اتخذوا أيمانهم التي تعودوا الحلف بها كذباً ، اتخذوها جنة لهم ووقاية ، فهم كلما ظهر منهم شيء يوجب المؤاخذة حلفوا عليه كاذبين عصمة لأموالهم ودمائهم – كما روى البخاري في سبب النزول – واتخاذ الأيمان جنة عبارة عن إعدادهم وتهيئتهم لها إلى وقت الحاجة ليحلفوا ويتخلصوا من المؤاخذة ، فهم صدوا عن سبيل الله من أراد الدخول في الإسلام واستمروا على ذلك ، وقرىء ﴿ **إيمانهم** ﴾ والمراد ماكانوا يظهرونه من إسلام ليكون وقاية لهم من القتل أو الأسر ، إنهم ما كانوا يعملون من النفاق وما يتبعه .

ذلك – والإشارة إلى أنهم أسوأ الناس عملاً ، أو إلى ما حكى من نفاقهم وكذبهم وأيمانهم – بسبب أنهم آمنوا نفاقاً وكذباً ، ثم كفروا ، أي : ظهر كفرهم من أقوالهم ، وأفعالهم ، فطبع على قلوبهم وختم عليها بالخاتم حتى لا يدخلها نور الحق ، فهم لا يفقهون الحق والطريق السوي .

وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم لقوتها وتناسب أعضائها ، وإن يقولوا تسمع لقولهم لفصاحته وذلاقة ألسنتهم وحسن كلامهم في الدنيا ، والخطاب في الآية لكل من يصلح للخطاب ، وهو لسيد المخاطبين ﷺ وكانوا يحضرون مجلس الرسول كأنهم خشب مسندة ، شبهوا وهم جالسون مستندون إلى الحائط بالخشب المسندة ؛ إذ لا روح فيهم يعقل ، ولا بصيرة تبصر الخير والحق ، فهم كما نقول : **نضد أو** كراسي .

وهم لفرط هلعهم وشدة خوفهم من أن ينزل فيهم قرآن يفضحهم ، وسوء طويتهم ، يحسبون كل صيحة واقعة عليهم ، هم العدو الكاملون في العداوة ، إذ لا أحطَّ من العدو المنافق الذي يضحك لك ، وقلبه يتميز غيظاً منك ، فاحذرهم لكونهم أعدى الأعادي ، ولا تقربهم ، قاتلهم الله ، أي : لعنهم وطردهم من رحمته ، والكلام دعاء وطلب من ذاته – تعالى – أن يلعنهم هو ويطردهم ، أو هو تعليم للمؤمنين أن يدعوا على المنافقين بذلك ... أنى يؤفكون ؟ أي : كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل والكفر الذي هم فيه .

وإذا قيل لهم : تعالوا إلى رسول الله يستغفر لكم عما فرط منكم أشاحوا برءوسهم وعطفوها كبراً وإعراضاً عن هذا الطلب واستهزاءاً به ! ... ورأيتهم يصدون جاهدين عن سبيل الله غيرهم وهم مستكبرون .

سواء عليهم استغفارك لهم وعدمه فإنهم لن ينتفعوا به ولن يؤمنوا ؛ **لأن الله لن يغفر لهم ؛ إن الله لا يهدي القوم الفاسقين** ، ولا غرابة في وصفهم بالفسق والخروج عن حدود الدين والعرف ، فهم يقولون لأصحابهم من الأنصار : لا تنفقوا على من عند رسول الله من المهاجرين حتى ينفضوا ويتفرقوا عنه ؟ عجباً لهؤلاء ؟ : أما علموا أن في السماء الرزق وأن لله خزائن السموات والأرض وأنه هو الرزاق ذو القوة المتين ، ولكن المنافقين لا يفقهون ذلك ، يقولون : لئن رجعنا إلى المدينة من غزوة بني المصطلق ليخرجن الأعز منها – أرادوا أنفسهم – الأذل من المهاجرين وأصحاب رسول الله بئسما قالوا ، والحال أن العزة والقهر والغلبة لله على أعدائه ، ولرسوله العزة بنصرة دينه وإظهاره على الأديان كلها ، وللمؤمنين العزة بنصرهم على أعدائهم وخاصة من يقول هذا الكلام السابق ، ولكن المنافقين لا يعلمون ذلك .

أرأيت إلى المنافقين وإيمانهم الكاذب وأيمانهم وشهادتهم ؟ والله يعلم إنهم لكاذبون – انظر إليهم وقد اتخذوا أيمانهم جنة لهم ، وقد صدوا عن سبيل الله وساء عملهم ، وهم في المجالس كالخشب المسندة ويظنون أن كل صيحة واقعة عليهم ، وهم الذين يدعون غيرهم إلى الإمساك والشح لقصر عقولهم ، ويتعاهدون على إخراج المؤمنين ، معتزين بالباطل والغرور ، ولكن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ﴿ **إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار** ﴾[1] .

كلمــة عن النفــاق

النفاق : ضد الإخلاص .. فإذا كان الإخلاص هو أن يقصد العبد بعمله وجه الله تعالى فإن النفاق على النقيض من ذلك . حيث يكون المقصود بالعمل غير الله ، ومن ثم لا يكون هناك إخلاص ، وعندها تختل الموازين وتنهار القواعد ويهتز المجتمع . فإذا كان الإخلاص هو حجر الأساس في بناء النفوس : فإن النفاق أكبر معول يحطم النفوس .

والنفاق : ضد الإيمان ، والمنافقون – في كل زمان ومكان – عالة على المجتمعات في السراء ، وسوس ينخر في عظام الأمة ساعة الضراء ، لا يعدون للجهاد عدة ، ولا يتمنون للمجاهدين عودة .

﴿ **يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هٰهنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم** ﴾[2] .

﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غُزًى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير** ﴾[3] .

---

(١) من الآية : ١٤٥ من سورة النساء

(٢) من الآية ١٥٤ من سورة آل عمران .

(٣) الآية : ١٥٦ من سورة آل عمران .

﴿ الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾[١].

هذه أقوال أصحاب الرياء والنفاق في تثبيط الهمم وتحبيط العزائم : ﴿ لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالاً ﴾[٢].

إن الله – جل جلاله – يحب المخلصين ويبغض أهل الرياء المنافقين ، لقد حكم بالعذاب في جهنم على نماذج من الناس : أفواههم معسولة وقلوبهم أمر من الصبر .. يلقاك أحدهم عناقاً ، ويقسم أنه لا يطيق لك فراقاً .. ملاك في مظهره ، شيطان في مخبره ... يلقاك بوجه أبي ذر وقلب أبي جهل .

يقول الله – جل في علاه – : ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام * وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد * وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد ﴾[٣].

أقسام النفاق

والنفاق أقسام ثلاثة : نفاق في العقيدة : يضمر صاحبه الكفر في قلبه ويظهر الإسلام على لسانه .

ونفاق في العبادة : يدخل منها على حرف غير متمكن ولا متثبت .

ونفاق في المعاملة : لا يعامل الناس بما يتفق وقواعد الأخلاق الإسلامية . وقد أفاض الكتاب العزيز والسنة المطهرة في بيان هذه الأقسام ، والتحذير منها ، نوضحها فيما يلي :

النفاق في العقيدة

يقول – جل جلاله – في هؤلاء :

﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين * يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾[٤].

ثم تبين الآيات الكريمة أن ما أصاب هؤلاء ليس مرضاً جسمانياً في عضو من أعضائهم ، أو مرضاً فسيولوجياً في قلوبهم ، إنما هو مرض من أخطر الأمراض ... إنه مرض النفاق :

﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾[٥].

---

(١) الآية : ١٦٨ من سورة آل عمران .

(٢) من الآية : ٤٧ من سورة التوبة .

(٣) الآيات : ٢٠٤ – ٢٠٦ من سورة البقرة .

(٤) الآيتان : ٨ ، ٩ من سورة البقرة .

(٥) الآية : ١٠ من سورة البقرة .

ثم يشرح القرآن أعراض هذا المرض ويحكم على كل عرض منه ، فيقول عن هؤلاء :

﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ﴾[١].

فيصدر الحكم الصادق :

﴿ ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾[٢].

ثم يذكر عرضاً آخر فيقول :

﴿ وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ﴾[٣].

فيصدر الحكم الصادق :

﴿ ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ﴾[٤].

ثم يذكر عرضاً ثالثاً فيقول :

﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوْا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾[٥].

فيصدر الحكم الصادق :

﴿ الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون ﴾[٦].

ثم يحكم على هؤلاء جميعاً بقوله – جل شأنه – :

﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾[٧].

ثم يصورهم في مثلين عجيبين : أحدهما للمنافقين الخلص ، الذين لا تشوب قلوبهم شائبة الإخلاص ، ولا تتفتح فيها نافذة تضيء لها طريق المعرفة ، فيقول – تعالى – :

﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون * صم بكم عمي فهم لا يرجعون ﴾[٨].

والمثل الآخر لقوم مترددين متحيرين لا يستقرون على حال ، ولا يثبتون على مبدأ ، فهم في غيِّهم يترددون ... ذلك لأن قلوبهم قد ارتابت وتحيرت ، فيقول :

﴿ أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين * يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا

(١) الآية : ١١ من سورة البقرة .
(٢) الآية : ١٢ من سورة البقرة .
(٣) من الآية : ١٣ من سورة البقرة .
(٤) تكملة الآية : ١٣ من سورة البقرة .
(٥) الآية : ١٤ من سورة البقرة .
(٦) الآية : ١٥ من سورة البقرة .
(٧) الآية : ١٦ من سورة البقرة .
(٨) الآيتان : ١٧ ، ١٨ من سورة البقرة .

أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير ﴾[١].

وتأتي سورة «النساء» لتضيف إلى هذه الأعراض التي ذكرناها أعراضاً أخرى لمرض النفاق .. ففي موطن الجهاد والخروج إلى القتال يقول الله في حق هؤلاء :

﴿ وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً * ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً ﴾[٢].

ويحكم الله على هذا الفريق بقوله :

﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً * الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً * وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذامثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً * الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ﴾[٣].

إذاً : فحياة هؤلاء استغلال وانتهاز الفرص ، وأنانية ، وحقد وحسد .

ثم يذكر القرآن عرضاً آخر لهذا الوباء الخطير والشر المستطير فيقول - سبحانه - :

﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يُراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً * مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴾[٤].

ثم يصدر الحكم الصادق على هؤلاء المنحرفين عن طريق الجاده فيقول :

﴿ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً ﴾[٥].

وبعد أن شخص الكتاب العزيز هذا الداء الوبيل : وصف الدواء ، مهما كان خطر الداء مستفحلاً ، ومهما سرى سريان النار في الحلفاء ، والسم الزعاف في الأحشاء .. إن الدواء الناجح ، والعلاج النافع لهذا المرض يتمثل في :

التوبة ، الإصلاح ، الاعتصام ، الإخلاص .

توبة نصوح إلى الله وإصلاح بين الناس واعتصام بحبل الله وإخلاص لدين الله ، قال - عز من قائل :

---

(١) الآيتان : ١٩ ، ٢٠ من سورة البقرة .

(٢) الآيتان : ٧٢ ، ٧٣ من سورة النساء .

(٣) الآيات : ١٣٨ - ١٤١ من سورة النساء .

(٤) الآيتان : ١٤٢ ، ١٤٣ من سورة النساء .

(٥) الآية : ١٤٥ من سورة النساء .

﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً ﴾(١).

نفـــاق العبـــادة

وهذا النوع الخبيث من النفاق وصف القرآن الكريم أصحابه بأنهم إذا عبدوا الله لا يعبدونه عبادة الواثق المطمئن ، وإنما يدخلون العبادة على جزء يسير وحرف ضعيف ، وطرف غير ثابت : فإن أصابهم خيرٌ من مال وولد وصحة وجاه اطمأنوا لهذا الجزء اليسير من الدين ، وإن أصابتهم فتنة من مرض أو فقر أو ابتلاء انقلبوا على وجوههم خاسرين ، لا يعرفون لله حقاً ، ولا لرسوله واجباً .

لقد صورت الآية هؤلاء تصويراً قوياً ، فقال – سبحانه – :

﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾(٢).

هؤلاء فقدوا أهم صفات الإنسانية الصحيحة : ألا وهي صفة الوفاء ، التي إذا فقدها الإنسان أصبح جسداً لا روح فيه .

النفاق رذيلة والإخلاص فضيلة

من المعلوم الثبوت أن النفاق مرض خطير من أمراض القلوب ، فما هو الحل السليم والقويم لإصلاح القلوب ؟ إنه بناء النفوس على البر والتقوى ، وكيف يكون ذلك كذلك ؟ نقول – وبالله التوفيق – :

الحمد لله رب العالمين ، جعل مع الصبر نصراً ومع الضيق فرجاً ، ومع كل شدة مخرجاً ومع العسر يسراً ، وجعل لكل بداية نهاية : فالليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلابد من دخول القبر .

وأشهد أن لا إله إلا الله : من استغفره ألبسه ثوب العزة وأغناه عن الناس .. قيل لتقي الدين الحسن البصري – رضي الله عنه – : ما سر زهدك في الدنيا ؟ فقال : أربعة أشياء : علمت بأن رزقي لا يأخذه غيري فاطمأن قلبي ، وعلمت أن عملي لا يقوم به غيري فاشتغلت به ، وعلمت أن الله مطلع عليّ فاستحييت أن يراني على معصية ، وعلمت أن الموت ينتظرني فأعددت الزاد للقاء الله !

يا أخـــا الإســـلام :

سـهرت أعـين ونامـت عيـون ... في شئون تكون أو لا تكـون

إن ربماً كفـاك بالأمس ما كـان ... سيكفيـك في غـدٍ ما يكـون

---

(١) الآية : ١٤٦ من سورة النساء .

(٢) الآية : ١١ من سورة الحج .

وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمداً رسول الله ، وقف مواقف الأبطال في ساعات الشدة .. فعندما صمتت الألسنة ، ونطقت الأسنة ، وخطبت السيوف على منابر الرقاب : وقف في حومة الوغى ، يدفعه إيمانه وتحفزه عقيدته يقول :

« أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب » .

سيدي أبا القاسم يا رسول الله :

الحق أنت ، وأنت إشراق الهدى ولك الكتاب الخالد الصفحـــات
من يقصد الدنيا بغيرك يلقهــــا تيهاً من الأهـوال والظلمــــات

صلى عليك الله يا علم الهدى ، ما هبت النسائم ، وما ناحت على الأيك الحمائم .

أمـا بعـــــد :

فقد ألقيت نظرة في رحاب الكون ، وطاف الفكر بأرجاء الحياة ، فوجدت هذه الدنيا مليئة بالزخارف البراقة التي تخدع النفوس ، ورأيت لماديات الحياة تأثيراً قد بلغ مداه في الأعماق ، فانصرفت بعض النفوس عن طريق الجادة وتنكبت نفوس أخرى الصراط السوي ، فاهتزت واضطربت تلك .. ذلك لأن الدنيا إذا تملكت النفوس ، وتربعت على عرش القلوب : حجبتها عن رؤية الحقيقة العليا ، فترى هذه النفوس حائرة : مرة تتخبط في دياجير الظلام ، وتراها يائسة مرة أخرى .. فهي في حالة السراء جاحدة ، وفي حالة الغداء يائسة ، وكلا الأمرين أحلاهما مر :

﴿ **إن الإنسان خلق هلوعاً * إذا مسه الشر جزوعاً * وإذا مسه الخير منوعاً** ﴾[1]. ثم استثنى الله – جل شأنه – من هذا النوع نوعاً جديراً بالسعادتين : الدنيوية والأخروية ، فقال في شأنه :

﴿ **إلا المصلين * الذين هم على صلاتهم دائمون * والذين في أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم * والذين يصدقون بيوم الدين * والذين هم من عذاب ربهم مشفقون * إن عذاب ربهم غير مأمون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين بشهاداتهم قائمون * والذين هم على صلاتهم يحافظون * أولئك في جنات مكرمون** ﴾[2].

يا أخــا الإســلام :

قد يكون بناء القصور وتشييد البروج وناطحات السحاب أمراً سهلاً يرجع إلى المهارة في فن العمارة ، ولكن : ما أصعب بناء النفوس ؛ فإن بناءها سر من الأسرار الذي لا يقوى عليه إلا الذين صبروا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله .. إذ أن هذه رسالة الأنبياء ، وغاية المخلصين ، وتجارة مع الله لكل من دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين .

(١) الآيات : ١٩ – ٢١ من سورة المعارج .

(٢) الآيات : ٢٢ – ٣٥ من سورة المعارج .

ولذلك فإن بناء النفوس وتشييدها على أساس الحق ، وتزكيتها بالصلاح والطهر ، مطلب عظيم ، وغاية عليا ، وهدف من أعز الأهداف .. وقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – في مسجد النبي – صلوات الله عليه – يقول لبعض الصحابة : « ليذكر لي كل منكم أعظم شيء يتمناه ، قال أحدهم : أتمنى أن يكون لي مثل أحد ذهباً أنفقه في سبيل الله ، وقال آخر : أتمنى أن يكون لي ملء المدينة خيلاً أغزو به في سبيل الله ، وقال ثالث : أتمنى أن يكون لي ألف عبد أعتقهم ابتغاء مرضاة الله .. وأخذ كل منهم يذكر ما يتمنى ، وأمير المؤمنين يدير النقاش بينهم ، ثم توجهوا إليه قائلين : فماذا تتمنى أنت يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر : أتمنى ملء هذا المسجد رجالاً أمثال أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – !

طيب الله ثراك يا عمر : فقد أصبت كبد الحقيقة ، وتمنيت المطلب الأعظم ؛ فأمثال أبي بكر – من ذوي النفوس المطمئنة ، والأفئدة البصيرة ، هم الذين يملأون الكون أمناً وسلاماً ورحمة ووئاماً وإعزازاً وإكراماً ... لأنها نفوس كان الحق هدفها ، والخير غايتها ، والقرآن إمامها ، والرسول أستاذها ... نفوس كان أساسها توحيد الله ، وسلوكها طاعة الله !

إنه اليقين إذ عمر القلوب ، والإخلاص إذا أضاء النفوس !

﴿ **ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً** ﴾[(١)].

وما أعظم الإيمان في بناء النفوس ، وما أجل رسالة التوحيد في تقويمها :

﴿ **ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها** ﴾[(٢)].

« فاللهم إنا نسألك العافية في الدين والدنيا ، والعصمة من كل ذنب ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل بر .

العقيدة وأثرها في التربية

إذا بلغت النفس البشرية المؤمنة الذروة في الاقتناع فإنها تصير أشد ثباتاً من الجبال الشم ، والرواسي الشامخات ، وإن أجلَّ مثل يوضح لنا هذه القضية موقف الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – يوم أحاطت به الأشرار تحاول أن تطفىء جذوة الإيمان ، فماذا قال ؟ قال كلمته المشهورة التي طالما اهتزت لها أعواد المنابر ، ووصل رنينها إلى أعماق القلوب ، قال بلسان الحق :

« والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه ! » .

---

(١) الآية : ١٩ من سورة الإسراء .

(٢) الآيات : ٧ – ٩ من سورة الشمس .

صدقت يا سيدي يا رسول الله حين قلت ، وعدلت حين حكمت ، وصبرت حتى ابتليت ، وشكرت عندما أعطيت ، وغفرت حينما ظُلِمت .. فعليك صلاة الله وسلامه ، يا من قلت :

« اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » .

إن أثر العقيدة في التربية بعيدُ المدى شديد القوى .. فالنفس صاحبة العقيدة : راسخة البنيان ، وطيدة الأركان ، لا تعبأ بكوارث الأيام وشدائد الحياة ، ولا تنوء تحت الهموم الثقال ، لأنها تحمل بين جنبيها عقيدة الحق : ﴿ **إنا كل شيء خلقناه بقدر** ﴾[1] .

ولأنها واثقة أن هذا الكون لا تهب فيه نسمة هواء ، ولا تطرف فيه عين ، ولا يحدث فيه حدث – صغير أو كبير – إلا بإذن الله :

﴿ **الله يعلم ما تحمل كل أنثى وماتغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار * عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال * سواء منكم من أسر القولَ ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار** ﴾[2] .

التربيــــة في مكـــة

إن الناظر المتأمل في الفترة التي قضاها الرسول ﷺ في مكة بعد البعثة – وهي ثلاثة عشر عاماً – يجد أنها قامت في نهجها على أساسين أكيدين ، ومبدأين راسخين :

المبدأ الأول : العقيدة ، وتتركز في الدعوة إلى الوحدانية ، والإيمان بالبعث .

المبدأ الثاني : يتشمل في تزكية النفس وتطهيرها بالقيم الأخلاقية والمثل العليا ، وفي ذلك المبدأ يقول القرآن الكريم :

﴿ **قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولاتقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون * ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون * وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السُبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** ﴾[3] .

---

(١) الآية : ٤٩ من سورة القمر .

(٢) الآيات : ٨ – ١٠ من سورة الرعد .

(٣) الآيات : ١٥١ – ١٥٣ من سورة الأنعام .

مبدأ التوحيد

وفي مبدأ التوحيد : تتضافر آيات الكتاب العزيز بأدلتها الصريحة الحازمة ،**القطعية الثبوت** . وليس ثمة أدنى شك أن التوحيد دين الفطرة .. قال – جل شأنه – :

﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾(١).

وخاطب القرآن ذوي الأفهام الباصرة فقال – سبحانه – :

﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً ۞ سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ﴾(٢).

وقال – تعالى – وهو يخاطب ذوي العقول والبصائر :

﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾(٣).

ثم يؤكد هذا الجانب تأكيداً ينسجم تمام الانسجام مع ذوي الألباب فيقول – سبحانه – :

﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ۞ عالم الغيب والشهادة فتعالى عمّا يشركون ﴾(٤).

فلو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ، ومن سمائه إلى أرضه ، وقلت له : من خلقك ؟ لقال : أنا مخلوق للواحد الديان ! فما هذه المبدعات الإلهية والآحاد الكونية إلا كلمات ناطقات بلسان أقوى من لسان المقال بأن الله واحد لا شريك له :

﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً ۞ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحي إلى أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾(٥).

واسمع إلى قوله – جل جلاله – :

﴿ ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ﴾(٦).

---

(١) من الآية ٣٠ من سورة الروم .
(٢) الآيتان : ٤٢ ، ٤٣ من سورة الإسراء .
(٣) الآية : ٢٢ من سورة الأنبياء .
(٤) الآيتان : ٩١ ، ٩٢ من سورة المؤمنون .
(٥) الآيتان : ١٠٩ ، ١١٠ من سورة الكهف .
(٦) الآية : من سورة لقمان .

أخـا الإسـلام :

تأمل في نبات الأرض وانظـر إلى آثـار ما صنـع المليـك
عيـون من لجـين شاخصـات بأبصـار هي الذهـب السبيك
على قضب الزبرجـد شـاهدات بأن الله ليـس لـه شـريك

وقد ألقى القرآن باللائمة ونعى على الذين وصفوا الله بأن له ولداً ، فقال – سبحانه – :

﴿ **بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة** ﴾(١).

وقال جل في علاه :

﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولداً * لقد جئتم شيئاً إدًّا * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا * أن دعوا للرحمن ولداً * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً** ﴾(٢).

وهذا نفر من الجن بعد أن استمع إلى القرآن الكريم أشرق قلبه بنور التوحيد فقال – سبحانه – :

﴿ **إنا سمعنا قرآناً عجباً * يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً * وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً** ﴾(٣).

والله – جل جلاله – تنزه عن الجسمية ، فليس – سبحانه وتعالى – بجسم ، ولا معدود ، ولا محدود ولا متبعض ، ولا متجزىء ولا متلون ، ولا متكيف ؛ ولا يسأل عنه بمتى كان ؛ لأنه خالق الزمان ، ولا بأين هو ؛ لأنه خالق المكان ، وما خطر ببالك : فالله – تعالى – بخلاف ذلك .. وفي ذلك يقول – تبارك وتعالى – قولاً فصلاً :

﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾(٤).

والوحدانية : هي نداء الفطرة السليمة التي لم تكدرها انحرافات الهوى ولم تغيرها اتجاهات مريضة .

وكأنى بذلك الأعرابي الذي كان له صنم يعبده ويقدم له واجبات التقديس والولاء .. يأتي ذات يوم ليسجد أمام صنمه فيجد به بللاً غزيراً ، فيقف عاجباً : ما الذي أحدث البلل بهذا المعبود ؟ ويلتفت حواليه ، فيجد ثعلبين يلعبان بالقرب منه ، فيعلم أنهما (بالا) على صنمه !!

وعندئذ عاد إلى فطرته السليمة ، وأنشد قائلاً :

أَرَبٌّ يـبـول الثعلبان برأسـه ؟ لقد ذل من بالت عليه الثعـالب
فلو كـان ربـاً كان يمنع نفسـه فلا خير في رب نأتـه المطـالب
برئت من الأصنام في الأرض كلها وآمـنـت بالله الذي هـو غـالـب

(١) من الآية : ١٠١ من سورة الأنعام .
(٢) الآيات : ٨٨ – ٩٢ من سورة مريم .
(٣) الآيات : ١ – ٣ من سورة الجن .
(٤) من الآية : ١١ من سورة الشورى .

كل مولـود يولـد على الفطـرة

لقد أخبر الصادق الأمين ﷺ بأن :

« كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه »(١).

ويقول ربنا - تبارك وتعالى - في الحديث القدسي الجليل :

« إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً »(٢).

أخـا الإسـلام :

يكفي كلمة التوحيد شرفاً وقدراً أنها رسالة الأنبياء جميعاً ، قال - تعالى - :

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾(٣).

وقال رسول الله ﷺ :

« أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلي : لا إله إلا الله »(٤).

والعقيدة الصحيحة للمؤمن أن يؤمن إيماناً لا حدود له بأن الله خالق كل شيء ومقدره . يقول - تعالى - في الحديث القدسي الجليل :

يؤذيني ابن آدم : يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر ، أقلب الليل والنهار »(٥).

فليس لنا أن نلقي باللائمة على الأيام والليالي ، فإنها من خلق الله وهذا معنى قوله - تعالى - في الحديث : « وأنا الدهر » أي خالقه :

﴿ الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل ﴾(٦).

﴿ يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾(٧).

﴿ إنا كل شيء خلقْناه بقدر ﴾(٨).

---

(١) أنظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب القدر) باب معنى (كل مولود يولد على الفطرة ... الخ) ص ٧٢٠ ، ٧٢١ رقم ١٧٠٢ من حديث أبي هريرة .

(٢) أنظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها) باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار جـ ١٧ ص ١٩٧ - ١٩٩ وهو جزء حديث طويل من رواية عياض بن حمار المجاشعي ـــ رضى الله عنه .

(٣) الآية : ٢٥ من سورة الأنبياء .

(٤) هذا جزء حديث رواه الإمام مالك فى موطئه فى (كتاب الحج) باب : جامع الحج من رواية طلحة بن عبيد الله بن كريز (أنظر تنوير الحوالك شرح موطأ مالك للسيوطى جـ ١ ص ٣٦٩ طبع مطبعة صبيح ١٣٥٣ هـ)

(٥) أنظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها) باب النهى عن سب الدهر ص ٥٨٤ رقم ١٤٤٩ من رواية أبى هريرة ـــ رضى الله عنه .

(٦) الآية : ٦٣ من سورة الزمر .

(٧) الآية : ٤٤ من سورة النور .

(٨) الآية : ٤٩ من سورة القمر .

أخـا الإسـلام :

عش راضياً واترك دواعي الألـم   واعدل مع الظـالم مهما ظـلـم
نهـاية الدنيـا فنـاء فعـش   فيهـا كريماً واعتبرهـا عـدم

العقيـدة الصحيحـة

العقيدة الصحيحة : هي التي لا يخالج قلب صاحبها شك في قدرة الله وعظمته ، ويوم يتسرب الشك إلى قلبه فقد وقع تحت طائلة المقت والغضب ، وهذا هو حديث ربنا – جل في علاه – يقول فيه :

﴿ كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك ، أما تكذيبه إياي فقوله : لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادتهم ، وأما شتمه إياي فقوله : اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد ﴾[1].

يا مبدع الخلق يا من لا شريك له   طوبى لمن عاش بين الناس يهواك
أني لأعجب ممن قد رأى طرفـا   من فيض جودك –ربي– كيف ينساك
والله ما سعدت روحي ولا فرحـت   في الدهر –ما بقيت– إلا بذكراك!

والعقيدة الصحيحة تقتضي من صاحبها ألا يسند الأمور لغير الله : فالله هو الخالق الذي لا يشاركه في خلقه أحد ، فمن أسند الأمور لغير الله في إيجادها وتقريرها وتدبيرها وتصريف شؤونها فقد أصيب في عقيدته بما يدعوه إلى وجوب تصحيحها :

﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل ﴾[2].

وقد جاء في الحديث الشريف عن زيد بن خالد الجهني – رضي الله عنه – قال : « صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من المدينة ، فلما انصرف النبي ﷺ أقبل على الناس فقال لهم : « هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته : فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب »[3].

وفي هذا الحديث الشريف ما يرشد إلى أن الذين أسندوا فعل المطر إلى فضل الله ورحمته كانوا مؤمنين بالله :

﴿وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد ﴾[4].

---

(١) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى (كتاب التفسير) باب تفسير : **﴿ قل هو الله أحد ﴾** حـ ٣ ص ٢٢٣

(٢) الآية : ١٠٢ من سورة الأنعام .

(٣) اللؤلؤ والمرجان (كتاب الإيمان) باب بيان كفر من قال : مطرنا بالنوء حـ ١ ص ١٤ رقم ٤٦

(٤) الآية : ٢٨ من سورة الشورى .

وأما الذين أسندوا إنزال المطر إلى كوكب من كواكب السماء فقد تنكبوا الجادة وحادوا عن الصراط السوي ؛ وغيرها من المخلوقات لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً ، فهي من باب أوْلى لغيرها كذلك .

﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾(١).

أخا الإسلام :

كن عن همومك معرضاً ... وكِل الأمور إلى القضا
وانعم بطول سلامة ... تسليك عما قد مضى
فلربما اتسع المضيق ... وربما ضاق الفضا
ولرب أمر مسخط ... لك في عواقبه رضا
الله يفعل ما يشاء ... فلا تكن متعرضا

العقيدة ومراقبة الله تعالى

أخي القارىء الكريم :

لما كانت العقيدة هي مركز الدائرة الذي تدور حوله شعائر العبادات ، ومبادىء الأحكام وقواعد النظام فقد حرص الإسلام حرصاً شديداً على أن يحيط ذلك المركز بسياج منيع وأسوار عالية لا **يستطيع الشك أن يلقى ببذوره فى ساحتها المقدسة ، أو أن يقتحم عليها حصونها المنيعة ، اقرأ معى قول الله تبارك وتعالى حيث يؤكد لعباده أنه محيط بكل شيء :**

﴿ ألم تر أن الله يعلم ما في السمٰوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴾(٢).

فهذه الآية بجلالها وعظيم شأنها تملأ قلب المؤمن بمراقبة الله - تعالى - وهيمنة سلطانه ، واطلاعه على الخفايا والأسرار ومكنون الصدور والأخبار ، ثم اقرأ قوله - جل شأنه - :

﴿ يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾(٣).

ثم اسمع إلى موسى وهارون-عليهما السلام . وهما يقولان لرب العزة : **﴿ ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ﴾**(٤).

---

(١) الآية : ٣٧ من سورة فصلت .
(٢) الآية : ٧ من سورة المجادلة .
(٣) من الآية : ٤ من صورة الحديد .
(٤) الآية : ٤٥ من سورة طه .

فإذا قال لهما عالم الغيب والشهادة : ﴿ **قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى** ﴾[(١)].

وما أجلّ قوله - تعالى - في الحديث القدسي الجليل : ﴿ **ما وسعني أرضي ولا سمائي وإنما وسعني قلب عبدي المؤمن** ﴾[(٢)].

فإذا ما حاول الشيطان أن يرسل وساوسه كالطفيليات التي تحاول أن تتغذى على حساب النبات الصالح - فعلى صاحب العقيدة الصحيحة أن يستعيذ بالله منه ولا يعبأ بوساوسه : ﴿ **إن كيد الشيطان كان ضعيفاً** ﴾[(٣)].

يقول - صلوات الله وسلامه عليه - : « يأتي الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا وكذا ؟ حتى يقول له : من خلق ربك ؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته »[(٤)].

وفي حديث آخر : « هذا خلق الله الخلق فمن خلق الله ؟ فمن وجد من ذلك شيئاً : فليقل آمنت بالله » ![(٥)].

الـــداء والـــدواء

صدقت يا سيدي يا رسول الله ، يا من كنت تشخص الداء وتصف الدواء ، فليس أمام وساوس الشيطان وحربه النفسية إلا أن يستعصم الإنسان بربه ، ويثبت قلبه بالقول الثابت ، فما تكون وساوسه بعد ذلك ؟ إنها كذبابة تحاول أن تحجب بجناحها ضوء الشمس أو نور القمر ، وما يكون كيده بإزاء قلب امتلأ بتوحيد الله ؟ إنه مهما حاول بوساوسه أن يغيّر أو يبدل هذه القلوب فإن مثله كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وسرعان ما ينحدر مخذولاً محسوراً كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ، أو كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

الله ربـي لا إلـٰـه سـواه ... هل في الوجود حقيقـة إلاه ؟!
يا من له وجـب الكمـال لذاتـه ... الكل غايـة فوزهـم لقيـاه !

الإيمــان والإخــلاص

الإخلاص : شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .

(١) الآية : ٤٦ من سورة طه .
(٢) أنظر كشف الخناء للعجلوتى حـ ٢ ص ٢٧٣ رقم ٢٢٥٦ وقال : ذكره فى الإحياء وقال العراق : لم أر له أصلا .
(٣) من الآية : ٧٦ من سورة النساء .
(٤) اللؤلؤ والمرجان (كتاب الإيمان) باب الوسوسة فى الإيمان وما يقوله من وجدها حـ ١ ص ٢٦ رقم ٨٢ من رواية أبى هريرة .
(٥) انظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الإيمان) بيان الوسوسة فى الإيمان حـ ٢ ص ١٥٣ فقد رواه من حديث أبى هريرة . وأول التحديث : « لايزال الناس ينساءلون ، حتى يقال : هذا خلق الله ... »

والرياء : شجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار .

القلوب المخلصة ترسل أشعتها فتضيء للناس طريق النجاة ، والقلوب المرائية تفرز سواداً قاتماً وظلمة حالكة تتعثر المجتمعات في سراديب ضلالها .

وقد أمر الله عباده المؤمنين بالإخلاص فقال للمبعوث رحمة للعالمين : ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين** ﴾(١).

وقال : ﴿ **قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين * وأمرت لأن أكون أول المسلمين** ﴾(٢).

وقال : ﴿ **قل الله أعبد مخلصاً له ديني** ﴾(٣).

وقال – سبحانه – ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء** ﴾(٤).

فالإخلاص : هو الروح السارية في الإيمان عقيدة أو عبادة أو معاملة ، وبغير الإخلاص تصبح أعمال المسلم نواة لا روح فيها .

وليس أدل على ذلك من أن الله مدح المخلصين بقوله : ﴿ **إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً** ﴾(٥).

وألقى القرآن باللوم الشديد والزجر العنيف على هؤلاء الذين يراءون الناس ولا يبتغون بأعمالهم ما عند الله فقال – سبحانه – : ﴿ **فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون * الذين هم يراءون ويمنعون الماعون** ﴾(٦).

فمـا هـو الإخـلاص ؟

الإخلاص : أن يقصد العبد بعمله وجـه الله وحده لا شريك له ، ومن ثم فقد أوصى الله رسوله أن يصبر نفسه مع هؤلاء الذين قال فيهم : ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً** ﴾(٧)

وقطع القرآن الحيل المراوغة التي أراد بها أهل الباطل أن يباعدوا بها بين النبي ﷺ وبين هؤلاء المخلصين المتواضعين ، فقال في كتابه العزيز :

﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه** ﴾(٨).

---

(١) الآية : ٢ من سورة الزمر .

(٢) الآيتان : ١١ ، ١٢ من سورة الزمر .

(٣) الآية : ١٤ من سورة الزمر .

(٤) من الآية : ٥ من سورة البينة .

(٥) الآية : ١٤٦ من سورة النساء .

(٦) الآيات : ٤ – ٧ من سورة الماعون .

(٧) الآية : ٢٨ من سورة الكهف .

(٨) من الآية : ٥٢ من سورة الأنعام .

وأوصاه بهم خيراً فقال : ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ﴾[(١)].

لقد كان الرسول ﷺ يبسط لهؤلاء النفر رداءه ليجلسهم عليه ويلقاهم مرحباً بهم فيقول : (مرحباً بمن أوصاني ربي بهم خيراً) .

وهذه درجات المخلصين يبينها رسول الله ﷺ فيقول : « طوبى للمخلصين : أولئك مصابيح الهدى تنجلي عنهم كل فتنة ظلماء »[(٢)].

إنما الأعمال بالنيات

عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى : فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[(٣)].

وليس أمر الإخلاص في النية قاصراً على الدنيا وحدها ، بل إنه يمتد أثره إلى ما بعد الموت ، فالناس يبعثون على ما ماتوا عليه ، فإن كانت نياتهم مخلصة لله بعثوا يوم القيامة مع المؤمنين الناجين من عذاب الله ، وإن لم تكن النيات مخلصة فالويل والعذاب .

قالت أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - : قال رسول الله ﷺ : « يغزو جيش الكعبة : فإذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأولهم وآخرهم ، قالت : قلت : يارسول الله ؛ كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم ؟ قال : يخسف بأولهم وآخرهم ،ثم يبعثون على نياتهم »[(٤)].

تأمل الحديث الشريف : تجد أن الجيش الذي سيغزو بيت الله الحرام سيخسف به قبل أن يحقق ما يريده من البغي والإفساد ، وسيموت معه قوم ليسوا منهم ، والنيات هي التي ستكون فيصلاً حاسماً وحازماً في الأمر ، وإن كان الجميع قد مات إلا أن مدار الجزاء على النية ، فالنية السيئة تهوي بصاحبها إلى أسفل الدركات ، والنية المخلصة ترفع أهلها إلى أعلى الدرجات .

بل لقد شاء الله الكريم بفيضه وجوده أن يجري الثواب ويمنح الحسنات لقوم لم يستطيعوا أن يشاركوا في الأعمال الجليلة ؛ لأن الأعذار منعتهم وكان في نياتهم لو استطاعوا لفعلوا ، هذا رسول الله ﷺ يخبر أصحابه فيقول لهم وهم في إحدى الغزوات : « إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم : حبسهم المرض »[(٥)].

(١) من الآية : ٥٤ من سورة الأنعام .

(٢) انظر حلية الأولياء حـ ١ ص ١٦ عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ .

(٣) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الإمارة) باب قوله ﷺ : إنما الأعمال بالنية ... الخ ، حـ٢ ص ٤٩٦ ، ٤٩٧ رقم ١٢٤٥ .

(٤) انظر اللؤلؤ والمرجان حـ ٣ ص ٨٠٩ رقم ١٨٣١ (كتاب الفتن وأشراط الساعة) باب الخف بالجيش الذى يؤم البيت .

(٥) انظر سنن ابن ماجه (كتاب الجهاد) باب من حبسه العذر عن الجهاد حـ ٢ ص ٩٢٣ رقم ٢٧٦٤ من رواية أنس بن مالك ، ورقم ٢٧٦٥ من رواية جابر ، إلا أنه قال فى آخر الحديثين : « حبسهم العذر » وأنظر صحيح البخارى طبع الشعب حـ ٤ ص ٣١ وصحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباق حـ ٣ ص ١٥١٢ رقم ١٥٩ ، ١٩١١

وفي رواية « إلا شاركوكم في الأجر »[١].

ولذا قال القائل :

يا راحلين إلى البيت العتيق لقد ... سرتم جسوما وسرنا نحن أوراحا

لقد أقمنا على عذر وعن قدر ... ومن أقام على عذر فقد راحا

والإخلاص في النفقة حتى على الأهل الذين تجب لهم النفقة يجعل لصاحبها ثواب الصدقة ، قال ﷺ : « إذا أنفق المسلم على أهله نفقة وهو يحتسبها : كانت له صدقة »[٢].

وكل ما يقصد الإنسان به وجه الله من الخير فهو صدقة وأجر وثواب وذخر ، وها هو ذا سعد بن أبي وقاص يروي لنا هذا المشهد فيقول : « جاءني رسول الله ﷺ يعودني عام حجة الوداع من وجع اشتد بي ، فقلت : يا رسول الله : إني قد بلغ بي من الوجع ما ترى ، وأنا ذو مال ، ولا يرثني إلا ابنة لي أفأتصدق بثلثي مالي ؟ قال : لا ، قلت فالشطر يا رسول الله ؟ فقال : لا . قلت : فالثلث يا رسول الله ؟ قال : الثلث والثلث كثير - أو كبير - إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس ، وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعل في (في . امرأتك »[٣] أي : فمها .

ولكون الإخلاص هو الأساس في قبول الأعمال : نسمع أبا هريرة - رضي الله عنه - يروي فيقول : قال رسول الله ﷺ :

« إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم »[٤] رواه مسلم .

ولقد كان المسيح - عليه السلام - يقول : « يا بني إسرائيل : لا تأتوني تلبسون ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري ، ولكن البسوا ثياب الملوك وألينوا قلوبكم بخشية الله » .

أخا الإسلام :

ودع الكذوب فلا يكن لك صاحباً ... إن الكذوب يشين حرّاً يصحب

---

(١) هذه الرواية هي الثانية فى المصدر السابق (ابن ماجه) رقم ٢٧٦٥

(٢) أنظر صحيح البخارى (طبع الشعب) حـ ١ ص ٢٢ (كتاب الإيمان) باب ماجاء أن الأعمال بالنية ، من رواية أبى مسعود — رضى الله عنه .
وأنظر صحيح مسلم تحقيق عبد الباقى حـ ٢ ص ٦٩٥ رقم ١٠٠٢/٤٨ من رواية أبى مسعود البدرى — رضى الله عنه .
والنسائى (كتاب الزكاة) بابه : أى الصدقة أفضل ؟ حـ ٥ ص ٦٩ .

(٣) أنظر صحيح البخارى ، طبع الشعب (كتاب الجنائز) باب رثى النبى ﷺ سعد بن خولة حـ ٢ ص ١٠٣ وصحيح مسلم تحقيق عبد الباقى (كتاب الوصية) باب الوصية بالثلث حـ ٣ ص ١٢٥٠ - ١٢٥١ رقم ١٦٢٨/٥
وأنظر صحيح الترمذى (كتاب الجنائز) باب ماجاء فى الوصية بالثلث والربع حـ ٣ ص ٢٢٤ رقم ٩٨٢ رواه باختصار ، ورواه فى (أبواب الوصايا) حـ ٣ ص ٢٩١ رقم ٢١٩٩ فى باب ماجاء فى الوصية بالثلث ، ذكره بطوله .
وفى سنن النسائى فى (كتاب الوصايا) باب الوصية بالثلث حـ ٦ ص ٢٤١ ، ٢٤٢

(٤) صحيح مسلم تحقيق عبد الباقى (كتاب البر والصلة والآداب) باب تحريم ظلم المسلم ... الخ ، حـ ٤ ص ١٩٨٧ رقم ٢٥٦٤/٣٤

يلقـاك يقسـم أنه بك واثـق وإذا توارى عنـك فهـو العقـرب
يسقيك من طرف اللسان حـلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعـلب

صدقت يا سيدي يا رسول الله ، يا من قلت : **(ولكن ينظر إلى قلوبكم)** .

فقد قال تعالى في الحديث القدسي الجليل : « الإخلاص سر من أسراري استودعته قلب من أحببت من عبادي ، لا يطلع عليه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده »(١).

أخـا الإسـلام :

إذا المرء لا يلقاك إلا تكلفـا فدعـه ولا تكثر عليه التأسـفا
فما كل من تهواه يهواك قلبـه ولا كل من صافيته لك قد صفـا
إذا لم يكن صفـو الوداد طبيعـة فلا خير في ود يجيء تكلفـا
ولا خـير في خـل يخون خليـله ويلقـاه من بعـد المـودة بالجفـا
وينكر عيشـاً قد تقـادم عهـده ويظهـر سرًّا كان بالأمس في خفا
سـلام على الدنيا إذا لم يكن بهـا صديق وفيّ يصدق الوعـد منصفا

صدقت يا سيدي يا رسول الله يا من قلت : « لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقيّ »(٢).

ويا من قلت : « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل »(٣).

الإخـــلاص في الجهـــاد

إن الإخلاص يأخذ مكانته اللائقة به في كل شيء بل وفي أخطر الأشياء : في الجهاد الذي نسترخص الأرواح في أسواقه ، والذي نجود فيه بالمهج والنفوس .

لقد قال الصادق الأمين بعد أن هاجر إلى المدينة : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية ، وإذا

---

(١) رواه الغزالى فى إحياء علوم الدين (باب فضيلة الإخلاص) حـ ٤ ص ٣٧٦ بلفظ : « يقول الله تعالى : **﴿الإخلاص من سرى ، استودعته قلب من أحببت من عبادى﴾** عن الحسن مرسلا .

قال العراق : حديث الحسن مرسلا رويناه فى جزء من مسلسلات القزوينى . ورواه أبو القاسم القشيرى فى الرسالة من حديث على بن أبى طالب ـــ رضى الله عنه ـــ بسند ضعيف .

(٢) أنظر سنن أبى داود (كتاب الأدب) باب من يؤمر أن يجالس حـ ٤ ص ٢٥٩ رقم ٤٨٣٢ والحديث من رواية أبى سعيد الخدرى ـــ رضى الله عنه ، وأنظر سنن الترمذى (كتاب الزهد) باب ماجاء فى صحبة المؤمن حـ ٤ ص ٦٠٠ ، ٦٠١ رقم ٢٣٩٥ وقال الترمذى : هذا حديث حسن ـــ ورواه أحمد فى مسنده ٣٨/٣ وابن حبان ٣٨٣/١ برقمى ٥٥٥ ، ٥٥٦

(٣) الحديث فى سنن أبى داود فى (كتاب الأدب) باب من يؤمر أن يجالس حـ ٤ ص ٢٥٩ رقم ٤٨٣٣ من رواية أبى هريرة ـــ رضى الله عنه .

ورواه الترمذى فى سننه فى (كتاب الزهد) حـ ٤ ص ٥٨٩ رقم ٢٣٧٨ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

استنفرتم فانفروا »[١]. أي : لا هجرة من مكة بعد فتحها فقد صارت دار إسلام ولكن الأمر على الجهاد المقترن بالنية المخلصة ، فلو لم تكن هناك نية فلا جهاد هنا بمعناه الواسع : جهاد الكلمة ، جهاد النفس ، جهاد السيف .

استمع إلى الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – وهو يُسأل فيجيب ببلاغة موجزة وبيان صريح :

عن أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه – وقال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل بشجاعة ، ويقاتل حميه ، ويقاتل رياء ، أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو فى سبيل الله » متفق عليه .

الإخـــلاص في الصـــلاة

وتنتقل الآن من دور الإخلاص فى ساحة الجهاد وميادين القتال إلى دوره في الصلاة وكثرة الخطا إلى المساجد ، حيث يخبر الصادق الأمين – صلوات الله وسلامه عليه – فيقول :

(صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في سوقه وبيته بضعاً وعشرين درجة ، وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد لا يريد إلا الصلاة : لم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة وحط عنه بها خطيئة حتى يدخل المسجد ، فإذا دخل المسجد كان في الصلاة ما كانت الصلاة هي تحبسه ، والملائكة يصلون على أحدكم ما دام في مجلسه الذي صلى فيه يقولون : اللهم ارحمه ، اللهم اغفر له ، اللهم تب عليه ، مالم يؤذ فيه ، ما لم يحدث فيه »[١].

تعال يا أخا الإسلام لتنهل من هذا الفيض الرباني وترشف من هذا الرحيق الصافي ، من الكوثر

---

(١) أنظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الإمارة) باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير حـ ١٣ ص ٧ ، ٨ فقد رواه عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما .
ورواه ابن حبان فى صحيحه حـ ٧ ص ١٥٧ من حديث ابن عباس ، ص ١٧٩ من حديث عائشة ــ رضى الله عنها .
ورواه أحمد فى مسنده ٢٢٦/١ عن ابن عباس ، ٤٦٦/٦ عن صفوان بن أمية

المعسول ، والكرم الإلهي ، إليك ما قاله رسول الله ﷺ عن فضل الله العلي العظيم – جل جلاله – في الحديث القدس الجليل حيث يقول : « إن الله كتب الحسنات والسيئات » .

ثم بين ذلك : (فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله – تبارك وتعالى – عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها : كتبها الله عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله – تعالى – عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها بعملها : كتبها الله سيئة واحدة »(١).

فبالإخلاص يصح الإيمان ، وبالتوحيد يرتفع البنيان ، وبالإيمان والتوحيد والإخلاص تبنى النفوس .

فما أعظم الإيمان في بناء النفوس .

فعليك يا أخي بالإخلاص لله في السر والعلن ..

إن لله عباداً فطنا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحيٍّ سكنا
جعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا

كلمة عن الوفاء

إذاً : وجب علينا أن نعقب على هذا الجانب بكلمة عن الوفاء ؛ لعظيم أثره وجليل خطره ، خصوصاً إذا كان مع الله ، فنقول وبالله التوفيق : إن الله – جل جلاله – أوصى في كثير من آياته بالوفاء في جميع العهود وشتى العقود فقال – سبحانه – : ﴿ **وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً** ﴾(٢) ﴿ **يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** ﴾(٣).

وقد أخذ مولانا – تبارك وتعالى – عقوداً على عباده وعهوداً على خلقه فأول عقد أبرم : ذلك الذي شهد العباد فيه لربهم بأنه الرب الواحد الذي لا شريك له ، وكان ذلك لعموم البشرية بمختلف أشكالها ونماذجها ، قال سبحانه : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلىٰ شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين** ﴾(٤).

وأخذ مولانا – تبارك وتعالى – عهداً على الأنبياء أن يؤمنوا وينصروا ذلك الرسول – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – الذي سيختم الله به الرسالات ، ومعنى نصرته : أن يوصوا أتباعهم إن هم أدركوا زمانه أن ينصروه ويؤيدوه . قال عز من قائل : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثٰق النبيين لما ءاتيتكم من**

---

(١) أنظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الإيمان) باب إذا هم العبد بحسنة كتبت ... الخ حـ ١ ص ٢٥ ، ٢٦ رقم ٨١

(٢) من الآية : ٣٤ من سورة الإسراء .

(٣) من الآية : ١ من سورة المائدة .

(٤) الآية : ١٧٢ من سورة الأعراف .

كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشٰهدين * فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾[١]

وأخذ الله على العلماء عهداً ، وأبرم معهم عقداً أن يبينوا للناس مانزل إليهم من ربهم ولايكتموا منه شيئاً فقال – سبحانه – : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتٰب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون ﴾[٢].

الوفــــاء بالعهـــــد

وهناك عقود كثيرة – غير هذه – أوصى الله برعايتها وصيانتها فقال سبحانه : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عـٰهدتم ولا تنقضوا الأيمـٰن بعد توكيدها ﴾[٣].

وقال – جل شأنه – : ﴿ وبعهد الله أوفوا ﴾[٤].

فإذا أبرم المسلم عقداً ، وجب احترامه ، وإذا أعطى عهداً . وجب الإلتزام به .

ومن الإيمان : أن يكون المرء عند كلمة قالها ينتهي إليها كما ينتهي الماء عند شطآنه ، وأن يكون عند عهد قطعه على نفسه فيعرف بين الناس بالوفاء ، وبأن كلمته موثقة لا خوف من نقضها ولا مطمع في اصطيادها .

ولابد من الوفاء بالعهد ، كما أنه لابد من البر باليمين ومناط الوفاء والبر أن يتعلق الأمر بالحق والخير ، وإلا فلا عهد في عصيان ولا يمين في مأثم ، فقد قال رسول الله ﷺ : « من حلف على يمين فرأى خيراً منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذي هو خير »[٥].

ومن ثم فلا تعهد إلا بمعروف ... فإذا وثق الإنسان عهداً بمعروف فليصرف همته في إمضائه مادامت فيه عين تطرف ، وليعلم أن منطق الرجولة وهدى اليقين لا يتركان له مجالاً للتردد والإنشاء ...

---

(١) الآيتان : ٨١ ، ٨٢ من سورة آل عمران .

(٢) الآية : ١٨٧ من سورة آل عمران .

(٣) من الآية : ٩١ من سورة النحل .

(٤) من الآية : ١٥٢ من سورة الأنعام .

(٥) هذا جزء حديث فى اللؤلؤ والمرجان قاله النبى ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة حـ ٢ ص ٤٠٨ ، ٤٠٩ رقم ١٠٧١ ورواه أبو داود فى سننه جزء حديث عن عبد الله بن عمرو ــ رضى الله عنهما ــ فى (كتاب الإيمان والنذور) باب اليمين فى قطيعة الرحم حـ ٣ ص ٢٢٨ رقم ٣٢٧٤

ورواه ابن ماجه فى سننه فى (كتاب الكفارات) باب من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها حـ ١ ص ٦٨١ رقم ٢١٠٨ من رواية عدى بن حاتم .

سبحانك ربي عظمت رأفتك ، وجلت حكمتك ، وبلغت قدرتك ، ووسعت رحمتك ...

ما أجل الوفاء بالعهد ! ومن أعظم وفاء من الله بتنفيذ عقده الذي عقده مع المؤمنين ؟! عقد بيع وشراء . أعطاهم الجنة بعدما اشترى منهم الأنفس والأموال وهي ملكه وهو خالقها . ثم قال - سبحانه - : ﴿ **وعداً عليه حقاً في التورىٰة والإنجيل والقرءان** ﴾.

ثم قال : ﴿ **ومن أوفى بعهده من الله** ﴾[1].

في مدرسة الوفاء بالعهود تربى خريجو المعاهد الإسلامية التي اتصفت بحميد السجايا وكريم الشمائل .

روى أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر فقال : يا رسول الله غبتُ عن أول قتال قاتلت المشركين !! لئن أشهدني الله مع النبي قتال المشركين ليرين ما أصنع !! فلما كان يوم « أحد » انكشف المسلمون ، فقال : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدم .. فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا سعد ابن معاذ : الجنة ورب النضر ! إني لأجد ريحها دون أُحد !!! قال سعد فما استطعت يا رسوْل الله ما صنع ثم تقدم .. قال أنس : فوجدنا به بضعاً وثمانين ما بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح ورمية بسهم ، ووجدناه وقد مثل به المشركون فما عرفه إلا أخته بشامة أو ببنانه ...

قال أنس : كنا نرى أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه : ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عـٰهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً** ﴾[2].

والقرآن العظيم يعقب على هذا الموقف فيقول : ﴿ **ليجزي الله الصـٰدقين بصدقهم ويعذب المنـٰفقين إن شاء أو يتوب عليهم** ﴾[3].

فهؤلاء الذين قدروا الوفاء قدره ، وعرفوا لله حقه ، لا يعرف النفاق إلى قلوبهم سبيلاً ؛ لأنهم رجال أبطال وقفوا مواقف الشرف في ساعات العسرة وأوقات الشدة .

فعليك يا أخي أن تأخذ عنهم القدوة ، وتجعل منهم الأسوة الحسنة - رضي الله عنهم ورضوا عنه - .

---

(١) من الآية : ١١١ من سورة التوبة .

(٢) انظر تفسير ابن كثير (تفسير سورة الأحزاب) حـ ٣ ص ٤٧٥ طبع الحلبي فقد رواه ابن أبي حاتم ورواه الترمذي في سننه في (كتاب التفسير) تفسير سورة الأحزاب حـ ٥ ص ٣٤٩ رقم ٣٢٠١ وقال : هذا حديث حسن صحيح .
ورواه البخاري باختصار في (كتاب المغازي) باب غزوة أحد حـ ٣ ص ٢١ ، (البخاري بحاشية السندي ـــ طبع الحلبي) .
والآية رقم ٢٣ من سورة الأحزاب

(٣) من الآية : ٢٤ من سورة الأحزاب .

نفــاق المعــاملة

وهذا هو القسم الثالث من أقسام النفاق .. ويتمثل في صور سيئة تتعلق بالمعاملات ...

لقد دلت الأحاديث الصحيحة التي رويت عن المعصوم ﷺ أن هناك آيات وعلامات وأمارات من اتصف بها كان منافقاً .

وعندما نغربل هذه الصفات ونطرحها على بساط البحث نجدها تدور حول خمس صفات :

١ - إذا حدَّث كذب .

٢ - إذا وعد أخلف .

٣ - إذا أؤتمن خــان .

٤ - إذا عاهد غدر .

٥ - إذا خاصم فجر .

ولعلك - أيها القارىء الكريم - تلمح أن هذه الصفات كلها على النقيض من صفات المؤمنين ؛ فالمؤمن إذا حدَّث صدق ، وإذا وعد وفى ، وإذا أؤتمن أدى ، وإذا عاهد أنجز ، وإذا خاصم لا يجور ولا يفجر .

قل لي بربك : لو وجدت هذه الخصال - خصال المنافقين - في أمة هل تقوم لها قائمة أو ترتفع لها راية ؟ اسمع معي إلى قول رسول الله ﷺ وهو يحث على الصدق ويحذر من الكذب فيقول : « عليكم بالصدق ؛ فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب ؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً »[1] .

وما أروع هذا البيان الموجز الذي وصى به الرسول الأمين - صلوات الله وسلامه عليه - أحد طالبي الوصية فقال له : « لا تكذب » .

ولعل الوباء الذي استشرى والخطر الذي استفحل في هذه الحياة إنما يرجع إلى أصل واحد : هو الكذب ، فالكذاب خائن في وعده وفي عهده وفي أمانته وفي خصومته .. لا يقيم للقيم الأخلاقية وزناً ولا للمثل العليا قدراً لأنه يعيش في هذه الدنيا عيشة السائمة لا تبغى إلا أن تأكل وتملأ جوفها وهي تعلم أن هلاكها في سمنها .

---

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب البر والصلة والآداب) باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله حـ ٣ ص ٧٠٦ رقم ١٦٧٥ فقد رواه من حديث عبد الله بن مسعود ــ رضى الله عنه ــ بلفظ : « إن الصدق يهدى إلى البر ... الحديث »
ورواه أبو داود فى سننه فى (كتاب الأدب) باب فى التشديد فى الكذب حـ ٤ ص ٢٩٧ رقم ٤٩٨٩ مع تقديم وتأخير .
وأخرجه الترمذى فى سننه (واللفظ له) فى كتاب البر والصلة ، باب : ماجاء فى الصدق والكذب حـ ٤ ص ٣٤٧ رقم ١٩٧١ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

الصدق من صفات الرسل : ولقد لقب الرسول ﷺ قبل رسالته بأنه : « الصادق الأمين » ... هكذا شهد له بنو قومه ، حتى إنك ليأخذك العجب وتستولى عليك الدهشة عندما تتأمل هذا الموقف الذي وقفه ﷺ عند الهجرة : فقد خلف عليّ بن أبي طالب وراءه ليؤدي الودائع إلى أهلها ؛ إذ أن أهل مكة كانوا لا يأمنون أحداً على ودائعهم إلا الصادق الأمين ﷺ .

ولقد مدح الله إسماعيل – عليه السلام – بقوله : ﴿ **واذكر في الكتـٰب إسمـٰعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً * وكان يأمر أهله بالصلـٰوة والزكـٰوة وكان عند ربه مرضياً** ﴾[١].

وأمر الله عباده أن يكونوا مع الصادقين فقال عز من قائل : ﴿ **يـٰأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصـٰدقين** ﴾[٢].

وصف الله أصحاب رسول الله ﷺ بأنهم أهل الصدق فقال : ﴿ **يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصـٰدقون** ﴾[٣].

إذاً : مدار الأمر كله يعود إلى الصدق في القول والإخلاص في العمل .

ويوم يتوفر هذا الجانب في نفس المؤمن : فلسوف ينتظم منهجه في الحياة ويستقيم خلقه بين الناس ...

فالصدق في الحديث مطابقة الخبر للواقع ، والصدق في الوعد : الوفاء به ، والصدق في الأمانة : أداؤها ، والصدق في العهد : الحرص على إنجازه ، والصدق في الخصومة : قول الحق ولو على نفسك .

وإننا لا ننسى هذا المشهد الرائع والموقف الجليل الذي وقفته أم المؤمنين خديجة – رضي الله عنها – من رسول الله ﷺ وقد جاءها بعد ما نزل عليه الملك في « غار حراء » يأمره بالقراءة ودخل الرسول ﷺ على زوجته الوفية يرجف فؤاده ... فماذا كان قولها لتزيل عنه ما ألَمَّ به ؟

لقد وصفته بكريم الشمائل وحميد السجايا وقالت له : « والله لا يخزيك الله أبداً » ودعمت قولها بتلك الحيثيات القوية : « إنك لتصدق الحديث ، وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق »[٤]... صلى عليك الله يا علم الهدى ...

ما يجب أن يكون عليه المسلم :

أخي المسلم : هذه صفات الرجال الذين يريدون أن يشيدوا صروح الكرامة في الحياة ، ويضيئوا

---

(١) الآيتان : ٥٤ ، ٥٥ من سورة مريم .

(٢) الآية : ١١٩ من سورة التوبة .

(٣) من الآية : ٨ من سورة الحشر .

(٤) أنظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الإيمان) باب : بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ ــ حـ ١ ص ٣٢ ، ٣٣ رقم ٩٩ فقد رواه عن عائشة رضى الله عنها .

شموس الهداية لأقوامهم ، ولكي يكون الإنسان من هؤلاء لابد أن يكون وفيًّا بعهده ، ولكي يكون كذلك لابد وأن يلتزمن بعنصرين :

العنصر الأول : الذكر .

العنصر الثاني : قوة العزيمة .

ولذلك ختم الله آية الوفاء بالعهد بقوله : ﴿ **وبعهد الله أوفوا ذلكم وصـٰكم به لعلكم تذكرون** ﴾[1] .

وقال لرسول الله ﷺ ﴿ **فإذا عزمت فتوكل على الله** ﴾[2] .

وما أكل آدم من الشجرة إلا عندما نسى العهد ، قال – تعالى – : ﴿ **ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى** ﴾[3] .

ولقد أكد القرآن في آيات كثيرة على لفظ « الذكر » فختمها قائلاً : ﴿ **كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون** ﴾[4] . ﴿ **قد فصلنا الآيـٰت لقوم يذكرون** ﴾[5] إلى غير ذلك من الآيات .

فإذا قوي العزم قويت الإرادة ، فتجشم الإنسان كل الصعاب في سبيل الوفاء والأداء : قال تعالى : ﴿ **وما يلقـٰها إلا الذين صبروا وما يلقـٰها إلا ذو حظ عظيم** ﴾[6] .

الريـــاء وأثـــره في النفـــوس

إذا كان النفاق ضد الإيمان فإن الرياء ضد الإخلاص ، فكما لا يجتمع نفاق وإيمان في قلب واحد كذلك لا يجتمع رياء وإخلاص في قلب واحد ، وحيث قد علمنا النفاق وما يدور حوله ، وما يشتمل عليه من نفاق في العقيدة أو العبادة أو المعاملة ، فقد رأينا أن نذكر كلمة عن الرياء ، وهو : أن يقصد العبد بعمله غير وجه الله – تعالى – وفي هذا يحذر العلي العظيم هؤلاء المرائين ، فيقول في الحديث القدسي الجليل : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك : من عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه »[7] .

---

(١) من الآية : ١٥٢ من سورة الأنعام .

(٢) من الآية : ١٥٩ من سورة آل عمران .

(٣) من الآية : ١١٥ من سورة طه .

(٤) من الآية : ٥٧ من سورة الأعراف .

(٥) من الآية : ١٢٦ من سورة الأنعام .

(٦) الآية : ٣٥ من سورة فصلت .

(٧) انظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الزهد) باب تحريم الرياء حـ ١٨ ص ١١٥ فقد رواه عن أبى هريرة رضى الله عنه — واللفظ لمسلم .

ورواه ابن ماجه فى (كتاب الزهد) باب الرياء والسمعة حـ ٢ ص ١٤٠٥ رقم ٤٢٠٢

وجاء في الحديث أيضاً : « يخرج آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين يلبسون للناس جلود الضأن من اللبن ، ألسنتهم أحلى من السكر وقلوبهم قلوب الذئاب يقول الله عز وجل : أَبِيَ يغترون ؟ أم عليّ يجترئون ؟ فبي حلفت لأبعثن عليهم فتنة تدع الحليم منهم حيران »[1].

ومعنى قوله : « يختلون الدنيا بالدين » أي : ينتزعون خيرات الدنيا ويحصدونها باسم الدين .. ومعنى قوله : « يلبسون للناس جلود الضأن من اللهن » : هو كناية عن لينهم للناس ظاهراً وإضمار السوء باطناً وخداعاً ، فليس في قلوبهم محبة للعباد يحبون أنفسهم فقط ، ويخدعون الناس بإظهار حبهم قاصدين بذلك أغراضاً دنيوية كما يريدون احترام الناس لهم بتحسين ظواهرهم ، ومعنى قوله – جل جلاله – : « أبي يغترون » أي : يغترون بحلمي عليهم بتأخير عقوبتهم ؟

ومعنى قوله – تعالى – : « بي حلفت » أي : حلفت بي وحدي ، لا يستحقها غيري ، كما لا يجوز لأحد أن يحلف بغير الله – تعالى – وإن كان معظماً عند الناس ... قال رسول الله ﷺ : « لا تحلفوا – أيها الناس – بآبائكم ، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليدع »[2] فكن قوي الثقة بالله فلا يميلن قلبك إلى رياء أو حب سمعه .

العزة في طلب الرزق

أخا الإسلام :

لا تخضعن لمخلوق على طمع
فإن ذلك نقص منك في الدين
لن يقبل العبد أن يعطيك خردلة
إلا بإذن الذي سواك من طين
فلا تصاحب غنياً تستعزُّ به
وكن عفيفاً وعظم حرمة الدين
واسترزق الله مما في خزائنه
فإن رزقك بين الكاف والنون

---

(١) أنظر سنن الترمذى (كتاب الزهد) حـ ٤ ص ٦٠٤ رقم ٢٤٠٤ فقد رواه عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه .

(٢) أنظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الإيمان) حـ ١١ ص ١٠٥ ، ١٠٦ فقد رواه عن عبد الله بن مسعود بلفظ : « ألا إن الله عز وجل ــ ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت »

ورواه أبو داود فى (كتاب الإيمان والنذور) باب فى كراهية الحلف بالآباء حـ ٣ ص ٢٢٢ رقم ٣٢٤٩ من رواية عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه .

وأنظر سُنن الترمذى حـ ٤ ص ١١٠ رقم ١٥٣٤ وقال : هذا حديث حسن صحيح

ورواه ابن ماجه مختصرا حـ ١ ص ٦٧٧ رقم ٢٠٩٤ وأنظر سنن النسائى حـ ٧ ص ٤

واستغن بالله عن دنيا الملوك

كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

لقد كان موقف الإيمان دائماً من أتباعه يدور حول الثقة بالله والاعتزاز بطاعته ... فالروح والرزق لا يملكها إلا الله – تبارك وتعالى – :

قال ﷺ : « إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها »[١].

فيا أخي :

لا تعجلن فليس الرزق بالعجل

الرزق في اللوح مكتوب مع الأجل

فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا

لكنه خلق الإنسان من عجل !!

واعلم بأنه لا يمكن أن تحصل على شيء ليس لك ، ولا يمكن أن يضيع منك شيء هو لك ، فلا تنافق على حساب دينك أو كرامتك أو عزة نفسك ، واقصد بعملك وجه الله خالقك . قال – تعالى – : ﴿ **هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إلـٰه إلا هو** ﴾[٢].

الرياء يفسد العمل ويحبطه :

لقد بلغ من موقف الوحي أنه أجاب على سؤال رجل جاء يسأل رسول الله ﷺ فيقول له : يا رسول الله إني أصلي طاعة لربي وليراني الناس . وإذا بالأمين جبريل – عليه السلام – ينزل بهذه الآية الكريمة : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً** ﴾[٣].

فالرياء في العبادة خبث لا يليق ، كذلك الرياء في معاملة الناس . قال عز من قائل : ﴿ **يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون مالا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً** ﴾[٤].

ولقد أخبر الصادق المعصوم ﴿ **أن من شر الناس يوم القيامة ذا الوجهين : يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه** ﴾[٥]. ولعلك ياأخي ترتعد منك الفرائض عندما تقرأ هذا الحديث النبوي الشريف الذي أودى الرياء فيه بقوم قدموا أعمالاً ولم يقصدوا بها وجه الله.. أودى بهم الى النار وعذابها.. قال ﷺ :

(١) أنظر حلية الأولياء (فى ترجمة أحمد بن أبى الحوارى) حـ ١٠ ص ٢٧ عن أبى أمامة ـــ رضى الله عنه .

(٢) من الآية ٣ من سورة فاطر .

(٣) من الآية : ١١٠ من سورة الكهف .

(٤) الآية : ١٠٨ من سورة النساء .

(٥) انظر سنن الترمذى حـ ٤ ص ٣٧٤ رقم ٢٠٢٥

« إن أول الناس يقضي يوم القيامة عليه : رجل استشهد فيأتى به فعرَّفه الله نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ... ولكنك قاتلت لأن يقال جريء ، فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار . ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه الله نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت القرآن ، قال : كذبت ولكنك تعلمت ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : قارىء ، فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال فأتى به فعرفه الله نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ماتركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال : جواد فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار » . رواه مسلم[(١)].

أرأيت إلى الرياء كيف يحبط الأعمال مهما بلغت وجلت وعظمت ؟ أبعد القتال والعلم والإنفاق أعمال تقاس بها ؟ ومع ذلك فإن دخول الرياء فيها هشم أسوارها وحطم بنيانها وقوض أركانها وأزال قوتها وضيع ثوابها !!

نعوذ بالله من الريـــاء !!

لقد صدق الله رب العالمين حيث يقول : ﴿ **يأيها الذين ءامنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكفرين** ﴾[(٢)].

إن النفس تسيل مرارة ، وإن الكبد تظل مقروحة عندما نقرأ هذا الحديث الشريف وتلك الآية الكريمة ... فالمراءونت يحاولون أن يخادعوا – حتى وهم واقفون بين يدي الله – ويحاولون أن يظهروا أنهم قدموا الأعمال ابتغاء مرضاته فيقول لهم الله – جل جلاله – : كذبتم ! إن هذه الكلمة لها وقع تكاد الجبال تخرله هدًّا وما ذاك إلا لاختلاط الرياء بالأعمال فأزال ثوابها كما يزيل المطر الغزير تراباً على حجر فيتركه أملس ناعماً لا شيء عليه .

تنبيـــه وتحـــذير :

واعلم أن المرائي لا يغيب أمره عن الناس مهما طال به عهد الرياء ، بل لابد أن تظهر حقيقته أمام الخلق في يوم ما . قال – صلوات الله وسلامه عليه – : « من سمع : سمع الله به . ومن يرائي : يرائي الله به »[(٣)].

(١) الحديث فى صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الإمارة) باب : من قاتل الرياء والسمعة استحق النار جـ ١٣ ص ٥٠ ، ٥١ من حديث أبى هريرة ـــ رضى الله عنه .

(٢) الآية : ٢٦٤ من سورة البقرة .

(٣) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب الزهد والرقائق) باب تحريم الرياء جـ ٣ ص ٨٣٢ رقم ١٨٨٠ من حديث جندب ـــ رضى الله عنه .

وأنظر سنن ابن ماجه (كتاب الزهد) باب الرياء والسمعة جـ ٢ ص ١٤٠٧ رقم ٤٢٠٧ .

والمعنى أن « سمع » بتشديد الميم معناه : أظهر عمله للناس رياء . ومعنى « سمع الله به » أي : فضحه يوم القيامة . ومعنى « من راءى راءى الله به » أي : من أظهر للناس العمل الصالح ليعظم عندهم راءى الله . أي : أظهر سريرته على رؤوس الخلائق .

ولقد كان أمير المؤمنين عمر – رضي الله عنه – يقول : « من تزين للناس بما يعلم الله منه خلاف ذلك هتك الله ستره وأبدى فعله » .

وما من شك في أن أخطر الأشياء التي يحبطها الرياء : العلم إذا كان المقصود به غير الله وغير ما عند الله ... قال ﷺ : « من تعلم علماً يبتغي به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة – يعني ريحها »(١) رواه أبو داود .

ونصيحـــــتي :

على كل مسلم مخلص أن يراعى الله في كل فعله ... يقول القرآن الكريم مظهراً هذه القضية :

﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العـٰلمين ۞ لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾(٢).

ولقد صدق رسول الله ﷺ عندما جعل دستور الحياة أمام الناس هذه الكلمات الفاضلة : « من أرضى الله **وأسخط** الناس كفاه الله ما بين الناس ، ومن أسخط الله بإرضاء الناس وكله الله إلى الناس ، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته »(٣).

فـــائدة جليـــلة :

ونختم هذا الباب بهذه الفائدة الشرعية الجليلة :

هناك من الأمور ما يتوهم الإنسان أنه رياء وليس برياء ، ومثل هذا ما روى **عن أبي ذر رضى الله** عنه – قال : قيل لرسول الله ﷺ : « أرأيت الرجل الذي يعمل من الخير ويحمده الناس عليه ؟ قال : « تلك عاجل بشرى المؤمنين » رواه مسلم(٤).

ومعنى هذا أن الناس إذا أثنوا بلسان الحق على من يفعل الخير فليس هذا رياء ، إنما هو من باب قول **الله ـ تبارك وتعالى ـ فى الحديث القدسى : « عبدى لم تشكرنى إن لم تشكر من أجريت لك النعمة على يديه » .**

اللهم اجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

---

(١) أنظر سنن أبى داود طبع دار الحديث بحمص (كتاب العلم) باب طلب العلم لغير الله تعالى حـ ٤ ص ٧١ رقم ٣٦٦٤ فقد أخرجه عن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه .
وأنظر سنن ابن ماجه (المقدمة) باب الانتفاع بالعلم والعلم به حـ ١ ص ٩٢ ، ٩٣ رقم ٢٥٢

(٢) سورة الأنعام ، الآيتان : ١٦٢ ، ١٦٣

(٣) رواه الترمذى فى سننه فى (كتاب الزهد) باب ٤٩ حـ ٤ ص ٣٤ رقم ٢٥٢٧ عن عائشة ـــ رضى الله عنها .
وأنظر صحيح ابن حبان (الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان) حـ ١ ص ٢٤٧ رقم ٢٧٧

(٤) أنظر صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى (كتاب البر والصلة والآداب) حـ ٤ ص ٢٠٣٤ رقم ٢٦٤٢/١٦٦

الثبـــات على المبـــدأ

إذا علمنا أن النفاق والرياء هما من الأمراض الخطيرة التي تهدم الأمم وتقوض المجتمعات ، بل من أشدها خطراً .. فما العلاج ؟ وما السبيل إلى البناء القويم لهذه المجتمعات ؟

لم أجد أنجح ولا أنفع في بناء المجتمع أفضل من الثبات على المبدأ وأعني به مبدأ الحق والشرف والرجولة والاعتزاز بأوامر الله وطاعة رسوله ؛ ذلك لأن النفس لا تنحدر إلى الهاوية إلا إذا نسيت مبدأها وخانت عهودها .. عندئذ تتمرغ في ماديات مظلمة تتيه في بيداء هذه الحياة .

ولعل من أصدق الأمثلة على ذلك : قصة ثعلبة بن حاطب : الرجل الذي نسى مبدأه وخان عهده ، كان يلقب بـ « حمامة المسجد » وكفى بهذا اللقب شهادة له بحسن المواظبة وأداء الصلوات في أوقاتها ... ماذا حدث لتلك « الحمامة » وماذا جرى لثعلبة ؟ رووا أنه أتى مجلساً من مجالس الأنصار فأشهدهم : لئن آتاني الله من فضله آتيت منه كل ذي حق حقه وتصدقت منه ، ووصلت القرابة .. فمات ابن عم له فورث منه مالاً فلم يف بشيء مما عاهد الله عليه ، فنزل قول الله – تعالى – : ﴿ **ومنهم من عـٰهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصـٰلحين * فلما ءاتـٰهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون * فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون * ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علـٰم الغيوب** ﴾[1] .

أرأيت إلى هذه العاقبة الوخيمة التي مُنى بها ذلك الذي نسي أصله وخان عهد الله ؟! كان كل مطلبه الدنيا وما فيها من زخارف خداعة وبوارق لامعة ، أقبلت عليه فنسي ربه ! وبعد أن كان « حمامه » تأوي إلى بيت الله فتأنس بذكره . قصت أجنحتها فتمرغت في أوحال الدنيا .. وهكذا الدنيا إذا حلت : أو حلت ، وإذا كست : أو كست ، وإذا جلت : أو جلت . وكم من ملك رفعت له علامات فلما علا : مات !!

عظـــة وعـــبرة : .

كذلك من الدروس التي يجب أن يعيها المجتمع في الثبات على المبدأ : ألا يتنكر الإنسان لفضل الله عليه فيمنع النعمة أصحابها ويصير بذلك كنوداً آثماً .

لقد روى أبو هريرة – رضي الله عنه – عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن ثلاثة من بني إسرائيل : أبرص وأقرع وأعمى ، أراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكاً فأتى الأبرص قال : أي شيء أحب إليك ؟ قال : لون حسن ، وجلد حسن ، ويذهب عني الذي قذرني الناس ، فمسحه فذهب عنه قذره وأعطى لوناً حسناً وجلداً حسناً ، فقال : أي المال أحب إليك ؟ قال : الإبل فأعطاه ناقة عشراء ، وقال : بارك الله لك فيها . ثم أتى الأقرع فقال : أي شيء أحبّ إليك ؟ قال : شعر حسن

(١) الآيات : ٧٥ – ٧٨ من سورة التوبة .

ويذهب عني هذا الذي قذرني الناس ! فمسحه فذهب عنه وأعطى شعراً حسناً ، قال : فأي المال أحب إليك ؟ قال : البقر . فأعطي بقرة حاملاً وقال : بارك الله لك فيها ، ثم أتى الأعمى فقال : أي شيء أحب إليك ؟ قال : أن يرد الله عليّ بصري . فمسحه فرد الله عليه بصره قال : فأي المال أحب إليك ؟ قال : الغنم فأعطى شاة والدة فأنتج هذان ، وولد هذا ، فكان لهذا وادٍ من الإبل ، ولهذا وادٍ من البقر ، ولهذا واد من الغنم ، ثم إنه – أي : الملك – أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال : رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن بعيراً أتبلغ به في سفري ، فقال : الحقوق كثيرة ، فقال : كأني أعرفك ، ألم تكن أبرص يقذرك الناس ؟ فقيراً فأعطاك الله ؟ قال : إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر ، قال : إن كنت كاذباً فصيَّرك الله إلى ما كنت .

وأتى « الأقرع » في صورته فقال له مثل ذلك ، ورد عليه مثل ما رد الأول ، فقال : إن كنت كاذباً فصيَّرك الله إلى ما كنت .

ثم أتى « الأعمى » في صورته وهيئته فقال له مثل ما قال ، فقال : قد كنت أعمى فرد الله عليّ بصري فخذ ما شئت ودع ماشئت ، فوالله لا أجهدك اليوم ، أخذته لله فقال : أمسك مالك فإنما ابتليتم ، فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك ! »(١).

إن هــذه تذكـــرة

إن أعظم الوصايا الغالية التي وصى بها رسول الله ﷺ قوله : « احفظ الله تجده تجاهك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله »(٢).

أجل يا سيدي يا رسول الله ! يا صاحب الثبات على مبدأ الحق ، يا من وصفت المؤمن الصحيح فقلت :

« عجباً لأمر المؤمن : إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له »(٣).

وإنني إذ أبرهن على هذه المبادىء الحقيقية أسوق هذه الدروس أمام المسلمين ليجدوا فيها العظة ، إنها دروس على ثلاثة نفر وقعوا في شدة فنجاهم الإخلاص ، لقد ثبتوا مع الله في طاعته ساعة الرخاء ، فتعرف الله عليهم ساعة الشدة .

(١) اللؤلؤ والمرجان (كتاب الزهد والرقائق) حـ ٣ ص ٨٢٦ ، ٨٢٧ رقم ١٨٦٨

(٢) أنظر سنن الترمذى (كتاب صفة القيامة) حـ ٤ ص ٦٦٧ رقم ٢٥١٦ فقد رواه عن ابن عباس قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .
ورواه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة (باب ما يوصى به الغلام إذا عقل) ص ١٢٥ ، ١٢٦ رقم ٤٢٧

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الزهد) باب فى أحاديث متفرقة حـ ١٨ ص ١٢٥ فقد رواه عن صهيب

قال رسول الله ﷺ : انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى أواهم المبيت إلى غار فدخلوه ، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فقالوا إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله – تعالى – بصالح أعمالكم ، قال رجل منهم : اللهم إنه كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً ، فنأى بي طلب الشجر يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما ، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً ، فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية **يتضاغون** عند قدمي فاستيقظا فشربا غبوقهما ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه .

وقال الآخر : اللهم إنه كانت لي ابنة عم كان أحب الناس إليّ – وفي رواية – كنت أحبها كأشد مايحب الرجل النساء ، فأردتها على نفسها ، فامتنعت مني حتى ألمت بها سنة من السنين ، فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها ففعلت ، حتى إذا قدرت عليها – وفي رواية – : فلما قعدت بين رجليها قالت : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه ، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إليّ وتركت الذي أعطيتها . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة ، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها .

وقال الثالث : اللهم إني استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له ، وذهب فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين ، فقال : يا عبد الله أدِّ إليّ أجري ، فقلت : كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق ، فقال : يا عبد الله ؛ لا تهزأ بي فقلت : لا أهزأ **بك،فأخذه** كله ، فاستاقه فلم يترك منه شيئاً ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون »(١). متفق عليه .

هل تأملت – أيها القارىء الكريم – هذا الهدى النبوي والإرشاد المحمدي في هذه الصورة البيانية الرائعة ؟!

الإيمـــان وبنـــاء النفـــوس

إذا كان الإيمان هو التصديق القلبي فلنعلم أن القلب هو محله ... بهذا نطق الكتاب الكريم قال – تعالى – : ﴿ **أولئك كتب في قلوبهم الإيمان** ﴾(٢).

وقال – جل شأنه – : ﴿ **وقلبه مطمئن بالإيمان** ﴾(٣).

---

(١) أنظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار) حـ ٣ ص ٧٤٤ ، ٧٤٥ رقم ١٧٤٥ .

(٢) من الآية : ٢٢ من سورة المجادلة .

(٣) من الآية : ١٠٦ من سورة النحل .

وقال – سبحانه – : ﴿ **ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم** ﴾[(١)].

هل وقفت على الدور العظيم الذي قام به الإيمان في بناء النفوس ؟ فلولا الإيمان ما رأيت الرجل الأول من هؤلاء النفر الثلاثة ينتظر والديه النائمين حتى يقوما فيشربا نصيبهما من اللبن ويؤثرهما على أولاده ! ولولا الإيمان ما قالت تلك الفتاة لابن عمها : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه ... هل كان هناك أحد يراها إلا الله ؟ ولولا الإيمان ما استجاب ابن عمها لندائها وخشي !

﴿ **إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون** ﴾[(٢)].

ولولا الإيمان ما رد ذلك المالك أجر هذا الأجير بعد ما زاد ونما واستثمر ...

لا عجب ! فإن الإيمان هو صانع المعجزات وباني النفوس ، فلولا الإيمان ما كانت الأمانة ، وما كانت خشية الله ، وما كان البر في جميع صوره ، ولكنه سر من أسرار الله – جلت قدرته – يعمر به النفوس فتضيء وتشرق وتتلألأ وتتألق حتى تصير كالشمس في ضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها .

فاللهم أعط نفوسنا تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها .

من هذا كله نعلم أن القلوب هي المركز الأول الذي ينبني عليه صلاح الفرد ، وينبني على صلاح الفرد صلاح المجتمع ، وإنما يؤدي الإيمان ثمرته المرجوة ويؤتي أكله إذا كان مستشعراً عظمة الله وهيمنة سلطانه ، نعم : مستشعراً في سره وعلانيته حيث ينطق الحديث الشريف بهذه الحكمة النبوية :

« اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن »[(٣)].

والإيمان إذا حل قلب ملأه خشية ومعرفة ، قال – سبحانه – : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون** ﴾[(٤)]. نعم لا يتوكلون على غيره لأنه وليهم .

﴿ **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ۞ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم** ﴾[(٥)].

والمؤمنون الصادقون إنما هم أعلام شامخة الرءوس مشرئبة الأعناق ؛ لأنهم معتزون بالله .

---

(١) من الآية : ٧ من سورة الحجرات .

(٢) الآية : ٢٠١ من سورة الأعراف .

(٣) انظر سنن الترمذى (كتاب البر والصلة) باب ماجاء فى معاشرة الناس حـ ٤ ص ٣٥٥ رقم ١٩٨٧ فقد رواه عن أبى ذر — رضى الله عنه .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٤) الآية : ٢ من سورة الأنفال .

(٥) الآيتان : ١٧٣ ، ١٧٤ من سورة آل عمران .

﴿ **من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه** ﴾(١).

كذلك يجعلون وجهتهم إليه – سبحانه – يعلمون أنه – جل جلاله – هو المتولي شئونهم .

﴿ **الله ولي الذين آمنوا يُخرجهم من الظلمات إلى النور** ﴾(٢).

والمؤمنون الصادقون إذا سألوا أو استعانوا : سألوا الله ، وطلبوا العون منه ؛ لأنهم يعلمون أنه – تعالى – أقرب إلى العبد من حبل الوريد .

لذلك نلمح هذه الإشراقة المضيئة في القرآن الكريم عندما يعرض للمسائل التي كانت توجه إلى رسول الله ﷺ طالباً للبيان والمعرفة .

﴿ **يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج** ﴾(٣).

﴿ يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾(٤) ﴿ **يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصدٌّ عن سبيل الله** ﴾(٥).

يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾(٦).

﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ﴾(٧)

﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى ﴾(٨)

﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً ﴾(٩).

﴿ فأنت ترى في الإجابة عن هذه الأسئلة تصديراً بكلمة « قل » إلا في قوله – تعالى – : ﴿ **وإذا سألك عبادى عني فإني قريب** ﴾(١٠).

وفى ذلك من قوة القرب إلى الله تعالى وشدة علمه وإحاطته مايجعلنا نتوجه إليه دائماً فى السراء والضراء وحين البأس .

---

(١) من الآية : ١٠ من سورة فاطر .
(٢) من الآية : ٢٥٧ من سورة البقرة .
(٣) من الآية : ١٨٩ من سورة البقرة .
(٤) من الآية : ٢١٥ من سورة البقرة .
(٥) من الآية : ٢١٧ من سورة البقرة .
(٦) من الآية : ٢١٩ من سورة البقرة .
(٧) من الآية : ٢٢٠ من سورة البقرة .
(٨) من الآية : ٢٢٢ من سورة البقرة .
(٩) الآية : ١٠٥ من سورة طه .
(١٠) من الآية : ١٨٦ من سورة البقرة .

يارب أنت تهب الكثير ، وتجبر القلب الكسير ، وتغفر الزلات وتقول : « هل من تائب مستغفر أو سائل أقضى له الحاجات ! » بهذا الإيمان : تبنى النفوس على الكرامة والعزة ، وتشيد صروحها على المعرفة والأمانة ؛ لأنها دائماً في حال مراقبة أو مشاهدة : « اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » وليس ثمة أدنى شك أن القلوب المؤمنة في حالة ذكر لربها لا تعرف الغفلة ... أسمعت إلى نوح – عليه السلام – عندما اشتد به الكرب وزاد عليه عناد قومه ، واتهم بأنه مجنون وازدجر ، ماذا قال ؟

﴿ **فدعا ربه أني مغلوب فانتصر * ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر** ﴾(١).

ثم رأيت إلى أيوب – عليه السلام – في مرضه وشدته وكربه ومحنته يتوجه إلى خالقه فيقول : ﴿ **مسني الضر وأنت أرحم الراحمين** ﴾(٢).

فيكون الجواب : ﴿ **فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين** ﴾(٣).

ثم استمع إلى صاحب الحوت : يونس – عليه السلام – وهو في بطن الحوت وفي ظلمة البحر وأعماقه ينادي ويهتف : ﴿ **لا إلـٰه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين** ﴾(٤).

فتأتي الإجابة أسرع من البرق : ﴿ **فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين** ﴾(٥).

وها هو ذا زكريا – عليه السلام – يريد ولداً صالحاً وغلاماً رضياً فيتوجه إلى الله : ﴿ **رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين** ﴾(٦).

فتأتي الإجابة : ﴿ **فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه** ﴾(٧).

ثم استمع إلى مؤمن من آل فرعون بعد ما بذل النصح والتوجيه وبين الطريق السوي يقابل من قومه بما لا يليق بالناصحين المخلصين ، فيقول لهم : ﴿ **فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد** ﴾(٨).

فتأتي الإجابة والنجدة من رب العزة الذي يغيث الملهوفين : ﴿ **فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب** ﴾(٩).

---

(١) الآيات : ١٠ – ١٢ من سورة القمر .
(٢) من الآية : ٨٣ من سورة الأنبياء .
(٣) من الآية : ٨٤ من سورة الأنبياء .
(٤) من الآية : ٨٧ من سورة الأنبياء .
(٥) الآية : ٨٨ من سورة الأنبياء .
(٦) من الآية : ٨٩ من سورة الأنبياء .
(٧) من الآية : ٩٠ من سورة الأنبياء .
(٨) من الآية : ٤٤ من سورة غافر .
(٩) الآية : ٤٥ من سورة غافر .

التفسير

﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد أن المنافقين لكذبون ، اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون ، ذلك بأنهم ءامنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ، وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنىٰ يؤفكون ﴾

يقول – تعالى – مخبراً عن المنافقين أنهم إنما يتفوّهون بالإسلام إذا جاءوا النبي ﷺ فأما في باطن الأمر فليسوا كذلك ، بل على الضد من ذلك ، ولهذا قال – تعالى – :

﴿ **إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله** ﴾ أي : إذا حضروا عندك واجهوك بذلك ، وأظهروا لك ذلك ، وليس كما يقولون ، ولهذا اعترض بجملة مخبرة أنه رسول الله ، فقال : « والله يعلم إنك لرسوله » .

ثم قال – تعالى – : ﴿ **والله يشهد إن المنافقين لكاذبون** ﴾ أي : فيما أخبروا به ، وإن كان مطابقاً للخارج ، لأنهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدقه ، ولهذا كذبهم بالنسبة إلى اعتقادهم .

وهذه حال المنافقين في كل زمان ومكان .

مراوغة كالثعالب .

وخداع باطل .

يلقاك يقسم أنه بك واثق
وإذا توارى عنك فهو العقرب
يسقيك من طرف اللسان حلاوة
ويروغ منك كما يروغ الثعلب

جاء في الحديث القدسي الجليل : « لقد خلقت خلقاً ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر ، فبي حلفت لأتيحنهم فتنة تدع الحليم فيهم حيران ، أبي يغترون أم علي يجترئون »[1] .

---

(١) رواه الترمذي حـ ٤ ص ٦٠٤ رقم ٢٤٠٤ بنحوه .

كان المسيح ابن مريم – عليه السلام – يقول : يا بني إسرائيل لا تأتوني تلبسون ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري ، ولكن البسوا ثياب الملوك وألينوا قلوبكم بخشية الله .

إن الله – تعالى – **وهو العليم بذات الصدور** يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، يقول في شأن هؤلاء :

﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين * يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون * في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون * وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون * ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون * وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون * وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون * أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين * مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون * صم بكم عمي فهم لا يرجعون * أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين * يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير ﴾[1].

قوله – تعالى : ﴿ **اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله** ﴾ أي : اتقوا الناس بالأيمان الكاذبة الآثمة ليصدقوا فيما يقولون ، فاغتر بهم من لا يعرف جلية أمرهم فاعتقدوا أنهم مسلمون ، فربما اقتدى بهم فيما يفعلون وصدقهم فيما يقولون ، وهم من شأنهم أنهم كانوا في الباطن لا يألون الإسلام وأهله خبالاً ، فحصل بهذا القدر ضرر كبير على كثير من الناس ، ولهذا قال – تعالى – : ﴿ **فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون** ﴾.

ولهذا كان الضحاك بن مزاحم يقرؤها [اتخذوا إيمانهم جنة] أي : تصديقهم الظاهر جنة ، أي : تقية يتقون به القتل . والجمهور يقرؤها (أيمانهم) جمع يمين .

وقوله – تعالى – : ﴿ **ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون** ﴾ أي : إنما قدر عليهم النفاق لرجوعهم عن الإيمان إلى الكفران واستبدالهم الضلالة بالهدى ، فطبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون ، أي : فلا يصل إلى قلوبهم هدى ولا يخلص إليها خير فلا تعي ولا تهتدي .

والأيمان الكاذبة من سمات المنافقين فهم دائماً يحلفون على الكذب .

قال – تعالى – : ﴿ **ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون * أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون * اتخذوا أيمانهم جنة**

(١) الآيات : ٨ – ٢٠ من سورة البقرة .

فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين * لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون * استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون * إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين ﴾(١)

والخداع : من سمات المنافقين فهو في دمائهم يسري سريان النار في الحلفاء ، والسم الزعاف في الأحشاء .

قال – تعالى – في شأنهم :

﴿ **إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً * بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً * الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً * وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً * الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً * إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً . مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً * يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً * إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً * إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً * ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً ﴾**(٢).

إن المنافقين مخادعون حتى مع حلفائهم من اليهود ، قال – تعالى – : ﴿ **ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون * لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون ﴾**(٣).

قوله – تعالى – : ﴿ **وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم** ﴾ أي : وكانوا أشكالاً حسنة وذوي فصاحة وألسنة ، وإذا سمعهم السامع يصغى إلى قولهم لبلاغتهم ، وهم مع ذلك **فى غاية الضعف والخور والهلع والجزع والجبن** .

(١) الآيات : ١٤ – ٢٠ من سورة المجادلة .

(٢) الآيات : ١٣٧ – ١٤٧ من سورة النساء .

(٣) الآيتان : ١١ ، ١٢ من سورة الحشر .

ولهذا قال – تعالى – : ﴿ **يحسبون كل صيحة عليهم** ﴾ أي : كلما وقع أمر أو كائنه أو خوف يعتقدون – لجبنهم – أنه نازل بهم ، كما قال – تعالى – :

﴿ **أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً** ﴾[1]. فهم جهامات وصور بلا معان ،

ولهذا قال – تعالى – : ﴿ **هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون** ﴾ أي : كيف يصرفون عن الهدى إلى الضلال ؟!

وقد روى الإمام أحمد – رضي الله عنه – بسنده عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال : « إن للمنافقين علامات يعرفون بها : تحيتهم لعنة ، وطعامهم نهبة ، وغنيمتهم غلول ، ولا يقربون المساجد إلا هجراً ، ولا يأتون الصلاة إلا دبراً ، مستكبرين ، لا يألفون ولا يؤلفون ، خشب بالليل صخب بالنهار »[2].

وقد سميت سورة براءة بالفاضحة والمخزية والمقشقشة والبحوث ؛ لأنها كشفت أسرار المنافقين وما ينطوي عليه صدورهم من كفر وحقد على الإسلام ، وحسد لنبي الإسلام – عليه الصلاة والسلام – وما كانوا يتصفون به من تأليب القبائل على الإسلام ورسوله .

لقد انضموا دائماً إلى معسكرات الشرك ، ووقفوا مع أعداء الله في خندق واحد ، وقعدوا عن الجهاد وثبطوا الهمم .

قال – تعالى – : ﴿ **لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون ٭ عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ٭ لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين ٭ إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون ٭ ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين ٭ لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين ٭ لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ٭ ومنهم من يقول إئذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون ٭ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ٭ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون ٭ قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم إنكم كنتم**

---

(١) الآية : ١٩ من سورة الأحزاب .

(٢) أنظر مسند أحمد (مسند أبي هريرة – رضى الله عنه) حـ ٢ ص ٢٩٣

قوماً فاسقين * وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون * فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون * ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون * لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلاً لولوا إليه وهم يجمحون * ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون * ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون * إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم *ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين * ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزى العظيم* يحذرالمنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم قل استهزئوا إن الله مخرج ماتحذرون * ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين * المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم ﴾(١).

وقال – عز من قائل – :

﴿ يأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير * يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا يك خيراً لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة ومالهم في الأرض من ولي ولا نصير ﴾ ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين * فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ﴿ فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾(٢).

---

(١) الآيات : ٤٢ – ٦٨ من سورة التوبة .

(٢) الآيات : ٧٣ – ٧٧ من سورة التوبة .

من مساوىء المنافقين

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

التفسير

وهذا موقف من مواقفهم المخزية وما أكثرها بل ما أقبحها أنهم الذين أخبر الله – تعالى – عنهم بقوله : ﴿ **وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون** ﴾ فهذا إخبار منه – جلت قدرته – عن المنافقين عليهم لعائن الله إنهم : ﴿ **إذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم** ﴾ أي : صدوا وأعرضوا عما قيل لهم استكباراً عن ذلك واحتقار لما قيل لهم ولهذا قال تعالى : ﴿ **ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون** ﴾ ثم جازاهم على ذلك فقال تعالى : ﴿ **سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾.

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا ابن أبي عمر العدني قال : قال سفيان : (لووا رءوسهم) قال ابن أبي عمر : حول سفيان وجهه على يمينه ونظر بعينه شذراً ثم قال : هو هذا[١].

وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل في عبد الله بن أبي بن سلول وقد قال محمد بن إسحق في السيرة : ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة يعني مرجعه من أحد وكان عبد الله بن أبي ابن سلول كما حدثني ابن شهاب الزهري له مقام يقومه كل جمعة لا ينكر شرفاً له من نفسه ومن قومه وكان فيهم شريفاً إذا جلس النبي ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام فقال : أيها الناس هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم أكرمكم الله به وأعزكم به فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوا ثم يجلس

(١) انظر تفسير ابن كثير ١٥٣/٨

حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع يعني مرجعه بثلث الجيش ورجع الناس قام يفعل ذلك كما كان يفعله فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا اجلس أي عدو الله لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول : والله لكأنما قلت بجرا أن قمت أشدد أمره فلقيه رجال من الأنصار بباب المسجد فقالوا : ويلك ويلك ؟ قال قمت أشدّد أمره فوثب علي رجال من أصحابه يجذبونني ويعنفونني لكأنما قلت بَجْراً أن قمت أشدد أمره قالوا : ويلك ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ فقال : والله ما أبتغي أن يستغفر لي وقال قتادة والسدي : أنزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي وذلك أن غلاماً من قرابته انطلق إلى رسول الله ﷺ فحدثه بحديث عنه وأمر شديد فدعاه رسول الله ﷺ فإذا هو يحلف بالله ويتبرأ من ذلك ، وأقبلت الأنصار على ذلك الغلام فلاموه وعزلوه . وأنزل الله فيه ما تسمعون ، وقيل لعدو الله : لو أتيت رسول الله ﷺ فجعل يلوي رأسه أي لست فاعلاً[1] ، وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا أبو الربيع الزهراني حدثنا حماد بن زيد حدثنا أيوب عن سعيد بن جبير أن رسول الله ﷺ كان إذا نزل منزلاً لم يرتحل حتى يصلي فيه فلما كانت غزة تبوك بلغه أن عبد الله بن أبي ابن سلول لم يكن ممن خرج في غزوة تبوك بل رجع بطائفة من الجيش وإنما المشهور عند أصحاب المغازي والسير أن ذلك كان في غزوة المريسيع وهو غزوة بني المصطلق[2] .

وقال يونس بن بكير عن ابن إسحاق : حدثني محمد بن يحيى بن حبان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن عمر بن قتادة في قصة بني المصطلق فبينما رسول الله ﷺ مقيم هناك اقتتل على الماء جهجهاه بن سعيد الغفاري وكان أجيراً لعمر بن الخطاب وسنان بن يزيد قال ابن إسحق فحدثني محمد بن يحيى ابن حبان قال : ازدحما على الماء فاقتتلا . فقال سنان : يا معشر الأنصار وقال الجهجهاه : يا معشر المهاجرين وزيد بن أرقم ونفر من الأنصار عند عبد الله بن أبي فلما سمعها قال : قد ثاورونا في بلادنا والله ما مثلنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ثم أقبل على من عنده من قومه وقال هذا ما صنعتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم أما والله لو كففتم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها فسمعها زيد بن أرقم – رضي الله عنه – فذهب بها إلى رسول الله ﷺ وهو غليم عند عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – فأخبره الخبر فقال عمر – رضي الله عنه – يارسول الله مر عباد بن بشر فليضرب عنقه . فقال رسول الله ﷺ : (فكيف إذا تحدث الناس يا عمر أن محمداً يقتل أصحابه لا ولكن ناد يا عمر الرحيل) فلما بلغ عبد الله بن أبي أن ذلك قد بلغ رسول الله ﷺ أتاه فاعتذر إليه وحلف بالله ما قال ؟ ما قال عليه : زيد بن أرقم وكان عند قومه بمكان فقالوا : يارسول الله عسى أن يكون هذا الغلام أوهم ولم يثبت ما قال الرجل وراح رسول الله ﷺ مهجراً في ساعة كان لا يروح فيها فلقيه أسيد بن الحضير – رضي الله عنه – فسلم عليه بتحية النبوة ثم قال والله لقد رحت في ساعة

---

(١) سيرة ابن هشام ١٠٥/٢

(٢) تفسير الطبرى ٧١/٢٨

منكرة ما كنت تروح فيها فقال رسول الله ﷺ : (أما بلغك ما قال صاحبك ابن أبي ؟ زعم أنه إذا قدم المدينة سيخرج الأعز منها الأذل) قال فأنت يارسول الله العزيز وهو الذليل ثم قال أرفق به يارسول الله فوالله لقد جاء الله بك وإنا لننظم له الخرز لِنتوجَّهُ فإنه ليرى أن قد سلبته ملكاً فسار رسول الله ﷺ بالناس حتى أمسوا وليلته حتى أصبحوا وصدر يومه حتى اشتد الضحى ثم نزل بالناس ليشغلهم بما كان من الحديث فلم يأمن الناس أن وجدوا مس الأرض فناموا ونزلت سورة المنافقين(١).

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ . أخبرنا أبو بكر بن إسحاق أخبرنا بشر بن موسى . حدثنا الحميدي حدثنا سفيان . حدثنا عمرو بن دينار سمعت جابر ابن عبد الله يقول : كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال الأنصاري ياللأنصار وقال المهاجري ياللمهاجرين فقال رسول الله ﷺ : (ما بال دعوى الجاهلية ؟ دعوها فإنها منتنة)(٢). وقال عبد الله بن أبي بن سلول وقد فعلوها : والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل قال جابر : وكان الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين قدم رسول الله ﷺ ثم كثر المهاجرون بعد ذلك فقال عمر دعني أضرب عنق هذا المنافق فقال النبي ﷺ (دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه)(٣).

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر . حدثنا شعبة ، عن الحكم ، عن محمد بن كعب القرظي . عن زيد بن أرقم . قال : كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فقال عبد الله بن أبي : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، قال : فأتيت النبي ﷺ فأخبرته قال فحلف عبد الله بن أبي أنه لم يكن شيء من ذلك قال : فلامني قومي وقالوا : ما أردت إلى هذا ؟ قال فانطلقت فنمت كئيباً حزيناً قال : فأرسل إلى نبي الله ﷺ فقال : (إن الله قد أنزل عذرك وصدقك) قال : فنزلت الآية ﴿ **هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا** – حتى بلغ – **لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل** ﴾(٤).

ورواه البخاري عند هذه الآية عن آدم بن أبي إياس عن شعبة ثم قال : وقال ابن أبي زائدة : عن الأعمش . عن عمرو . عن ابن أبي ليلى . عن زيد عن النبي ﷺ ورواه الترمذي(٥) والنسائي عندها أيضاً من حديث شعبة به .

قال أبو عيسى الترمذي حدثنا عبد بن حميد حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن السدي عن أبي سعد الأزدي قال : حدثنا زيد بن أرقم قال : غزونا مع رسول الله ﷺ وكان معنا أناس من

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٢٩٠ – ٢٩٢

(٢) البخارى — كتاب التفسير — تفسير سورة المنافقون ١٩٢/٦ ومسلم — كتاب الدرباب نصر الأخ ظالما أو مظلوما ١٩٥٨ ومسند أحمد ٣٩٢/٣

(٣) مسند الإمام أحمد ٣٦٨/٣

(٤) البخارى تفسير سورة المنافقون ١٩٠/٦

(٥) رواه الترمذى فى تحفة الأحوذى تفسير سورة المنافقون الحديث رقم ٣٣٦٩ جزء ٢١٧/٩

الأعراب فكنا نبتدر الماء وكان الأعراب يسبقوننا إليه فسبق أعرابي أصحابه يملأ الحوض ويجعل حوله حجارة ويجعل النطع عليه حتى يجيء أصحابه قال : فأتى رجل من الأنصار الأعرابي فأرخى زمام ناقته لتشرب فأبى أن يدعه فانتزع حجراً فغاض الماء فرفع الأعرابي خشبته فضرب بها رأس الأنصاري فشجه فأتى عبد الله بن أبي رأس المنافقين فأضره وكان من أصحابه فغضب عبد الله بن أبي ثم قال : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا مْن حوله يعني الأعراب وكانوا يحضرون رسول الله ﷺ عند الطعام فقال عبد الله لأصحابه : إذا انفضوا من عند محمد فائتوا محمد بالطعام فليأكل هو ومن معه ثم قال لأصحابه لئن رجعنا إلى المدينة فليخرج الأعز منها الأذل . قال زيد وأنا ردف عمي قال : فسمعت عبد الله بن أبي يقول ما قال فأخبرت عمي فانطلق فأخبر رسول الله ﷺ فأرسل إليه رسول الله ﷺ فحلف وجحد قال فصدقه رسول الله ﷺ وكذبني قال فجاء إلى عمي فقال : ما أردت إلا أن مقتك رسول الله ﷺ وكذبك والمسلمون قال : فوقع عليّ من الغم ما لم يقع على أحد قط بينما أنا أسير مع رسول الله ﷺ في سفر وقد خففت برأسي من الهم إذ أتاني رسول الله ﷺ فعرك أذني وضحك في وجهي فما كان يسرني أن لي بها الخلد في الدنيا ثم إن أبا بكر لحقني وقال : ما قال لك رسول الله ﷺ ؟ قلت : ما قال شيئاً إلا أنه عرك أذني وضحك في وجهي فقال أبشر ثم لحقني عمر فقلت له مثل قولي لأبي بكر فلما أن أصبحنا قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقين(١) .

وقد قال ابن أبي حاتم – رحمه الله- : حدثنا محمد بن عزيز الإيلي حدثني سلام حدثني عقيل أخبرت محمد ابن مسلم أن عروة بن الزبير وعمرو بن ثابت الأنصاري أخبراه أن رسول الله ﷺ غزا غزوة المريسيع وهي التي هدم رسول الله ﷺ فيها مناة الطاغية التي كانت بين قفا المشلل وبين البحر فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فكسر مناة فاقتتل رجلان في غزوة رسول الله ﷺ تلك أحدهما من المهاجرين والآخر من بهز وهم حلفاء الأنصار فاستعلى الرجل الذي من المهاجرين على البهزي فقال **البهزى : يامعشر الأنصار فنصره رجال من الأنصار وقال : المهاجرى يامعشر المهاجرين فنصره رجال من** المهاجرين حتى كان بين أولئك الرجال من المهاجرين والرجال من الأنصار شيء من القتال ثم حجز بينهم فانكفأ كل منافق أو رجل في قلبه مرض إلى عبد الله بن أبي ابن سلول فقال : قد كنت ترجى وتدفع فأصبحت لا تضر ولا تنفع قد تناصرت علينا الجلابيب وكانوا يدعون حديث الهجرة الجلابيب . فقال عبد الله بن أبي – عدو الله – : والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . قال مالك بن الدخش وكان من المنافقين(٢) ألم أقل لكم لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا فسمع بذلك عمر بن الخطاب فأقبل يمشي حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله أئذن لي في هذا الرجل الذي قد أفتن الناس أضرب عنقه يريدعمر عبد الله بن أبي فقال رسول الله ﷺ لعمر : (أوقاتله أنت إن أمرتك بقتله ؟) قال عمر نعم والله لئن أمرتني بقتله لأضربن عنقه فقال

(١) تحفة الأحوذى ــ تفسير سورة المنافقون ٩/٢١٥ رقم ٣٣٦٨

(٢) أسد الغابة ٥ ٣٣٠

رسول الله ﷺ : (اجلس) فأقبل أسيد بن حضير وهو أحد الأنصار ثم أحد بني عبد الأشهل حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله أئذن لي في هذا الرجل الذي قد أفتن الناس أضرب عنقه فقال رسول الله ﷺ : (أوقاتله أنت إن أمرتك بقتله ؟) قال : نعم والله لئن أمرتني بقتله لأضربن بالسيف تحت قرط أذنيه . فقال رسول الله ﷺ (اجلس) ثم قال رسول الله ﷺ : (آذنوا بالرحيل) فهجر بالناس فسار يومه وليلته والغد حتى متع النهار ثم نزل ثم هجر بالناس مثلها حتى صبح بالمدينة في ثلاث مسارها من قفا المشلل فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أرسل إلى عمر فدعاه فقال له رسول الله ﷺ : (أي عمر أكنت قاتله لو أمرتك بقتله ؟) قال عمر : نعم . فقال رسول الله ﷺ : والله لو قتلته يومئذ لأرغمت أنوف رجال لو أمرتهم اليوم بقتله لقتلوه فيتحدث الناس أني قد وقعت على أصحابي فأقتلهم صبراً وأنزل الله عز وجل : ﴿ **هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا** - إلى قوله تعالى - **يقولون لئن رجعنا إلى المدينة** ﴾.

وقال محمد بن إسحق بن يسار حدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن عبد الله بن عبد الله بن أبي لما بلغه ما كان من أمر أبيه أتى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه فإن كنت فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار فقال رسول الله ﷺ : (بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا.)[1].

وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله هذا على باب المدينة واستل سيفه فجعل الناس يمرون عليه فلما جاء أبوه عبد الله بن أبيّ قال له ابنه : وراءك : فقال مالك ويلك ؟ فقال : والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل فلما جاء رسول الله ﷺ وكان إنما يسير مساقة فشكا إليه عبد الله بن أبيّ ابنه . فقال ابنه عبد الله : والله يارسول الله لا يدخلها حتى تأذن له فأذن له رسول الله ﷺ فقال : أما إذا أذن لك رسول الله ﷺ فجز الآنَ ، وقال أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي في مسنده : حدثنا سفيان بن عيينة . حدثنا أبو هارون المدني قال : قال عبد الله بن عبد الله بن أبيّ ابن سلول لأبيه : والله لا تدخل المدينة أبداً حتى تقول رسول الله ﷺ الأعز وأنا الأذل . قال وجاء إلى النبي ﷺ فقال : يارسول الله بلغني أنك تريد أن تقتل أبي فوالذي بعثك بالحق ماتأملت وجهه قط هيبة له ولئن شئت أن آتيك برأسه لأتيتك فإني أكره أن أرى قاتل أبي .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٢٩٢

الناكثون الناكصون الناقضون

إنهم المنافقون الناكثون للعهود الناكصون على أعقابهم الناقضون للعقود الذين حدثنا الله – تعالى – عنهم في قوله : ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن أتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين * فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون * فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون * ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علّام الغيوب * الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم * استغفر لهم أو لاتستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم * ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين * فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون * فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستئذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين * ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون * ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون * وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استئذنك اولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين * رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾[1].

إنهم أصحاب مسجد الضرار

إنهم المنافقون الذين اتخذوا مسجداً ضراراً قال – تعالى – في شأنه : ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون * لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه * فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين * أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين * لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم ﴾[2].

---

(١) سورة التوبة الآيات : ٧٥ – ٨٧

(٢) سورة التوبة الآيات : ١٠٧ – ١١٠

تحذير وإرشاد

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ
ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ
أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ
وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ
خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

المفردات : ﴿ **لا تلهكم** ﴾ : لا تشغلكم . ﴿ **أجلها** ﴾ : الأجل : آخر العمر .

أضـــواء كاشـــفة

يأيها الذين آمنوا لاتكونوا كالمنافقين الذين يغترون بالأموال والأولاد ويشتغلون بتدبيرها ورعايتها عند ذكر الله ، ولاشك أن من أهم الأسباب التى تدفع الإنسان إلى النفاق أو التحلل من الدين ، هو الإنشغال بالدنيا وعوارضها ، والانهماك الشديد فى تحصيلها ورعايتها ، فذلك مما يشغل الإنسان عن ذكر الله وعن عبادته ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ، لأنهم باعوا الباقية بالفانية ، واشتروا الضلالة بالهدى ، وليس معنى هذا أننا نترك الدنيا بما فيها من الأموال والأولاد . ولكن المنهى عنه هو الاشتغال بهما عن ذكر الله . أما اعطاء الدنيا حقها مع العبادة وذكر الله فهذا هو مطلوب الشرع الشريف ، وفى هذه الدائرة يتنافس المتنافسون .

﴿ وأنفقوا مما رزقناكم ﴾ انفقوا بعض ماجعلكم الله خلفاء فيه ، انفقوا بعضا يكن لكم حصنا ووقاية من عذاب الله ، انفقوا بعض المال يكن حصنا لكم ولمابكم حتى لاتذهب فى الدنيا ، ولاتعاقبوا عليها فى الآخرة ، انفقوا قليلا من المال من قبل أن يأتى أحدكم الموت أو مقدماته وأماراته فيقول حين يرى ماأعد للمتخلفين عن أوامر الله فيقول : رب لولا أخرتنى إلى أجل أى : إلى أجل قريب وأعطيتنى أمدا قصيرا فى الدنيا فأتصدق ببعض مالى ليكون وقاية لى من هذا العذاب واكن من العباد الصالحين .

ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها ، ولن يمهلها عين إذا جاء أجلهم لايستقدمون ساعة ولايستأخرون .

وهكذا كل مفرط فى دينه وعابث فى دنياه عند الاحتضار يكون نادما على مافرط سائلا الرب ـ سبحانه وتعالى ـ طول الأجل ، ولو مدة قصيرة يسيرة ليستعد وليستدرك مافاته ، ولكن هيهات هيهات ، قد كان ماكان وماهو آت آت والله خبير بما تعملون .

التفسـير

يقول تعالى آمراً لعباده المؤمنين بكثرة ذكره وناهياً لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك ومخبراً لهم بأنه من النهي بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خلق له من طاعة ربه وذكره فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ثم حثهم على الإنفاق في طاعته فقال : ﴿**وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين**﴾.

فضـل النفقـة

قال تعالى : ﴿ **أنفقوا من ما رزقناكم** ﴾ .

وقال – جل شأنه – : ﴿ **ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾[(١)].

وللنفقة مكانة عظيمة في الإسلام ولصاحبها قدم صدق عند الله كما له الأجر العظيم في الدنيا والآخرة ومن ثم فقد حث الرسول الكريم على النفقة ورغب فيها كما حذر من البخل ورهب منه ونحن نسوق هذا الحشد الكريم من الأحاديث النبوية الجليلة التي تبين لنا ما للنفقة والمنفقين من عظيم الأجر وكريم المثوبة .

١ – عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : (من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل) رواه البخاري ومسلم[(٢)].

بعدل : أي : بمقدار . طيب : حلال .

٢ – وفي رواية لابن خزيمة : إن العبد إذا تصدق من طيب تقبلها الله منه وأخذها بيمينه فرباها كما يربي أحدكم مهره أو فصيله وإن الرجل ليتصدق باللقمة فتربو في يد الله أو قال في كف الله حتى تكون مثل الجبل فتصدقوا[(٣)].

---

(١) سورة الحشر آية : ٩

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ــ كتاب الزكاة ــ باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها رقم ٥٩٥

(٣) صحيح ابن خزيمة ــ كتاب الزكاة ٩٣/٤ رقم ٢٤٢٦

٣ – وفي رواية صحيحة للترمذي قال رسول الله ﷺ : (إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد وتصديق ذلك في كتاب الله :

﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم ﴾ .

ورواه مالك[1] بنحو رواية الترمذي هذه عن سعيد بن يسار مرسلاً لم يذكر أبا هريرة .

٤ – وعن عائشة – رضي الله عنها – عن رسول الله ﷺ قال : إن الله ليربى لأحدكم التمرة واللقمة كما يربى أحدكم فلوّه أو فصيله حتى تكون مثل أحد . رواه الطبراني وابن حبان في صحيحه واللفظ له[2].

٥ – وروى عن أبي برزة الأسلمي – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « إن العبد ليتصدق بالكسرة تربو عند الله – عز وجل – حتى تكون مثل أحد » رواه الطبراني في الكبير[3].

٦ – وروى عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله – عز وجل – ليدخل باللقمة الخبز وقبصه التمر ، ومثله مما ينتفع به المسكين ثلاثة الجنة أبَّ البيت الآمر والزوجة تصلحه والخادم الذي يناول المسكين فقال رسول الله ﷺ : « الحمد لله الذي لم ينس خدمنا » رواه الحاكم والطبراني في الأوسط[4].

المعنى : أي داوموا على ذكر الله وحمده وتسبيحه واستغفاره والصلاة على حبيبه ﷺ .

ويبين ﷺ أن الإنفاق لله يجلب سعة الرزق ويقضي الحاجات ويكون سبب الفوز والنجاح والشفاء ونيل المأمول .

---

(١) موطأ مالك ــ كتاب الصدقة ٩٩٥/٢ رقم ١ وسنن الترمذى ــ كتاب الزكاة ٤١/٣ رقم ٦٦٢

(٢) مجمع الزوائد للهيثمى ١١١/٣ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١٣٤/٥

(٣) مجمع الزوائد للهيثمى ١١٠/٣

(٤) المستدرك للحاكم ١٣٤/٤ ومجمع الزوائد ١١٢/٣

القبصه : بفتح القاف وضمها ، وإسكان الباء ، وبالصاد المهملة : هو ما يتناوله الآخذ برءوس أنامله الثلاث .

قال تعالى : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم * ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم * وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾(١).

أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يأخذ من المسلمين صدقة ﴿ **تطهرهم** ﴾ من الذنوب ، وحب المال وتنمي بها حسناتهم وترفعهم إلى منازل المخلصين ﴿ **وصل عليهم** ﴾ واعطف عليهم بالاستغفار لهم والدعاء ﴿ **إن صلاتك سكن لهم** ﴾ تسكن إليها نفوسهم وتطمئن بها قلوبهم وجمعها لتعدد المدعو لهم ﴿ **ويأخذ الصدقات** ﴾ يقبلها قبول من يأخذ شيئاً ليؤدي بذله سبحانه من شأنه قبول توبة التائبين ، والتفضل عليهم .

اللهم إنا نتوجه إليك بسيدنا رسول الله ﷺ أن تقبل توبتنا ، فكما أن الصدقة المعطاة بإخلاص لك ، ومحبة في ثوابك تقبل كذلك نتوسل إليك بمحبتنا إلى سندنا الأقوى وحبيبنا وقرة عيوننا أن تتفضل علينا بالرحمة والقبول وتهب لنا توفيقاً يزيدنا طاعة وإقبالاً على الصالحات بمنّك وكرمك .

٧ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « ما نقصت صدقة من مال ومازاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله - عز وجل - » رواه مسلم والترمذي ، ورواه مالك مرسلاً(٢) .

٨ - وروى عن ابن عباس - رضي الله عنهما - يرفعه قال : ما نقصت صدقة من مال وما مد عبد يده بصدقة إلا ألقيت في يد الله قبل أن تقع في يد السائل ولا فتح عبد باب مسئلة له عنها غنى إلا فتح الله له باب فقر . رواه الطبراني(٣) .

المعنى : الله تعالى منزه عن مشابهة الحوادث وليست له يد بالمعنى المفهوم من يدنا إنما هذا لتقريب الأفهام إن الله يعطف بالرحمة على المعطي ويزيده كرامة ويمده بإحسان ويضاعف ثوابه ويقبل عليه برعايته وبركاته .

مسئلة : سؤال . باب فقر : ذلة وضعة وشره نفس وطمع .

٩ - وروى عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهم - قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : **يا أيها الناس توبوا الى الله قبل أن تموتوا وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا وصلوا الذى بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له وكثرة الصدقة فى السر والعلانية تجبروا وتنصروا وترزقوا .**

---

(١) سورة التوبة الآيات : ١٠٣ - ١٠٥

(٢) صحيح مسلم ــ كتاب البر والصلة ٢٠٠١/٤ رقم ٢٥٨٨ وسنن الترمذى ــ كتاب البر والصلة ٣٧٦/٤ رقم ٢٠٢٩ وموطأ مالك ــ كتاب الصدقة ١٠٠٠/٢ رقم ١٢

(٣) المعجم الكبير للطبرانى ٤٠٥/١١ رقم ١٢١/٥٠

ومعنى تجبروا : تجب دعواتكم وتغتنوا وفي النهاية (وفي حديث الدعاء) . واجبرني واهدني : أي أغنني ، من جبر الله مصيبته : أي رد عليه ما ذهب منه وعوضه وأصله من جبر الكسر وفي أسماء الله – تعالى – الجبار : أي الذي يقهر العباد على ما أراد من أمر ونهي ، وقيل : هو العالي فوق خلقه .

١٠ – وروى عن عائشة – رضي الله عنها – أنهم ذبحوا شاة فقال النبي ﷺ : ما بقى منها ؟ قالت : ما بقى منها إلا كتفها . قال : بقى كلها غير كتفها ، رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح ومعناه : أنهم تصدقوا بها إلا كتفها[١].

المعنى : .... تصدق ﷺ بلحم الشاة كلها إلا كتفها القطعة الأمامية فقط ثم سأل ﷺ سؤال براعة وكمال : ما بقى منها ؟ وأجاب ﷺ ليعلم المسلمين أن الذي يذهب لله هو الباقي ثوابه الخالد بنعيمه الجزيل الأجر قال تعالى : ﴿ **ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون * من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون** ﴾[٢] وفيه الحث على الصدقة والإكثار من الإحسان .

١١ – وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول العبد : مالي مالي إنما له من ماله ثلاث : ما أكل فافنى أو لبس فأبلى أو أعطى فاقتنى وما سوى ذاك فهو ذاهب وتاركه للناس » رواه مسلم[٣].

المعنى : مالي مالي : أحب مالي . فأبلى : أخلق وتقطع .

أو أعطى فاقتني : فأبقي . والمعنى يميل الإنسان إلى جمع المال ويشتاق إليه ولكن نصيبه من ماله ثلاثة :

(أ) يتنعم به المطعومات ويتذوقه ويتلذذ به .

(ب) أنواع الملابس والزينة والمركب والأثاث والأبهة .

(جـ) التصدق وتشييد المكرمات . فإذا لم يستفد الإنسان في حياته من هؤلاء فلا فائدة في ماله ، وهو ذاهب إلى ورثته . قال تعالى : ﴿ **يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي**

---

(١) سنن ابن ماجه ــ كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ــ باب فرض الجمعة ٣٤٣/١ رقم ١٠٨١

(٢) الترمذى ــ كتاب صفة القيامة ٦٤٤/٥ رقم ٢٤٧٠ وقال : حديث حسن صحيح

(٣) سورة النحل الآيتان : ٩٦ ، ٩٧

صحيح مسلم ــ كتاب الزهد والرقائق ٢٢٧٣/٤ رقم ٢٩٥٩

للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون * قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله مالا تعلمون ﴾(١).

﴿ **زينة الله** ﴾ : من الثياب ، وما يتجمل به كالقطن والكتان والحيوان كالحرير والصوف والمعادن كالدروع ، ﴿ **الطيبات** ﴾ : المستلذات من المآكل والمشارب وفيه دليل على أن الأصل في المطاعم والملابس والمتجملات الإباحة .

﴿ **الفواحش** ﴾ : ما تزايد قبحه جهرها وسرها .

﴿ **الإثم** ﴾ : الذنب .

وقيل : شرب الخمر ﴿ **والبغي** ﴾ الظلم أو الكبر واجتنبوا الإلحاد في صفاته تعالى سبحانه والافتراء عليه تهكماً بالكفرة كقولهم : الله أمرنا بها .

قال الشاعر :

النفس تبكي على الدنيا وقد علمت ... أن السلامة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها ... إلا التي كان قبل الموت يبنيها
فإن بناها بخير طاب مسكنه ... وإن بناها بشر خاب بانيها
أين الملوك التي كانت مسلطنة ... حتى سقاها بكأس الموت ساقيها
أموالنا لذوي الميراث نجمعها ... ودورنا لخراب الدهر نبنيها

وقال آخر :

غداً توفي النفس ما كسبت ... ويحصد الزارعون ما زرعوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم ... وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

١٢ - وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله ؟ قالوا يارسول الله : ما منا أحد إلا ماله أحب إليه قال : فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر » رواه البخاري والنسائي(٢).

١٣ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « بينا رجل في فلاة من الأرض فسمع صوتاً في سحابه . اسق حديقة فلان فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرة فإذا شَرْجَةٌ من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله فتتبع الماء فإذا رجل قائم في حديقة يحول الماء بمسحاته فقال له : ياعبد الله ما اسمك ؟ قال : فلان للإسم الذي سمع في السحاب الذي هذا ماؤه

(١) سورة الآيات : ٣١ - ٣٣

(٢) صحيح البخارى ــ كتاب الرقاق ــ باب ما قدم من ماله فهو له ١١٦/٨ وسنن النسائى ــ كتاب الوصايا باب الكراهية فى تأخير الوصية ٢٣٧/٦

يقول :اسق حديقة فلان لاسمكفما تصنع فيها ؟ قال : أما إذا قلت هذا ؟ فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه وآكل أنا وعيالي ثلثه وأرد ثلثه » رواه مسلم[١] .

المعنى : يقص لك ﷺ حكاية المتصدق « فأتصدق بثلثه » يسوق الله له غيثاً ويبعث له مطراً ويرسل له ماء مسخراً من قبل الله يتوجه لزرعه ذلك الرجل الصالح المحسن ، وقد أسمعه الله كرامة له صوت ذلك الذي في السحاب : (اسق حديقة فلان) وسط صحراء لا نبات فيها ، والدرس من هذا الحديث العذب طلب الإنفاق لله وكثرة الصدقة والعمل لله والله يهب الأرزاق ويعطي البركة للمزكين . قال – تعالى – : ﴿ **وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد** ﴾[٢] .

أين الملحدون المنكرون كرامة الأولياء وهذا رجل في بستانه شاهد عمله رجل آخر سمع صوتاً في السحابة ومشى مع مسيل الماء فسأل عن صاحب البستان فطابق الاسم المنادي فاستفهم : مما تصنع فيها ؟ فأجاب :

(أ) ينفق ثلث إيراد الحديقة لله .

(ب) وينفق على أهله وأسرته الثلث الثاني .

(جـ) ويشتري ما يلزم للزراعة من الثلث الأخير .

هل يتعظ المسلمون بهذا ، ملائكة الله تسوق الأمطار لسقى الصالحين وري أرضهم إن من نظام الله البديع أن سخر ملائكته لأعمال اقتضتها حكمته – سبحانه – ومنها الموكلون بالسحاب وقد سمعت الأمر (اسق حديقة فلان) .

قال – تعالى – :

(أ) ﴿ **أفرأيتم الماء الذي تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون** ﴾[٣] .

فأنت ترى نعم الله العظيمة ، ومنها : الماء العذب الذي نشربه ينزله الله من السحاب حسب إرادته تفضلاً على عباده ولو شاء لجعله ملحاً – من الأجيج الذي يحرق الفم . سبحانه نحمده ونشكر فضله ومن شكره الإنفاق في الخير والصدقة على المحتاجين وعمل البر وقال تعالى في بيان فضله ودلائل قدرته :

(ب) ﴿ **أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ماكان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون** ﴾[٤] .

---

(١) صحيح مسلم ــ كتاب الزهد والرقائق ــ باب الصدقة في المساكين ٤/٢٢٨٨ رقم ٢٩٨٤

(٢) سورة الشورى الآية : ٢٨

(٣) سورة الواقعة الآية : ٦٨ – ٧٠

(٤) سورة النمل الآية : ٦٠

سبحانه لا يقدر على إنبات الحدائق المختلفة الأنواع المتباعدة الطباع غيره ، فأنفقوا حباً في ثوابه .

(جـ) وقال – تعالى – : ﴿ **أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون** ﴾(١). الجرز : الصحراء .

(د) وقال – تعالى – : ﴿ **وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهوراً * لنحيي به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً** ﴾(٢).

بشراً : مبشراً قدام المطر ليترعرع النبات . أناسي جمع إنسي أو إنسان .

(هـ) وقال – تعالى – : ﴿ **وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون** ﴾(٣).

سقت لك هذه الآيات لتعلم أن ماء الأنهار من الله – تعالى – ، وأصله من السحاب عسى أن تتقي الله وتشكر له – سبحانه – فضله وإحسانه إليك وتجتهد في كثرة الإنفاق في عمل البر ، وتشييد المكرمات ، وفعل الصالحات وترسم أمامك حب الخير ، وأداء الزكاة ، ووفرة الصدقات واقتد بذلك الصالح الذي وجه الله السحاب فسقى زرعه . فحافظوا أيها المسلمون على الإنفاق رجاء وفرة ماء السماء .

قال – تعالى – :

(أ) ﴿ **وماتنفقوامن شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون** ﴾(٤).

(ب) ﴿ **وما تنفقوا من خير يوف إليكم** ﴾(٥) وأداء الزكاة خلة ثالثة للمتقين الكرماء في قوله تعالى :

(جـ) ﴿ **هدى ورحمة للمحسنين * الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾(٦) وقال تعالى :

(د) ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾(٧).

﴿ **العدل** ﴾ : حب الحق والتوسط في الأمور وتوحيد الله والجود .

---

(١) سورة السجدة الآية : ٢٧
(٢) سورة الفرقان الآيتان : ٤٨ ، ٤٩
(٣) سورة الأعراف الآية : ٥٧
(٤) سورة الأنفال الآية : ٦٠
(٥) سورة البقرة الآية : ٢٧٢
(٦) سورة لقمان الآيات : ٣ – ٥
(٧) سورة النحل : ٩٠

﴿ **الإحسان** ﴾ : إحسان الطاعات ، وهو إما بحسب الكلمة كالتطوع بالنوافل أو بحسب الكيفية كما قال – عليه الصلاة والسلام – : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[٨].

﴿ **وإيتاء ذي القربى** ﴾ : وإعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه .

﴿ **الفحشاء** ﴾ : الإفراط في متابعة القوة الشهوية كالزنا فإنه أقبح أحوال الإنسان وأشنعها .

﴿ **المنكر** ﴾ : القبيح الذي نهى عنه الشارع وما ينكر على متعاطيه في إثارة القوة الغضبية .

﴿ **البَغي** ﴾ : (الاستعلاء والاستيلاء على الناس والتجبر عليهم) .

وقال تعالى :

(هـ) ﴿ **إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** ﴾[١].

أنفق أيها المسلم لتندرج في سلك الذين شملهم برحمته ولتندمج في عقد المتقين المشمولين برعايته .

﴿ **اتقوا** ﴾ : اتقوا المعاصي .

﴿ **محسنون** ﴾ : في أعمالهم بالولاية والفضل ، أو مع الذين اتقوا الله لتعظيم أمره ، والذين هم محسنون بالشفقة على خلقه ومن الرأفة الزكاة وإخراج الصدقة وإذا إطلعت على أشعار العرب وجدت المروءة السامية والرغبة في الإحسان والتفاخر بالجود .

قال دعبل الخزاعي الشاعر المشهور لتعرف موسيقى طربه غليان قدره واعتماده على الله – تعالى – في طلب الرزق : .

بانت سليمى وأمسى حبلها انقضبا … وزودك ولم يرثوا لك الوصبا
قالت سلامة أين المال ؟ قلت لها … المال ويحك لاقى الحمد فاصطحبا
الحمد فرق مالي في الجفون فما … أبقين ذماً ولا أبقين لي نشبا
قالت سلامة دع هذا اللبون لنا … لصبية مثل أفراخ القطا زغبا
قلت احبسيها ففيها متعة لهم … إن لم ينخ طارق يبغي القرى سغبا
لما احتبى الضيف وأعقلت حلوبتها … بكى العيال وغنى قدرنا طربا
هذا سبيل وهذا فاعلمي خلقي … فأرضي فه أو فكوني بعض من غضبا
مالا يفوت وما قد فات مطلبه … فلن يفوتني الرزق الذي كتبا
أسعى لأطلبه والرزق يطلبني … والرزق أكثر لي مني له طلبا
هل أنت واجد شيء لو عنيت به … كالأجر والحمد مرتاداً ومكتسبا

وإن الله بعث لنا النعم لنتمتع بخيراتها وننفق ونأكل على شريطة استعمالها فيما يرضى قال الله تعالى :

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ــ كتاب الإيمان رقم ٥
سورة النحل الآية : ١٢٨

﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين ﴾[١] .

﴿ فيما طعموا ﴾ : مما لا يحرم عليهم .

﴿ اتقوا ﴾ : واثبتوا على الإيمان والأعمال الصالحة .

﴿ ثم اتقوا ﴾ : ما حرم عليهم كالخمر .

﴿ آمنوا ﴾ : أي : آمنوا بتحريمه .

﴿ ثم اتقوا ﴾ : ثم استمروا وثبتوا على اتقاء المعاصي .

﴿ وأحسنوا ﴾ : وتحروا الأعمال الجليلة واشتغلوا بها قال البيضاوي : باعتبار المراتب الثلاث في المبدأ والوسط والمنتهي . أو باعتبار ما تبقى فإنه ينبغي أن يترك المجرمات توقياً من العقاب والتشبهات ، تحرزاً عن الوقوع في الحرام وبعض المباحات تحفظاً للنفس عن الخسة وتهذيباً لها عن دنس الطبيعة .

﴿ المحسنين ﴾ : فلا يؤاخذهم بشيء ، وفيه أن من فعل ذلك صار محسناً ومن صار محسناً صار لله محبوباً .

وإن من الإحسان العطف على الفقراء والإنفاق على البائسين وإخراج جزء من المال والمساعدة على فعل البر وإنشاء مشروعات الخير لتكسب المحامد وهذه تعاليم الله - تعالى - لبني إسرائيل . قال البيضاوي : إن بني إسرائيل لما فرغوا من فرعون واستقروا بمصر أمرهم الله - سبحانه وتعالى - بالمسير إلى أريحاء من أرض الشام وكان يسكنها الجبابرة الكنعانيون ، وقال : إني كتبتها لكم داراً وقراراً فاخرجوا إليها وجاهدوا من فيها فإني ناصركم ، وأمر موسى - عليه الصلاة والسلام - أن يأخذ من كل سبط كفيلاً عليهم بالوفاء بما أمروا به فأخذ عليهم الميثاق . واختار منهم النقباء . وسار بهم فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون الأخبار . ونهاهم أن يحدثوا قومهم . فرأوا أجراماً عظيمة وبأساً شديداً ، فهابوا ورجعوا . وحدثوا قومهم . ونكثوا الميثاق إلا كالبسا بن يوقنا من سبط يهوذا ويوشع بن نون من سبط أفرانيم بن يوسف .

قال - تعالى - : ﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل * فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين ﴾[٢] .

---

(١) سورة المائدة الآية : ٩٣

(٢) سورة المائدة الآيتان : ١٢ ، ١٣

﴿ **وعزرتموهم** ﴾ : نصرتموهم وقويتموهم .

﴿ **قرضاً حسناً** ﴾ : بالإنفاق في سبيل الخير .

﴿ **لعناهم** ﴾ : طردناهم من رحمتنا . أو ضربنا عليهم الجزية ، أو مسخناهم .

﴿ **مما ذكروا به** ﴾ : من التوراة ، أو من اتباع محمد ﷺ قال ابن مسعود : (قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية) . وفيه تنبيه على أن العفو من الكافر الخائن إحسان . فضلاً عن العفو عن غيره . احتوى الميثاق والمعاهدة على خمس مواد .

أولاً : أداء الصلاة ، ثانياً : الزكاة ، ثالثاً : الإيمان بالرسل . رابعاً : تأييدهم والعمل بشريعتهم وحبهم . خامساً : الإنفاق في عمل الخير وتشييد الصالحات . هذا عهد الله لأولاد آدم يعملون بقرآنه وإلا زال نعمته منهم وسلب فضله وأخذ خيره وبعث الجهل وفشا الشقاق وسادت الفوضى وانتزعت البركة ووقتئذ تتلى المواعظ فلا تتأثر القلوب ولا تتعظ الأفئدة ﴿ **ونسوا حظاً مما ذكروا به** ﴾ قال الشاعر :

إذا جادت الدنيا عليك فجد بها ... على الناس طراً إنها تتقلب
فلا الجود يفنيها إذا هي أقبلت ... ولا البخل يبقيها إذا هي تذهب

١٤ – وعن عديّ بن حاتم – رضي الله عنه – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم ، فينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم ، فينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة .

وفي رواية : من استطاع منكم أن يستتر من النار ولو بشق تمرة فليفعل . رواه البخاري ومسلم(١) .

١٥ – وعند عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « ليتق أحدكم وجهه النار ولو بشق تمرة . رواه أحمد بإسناد صحيح(٢) .

١٦ – وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت : قال رسول الله ﷺ : يا عائشة استتري من النار ولو بشق تمرة فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان . رواه أحمد بإسناد حسن(٣) .

١٧ – وروى عن أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – قال : سمعت رسول الله ﷺ على أعواد المنبر يقول : اتقوا النار ولو بشق تمرة فإنها تقيم **المعوج** وتدفع ميتة السوء وتقع من الجائع موقعها من الشبعان . رواه أبو يعلي والبزار وقدر روى هذا الحديث عن أنس وأبي هريرة وأبي ، والنعمان بن بشير

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ــ كتاب الزكاة ــ باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة رقم ٥٩٧
(٢) مسند أحمد ٣٨٨/١
(٣) مسند أحمد ٧٩/٦

وغيرهم من الصحابة – رضي الله عنهم –[١].

المعنى :

الصدقة : تدل على حسن الخاتمة وتبعد السوءات وتزيل المكاره .

وتسد رمق الجائع وتنفعه .

١٨ – وعن جابر – رضي الله عنه – أنه سمع رسول الله ﷺ يقول لكعب بن عُجرة : يا كعب ابن عجرة : الصلاة قربان والصيام جنة والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار يا كعب بن عجرة : الناس غاديان فبائع نفسه فموثق رقبته ومبتاع نفسه في عتق رقبته . رواه أبو يعلي بإسناد صحيح[٢].

المعـــنى :

تقربك من رحمة الله وتجلب رضاه .

والصيام جنة : وقاية له من السوء .

تطفىء الخطيئة : تزيل أثر الذنب .

غاديان : ذاهبان وقاصدان : أي هما صنفان صنف يعمل ليبعد من جهنم ويفك أسره من العذاب . وآخر يعمل سوءاً ويغضب (به) فيستحق العذاب ويحق عليه الذل والأسر .

١٩ – وعن كعب بن عجرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : يا كعب بن عجرة إنه لا يدخل الجنة لحم ودم نبتا على سحت النار أولى به . يا كعب بن عجرة : الناس غاديان فغادٍ في فكاك نفسه فمعتقها ، وغادٍ فموثقها ، يا كعب بن عجرة : الصلاة قربان والصوم جنة والصدقة تطفىء الخطيئة كما يذهب الجليد على الصفا . رواه ابن حبان في صحيحه[٣].

المعـــنى :

السحت : أكل أموال الناس بالباطل كالرشوة والظلم والسرقة والنهب والمكس وكل مال أخذه بلا طريق شرعي يحرم الله عليه الجنة فلا يدخلها .

أي : ذاهب لإزالة العذاب بالعمل الصالح في حياته ، والثاني ذاهب إلى تمكين عرى الذل وإدخال جهنم بما يقترفه من الخطايا .

٢٠ – وعن معاذ بن جبل قال : كنت مع النبي ﷺ في سفر فذكر الحديث إلى أن قال فيه : ثم قال : يعني النبي ﷺ : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ قلت : بلى يارسول الله . قال : « الصوم جنة والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار » . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح[٤].

---

(١) كشف الأستار عن زوائد البزار ٤٤٢/١ رقم ٩٣٣

(٢) أبو يعلى

(٣) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٤٣٦/٧

(٤) سنن الترمذى ــ كتاب الإيمان ــ باب ما جاء فى حرمة الصلاة ١٢/٥ رقم ٢٦١٦ وقال : حديث حسن صحيح

٢١ – وعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الصدقة لتطفىء غضب الرب ـ تدفع منية السوء » . رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه[١].

المعـــــنى :

الإحسان إلى الفقراء والإنفاق في الخير يبعد سوء الخاتمة ويرشد إلى المحامد ويضمن حسن العاقبة كما قال تعالى :

(أ) ﴿ **والعاقبة للتقوى** ﴾ : أي : حسن العاقبة لأهل التقوى .

(ب) ﴿ **وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام** ﴾[٢].

وقال تعالى لحبيبه ﷺ ليعلم أمته : ﴿ **إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير** ﴾[٣].

﴿ **بالغيب** ﴾ : غائبين عن عذابه ، أو عن الناس في خلواتهم ، ومن تطهر من دنس المعاصي ، وأنفق في الخير جازاه الله بالنعيم على تزكيته ، على أن عدم الإنفاق قد يجر إلى الإلحاد وعدم الصدقة وراءها قسوة القلب وغفلته عن الله وقد دعا النبي ﷺ الناس إلى توحيد الله والاستقامة في العمل : ﴿ **فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون** ﴾[٤] فامتناعهم عن الزكاة كما قال البيضاوي : لاستغراقهم في طلب الدنيا ، وإنكارهم للآخرة لبخلهم وعدم إشفاقهم على الخلق .

وإن الله – تعالى – أمر أزواج خير الخلق ﷺ : ﴿ **وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله** ﴾[٥].

أي : في سائر ما أمركن به ونهاكن عنه . وقد وعد – سبحانه – خصالاً عشرة يقوم بها رجال أبرار أطهار أخيار منها : ﴿ **والمتصدقين والمتصدقات** ﴾ في قوله – تعالى – : ﴿ **إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً** ﴾[٦].

فانظر رعاك الله إلى هذا الثواب الجزيل وقد ضمن الله حسنى الخاتمة للمنفق في البر .

---

(١) سنن الترمذي ٣/٤٣ رقم ٦٦٤ وقال : حديث حسن غريب والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٥/١٣١ رقم ٣٢٩٨

(٢) سورة ابراهيم الآية : ٢٣

(٣) سورة فاطر الآية : ١٨

(٤) سورة فصلت الآيتان : ٦ ، ٧

(٥) سورة الأحزاب الآية : ٣٣

(٦) سورة الأحزاب الآية : ٣٥

٢٢ – وعن أبي كبشة الأنماري – رضي الله عنه – أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « ثلاث أقسم عليهن وأحدثكم حديثاً فاحفظوه ، قال : ما نقص مال عبد من صدقة ، ولا ظلم عبدٌ مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عزاً ، ولا فتح عبدٌ باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر ، أو كلمة نحوها ، وأحدثكم حديثاً فاحفظوه . قال : إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربه ويصل فيه رحمه ، ويعلم لله فيه حقاً فهذا بأفضل المنازل ، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء ، وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً يخبط في ماله بغير علم ، ولا يتقي فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقاً فهذا بأخبث المنازل ، وعبدٌ لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول : لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته **فوزرهما سواء** » رواه الترمذي وابن ماجه وقال الترمذي حديث حسن صحيح[1].

المعـــنى :

فوزرهما : ذنبهما . فقد بين طبيب النفوس ﷺ رغبات الإنسان في الحياة :

أولاً : رجل موفق مسدد الخطوات بر صالح وغني وعالم فاستعمل بماله ما يشيد له المكرمات الصالحات ونفعه الله بعلمه فأثمر في غرس المحامد وفعل المكارم فأفاد واستفاد .

ثانياً : عالم وفقير فعمل بعلمه . وتمنى لو اغتنى لفعل خيراً فثوابه ثواب من فعل .

ثالثاً : غني شرير أطلق عنان ماله في فعل المفاسد وارتكاب المحارم وطغى وبغى وقطع أقاربه وحرم المسكين فهذا في الدرك الأسفل من النار وأردأ عاقبة وبئس مآله .

رابعاً : رجل فقير ولكن نيته خبيثة منعه عن الموبقات ضيق يده ولم يخش الله ولم يرجه سبحانه ، ويتمنى لو يغتني لأجرم وسلك سبيل الدعارة فكأنه فعل ذلك وعوقب أشنع عقاب وباء بسوء العاقبة .

٢٣ – وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : ضرب رسول الله ﷺ مثل البخيل والمتصدق : كمثل رجلين عليهما جنتان من جديد قد اضطرت أيديهما إلى ثديهما وتراقيهما فجعل المتصدق كلما تصدق بصدقة انبسطت عنه حتى تغشى أنامله وتعفو أثره ، وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلصت وأخذت كل حلقة بمكانها . قال أبو هريرة : فأنا رأيت رسول الله ﷺ يقول : بأصبعيه هكذا في جيبه يوسعها ولا تتوسع . رواه البخاري ومسلم والنسائي ولفظه :

مثل المنفق المتصدق والبخيل : كمثل رجلين عليهما جبتان ، أو جنتان من حديد من لدن ثديهما إلى تراقيهما فإذا أراد المنفق أن ينفق اتسعت عليه الدرع أو مرت حتى تجنَّ بنانه وتعفو أثره ، فإذا أراد

(١) سنن الترمذى ــ كتاب الزهد ــ باب مثل الدنيا مثل أربعة نفر ٥٦٢/٤ رقم ٢٣٢٥ وابن ماجه ــ كتاب الزهد باب النية ١٤١٣/٢ رقم ٤٢٢٨

البخيل أن ينفق قلصت ولزمت كل حلقة موضعها حتى أخذت بترقوته أو برقبته ، يقول أبو هريرة – رضي الله عنه – أشهد أنه رأى رسول الله ﷺ يوسعها ولا تتسع[1] .

[الجنة] : بضم الجيم وتشديد النون : كل ما وقى الإنسان ويضاف إلى ما يكون منه .

[التراقي] : جمع ترقوة بفتح التاء وضمها لحن : وهو العظم الذي يكون بين ثغرة نحر الإنسان وعاتقه .

[وقلصت] : بفتح القاف واللام : أي : انجمعت وتشمرت وهو ضد : استرخت وانبسطت .

[والجيب] : هو الخرق الذي يخرج الإنسان منه رأسه في الثوب ونحوه .

المعنـــى :

قال النووي : معنى تقلصت : انقبضت ، ومعنى يعفو أثره : أي عَمِي أثر مشيه بسبوغها وكمالها ، وهو تمثيل لنماء المال بالصدقة والإنفاق ، والبخل بضد ذلك ، وقيل : هو تمثيل لكثرة الجود والبخل ، وأن المعطي إذا أعطى انبسطت يداه بالعطاء ، وتعود ذلك وإذا أمسك صار ذلك عادة له ، وقيل : معنى يمحو أثره : أي : يذهب بخطاياه ويمحوها ، وقيل : في البخيل قلصت ولزمت كل حلقة مكانها : أي يحمي عليه يوم القيامة فيكوي بها والصواب الأول والحديث جاء على التمثيل لا على الخبر عن كائن . وقيل : ضرب المثل بهما لأن المنفق يستره الله تعالى بنفقته ، ويستر عورته في الدنيا والآخرة كستر هذه الجنة لابسها ، والبخيل كمن لبس جنة إلى ثدييه فيبقى مكشوفاً بادي العورة مفتضحاً في الدنيا والآخرة . هذا آخر كلام القاضي عياض رحمه الله – تعالى – .

٢٤ – عن مالك – رحمه الله – أنه بلغه عن عائشة – رضي الله عنها – أن مسكيناً سألها وهي صائمة ، وليس في بيتها إلا رغيف ، فقالت لمولاة لها : أعطيها إياه فقالت : ليس لك ما تفطرين عليه ، فقالت : أعطيها إياه . قالت : ففعلت ، فلما أمسينا أهدى لها أهل بيت أو إنسان ماكان يهدي لها شاة وكفنها فدعتها عائشة ، فقالت كلي من هذا خير من قرصك .

المعنـــى :

لمولاة : لخادمة . معناه أن السيدة عائشة – رضي الله عنها – جادت بما عندها ثقة بالله واعتماداً على الرزاق جل وعلا وإجابة للسائل كما أمر ﷺ فأثابها الله – سبحانه – وعوضها خيراً وزادها براً وأجراً وإحساناً ونعيماً – (شاة وطعاماً وكل ما يلزم) فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم .

٢٥ – قال مالك : وبلغني أن مسكيناً استطعم عائشة أم المؤمنين – رضي الله عنها – وبين يديها عنب : فقالت لإنسان خذ حبة فأعطه إياها فجعل ينظر إليها ويعجب فقالت عائشة – رضي الله عنها – : أتعجب كم ترى هذه الحبة من مثقال ذرة ؟

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـــ كتاب الزكاة ـــ باب مثل المنفق والبخيل رقم ٦٠٠ وسنن النسائي ـــ كتاب الزكاة ـــ باب صدقة البخيل ٥/٧٢

المعـــنى :

أتصدق بهذا لأنال بوزنه حسنات من الله – جل وعلا سبحانه – المنفق المخلف ، قال تعالى :

(أ) ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴾[١] .

(ب) ﴿ وأقرضوا الله قرضاً حسناً وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾[٢] .

قال البيضاوي : يريد به الأمر في سائر الإنفاقات في سبيل الخيرات أو بأداء الزكاة على أحسن وجه والترغيب فيه بوعد العوض كما صرح به (وأعظم) من متاع الدنيا (واستغفروا الله) في مجامع أموالكم فإن الإنسان لا يخلو من تفريط .

٢٦ – وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : قال رجل : لأتصدقن بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق فأصبحوا يتحدثون تصدق الليلة على سارق ، فقال : اللهم لك الحمد على سارق لأتصدقن بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية فأصبحوا يتحدثون تُصُدق الليلة على زانية . قال : اللهم لك الحمد على زانية لأتصدقن بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد غني فأصبحوا يتحدثون يُصدق الليلة على غني . قال : اللهم لك الحمد على سارق وزانية وغني فأُتي فقيل له : أما صدقتك على سارق : فلعله أن يستعف عن سرقته وأما الزانية : فلعلها أن تستعف عن زناها وأما الغني : فلعله يعتبر فينفق مما أعطاه الله . رواه البخاري واللفظ له ومسلم والنسائي وقالا فيه[٣]: فأُتي فقيل له أما صدقتك فقد قبلت ثم ذكر الحديث

المعـــنى :

قال النووي في باب ثبوت أجر المتصدق : وإن وقعت الصدقة في يد فاسق ونحوه – وفيه ثبوت الثواب في الصدقة وإن كان الآخذ فاسقاً وغنياً ففي كل كبد حرى أجر وهذا في صدقة التطوع وأما الزكاة فلا يجزىء دفعها إلى غني .

٢٧ – وعن عقبة بن عامر – رضي الله عنه – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : كل امرىء في ظل صدقته حتى يقضي بين الناس . قال يزيد : فكان أبو الخير مرثد : لا يخطئه يوم إلا تصدق فيه بشيء ولو بكعكة أو بصلة . رواه أحمد وابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما والحاكم قال : صحيح على شرط مسلم[٤] .

---

(١) سورة سبأ الآية : ٣٩

(٢) سورة المزمل الآية : ٢٠

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ كتاب الزكاة ـ باب ثبوت أجر المتصدق رقم ٦٠١ وسنن النسائي ـ كتاب الزكاة ـ باب إخراج الزكاة من بلد إلى بلد ٥/٥٥

(٤) مسند أحمد ١٤٧/٤ وصحيح ابن خزيمة ـ كتاب الزكاة ٩٤/٤ رقم ٢٤٣١ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١٣٢/٥ والمستدرك للحاكم ٤١٦/١

والمعـــــنى :

يوم القيامة تكون الصدقة ظلة على صاحبها وواقية له من عذاب الله وجنة من الهول ولو قلت مثل قطعة من الخبز أو البصل وهذا رجل يأخذ من بيته ما وجد ولا يبالي بحقارته رجاء أن توجد له في الصالحات ظلل تقيه أهوال يوم الحساب فاجتهد أخي أن تتصدق ليقيك الله شر ذلك اليوم .

٢٨ – وفي رواية لابن خزيمة أيضاً عن يزيد بن أبي حبيب عن مرثد بن أبي عبد الله المزني : أنه كان أول أهل مصر يروح إلى المسجد وما رأيته داخلاً المسجد قط إلا وفي كمه صدقة : إما فلوس وإما خبز وإما قمح . قال : حتى ربما رأيت البصل يحمله : قال : فأقول ياأبا الخير إن هذا ينتن ثيابك ، قال فيقول : يا ابن أبي حبيب أما إني لم أجد في البيت شيئاً لم أتصدق به غيره إنه حدثني رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « ظل المؤمن يوم القيامة صدقته »[١].

٢٩ – وعنه – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : إن الصدقة لتطفىء عن أهلها حر القبور ، وإنما يستظل المؤمن يوم القيامة في ظل صدقته ، رواه الطبراني في الكبير والبيهقي وفيه ابن لهيعة[٢].

٣٠ – وعن الحسن – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : فيما يروى عن ربه – عز وجل – أنه يقول : يا ابن آدم . افرغ من كنزك عندي ولا حرق ولا غرق ولا سرق أو فيكه أحوج ما تكون إليه . رواه الطبراني والبيهقي وقال هذا مرسل وقد روينا عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله إذا استودع شيئاً حفظه »[٣].

المعنى : إدخر وجد وأنفق من مالك مدخراً ثواب ذلك عندى ، سبحانه يحفظ هذا من الضياع فلا يصيبه أى تلف ثم يثيبه ويقدم له الجزاء الاوفى عند موته ، يفتح له نعيم الجنة ويغدق عليه رحماته فيدرك جزاء إحسانه ويبعد عنه الحساب والأهوال .

٣١ – وروى عن ميمونة بنت سعد أنها قالت : يا رسول الله : أفتنا عن الصدقة ؟ فقال : إنها حجاب من النار لمن إحتسبها يبتغى بها وجه الله عز وجل . رواه الطبرانى[٤].

٣٢ – وعن أبى ذر ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قال رسول الله ﷺ : ما يخرج رجل شيئاً من الصدقة حتى يفك عنها لحيى سبعين شيطاناً .

رواه أحمد والبزار والطبرانى وابن خزيمة فى صحيحه وتردد فى سماع الأعمش من بريدة والحاكم

---

(١) صحيح ابن خزيمة ـــ كتاب الزكاة ٩٥/٤ رقم ٢٤٣٢

(٢) المعجم الكبير للطبرانى ٢٨٦/١٧ رقم ٧٨٨ والجامع لشعب الإيمان للبيهقى ٥٢٥/٦ رقم ٣٠٧٦

(٣) الجامع لشعب الإيمان ـــ باب التحريض على صدقة التطوع ٥٢٠/٦ رقم ٣٠٧١

(٤) مجمع الزوائد ١٠٩/٣

والبيهقي وقال الحاكم : صحيح على شرطهما ، ورواه البيهقي أيضاً عن أبي ذر موقوفا عليه قال : ما خرجت صدقة حتى يفك عنها لحيا سبعين شيطاناً كلهم ينهى عنها(١)

٣٣ - وعن أنس - رضى الله عنه - قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل وكان أحب أمواله إليه بيرحاء وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب قال أنس : فلما نزلت هذه الآية : ﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾ ، قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله : إن الله تبارك وتعالى : يقول : ﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾ ، وإن أحب أموالى إلىَّ بيرحاء ، وإنها صدقة أرجو برَّها وزخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث أراك الله ، قال فقال رسول الله ﷺ : بخ ، ذلك مال رابح ذلك مال رابح . رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى(٢).

المعنى : [بيرحاء] :بكسر الباء وفتحها ممدوداً : اسم لحديقة نخل كانت لأبي طلحة رضى الله عنه وقال بعض مشايخنا : صوابه بَيْرَحْى : بفتح الباء الموحدة والراء مقصوراً ، وإنما صحفه الناس . وقوله [رابح] روى بالباء الموحدة وبالياء المثناة تحت .

٣٤ - وعن أبي ذر - رضى الله عنه - قال : قلت : يا رسول الله : ما تقول فى الصلاة ؟ قال : تمام العمل ، قلت : يا رسول الله : تركت أفضل عمل فى نفسى أو خيره ؟ قال : ماهو ؟ قلت : الصوم ؟ قال : خيرٌ وليس هناك ، قلت يا رسول الله : وأى الصدقة وذكر كلمة . قلت : فإن لم أقدر ؟ قال : بفضل طعامك . قلت : فإن لم أفعل ؟ قال بشق تمرة قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : بكلمة طيبة . قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : دع الناس من الشر ، فإنها صدقة تصدق بها على نفسك . قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : تريد أن لا تدع فيك من الخير شيئاً . رواه البزار واللفظ له وابن حبان فى صحيحه أطول منه بنحوه والحاكم(٣).

المعنى : تمام العمل : حسن أدائها وإتمام أركانها وسننها .

بفضل طعامك : مازاد عن حاجتك وحاجة عيالك تصدق به تريد ألا تدع فيك من الخير شيئا :

أى : لابد للإنسان أن يكون فيه ذرة من خير ولا يخلو من محامد ، فهذا أبو ذر رضى الله عنه يكثر من - فان لم أفعل - فيسهل عليه ﷺ الجواب ويدعوه إلى عمل ولو قل من نصف تمرة أو

(١) الجامع لشعب الإيمان للبيهقى ٨٦/٧ رقم ٣١٩٩ والحاكم فى المستدرك ٤١٧/١ وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ومسند أحمد ٣٥٠/٥ وصحيح ابن خزيمة - كتاب الزكاة ١٠٥/٤ رقم ٢٤٥٧ وكشف الأستار عن زوائد البزار ٤٤٧/١ رقم ٩٤٣

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ٥٨٢ وسنن الترمذى - كتاب تفسير القرآن ٢٢٤/٥ رقم ٢٩٩٧ وسنن النسائى ٢٣١/٦

(٣) كشف الأستار عن زوائد البزار - أبواب صدقة التطوع ٤٤٥/١ رقم ٩٤١

ألفاظ حسنة عذبة أو اجتناب الشرور وترك القبائح وإلا فياخيبة من لم يفعل ذلك ولم تكن فى صحيفته حسنات من الصالحات ويقول ﷺ : « تريد أن لا تدع فيك من الخير شيئاً » أى تود يا أبا ذر ألا يكون لك شىء من المكارم وإن حقر — وفيه أن الإنسان يضرب بسهم صائب فى الإنفاق وتشييد الطيبات ، ويتصدق بما زاد عن طلباته الضرورية ويحسن القول ، ويتقى الله .

٣٥ – روى البيهقى ولفظه فى إحدى رواياته قال : سألت رسول الله ﷺ ماذا ينجى العبد من النار ؟ قال : الإيمان بالله . قلت يا نبى الله : مع الإيمان عمل ؟ قال : أن تر فتح مما خولك الله وتر فتح مما رزقك الله . قلت يا نبى الله فإن كان فقيراً لا يجد ماير فتح ؟ قال : يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، قلت : إن كان لا يستطيع أن يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر ؟ قال : فليعن الأخرق . قلت : يا رسول الله : أرأيت إن كان لايُحسن أن يصنع؟ قال : فليعن مظلوماً قلت : يا نبى الله ! أرأيت إن كان ضعيفاً لا يستطيع أن يعين مظلوماً ؟ قال : ما تريد أن تترك لصاحبك من خير يمسك أذاه عن الناس قلت يا رسول الله : أرأيت إن فعل هذا يدخله الجنة ؟ قال : ما من عبد مؤمن يصيب خصلة من هذه الخصال إلا أخذت بيده حتى تدخله الجنة[١].

المعنى : فليعن مظلوماً : فليزل آلام المكروب وأضرار المصاب ويبعد الباطل ويحق الحق ويغث المستغاث وينجد المتألم .

– ما تريد أن تترك لصاحبك : كفى هذا الضعف ألا تحب ألا يكون لك عمل صالح ومروءة تثاب عليها .

يمسك : يمنع ويصد .

ألا أخذت بيده : المعنى أن الخصلة المحددة تقوده إلى نعيم الجنة وتضىء له سبل الاحترام وفيه الحث على عمل البر والضرب بسهم فى تنفيذ أوامر الله واجتناب مناهيه .

٣٦ – وروى عن رافع بن خديج — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : الصدقة تسد سبعين باباً من السوء . رواه الطبرانى فى الكبير[٢].

المعنى : الاحسان والانفاق لله تمنع الشرور وتصد الأذى وتقفل سبعين باباً من الضرر والهلاك والفقر والمرض وهكذا من الأعمال المؤلمة المؤذية ، وفيه الحث على عمل الخير ابتغاء وجه الله ليجاب الطلب ويزول الكرب ويفك العسير .

٣٧ – وعن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : باكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطى الصدقة ، رواه البيهقى مرفوعاً وموقوفاً على أنس ولعله أشبه[٣].

(١) الجامع لشعب الإيمان للبيهقى — باب التحريض على صدقة التطوع ٥٠٤/٦ رقم ٣٠٥٧
(٢) المعجم الكبير للطبرانى ٣٢٧/٤ رقم ٤٤٠٢
(٣) السنن الكبرى للبيهقى ١٨٩/٤

٣٨ – وعنه – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : تصدقوا فإن الصدقة فكاككم من النار . رواه البيهقى من طريق الحارث بن عمير عن حميد عنه[١].

وروى عن على بن أبى طالب – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : باكروا بالصدقة ، فإن البلاء لايتخطاها . رواه الطبرانى ، وذكره رزين فى جامعه وليس فى شىء من الأصول[٢].

المعنى : أسرعوا بتقديم صدقة لله فإنها تمنع المصائب ولا تغدوها الآلام وكم رأينا من مريض شفاه الله لإحسانه ومسألة عسيرة سهلها الله بالصدقة ودين زال لفعل الخير لله وآمال يسر الله وجوده بالانفاق وقد أجد فى قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وأتوا الزكاة** ﴾ دليلاً ناجحاً ودواء شافياً للوصول إلى نصر الله ولإغداق رحمته على المحافظ على أداء الصلاة والزكاة فهذا أمر منه – سبحانه وتعالى – بالكف عن القتال وإقامة الصلاة وإخراج الزكاة حتى يأتى نصر الله ويشرق فتح الله . الاستفهام تعجبى ! أى تعجب يا محمد من قومك كيف يكرهون القتال مع كونهم قبل ذلك كانوا طالبين له وراغبين فيه ، منهم :

عبد الرحمن بن عوف والمقداد بن الأسود وسعد بن أبى وقاص وقدامة بن مظعون ، وجماعة كانوا بمكة يتحملون أذى الكفار والله يأمرهم بالتحمل والصبر فلما هاجر النبى ﷺ من مكة إلى المدينة أمروا بالقتال وكراهتهم غلبت الرأفة عليهم أو لمحبتهم المعيشة قال الصاوى : ولما نزلت الآية أقلعوا عما خطر ببالهم وشمروا عن ساعد الصبر والاجتهاد وجاهدوا فى الله حق جهاده . ود لعلينا العكوف على عبادة الله مع الإخلاص فى إقامة هذين الركنين : الصلاة ، والزكاة ، قال تعالى : ﴿ **الذين أمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً** ﴾ من سورة النساء .

يسر الله للمسلمين الخروج إلى المدينة ، وبقى بعضهم إلى فتح مكة حتى شعروا بالعزة وجعل الله لهم من لدنه خير ولى وناصر وهو محمد ﷺ ولما خرج ﷺ استعمل عتاب أبى أسيد فرأوا منه الولاية والنصرة كما أرادوا . قال ابن عباس – رضى الله عنهما – كان ينصر الضعيف من القوى حتى كانوا أعز بها من الظلمة . هذه أوامر الله يا أخى للمستضعفين ﴿ **من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً** ﴾[٣].

والقرية : مكة : قوم ضعفوا عن الهجرة مستذلين ممتحنين ولكن حافظوا على أداء اثنتين : (الصلاة والزكاة) حتى استجاب الله دعاءهم . ونصرهم نصراً مؤزراً . قال البيضاوى : وإنما ذكر

(١) الجامع لشعب الإيمان للبيهقى – باب التحريض على صدقة التطوع ٥٢٩/٦ رقم ٣٠٨٢

(٢) مجمع الزوائد ١١٠/٣

(٣) سورة النساء الآية : ٧٥

الولدان مبالغة فى الحث ، وتنبيهاً على تناهى ظلم المشركين بحيث بلغ أذاهم الصبيان وأن دعوتهم أجيبت بسبب مشاركتهم فى الدعاء حتى يشاركوا فى استنزال الرحمة واستدفاعه البلية ، وقيل : المراد به العبيد والإماء وهو جمع وليد .

ما أشبه حالتنا اليوم بحالة صدر الإسلام فى الضعف والذلة ولكن شتان بين عملنا وعمل رجاله الأبطال ــ رضوان الله عليهم .

إنهم أدوا أوامر الله بإخلاص وعزيمة قوية فصبروا ونجحوا ، وفتح الله لهم فتحاً مبيناً فبدل الله ذلهم عزاً . وفقرهم غنى ونحن الآن فى هذا الزمان نرى تقصيراً فى حقوق الله ورجالاً نفوسهم غافلة عن طاعة الله وذكر الله والصلاة والزكاة لله . ألم يأن للمسلمين أن يتوبوا ويصلوا ويزكوا ويستقيموا رجاء أن الله يعزهم كما أعز أهل مكة ويرعاهم برحمته وإحسانه فإنه تعالى أمرهم بالقتال فجاهدوا واستبسلوا فى سبيل نصر دين الله ولكن دعانى إلى ذكر هذه الآيات حبى الشديد لأمر الله لأولئك الصابرين المحتسبين المستضعفين بالصلاة والزكاة حتى أراد الله فقواهم ، وأشرق شمس الإسلام وأضاء الحق وعم نوره . قال تعالى لحبيبه ﷺ : ﴿ **لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد * متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد * لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً من عند الله وما عند الله خير للأبرار** ﴾[1].

قال البيضاوى : الخطاب **للنبى** ﷺ ، والمراد أمته ، أو تثبيته على ما كان عليه **والمعنى** : لاتنظر إلى ما الكفرة عليه من السعة والحظ ولا تغتر بظاهر ما ترى من تبسطهم فى مكاسبهم ومتاجرهم ومزارعهم . روى أن المؤمنين كانوا يرون المشركين فى رخاء ولين عيش ، فيقولون : إن أعداء الله فيما **نرى من الخير وقد هلكنا من الجوع والجهد ، قال عليه الصلاة والسلام « ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل مايجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بم يرجع » أ . هـ بيضاوى .**

٤٠ – وعن الحارث الأشعرى ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : إن الله أوحى إلى يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام بخمس كلمات أن يعمل بهن ، ويأمر بنى اسرائيل أن يعملوا بهن فذكر الحديث إلى أن قال فيه : وأمركم بالصدقة ومثل ذلك كمثل رجل **اسره** العدو . فأوثقوا يده إلى عنقه وقربوه ليضربوا عنقه فجعل يقول : هل لكم أن أفدى نفسى منكم وجعل يعطى القليل والكثير حتى فدى نفسه ، الحديث رواه الترمذى وصححه ابن خزيمة واللفظ له ، وابن حيان فى صحيحه ، والحاكم وقال : صحيح على شرطهما[2]

٤١ – وعن رافع بن مكيث وكان ممن شهد الحديبية رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

(١) سورة آل عمران الآيات : ١٩٦ – ١٩٨

(٢) سنن الترمذى الحديث رقم ٢٨٦٣ وابن خزيمة ١٨٩٥/٣ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٤٣/٨ والمستدرك للحاكم ٤٢١/١

حسن الملكة نماء وسوء الخلق شؤم والبرُ زيادة فى العمر والصدقة تطفىء الخطيئة وتقى ميتة السوء . رواه الطبرانى فى الكبير وفيه رجل لم يسم وروى أبو داود بعضه[1].

المعنى : حسن الملكة : الذكاء الوقاد

نماء وسوء : الغضب والكدر والشتم والشقاق والحسد وهكذا من النقائض .

شؤم : وبال ويجر السوء والأذى .

البر : فعل الخير وتشييد الصالحات والعمل المحمود يكون سبباً لزيادة العمر بمعنى أن الله يتكرم بحفظ صحة البار ويجعل له سيرة حسنة ، ويحفظ وقته من الضياع فى اللغو بل يبارك فيه والبر ضد العقوق فكأن إطاعة الوالدين والإحسان إليهما سبب طول العمر والبر : الصدق وفلان يبر خالقه ، ويتبرره : أى يطيعه وإنى أشاهد من أطاع الله متعه بكمال الصحه وحسن حاله وأزال ألامه وأطال عمره .

تطفىء : تزيل الذنب

تقى : تمنع سوء الخاتمة والهلاك بحالة شنيعه ردئية .

٤٢ – وعن عمرو بن عوف ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قال رسول الله ﷺ : إن صدقة المسلم تزيد فى العمر وتمنع ميتة السوء ويذهب الله بها الكبر والفخر . رواه الطبرانى من طريق كثير بن عبدالله عن أبيه عن جده عمرو بن عوف ، وقد حسنها الترمذى وصححها ابن خزيمة لغير هذا المتن[2].

٤٣ - وعن عمر- رضى الله عنه ـــ قال : ذكر أن الأعمال تباهى فتقول الصدقة : أنا أفضلكم . رواه ابن خزيمة فى صحيحه[3].

٤٤ - وعن عوف بن مالك- رضى الله عنه ـــ قال : خرج رسول الله ﷺ وبيده عصا وقد علق رجل قنو حشف فجعل يطعن فى ذلك القنو فقال : لو شاء رب هذه الصدقة بأطيب من هذا إن رب هذه الصدقة يأكل حشفاً يوم القيامة . رواه النسائى واللفظ له . وأبو داود وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحهما فى حديث[4].

المعنى : قنو : عنق (سباطة) .

حشف : أردأ التمر .

فجعل يطعن : يضرب أى يذم ويبين ﷺ رداءه هذه الصدقة وقلة ثوابها عند الله وتمنى أن

(١) مجمع الزوائد للبيهقى ٢٢/٨

(٢) المعجم الكبير للطبرانى ٢٢/١٧ رقم ٣١

(٣) صحيح ابن خزيمة ـــ كتاب الزكاة ٩٥/٤ رقم ٢٤٣٣

(٤) سنن النسائى ٤٣/٥ وسنن أبي داود ٢٦١/٢ رقم ١٦٠٨ وصحيح ابن خزيمة ـــ كتاب الزكاة ١٠٩/٤ رقم ٢٤٦٧ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٢٧١/٨

ذلك الرجل يتصدق بأحسن وأبدع منها لأنها ستقيه يوم القيامة وتكون طعاماً له يوم لا يجد شيئاً يصد عنه الأهوال ، ويدفع عنه الظمأ والجوع وفيه الحث على اختيار الطيب فى الانفاق والتصدق من الشيء **المفيد المقيم ، قال تعالى : ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾**(١).

٤٥ – وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ من جمع مالاً حراماً ثم تصدق به لم يكن له فيه أجر وكان إصره عليه . رواه ابن خزيمة وابن حبان فى صحيحهما والحاكم(٢)

٤٦ – وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ﷺ قال : خير الصدقة ما أبقت غنى واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول تقول امرأتك : انفق علىَّ أو طلقنى ، ويقول مملوكك : أنفق علىَّ أو بعنى ويقول ولدك إلى من تكلنا ؟ رواه ابن خزيمة فى صحيحه ولعل قوله : تقول امرأتك إلى آخره من كلام أبى هريرة مدرج(٣).

المعنى : ما أبقت : ما فادت وتركت أثراً بمنع السؤال وأزالت جوعاً ودفعت فقراً وقدمت عملاً يفيد .

٤٧ – وعنه ــ رضى الله عنه ــ أنه قال : يا رسول الله : أى الصدقة أفضل ؟ قال : جهد المقل وابدأ بمن تعول . رواه أبو داود وابن خزيمة فى صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم(٤)

المعنى : طاقة أى إخراج شيء من قليل بمعنى أن الإنسان يرى نفسه فقيراً ولكن يجود من القليل ابتغاء ثواب الله وكرمه وانتظار فضله ثم أمر ﷺ باعطاء الصدقة لمن يهمك أمره بفتح الجيم وضمها .

٤٨ – وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : سبق درهم مائة ألف درهم فقال رجل : وكيف ذاك يا رسول الله ؟ قال رجل له مال كثير أخذ من عرضه مائة ألف درهم تصدق بها ورجل ليس له إلا درهمان فأخذ أحدهما فتصدق به . رواه النسائى وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحه واللفظ له والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم(٥)

[قوله] : من عرضه بضم العين المهملة وبالضاد المعجمة : أى من جانبه .

المعنى : يبين لك ﷺ ثواب الصدقة الخارجة من مال الفقير يضاعف أجرها مثات لأن الغنى يجود عن سعة وينفق من كثرة ولكن الفقير يدعوه إيمانه بربه إلى الإنفاق وينتظر رزق الله .

٤٩ – وعن أم بجيد ــ رضى الله عنها ــ أنها قالت : يا رسول الله إن المسكين ليقوم على

---

(١) سورة آل عمران الآية : ٩٢

(٢) صحيح ابن خزيمة ــ كتاب الزكاة ١١١/٤ رقم ٢٤٧١ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١٥٢/٥

(٣) صحيح ابن خزيمة ــ كتاب الزكاة ٩٦/٤ رقم ٢٤٣٦

(٤) سنن أبى داود ٣١٢/٢ رقم ١٦٧٧ وصحيح ابن خزيمة ــ كتاب الزكاة ٩٩/٤ رقم ٢٤٤٤ والمستدرك للحاكم ٤١٤/١

(٥) سنن النسائى ٥٩/٥ وصحيح ابن خزيمة ــ كتاب الزكاة ٩٩/٤ رقم ٢٤٤٣ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١٤٤/٥ والمستدرك للحاكم ٤١٦/١

بابى فما أجد له شيئاً أعطيه إيَّاه فقال لها رسول الله ﷺ : إن لم تجدى إلا ظلفاً محرقا فادفعيه إليه فى يده . رواه الترمذى وابن خزيمة .

وزاد فى رواية : لا تردى سائلك ولو بظلف محرق ، وابن حبان فى صحيحه وقال الترمذى : حديث حسن صحيح[1] .

﴿ الظلف ﴾ : بكسر الظاء المعجمة للبقر والغنم بمنزلة الحافر للفرس .

٥٠ ـ وعن أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : تعبد عابد من بنى اسرائيل فعبد الله فى صومعة ستين عاماً فأمطرت الأرض فأحضرت فأشرف الراهب من صومعته فقال : لو نزلت فذكرت الله فازددت خيراً فنزل ومعه رغيف أو رغيفان فبينما هو فى الأرض لقيته امرأة فلم يزل يكلمها وتكلمه حتى غشيها ثم أغمى عليه فنزل الغدير يستحم فجاء سائل فأومأ إليه أن يأخذ الرغيفين ثم مات فوزنت سيئته بتلك الزنية فرجحت الزنية بحسناته ثم وضع الرغيف أو الرغيفان مع حسناته فرجحت حسناته فغفر له رواه ابن حبان فى صحيحه ورواه البيهقي عن ابن مسعود موقوفاً عليه ولفظه[2] .

إن راهباً عبد الله فى صومعته ستين سنة فجاءت امرأة فنزلت إلى جنبه فنزل إليها فواقعها ست ليال ثم سقط فى يده فهرب فأتى مسجداً فأوى فيه ثلاثاً لا يطعم شيئاً فأتى برغيف فكسره فأعطى رجلاً عن يمينه نصفه وأعطى آخر عن يساره نصفه فبعث الله إليه ملك الموت فقبض روحه فوضعت الستون فى كفة ووضعت الستة فى كفة فرجحت يعنى الستة ثم وضع الرغيف فرجح يعنى الرغيف الستة **التى غشيها** :

المعنى : أى تقرب إليها وجامعها .

يبين ﷺ أن الصدقة برغيف أو رغيفين كانت سبب زيادة الحسنات فرجحت كفة الصدقة أمام الفاحشة وتجلى عليه ربه بالرضوان والرحمة وعفا عنه وإن تعجب فعجب طاعة ستين سنة أمام هذه الكبيرة تضاءل وزنها وخف حجمها ولم تنفعه جزاء ارتكابه هذه الموبقة ولكن عاطفة الإحسان لله فى لحة أدخلته فى جنة الله وطاشت دونها هذه الكبيرة وفيه الحث على الصدقة والتباعد عن الفاحشة وانتظار ثواب الله ووجود خشيته والطمع فى جزائه ـــ قال تعالى : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم** ﴾[3]. قال البيضاوى : يعم المهاجرين والأنصار الذين آمنوا من أهل الكتاب وغيرهم ﴿ **كفر عنهم سيئاتهم** ﴾ : سترها بالإيمان وعملهم الصالح . ط﴿ وأصلح بالهم ﴾ حالهم فى الدين والدنيا بالتوفيق والتأييد قال

---

(١) سنن الترمذى ٤٣/٣ رقم ٦٦٥ وصحيح ابن خزيمة ـــ كتاب الزكاة ١١١/٤ رقم ٢٤٧٣ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١٥٧/٥.

(٢) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٢٩٨/١

(٣) سورة محمد الآية : ٢

تعالى مبيناً حال الدنيا وأن الزكاة جزء من المال وفيها الخير كله : ﴿ **إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم . إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم * هأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾ من سورة القتال(١).

﴿ **أجوركم** ﴾ : ثواب إيمانكم وتقواكم ﴿ **ولا يسألكم أموالكم** ﴾ : أى : جميع أموالكم بل يقتصر على جزء منها يسير كربع العشر أو العشر . ﴿ **فيحفكم** ﴾ : فيجهدكم بطلب الكل ، ﴿ **تبخلوا** ﴾ : فلا تعطوا ، ويخرج الله تعالى بالزكاة الأحقاد ويزيل الشقاق .

إن عبادة ذلك الرجل قاصرة عليه لا يتعدى ثوابها لغيره وهى لغنى حميد سبحانه فلم تنفع إزاء معصيته حاسبه الله عليها ولكن مر بخاطره الكرم وعلاج البخل والتحلى بالجود والسخاء : فتصدق برغيف أو اثنين ، فقبل الله صدقته فضاعف ثوابه فثقل ميزانه فرجحت عن الفاحشة فغفر الله له .

ومعنى ﴿ **ثم سقط فى يده فهرب** ﴾ أى : ندم واستغفر وأقر بذنبه فعفا الله عنه ومتعه بفضله ، قال تعالى : ﴿ **سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير * لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور * الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد** ﴾ .

﴿ **مصيبة** ﴾ : كجدب وعاهة فى الأرض . ﴿ **ولا فى أنفسكم** ﴾ : كمرض وآفة إلا مكتوبة فى اللوح المحفوظ مثبتة فى علم الله تعالى . ﴿ **نبرأها : نخلقها والضمير للأرض أو للمعصية أو للأنفس** . ﴿ **بما آتاكم** ﴾ : بما أعطاكم الله منها فإن من علم أن الكل مقدرهان عليه الأمر ، والمراد به نفى الأسى المانع عن التسليم لأمر الله . والفرح الموجب للبطر والاختيال . والمختال بالمال يضره به غالباً ، ومن يعرض عن الانفاق فإن الله غنى عنه وعن إنفاقه محمود فى ذاته لا يضره الإعراض عن شكره ولا ينفعه التقرب إليه بشكر من نعمه وفيه تهديد وإشعار بأن الأمر بالإنفاق لمصلحة المنفق .

آمنت بالله وأعتقدت أن الصدقة تنفع صاحبها وتكون غفران ذنوبه وزيادة رزقه من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس .

---

(١) سورة محمد الآيتان : ٣٧ ، ٣٨

فوائد الصدقة كما أخبرنا النبى ﷺ

أولاً : تنمية الصدقة وزيادة أجرها وادخارها عند الغنى الوهاب (يقبلها بيمينه ثم يربيها)

ثانياً : يضع الله البركة فى المال الباق ويبعد عنه المصائب ويزيده نماء وربحاً ﴿ **ما نقصت صدقة من مال** ﴾ .

ثالثاً : الصدقة سبب زيادة الرزق ونصر الله وعنايته بالمتصدق ﴿ **ترزقوا وتنصروا وتجبروا** ﴾ .

رابعاً : يسخر الله للمتصدق ما يفيده من مسقى أرض ومساعدة ووجود مال ومحبة الأصدقاء ﴿ **اسق حديقة فلان** ﴾ وفيه يبارك الله فى ماء الأنهار لتروى الأرض المزكاة .

خامساً : تبعد صاحبها عن النار وتفك عنه ضيق الدنيا والآخرة ﴿ **اتقوا النار ولو بشق تمرة** ﴾ .

سادساً : الصدقة تزيل الخطايا وتغسل صحيفة صاحبها من الأدناس وتطهرها من الذنوب ﴿ **تطفىء الخطيئة** ﴾ . وقد أعلمنا قائد الحكمة ومبعث الرحمة عابداً راهباً أخطأ فأحسن فلم ينفعه عمله إلا صدقة رغيف أو رغيفين أطفأت خطيئة (رجح الرغيف) .

سابعاً : الصدقة تصد الرؤيا وتمنع الحوادث وتجلب حسن الخاتمة فيموت المحسن على فراشة مبشراً ينعم الله لا يموت برصاص ولا يقتله قاتل ولا يحسد ولا يذم ولا يقتل مؤامرة ولا يعاكسنه ﴿ **وتدفع سبعين باباً من ميتة السوء** ﴾ كالحسد والكيد والدس والتآمر والفقر وموت البغتة وهكذا من العواقب القبيحة الرذيلة السيئة .

ثامناً : الصدقة درع قوى يلبسه المحسن فيقيه عاديات الدهر وحوادث الزمان ﴿ **جنة تغشى أنامله وتعفو أثره** ﴾ .

تاسعاً : الصدقة كشجرة يستظل بها المحسن : ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد** ﴾ . وظل المؤمن يوم القيامة صدقته .

عاشراً : الصدقة تهدم حصون الشيطان وتكسر أنيابهم وتحطم قيودهم وترد كيدهم وتصد بغيهم . ﴿ **يفك عنها لحيا سبعين شيطاناً** ﴾ المعنى أن الشيطان يضع أنيابه ولحيه عند ما يهم المتصدق أن ينفذ الإنفاق فيوسوس له بالبخل والشح والفاقه ، وعدم احتياج هذا السائل وهكذا من الغواية فمن تصدق فك أغلاله وأزال وساوسه وأنفق لله فحماه الله من أذاهم ووقاه شرورهم وحفظه من إضلاله ، وأبعد عنه أضراره . قال تعالى يحكى عن الشيطان : ﴿ **قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك**

المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين . قال اخرج منها مذءوما مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴾[1].

أحد عشر : الصدقة تضع البركة فى العمر بإذن الله وتجلب الصحة وتدعو إلى الوئام وتجلب محبة الناس وتقيم حصوناً منيعة من قلوب الفقراء ليحفظوه بأنفسهم وليدعو له بخير **وليصدوا عنه كل** باغ ويحرسوه ، ويتمنو خدمته وراحته ﴿ **صدقة المسلم تزيد فى العمر** ﴾ .

وإليك أيها الأخ أقدم آية عزاء يوم الاحتضار تبلغ أعالى الصدر . ﴿ **التراق** ﴾ وتقول ملائكة الموت : أيكم يرقى بروحه ﴿ **ويظن** ﴾ المحتضر . ﴿ **الفراق** ﴾ وتلتوى ساقه بساقه فلا يقدر على تحريكهما أو شدة فراق الدنيا بشدة خوف الآخرة . لماذا ؟ لأنه كان لا يتصدق ولا يزكى ماله ولا يؤدى حقوق الله من صلاة وغيرها ومصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة كلا إذا بلغت التراق وقيل من راق وظن أنه الفراق والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى** ﴾[2]. من سورة القيامة . (١)

﴿ **ناضرة** ﴾ : بهية متهللة . ﴿ **ناظرة** ﴾ : مستغرقة مطالعة جماله بحيث تغفل عما سواه أو منتظرة إنعامه . ﴿ **باسرة** ﴾ : شديدو العبوس . ﴿ **فاقرة** ﴾ : داهية تكسر الفقار . ﴿ **المساق** ﴾ : **سوقه** إلى الله تعالى وحكمه . إن شاهدنا : ﴿ **فلا صدق** ﴾ : أى حال ذلك الرجل مؤلم لأنه كان بخيلا وشحيحاً لم يزك ولم يصل .

اللهم بلغنا رضاك لنراك

الإنفـاق خصـلة الأبرار

وقد أجمع العقلاء على حقارة الدنيا ورغب عنها المتقون الذين استبدلوا بحبها طاعة الله وأنفقوا فنالوا الجنة وفازوا بالتمتع بالأزواج المطهرة الحسان ، وأحاطتهم رحمة الله وعملهم رضوانه مع الأبرار الصالحين والله تعالى يعنيهم بقوله ﴿ **الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار * الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار** ﴾[3].

قال البيضاوى : حصر لمقامات السالك على أحسن ترتيب فإن معاملته مع الله إما توسل ، وإما طلب . والتوسل إما بالنفس وهو منعها عن الرذائل وحبسها على الفضائل والصبر يشملها وإما بالبدن وهو إما قولى : وهو الصدق وإما فعلى ، وهو القنوت الذى هو ملازمة الطاعة ، وإما بالمال وهو

---

(١) سورة الأعراف الآيات : ١٦ – ١٨

(٢) سورة القيامة الآيات : ٢٢ – ٣٢

(٣) سورة آل عمران الآيتان : ١٦ – ١٧

الإنفاق فى سبيل الخير وإما الطلب فبالاستغفار لأن المغفرة أعظم المطالب بل الجامع لها وتخصيص الأسحار لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة لأن العبادة حينئذ أشق والنفس أصفى والروع أجمع سيما للمجتهدين قيل إنهم كانوا يصلون إلى السحر ثم يستغفرون ويدعون .

وقد عد الله الإنفاق من صفات المؤمنين فى قوله تبارك وتعالى : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم * وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم** ﴾[١]. من سورة التوبة .

﴿ **عزيز** ﴾ : غالب على كل شىء لا يمتنع عليه ما يريده . ﴿ **حكيم** ﴾ : يضع الاشياء فى مواضعها . ﴿ **طيبة** ﴾ : تستطيبها النفس أو يطيب فيها العيش وفى الحديث « إنها معقور من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت الأحمر » .

فأنت ترى المتقين والمزكين معدودين فى صفوف العظماء والأبطال الذين رضى الله عنهم وأرضاهم ، فحظوا بنعيم جنته ﴿ **ورضوان من الله أكبر** ﴾ لأنه المبدأ لكل سعادة وكرامة والمؤدى إلى نيل الوصول ، والفوز باللقاء إذ يتحلى الخالق العظيم جل وعلا ويقول : « أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبداً » حديث شريف . الصدقة من العمل الصالح ، وقد قال تعالى :

(أ) ﴿ **ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً**[٢]. **وقد أخبر سبحانه وتعالى عن المنافقين الفاسقين البخلاء الذين يحضون الأنصار على عدم الإنفاق .**

(ب) ﴿ **هم الذين يقولون لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لايفقهون** ﴾[٣]. سبحانه بيده الأرزاق والقسم .

(جـ) ﴿ **يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم** ﴾[٤]

﴿ **ليوم الجمع** ﴾ : الحساب والجزاء . ﴿ **التغابن** ﴾ : يغبه فيه بعضهم بعضا لنزول السعداء منازل الأشقياء لو كانوا سعداء وبالعكس مستعار من تغابن التجار . بمعنى أن الكفار يأخذون منازل المؤمنين فى النار لو ماتوا كفاراً . ويغبه المؤمنون الكافرين بأخذ منازلهم فى الجنة لو آمنوا والتغابن ليس على بابه لأن هذا سرور للمؤمنين .

---

(٢) سورة التوبة الآيتان : ٧١ – ٧٢

(٢) سورة الطلاق الآية : ١١

(٣) سورة المنافقون الآية : ٧

(٤) سورة التغابن الآية : ٩

ولا يحض على طعام المسكين

إن أقبح العقائد الكفر بالله تعالى وأشنع الرذائل البخل **وقسوة القلب وهذه عبارة البيضاوى يفسر** حال رجل قدم كتابه بشماله فعذب عذابا عسيراً لماذا ؟ لسببين :

(أ) لا يؤمـــن بالله .

(ب) لا يحث على بذل طعام المسكين أو إطعامه .

نعوذ بالله من مال وراءه العقاب وحر المصائب والويلات لأن صاحبه بخيل وفى الحقوق شحيح فكل عمله قبيح وعاقبته سيئة ولن تجد أصدق حديثاً من كلام الله تعالى مبيناً حال المؤمنين الصالحين وحال الفاسقين الكافرين العصاة المذنبين . قال عز شأنه : ﴿ **فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه * إنى ظننت أنى ملاق حسابيه فهو فى عيشة راضية فى جنة عالية قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابية ولم أدر ما حسابيه ياليتها كانت القاضية ما أغنى عنى ماليه هلك غنى سلطانية خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين فليس له اليوم ههنا حميم ولا طعام إلا من غسلين لا يأكله إلا الخاطئون** ﴾[1].

﴿ **مالية** ﴾ : أى مالى وما يتبعنى . ﴿ **سلطانية** ﴾ : حجتى التى كنت أحتج بها فى الدنيا . أو ملكى وتسلطى على الناس . ﴿ **فاسلكوه** ﴾ : فأدخلوه فيها بأن تلقوها على جسده ، وهو فيما بينها مرهق لا يقدر على حركة . قال الصاوى كأنه قيل : ما باله يعذب هذا العذاب الشديد ؟ فأجيب : لا يؤمن بالله ، ولا يحض ، وقال البيضاوى : تعليل على طريقة الاستئناف للمبالغة وذكر العظيم للإشعار بأنه هو المستحق للعظمة فمن تعظم فيها استوجب ذلك ولا يحض ويجوز أن يكون ذكر الحض للاشعار بأن تارك الحض بهذه المنزلة فكيف تبارك الفعل . وفيه دليل على تكليف الكفار بالفروع . ﴿ **حميم** ﴾ : قريب يحميه . ﴿ **غسلين** ﴾ : غسالة أهل النار وصديدهم . ﴿ **الخاطئون** ﴾ : أصحاب الخطايا ، من خطىء الرجل إذا تعمد الذنب ، لا من الخطأ المضاد للصواب . ﴿ **إن شاهدنا** ﴾ : ﴿ **ولا يحض** ﴾ فكأن البخيل ويأمر الناس بالبخل متخلق بأخلاق الكفار فيعذبه الله انتقاماً منه على تقصيره فى الإنفاق لله وياليته يسكت بل يدعو إلى التشبه به ليكون قوة سيئة فى الإجرام والأعسار وأداة منع وباب شر ، وطريق خير ، وبوق حرمان ، وقد قال الإمام على كرم الله وجهه : ألا أنبئكم بالعالم كل العالم من لم يزين لعباد الله معاصى الله ولم يؤمنهم مكره ، ولم يؤيسهم من روحه : أى العالم الكامل علماً من دعا إلى الله وحذر الناس من الوقوع فى المناهى ، ولم يقطع أملهم من رحمته وقال الشاعر :

فمـا يمـر خيـال الغـدر فى خلـــدى ولا تلـوح سمـات الشـرف خالى

---

(١) سورة الحاقة الآيات : ١٩ – ٣٧

قلبى سليم ونفسى حرة ويدى مأمونه ولسانى غير ختال

اتصف المنفقون بمكارم الأخلاق كما أخبر الله تعالى فى كتابه العزيز

اقرأ سورة المعارج تجد قوله تعالى : ﴿ **إن الإنسان خلق هلوعاً * إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم** ﴾[1].

﴿ **هلوعاً** ﴾ : شديد الحرص قليل الصبر . ﴿ **الشر** ﴾ : الضر ، يجزع ويتكدر ويضجر . ﴿ **الخير** ﴾ : السعة والخيرات ، يبالغ بالإمساك والبخل :

قال البيضاوى : طبائع جبل الإنسان عليها ، استثنى سبحانه قيل لمضادة تلك الصفات لها من حيث إنها دالة على الاستغراق فى طاعة الحق والاشفاق على الحق والإيمان بالجزاء والخوف من العقوبة وكسر الشهوة وإيثار الآجل على العاجل وتلك ناشئة من الانهماك فى حب العاجل وقصور النظر عليها .

اندرج المنفقون فيمن كلمهم الله بتوفيقه فأدركوا لذة طاعة الله فى الجود وتشييد الصالحات بالإنفاق فتنزهوا عن الدناءة والأخلاق الذميمة وسمت صفاتهم الحميدة وعملوا بآداب الله بتنفيذ أوامره واتباع الرسول ﷺ وهو لنا قدوة حسنة .

انتقل بعد ذلك إلى قراءة سورة (المؤمنون) تجد استدراج الله تعالى للأغنياء والتنبيه على أن المال والبنين إمداد من الله وليس فيهما دليل على مسارعة الخير ، قال جل شأنه : ﴿ **أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين * نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون * إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون * والذين هم بآيات ربهم يؤمنون * والذين هم بربهم لا يشركون * والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون * ولا نكلف نفساً إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون** ﴾[2] من سورة المؤمنون .

﴿ **إنما نمدهم** ﴾ : أى أنما نعطيهم ، ونجعله لهم مدداً والخير غير معاتب عليه وإنما المعاتب عليه اعتقادهم أن ذلك خير لهم — وهذا فى الكفار ولكن أريد أن أشبه البخيل غير المنفق فى مشروعات الخير بأولئك الذين قست قلوبهم فخلت من الإيمان بالله المعطى المخلف . ﴿ **مشفقون** ﴾ : حذرون خائفون من عذاب الله .

---

(١) سورة المعارج الآيات : ١٩ – ٢٥

(٢) سورة المؤمنون الآيات : ٥٥ – ٦٢

وإن شاهدنا : ﴿ **والذين يؤتون ما آتوا** ﴾ : أى : يعطون ما أعطوه من الصدقات ، وقرىء : ﴿ **يأتون ما أتوا** ﴾ : أى : يفعلون ما فعلوا من الطاعات وقلوبهم خائفة ألا يقبل منهم وأن لا يقع على الوجه اللائق فيؤاخذ به . ﴿ **يسارعون** ﴾ : أى : يرغبون فى الطاعات أشد الرغبة ، فيبادرون بها أو يسارعون فى نيل الخيرات الدنيوية الموعودة على صالح الأعمال بالمبادرة إليها كقوله تعالى : ﴿ **فأتاهم الله ثواب الدنيا** ﴾[1] فيكون إثباتاً لهم ما نفى عنه أضدادهم . ﴿ **سابقون** ﴾ لأجلها فاعلون السبق . أو سابقون الناس إلى الطاعة ، أو الثواب أو الجنة . ﴿ **وسعها** ﴾ : قدر طاقتها . يريد به التحريض على ما وصف به الصالحين وتسهيله على النفوس . ﴿ **كتاب** ﴾ : يريد به اللوح أو صحيفة الأعمال . ﴿ **بالحق** ﴾ : بالصدق لا يوجد فيه ما يخالف الواقع . ﴿ **لا يظلمون** ﴾ : بزيادة عقاب أو نقصان ثواب . أ.هـ البيضاوى

وهل تجد اسمى صفة من الإقدام على الإنفاق ثقة بالله وإعتقاداً بحسن جزائه سبحانه وتعالى .

إعتراف أهل سقر بأعذارهم منها : ولم نك نطعم المسكين

يفصل الله بين الخلائق فيذهب العصاة والكفرة الفسقة إلى جهنم فيتحادث المجرمون : ﴿ **ما سلككم فى سقر * قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين فما تنفعهم شفاعة الشافعين** ﴾[2]. من سورة المدثر) .

أيها المسلم : هذا إقرار من الجهنميين وكان من صفاتهم البخل وإنعدام الخير منهم ولا يعطون الفقراء .

(أ) لا يؤدون الصلاة الواجبة .

(ب) ولا يؤدون ما يجب إعطاؤه .

(جـ) يشرعون فى الباطل (مع الخائضين): الشارعين فيه .

(د) يكذبون بيوم القيامة .

أهل بيت رسول الله ﷺ يطعمون الطعام على حبه

سيدنا رسول الله ﷺ المثل الأعلى فى الكرم والقدوة الحسنة فى الانفاق فلا غرو أن يظهر أثر تعاليمه فى أهله وأقربائه . قال البيضاوى فى تفسيره :

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١٤٨

(٢) سورة المدثر الآيات : ٤٢ – ٤٨

وعن بن عباس ـــ رضى الله عنهما ـــ أن الحسن والحسين ـــ رضى الله عنهما ـــ مرضا فعادهما رسول الله ﷺ فى ناس ، فقالوا : لو نذرت على ولديك فنذر على وفاطمة ـــ رضى الله عنهما ـــ صوم ثلاث إن برئا فشفيا ، وما معهم شيء فاستقرض على من (شمعون الجندى) ثلاث أصوع من شعير ، فطحنت فاطمة صاعاً واختبزت خمسة أقراص فوضعوها بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم مسكين فآثروه وباتوا ولم يزوقوا إلا الماء وأصبحوا صياماً فلما أمسوا ووضعوا الطعام وقف عليهم يتيم فأثروه ثم وقف عليهم يتيم فأثروه ثم وقف عليهم فى الثالثة أسير ففعلوا مثل ذلك فنزل . جبريل ـــ عليه السلام ـــ بهذه السورة وقال : خذها يا محمد هناك الله فى أهل بيتك قال تعالى : ﴿ **إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً * عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا * يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً * ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيرا * إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً * إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً * فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً * وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا * متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً * ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً *ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا * قوارير من فضة قدروها تقديرا * ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجيلاً * عيناً فيها تسمى سلسبيلاً * ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثوراً * وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبير * عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهوراً * إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً** ﴾[1].

فهل تقتدى أيها المؤمن بأولئك الكرام الذين جادوا من قلة وأنفقوا فى ضيق اعتماداً على الله ، ورجاء رحمته ورضوانه .

وقال الصاوى فى تفسير : ﴿ **ويطعمون الطعام** ﴾ نزلت فى علي بن أبى طالب وأهل بيته وذلك أنه أجر نفسه ليلة ليسقى نخلاً بشيء من شعير حتى أصبح وقبض الشعير وطحنوا ثلثه فجعلوا منه شيئاً ليأكلوه يقال له الحرير فلما تم نضجه أتى مسكين فأخرجوا إليه الطعام إلى آخره (على حبه) أى مع حبه وشهوته ففيه إيثار على النفس ويصح رجوع الضمير لله : أى على حب الله : أى لوجهه ، وابتغاء رضوانه وخص الثلاثة لأنهم من المواجز المعدمين الكسب . والأسير المحبوس بحق : أى وأولى المحبوس بباطل وعلي ـــ رضى الله عنه ـــ سأله سائل ، وهو راكع فى صلاته فطرح له خاتمه ﴿ **ويؤتون الزكاة وهم راكعون** ﴾ فى الصلاة حرصاً على الاحسان ومسارعة إليه . قال البيضاوى : نزلت فى علي رضى الله عنه ا.هـ. ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة** ﴾[2] الآية .

٥١ – وعن المغيرة بن عبد الله الجعفى قال : جلسنا إلى رجل من أصحاب النبى ـــ ﷺ يقال

(١) سورة الانسان الآيات : ٥ – ٢٢

(٢) سورة المائدة الآية : ٥٥

له خصفه بن خصفه : فجعل ينظر إلى رجل سمين فقلت له : ما تنظر إليه ؟ فقال : ذكرت حديثا سمعته من رسول الله ﷺ سمعته يقول : تدرون ما الشديد ؟ قلنا : الرجل يصرع الرجل . قال : إن الشديد كل الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب . تدرون ما الرقوب ؟ قلنا الرجل الذى لا يولد له . قال : إن الرقوب الرجل الذى له الولد ، لم يقدم منهم شيئاً ، ثم قال : تدرون ما الصعلوك ؟ قال قلنا : الرجل الذى لا مال له ؟ قال : إن الصعلوك كل الصعلوك الذى له المال لم يقدم منه شيئاً . رواه البيهقى(١).

الترغيب فى صدقة السر

١ - عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل وشاب نشأ فى عبادة الله عز وجل ورجل قلبه معلق بالمساجد ورجلان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إنى أخاف الله ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه . رواه البخارى ومسلم من أبى هريرة هكذا(٢).

٢ - وروى عن أنس - رضى الله عنه - قال : رسول الله ﷺ : لما خلق الله الأرض جعلت تميد وتكفأفأرساها بالجبال فاستقرت فعجبت الملائكة من شدة الجبال ، فقالت : ياربنا ! هل خلقت خلقاً أشد من الجبال ؟ قال : نعم الحديد . قالوا : فهل خلقت خلقاً أشد من الحديد ؟ قال : النار . قالوا : فهل خلقت خلقاً أشد من النار ؟ قال : الماء . قالوا : فهل خلقت خلقاً أشد من الماء ؟ قال : الريح قالوا : فهل خلقت خلقاً أشد من الريح ؟ قال : ابن آدم إذا تصدق بصدقة بيمينه فأخفاها من شماله(٣)

٣ - وعن معاوية بن حيدة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : إن صدقة السر تطفىء غضب الرب تبارك وتعالى رواه الطبرانى فى الكبير(٤).

٤ - وعن أبى أمامة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : **صنائع المعروف : تقى** مصارع السوء ، وصدقة السر : تطفىء غضب الرب وصلة الرحم : تزيد فى العمر رواه الطبرانى فى الكبير(٥).

٥ - وروى عن أم سلمة - رضى الله عنها - قالت : قال رسول الله ﷺ : صنائع

(١) الجامع لشعب الإيمان للبيهقى - باب التحريض على صدقة التطوع ٥١٩/٦ رقم ٣٠٧٠

(٢) اللؤلؤ والمرجان - كتاب الزكاة - باب فضل إخفاء الصدقة رقم ٦١٠

(٣) مسند أحمد ١٢٤/٣ وتحفة الأحوذى ٣٠٧/٩ رقم ٣٤٢٨ وقال الترمذى : حديث غريب

(٤) المعجم الكبير للطبرانى ٤٢١/١٩ رقم ١٠١٨

(٥) المعجم الكبير للطبرانى ٣١٢/٨ رقم ٨٠١٤

المعروف : تقى مصارع السوء والصدقة خَفِيا : تطفىء غضب الرب وصلة الرحم : تزيد فى العمر وكل معروف صدقة وأهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة وأهل المنكر فى الدنيا هم أهل المنكر فى الآخرة وأول من يدخل الجنة أهل المعروف رواه الطبرانى فى الأوسط[١].

٦ – وعن أبى أمامة – رضى الله عنه – أن أبا ذر قال : يا رسول الله : ما الصدقة ؟ قال : أضعاف مضاعفة وعند الله المزيد ثم قرأ : من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسنا فيضاعفه له أضعافاً كثيره . قيل يا رسول الله : أى الصدقة أفضل ؟ قال سر إلى فقير أو جهد من مقل ، ثم قرأ : إن تبدو الصدقات فنعما هى الآية . رواه أحمد مطولا والطبرانى واللفظ له . وفى إسنادهما على بن يزيد[٢]

وعن أبى ذر – رضى الله عنه – أن النبى ﷺ قال : ثلاثة يحبهم الله وثلاثة يبغضهم الله . فأما الذين يحبهم : فرجل أتى قوماً فسألهم بالله ولم يسألهم بقرابة بينهم وبينه فمنعوه فتخلف رجل بأعقابهم فأعطاه سراً لا يعلم بعطيته إلا الله والذى أعطاه وقوم ساروا ليلتهم حتى إذا كان النوم أحب إليهم مما يُعدل به فوضعوا رءوسهم فقام يتملقنى ويتلو آياتى ورجل كان فى سرية فلقى العدو فهزموا فأقبل بصدره حتى يقتل أو يفتح له . والثلاثة الذين يبغضهم الله : الشيخ الزانى والفقير المختال والغنى الظلوم . رواه النسائى وابن خزيمة فى صحيحة[٣].

المعنى فقام يتملقنى : تجافى جنبه عن مضجعه وذهب لعبادة الله وذكره .

الشيخ الزانى : كبير السن هرم ومع ذلك يرتكب الفاحشة بمعنى أن عقابه أشد من غيره رجل ضعفت قوته وشهوته وكد ولم يكسر حدته فى الفاحشة .

الفقير المختال : لا يملك شيئاً ولكن يتكبر على الناس ويتجبر ويختال والمنهى عنه الخيلاء والعجب والغطرسه على الناس وهو محتاج .

الغنى الظلوم : صاحب الثروة والنعمة ولكن يتعدى على خلق الله ويسىء إليهم ويمنع حقوقهم ويضيع أموالهم عدوانا مع أنه فى سعة يمكنه أداء الحقوق كاملة ويتجبر ويقسو . ويطغى ويبغى .

سيدنا موسى عليه السلام يقول لفرعون : هل لك إلى أن تزكى ليعتبر المسلمون

قال تعالى : **﴿ هل أتاك حديث موسى * إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى * اذهب إلى فرعون إنه طغى * فقل هل لك إلى أن تزكى * وأهديك إلى ربك فتخشى * فأراه الآية الكبرى * فكذب وعصى * ثم أدبر يسعى * فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى * فأخذه الله نكال الآخرة والأولى * إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾** .

(١) مجمع الزوائد ١١٥/٣

(٢) مسند أحمد ٢٦٥/٥ والمعجم الكبير للطبرانى ٢٦٩/٨ رقم ٧٨٩١

(٣) سنن النسائى ٨٤/٥ وصحيح ابن خزيمة – كتاب الزكاة ١٠٤/٤ رقم ٢٤٥٦ ومسند أحمد ١٥٣/٥

إن شاهدنا العظه من دروس موسى عليه السلام لفرعون وتكبره على الناس فطمس الله معالمه وضيع ملكه لماذا ؟ لأنه طغى وبغى وعس فى الأرض وأفسد ولم يؤمن بالله ورسله ولم يعمل صالحا وساق الله تعالى لحبيبه هذا الحديث ليسليه على تكذيب قومه ويعظهم أن يعتبروا فيعملوا صالحا خشية أن يصيبهم مثل ما أصاب من هو أعظم منه كذلك دعوا الناس أن يعملوا بالكتاب والسنة ويصلوا ويتصدقوا خشية زوال هذه النعم وإنتشار نقم الله وعذابه بينهم .

﴿ **تزكى** ﴾ : أى هل لك ميل يا فرعون إلى أن تتطهر من الكفر وتبتعد عن الطغيان وتنقاد لأوامر الله وتتجنب الظلم وتترك الضلال والإفساد ، ﴿ **وأهديك إلى ربك** ﴾ :ارشدك إلى معرفته ـــ عز وجل . ﴿ **فتخشى** ﴾ : بأداء الواجبات ، وترك المحرمات إذ الخشية إنما تكون بعد المعرفة . ﴿ **الآية** ﴾ : المعجزة ، وهى قلب العصا حيه فكذب فرعون موسى وعصى الله ـــ عز وجل ـــ ثم أدبر عن الطاعة ساعياً فى إبطال أمره . أدبر بعد ما رأى الثعبان مرعوباً مسرعاً فى مشيه . ﴿ **فحشر** ﴾ : فجمع السحرة أو جنوده . ﴿ **الأعلى** ﴾ : أى كل من يلى أمركم . ﴿ **نكال الآخرة** ﴾ : الإحراق فى جهنم . ﴿ **الأولى ؟** ﴾ : الاغراق فى الدنيا . قال تعالى : ﴿ **آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين** ﴾ فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا . ﴿ **لغافلون** ﴾ : أى أتؤمن الآن وقد أيست من نفسك ولم يبق لك اختيار . ﴿ **المفسدين** ﴾ : الضالين المضلين عن الإيمان . ﴿ **ننجيك** ﴾ : ننقذك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ونجعلك طافياً أو نلقيك على نجوة من الأرض ليراك بنو إسرائيل . ﴿ **ببدنك** ﴾ : عارياً من الروح أو كاملاً سوياً أو عرياناً من غير لباس أو بدرعك وكانت له درع من ذهب يعرفون بها لتكون لمن وراءك علامة .

إذ كان فى نفوس بنى اسرائيل من عظمته ما خيل إليهم أنه لا يهلك حتى كذبوا موسى عليه الصلاة والسلام حين أخبرهم بغرقه إلى أن عاينوه مطروحاً على ممرهم من الساحل أو لمن يأتى بعدك من القرون إذا سمعوا مآل أمرك عن شاهدك عبرة ونكالا عن الطغيان أو حجة تدلهم على أن الإنسان على ما كان عليه من عظم الشأن ، وكبرياء الملك مقهور مملوك بعيد عن مظان الربوبية فقد كف الله تزويرك وأماط الشبهة فى أمرك وذلك دليل على كمال قدرة الخالق جل وعلا وعلمه وإرادته ، وإن إزالة ملك هذا الطاغية معنى من معانى بغض الله وكراهته للظالمين . فالعدل يعمر والظلم يدمر وقديماً قيل : العدل أساس الملك قال تعالى : ﴿ **فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾(٢). أى الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك

---

(١) سورة النازعات الايات : ١٥ - ٢٦

(٢) سورة القصص الآية : ٥٠

فى اتباع الهوى فاللهم وفقنا لنتبع السيد المصطفى ﷺ ونترسم شرعه . وقال تعالى : ﴿ **قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها** ﴾[1] أى أنماها بالعلم والعمل وفيه الحث على تكميل النفس والالتجاء إلى التضرع إلى الخالق جل وعلا رجاء السير على منهج الرسول ﷺ ﴿ **دساها** ﴾ : نقصها وأخفاها بالجهالة والفسوق .

المنفق يعطيه الله حتى يرضى ويعافيه من العسر وييسر له اليسر

تزود ياأخى من أحاديث رسول الله ﷺ رجاء أن تتعود السخاء فيزيد الله رزقك ويقيك المكاره ويعينك على طاعته ويهيء لك طرق السداد والرشاد ويذلل لك سبل السعادة ومصداق ذلك قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى * وما يغنى عنه ماله إذا تردى * إن علينا للهدى * وإن لنا للآخرة والأولى * فأنذرتكم ناراً تلظى * لا يصلاها إلا الأشقى * الذى كذب وتولى * وسيجنبها الأتقى * الذى يؤتى ماله يتزكى * وما لأحد عنده من نعمة تجزى * إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى * ولسوف يرضى** ﴾[2] من سورة الليل : أى أعطى الطاعة وجاد فى الخير وأحسن إلى الفقراء واتقى المعاصى وخاف الله وعمل صالحاً .

﴿ **بالحسنى** ﴾ : بكلمة التوحيد بمعنى أنه رجا الله ووثق به وخشيه . ﴿ **فسنيسره** ﴾ : فسنهيئه للخلة التى تؤدى إلى يسر وراحة كدخول الجنة . ﴿ **بخل** ﴾ : شح بما أمر به ولم يؤدى الزكاة ولم يتصدق بمعنى أنه لم يفعل الواجبات والنوافل . ﴿ **للعسرى** ﴾ : للخلة المؤدية إلى العسر والشدة كدخول النار ، ياأخى : ثق بهذا وتصدق وأفعل الخير ، والله يجازيك الجزاء الأوفى ويزيل عنك السوء ويحفظك ويشفيك ويلهمك الصواب والحكمة ولقد أخبرك جل وعلا أن مالك لا ينفعك إذا مت إلا إذا أنفقته فى مرضاة الله وإبتغاء ثوابه . ﴿ **تردى** ﴾ : هلك أو وقع فى حفرة جهنم . ﴿ **الهدى** ﴾ : تفضل من الله جل وعلا أن يبين الإرشاد إلى الحق . ﴿ **وإن لنا للآخرة والأولى** ﴾ **أى الله تعالى مالك الدنيا والآخرة ، يقول جل جلاله : نعطى فى الدارين ما نشاء لمن نشاء أو ثواب الهداية للمهتدين أو فلا يضرنا ترككم الاهتداء** . ﴿ **تلظى** ﴾ : تتلهب . ﴿ **لا يصلاها** ﴾ : لا يلزم مقاسياً شدتها . ﴿ **إلا الأشقى** ﴾ : الكافر الذى كذب الحق وأعرض عن الطاعة والفاسق لا يلزمها . ﴿ **الأتقى** ﴾ : الذى اتقى الشرك والمعاصى . ﴿ **يؤتى ماله** ﴾ : يصرفه فى مصارف الخير . ﴿ **ولسوف يرضى** ﴾ : وعد بالثواب الذى يرضيه . والآيات نزلت فى أبى بكر ــ رضى الله عنه ــ حين اشترى بلالا فى جماعة تولاهم المشركون فأعتقهم ولذلك : المراد بالأشقى أبو جهل أو أمية بن خلف أ.هـ بيضاوى .

---

(١) سورة الشمس الآيتان : ٩ ، ١٠

(٢) سورة الليل الآيات : ٥ – ٢١

هذا أبو بكر ــ رضى الله عنه ــ منذ ظهر فجر الإسلام وسيرته أندى من المسك لأنه أنفق لله وأحب فى الله وهو جدير بكل ثناء ومدح :

فسر بنا فى ذمـــام الليـــل متعسفـــاً ... فنفحــة الطـــيب تهدينـــا إلى المـلــل
فالحب حيث العدد والأســد رابضــة ... حــول الكنـاس لها غـاب مــن الأســل
قــد زاد طــيب أحاديــث الكــرام بهــا ... ما بالكرائــم من حين وعـــن بخـــل
تبيــت نــار الهــوى منهــن فى كبـــد ... حــرى ونــار القــرى منهم على القــلــل

الغنى يخلد فى النعيم إذا ما أنفق ماله لله فى الصالحات والمال الكثير يجر إلى المعاصى

إذا أعطى الله الإنسان مالا وفيرا فصرفه فى وجوه الخير وفى الطيبات وأدى حقوق الله فيه فاز بعز الله وتمتع بالسعادة فى حياته ومماته . أما إذا بخل وقصر فى الزكاة ونأى عن الصدقات جرى مضاره فى شهواته وضيعه فى الموبقات وارتكب به الخطايا وامتلأت مجالسه بالغيبه والنميمه ، وباء بالخسران وقد أخبرنا سبحانه وتعالى عن (الأخنس بن شريق) وكان مغيبا أو (الوليد بن المغيرة) واعتيابه رسول الله ﷺ . قال تعالى :

(أ) ﴿ **ويل لكل همزة لمزة الذى جمع مالاً وعدده يحسب أن ماله أخلده كلا لينبذن فى الحطمة** ﴾ . وشاهدنا رجل ثرى اغتر بكثرة ماله فطغى واغتاب ونم وعادى رسول الله ﷺ ولم يؤمن به ﷺ ولم يعمل صالحاً فاستحق عذاب الله . ﴿ **وما أدراك ما الحطمة نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة إنها عليهم مؤصدة فى عمد ممددة** ﴾[١]. تطلع على الأفئدة : تطو أوساط القلوب لأنها محل العقائد الزائفة ومنشأ الأعمال القبيحة . ﴿ **مؤصدة** ﴾ : مطبقة وموثقين فى أعمدة ممدودة مثل المقاطر التى تقطر فيها اللصوص أ.هـ بيضاوى .

انتقل أيها الأخ إلى سيرة أبى لهب فإنه ﷺ جمع أقاربه كما أمره سبحانه وتعالى : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾[٢] فأنذرهم ، فقال أبو لهب تبالك ألهذا دعوتنا وأخذ حجراً ليرميه به فنزلت .

(ب) ﴿ **تبت يدا أبى لهب وتب ما أغنى عنه ماله وماكسب** ﴾[٣] : أى : مكسوبه بماله من النتائج والأرباح والوجاهه الأتباع أو عمله الذى ظن أنه سينفعه أو ولده عتبة ، وقد أفترسه أسد فى طريق الشام وقد أحدق به البعير ومات أبو لهب بالفرسة بعد وقعة بدر بأيام معدودة وترك ثلاثاً

(١) سورة الهمزة الآيات : ٥ – ٩
(٢) سورة الشعراء الآية : ٢١٤
(٣) سورة المسد الآيتان : ١ ، ٢

حتى أنتن ثم استأجروا بعض السودان حتى دفنوه ، فهو إخبار عن الغيب طابقة وقوعه . أ.هـ بيضاوى .

وشاهدنا رجل طمس الله على بصيرته فلم يؤمن برسول الله ﷺ وأخذه الغرور بماله فلم يشيد به الصالحات ولعل ذلك عبرة للمسلمين الأغنياء أن يقبلوا على طاعة الله ويعملوا صالحاً وينفقوا حبا فى الله ، فالإنسان بفطرته يحب المال ، ولكن يعالجها بالإنفاق والميل إلى فعل الخيرات قال تعالى :

(جـ) ﴿ **إن الإنسان لربه لكنود * وإنه على ذلك لشهيد * وإنه لحب الخير لشديد * أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور * وحصل ما فى الصدور * إن ربهم بهم يومئذ لخبير** ﴾[1].

وعلى هذا الإنفاق من علامات المتقين كما أخبرنا الله تعالى فى محكم كتابه والبخل من شيم الأشرار كما رأيت . قال عز شأنه :

(أ) ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾[2].

(ب) ﴿ **يأيتها النفس المطمئنة * ارجعى إلى ربك راضية مرضية * فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى** ﴾[3].

(جـ) وجوه يومئذ ناعمة . لسعيها راضية * فى جنة عاليه * لاتسمع فيها لا غية * فيها عين جارية * فيها سرر مرفوعة * وأكواب موضوعة * ونمارق مصفوفة * وزرابى مبثوثة ﴾[4].

(د) ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾[5].

(هـ) ﴿ **فأما من ثقلت موازينه * فهو فى عيشة راضية * وأما من خفت موازينه * فأمه هاوية * وما أدراك ماهية * نار حامية** ﴾[6].

---

(١) سورة العاديات الآيات : ٦ – ١١
(٢) سورة البقرة الآيتان : ٢ ، ٣
(٣) سورة الفجر الآيات : ٢٧ – ٣٠
(٤) سورة الغاشية الآيات : ٨ – ١٦
(٥) سورة الزلزلة الآيتان : ٧ – ٨
(٦) سورة القارعة الآيات : ٦ – ١١

الترغيب فى الصدقة على الزوج والأقارب وتقديمهم على غيرهم

عن زينب الثقفية امرأة عبد الله بن مسعود ـــ رضى الله عنهما ـــ قالت : قال رسول الله ﷺ تصدقن يا معشر النساء ولو من حليكن قالت : فرجعت إلى عبد الله بن مسعود ، فقلت : إنك رجل خفيف ذات اليد وإن رسول الله ﷺ قد أمرنا بالصدقة فائته فاسأله ، فإن كان ذلك يجزى عنى وإلا صرفتها إلى غيركم ، فقال عبد الله بل ائته أنت فانطلقت فإذا أمرأة من الأنصار بباب رسول الله ﷺ مثل حاجتها حاجتى وكان رسول الله ﷺ قد ألقيت عليه المهابة فخرج علينا بلال رضى الله عنه فقلت له : ائت رسول الله ﷺ فأخبره أن امرأتين بالباب يسألانك أتجزى الصدقة عنهما على أزواجهما وعلى أيتام فى حجورهما ولا تخبره من نحن . قالت فدخل بلال على رسول الله ﷺ فسأله فقال له رسول الله ﷺ : من هما ؟ فقال : امرأة من الأنصار وزينب ، فقال رسول الله ﷺ : أى الزيانب ؟ قال : امرأة عبد الله بن مسعود ، فقال رسول الله ﷺ : لهما أجران : أجر القرابة وأجر الصدقة . رواه البخارى ومسلم واللفظ له[1]

٢ – وعن سلمان بن عامر ـــ رضى الله عنه ـــ عن النبى ﷺ قال : الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذوى الرحم ثنتان : صدقة ، وصلة رواه النسائى والترمذى وحسنه وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحهما والحاكم وقال : صحيح الإسناد ولفظ ابن خزيمة قال : الصدقة على المسكين صدقة وعلى القريب صدقتان : صدقة ، وصلة[2]

٣ – وعن حكيم بن حزام ـــ رضى الله عنه ـــ أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن الصدقات أيها أفضل ؟ قال : على ذى الرحم الكاشح رواه أحمد والطبرانى وإسناد أحمد ، حسن[3]. [الكاشح] بالشين المعجمة : هو الذى يضمر عداوته فى كشحه وهو خضره يعنى : أن أفضل الصدقة على ذى الرحم القاطع المضمر العداوة فى باطنه .

٤ – وعن أم كلثوم بنت عقبة ـــ رضى الله عنها ـــ أن النبى ﷺ قال : أفضل الصدقة : الصدقة على ذى الرحم الكاشح . رواه الطبرانى فى الكبير . ورجاله رجال الصحيح وابن خزيمة فى صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم[4].

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـــ كتاب الزكاة ـــ باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين رقم ٥٨٤

(٢) سنن النسائى ٩٢/٥ وسنن الترمذى ٣٨/٣ رقم ٦٥٨ وصحيح ابن خزيمة ٧٧/٤ رقم ١٣٨٥ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١٤٣/٥. والمستدرك للحاكم كتاب الزكاة ٤٠٧/١

(٣) مسند أحمد ٤٠٢/٣ والمعجم الكبير للطبرانى ٢٢٦/٣ رقم ٣١٢٦

(٤) المعجم الكبير للطبرانى ١٦٥/٤ رقم ٣٩٢٣ وابن خزيمو ٧٨/٤ رقم ٢٣٨٦ والحاكم فى للمستدرك ٤٠٦/١ وأحمد فى سنده ٤١٦/٥

٥ – وعن أبي أمامة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : إن الصدقة على ذى قرابة يضعّف أجرها مرتين . رواه الطبرانى فى الكبير من طريق عبيد الله بن زحر[١]

الترهيب من أن يسأل الإنسان مولاه أو قريبه من فضل ماله فيبخل عليه أو يصرف صدقته إلى الأجانب وأقرباؤه محتاجون

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : والذى بعثنى بالحق لا يُعذب الله يوم القيامة من رحم اليتيم ولان له فى الكلام ورحم يتمه وضعفه ولم يتطاول على جاره بفضل ما أتاه الله وقال : يا أمة محمد والذى بعثنى بالحق لا يقبل الله صدقة من رجل وله قرابة محتاجون إلى صلته ويصرفها إلى غيرهم والذى نفسى بيده لا ينظر الله إليه يوم القيامة . رواه الطبرانى . ورواته ثقات وعبد الله بن عامر الأسلمى[٢].

٢ – وعن بَهزِ بن حكيم عن أبيه عن جده ــ رضى الله عنه ــ قال : قلت يا رسول الله : من أبر ؟ قال : أمك ، ثم أمك ، ثم أمك ، ثم أباك ثم الأقرب فالأقرب وقال رسول الله ﷺ : لا يسأل رجل مولاه من فضل هو عنده فيمنعه إياه إلا دعى له يوم القيامة فضله الذى منعه شجاعاً أقرع . رواه أبو داود واللفظ له والترمذى وقال : حديث حسن . قال أبو داود : الأقرع الذى ذهب شعر رأسه من السم[٣].

المعنى : أمك : أى أكرم أمك واعتن بها وأغدق عليها من نعمتك وكرر ﷺ ثالثاً طالبا الوصايه بها والرأفة وشدة الإكرام والإحسان ويليها الأب .

مولاه : سيده : أى : خادم يطلب من مخدمه عليه نفقته وإطعامه وكسوته فيبخل إلا جاء هذا الخير والنعيم متمثلاً أفعى يأخذ بلهزمتيه ويعذبه . قال فى النهاية : الأقرع : الذى لا شعر على رأسه ، يريد حيه قد تمعط جلد رأسه وكثرة سمه وطول عمره أ.هـ .

وفيه إكرام الوالدين وتقديم الأم . قال الله تعالى : ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا** ﴾[٤] وفيه الجود والسخاء وبذل الكرم خشية أن تمثل بافة يوم القيامة تعذب مانع الخير .

---

(١) المعجم الكبير للطبرانى ٢٤٤/٨ رقم ٧٨٣٤

(٢) مجمع الزوائد للهيثمى ١١٧/٣

(٣) أخرجه أبو داود ــ كتاب الأدب ٣٥١/٥ رقم ٥١٣٩ والترمذى ــ كتاب البر ٣٠٩/٤ رقم ١٨٩٧ وقال الترمذى : حديث حسن

(٤) سورة الاسراء آية : ٢٣

٣ – وعن جرير بن عبد الله البجلي – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : ما من ذى رحم يأتى ذا رحمه فيسأله فضلاً أعطاه الله إياه فيبخل عليه إلا أخرج الله له من جهنم حية يقال لها شجاع يتلمظ فيطوّق به . رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير بأسناد جيد(١).

[التلمظ] تطعم ما يبقى فى الفم من آثار الطعام .

المعنى : يأتى ذا رحمه : أى ما من رجل له أقارب فقصده واحد منهم يطلب منه شيئاً مما أنعم الله به عليه فيشح ولا يعطيه إلا عذبه الله بنوع شديد فى الألم فيسلط عليه ثعباناً يدخل فى فمه ويقرصه ويحيط بجسمه فيؤلمه وفيه الحث على الجود وإعطاء ما يمكن إتقاء عذاب الله وحبا فى ثوابه وفى حديث أنس فى التنميك (فجل الصبى يتلمظ) أى يدير لسانه فى فمه ويحركه يتتبع أثر التمر واسم ما يبقى فى الفم من أثر الطعام . والخلاصة الترغيب فى بذل الصدقة للأقارب المحتاجين وتقديم من تعول . قال تعالى :

(أ) ﴿ **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً * الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذاباً مهينا * والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قرينا** ﴾ . ٣٨ من سورة النساء .

(ب) ﴿ **فآت ذا القربى حقه** ﴾(٢).

(جـ) ﴿ **وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً** ﴾(٣)

وعن عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ : أيما رجل أتاه ابن عمه يسأله من فضله فمنعه منعه الله فضله يوم القيامة . رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط(٤).

الترغيب فى القرض وما جاء فى فضله

١ – عن البراء بن عازب – رضى الله عنهما – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من منح منيحة لبن أو ورق أو هدى زقاقاً كان له مثل عتق رقبة . رواه أحمد والترمذى . واللفظ له ، وابن

(١) المعجم الكبير للطبرانى ٣٦٦/٢ رقم ٢٣٤٣
(٢) سورة الروم الآية : ٣٨
(٣) سورة الاسراء الآية : ٢٦
(٤) مجمع الزوائد ١٥٤/٨

حبان فى صحيحه ، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح[١] ومعنى قوله : منح منيحة ورق ، إنما يعنى به قرض الدرهم وقوله : أو هدى زقاقاً : إنما يعنى به هداية الطريق وهو إرشاد السبيل

المعنى : منح منيحة : أعطى عطاء وفى النهاية : منحة الورق القرض ومنحة اللبن أن يعطيه ناقة أو شاة ينتفع بلبنها ويعيدها وكذلك إذا أعطاه لينتفع بوبرها وصوفها زماناً ثم يردها .

الزقاق بالضم : الطريق يريد من دل الضال أو الأعمى على طريقه ، وقيل أراد من تصدق بزقاق من النخل وهى السكة منها والأول أشبه لأن هدى من الهداية لا من الهدية .

٢ – وعن عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – أن النبى ﷺ قال : كل قرض صدقة . رواه الطبرانى بإسناد حسن والبيهقى[٢].

المعنى : كل قرض صدقة : ما تعطيه من المال لتقضاه وما سلفت من إحسان قال تعالى : ﴿ **وأقرضوا الله قرضاً حسناً** ﴾ . وفى الغريب وسمى ما يدفع إلى الإنسان من المال بشرط رد بدله قرضا . قال تعالى : ﴿ **من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً** ﴾[٣].

واعتقد أن بذل المال فى سبيل إرضاء الله – سبحانه وتعالى – يساوى بذل النفوس باخلاص لتجاهد فى نصر دينه وإذا تصفحت كتاب الله العزيز تجد فى سورة الصف . ﴿ **يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم * وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب * وبشر المؤمنين** ﴾[٤] من سورة الصف .

القرض كما قال العلماء الفقهاء فى كتب الفقه

وهو تمليك الشىء على أن يرد مثله وهو سنة مؤكدة وقد يجب للمضطر ويحرم لمن يستعين به على معصيته وأركانه أربعة : الصيغة والمقرض والمتعاقدان والصيغة نحو أقرضتك ويقول الآخذ : قبلت ويجوز إقراض كل ما يجوز فيه السلم مما ينضبط ، أما ما لا ينضبط فلا يجوز إقراضه نعم يجوز إقراض العجين كالخمير والخبز وزناً ، وأجازه بعضهم عدا ، وعليه العمل فى الأمصار ويرد المقترض مثل ما اقترض ولا يجوز قرضه نقد أو غيره بشرط جر منفعة للمقرض كأن يرد زيادة أو يرد ببلد آخر فلورد زائداً قدراً أو صفة بلا شرط فلا بأس ولا كراهة ولو شرط أجلاً فالشرط لغو وللمقرض مطالبته قبل

(١) مسند أحمد ٢٨٦/٤ وسنن الترمذى ٣٤٠/٤ رقم ١٩٥٧ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٢٧٨/٧
(٢) المعجم الكبير للطبرانى ٣٨٧/٢٢ رقم ٩٦٤ والجامع لشعب الإيمان ١٦٣/٧ رقم ٣٢٨٥
(٣) سورة البقرة الآية : ٢٤٥
(٤) سورة الصف الآيات : ١٠ – ١٣

حلوله ويسن الوفاء بالتأجيل فإن شرط المقرض فى القرض الأجل لمنفعة تعود عليه فسد القرض ويقع الأقراض بشرط الاشهاد والكفيل والرهن . أ.هـ تنوير القلوب ٢٧٢ .

ومعنى السلم : بيع شيء موصوف فى الذمة بلفظ السلم أو السلف . قال ﷺ : « من أسلف فى شيء فليسلف فى كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم » . رواه الشيخان(١).

ومعنى مالا ينضبط : كالمعجونات والمطبوخات والخبز وكل ما دخلته النار وأثرت فيه إلا التمييز كسمن وعسل ولا فى الخفاف والنعال المركبة والجلود والسفرجل والبطيخ عداً ، ويصح فى الأخيرين وزناً . ويشترط فى الحبوب كالبرو الأرز وفى الثمار كالتمر والزبيب . ذكر نوعه ولونه وبلده وجرمه وكونه قديما أو جديداً . قال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه** ﴾(٢). قال ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ نزلت فى السلم . ذكرت لك هذا لعظيم ثواب فك ضيق المعسر . وزيادة أجر الكريم ذى المروءة الذى يفرج كرب أخيه وينفس عنه آلام احتياجه ويبعد فقره المدقع .

٣ – وعن أبى أمامة ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ﷺ قال : دخل رجل الجنة فرأى مكتوباً على بابها : الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر ، رواه الطبرانى والبيهقى ، كلا هما رواية عتبة بن حميد(٣). ورواه ابن ماجه والبيهقى أيضاً كلاهما عن خالد بن يزيد بن أبى مالك عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : رأيت ليلة أسرى بى على باب الجنة مكتوباً الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر ، الحديث وعتبة بن حميد عندى أصلح حالا من خالد(٤).

٤ – وعن عبد الله بن مسعود ــ رضى الله عنه ــ أن النبى ﷺ : قال : ما من مسلم يقرض مسلماً قرضاً مرتين إلا كان كصدقتها مرة . رواه ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والبيهقى مرفوعاً وموقوفاً(٥).

٥ – وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : من يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة . رواه ابن حبان فى صحيح ، رواه مسلم الترمذى ، وأبو داود(٦).

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ــ كتاب المساقاه ــ باب السلم رقم ١٠٣٤

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٨٢

(٣) المعجم الكبير للطبرانى ٢٩٧/٨ رقم ٧٩٧٦ والجامع لشعب الإيمان للبيهقى ١٦٣/٧ رقم ٣٢٨٦

(٤) سنن ابن ماجه ٨١٢/٢ رقم ٢٤٣١ والجامع لشعب الإيمان للبيهقى ــ فصل فى القرض ١٦٤/٩ رقم ٣٨٨

(٥) سنن ابن ماجه ٨١٢/٢ رقم ٢٤٣٠ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٤٩/٧ رقم ٥٠١٨

(٦) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٢٥١/٧ وصحيح مسلم ٢٠٧٤/٤ وسنن الترمذى ١٩٥/٥ رقم ٢٩٤٥ وسنن أبى داود ٢٣٥/٥ رقم ٢٩٤٦

الترغيب فى التيسير على المعسر وإنظاره والوضع عنه

١ – عن أبى قتادة – رضى الله عنه – أنه طلب غريماً له فتوارى عنه ثم وجده ، فقال : إنى معسر ؟ قال : آلله . قال : آلله : فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه . رواه مسلم وغيره ورواه الطبرانى فى الأوسط بإسناد صحيح وقال فيه : من سرّه أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة وأن يظله تحت عرشه فلينظر معسراً(١).

المعنى : غريماً : صاحب دين له ، والغرم : أداء شىء لازم ، والغارم : الذى يلتزم ما ضمنه وتكفل به ويؤديه .

فتوارى : اختفى – معسر : لا يمكن السداد الآن . كرب : أهوال . فلينفس : فليفرج وليزل ضيقه ويؤخر المطالبة .

٢ – وعن حذيفة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم ، فقالوا : عملت من الخير شيئا ؟ قال : لا . قالوا : تذكر ؟ قال : كنت أداين الناس فآمر فتيانى أن ينظروا المعسر ويتجوزوا عن الموسر قال : قال الله : تجاوزوا عنه . رواه البخارى ومسلم واللفظ له(٢).

٣ – وفى رواية لمسلم وابن ماجه عن حذيفة أيضاً عن النبى ﷺ : أن رجلاً مات فدخل الجنة فقيل له : ما كنت تعمل ؟ قال : فإما ذَّكر وإما ذُكر ؟ فقال : كنت أبايع الناس فكنت أنظر المعسر وأتجوز فى السكة أو فى النقد فغفر له(٣).

المعنى : أتسامح فى الاقتضاء والاستيفاء وقبول ما فيه نقص يسير ، والسكة : الدراهم والدنانير بمعنى أنى أتساهل ولا أدقق .

٤ – وفى رواية للبخارى ومسلم عنه أيضاً قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن رجلاً ممن كان قبلكم أتاه الملك ليقبض روحه ، فقال : هل عملت من خير ؟ قال : ما أعلم . قيل له : أنظر ! قال : ما أعلم شيئاً غير أنى كنت أبايع الناس فى الدنيا فأنظر الموسر وأتجاوز عن المعسر ، فأدخله الله الجنة فقال أبو مسعود : وأنا سمعته يقول ذلك(٤).

٥ – وعنه رضى الله عنه قال : أتى الله بعبد من عباده آتاه الله مالا ، فقال له : ماذا عملت فى

(١) صحيح مسلم ١١٩٦/٣ رقم ١٥٦٣ ومجمع الزوائد ١٣٤/٤

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان – كتاب المساقاه – باب فضل إنظار المعسر رقم ١٠٠٦

(٣) صحيح مسلم – كتاب المساقاه – باب فضل إنظار المعسر ١١٩٥/٣ رقم ٢٨ وسنن ابن ماجه – كتاب الصدقات – باب إنظار المعسر ٨٠٨/٢ رقم ٢٤٢٠

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان – كتاب المساقاه – باب فضل إنظار المعسر رقم ١٠٠٦

الدنيا ؟ قال : ولايكتمون الله حديثا ؟ قال : يارب آتيتنى مالا فكنت أبايع الناس وكان من خلقى الجواز فكنت أيسِّر على الموسر وأنظر المعسر فقال الله تعالى : أنا أحق بذلك منك تجاوزوا عن عبدى فقال عقبة بن عامر وأبو مسعود الأنصارى : هكذا سمعناه من رسول الله ﷺ رواه مسلم هكذا موقوفاً على حذيفة ومرفوعاً عن عقبة وأبى مسعود(١).

المعنى : الجواز : التسامح وفى هذه الأحاديث فضل إنظار المعسر والوضع عنه إما كل الدين وإما بعضه : من كثير أو قليل أو فضل المسامحة فى الاقتضاء وفى الاستيفاء سواء استوفى من موسر أو معسر وفضل الوضع من الدين وأنه لا يحتقر شىء من أفعال الخير : فلعله سبب السعادة والرحمة . وفيه جواز توكيل العبيد والإذن لهم فى التصرف وهذا على رأى من يقول : شرع من قبلنا شرع لنا .

أيسر على الموسر : آخذ ما تيسر وأسامح بما تعسر .

٦ – وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : كان رجل يداين الناس وكان يقول لفتاه : إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه لعل الله عز وجل يتجاوز عنا فلقى الله فتجاوز عنه . رواه البخارى ومسلم والنسائى ولفظه :

إن رسول الله ﷺ قال : إن رجلاً لم يعمل خيراً قط وكان يداين الناس فيقول لرسوله خذ ما تيسر واترك ما عسر وتجاوز لعل الله يتجاوز عنا فلما هلك . قال الله له : هل عملت خيراً قط ؟ قال : لا إلا أنه كان لى غلام وكنت أداين الناس فإذا بعثته يتقاضى . قلت له : خذ ما تيسر واترك ما عسر وتجاوز لعل الله يتجاوز عنا . قال الله تعالى : قد تجاوزت عنك(٢).

٧ – وعن أبى مسعود البدرى – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شىء إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسراً وكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر . قال الله تعالى : نحن أحق بذلك تجاوزوا عنه . رواه مسلم والترمذى(٣).

٨ – وعن بريدة – رضى الله عنه – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من أنظر معسراً فله كل يوم مثله صدقة . ثم سمعته يقول : من أنظر معسراً فله كل مثليه يوم صدقة ، فقلت يا رسول الله سمعتك تقول : من أنظر معسراً فله كل يوم مثله صدقة ، ثم سمعتك تقول : من أنظر معسراً فله كل يوم مثليه صدقة ؟ قال له : كل يوم مثله صدقة قبل أن يحل الدين ، فإذا حل فأنظره فله بكل يوم مثليه صدقة . رواه الحاكم ورواته محتج لهم فى الصحيح(٤). ورواه أحمد أيضاً وابن ماجه والحاكم مختصراً : من

(١) صحيح مسلم – كتاب المساقاه – باب فضل إنظار المعسر ١١٩٥/٣ رقم ٢٩

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان – كتاب المساقاه – باب فضل إنظار المعسر رقم ١٠٠٧

(٣) صحيح مسلم – كتاب المساقاه – باب فضل إنظار المعسر ١١٩٥/٣ رقم ١٥٦١ وسنن الترمذى – كتاب البيوع – باب إنظار المعسر والرفق به ٥٩٠/٣ رقم ١٣٠٧

(٤) المستدرك للحاكم – كتاب البيوع ٢٩/٢

أنظر معسراً فله كل يوم صدقة قبل أن يحل الدين فإذا حل الدين فأنظره بعد ذلك فله كل يوم مثليه صدقة . وقال الحاكم : صحيح على شرطهما(١).

٩ – وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر فى الدنيا يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ومن ستر على مسلم فى الدنيا ستر الله عليه فى الدنيا والآخرة والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه . رواه مسلم وأبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه مختصراً والحاكم وقال : صحيح على شرطهما(٢).

١٠ – وروى عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : من فرج عن مسلم كربة جعل الله تعالى له يوم القيامة شعبتين من نور على الصراط بضوئهما عالم لايحصيهم إلا رب العزة . رواه الطبرانى فى الأوسط(٣).

١١ – وعنه – رضى الله عنه – أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : من أنظر معسراً أو وضع له أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله . رواه الترمذى(٤).

١٢ – وعن أبى اليسر – رضى الله عنه – قال : أبصرت عيناى هاتان ، ووضع أصبعين على عينيه وسمعت أذناى هاتان ، **ووضع أصبعين** فى أذنيه . ووعاه قلبى هذا – وأشار إلى نياط قلبه – رسول الله ﷺ يقول : من أنظر معسراً أو وضع له أظله الله فى ظله . رواه ابن ماجه والحاكم واللفظ له(٥).

١٣ – وروى عن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ : من أراد أن تستجاب دعوته وأن تكشف كربته فليفرج عن معسر . رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب اصطناع المعروف .

١٤ – وروى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ : من أنظر معسراً إلى ميسرته أنظره الله بذنبه إلى توبته . رواه ابن أبى الدنيا والطبرانى فى الكبير والأوسط(٦).

١٥ – وعنه – رضى الله عنه – قال : خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد وهو يقول : هكذا

---

(١) مسند أحمد ٣٦٠/٥ وابن ماجه ٨٠٨/٢ رقم ٢٤١٨

(٢) صحيح مسلم ، ٣٠٧٤/٤ رقم ٢٦٩٩ وسنن أبى داود ٢٣٤/٥ رقم ٤٩٤٦ وسنن الترمذى ٣٢٦/٤ رقم ١٩٣٠ وسنن ابن ماجه ٨٢/١ رقم ٢٢٥ والمستدرك للحاكم ٣٨٣/٤

(٣) مجمع الزوائد ١٩٢/٨

(٤) الترمذى كتاب البيوع – باب ما جاء فى إنظار المعسر والرفق به ٥٩٠/٣ رقم ١٣٠٦ وقال : حديث حسن صحيح

(٥) سنن ابن ماجه ٨٠٨/٢ رقم ٢٤١٩ والمستدرك للحاكم ٢٩/٢

(٦) المعجم الكبير للطبرانى ١٥١/١١ رقم ١١٣٣٠

وأومأ أبو عبد الرحمن بيده إلى الأرض : من أنظر معسراً أو وضع له ، وقاه الله من فيح جهنم . رواه أحمد بإسناد جيد وابن أبى الدنيا فى اصطناع المعروف ولفظه قال :

دخل رسول الله ﷺ المسجد وهو يقول : أيكم يسره أن يقيه الله عز وجل من فيح جهنم ؟ قلنا : يارسول الله كلنا يسره قال : من أنظر معسراً أو وضع له وقاه الله عز وجل من فيح جهنم[(١)].

١٦ - وعن أبى قتادة - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من نفس عن غريمه أو محى عنه كان فى ظل العرش يوم القيامة . رواه البغوى فى شرح السنة[(٢)].

١٧ - وروى عن عثمان بن عفان - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : أظل الله عبداً فى ظله يوم لا ظل إلا ظله أنظر معسراً أو ترك مغارم[(٣)].

١٨ - وروى عن أسعد بن زرارة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : من سره أن يظله الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله فلييسر على معسر أو ليضع عنه . رواه الطبرانى فى الكبير[(٤)].

المعنى : ييسر : يوسع عليه وينتظر يسره أو لييسر عنه .

١٩ - وروى عن شداد بن أوس - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من أنظر معسراً أو تصدق عليه أظله الله فى ظله يوم القيامة . رواه الطبرانى فى الأوسط[(٥)].

المعنى : تصدق عليه : أبرأ ذمته أو سامحه أو زال دينه ليقيه الله العذاب ويظله بعدله وإحسانه وفيه الرأفة بالمدين وتأخير مطالبته حتى يقدر ، سيدنا رسول الله ﷺ يضع قانون جمعيات التعاون للمسلمين إقرأ هذا الباب أيها المسلم لتعلم وسيلة نجاتك يوم الحساب : مساعدتك المسلم فى تأخير دينه « من سره أن ينجيه الله ووعد ﷺ بالجزاء .

(أ) إزالـــة الكـــروب

(ب) استظلاله برحمة الله . هذا وقد نظر الله إلى وجهة رجل لم تنفعه صالحاته فى حياته سوى عاطفة مدانية الناس والصبر على أداء المعسر .

[أنظر المعسر] وقد رغب - ﷺ فى مضاعفة ثواب الدائن : « كل يوم مثليه صدقة » . هذا إلى جعله مصباحاً منيرا يهتدى بهديه ملايين الناس . (شعبتين من نور) ، ثم بين ﷺ أن الإنظار سبب إجابة الدعاء وكشف الكروب وبعث التوبة ومحو الذنوب : « أنظره

(١) مسند أحمد ٣٢٧/١

(٢) شرح السنة للبغوى ١٩٩/٨ رقم ٢١٤٣

(٣) مسند أحمد ٧٣/١

(٤) المعجم الكبير للطبرانى ٢٨٣/١ رقم ٨٩٩

(٥) الطبرانى الكبير ٢٨٣/١ رقم ٨٩٩

الله بذنبه إلى توبته » . هذا إلى أمنه من نار جهنم فلا يصطليها . « وقاه الله عز وجل من فيح جهنم » فتعاونوا أيها المسلمون على مديد المعونة وأقرضوا المحتاجين ، وساعدوا الفقراء الذين يريدون عملاً شريفاً فى الحياة واستجدوا وابذلوا مايجلب لكم سعادة الحياة بإيجاد المشروعات العظيمة النافعة التى تجلب لكم اليسر والرخاء والعيش الرغد قال تعالى : ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب** ﴾[1] من سورة المائدة .

أى على العفو والإعفاء ومتابعة الأمر ومجانبة الهوى .

والخلاصـــة :

مبادىء السعادة :

١ – يمد الغنى الفقير .
٢ – تقيم أعمالاً للعاطلين .
٣ – تؤلف نقابات .
٤ – تأخير دفع المحتاج .
٥ – وجود التبادل .
٦ – الدين المعاملة .
٧ – حـــب المنفعـــة .
٨ – الإحســـان .

الترغيب فى الإنفاق فى وجوه الخير كرما والترهيب من الإمساك والادخار شحا

١ – عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً . رواه البخارى ومسلم ، وابن حبان فى صحيحه ولفظه[2].

إن ملكاً بباب من أبواب الجنة يقول : من يقرض اليوم يجز غداً وملك بباب آخر يقول : اللهم أعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً . ورواه الطبرانى مثل ابن حبان إلا أنه قال : بباب من أبواب السماء .

٢ – وعنه – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : قال الله عز وجل : يا عبدى : أنفق أُنفق عليك . وقال : يد الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ، فإنه لم يغض ما بيده وكان عرشه على الماء وبيده الميزان يخفض ويرفع . رواه البخارى ومسلم[3].

(١) سورة المائدة الآية : ٢

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان – كتاب الزكاة – باب المنفق والممسك رقم ٥٩١ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١٤٠/٥

(٣) اللؤلؤ والمرجان – كتاب الزكاة – باب الحث على النفقة رقم ٥٨٠

[لا نعيضها] بفتح أوله : أى لا ينقصها .

المعنى : يد الله : خزائنه لا تنفذ ، السح : الصب الدائم . قال النووى شارحاً قوله ﷺ فى رواية مسلم « يد الله ملأى » قال القاضى قال الإمام المازرى : هذا مما يتأول لأن اليمين إذا كانت بمعنى المناسبة للشمال لا يوصف بها البارى ـــ سبحانه وتعالى ـــ لأنها تتضمن إثبات الشمال وهذا يتضمن التحديد ويتقدس الله سبحانه عن التجسيم والحد وإنما خاطبهم رسول الله ﷺ بما يفهمونه ، وأراد الإخبار بأن الله تعالى لا ينقصه الانفاق ولا يمسك خشية الإملاق جل الله عن ذلك وعد ﷺ عن توالى النعم بسح اليمين لأن الباذل منا يفعل ذلك بيمينه . قال : ويحتمل أن يريد بذلك أن قدرة الله سبحانه وتعالى على الأشياء على وجه واحد لا يختلف ضعفاً وقوة ، وأن المقدورات تقع بها على جهة واحدة لا تختلف قوة وضعفاً كما يختلف فعلنا باليمين والشمال ، تعالى الله عن صفات المخلوقين ومشابهة المحدثين .

٣ – وعن أبى أمامة ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قال رسول الله ﷺ : يا ابن آدم : إنك أن تبذل الفضل خير لك ، وأن تمسكه شر لك ولا تلام على كفاف وابدأ بمن تعول واليد العليا خير من اليد السفلى . رواه مسلم والترمذى(١).

[الكفاف] بفتح الكاف ما كف عن الحاجة إلى الناس مع القناعة لا يزيد على قدر الحاجة .
[الفضل] : مازاد على قدر الحاجة .

المعنى : الفضل : الزائد عن حاجتك وأهل بيتك وإنفاقه خير لك لبقائه لك ثوابا جزيلا عند ربك جل وعلا ، والبخل به تعب وكدر فى حفظه ويسألك الله عن عدم إنفاقه .

ولا تلام على كفاف : لا عتاب ولا حساب على الفقير الذى لا يملك شيئاً . [والكفاف] : القلة . فيه الدعوة إلى الاحسان والصدقة ، واطمئنان الفقير من العذاب على وجود النعم ﴿ **ولتسألن يومئذ عن النعيم** ﴾ . [وابدأ بمن تعول] : تجب نفقته عليك من أم وزوجة وأهل . قال النووى : فيه تقديم نفقة نفسه وعياله لأنها منحصرة فيه بخلاف نفقة غيرهم .

٤ – وعن أبى الدرداء ـــ رضى الله عنه ـــ أن رسول الله ﷺ قال : ما طلعت شمس قط إلا وبجنبيها ملكان يناديان : اللهم من أنفق فأعقبه خلفاً ، ومن أمسك فأعقبه تلفاً ، رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه والحاكم بنحوه ، وقال : صحيح الإسناد . والبيهقى من طريق الحاكم ولفظه فى إحدى رواياته قال رسول الله ﷺ : ما من يوم طلعت شمسه إلا وبجنبيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلهم غير الثقلين يا أيها الناس : هلموا إلى ربكم إن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى ولا آبت الشمس إلا وكان بجنبيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلهم غير الثقلين : اللهم عط منفقاً خلفاً وأعط

(١) صحيح مسلم ـــ كتاب الزكاة ـــ باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح ٧١٨/٢ رقم ١٠٣٦ وسنن الترمذى ـــ كتاب الزهد ـــ باب ما جاء فى الزهادة فى الدنيا ٥٧٣/٤ رقم ٢٣٤٣

ممسكاً تلفاً ، وأنزل الله فى ذلك قرآناً فى قول الملكين : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم فى سورة يونس : والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم وأنزل فى قولهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً : والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى إلى قوله للعسرى(١).

٥ – وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جنتان من حديد من ثديهما إلى **تراقيهما فأما المنفق : فلاينفق إلا سبغت أو فرت** على جلده حتى تخفى بنانه وتعفو أثره وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزمت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع . رواه البخارى ومسلم(٢).

والمعنى : [الجنة] : بضم الجيم : ما أجن المرء وستره والمراد به هنا : الدرع . ومعنى الحديث أن المنفق كلما أنفق طال عليه ، وسبغت حتى تستر بنان رجليه ويديه والبخيل كلما أراد أن ينفق لزمت كل حلقة مكانها فهو يوسعها ولا تتسع شبه ﷺ نعم الله تعالى ورزقه بالجنة وفى رواية : بالجنة فالمنفق كلما أنفق اتسعت عليه النعم وسبغت ، ووفرت حتى تستره سترا كاملا شاملا ، والبخيل كلما أراد أن ينفق منعه الشح ، والحرص ، وخوف النقص فهو بمنعه يطلب أن يزيد ما عنده وأن تتسع عليه النعم فلا تتسع ولا تستر منه ما يروم ستره والله سبحانه أعلم .

٦ – وعن قيس بن سلع الأنصارى – رضى الله عنه – أن إخوته شكوه إلى رسول الله ﷺ فقالوا إنه يبذر ماله وينبسط فيه . قلت : يا رسول الله آخذ نصيبى من الثمره فأنفقه فى سبيل الله وعلى من صحبنى فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال : أنفق ينفق الله عليك ثلاث مرات ، فلما كان بعد ذلك خرجت فى سبيل الله ومعى راحلة وأنا أكثر أهل بيتى اليوم وأيسره . رواه الطبرانى فى الأوسط وقال : تفرد به سعيد بن زياد أبو عاصم(٣)

٧ – وعن أنس – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : الأخلاء ثلاثة . فأما خليل فيقول : أنا معك حتى تأتى قبرك وأما خليل فيقول : لك ما أعطيت وما أمسكت فليس لك فذلك مالك ، وأما خليل فيقول : أنا معك حيث دخلت ، **وحيث خرجت** فذلك عمله ، فيقول : والله لقد كنت من أهون الثلاثة على . رواه الحاكم ، وقال : صحيح على شرطهما ولا علة له(٤).

٨ – وعن ابن مسعود – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله . قالوا يا رسول الله : مامنا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه ؟ قال : فإن ماله ما قدم

---

(١) سند أحمد ١٩٧/٥ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١٣٨/٥ والمستدرك للحاكم ٤٤٥/٢ والجامع لشعب الإيمان – باب كراهية رد من جاء سائلا ٢٠/٧ رقم ٣١٣٩

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان – كتاب الزكاة – باب مثل المنفق والبخيل رقم ٦٠٠

(١) مجمع الزوائد ١٢٨/٣

(٤) المستدرك للحاكم – كتاب الإيمان ٧٤/١

ومال وارثه ما أخر . رواه البخارى والنسائى[(١)].

٩ – وعنه – رضى الله عنه – قال : دخل النبى ﷺ على بلال وعنده صبر من تمر ، فقال : ما هذا يا بلال ؟ قال : أعد ذلك لأضيافك قال : أما تخشى أن يكون لك دخان فى نار جهنم ، أنفق يا بلال ولا تخش من ذى العرش إقلالاً : رواه البزار بإسناد حسن والطبرانى فى الكبير[(٢)] وقال : أما تخشى أن يفور له بخار فى نار جهنم .

١٠ – وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن النبى ﷺ عاد بلالاً ، فأخرج له صبراً من تمر ، فقال : ما هذا يا بلال ؟ قال : إدخرته لك يا رسول الله ، قال : أما تخشى أن يجعل لك بخار فى نار جهنم ؟ أنفق يا بلال ولا تخش من ذى العرش إقلالا . رواه أبو يعلى ، والطبرانى فى الكبير والأوسط بإسناد حسن[(٣)].

١١ – وعن أسماء بنت أبى بكر – رضى الله عنهما – قالت : قال لى رسول الله ﷺ : لا توكى فيوكأ عليك

وفى رواية : أنفقى ، أوْ انفعى أو انضحى ولا تحصى فيحصى الله عليك ولا توعى فيوعى الله عليك . رواه البخارى ومسلم وأبو داود[(٤)].

[انضحى] بالحاء المهملة ، وانضحى ، وأنفقى الثلاثة معنى واحد ، وقوله : لا توكى ، قال الخطابى : لاتدخرى والإيكاء : شد رأس الوعاء بالوكاء وهو الرباط الذى يربط به ، يقول : لا تمنعى مافى يدك فتنقطع مادة بركة الرزق عنك . أ.هـ.

١٢ – وعن بلال – رضى الله عنه – قال : قال لى رسول الله ﷺ : يا بلال : مت فقيراً ولا تمت غنياً . قلت : وكيف لى بذلك ؟ قال : ما رزقت فلا تخبأ ، وما سئلت فلا تمنع ، فقلت : يا رسول الله وكيف لى بذلك ؟ قال : هو ذاك أو النار ، رواه الطبرانى فى الكبير وأبو الشيخ وابن حبان فى كتاب الثواب والحاكم ، وقال : صحيح الاسناد ، وعنده : قال لى : اتق الله فقيراً ، وتلقه غنياً[(٥)].

١٣ – وعن ابن مسعود – رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : لا حسد إلا فى اثنتين : رجل أتاه الله مالاً فسلطه على هلكته فى الحق ورجل أتاه الله حكمة فهو يقضى بها ويعلمها .

(١) صحيح البخارى – كتاب الرقاق – باب ما قدم من ماله فهو له ١١٦/٨ وسنن النسائى – كتاب الوصايا باب الكراهية فى تأخير الوصية ٢٣٧/٦

(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار ٢٥٠/٤ رقم ٣٦٥٣ ومجمع الزوائد ١٢٦/٣

(٣) المعجم الكبير للطبرانى ٣٤٢/١ رقم ١٠٢٦

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان – كتاب الزكاة – باب الحث على الإنفاق وكراهة الإحصاء رقم ٦٠٨ وسنن أبى داود – كتاب الزكاة – باب فى الشح ٣٢٤/٢ رقم ١٦٩٩ والترمذى ٣٤٢/٣ رقم ١٩٦٠

(٥) المعجم الكبير للطبرانى ٣٢٣/١ رقم ١٠٢١ والمستدرك للحاكم ٣١٦/٤

وفى رواية : لا حسد إلا فى اثنتين : رجل أتاه الله القرآن ، فهو يقوم به أناء الليل وأناء النهار ورجل أتاه الله مالاً فهو ينفقه أناء الليل وأناء النهار . رواه البخارى ومسلم(١) والمراد بالحسد : هنا الغبطة وهو تمنى مثل ما للمغبط وهذا لا بأس به ، وله نيته فإن تمنى زوالها عنه فذلك حرام وهو الحسد المذموم .

١٤ – وعن طلحة بن يحيى عن جدته سعدى قالت : دخلت يوما على طلحة تعنى ابن عبيد الله : فرأيت منه ثقلاً ، فقلت له : مالك لعله رابك منا شىء فنعتبك ؟ قال : لا ، ولنعم حليلة المرء المسلم أنت ولكن إجتمع عندى مال ، ولا أدرى كيف أصنع به . قالت : وما يغمك منه ادع قومك فاقسمه بينهم ، فقال يا غلام : علىَّ بقومى فسألت الخازن كم قسم ؟ قال : أربعمائة ألف . رواه الطبرانى بإسناد حسن(٢).

المعنى : [فنعتبك] : فتقدم لك العتبى ونزيل ما علق بك من جهتنا . [حليلة] : زوجة ، ونعم : كلمة مدح وثناء . [لا أدرى كيف] : لا أعلم على أى حال أوزعه خشية سؤال الله عنه يوم القيامة . [مايغمك] أى شىء جلب لك الغم والهم من وجوده .

سيدنا طلحة بن عبيد الله يخاف من وجود ماله ، ففرقه على أقاربه لله رجاء ثواب الله ليقابل ربه فقيراً ، فخيف سؤاله وينعم باله ويهنأ عيشه ويدوم صفاؤه ﴿ **يوم ينظر المرء ما قدمت يداه** ﴾ . بقومى : ائت بأقاربى وأهلى .

١٥ – وروى عن ابن مسعود — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : نشر الله عبدين من عباده أكثر لهما من المال والولد فقال لأحدهما : أى فلان ابن فلان ؟ قال : لبيك رب وسعديك . قال : ألم أكثر لك من المال والولد ؟ قال : بلى أى رب . قال : وكيف صنعت فيما آتيتك ؟ قال : تركته لولدى مخافة العيلة . قال : أما إنك لو تعلم العلم لضحكت قليلاً ، ولبكيت كثيراً أما إن الذى تخوفت عليهم قد أنزلت بهم ويقول للآخر : أى فلان ابن فلان ، فيقول : لبيك أى رب وسعديك ؟ قال له : ألم أكثر لك من المال والولد ؟ قال : بلى . أى رب قال : فكيف صنعت فيما آتيتك ؟ فقال : أنفقت فى طاعتك ووثقت لولدى من بعدى بحسن طولك . قال : أما إنك لو تعلم العلم لضحكت كثيراً ولبكيت قليلاً ، أما إن الذى قد وثقت به أنزلت بهم . رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط .

[العيلة] : بفتح العين المهملة ، وسكون الياء : هو الفقر . [الطول] : بفتح الطاء : هو الفضل والقدرة والغنى . [بحسن طَوْلك] : فضلك ونعمتك وعلمت أنك الرزاق المعطى فاعتمدت

---

(١) اللؤلؤ والمرجان — كتاب صلاة المسافرين قصرها — باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه رقم ٤٦٦
(٢) مجمع الزوائد للهيثمى ١٤٨/٩

عليك سبحانك وأطعتك واتقيت الله فيه . هذا درس لأولئك الذين تكالبوا على الدنيا وطمعوا فى تراثها وجشعوا فيها .

الأول : رجل أعطاه الله المال ورزقه البنين فازداد جشعاً فى جمع المال وحرم الفقراء وبخل وشح فى حقوق الله فأخطأ طريق الهدى فمات وترك لأولاده الحسرة والندامة إذ نزع الله البركة من ماله ففنى وافتقر أولاده .

الثانى : خاف مقام ربه وأطاع الله فى أوامره واجتناب مناهيه وزكى وتصدق وأقام مشروعات الخير أو ساهم فيها وترك لأولاده تقوى الله فبارك الله فى ماله فنما ورزقهم الله السعادة والرزق الكثير والعيش الرغد وذلك مصداق قوله تعالى :

(أ) ﴿ **وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً** ﴾(١). قال البيضاوى : أمر للأوصياء بأن يخشوا الله تعالى ، ويتقوه فى أمر اليتامى فيفعلوا بهم ما يحبون أن يفعل بذراريهم الضعاف بعد وفاتهم أو للحاضرين المريض عند الإيصاء بأن يخشوا ربهم ، أو يخشوا على أولاد المريض ويشفقوا عليهم ثم أمرهم بالتقوى التى هى غاية الخشية بعد ما أمرهم بها مراعاة للمبدأ أو المنتهى . وشاهدنا : الأمر بالتقوى وقول الحق . هذان ينفعان الذرية كما قال تعالى :

(ب) ﴿ **وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبراً** ﴾(٢) . قال البيضاوى : كنز من ذهب أو فضة روى ذلك مرفوعاً ، والذم على كنزهما فى قوله : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة** ﴾(٣) . لمن لا يؤدى زكاتهما وما تعلق بهما من الحقوق .. واسمهما : أحدم وحديم .

[صالحا] تنبيه على أن سعيه ذلك كان لصلاحه ، قيل : كان بينهما وبين الأب الذى حفظا فيه سبعة آباء ، وكان شياحا واسمه كاشح (أشدهما) الحلم وكمال الرأى : (الرحمة) مرحومين من ربك ، وقال تعالى :

(جـ) ﴿ **إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين** ﴾(٤) قال البيضاوى : ومن عادته تعالى أن يتولى الصالحين من عباده فضلاً عن أنبيائه .

١٦ - وعن مالك الدار أن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ أخذ أربعمائة دينار فجعلها

(١) سورة النساء الآية : ٩
(٢) سورة الكهف الآية : ٨٢
(٣) سورة التوبة الآية : ٣٤
(٤) سورة الأعراف الآية : ١٩٦

فى صرة فقال للغلام : أذهب بها إلى أبى عبيدة بن الجراح ثم تلهَّ فى البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع فذهب بها الغلام إليه ، فقال يقول لك أمير المؤمنين أجعل هذه فى بعض حاجتك ، فقال : وصله الله ورحمه ثم قال : تعالى يا جارية اذهبى بهذه السبعة إلى فلان ، وبهذه الخمسة إلى فلان وبهذه الخمسة إلى فلان حتى أنفذها ورجع الغلام إلى عمر فأخبره فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل ، فقال : اذهب بها إلى معاذ بن جبل وتلهَّ فى البيت حتى تنظر ما يصنع فذهب بها إليه فقال يقول لك أمير المؤمنين اجعل هذه فى بعض حاجتك ، فقال : رحمه الله ووصله تعالى يا جارية اذهبى إلى بيت فلان بكذا ، اذهبى إلى بيت فلان بكذا ، اذهب إلى بيت فلان بكذا فاطلعت امرأة معاذ وقالت : نحن والله مساكين فأعطنا فلم يبق فى الخرقة إلا ديناران فدحى بهما إليها ورجع الغلام إلى عمر فأخبره فسر بذلك فقال إنهم إخوة بعضهم من بعض ، رواه الطبرانى فى الكبير[1] ورواته إلى مالك الدار ثقات مشهورون ، ومالك الدار لا أعرفه .

[تلهّ] : هو بفتح التاء المثناه فوق واللام أيضاً وتشديد الهاء : أى تشاغل . [فدحى بهما] بالحاء المهملة : أى رمى بهما .

وعن سهل بن سعد ـــ رضى الله عنه ـــ قال : كانت عند رسول الله ﷺ سبعة دنانير وضعها عند عائشة فلما كان عند مرضه قال يا عائشة : ابعثى بالذهب إلى على ثم أغمى عليه وشغل عائشة ما به حتى قال ذلك مراراً كل ذلك يغمى على رسول الله ﷺ ويشغل عائشة مابه فبعث إلى على فتصدق بها وأمسى رسول الله ﷺ ـــ فى حديد ، الموت ليلة الاثنين فأرسلت عائشة بمصباح لها إلى إمرأة من نسائها فقالت : أهدى لنا فى مصباحنا عن عكتك السمن فإن رسول الله ﷺ أمسى فى حديد الموت . رواه الطبرانى فى الكبير ، ورواته ثقات متجه بهم فى الصحيح ورواه ابن حبان فى صحيحه من حديث عائشة بمعناه[2].

المعنى : عكتك : وعاء من جلود مستدير يختص بالسمن أو العسل إن جلا كان يهدى النبى ﷺ العكة من السمن أو العسل هو بالسمن أخص . والمعنى أن سيدنا رسول الله ﷺ يحتضر ويقاسى آلام الموت لتتأسى به أمته فتعمل صالحاً ويتبع منهجه ، والسيدة عائشة رضى الله عنها تمرضه وتلازمه ، وتعتنى به ﷺ ثم فى حالة الشدة ينظر إلى سبعة دنانير كان حفظها لحاجة الفقراء ولإنفاقها فى مصالح المسلمين يأمر بإرسالها إلى الإمام على كرم الله وجهه ليتصدق بها .

١٨ - وعن عبد الله بن الصامت قال : كنت مع أبى ذر رضى الله عنه فخرج عطاؤه ومعه جارية له قال : فجعلت تقضى حوائجه ففضل معها سبعة فأمرها أن تشترى به فلوساً ، قال قلت : لو أخرته للحاجة تنوبك أو للضيف ينزل بك . قال : إن خليلى عهد إلىّ أن أيما ذهب أو فضة أوكى عليه

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمى ١٢٤/٣

(٢) مجمع الزوائد للهيثمى ١٢٤/٣ والإحسان بترتيب صحيح ابن حيان ٨٨/٥

فهو جمر على صاحبه حتى يفرغه فى سبيل الله عز وجل . رواه أحمد ورجاله الصحيح[١].

ورواه أحمد أيضاً والطبرانى باختصار القصة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من أوكى على ذهب أو فضة ، ولم ينفقه فى سبيل الله كان جمراً يوم القيامة يكوى به هذا لفظ الطبرانى ورجاله الصحيح[٢].

١٩ – وعن أنس بن مالك ــ رضى الله عنه ــ قال : أهديت للنبى ﷺ ثلاث طوائر فأطعم خادمه طائراً : فلما كان من الغد أتته بها ، فقال لها رسول الله ﷺ : ألم أنهك أن ترفعى شيئاً لغد : فإن الله يأتى برزق غدٍ . رواه أبو يعلى والبيهقى ، ورواه أبى يعلى ثقات .

٢٠ – وعن أنس ــ رضى الله عنه ــ قال : كان رسول الله ﷺ لا يدخر شيئاً لغدٍ . رواه ابن حبان فى صحيحه والبيهقى كلاهما من رواية جعفر ابن سليمان الضبعى عن ثابت عنه[٣].

٢١ – وعن سمرة بن جندب ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ كان يقول : إنى لألج هذه الغرفة ما ألجها إلا خشية أن يكون فيها مال فأتوفى ولم أنفقه . رواه الطبرانى فى الكبير بإسناد حسن[٤].

[الألج] : أى لأدخل . [والغرفة] بضم الغين المعجمة : هى العلية .

٢٢ – وعن أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ عن رسول الله ﷺ قال : ما أحب أن لى أحداً ذهبا أبقى صبح ثالثة وعندى منه شىء إلا شيئاً أعده لدين .

رواه البزار من رواية عطية عن أبى سعيد وهو إسناد حسن وله شواهد . كثيرة[٥].

٢٣ – وعن عبد الله بن عباس ــ رضى الله عنهما ــ قال : قال لى أبو ذر يا ابن أخى كنت مع رسول الله ﷺ آخذاً بيده فقال لى ، يا أبا ذر ما أحب أن لى أحداً ذهباً وفضة أنفقه فى سبيل الله أموت يوم أموت أدع منه قيراطا . قلت : يا رسول الله : قنطاراً . قال يا أبا ذر : أذهب إلى الأقل وتذهب إلى الأكثر ، أريد الآخرة وتريد الدنيا قيراطاً فأعادها على ثلاث مرات . رواه البزار بإسناد حسن[٦].

٢٤ – وعنه ــ رضى الله عنه ــ أن النبى ﷺ التفت إلى أحد ، فقال والذى نفسى بيده :

---

(١) مسند أحمد ١٧٥/٥
(٢) مسند أحمد ١٦٥/٥ والطبرانى فى الكبير ١٦٣/٢ رقم ١٦٤١
(٣) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٩٩/٨
(٤) مجمع الزوائد للهيثمى ١٢٣/٣
(٥) كشف الأستار عن زوائد البزار ٢٥٢/٤ رقم ٣٦٥٩
(٦) كشف الأستار عن زوائد البزار ٢٥٢/٤ رقم ٣٦٥٧

ما يسرُّنى أن أحداً تحول لآل محمد ذهبا أنفقه فى سبيل الله أموت يوم أموت أدع منه دينارين إلا دينارين أعدهما للدين إن كان . رواه أحمد وأبو يعلى وإسناد أحمد جيد قوى[(١)].

٢٥ – وعن قيس بن أبى حازم قال : دخلت على سعيد بن مسعود تعوده فقال ما أدرى ما يقولون ، ولكن ليت مافى تابوتى هذا جمر ، فلما مات نظروا فإذا فيه ألف أو ألفان : رواه الطبرانى فى الكبير بإسناد حسن[(٢)].

٢٦ – وعن أبى أمامة ــ رضى الله عنه ــ أن رجلاً توفى على عهد رسول الله ﷺ فلم يوجد له كفن فأتى النبى ﷺ فقال : انظروا إلى داخله إزاره فأجيب دينار أو ديناران فقال : كيتَّان .

وفى رواية : توفى رجل من أهل الصُّفة فوجد فى مئزره دينار فقال رسول الله ﷺ : كية ثم توفى آخر فوجد فى مئزره ديناران فقال ﷺ كيتَّان . رواه أحمد والطبرانى من طرق ورواه بعضها ثقات[(٥)].

٢٧ – وعن عبد الله بن مسعود ــ رضى الله عنه ــ قال : توفى رجل من أهل الصفة فوجدوا فى شملته دينارين فذكروا ذلك للنبى ﷺ فقال : كيتان . رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه[(٣)].

[قال الحافظ] : وإنما كان كذلك لأنه ادخر مع تلبسه بالفقر ظاهراً ومشاركته الفقراء فيما يأتيهم من الصدقة .

٢٨ – وعن سلمة بن الأكوع ــ رضى الله عنه ــ قال : كنت جالساً عند النبى ﷺ فأتى بجنازه ثم أتى بأخرى ، فقال : هل ترك من دين ؟ قالوا : لا . قال فهل ترك شيئاً ؟ قالوا : نعم ثلاثة دنانير فقال : بأصابعه ثلاث كيات ، الحديث . رواه أحمد بإسناد حسن جيد واللفظ له والبخارى بنحوه وابن حبان فى صحيحه[(٤)].

٢٩ – وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن أعرابياً غزا مع رسول الله ﷺ خيبر فأصابه من سهمه ديناران فأخذهما الأعرابى فجعلهما فى عباءة فخيط عليهما فمات الأعرابى فوجد الديناران فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال : كيتان . رواه أحمد وإسناده حسن لا بأس به فى المتابعات[(٥)].

---

(١) مسند أحمد ٥٣٠/٢ ومسند أبى يعلى ٨٤/٥ رقم ٢٦٨٤

(٢) مجمع الزوائد للهيثمى ١٢٥/٣

(٣) مسند أحمد ٢٥٣/٥ والمعجم الكبير للطبرانى ١٢٤/٨ رقم ٧٥٠٦

(٤) مسند أحمد ٤٠٥/١ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١٠٩/٥

(٥) مسند أحمد ٥٠/٤ وصحيح البخارى ــ كتاب السلم ــ باب إذا أحال دين الميت ١١٧/٣ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١٠٩/٥

ترغيب المرأة فى الصدقة من مال زوجها إذا أذن وترهيبها منها مالم يأذن

١ – عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال : إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة كان لها أجرها بما أنفقت ولزوجها أجره بما اكتسب وللخدام مثل ذلك ، لا ينقص بعضهم من أجر بعض شيئاً . رواه البخارى ومسلم واللفظ له وأبو داود وابن ماجه والترمذى والنسائى وابن حبان فى صحيحه وعند بعضهم : إذا تصدقت بدل : أنفقت[(١)].

المعنى : [غير مفسدة] : غير مسرفة قد يعلم رضا الزوج به فى العادة قال النووى : إن المشارك فى الطاعة مشارك فى الأجر ، ومعنى المشاركة أن له أجرا كما لصاحبه أجر وليس معناه أن يزاحم فى أجره والمراد المشاركة فى أصل الثواب فيكون لهذا ثواب ولهذا ثواب ، وإن كان أحدهما أكثر ولايلزم أن يكون مقدار ثوابهما سواء بل قد يكون ثواب هذا أكثر وقد يكون عكسه فإذا أعطى المالك لخازنه أو إمرأته أو غيرهما مائة درهم أو نحوها ليوصلها إلى مستحق الصدقة على باب داره أو نحوه فأجر المالك أكثر وإن أعطاه رمانة أو رغيف ونحوهما مما ليس له كثير قيمة ليذهب به إلى محتاج فى مسافة بعيدة بحيث يقابل مشى الذاهب إليه بأجرة تزيد على الرمانة أو الرغيف ، فأجر الوكيل أكثر ، وقد يكون عمله قدر الرغيف مثلا ، فيكون مقدار الاجر سواء .

٢ – وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : لا يحل للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه ولا تأذن فى بيته إلا بإذنه . رواه البخارى ومسلم وأبو داود[(٢)].

المعنى : [زوجها شاهد] : حاضر . قال النووى : هذا محمول على صوم التطوع والمندوب الذى ليس له زمن معين ، وهذا النهى للتحريم ، صرح به أصحابنا ، وسببه أن الزوج له حق الاستمتاع بها فى كل الأيام وحقه فيها واجب على الفور فلا يفوته بتطوع ولا بواجب على التراخى . فإن قيل فينبغى أن يجوز لها الصوم بغير إذنه فإن أراد الاستمتاع بها كان له ذلك ويفسد صومها فالجواب أن صومها يمنعه من الاستمتاع بها فى العادة لأنه يهاب انتهاك الصوم بالإفساد ، وقوله ﷺ : « وزوجها مشاهد » أى : مقيم فى البلد أما إذا كان مسافراً فلها الصوم لأنه لا يتأتى منه الاستمتاع إذا لم تكن معه .

٣ – وفى رواية لأبى داود أن أبا هريرة : سئل عن المرأة هل تتصدق من بيت زوجها ؟ قال :

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ٦٠٣ وأبو داود ٣١٧/٢ رقم ١٦٨٧ وابن ماجه ٧٧٠/٢ رقم ٢٢٩٤ وسنن الترمذى ٤٩/٣ رقم ٦٧٢ والنسائى ٦٥/٥ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١٤٨/٥

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان – كتاب الزكاة – باب المرأة إذا تصدقت من بيت زوجها بإذنه رقم ٦٠٤ وسنن أبو داود – كتاب الصوم – باب المرأة تصوم بغير إذن زوجها ٨٢٦/٢ رقم ٢٤٥٨

لا إلا من قوتها والأجر بينهما ولا يحل لها أن تتصدق من مال زوجها إلا بإذنه[١].

زاد رزين العبدرى فى جامعه : فإن أذن لها فالأجر بينهما ، فإن فعلت بغير إذنه فالأجر له والإثم عليها .

المعنى : قال النووى : معناه أن هذه النفقة والصدقة التى أخرجهما الخازن أو المرأة أو المملوك ونحوهم بإذن المالك يترتب على جملتها ثواب على قدر المال والعمل فيكون ذلك مقسوماً بينهما ، لهذا نصيب بماله ولهذا نصيب بعمله فلا يزاحم صاحب المال العامل فى نصيب عمله ، ولا يزاحم العامل صاحب المال فى نصيب ماله . واعلم أنه لابد للعامل وهو الخازن والزوجة والمملوك من إذن المالك فى ذلك فإن لم يكن إذن أصلا ، فلا أجر لأحد من هؤلاء الثلاثة بل عليهم وزر بتصرفهم فى مال غيرهم بغير إذنه والإذن ضربان : **أحدهما** : الإذن الصريح فى النفقة والصدقة .

والثانى : الإذن المفهوم من المراد العرف والعادة كإعطاء السائل كسرة ونحوها مما جرت العادة به واطرد العرف فيه ، وعلم بالعرف رضاء الزوج والمالك به فإذنه فى ذلك حاصل ، وإن لم يتكلم وهذا إذا علم رضاه لاطراد العرف وعلم أن نفسه كنفوس غالب الناس فى السماحة بذلك والرضا به فإن اضطرب العرف ، وشك فى رضاه أو كان شخصاً يشح بذلك وعلم من حاله ذلك أوشك فيه لم يجز للمرأة أو غيرها التصدق من ماله إلا بصريح إذنه .

٤ — وعن عبد الله بن عمرو بن العاص — رضى الله عنهما — أن رسول الله ﷺ قال : لا يجوز لامرأة عطية إلا بإذن زوجها . رواه أبو داود والنسائى من طريق عمرو بن شعيب[٢].

٥ — وعن أسماء — رضى الله عنها — قالت : قلت يا رسول الله : مالى مآلى إلا ما أدخل على الزبير أفأتصدق ؟. قال : تصدق ولا توعى فيوعى عليك[٣].

المعنى : [لا توعى] : ولا تحفظى ولا تكترى وفى النهاية : أى لا تجمعى وتشحى بالنفقة فيشح عليك وتجازى بتضيق رزقك .

٦ — وعن عمر بن مرة قال : سمعت أبا وائل يحدث عن عائشة عن النبى ﷺ قال : إذا تصدقت المرأة من بيت زوجها كان لها أجرها . ولزوجها مثل ذلك لا ينقص كل واحد منهما من أجر صاحبه شيئاً ، له بما كسب ولها بما أنفقت رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن[٤].

---

(١) سنن أبى داود — كتاب الزكاة — باب المرأة تتصدق من بيت زوجها ٣١٨/٢ رقم ١٦٨٨

(٢) سنن أبى داود — كتاب البيوع والإجارات — باب عطية المرأة بغير إذن زوجها ٨١٦/٣ رقم ٣٥٤٧ وسنن النسائى — كتاب الزكاة — باب عطية المرأة بغير إذن زوجها ٦٥/٥

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الزكاة — باب الحث على الإنفاق وكراهية الإحصاء رقم ٦٠٨ وسنن أبى داود — كتاب الزكاة — باب فى الشح ٣٢٤/٢ رقم ١٦٩٩ والترمذى ٣٤٢/٣ رقم ١٩٦٠

(٤) الترمذى — كتاب الزكاة — باب فى نفقة المرأة من بيت زوجها ٤٩/٣ رقم ٦٧١

المعنى : قال النووى : واعلم أن المراد بنفقة المرأة والعبد والخازن النفقة على عيال صاحب المال وغلمانه ومصالحه وقاصديه من ضيف وابن سبيل ونحوهما وكذلك صدقتهم المأذون فيها بالصريح أو العرف .

٧ – وعن أبى أمامة — رضى الله عنه — قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى خطبته عام حجة الوداع : لا تنفق امرأة شيئاً من بيت زوجها إلا بإذن زوجها . قيل يا رسول الله : ولا الطعام ؟ قال : ذلك أفضل أموالنا . رواه الترمذى(١).

دستور ربة البيت فى تدبير المنزل وإدارة شئونه

أولاً : يرشد ﷺ الزوجة أن تحفظ مال زوجها وتدبر أمرها وتطيعه ، وتميل إلى حب الخير وفعل البر ، وتجلب رضا بعلها وتقصد وتراعى الواجب فتؤديه ولا تبذر وتنفق « غير مفسدة » . لتنال من الله الثواب الجزيل لأن الأجر فضل من الله تعالى يؤتيه من يشاء ثم يحثها ﷺ على أمور أربعة .

(أ) التصـــديق (جـ) طاعتـــه
(ب) استئذان الزوج (د) حفظ ماله

وإذا نمت هذه العاطفة فى السيدة العاقلة ترعرعت على التقوى ، وشبت على الصالحات ، وسدد الله خطاها وأرغد عيشها وأحاطها بعزه ورحماته فتنمو دوحات الألفه ، وتشرق شمس السعادة بينهما فيعيشان قريرى العين مثلوجى الفؤاد ، والله يضع البركة فى أولادهما ، ويهب لهم النجاية :

نعـم الإلـــه على العبـــاد كثـيرة   وأهملـــن نجايـــة الأولاد

ثانياً : إستفهام الدرة المكنونة السيدة أسماء — رضى الله عنه — من سيدنا رسول الله ﷺ لتستضىء بنوره الوهاج « أفأ تصدق » ؟ فقال لها عليه الصلاة والسلام : « **تصدقى** » . أمرها **بالتحلى** بالجود والميل إلى الكرم ، وأن تسبق فى ميدان المحامد والمكارم ليكون لها القدح المعلى فى أعمال الخير ، ونهاها أن تبخل وحذرها أن تشح ليزيد رزقهما ويكثر مالهما ويسمو ذكرهما ، فيفوزان بالنعيم المقيم ، والحياة البعيدة من شوائب الكدر ، ويتمتعان برضا المولى جل وعلا قال تعالى . ﴿ **المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا** ﴾(٢).

(١) الترمذي — كتاب الوصايا — باب لاوصية لوارث ٤٣٣/٤ رقم ٢١٢٠
(٢) سورة الكهف الآية : ٤٦

الترغيب فى إطعام الطعام وسقى الماء والترهيب من منعه

١ – عن عبد الله بن عمرو بن العاص ــ رضى الله عنهما ــ أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ أى الإسلام خير ؟ قال : تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف ــ رواه البخارى ومسلم والنسائى[١].

المعنى : [أى الإسلام] : يستفهم عن أحسن الأعمال التى توصله إلى كمال الإسلام ، فأجاب ﷺ باثنين لأن حال السائل يقتضيهما :

(أ) الجود ، وإطعام الفقراء والتحلى بالكرم وبذل الخير

(ب) إفشاء السلام على الصغير والكبير والجليل والحقير والراكب والماشى من المسلمين .

٢ – وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال قلت يا رسول الله : إنى إذا رأيتك طابت نفسى وقرت عينى ، فأنبئنى عن كل شىء ؟ فقال : كل شىء خلق من الماء . قال : فقلت : أخبرنى بشىء إذا عملته دخلت الجنة ؟ قال : أطعم الطعام وأفش السلام ، وصل الأرحام ، **وصل** بالليل والناس نيام تدخل الجنة بسلام . رواه أحمد ، وابن حبان فى صحيحه ، واللفظ له والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد[٢]

٢ – وعن عبد الله بن عمرو ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : أعبدوا الرحمن ، وأطعموا ، وأفشوا السلام تدخلوا الجنة بسلام . رواه الترمذى[٣].

وعنه أيضاً ــ رضى الله عنه ــ عن رسول الله ﷺ قال : إن فى الجنة غرفاً يُرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، فقال أبو مالك الأشعرى : لمن هى يا رسول الله قال : لمن أطاب الكلام ، وأطعم الطعام وبات قائماً والناس نيام . رواه الطبرانى فى الكبير بإسناد أحمد[٤].

٥ – وعن أبى مالك الأشعرى ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ﷺ قال : إن فى الجنة غرفاً يُرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدَّها الله ــ تعالى ــ لمن أطعم الطعام وأفشى السلام وصلى بالليل والناس نيام . رواه ابن حبان فى صحيحه[٥].

٦ – وعن حمزة بن صهيب عن أبيه ــ رضى الله عنه ــ قال : قال عمر لصهيب : فيك

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ــ كتاب الإيمان ــ باب بيان تفاضل الإيمان رقم ٢٤ وسنن النسائى ــ كتاب الإيمان ــ باب أى الإسلام أفضل ١٠٦/٨

(٢) مسند أحمد ٢٩٥/٢ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١١٥/٤ والمستدرك للحاكم ١٦٠/٤

(٣) الترمذى ــ كتاب الأطعمة ــ باب فضل إطعام الطعام ٢٨٧/٤ رقم ١٨٥٥ وقال : حسن صحيح

(٤) المعجم الكبير للطبرانى ٣٤٢/٣ رقم ٣٤٦٧

(٥) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٣٦٣/١ والجامع لشعب الإيمان ٥٣٧/٦ رقم ٣٠٨٩

سرف فى الطعام ، فقال : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : خياركم من أطعم الطعام . رواه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الثواب وفى إسناده عبد الله بن محمد ابن عقيل .

٧ – وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : الكفارات إطعام **الطعام ، وإفشاء السلام** ، والصلاة بالليل والناس نيام . رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد(١)

٨ – وعن عبد الله بن سلام – رضى الله عنه – قال : أول ما قدم رسول الله ﷺ **إلى المدينة** انجفل الناس إليه فكنت فيمن جاءه فلما تأملت وجهه واستثبته علمت أن وجهه ليس بوجه كذاب قال : وكان أول ما سمعت من كلامه أن قال : أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام . رواه الترمذى(٢).

[أنجفل الناس] بالجيم : أى أسرعوا ومضوا كلهم . [إستثبته] : أى تحققته وتبينته .

٩ – وعن جابر – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : من موجبات الرحمة إطعام المسلم المسكين . رواه الحاكم وصححه ، والبيهقى متصلاً ومرسلاً من طريقه أيضاً إلا أنه قال(٣):

إن من موجبات المغفرة إطعام المسلم السغبان ، وقال : قال عبد الوهاب يعنى : الجائع ، ورواه أبو الشيخ فى كتاب الثواب إلا أنه قال : إن حق موجبات الجنة : إطعام المسلم السغبان .

[السغبان] بالسين المهملة والغين المعجمة بعدها باء موحدة

١٠ – وعن عائشة – رضى الله عنها – عن رسول الله ﷺ قال : إن الله ليربى لأحدكم التمرة واللقمة كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله حتى يكون مثل أحد . رواه ابن حبان فى صحيحه(٤).

١١ – وروى عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : إن الله عز وجل ليدخل بلقمة الخبز وقبصة التمر ومثله مما ينفع المسكين ثلاثة الجنة : الأمر به والزوجة المصلحة له والخادم الذى يناول المسكين وقال رسول الله ﷺ : الحمد لله الذى لم ينس خدمنا . رواه الطبرانى فى الأوسط والحاكم (٥).

المعنى : أن الصدقة تسبب دخول ثلاثة الجنة :

(أ) صاحبهـــا .

(ب) زوجـــته .

(جـ) الذى وصل الصدقة والآمر به .

(١) المستدرك للحاكم – كتاب الأطعمة ١٢٩/٤

(٢) الترمذى – كتاب الأطعمة – باب فضل إطعام الطعام ٢٨٦/٤ رقم ١٨٥٤ وقال : حسن صحيح غريب

(٣) المستدرك الحاكم ٥٢٤/٢ والجامع لشعب الإيمان – باب ما جاء فى إطعام الطعام وسقى الماء ٥٤١/٦ رقم ٣٠٩٤

(٤) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١٣٣/٥

(٥) مجمع الزوائد ١١٢/٣ والمستدرك للحاكم ١٣٤/٤

[القبصة] : لفتح القاف وضمها وبالصاد المهملة : هى ما يتناوله الآخذ برءوس أصابعه الثلاث .

١٢ – وعن أبى ذر ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قال رسول الله ﷺ : تعبد عابد من بنى إسرائيل فعبد الله فى صومعته ستين عاماً وأمطرت الأرض فاخضرت فأشرف الراهب من صومعته فقال : لو نزلت فذكرت الله فازددت خيراً فنزل ومعه رغيف أو رغيفان فبينما هو فى الأرض لقيته امرأة ، فلم يزل يكلمها وتكلمه حتى غشيها ثم أغمى عليه فنزل الغدير يستحم فجاء سائل فأومأ إليه أن يأخذ الرغيفين ثم مات فوزنت عبادة ستين سنة بتلك الزنية فرجحت الزنية بحسناته ثم وضع الرغيف أو الرغيفان مع حسناته فرجحت حسناته فغفر له . رواه ابن حبان فى صحيحه(١).

١٣ – وعن البراء بن عازب قال : جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله علمنى عملاً يدخلنى الجنة ؟ قال : إن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة أعتق النسمة وفك الرقبة فإن لم تطق ذلك فأطعم الجائع وأسق الظمأن الحديث . رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه والبيهقى(٢).

١٤ – وعن عبد الله بن عمرو ـــ رضى الله عنهما ـــ قال : قال رسول الله ﷺ : من أطعم أخاه حتى يشبعه وسقاه من الماء حتى يرويه باعده الله من النار سبع خنادق ما بين كل خندقين مسيرة خمسمائة عام رواه الطبرانى فى الكبير وأبو الشيخ ابن حبان فى الثواب والحاكم والبيهقى . وقال الحاكم : صحيح الإسناد(٣).

١٥ – وعن أنس ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قال رسول الله ﷺ : أفضل الصدقة أن تشبع كبداً جائعاً . رواه أبو الشيخ فى الثواب والبيهقى . واللفظ له والأصبهانى كلهم من رواية زربى مؤذن هشام عن أنس ولفظ أبى الشيخ والأصبهانى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما من عمل أفضل من إشباع كبد جائع(٤).

١٦ – وعن أبى سعيد ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قال رسول الله ﷺ : أيما مؤمن أطعم مؤمنا على جوع أطعمه الله يوم القيامة من ثمار الجنة وأيما مؤمن سقى مؤمنا على ظمأ سقاه الله يوم القيامة من الرحيق المختوم وأيما مؤمن كسا مؤمنا على عرى كساه الله يوم القيامة من حلل الجنة(٥) .

١٧ – وعن بى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم : مرضت فلم تعدنى قال يارب : كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما

(١) الإحسان بترتيب أحاديث صحيح ابن حبان ٢٩٨/١

(٢) مسند أحمد ٢٩٩/٤ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٢٥٧/٦ والسنن الكبرى للبيهقى ٢٢٣/٤

(٣) مجمع الزوائد للهيثمى ١٣٠/٣ والحاكم فى المستدرك ١٢٩/٤ والبيهقى فى الجامع لشعب الإيمان ٥٤٣/٦ رقم ٣٠٩٦

(٤) الجامع لشعب الإيمان للبيهقى ــ باب ما جاء فى إطعام الطعام وسقى الماء ٥٤٢/٦ رقم ٣٠٩٥

(٥) سنن أبى داود ـــ كتاب الزكاة ٣١٤/٢ رقم ١٦٨٢ وسنن الترمذى ـــ كتاب صفة القيامة ٦٣٣/٤ رقم ٢٤٤٩

علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده . يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى . قال يارب : كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدى فلانا فلم تطعمه فلو أطعمته لوجدت ذلك عندى . يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقينى . قال يارب : وكيف أسقيك وأنت رب العالمين . قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه ، أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندى . رواه مسلم(١).

١٨ – وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : من أصبح منكم اليوم صائماً ؟ فقال أبو بكر رضى الله عنه : أنا فقال : من أطعم منكم اليوم مسكيناً ؟ فقال أبو بكر : أنا . فقال : من تبع منكم اليوم جنازة ؟ قال أبو بكر : أنا ، فقال من عاد منكم اليوم مريضاً ؟ قال أبو بكر : أنا ، فقال رسول الله ﷺ : ما اجتمعت هذه الخصال قط فى رجل إلا دخل الجنة . رواه ابن خزيمة فى صحيحه(٢).

المعنى : نبه النبى ﷺ على أمور أربعة توصلك إلى جنة الله وتسبب غفرانه وتجلب إحسانه :

(أ) صـوم النفـل (ج) المشى مع النعش لتشيع الجنازة للعظة والاعتبار

(ب) إطعـام الفقـير (د) زيـارة المريـض

١٩ – وروى عن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – – قال : سئل رسول الله ﷺ : أى الأعمال أفضل قال : إدخالك السرور على مؤمن أشبعت جوعته أو كسوت عورته أو قضيت له حاجة . رواه الطبرانى فى الأوسط ورواه أبو الشيخ فى الثواب من حديث ابن عمر منحوه ، وفى رواية له : أحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم أو تكشف عنه كربة أو تطرد عنه جوعاً أو تقضى عنه ديناً(٣).

٢٠ – وروى عن معاذ بن جبل – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : من أطعم مؤمنا حتى يشبعه من سغب أدخله الله باباً من أبواب الجنة لا يدخله إلا من كان مثله ، رواه الطبرانى فى الكبير(٤).

٢١ – وروى عن جعفر العبدى والحسن قالا : قال رسول الله ﷺ : إن الله عز وجل يباهى ملائكته بالذين يطعمون الطعام من عبيده . رواه أبو الشيخ فى الثواب مرسلاً .

٢٢ – ورد عن جابر بن عبد الله – رضى الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ : ثلاث من كن فيه ستر الله عليه كنفه وأدخله جنته : رفق بالضعيف وشفقة على الوالدين وإحسان إلى المملوك وثلاث من كن فيه أظله الله عز وجل تحت عرشه يوم لا ظل إلا ظله : الوضوء فى المكاره والمشى إلى

(١) صحيح مسلم – كتاب البر والصلة والآداب – باب فضل عيادة المريض ١٩٩٠/٤ رقم ٢٥٦٩

(٢) صحيح ابن خزيمة ٣٠٤/٣ رقم ٢١٣١

(٣) مجمع الزوائد ١٣٠/٣

(٤) مجمع الزوائد للهيثمى ١٣٠/٣

المساجد فى الظلم وإطعام الجائع . رواه الترمذى بالثلاث الأول فقط(١) .

٢٣ - وروى عن الحسن بن على ــ رضى الله عنهما ــ عن النبى ﷺ قال : لأن أطعم أخاً لى فى الله لقمة أحبُّ إلى من أن أتصدق على مسكين بدرهم ولأن أعطى أخاً لى فى الله درهماً أحب إلىَّ من أن أتصدق على مسكين بمائة درهم . رواه أبو الشيخ .

٢٤ - وعن على ــ رضى الله عنه ــ قال : لأن أجمع نفراً من إخوانى على صاع أو صاعين من طعام أحب إلىَّ من أن أدخل سوقكم فأشترى رقبة فأعتقها . رواه أبو الشيخ فى الثواب موقوفاً عليه . وفى إسناده ليث بن أبى سليم .

٢٥ - وعن كدير الضَّبِّىِّ أن رجلاً أعرابياً أتى النبى ﷺ فقال : أخبرنى بعمل يقربنى من الجنة ويباعدنى من النار ؟ فقال النبى ﷺ : أوهما أعملتاك ؟ قال : نعم : تقول العدل ، وتعطى الفضل . قال : والله لا أستطيع أن أقول العدل كل ساعة وما أستطيع أن أعطى الفضل ، قال : فتطعم الطعام وتفشى السلام ؟ قال : هذه أيضاً شديدة . قال : فهل لك إبلٌ ؟ قال : نعم . قال : فانظر إلى بعير من إبلك وسقاء ثم أعمد إلى أهل بيت لا يشربون الماء إلا غباً فاسقهم فلعلك لا يهلك بعيرك ولا ينخرق سقاؤك حتى تجب لك الجنة قال : فانطلق الاعرابى يكبر فما انخرق سقاؤه ولا هلك بعيره حتى قتل شهيداً رواه الطبرانى والبيهقى ، ورواه الطبرانى إلى كدير رواه الصحيح ورواه ابن خزيمة فى صحيحه باختصار(٢) .

٢٦ - وعن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ قال : أتى النبى ﷺ رجل فقال : ما عملٌ إن عملت به دخلت الجنة ؟ قال : أنت ببلدٍ يجلب به الماء ؟ قال : نعم . قال : فاشتريها سقاء جديداً ثم اسق فيها حتى تخرّقها ، فإنك لن تخرّقها حتى تبلغ بها عمل الجنة . رواه الطبرانى فى الكبير(٣) .

٢٧ - وعن عبد الله بن عمر ــ رضى الله عنهما ــ أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : إنى أنزع فى حوضى إذا ملأته لإبلى ورد على البعير لغيرى فسقيته فهل فى ذلك من أجر ؟ فقال رسول الله ﷺ : إن فى كل ذات كبد حراء أجراً . رواه أحمد ورواته ثقات مشهورون(٤) .

٢٨ - وعن محمود بن الربيع أن سراقة بن جعشم . قال يا رسول الله الضالة ترد على حوضى فهل لى فيها من أجر إن سقيتها . قال اسقها فإن فى كل ذات كبد حرَّاء أجراً . رواه ابن حبان فى صحيحه ورواه ابن ماجه والبيهقى كلاهما عن عبد الرحمن ابن مالك بن جعشم عن أبيه عن عمه سراقة بن جعشم رضى الله عنه(٥) .

---

(١) الترمذى ــ كتاب صفة القيامة ٦٥٦/٤ رقم ٢٤٩٤ وقال : حديث حسن غريب

(٢) مجمع الزوائد للهيثمى ١٣٢/٣ والسنن الكبرى للبيهقى ١٨٦/٤ وصحيح ابن خزيمة ١٢٥/٤ رقم ٢٥٠٣

(٣) المعجم الكبير للطبرانى ١٠٤/١٢ رقم ١٢٦٠٥

(٤) مسند أحمد ٢٢٢/٢

(٥) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٣٧٧/١ وابن ماجه ــ كتاب الأدب ١٢١٥/٢ رقم ٣٦٨٦ والسنن الكبرى للبيهقى ١٨٦/٤

٢٩ – وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : بينما رجل يمشى بطريق أشتد عليه الحر فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان منى فنزل البئر فملأ خفه ماء ، أمسكه بغيه حتى رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له . قالوا يا رسول الله إن لنا فى البهائم أجراً ، فقال فى كل كبدٍ رطبة أجر . رواه مالك والبخارى ومسلم وأبو داود وابن حبان فى صحيحه إلا أنه قال : فشكر الله له فأدخله الجنة(١).

٣٠ – وعن أنس بن مالك – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : سبع تجرى للعبد بعد موته وهو فى قبره : من علم علماً أو كرى نهراً أو حفر بئراً أو غرس نخلاً أو بنى مسجداً ، أو ورث مصحفاً أو ترك ولداً يستغفر له بعد موته . رواه البزار وأبو نعيم فى الحلية(٢)

٣١ – وروى عن سعيد بن عبادة – رضى الله عنه – أنه أتى النبى ﷺ فقال : أى الصدقة أفضل إليك ؟ قال : سقى الماء . رواه البيهقى(٣).

٣٢ – وعن أنس – رضى الله عنه – أن سعداً أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ﷺ : إن أمى توفيت ولم توصى أينفعها أن أتصدق عنها ؟ قال : نعم وعليك بالماء . رواه الطبرانى فى الأوسط ورواته محتج بهم فى الصحيح(٤).

والمعنى : أن رسول الله ﷺ رغب فى إيجاد الآبار للمسلمين ليشربوا فيدوم الثواب ويزداد الأجر فهل للمسلمين أن يشتروا عدداً بخارية ويركبوها لجلب الماء للمحتاج وزوار الرسول ﷺ .

قال النووى : فيه الحث على الإحسان إلى الحيوان المحترم وهو مالا يؤمر بقتله كالكلب العقور والمرتد والفواسق ص ٣٣١ مختار الإمام مسلم .

٣٣ – وعن سعد بن عبادة – رضى الله عنه – قال : قلت يا رسول الله إن أمى ماتت فأى الصدقة أفضل ؟ قال : الماء فحفر بئراً وقال : هذه لأم سعد . رواه أبو داود . واللفظ له(٥).

٣٤ – وعن جابر – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : من حفر ماء لم تشرب منه كبد حرى من جن ولا إنس ولا طائر إلا آجره الله يوم القيامة . رواه البخارى فى تاريخه . وابن خزيمة فى صحيحه(٦).

(١) الموطأ للإمام مالك – كتاب صفة النبى – باب ما جاء فى الطعام والشراب رقم ٢٣ واللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ١٤٤٧ وسنن أبى داود ٥٠/٣ رقم ٢٥٥٠ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٣٧٨/١

(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار ٨٩/١ رقم ١٤٩ والحلية لأبى نعيم ٣٤٣/٢

(٣) الجامع لشعب الإيمان ٥٥٢/٦ رقم ٣١٠٦

(٤) مجمع الزوائد ١٣٨/٣

(٥) سنن أبى داود – كتاب الزكاة – باب فضل سقى الماء ٣١٣/٢ رقم ١٦٨١

(٦) البخارى فى التاريخ ٣٣٢/١/١ وصحيح ابن خزيمة ٢٦٩/٢ رقم ١٢٩٢

٣٥ – وعن على بن الحسن ابن شفيق قال : سمعت ابن المبارك وسأله رجل : يا أبا عبدالرحمن . قرحة فى ركبتى منذ سبع سنين وقد عالجت بأنواع العلاج وسألت الأطباء فلم انتفع به ؟ قال : أذهب فانظر موضعاً يحتاج الناس الماء فاحفر هناك بئراً فإنى أرجو أن تنبع هناك عين ويمسك عنك الدم ، ففعل الرجل فبرأ . رواه البيهقى ، وقال : وفى هذا المعنى حكاية شيخنا الحاكم أبى عبد الله رحمه الله .

فإنه قُرِح وجهه وعالجه بأنواع المعالجة فلم يذهب وبقى فيه قريباً من سنة فسأل الأستاذ الإمام أبا عثمان الصابونى أن يدعو له فى مجلسه يوم الجمعة فدعا له وأكثر الناس التأمين ، فلما كان يوم الجمعة الأخرى ألقت امرأة فى المجلس رقعة بأنها عادت إلى بيتها واجتهدت فى الدعاء للحاكم أبى عبد الله تلك الليلة فرأت فى ضاحها رسول الله ﷺ كأنه يقول لها : قولى لأبى عبد الله يوسِّع الماء على المسلمين فجئت بالرقعة إلى الحاكم فأمر بسكاية بنيت على باب داره وحين فرغوا من بنائها أمر بصب الماء فيها وطرح الجمر فى الماء وأخذ الناس فى الشرب فما مر عليه أسبوع حتى ظهر الشفاء وزالت تلك القروح وعاد وجهه إلى أحسن ما كان وعاش بعد ذلك سنين .

المعنى : [قرحة] : جرح طال فتح موضعه يرشح ويؤلم . [فبرأ] : شفاه الله وجف . أرشده إلى عمل بر دائم يسبب له الدعوات الصالحة لعل الله ينظر إليه نظر رحمة وشفاء وقد كان جاء إلى جهة قفرة لاماء فيها يروى الناس فحفر بئراً عامة يشرب منها الإنسان والحيوان والنبات فتكرم الله جل وعلا بإزالة ألمه وشفاء دمله ـــ وفيه الحث على إنشاء الآبار والمشافى والملاجىء والمصانع والمعامل وكل أعمال تجلب الخير وتسهل أسباب الرزق وتفتح أشغالاً للعاطلين وتزيل الشر عن الآمنين .

٣٦ – وعن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قال رسول الله ﷺ : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : رجل على فضل **بغلاف يمنعه ابن السبيل**(١) .

٣٧ – وعن إمرأة يقال لها بهية عن أبيها قالت : استأذن أبى للنبى ﷺ فدخل بينه وبين ممتعيه فجعل يقبل ويلتزم ثم قال : يا نبى الله ما الشىء الذى لا يحل منعه ؟ قال : الماء : قال : يا نبى الله ما الشىء الذى لا يحل منعه ؟ قال : الملح : قال يا نبى الله ما الشىء الذى لا يحل منعه ؟ قال : أن تفعل الخير خير لك . رواه أبو داود(٢) .

٣٨ – وعن رجل من المهاجرين من أصحاب النبى ﷺ قال : غزوت مع رسول الله ﷺ ثلاثاً أسمعه يقول : المسلمون شركاء فى ثلاثٍ : الكلإ والماء والنار . رواه أبو داود(٣) .

٣٩ – وروى عن عائشة ـــ رضى الله عنها ـــ قالت : يا رسول الله ما الشىء الذى لا يحل

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـــ كتاب الإيمان رقم ٦٨

(٢) أبو داود ـــ كتاب البيوع والإجارات ـــ باب منع الماء ٣/٧٥٠ رقم ٣٤٧٦

(٣) أبو داود ـــ كتاب البيوع والإجارات ـــ باب منع الماء ٣/٧٥٠ رقم ٣٤٧٧

منعه ؟ قال : الماء والملح والنار ، . قالت قلت يا رسول الله هذا الماء ، وقد عرفناه ، فما بال الملح والنار ، قال يا حميراء . من أعطى ناراً فكأنما تصدق بجميع ما أنضجت تلك النار ومن أعطى ملحاً فكأنما تصدق بجميع ما طيبت تلك الملح ومن سقى مسلماً شربة من ماء حيث يوجد الماء فكأنما أعتق رقبة ، ومن سقى مسلماً شربة من ماء حيث لا يوجد الماء فكأنما أحياها . رواه ابن ماجه(١).

٤٠ – وروى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : قال رسول الله ﷺ : المسلمون شركاء فى ثلاث : فى الماء والكلإ والنار وثمنه حرام . قال أبو سعيد يعنى : الماء الجارى . رواه ابن ماجه أيضاً(٢).

الترغيب فى شكر المعروف ومكافأة فاعله والدعاء له وما جاء فيمن لم يشكر ما أولى إليه .

١ – عن عبد الله بن عمرو — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : من استعاذ بالله فأعيذوه ومن سألكم بالله فأعطوه ومن استجار بالله **فأجيروه** ومن أتى إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه . رواه أبو داود والنسائى(٣).

٢ – وعن جابر — رضى الله عنه — عن النبى ﷺ قال : من أعطى عطاء فوجد فليجز به فإن لم يجد فليثنى فإن من أثنى فقد شكر ومن كتم فقد كفر ومن تملَّى بما لم يعط كان كلابس ثوبى زور . رواه الترمذى عن أبى الزبير عنه(٤).

٣ – وعن أسامة بن زيد — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : من صنع إليه معروف فقال لفاعله : جزاك الله خيراً فقد أبلغ فى الثناء(٥).

وفى رواية : من أولى معروفاً أو أسدى إليه معروف فقال للذى أسداه : جزاك الله خيراً فقد أبلغ فى الثناء . رواه الترمذى .

٤ – وعن الأشعث بن قيس — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : إن أشكر الناس لله تبارك وتعالى أشكرهم للناس . وفى رواية : لا يشكر الله من لا يشكر الناس . رواه أحمد ورواته ثقات(٦).

---

(١) سنن ابن ماجه — كتاب الرهون — باب المسلمون شركاء فى ثلاث ٨٢٦/٢ رقم ٢٤٧٤

(٢) سنن ابن ماجه — كتاب الرهون — باب المسلمون شركاء فى ثلاث ٨٢٦/٢ رقم ٢٤٧٢

(٣) سنن أبى داود — كتاب الزكاة — باب عطية من سأل بالله ٣١٠/٢ رقم ١٦٧٢ وسنن النسائى — كتاب الزكاة — باب من سأل بالله — عز وجل — ٨٢/٥

(٤) الترمذى — كتاب البر والصلة — باب فى التشبع بما لم يعطه ٣٧٩/٤ رقم ٢٠٣٤ وقال : حديث حسن غريب

(٥) الترمذى — كتاب البر والصلة — باب فى التشبع بما لم يعطه ٣٨٠/٤ رقم ٢٠٣٥ وقال : حديث حسن جيد غريب

(٦) مسند أحمد ٢١٢/٥

٥ – وعن عائشة – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : من أتى إليه معروف فليكافئ به ومن لم يستطع فليذكره فإن منْ ذَكرهَ فقد شكره ومن تشبع بما لم يُعط فهو كلابس ثوبى زور . رواه أحمد[(١)].

٦ – وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : لا يشكر الله من لا يشكر الناس . رواه أبو داود والترمذى . وقال : صحيح[(٢)].

٧ – وروى عن طلحة يعنى ابن عبيد الله – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : من أولى معروفاً فليذكره فمن ذكره فقد شكره ومن كتمه فقد كفره . رواه الطبرانى . ورواه ابن أبى الدنيا من حديث عائشة رضى الله عنها[(٣)].

٨ – وعن النعمان بن بشير – رضى الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ : من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله والتحدث بنعمة الله شكر وتركها كفر والجماعة رحمة والفرقة عذاب رواه عبد الله بن أحمد فى زوائده بإسناد لا بأس به . ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب اصطناع المعروف باختصار[(٤)].

٩ – وعن أنس – رضى الله عنه – قال : قال المهاجرون : يا رسول الله ذهب الأنصار بالأجر كله ما رأينا قوماً أحسن بذلاً لكثير ولا أحسن مواساة فى قليل منهم ولقد كفونا المؤنة ، قال : أليس تثنون عليهم به وتدعون لهم ؟ قالوا : بلى . قال : فذاك بذاك . رواه أبو داود والنسائى واللفظ له[(٥)].

الاستعداد للموت قبل وقوعه

قوله تعالى : ﴿ **وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون** ﴾ . هذا إرشاد مشوب بالتحذير فقد أمر الله تعالى بالاستعداد للسفر الطويل قال سبحانه : ﴿ **قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال** ﴾ . وقال عز من قائل : ﴿ **يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى**

---

(١) مسند أحمد ٩٠/٦

(٢) سنن أبى داود – كتاب الأدب – باب شكر المعروف ١٥٧/٥ رقم ٤٨١١ وسنن الترمذى – كتاب البر والصلة – باب الشكر لمن أحسن إليك ٣٣٩/٤ رقم ١٩٥٤

(٣) المعجم الكبير للطبرانى ٧٤/١ رقم ٢١١

(٤) مسند أحمد ٢٧٨/٤

(٥) سنن أبى داود – كتاب الأدب ١٥٨/٥ رقم ٤٨١٢

يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون ﴾[1] ولا يليق بالمسلم أن يسمع كل هذه التوجيهات الربانية والإرشادات الالهية ثم يظل فى غفلة إلى أن يفجأه مفرق الجماعات ومعلم البنين والبنات وعندما ينام على فراش الموت يقول رب ارجعون لعَلى أعمل صالحاً فيما تركت فيقال له كلا ، إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون . فإذا نفخ فى الصور . فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون . فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون .

تزود من التقـوى فإنـك راحـل ... وسـارع إلى الخيرات فيمـن يسـارع
فمـا المـال والأهلـون إلا ودائـع ... ولابـد يومـاً أن تـرد الودائـع

إن أجل الله لا يؤخر لو كنتم تعلمون فإذا ما ندمت فإنه لا ينفع الندم وإذا ما سألت الله التأخير إلى أجل قريب فإن الله تعالى يحذرك ويحذر أمثالك من هذا السؤال قال عز من قائل :

﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾ فيقول لهم الله تعالى : **﴿ بل بدالهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾** .

تـزود مـن حياتـك للمعـاد ... وقـم لله واجمـع خـير زاد
ولا تركـن إلى الدنيـا كثـيرا ... فإن المـال يجمـع للنفـاد
أترضـى أن تكـون رفيـق قـوم ... لهـم زاد وأنت بغـير زاد

قال تعالى : **﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال * وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال * وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾**[2].

إن الذين يتمنون العودة عند الموت قد خسروا أنفسهم فإن الله يقول لهم ولأمثالهم أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ويقول لهم ولأمثالهم ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها لأن الأجل معلوم وثابت لا يتقدم ولا يتأخر قال تعالى : **﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾**[3]

تـزود من التقـوى فإنـك لا تـدرى ... إذا جـن ليـل هـل تعيـش إلى الفجر

(١) سورة البقرة الآية : ٢٥٤
(٢) سورة ابراهيم الآيات : ٤٤ - ٤٦
(٣) سورة النحل الآية : ٦١

فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكاً وقدنسجت أكفانه وهو لا يدرى
وكم من عروس زينوها لزوجها وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر
وكم صغار يرتجى طول عمرهم وقد ادخلت أجسادهم ظلمة القبر
وكم من صحيح مات من غير علة وكم سقيم عاش حيناً من الدهر

إن الذى حكم بهذا الحكم هو الخبير العليم بحقائق الأشياء لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض .

التوبة

أيها المسلم الكريم بادر بالتوبة قبل الموت قبل أن تندم فلا ينفعك الندم .

عن أبى موسى ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها . رواه مسلم(١) .

٢ – وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه . رواه مسلم(٢) .

٣ – وعن صفوان بن عسال ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ﷺ قال : إن من قبل المغرب لباباً مسيرة عرضه أربعون عاماً أو سبعون سنة فتحه الله عز وجل للتوبة يوم خلق السموات والأرض فلا يغلقه حتى تطلع الشمس منه(٣) . رواه الترمذى .

المعنى : [يتوب مسىء النهار] : ليرجع إلى ربه مذنب يومه ، كذا سبحانه يقبل توبة من اقترف الذنوب ليلا ويستمر سبحانه على ذلك حتى تظهر علامات الساعة وقرب يوم القيامة . [من مغربها] أى تتغير الشمس ، وتطلع من جهة المغرب ، وتترك جهة الشرق ، كما قال تعالى : ﴿ **إن عذاب ربك لواقع * ماله من دافع * يوم تمور السماء موراً * وتسير الجبال سيراً** ﴾(٤) .

﴿ **لواقع** ﴾ : لنازل . ﴿ **تمور** ﴾ : تضطرب . وتصير الجبال هباء فلا تقبل توبة : وقد عد علماء التوحيد من علامات الساعة طلوع الشمس من مغربها بعد نزول سيدنا عيسى ــ عليه السلام ــ إلى الأرض : ويحكم بشريعة سيدنا محمد ﷺ ، ويكثر الأمن فى زمنه ، والخصب والرخاء والبركة

(١) صحيح مسلم ــ كتاب التوبة ــ باب قبول التوبة من الذنوب ٢١١٢/٤ رقم ٢٧٥٩
(٢) صحيح مسلم ــ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ــ باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه ٢٠٧٦/٤ رقم ٢٧٠٣
(٣) سنن الترمذى ــ كتاب الدعوات ٥٤٦/٥ رقم ٣٥٣٦
(٤) سورة الطور الآيات : ٧ – ١٠

ويشرق نوره على المنارة البيضاء شرق دمشق وقت صلاة الصبح كذا قالوا . وأول الساعة من النفخة الثانية كما قال تعالى : ﴿ **لاتأتيكم إلا بغتة** ﴾ . ثم يخرج المهدى والدجال ويأجوج ومأجوج من السد الذى حجزهم به ذو القرنين وهم من ولد يافث ابن نوح عليه السلام كذا خروج الدابة كما قال الله تعالى : ﴿ **وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون** ﴾[١] . أى : تكلمهم ببطلان الأديان ما عدا دين الإسلام . [فلا يغلقه حتى تطلع الشمس منه] : أى يقرب قيام الساعة كما قال تعالى : ﴿ **إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب** ﴾[٢] قال البيضاوى : أى : قبل حضور الموت لقوله تعالى : ﴿ **حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن** ﴾[٣] وبقوله ﷺ : « إن الله يقبل توبة عبده ما لم يغرغر »[٤].

فعدم قبول التوبة فى حالتين :

(أ) عند الاحتضـــار .

(ب) وعند تغيير شروق الشمس : حينئذ تسد أبواب الرحمة ويخرج دخان الفتن التى تؤذن بالعذاب وحلول الحساب وابتداء العقاب نسأل الله السلامة ونتوب إليه جل جلاله ونستغفره ونحمده سبحانه .

٤ – وعن عبد الله بن مسعود ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : للجنة ثمانية أبواب : سبعة مغلقة وباب مفتوح للتوبة حتى تطلع الشمس من نحوه، رواه أبو يعلى والطبرانى بإسناد جيد[٥].

٥ – وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ثم تبتم لتاب عليكم . رواه ابن ماجه بإسناد جيد[٦].

المعنى : أى : فعلتم ذنوباً كثرت حتى ارتفعت درجاتها . ثم أدركتم الرجوع إلى الله جل وعلا .

٦ – وعن جابر ــ رضى الله عنه ــ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من سعادة المرء أن يطول عمره ويرزقه الله الإنابه . رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد .

المعنى : أى : الرجوع إلى الله جل وعلا وعقد النية على تشييد الصالحات .

---

(١) سورة النمل الآية : ٨٢
(٢) سورة النساء الآية : ١٧
(٣) سورة النساء الآية : ١٨
(٤) سنن الترمذى ــ كتاب الدعوات ٥٤٧/٥ رقم ٣٥٣٧ وسنن ابن ماجه ــ كتاب الزهد ١٤٢٠/٢ رقم ٤٢٥٣
(٥) مسند أبى يعلى ٢٣٢/١ والمعجم الكبير للطبرانى ٢٥٤/١٠ رقم ١٠٤٧٩
(٦) سنن ابن ماجه ــ كتاب الزهد ــ باب ذكر التوبة ١٤١٩/٢ رقم ٤٢٤٨

وعن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت : قال رسول الله ﷺ : من سره أن يسبق الدائب المجتهد فليكف عن الذنوب . رواه أبو يعلى .

٨ - وروى عن جابر ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : المؤمن واهٍ راقع فسعير من هلك على رقعه(١).

٩ - وعن أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ﷺ قال : مثل المؤمن ومثل الإيمان كمثل الغرس فى آخيته يجول ثم يرجع إلى آخيته وإن المؤمن يسهو ثم يرجع فأطعموا طعامكم الأتقياء وأولوا معروفكم المؤمنين . رواه ابن حبان فى صحيحه(٢).

[الآخيه] : مد الهمزة وكسر الخاء المعجمة بعدها ياء مثناة تحت مشددة : هى حيل يدفن فى الأرض مثنياً ويبرز منه كالعروة تشد إليها الدابة وقيل : هو عود يعرض فى الحائط تشد إليه الدابة .

١٠ - وعن أنس ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ﷺ قال : كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون . رواه الترمذى وابن ماجه(٣)

١١ - وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : إن عبداً أصاب ذنبا ، فقال : يارب إنى أذنبت ذنباً فاغفره ، فقال له ربه : علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به فغفر له ، ثم مكث ماشاء الله ثم أصاب ذنبا آخر وربما قال ثم أذنب ذنباً آخر فقال : يارب إنى أذنبت ذنباً آخر فاغفره لى . قال ربه : علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به فغفر له ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنباً آخر وربما قال ، ثم أذنب آخر فقال : يارب إنى أذنبت ذنباً فاغفره لى ، فقال ربه : علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به فقال ربه : غفرت لعبدى فليعمل ماشاء . رواه البخارى ومسلم(٤).

[قوله : فليعمل ماشاء] معناه والله أعلم : أنه مادام كلما أذنب ذنباً استغفر وتاب منه ولم يعد إليه بدليل قوله : ثم أصاب ذنباً آخر فليفعل إذا كان هذا دأبه ما شاء لأنه كلما أذنب كانت توبته واستغفاره كفارة لذنبه فلا يضره لا أنه يذنب فيستغفر منه بلسانه من غير إقلاع ثم يعاوده فإن هذه توبة الكذابين .

---

(١) مجمع الزوائد ٢٠١/١٠

(٢) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٧/٢

(٣) سنن الترمذى ــ كتاب صفة القيامة ٦٥٩/٤ رقم ٢٤٩٩ وسنن ابن ماجه ــ كتاب الزهد باب ذكر التوبة ١٤٢٠/٢ رقم ٤٢٥١

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ــ كتاب التوبة ــ باب قبول التوبة من الذنوب رقم ١٧٥٤

١٢ – وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء فى قلبه فإن قال ونزع واستغفر صقل منها وإن زاد زادت حتى يغلف بها قلبه فذلك الران الذى ذكر الله فى كتابه » . ﴿ **كلا بل ران على قلوبهم** ﴾[١].

رواه الترمذى وصححه النسائى . وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم واللفظ له من طريقين قال فى أحدهما : صحيح على شرط مسلم . ولفظ ابن حبان وغيره : « إن العبد إذا أخطأ خطيئة ينكت فى قلبه نكتة فإن هو نزع واستغفر وتاب صقلت ، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه الحديث .

١٣ – وعن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : قالت قريش للنبى ﷺ : ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهبا ، فإن أصبح ذهبا اتبعناك فدعا ربه فأتاه جبريل عليه السلام فقال : إن ربك يقرئك السلام ويقول لك : إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبا فمن كفر منهم عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة . قال : بل باب التوبة والرحمة رواه الطبرانى ورواته رواة الصحيح[٢].

المعنى : أى : طلب قبول التوبة ونزول الرحمة إنك يا الله غفور رحيم قال تعالى : ﴿ **حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطولِ لا إله إلا هو إليه المصير** ﴾ . من سورة غافر الآيات ١ – ٣ .

﴿ **الطول** ﴾ : الفضل بترك العقاب المستحق . ﴿ **المصير** ﴾ : يرجع إليه جل وعلا فى إثابة المطيع وتعذيب العاصى واختار ﷺ فتح باب رضوان الله وطلب عليه الصلاة والسلام إنعامه على عباده وإحسانه وتفضله ، ورغب عن المال لأنه عرض زائل فان . ماذا يفيدك أيها المسلم لو حول الله لك الجبال ذهبا ؟ ماذا تصنع بها ﴿ **وكل نفس ذائقة الموت** ﴾ وكل نعيم لا محالة زائل ؟ ﴿ **وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون** ﴾ سورة الأنعام الآية ٣٢ .

فهل تتوب إلى ربك جل وعلا وتقبل على الأعمال الصالحات وتكثر من ذكر الله والصدقات وتدخر ثوابها عند العزيز الوهاب فتتنعم بها فى آخرتك ﴿ **ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون * من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ سورة النحل ٩٦ – ٩٧ .

إن شاهدنا وعد الله حفظ النعيم للصالح التقى أن يمده بأفضاله وإكرامه وهو ما طلبه النبى ﷺ لأمته صلى الله عليك يا رسول الله علمت المطيعين المخلصين الزهد والقناعة والرغبة فى فعل البر والخير والإكثار من طاعة الله جل وعلا والإقبال عليه سبحانه بجليل الأعمال وكنت لنا المثل الأعلى فى ترك طعام الدنيا والإكثار من طاعة الله جل وعلا والإقبال عليه سبحانه بجليل الأعمال وكنت لنا المثل

(١) انظر سنن ابن ماجه حـ ٢ ص ١٤١٨ حديث رقم ٤٢٤٤ « كتاب الزهد »

(٢) رواه مجمع الزوائد للهيثمى حـ ٥ ص ٣٩ ، حـ ١٠ ص ١٩٦ .

الأعلى فى ترك طعام الدنيا ونبذه وتشيين المحامد والمكارم . وقد روى لنا الإمام مسلم فى حديث أبى هريرة « خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبى بكر وعمر فقال ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة ؟ قال : الجوع يا رسول الله ، قال : وأنا الذى نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما قوموا فقاموا معه فأتى رجلاً من الأنصار »[1] الحديث.

قال النووى : فيه ما كان عليه النبى ﷺ وكبار أصحابه من التقلل من الدنيا وما ابتلوا به من الجوع وضيق العيش فإذا حصل يسر أنفق فى طاعة الله من وجوه البر وإيثار المحتاجين وتجهيز السرايا : أى الجيش يحارب فى سبيل الله تعالى أ.هـ .

فلعلك فهمت سر الإعراض عن الجبال أن تكون ذهبا ورغبته ﷺ فى قبول التوبة وفعل الصالحات لله تعالى : نسأل الله الهداية والتوفيق .

١٤ - وعن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - عن النبى ﷺ قال : « إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر »[2]. رواه ابن ماجه والترمذى وقال الحديث حسن .

[يغَرغِر] : بغينين معجمتين الأولى مفتوحة والثانية مكسورة وبراء مكررة معناه مالم تبلغ روحه حلقومه فيكون بمنزلة الشيء الذى يتغرغر به .

١٥ - وعن معاذ بن جبل - رضى الله عنه - قال : قلت يا رسول الله ، أوصنى ؟ قال : عليك بتقوى الله ما استطعت واذكر الله عند كل حجر وشجر وما عملت من سوء فأحدث له توبة ، السر بالسر والعلانية بالعلانية[3] . رواه الطبرانى بإسناد حسن .

المعنى : [عليك بتقوى الله] : أى الزم الخوف من الله والعمل لإرضائه وتجنب سخطه واترك المعاصى وصحبة الأشرار . [ما استطعت] : قدر طاقتك ومدة إستطاعتك كما قال تعالى : ﴿ **فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ سورة التغابن ١٦

أى ابذلوا فى تقواه جهدكم وطاقتكم واسمعوا مواعظه وأطيعوا أوامره وأنفقوا فى وجوه الخير خالصاً لوجهه .

[عند كل حجر وشجر] : أى : ومجده وعظمه سبحانه أى : تفكر فى صنعه تعالى وخلقه واحمده كما قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾ سورة البقرة : ٢١ - ٢٢ .

---

(١) أنظر صحيح مسلم حـ ٣ ص ١٦٠٩ حديث رقم ١٤٠ / ٢٠٣٨ مقدور الحرية من رواية لأبى هريرة

(٢) أنظر سنن ابن ماجه حـ ٢ ص ١٤٢٠ رقم ٤٢٥٣ من رواية عبد الله بن عمرو .

(٣) أنظر سنن ابن ماجه حـ ٢ ص ١٤٢٠ حديث رقم ٤٢٥٣ أورده عن عبد الله بن عمرو .

أى : أطيعوا بارئكم ، وبارىء آبائكم ، وأجدادكم الأمم السابقة راجين أن تنخرطوا فى سلك المتقين الأبرار الفائزين بالهدى والفلاح المستوجبين جوار الله تعالى . نبه به على أن التقوى منتهى درجات السالكين وهى التبرى من كل شيء سوى الله تعالى إلى الله تعالى وأن العابد ينبغى أن لا يغتر بعبادته ويكون ذا خوف ورجاء كما قال تعالى : ﴿ **يدعون ربهم خوفاً وطمعاً** ﴾ سورة السجدة : ﴿ **ويرجون رحمته ويخافون عذابه** ﴾ سورة الإسراء : ٥٧

﴿ **فراشاً** ﴾ مبسوطة منبثة (بناء) قبة مضروبة عليكم مرفوعة بلا عمد ﴿ **أنداداً** ﴾ أشباهاً وأمثالا فى إسناد الأفعال إلى غيره ، أى : وحدوه واعتقدوا أنه الفعال لكل شيء .

[فأحدث له توبة] : جدد له ندماً ورجوعا إلى الله جل وعلا . [والعلانية بالعلانية] : أى : أذنبت جهاراً فأعلن توبتك وأعلم الناس إقلاعك عما فعلت وأكثر من التضرع تنجح . قال تعالى :

(أ) ﴿ **وربك يعلم ماتكن صدورهم وما يعلنون * وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون** ﴾ سورة القصص : ٦٩ - ٧٠ .

(ب) وقال تعالى : ﴿ **قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون** ﴾ سورة يونس : ١٠٠ .

(جـ) وقال تعالى : ﴿ **قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون * فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة** ﴾ سورة الأعراف : ٢٩ .

(د) وقال تعالى : ﴿ **فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾ سورة الحجر : ٩٨ - ٩٩

(هـ) وقال تعالى : ﴿ **نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ولأجر الآخر خير للذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾ سورة يوسف : ٥٦ - ٥٧

١٦ - وروى عن أنس ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا تاب العبد من ذنوبه أنسى الله عز وجل حفظته ذنوبه وأنسى ذلك جوارحه ومعالمه من الأرض حتى يلقى الله يوم القيامة وليس عليه شاهد من الله بذنب » رواه الأصبهانى(١).

المعنى : [جوارحه] : أيديه وأرجله . [معالمه] : آثاره التى دب فيها للمعاصى ومشى فيها ، قال تعالى : ﴿ **من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وماربك بظلام للعبيد** ﴾ سورة فصلت : ٤٦ . فاتق الله يا عبد الله ، وأسرع بالتوبة ، وأعمل بأوامر الله لتربح ، وأعلم أن عمرك محدود ولن تضمن طوله ، فقد وعدك الله جل وعلا أن ينسى الكتبة ما عملت من سوء ، ويبعد جوارحك عن الشهود عليك بما اقترفت من الذنوب ويضيع آثار مشيك للأذى أو لارتكاب المعاصى ،

---

(١) رواه كنز العمال كتاب التوبة فى فضلها والترغيب فيها حـ ٤ ص ٢٠٩ رقم ١٠١٧٩ .

وقد قال تعالى فى محكم كتابه : ﴿ **ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون * حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون * وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون * وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين** ﴾ سورة فصلت ١٩ - ٢٣ .

وقال تعالى : ﴿ **يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون * يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين** ﴾ سورة النور : ٢٤ - ٢٥ .

إن رسول الله ﷺ وصف لنا الدواء الناجع ألا وهو التوبة وعقد الخناصر على طاعته سبحانه وتقوية العزيمة فى عبادته وأشار إلى السلاح القاطع الذى يخرس كل شهود على العصيان ألا وهو الانابة إلى الله مع ذكره سبحانه وتأدية الواجبات والابتعاد عن السيئات قال تعالى :

(أ) ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ سورة الرحمن : ٤٦ .

(ب) ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ سورة الرحمن : ٦٠

(جـ) وفى سورة الواقعة ذكر سبحانه وتعالى : (أ) الزرع . (ب) الماء . (جـ) النار . أى : أنه هو السبب فى إيجاد أولئك قال جل شأنه ﴿ **فسبح باسم ربك العظيم** ﴾ . سورة الواقعة : ٩٦ . قال النسفى : أى : فنزه ربك عما لا يليق به أيها المستمع المستدل ، أي : قل : سبحان ربي العظيم أ.هـ . لأنه جدير بذلك .

١٧ - وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : النادم ينتظر من الله الرحمة ، والمعجب ينتظر المقت ، واعلموا عباد الله أن كل عامل سيقدم على عمله ، ولا يخرج من الدنيا حتى يرى حسن عمله وسوء عمله وإنما الأعمال بخواتيمها ، والليل والنهار مطيتان ، فأحسنوا السير عليهما إلى الآخرة وأحذروا التسويف فإن الموت يأتى بغتة ، ولا يغترن أحدكم بحلم الله عز وجل فإن الجنة والنار أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ . رواه الاصبهانى(١) من رواية ثابت بن محمد الكوفى العابد .

المعنى : [النادم] : الباكى على خطاياه والحزين على تقصيره المعجب المترفع المتكبر الذى يستحسن عمله الذى يتعاظم ويتفاخر . [المقت] : السخط والعذاب لأنه مراء كذاب . [كل عامل] : إنسان فى الحياة أو إنسانة سيقبل يوم القيامة ويرى صحائف أعماله أن خيراً وإن شرا كما قال تعالى :

(أ) ﴿ **والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم** ﴾ سورة الحديد : ١٩

(١) رواه كنز العمال كتاب جامع المواعظ حـ ١٥ ص ٩٣٦ رقم ٤٣٦٠٧ .

(ب) وقال تعالى : ﴿ **إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين * يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد** ﴾ سور المجادلة : ٥ - ٦

[حسن عمله وسوء عمله] : عند الاحتضار يبشر الله الصالح بنعيمه والطالح بالعذاب . [مطيتان] : موصلتان للأعمال لمن يريد التحصيل وتشييد المحامد فالإنسان خلق ليعمل وينتهز فرصة وجوده ، فيكد في البر والخير ويجد في المكارم كما قال تعالى : ﴿ **تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير * الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور** ﴾ سورة تبارك : ١ - ٢ . [التسويف] :التأجيل في التوبة ونية التأخيرفى عمل صالح ، بل أسرعوا وتوبوا إلى الله وأعملوا صالحاً ففيه الترغيب فى الإنابة إلى الله والعمل بكتابه وسنة نبيه وترك الآمال والأمانى الكاذبة . [بغتة] : فجأة . [بحلم الله] : بتأجيل عقاب المذنب ، والحليم من أسماء الله تعالى ومعناه الذى لا يستخفه شيء من عصيان العباد ، ولا يستفزه الغضب عليهم سبحانه صبور مؤخر عقاب المسيء يمهل وينتظر الا بة « ويتوب الله على من تاب » . [شراك نعله] : أقرب شيء يملكه ومعنى الشراك أحد سيور اسعل التى تكون على وجهها وهذا على سبيل التقريب والتفهيم إلى أن النعيم أو العذاب مدرك بسرعة وبعد خروج الروح يرى المؤمن الطائع ثوابه وللعاصى عقابه فالعاقل من تاب إلى الله وأسرع فى الطاعة وجد فى العبادة ، ولا يعلم انتهاء العمر إلا الله جل جلاله فالنبى ﷺ يرغب المؤمن فى التوبة رجاء إدراك رحمة الله وثوابه ويبغضه فى القنوط ، وينفره من الكبر والغرور ، كما قال تعالى : ﴿ **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الامتاع الغرور * سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾ سورة الحديد : ٢٠ - ٢١ .

﴿ **خيراً يره** ﴾ : يدرك جزاءه ويتمتع بنعمته . قال النفى : روى أن جد الفرزدق أتاه ـــ عليه السلام ـــ ليستقرئه فقرأ عليه هذه الآية فقال حسبى حسبى ، وهى أحكم آية وسميت الجامعة . والله أعلم .

وقال البيضاوى : ولعل حسنة الكافر وسيئة المجتنب عن الكبائر تؤثران فى نقص الثواب والعقاب وقيل الآية مشروطة بعدم الإحباط والمغفرة أو من الأولى مخصوصة بالسعداء والثانية بالأشقياء لقوله تعالى : ﴿ **يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم** ﴾ **الزلزلة : ٦ . أى : من مخارجهم من القبور إلى الموقف متفرقين بحسب مراتبهم .**

١٨ - وعن عبد الله بن مسعود ـــ رضى الله عنه ـــ عن النبى ﷺ قال : « التائب من

الذنب كمن لا ذنب له »[1]**. رواه ابن ماجه والطبرانى كلاهما من رواية أبى عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه ، ولم يسمع منه ، ورواه الطبرانى رواه الصحيح ، ورواه ابن أبى الدنيا والبيهقى مرفوعاً أيضاً من حديث ابن عباس ، وزاد « والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزىء بربه » وقد روى بهذه الزيادة موقوفاً .**

المعنى : [التائب] : النادم على فعله المقبل على ربه بطاعته يعفو عنه ربه سبحانه ويثيبه ويحط ذنوبه ويمحو خطاياه تفضلاً ويجعل صحيفته نقية مثل الذى ليست له ذنوب كما قال تعالى : ﴿ **إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً * ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً** ﴾ الفرقان : ٧٠ - ٧١ .

﴿ **المستغفر من الذنب** ﴾ : الذى يطلب إزالة ذنوبه بطلب المغفرة مع إصراره على العصيان وعكوفه على الفسوق تهجم منه على عظمة الله وسخرية منه ومجون وطمع فى رحمة القادر القهار الجبار واستهزاء بالخالق المنتقم ، وقد حكى الله تعالى عن اليهود والمنافقين مدة رسول الله ﷺ يقسمون بمحبة رسول الله ﷺ واحترامه ونصره كذبا وخداعا ولكن يصرون على عداوته ويضمرون الخصام له فخزاهم الله ولم يقبل أى عمل لهم وفضحهم كما قال تعالى فى سورة المجادلة : ﴿ **ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ماهم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون * أعد الله لهم عذابا شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون * اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين * لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شىء ألا إنهم هم الكاذبون * استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون** ﴾ المجادلة : ١٤ - ١٩ .

قال البيضاوى : فتمرنوا على سوء العمل أو اصروا عليه إن الفساق الآن يتهاونون فى حقوق الله امتهانا بأنفسهم وتساهلاً واستهزاء بعقولهم الضالة التائهة الغافلة عن الله ، فترى العصاة يسوفون فى الصلاة ويؤجلون عمل الخير إلحاداً وإفساداً كما قال تعالى فيهم ﴿ **نسوا الله فنسيهم** ﴾ التوبة : ٦٧ .

قال فى الغريب . إذا نسب ذلك إلى الله فهو تركه إياهم استهانة بهم ومجازاة لما تركوه كما قال تعالى : ﴿ **فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا** ﴾ الأعراف : ٥١ . وكما قال تعالى : ﴿ **ولاتكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون** ﴾ الحشر : ١٩ أى تركو ذكره عز وجل وما أمرهم به فتركهم سبحانه من ذكره بالرحمة والتوفيق . مسكين من لم يتب . وماذا ينتظر ؟ والله تعالى له رقيب وحسيب فليستيقظ الإنسان من سباته وليكثر من الاستغفار فى الأسحار رجاء غفرانه سبحانه : ما أحسن الخلوة فيذكر الإنسان هول الموقف وما أحاطه من نعم مولاه وماذا

---

(١) سنن ابن ماجه حـ ٢ ض ١٤١٩ - ١٤٢٠ « كتاب الزهد » باب « ذكر التوبة » حديث رقم ٤٢٥٠ من

عمل إستعداداً وغدا يتجلى الإله برأفته ورحماته فيظله برضوانه ويكون أحد السبعة ﴿ **ذكر الله خالياً ففاضت عيناه** ﴾.

١٩ – وعن حميد الطويل قال : قلت لأنس بن مالك ــ رضى الله عنه : أقال النبى ﷺ : « الندم توبة ، قال : نعم »[١] رواه ابن حبان فى صحيحه .

المعنى : نعم : أجاب سيدنا أنس أن البكاء على التعقيد فى عمل الصالحات توبة والتضرع إلى المولى بالقول وإقلاع الإصرار على العصيان وشحذ العزيمة على الطاعة وتقوية الارادة الصارمة على العبادة مما يسبب قبول الله ويجلب رضاه وقد قال النبى ﷺ : يبسط يده . قال النووى : بسط إليه استعارة فى قبول التوبة ، وخوطب العرب بأمر حسبى يفهمونه وهو مجاز فإن يد الجارحة مستحيلة فى حق الله سبحانه وتعالى والعرب إذا رضى أحدهم بالشيء بسط يده لقبوله ، وإذا كرهه قبضها عنه .

٢٠ – وعن عبد الله بن معقل قال : دخلت أنا وأبى على ابن مسعود رضى الله عنه فقال له أبى : سمعت النبى ﷺ يقول : الندم توبة ؟ قال : نعم[٢]. رواه الحاكم ، وقال : صحيح الإسناد .

٢١ – وعن عائشة ــ رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ قال : « ما علم الله من عبد ندامة على ذنب إلا غفر له قبل أن يستغفره منه »[٣] رواه الحاكم من رواية هشام زياد وهو ساقط وقال : صح الإسناد .

٢٢ – وعن ابن مسعود ــ رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ليس أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك مدح نفسه وليس أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش وليس أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل . رواه مسلم[٤].

المعنى : [أغير] : شديد الانتقام بقوة وأكثر عقاباً ومعنى الغيرة الحمية والأنفة وشدة اليقظة : يقال رجل غيور وامرأة غيور . [الفواحش] : المعاصى ما ظهر منها وما بطن كالزنا والسرقة والحسد وهكذا من الأشياء القبيحة الفظيعة . [العذر] : التوبة والندم . قال النووى : قال القاضى : أى اعتذار العباد إليه من تقصيرهم وتوبتهم من معاصيهم فيغفر لهم سبحانه . قال تعالى : ﴿ **وهو الذي يقبل التوبة عن عباده** ﴾ سورة الشورى : ٢٥ .

وقد فسر ﷺ فى حديث مسلم « وغيرة الله أن يأتى المؤمن ما حرم الله » رواه أبو هريرة .

وفى رواية البخارى ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين قال القسطلانى : الفواحش كل

---

(١) أنظر سنن ابن ماجه حـ ٢ ص ١٤٢٠ حديث رقم ٤٢٥٢ من رواية عن ابن معقل قال : دخلت مع أبى على عبد الله فسمعته يقول : قال رسول الله ﷺ : « الندم توبة » فقال له أبى : أنت سمعت النبى ﷺ يقول : « الندم توبة » قال : نعم .

(٢) أنظر المرجع السابق .

(٣) أنظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢١١٤ حديث رقم ٣٥ / ٢٧٦٠ فقد ورد الحديث من رواية لابن مسعود

(٤) رواه صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢١١٣ – ٢١١٤ رقم ٣٢،٣٣،٣٤،٣٥ / ٢٧٦ كتاب التوبة باب غيرة الله تعالى ، وتحريم الفواحش .

خصلة قبيحة من الأقوال والأفعال (المدح) المدح والثناء بذكر أوصاف الكمال . وزاد البخارى « ومن أجل ذلك وعد الله الجنة » يخبر ﷺ أن الله تعالى يحب الذى يتحلى بثلاثة :

(أ) المدح : أى يكون كثير التضرع والدعاء كما قال تعالى ﴿ **ادعونى استجب لكم** ﴾ وكما قال ﷺ : « الدعاء مخ العبادة »

(ب) شديد الغيرة باجتناب ما نهى الله عنه وترك المعاصى .

(جـ) التوبة والالتجاء إلى الله تعالى كما قال سبحانه : ﴿ **نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم * وأن عذابى هو العذاب الأليم** ﴾ الحجر : ٤٩ - ٥٠ .

[الكتاب] : الكتب السماوية المنزلة من السماء وحى من الله جل وعلا على الرسل صلوات الله وسلامه عليهم لتستبين أوامره ، وتتجلى مقاصده ، فيعمل بها العبد ليتقرب إلى ربه ، وأشهرها أربعة : التوراة لسيدنا موسى ، والانجيل لسيدنا عيسى ، والزبور لسيدنا داود ، والفرقان لسيدنا محمد ﷺ كما أنه أرسل الرسل مهذبين ومرشدين ومعلمين ليبينوا للناس الحق فيتبعوه ، والباطل فيجتنبوه ، قال تعالى لحبيبه ﷺ ﴿ **منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك** ﴾ سورة غافر : ٧٨ .

وقال علماء التوحيد يجب معرفة خمسة وعشرين منهم وهم ساداتنا : آدم ــ إدريس ــ نوح ــ هود ــ صالح ــ إبراهيم ــ لوط ــ إسماعيل ــ إسحق ــ يعقوب ــ يوسف ــ أيوب ــ شعيب ــ موسى ــ هارون ــ ذوالكفل ــ داود ــ سليمان ــ إلياس ــ اليسع ــ يونس ــ زكريا ــ يحيى ــ عيسى ــ أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ .

وأولو العزم خمسة : أى الذين صبروا وتحملوا المشاق : (محمد إبراهيم موسى كليمه ... فعيسى فنوح هم أولو العزم فاعلم وإن الله تعالى ما أرسل الرسل إلا ليعرفوا الناس آلاءه وأنه تعالى جدير بكل ثناء وخليق بكل تذلل وخشوع وعبادة وطاعة وحقيق بالتوبة إليه كما قال جل شأنه : ﴿ **وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كذبوا بآياتنا يمّسهم العذاب بما كانوا يفسقون** ﴾ سورة الأنعام : ٤٨ - ٤٩ .

٢٣ - وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ﷺ قال : « والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم »(١) رواه مسلم وغيره .

المعنى : [نفسى بيده] : يقسم ﷺ بالقادر الذى بيده تصاريف الأمور ذى الفضل والرحمة والحلم سبحانه وتعالى . [لذهب الله بكم] : لأماتكم وأفناكم وأوجد أمة أخرى تقع منها الخطايا وفى هذا بشرى بقبول التوبة والترغيب فى عدم اليأس وإرسال أشعة الرجاء والأمل فى نفوس العاصين ليتوبوا كما قال تعالى : ﴿ **قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله أن الله يغفر**

(١) انظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢١٠٦ حديث رقم ١١ / ٢٧٤٩ من رواية لأبى هريرة .

الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم * وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون* واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون * أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين * أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين * أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين * بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴾ الزمر ٥٣ : ٥٩ .

٢٤ - وعن عمران بن الحصيه ـ رضى الله عنه ـ أن امرأة من جهنية أتت رسول الله ﷺ وهى حُبلى من الزنا فقالت : يا نبى الله ، أصبت حداً فأقمه علىَّ فدعا نبى الله ﷺ وليها قال : أحسن إليها ، فإذا وضعت فائتنى بها ففعل ، فأمرَ بها نبى الله ﷺ فشدُت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها فقال له عمر : تصلى عليها يا نبى الله وقد زنت ؟ قال : تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم وهل وجدت توبة أفضل من أن جاءت بنفسها لله عز وجل[1]. رواه مسلم .

٢٥ - وعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يحدِّث حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين حتى عد سبع مرات ، ولكن سمعته أكثر ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كان الكفل من بنى إسرائيل لا يتورع عن ذنب عمله فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها ، فلما قعد منها مقعد الرجل من إمرأته أُرعدت وبكت فقال : ما يبكيك أكرهتكُ ؟ قالت : لا ولكنه عمل ما عملته قط وماحملنى عليه إلا الحاجة ، فقال : تفعلين أنت هذا وما فعلته قط ، اذهبى فهى لك وقال : لا والله لا أعصى الله بعدها أبداً فمات من ليلية فأصبح مكتوباً على بابه : إن الله قد غفر للكفل »[2] . رواه الترمذى وحسنه واللفظ له وابن حبان فى صحيحه إلا أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ أكثر من عشرين مرة يقول : فذكر بنحوه والحاكم والبيهقى من طريقه وغيرها وقال الحاكم : صحيح الإسناد .

المعنى : [الكفل] : رجل زير . [لا يتورع] : يميل إلى عصيان الله تعالى وغشيان الفجور ويحب الفسوق . [أُرعدت] : ارتعش جسمها وبرد . [الحاجة] : الفقر الذى دعانى إلى التفريط في عرضي. [وما فعلته قط] : قد خفت الله من عصيانه وما بدت منك فاحشة . [والله لا أعصى الله] : هذا العزم بمثابة توبة قبلها الله تعالى فشكر له وسامحه وستر ذنوبه تفضلاً . لمحة رضى وثانية عطف من الزمن وجزء من الوقت أدركته سعادة الله ورضوانه ، فعفا عنه بسبب مرور خشيته رد ما من الزمن ، فالعاقل يتوب إلى الله فى كل لحظة ، رجاء أن يشمله كرم مولاه سبحانه كما شمل ذلك الرجل الفحاش طيلة عمره ويتوب الله على من ثاب .

٢٦ - وعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : « كانت قريتان : إحداهما صالحة ،

(١) انظر صحيح مسلم حـ ٣ ص ١٣٢٤ حديث ٢٤ / ١٦٩٦ من رواية عمران بن حصين .
(٢) انظر سنن الترمذى حـ ٤ ص ٦٨ ، ٦٩ حديث رقم ٢٦١٤ أورده من رواية لابن عمر وأنظر صحيح ابن حبان حـ ١ ٣٠١ ، ٣٠٢ فقد ورد الحديث رقم ٣٨٨ من رواية لابن عمر

والأخرى ظالمة . فخرج رجل من القرية الظالمة يريد القرية الصالحة فأتاه الموت حيث شاء الله فاختصم فيه الملك والشيطان فقال الشيطان : والله ما عصانى قط فقال الملك : إنه قد خرج يريد التوبة فقضى بينهما أن ينظر إلى أيهما أقرب فوجدوه إلى القرية الصالحة بشبر فغفر له . قال معمر : وسمعت من يقول : قرب الله إليه القرية الصالحة »[1] رواه الطبرانى بإسناد صحيح .

٢٧ – وعن أبى سعيد الخدرى ـــ رضى الله عنه ـــ أن نبى الله ﷺ قال : كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب فأتاه ، فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة ؟ فقال : لا ، فقتله فكمل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ومن يحول بينه وبين التوبة ! إنطلق إلى الأرض كذا وكذا فإنّ بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه ملك الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط ، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم ، فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له ، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد فقبضته ملائكة الرحمة »[2].

وفى رواية : فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر فجعل من أهلها .

وفى رواية : فأوحى الله إلى هذه أن تباعدى وإلى هذه أن تقربى وقال : قيسوا بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له .

وفى رواية : قال قتادة قال الحسن : ذُكر لنا أنه لما أتاه ملك الموت نأى بصدره نحوها . رواه البخارى ومسلم وابن ماجه بنحوه .

المعنى : [فقبضة ملائكة الرحمة] : أى تسلمته إلى نعيم الله وإحسانه بسبب غفران ذنوبه باهتمامه وسيره إلى بلد الصالحين المطيعين . هذا رجل تاب الله عليه بسبب عزمه على السير إلى هذه القرية ، فما بالك بمن أحب الصالحين وعاشرهم وأكرمهم وودهم وزارهم وحضر مجالسهم ودعا بدعواتهم الطيبة ؟ أرى أن الله كريم عظيم يقبله ويوفقه ويهديه إلى الخير ويغفر ذنوبه ، ومن أحب قوماً حشر معهم . حسبك قوله ﷺ « أنت مع من أحببت » نسأل الله السلامة .

قال النووي : في باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (ثم أفتاه العالم بأن له توبة) هذا مذهب أهل العلم وإجماعهم على صحة توبة القاتل عمداً ولم يخالف أحد منهم إلا ابن عباس ، وأماما نقل عن بعض السلف من خلاف هذا فمراد قائله الزجر عن سبب التوبة لا أنه يعتقد بطلان

(١) انظر مجمع الزوائد حـ ١٠ ص ٢١٣ فقد أورد الحديث من رواية لابن مسعود وقال : رواه الطبرانى موقوفاً ورجاله رجال الصحيح .

(٢) انظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢١١٨ « كتاب التوبة » حديث ٤٦ / ٢٧٦٦ من رواية لأبى سعيد ، وأنظر الأحاديث ٤٧ ، ٤٨ / ٢٧٦٦ .

توبته ، وهذا الحديث ظاهر فيه وإن كان شرعاً لمن قبلنا ، وفى الاحتجاج به خلاف ، فليس موضوع الخلاف وإنما موضعه إذا لم يرد شرعنا بموافقته وتقريره فإن ورد كان شرعاً لنا بلاشك وهذا قد ورد شرعنا به ، وهو قوله تعالى : ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا * إلا من تاب** ﴾ الفرقان : ٦٨ - ٧٠ .

وأما قوله تعالى : ﴿ **ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها** ﴾ النساء : ٩٣ . فالصواب فى معناها أن جزاءه جهنم ، وقد يجازى به ، وقد يجازى بغيره ، وقد لا يجازى بل يعفى عنه ، فإن قتل عمداً مستحلاً له بغير حق ولا تأويل فهو كافر مرتد يخلد به فى جهنم بالإجماع ، وإن كان غير مستحل بل معتقداً تحريمه فهو فاسق عاصى مرتكب كبيرة جزاؤه جهنم خالدا فيها ولكن بفضل الله ـــ تعالى ثم أخبر أنه لا يخلد من مات موحداً فيها فلا يخلد هذا ، ولكن قد يعفى عنه فلا يدخل النار أصلا ، وقد لا يعفى عنه بل يعذب كسائر العصاة الموحدين ثم يخرج معهم إلى الجنة ، ولا يدخل إلى النار فهذا هو الصواب فى معنى الآية .

٢٨ - وعن أبى عبد ربه أنه سمع معاوية بن أبى سفيان على الخير يحدث أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : إن رجلاً أسرف على نفسه فلقى رجلاً فقال : إن الآخر قتل تسعة وتسعين نفساً كلهم ظلماً ، فهل تجدلى من توبة ؟ فقال : إن حدثتك أن الله لا يتوب على من تاب كذبتك ههنا قوم يتعبدون فأتهم تعبد الله معهم فتوجه إليهم فمات على ذلك فاجتمعت ملائكة الرحمة وملائكة العقاب فبعث الله إليهم ملكاً فقال : قيسوا ما بين المكانين فأيهم كان أقرب فهو منهم فوجدوه أقرب إلى دير التوابين بأنمله فغفر له . رواه الطبرانى بإسنادين أحدهما جيد .

ورواه أيضاً بنحوه بإسناد لا بأس به عن عبد الله بن عمرو فذكر الحديث إلى أن قال : ثم أتى راهبا آخر فقال : إنى قتلت مائة نفس فهل تجد لى من توبة ؟ فقال : لقد أسرفت وما أدرى ولكن ههنا قريتان قرية يقال لها : نصرة والأخرى يقال لها : كفرة فأما أهل نصرة فيعملون عمل أهل الجنة لا يثبت فيها غيرهم وأما أهل كفرة فيعملون عمل أهل النار لا يثبت فيها غيرهم فانطلق إلى أهل نصرة فإن ثبت فيها ، وعملت عمل أهلها فلاشك فى توبتك فانطلق يومها حتى إذا كان بين القريتين أدركه الموت فسألت الملائكة ربها عنه ، فقال : انظروا إلى أى القريتين كان أقرب فاكتبوه من أهلها فوجدوه أقرب إلى نصرة بقيد أنمله فكتب من أهلها[1].

٢٩ - وعن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ أن رسول الله ﷺ قال : قال الله عز وجل : أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه حيث يذكرنى ، والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد **ضالته** بالفلاه ،

(١) أنظر مجمع الزوائد حـ ١٠ ص ٢١١ ، ٢١٢ فقد ورد الحديث عن عبدرب أنه سمع معاوية ، كما أورد أيضا رواية عبد الله بن عمرو قبله فى باب « مغفرة الله تعالى للذنوب العظام وسعة رحمته » .

ومن تقرب إلىَّ شبرا تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إلىَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإذا أقبل إلىَّ يمشى أقبلت إليه أهرول »[1] رواه مسلم واللفظ له والبخارى بنحوه .

المعنى : [عند ظن عبدى بى] : قال القاضى : معناه : بالغفران له إذا استغفر ، والقبول إذا تاب ، والإجابة إذا دعا ، والكفاية إذا طلب الكفاية ، وقيل المراد به الرجاء وتأميل العفو وهذا أصح . [معه حيث يذكرنى] : أى معه بالرحمة والتوفيق والهداية والرعاية وأما قوله تعالى ﴿ **وهو معكم أينما كنتم** ﴾ فمعناه بالعلم والإحاطة . [أفرح بتوبة عبده من أحدكم] : قال العلماء : فرح الله تعالى رضاه ، وقال المازرى : الفرح ينقسم إلى عدة وجوه : منها السرور والسرور يقاربه الرضا بالمسرور به فالمراد هنا : أن الله تعالى يرضى توبة عبده أشد مما يرضى واحد وجد ضالته بالغلاة فعبر عن الرضا بالفرح تأكيداً لمعنى الرضا فى نفس السامع ومبالغة فى تقريره .

بخ بخ .. أيها المسلم يحب الله لك التوبة : أى : ترجع إليه نادما مقصداً على درك الحسنات ، وتستعد للمستقبل فتعمل صالحاً ، ليشملك بعزه وبرضاه ، وتأمل فى الحديث . **رجل فى مفازه يملك** شيئاً نفيساً عزيزاً غالياً ثميناً فيفقده فلم يجده وضاع منه وصار يبحث عنه بجد وكد ثم وجده ما مقدار فرحه بالعثور على بغيته والحصول على ماله ؟ إنه لشديد الحبور ـــ والله تعالى كثير الرضا عن التائب أكثر من الذى وجد ما يهوى :

(أ) ﴿ **أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم** ﴾ المائدة : ٧٤ .

(ب) ﴿ **وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون * وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون * ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين * قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين * قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون** ﴾ الأنعام : ٦٠ - ٦٤

إن شاهدنا مراقبة الله تعالى لعبده أن جعل له ملائكة تحفظ أعماله ومع ذلك يعفو سبحانه فيثق العبد بلطف سيده ويعتمد على عفوه وستره ﴿ **مولاهم** ﴾ : الذى يتولى أمورهم ويحكم بالحق : أى : العدل ، ثم ساق لهم بعض نعمه ﴿ **تضرعا وخفية** ﴾ : معلنين ومسرين ﴿ **كرب** ﴾ : غم ولكن تعودون إلى الشرك ولا توفون بالعهد . فانظر إلى مدى حلم الله بعباده . ﴿ **ضالته** ﴾ : الشىء المفقود . ﴿ **الفلاه** ﴾ : الصحراء أى الأرض القفر .

٣٠ - وعن يزيد بن نعيم قال : سمعت أبا ذر الغفارى ـــ رضى الله عنه ـــ وهو على المنبر

---

(١) انظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢١٠٢ حديث رقم ١ / ٢٦٧٥ من رواية لأبى هريرة .

بالفسطاط يقول : سمعت النبى ﷺ يقول : « من تقرب إلى الله عز وجل شبراً تقرب إليه ذراعاً ومن تقرب إليه ذراعاً تقرب إليه باعاً ، ومن أقبل إلى الله عز وجل ماشياً ، أقبل إليه مهرولاً ، والله أعلى وأجل ، والله أعلى ، وأجل ، والله أعلى وأجل »[١]. رواه أحمد والطبرانى . وإسناهما حسن .

٣١ - وعن شريح هو ابن الحارث قال : سمعت رجلاً من أصحاب النبى ﷺ يقول : قال النبى ﷺ : قال الله عز وجل : « يا ابن آدم قم إلىّ أمش إليك وأمشِ إلىَّ أهرول إليك »[٢] . رواه أحمد بإسناد صحيح .

٣٢ - وعن أنس بن مالك ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : « لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعِيرِه وقد أضله بأرض فلاة »[٣] . رواه البخارى ومسلم .

٣٣ - وفى رواية لمسلم : لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت عنه ، وعليها طعامه وشرابه فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك « أخطأ من شدة الفرح »[٤].

المعنى : [أيس منها] : جرى وراءها فلم يمسكها . [فاضطجع] : استراح ونام . [قد أيس] : زال أمله وقل رجاؤه فى العثور عليها . [فأخذ بخطامها : زمامها وقبض عليه . [أخطأ من شدة الفرح] : هذا تمثيل لنهاية السرور الصادر من العبد الذى وجد ناقته ليقرب لك رضا الله تعالى بتوبة عبده والرجوع إليه والأخذ فى طاعته والشروع فى العمل الصالح له .

٣٤ - وعن الحارث بن سويد عن عبد الله ــ رضى الله عنه ــ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دوِّية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فنام فاستيقظ وقد ذهبت فطلبها حتى أدركه العطش ثم قال : أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده ليموت ،فاستيقظ وعنده راحلته عليها زاده وطعامه وشرابه فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده »[٥] . رواه البخارى ومسلم

---

(١) أنظر مسند الإمام أحمد حـ ٥ ص ١٥٥ فقد أورد الحديث بلفظه .

(٢) أنظر مسند الإمام أحمد حـ ٣ ص ٤٧٨ فقد أورد الحديث بلفظه عن سريج .

(٣) أنظر صحيح البخارى حـ ٤ ص ٩٩ « باب التوبة » فقد ورد الحديث من رواية لأنس
وأنظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢١٠٥ حديث رقم ٨ / ٢٧٤٧ فيه رواية لأنس غير أنه جاء فيها « إذا استيقظ على بعيره » والصحيح إذا سقط على بعيره .

(٤) أنظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢١٠٤ - ٢١٠٥ حديث رقم ٧ / ٢٧٤٧ من رواية لأنس

(٥) أنظر صحيح البخارى حـ ٤ ص ٩٩ فقد ورد الحديث من رواية للحارث بن سويد بألفاظ مختلفة .
وأنظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢١٠٣ فقد ورد الحديث رواية للحارث بن سويد مع اختلاف فى بعض ألفاظه ، وقد صححت رواية هذا الكتاب على رواية مسلم .

المعنى : [الدوية] : بفح الدال المهملة وتشديد الواو والياء جميعاً : هى الفلاة القفر والمفازة .

٣٥ – وعن أبى ذر ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قال رسول الله ﷺ : « من أحسن فيما بقى غفر له ما مضى ، ومن أساء فيما بقى أخذ بما مضى وبما بقى »(١) . رواه الطبرانى بإسناد حسن .

المعنى : [من أحسن فيما بقى] : أى تاب إلى الله وأخلص فى حياته الآتية المستقبلة سامحه الله وعفا عنه ما عمله فى الأزمان السابقة تفضلاً . [ومن أساء فيما بقى] : أخطأ فى مستقبله . [أخذ بما مضى وما بقى] : حاسبه الله على الأعمال الماضية والمستقبلة ففيه الترغيب فى التوبة رجاء ستر الله لما عمله سابقاً .

٣٦ – وعن عقبة بن عامر ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن مثل الذى يعملُ السيئات ثم يعمل الحسنات ، كمثل رجل كانت عليه درع ضيقة قد خنقته ثم عمل حسنة فانفكت حلقة ، ثم عمل حسنة أخرى فانفكت أخرى حتى تخرج إلى الأرض »(٢) . رواه أحمد والطبرانى بإسنادين . رواه أحدهما رواة الصحيح .

المعنى : [درع] : الزردية أى الواقية من الحديد أو النحاس . [خنقته] : ضيقت عليه وآلمته . [فانفكت] : انفرجت والمعنى : أن الحسنات تذهب السيئات وتفك المسلم من عقال ذنوبه وتدفع عنه السوء وتجعله فى بحبوحة الرخاء والسعادة ، كما قال تعالى : ﴿ **إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين** ﴾ سورة هود : ١١٤ .

٣٧ – وعن عبد الله بن عمرو ـــ رضى الله عنهما ـــ أن معاذ بن جبل أراد سفراً فقال يا رسول الله : أوصنى . قال : « أعبد الله لا تشرك به شيئا » قال : يا رسول الله ، زدنى قال : « إذا أسأت فأحسن قال : يا رسول الله زدنى ، قال : استقم وليحسن خلقك »(٣) . رواه ابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

المعنى : [فأحسن] : فاجتنب الخطأ وأجد فى عملك وأكثر من الصالحات . [وليحسن خلقك] : يزيد أدبك وتتحلى بمكارم الأخلاق وتتصف بالمحامد والمحاسن والكمال .

٣٨ – ورواه الطبرانى بإسناد ورواته ثقات : عن أبى سلمة عن معاذ قال : قلت : يا رسول الله ، أوصنى ، قال : « أعبد الله كأنك تراه وأعدد نفسك فى الموتى وأذكر الله عند كل حجر وعند كل شجر وإذا عملت سيئة فأعمل بجنبها حسنة السر بالسر والعلانية بالعلانية »(٤) وأبو سلمة لم يدرك معاذاً .

---

(١) انظر كنز العمال حـ ٤ ص ٢٤٤ حديث رقم ١٠٣٥٧ فقد أورد الحديث عن ابن عساكر من رواية لأبى ذر .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد حـ ٤ ص ١٤٥ فقد أورد الحديث من رواية لعقبة بن عامر

(٣) انظر الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان حـ ١ ص ٣٧٠ – ٣٧١ فقد أورد الحديث من رواية لمعاذ تحت رقم ٥٢٥ .

(٤) انظر مجمع الزوائد حـ ٤ ص ٢١٨ فقد ورد الحديث من رواية لمعاذ .

– ورواه البيهقى فى كتاب الزهد من رواية إسماعيل بن رافع المدنى ، عن ثعلبة بن صالح ، عن سليمان بن موسى ، عن معاذ قال : أخذ سيدى رسول الله ﷺ فمشى قليلاً ثم قال يا معاذ : أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث ووفاء العهد ، وأداء الأمانة ، وترك الخيانة ، ورحم اليتيم ، وحفظ الجوار ، وكظم الغيظ ، ولين الكلام ، وبذل السلام ، ولزوم الإمام ، والنفقه فى القرآن ، وحب الآخرة ، والجزع من الحساب ، وقصر الأمل ، وحسن العمل ، وأنهاك أن تشتم مسلماً ، أو تصدق كاذباً ، أو تكذب صادقاً ، أو تعصى إماماً عادلاً ، وأن تفسد فى الأرض ــ يا مُعاذ ، أذكر الله عند كل شجر وحجر وأحدث لكل ذنب توبة . السر بالسر والعلانية بالعلانية[١].

المعنى : [كأنك تراه] : أى تستحضر أن الحق مطلع عليك ومراقب أفعالك [متظهر] : دوحة الخشوع بمعرفة جلالته وعظمته وتزداد خشيته سبحانه أمامك فنخلص العمل وتفرغ قلبك لمناجاته جل وعلا فدائماً تستمر على التذلل له والإحسان فى كل ما يسند إليك رجاء ارضاء من يراك . وفى الفتح وقد ندب أهل التحقيق إلى مجالسة الصالحين ليكون ذلك مانعاً من التلبس بشىء من النقائص احتراما لهم واستحياء منهم فكيف بمن لا يزال الله مطلعاً عليه فى سره وعلانيته وفى مجلس العلم حضر جبريل عليه السلام فسأل النبى ﷺ عن الإحسان ؟ قال : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . [وأعدد نفسك فى الموتى] : أى ازهد ولا تطمع فى الدنيا بكثرة العمل واستعد للآخرة بقرب الأجل كأنك مع من ماتوا فيسألهم ربهم عن أعمالهم فكأنك تحت الطلب كما قال تعالى : **﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ ، فأدّ ماعليك من الديون . [عند كل حجر] : أى : رأيت آثاره البديعة فى خلقه فسبحه وأحمده وأشكر له نعمه ، وأعلم أن كل صنعة لابد لها من صانع ويعدد الله لنا بعض صنائعه لنوحده كما قال تعالى :**

(أ) **﴿ أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ﴾ النمل : ٦٠**

(ب) **﴿ وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴾** الحجر : ٢٢

(جـ) **﴿ وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهوراً * لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسى كثيراً * ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾** الفرقان : ٤٨ – ٥٠

يسوق الله تعالى هذه الدلائل ليتأمل العبد فى بدائع قدرته وجمال حكمته فيذكره .

---

(١) أنظر كنز العمال حـ ١٠ ص ٥٩٤ حديث رقم ٣٠٢٩١ باب « بعث معاذ » فقد هذا الحديث ضمن حديث طويل لمعاذ وقال رواه ابن عساكر وفيه ركن الشامى متروك .

﴿ فاعمل بجنبها حسنة ﴾ : بعدها عملاً صالحاً يمحو أثرها بعد التوبة . ﴿ تقوى الله ﴾ : خشية والرهبة منه بإخلاص القلب ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ .

قال النسفي : أي : في أوامره فلا تخالفوها وعبر عن الآخرة بالغد كأن الدنيا والآخرة نهادان وكرر بالتقوى تاكيدا أو اتقوا الله فى أداء الواجبات لأنه قرن بما هو عمل ، واتقوا الله فى ترك المعاصى لأنه قرن بما يجرى مجرى الوعيد وهو أن الله خبيز . وفيه تحريض على المراقبة لأن من علم وقت فعله أن الله مطلع على ما يرتكب من الذنوب يمتنع عنه . ﴿ صدق الحديث ﴾ : القول يطابق الواقع والأخبار توافق الحق . ﴿ وفاء العهد ﴾ : تنفيذ ما اتفق عليه كما قال تعالى . ﴿ وأوفو بعهد الله إذا عاهدتم ولاتنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴾ النحل ٩١

قال البيضاوى : أى البيعة لرسول الله ﷺ وأنا أقول : وأيضاً الوفاء بالعمل بكتاب الله تعالى وسنة رسوله والتحلى بمكارم الأخلاق

﴿ أداء الأمانة ﴾ : المحافظة على الوديعة وتسليمها وحفظ الأسرار للأخبار والابتعاد عن السرقة والأذى وفعل الإضرار . ﴿ رحم اليتيم ﴾ : أى الرأفة بالذى مات والده وتقديم الخير والمساعدة له وإكرامه والعناية بشئونه ومراعاة تثمير ماله وحفظ وعدم إغتياله أو إضراره ، كما قال تعالى : ﴿ فاما اليتيم فلا تقهر ﴾ الضحى : ٩ . ﴿ حفظ الجوار ﴾ : إكرام الجار ومراعاة حرمته وتقديم صنوف الخير له كما قال تعالى : ﴿ والجار ذى القربى والجار الجنب ﴾ أى : الذى قرب جداره وقيل : الذى له مع الجوار قرب واتصال بنسب أو دين ، والجنب البعيد الذى لأقرابة له وعنه عليه الصلاة والسلام « الجيران ثلاثة فجار له ثلاث حقوق : حق الجوار وحق القرابة وحق الإسلام ، وجار له حقان حق الجوار وحق الإسلام ، وجار له حق واحد وهو المشرك من أهل الكتاب »[(١)].

﴿ كظم الغيظ ﴾ : الإمساك عن الغضب وحبس الانتقام والكف عن إمضاء العقاب كما قال تعالى ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ . ﴿ لين الكلام ﴾ : طيبه وعذوبة ألفاظه وبديع أسلوبه وحسن خطابه ورشيق عباراته كما قال الشاعر :

فيــه السماحــة والفصاحــة والتقــى .. والبــأس أجمــع والحجــى والخير

﴿ بذل السلام ﴾ : إفشاؤه كما قال ﷺ حينما سئل : « تقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف »[(٢)] قال القسطلانى من المسلمين فلا تخص به أحداً تكبداً وتجبراً . (لزوم الإمام) : اتباع أوامر الحاكم وإستماع نصائحه وطاعته وعدم بث الفتن ضده كما قال تعالى : ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾ من سورة النساء .

---

(١) انظر كنز العمال جزء ٩ ص ٥١ حديث رقم ٣٤٨٩١ فقد أورد الحديث عن البزار وأبو الشيخ فى الثواب والحلية عن جابر .

(٢) سنن ابن ماجه حـ ٢ ص ١٠٨٣ وهو جزء من الحديث رقم ٣٢٥٣ .

وملازمة العلماء ومجالسة الأخيار الأبرار الأصفياء وحضور الجماعات فى المسجد وإختيار الأصحاب فى الله لله .

﴿ **والتفقه فى القرآن** ﴾ : كفهم آياته والتبحر فى معرفة أسراره والعكوف على تلاوته والإكثار من ذكره والتفكر فى معناه كما قال تعالى :

(أ) ﴿ **ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب** ﴾ البقرة : ٢٦٩

(ب) ﴿ **وقال تعالى : ولقد آتينا لقمان الحكمة أن أشكر لله** ﴾ لقمان : ١٢

(جـ) وقوله ﷺ « ومن يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين »

﴿ **حب الآخرة** ﴾ : الاستعداد ليوم القيامة والإيمان به لأنه لابد منه كما قال تعالى : ﴿ **وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور** ﴾ الحج : ٧

﴿ **الجزع من الحساب** ﴾ : الخوف من يوم تشتد فيه الأهوال وتعظم فيه المسئولية كما قال تعالى : ﴿ **وقفوهم إنهم مسئولون * مالكم لاتناصرون * بل هم اليوم مستسلمون * وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون * قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين * قالوا بل لم تكونوا مؤمنين * وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين * فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون * فأغويناكم إنا كنا غاوين * فانهم يومئذ فى العذاب مشتركون * إنا كذلك نفعل بالمجرمين *** ﴾ الصافات : ٢٤ — ٣٤ .

أى : احبسوهم فى الموقف فإنهم مسئولون عن عقائدهم وأعمالهم .(مستسلمون) منقادون لعجزهم وانسداد الحيل عليهم يسأل الرؤساء والأتباع . وبين الله تعالى سبب عقابهم ﴿ **إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون * ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين إنكم لذائقوا العذاب الأليم * وماتجزون إلا ما كنتم تعملون * إلا عباد الله المخلصين * أولئك لهم رزق معلوم * فواكه وهم مكرمون * فى جنات النعيم** ﴾ الصافات : ٣٥ — ٤٣ .

أرأيت هذه الحكاية يمثلها الله تعالى لعباده المصدقين الآن العاملين بالكتاب والسنة ليخشوا الله ويستعدوا ليوم ، وصفه الرب جل جلاله ﴿ **لله مافى السموات ومافى الأرض وإن تبدوا مافى أنفسكم او تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شىء قدير آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير** ﴾ البقرة : الآيتان : ٢٨٤ — ٢٨٥ .

﴿ **قصد الأمل** ﴾ : عدم استرسال الأمانى الحلوة والركون إلى زخارف الدنيا بانتظار سعة الرزق وزيادة الأموال وتشييد القصور وتسويف فى عمل البر وفعل الخير وتأجيل غرس الصالحات وبذر الطيبات فالمؤمن يقنع ويجد ويعمل عملاً طيباً من وقته .

﴿ **وأنهاك أن تشتم مسلماً** ﴾ : يحذر من سب المسلم وأذاه والركون إلى الكاذب الفاجر أو يرد كلام الصالح المتقى ويغير أقواله افتراء عليه أو يعلن الحرب على رئيسه ويخاصمه ويوقد نار العداوة ويبث الفتن والمخالفة وقد اشترط ﷺ الطاعة بالعدل واتباع الحق . أما إذا خالف الإمام وفعل ما يغضب ربه فليجتنبه فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

بل الإنسان يركن إلى ربه ويخشاه ويؤدى حقوقه ، ولا يخاف إلا ربه وحده ، يريد ﷺ أن يتحلى المسلم بست عشرة صفة : الخوف الداعى إلى إيجاد الصالحات ، الصدق ، الوفاء ، الأمانة ، الشرف والضمير التقى ، مراقبة الخالق ، العطف على المسكين واليتيم ، حسن الجوار ، حبس النفس عن الغضب وطيب القول وإنشاء التحية وموافقة الأمير ، والتزود بتعليم الكتاب والسنة والاستياق إلى ملاقاة الرب جل وعلا مع الاعتقاد بالجزاء خيرا وإن شرا وعدم الغرور وكبح جماح الشيطان الغرور الذى يبعث الشر والجشع وجمع الدنيا والضرب لهم فى الأعمال الصالحة وإصابة المرمى فى تشييد المكارم ووجود آثارها ظاهرة جليلة (قيمة المرء ما يحسنه) قال المتنبى :

ومـن يجـد الطـريـق إلى المعـالى فـلا يـذر المطـى بلا سنـام
ولـم أر فى عيـوب النـاس شيئـاً كنقـص القادريـن علـى التمـام

*****

ومن ينفق السـاعات فى جمـع مـالـه مخافـة فقـر فالـذى فعـل الفقـر
عليكـم بدارى فاهدموهـا فإنهـا تراث كـريم لا يخـاف العواقـب
إذا هـم ألقـى بين عينيـه عزمـه وأعـرض عـن ذكـر العواقـب جانبـاً
ولـم يستشـر فى رأيـه غـير نفسـه ولم يرض إلا قائـم السيـف صاحبـا

٣٩ - وعن أبى ذر ومعاذ بن جبل رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال : « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن »[1] . رواه الترمذى . وقال : حديث حسن .

المعنى : [اتق الله] : أى احسن لله سبحانه فى كل زمان ومكان وراقبه واعلم أنه مطلع عليك فلا تعصه . قال النووى : أى اتقه فى الخلوة كما تتقيه فى الجلوة بهذه الناس كما قال تعالى : ﴿ **ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم** ﴾ . الآية من سورة المجادلة . والتقوى كلمة جامعة لفعل الواجبات وترك المنهيات .

[اتبع السيئة الحسنة] : أى إذا أخطأت فتب واشفعها بفعل صالح ليزيل أثر ما بدر منك ويعد ما تركته الهفوة من حفوة . قال النووى : أى إذا فعلت سيئة فاستغفر الله تعالى منها وافعل بعدها

(١) انظر سنن الترمذى حـ ٣ ص ٢٣٩ حديث ٢٠٥٣ فقد أورد الحديث عن أبى ذر .

حسنة تمحها . هذه السيئة المتعلقة بحق الله تعالى ، أما السيئة المتعلقة بحق العباد من الغضب والغيبة والنميمة فلا يمحوها إلا الإستحلال من العباد ولابد أن يعني له جهة الظلامة فيقول قلت عليك كيت وكيت . وفى الحديث دليل على أن محاسبة النفس واجبة قال ﷺ « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا » وقال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد** ﴾ من سورة الحشر .

[بخلق حسن] : استعمل مع العالم حسن المعاملة بإظهار الأدب ولين الجانب والبشاشة واللطف والحلم . قال النووى : الخلق الحسن كلمة جامعة للإحسان إلى الناس وإلى كف الأذى عنهم . ولنا قدوة حسنة بسيدنا المصطفى ﷺ فقال له جبريل عليه السلام حين نزل قوله تعالى : ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ قال فى تفسير ذلك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطى من حرمك وقال تعالى :

(أ) ﴿ **ادفع بالتى هى أحسن** ﴾

(ب) ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾

كان ﷺ خلقه القرآن يأتمر بأمره ويتزجر بزواجره ويرضى لرضاه ويسخط لسخطه عليه الصلاة والسلام وفى الحديث بيان أن المرء يسود بثلاثة ويرقى إلى العلياء :

(أ) تقوى الله فى السر والعلانية .

(ب) فعل الخير وإيجاد البر الجالب لحسن المعاملة .

(جـ) مكارم الأخلاق والتحلى بآداب الشرع ولابن الوردى :

سارع إلى فعل الجميل وقلد الـ ... أعناق حسنى فالزمان عوارى
واجعل إلى الأخرى بدارك بالتقى ... تغنم فما الدنيا بدار قرار
وتوخ فعل المكرمات تبرعا ... فالمكرمات حميدة الآثار
كن عالماً فى الناس أو متعلماً ... أو سامعاً فالعلم ثوب فخار
من كل فن خذ ولا تجهل به ... فالحر مطلع على الأسرار
والعلم مهما صادف التقوى يكن ... كالريح إذ مرت على الأزهار
هل يستوى العلماء والجهال فى ... فضل أم الظلماء كالأنوار

*****

لا ظل للمرء عن تقى ورضا ... وإن أظلته أوراق وأفنان
لا تغد بشباب ناعم خضل ... فكم تقدم قبل الشيب شبان

فالـــروض يزدان بالأنـــوار ناعمـــه   والحـــر بالعـــدل والإحســـان يزدان

*****

٤٠ – وروى أحمد بإسناد جيد عن أبى ذر ومعاذ بن جبل رضى الله عنهما : أن النبى ﷺ قال : ستة أيام ثم أعقل يا أبا ذر ما يقال لك بعد فلما كان اليوم السابع قال : أوصيك بتقوى الله فى سر أمرك وعلانيته وإذا أسأت فأحسن ولا تسألن أحداً شيئاً وإن سقط سوطك ولا تقبض أمانة ، ولا تقض بين اثنين[1]

المعنى : [ستة أيام] : أى انتظر ستة أيام وتمهل ثم افهم الذى أقوله لك من حسن المواعظ ولباب الإرشاد . [وإن سقط سوطك] : أى اعتمد على الله وعلى نفسك فى قضاء مصالحك واترك التواكل والتباطؤ وتعهد شؤونك بنفسك وصغير الأمور ككبيرها وإن ركبت وسقطت عصاك فأنزل وخذها وقوى نفسك العزيمة والإعتماد على النفس وقوة الإرادة . والسوط معروف وجمعه أسواط وسياط قال تعالى : ﴿ **سوط عذاب** ﴾ أى ألم سوط عذاب والمراد الشدة والمراد فى الحديث لاتتهاون ولا تطلب شيئاً من أحد ولو سقط مافى يدك فعلى حقارته هانة . [ولاتقبض أمانة] : لا تودع عندك أمانة خشية أن لا تقوم بحفظها وتؤديها كاملة تامة ينصح ﷺ بأربعة :

(أ) التقـوى

(ب) إتقان العمل والتوبة عند الإساءة ثم الإحسان

(جـ) الاعتماد على النفس

(د) عدم قبول الودائع إذ آنس الإنسان عدم حفظها وقد بين الله تعالى فوائد التقوى فى قوله عز شأنه :

١ – ﴿ **ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ . الطلاق .

٢ – ﴿ **ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شىء عليم** ﴾ . التغابن .

٣ – ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ . الطلاق .

٤ – ﴿ **ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا** ﴾ . الطلاق .

٥ – ﴿ **ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا** ﴾ . الطلاق .

فأنت ترى سيدنا رسول الله ﷺ يشوق أبا ذر للدرس الجديد ويشوق المرغبات والمحسنات ويدعوه إلى العمل بما يقوله ﷺ وتفهمه وعض النواجز على إدراكه وفهمه رجاء أن يثمر أدب الشرع .

وإنمـــا المـــرء حـــديث بعـــده   فكـــن حديثـاً حسنـاً لمـــن وعـــى

(١) أنظر مسند الإمام أحمد جـ ٥ ص ١٨١ فقد أورد الحديث من رواية لأبى ذر .

مــا اعتـن لى بـأس يناجـى همتــى إلا تحـداه رجـــاء فاكتمـــى

٤١ – وعن أبى ذر – رضى الله عنه – قال : قلت يا رسول الله : أوصنى . قال : إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها . قال : قلت : يا رسول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله ، قال : هى أفضل الحسنات[١] . رواه أحمد عن شمر بن عطية عن أشياخه عن أبى ذر .

المعنى : [أمن الحسنات لا إله إلا الله ؟] : سأله أبو الدرداء رضى الله عنه كلمة التوحيد فعدها ﷺ من أفضل أعمال البر ففيه التوبة والذكر والتسبيح والدعاء والصدقات وأنواع الطاعة تعد الحسنات فتجلب رضا الله تعالى وإحسانه .

٤٢ – وعن عبد الله – رضى الله عنه – قال : إن رجلاً أصاب من إمرأة قبلة وفى رواية جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله إنى عالجت إمرأة فى أقصى المدينة وإنى أصبت منها ما دون أن أمسها فأنا هاذا فاقض فى ما شئت فقال له عمر لقد سترك الله لو سترت نفسك . قال : فلم يرد النبى ﷺ شيئاً فقام الرجل فانطلق فأتبعه النبى ﷺ رجلاً دعاه وتلا عليه هذه الآية ﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين** ﴾[٢]. فقال رجل من القوم : يا نبى الله هذا له خاصة ؟ قال : بل الناس كافة[٣] . رواه مسلم وغيره .

المعنى : [دون أن أمسها] : أى شيئاً غير ملامستها ومجامعتها . [فأنا هاذا] : أنا واقف بين يديك خاضع لحكم الله فى تنفيذ حده . [لقد سترك الله] : أى فعلت هذا والله تعالى لم يفضحك بإظهار عملك للناس . [طرفى النهار] : الصبح والظهر والعصر . [زلفاً من الليل] : المغرب والعشاء ويدخل فيه ساعة السحر التهجد والإستغفار والندم والتضرع إلى القادر جل وعلا التواب . [إن الحسنات يذهبن السيئات] : أى الصالحات وفروع العبادة . قال النووى : معنى الحديث أى تناولت واستمتعت بها . والمراد بالمس الجماع . ومعناه استمتعت بها بالقبلة والمعانقة وغيرهما من جميع أنواع الاستمتاع إلا الجماع . [كافة] : أى كلهم .

هكذا تستعمل كافة حالا ، ولا يضاف فيقال : كافة الناس ولا الكافة وهذا تصريح بأن الحسنات تكفر السيئات . واختلفوا فى المراد بالحسنات هنا : فنقل الثعلبى أن أكثر المفسرين على أنها الصلوات الخمس واختاره ابن جرير وغيره من الأئمة . وقال مجاهد : هو قول العبد : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ويحتمل أن المراد الحسنات مطلقاً . [ذكرى للذاكرين] : عظة للمتعظين ﴿ **واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾[٤].

٤٣ – وعن أبى طويل شطب الممدود أنه أتى النبى ﷺ فقال : أرأيت من عمل الذنوب كلها

(١) انظر مسند الإمام أحمد حـ ٥ ص ١٦٩ فقد ورد الحديث من رواية لأبى ذر .
(٢) سورة هود : آية ١١٤ .
(٣) انظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢١١٦ – ٢١١٧ حديث رقم ٤٢ / ٢٧٦٣ من رواية لعبد الله بن مسعود بلفظه .
(٤) سورة هود : آية ١١٥

فلم يترك فيها شيئاً وهو فى ذلك لم يترك حاجة ولا داجة إلا أتاها : فهل لذلك من توبة ؟ قال : فهل أسلمت ؟ قال : فأما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . قال : تفعل الخيرات وتترك السيئات فيجعلهن الله لك خيرات كلهن . قال : وغدراتى وفجراتى ؟ قال : نعم قال : الله أكبر ، فمازال يكبر حتى توارى[١] . رواه البزار والطبرانى واللفظ له وإسناده جيد قوى .

المعنى : [الحاجة] : الصغيرة ، [والداجة] : الحاجة الكبيرة . [تفعل الخيرات] : تعمل صالحاً وتجعل لك فى الطيبات ذكرا حسنا وتتقى الله وتجتنب المعاصى ليبدل الله ذنوبك حسنات كما قال تعالى : ﴿ **إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً * ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متابا** ﴾[٢].

أو قد عزم الرجل على فعل الخير ومنها المحافظة على الصلاة وقد رأيت قول من أصاب قبلة هذه الآية لى أى صلاتى مذهبة لمعصيتى مختصة بى أو عامة للناس كلهم .

وقال القسطلانى : فيه عدم الحد فى القبله ونحوه وسقوط التعذير عمن أتى شيئاً منها وجاء تائباً نادماً .

وقال ابن المنذر : فيه أنه لاحد على من وجد مع أجنبية فى لحاف واحد

[عذراتى] : أفعالى الذميمة التى نقضت فيها العهد ونكثت وخُنت ، يقال : غدر به : نقض عهده . [فجراتى] : إرتكابى المعاصى وفعل الموبقات . من فجر العبد فجوراً : فسق وزنى وفجر الحالف فجوراً وكذب . وفى النهاية : التجار يبعثون يوم القيامة فجاراً إلا من اتقى الله . الفجار جمع فاجر وهو المنبعث فى المحارم والمعاصى . [نعم] : أجاب ﷺ بغفران ذنوبه إذا تاب وأناب . [تبارى] : إختفى عن أيمن الناظرين إليه ففيه الترغيب بالسرعة فى الرجوع إلى من فتح أبواب التوبة لعباده رجاء إدراك رحمته إنه غفور رحيم شكور ﴿ **ومن يغفر الذنوب إلا الله** ﴾ .

آيات الترغيب فى التوبة من الذنوب

١ – قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه** ﴾[٣].

٢ – وقال تعالى : ﴿ **وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون** ﴾[٤].

(١) أنظر مجمع الزوائد حـ ١٠ ص ٢٠٢ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أبى طويل . وقال رواه الطبرانى والبزار

(٢) سورة الفرقان : الآيتان ٧٠ – ٧١ .

(٣) سورة التحريم : آية ٨ .

(٤) سورة النور : آية ٣١ .

٣ - وقال : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون * أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾[(١)].

٤ - وقال عز شأنه ﴿ أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ﴾[(٢)].

٥ - وقال عز شأنه ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً * وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليما ﴾[(٣)].

٦ - وقال تعالى : ﴿ ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا ﴾[(٤)].

٧ - وقال تعالى : ﴿ فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ﴾[(٥)].

٨ - وقال تعالى :﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾[(٦)].

٩ - وقال تعالى : ﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾[(٧)].

١٠ - وقال تعالى : ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفارا ﴾[(٨)] .

١١ - وقال تعالى : ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير * إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير ﴾[(٩)] .

---

(١) سورة آل عمران : الآيتان ٢٥ - ٢٦ .
(٢) سورة المائدة : آية ٧٤ .
(٣) سورة النساء : الآيتان : ١٧ - ١٨ .
(٤) سورة الفرقان : الآية ٧١ .
(٥) سورة غافر : الآية ٧ .
(٦) سورة الفرقان : الآية ٧ .
(٧) سورة الزمر : الآية ٥٣ .
(٨) ،سورة نوح : الآية ١٠ .
(٩) سورة هود : الآيتان ٣ - ٤ .

حقيقـة التوبــة

قال الغزالى : التوبة عبادة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور : علم وحال وفعل .

أما العلم معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجاباً بين العبد وبين كل محبوب فإذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم القلب بسبب فوات المحبوب فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت محبوبه ندماً إذا غلب هذا الألم على القلب واستولى انبعث من هذا الألم فى القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصداً إلى فعل له تعلق بالحال وبالماضى وبالاستقبال أما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذى كان ملابساً له وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب إلى آخر العمر وأما بالماضى فيتلاقى مافات بالجبر والقضاء إن كان قابلاً للجبر ، فالعلم هو الأول وهو مطلع هذه الخيرات وأعنى بهذا العلم والإيمان واليقين فان الايمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سموم مهلكة ، واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب ، فيثمر نور هذا الإيمان مهما أشرف على القلب نار الندم ، فيتألم بها القلب بحيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنه صار محجوباً عن محبوبه كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان فى ظلمة ، فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب أو انحار حجاب ، فرأى محبوبه وقد أشرف على الهلاك ، فتشتعل نيران الحب فى قلبه ، وتنبعث تلك النيران بإرادته للانتهاض للتدارك ، فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك فى الحال والاستقبال والتلافى للماضى ثلاثة معان مرتبة فى الحصول ، بمنطلق اسم التوبة على مجموعها ، وكثيراً ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ، ويجعل العلم كالساق والمقدمة ، والترك كالثمرة . والتابع المتأخر وبهذا الإعتبار قال عليه الصلاة والسلام : « الندم توبة »[1] إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره وعن عزم يتبعه ويتلوه قيل فى حد التوبة إنه دومان الحشا لما سبق من الخطأ أو نار فى القلب تلتهب وصدع فى الكبد لا ينشعب أو خلع لباب الجفاء ونشر بساط الوفاء . وقال سهل بن عبد الله التسترى : التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة ولا يتم ذلك إلا بالخلوة والصمت وأكل الحلال .

وأعلم أن وجوب التوبة ظاهر بقوله ﷺ من حديث مسلم : « يا أيها الناس توبوا إلى الله »[2] وقول الله تعالى : ﴿ **وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون** ﴾[3].

وقول الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا** ﴾[4] والنصوح الخالص لله

---

(١) انظر مسند الإمام حـ ١ ص ٣٧٦ فقد ورد الحديث من رواية من ابن مسعود .

(٢) أنظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢٠٧٥ - ٢٠٧٦ « باب مستجاب الاستغفار والاستكثار منه » حديث رقم ٤٢ / ٢٧٠٣ من رواية لأبى بردة .

(٣) سورة النور : ٣١ .

(٤) سورة التحريم : آية ٨ .

تعالى الخالى من الشوائب ويدل على فضل التوبة قول الله تعالى : ﴿ **إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين** ﴾[١] .

قال الغزالى : وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته وشرح الله بنور الإيمان صدره حتى اقتدر على أن يسعى بنوره الذى بين يديه فى ظلمات الجهل ، مستغنيا عن قائد يقوده فى كل خطوة ، فالسالك إما أعمى لا يستغنى عن القائد فى خطوه ، وإما بصير يهدى إلى أول الطريق ثم يهتدى بنفسه . وكذلك الناس فى طريق الدين إما قاصر يفتقر إلى سماع نص من كتاب الله وسنة رسوله ، أو سعيد يتنبه بأدنى إشارة لسلوك طريق معوصه وقطع عقبات متعبة ويشرق فى قلبه نور الإيمان . ثم قال : معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله المقرب إلى الشيطان ، ولا يتصور إلا من عاقل ولا تكمل غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة التى هى وسائل الشيطان إلى إغراء الإنسان والشهوات جنود الشيطان ، والعقول جنود الملائكة وتكمل الشهوات فى الصبا والشباب فإن كمل العقل وقوى كان أول شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارقة العادات الملازمة للإنسان كما حكى الله تعالى عن إبليس ﴿ **لأحتنكن ذريته إلا قليلاً** ﴾[٢] وقد قيل :

فـلا تحسـنى هنـداً لها العـذر وحدهـا   سجيـــة نفس كل غانيـــة هنـــد

فالتوبة فرض عين فى حق كل شخص . وكل بشر لا يخلو عن معصية بجوارحه إذ لم يخل عنه الأنبياء كما ورد فى القرآن والاخبار من خطايا الأنبياء وتوبتهم وبكائهم على خطاياهم ، فإن خلا فى بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب أو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله تعالى ، أو لا يخلو عن غفلة وقصور فى العلم بالله وصفاته وأفعاله وكل ذلك نقص ولهذا قال عليه الصلاة والسلام « إنه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة »[٣] الحديث . ولهذا أكرمه الله تعالى : ﴿ **ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر** ﴾[٤] الفتح .

وإذا كان هذا حاله فكيف حال غيره ؟

وفى بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب :

أولاً : الإصرار والمواظبة .

ثانياً : وأن يستصغر الذنب .

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٢٢ .

(٢) سورة الاسراء : آية ٦٢ .

(٣) أنظر كنز العمال حـ ١ ص ٤٧٦ فقد ورد الحديث برقم ٢٠٧٥ عن الأغر المزنى وانظر مسند الإمام أحمد حـ ٤ ص ٢٦٠ فقد ورد الحديث من رواية للأغر المزنى .

(٤) سورة الفتح : آية ٢ .

ثالثا : وأن يفرح بالصغيرة ويتبجح بها .

رابعاً : وأن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وإمهاله إياه كما قال تعالى : ﴿ **ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير** ﴾(١)

خامساً : أن يذكر الذنب بعد إتيانه أو يأتيه فى مشهد غيره .

سادساً : أن يكون المذنب عالماً يقتدى به .

وفى شروط التوبة :

١ – الندم : أى توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب وعلامته طول الحسرة وإنسكاب الدمع وطول البكاء والفكر .

٢ – أن يكون بطلان النزوع بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة إذ بلغ مبلغا قمع هيجان الشهوة حتى تأدبت بأدب الشرع .

وفى بيان أقسام العباد فى دوام التوبة :

أولاً : أن يتوب العاصى ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره فيتدارك ما فرط من أمره ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه وتسمى التوبة النصوح .

ثانياً : تائب سلك طريق الاستقامة فى أمهات الطاعات وترك كبار الفواحش كلها ، إلا أنه ليس ينفك عن ذنوبه ، يقترفها لا عن عمد وتجريد قصد ولكن يبكى بها ثم يندم وتسمى النفس اللوامة والأولى النفس الساكنة المطمئنة الراضية ، قال تعالى : ﴿ **الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة** ﴾ من سورة النجم آية ٣٢ .

ثالثاً : أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ، ثم تغلبه الشهوة فى بعض الذنوب فتقدم عليها عن صدق وقصد شهوة ، لعجزه عن قهر الشهوة ألا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات ، وترك جملة من الذنوب مع القدرة ، والشهوة وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان ، وهو يود لو أقدره الله تعالى على قمعها وكفاه شرها . وعند الفراغ يتندم وتسمى النفس المسولة ، وصاحبها من الذين قال الله فيهم ﴿ **وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم** ﴾ سورة التوبة آية ١٠٢ .

رابعاً : أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ، ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ، ومن غير أن يتأسف على فعله ، بل ينهمك تنهماك الغافل فى اتباع شهواته ، فهذا من جملة المصرين وهذه النفس هى الأمارة بالسوء الفرارة من الخير ويخاف على هذا سوء الخاتمة : وأمره فى مشيئة الله تعالى نسأل الله حسن الخاتمة .

ثم بين الغزالى أن الحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب بالتضرع إلى الله تعالى فى

(١) سورة المجادلة : آية ٨ .

سؤال المغفرة والعفو ، ويتذلل تذلل العبد الآبق ونعيم الخير للمسلمين والعزم على الطاعات ، وإما باللسان فبالاعتراف بالظلم والاستغفار ، فيقول : ربى ظلمت نفسى وعملت سوءاً فاغفرلى ذنوبى ويكثر من ضروب الاستغفار ، وإما بالجوارح فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات ، وفى الآثار ما يدل على أن الذنب إذا أتبع بثمانية أعمال كان العفو عنه مرجوا :

أربعة من أعماق القلب وهي : التوبة أو العزم على التوبة ، وجب الإقلاع عن الذنب ، ويخوف العقاب عليه ، ورجاء المغفرة له .

وأربعة من أعمال الجوارح وهى : أن تصلى عقب الذنب ركعتين ، ثم تستغفر الله تعالى بعدها سبعين مرة . وتقول : سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة ، ثم تتصدق بصدقة ، ثم تصوم يوما .

وفى بعض الآثار تسبغ الوضوء . وتدخل المسجد وتصلى ركعتين .

وفى بعض الأخبار تصلى أربع ركعات .

وكان بعض الصحابة يقول : كان لنا أمانان ذهب أحدهما وهو كون الرسول فينا ، وبقى الاستغفار معنا فإن ذهب هلكنا ، قال تعالى : ﴿ **وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون** ﴾ . سورة الأنفال آية ٣٣ .

فوائد التوبة كما قال ﷺ

١ – يتجلى الله تعالى على التائب برضوانه وإحسانه « يبسط يده » .
٢ – تفتح له أبواب رحماته فتدركه نعمه « باب مفتوح » .
٣ – تدل توبته على سعادته وإنعامه وقبوله .
٤ – يعد من خير الناس التواب .
٥ – يسعه حلم الله وعفوه « غفرت لعبدى » .
٦ – ويجلى قلبه بالتوبة ويزيل الصدأن « ألران » .
٧ – يدخل فى الصالحين الذين زهدوا فى الذهب واختاروا التوبة « الصفا ذهبا » .
٨ – يغير التائب صحائف أعماله بأحسن منها بتشييد الصالحات والمحامد « فأحدث توبة » .
٩ – يأمل التائب أن ينال من خيرات الله وكراماته « النادم يتنظر » .
١٠– ربما تصادفه العناية بالسعادة بسبب التوبة فيدخل الجنة « الكفل » .
١١– قد تكون العزيمة مسببة لغفران الكبائر « قاتل مائة » .
١٢– يحظى بفرح ربه به « لله أفرح » .

١٣- يقبل الله تعالى على التائب أضعاف أضعاف إقبال عبده عليه بطاعته « أهرول »

١٤- يوسع التائب على نفسه ويزيل الضيق ويذهب الهم ويبعد الكروب « عمل حسنة فانفكت حلقة » .

١٥- يعمل التائب بسنة رسول الله ﷺ وبوصيته « إن أسأت فأحسن » وقد سمى علماء الصوفية النفس بحسب قربها إلى ربها بالطاعة وإخلاص العبادة والاستقامة :

(أ) المطمئنـــة (ب) اللوامـــة

(جـ) المســولة (د) الأمــارة بالســوء

هل تجدد معى التوبة لله ونعزم على طاعة الله والعمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ رجاء أن يقبلنا الله الذى غمرنا بنعمائه ، وحبانا بأفضاله ، الجدير بعبادته والإخلاص له والخوف منه كما قال تعالى : ﴿ **أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم * قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون * قل هو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون** ﴾[1]

المعنى : ﴿ **مكباً** ﴾ : يعثر كل ساعة ويعصى ربه كل وقت ويخر على وجهه صاغرا غير معتمد على ربه الرزاق . ﴿ **سوياً** ﴾ : مطيعاً قائماً على الحق مرتكنا إلى القوى ربه . سالما من الأخطاء ، وتكرم الخالق جل وعلا بخلق الحواس لتنتفعوا بها فتسمعوا المواعظ وتنظروا صنائعه فتجلوه بحق وتتفكروا فى بدائع خلقه فتعتبروا وتتوبوا ﴿ **ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين** ﴾[2].

الترغيب فى الفراغ للعباده والإقبال على الله تعالى والترهيب من الاهتمام بالدنيا والانهماك عليها

١ - عن معقل بن يسار - رضى الله عنه - قال : « قال رسول الله ﷺ : يقول ربكم : يا ابن آدم تفرغ لعبادتى املأ قلبك غنى واملأ يدك رزقا . يا ابن آدم لا تباعد منى فأملأ قلبك فقرا واملأ يدك شغلا »[3]. رواه الحاكم وقال : صحيح الاسناد

المعنى : [يا ابن آدم] : يخاطب الله تعالى الإنسان الذى ركب عقلا يرشده إلى صالحه ومعاشه ومعاده وسعادته .. [تفرغ لعبادى] : تخل لطاعتى والعمل لى وابذل طاقتك فى رضاى ووقتك فى خدمتى . [أملأ قلبك غني] : قناعة وبسطة ورخاء وسعة . [أملأ يدك رزقاً] :

---

(١) سورة الملك الآيات : ٢٢ ٢٤ .

(٢) سورة الملك : الآية ٢٥ .

(٣) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم حـ ٤ ص ٣٢٦ فقد أورد الحديث بلفظه من رواية معقل بن يسار وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

نعما : أى أكثر عليك الخير وأوفر لك الحاجات الكثيرة التى يهمك أمرها فى الدنيا فتشعر بكل سرور . [لاتتباعد] : أى لاتعصى أوامرى ولا تستعمل الفجور والطمع . [أملأ يدك شغلا] : أجعل أعمالك كثيرة بلا فائدة ، وأسلط عليك الدنيا تسخرك بجشعها .

٢ – وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : تلا رسول الله ﷺ : « من كان يريد حرث الآخرة » الآية : قال : يقول الله : ابن آدم تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنى وأسد فقرك وإلا تفعل ملأتُ صدرك شغلا ولم أسد فقرك(١). **رواه ابن ماجه والترمذى** ، واللفظ له ، وقال : حديث حسن وابن حبان فى صحيحه باختصار إلا أنه قال : ملأتُ يدك شغلا ، والحاكم والبيهقى فى كتاب الزهد وقال الحاكم : صحيح الاسناد .

المعنى : الآية : ﴿ **من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب** ﴾ سورة الشورى آية ٢٠ ثوابها ، شبهن بالزرع من حيث أنه فائدة تحصل بعمل الدنيا ، ولذلك قيل الدنيا مزرعة الآخرة ، والحرث فى الأصل : إلقاء البذر فى الأرض ويقال للزرع الحاصل منه ﴿ **نزد** ﴾ نعطه بالواحد عشراً إلى سبعمائة مما فوقها ﴿ **نؤته منها** ﴾ أى : من الدنيا شيئا على حسب ما قسمناه له ، وليس له فى آخرته أجراً على أعماله إذ الأعمال بالنيات ا.هـ بيضاوى . وقال النسفى : ﴿ **نزد له فى حرثه** ﴾ بالتوفيق فى عمله ، أو التضعيف فى إحسانه ، أو بأن ينال به الدنيا والآخرة . وماله نصيب قط فى الآخرة . ﴿ **الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز** ﴾ سورة الشورى آية ١٩ فى إيصال المنافع وصرف البلاء من وجه يلطف إدراكه وهو بليغ البر بهم قد توصل بره إلى جميعهم وقيل : هو من لطف بالغوامض علمه وعظم من الجرائم حلمه ، أو من ينشر المناقب ويستر المثالب أو يعفو عمن يهفو ، أو يعطى العبد فوق الكفاية ، ويكلفه الطاعة دون الطاقة وعن الخبير لطف بأوليائه فعرفوه ، ولو لطف بأعدائه ما جحدوه ا.هـ نسفى . [ملأت صدرك شغلا] : أعمالا تفكر فى أدائها بلا ثمرة .

٣ – وعن أبى الدرداء – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : ما طلعت شمس قط إلا بُعث بجَنْبيها ملكان إنهما لَيُسَمعان أهل الأرض إلا الثقلين : يأيها الناس هلموا إلى ربكم فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألْهَى وما غربت شمس قط ! إلا وبجنبتيها ملكان يناديان : اللهم عجل لمنفق خلفاً وعجل لممسك تلفا(٢). رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه والحاكم واللفظ له . وقال : صحيح الاسناد ورواه البيهقى من طريق الحاكم ، ولفظه :

قال رسول الله ﷺ : « ما من يوم طلعت شمسه إلا وكان بجنبتيها ملكان يناديان نداء يسمعه ما خلق الله كلهم غير الثقلين : يأيها الناس هلموا إلى ربكم إن ماقل وكفى خير مما كثر وألهى ولا آبت

(١) أنظر سنن ابن ماجه حـ ٢ ص ١٣٧٦ حديث رقم ٤١٠٧ من رواية لأبى هريرة
وأنظر المستدرك على الصحيحين للحاكم حـ ٢ ص ٤٤٣ مقدور الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .

(٢) أنظر المستدرك على الصحيحين للحاكم حـ ٢ ص ٤٤٥ فقد أورد الحديث بلفظه من رواية لأبى الدرداء وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

الشمس إلا وكان بجنبيتها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلهم غير الثقلين : اللهم أعط منفقا خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً وأنزل الله عز وجل فى ذلك فى قول الملكين : **يأيها الناس هلموا إلى ربكم ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾**(1) وأنزل الله فى قولهما : « اللهم اعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفا » : **﴿ والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى إلى قوله : للعسرى ﴾** .

المعنى : [الثقلين] : الانس والجن . [هلموا إلى ربكم] : اقبلوا عليه بالطاعات . [ألهى] : شغل عن العبادة . [اللهم عجل لمنفق خلفاً] : الجواد كريم عوضاًوسعة وبسطة رزق . [وعجل لممسك تلفاً] : لبخيل شحيح خسارة وتلفا .

النبى ﷺ يخبر أن من ملائكة الرحمة اثنين يدعوان جل وعلا صباح مساء أن يخلف على الجواد ويعطى المحسن ويزيد فى رزق المتصدق الكريم ويبارك فى نعمه وفى أولاده ويعاقب البخيل بإقلال رزقه وينزع البركة مما أعطى ويصيبه التلف والدمار والبوار كما قال تعالى فى حكاية رجلين من بنى اسرائيل ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فتشاطرا فاشترى الكافر بها ضياعاً وعقاراً وصرفها المؤمن فى وجوه البر أو فى أخوين من بنى مخزوم : كافر وهو الأسود بن عبد الأشد ، ومؤمن وهو أبو سلمة عبد الله زوج أم سلمة يقل رسول الله ﷺ **﴿ واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً ﴾** إلى قوله تعالى : **﴿ وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا ﴾**(2)

فالأول بخيل مقصر فى حقوق الله وفى وجوه الإحسان فسلط الله عليه الآفات فأهلكت ثمراته . المثل الثانى بستان نضير وحديقة فيحاء غناء لرجل صالح بصنعاء على بعد فرسخين منها يكرم الفقراء لله تعالى فورثه بنوه فضننوا على المساكين وقالوا لو فعلنا كأبينا ضاق علينا الأمر وحلفوا بالله ليقطعن الثمرة مبكرين ولم يستثنون والأمر للرازق الواحد القهار . كما قال تعالى في سورة القلم **﴿ إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين (١٧) ولا يستثنون (١٨) فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون (١٩) فأصبحت كالصريم (٢٠) ﴾** أى كالبستان الذى قطع ثماره بحيث لم يبق فيه شيء . هذان مثلان فى القرآن الكريم يضربهما الله للأغنياء أصحاب الثروة الواسعة رجاء أن يجودوا بمالهم وينفقوا فى وجوه البر وتشييد الصالحات وإلا تسلب منهم هذه النعم وتفنى الأموال وتزول الثروة :

حليف الندى يدعو الندى فيجيبه ... قريباً ويدعو الندى فيجيب
هو العسل الماذى لينا وشيمة ... وليث إذ يلقى العدو غضوب
حليم إذا ما سورة الجهل أطلقت ... حبى الشيب للنفس اللجوج غلوب

(١) يونس آية : ٢٥ .
(٢) سورة الكهف الآيات : ٣٢ - ٤٢ .

فتـى أريحـى كان يهتـز للنـدى كمـا اهتـز ماضـى الشفـرتين قضيب

[والله يدعو إلى دار السلام] : قال النسفى : دار السلام الجنة ، أضافها إلى اسمه تعظيماً لها أو السلام السلامة لأن أهلها سالمون من كل مكروه وقيل : لفشوا السلام بينهم وتسليم الملائكة عليهم ، إلا قيلا سلاما سلاما . [يهدى] : يوفق إلى الإسلام أو طريق السنة فالدعوة عامة على لسان رسول الله ﷺ بالدلالة والهداية خاصة من لطف المرسل بالتوفيق والعناية ، والمعنى يدعو العباد كلهم إلى دار السلام ولا يدخلها إلا المهديون . ﴿ **الذين أحسنوا الحسنى** ﴾ للذين آمنوا بالله ورسوله المثوبة الحسنى وهى الجنة ﴿ **وزيادة** ﴾ رؤية الرب عز وجل وقيل الزيادة : المحبة فى قلوب العباد ، وقيل الزيادة : مغفرة من الله ورضوان ﴿ **ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة** ﴾ ولا يغشى وجوههم غبرة فيها سواد ولا أثر هوان والمعنى ولا يرهقهم ما يرهق أهل النار ا.هـ

﴿ **والليل إذا يغشى (١) والنهار إذا تجلى (٢) وما خلق الذكر والانثى (٣) إن سعيكم لشتى (٤) فأما من أعطى واتقى (٥) وصدق بالحسنى (٦) فسنيسره لليسرى (٧) وأما من بخل واستغنى (٨) وكذب بالحسنى (٩) فسنيسره للعسرى (١٠)** ﴾ سورة الليل .

المعنى : مساعيكم فى الدنيا مختلفة هذا يعمل لله وذا للربا أعطى الطاعة واتقى المعصية ، وصدق بالكلمة الحسنى ، وهى مادلت على حق الكلمة كتوحيد ووصلت إلى خير فسنهيىء له طريق الجنة واليسر والسعادة . وهذا (بخل) بما أمر بهوشح في الواجبات واستلذ بالشهوات وناء عن البر بجانبه بالموبقات وابتعد عن الصالحات الموصلة إلى حسن العقبى ونعيمها (العسرى) نوصله إلى ما يتمنى من العسر والضيق والشدة لميله إلى ملذاته .

٤ - وروى عن أبى الدرداء ـــ رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم فإنه من كانت الدنيا أكبر همه أفشى الله ضيعته وجعل فقره بين عينيه ، ومن كانت الآخرة أكبر همه جمع الله عز وجل له أمره ، وجعل غناه فى قلبه ، وما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا جعل الله قلوب المؤمنين تفد إليه بالود والرحمة وكان الله بكل خير إليه أسرع »(١). رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط والبيهقى فى الزهد

المعنى : [ما استطعتم] : بقدر استطاعتكم بكبح جماح النفس عن المعاصى وشره جمع المال بلا حق . [من كانت الدنيا أكبر همه] : نهاية ما يرجوه من كده وزع الله طلباته الجمة ونشر حاجاته وأكثر جشعه وشره . [جعل فقره بين عينيه] : مهما أعطى من المال يتخيل له الفقر والدعة والذل . [من كانت الآخرة أكبر همه] : يوم القيامة فيعمل لحسابه كما قال تعالى : ﴿ **من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحورا (١٨) ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً (١٩) كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء**

---

(١) أنظر مجمع الزوائد حـ ١٠ ص ٢٤٧ فقد أورد الحديث من رواية لأبى الدرداء وقال : رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط وفيه مهر بن سعيد بن حسان المصلوب وهو كذاب .

ربك وما كان عطاء ربك محظوراً (٢٠) انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا (٢١) ﴾ سورة الإسراء .

﴿ **ما نشاء** ﴾ بإرادة الله لا ما يشاء ذلك الطماع الشره . قال النسفى : أى من كانت العاجلة همه ولم يرد غيرها كالكفرة تفضلنا عليه من منافعها بما نشاء لمن نريد نقيد المعجل بمشيئته والمعجل له بإرادته وهكذا الحال ترى كثيرا من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون إلا بعضا منه ، وكثيرا منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموه فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة ، وأما المؤمن التقى فقد اختار غنى الآخرة فإن أوتى حظاً من الدنيا فيها وإلا فربما كان فى الفقر خيرا له . ﴿ **يصلاها** ﴾ يدخلها ﴿ **مذموما** ﴾ ممقوتا . ﴿ **مدحورا** ﴾ مطرودا من رحمة الله ﴿ **مؤمن** ﴾ مصدق لله فى وعده ووعيده ﴿ **مشكورا** ﴾ مقبولا عند الله تعالى مثاباً عليه . عن بعض السلف : من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله : إيمان ثابت ، ونية صادقة ، وعمل مصيب وتلا الآية فإنه شرط فيها ثلاث شرائط فى كون السعى مشكوراً إرادة الآخرة والسعى فيما كلف ، والايمان الثابت ا.هـ . [جعل غناه فى قلبه] : رزقه القناعة والرضى والسرور بكل ما ينال والاستبشار وانتظار الفرج ويزول عنه اليأس . [جعل الله قلوب المؤمنين تفد إليه] : تقبل عليه وتزوره وتحبه وتساعده على مهام أموره فتروج تجارته وبذاع صيته وينتشر ذكره الطيب ويتبرك به ونهاية الحكام وتخشى سطوته الأشرار . وقد شاهدت رجلا صالحاً عالماً احترمه الناس لعمله الصالح ويجلوه فاهتدوا بأنواره ووثقوا بأقواله وكان حجة ثبتاً نبراساً منيراً فى دياجى الشبهات وحاول الأشرار أن يؤذوه وأطلقوا عليه من بنادقهم ناراً فحماه الله ووقاه ومرت الرصاصة بجوار أذنه سالما وبعد حين وقع المجرمون فى حادثة بعيدة منه فنالوا جزاءهم وأخذوا عقابهم الصارم . [كان الله عز وجل بكل خير إليه أسرع] : يوصل إليه أنواع البر والبركات بسرعة عاجلة .

٥ – وعن زيد بن ثابت – رضى الله عنه – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ماكتب له ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة »[١]. رواه ابن ماجه ورواته ثقات ، والطبرانى ، ولفظه :

قال رسول الله ﷺ : « إنه من تكن الدنيا نيته يجعل الله فقره بين عينيه ، ويشتت عليه ضيعته ، ولا يأتيه منها إلا ما كتب له ، ومن تكن الآخرة نيته يجعل الله غناه فى قلبه ، ويكفيه ضيعته وتأتيه الدنيا وهى راغمة »[٢] . رواه فى حديث بإسناد لا بأس به ورواه ابن حبان فى صحيحه بنحوه وتقدم لفظه فى العلم .

---

(١) أنظر سنن ابن ماجه جـ ٢ ص ١٣٧٥ باب الهم لدنيا حديث رقم ٤١٠٥ فقد أورد الحديث من رواية زيد بن ثابت وقال : فى الزوائد : إسناده صحيح ، رجاله ثقات .

(٢) أنظر مجمع الزوائد جـ ١٠ ص ٢٤٧ فقد أورد الحديث من حديث طويل لزيد بن ثابت ، وقال روى ابن ماجه بعضه – رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله وثقوا .

﴿ **قوله : شئت عليه ضيعته** ﴾ بفتح الضاد المعجمة وإسكان المثناة تحت : معناه فرق عليه حاله وصناعته ومعاشه وماهو مهتم به وشعبه عليه ليكثر كده ويعظم تعبه .

المعنى : [الدنيا همه] : جمع المال مقصده بلا إيجاد عمل صالح فى سعيه . [الآخرة نيته] : نهاية مايرجو فى حياته فيكثر من طاعة الله ابتغاء ثوابه . [أتته الدنيا وهى راغمة] : أقبلت عليه النعم الجمة مساقة منقادة قال فى النهاية : لما كان العاجز الذليل لا يخلو من غضب قالوا ترغم إذا غضب وراغمه إذا غاضبه . وقد فسر حديث أسماء « إن أمى قدمت على راغمة مشركة أفاضلها قال نعم » تريد أنها قدمت على غضبى لإسلامى وهجرتى متسخطة لأمرى أو كارهة مجيئها إلى لولا مسيس الحاجة وقيل : هاربة من قومها من قوله تعالى : ﴿ **يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة** ﴾ : أى مهربا ومتسعا فأنت ترى بشرى من رسول الله ﷺ للصالح التقى المؤمن العابد أن يبسط الله له رزقه ويجعل عيشه رغدا وييسر أموره ويقضى آماله ويذلل له مصاعب الدنيا فتكون له سهلة :

إذا صح عـــون الخالـــق المرء لم يجد عسيرا من الآمـــال إلا ميســـرا

٦ - وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهى راغمة ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له »(١). رواه الترمذى عن يزيد الرقاشى عنه ويزيد قد وثق ولا بأس به فى المتابعات ورواه البزار ولفظه قال رسول الله ﷺ : « من كانت نيته الآخرة جعل الله الغنى فى قلبه وجمع له شمله ونزع الفقر من بين عينيه وأتته الدنيا وهى راغمة فلا يصبح إلا فقيرا ولا يمسى إلا فقيرا . ورواه الطبرانى بلفظ تقدم فى الاقتصاد .

٧ - وعن عمران بن حصين رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من انقطع إلى الله عز وجل كفاه الله كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها(٢). رواه أبو الشيخ بن حبان والبيهقى من رواية الحسن عن عمران واختلف فى سماعه منه .

المعنى : [وكَلَهُ الله إليها] : أى : تركه بلا مساعدة لتشغله الدنيا وتسخره وتستخدمه .

٨ - وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « من جعل الهموم همًّا واحداً كفاه الله هم دنياه ومن تشعبته الهموم لم يُبَال الله فى أى أودية الدنيا هلك »(٣) . رواه الحاكم والبيهقى من

(١) أنظر سنن الترمذى المجلد الرابع ص ٥٧ حديث رقم ٢٥٨٣ فقد أورد الحديث بلفظه عن يزيد بن أبان — وهو الرقاش — عن أنس بن مالك .

(٢) أنظر مجمع الزوائد حـ ١٠ ص ٣٠٣ باب ما جاء فى العزلة فقد أورد الحديث من رواية عمران بن حصين وقال : رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه إبراهيم بن أشعف صاحب الفضيل وهو ضعيف ، وقد ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال : يقرب ويخطئ ويخالف ، وبقية رجاله ثقات .

(٣) أنظر المستدرك على الصحيحين للحاكم حـ ٢ ص ٤٤٣ فقد أورد الحديث من رواية لابن عمر وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

وأنظر سنن ابن ماجه حـ ٢ ص ١٣٧٥ حديث رقم ٤١٠٦ فقد أورد الحديث من رواية ابن مسعود .

طريقه وغيرها وقال الحاكم : صحيح الاسناد ورواه ابن ماجه فى حديث عن ابن مسعود .

المعنى : [من جعل الهموم هماً واحداً] : الكد والتفكير لطلب شىء واحد وهو إرضاء الله جل وعلا وحده والسعى لطاعته والعمل له بإخلاص . [كفاه الله هم دنياه] : حفظه الله من جميع الهموم ووقاه وأبعد عنه مشاغل الدنيا . [تشعبته الهموم] : فرقته وشغلته كثرة الحاجيات قال الشاعر أبو الحسن التهامى :

طبعت على كدر وأنت تريدها ... صفوا من الأقذار والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها ... متطلب فى الماء جذوة نار
فالعمر نوم والمنية يقظة ... والمرء بينهما خيال سار
فالدهر يخدع بالمنى ويعفى ان ... هنا ويهدم ما بنى ببوار
ليس الزمان وان حرصت مسالماً ... خلق الزمان عداوة الأصرار
ثوب الرياء يشف عما تحته ... وإذا التحفت به فإنك عار
شيئان ينقشعان أو لوهلة ... ظل الشباب وخلة الاشرار

الدنيا كثيرة المناجى متفرقة الحاجات وهمومها جمة ودواؤهما التقوى وحب العمل الصالح للآخرة كما قال تعالى : ﴿ **وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب** ﴾ ١٩٧ من سورة البقرة .

٩ - وفى رواية عن ابن مسعود أيضا قال : سمعت نبيكم ﷺ يقول : « من جعل الهموم هما واحداً هم المعاد كفاه الله هم دنياه ومن تشعبت به الهموم أحوال الدنيا لم يبال الله عز وجل فى أى أوديته هلك »(١).

المعنى : [هم المعاد] : نشر الخلائق ووجودهم للحساب ، ولجرير يمدح عمر بن عبد العزيز :

يعود الفضل منك على قريش ... وتفرج عنهم الكرب الشدادا
وقد أمنت وحشتهم برفق ... ويعيى الناس وحشك أن يصادا
وتدعو الله مجتهدا ليرضى ... وتذكر فى رعيتك المعادا

فسيدنا عمر يتقى الله ويعمل صالحاً ليوم القيامة ويخاف سؤال الله فى الرعية التى يدير أمورها . [تشعبت به الهموم أحوال الدنيا] : تنتابه الوساوس وتكثر الأفكار المبعدة عن الله تعالى فيحرم من توفيق الله تعالى له فيضل ويخطىء ويسخره الشيطان للغواية .

---

(١) انظر سنن ابن ماجه حـ ٢ ص ١٣٧٥ حديث رقم ٤١٠٦ .

١٠ - وروى عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من أصبح وهمه الدنيا فليس من الله فى شيء[1]. الحديث رواه الطبرانى .

المعنى : [وهمه الدنيا] : حبها وجمع المال لشهواتها وزخارفها وزينتها . [ليس من الله فى شيء] : فهو محروم من طاعة الله وليس له ثواب البتة .

١١ - وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « من أصبح حزينا على الدنيا أصبح ساخطاً على ربه »[2]. رواه الطبرانى .

المعنى : [حزينا] : كئيباً غضبان محملاً بأثقال الدنيا من كد وتعب من جراء حطامها وتقليل النعمة المتمتع بها والتكدير مما أصاب من خيرها وطلب الاستزادة وعدم حطامها وتقليل النعمة المتمتع بها والتكدير مما أصاب من خيرها وطلب الاستزادة وعدم القناعة . [ساخطا على ربه] : غير راض عن فعله يائساً من فرجه وروحه غير مستسلم لقضائه وقدره . ففيه أن يقنع ويحمد الله على ما أعطى ويشكر له فضله ويطلب الهداية ووضع البركة فيما منح عاملا يقول الامام على كرم الله وجهه :

وان ضاق رزق اليـــوم فاصبر إلى غد … عسى نكبـــات الدهـــر عنك تزول

يريد النبى ﷺ أن يعلم المسلمين القناعة والرضا ومقابلة الشدائد بصدر رحب وثغر باسم ، ولا يفكر فى هموم الدنيا لحظة فإن مع العسر يسرا .

عســى الكـرب الـذى أمسيته فيــه … يكـــون وراءه فـــرج قـــريب

الثمرات التى يجنيها المطيع ربه سبحانه وتعالى

أولا : يملأ الله فؤاده سروراً وغنى وقناعة (تفرغ)

ثانيا : يقيه عاديات الزمان ويبعد عنه هموم الدنيا .

ثالثا : يكتسب رضا الله ودعوات الملائكة الصالحة (هلموا) .

رابعا : يبسط الله له رزقه ويمد له المعونة ويهب له الصحة التامة والنعمة العامة (كفاء الله) .

خامساً : يزيل عنه الأكدار ويرضيه ويفتح له طريق السعادة والسيادة لأنه عبد ﴿ **العزيز الحميد الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد** ﴾ ٩ من سورة البروج .

---

(١) انظر مجمع الزوائد حـ ١٠ ص ٢٤٨ باب فيمن أحب الدنيا فقد أورد الحديث بلفظه ضمن حديث طويل وقال : رواه الطبرانى وفيه يزيد بن ربيعة الرحبى وهو متروك .

(٢) انظر مجمع الزوائد حـ ١٠ ص ٢٤٨ باب فيمن أحب الدنيا فقد أورد الحديث بلفظه من حديث طويل لأنس بن مالك وقال رواه الطبرانى فى الصغير وفيه وهب بن راشد البصرى صاحب ثابت وهو متروك .

الآيات القرآنية الذامة الدنيا الحاثة على طاعة الله

(أ) قال الله تعالى : ﴿ قُل مَتاعُ الدُّنيَا قَلِيل وَالآخِرَةُ خَيْر لمن اتقى وَلَاتُظْلمُونَ فَتِيلاً ﴾ ٧٧ من سورة النساء ﴿ قليل ﴾ سريع التقضى . ولاتنقصون أدنى شيء من ثوابكم فلا ترغبوا عنه .

(ب) وقال تعالى : ﴿ ولله مافى السَّمٰوَاتِ ومَافِي الأَرْضِ وكان الله بكل شيْءٍ محُيطاً ﴾ ٢٦ من سورة النساء

(جـ) وقال تعالى : ﴿ من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعاً بصيراً ﴾ . ١٣٤ من سورة النساء .

﴿ ولله مافى السموات ومافى الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله وان تكفروا فإن الله مافى السموات ومافى الأرض وكان الله غنياً حميداً (١٣١) ولله مافى السموات ومافى الأرض وكفى بالله وكيلا (١٣٢) إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين * وكان الله على ذلك قديرا (١٣٣) ﴾ . من سورة النساء .

(د) وقال تعالى : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث * ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب (١٤) قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله * والله بصير بالعباد (١٥) الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار (١٦) الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار (١٧) ﴾ من سورة آل عمران .

﴿ المآب ﴾ أى المرجع وهو تحريض على استبدال ما عنده من اللذات الحقيقية الأبدية بالشهوات الفانية ، سبحانه يثب المحسن ويعاقب المسيء ، خبير بأحوال خلقه .

(هـ) وقال تعالى : ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور (٢٠) سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم (٢١) ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير (٢٢) لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور (٢٣) الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد ﴾ (٢٤) من سورة الحديد .

(و) وقال تعالى : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم (٦٥) فاتقوا الله ما استطعتم

واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون (٦٦) ﴾ من سورة التغابن .

(ز) وقال تعالى : ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا (١٦) والآخرة خير وأبقى (١٧) إن هذا لفى الصحف الأولى (١٨) صحف إبراهيم وموسى (١٩) ﴾ من سورة الأعلى .

(حـ) وقال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً * إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور (٣٣) ﴾ من سورة لقمان .

﴿ لايجزى ﴾ : لايقضى عنه . ﴿ وعد الله ﴾ : ثوابه وعقابه لا يمكن خلفه . ﴿ الغرور ﴾ : الشيطان بأن يرجيكم التوبة والمغفرة فيجرئكم على المعاصى .

الترغيب فى العمل الصالح عند فساد الزمان

١ - عن أبى أمية الشعبانى قال : سألتُ أبا ثعلبة الخشبى قال : قلت يا أبا ثعلبة تقول فى هذه الآية : ﴿ عليكم أنفسكم ﴾ ؟ قال : أما والله لقد سألت عنها خبيراً ، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال : « بل ائتمروا بالمعروف ، وانتهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ، ودع عنك العوام فإن من ورائكم أيام الصبر فيهن مثل القبض على الجمر للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم »[1]. رواه ابن ماجه والترمذى وقال : حديث حسن غريب ، وأبو داود وزاد : قيل يا رسول الله : أجر خمسين رجلا منا أو منهم ؟ قال : أجر خمسين منكم .

المعنى : [خبيرا] : استفهمت من رجل بصير ثقة ثبت . [ائتمروا بالمعروف] : أى فليظهر كل منكم النصيحة لأخيه ويتشاور وليأمر بالمعروف ، وفى الغريب والائتمار قول الأمر ، ويقال للتشاور ائتمار لقبول بعضهم أمر بعض فيما أشار به ، قال تعالى : ﴿ إن الملأ يأتمرون بك ﴾ ا.هـ. وقوله تعالى : ﴿ وائتمروا بينكم بمعروف ﴾ أى وليأمر بعضكم بعضاً بجميل الأفعال وحميد الخصال . [انتهوا عن المنكر] : ابتعدوا عن الموبقات واحجزوا أنفسكم عن القبائح . [شحا مطاعاً] : تقصيرا فى الواجبات وبخلا متبعاً وتقتيراً . [هوى متبعاً] : نفوساً مائلة إلى الشهوات . [دنيا مؤثرة] : مختارة محبوبة مقدمة على الآخرة بالميل فيها إلى الترف والدنايا والفجور . [فعليك بنفسك] : أى أصلح نفسك وكملها بآداب الدين واعمل صالحاً إذا فشا بخل الناس وكثرت المعاصى

---

(١) انظر سنن الترمذى حـ ٤ ص ٣٢٣ « تفسير سورة المائدة » حديث رقم ٥٠٥١ فقد أورد الحديث من رواية لأبى أمية ، وقال : هذا حديث حسن غريب .
وأنظر سنن ابن ماجه حـ ٢ صّ ١٣٣٠ - ١٣٣١ حديث رقم ٤٠١٤ فقد أورد الحديث عن أبى أمية بألفاظه مختلفة .

ومال الناس إلى حب الدنيا ولم يعملوا للآخرة . [دع عنك العوام] : اترك الناس . [ورائكم أيام الصبر] : إزاء هذا الصبر وحبس النفس على طاعة الله تعالى الأعلى : أى الرفيع سلطانه المنيع فى شأنه القوى القاهر المعبود بحق الصمد كما قال الله تعالى لحبيبه ﴿ **وللآخرة خير لك من الأولى** ﴾ ٤ من سورة الضحى . أى ما أعد الله لك فى الآخرة من المقام المحمود والحوض المورود والخير الموعود ، خير لك مما أعجبك فى الدنيا . هذا درس لنا يرغبنا الله فى الأعمال الصالحة اتقاء القارعة ﴿ **يوم يكون الناس كالفراش المبثوث (٤) وتكون الجبال كالعهن المنفوش (٥) فأما من ثقلت موازينه (٦) فهو فى عيشة راضية (٧) وأما من خفت موازينه (٨) فأمه هاوية (٩) وما أدراك ماهيه (١٠) نار حامية (١١)** ﴾ من سورة القارعة . الفراش الحشرات . قال النسفى : شبههم بالفراش فى الكثرة والانتشار والضعف والذلة والتطاير إلى الداعى من كل جانب كما يتطاير الفراش إلى النار ا.هـ . ﴿ **العهن** ﴾ : الصوف المصبوغ بالألون ﴿ **المنفوش** ﴾ : المتفرق أجزاؤه .

الصبر فيهن مثل القبض على الجمر : أى كبح جماح النفس عن المعاصى صعب مر ومحرق مثل القبض على النار ، ولكن فى ذلك ثوابا لمن اتقى الله واجتذب صحبة الفساق والأشرار فالعابد يعطيه الله أجر خمسين من عمل مثله ففيه الترغيب فى اجتناب المعاصى مهما زاد روادها وكثر الداعون لها كما قال تعالى : ﴿ **ألهاكم التكاثر (١) حتى زرتم المقابر (٢) كلا سوف تعلمون (٣)** ﴾ من سورة التكاثر .

أى شغلكم التبارى فى الكثرة والتباهى بها فى الأموال والأولاد عن طاعة الله حتى أدرككم الموت . ﴿ **كلا** ﴾ ردع وتنبيه على أنه لا ينبغى للناظر لنفسه أن تكون الدنيا جميع همه ولا يهتم بدينه . ﴿ **سوف تعلمون** ﴾ عند النزع سوء عاقبة ما كنتم عليه ثم فى القبور ثم لتسألن عن الأمن والصحة فيم أفنيتموها .

٢ - وعن معقل بن يسار رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « العبادة فى الهرج كهجرة إلىَّ » . رواه مسلم والترمذى وابن ماجه(١)

[الهرج] : هو الاختلاف والفتن وقد فسر فى بعض الأحاديث بالقتل لأن الفتن والاختلاف من أسبابه فأقيم المسبب مقام السبب .

المعنى : [عبادة في الهرج كهجرة إلىَّ] : أى طاعة الله واتباع أوامره والعمل بكتابه وسنة حبيبه ﷺ أثناء انتشار المعاصى مثل مفارقة وطنه واتباع رسوله ﷺ والسكن بجواره والقرب منه والعمل بشرعه واقتفاء أثره .

---

(١) أنظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢٢٦٨ حديث ١٣٠ / ٢٩٤٨ من رواية لمعقل بن يسار أنظر سنن ابن ماجه حـ ٢ ص ١٣١٨ حديث رقم ٣٩٨٥ من رواية لمعقل بن يسار .

(أ) قال الله تعالى : ﴿ **وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون** ﴾ . ٢٣ من سورة الأنعام .

(ب) وقال تعالى : ﴿ **إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون** ﴾ ٣٤ من سورة يونس أى حال الدنيا العجيبة فى سرعة تقضيها وذهاب نعيمها بعد إقبالها واغترار الناس بها ﴿ **زخرفها** ﴾ حسنها وبهجتها . ﴿ **حصيدا** ﴾ شبيها بما جنى وقطع كان لم يغن زرعها : أى لم يلبث . وشاهدنا إسراع المؤمن فى اكتساب العبادة خشية ذهاب زهرة الدنيا بموته .

آية ﴿ عليكم أنفسكم ﴾ درس تربية وتكميل

ما أجمل معنى هذه الآية ﴿ **عليكم أنفسكم** ﴾ تطلب من الإنسان أن يكمل نفسه ويؤدبها ويقبل على تعاليم ربه فيعمل بها ويعكف على التفقه فى السنة والتفهم فى الدين لتثمر دوحة عرفانه وتشرق شمس فعله وضاءة وضاحة الجبين .

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته ... أتطلب الربح فيما فيه خسران

أقبل على النفس واستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

ماذا ينتظر الإنسان فى حياته ؟ ينتظر أن يعمل صالحاً فيرضى ربه فيهدأ باله ويرتاح ضميره وبعد الآية تقرأ حديث رسول الله ﷺ تجد إرشاداً إلى التحلى بالفضائل والتخلى عن الرذائل واتباع النصائح ، واجتناب القبائح والتوصية بالحق والصبر وترك ميدان الجهلة تسرح وتمرح كالسائمة وعدم مجاراة العصاة الطغاة والإقبال على الطاعات فالله تعالى يقول : ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ فإذا أطاع العبد ربه سلم من العقاب ونال الثواب ، وربما صار قدوة حسنة وهداية ونبراساً لأهل زمانه وقد وعد ﷺ العابد العامل أن له أجراً مضاعفاً من الله جل جلاله ، مثل أجر أصحابه وأتباعه ﴿ **أجر خمسين منكم** ﴾ أى أيها الصحابة الأجلاء . لماذا ؟ لأنه فى وقت فشت فيه المعصية وضل عامة الناس وساء العمل . وازداد الفسوق . وعم الترف وكثرت الشهوات فلا حول ولا قوة إلا بالله : إن هذه الآية تطلب من كل فرد أن يصلح نفسه لتسعد الأمة ، وتتقدم إلى ذروة العلا وتنبه الوعاظ والعلماء أن يكونوا أسوة حسنة وعنواناً للأعمال الصالحة :

لو أنصف الناس استراح القاضى ... وبات كل عن أخيه راضى

قال أبو الأسود الدؤلى يصف أحوال الناس ويطلب من القادة العمل وتهذيب النفس وتأديبها :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه   فالقوم أعداء له وخصوم

وترى اللبيب محسدا لم يجترم   شتم الرجال وعرضه مشتوم

وكذاك من عظمت عليه نعمة   حساده سيف عليه صبروم

فاترك مجاراة السفيه فإنها   ندم وغب بعد ذاك وخيم

فإذا جريت مع السفيه كما جرى   فكلا كما فى جريه مذموم

وإذا عتبت على السفيه ولمته   فى مثل ما تانى فأنت ظلوم

يا أيها الرجل المعلم غيره   هلا لنفسك كان ذا التعليم

نصف الدواء لذى السقام وذى الضنى   كيما يصح به وأنت سقيم

وأراك تصلح بالرشاد عقولنا   أبدا وأنت من الرشاد عديم

لاتنه عن خلق وتأتى مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها   فإذا أنتهت عنه فأنت حكيم

فهناك يقبل ماوعظت ويقتدى   بالعلم منك وينفع التعليم

لا تكلمن عرض ابن عمك ظالماً   فإذا فعلت **فعرضك المكلوم**

وحريمه أيضا حريمك فاحمه   كيلا يباع لديك منه حريم

وإذا اقتصصتك من ابن عمك كلمة   فكلومه لك إن عقلت كلوم

وإذا طلبت إلى كريم حاجة   فلقاؤه يكفيك والتسليم

فإذا رآك مسلما ذكر الذى   كلمته فكأنه ملزوم

ورأى عواقب حمد ذاك وذمه   للمرء تبقى والعظام رميم

فارج الكريم وان رأيت حفاه   فالعتب منه والكريم كريم

ان كنت مضطرا وإلا فاتخذ   نفقاً كأنك خائف مهزوم

واتركه واحذر أن تمر ببابه   دهر وعرضك ان فعلت سليم

فالناس قد صاروا بهائم كلهم   ومن البهائم قائل وزعيم

عمى وبكم وليس يرجى نفعهم   وزعيمهم فى النائبات سليم

وإذا طلبت من لئيم حاجة   فألح فى رفق وأنت مديم

وألزم قبالة بينه وفنائه   بأشد مالزم للغريم غريم

وعجبت للدنيا ورغبة أهلها   والرزق فيما بينهم مقسوم

والأحمق المرزوق أعجب من رأى   من أهلها والعاقل المحروم

ثم انقضى عجبى لعلمى أنه   رزق مواف وقته معلوم

إن أبا الأسود الدؤلى كان فى صدر الإسلام وفى إبان عزه وعظمته وشروق شمسه الساطعة بالأعمال الصالحة وعاصر الإمام علياً كرم الله وجهه . ولكن أثبت لنا إن فى العالم حسداً وخصومة وغيبة ونميمة وسفاهة ووجه اللائمة على الوعاظ وطلب أن تعملوا بإرشادهم رجاء أن تنفع الموعظة . وهكذا من خلال الخير ونحن الآن وقد انتشرت المعاصى أضعافاً وضاعفة وساءت الحال وزاد الطغيان فالعاقل المؤمن من يكمل نفسه ويؤدبها بآداب الدين ويعمل بالآية ، قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا آهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ . ١٠٥ من سورة المائدة .

الترغيب فى المداومة على العمل وإن قل

١ - عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان لرسول الله ﷺ حصير وكان يحجزه بالليل فيصلى عليه ويبسطه بالنهار فيجلس عليه فجعل الناس يثوبون إلى النبى ﷺ فيصلون بصلاته حتى كثروا فأقبل عليهم فقال : (**يا أيها الناس خذوا من الأعمال ماتطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا وإن أحب الأعمال إلى الله مادام وإن قل**)[1] .

المعنى : ﴿ **حصير** ﴾ : فرش من نبات يسمى سمارا . ﴿ **تحجزه بالليل** ﴾ : من باب قتل منعه من التصرف ، قال القسطلانى : أى يتخذه كالحجرة ، وفى رواية يحتجز يجعله حاجزاً بينه وبين غيره من يحجزه ا.هـ . ﴿ **يبسطه** ﴾ : يفرشه . ﴿ **يثوبون** ﴾ : يرجعون . ﴿ **أقبل عليهم** ﴾ : أى توجه ﷺ نحوهم يعطيهم درساً . ﴿ **ما تطيقون** ﴾ : قدر طاقتكم ومقدار جهدكم فلا تحملوا أنفسكم صعاب الأعمال فالدين يسر لا عسر . ﴿ **لايمل** ﴾ : لاتنتهى رحماته ولا ينقص فضله لمن أطاعه وأجره جزيل وكنزه لا يفنى كما قال ﷺ : ﴿ **ملأى لايغيضها نفقة سحاء الليل والنهار** ﴾[2] وكما قال الله تعالى : ﴿ **ما عندكم ينفد وما عند الله باق** ﴾ من سورة النحل .

﴿ **تملوا** ﴾ : تضعفوا فالانسان مركب من لحم ودم يحتاج إلى راحة من عناء عمله فإذا استمر فى العبادة عجز عن المواصلة وضعف عن الزيادة والنبى ﷺ يريد الترغيب فى العمل الصالح ما أمكن كما قال الله تعالى : ﴿ **فاتقوا الله ما استطعتم** ﴾ وقال القسطلانى : حتى تملوا : أى لا يقطع عنكم فضله حتى تتركوا سؤاله ا.هـ ، سيدنا رسول الله ﷺ يدعو العاملين إلى الجد والكد جهد الطاقة والسعى مدة الاستطاعة والأخذ بنصيب وافر فى الصالحات مع الراحة والاطمئنان والهدوء فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ، ولأبى بكر المغرى :

---

(١) انظر فتح البارى بشرح صحيح البخارى جـ ١٠ ص ٣١٤ باب الجلوس على الحصير ونحوه رقم ٥٨٦١ من رواية عائشة رضى الله عنها .

(٢) انظر صحيح البخارى جـ ٩ ص ١٥٠ فقد أورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .

وقيمـة المـرء مـا كان يحسنـه فاطلـب لنفسك ماتعلـو بـه وصل
وكل علـم جنـاه ممكـن أبـدا إلا إذا اعتصم الانسـان بالكسـل
وأفضـل الـبر مالا مـن يتبعـه ولا تقـدق شـىء من المطـل

إن أحب الأعمال إلى الله مادام وإن قل : الذى تستمر المواظبة عليه وخير الأمور الوسط وشر الأمور الشطط ففيه الترغيب فى إتقان العمل بتؤدة وتأن فإنه لا ينظر إلى زمنه ولكن ينظر إلى جودته .

٢ - وفى رواية : وكان آل محمد إذا عملوا عملاً أثبتوه .

٣ - وفى رواية قالت : إن رسول الله ﷺ . سئل أى الأعمال أحب إلى الله ؟ قال : « أدومه وإن قل » .

٤ - وفى رواية : أن رسول الله ﷺ قال : « سددوا وقاربوا واعلموا أن لن يدخل أَحَدَكُمُ عَمَلُهُ الجنة ، وإن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل »(١). رواه البخارى ومسلم .

المعنى : [سددوا] : اقصدوا السداد وتحروا الصواب . [قاربوا] : كونوا مقاربين لفعل الخير . [لن يدخل أحدكم غمله الجنة] : بل بفضل الله ورحمته وليس المراد توهين العمل بل الاعلام بأن العمل إنما يتم بفضل الله ورحمته فلا ينبغى أن تتكلوا على أعمالكم ، وهذا الحديث لا يعارض قوله تعالى : ﴿ **ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون** ﴾ لأن العمل إنما حصل بتوفيق الله ورحمته . وقال النووى : ظاهر الآيات أن دخول الجنة بسبب الأعمال والجمع بينها وبين الحديث أن التوفيق للأعمال والهداية للإخلاص فيها وقبولها إنما هو برحمة الله وفضله فيصح أنه لم يدخل بمجرد العمل ، وهو من رحمة الله تعالى ا.هـ . عزيزى ص ٣٢٠ ج . يأمر النبى ﷺ أن يسيروا على منهج القرآن الكريم ويستضيئوا بأنواره الوضاءة رجاء السداد والإصابة واتباع الحكمة والرشد ، ومهما أحسن العابد العامل يكثر الخوف والرجاء كما قال تعالى فى أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم : « يدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين » ولا يغتر الإنسان بعمله فالنعيم من فضل الله تعالى . قال الشاعر :

مـن لـم تكـن حـلـل التقـوى ملابسـه عـار وإن كان مغمـوراً فى الحـلـل

*****

ومـن يطـع اللهـو عصـر الصبـا فذلك فى الشـيب لا يرجـع
وكـم فرحـة جلبـت ترحـة وكـم ضحـك بعـده مطمـع

*****

(١) انظر صحيح البخارى حـ ٨ ص ١٢٢ فقد أورد الحديث من رواية لعائشة .
(٢) انظر صحيح البخارى حـ ٨ ص ١٢٢ « وكتاب الرفاق » باب « القصد والمداومة على العمل فقد أورد الحديث بلفظه عن عائشة .
وأنظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢١٧١ حديث رقم ٧٨ / ٢٨١٨ فقد أورد الحديث عن عائشة بألفاظه مختلفة .

لاتنسى فى الحصة أيام السقم فإن عقبى تارك الحزم الندم

(أ) وقال تعالى : ﴿ **من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون (١٥) أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ماصنعوا فيها وباطل ماكانوا يعملون (١٦)** ﴾ من سورة هود .

(ب) وقال تعالى : ﴿ **المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا (٤٦) ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا (٤٧) وعرضوا على ربك صفا** ﴾ من سورة الكهف .

وقال النسفى ﴿ **زينة الحياة الدنيا** ﴾ لازاد القبر وعدة العقبى وأعمال الخير التى تبقى ثمرتها للانسان . أو الصلوات الخمس أو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . ﴿ **خير عند ربك ثوابا** ﴾ جزاء لأنه وعد صادق وأكثر الأمال كاذبة يعنى أن صاحبها يأمل فى الدنيا ثواب الله ويصيب فى الآخرة ويوم نسير الجبال فى الجو بأن تجعل هباء منثورا منبثاً وليس على الأرض ما يسترها من الجبال والأشجار ، وحشرنا الموتى فلم نترك غادرة : أى تركه وعرضوا مصطفين ظاهرين :

(جـ) وقال تعالى :﴿ **فخرج على قومهفى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم** ﴾ ٧٩ من سورة القصص .

خرج قارون على بغلة شهباء عليه الأرجوات وعليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف على زيه . قيل كانوا مسلمين ، وإنما تمنوا على سبيل الرغبة فى اليسار كعادة البشر . ولكن الصالحين يأبون أن يتشبهوا بالفساق قال تعالى : ﴿ **وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون (٨٠)** ﴾ من سورة القصص . ﴿ **ويلكم** ﴾ دعاء بالهلكة ثم استعمل فى الردع والزجروا لبعث على ترك مالا يرضى . وأن شاهدنا أن العلماء عرفوا الثواب الباقى للطاعات فطلقوا الدنيا وهانت عليهم فتفانوا فى العمل الصالح واقتدوا بالمثل الأعلى سيدنا محمد ﷺ (حصير يحجزه) .

٥ – وفى رواية له قال : سألت عائشة رضى الله عنها كيف كان عمل رسول الله ﷺ هل كان يخص شيئاً من الأيام ؟ قالت : لا ، كان عمله ديمه . وأيكم يستطيع ما كان رسول الله ﷺ يستطيع . روه البخارى[1] وفى رواية : كان أحب الأعمال إلى رسول الله ﷺ ماديم عليه .

٦ – وفى رواية له : سُئِلَتْ عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما : أى العمل كان أحب إلى رسول الله ﷺ قالا : ماديم عليه وإن قل[2].

(١) انظر صحيح البخارى حـ ٨ ص ١٢٢ – ١٢٣ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعائشة .

(٢) انظر صحيح البخارى حـ ٨ ص ١٢٢ فقد ورد الحديث من رواية لعائشة مع اختلاف يسير فى اللفظ .

٧ – وعن أم سلمة قالت : ما مات رسول الله ﷺ حتى كان أكثر صلاته وهو جالس ، وكان أحب العمل ماداوم عليه العبد وإن كان شيئاً يسير(١). رواه ابن حبان فى صحيحه .

المعنى : [داوم عليه العبد] : الذى استمر عليه طيلة عمره . [يسيرا] : قليلا .

الترغيب فى الفقر وقلة ذات اليد

وما جاء فى فضل الفقراء والمساكين والمستضعفين وحبهم ومجالستهم

عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن بين أيديكم عَقَبَة كئوداً لاينجو منها إلا كل مخف »(٢). رواه البزار بإسناد حسن .

٢ – وعن أم الدرداء عن أبى الدرداء رضى الله عنهما قال : قلت له : مالك لا تطلب كما يطلب فلان وفلان ؟ قال : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن وراءكم عقبة كؤودا لا يجوزها المثقلون فأنا أحب أن أتخفف لتلك العقبة »(٣) . رواه الطبرانى بإسناد صحيح .

[الكؤود] : بفتح الكاف وبعدها همزة مضمومة : هى العقبة الصعبة .

المعنى : [المثقلون] : أصحاب الغنى واليسار والأموال الوفيرة إلا بعد الحساب . [أتخفف] : أكون خفيف السؤال قال تعالى : ﴿ **ألم نجعل له عينين (٨) ولسانا وشفتين (٩) وهديناه النجدين (١٠) فلا اقتحم العقبة (١١) وما أدراك ما العقبة (١٢) فك رقبة (١٣) أو إطعام فى يوم ذى مسغبة (١٤) يتيما ذا مقربة (١٥) أو مسكينا ذا متربه (١٦) ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة (١٧) أولئك أصحاب الميمنة (١٨)** ﴾ من سورة البلد الله تعالى يمن على عبده ليعمل له عينين يبصر بهما المرئيات ولسانا يعبر به عما فى ضميره وشفتين يستر بهما ثغره ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب والنفخ ، وهديناه طريق الخير والشر المفضين إلى الجنة والنار فلم يشكر الإنسان تلك الأيادى والنعم بالأعمال الصالحة من فك الرقاب أو إطعام اليتامى والمساكين ثم بالإيمان الذى هو أصل كل طاعة وأساس كل خير ، بل غمط النعم وكفر بالمنعم والمعنى أن الإنفاق على هذا الوجه مرضى نافع عند الله لا أن يهلك مالا لبدا : أى كثيراً فى الرياء والفخار وعن الحسن : عقبة والله شديدة مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوه الشيطان بخ بخ سيدنا رسول الله ﷺ يستعد لمجاوزة هذه العقبة ويتقلل من حطام الدنيا ويتزود بالتقوى لتقتدى به أمته .

(١) انظر صحيح ابن حبان حـ ٤ ص ٩٣ حديث ٢٤٩٨ فقد أورد الحديث من رواية أم سلمة .

(٢) انظر كشف الأستار عن زوائد البزار حـ ٤ ص ٢٧٠ حديث رقم ٣٦٩٦ فقد ورد الحديث عن أم الدرداء عن أبى الدرداء بلفظه وقال محققة : قال الهيثمى فى الزوائد ورجاله رجال الصحيح غير أسد بن موسى (وموسى) بن مسلم الصغير وهما ثقتان .

(٣) انظر مجمع الزوائد حـ ٣ ص ٩٧ باب ما جاء فى السؤال فقد أورد الحديث بلفظه عن أم الدرداء وقال رواه الطبرانى فى الكبير ورجاله رجال الثقات .

٣ – وروى عن أنس رضى الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ يوماً وهو آخذ بيد أبى ذر ، فقال : يا أبا ذر : أعلمت أن بين أيدينا عقبة كؤوداً لا يصعدها إلا المخفون . قال رجل : يا رسول الله أمن المخفين أنا أم من المثقلين ؟ قال : عندك طعام يوم ؟ قال : نعم ، وطعام غد . قال : وطعام بعد غد ؟ قال : لا . قال : لو كان عندك طعام ثلاث كنت من المثقلين . رواه الطبرانى(١).

المعنى : [أمن المخفين أنا أم من المثقلين] : هل أنا من الذين أحمالهم خفيفة أم ثقيلة ؟ [طعام بعد غد] : اليوم الثالث .

هذا درس زهد وورع والاقبال على الله والاخلاص له وعدم الركون إلى زخارف الدنيا . يسأل أبو ذر حبيبه ومرشده ﷺ ليعلمه طريق النجاة وسبيل الخلاص . إن الذى يمر بسلام هو القانع الذى يحب طاعة الله ويتصدق ولا يغتر بالدنيا ولا يجمع إلا ماسد الرمق وازال الجوع . والمثقل من عنده طعام ثلاثة أيام فما حال الأغنياء الآن ؟ وما عملوه بأموالهم للنجاة من حساب الله ؟ [المثقلين] : الذى حمل نفسه فوق طاقتها وأثقلها من كثرة الحساب كما قال تعالى : ﴿ **ثم لتسئلن يؤمئذ عن النعيم** ﴾ وكما قال ﷺ : « وأصحاب الجد محبوسون » .

٤ – وعن أبى أسماء أنه دخل على أبى ذر وهو بالربذة وعنده امرأة سوداء مشنعة ليس عليها أثر المحاسن ولا الخلوق فقال : ألا تنظرون إلى ما تأمرنى هذه السويداء ؟ فأمرنى أن آتى العراق ، فإذا أتيتُ العراق مالوا على بدنياهم . وإن خليلى ﷺ عهد إلى أن دون جسر جهنم طريقاً ذا دحض ومزلة وإنّا أن نأتى عليه وفى أحمالنا اقتدار واضطمار أحرى أن تنجو من أن نأتى عليه ونحن مواقير »(٢) . رواه أحمد ورواته رواة الصحيح .

[الدحض] : بفتح الدال وسكون الحاء المهملتين ، وبفتح الحاء أيضا وآخره ضاد معجمة هو الزلق .

المعنى : [الربذة] : قرية كانت عامرة فى صدر الاسلام ، وبها قبر أبى ذر الغفارى وجماعة من الصحابة وهى فى وقتنا دارسة لا يعرف بها رسم وهى عن المدينة فى جهة الشرق عن طريق حاج العراق نحو ثلاثة أيام ا.هـ مصباح . [مشنعة] : شعرها متفرق منتشر كذاع ص ٣١٩ – ٢ وفى ن ط : مسفعته ، وفى النهاية السفعة نوع من السواد ليس بالكثير وقيل سواد مع لون آخر . [المحاسن] : المحامد والجمال . [الخلوق] : العطر والرائحة الذكية . [مالوا علىَّ بدنياهم] : أقبلوا على بأعمالهم الكثيرة التى تشغلن عن طاعة الله . [عهد إلىَّ] : أفهمنى وأعلمنى أن غير الجسر عقبة صعبة وطريق كئود ذات زلق ووحل وزلل . [نأتى عليه] : نمر عليه خفافاً لا ثقالاً . [اقتدار

(١) أنظر مجمع الزوائد حـ ١٠ ص ٢٦٣ فقد أورد الحديث بلفظه عن أبى ذر وقال : رواه الطبانى فى الأوسط وفيه جنادة بن مروان قال أبو حاتم : ليس بالقوى ، وبقية رجاله ثقات .

(٢) أنظر مسند الإمام أحمد حـ ٥ ص ١٥٩ فقد أورد الحديث عن أبى ذر برواياته المتضمنه لهذه الرواية .

واضطمار] : قدرة على حمل أعبائه . [أجرى] : أولى بالفوز . [مواقير] : محملون أثقالاً ، من أوقر الدابة : أثقلها : ودابة وقرى .

٥ – وعن أبى سعيد الخدرى ـــ رضى الله عنه ـــ أن النبى ﷺ قال : « إن الله عز وجل ليحمى عبده المؤمن الدنيا وهو يحبه كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه »(١) . رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد .

المعنى : [ليحمى] : ليحفظ . [الطعام والشراب] : زاد فى ن د(٢) : تخافون عليه . المعنى أن الله تعالى بلطفه وحكمته وقدرته يسلم المطيع من آفات الحياة ويقيه أضرارها ويبعده من همومها ، رزق القناعة والرضاء نضارة الصحة كعطف الأب على ابنه إذا مرض . أو عطف القريب على قريبه فيخشى عليه تناول الأكل ويلزمه الحمية ويراعيه ويعتنى بطلباته ، فالله أحق بالرأفة وهو تعالى : الرؤوف الرحيم ففيه الترغيب فى العبادة والتفويض إلى الله تعالى فى كل الأمور رجاء السلامة من أدران الدنيا : فالله خير حافظاً .

٦ – وعن رافع بن خديج رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أحب الله عز وجل عبداً أحماه الدنيا كما يظل أحدكم يحمى سقيمه الماء »(٣) . رواه الطبران بإسناد حسن ، ورواه ابن حبان فى صحيحه ، والحاكم بلفظ من حديث أبى قتادة وقال الحاكم : صحيح الإسناد .

المعنى : [أحب الله عز وجل] : أقبل عليه برضوانه لكثرة عبادته له سبحانه .

٧ – وعن ابن عباس ـــ رضى الله عنهما ـــ عن النبى ﷺ قال : « أطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء وأطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء »(٤) . رواه البخارى ومسلم ورواه أحمد بإسناد جيد من حديث عبد الله بن عمرو وإلا أنه قال فيه : وأطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء . .

المعنى : [أكثر أهلها الفقراء] : يخبر ﷺ أن الفقراء أسبق الناس إلى دخول الجنة لأن حسابهم يسير وأكثر الناس دخولا فى النار النساء وبين ﷺ السبب فى حديث البخارى : « قالوا : لم يارسول

(١) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم حـ ٤ ص ٢٠٨ فقد أورد الحديث بلفظه من رواية لأبى سعيد الخدرى ، وقال : كذا قال عن أبى سعيد ، وفى حديث عمارة بن غزية عن قتادة بن النعمان والإسنادان عندى صحيحان .

(٢) هذه الزيادة فى الحاكم أيضا .

(٣) أنظر مجمع الزوائد حـ ١٠ ص ٢٨٥ باب « إذا أحب الله تعالى عبدا » فقد أورد الحديث بلفظه من رواية لرافع بن خريج ، وقال : رواه الطبرانى وإسناده حسن .
وانظر المستدرك على الصحيحين للحاكم حـ ٤ ص ٢٠٧ فقد أورد الحديث بلفظه من رواية لقتادة وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٤) أنظر صحيح البخارى حـ ٤ ص ١٤٢ فقد أورد الحديث بلفظه من رواية لعمران بن حصين .
وأنظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢٠٩٦ حديث رقم ٩٤ / ٢٧٣٧ فقد أورد الحديث بلفظه من رواية لابن عباس
وأنظر مسند الإمام حـ ٢ ص ١٧٣ فقد أورد الحديث من رواية لعبد الله بن عمرو .

الله ؟ قال : يكفرن . قيل يكفرن بالله . قال يكفرن العشير ويكفرن الإحسان ، لو أحسنت إلى أحداهن الدهر ثم رأت منك شيئاً ، قالت ما رأيت منك خيراً قط » قال القسطلانى العشير : أى إحسان الزوج لأنها كالمصرة على كفران النعمة والاصرار على المعصية سبب العذاب . ا هـ ص ٢٣٩ جواهر البخارى .

٨ – وعن أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ أنه قال : إن موسى صلوات الله وسلامه عليه قال : أى رب عبدك المؤمن تقتر عليه فى الدنيا ؟ قال : فيفتح له باب من الجنة فينظر إليها قال : يا موسى : هذا ما أعددت له ، فقال موسى : أى رب وعزتك وجلالك لو كان أقْطَعَ اليدين والرجلين يسحب على وجهه منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة . وكان هذا مصيره لم يرِ بؤساً قط . قال : ثم قال موسى : أى رب عبدك الكافر توسع عليه فى الدنيا ؟ قال : فيفتح له باب من النار فيقال له : يا موسى : هذا ما أعددت له . فقال موسى : أى رب وعزتك وجلالك لو كانت له الدنيا منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة وكان هذا مصيره كان لم ير خيراً قط . رواه أحمد من طريق ابن لهيعة عن دراج(١)

المعنى : [تفتر عليه] : تضيق رزقه وتقلل حاجاته . [بؤساً] : ضيقاً وشدة .

٩ – وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله عز وجل ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون الذين تسد بهم الثغور ويتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء ، فيقول الله عز وجل لمن يشاء من ملائكته : ائتوهم فحيوهم ، فتقول الملائكة : نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء فتسلم عليهم ؟ قال : إنهم كانوا عباداً يعبدونى ولا يشركون بى شيئاً وتسد بهم الثغور ويتقى بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء . قال : فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار . رواه أحمد والبزار ورواتهما ثقات ، وابن حبان فى صحيحه(٢).

المعنى : [المهاجرون] : الذين تركوا وطنهم وعاشوا مع رسول الله ﷺ فى المدينة أو فارقوا أوطانهم وذهبوا إلى بلاد الاسلام وطاعة الله موفورة . [يسد بالياء] : أى يكونون عرضة لصد هجمات الأعداء ، وحصوناً قوية منيعة لرد الخصوم الكفار الفجار ، وفى النهاية . [الثغر] : الموضع الذى يكون حداً فاصلاً بين بلاد المسلمين والكفار وهو موضع المخافة من أطراف البلاد . [تتقى بهم المكاره] : يكونون سبباً لابعاد المخاوف وهم قواد مهرة يعتمد عليهم فى إزالة الكروب . [حاجته فى

(١) انظر مسند الإمام أحمد حـ ٣ ص ٨١ والحديث عن أبى سعيد الخدرى .

(٢) انظر مسند الامام أحمد حـ ٢ ص ١٦٨ والحديث عن رواية عبد الله بن عمرو بن العاص.

أنظر كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة حـ ٤ ص ٢٥٦ رقم ٣٦٦٥ باب الفقر عن رواية عبد الله بن عمرو بن العاص .

صدره] : أى فقراء لهم مطالب ولا يشكون إلا لله . [قضاء] : أداء . [سلام عليكم] : بشارة بدوام السلامة كما قال تعالى : ﴿ **جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾ من سورة الرعد . أى هذا الثواب بسبب صبركم على الشهوات أو على أمر الله ، [أو بسلام] : أى نسلم عليكم ونكرمكم بصبركم والأول أوجه ا.هـ نسفى . [فنعم عقبى الدار] : أى أمدح هذه النتيجة التى أوصلتكم إلى الجنات ، نعم كلمة مدح وثناء ، وعقبى بمعنى عاقبة وثمرة مجناة كما قال تعالى : ﴿ **والعاقبة للتقوى** ﴾ .

١٠ – وعن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن حوضى ما بين عدن إلى عمان أكوابه عدد النجوم وماؤه أشد بياضاً من الثلج وأحلى من العسل وأكثر الناس وروداً عليه فقراء المهاجرين . قلنا : يا رسول الله صفهم لنا . قال : شعثُ الرءوس دُنْسُ الثياب الذين لا ينكحون المتنعمات ، ولا تفتح لهُمُ السدد الذين يعطون ما عليهم ولا يعطون مالهم . رواه الطبرانى ورواته رواة الصحيح ، وهو فى الترمذى وابن ماجه بنجوه[1]. [السدد] : هنا : هى الأبواب .

المعنى : [شعث الرءوس] : رءوسهم متغيرة متلبدة ، وفى المصباح : شعث الشعر شعثاً : تغير وتلبد لقلة تعهده بالدهن ورجل أشعث وامرأة شعثاء ، وهو أُشعث أغبر : أى من غير استحداد ولا تنظف ، والمعنى يهمهم طاعة الله وحده ولا يعتنون بأجسامهم مثل هذا الزمن الذى يحب خدمة نفسه ويترك طاعة الله تعالى كما وصف الله الكفار : ﴿ **إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار * والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم** ﴾ ١٢ من سورة محمد ﷺ . [دنس الثياب] : أى ملابسهم قذرة بالية . [المنعمات] : أى لا يتزوجون السيدات المترفة اللاتى لا يساعدنهن على تقوى الله . [يعطون ما عليهم] : يؤدون الواجب وحقوق الناس كاملة وحقوقهم مهضومة وأموالهم يطمع الناس فيها لتسامحهم ويعكوفهم على العبادة ، والمعنى وراد حوض رسول الله الذين يشربون من مائه العذب متحلون بصفات :

(أ) ليس عندهم شىء من طعام الدنيا يلهيهم عن ذكر الله وتسبيحه .

(ب) يتركون محال الفجور واللهو ، ويحضرون مجالس العلم ويعملون صالحاً ، ويقطعون صحبة الأشرار « المهاجرون » .

(جـ) يقبلون على تكميل أنفسهم بآداب الشرع ، ولا يتحملون ولا يعتنون بالمظاهر الكذابة « شعث » .

(د) سبداتهم مطيعة محتجبة بعيدة عن العصيان عابدة قانتة مطيعة « غير المتنعمة » .

(١) أنظر الطبرانى فى معجمه الكبير حـ ٢ ص ٩٦ رقم ١٤٣٧ ، ١٤٤٣ عن رواية ثوبان .
ورواه أحمد فى مسنده حـ ٥ ص ٢٧٥ –٢٧٦ عن رواية ثوبان وهى رواية طويلة .

(هـ) نفوسهم متواضعة لينة سهلة لايؤبه لهم ولا تحتدمهم الظلمة الجهلة ، ويعطون ما عليهم كاملا ولا يأخذون الذى استقر لهم طمعاً فى حلمهم وكرمهم .

فتى كان يدينه الغنى من صديقة إذا ماهو استغنى ويبعده الفقر
فتى لا يعد المال ربا ولا ترى به حفوة إن نال مالا ولا كبر
فتى كان يعطى السيف فى الروع حقه إذا ثوب الداعى وتشفى به الجزر
وهون وجدى أننى سوف أغتدى على إثره يوماً وإن نفس العمر

١١ - وعن أبى سلام الأسود أنه قال لعمر بن عبد العزيز : سمعت ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ حوضى ما بين عدن إلى عمان البلقاء ماؤه أشد بياض من اللبن وأحلى من العسل وأكاويه عدد النجوم من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً أول الناس وروداً عليه فقراء المهاجرين الشعث رءوساً ، الدنس ثياباً الذين لا ينكحون المنعمات ولا تفتح لهم السدد قال فقال عمر : لكنى قد نكحتُ المنعمات فاطمة بنت عبد الملك وفتحت لى السدد ، لا جرم أنى لا أغسل رأسى حتى يشعث ولا ثوبى الذى يلى جسدى حتى يتسخ . رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم واللفظ له وقال : صحيح الاسناد[1].

المعنى : [لم يظمأ] : لم يطرأ عليه عطش أبداً ولا يصيبه ألم ولا شدة وشرباً بفتح الشين المصدر ، وبضمها وبكسرها : اسم « فشاربون شرب الهيم » . [نكحت المنعمات] : سيدنا عمر تزوج النساء الجميلات اللائى وصفن بالنعيم والعز وقوبل بكل اجلال واحترام وخشى الناس بأسه ، ثم أراد أن يتقشف ويخشوشن ولقد ثبت أنه رفع ثوبه وخصف نعله كرسول الله ﷺ ولبس الثوب المرقع وفى حلية الأولياء مشى مرة وهو أمير المؤمنين فخلع نعله وعبر ما كان يملأ الشارع . [لا جرم أنى] : حقاً أنى . [يشعث] : يتغير ويتلبد والمعنى سأقبل على تكميل الباطن وأدع الظاهر .

١٢ - وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً ، فقيل : صفهم لنا ؟ قال : الدَّنِسَةُ ثيابُهُمُ الشعثة رءوسهم الذين لا يؤذن لهم على السدات ولا ينكحون المنعمات توكل بهم مشارق الأرض ومغاربها يعطون كل الذى عليهم ولا يعطون كل الذى لهم . رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ورواته ثقات[2]. ورواه مسلم متخضراً : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن فقراء أمتى المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة بأربعين خريفاً . ورواه ابن حبان فى صحيحه مختصراً أيضا ، وقال : بأربعين عاماً .

(١) أنظر المستدرك على الصحيحين فى الحديث للحاكم حـ ٤ ص ١٨٤ كتاب اللباس باب بيان أوصاف حوض الكوثر عن رواية ثوبان .

(٢) انظر الترغيب والترهيب للمنذرى حـ ٤ ص ١٣٦ حديث رقم ١٢ « باب يدخل فقراء أمتى الجنة » عن رواية عبد الله بن عمر بن الخطاب . وزاد فيه أن مسلماً رواه مختصراً : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن فقراء أمتى المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة بأربعين خريفاً : ورواه ابن حبان فى صحيحه مختصراً أيضاً ، وقال : بأربعين عاماً وحديث : « إن فقراء أمتى ... الخ » . وفى صحيح مسلم كتاب الزهد والرقاق حـ ٤ ص ٢٢٨٥ رقم ٣٧ / ٢٩٧٩ عن رواية عبد الله بن عمرو بن العاص .

المعنى : [خريفاً] : عاماً « سنة » . [لايؤذن لهم على السدات] : يقفون مدة طويلة على الأبواب إذا طلبوا السؤال فلا يعتنى بهم لتواضعهم وحلمهم وذهبت عنهم صفة التكبر والتجبر . [المنعمات يوكل] : المعنى نفوسهم خاضعة خاشعة لله فانية فى ذكره .

١٣ - وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : يجتمعون يوم القيامة ، فيقال : أين فقراء هذه الأمة : قال : فيقال لهم : ماذا عملتم ؟ فيقولون ربنا ابتلينا فصبرنا ووليت الأموال والسلطان غيرنا فيقول الله جل وعلا : صدقتم قال : فيدخلون الجنة قبل الناس ويبقى شدة الحساب على ذوى الأموال والسلطان . قالوا : فأين المؤمنون **يومئذ** ؟ قال : يوضع لهم كراس من نور ويظلل عليهم الغمام يكون ذلك اليوم أقصر على المؤمنين من ساعة من نهار . رواه الطبرانى وابن حبان فى صحيحه(١).

المعنى : [ابتلينا فصبرنا] : أى أفقرتنا اختباراً لنا فأطعناك ورضيناك وحبسنا الأنفس عن الجزع ولم نعصك . [ووليت السلطان والأموال] : أى يارب أسندت إدارة الأموال الوفيرة والنعم الكثيرة لغيرنا من عبادك وكذا الحكم والأمر النافذ والسلطة القاهرة وجعلتنا فقراء فى الحياة الدنيا . [يبقى شدة الحساب على ذوى الأموال والسلطان] : يسألهم ربهم عز وجل فيم أنفقتم أموالكم ؟ وأين أضعتموها ؟ وما الصالحات التى شيدتموها ؟ ولماذا ملكتم فظلمتم ؟ وهكذا يسألون عن الصغير والكبير. قال تعالى : ﴿ **ألم تعلم أن الله يعلم مافى السماء والأرض إن ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير** ﴾ ٧٠ من سورة الحج . سبحانه لا يخفى عليه شيء وإن الاحاطة به واثباته فى اللوح المحفوظ أو الحكم بينكم على الله يسير أى سهل لأن علمه مقتضى ذاته المتعلق بكل المعلومات سواء . وشاهدنا احاطة الله بأعمال عبادة ليثيب المحسن ويعاقب المسيء كما قال تعالى : ﴿ **وما للظالمين من نصير** ﴾ نسأل الله السلامة : إن الدين يدعو إلى النظافة والنظافة من الإيمان فالمعنى أن هؤلاء الصالحين يحبون تحسين الباطن وتكميله وانشغاله بربه ، وإذا قربت إليهم أيها الأخ المسلم وجدت رائحتهم جميلة طاهرة نقية لأن الله تعالى جميل ويحب الجميل والنبى ﷺ جعل الطهارة اساساً لصحة الصلاة . وقال الله تعالى : ﴿ **وثيابك فطهر** ﴾ . [الغمام] : أى السحاب يكون عليهم كالظلة يقيهم حر الشمس المحرقة . [ذلك اليوم] : أى يوم القيامة يمر عليهم بسلامة لا يشعرون فيه بألم أو شدة ، الله أكبر التقشف والتقلل من حطام الدنيا والتباعد عن الرياسة والسلطة ينجى من شدائد يوم الحساب ، ويتمتع الزاهد الفقير بالأضواء المشرقة والنعيم المقيم كما قال الله تعالى : ﴿ **فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً * وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا** * ﴾ من سورة الدهر والله تعالى أخبرنا فى كتابه ﴿ **للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون** ﴾ ٨ من سورة الحشر .

---

(١) أنظر الترغيب والترهيب للمنذرى حـ ٤ ص ١٣٦ - ١٣٧ حديث رقم ١٣ « باب يدخل فقراء أمتى الجنة » عن رواية عبد الله بن عمرو بن العاص بلفظه .

قال البيضاوى : فإن كفار مكة أخرجوهم وأخذوا أموالهم وقد جاهدوا فى الله حق جهاده بأنفسهم وأموالهم ا.هـ . وينال ثوابهم من هاجر فى سبيل نصر دين الله وأقام شعائره وعمل بكتابه وسنة رسوله وترك الأشرار العصاة ونبذ صحبتهم .

١٤ – وعن عبد الرحمن بن سلط قال : أرسل عمر بن الخطاب إلى سعيد بن عامر : إنا مستعلموك على هؤلاء تسير بهم إلى أرض العدو فتجاهد بهم . قال : فذكر حديثا طويلا قال فيه : قال سعيد : وما أنا بمختلف عن العنق الأول بعد إذ سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن فقراء المسلمين يزفون كما تزف الحمام فيقال لهم : قفوا للحساب ، فيقولون : والله ما تركنا شيئاً نحاسب به فيقول الله عز وجل : صدق عبادى فيدخلون الجنة قبل الناس بسبعين عاماً[١]. رواه الطبرانى وأبو الشيخ وابن حبان فى الثواب ورواتهما ثقات إلا يزيد بن أبى زياد .

المعنى : [مستعلموك] : أى نستفهم عن سير الأبطال المجاهدين . [العنق الأول] : الفوج : أى الطائفة المسرعة فى طاعة الله تعالى وفى المصباح : العنق ضرب من السير فسيح سريع من أعنق إعناقاً . [الحمام] : الطيور المغردة جميلة الصورة حسنة الهيئة يفرح بها أصحابها ويطربون بها .

١٥ – وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : كنت عند رسول الله ﷺ يوماً ، فطلعت الشمس فقال : يأتى قوم يوم القيامة نورهم كنور الشمس قال أبو بكر : نحن هم يا رسول الله ؟ قال : لا ولكم خير كثير ولكنهم الفقراء المهاجرون الذين يحشرون من أقطار الأرض . فذكر الحديث رواه أحمد والطبرانى وزاد ثم قال : طوبى للغرباء قيل : من الغرباء ؟ قال : أناس صالحون قليل فى ناس سوء كثير من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم . وأحد أسنادى الطبرانى رواته رواة الصحيح[٢].

المعنى : [يحشرون] : يوجدون من جميع جهاتها . [طوبى] : مكان فى الجنة يناله البعيد عن وطنه حباً فى رضا الله تعالى ورسوله وابتغاء فراق الأشرار العصاة . [ناس سوء] :أي رفاق عصاة فجرة طغاة ظلمة فيفارقهم الصالحون خشية العدوى والقدوة السيئة . [كثير من يعصيهم] : الذى يوافقهم فى المعاصى أكثر من الأبرار المطيعين .

١٦ – وعن أبى الصديق الناجى عن بعض أصحاب النبى ﷺ أنه قال : يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل الأغنياء بأربعمائة عام ـــ قال فقلت : إن الحسن يذكر أربعين عاماً ؟ فقال : عن أصحاب النبى ﷺ أربعمائة عام حتى يقول المؤمن الغنى : يا ليتنى كنت عيلا . قال : قلت يا رسول الله : سمهم لنا بأسمائهم ؟ قال : هم الذين إذا كان مكروه بعثوا إليه ، وإذا كان نعيم بعث إليه سواهم . وهم الذين يحجبون عن الأبواب[٣]. رواه أحمد من رواية زيد ابن الحوارى عنه .

---

(١) أنظر مجمع الزوائد حـ ١٠ ص ٢٦١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعبد الرحمن بن سابط

(٢) انظر مجمع الزوائد حـ ١٠ ص ٢٥٨ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية عبد الله بن عمرو .

(٣) أنظر مجمع الزوائد حـ ١٠ ص ٢٦٠ فقد أورد الحديث من رواية لأبى بكر الصديق وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير زيدبن أبى الحوارى وقد وثق على ضعفه .

المعنى : [عيلا] : مؤمناً فقيراً لا أملك شيئاً فى حياتى حتى يقل حساب ما أنعم على به فى دنياى . [إذا كان مكروه بعثوا إليه] : يرسلون للشدائد ويواجهون الصعاب لشدة إيمانهم بالله تعالى والثقة بنصره كما قال تعالى : ﴿ **إن الله يدافع عن الذين آمنوا** ﴾ ويرسل غيرهم لكسب الأموال وجلب الخيرات وينل الأرزاق الواسعة العيش الرغد . [يحجبون عن الأبواب] : معناه لزهادتهم فى الدنيا يمنعون من الدخول على الحكام أى لا يحترمهم الناس لتواضعهم وخلع رداء الكبر عنهم « هينون لينون أيسار ذوو كرم » .

١٧ - وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم خمسمائة عام(١). رواه الترمذى وابن حبان فى صحيحه وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

قال الحافظ : ورواته محتج بهم فى الصحيح ، ورواه ابن ماجه بزيادة من حديث موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر .

١٨ - وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : التقى مؤمنان على باب الجنة : مؤمن غنى ومؤمن فقير كانا فى الدنيا فأدخل الفقير الجنة وحبس الغنى ماشاء الله أن يحبس ثم أدخل الجنة فلقيه الفقير فقال : يا أخى ماذا حبسك ؟ والله لقد حبست حتى خفت عليك ، فيقول : يا أخى إنى حبستُ بعدك محبسا فظيعاً كريهاً ما وصلت إليك حتى سال منى من العرق مالو ورده ألف بعير كلها أكلةُ حمض النبات لصدرت عنه رِوَاءً(٢). رواه أحمد بإسناد جيد قوى .
« الحمض » : ما ملح وأمر من النبات .

المعنى : حبس الغنى] : انتظر للحساب على أمواله . [ماذا حبسك] : أى شىء أبعدك عن دخول الجنة ؟ [محبساً فظيعاً] : حبساً شديد الأهوال .

١٩ - وعن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنهما قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه أجمع ماكانوا ، فقال : إنى رأيت الليلة منازلكم فى الجنة ، وقرب منازلكم ثم إن رسول الله ﷺ أقبل على أبى بكر رضى الله عنه فقال يا أبا بكر : إنى لأعرف رجلا أعرف اسمه ، واسم أبيه وأمه لايأتى باباً من أبواب الجنة إلا قالوا : مرحبا مرحبا . فقال سلمان :من هذا المرتفع شأنه يا رسول الله ؟ قال : فهو أبو بكر بن أبى قحافة ، ثم أقبل على عمر رضى الله عنه فقال : يا عمر لقد رأيت فى الجنة قصراً من درة بيضاء لؤلؤة أبيض مشيد بالياقوت فقلت : لمن هذا ؟ فقيل : لغنى من قريش ، فظننت أنه لى فذهبت لأدخله ، فقال : يا محمد هذا لعمر بن الخطاب ، فما منعنى من دخوله إلا غيرتك يا

(١) أنظر صحيح ابن حبان حـ ٢ ص ٣٣ فقد ورد الحديث رقم ٦٧٤ من رواية لأبى هريرة .
وانظر سنن ابن ماجه حـ ٢ ص ١٣٨٠ رقم ٤١٢٢ فقد أورد الحديث عن رواية لأبى هريرة .
وانظر سنن الترمذى حـ ٤ ص ٩٠٨ رقم ٢٤٥٨ فقد أورد الحديث من رواية أبى هريرة وقال هذا حديث حسن صحيح
(٢) انظر مسند الإمام أحمد حـ ١ ص ٣٠٤ فقد أورد الحديث من رواية لابن عباس .

أبا حفص ، فبكى عمر وقال : بأبي وأمي عليك أغار يا رسول الله ؟ ثم أقبل على عثمان رضى الله عنه ، فقال يا عثمان إن لكل نبى رفيقاً فى الجنة وأنت رفيقى فى الجنة ، ثم أخذ بيد على رضى الله عنه فقال يا على : أوماترضى أن يكون منزلك فى الجنة مقابل منزلى ، ثم أقبل على طلحة والزبير رضى الله عنهما ، فقال : يا طلحة ويا زبير : إن لكل نبى حوارى وأنتما حوارِيَّ ، ثم أقبل على عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه فقال : لقد بَطَّأ بك عنا من بين أصحابى حتىَ خشيت أن تكون هلكت وعَرِقْتُ عرقاً شديداً ، فقلت : ما بطأ بك ؟ فقلت : يا رسول الله من كثرة مالى مازلت موقوفاً محاسباً أسأل عن مالى من أين اكتسبته وفيما أنفقته ، فبكى عبد الرحمن ، وقال : يا رسول الله هذه مائة راحلة جاءتنى الليلة من تجارة مصر فإنى أشهدك أنها على فقراء أهل المدينة وأيتامهم لعل الله يخفف عن ذلك اليوم[1]. رواه البزار واللفظ له والطبرانى ورواته ثقات إلى عمار بن سيف وقد وثق .

« قال الحافظ » : وقد ورد من غير وجه ومن حديث جماعة من الصحابة عن النبى ﷺ : أن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه يدخل الجنة حبواً لكثرة ماله ، ولا يسلم أجودها من مقال ، ولا يبلغ منها شيء بانفراده درجة الحسن ، ولقد كان ماله بالصفة التى ذكر رسول الله ﷺ : نعم المال الصالح للرجل الصالح ، فأنى تنقص درجاته فى الآخرة أو يقصد به دون غيره من أغنياء هذه الأمة ؟ فإنه لم يرد هذا فى حق غيره إنما صح سبق فقراء هذه الأمة أغنياءهم على الإطلاق والله أعلم .

المعنى : [مرحبا] : وجدت مكاناً راحبا : أى واسعاً وسروراً وتشريفاً مباركاً . [غيرتك] : الحمية والأنفة والشهامة على حفظ الحريم . [أن يكون منزلك فى الجنة مقابل منزلى] : كذا ط و ع ص ٣٣٢ - ٢ ، وفى ن د : أن تكون منزلتك مقابل منزلتي . [حوارى] : أنصار مخلصين وأتباعاً صالحين . [بطأ] : أى أخرك . استفهم ﷺ عن سبب تأخيره ، ولم يلحق درجات الصالحين الأوائل حتى خاف ﷺ أن يهلك عبد الرحمن فأجاب رضى الله عنه بوفرة أمواله ، ودقة الحساب : من أى مكان أوجده ؟ وعلى من أنفقه ؟ وفى أى الوجوه صرفه ؟ ثم أثمر درسه ﷺ فأكثر سيدنا عبد الرحمن من أفعال البر ووجه خيرات مائة راحلة إلى الفقراء والأيتام ذخيرة عند ربه جل وعلا ورجا أن ينجيه من أهوال القيامة . انتبهوا يا أصحاب الأموال والضيعات فالله تعالى سيحاسبكم عليها . أنفقوا فى حياتكم وشيدوا أعمال البر وساعدوا على انشاء المشروعات المفيدة ، إن الوطن يناديكم أن توجدوا أعمالا حرة لأبنائه . شيدوا مصنوعات وأنشئوا الشركات الوطنية ، وحرام عليكم أن تودعوا الأموال فى المصارف مكدسة مخزونة بلا استثمار طيب وحلال ، وقد رأيتم سيدنا عبد الرحمن وهو صاحب المنزلة الرفيعة فى الدين ومع ذلك وقف ليسأل وتأخر عن زملائه وبعبارة أخرى « يدخل الجنة حبواً » : أى يدرج على بطنه ويزحف على الأرض لماذا ؟ لأنه كثير الغلات وافر الخيرات مع شهادة عدول له أنه رضى الله عنه سباق إلى المكارم جواد وكريم محسن « نعم المال الصالح للرجل

(١) انظر كنز العمال حـ ١٣ ص ٢٥٨ حديث رقم ٣٦٧٤٨ فقد أورد الحديث من رواية لعبد الله ابن أبى أوفى ، وقال رواه ابن عساكر .

الصالح » : أى أمدح المال إذا وفق صاحبه لأعمال البر مثل سيدنا عبد الرحمن ، فأين الثريا والثرى من أغنياء زمننا هذا وما يفعلون بغناهم الآن ؟ هل استعدوا ليوم الحساب » .

٢٠ - وعن أسامة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : قُمتُ على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين وأصحاب الجد محبوسون غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء(١). رواه البخارى ومسلم
« الجد » بفتح الجيم : هو الحظ والغنى .

المعنى : [المساكين] : الفقراء . [محبوسون] : منتظرون للحساب على باب الجنة ـــ فيم أنفقوا ؟ ومن أين جمعوا ؟

٢١ - وعن أبي أمامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : رأيتُ أنى دخلتُ الجنةَ فإذا أعالى أهل الجنة فقراء المهاجرين وذرارى المؤمنين وإذا ليس فيها أحد أقل من الأغنياء والنساء فقيل لى : أما الأغنياء فإنهم على الباب يحاسبون ويمحصون ، وأما النساء فألهاهن الأحمران : الذهب والحرير الحديث . رواه أبو الشيخ ابن حبان وغيره عن طريق عبد الله بن زحر عن على بن يزيد عن القاسم عنه(٢).

المعنى : [ذرارى] : الصغار الذين لم يبلغوا الحلم . [يمحصون] : يزكون ويطهرون كما قال تعالى : ﴿ **وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين** ﴾ وليمحص مافى قلوبكم . فالتمحيص التزكية وأصله إزالة ما يشوبه من خبث وتخليص الشيء مما فيه من عيب كالفحص . [ألهاهن الأحمران] : غرهن التنعم والترف فقصرن فى حقوق الله .

٢٢ - وروى عن أنس رضى الله عنه : أن النبى ﷺ قال : اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين يوم القيامة فقالت عائشة : لِمَ يا رسول الله ؟ قال : إنهم يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً يا عائشة لا تردى مسكينا ولو بشق تمرة . يا عائشة حبى المساكين وَقرِّبيهم ، فإن الله يقربك يوم القيامة . رواه الترمذى ، وقال : حديث غريب ، وتقدم فى صلاة الجماعة حديث ابن عباس عن النبى ﷺ قال : أتانى الليلة آت من ربى ، وفى رواية : ربى فى أحسن صورة فذكر الحديث إلى أن قال : قال يا محمد . قلتُ لبيك وسعديك ، فقال : إذا صليت قل : اللهم إنى أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وإذا اردت بعبادك فتنه فاقبضنى إليك غير مفتون . الحديث . رواه الترمذى وحسنه(٣).

---

(١) انظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢٠٩٦ حديث رقم ٩٣ / ٢٧٣٦ فقد أورد الحديث من رواية لأسامة ابن زيد .
(٢) انظر مسند الامام أحمد حـ ٥ ص ٢٥٩ فقد أورد الحديث عن رواية أبى أمامة .
أنظر مجمع الزوائد للهيثمى حـ ١٠ ص ٢٦١ - ٢٦٢ فقد أورد الحديث عن رواية أبى أمامة .
(٣) أنظر سنن الترمذى حـ ٤ ص ٨ حديث رقم ٢٤٥٧ كتاب الزهد باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم .

المعنى : [مسكينا] : المسكين الذى لاشىء له ، وهو أبلغ من الفقير . يدعو ﷺ أن يرزقه الله الهيبة والخشية ويبعد عنه زخارف الدنيا حتى يخلص لعبادته سبحانه . [لبيك وسعديك] : إجابة بعد إجابة وإسعاداً بعد اسعاد ثم أمر ﷺ بطلب ثلاثة :

(أ) الاعانة على تشييد الصالحات وإيجاد المحامد وغرس المكارم .

(ب) الابتعاد عن القبائح وهجر الموبقات وصحبة الأشرار .

(جـ) إكرام الضعفاء والتقرب إلى الصالحين ومودتهم وصحبة الأخيار الأبرار .

[فتنة] : اختباراً . [فاقبضنى إليك] : فالحقنى إلى الرفيق الأعلى سليماً من كل محنة .

٢٣ - وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : اللهم أحينى مسكينا وتوفنى مسكينا ، واحشرنى فى زمرة المساكين وإن أشقى الأشقياء من اجتمع عليه فقر الدنيا وعذاب الآخرة . رواه ابن ماجة إلى قوله : المساكين ، والحاكم بتمامه ، وقال صحيح الإسناد(١). ورواه أبو الشيخ والبيهقى عن عطاء ابن أبى رباح سمع أبا سعيد يقول : يا أيها الناس : لا تحملنكم العسرة على طلب الرزق من غير حله فإنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : اللهم توفنى فقيراً ولا توفنى غنياً ، واحشرنى فى زمرة المساكين ، فإن أشقى الأشقياء من اجتمع عليه فقر الدنيا وعذاب الآخرة . قال أبو الشيخ : زاد فيه غير أبى زرعة عن سليمان بن عبد الرحمن ولا تحشرنى فى زمرة الأغنياء .

المعنى : [العسرة] : الضيق الشدة . [طلب الرزق من غير حلة] : جمع المال من وجوه الحرام خشية عذاب الله فى الآخرة لكم . قال تعالى :

(أ) ﴿ **يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ ١٦٨ من سورة البقرة .

(ب) وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله** ﴾ سورة البقرة

٢٤ - وعن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعاً : أحبوا الفقراء وجالسوهم وأحب العرب من قلبك وليردك عن الناس ما تعلم من نفسك . رواه الحاكم(٢) وقال : صحيح الاسناد .

المعنى : [أحبوا الفقراء] : أظهروا مودتهم وقدموا لهم الاكرام والاحترام . [العرب] : أصحاب النبى ﷺ وأهله وأتباعه ومن سلك سنته إلى يوم الدين . [ليردك عن الناس ما تعلم من نفسك] : ليبعدك عن الناس تقصيرك فى حقوق الله وكل ما تعلمه من خلالك خيرها وشرها .

٢٥ - وعن عائذ بن عمرو : أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال فى نفر فقالوا :

---

(١) انظر سنن بن ماجه حـ ٢ ص ١٣٨١ رقم ٤١٢٦ كتاب الزهد باب مجالسة الفقراء من رواية أبى سعيد الخدرى .
انظر المستدرك على الصحيحين حـ ٤ ص ٣٢٢ كتاب الرقاق من رواية أبى سعيد الخدرى .

(٢) انظر المستدرك للحاكم حـ ٤ ص ٣٣٢ كتاب الرقاق من رواية أبو هريرة .

ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم ، فأتى النبى ﷺ فأجاره فقال : يا أبا بكر : لعلك أغضبتهم ؟ لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك ، فأتاهم أبو بكر ، فقال : يا إخوتاه أغضبتكم ؟ قالوا : لا ، يغفر الله لك يا أخي . رواه مسلم[1] وغيره .

المعنى : [نفر] : جماعة . [فقالوا] : سادتنا سلمان وصهيب وبلال تهكموا بأبى سفيان فأنكر قولهم أبو بكر وسماه سيداً ، وأمر ﷺ أبا بكر أن يصلح هؤلاء السادة الأبرار لأن رضاهم من رضا الله جل وعلا كما قال تعالى : ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ فذهب رضى الله عنه يستعطفهم ويستحيلهم عذراً ويتمنى رضاهم . أبو سفيان رجل كبير فى قومه ذو مكانة سامية ولكن احتقره هذا النفر لكفره وعناده وعداوته لله ورسوله فدافع عنه أبو بكر ولكن آسف واستغفر ربه والله غفور رحيم .

[لشيخ قريش] : حماه وهو رئيس قبيلة وصاحب كلمة نافذة وسلطان قوى وأنجب ابنه سيدنا معاوية رضى الله عنه رأس الدولة الأموية . [أغضبت ربك] : إذ تعديت على أوليائه . [أغضبتكم ؟] : هل تكدرتم من دفاعى عن أبى سفيان ؟ فأظهروا غضبهم من الدفاع عن أهل الكفر والله ولى المؤمنين ففيه محبة المسلمين وعدم الدفاع عن الفسقة الملحدين . [قالوا : لا، يغفر الله لك يا أخى] : أى ما أغضبتنا ، ثم ادعوا له بالغفران وزيادة الإحسان لأنه رضى الله عنه أخوهم فى الدين ، وهنا درس أخلاق ، يحمى رسول الله ﷺ أبا سفيان ثم يلزمه أبا بكر بإرضاء أصحابه فيسترضيهم ويطلبون له الخير والعز والسعادة .

٢٦ – وعن أمية عبد الله بن خالد بن أسيد قال : كان رسول الله ﷺ يستفتح بصعاليك المسلمين . رواه الطبرانى ورواته رواة الصحيح[2] وهو مرسل . وفى رواية : يستنصر بصعاليك المسلمين .

المعنى : [يستفتح] : يطلب الفتح والفوز . [صعاليك المسلمين] : فقرائهم ، ففيه أن الانسان يتبرك ويستبشر بالضعفاء كما قال ﷺ « هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم » .

٢٧ – عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : كان ليعقوب أخ مؤاخ فى الله تعالى ، فقال ذات يوم : يا يعقوب ما الذى أذهب بصرك ؟ قال : البكاء على يوسف . قال : ما الذى قوس ظهرك ؟ قال : الحزن على بنيامين ، فأتاه جبريل فقال : يا يعقوب ! إن الله يقرئك السلام ، ويقول : أما تستحى أن تشكونى إلى غيرى ؟ قال : إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله فقال جبريل : الله أعلم بما تشكو يا يعقوب ، ثم قال يعقوب : أى رب أما ترحم الشيخ الكبير ! أذْهَبْتَ

---

(١) انظر صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة ح ٤ ص ١٩٤٧ رقم ١٧٠ / ٢٥٠٤ كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل سلمان وصهيبه وبلال رضى الله عنهم .

(٢) انظر مجمع الزوائد للهيثمى حـ ١٠ ص ٢٦٢ من رواية أمية بن خالد بن عبد الله بن أسيد .

بصرى ، وقوست ظهرى ، فازدد على ريحانتى أشمه شمة قبل الموت ، ثم اصنع بى ما أردت قال : فأتاه جبريل ، فقال : إن الله يقرئك السلام ، ويقول لك : أبشر ، وليفرح قلبك فوعزتى لو كانا ميتين لنشرتهما فاصنع طعاماً للمساكين فإن أحب عبادى إلى الأنبياء والمساكين ، وتدرى لم أذهبتُ بصرك وقوست ظهرك ، وصنع إخوة يوسف بيوسف ماصنعوا ؟ إنكم ذبحتم شاة فأتاكم مسكين يتيم وهو صائم فلم تطعموه منه شيئا قال : فكان يعقوب عليه السلام بعد ذلك إذا أراد **الغداء أمر مناديا** فنادى : ألا من أراد الغداء من المساكين فليتغذ مع يعقوب ، وإن كان صائماً أمر منادياً فنادى : ألا من كان صائماً من المساكين فليفطر مع يعقوب عليه السلام . رواه الحاكم ومن طريقة البيهقى عن حفص بن عمر بن الزبير عن أنس قال الحاكم(١) : كذا فى سماعى عن حفص بن عمر ابن الزبير ، وأظن الزبير وهم ؟ وأنه حفص بن عمر بن عبد الله بن أبى طلحة ، فإن كان كذلك فالحديث صحيح ، وقد أخرجه اسحاق بن راهويه فى تفسيره قال : أنبأنا عمرو ابن محمد حدثنا زافر بن سليمان عن يحيى بن عبد الملك عن أنس عن النبى ﷺ بنحوه .

المعنى : [مؤاخ] : صديق متفق معه على طاعة الله تعالى . [يا يعقوب] : يوم : يا يعقوب كذا د و ع ص ٣٢٤ - ٢ وفى ن ط : ذا يوم ليعقوب يا يعقوب . [أذهب بصرك] : لفقده وذهابه . [قوس ظهرك] : حناه . [أشكو بثى] : كشف ما انطويت عليه من الغم ، وفى الغريب : أى غمى الذى يبثه عن كتمان فهو مصدر فى تقدير مفعول أو بمعنى غمنى الذى بث فكرى نحو توزعنى الفكر . [رب أما ترحم الشيخ الكبير] : توسل به سبحانه وتعالى يعقوب فى الخلوة ودعاه وطلب الرأفة منه جل وعلا . [لنشرتهما] : لأحييتهما . [فاصنع طعاماً للمساكين] : أعمل موائد أكل لفقراء الله تعالى . [وتدرى] : هل تعلم ؟ [مبسكين يتيم] : فقير مات أبوه .

٢٨ - وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : أوصانى خليلى رسول الله ﷺ بخصال من الخير : أوصانى بأن لا أنظر إلى من هو فوق وأن أنظر إلى من هو دونى وأوصانى بحب المساكين والدنو منهم وأوصانى أن أصل رحمى وإن أدبرت . الحديث رواه الطبرانى وابن حبان فى صحيحه(٢).

المعنى : [فوق] : الذى هو أعلى منى فى المال والجاه والصحة . [دونى] : أقل منى فى النعم والصحة . [الدنو منهم] : القرب منهم والعطف عليهم واكرامهم . [أن أصل رحمى] : أزور أقاربى وأمدهم بالمودة والعطاء وأن قاطعت أو تباعدت أو هجرت ينصح ﷺ أبا ذر أن يتبع مناهج أربعة هى منابع العز ومعين السعادة والسرور وكثرة الرزق .

(أ) الرضا بالقليل وعدم الفكر فى رقى من سما عليه خشية استصغار نعم الله التى فاز بها وتمتع بخيراتها ، فيغضب أو يحسد أو يغتاب أو يسخط .

(١) انظر المستدرك للحاكم حـ ٢ ص ٣٤٨ كتاب التفسير من رواية أنس بن مالك .

(٢) انظر مجمع الزوائد للهيثمى حـ ١٠ ص ٢٦٣ من رواية أبى ذر .
انظر الاحسان بصحيح بن حبان حـ ١ ص ٣٣٧ رقم ٤٥٠ من رواية أبى ذر باب ذكر وصية المصطفى ﷺ بصلة الرحم وإن قطعت .

(ب) يقارن نفسه بالذى هو أقل منه فى النعم رجاء الحمد والشكر والقناعة وكثرة العبادة كما قال تعالى : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ .

(جـ) حب الفقراء ومجالستهم .

(د) زيارة الأقارب والاحسان إليهم .

٢٩ - وعن حارثة بن وهب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف مستضعف لو يُقسِمُ على الله لأبره . ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ مستكبر . رواه البخارى وابن ماجه ومسلم(١) .

« العتل » بضم العين والتاء وتشديد اللام : هو الجانى الغليظ .

« الجوّاظ » بفتح الجيم وتشديد الواو وآخره ظاء معجمة : هو الضخم المختال فى مشيته وقيل : القصير البطين وقيل الجموع المنوع .

٣٠ - وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : أهل النار كل جعظرى جواظ مستكبر جماع مناع . وأهل الجنة الضعفاء المغلوبون . رواه أحمد والحاكم(٢) ، وقال : صحيح على شرط مسلم .

« الجعظرى » بفتح الجيم وإسكان العين المهملة وفتح الظاء المعجمة قال ابن فارس : هو المنتفخ بما ليس عنده .

المعنى : [جماع] : يحب جمع المال لطمعه وشرهه . [مناع] : لا يرجى خير منه . [الضعفاء المغلوبون] : الذين يغلب على أمرهم لقناعتهم ورضاهم .

٣١ - وعن حذيفة رضى الله عنه قال : كنا مع النبى ﷺ فى جنازة فقال : ألا أخبركم بشر عباد الله ؟ الفظ المستكبر . ألا أخبركم بخير عباد الله : الضعيف المستضعف ذو الطمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره . رواه أحمد ورواته(٣) رواة الصحيح ! لا محمد بن جابر .

« الطمر » بكسر الطاء : هو الثوب الخلق .

المعنى : [الفظ المستكبر] : الخشن الجافى فظيع المعاملة قاسى الطبع . [لايؤبه له] : لايعتنى به .

---

(١) انظر سنن بن ماجه حـ ٢ ص ١٣٧٨ رقم ٤١١٦ كتاب الزهد باب من لا يؤبه له .
انظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢١٩٠ رقم ٤٦ / ٢٨٥٣ كتاب الجنة وصفة لغيرها وأهلها باب النار يدخلها الجبارون ، والجنة يدخلها الضعفاء من رواية حارثة بن وهب .

(٢) انظر مسند الامام أحمد حـ ٤ ص ٣٠٦ من رواية عبد الله بن عمرو .
أنظر المستدرك للحاكم حـ ٢ ص ٤٩٩ باب التفسير سورة ن والقلم من رواية عبد الله بن عمرو .

(٣) انظر مسند الامام أحمد حـ ٥ ص ٤٠٧ من رواية حذيفة .

٣٢ – وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ألا أخبركم عن ملوك الجنة ؟ قلت : بلى قال : رجل ضعيف مستضعف ذو طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره . رواه ابن ماجه[١] ورواة إسناده محتج بهم فى الصحيح إلا سويد بن عبد العزيز .

٣٣ – وعن سراقة بن مالك بن جعشم رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : يا سراقة ألا أخبرك بأهل الجنة وأهل النار قلتُ : بلى يا رسول الله . قال : أما أهل النار فكل جعظرى جواظ مستكبر ، وأما أهل الجنة فالضعفاء المغلوبون . رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ، والحاكم[٢] وقال : صحيح على شرط مسلم .

٣٤ – وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : أحتجت الجنة والنار فقالت النار : فىَّ الجبارون والمتكبرون وقالت الجنة : فىَّ ضعفاء المسلمين ومساكينهم ، فقضى الله بينهما : إنك الجنة رحمتى أرحم بك من أشاء ، وإنك النار عذابى أعذب بك من أشاء ولكليكما علىَّ ملؤها . رواة مسلم[٣]

المعنى : [احتجت] : تخاصمتا بلسان المقال والحال . [الجبارون] : اختصصت بالمتكبر المتعظم بما ليس فيه والمتجبر الظالم الممنوع الذى لا يوصل إليه أو الذى لا يكترث بأمر الضعفاء من الناس وسقطهم ، وفسر القسطلانى ضعفاء الناس وسقطهم بالمحتقرين بين الناس الساقطين من أعينهم لتواضعهم لربهم ا هـ .

٣٥ – وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة[٤]. رواه البخارى ومسلم .

المعنى : [العظيم] : فى الطول والجاه المنتفخة أو واجه الترف المتنعم الممتلىء صحة ، [السمين] : الأكول الشروب ، وزاد البخارى وقال اقرءوا « فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا » . قال البيضاوى : أى فنزدرى بهم ولا نجعل لهم مقداراً واعتباراً .

أولا نضع لهم ميزانا توزن به أعمالهم لانحياطها ا هـ .

وقال النسفى : فلا يكون لهم عندنا وزن مقدار ا هـ .

٣٦ - وعن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : مر رجل على النبى ﷺ فقال لرجل عنده جالس : ما رأيك فى هذا ؟ قال رجل من أشراف الناس : هذا والله حَرِىٌّ إن خَطَبَ أن ينكح ، وإن شفع أن

(١) انظر سنن بن ماجة حـ ٢ ص ١٣٧٨ رقم ٤١١٥ كتاب الزهد باب من لا يؤبه له .

(٢) رواه المستدرك للحاكم حـ ٣ ص ٦١٩ فى كتاب معرفة الصحابة من رواية سراقة بن مالك بن جعشم .
ورواه مجمع الزوائد للهيثمى حـ ١٠ ص ٢٦٥ من رواية سراقة بن مالك .

(٣) رواه صحيح مسلم فى كتاب الجنة وصفة لغيرها وأهلها باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء حـ ٤ ص ٢١٨٦ رقم ٣٤ / ٢٨٤٦ ، ٢٨٤٧ .

(٤) رواه صحيح مسلم فى كتاب صفات المنافقين وأحكامهم حـ ٤ ص ٢١٤٧ رقم ١٨ / ٢٧٨٥ من رواية أبى هريرة .

يشفع ـ فسكت رسول الله ﷺ ثم مر رجل ، فقال رسول الله ﷺ : ما رأيك فى هذا ؟ فقال : يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين . هذا حرى إن أخطب أن لا ينكح وإن شفع أن لا يشفع وإن قال لا يسمع لقوله فقال رسول الله ﷺ هذا خيرُ من ملء الأرض مثل هذا . رواه البخارى ومسلم وابن ماجه .

المعنى : [أشراف الناس] : سراتهم وساداتهم وعظمائهم . [حرى] : جدير وحقيق وأولى إن أراد زواج أى سيده أعطى ونكح وعقد العقد الشرعى عليها . [شفع] : رجا فى مسألة أجيب طلبه وقضيت حاجته . [أحرى أن خطب أن لا ينكح] : أحق ألا يزوج لفقره ولا يرجوه أحد لضعته وهوانه على الناس قال لايسمع ؟ والمعنى إن تكلم غضوا النظر عنه ، ولم ينصتوا لقوله وازدروا به واحتقروه فأخبر ﷺ أنه أفضل من ذلك المتكبر المتجبر الطاغية من ملايين ملايين تملأ الدنيا مثل ذلك الحقير لكفره أو لعصيانه ربه وظلمه . صلى الله عليك يا رسول الله تضرب مثلا أعلى للعزة والرفعة باتباع الدين والعمل بكتاب رب العالمين ليسمو الإنسان عند ربه ويحظى بالدرجات العالية ، وتضرب صفحاً عن حطام الدنيا وزخارفها الموجودة عند الفسقة العصاة المجرمين كما قال الله تعالى :

(أ) ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** ﴾

(ب) ﴿ **إن العزة لله جميعا** ﴾ وهكذا النفوس العامرة بالإيمان عالية سامية تشعر بعزة الله ونصره وقوته ، ولا تخشى بأس سواه .

١ – أى إذا طلب من الناس شيئاً أسرعوا فى إعطائه .

٢ – إذا وجد فى محفل يجلوه واحترموه ودخل موقراً معززاً .

٣ – هم فقراء المهاجرين ومن لم يكن له منهم منزل بسكنة فكانوا يأوون إلى موضع مظلل فى مسجد المدينة يسكنونه ا هـ نهاية .

٤ – يذكر محامده وبدائع خلاله .

٥ – مما طلعت عليه الشمس : أى كل ما يظهر على سطح الأرض ـ لماذا ؟ لأنه فقير مخلص لربه مطيع .

٦ – أخذه باستحقاق وإذ حرم نال ثواب صبره ورضاه بما قسم له .

٣٨ – وعنه رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله ﷺ : أنظر أرفع رجل فى المسجد قال : فنظرتُ ، فإذا رجل عليه حلة ، قلت : هذا قال : قال لى : انظر أوضع رجل فى المسجد قال : فنظرتُ فإذا رجل عليه أخلاق ، قال : قلتُ هذا قال : فقال رسول الله ﷺ : لهذا عند الله خير يوم

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الرقاق باب فضل الفقر حـ ٨ ص ١١٨ – ١١٩ من رواية سهل بن سعد الساعدى .

القيامة من ملء الأرض مثل هذا . رواه أحمد(١) بأسانيد رواتها محتج بهم فى الصحيح ، وابن حبان فى صحيحه .

٣٩ - وعن مصعب بن سعد قال : رأى سعد رضى الله عنه أن له فضلا على من دونه فقال رسول الله ﷺ : هل تُنصرُون وترزقون إلا بضعفائكم . رواه البخارى(٢) والنسائى وعنده : فقال النبى ﷺ : إنما تنصر هذه الأمة بضعيفها بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم .

٤٠ - وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ابغونى فى ضعفائكم ، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم . رواه أبو داود(٣) والترمذى والنسائى .

٤١ - وعن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه قال : كنت فى أصحاب الصُّفَّةِ فلقد رأيتنا وما منا إنسان عليه ثوب تام ، وأخذ العرق فى جلودنا طرقا من الغبار والوسخ إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : ليبشر فقراء المهاجرين إذ أقبل رجل عليه شارة حسنة فجعل النبى ﷺ لا يتكلم بكلام إلا كلفته نفسه أن يأتى بكلام يعلو كلام النبى ﷺ فلما انصرف قال : إن الله عز وجل لا يحب هذا وحزبه يلوون ألسنتهم للناس لى البقر بلسانها المرعى كذلك يلوى الله عز وجل ألسنتهم ووجوههم فى النار(٤). رواه الطبرانى بأسانيد أحدها صحيح .

المعنى : [وأضرابه] : أى أمثاله . وفى النهاية ضرب الأمثال ، وهو اعتبار الشيء بغيره وتمثيله به والضرب المثال والضرباء الأمثال والنظراء وأحدهم ضريب ا هـ . [يلوون ألسنتهم للناس] : كناية عن الكذب وقال تعالى : ﴿ **يلوون ألسنتهم بالكتاب** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **ليا بألسنتهم** ﴾ ويقال فلان لا يلوى على أحد إذا أمعن فى الهزيمة ، قال تعالى : ﴿ **إذ تصعدون ولا تلوون على أحد** ﴾ ا هـ غريب . [لى البقر] : ميلان الماشية بلسانها لتأكل فى المرعى . [يلوى الله عز وجل ألسنتهم] : يميلها فيقعون فى جهنم . لماذا ؟ لتجبرهم وتكبرهم وارتفاع صوته أمام حضرة النبى ﷺ أو أمام العلماء الفضلاء والسادة الاتقياء ويتطاولون على الناس باللسان البذىء والقول الدنىء تعاجباً وتظاهراً ورياء كما تمد البقر ألسنتها إلى الكلأ .

٤٢ - وعن **العرباض** بن سارية رضى الله عنه قال : كان النبى ﷺ يخرج إلينا فى الصفة

---

(١) انظر مسند الامام أحمد حـ ٥ ص ١٥٧ من رواية أبى ذر .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه حـ ٤ ص ٤٤ كتاب الجهاد والسير باب من استعان بالضعفاء والصالحين فى الحرب من رواية أبى هريرة .

(٣) رواه بو داود فى سننه حـ ٣ ص ٧٣ رقم ٢٥٩٤ من رواية أبى الدرداء
رواه الترمذى فى سننه حـ ٣ ص ١٢٣ رقم ١٧٥٤ من رواية أبى الدرداء .
رواه النسائى فى سننه حـ ٦ ص ٤٥ رقم ٣١٨٠ كتاب الجهاد باب من استعان بالضعفاء .

(٤) رواه مجمع الزوائد للهيثمى حـ ١٠ ص ٢٦١ من رواية واثلة لن الاسقع .

وعلينا الحوتكيَّةُ فقال : لو تعلمون ما أدخر لكم مادخرتم على مازوى عنكم ولتفتحن عليكم فارس والروم . رواه أحمد[١].

المعنى : [الحوتكية] : بحاء مهملة مفتوحة ثم واو ساكنة ثم تاء مثناة فوق قيل : هى عمة يتعممها الأعراب يسمونها بهذا الإسم ، وقيل : هو مضاف إلى رجل يسمى حوتكا كان يتعممها . والحوتك : القصير وقيل : هى خميصة منسوبة إليه وإلى القصر وهذا أظهر والله أعلم . [ما ادخر] : أى الذى كنز وعد ذخيرة لكم عند الله جل وعلا . [ما زوى] : أى (خفى) . [ولتفتحن عليكم فارس والروم] : أى والله ليفتح الله لكم بلاد فارس والروم فتدخلونها ظافرين وتحكمون أهلها فرحين مستشرين وتفوزون بثمراتها وتسعدون بخيراتها والمعنى أبشروا فالله سيكثر لكم الفتوح وتكونون سادة قادة .

٤٣ – وعن فضالة بن عبيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : اللهم من آمن بك وشهد أنى رسولك فحبب إليه لقاءك وسهل عليه قضاءك وأقلل له من الدنيا ومن لم يؤمن بك ويشهد أنى رسولك فلا تحبب إليه لقاءك ولا تسهل عليه قضاءك وكثر عليه من الدنيا . رواه أبى الدنيا والطبرانى[٢] وابن حبان فى صحيحه وأبو الشيخ ابن حبان فى الثواب ورواه ابن ماجه من حديث عمرو بن عيلان الثقفى وهو مختلف فى صحبته قال : قال رسول الله ﷺ : اللهم من آمن بى وصدقنى وعلم أنى ما جئت به الحق من عندك فأقلل ماله وولده وحبب إليه لقاءك وعجل له القضاء . ومن لم يؤمن بى ولم يصدقنى ولم يعلم أن ما جئت به الحق من عندك فأكثر ماله وولده وأطل عمره .

المعنى : [آمن بك] : صدق بوجودك واعترف بالرسالة فأعنه على طاعتك ليشتاق إلى مناجاتك ويرضى بأفعالك ويقنع ويصبر ويحلم ويسعد . [أقلل له من الدنيا] : اجعل رزقه قليلاً ليتيسر له العكوف على عبادتك ولتبعد عنه مشاغل الدنيا ولهوها ولعبها وزينتها .

دعاء مستجاب للمؤمن التقى :

(أ) الطاعة (ب) الرضا (جـ) الكفاف

والفاجر الشقى

(أ) عدم الخوف من الله تعالى (ب) السخط والتبرم من الحوادث

(جـ) جشعه على ملذات الدنيا وجمع المال بلا أعمال صالحة .

٤٤ – وعن محمود بن لبيد رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال اثنتان يكرههما ابن آدم : الموت والموت خير من الفتنة ويكره قلة المال وقلة المال أقل للحساب . رواه أحمد بإسنادين[٣] رواه أحدهما محتج بهم فى الصحيح ومحمود له رؤية .

(١) رواه الامام أحمد فى مسنده حـ ٤ ص ١٢٨ من رواية العرباض بن سارية .

(٢) رواه بن حبان فى صحيحه حـ ١ ص ٢١٥ من رواية فضاله بن عبيد .

(٣) رواه الامام أحمد فى مسنده حـ ٥ ص ٤٢٧ .

المعنى : [الموت] : الفناء والذهاب من الدنيا ولكن الموت خير من الاستمرار فى المعاصى والمحن والميل إلى الشهوات . [قلة المال أقل للحساب] : يوم القيامة يسأل الله تعالى عن المال فيم أنفقه ؟ ومن أين أكتسبه ؟ وقلته تخفف الحساب وتجعل صحيفة الإنسان نقية بيضاء من الذنوب والمؤمن يتذكر دائماً الموت ويحب العيش الكفاف .

٤٥ – وروى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من قل ماله وكثرت عياله وحسنت صلاته ولم يغتب المسلمين جاء يوم القيامة وهو معى كهاتيه[1]. رواه أبو يعلى والأصبهانى .

المعنى : [عياله] : أفراد أسرته . [حسنت صلاته] : صلاها صلاة كاملة مستوفية الشروط والأركان والسنن . [ولم يغتب المسلمين] : ولم يذكر المسلمين بسوء . المعنى : الذى اتصف لصفات أربعة يجاور رسول الله ﷺ فى الجنة ويكون مكانه قريباً منه عليه الصلاة والسلام .

(أ) الزهد فى الدنيا والرضا بعيشه والقناعة برزقه .

(ب) رجل فيحب معيل منتج مثمر يكد فى حياته ، ويجمع لأهله وأولاده فيخدم أمته بوجود أولاد بررة مصلحين عاملين .

(جـ) يؤدى الصلاة فى أوقاتها تامة بخشوع .

(د) يسلم المسلمون من لسانه ويده .

هذه أربعة خصال تجعلك قريبا من رسول الله ﷺ .

٤٦ – وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره[2]. رواه مسلم .

المعنى : [أشعث] : المبلد الشعر المغبر . [أغبر مدفوع بالأبواب] : أى لا قدر له عند الناس فهم يدفعونه عن أبوابهم ويطردونه عنهم احتقاراً له ولو حلف على وقوع أجاب الله سؤاله لعظم منزلته عند الله تعالى . ا.هـ النووى .

فعليك يا أخى بمحبة الصالحين الزاهدين الورعين واطلب دعواتهم فإنها مستجابة كما قال ﷺ .

وفى الجامع الصغير (أشعث) ثائر الرأس مغبره قد أخذ فيه الجهد حتى أصابه الشعث وعلته الغبره ويكرمه الله باجابة سؤاله وصيانته من الخبث فى يمينه . وقال الحفى أشعث : أى اشتغل بربه عن تعهد بدنه بالتنظيف حتى تغير لونه وشعث شعره ولو حلف بالله أو بنفسه بأن يقول والله أو وحياتى لابد من كذا وقيل المراد لو عبد الله لقبل عبادته فالقسم العبادة والبر القبول والأولى حمله على ظاهره فان أهل الدلال يقسمون عليه تعالى ملاحظين تلك النعمة التى أنعم بها عليهم من إجابتهم بعين ما طلبوا

(١) رواه مفتاح الترتيب لتاريخ الخطيب حـ ١١ ص ٢٥٩ .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه كتاب البر والصلة والآداب باب فضل الضعفاء والخاملين حـ ٤ ص ٢٠٢٤ رقم ١٣٨ / ٢٦٢٢ من رواية أبى هريرة .

فقد نقل عن بعضهم أنه أراد أن يجامع زوجته فأخبرته بأن أولاده مستيقظون فدعا عليهم بالموت فماتوا جميعاً وكانوا سبعة فأخبر من هو أرقى منه بذلك فدعا عليه بالموت فمات وقال لو عاش لأمات ناساً كثيرين . وكان لسيدى أبى محمود الحنفى ولد ليس له غيره وكان إذا طلب من أحد شيئاً ولم يعطه قال له مت فيموت فدعا عليه أبوه فمات . نفعنا الله بهم جميعاً .

٤٧ – وعن أنس رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول ربَّ أشعث أغبر ذى طمرين مصفح عن أبواب الناس لو أقسم على الله لأبره . رواه الطبرانى[١] فى الأوسط ورواته رواة الصحيح إلا عبد الله بن موسى القيمى .

المعنى : [أشعث] : جعد الرأس ، [أغبر] : غير الغبار لونه . [ذى طمرين] : تثنية طمر وهو الثوب الخلق (تبنو عنه أعين الناس) أى ترجع وتغض عن النظر إليه احتقاراً له (لو أقسم) الانكسار ورثاثة الحال والهيئة من أعظم أسباب الاجابة . ا.هـ . [مصفح] : معرض ولم يذهب إليها تعففاً وقناعة وزهادة . من أصفحة رده .

٤٨ – وعن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن من أمتى من لو جاء أحدكم يسئله ديناراً لم يعطه ولو سأله درهماً لم يعطه ولو سأله فلساً لم يعطه فلو سأل الله الجنة أعطاها إياه ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره . رواه الطبرانى[٢] . ورواته محتج بهم فى الصحيح .

المعنى : [إن من أمتى] : أى يوجد فى أمتى أقعد يطلب من الناس فيحرم ، ولو طلب من ربه تعالى لأجابه ما هو أفضل وأبقى وهو النعيم المقيم . [فلساً] : الذى يتعامل به يقال أفلس الرجل كأنه صار إلى حال ليس له فلوس : كما يقال أقهر إذا صار إلى حال يقهر عليه ا.هـ . ففيه الترغيب فى إكراه الفقير السائل وطلب دعواته رجاء الفوز بالجنة .

٤٩ – وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : إن أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من صلاة أحسن عبادة ربه وأطاعه فى السر وكان غامضاً فى الناس لا يشار إليه بالأصابع وكان رزقه كفافاً فصبر على ذلك ثم نقر بيده فقال : عجلت منيته ، قلت بواكيه ، قل تراثه . رواه الترمذى[٣] من طريق عبيد الله بن زحر عن على بن يزيد عن القاسم إلى أمامة ثم قال : وهذا الإسناد عن النبى ﷺ قال : عرض علىَّ ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهباً ، قلت : لا يارب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً أو قال : ثلاثاً أو نحو هذا فإذا جُعت تضرعت إليكُ وذكرتك وإذا شبعت شكرتك وحمدتك . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن .

المعنى : [أوليائى عندى] : أى أن أحسن شيء يتمنى المؤمنون الاتقياء البررة أن ينال حظ ذلك الذى تحلى بخلال ستة :

(١) رواه مجمع الزوائد للهيثمى حـ ١٠ ص ٢٦٤ كتاب الزهد باب ما جاء فى البله . من رواية أنس .

(٢) رواه مجمع الزوائد للهيثمى حـ ١٠ ص ٢٦٤ كتاب الزهد باب فيمن لا يؤبه له .

(٣) رواه الترمذى فى صحيحه حـ ٤ ص ٥ – ٦ رقم ٢٤٥١ كتاب الزهد باب ماجاء فى الكفاف والصبر عليه .

(أ) مالـه قليـل .

(ب) يحسـن الصـلاة .

(جـ) يخلـص فى العبـادة .

(د) يميل إلى الأعمال الصالحة التى تفعل فى السر .

(هـ) لا يحب الشهرة وإذاعة الصيت .

(و) عيشة كفاف خفيف الحساب .

[فى السر] : بعيداً عن الرياء . [غامضاً فى الناس] : يميل إلى العكوف فى عقر داره .

[كفافاً] : الكفاف هو الذى لا يفضل عن الشيء ويكون بقدر الحاجة ومنه حديث عمر وددت أنى سلمت من الخلافة كفافاً لا علىَّ ولا لى . [نقر بيده] : أى معه بيده الشريفة ﷺ وزاد من صفاته قرب منيته وقلة من ينعيه ويرثيه وقلة الارث ففيه الترغيب بالاقبال على الذكر والتسبيح والطاعة والتقليل من زخارف الدنيا ما أمكن . [بطحاء مكة] : الحصى الصغار الموجودة فى الجبال . لم يرض ﷺ بزهرة الدنيا لشدة قناعته وزهده وإعراضه عن الدنيا واختار ﷺ قليلاً يأكل يوماً فيشبع فيحمد ربه ويثنى عليه جل وعلا ، ولا يجد شيئاً يوماً فيجوع فيتضرع إلى ربه ويسأله سمو الدرجات وعظيم الرضوان ، وفى هذا المعنى يقول الإمام البوصيرى يمدح النبى ﷺ :

ظلمـت سـنة من أحيـا الظـلام إلى ... أن اشتكـت قدمـاه الضـر من ورم

وشـد من سغب أحشـاءه وطـوى ... تحـت الحجارة كشحا مترف الأدم

وراودتـه الجبـال الشم من ذهـب ... عـن نفسـه فأراهـا أيما شـمم

وأكـدت زهـده فيهـا ضرورتـه ... إن الضـرورة لا تعـدو على العصـم

وكيف تدعـو إلى الدنيـا ضـرورة من ... لولاه لم تخـرج الدنيـا من العـدم

[تضرعت] : التجأت إليك طالبا بذل وخشوع . [ذكرتك] : سبحتك كثيرا .

٥٠ - وروى ابن ماجه والحاكم الحديث الأول إلا أنهما قالا : أغبط الناس عندى والباق بنحوه(١). قال الحاكم : صحيح الإسناد كذا قال . [قوله : خفيف الحاذ] بحاء مهملة وذال معجمة مخففة : خفيف الحال قليل المال .

المعنى : [أغبط الناس عندي] : أى أكثر الناس غبطة وفى النهاية غبطت الرجل أغبطه غبطا : إذا اشتهيت أن يكون لك مثل ماله ، وأن يدوم عليه ماهو فيه ، وحسدته أحسده حسداً إذا اشتهيت أن يكون لك ماله وأن يزول عنه ماهو فيه ومنه الحديث « على منابر من نور يغبطهم أهل الجمع واللهم غبطا لا هبطا » : أى أولنا منزلة نغبط عليها وجنبنا منازل الهبوط والضعة وقيل معناه : نسألك الغبطة : وهى النعمة والسرور ونعوذ بك من الذل والخضوع . ا.هـ .

---

(١) رواه ابن ماجه فى سننه حـ ٢ ص ١٣٧٨ - ١٣٧٩ رقم ٤١١٧ كتاب الزهد باب من لا يؤبه له .
رواه الحاكم فى مستدركه حـ ٤ ص ١٢٣ كتاب الأطعمة .

٥١ – وعن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر رضى الله عنه خرج إلى المسجد فوجد معاذاً عند قبر رسول الله ﷺ يبكى فقال : ما يبكيك ؟ قال حديث سمعته من رسول الله ﷺ قال : اليسير من الرياء شرك ومن عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة إن الله يحب الأبرار الاتقياء الأخفياء الذين إن غابوا لم يفتقدوا وإن حضروا لم يعرفوا . قلوبهم مصابيح الدجى يخرجون من كل غبراء مظلمة . رواه ابن ماجه والحاكم[1] واللفظ له وقال صحيح ، ولا علة له .

المعنى : [اليسير] : القليل من العمل لغير الله إشراك وإلحاد . [عادى] : حاربهم وآذاهم وقدم لهم كل شرك قال تعالى : ﴿ **إن أولياؤه إلا المتقون** ﴾ . [المحاربة] : أظهر لله العداوة والعصيان من برز بروزاً : ظهر وبارز فى الحرب مبارزة وبرازا فهو مبارز وبرز الرجل فى العلم تبريزا : برع وفاق نظراءه . [لم يُفتقدوا] : لم يُسأل عنهم لتواضعهم إلى ربهم لا يحبون المحافل التى تجتمع على غير طاعة الله تعالى . [من كل غبراء مظلمة] : ينجيهم الله تعالى من كل الفتن والظلمات كما فى حديث على رضى الله عنه « يوشك أن تغشاكم دواجى ظلمه » أى ظُلُمها واحدها داجية ا.هـ .

ولكن الصالحين يقيهم الله شرور الدنيا بأنوار إيمانهم بربهم قال تعالى :

(أ) ﴿ **قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين** ﴾ ١٢٠ من سورة النحل .

(ب) وقال تعالى : ﴿ **والذين آمنوا أشد حبا لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب** ﴾ وشاهدنا الأبرار لا تنقطع محبتهم لله تعالى بخلاف محبة الأشرار الفساق أصحاب الشهرة والصيت الكاذب فأغراضهم لغير الله فاسدة لا ثواب لها .

(جـ) وقال تعالى : ﴿ **وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم * إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك ... الآية** ﴾ من سورة البقرة .

ساقها الله للعقلاء الذين يتدبرون معنى القرآن ويعملون بأوامره فيعتزون به وحده . وشاهدنا النبراس الوهاج المتلألىء . المضىء فى قلوب من يتفكر فى بدائع صنع الله .

خلاصة أقواله ﷺ فى التخشن والزهد فى الدنيا وحب الفقراء

أولاً : تنجى قلة المال من شدائد يوم القيامة « عقبة » .

ثانياً : تسرع بالفوز ودرك النعيم « يصعدها المخفون » .

(١) رواه الحاكم فى مستدركه حـ ١ ص ٤ كتاب الايمان .
رواه بن ماجه فى سننه حـ ٢ ص ١٣٢٠ – ١٣٢١ كتاب الفتن باب من ترجى له السلامة من الفتن .

ثالثاً : مطية مسرعة ومركب وطىء وسيارة البهجة والسرور إلى طريق الجنة « ليست ذا دحض ومزلة » .

رابعاً : سبب إقبال الله تعالى على عبده الفقير وإغداقه بالرحمات وحفظه من الأكدار والهموم « حماه الدنيا » .

خامساً : بشره النبى ﷺ بدخول الجنة . وكان من السابقين « اطلعت فى الجنة » .

سادساً : يفوز بالنعيم والفوز الذى وثق به سيدنا موسى عليه السلام واختاره الله لعبده الصالح « بفتح له باب الجنة فينتظر إليه قال موسى أى رب ما أعددت له » .

سابعاً : يسبق أهل المحشر ويشرب من حوضه ﷺ « أكثر ورودا عليه الفقراء المهاجرين » .

ثامناً : يسبق الفقير الغنى الصالح بسنين عديدة « أربعين أو خمسمائة »

تاسعاً : تستقبل الملائكة الفقراء باحتفال العز والسرور « يزفون كما تزف الحمام » .

عاشراً : صحيفة الفقير نقية بيضاء من أوراق الدنيا لخفة ماله فيها « مؤمن فقير ومؤمن غنى » .

الحادى عشر : فاز الأصحاب بالسبق إلا سيدنا عبد الرحمن حتى قال ﷺ « لقد بطأ بك غناك من بين أصحابى » .

الثانى عشر : الفقير داخل فى زمرة دعوته ﷺ المستجابة « أحينى مسكيناً » .

الثالث عشر : حب الفقراء يجلب السعادة والنصر والصحة التامة والنعمة العامة « يستفتح بصعاليك » .

الرابع عشر : إكرامهم يدفع البلاء ويزيل كروب الدنيا ويجلب النضارة كما فى حديث سيدنا يعقوب « فاصنع طعاماً للمساكين » .

الخامس عشر : حركات الفقير وسكناته وكل أعماله حسنات له « ألا أخبركم عن ملوك الجنة » .

السابع عشر : أفضل خلق الله الفقير « خير من ملء الأرض » .

الثامن عشر : أهل الصفة قال الله تعالى عنهم ﴿ **أولئك فى ضعفائكم** ﴾

التاسع عشر : وجود الفقير يوسع الرزق للمنفق عليه ﴿ **ابغوني في ضعفائكم** ﴾

العشرون : الفقير سعيد ، لأنه اختار أن يجوع يوما ويشبع يوما مثل ما خير حبيبه سيدنا رسول الله ﷺ « بطحاء مكة ذهبا » .

الحادى والعشرون: فليهنأ الفقير فأوقاته كلها فى طاعة وهى من دلائل رضوان الله ورحماته وهو مثل سيدنا رسول الله فى المعيشة « أشبع يوماً وأجوع يوماً » .

الثانى والعشرون : قلب الفقير الراضى ثريا وضاءة وشمس مشرقة تتفتح لها ينابيع الحكمة « مصابيح الدجى » .

الثالث والعشرون : ترفرف عليهم شادات السعادة وراحة الضمير وهناءة الحياة « إن غابوا لم يفتقدوا » فتجسد حقارة الدنيا عندهم محققة لا يهمهم زخارفها ولا يعتنون بمشاغلها ، رضى الله عنهم وحشرنا فى زمرتهم كما قال سيدنا سليمان عليه السلام ﴿ **رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين** ﴾ . **١٩ من سورة النمل** .

أى اجعلنى أزع شكر نعمتك عندى وأن أوفق للعمل بكتابك إتماما للشكر واستدامة للنعمة يارب ، وقال تعالى :

(أ) ﴿ **والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم (٧٤) * والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم** ﴾ . من سورة الأنفال . أى من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار .

(ب) قال تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم** ﴾ ٢١٨ من سورة البقرة .

(جـ) وقال تعالى : ﴿ زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ ٢١٢ من سورة البقرة

الترغيب فى الزهد فى الدنيا والاكتفاء منها بالقليل ، والترهيب من حبها والتكاثر فيها والتنافس وبعض ماجاء فى عيش النبى ﷺ فى المأكل والملبس والمشرب ونحو ذلك :

عن سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله دلنى على عمل إذا عملته أحبنى الله وأحبنى الناس ؟ فقال : ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس . رواه ابن ماجه[١] وقد حسن بعض مشايخنا إسناده

المعنى : [أحبنى الله] : رضى عنى وقبل عملى وأسعدنى . [أحبنى الناس] : اكرمونى وزادونى فى احترامى . [ازهد فى الدنيا] : ارض بقليل الشىء فيها ولا تكثر من حطامها ولا تحب زخارفها وارغب عن زينتها وأقبل على ربك بالعبادة وفى النهاية « أفضل الناس مؤمن مزهد » المزهد القليل الشىء . وحديث الزهرى سئل عن الزهد فى الدنيا فقال : هو أن لا يغلب الحلال شكره ولا الحرام صبره . أراد أن لا يعجز ويقصر شكره على ما رزقه الله من الحلال ولا صبره عن ترك الحرام .

[وازهد فيما فى أيدى الناس] : أى لا تنظر إلى مافى أيدى الناس وفى الجامع الصغير (ازهد) أى

(١) رواه بن ماجه فى سننه حـ ٢ ص ١٣٧٣ - ١٣٧٤ كتاب الزهد باب الزهد فى الدنيا .

أعرض عنها بقلبك ولا تحصل منها إلا على ما تحتاج إليه (يحبك الله) لأن الله تعالى يحب من أطاعه وطاعته لا تجتمع محبة الدنيا لأن حبها رأس كل خطيئة (وازهد فيما فى أيدى الناس) أى فيما عندهم من الدنيا (يحبك الناس) قال المناوى لأن طباعهم جعلت على حب الدنيا ومن نازع إنسانا فى محبوبة قلاه : ومن تركه له أحبه واصطفاه . قال الدارقطنى : أصول الحديث أربعة هذا منها .

وقال الحفنى : الزهد لغة لترك الشىء إحتقاراً له سواء كان محتاجا له أولا واصطلاحاً : ترك مازاد على حاجته من الحلال والورع ترك الحرام والشبهة فى الدنيا : أى الشاغلة عن طاعة الله تعالى المترتب عليها ضياع حقوق الخلق والحق وهى المعنية بحديث « تعس عبد الدنيار » الخ وحديث « الدنيا ملعونة » الخ ... أما المعينة على الطاعة فممدوحة كما فى حديث « نعمت الدنيا مطية المؤمن ، المؤمن بها يصل إلى الخير وينجو من الشر » . قال المناوى : وليس من الزهد ترك الجماع فقد قال سفيان بن عينيه كثرة النساء ليست من الدنيا فقد كان على كرم الله وجهه أزهد الصحابة وله أربع زوجات وتسع عشرة سرية . وقال ابن عباس : خير هذه الأمة أكثرها نساء ، وكان الجنيد شيخ القوم يحب الجماع ويقول إنى أحتاج إلى المرأة كما أحتاج إلى الطعام . (يحبك الناس) ولذا قيل لأهل البصرة ، من سيدكم ؟ فقالوا الحسن البصرى فقيل : **فيم سادكم ؟ فقالوا** احتجنا لعلمه واستغنى عن دنيانا .

حديث بديع جمع التربية الدينية والدنيوية فيغرس فى قلب المؤمن القناعة والرضا والصبر والحلم والكرم والإنفاق فى الخير وتشييد المحامد والمحاسن فيبعد عن اللهو والطمع والشر والبخل وهكذا من صفات المطرودين من رحمة الله تعالى وكلما زاد الإيمان بالله أقبل العبد على الطاعات وقلل من الدنيا وجعلها سوقاً رابحة نافعة لإيجاد صالح الأعمال فيها وفرصة سانحة لفعل المكرمات . وانظر رعاك الله إلى حال الكفار ، والفجار الذين غفلوا عن طاعة الله تعالى وسروا بنعيم الدنيا وبما بسط لهم فيها وقد حكى الله جل جلاله حادثهم ﴿ **الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع** ﴾ ٢٦ من سورة الرعد .

نعمة الدنيا فانية وماهى بجانب النعيم الباقى إلا متعة لا تدوم كعجالة الراكب وزاد الراعى قال البيضاوى : والمعنى أنهم أثروا بما نالوا من الدنيا ولم يصرفوه فيما يستوجبون به نعيم الآخرة واغتروا بما هو فى جنبه نزر قليل النفع يسرع الزوال . ا.هـ

٢ – وعن إبراهيم بن أدهم قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله دلنى على عمل يحبنى الله عليه ويحبنى الناس عليه ؟ فقال : أما العمل الذى يحبك الله عليه فالزهد فى الدنيا وأما العمل الذى يحبك الناس عليه فانبذ إليهم مافى يديك من الحطام . رواه ابن أبى الدنيا[1] هكذا نعضلها ، ورواه بعضهم عنه عن منصور عن ربّعى بن حراش قال : جاء رجل . فذكره مرسلا .

(١) رواه الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى حـ ٤ ص ١٥٧ كتاب الترغيب فى الزهد فى الدنيا والاكتفاء منها بالقليل والترهيب من حبها والتكاثر فيها والتنافس .

المعنى : [فانبذ إليهم مافى يديك من الحطام] : أى أظهر السخاء والجود واجعل ما معك سهل الجنى قريب الفائدة يعود عليهم بالخير والبركة . ولسعيد بن حميد :

تمتع من الدنيا فانك فانى ... وإنك فى أيدى الحوادث عانى

******

لعمرى لقدما عضنى الجوع عضة ... فآليت أن لا أصنع الدهر جائعاً

فقولا لهذا اللائمى اليوم أعفنى ... فان أنت لم تفعل مغض الأصابعا

٣ - وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : الزهد فى الدنيا يريح القلب والجسد رواه الطبرانى(١).

المعنى : [الزهد فى الدنيا] : التقلل من جمع المال يسبب راحة الضمير وسعادة الحياة ويطرد الهموم ويبعد المشاغل والوساوس ويعطى الجسم الراحة التامة .

٤ - وعن الضحاك رضى الله عنه قال : أتى النبى ﷺ رجل فقال : يا رسول من أزهد الناس ؟ قال : من لم ينس القبر والبلى وترك فضل زينة الدنيا وآثر ما يبقى على **مايفنى** ولم يعُدَّ غداً فى أيامه وعد نفسه من الموتى . رواه أبن أبى الدنيا مرسلاً(٢).

المعنى : [يا رسول الله من أزهد الناس] : استفهام عن أكثر الناس قناعة وزهادة وفى الجامع الصغير : أى أكثرهم زهدا فى الدنيا . [لم ينس القبر] : يعنى الموت ونزول القبر ووحدته ووحشته وسؤال الملكين وظلمته فيستعد له بزرع الأعمال الصالحة فى حياته ليجنيها بعد مماته . [البلى] : الفناء والاضمحلال والتغير والانتقال من دنيا إلى أخرى سنة الله فى خلقه . [زينة الدنيا] : مع إمكان نيلها ما جتنب الزخرفة والبهجة وكمل باطن نفسه بآداب الشرع . [وآثر ما يبقى على **ما يفنى**] : اختار الآخرة وما ينتفع بها على الدنيا وما فيها . ترك الشهوات وأقبل على الطاعات . اجتنب مجالس السوء **ورغب فى مجالس الذكر والعلم وصاحب الأبرار الأخيار . [لم يعد غداً فى أيامه] : جعل الموت** نصب عينيه على توالى اللحظات فيسرع فى آداء حقوق الله وسداد الدين وترك المظالم ويبيض صحيفته بكثرة الاستغفار والصلاة على المختار وذكر الجبار القهار الغفور الوهاب . قال الشاعر أبو الفتح البستى يبين هوان الدنيا على الصالحين الذين فهموا لباب الدين :

زيادة المرء فى دنياه نقصان ... وربحه غير محض الخير خسران

وكل وجدان حظ لاثبات له ... فان معناه فى التحقيق فقدان

يا عامراً لخراب الدهر مجتهدا ... بالله هل لخراب العمر عمران

---

(١) رواه مجمع الزوائد للهيثمى كتاب الزهد باب ماجاء فى الزهد فى الدنيا حـ ١٠ ص ٢٨٦ .
رواه الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى حـ ٤ ص ١٥٧ - ١٥٨ كتاب الترغيب فى الزهد .

(٢) رواه الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى حـ ٤ ص ١٥٧ - ١٥٨ فى كتاب الزهد فى الدنيا .

ويا حريضاً على الأموال يجمعها ... أنسيت أن سرور المال أحزان
دع الفؤاد من الدنيا وزينتها ... وضفوها كدر والوصل هجران
وارع سمعك أمثالاً أفصلها ... كما يفصل ياقوت ومرجان
أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الإنسان إحسان
يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته ... أتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان
وكن على الدهر معواناً لذى أمل ... يرجو نداك فإن الحر معوان
وأشدد يديك بحبل الله معتصماً ... فإنه الركن إن خانتك أركان
من يتق الله يحمد فى عواقبه ... ويكفه شر من عزو ومن هانوا
من استعان بغير الله فى طلب ... فإن ناصره عجز وخذلان
من كان للخير مناعاً فليس له ... على الحقيقة إخوان وأخذان
من جاد بالمال مال الناس قاطبة ... إليه والمال للانسان فتان
كن ريق البشر إن الحر همته ... صحيفة وعليهما البشر عنوان
ورافق الرفق فى كل الأمور فلم ... يندم رفيق ولم يذممه إنسان
ولا يغرنك حظ جره حزن ... فالحزن هدم ورفق المرء بنيان
لا ظل للمرء يعرى من نهى وتقى ... وإن أطلته أوراق وأفنان
يا ظالما فرحا بالعز ساعده ... إن كنت فى سنة فالدهر يقظان
يا أيها العالم المرضى سيرته ... أبشر فأنت بغير الماء ريان
ويا أخا الجهل لو أصبحت فى لجج ... فأنت ما بينها لا شك ظمآن
لا تحسبنى سروراً دائماً أبداً ... من سره زمن ساءته أزمان
يا رافلاً فى الشباب الوصف منتشيا ... من كأسه هل أصاب الرشد نشوان
ويا أخا الشيب لونا صمت نفسك لم ... يكن لمثلك فى الإسراف إمعان
وكل كسر فإن الدين يجبره ... وما لكسر قناة الدين جبران

٥ - وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله عز وجل ناجى موسى بمائة ألف وأربعين ألف كلمة فى ثلاثة أيام فلما سمع موسى كلام الآدميين مقتهم لما وقع فى مسامعه من كلام الرب عز وجل وكان فيما ناجاه ربه أن قال : يا موسى إنه لم يتصنع لى المتصنعون بمثل الزهد فى الدنيا ولم يتقرب إلى المتقربون بمثل الورع حرمت عليهم ولم يتعبد المتعبدون بمثل البكاء من خشيتى قال موسى : يارب البرية كلها ويا مالك يوم الدين وياذا الجلال والإكرام : ماذا أعددت

لهم وماذا جزيتهم قال : أما الزهاد فى الدنيا فإنى أبحتهم جنتى يتبوءون منها حيث شاءوا وأما الورعون عما حرمت عليهم فإنه إذا كان يوم القيامة لم يبق عبد إلا ناقشته وفتشته إلا الورعون فإنى أستحييهم وأجلهم وأكرمهم فأدخلهم الجنة بغير حساب وأما البكاؤون من خشيتى فأولئك لهم لرفيق الأعلى لا يشاركون فيه . رواه الطبرانى والأصبهانى[1].

المعنى : [مقتهم] : أبغضهم أشد البغض عن أمر قبيح المعنى أنكر هذا الصوت المنكر منهم إزاء صوت الرب جل وعلا . [يتصنع لى] : يفعل ما فيه رضاى ويتزلف إلى ويتقرب . [الزهد] : الرغبة عن زينتها والتقلل من التعب فى جمع مالها . [الورع] : البعد عن الشبهات وتحرى الحلال . [البكاء من خشيتى] : الخوف من عقابه جل وعلا والشوق إلى ثوابه . [يارب البرية] : سيد العالم أجمع وخالقها . [أبحتهم جنتى] : جعلتها مباحة . [فإنى أستحييهم] : أترك سؤالهم حبا فى حيائهم . [الرفيق الأعلى] : أعلى مكان فى الجنة (الفردوس) .

٦ – وروى عن عمار بن ياسر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما تزين الأبرار فى الدنيا بمثل الزهد فى الدنيا[2]. رواه أبو يعلى .

المعنى : [ما تزين الأبرار] : تحلى وتجمل وتكمل .

٧ – وروى عن عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : إذا رأيتم من يزهد فى الدنيا فادنوا منه فإنه **يُلقن الحكمة** . رواه أبو يعلى .

المعنى : [فادنوا منه] : تقربوا إليه وجالسوه فإنه يلهم الصواب ويلقن الرشاد ويقول الحق . قال المناوى : أى يعلم دقائق الاشادات الشافية لأمراض القلوب المانعة من اتباع الهوى ا.هـ .

وفى الجامع الصغير فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **يؤتى الحكمة من يشاء** ﴾ . أى العلم النافع المؤدى إلى العمل ، قال العلقمى قال سفيان بن عينية : الزهد ثلاثة أحرف زاى وهاء ودال . فالزاى ترك الزينة والهاء ترك الهوى والدال ترك الدنيا بجملتها . وحقيقة الزهد الشرعية استصغار الدنيا بجملتها واحتقار جميع شأنها فمن كانت الدنيا عنده صغيرة حقيرة هانت عليه فالزاهد هو المستصغر للدنيا المحتقر بها الذى انصرف قلبه عنها تصغر قدرها عنده ، ولا يفرح لشىء منها ولا يحزن على فقده ولا يأخذ منها إلا ما أمر بأخذه مما يعينه على طاعة ربه ويكون مع ذلك دائم الشغل بذكر الله تعالى وذكر الآخرة .

قال الفضيل بن عياض : جعل الله الشر كله فى بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا وجعل الخير كله فى بيت وجعل مفتاحه الزهد فيها .

(١) رواه الطبرانى فى معجمه الكبير حـ ١٢ ص ١٢٠ – ١٢١ رقم ١٢٦٥٠ من رواية بن عباس .
رواه مجمع الزوائد للهيثمى حـ ١٠ ص ٢٩٥ – ٢٩٦ .

(٢) رواه مجمع الزوائد للهيثمى حـ ١٠ ص ٢٨٦ كتاب الزهد باب ماجاء فى الزهد فى الدنيا .

(٣) رواه مجمع الزوائد للهيثمى حـ ١٠ ص ٢٨٦ كتاب الزهد باب ماجاء فى الزهد فى الدنيا .

وقال أحمد وسفيان الثورى وغيرهما : الزهد قصر الأمل .

وقال بن المبارك : الزهد الثقة بالله . وقال أبو سليمان الدارانى : الزهد ترك ما يشغل عن الله . ا.هـ.

٨ - وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما لا أعلمه إلا رفعه قال : صلاح أول هذه الأمة بالزهادة واليقين وهلاك آخرها بالبخل والأمل . رواه الطبرانى(١) وإسناده محتمل للتحسين ومتنه غريب .

المعنى : [أول] : أول وجود الاسلام وفى زهرته وفتوته . [اليقين] : سكون الفهم مع ثبات الحكم مع الثقة بوجود الله والتوكل عليه جل وعلا وعقد العزيمة على طاعته والتفانى فى الإخلاص له عز شأنه . [البخل] : التقصير فى آداء الحقوق وعدم الانفاق فى وجوه البر . [الأمل] : التسويف فى الأعمال الصالحة وحب المال إلى درجة الميل إلى تشييد القصور ووفرة الخيرات مع الترف والبذخ .

٩ - وروى عن أنس رضى الله عنه يرفعه قال : ينادى مناد : دعوا الدنيا لأهلها ، دعوا الدنيا لأهلها ، دعوا الدنيا لأهلها . من أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه أخذ حتفه وهو لا يشعر . رواه البزار(٢)، وقال : لا يروى عن النبى ﷺ إلا من هذا الوجه .

المعنى : [أخذ حتفه] : هلاكه ، معناه الذى يسلم نفسه لمطامع الحياة والاسترسال فى آمال جنى الأموال وقع فى الهاوية ولا يدرى لماذا ؟ لأن أعمال الدنيا خالية من الثواب المدخر له بعد مماته فمهما جمع من زخارف الدنيا ومات لا ينفعه شىء إلا إذا شيد بماله قصور الصالحات التى أعد الله أجرها للمحسنين :

هى الدنيـــا تقـــول بمـــلء فيهـــا   حـــذار حـــذار من بطـــش وفتكـــى

******

شـــباب بلا تقـــوى كفض بلا جـــنى   يرى غير مأســـوف عليـــه فيحطـــب

١٠ - وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : خير الذكر الخفىُّ وخير الرزق أو العيش ما يكفى ، الشك من ابن وهب . رواه أبو عوانه(٣) وابن حبان فى صحيحهما والبيهقى .

المعنى : [الذكر الخفى] : أى أفضل العباده التى تصدر من مطيع بعيد عن الرياء وحب الظهور والشهرة . [مايكفى] : الذى يسد الحاجة ويبعد الجوع .

(١) رواه مجمع الزوائد للهيثمى حـ ١٠ ص ٢٨٦ كتاب الزهد باب ماجاء فى الزهد فى الدنيا .

(٢) رواه كشف الاستار عن زوائد البزار للحافظ الهيثمى حـ ٤ رقم ٣٦٩٥ ص ٢٧٠ باب هوان الدنيا .

(٣) رواه بن حبان فى صحيحه حـ ٢ ص ٨٩ - ٩٠ رقم ٨٠٦ باب ذكر بيان بأن ذكر العبد ربه جل وعلا بينه وبين نفسه أفضل من ذكره بحيث يسمع صوته .

١١ – وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء . رواه مسلم والنسائى(١) . وزاد : فما تركت بعد فتنة أضر على الرجال من النساء .

المعنى : [حلوة] : طعم جمع المال فيها لذيذ تميل النفس إلى زينتها ، يقال حلا بضمى يحلو . [خضرة] : نضرة زاهرة ذاهية . وفى البخارى فى باب المنافسة فى الدنيا قوله ﷺ « أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا » قال القسطلانى : فيه أن المنافسة فى الدنيا قد تجر إلى الهلاك فى الدين . اهـ . وفى باب فضل النفقة فى سبيل الله تعالى قوله ﷺ « خضرة حلوة ونعم صاحب المسلم لمن أخذه بحقه فجعله فى سبيل الله واليتامى والمساكين وابن السبيل » . قال القسطلانى : خضرة من حيث المنظر ، حلوة من حيث الذوق ، نعم المال لمن جمعه من حلال وأنفقه فى جميع أنواع الخير . [مستخلفكم فيها] : جاعلكم أولياء خلفاء فى إنفاق المال تتصرفون فيه تصرف المالك وفى الحقيقة الله تعالى المنعم المعطى الوهاب الرزاق ، قال تعالى : ﴿ **آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير** ﴾ ٧ سورة الحديد .

قال البيضاوى من الأموال التى جعلكم الله خلفاء فى التصرف فيها فهى الحقيقة له لا لكم أو التى استخلفكم عمن قبلكم فى تملكها والتصرف فيها وفيه حث على الانفاق وتهوين له عن النفس . اهـ .

[فاتقوا الدنيا] : احذروا الدنيا وابتعدوا عن ميل النساء واخشوا أن يمنعكن عن طاعة الله ، فاتقوا الدنيا . يأمرنا ﷺ باليقظة والحذر من ثنتين :

(أ) الدنيا لأنها رأس كل خطيئة وسبب كل نقص وحبها يجر الغفلة عن ذكر الله ومشاغلها جمة تلهى عن الله .

(ب) النساء لأنهن شرك الفتن وحبائل الشيطان قد يسببن قطيعة الرحم أو يمنعن فعل الخير أو يكن **لاهيات لاعبات مائلات مميلات لضعفاء الايمان وقد تقدم ثنتان فى الحديث هما سببان قويان فى** نصر الاسلام واشراق شمسه وبلوغ أوج عزه وطلوع كواكب نجمه متألقة فى سماء الرفعة والمجد : هما الزهد واليقين .

[أضر] : أكثر اضراراً . يحذر ﷺ من الميل إلى حب السيدات وإرخاء العنان لطلباتهن بلا تحكم الشرع بينهن ، قال تعالى : ﴿ **إن كيدكن عظيم** ﴾ وقال تعالى ﴿ **إن كيد الشيطان كان ضعيفاً** ﴾ :

إن النساء شياطين خلقن لنا نعوذ بالله من شر الشياطين

كم شخص حن إلى المرأة فمال إليها وعصى الله فى طاعتها فدعته إلى فراق شقيقه وغضب قريبه

(١) رواه الامام مسلم فى صحيحه حـ ٤ ص ٢٠٩٨ رقم ٩٩ / ٢٧٤٢ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب الرقاق .

والإكثار من غشيان الملاهى والتمتع لشراب الخمر وأكتب هذا وفى يدى صحيفة تنبىء عن رجل موظف يعول أسرة كبيرة كباراً وصغاراً ولكن أحب فتاة وراودها عن نفسها ولمس عفافها فحملت سفاحا ثم وضعت ولدا وقبل أن يظهر أمرها للنيابة ذهب إلى مقر وظيفته وودع رئيسه وزملاءه وذهب إلى بيته فقبل أولاده الصغار وقال لهم إنى سأموت ودخل فى حجرة وأحكم إقفال نوافذها ووجه فوهة البندقية على عنقه وانتحر فيتم أطفاله . لماذا ؟ خشى الفضيحة من عاره ولطخ جبين الانسانية بهتك عرض المرأة . ولقد صدق من قال : فتش عن المرأة فإن لها فى كل جناية أصبعاً .

[على الرجال من النساء] : قال العلقمى : فى الحديث إن الفتنة بالنساء أشد من الفتنة بغيرهن ويشهد له قوله تعالى : ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء﴾ سورة آل عمران . فجعلهن من عين الشهوات وبدأبهن قبل بقية الأنواع إشارة إلى أنهن الأصل فى ذلك . ويقع فى المشاهدة حب الرجل ولده من امرأته التى هى عنده محبوبة أكثر من حبه ولده من غيرها ومن أمثلة ذلك قصة النعمان ابن بشير فى الهبة وقد قال بعض الحكماء : النساء شر كلهن وأشر ما فيهن عدم الاستغناء عنهن . ومع أنها ناقصة العقل والدين تحمل الرجل على تعاطى مافيه نقص العقل والدين بشغله عن طلب أمور الدين وتحمله على التهالك على طلب الدنيا وذلك أشد الفساد . وقد أخرج مسلم من حديث أبى سعيد فى أثناء حديث « واتقوا النساء فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء » اهـ .

النساء أساس الخصومة بين المتحابين ومنبع الجرائم بين الأشرار والداء العضال الذى أعيا المصلحين الأطباء فى علاج الاتحاد والتآلف والتوادد والتحابب . هذا فى العموم . ولا يخلو كل عصر من فضليات النساء اللاتى لهن اليد الطولى فى تشييد قصور المحاق وإيجاد صالحات الأعمال وكن المثل الأعلى فى التربية السامية والكمال والآداب وأنجبن بنين وخدمن الوطن والدين أمثال السيدة خديجة والسيدة عائشة ومن على شاكلتهما وحذا حذوهما إلى الآن وبذا قال الشاعر :

ولو كان النساء كمثل هذى ... لفضلت النساء على الرجال

وقالت أخرى تبين فوائدها فى العالم

إن النساء رياحين خلقن لكم ... وكلكم يشتهى شم الرياحين

١٢ - وعن عمرة بنت الحارث رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : الدنيا حلوة خضرةٌ فمن أخذها بحقها بارك الله له فيها ورُب متخوض فى مال الله ورسوله له النار يوم القيامة . رواه الطبرانى(١) بإسناد حسن

المعنى : [بحقها] : جمع فيها المال الحلال من وجوه شريفة وطرق شرعية . [متخوض] : أصل الخوض المشى فى الماء وتحريكه ثم إستعمل فى التلبس فى الأمر والتصرف فيه : أى رب متصرف

(١) رواه الطبرانى فى معجمه الكبير جـ ٢٤ ص ٣٤٠ - ٣٤١ من رواية عمرة بنت الحارث بن أبى ضرار الخزاعية .
رواه مجمع الزوائد للهيثمى جـ ١٠ ص ٢٤٧ كتاب الزهد باب الدنيا حلوة خضرة من رواية عمرة بنت الحارث .

فى مال الله تعالى بما لا يرضاه الله تعالى والتخوض تفعل منه وقيل هو التخليط فى تحصيله من غير وجهه كيف أمكن . اهـ .

المعنى أن الدنيا محبوبة مائلة إلى زينتها النفس ومشتاقة إلى كثرة خيراتها ولكن يختار المؤمن حلالها وطبها ليعمل صالحا به والفاجر العاصى يستعمل هذه النعم فى شهواته فيهوى بها فى جهنم ، لأن الذى وهب له هذه النعم سيحاسبه عليها وهل عمل بها حسب شرع حبيبه سيدنا رسول الله ﷺ ؟

١٣ – وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : الدنيا حلوة خضرة فمن أخذها بحقها بارك الله له فيها ورب متخوض فيما اشتهت نفسه ليس له يوم القيامة إلا النار . رواه الطبرانى فى الكبير[1] ورواته ثقات .

المعنى : [متخوض] : تارك العنان لنفسه تدله على المعاصى وترتكب الشهوات الذميمة فينفق فى وجوه الشرور والعصيان وعقابه دخول جهنم والعياذ بالله تعالى .

١٤ – وعن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من قضى نهمته فى الدنيا حيل بينه وبين شهوته فى الآخرة ومن مد عينيه إلى زينة المترفين كان مهينا فى ملكوت السموات ومن صبر على القوت الشديد صبراً جميلاً أكنه الله من الفردوس حيث شاء . رواه الطبرانى فى الأوسط والصغير[2]

المعنى : [قضى نهمته] : أى أدرك طلب نفسه وذاق حلاوة ما يتمنى فى حياته . وفى النهاية النهمة : بلوغ الهمة فى الشىء ومنه النهم من الجوع . [حيل] : بعد . [مد عينيه إلى زينة المترفين : أى نظر إلى رغد المنعمين واطلع على خيراتهم وأن تضجر وحسد ولم يصبر على ما أعطاه الله تعالى . [كان مهيناً : واقعة عليه كل إهانة وأذى من الملائكة البررة . وفى النهاية ملكوت اسم مبنى من الملك كالجبروت والرهبوت من الجد والرهبة . [ومن صبر] : حبس نفسه على تحمل الجوع وقنع برزقه ورضى بالقليل ملكه الله أعلى جهة فى الجنة يتمتع بنعيمها جزاء صبره فى حياته .

١٥ – وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : لا يصيب عبد من الدنيا شيئاً إلا نقص من درجاته عند الله وإن كان عليه كريماً . رواه ابن أبى الدنيا وإسناده جيد وروى عن عائشة مرفوعا والموقوف أصح .

المعنى : [لا يصيب] : لا ينال العبد شيئاً من خيرات الدنيا إلا حاسبه الله عليه وأخذ منه درجات سامية كانت له فى آخرته .

١٦ – وروى عن ثوبان رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله : ما يكفينى من الدنيا ؟ قال

---

(١) رواه مجمع الزوائد للهيثمى حـ ١٠ ص ٢٤٦ كتاب الزهد باب الدنيا حلوة خضرة .

(٢) رواه مجمع الزوائد للهيثمى حـ ١٠ ص ٢٤٨ كتاب الزهد باب فيمن أحد الدنيا ـــ باب منه » من رواية البراء بن عازب .

ما سد جوعتك وواري عورتك وإن كان لك بيت يظلك فذاك وإن كانت لك دابة فبخ . رواه الطبراني [(١)] في الأوسط .

المعنى : [وارى] : ستر . وعورة الرجل ما بين السرة و ركبة وعورة المرأة جميع جسمها إلا وجهها وكفيها . [فذاك] : هذا كافيك . [فبخ] : كلمة تقال عند المدح والرضا اهـ . أي العاقل يطلب في حياته :

(أ) ما يقيه شر الجوع .

(ب) ما يكنه ويقيه شر الحر والبرد ويغطي سوءته .

(جـ) مركب وطيء سهل يجلب له الراحة ويوفر عليه التعب . ومازاد على ذلك ينفقه في وجوه البر ادخارا عند الله جل وعلا .

١٧ - وعن أبي عسيب رضي الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ ليلاً فمر بي فدعاني فخرجت إليه ثم مر بأبي بكر رحمه الله فدعاه فخرج إليه ثم مر بعمر رحمه الله فدعاه فخرج إليه فانطلق حتى دخل حائطا لبعض الأنصار فقال لصاحب الحائط : أطعمنا فجاء بعذق فوضعه ، فأكل رسول الله ﷺ وأصحابه ، ثم دعا بماء بارد فشرب فقال : لتسئلن عن هذا يوم القيامة . قال : فأخذ عمر رحمه الله العذق فضرب به الأرض حتى تناثر البُسر قبل رسول الله ﷺ ، ثم قال : يا رسول الله إنا لمسئولون عن هذا يوم القيامة ؟ قال : نعم إلا من ثلاث : خِرقةٍ كف بها عورته أو كسرة سد بها جوعته أو حجر يدخل فيه من الحر والقر . رواه أحمد[(٢)] ورواته ثقات .

المعنى : [فانطلق حتى دخل حائطا] : أتى حائطاً والحائط ههنا : البستان من النخيل إذا كان عليه حائطا وهو الجدار وجمعه حوائط . [بعذق] : العرجون بما فيه من الشماريخ . [لتسئلن عن هذا] : والله ليسألنكم عن هذه الأكلة الجميلة الحلوة البديعة . [البُسر] : التمر ، تغرق أمام حضرته ﷺ . [إلا من ثلاث خرقة] : قطعة من نسيج تستر العورة ، أو قطعة من [خبز] : تطرد الجوع . [أو حجر يدخل] : والمعنى بيت على قدر منع الحر والبرد فقط ومازاد عن هذه الثلاثة يحاسب الله عليها حساباً عسيراً ففيه الترغيب في طلب ثلاثة على قدرا الحاجة الواقية :

١ - ملبس　　　٢ - طعام　　　٣ - منزل

١٨ - وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : ليس لابن آدم حق إلا في هذه الخصال : بيت يكنه وثوب يواري عورته وجلف الخبز والماء . رواه الترمذي والحاكم وصححاه والبيهقي[(٣)] ولفظه : قال رسول الله ﷺ : كل شيء فضل عن ظل بيت وكسر خبز وثوب يواري

(١) رواه مجمع الزوائد للهيثمي حـ ١٠ ص ٢٥٤ كتاب الزهد باب ما يكفي ابن ادم من الدنيا .

(٢) رواه أحمد في مسنده حـ ٥ ص ٨١ . من رواية أبي عسيب .

(٣) رواه الحاكم في مستدركه حـ ٤ ص ٣٢١ كتاب الرقاق .

رواه الترمذي في سننه حـ ٤ ص ٣ رقم ٢٤٤٤ كتاب الزهد باب ماجاء في الزهادة في الدنيا .

عورة ابن آدم فليس لابن آدم فيه حق . قال الحسن : فقلت لحمران : ما يمنعك أن تأخذ ؟ وكان يعجبه الجمال يا أبا سعيد إن الدنيا تقاعدت بى

المعنى : [الجلف] : بكسر الجيم وسكون اللام بعدهما فاء : هو غليظ الخبز وخشنه وقال النضر بن شميل : هو الخبز ليس معه إدام . [فضل] : زيادة داعية إلى الترف يسأل الله معطيها فيم استعملها .

١٩ – وعن أبى عبد الرحمن الجبلى قال : سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص وسأله رجل فقال : ألستُ من فقراء المهاجرين ؟ فقال له عبد الله : ألك امرأة تأوى إليها ؟ قال : نعم ، قال : ألك مسكن تسكنه ؟ قال : نعم ، قال فأنت من الأغنياء . قال : فإنى لى خادماً ؟ قال : فأنت من الملوك رواه مسلم[١] موقوفاً .

المعنى : [ألك امرأة] : زوجة ترجع إليها من عملك فتجد قرة عين وسرورا وحياة سعيدة . [ألك مسكن] : منزل تسكنه .

والمعنى ثنتان ملكتهما فعدك الله من الموسرين الأغنياء :

(أ) زوجة .

(ب) بيت ، والثالثة خادم يقضى له حاجاته لراحته فعده ﷺ من الملوك . .

٢٠ – وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ ما فوق الإزار وظل الحائط وحر الماء فضل يحاسب به العبد يوم القيامة أو يسأله عنه . رواه البزار[٢] ورواته ثقات إلا ليث بن أبى سليم وحديثه جيد فى المتابعات .

المعنى : [مافوق الإزار] : الرداء : أى الزائد عن ستر العورة . [فضل] : زيادة عن حق العبد يسأل عن نعيمها .

٢١ – وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : أول ما يحاسب العبد يوم القيامة أن يقال له : ألم أصح لك جسمك وأروك من الماء البارد . رواه ابن حبان فى صحيحه والحاكم[٣] وقال : صحيح الاسناد .

المعنى : [ألم أصح لك جسمك] : ألم أعطك صحة ونضارة وأزيل ظمأك ؟

٢٢ – وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال لى رسول الله ﷺ : إن أردت اللحوق بى فليكفك من الدنيا كزاد الراكب وإياك ومجالسة الأغنياء ولا تستخلفى ثوباً حتى ترقعيه . رواه الترمذى والحاكم والبيهقى من طريقها وغيرها كلهم من رواية صالح بن حسان .

(١) رواه مسلم فى صحيحه حـ ٤ ص ٢٢٨٥ رقم ٣٧ / ٢٩٧٩ .

(٢) رواه كشف الاستار عن زوائد البزار حـ ٤ ص ٢٤٧ رقم ٣٦٤٣ باب فيما يسأل العبد عنه .

(٣) رواه الترمذى فى سننه كتاب اللباس باب ما جاء فى توقيع الثوب حـ ٣ ص ١٥٥ رقم ١٨٣٩ .

المعنى : [اللحوق بى] : مرافقتى فى الجنة . [كزاد الراكب] : قدر زاد المسافر . [وإياك ومجالسة الأغنياء] : احذرى مجالسة أصحاب الأموال والثروة . [ولا تستخلفى ثوباً] : ولا تأتى بثوب جديد .

ثلاثة تقربك إلى رسول الله ﷺ .

(أ) التقليل من الدنيا (ب) مجالسة الفقراء لا المنعمين .

(جـ) التخش والتقشف والقناعة والزهد فى الملبس .

٢٣ - وعن أبى سفين عن أشياخه قال : قدم سعد على سلمان يعوده قال : فبكى فقال سعد : ما يبكيك يا أبا عبد الله ؟ توفى رسول الله ﷺ وهو عنك راضٍ ، وترد عليه الحوض وتلقى أصحابك ، فقال : ما أبكى جزعاً من الموت ولا حرصاً على الدنيا ولكن رسول الله ﷺ عهد إلينا عهداً قال : لتكن بلغة أحدكم من الدنيا كزاد الراكب وحولى هذه الأساود ، قال : وإنما حوله إجانة وجفنة ومطهرة فقال : يا سعد : أذكر الله عند همك إذا همت وعند يديك إذا قسمت وعند حكمك إذا حكمت . رواه الحاكم[١] وقال : صحيح الاسناد كذا قال : (قوله : وهذه الأساود حولى) قال أبو عبيد أراد الشخوص من المتاع وكل شخص سواد من إنسان أو متاع أو غيره .

المعنى : [ما أبكى جزعاً] : خوفاً . [ولا حرصاً على الدنيا] : شدة الطمع . والمعنى يبكى سليمان خشية أن يسأله ربه عن هذه الأشياء التى تركها :

(أ) طســت (ب) ما يوضع عليه الطعام (جـ) إبريــق

[بُلَغَهُ] : ما يتبلغ ويتوصل به إلى الشىء المطلوب . [إجانة] : إناء يغسل فيه الثياب والجمع أجاجين . [جفنة] : مائدة والعرب تدعو السيد المطعام جفنة ، لأنه يضعها ويطعم الناس فيها : أى مضيفة للجود والاحسان . [مطهرة] : إداوة أى إناء التطهير والنظافة . [همك] : عزمك على إيجاد عمل . [قسمت] : وزعت : أى سو بالعدل وفرق بالحق . [حكمت] : إذا حضرت النزاع بين متخاصمين فاعدل .

٢٤ - وعن أنس رضى الله عنه قال : اشتكى سلمان فعاده سعد فرآه يبكى فقال له سعد : ما يبكيك يا أخى ؟ أليس قد صحبت رسول الله ﷺ ، أليس ، أليس ؟ قال سلمان : ما أبكى واحدة من اثنتين وأبكى خضًا على الدنيا ولا كراهية الآخرة ولكن رسول الله ﷺ عهد إلينا عهداً ما أرانى إلا قد تعديت . قال : وما عهد إليك ؟ قال عهد إلينا أنه يكفى أحدكم مثل زاد الراكب ، ولا أرانى إلا قد تعديت ، وأما أنت يا سعد فاتق الله عند حكمك إذا حكمت وعند قسمك إذا قسمت : وعند همك إذا هممت قال ثابت : فبلغنى أنه ما ترك إلا بضعة وعشرين درهما مع نفيقة كانت عنده . رواه ابن ماجه[٢] ورواته ثقات احتج بهم الشيخان إلا جعفر بن سليمان فاحتج به مسلم وحده .

(١) رواه الحاكم فى مستدركه حـ ٤ ص ٣١٧ كتاب الرقاق .

(٢) رواه ابن ماجه فى سننه حـ ٢ ص ١٣٧٤ رقم ٤١٠٤ كتاب الزهد باب الزهد فى الدنيا .

(قال الحافظ) : وقد جاء فى صحيح ابن حبان أن مال سلمان رضى الله عنه جمع فبلغ خمسة عشر درهما ، وفى الطبرانى : أن متاع سلمان بيع فبلغ أربعة عشر درهما .

المعنى : [ضنًّا] : بخلاً من ضن ضنانة .

إن الانسان خلق ليعمل فى هذه الحياة ويجد فى جنى ثمار الصالحات بما كسبت يداه فلا يمنع الزهد أن يتقن الموظف عمله أو يحترف الصانع أو يبيع التاجر ليربح وهكذا فالله تعالى يقول : **﴿ فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ﴾**

وهذا الشاعر نفسه تطمح إلى المعالى بكده وعرق جبينه ، يقول المتنبى :

ليس التعلل بالآمال من أربى ... ولا القناعة بالإقلال من شيمى
ولا أظن بنات الدهر تتركنى ... حتى تسد عليها طرقها هممى
والليالى التى أخنت على جدتى ... بحرقة الحال واعذرنى ولا تلم
أرى أناساً ومحصولى على غنم ... وذكر جود ومحصولى على الكلم

[بنات الدهر] : أى حوادثه . [محصولى] : أى حصولى على مواعيد .

فيريد أن المجد يرقى إلى العلياء بكده ويكسب المال بعرق جبينه ولا يرضى الصغائر :

لا تركن إلى الهوى ... واحذر مفارقة الهواء
يوما تسير إلى الثرى ... ويفوز غيرك بالثراء

ينهى الشاعر عن اتباع الشهوات ، ثم يحبب الانسان إلى التمتع بخيرات الدنيا فى وجوه الحلال ويرغبه بتشييد الصالحات ذخرا له بعد مماته (والباقيات الصالحات خير) .

قد عضنى نار النوائب ... ورأيت آمالى كواذب
والمرء يعشق لذة الد ... نيا فتفقره المصائب
وإذا تفرق درهما ... زبنته حين يلذ الشارب

******

لا تجد بالعطاء فى غير حق ... ليس فى منع غير ذى الود بخل
إنما الجود أن تجود على من ... هو للجود والندى منك أهل

إن الذى يرغب فى الزهد ـــ ﷺ كان راعى غنم فى إبان صغره . ثم تاجر فربح مالا وفيرا ثم عكف على طاعة ربه حتى اصطفاه الله لرسالته فكان ملكا عادلا ورسولا أدى الرسالة بأمانة وشجاعة ، وكان رئيس القواد فأكثر الفتوح ودانت له المعمورة ومع وفرة النعم يقول ﷺ فى حديثه « أجوع يوما وأشبع يوما » ثم قفى أثره أصحابه الأبرار واتبع منهجه المسلمون الأخيار حتى إن

السيدة عائشة رضي الله عنها جاءها يوما آلاف الدنانير فوزعتها ولم تجد ما تفطر عليه . هذا هو معنى الزهد أيها السادة . وليس الزهد الميل إلى الكسل والبطالة والخلو من العمل وللشيخ عمر الأنسى :

إذا أنت لم تعمـــل بما أنت قائـــل — فأنت أسير الجهـــل أو أنت تكـــذب
ولا تصحبنى زادا سوى البر والتقوى — وإلا فشر الـــزاد ما أنت تصحـــب

ولأحمد الكيوانى :

يا مكـــثرا مـــن ذم كل ذميـــم — ابـــدأ بنـــفسك قبـــل كل ملـــوم
هـــل تنجـــح الآداب عنـــد معاشـــر — مـــع زهدهـــم فى العلـــم والتعليـــم

٢٥ – وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ ما طلعت شمس قط إلا بُعث بجنبيتها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم ، فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى . رواه أحمد . ورواته رواة الصحيح وابن حبان فى صحيحه والحاكم[١] وقال : صحيح الاسناد .

المعنى : [بجنبيتها] : بناحيتها . [الثقلين] : الانس والجن . [هلموا إلى ربكم] : اقبلوا على ربكم بطاعته وذكره . [كثر وألهى] : شغل عن عبادته .

٢٦ – وروى الطبرانى من حديث فضالة عن أبى أمامة قال : قال : رسول الله ﷺ : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى يا أيها الناس إنما هما نجدان نجد خير ونجد شر ، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير[٢]؟

المعنى : [النجد هنا] : الطريق ومنه قوله تعالى ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾ : أى الطريقين طريق الخير وطريق الشر .

٢٧ – وعن فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : طوبى لمن هُدِى للإسلام وكان عيشه كفافا وقنع . رواه[٣] الترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم .

المعنى : [طوبى] : مكان فى الجنة تظله شجرة واسعة الظلال يستظل بها الذى وفق لآداب الاسلام وعمل بها .

---

(١) رواه بن حبان فى صحيحه حـ ٥ ص ١٣٩ ، حـ ٢ ص ٣٨ من رواية أبو الدرداء .
رواه الحاكم فى مستدركه حـ ٢ ص ٤٤٥ ، رواه الامام أحمد فى مسنده حـ ٥ ص ١٩٧ .
(٢) رواه مجمع الزوائد للهيثمى حـ ١٠ ص ٢٥٦ كتاب الزهد .
(٣) رواه الامام أحمد فى مسنده حـ ٦ ص ١٩ .

٢٨ – وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعَّه الله بما آتاه . رواه مسلم والترمذى وابن ماجه[١].

المعنى : [الكفاف] : الذى ليس فيه فضل عن الكفاية . [قنَّعه] : أرضاه باليسير ، وفى النهاية : قنع يقنع قنوعا إذا رضى والقناعة كنز لا يفنى لأن الانفاق منها لا ينقطع كلما تعذر عليه شىء من أمور الدنيا قنع بما دونه ورضى ، ومنه الحديث « عز من قنع وذل من طمع ، لأن القانع لا يذله الطلب فلا يزال عزيزا » .

(١) رواه الامام مسلم فى صحيحه كتاب الزكاة باب ٤٣ رقم ١٢٥ ، رواه الامام أحمد فى مسنده حـ ٢ ص ١٦٨

تفسير سورة التغابن

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية ، إلا آخرها : ﴿ **إن من أزواجكم وأولادكم** ﴾ إلى آخر السورة .

عدد آياتها : ثمان عشرة .

وعدد كلماتها : مائتان وإحدى وأربعون .

وحروفها : ألف وسبعون .

فواصل آياتها : (من درّ) وعلى الدال آية واحدة : حميد . وسميت سورة التغابن .

لقوله تعالى : ﴿ **ذلك يوم التغابن** ﴾ .

مقصود السورة

معظم مقصود السورة : بيان تسبيح المخلوقات ، والحكمة فى تخليق الخلق ، والشكاية من القرون الماضية ، وإنكار الكفار البعث والقيامة ، وبيان الثواب والعقاب ، والإخبار عن عداوة الأهل والأولاد ، والأمر بالتقوى حسب الاستطاعة ، وتضعيف ثواب المتقين ، والخبر عن اطلاع الحق على علم الغيب فى قوله : ﴿ **عالم الغيب** ﴾ الآية .

المتشابهات :

قوله : ﴿ **يسبح لله مافى السموات ومافى الأرض** ﴾ وبعده ﴿ **يعلم مافى السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون** ﴾ إنما كرّر (ما) فى أول السورة ، لاختلاف تسبيح أهل الأرض وأهل السماء فى الكثرة والقلة ، والبعد والقرب ، من المعصية والطاعة ، وكذلك اختلاف ما يسرون وما يعلنون ، فإنهما ضدّان ، ولم يكرر مع (يعلم) لأن الكل بالإضافة إلى علم الله سبحانه جنس واحد ، لا يخفى عليه شىء .

قوله : ﴿ **ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً** ﴾ ومثله فى الطلاق سواء ، لكنه زاد هنا ﴿ **يكفر عنه سيئاته** ﴾ ، لأن هذه السورة بعد قوله : ﴿ **أبشر يهدوننا** ﴾ الآيات فأخبر عن الكفار بسيئات تحتاج إلى تكفير إذا آمنوا بالله ، ولم يتقدم الخبر عن الكفار بسيئات فى الطلاق ، فلم يحتج إلى ذكرها .

مناسبة السورة لما قبلها

١ – إنه فى السورة قبلها ذكر حال المنافقين ، وخاطب بعد ذلك المؤمنين ، وهنا قسم الناس قسمين مؤمن وكافر .

٢ – **نهى هناك** عن الاشتغال بالأولاد عن ذكر الله ، أن الأموال والأولاد فتنة .

٣ – فى السورة السابقة حث على الإنفاق فى سبيل الله . وفى ذكر التغابن حث عليه **أيضاً** .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ
ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ
فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ
حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ
بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ
أَنزَلْنَا وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ
ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ
ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾

معـانى المفـردات

﴿ ألم يأتكم ﴾ : هذا استفهام للتعجب من حالهم . ﴿ والنبأ ﴾ : الخبر الهام . ﴿ ذاقوا وبال أمرهم ﴾ : أصل الوبال : الثقل والشدة المترتبة على أمر من الأمور ، والأمر هنا المقصود به كفرهم . ﴿ البينات ﴾ : المعجزات . ﴿ تولوا ﴾ : أعرضوا ، ﴿ استغنى الله ﴾ : أى أظهر غناه عنهم ، إذ أهلكهم وقطع دابرهم ﴿ زعم ﴾ : أكثر ما يستعمل للادعاء الباطل ، ﴿ بلى ﴾ : كلمة للجواب تقع بعد النفى لإثبات ما بعده كما وقع فى الآية ﴿ لتبعثن ﴾ : أى لتحاسبن وتجزون بإعمالكم ﴿ والنور ﴾ : هو القرآن الكريم ﴿ والخبير ﴾ : هو العليم ببواطن الأمور ﴿ يوم الجمع ﴾ : يوم القيامة ، سمى بذلك لأن الله يجمع فيه الأولين والآخرين فى صعيد واحد . ﴿ ويوم التغابن ﴾ : قال القرطبى : سمى يوم القيامة يوم التغابن ، لأنه غبن فيه أهل الجنة أهل النار . أى أن أهل الجنة أخذوا الجنة ، وأخذ أهل النار النار على طريق المبادلة ، فوقع الغبن لأجل مبادلتهم الخير بالشر ، والنعيم بالعذاب ، يقال : غبنت فلاناً إذا بايعته أو شاربته فكان النقص عليه والغلبة لك .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ **يسبح لله مافى السموات ومافى الأرض * له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير** ﴾ . أى ينزه الله تعالى ويمجده جميع مافى السموات والأرض من مخلوقات ، تنزيهاً دائماً مستمراً . كما قال تعالى : ﴿ **ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه * والله عليم بما يفعلون * ولله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير** ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **له الملك وله الحمد** ﴾ أى هو المتصرف فى جميع الكائنات ، المحمود على جميع ما يخلق ويقدر **وقوله تعالى : ﴿ وهو على كل شىء قدير ﴾ أى قادر سبحانه على كل شىء ، قدير يغنى** ويفقر ، ويعز ويذل ، وإذا أراد شيئاً ، فإنما يقول له كن فيكون ، وهو كالدليل لما تقدم من أن الملك والحمد له سبحانه . قال تعالى : ﴿ **وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيراً** ﴾[2]

أخرج أبو داود والنسائى عن أبى عياش أن رسول الله ﷺ قال : « من قال إذا أصبح لا اله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير كان له عدل رقبة من ولد إسماعيل وكتب له عشر حسنات وحط عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات وكان فى حرز من الشيطان حتى يمسى ، وإن قالها إذا أمسى كان له مثل ذلك حتى يصبح »[3] .

---

(١) سورة النور الآيتان : ٤١ ، ٤٢ .

(٢) سورة الاسراء آية : ١١١

(٣) أخرجه أبو داود فى سننه حـ ٥ ص ٣١٧ كتاب الأدب باب ما يقول إذا أصبح رقم ٥٠٧٧ .

وأخرج الإمام مسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه قال « كان رسول الله ﷺ إذا أمسى قال : أمسينا وأمسى الملك لله والحمد لله ولا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . اللهم إنى أسألك من خير هذه الليلة وخير ما فيها ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها ، اللهم إنى أعوذ بك من الكسل والهرم ، وسوء الكبر وفتنة الدنيا وعذاب القبر ، وإذا أصبح قال ذلك أيضاً : أصبحنا وأصبح الملك لله » .

وأخرج البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : من قال سبحان الله وبحمده فى يوم مائة مرة حطت عنه خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر »(٢).

وعنه أيضاً عن النبى ﷺ قال : كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله العظيم ، سبحان الله وبحمده »(٣). أخرجه البخارى .

وعنه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير فى يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه »(٤). أخرجه البخارى

قوله تعالى : ﴿ **هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن * والله بما تعملون بصير** ﴾ أى هو سبحانه الخالق لكم على هذه الصفة وأراد منكم ذلك * فلابد من وجود مؤمن وكافر * وهو البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال * وهو شهيد على أعمال عباده ، وسيجزيهم بها أتم الجزاء * ولهذا قال تعالى : ﴿ **والله بما تعملون بصير** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير** ﴾ قوله : ﴿ **خلق السموات والأرض بالحق** ﴾ أى خلقهما للحق ، وهو أن يجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى كما قال تعالى : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون * وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾(٥)وكقوله تعالى :

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه حـ ٤ ص ٢٠٨٨ كتاب الذكر والدعاء باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر مالم يعمل رقم ٢٧٢٣/٧٤

(٢) أخرجه البخارى حـ ٢ ص ١١٥ كتاب الدعوات باب فضل التسبيح .
أخرجه النسائى فى عمل اليوم والليل بواب ثواب من قال سبحان الله العظيم ص ٢٤٥

(٣) أخرجه البخارى حـ ٤ ص ٣١١ كتاب التوحيد . باب قول الله تعالى ونضع الموازين القسط
أخرجه ابن ماجه كتاب الأدب باب فضل التسبيح حـ ٢ ص ١٢٥١ رقم ٣٨٠٦

(٤) أخرجه البخارى حـ ٢ ص ٢٢٣ كتاب بدء الخلق باب صفة إبليس وجنوده

(٥) سورة الجاثية الآيتان : ٢١ ، ٢٢ .

﴿ **وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين * ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾[١]. وقوله تعالى : ﴿ **وصوركم فأحسن صوركم** ﴾ أى خلقكم فى أحسن صورة وأجمل شكل ، فأتقن وأحكم خلقكم وتصويركم ، كقوله تعالى : ﴿ **لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم** ﴾[٢]. فإن من نظر فى شكل الإنسان وهيئته وتناسب أعضائه ، علم أن صورته أحسن صورة بالنسبة لسائر الحيوان ، ومن حسن صورته أنه خلق منتصباً غير منكب على وجهه .

وقوله تعالى : ﴿ **وإليه المصير** ﴾ أى المرجع والمآب ، ثم أخبر تعالى عن علمه بجميع الكائنات السمائية والأرضية والنفسية ، فقال تعالى : ﴿ **يعلم مافى السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور** ﴾ . فهو سبحانه عالم الغيب والشهادة الذى استوى فى علمه ما أسر العبد وما أظهر ، الذي علم ماكان وما يكون ومالم يكن لو كان كيف يكون ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، يعلم ما يلج فى الأرض ومايخرج منها ومايتنزل من السماء وما يعرج فيها ، كيف لا وهو الذى خلق وقدر ، « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير »[٣].

قوله تعالى : ﴿ **ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم * ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد** ﴾ : أى ألم يبلغكم أيها المشركون من أهل مكة ، نبأ الذين كفروا بالرسل من قبلكم ، كقوم نوح وهود وصالح وغيرهم من الأمم ، التى أصرَّت على الكفر والعناد ، كيف حل بهم عقاب ربهم ، وعظيم نقمته ، وأرسل عليهم ألواناً من العذاب لا قبل لهم بها ، فمن صاعقه من السماء تجتاحهم ، إلى رجفة فى الأرض تهلكهم ، إلى صيحة تصم الآذان تبيدهم وتجعلهم كأمس الدابر ، وتمحوهم من صفحة الوجود ، إلى طوفان يعم الأرض ويبتلعهم ، وحاق بهم ماكانوا به يستهزؤن ، وسيكون لهم عظيم النكال والوبال ، يوم تجزى كل نفس بما كسبت ، إن الله سريع الحساب .

وفى هذا الأسلوب تعجيب من حالهم ، وأنه قد كان لهم فى ذلك ، مذكر ، لو كانوا يستبصرون ، وعبرة لو كانوا يعتبرون .

ثم بين أسباب ماحل بهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا ؟ فكفروا وتولوا واستغنى الله ، والله غنى حميد ﴾ أى أن ماحل بهم من سوء العذاب كان من جراء تكذيبهم بالرسل بعد أن جاءوهم بالأدلة الواضحة ، والمعجزات الباهرة ، ﴿ **وقالوا : أبشر يهدوننا** ﴾ أنكروا أن يكون الرسول من البشر ﴿ **فكفروا** ﴾ أى بهذا القول ، إذ قالوه استصغاراً ولم يعلموا أن الله يبعث من يشاء إلى عباده ، وقيل : كفروا بالرسل ، وتولوا عن البرهان ، وأعرضوا عن الإيمان والموعظة . ﴿ **واستغنى الله** ﴾

(١) سورة الدخان الآيتان : ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) سورة التين آية : ٤ .

(٣) سورة الملك آية : ١٤ .

أى بسلطانه عن طاعة عباده ، قاله مقاتل : فبعد أن طال عنادهم ، وتمادوا فى غيهم ، أهلكهم الله بسلطانه وجبروته ، وقطع دابرهم ، واستغنى عن إيمانهم ، وهو الغنى عن العالمين جميعا ، والغنى عن إيمانهم وطاعتهم ، وهو الحقيق بالحمد على ما أنعم به على عباده ، وقد حمد نفسه فى كتابه قبل أن يحمده الحامدون ، فقال فى كتابه : ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾[١]

وجاء فى الحديث القدسى « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئا يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً . يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » رواه مسلم .

قال الامام النووى : دلت الأدلة السمعية والعقلية على أن الله مستغن فى ذاته عن كل شيء ، وأنه تعالى لا يتكثر بشيء من مخلوقاته ، وقد بين الله تعالى أن له ملك السموات والأرض وما بينهما . ثم بين أنه مستغن عن ذلك قال تعالى : ﴿ **يخلق ما يشاء** ﴾ وهو قادر على أن يذهب هذا الوجود ويخلق غيره ، ومن قدر على أن يخلق كل شيء ، فقد استغنى عن كل موجود . ثم بين سبحانه وتعالى أنه مستغن عن الشريك فقال تعالى : ﴿ **ولم يكن له شريك فى الملك** ﴾ ثم بين سبحانه وتعالى أنه مستغن عن المعين والظهير ، فقال تعالى : ﴿ **ولم يكن له ولى من الذل** ﴾ فوصف العز ثابت له أبداً ، ووصف الذل منتف عنه تعالى ، ومن كان كذلك فهو مستغن عن طاعة المطيع ، ولو أن الخلق كلهم أطاعوه كطاعة أتقى رجل منهم ، وبادروا إلى أوامره ونواهيه ولم يخالفوه ، لم يتكثر سبحانه وتعالى بذلك ، ولا يكون ذلك زيادة فى ملكه ، وطاعتهم إنما حصلت بتوفيقه وإعانته ، وطاعتهم نعمة منه عليهم ، ولو أنهم كلهم عصوه كمعصية أفجر رجل ــ أبليس وخالفوا أمره ونهيه ، لم يضره ذلك ، ولم ينقص من كمال ملكه شيئا ، فإنه لو شاء أهلكهم وخلق غيرهم ، فسبحانه من لا تنفعه الطاعة ، ولا تضره المعصية . قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز** ﴾[٢].

قوله تعالى : ﴿ **زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا . قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم ، وذلك على الله يسير** ﴾ . أى ادعى المشركون أن لا بعث ولا حساب ولا جزاء ، فقالوا كما حكى الله عنهم ﴿ **أئذا كنا تراباً أئنالفى خلق جديد ؟** ﴾[٣] وقالوا : ﴿ **من يحيى العظام وهى رميم** ﴾[٤] . فأمر رسوله بالرد عليهم وإبطال زعمهم بقوله :

---

(١) سورة الفاتحة آية : ٢

(٢) سورة فاطر الآيات : ١٥ - ١٧ .

(٣) سورة الرعد آية : ٥ .

(٤) سورة يس آية : ٧٨ .

﴿ قل بلى وربى لتبعثن ، ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾ أى قل لهم : إن البعث كائن لا محالة ، وإنكم وربى الذى برأ الخلق وأنشأهم من العدم ، ستحاسبن على أعمالكم ، وتجزون على الكثير والقليل ، والنقير والقطمير ، وذلك هين عليه يسير .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ ويستنبئونك أحق هو ؟ قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين ﴾(١) وقوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة ، قل بلى وربى لتأتينكم ﴾ الآية(٢).

قوله تعالى : ﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا والله بما تعلمون خبير يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ، ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير ﴾ .

بعد أن أبان لهم أدلة التوحيد والنبوة ، بما لا مجال معه للإنكار ــ طالبهم بالإيمان بهما فقال :

﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا ﴾ أى فصدقوا بالله ورسوله وكتابه الهادى لكم إلى سواء السبيل إذا تراكمت ظلمات الشبهات ، والمنقذ لكم من الضلالة إذا أحاطت بكم الخطيئات . كما قال تعالى : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾(٣) . ثم توعدهم على ما يأتون وما يذرون فقال : ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ فلا تخفى عليه أعمالكم ، وسيحاسبكم على ما كسبت أيديكم من خير ، أو اكتسبت من شر ، فراقبوه وخافوا شديد عقابه .

وقوله تعالى : ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ﴾ أى وتذكروا يوم يجمع الله الأولين والآخرين للحساب والجزاء فى صعيد واحد ، يسمعهم الداعى وينفذهم البصر ﴿ وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها ، اليوم تجزون ما كنتم تعملون ، هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾(٤)

وقوله تعالى : ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ، وما نؤخره إلا لأجل معدود ، يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد ﴾(٥)

وقوله تعالى : ﴿ ذلك يوم التغابن ﴾ فالكافرون قد اشتروا الدنيا بالآخرة ، فخسرت صفقتهم ، ولم يربحوا فيها ، والمؤمنون باعوا أنفسهم ، فربحت صفقتهم وماكانوا خاسرين . قال ابن

---

(١) سورة يونس آية : ٥٣ .
(٢) سورة سبأ آية ٣
(٣) سورة المائدة الآيتان : ١٥ ، ١٦ .
(٤) سورة الجاثية الآيتان : ٢٨ ، ٢٩ .
(٥) سورة هود الآيات : ١٠٣ – ١٠٥ .

عباس هو اسم من أسماء يوم القيامة وذلك أن أهل الجنة يغبنون أهل النار ، ومعناه كما قال القرطبى : أى أن أهل الجنة أخذوا الجنة ، وأخذ أهل النار النار على طريق المبادلة ، فوقع الغبن لأجل مبادلتهم الخير بالشر ، والجيد بالردىء ، والنعيم بالعذاب ، يقال : غبنت فلاناً إذا بايعته أو شاريته ، فكان النقص عليه والغلبة لك . قال المفسرون : فالمغبون من غبن أهله ومنازله فى الجنة ، ويظهر يومئذ غبن كل كافر بترك الإيمان ، وغبن كل مؤمن بتقصيره فى الإحسان .

وقال الحسن وقتادة : بلغنا أن التغابن فى ثلاثة أصناف : رجل علم علماً فعلمه وضيعه هو ، ولم يعمل به ، فشقى به ، وعمل به من تعلمه منه فنجا به ، ورجل اكتسب مالاً من وجوه يسأل عنها وشح عليه ، وفرّط فى طاعة ربه بسببه ، ولم يعملْ فيه خيراً ، وتركه لوارث لا حساب عليه فيه ، فعمل ذلك الوارث فيه بطاعة ربه ، ورجل كان له عبدٌ فعمل العبد بطاعة ربه فسعد ، وعمل السيد بمعصية ربه فشقى :

ثم بين سبحانه وتعالى هذا التغابن وفصله بقوله : ﴿ **ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم** ﴾ أى ومن يصدق بالله ويعمل بطاعته ، يمح عنه ذنوبه ، ويدخله جنات تجرى من تحت أشجارها الأنهار لا بثين فيها أبداً ، لا يموتون ولا يخرجون منها ، وذلك هو الفوز الذى لا فوز بعده ، لا نطوائه على النجاة من أعظم المهالك ، واجل المخاطر . ﴿ **والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير** ﴾ .

أى والذين جحدوا وحدانية الله ، وكذبوا بأدلته وآى كتابه ، الذى أنزله على عبده محمد ﷺ أولئك أصحاب النار خالدين فيها أبداً ، وبئس النار مصيراً لهم .

كل شىء بقضـاء

قال تعالى :

مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ

وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ
وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ
وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

معانى المفردات

﴿ **المصيبة** ﴾ : ما ينال الإنسان ويصيبه من خير أو شر . ﴿ **بإذن الله** ﴾ : أى بقدرته ومشيئته . ﴿ **يهد قلبه** ﴾ : أى يشرحه لازدياد الخير والطاعة . ﴿ **فتنة** ﴾ : أى بلاء ومحنة . ﴿ **ومن يوق** ﴾ : أى من يحفظ نفسه ﴿ والشح ﴾ : البخل مع الحرص . ﴿ **والقرض الحسن** ﴾ : هو التصدق من الحلال بإخلاص وطيب نفس .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه أن الناس قسمان : كافر ومؤمن ... أردف ذلك ببيان أن ما يصيب الإنسان من خير وشر فهو بقضاء الله وقدره ، ثم أمر بعد ذلك بطاعة الله وطاعة الرسول ، وذكر أن المؤمن ينبغى أن يتوكل على الله تعالى ، وألا يعتمد إلا عليه ، ثم ذكر سبحانه أن من الأولاد والزوجات أعداء لآبائهم وأزواجهم ، ويثبطونهم عن الطاعة ، ويصدونهم عن تلبية الدعوة لما فيه رفعة شأن الدين وإعلاء كلمته ، فعليكم أن تحذروهم ، ولا تتبعوا أهواءهم ، حتى لا يكونوا إخوان الشياطين ، ويزينون لكم المعاصى ، ويصدونكم عن الطاعة ، ثم أردف ذلك ببيان أن الانسان مفتون بماله وولده ، فإنه ربما عصى الله تعالى بسببهما ، فعليه أن يتقى الله ما استطاع سبيلا ، ولينفق ذو سعة من سعته ، فمن جاد بماله ووقى نفسه الشح ، فهو الفائز بخيرى الدنيا والآخرة ...

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شىء عليم** ﴾ . يقول تعالى مخبراً بما أخبر به فى سورة الحديد : ﴿ **ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير** ﴾[١]

---

(١) سورة الحديد الآية : ٢٢ .

وهكذا قال ههنا : ﴿ **ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله** ﴾ أى بإرادته وقضائه ﴿ **ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شىء عليم** ﴾ أى ومن أصابته مصيبة ، فعلم أنها بقضاء الله وقدره ، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله ، هدى الله قلبه، وعوضه عما فاته من الدنيا هدى فى قلبه ورزقه الله اليقين الصادق ، وأزلف عليه ما كان أخذ منه أو خيراً منه . قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ﴿ **ومن يؤمن بالله يهد قلبه** ﴾ يعنى يهد قلبه لليقين ، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه . وقال ابن جبير فى قوله تعالى : ﴿ **ومن يؤمن بالله يهد قلبه** ﴾ عند المصيبة فيقول : ﴿ **إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾(١).

وفى الحديث « عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له »(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ **والله بكل شىء عليم** ﴾ قال القرطبى : لا يخفى عليه تسليم من انقاد وسلم لأمره ، ولاكراهة من كرهه .

قوله تعالى : ﴿ **وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول * فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين** ﴾ أى وأطيعوا الله فيما شرع ، وأطيعوا رسوله فيما بلّغ ، وافعلوا ما به أمر ، واتركوا ما عنه نهى وزجر ، فإن أعرضتم ، فإنما عليه أداء ما حُمّل من الرسالة ، وعليكم ما حملتم من السمع والطاعة ، وهو قد أدى ما عليه ، ولا يكلف شيئا بعد ذلك .

قال الزهرى من الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم .

وعن العرباض بن سارية قال : وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ، وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون ، فقلنا يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا ، قال : أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة ، وإن تأمر عليكم عبد ، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة »(٣) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى » قيل ومن يأبى يا رسول الله ؟ قال : « من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى »(٤) رواه البخارى .

---

(١) سورة البقرة الآيتان : ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٢) أخرجه مسلم : حـ ٤ ص ٢٢٩٥ كتاب الزهد والرقائق . باب المؤمن أمره كله خير رقم ٢٩٩٩/٦٤ .

(٣) أخرجه الترمذى فى سننه حـ ٥ ص ٤٣ كتاب العلم ـــ باب ماجاء فى الأخذ بالسنة واجتناب البدع رقم ٢٦٧٦ . وأخرجه أبو داود . كتاب السنة ـــ باب فى لزوم السنة
أخرجه ابن ماجه فى المقدمة ـــ باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهدين .

(٤) أخرجه البخارى حـ ٩ ص ١١٤ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ **لله ما فى السموات وما فى الأرض وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله** ﴾ الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب ، فقالوا : أى رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق : الصلاة ، والجهاد ، والصيام ، والصدقة ، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها ، قال رسول الله ﷺ : « أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » فلما اقترأها القوم ، وذلقت بها ألسنتهم ، أنزل الله تعالى فى إثرها : ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير** ﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت * ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا** ﴾ قال نعم ﴿ **ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا** ﴾ قال : نعم ﴿ **ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به** ﴾ قال نعم : ﴿ **واعف عنا واغفرلنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين** ﴾ قال نعم » رواه مسلم(١).

قوله تعالى : ﴿ **الله لا إله إلا هو * وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ الله لا إله إلا هو ، أى لا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى ، فلا معبود بحق إلا هو ، ولا خالق غيره ، فعليه توكلوا ، كما قال سبحانه ﴿ **رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا** ﴾(٢) وكقوله سبحانه : ﴿ **وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا** ﴾(٣) وكقوله تعالى : ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله * قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هنّ كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته ، قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون** ﴾(٤) وقال تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون** ﴾(٥)

وعن أم سلمة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان إذا خرج من بيته قال : « بسم الله ، توكلت على الله ، اللهم إنى أعوذ بك أن أضِل أو أُضِل أو أزل أو أُزل ، أو أظلم أو أُظلم ، أو أجهل أو يُجهل علىَّ » رواه أبو داود ورواه الترمذى وقال حسن صحيح وهذا لفظ أبى داود(٦).

---

(١) أخرجه مسلم حـ ١ ص ١١٥ ، ١١٦ كتاب الإيمان باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق رقم ١٢٥/١٩٩ .

(٢) سورة المزمل آية : ٩ .

(٣) سورة الفرقان : ٥٨ .

(٤) سورة الزمر آية : ٣٨ .

(٥) سورة الانفال آية : ٢ .

(٦) أخرجه : أبو داود فى سننه كتاب الادب باب ما يقول إذا خرج من بيته حـ ٥ ص ٣٢٧ رقم ٥٠٩٤ .
وأخرجه الترمذى فى كتاب الدعوات . باب تعوذ من أن تجهل رقم ٣٤٢٣

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال يعنى إذا خرج من بيته ــ بسم الله توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله يُقال له هُديت وكُفيت ، ووُقيت ، وتنحى عنه الشيطان » رواه أبو داود والترمذى وقال الترمذى : حديث حسن . وزاد أبو داود : « فيقول ــ يعنى الشيطان ــ لشيطان آخر : كيف لك برجل قد هُدى وكُفى ووُقى »[١]؟

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم * وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم** ﴾

سأل رجل ابن عباس عن هذه الآية قال : هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة وأرادوا أن يأتوا النبى ﷺ ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا النبى ﷺ فلما أتوا النبى ﷺ رأوا الناس قد فقهوا فى الدين ، همّوا **أن** يعاقبوهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ــ الآية**) **قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح**[٢].

قال القاضى أبو بكر العربى : هذا يبين وجه العداوة ، فإن العدو لم يكن عدوا لذاته ، وإنما كان عدواً بفعله ، فإذا فعل الزوج والولد فعل العدو كان عدواً ، ولا فعل أقبح من الحيلولة بين العبد وبين الطاعة ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾[٣] وفى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إن الشيطان قعد لابن آدم فى طريق الإيمان فقال له : أتؤمن وتذر دينك ودين آبائك فخالفه فآمن ثم قعد له على طريق الهجرة فقال له : أتهاجر وتترك مالك وأهلك فخالفه فهاجر ، ثم قعد له على طريق الجهاد ، فقال له : أتجاهد فتقتل نفسك فتنكح نساؤك ، ويقسم مالك ، فخالفه فقتل فحق على الله أن يدخله الجنة »[٤]. وقعود الشيطان يكون بوجهين : أحدهما ــ يكون بالوسوسة

والثانى ــ بأن يحمل على ما يريد من ذلك الزوج والولد والصاحب ، قال الله تعالى : ﴿ **وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم** ﴾[٥] وفى حكمة عيسى عليه السلام : من اتخذ أهلاً ومالاً وولداً كان للدنيا عبداً ، وفى صحيح الحديث بيان أدنى من ذلك فى حال العبد ، قال النبى ﷺ : « تعس عبد الدرهم تعس عبد الخميصة ، تعس عبد القطيفة ، تعس وانتكس وإذا شيك

---

(١) أخرجه : أنظر أبو داود حـ ٥ ص ٣٢٨ كتاب الأدب باب ما يقول إذا خرج من بيته رقم ٥٠٩٥ .
وأخرجه الترمذى فى كتاب الدعوات باب ما يقول إذا خرج من بيته رقم ٣٤٢٢

(٢) أخرجه : انظر سنن الترمذى حـ ٥ ص ٣٩١ كتاب التفسير ــ تفسير سورة التغابن ــ رقم ٣٣١٧ .

(٣) سورة المنافقون آية : ٩ .

(٤) أخرجه البخارى فى تاريخ البخارى الكبير حـ ٤ ص ١٨٧ ، ١٨٨ رقم ٢٤٣١
ورواه ابن حبان فى صحيحه حـ ٧ ص ٥٧ رقم ٤٥٧٤

(٥) سورة فصلت آية : ٢٥ .

فلا انتقش »[١] ولا دناءة أعظم من عبادة الدينار والدرهم ، ولا همّة أخس من همّة ترتفع بثوب جديد .

وقوله تعالى : ﴿ **فاحذروهم** ﴾ معناه على أنفسكم والحذر على النفس يكون بوجهين : إما ضرر فى البدن ، وإما لضرر فى الدين ، وضرر البدن يتعلق بالدنيا ، وضرر الدين يتعلق بالآخرة ، فحذر الله سبحانه العبد من ذلك وأنذره به وقوله : ﴿ **وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم** ﴾ روى الطبرى عن عكرمة فى قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم** ﴾ قال : كان الرجل يريد أن يأتى النبى ﷺ فيقول له أهله . أين تذهب وتدعنا ؟ قال : فإذا أسلم وفقه قال : لأرجعن إلى الذين كانوا ينهون عن هذا الأمر ، فلأ فعلن ، قال ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم** ﴾ قال القرطبى : والآية عامة فى كل معصية يرتكبها الإنسان بسبب الأهل والولد ، وخصوص السبب لا يمنع عموم الحكم .

قوله تعالى : ﴿ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم** ﴾ أى إنما حبكم لأموالكم وأولادكم ابتلاء واختبار ، إذ كثيراً ما يترتب على ذلك الوقوع فى الآثام ، وإرتكاب كبير المحظورات .

وقدمت الأموال على الأولاد لأنها أعظم فتنة ، كما قال تعالى : ﴿ **كلا إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى** ﴾[٢] وأخرج أحمد والطبرانى والحاكم والترمذى عن كعب بن عياض قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن لكل أمة فتنة ، وإن فتنة أمتى المال »[٣] وروى عن بعض السلف : العيال سوس الطاعات .

وقال ابن مسعود : لا يقولن أحدكم : اللهم اعصمنى من الفتنة ، فإنه ليس أحد منكم يرجع إلى مال وأهل وولد إلا وهو مشتمل على فتنة ، ولكن ليقل : اللهم إنى أعوذ بك من مضلات الفتن .

وقال الحسن فى قوله تعالى : ﴿ **إن من أزواجكم وأولادكم عدوا** ﴾ « من » للتبعيض ، لأن كلهم ليسوا بأعداء ولم يذكر « من » فى قوله تعالى : ﴿ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾ لأنهما لا يخلوان من الفتنة واشتغال القلب بهما .

وقوله تعالى : ﴿ **والله عنده** ﴾ أى يوم القيامة ﴿ **أجر عظيم** ﴾ كما قال تعالى : ﴿ **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ۞ ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ۞قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا**

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه كتاب الزهد ــ باب فى المكثرين رقم ٤١٣٥ ، ٤١٣٦ .

(٢) سورة العلق الآيتان ٦ ،٧ .

(٣) أخرجه الترمذى حـ ٤ ص ٤٩٢ . كتاب الزهد . باب ــ ماجاء أن فتنة هذه الأمة فى المال رقم ٢٣٣٦ .
أخرجه الإمام أحمد فى مسنده حـ ٤ ص ١٦٠ .

عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله * والله بصير بالعباد ﴾[١]

قوله تعالى : ﴿ **فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **فاتقوا الله ما استطعتم** ﴾ أى ابذلوا فى تقواه جهدكم وطاقتكم ، وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه »[٢] ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾[٣] وقوله تعالى : ﴿ **واسمعوا وأطيعوا** ﴾ أى اسمعوا ما توعظون به وأطيعوا فيما تؤمرون به وتنهون عنه . قال قتادة : عليهما بويع النبى ﷺ على السمع والطاعة .

وقوله تعالى : ﴿ **وأنفقوا خيراً لأنفسكم** ﴾ أى وابذلوا مما رزقكم الله على الفقراء والمساكين وذوى الحاجات ، وفى الوجوه التى يكون فيها صلاح الأمة والملة ، وسعادة الدين والدنيا يكن ذلك خيراً لأنفسكم من الأموال والأولاد ، وهذا حث على البذل ، وبيان أن الامتثال خير لا محالة .

ثم زاد فى الحث على الانفاق فقال تعالى : ﴿ **ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ . أى ومن يبتعد عن البخل والحرص على المال — يكن من الفائزين بكل ما يرجو ، ونيل كل ما يبغى فى دينه ودنياه ، فيكون محبباً إلى الناس ، قرير العين برضاهم عنه وحنوّهم عليه ، سعيداً فى الآخرة بالقرب من ربه ، ومحبته ورضوانه ودخول جنته .

قال سفيان الثورى بسنده عن أبى الهياج الأسدى ، قال كنت أطوف بالبيت ، فرأيت رجلاً يقول : اللهم قنى شح نفسى ، لا يزيد على ذلك ، فقلت له فقال : إنى إذا وقيت شح نفسى ، لم أسرق ، ولم أزن ، ولم أفعل ، وإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه .

ثم بالغ فى الحث على الإنفاق أيضاً فقال تعالى : ﴿ **إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم** ﴾ أى إن تنفقوا فى طاعة الله ، متقربين إليه بإخلاص وطيب نفس — يضاعف لكم ذلك ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، ويستر لكم ما فرط من زلاتكم ، قال تعالى : ﴿ **ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم** ﴾[١]

(١) سورة آل عمران الآيتان : ١٤ ، ١٥ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده حـ ٢ ص ٢ ، ٥٠٨ .

(٣) سورة آل عمران الآية : ١٠٢ .

(٤) سورة التوبة آية : ١٠٤ .

وقوله تعالى : ﴿ **والله شكور حليم** ﴾ فيثيب من أطاعه بأضعاف مضاعفة ، ولا يعاجل من عصاه بعقوبته على كثرة الذنوب والخطايا .

وقوله تعالى : ﴿ **عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم** ﴾ أى هو العليم بما غاب عنكم وبما تشهدونه ، فكل ما تعملون فهو محفوظ لديه فى أم الكتاب ، لا يعزب عنه مثقال ذرة ، وهو سبحانه ذو العزة والقدرة ، النافذ الإرادة ، الحكيم فى تدبير خلقه على ما يعلم من المصلحة . كما قال تعالى : ﴿ **هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذى لا إله إلا هو الملك * القدوس * السلام * المؤمن المهيمن * العزيز * الجبار * المتكبر * سبحان الله عما يشركون *هو الله الخالق البارىء المصور* له الأسماء الحسنى * يسبح له مافى السموات والأرض * وهو العزيز الحكيم** ﴾[١].

« اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، رب كل شيء ومليكه أشهد أن لا إله ألا أنت ، أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه وأن أقترف على نفسى سوءاً أو أجزه إلى مسلم »[٢] من أدعية الرسول الكريم ﷺ رواه أبو داود والترمذى والطبرانى فى الأوسط .

---

(١) سورة الحشر الآيات : ٢٢ - ٢٤ .

(٢) أخرجه أبو داود حـ ٥ ص ٣٢١ كتاب الأدب باب ما يقول إذا أصبح رقم ٥٠٨٣
أخرجه الترمذى حـ ٥ ص ٥٠٦ كتاب الدعوات باب ٩٥ رقم ٣٥٢٩ .

تفسير سورة الطلاق

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مدينة بالاتفاق .

عدد آياتها : اثنتا عشرة آية .

وكلماتها : مائتان وأربعون .

وحروفها : ألف وستون .

فواصل آياتها : على الألف .

ولها اسمان : سورة الطلاق لقوله ﴿ **إذا طلقتم النساء فطلقوهن** ﴾ والثانى سورة النساء القصرى قاله عبد الله بن مسعود .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : بيان طلاق السنة ، وأحكام العدة ، والتوكل على الله فى الأمور ، وبيان نفقة النساء حال الحمل والرضاع وبيان عقوبة المتعدين وعذابهم ، وأن التكليف على قدر الطاقة ، وللصالحين الثواب والكرامة ، وبيان إحاطة العلم ، والقدرة فى قوله تعالى : ﴿ **لتعلموا** ﴾ الآية .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً** ﴾ أمر بالتقوى فى أحكام الطلاق ثلاث مرات ، ووعد فى كل مرة بنوع من الجزاء ، فقال أولاً ﴿ **يجعل له مخرجاً** ﴾ : يخرجه مما أدخل فيه وهو يكرهه ، ويتيح له محبوبه من حيث لا يأمل . وقال فى الثانى : يسهل عليه الصعب من أمره ، ويتيح له خيراً مما طلقها ، والثالث وعد عليه أفضل الجزاء ، وهو ما يكون فى الآخرة من النعماء .

ومناسبتها لما قبلها :

لما وقع فى سورة التغابن ﴿ **إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم** ﴾ وكانت عداوة الأزواج قد تفضى إلى الطلاق ، وعداوة الأولاد قد تفضى إلى القسوة ، وترك الانفاق عليهم ، عقب ذلك بسورة فيها ذكر أحكام الطلاق والإنفاق على الأولاد والمطلقات بسببهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ

مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ لَا تَدْرِى لَعَلَّ
ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ
فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ
ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ
مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ
ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ
مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ
أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ
ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾
أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ
وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ
فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ
أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ
لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾

معانى المفردات

﴿ **طلقتم النساء** ﴾ : أى أردتم طلاقهن . ﴿ **لعدتهن** ﴾ : أى مستقبلين عدتهن بأن تطلقوهن فى طهر لا قربان فيه . ﴿ **وأحصوا العدة** ﴾ : أى اضبطوها وأكملوها ثلاثة قروء كوامل . ﴿ **والفاحشة المبينة** ﴾ : هى ارتكاب ما يوجب الحد ، أو البذاء على الأحماء أو على الزوج .

﴿ حدود الله ﴾ : شرائعه التى أمر بها ونهى عن تركها ، ﴿ ظلم نفسه ﴾ : أى أضرّ بها ، ﴿ والأمر ﴾ : هو الندم على طلاقها والميل إلى رجعتها . ﴿ فإذا بلغن أجلهن ﴾ : أى قاربن انتهاء العدة . ﴿ فأمسكوهن ﴾ : أى فراجعوهن . ﴿ بمعروف ﴾ : أى مع حسن عشرة . ﴿ أو فارقوهن بمعروف ﴾ : أى مع إعطاء الحق واتقاء المضارة ﴿ بالغ أمره ﴾ : أى منفذ حكمه وقضاءه فى خلقه يفعل ما يشاء . ﴿ قدرا ﴾ : أى تقديراً وتوقيتاً . ﴿ من وجدكم ﴾ : أى من وسعكم . ﴿ ولا تضاروهن ﴾ : أى فى النفقة والسكنى . ﴿ لتضيقوا عليهن ﴾ : أى لتلجئوهن إلى الخروج بشغل المكان أو بإسكان من لايردن السكنى معه ، ﴿ ائتمروا ﴾ : أى تآمروا وتشاوروا ، ﴿ بمعروف ﴾ أى : بجميل فى الأجر والإرضاع ، فلا يكن من الأب مماكسة ، ولا من الأم معاسرة ، ﴿ وإن تعاسرتم ﴾ : أى ضيق بعضكم على بعض بالمشاقة فى الأجر أو بطلب الزيادة . ﴿ قدر عليه ﴾ : أى ضيق ، ﴿ آتاه الله ﴾ : أى أعطاه ﴿ ما آتاها ﴾ : أى إلا بقدر ما أعطاها من الأرزاق قلّ أو وجلّ .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً** ﴾ .

﴿ **يا أيها النبى** ﴾ نداء للنبى ﷺ وخطاب له على سبيل التكريم والتنبيه ثم خاطب الأمة تبعاً ، فقال تعالى : ﴿ **إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن** ﴾ قال البخارى عن سالم أن عبد الله بن عمر أخبره أنه طلق إمرأة له وهى حائض فذكر عمر لرسول الله ﷺ فتغيظ رسول الله ﷺ منه ، ثم قال : « ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض فتطهر فإن بدا له أن يطلقها طاهراً قبل أن يمسها فتلك العدة التى أمر بها الله عز وجل » رواه أصحاب الكتب والمسانيد من طرق متعددة وألفاظ كثيرة وفى رواية قال ابن عمر .وقرأ النبى ﷺ ﴿ **يا أيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن** ﴾(1) .

وقال الأعمش بسنده عن عبد الله فى قوله تعالى : ﴿ **فطلقوهن لعدتهن** ﴾ قال الطهر من غير جماع ، وروى عن ابن عمر وعطاء ومجاهد والحسن وابن سيرين وقتادة وميمون بن مهران ومقاتل بن حيان مثل ذلك ، وهى رواية عنعكرمة والضحاك وقال على عن أبي طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **فطلقوهن لعدتهن** ﴾ قال لا يطلقها وهى حائض ولا فى طهر جامعها فيه ، ولكن يتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها تطليقة قال ابن كثير : ومن هنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وقسموه طلاق سنة ، وطلاق بدعة ، فطلاق السنة أن يطلقها طاهرة من غير جماع ، أو حاملاً قد استبان

(1) أخرجه البخارى حـ ٤ ص ٢٣٦ كتاب الأحكام باب هل يقضى الحاكم أو يفتى وهو غضبان .

حملها ، والبدعى هو أن يطلقها فى حال الحيض ، أو فى طهر قد جامعها فيه ، ولا يدرى أحملت أم لا ، وطلاق ثالث لا سنة فيه ولا بدعة ، وهو طلاق الصغيرة والآيسة وغير المدخول بها ، وقوله تعالى : ﴿ **وأحصوا العدة** ﴾ أى احفظوها واعرفوا ابتداءها وانتهاءها لئلا تطول العدة على المرأة ، فتمتنع من الأزواج . ﴿ **واتقوا الله ربكم** ﴾ أى فى ذلك ، فلا تعصوه فيما أمركم به من الطلاق لعدتهن ، وفى القيام بما للمعتدات من حقوق . وفى وصفه تعالى بالربوبية مبالغة فى وجوب الامتثال لأمره ، لما فى لفظ الرب من التربية التى هى الإنعام والإكرام بوجوه متعددة غاية التعداد فيبالغون فى التقوى حينئذ خوفاً من فوت تلك التربية .

وقوله تعالى : ﴿ **لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن** ﴾ أى فى مدة العدة ، لها حق السكنى على الزوج مادامت معتدة منه ، فليس للرجل أن يخرجها ولا يجوز لها أيضا الخروج ، لأنها معتقلة لحق الزوج أيضاً . وقوله تعالى : ﴿ **إلا أن يأتين بفاحشة مبينة** ﴾ أى لا يخرجن من بيوتهن إلا أن تركب المرأة فاحشة مبينة ، فتخرج من المنزل ، والفاحشة المبينة تشمل الزنا ، كما قاله ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن المسيب وغيرهم ، وتشمل ما إذا نشزت المرأة أو بذت على أهل الرجل وآذتهم فى الكلام والفعال ، كما قاله أبى بن كعب وابن عباس وعكرمة وغيرهم .

قوله تعالى : ﴿ **وتلك حدود الله** ﴾ أى شرائعه ومحارمه ﴿ **ومن يتعد حدود الله** ﴾ أى يخرج عنها ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتمر بها ﴿ **فقد ظلم نفسه** ﴾ أى بفعل ذلك وقوله تعالى : ﴿ **لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً** ﴾ أى إنما أبقينا المطلقة فى منزل الزوج فى مدة العدة ، لعل الزوج يندم على طلاقها ، ويخلق الله تعالى فى قلبه رجعتها ، فيكون ذلك أيسر وأسهل ، قال الزهرى عن فاطمة بنت قيس فى قوله تعالى : ﴿ **لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً** ﴾ قالت هى الرجعة .

وقال القرطبى : الأمر الذى يحدثه الله أن يقلّب قلبه من بغضها إلى محبتها ، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها ، ومن عزيمة الطلاق إلى الندم عليها ، فيراجعها ، وقال جميع المفسرين : أراد بالأمر هنا الرغبة فى الرجعة . ومعنى القول : التحريض على طلاق الواحدة والنهى عن الثلاث ، فإنه إذا طلق ثلاثاً أضر بنفسه عند الندم على الفراق والرغبة فى الارتجاع ، فلا يجد عند الرجعة سبيلاً وقال مقاتل فى قوله : ﴿ **بعد ذلك** ﴾ أى بعد طلقه أو طلقتين ﴿ **أمراً** ﴾ أى المراجعة من غير خلاف .

قوله تعالى : ﴿ **فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوى عدل منكم وأقيموا الشهادة لله * ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر * ومن يتق الله يجعل له مخرجا * ويرزقه من حيث لا يحتسب * ومن يتوكل على الله فهو حسبه * إن الله بالغ أمره * قد جعل الله لكل شىء قدراً** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **فإذا بلغن أجلهن** ﴾ أى قاربن انقضاء العدة ، كقوله تعالى : ﴿ **وإذا طلقتم**

النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن ـــ الآية ﴾[١] أى قربن من انقضاء الأجل ولكن لم تفرغ العدة الكلية فحينئذ إما أن يعزم الزوج على إمساكها ، وهو رجعتها إلى عصمة نكاحه والاستمرار بها على ما كانت عليه عنده ﴿ **بمعروف** ﴾ أى محسناً إليها فى صحبتها ، وإما أن يعزم على مفارقتها بمعروف ، أى من غير مقابحة ولا مشاتمة ولا تعنيف ، بل يطلقها على وجه جميل ، وسبيل حسن .

وقوله تعالى : ﴿ **وأشهدوا ذوى عدل منكم** ﴾ أى على الرجعة إذا عزمتم عليها ، كما رواه أبو داود وابن ماجه عن عمران بن حصين أنه سئل عن الرجل يطلق المرأة ، ثم يقع بها ولم يشهد على طلاقها ولا على رجعتها ، فقال طلقت لغير سنة ، وراجعت لغير سنة ، وأشهد على طلاقها وعلى رجعتها ولا تعد[٢].

وقال ابن جريج كان عطاء يقول : ﴿ **وأشهدوا ذوى عدل منكم** ﴾ قال : لا يجوز فى نكاح ولا طلاق ولا رجاع إلا شاهدا عدل ، كما قال الله عز وجل إلا أن يكون من عذر .

وهذا الإشهاد مندوب إليه عند أبى حنيفة ، كقوله تعالى : ﴿ **وأشهدوا إذا تبايعتم** ﴾ وعند الشافعى واجب فى الرجعة مندوب إليه فى الفرقة ، وفائدة الإشهاد ألا يقع بينهما التجاحد ، وألا يتهم فى إمساكها ، ولئلا يموت أحدهما فيدّعى الباقى ثبوت الزوجية ليرث .

وقال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿ **ذوى عدل منكم** ﴾ قال الحسن : من المسلمين . وعن قتادة **من أحراركم وذلك يوجب اختصاص الشهادة على الرجعة بالذكور دون الإناث ، لأن « ذوى »** مذكر ، ولذلك قال علماؤنا : لا مدخل للنساء فيما عدا الأموال .

وقوله تعالى : ﴿ **وأقيموا الشهادة لله** ﴾ أى تقربا إلى الله فى إقامة الشهادة على وجهها ، إذا مست الحاجة إليها من غير تبديل ولا تغيير ، كما قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ... الآية** ﴾[٣] وقوله : ﴿ **ولا يأبى الشهداء إذا ما دعوا** ﴾[٤]

وقوله تعالى : ﴿ **ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر** ﴾ أى هذا الذى أمرناكم به من الإشهاد وإقامة الشهادة ، إنما يأتمر به من يؤمن بالله واليوم الآخر ، وإنه شرع هذا ومن يخاف عقاب الله فى الدار لآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ **وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا**

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٣١ .

(٢) أخرجه : أبو داود كتاب الطلاق باب الرجل يراجع ولا يشهد حـ ٢ ص ٦٣٧ رقم ٢١٨٦
وأخرجه ابن ماجه فى كتاب الطلاق باب الرجعة حديث رقم ٢٠٢٥

(٣). سورة النساء آية : ١٣٥ .

(٤) سورة البقرة آية : ٢٨٢ .

آيات الله هزواً واذكروا نعمت الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا إن الله بكل شىء عليم ﴾(١).

قوله تعالى : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ أى ومن يتق الله فيما أمره به وترك مانهاه عنه ، يجعل له من أمره مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، أى من جهة لا تخطر بباله .

قال الإمام أحمد بسنده عن أبى ذر قال : جعل رسول الله ﷺ يتلو هذه الآية : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ حتى فرغ من الآية ، ثم قال : « يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها كفتهم ... » الحديث(٢).

ةقال عمران بن عثمان ﴿ **ومن يتق الله** ﴾ فيقف عند حدوده ، ويجتنب معاصيه ، يخرجه من الحرام إلى الحلال ، ومن الضيق إلى السعة ، ومن النار إلى الجنة . ﴿ **ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ من حيث لا يرجو وقال ابن عينيه : هو البركة فى الرزق . وقال ابن عباس : قرأ النبى ﷺ ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجا** * **ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ قال : « مخرجاً من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة » (قاله القرطبى فى تفسيره) .

وقوله تعالى : ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾ أى من فوض إليه أمره **كفاه** ما أهمه ، كما قال تعالى ﴿ **أليس الله بكاف عبده** ﴾ قال ابن القيم « فالكفاية التامة مع العبودية التامة ، والناقصة مع الناقصة . فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »

وقال الربيع بن خيثم : « إن الله تعالى قضى على نفسه أن من توكل عليه كفاه * ومن آمن به هداه ، ومن أقرضه جازاه * ومن وثق به نجاه * ومن دعاه أجاب له . وتصديق ذلك فى كتاب الله » قال تعالى : ﴿ **ومن يؤمن بالله يهد قلبه** ﴾(٣) وقال تعالى : ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾(٤) وقال تعالى : ﴿ **إن تقرضوا الله قرضاً حسنا يضاعفه لكم** ﴾(٥) وقال تعالى : ﴿ **ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم** ﴾(٦) وقال تعالى : ﴿ **وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان** ﴾(٧).

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٣١ .
(٢) أخرجه أحمد حـ ٥ ص ١٧٨ .
(٣) سورة التغابن آية : ١١ .
(٤) سورة الطلاق آية : ٣ .
(٥) سورة التغابن آية : ١٧ .
(٦) سورة آل عمران آية : ١٠١ .
(٧) سورة البقرة آية : ١٨٦ .

وقال الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عباس أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يوما فقال له رسول الله ﷺ « **ياغلام إني معلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا** سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف »(١). ورواه الترمذى وقال حسن صحيح .

وقوله تعالى : ﴿ **إن الله بالغ أمره** ﴾ أى منفذ قضاياه وأحكامه فى خلقه بما يريده ويشاؤه ، لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولا غالب لأمره ﴿ **قد جعل الله لكل شىء قدراً** ﴾ تقديراً كقوله تعالى : ﴿ **وكل شىء عنده بمقدار** ﴾(٢)

قوله تعالى : ﴿ **واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللاتى لم يحضن * وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن * ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً * ذلك أمر الله أنزله إليكم * ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً** ﴾ .

قال أبو عثمان عمر بن سالم : لما نزلت عدة النساء فى سورة « البقرة » فى المطلقة والمتوفى عنها زوجها ، قال أبى بن كعب : يا رسول الله ، إن ناساً يقولون قد بقى من النساء من لم يذكر فيهن شيء : الصغار والكبار وذوات الحمل ، فنزلت ﴿ **واللائى يئسن ــ الآية** ﴾ .

قال ابن كثير : يقول تعالى مبيناً لعدة الآية ، وهى التى قد انقطع عنها المحيض لكبرها أنها ثلاثة أشهر عوضاً من الثلاثة قروء فى حق من تحيض ، كما دلت على ذلك آية البقرة ، وكذا الصغار اللائى لم يبلغن سن الحيض إن عدتهن كعدة الآيسة ثلاثة أشهر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **واللائى لم يحضن** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **إن ارتبتم** ﴾ فيه قولان ﴿ **أحدهما** ﴾ وهو قول طائفة من السلف كمجاهد والزهرى وابن زيد : أى إن رأين دماً وشككتم فى كونه حيضا أو استحاضة . والقول الثانى . ان ارتبتم فى حكم عدتهن ولم تعرفوه ، فهو ثلاثة أشهر ، وهذا مروى عن سعيد بن جبير ، وهو اختيار ابن جرير ، وهو أظهر

وقوله تعالى : ﴿ **وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن** ﴾ أى ومن كانت حاملاً فعدتها بوضعه ، ولو كان بعد الطلاق أو الموت بفواق ناقة فى قول جمهور العلماء من السلف والخلف ، كما هو نص هذه الآية الكريمة ، وكما وردت به السنة النبوية .

وقوله تعالى : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً** ﴾ قال الضحاك : أى من يتقه فى طلاق السنة يجعل له من أمره يسراً فى الرجعة . وقال مقاتل ومن يتق الله فى اجتناب معاصيه يجعل له من أمره يسراً فى توفيقه للطاعة وقوله تعالى : ﴿ **ذلك أمر الله أنزله إليكم** ﴾ أى الذى ذكر من الأحكام أمر

(١) أخرجه الإمام أحمد حـ ١ ص ٢٩٣ ، ٣٠٧ ــ ترمذى حـ ٤ ص ٥٧٦ كتاب صفة القيامة باب ٥٩ رقم ٢٥١٦ .
(٢) سورة الرعد آية : ٨ .

الله أنزله إليكم وبينه لكم ، وقوله : ﴿ **ومن يتق الله** ﴾ أى يعمل بطاعته ﴿ **يكفر عنه سيئاته** ﴾ أى يذهب عنه المحذور ﴿ **ويعظم له أجراً** ﴾ ويجزل له الثواب على العمل اليسير .

قال أبوحيان : لما كان الكلام فى أمر المطلقات ، وأحكامهن ، من العدة وغيرها وكنّ لا يطلقهن أزواجهن إلا عن بغض لهن وكراهة ، جاء عقيب بعض الجمل ﴿ **الأمر بالتقوى** ﴾ حيث المعنى مبرزاً فى صورة شرط وجزاء فى قوله : ﴿ **ومن يتق الله** ... ﴾ إذ الزوج المطلق قد ينسب إلى مطلقته بعض ما يشينها ، وينفرّ الخطاب عنها ، ويوهم أنه فارقها لأمر ظهر له منها . فلذلك تكرر قوله : ﴿ **ومن يتق الله** ﴾ فى العمل بما أنزله من هذه الأحكام ، وحافظ على الحقوق الواجبة عليه من ترك الضرار ، والنفقة على المعتدات .. وغير ذلك مما يلزمه يرتب له تكفير السيئات وإعظام الأجر » .

قوله تعالى : ﴿ **أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن * وإن كنّ أولات حَمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن * فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهنّ واتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى * لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله * لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها * سيجعل الله بعد عسر يسراً** ﴾

قال ابن كثير : يقول تعالى آمراً عباده ، إذا طلق أحدكم المرأة ، أن يسكنها فى منزل ، حتى تنقضى عدتها ، فقال : ﴿ **أسكنوهن من حيث سكنتم** ﴾ أى عندكم ﴿ **من وجدكم** ﴾ يعنى سعتكم حتى قال قتادة : إن لم تجد إلا جنب جنب بيتك فأسكنها فيه .

وقوله تعالى : ﴿ **ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن** ﴾ قال مقاتل : يعنى يضاجرها لتفتدى منه بمالها ، أو تخرج من مسكنه . وقال الثورى عن منصور عن أبى الضحى ﴿ **ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن** ﴾ قال يطلقها فإذا بقى يومان راجعها . وقوله تعالى : ﴿ **وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن** ﴾ قال كثير من العلماء منهم ابن عباس وطائفة من السلف وجماعات من الخلف : هذه فى البائن **إن** كانت حاملاً ، أنفق عليها حتى تضع حملها ، قالوا بدليل أن الرجعية تجب نفقتها سواء كانت حاملاً أو حائلا ، وقال آخرون : بل السياق كله فى الرجعيات ، وإنما نص على **الإنفاق** على الحامل وإن كانت رجعية ، لأن الحمل تطول مدته غالباً فاحتيج إلى النص على وجوب **الإنفاق** على الوضع ، لئلا يتوهم أنه إنما تجب النفقة بمقدار مدة العدة ، وقوله تعالى : ﴿ **فإن أرضعن لكم** ﴾ أى إذا وضعن حملهن ، وهن طوالق فقد بِنّ بانقضاء عدتهن ، ولها حينئذ أن ترضع الولد ، ولها أن تمتنع منه ولكن بعد أن تغذيه باللبن ، وهو باكورة اللبن الذي لا قوام للمولود غالباً إلا به ، فإن **أرضعت** استحقت أجر مثلها ولها أن تعاقد أباه أو وليه على ما ينفقان عليه من أجره ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **فإن أرضعن لكم فآتوهنّ أجورهن** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **وأتمروا بينكم بمعروف** ﴾ أى ولتكن أموركم فيما بينكم بالمعروف من غير إضرار ولا مضارة ، كما قال تعالى : ﴿ **ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله**

بما تعملون بصير ﴾[١]. وكما قال سبحانه ﴿ **لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده** ﴾[٢].

وقوله تعالى : ﴿ **وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى** ﴾ أى وإن اختلف الرجل والمرأة ، فطلبت المرأة فى أجرة الرضاع كثيرا ولم يجبها الرجل إلى ذلك ، أو بذل الرجل قليلاً ولم توافقه عليه ، فليسترضع له غيرها ، فلو رضيت الأم بما استؤجرت به الأجنبية ، فهى أحق بولدها .

وقوله تعالى : ﴿ **لينفق ذو سعة من سعته** ﴾ أى لينفق على المولود والده ووليه بحسب قدرته . ﴿ **ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها** ﴾ أى ومن كان رزقه بمقدار القوت فحسب فلينفق على مقدار ذلك ، ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها** ﴾ أى لا يكلف الفقير مثل ما يكلف الغنى كما قال تعالى : ﴿ **على الموسع قدره وعلى المقتر قدره** ﴾[٣].

وقوله تعالى : ﴿ **سيجعل الله بعد عسر يسراً** ﴾ أى بعد الضيق غنى ، وبعد الشدة سعة .

الأحكام الشرعية
فى هذه الآيات المباركات

قال صاحب كتاب روائع البيان تفسير آيات الأحكام فى هذه الآيات المباركات :

الحكم الأول : هل الطلاق مباح أو محظور ؟

لقد أباح الله تعالى الطلاق بقوله تعالى : ﴿ **إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن** ﴾ وقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن من أبغض المباحات عند الله عز وجل الطلاق » .

وفى لفظ « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » رواه أبو داود وابن ماجه[٤] قال الحنفية والحنابلة : الطلاق محظور لما فيه من كفران نعمة النكاح وإنما أبيح للحاجة ، ويحمل لفظ المباح على ما أبيح فى بعض الأوقات ، التى تتحقق فيه الحاجة المبيحة .

وقد نقل عن ابن حجر أن الطلاق :

(أ) إما واجب كطلاق المولى بعد التربص مدة أربعة أشهر ، وطلاق الحكمين فى الشقاق بين الزوجين إذا لم يمكن الإصلاح .

(ب) أو مندوب كأن يعجز عن القيام بحقوقها ولو لعدم الميل إليها ، أو تكون غير عفيفة .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٣٧ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٣٣ .

(٣) سورة البقرة آية : ٢٣٦ .

(٤) أخرجه : أبو داود فى سننه كتاب الطلاق باب فى كراهية الطلاق حـ ٢ ص ٣٣١ رقم ٢١٧٨
أنظر سنن ابن ماجه حديث رقم ٢٠١٨ . كتاب الطلاق

(جـ) أو حرام وهو الطلاق البدعى .

(د) أو مكروه بأن سلم الحال عن ذلك كله للحديث .

الحكم الثانى : ماهو الطلاق السنى وماهى شروطه ؟

روى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه طلّق امرأته وهى حائض ، فذكر ذلك عمر للنبى ﷺ فتغيظ ، فقال : « ليراجعها ، ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض فتطهر ، وإن بدا له أن يطلقها فليطلقها » قبل أن يمسّها فتلك العدة التى أمر الله عز وجل (رواه الستة ومالك والشافعى)[1]

ولهذا الحديث حصل الإجماع على أن الطلاق فى الحيض ممنوع . وفى الطهر مأذون فيه إذا لم يجامعها فيه .

والجمهور : على أنه لو طلق لغير العدة ، التى أمر الله ، وقع طلاقه وأثم ، وذلك لقوله ﷺ : « ثلاثة جدهن جد وهزلهن جد » : النكاح والطلاق والرجعة » رواه الترمذى وأبو داود[2]

واختلف الفقهاء فيما يدخل فى طلاق السنة :

فقال الحنفية : إن طلاق السنة من وجهين :

أحدهما : فى الوقت ، وهو أن يطلقها طاهراً من غير جماع ، أو حاملاً قد استبان حملها .

والآخر : من جهة العدد ، وهو أن لا يزيد فى الطهر الواحد على تطليقه واحدة .

وقال المالكية : طلاق السنة ما جمع شروطاً سبعة :

وهو أن يطلقها واحدة ، وهى ممن تحيض ، طاهراً ، ولم يمسها فى ذلك الطهر ، ولا تقدمه طلاق فى حيض ، ولا تبعه طلاق فى طهر يتلوه وخلا عن العوض .

وقال الشافعية : « طلاق السنة أن يطلقها كل طهر خاصة ، ولو طلقها ثلاثاً فى طهر لم يكن بدعة » .

وقال الحنابلة : « طلاق السنة أن يطلقها فى طهر لم يجامعها فيه » .

فالاتفاق واقع على أن طلاق السنة فى طهر لم يجامعها فيه ، وأما من أضاف كونها حاملاً ، فلما ورد فى حديث عبد الله بن عمر أن النبى ﷺ قال لعمر : « مُره فليراجعها ثم ليطلقها إذا طهرت ، أو وهى حامل » (رواه مسلم والنسائى وأبو داود)[3] وأما العدد والخلاف فيه فبحثه عند قوله تعالى :

﴿ الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ .

(١) رواه البخارى فى صحيحه جـ ٤ ص ٢٣٦ كتاب الأحكام . باب هل يقضى الحاكم أو يفتى وهو غضبان .

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه جـ ٣ ص ٤٩٠ كتاب الطلاق ــ باب ــ ماجاء فى الجد والهزل فى الطلاق رقم ١١٨٤ . وأخرجه أبو داود رقم ٢١٩٤ ، وابن ماجة رقم ٢٠٣٩

(٣) أخرجه أبو داود فى سننه كتاب الطلاق باق طلاق السنة جـ ٢ ص ٦٣٤ ، ٦٣٥ رقم ٢١٨٢
أخرجه مسلم فى كتاب الطلاق حديث رقم ١٤٧١ وأخرجه النسائى فى الطلاق جـ ٦ ص ١٣٨ .

(٤) سورة البقرة آية رقم : ٢٢٩ .

وأما قول المالكية : « وهى ممن تحيض » فهذا شرط متفق عليه . قال الفخر الرازى : والطلاق فى السنة إنما يتصور فى البالغة المدخول بها غير الآيسة والحامل ، إذ لا سنة فى الصغيرة وغير المدخول بها والآيسة ولا بدعة أيضا لعدم العدة بالأقراء .

وقال أبو بكر الجصاص : والوقت مشروط لمن يطلق فى العدة ، لأن من لا عدة عليها فأن كان طلقها قبل الدخول فطلاقها مباح فى الحيض ، وأما بقية الشروط فمختلف فيها وتنظر فى كتب الفروع .

الحكم الثالث : هل للمعتدة أن تخرج من بيتها ؟

دل قوله تعالى : ﴿ **لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة** ﴾ على أن المطلقة لا تخرج من مسكن النكاح مادامت فى العدة ، فلا يجوز لزوجها أن يخرجها ، ولا يجوز لها الخروج أيضا إلا لضرورة ظاهرة ، فإن أخرجت أثم ولا تنقطع العدة ، والرجعية والمبتوتة فى هذا سواء .

واختلف الفقهاء فى خروج المعتدة من بيتها لقضاء حوائجها على مذاهب .

(أ) قال مالك وأحمد : المعتدة تخرج فى النهار فى حوائجها ، وإنما تلزم منزلها بالليل .

(ب) وقال الشافعى : لا تخرج الرجعية ليلاً ولا نهاراً . وإنما تخرج المبتوتة فى النهار .

(جـ) وقال أبو حنيفة : المطلقة لا تخرج ليلاً ولا نهاراً . والمتوفى عنها زوجها لها أن تخرج فى النهار .

دليل المالكية والحنابلة :

استدل مالك وأحمد بحديث (جابر بن عبد الله) قال : « طلقت خالتى فأرادت أن تُجدُ نخلها ، فزجرها رجل أن تخرج ، فأتت النبى ﷺ فقال : « بلى فجدّى نخلك . فإنك عسى أن تصدّق أو تفعلى معروفاً »[1] رواه مسلم .

دليـل الشافعى :

واستدل الشافعى بالآية الكريمة ﴿ **لا تخرجوهن من بيوتهن** ﴾ بالنسبة للمطلقة رجعيا ، فلا تخرج ليلاً ولا نهاراً .

وأما المبتوتة فاستدل بحديث (فاطمة بنت قيس) فقد ورد فى صحيح مسلم أن (فاطمة بنت قيس) قالت يا رسول الله : زوجى طلقنى ثلاثاً وأخاف أن يُقتحم علىّ قال : فأمرها فتحولت[2].

وفى البخارى عن عائشة أن (فاطمة بنت قيس) كانت فى مكان وحش فخيف على ناحيتها ، فلذلك أرخص . النبى ﷺ لها[3].

(١) أخرجه مسلم حـ ٢ ص ١١٢١ كتاب الطلاق باب جواز خروج المعتدة البائن رقم ١٤٨٣/٥٥

(٢) أخرجه مسلم : فى صحيحه حـ ٢ ص ١١٢١ كتاب الطلاق . باب المطلقة ثلاثا رقم ١٤٨٢/٥٣

(٣) أخرجه البخارى :

دليـل الحنفيـة :

واستدل أبو حنيفة بعموم قوله تعالى : ﴿ **لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة** ﴾ فقد حرمت على المطلقة أن تخرج ليلاً أو نهاراً ، سواء كانت رجعية أم مبتوتة ، وأما المتوفى عنها زوجها فتحتاج للخروج نهاراً لقضاء حوائجها ، ولا تخرج ليلاً لعدم الضرورة .

ولو أذن الزوج لزوجته بالخروج فهل لها أن تخرج ؟

قال الحنفية : ليس لها أن تخرج لأن السكنىٰ حق للشرع مؤكد لا يسقط بالإذن ، حتى لو اختلعت على أن لا سكنى لها تبطل مؤنة السكنى عن الزوج ، ويلزمها أن تكترى بيته ، وأما أن يحل لها الخروج فلا .

قال الشافعية : إنهما لو اتفقا على الانتقال جاز ، إذ الحق لا يعدوهما ، فالمعنى لا تخرجوهن ولا يخرجن باستبدادهن .

وقد قال الفخر الرازى : فلم يكن لها الخروج وإن رضى الزوج ولا إخراجها وإن رضيت إلا عن ضرورة .

الحكم الرابع : ماهى الفاحشة التى تخرج بها المعتدة من المنزل ؟

لقد اختلف السلف فى المراد بالفاحشة فى قوله تعالى : ﴿ **إلا أن يأتين بفاحشة مبينة** ﴾ وتبعا لذلك اختلف الفقهاء .

فقال أبو حنيفة : يقول ابن عمر : خروجها قبل انقضاء العدة فاحشة ، فيكون معنى الآية : إلا أن يأتين بفاحشة مبينة بخروجهن من بيوتهن بغير حق .

والاستثناء عليه راجع إلى ﴿ **لا يخرجن** ﴾ والمعنى : لا يسمح لهن فى الخروج إلا فى الخروج الذى هو فاحشة ، ومن المعلوم أنه لا يسمح لهن فيه ، فيكون ذلك منعا عن الخروج على أبلغ وجه .

قال ابن الهمام : كما يقال : « لا تزن إلا أن تكون فاسقاً ، ولا تشتم أمك إلا أن تكون قاطع رحم ، ونحو ذلك وهو بديع وبليغ جداً » .

وقال أبو يوسف : بقول الحسن وزيد بن أسلم : هو أن تزنى فتخرج للحد ، أى لا تخرجوهن إلا إن زنين .

وعن ابن عباس قال : إلا أن تبذو على أهله ، فإذا فعلت ذلك حلَّ لهم أن يخرجوها ، كما ورد عن فاطمة بنت قيس أنها أخرجت لذلك . وعنه أيضا قال : جميع المعاصى من سرقة أو قذف أو زنا أو غير ذلك واختاره الطبرى .

وقال الضحاك : الفاحشة المبينة : عصيان الزوج .

وقال قتادة : إلا أن تنشز فإذا فعلت حل إخراجها .

قال أبو بكر الجصاص : هذه المعانى كلها يحتملها اللفظ ، وجائز أن يكون جميعها مراداً ، فيكون خروجها فاحشة ، وإذا زنـت أخرجت للحد ، وإذا بذت على أهله أخرجت أيضاً .

فأما عصيان الزوج والنشوز ، فإن كان فى البذاءة وسوء الخلق اللذين يتعذر القيام معها فيه فجائز أن يكون مراداً ، وإن كانت إنما عصت زوجها فى شيء غير ذلك ، فإن ذلك ليس بعذر فى إخراجها ...

الحكم الخامس : ما حكم الإشهاد فى الفرقة والرجعية ؟

قال أبو حنيفة : الإشهاد مندوب إليه فى الفرقة والرجعة ، لقوله تعالى : ﴿ **وأشهدوا إذا تبايعتم** ﴾ فإن الإشهاد فى البيع مندوب لا واجب ، فكذا هنا ، وهو قول مالك والشافعى وأحمد فى أحد قوليهما .

وقال الشافعى وأحمد فى القول الآخر : الإشهاد واجب فى الرجعة مندوب إليه فى الفرقة .

أدلـة الجمهـور :

١ - لما جعل الله تعالى للزوج الإمساك أو الفراق ، ثم عقبه بذكر الإشهاد ، كان معلوما وقوع الرجعة إذا رجع ، وجواز الإشهاد بعد ذلك ، إذ لم يجعل بالإشهاد شرطاً فى الرجعة .

٢ - لم يختلف الفقهاء فى أن المراد بالفراق المذكور فى الآية ، إنما هو تركها حتى تنقضى عدتها ، وأن الفرقة تصح وإن لم يقع الإشهاد عليها ، وقد ذكر الإشهاد عقيب الفرقة ثم لم يكن شرطا فى صحتها ، فكذلك الرجعة .

٣ - وأيضاً لما كانت الفرقة حقاً للزوج ، جازت بغير الإشهاد ، إذ لا يحتاج فيها إلى رضا غيره ، وكانت الرجعة أيضاً حقاً له وجب أن تجوز بغير إشهاد .

٤ - وأيضاً لما أمر الله بالإشهاد على الإمساك أو الفرقة احتياطا لهما ، ونفياً للتهمة عنهما إذا علم الطلاق ولم يعلم الرجعة ، أو يعلم الطلاق والفراق ، فلا يؤمن التجاحد بينهما ، ولم يكن معنى الاحتياط مقصوراً علي الإشهاد فى حال الرجعة أو الفرقة ، بل يكون الاحتياط باقياً وأن أشهد بعدهما وجب أن لا يختلف حكمهما إذا أشهد بعد الرجعة بساعة أو ساعتين .

الحكم السادس : ماهى عدة المرأة التى لا تحيض ؟

المرأة غير الحائض تشمل من بلغت من اليأس ، والصغيرة التى لم تر الحيض بعد ، أما من يئست من الحيض فعدتها ثلاثة أشهر بلا خلاف ، وكذا الصغيرة التى لم تحض ...

وأما المرأة إذا كانت تحيض ثم لم تر الحيض فى عدتها ولم يدر سببه : فقال الحنفية والشافعية : إن عدتها الحيض حتى تدخل فى السن التى لا تحيض أهلها من النساء ، فتستأنف عدة الآيسة ثلاثة أشهر .

ونقل عن علي وعثمان ، وزيد بن ثابت وابن مسعود ، وقال مالك وأحمد : تنتظر تسعة أشهر لتعلم براءة رحمها ، لأن هذه المدة هي غالب مدة الحمل ، فإذا لم يبن الحمل فيها علم براءة الرحم ، ثم تعتد بعد ذلك عدة الآيسات ثلاثة أشهر . ونقل عن عمر أنه قضى بذلك .

الحكم السابع : ما المراد من قوله تعالى : ﴿ **إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر** ﴾ ؟

قال الجصاص : غير جائز أن يكون المراد به الارتياب فى الإياس ، لأنَّا إذا شككنا هل بلغت سن اليأس لم نقل عدتها ثلاثة أشهر .

واختلف أهل العلم فى (الريبة) المذكورة فى الآية على أقوال : اختار الطبري : أن يكون المعنى : « إن شككتم فلم تدروا ما الحكم فيهن ؟ فالحكم أن عدتهن ثلاثة أشهر » وهو قول الجصاص فقد قال : « وذكر الارتياب فى الآية ، إنما هو على وجه ذكر السبب الذى نزل عليه الحكم ، فكان بمعنى واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر ، ونقل هذا عن مجاهد .

وقال مجاهد : الآية واردة فى المستحاضة أطبق بها الدم لا تدرى ، أهو دم حيض أم دم عله .

وقال عكرمة وقتادة : من الريبة المرأة المستحاضة التى لا يستقيم لها الحيض ، تحيض فى أول الشهر مراراً ، وفى الأشهر مرة .

وقيل : إنه متصل بأول السورة والمعنى : لا تخرجوهن من بيوتهن إن ارتبتم فى انقضاء العدة . قال القرطبى : وهو أصح ما قيل فيه . وقال الزجاج : المعنى ان ارتبتم فى حيضهن ، وقد انقطع عنهن الدم وكن ممن يحيض مثلهن .

الحكم الثالث : ماهى عدة الحوامل ؟

نصت الآية على أن الحامل تنتهى عدتها بولادتها ، ودل قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ **والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً** ﴾[1] على أن عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً ، فإذا كانت المتوفى عنها زوجها حاملاً ، فبأى الأجلين تأخذ ؟ ولم يختلف السلف والخلف أن عدة المطلقة الحامل أن تضع حملها ، واختلفوا فى المتوفى عنها زوجها .

قال الجمهور : عدة المتوفى عنها زوجها الحامل أن تضع حملها .

وقال على وابن عباس : ﴿ **وأولات الأحمال** ﴾ فى المطلقات ، وأما المتوفى عنها فعدتها أبعد الأجلين ، فلو وضعت قبل أربعة أشهر وعشر ، صبرت إلى آخرها .

حجـة الجمهـور :

استدل الجمهور بحديث سبيعة الاسلمية أنها كانت تحت (سعد بن خولة) وهو ممن شهد

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٣٤ .

بدراً ، فتوفى عنها فى حجة الوداع . وهى حامل ، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته ، فلما تعلّت من نفاسها تجملت للخطّاب ، فدخل عليها رجل من بنى عبد الدار ، فقال لها : مالى أراك متجملة ، لعلك ترتجين النكاح ؟ إنك والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشراً ، قالت سبيعة : فلما قال لى ذلك ، جمعت علىّ ثيابى حين أمسيت ، فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فأفتانى بأنى قد حللت حين وضعت حملى وأمرنى بالتزوج إن بدا لى . (رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه وغيرهم)[1].

وعن ابن مسعود أنه بلغه أن علياً يقول : تعتد آخر الأجلين فقال : من شاء لا عنته . ما نزلت ﴿ أولات الأحمال ﴾ إلا بعد آية المتوفى قال أبو بكر الجصاص : أفاد قول ابن مسعود أن الآية مكتفية بنفسها فى إفادة الحكم على عمومها ، غير مضمنة بما قبلها من ذكر المطلقة فوجب اعتبار الحمل فى الجميع ، من المطلقات ، والمتوفى عنهن أزواجهن .

الحكم الرابع : هل للمطلقة ثلاثاً سكنى ونفقة ؟

لا خلاف بين العلماء فى إسكان المطلقات الرجعيات ، واختلفوا فى المطلقة ثلاثاً على أقوال :

- ذهب مالك والشافعى ورواية عن أحمد إلى أن لها السكنى ولا نفقة لها .
- وذهب أبو حنيفة وأصحابه أن لها السكنى والنفقة مادامت فى العدة .
- وذهب أحمد وغيره إلى أنها لا نفقة لها ولا سكنى .

دليـل المذهـب الأول :

قوله تعالى : ﴿ **وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن** ﴾ وذلك أن الله سبحانه لما ذكر السكنى أطلقها لكل مطلقة ، فلما ذكر النفقة قيدها بالحمل ، فدل على أن المطلقة البائن لا نفقة لها .

دليـل المذهـب الثانى :

١ - قوله تعالى : ﴿ **ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن** ﴾ وترك النفقة من أكبر الإضرار وفى إنكار عمر على فاطمة قولها ما يبين هذا .

٢ - ولأنها معتدة تستحق السكنى عن طلاق فكانت لها النفقة كالرجعية .

٣ - ولأنها محبوسة عليه لحقه فاستحقت النفقة كالزوجة .

٤ - أن السكنى لما كانت حقاً فى مال ، وقد أوجبها الله لها بنص الكتاب ، إذا كانت الآية قد

---

(١) أخرجه ابن ماجة جـ ١ ص ٦٥٣ ، ٦٥٤ كتاب الطلاق باب الحامل المتوفى عنها زوجها إذا وضعت حلت للأزواج رقم ٢٠٢٧ ، ٢٠٢٨ .

تناولت المبتوتة والرجعية ، فقد اقتضى ذلك وجوب النفقة ، إذا كانت السكنى حقاً فى مال وهى بعض النفقة .

دليــل المذهــب الثالث :

١ - حديث فاطمة بنت قيس : أنه طلقها زوجها فى عهد النبى ﷺ وكان أنفق عليها نفقة فلما رأت ذلك قالت : والله لأعلمنَّ رسول الله ﷺ فإن كان لى نفقة أخذت الذى يصلحنى ، وإن لم تكن لى نفقة لم آخذ شيئاً .

قالت : فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « لا نفقة لك ولا سكنى »وفى رواية « إنما السكنى والنفقة على من له عليها رجعة » . والحديث رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى ومالك والدارقطنى وغيرهم[1]. وللعلماء فى مناقشة الأدلة كلام طويل ينظر فى كتب الفروع .

الحكم الخامس : على من يجب الرضاع ؟

قال المالكية : رضاع الولد على الزوجة مادامت الزوجية ألا تسرف الزوجة وموضعها ، فعلى الأب رضاعه يومئذ فى ماله ، فإن طلقها فلا يلزمها رضاعة ، إلا أن يكون غير قابل ثدى غيرها فيلزمها رضاعه .

وقال الحنفية : لا يجب الرضاع على الأم بحال .

وقيل : يجب الرضاع على الأم فى كل حال .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

١ - الطلاق السنى هو الطلاق الذى يكون فى طهر لم تجامع فيه المرأة .

٢ - الطلاق البدعى ما كان فى الطهر الذى جومعت فيه المرأة ، أو فى وقت الحيض .

٣ - السكنى واجبة للمطلقة على زوجها فلا يجوز له إخراجها حتى تنتهى العدة .

٤ - إذا خرجت المرأة من بيت زوجها قبل انتهاء عدتها ، فقد عصت الله وأثمت .

٥ - حدود الله تعالى يجب التزامها وعدم تعديها ، لأنها شريعة الله .

٦ - إقامة الشهادة حق لله تعالى على عباده ، لدفع الظلم عن الخلائق .

٧ - التوكل على الله والالتجاء إليه . ملاك الأمر كله ، وراحة النفس .

٨ - المرأة اليائسة من الحيض والصغيرة التى لم تحض ، إذا طلقتا فعدتهما ثلاثة أشهر .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه حـ ٢ ص ١١٥ كتاب الطلاق باب المطلقة ثلاثا لا نفقة لها . رقم ١٤٨٠/٣٧ .

٩ – المرأة الحامل تنقضى عدتها بوضع الحمل .

١٠ – تقوى الله تعالى تيسّر أمور المؤمن فى الدنيا ، وتكفر السيئات ، وتعظم الأجر فى الآخرة .

١١ – المرأة المعتدة تسكن فى منزل زوجها حتى تنقضى عدتها .

١٢ – على الرجل أن لا يضيق على المعتدة فى النفقة أو السكنى ليجبرها على الخروج من منزله .

١٣ – نفقة الحامل تستمر حتى تضع الحمل ، وان طالت المدة .

١٤ – للمرأة الحق الكامل فى أن تأخذ أجرة على إرضاع ولدها من الرجل .

١٥ – الإنفاق يكون بحسب مال الرجل غنى وفقراً .

١٦ – التكليف منوط بالقدرة التى مكن الله بها عبده .

حكمة التشريع

الأسرة لبنة من لبنات المجتمع الإسلامى ، وبها قوامه ، ففيها تلتقى النفوس على المودة والرحمة ، والتعاطف والستر ، وفى كنفه تنبت الطفولة وتدرج الحداثة ، ومنه تمتد وشائج الرحمة ، وأواصر التكافل ولكن الحياة الواقعية والطبيعة البشرية تثبت بين الفنية والأخرى ، أن هناك حالات لا يمكن معها استمرار الحياة الزوجية ، لذلك شرع الله الطلاق كآخر حل من حلول تتقدمه ، إن لم تجد كل المحاولات ، وأباح للرجل أن يركن إلى أبغض الحلال وهو الطلاق .

ولكن ليس من السنة أن يطلق الرجل فى كل وقت يريد ، فليس له أن يطلقها وهو راغب عنها فى الحيض ، وفى ذلك دعوة له ليتمهل ولا يسرع ليفصل عرى الزوجين ، ويتفكر فى محاسن زوجه لعلها تغلب سيئاتها . فتتغير القلوب ، وتعود إلى صفائها بعد موجة من الغضب اعترتها ، وسحابة غشيت المودة التى يكنها الزوج لزوجه .

والطلاق يقع حيثما طلق فى الوقت الذى بينه الشرع أو فى غيره ، لأن فك الزوجية ، وهدم اللبنة الأولى للمجتمع ليس لعباً تلوكة الألسنة فى كل وقت ، وعند أدنى بادرة ، بل هو الجد كل الجد ، فمن نطق به لزمته نتائجه وعصى الله ـــ جلت حكمته ـــ لأنه لم يقف عند حدوده ، ويتبع تعاليمه .

وأمر الله ـــ العليم الخبير ـــ بإحصاء العدة لضبط انتهائها ، ومعرفة أمدها بدقة لعدم إطالة الأمد على المطلقة ، والإضرار بها ، ولكيلا تنقص من مدتها مما لا يؤدى منها وهو التأكد من براءة رحم المطلقة من الحمل وجعل الله جل ثناؤه العدة تمكث المرأة فيها مدة من الزمن ينفق عليها مطلقها ،

ويسكنها فى بيته ، ليكون فى أمان واطمئنان وهى تحت نظره ، إن ظهر حملها ، فالولد ولده ، وإن لم يظهر الحمل فى مدة العدة ، فلم يعد بين الرجل وزوجه أية علاقة تربطهما ، هو بالنسبة إليها كسائر الرجال ، وهى بالنسبة إليه كسائر النساء ، لا تستطيع أن تطالبه بنسب ولا نفقة ولا غير ذلك .

وبهذا لم يظلم الإسلام المرأة ، حيث فرض لها النفقة ، والسكنى مادامت محبوسة لصالح الرجل ، وأمن الرجل من جهة زوجه حيث مكثت مدة يتبين معها شغل رحمها أو فراغه .

وأما الحوامل فقد جعل الله تعالى عدتهن الوضع ،طال أمد الحمل بعد الطلاق أم قصر ، وذلك لأن براءة الرحم بعد الوضع مؤكدة ، فلا حاجة إلى الانتظار .

وأمر الله عز وجل الرجال أن يسكنوا النساء مما يجدون هم من سكن وما يستطيعونه حسب مقدرتهم وغناهم ، لا أقل مما هم عليه فى سكناهم ، ونهاهم أن يعمدوا إلى الإضرار بهن بالتضيق عليهن فى فسحة المسكن ، أو فى المعاملة أثناء إقامتهن .

وخصت ذوات الأحمال بذكر النفقة مع وجوب النفقة لكل معتدة ، لتوهم أن طول مدة الحمل يحدد زمن الإنفاق ببعضه دون بقيته ، أو بزيادة المدة إذا قصرت مدة الحمل ، فأوجب النفقة حتى الوضع ، وهو موعد انتهاء العدة لزيادة الإيضاح التشريعى .

وأما الرضاع ، فلم يجعله الله سبحانه واجباً على الأم دون مقابل ، ومادامت ترضع الطفل المشترك بينهما ، فمن حقها أن تنال أجراً على رضاعه تستعين به على حياتها ، وعلى إدرار اللبن للطفل ، وهذا منتهى المراعاة للأم فى هذه الشريعة .

وفى الوقت ذاته أمر الأب والأم أن يأتمرا بينهما بالمعروف فى شأن هذا الوليد ، ويتشاورا فى أمره ، ورائدهما مصلحته ـــ وهو أمانة بينهما ـــ فلا يكون فشلهما هما فى حياتهما نكبة على الصغير والأمر منوط بالله فى الفرج بعد الضيق ، واليسر بعد العسر . فأولى لهما أن يعقدا به الأمر كله ، ويتجها إليه ، ويراقباه فى كل أمرهما ، وهو المانح المانع ، القابض الباسط .

والزوجان يتفارقان ـــ فى ظل هذه التوجيهات القرآنية ـــ وفى قلب كل منهما بذور للود لم تمت ، وربما جاءها ما ينعشها فى يوم من الأيام إلى أدب رفيع يريد الإسلام أن يصبغ به حياة الجماعة المسلمة ويشيع فيها أرجه وشذاه . ا.هـ .

(بحث فى)

بناء الأسرة المسلمة (للمؤلف)

مقدمة :

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا وحبيبنا ونور قلوبنا محمد بن عبد الله ، طب القلوب ودوائها وعافية الأبدان وشفائها ونور الأبصار وضيائها ، المبعوث رحمة للبشرية جمعاء ليحررها من شرور أنفسها وسيئات أعمالها .

أما بعد :

وقفت فى معترك الحياة على ساحل مترامى الأطراف ،أتأمل ما تموج به المجتمعات الإنسانية من مشاكل ، تجعل الناس سكارى وماهم بسكارى ، ولكن بعدهم عن منهج الله شديد ، وظللت أمحص وأفند وأقلب الأمور على مختلف الوجوه ، فوجدت أن العيب فينا وما ندرى والدواء معنا وما نشعر .

فالمشاكل كبيرها وصغيرها مردها إلى تلك التربية ، والنشأة الأولى التى درج عليها الإنسان منذ تفتحت عيناه على الحياة ، ويمكن أن نلخص الكثير من القول بالاستعانة بمن أوتى جوامع الكلم ، واصطفاه وبه واجتباه ، وفضله على كل خلق الله ، حيث قال الحبيب المصطفى : « كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »[1].

من هنا مفتاح القضية وموطن العلة ، حيث يمكن تشخيص الداء ، ووصف الدواء من الخلية الأولى للمجتمع من الأسرة ، فإذا صلحت الأسرة صلح المجتمع كله ، وإذا فسدت فهذا هو الداء العضال ، والأمر الوبال على الأجيال المتعاقبة ، ولذلك فعندما ألقيت نظرة فاحصة على عناية الإسلام ببناء الأسرة وجدت قلبى يسجد أمام عظمة الله الحكيم الخبير ، ووجدت قلمى يقف عاجزا أمام وصف ذلك البناء الشامخ فى علوه المترامى فى أطرافه المتين فى أساسه المحكم فى هندسته ودقة صنعه .

فقد وضع الشرع الحكيم أساساً عريقا لذلك البناء فى مراسم الخطبة وعقد الزواج والزفاف ، ورسم له من الخطوط العريضة فى المباشرة الزوجية ما يضفى عليه البهجة والسعادة ، والطهر والعفاف ، فإذا ما أثمرت تلك العلاقة ثمرتها المرجوة ، فهناك من التشريعات والقوانين الألهية ما يحافظ على تلك الثمرة ويضمن لها الجو الصالح ، الذى تنمو وتترعرع فيه كأروع ما يكون الإنسان ، الذى يستحق الخلافة عن الله فى الأرض .

لقد جعل الإسلام من الأسرة سفينة تسير باسم الله مجريها ومرساها ، تجوب بحار الحياة المتلاطمة الأمواج ، وهى رافعة شراع الإيمان الذى يحميها من الغرق ، ويوجهها إلى الغاية السامية ، حاملة الأمانة ، ومؤدية الرسالة ، حتى تخرج من ضيق الدنيا وجورها إلى سعة الآخرة وعدلها .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه حـ ٤ ص ٢٠٤٧ كتاب القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة رقم ٢٦٥٨/٢٢ .

فإلى كل مسلم ومسلمة ، يريدان بناء أسرة مسلمة على تقوى من الله ، وإلى كل زوج وزوجة ، يريدان إصلاح حياتهما ، وإلى كل أب وأم ، يريدان تنشئة أبنائها على طاعة الله ورسوله ، ليكونوا قرة عين لهما ، إلى هؤلاء جميعاً أقدم هذا الكتاب « الإسلام وبناء الأسرة » ليكون لهم نبراساً يضيء حياتهم ويهديهم سواء السبيل : ﴿ **أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم** ﴾(١)

فلنرهف السمع جيداً لنعى كيف سعى الإسلام إلى بناء الأسرة على أساس متين ، وبالتالى بناء المجتمع الإسلامى بما يحقق له كل معانى العزة والرفعة ، والاستقرار والطمأنينة ، ولنكن على حذر من تلك البدع التى دخلت على مجتمعاتنا حيث كان الهدف الأول دائماً لكل أعداء الحق ، هو هدم قواعد بناء الأسرة المسلمة ، لأنهم بدراستهم لمنهج الإسلام السامى ، عرفوا أن مكمن القوة فى تلك القواعد الراسخة ، فأعملوا فيها معاول الهدم لتحقيق بغيتهم فى القضاء على ديننا الحنيف .

فاعتصموا أيها المسلمون بحبل الله المتين ، وابنوا أسرتكم على هدى من القرآن الكريم وسنة رسوله الحبيب ، ومن استمسك بالله ، فقد هدى إلى صراط الحميد ، ونجا من كيد الشيطان وأعداء الدين ، ولا أملك إلا أن أردد قول الحق العظيم : ﴿ **إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾(٢).

الدعـوة إلى بنـاء الأسـرة

من نعم الله تعالى على عباده ، أنه شرع الزواج ليكون سنة محكمة من سنن المرسلين ، من لدن آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، قال تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية** ﴾(٣).

ولكى يعمر البشر هذه الأرض ، كما قال تعالى : ﴿ **هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها** ﴾(٤) فلابد أن يكون هناك سنن وشرائع ، تبين للناس كيف يقيمون الحياة الزوجية ، فى سلوك مستقيم ، وبناء متين ، ومن هنا فإن الإسلام نظم العلاقات ، وحدَّ الحدود ، وبين الحقوق ، ووضع الواجبات ، لتسير سفينة الحياة فى جو معتدل ، وتعيش الأسرة حياة راضية لا تسمع فيها لاغية .

والناظر فى كتاب الله ، يجد آية الزواج قد جاءت فتوسطت آيات دالة على وحدانية الله وآلائه

---

(١) سورة التوبة آية : ١٠٩ .

(٢) سورة ق آية : ٣٧ .

(٣) سورة الرعد آية : ٣٨ .

(٤) سورة هود آية : ـ٦١ .

على عباده قال تعالى : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾[١] .

إذا نظرت إلى سابقها ولا حقها وسياقها ، ما للزواج من صلة أكيدة بالكون الذى خلقه الله تعالى من العرش إلى الفرش ، وكأنه (أى الزواج) قد صار سنة كونية ، محكمة البنيان ، وطيدة الأركان .

فسابق هذه الآية يقول : ﴿ **ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون** ﴾[٢] ولا حقها يقول : ﴿ **ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين** ﴾[٣] فالآية بين السباق واللحاق قد تبوأت مكانا عليا ، وذلك مادلّ عليه السياق ، ولقد سمى الله تعالى عقد الزواج (ميثاقاً غليظاً) قال تعالى : ﴿ **وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً** ﴾[٤] .

كما سمى الميثاق الذى أخذه من الأنبياء ﴿ **ميثاقاً غليظاً** ﴾ قال تعالى : ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً** ﴾[٥] .

وفى القرآن الكريم من الآيات ما يدل دلالة قاطعة ، على أن الزواج نعمة عظمى ، امتن الله بها على عباده ، من هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً** ﴾[٦] .

وقوله تعالى : ﴿ **وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسبا وصهراً وكان ربك قديرا** ﴾[٧] وقوله تعالى : ﴿ **والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات** ﴾[٨] .

وليس الزواج مقصورا على عالم البشر إنما هو سنة مطردة فى الكون كله . قال تعالى : ﴿ **ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون** ﴾[٩]

---

(١) سورة الروم آية : ٢١ .

(٢) سورة الروم آية : ٢٠

(٣) سورة الروم آية : ٢٢ .

(٤) سورة النساء آية : ٢١ .

(٥) سورة الأحزاب آية : ٧ .

(٦) سورة النساء آية : ١ .

(٧) سورة الفرقان آية : ٥٤ .

(٨) سورة النحل آية : ٧٢

(٩) سورة الذريات آية : ٤٩ .

وقال جل شأنه : ﴿ **سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** ﴾[١]

وقد أعطى الله تعالى كل شيء وخلقه ثم هدى : قال تعالى : ﴿ **فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾[٢]. وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى** ﴾[٣]

وقد حث الصادق المعصوم على الزواج ، ورغب فيه ، وجاءت أحاديثه الشريفة ، مستفيضة ، فيها من النور النبوى ، ما يضيء الطريق لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا .

من ذلك قوله ﷺ :

١ – عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « **يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء** » رواه البخارى ومسلم[٤].

٢ – وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « من أراد أن يلقى الله طاهراً مطهرا فليتزوج الحرائر » رواه ابن ماجه **حديث ضعيف**[٥]

٣ – وعن أبى أيوب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أربع من سنن المرسلين الحناء والتعطر والسواك والنكاح » رواه الترمذى[٦] .

٤ – وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة » رواه مسلم[٧] .

٥ – وروى « الدنيا متاع ، ومن خير متاعها امرأة تعين زوجها على الآخرة » . « مسكين مسكين رجل لا امرأة له ، مسكينة مسكينة امرأة لا زوج لها »[٨].

٦ – وعن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه كان يقول : « ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله عز وجل خير له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سرته ، وإن أقسم عليها

(١) سورة يس آية : ٣٦ .
(٢) سورة الشورى آية : ١١ .
(٣) سورة الحجرات آية : ١٣ .
(٤) أخرجه البخارى ومسلم : أنظر صحيح مسلم حـ ٢ ص ١٠١٨ كتاب النكاح . باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه . رقم ١/١٤٠٠ .
(٥) أخرجه ابن ماجه فى سننه حـ ١ ص ٥٩٨ كتاب النجاح . باب تزويج الحرائر والولود رقم ١٨٦٢ .
(٦) أخرجه الترمذى حـ ٣ ص ٣٩١ كتاب النكاح . باب ما جاء فى فضل التزويج والحث عليه . رقم ١٠٨٠ .
(٧) أخرجه مسلم فى صحيحه حـ ٢ ص ١٠٩٠ كتاب الرضاع باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة رقم ١٤٦٧/٥٩ .
(٨) أخرجه الترغيب والترهيب حـ ٣ ص ٤١ .

أبرته وإن غاب عنها نصحته فى نفسها وماله »[١] رواه ابن ماجه .

٧ - وعن ابن عباس رضى الله عنهما إن النبى ﷺ قال :« أربع من أعطيهن فقد أعطى خير الدنيا والآخرة : قلبا شاكرا ، ولسانا ذاكرا ، وبدناً على البلاء صابرا ، وزوجة لا تبغى حوباً فى نفسها وماله »[٢].

٨ - وعن ثوبان رضى الله عنه ، قال لما نزلت : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم** ﴾ قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره فقال **بعض أصحابه : أنزلت فى الذهب والفضة لو علمنا أى المال خير فنتخذه ؟ فقال : « لسان ذاكر ،** وقلب شاكر ، وزوجة مؤمنة تعينه على إيمانه » رواه الترمذى[٣]

٩ - وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من سعادة ابن آدم : المرأة الصالحة ، والمسكن الصالح ، والمركب الصالح » . ومن شقاوة ابن آدم : « المرأة السوء ، والمسكن السوء ، والمركب السوء » (رواه الطبرانى ، والبزار والحاكم وصححه ورواه أحمد بسنده صحيح)[٤].

١٠ - وعن سعد بن أبى وقاص أيضا أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة من السعادة : المرأة الصالحة تراها تعجبك ، وتغيب فتأمنها على نفسها ومالك ، والدابة تكون وطيئة فتلحقك بأصحابك ، والدار تكون واسعة كثيرة المرافق » وثلاث من الشقاوة : المرأة تراها فتسوءك ، وتحمل لسانها عليك ، وان غبت عنها لم تأمنها على نفسها ومالك ، والدابة تكون قطوفاً ــ بطيئة ــ فإن ضربتها أتعبتك ، وان تركتها لم تلحقك بأصحابك والدار تكون ضيقة قليلة المرافق (رواه الحاكم)[٥].

١١ - وعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ « من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه فليتق الله فى الشطر الباقى » رواه الطبرانى والحاكم وقال صحيح الاسناد[٦].

١٢ - وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة حق على الله عونهم المجاهد فى سبيل الله ، والمكاتب الذى يريد الأداء ، والناكح الذى يريد العفاف » رواه الترمذى[٧].

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه حـ ١ ص ٥٩٦ كتاب النكاح باب أفضل النساء رقم ١٨٥٧
(٢) أخرجه المتقى الهندى فى كنز العمال حـ ١٥ رقم ٤٣٤١٦ .
(٣) أخرجه الترمذى حـ ٥ ص ٢٥٩ كتاب تفسير القرآن ــ تفسير سورة التوبة رقم ٣٠٩٤
(٤) أخرجه المتقى الهندى حـ ١١ رقم ٣٠٧٥٤ ، الحاكم حـ ٢ ص ١٩٢ كتاب النكاح
أخرجه الحاكم فى مستدركه حـ ٢ ص ١٤٤ كتاب الفيء . وقال : هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه
(٥) الحاكم فى مستدركه حـ ٢ ص ١٦٢ كتاب النكاح .
(٦) أخرجه الحاكم فى مستدركه حـ ٢ ص ١٦١ كتاب النكاح . وقال حديث صحيح ولم يخرجاه
(٧) أخرجه الحاكم فى مستدركه كتاب النكاح حـ ٢ ص ١٦٠ . ورواه الترمذى برقم ١٦٥٥ .

١٣ – وعن أبى نجيح رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من كان موسراً لأن ينكح ثم لم ينكح فليس منى » رواه الطبرانى[١].

١٤ – وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : جاء رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ : فلما أخبروا كأنهم تقالوها فقالوا : وأين نحن من النبى ﷺ فقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال أحدهم : أما أنا أصلى الليل أبداً وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر أبداً وقال آخر : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال : « أنتم القوم الذين قلتم كذا وكذا ، أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له لكنى أصوم وأفطر وأصلى ، وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى » رواه البخارى[٢].

١٥ – وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال*: قال رسول الله ﷺ : « تنكح المرأة على إحدى خصال : لجمالها ومالها وخلقها ودينها فعليك بذات الدين والخلق تربت يداك » رواه أحمد[٣].

١٦ – وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك » متفق عليه[٤].

١٧ – وروى عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ : « من تزوج امرأة لعزها لم يزده الله إلا ذلاً ، ومن تزوجها لمالها لم يزده الله إلا فقراً ، ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله إلا دناءة ومن تزوج إمرأة لم يرد بها إلا أن يغض بصره ويحصن فرجه أو يصل رحمه بارك الله له فيها وبارك لها فيه » رواه الطبرانى[٥].

١٨ – وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن ولا تزوجهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن ، ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأمة خرماء سوداء ذات دين أفضل » (رواه ابن ماجه)[٦]

(وخرماء أى مقتطعة الأطراف من خرمت الشيء خُرماً أى ثقبته)

١٩ – وعن معقل بن يسار رضى الله عنه قال : « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله : إنى أحببت إمرأة ذات حسب ومنصب ومال إلا أنها لا تلد أما أتزوجها فنهاه ، ثم أتاه الثانية فقال له : مثل ذلك ، ثم أتاه الثالثة فقال له « تزوجوا الودود الولود فإنى مُكاثر بكم الأمم » رواه أبو دلود[٧].

---

(١) أخرجه مجمع الزوائد حـ ٤ ص ٢٥١ والسنن الكبرى للبيهقى حـ ٧ ص ٧٨ .

(٢) أخرجه البخارى حـ ٣ ص ٢٣٧ كتاب النكاح . باب الترغيب فى النكاح .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده حـ ٣ ص ٨٠ .

(٤) انظر صحيح مسلم فى كتاب الرضاع باب استحباب نكاح ذات الدين حـ ٢ ص ١٠٨٦ رقم ١٤٦٦/٥٣ .

(٥) أخرجه الدرالمنثور حـ ١ ص ٢٥٧ وحلية الأولياء ٢٤٥/٥ .

(٦) أخرجه ابن ماجة حـ ١ ص ٥٩٧ كتاب النكاح . باب تزويج ذات الدين رقم ١٨٥٩

(٧) أخرجه الحاكم فى مستدركه كتاب النكاح حـ ٢ ص ١٦٢

وجل جلاله إذ يقول مرغبا فى الزوج ﴿ **وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله** ﴾[١] وهذا أمر ﴿ **فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة** ﴾[٢] وهذا ترغيب مع الدعوة إلى العدل . ﴿ **فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن** ﴾[٣] وهذا منع مع العضل ونهى عنه .

وقال تعالى فى وصف الرسل ومدحهم : ﴿ **ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية** ﴾[٤].

فذكر ذلك فى معرض الامتنان وإظهار الفضل : ﴿ **والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما** ﴾[٥] فسبحان من مدح أولياءه بسؤال ذلك فى دعائه .

وللـزواج فـوائـد

ومن حكمة الله تعالى البالغة أنه ما أمر بشيء وقال العقل ليته ما أمر ، وما نهى عن شيء وقال العقل : ليته ما نهى ، فحكمة الله عالية وغالبة ، وحجة الله بالغة وواضحة

١ - أنه يلائم الفطرة الإنسانية ويوافقها وينسجم معها :

فقد روى البيهقى فى حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه « ان الله أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة »[٦] ففى الزواج التحصن من الشيطان ، وكسر التوقان ، ودفع غوائل الشهوة ، وغض البصر ، وحفظ الفرج ، وفيه ترويح النفس **وإيناسها** بالمجالسة . والنظر والملاعبة بين الزوجين إراحة للقلب ، وتقوية له على العبادة ، فإن النفس ملول وهى عن الحق نفور .

قال تعالى : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾[٧] ومعنى لتسكنوا أى لتميلوا إليها وتألفوا بها ، فإن الجنسية علة للضم ، والاختلاف سبب للتنافر . ومعنى ﴿ **بينكم** ﴾ أى بين الرجال والنساء بسبب الزواج حال التعارف والتواد والتراحم ، وقيل : ﴿ **مودة** ﴾ كناية عن الجماع ﴿ **ورحمة** ﴾ الولد .

---

(١) سورة النور آية : ٣٢ .
(٢) سورة النساء آية : ٣ .
(٣) سورة البقرة آية : ٢٣٢ .
(٤) سورة الرعد آية : ٣٨ .
(٥) سورة الفرقان آية : ٧٤ .
(٦) أخرجه المنذرى فى الترغيب والترهيب فى (كتاب النكاح) حـ ٢ ص ٥٢٨ وعزاه إلى البيهقى
(٧) سورة الروم آية : ٢١ .

ومن فوائد الزواج :

٢ – طلب الولد : لأنه المقصود بهذا العقد الشرعى والتمتع ، وفى طلب الولد قربة ولمرضاة الله تعالى ، فلا يجب الصالح أن يلقى الله عزباً . وفى الاستجابة لأمر الله بالزواج فوائد كثيرة من ناحية الذرية حددها **الإمام الغزالى بقوله :**

(أ) موافقة محبة الله بالسعى فى تحصيل الولد لإبقاء جنس الإنسان .

(ب) محبة رسول الله ﷺ فى تكثير من به مباهاته .

(جـ) طلب القبول بدعاء الولد الصالح بعده .

(د) طلب الشفاعة بموت الولد الصغير إذا مات قبله .

٣ – تفريغ القلب عن تدبير المنزل ، والتكفل بشغل المطبخ والكنس والفرش ، وتنظيف الأوانى ، وتهيئة أسباب المعيشة ، قال أبو سليمان الدارانى رحمه الله : الزوجة الصالحة ليست من الدنيا ، فإنها تفرغك للآخرة وإنما تفريغها بتدبير المنزل وبقضاء الشهوة جميعاً . وقال محمد بن كعب القرظى فى معنى قوله تعالى : ﴿ **ربنا آتنا فى الدنيا حسنة** ﴾ قال المرأة الصالحة ومن فوائده :

٤ – مجاهدة النفس ورياضتها بالدعاية والولاية ، والقيام بحقوق الأهل ، والصبر على أخلاقهن ، واحتمال الأذى منهن ، والسعى فى إصلاحهن وإرشادهن إلى طريق الدين ، والاجتهاد فى كسب الحلال لأجلهن والقيام بتربيته لأولاده ، قال عليه الصلاة والسلام : « يوم من وال عادل أفضل عند الله من سبعين سنة »(١) فكل مقاساه . بسبب الأهل والولد بمنزلة الجهاد فى سبيل الله تعالى ، ولذلك قال بشر : فضل على أحمد بن حنبل بثلاث : بطلب الحلال لنفسه ولغيره . وقوله ﷺ « ما أنفقه الرجل على أهله فهو صدقة »(٢) وإن الرجل ليؤجر فى اللقمة يرفعها فىّ امرأته أى فمها وعلى من وفقه الله تعالى للزواج ألا يقع فى تلك المحاذير .

أولاً : العجز عن طلب الحلال خشية التوسع للطلب والإطعام من الحرام ، وربما يتبع المتزوج هوى زوجته ، ويبيع آخرته بدنياه .

ثانياً : القصور عن القيام بحقهن ، والصبر على أخلاقهن ، واحتمال الأذى منهن وفى هذا خطر ، لأنه راع ومسئول عن رعيته ، قال عليه الصلاة والسلام : « كفى بالمرء إثما أن يضيع من يعول »(٣) وقال تعالى : ﴿ **قوا أنفسكم وأهليكم ناراً** ﴾(٤) أمرنا أن نقيهم النار كما نقى أنفسنا .

---

(١) أخرجه المتقى الهندى فى كنز العمال حـ ٦ ص ١٢ رقم ١٤٦٢٤

(٢) أخرجه الإمام أحمد حـ ٥ ص ٢٧٣ وكنز العمال حـ ٦ رقم ٦٣٢٣

(٣) أخرجه : فى الصحيح

(٤) سورة التحريم آية : ٦ .

ثالثاً : أن يكون الأهل والولد شاغلاً له عن الله تعالى ، وجاذباً إلى طلب الدنيا ، وحسن تدبير المعيشة للأولاد ، بكثرة جمع المال وإدخاره لهم ، وطلب التفاخر والتكاثر بهم ، وكل ما شغل عن الله تعالى من أهل ومال وولد ، فهو مشئوم على صاحبه ، فينقل من التنعم المباح إلى الإغراق فى ملاعبة النساء ومؤانستهن ، والإمعان فى التمتع بهن ، قال إبراهيم بن آدهم رحمه الله : « من تعود أفخاذ النساء لم يجيء منه شيء » .

قواعـد البنـاء

إن الإسلام وهو يشيد قواعد بناء الأسرة ، وأرسى لها أسساً متينة الأعماق متصلة بحبل السماء ، حتى تكون ناطحة سحاب تجاوز النجوم فى العلياء ، فإذا كانت النجوم زينة السماء فإن الأسرة هى زينة المجتمعات ، وهى البهجة والنماء والأهل والأحباب إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فإما نعيم دائم ، وإما عذاب ليس له دافع من الله ذى المعارج .

لقد أحكم الاسلام البناء للأسرة ، وشيدها على قواعد من الإنتقاء لحجر الأساس ، لا يقوى بنّاء على مجاراته فى مثل هذا التوغل فى الأعماق ، فتعال معى أخى المسلم وأختى المسلمة لتريا ماهى الشروط المطلوبة فى الزوج المسلم والزوجة المسلمة ، وهى شروط وصفها الشارع الحكيم للبناء الراسخ العميق ، حتى لا يكون هشا تذروه أعاصير الحياة وعواصفها ، فيصبح المسلم يقلب كفيه على ما أنفق فيه وحسرة على ما فرط فى جنب الله .

﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أمّن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾(١) .

ولما كانت القاعدتان الأساسيتان فى بناء الأسرة ، هما الزوج والزوجة ، فقد وضع الشرع الحكيم لهما من المواصفات ما ينمى المودة والرحمة ومشاعر الخير والتواصل ، ويجعل الزواج بحق من أجل النعم التى امتن لها الله علينا ، حيث تسير السفينة يحوطها الحب والرضى والعطاء وتظلها سحائب الرحمة والإيمان .

﴿ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ﴾(٢).

أولاً : سمات الزوجة الصالحة فى الشرع الحكيم :

١ – إن أهم ما عنى به الاسلام لا ختيار الزوجة التى تعين على نوائب الدهر ، وتكون سكنا

---

(١) سورة التوبة آية : ١٠٩ .

(٢) سورة آل عمران : ١٧٤ .

وذخرا للرجل وخير متاع ينبغى التطلع إليه والحرص عليه هو دينها ، قال ﷺ : ﴿ **تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك** ﴾ رواه البخارى(١).

وقال صلوات ربى وسلامه عليه «**لا تزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن ولا تزوجوهن لمالهن فعسى أن يطغيهن ولكن تزوجهن على الدين ولأمة خرماء ذات دين أفضل**»(٢) وحذر الرسول الحبيب من المرأة الجميلة التى لا يحوط جمالها هذا سياج الإيمان فقال ﷺ : « وإياكم وخضراء الدِّمن قيل يا رسول الله وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء فى المنبت السوء »(٣).

فلماذا شرع الدين فى المقام الأول لاختيار الزوجة ؟ لأن الدين هو الحصن المنيع والسراج المنير لظلمات الحياة وهو حبل الله المتين الذى ينجو به المرء من مكايد الكائدين وألسنة الحاقدين وعيون الحاسدين وهو المحل الأساسى لتقيم الناس يوم الدين قال ﷺ ﴿ **إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسادكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم** ﴾(٤)

ونظراً لأن الإسلام هو دين الفطرة السوية والمصلحة الاجتماعية فقد وضع عدة معايير أخرى إضافية لاختيار الزوجة لتحقيق الهدف الأسمى والسعادة القصوى من الزواج من تلك المعايير .

٢ - الأصل والشرف : وذلك بأن تكون الزوجة من أسرة عريقة عرفت بالصلاح والخلق وأصالة الشرف وأرومة الأصل ، فالناس معادن يتفاوتون فيما بينهم وضاعة وشرفاً ويتفاضلون فساداً وصلاحاً

قال ﷺ : « الناس معادن فى الخير والشر خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام إذا فقهوا »(٥).

وروى ابن ماجه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس »(٦).

وروى ابن ماجه عن عائشة رضى الله عنها مرفوعا : « تخيروا لنطفكم وانكحوا الأكفاء »(٧).

إن أصالة المرأة وبيئتها الكريمة ، تجعلها بعيدة عن الانحرافات النفسية وتغمر أولادها حناناً وتطبعهم بالعادات الأصيلة والأخلاق الاسلامية القويمة ، ترضعهم لبان المكارم والفضائل ، ويكتسبون منها بشكل فطرى خصال الخير ومكارم الأخلاق . خطب رسول الله ﷺ (أم هانىء)

(١) رواه البخارى فى صحيحه فى (كتاب النكاح) باب الأكفاء فى الدين حـ ٧ ص ٩ .
(٢) رواه المتقى الهندى فى كنز العمال حـ ١٦ رقم ٤٤٥٦٥ .
(٣) رواه المتقى الهندى فى كنز العمال حـ ١٦ رقم ٤٤٥٨٧ .
(٤) رواه الإمام مسلم فى صحيحه حـ ٤ ص ١٩٨٧ كتاب البر والصلة باب تحريم ظلم المسلم وخذله .
(٥) رواه مسلم حـ ٤ ص ٢٠٣١ ، ٢٠٣٢ كتاب البر والصلة باب الأرواح جنود مجندة رقم ٢٦٣٨/١٦٠ .
(٦) رواه العراقى فى تخريج أحاديث إحياء علوم الدين حـ ٢ ص ٤١ .
(٧) رواه العراقى فى تخريج أحاديث إحياء علوم الدين حـ ٤ ص ١٠٢ .

فاعتذرت إليه بأنها صاحبة أولاد فقال : « خير نساء ركبن الإبل صالح نساء قريش ، أحناه على ولد فى صغره ، وأرعاه على زوج فى ذات يده »[١].

وتحقيقا لهذا الهدى النبوى أجاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن سؤال لأحد الأبناء لما سأله ما حق الولد على أبيه بقوله : « ان ينتقى أمه ويحسن اسمه ويعلمه القرآن » . فإذا ما تحقق هذان المعياران الاصيلان ، فهناك أيضاً معايير أخرى منها :

٣ - الجمال : لم يسقط الإسلام الجمال من حسان ، لأن النفس البشرية جبلت على عشق الجمال وهوايته ، وتتوق إليه ، لتحقيق السكن النفسى والأرتواء العاطفى ، ففى الحديث الصحيح : « إن الله جميل يحب الجمال »[٢]. وقال ﷺ : « خير النساء من إذا نظرت إليها سرتك وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا أقسمت عليها برتك ، وإذا غبت عنها حفظتك فى نفسها ومالك » رواه النسائى[٣].

وخطب المغيرة بن شعبة إمرأة فأخبر رسول الله ﷺ فقال له : « اذهب فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » أى تدوم بينكما المودة والعشرة ونصح الرسول رجلاً خطب إمرأة من الأنصار فقال له : « أنظر إليها فإن فى أعين الأنصار شيئاً »[٤].

٤ - تفضيل المرأة البكر : يستحسن أن تكون الزوجة بكراً ، فإن البكر ساذجة لم يسبق لها عهد بالرجال ، فيكون التزوج بها أدعى إلى تقوية عقدة النكاح ، ويكون حبها لزوجها الصق بقلبها ، لكون البكر مجبولة على الأنس والألفة بأول إنسان تكون فى عصمته وتلتقى معه وتتعرف عليه ، بعكس المرأة الثيب ، فقد لا تجد فى الزوج الثانى الألفة التامة والمحبة المتبادلة والتعلق القلبى الصادق لمقارنتها بين أخلاق الزوج الأول ومعاملة الثانى لها .

وهناك دلائل على هذا التفضيل من الهدى النبوى : لما تزوج جابر بن عبد الله ثيباً قال له رسول الله ﷺ : هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك[٥] فأخبر جابر الرسول ﷺ بأن أباه قد ترك بنات صغار وهن فى حاجة إلى رعية إمرأة تقوم على شئونهن وأن الثيب أقدر على هذه الرعاية من البكر التى لم تدرب على تدبير المنزل .

وروى « عليكم بالأبكار فإنهن أعذب أفواهاً وأنتق أرحاماً وأقل جناً ، وأرضى باليسير »[٦].

والمقصود بعذوبة **الأفواه** طيب الكلام ، ونتق الأرحام : كثرة الأولاد وأقل جًنا أقل مكرا وخديعة .

---

(١) رواه البخارى حـ ٧ ص ٧ ورواه مسلم فى فضائل الصحابة رقم ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ .

(٢) رواه الإمام مسلم حـ ١ ص ٩٣ كتاب الإيمان باب تحريم الكبر رقم ٩١/١٤٧

(٣) أنظر تفسير ابن كثير حـ ١ ص ٥٠٣ تفسير سورة النساء آية ٣٤

(٤) رواه ابن ماجة فى سننه حـ ١ ص ٥٩٩ كتاب النكاح . باب النظر إلى المرأة إذا أراد أن يتزوجها رقم ١٨٦٥ .

(٥) رواه مسلم فى صحيحه حـ ٢ ص ١٠٨٧ كتاب الرضاع باب استحباب نكاح البكر رقم ٥٤ ، ٥٥ ، ٧١٥/٥٦ .

(٦) رواه البخارى حـ ٧ ص ٦ كتاب النكاح باب نكاح الأبكار .

وقد وضحت السيدة عائشة رضى الله عنها كل هذه المعانى عندما قالت للرسول ﷺ فيما رواه البخارى يا رسول الله أرأيت لو نزلت وادياً فيه شجرة قد أكل منها وشجرة لم يؤكل منها فى أى منها كنت ترتع بعيرك ؟ قال عليه الصلاة والسلام فى التى لم يرتع فيها قالت رضى الله عنها (فأناهى) وتقصد بذلك بيان فضلها على باقى الزوجات باعتبار أن الرسول ﷺ لم يتزوج بكراً غيرها(١).

٥ – تفضيل الزواج بالمرأة الولود :

لما كان الغرض الأسمى من الزواج هو الإنجاب ، فينبغى أن تكون الزوجة منجبة ، وتعرف بسلامة جسمها ، والنظر فى حال أمها ، وحال أخواتها المتزوجات ، وخالاتها وعماتها ، فإن كن من الصنف الولود فالأرجح أن تكون مثلهن فى الإنجاب ، وهذا ضرورى لمضاعفة أعداد الأمة المحمدية ، التى جعلها الله خير أمة أخرجت للناس ، وما ذاك إلا من الهدى النبوى ، وذلك حين جاءه رجل يقول له : يا رسول الله أنى أحببت إمرأة ذات حسب ومنصب ومال إلا أنها لا تلد ، أفأتزوجها : فنهاه ثم أتاه الثانية ، فقال : له مثل ذلك ، ثم أتاه الثالثة ، فقال : عليه الصلاة والسلام : « تزوجوا الولود الودود فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة »(٢).

٦ – تفضيل الاغتراب فى الزواج :

أى الابتعاد قدر الإمكان عن النساء ذوات النسب والقرابة ، حرصاً على نجابة الولد وضمانا لسلامة الذرية من الأمراض الوراثية ، وتوسيعاً لدائرة التعارف الأسرية وتوطيداً للروابط الاجتماعية ، ولذلك روى « لا تنكحوا القرابة فإن الولدَ يخلق ضاويا » أى نحيفاً ضعيف الجسم بليد الذكاء وروى « اغتربوا لا تضووا »(٣).

وقد أثبت علم الوراثة بعد أربعة عشر قرناً معجزة الرسول ﷺ وإخبار أنه الصادق ، حينما أثبت أن الزواج بالقرابة يجعل النسل ضعيفاً ويورث الأولاد صفات خلقية ذميمة .

هذه هى المعايير العامة وضعها الإسلام لاختيار الزوجة ، على أن يكون معروفا فى يقين كل مسلم أن المعيار الأهم والأكيد ، هو معيار الدين والأخلاق ، فمن فاز بتلك الزوجة فقد فاز بخير الدنيا والآخرة ، أما بقية المعايير فهى تختلف ظروف كل مسلم مقدم على الزواج مثلما تزوج جابر إمرأة ثيبا لتكون أقدر على رعاية أخوته البنات اللائى تركهن والده أمانة فى عنقه ، فهو قد فضل أداء الأمانة خير أداء على إرضاء ميوله الوجدانية ، ونزعاته الشخصية ، وهذا أمر محمود وسلوك رشيد ، يدل على أصالة التمييز فى هؤلاء الرجال الذين تخرجوا من مدرسة محمد ﷺ وعرفوا أن البر هو ما أطمأن إليه القلب ، ولم ينازعه منه ريب ، وعرفوا أن الخير فى أمة محمد إلى يوم القيامة ، وعرفوا أن توافر كل تلك

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه حـ ١ ص ٥٩٨ كتاب النكاح باب تزويج الأبكار رقم ١٨٦١ .

(٢) رواه الحاكم فى مستدركه كتاب النكاح حـ ٢ ص ١٦٢ .

(٣) رواه الغزالى فى إحياء علوم الدين حـ ٢ ص ٤١ وقال العراق فى تخريج الحديث : لم أجدله أصلا معتمدا . قلت إنما يعرف من قول عمر أنه قال لآل السائب قد أضويتم فانكحوا فى النوابغ . رواه إبراهيم الحربى فى غريب الحديث . وقال معناه تزوجوا الغرائب .

الصفات فى إمرأة واحدة أمر عسير المنال ولا يتفق مع ظروف الحياة ، لأن الكمال لله وحده فرجحوا كفة دينهم على دنياهم وساروا على نهج من هداهم وأرسى فى وجدانهم إن الزوجة الصالحة تعين على أمر الدين والدنيا وهذا مطلب الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

روى أن سيدنا داود ناجي ربه ومولاه فقال : « اللهم إنى أسألك أربعاً وأعوذ بك من أربع : أسألك لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً ، وبدنا على البلاء صابراً وزوجة تعيننى على أمر دينى ودنياى . وأعوذ بك من ولد يكون علىّ سيداً ، ومن مال يكون وبالاً علىّ ويتمتع به غيرى ، ومن جار سوء إن رأى خيراً أنكره وإن رأى سوء أذاعه ، ومن زوجة تشيبنى قبل المشيب » .

فاتقوا الله أيها الشباب المقدم على الزواج ، ولا يغرنكم الجمال الزائف ، أو المال الزائل ، أو الحب الطاغى ، وليكن جلَّ همكم هو الزوجة الصالحة فى المقام الأول ، وما توفر لها بعد ذلك من ميزات ، فهو فضل ونعمة من الله والله عليم بذات الصدور وبنياتكم ترزقون ﴿ **إن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله** ﴾(١) .

قالت السيدة عائشة رضى الله عنها : « النكاح رق فلينظر أحدكم أين يضع كريمته » فيجب على ولى أمر المرأة أن يختار لها رجلا ذا دين وذا خلق ، يفهم الإسلام فهما حقيقياً ، ويطبقه تطبيقا عمليا سلوكيا بكل فضائله السامية وآدابه الرفيعة ، وقد حدد لنا الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه الموازين الصحيحة لمعرفة الأشخاص ، وإظهار حقائق الرجال ، وذلك حينما جاءه رجل يشهد لرجل آخر .

فقال له عمر : أتعرف هذا الرجل ؟

فأجـــاب : نعـــم

قال : هل أنت جاره الذى يعرف مدخله ومخرجه ؟

فأجـاب : الرجـل : لا

قال عمر : هل صاحبته فى السفر الذى تعرف به مكارم الأخلاق .

فأجاب الرجل : لا .

فصاح به عمر : لعلك رأيته قائما قاعدا يصلى فى المسجد يرفع رأسه تارة ويخفضه أخرى . فرد الرجل نعم .

فقال له عمر : اذهب فإنك لا تعرف والتفت إلى الرجل وقال له : ائتنى بمن يعرفك ، فعمر رضى الله عنه لا ينخدع بالمظهر الخارجى للإنسان ، ولكنه يهمه أن يعرف الجوهر بموازين حقيقة تدل على الإيمان الحقيقى والخلق الطيب .

روى الترمذى عن رسول الله ﷺ أنه قال : إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه

(١) سورة البقرة آية : ٢٨٤ .

إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض »[1] وأى فتنة أعظم على المرأة المؤمنة من أن تقع تحت يد فاسق ، تشعر معه تحت سقف الزوجية بالاغتراب ، والله جعل الزواج سكنا ومودة ورحمة ، وأى فتنة أعظم من الزواج من رجل لا يعرف الله ، يسير بالمرأة إلى طريق الهاوية من سفور واختلاط وعدم مراعاة قواعد الفضيلة .

وأى فتنة وفساد أعظم من أن يتربى الأولاد على الانحراف والإباحية والفساد والمنكر .

وصدقت ياسيدى يا رسول الله عندما قلت : « من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها »[2]. فاتقوا الله أيها الرجال فى بناتكن ولا تغرنكم الحياة الدنيا فهى متاع قليل والآخرة خير وأبقى والرجل الصالح التقى المؤمن يرتقى ببناتكن إلى مدارج العلى أما الفاسق فهو يهوى بهن إلى الهاوية وماأدراكم ماهى نار حامية .

قال ابن تيمية شيخ الإسلام رحمه الله : « ومن كان مصراً على الفسوق لا ينبغى أن يزَّوج » .

وقال الرجل للحسن بن على : « إن لى بنتا فمن ترى أن أزوجها له ؟ قال : زوجها ممن يتقى الله فإن أحبها أكرمها وأن أبغضها لم يظلمها » . حقاً ما أحسن الرجل التقى فهو شخصية غنية بمكارم الأخلاق محوطا بعناية الله وعونه كما قال صلوات ربى وسلامه عليه : « ثلاثة كلهم حق على الله عز وجل عونه : المجاهد فى سبيل الله ، والناكح ليستعف والمكاتب يريد الأداء »[3].

ويجب ألا يتبادر إلى الذهن أن التقوى ، هى فقط المعيار الوحيد فى اختيار الرجل ، بل هناك عدة معايير أخرى يشترك فيها مع المرأة بما سبق ذكره فيها : الاختيار على أساس الأصل والشرف ، والاغتراب فى الزواج ، ولكن المعيار الذى يتفرد به الرجل عن المرأة هو :

القدرة على القيام بأعباء المعيشة :

لأن الرجل هو رب الأسرة ، والمتصرف فى أمرها ، وله القوامة عليها ، ولن يكون ذلك إلا بقدرته على الإنفاق قال تعالى : ﴿ **الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم** ﴾[4]

قال ﷺ : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » أى وقاية[5].

---

(١) رواه الترمذى فى سننه حـ ٣ ص ٣٩٥ كتاب النكاح . باب ٣ رقم ١٠٨٥

(٢) رواه الزبيدى فى اتحاف السادة المتقين حـ ٥ ص ٣٤٩ وقال العراق رواه ابن حبان فى الضعفاء من حديث أنس ورواه فى الثقات من قول الشعبى بإسناد صحيح .

(٣) رواه الحاكم فى مستدركه حـ ٢ ص ١٦٠ كتاب النكاح وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

(٤) سورة النساء آية : ٣٤ .

(٥) رواه مسلم حـ ٢ ص ١٠١٨ كتاب النكاح رقم ١٤٠٠/١ .

والباءة مقصود بها ما يتطلبه الزواج من نفقات والتزامات المعيشة وهذا أفضل للرجل أن يكون هو صاحب الطول فى الإنفاق فلا يطمع فى الزواج من غنية تنفق عليه وتذله بمالها ، قال الإمام الغزالى فى كتابة (الإحياء) :

(قال بعضهم) من تزوج غنية كان له منها خمس خصال مغالاة الصداق ، وتسويف الزفاف وفوت الخدمة وكثرة النفقة ، وإذا أراد طلاقها لم يقدر على ذهاب مالها .

(وقال بعضهم) ينبغى أن تكون المرأة دون الرجل بأربع وإلا استحقرته : بالسن والطول والمال والحسب ، وأن تكون المرأة فوق أربع بالجمال والأدب والخلق والورع .

تلك هى قواعد البناء للأسرة المسلمة ، وهى لاشك قواعد وطيدة الأركان ، وقد أحاط الإسلام هذه القواعد بسياج منيع ، يسمى التكافؤ ، فلابد أن يكون ثمة تقارب بين الزوج والزوجة من حيث السن والمركز الاجتماعى والمستوى الثقافى والاقتصادى ، فإن التقارب فى هذه النواحى بما يعين على دوام العشرة وبقاء الألفة ، ولا أدّل على ذلك من موقف سيدنا رسول الله ﷺ من ابنته السيدة فاطمة فقد خطبها أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فقال : إنها صغيرة فلما خطبها علىّ زوجها إياه .

وإذا أراد ولى أمر فتاة أن يرجح معياراً من المعايير ، فليكن هو معيار الخلق والدين ، أسوة بسيد الخلق أجمعين ، ومن اتبعه بإحسان إلى يوم الدين ، وإليكم قصة سعيد بن المسيب فى زواج ابنته التى خطبها منه عبد الملك بن مروان لابنه الوليد حين ولاه العهد ، فأبى سعيد أن يزوجه ، فلم يزل عبد الملك يحتال على سعيد ، حتى ضربه مائة سوط فى يوم بارد ، وصب عليه جرة ماء وألبسه جبة صوف ، ولكنه رفض خوفا من افتتان ابنته بالمال الجاه ، وفضّل أن يزوجها لرجل تقى هو عبد الله بن أبى وداعة الذى يحكى قصة زواجه قائلاً : « كنت أجلس إلى سعيد بن المسيب فتفقدنى أياماً فلما أتيته قال : أين كنت ؟ قلت توفيت أهلى فاشتغلت بها فقال : هلا أخبرتنا فشهدناها ، قال ثم أردت أن أقوم ، فقال : هل استحدثت إمرأة ؟ فقلت يرحمك الله تعالى ومن يزوجنى وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة ؟ فقال أنا فقلت : وتفعل ؟ قال نعم فحمد الله تعالى ، وصلى على النبى ﷺ ، وزوجنى على درهمين أو قال ثلاثة . قال فقمت وما أدرى ما أصنع من الفرح فصرت إلى منزلى ، وجعلت أفكر ممن آخذ وممن استدين ، فصليت المغرب ، وانصرفت إلى منزلى ، فأسرجت وكنت صائماً فقدمت عشائى لأفطر وكان خبزاً وزيتاً ، وإذا ببابى يقرع فقلت : من هذا ! قال سعيد قال ففكرت فى كل إنسان أسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب وذلك أنه لم ير أربعين سنة إلا بين داره والمسجد

قال : فخرجت إليه فإذا به سعيد بن المسيب فظننت أنه قد بدا له فقلت : يا أبا محمد لو أرسلت إلىّ لأتيتك فقال : لأنت أحق **أن** تؤتى قلت فما تأمر ؟ قال : إنك كنت رجلاً عزبا فتزوجت فكرهت أن أبيتك الليلة وحدك ، وهذه إمرأتك ، وإذا هى قائمة خلفه فى طوله ثم أخذ بيدها فدفعها فى الباب ، ورده فسقطت المرأة من الحياء فاستوثقت من الباب ، ثم تقدمت إلى القصعة

التى فيها الخبز والزيت ، فوضعتها فى ظل السراج لكيلا تراه ، ثم صعدت السطح ناديت الجيران فجاءونى وقالوا : ما شأنك ؟ قلت ويحكم زوجنى سعيد بن المسيب ابنته اليوم ، وقد جاء بها على غفلة فقالوا : أو سعيد زوجكها قلت نعم : قالوا : وهى فى الدار ؟ قلت نعم فنزلوا إليها وبلغ ذلك أمى فجاءت وقالت : وجهى من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام : قال : فأقمت ثلاثاً ثم دخلت بها فإذا هى من أجمل النساء ، وأحفظ الناس لكتاب الله ، وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ وأعرفهم بحق الزوج .

قال : فمكثت شهراً لا يأتينى سعيد ولا آتيه ، فلما كان بعد الشهر أتيته وهو فى حلقته ، فسلمت عليه فرد علىّ السلام ، ولم يكلمنى حتى تفرق الناس من المجلس ، فقال : ما حال ذلك الإنسان ، فقلت : بخير يا أبا محمد على ما يحب الصديق ويكره العدو قال : إن رابك من أمر فدونك والعصا ، فانصرفت إلى منزلى فوجه إلىّ بعشرين ألف درهم .

هذا زواج مثالى ، سداه التقوى ، ولحمته العمل الصالح ، ورأس ماله . المودة والرحمة .

« إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ، والدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة » . إن قصة سعيد بن المسيب مع تلميذه : عبد الله بن أبى وداعة مدرسة عظمى من مدارس الإسلام ، لقد آثر ما يبقى على ما يفنى ، فتقوى الله وحسن الخلق والعمل الصالح شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، لقد كان سعيد سعيداً بهذا الزواج ، قرير العين بتلك المصاهرة ، فالمال عرض زائل ، والتقوى قيمة ثابتة ، والجاه ظل حائل ، والإيمان قيمة راسخة ، والقصور ليست هى السعادة ، والرضا جبل باذخ شامخ لا تؤثر فيه العواصف ولا تحركه القواصف ، وما من شك فى أن عظمة الاسلام ترجع إلى اليسر وتبسيط الأمور لا تعقيد ولا نصب ولا تعب فى أمر يسّره الله تعالى .

« فأقلهن مهراً أيسرهن بركة ، فمن يمن المرأة خفة مهرها ويسر نكاحها وحسن خلقها ، ومن شؤم المرأة ثقل مهرها وعسر نكاحها وسوء خلقها » كما قال ﷺ : لقد دخل سعيد بن المسيب داره يوما فوجد ابنته (الرباب) التى زوجها عبد الله بن أبى وداعه وجدها جالسة وقد راحت فى تفكير عميق سألها : ماذا كنت تصغيهن يا رباب : قالت يا أبتى كنت أرتل القرآن الكريم ، قال : أفهمت ما رتلت ؟ قالت نعم إلا آية وقفت عندها قال : وما تلك الآية ؟ قالت : ﴿ **ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة** ﴾[1] لقد علمت أن حسنة الآخرة الجنة ، فما حسنة الدنيا قال لها : الرجل الصالح للمرأة الصالحة ، والمرأة الصالحة للرجل الصالح .

ولست أرى السعادة جمع المال ... ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخرا ... وعند الله للأتقى مزيد

(١) سورة البقرة آية : ٢٠١ .

وإدراك الــذى يــــأتى قريـــــب ولكــن الــذى يمضـــى بعيـــد

ليعلم العقلاء أن السعادة ليست في سكني القصور ، ولا فى الانتشاء باحتساء الكئوس المترعة ، ولا فى الاستمتاع بالغيد الأماليد ، وإنما السعادة مملكة قائمة بالنفس ، صورها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ **رضى الله عنهم ورضوا عنه** ﴾[١]

وأخبر عنها الصادق المعصوم فى قوله : « وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس »[٢].

السعادة تزكية النفس وتطهيرها من الدنايا ، وسفاسف الأمور ، وإشراق العقل بنور الهدى ، وانتصار الذهن فى نصره الحق . ﴿ **قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها** ﴾[٣] فعلى الباحثين عن السعادة أن يعلموا أن السعادة حقيقة ثابتة ، لا ترتكز علي حياة أو مال أو سلطان ، إنما هي صرح شامخ أساسه العمل الصالح والإيمان الراسخ والقلب السليم ، وتلك هى أركان البناء الروحى للزواج ، فإن كان القادمون على الزواج يظنون أن قواعد البناء مادية فقط ، تتمثل فى الإمكانات المادية لكل من الزوجين ، فهم خاطئون كل الخطأ ، واهمون كل الوهم ، لأن الأسرة هي روح المجتمع ونبضه ، هى دعامته وركيزته ، هى المادة والروح ، هى العقيدة والعمل ، فليتقوا الله ربهم وليكن البناء الروحى جُلَّ همهم وعلي الله قصد السبيل وبه الهداية ومنه التوفيق .

الخطبـــة

إن الخطبة هى الخطوات العملية لإرساء حجر الأساس للحياة الزوجية وبناء الأسرة ، وإذا كانت هناك دراسات كثيرة حول الطريقة المثلى لوضع دعائم أى بنيان من ناحية الوقت والتكلفة والجهد ، والأدوات التي تستخدم لذلك ، والمواد التى تعطى أفضل نتائج ممكنة ، فإن مدرسة محمد ﷺ قد حددت منهاجا سليماً لإرساء دعائم الأسرة ، يحفظ لها كيانها مدى الحياة ، ويصونها من كل عواصف قد تطرأ عليها خلال رحلتها وسط أمواج البشرية ، ومعترك طباع الحياة ، فما هى تلك الخطوات وماهي الضمانات التي وضعها الشرع الحكيم ، لتحقيق الضمانات لكل من الطرفين وإحاطة الأسرة بسياج متين علي أساس من الخلق والدين ؟

أولا الأعمـــال :

أول عمل يعمله الذى يرغب فى الزواج أن يستشير أقرب الناس إليه فيمن يخطبها ، فإن وافقوا يرسل إمرأة أمينة ، لتتعرف علي حالتها لعل فيها عيباً يكون مستتراً ، ثم بعد ذلك يسأل من يختلط

(١) سورة التوبة آية : ١٠٠ .

(٢) رواه الترمذي كتاب الزهد باب الصحة والفراغ رقم ٢٣٠٦ .

(٣) سورة الشمس الآيتان : ٩ ، ١٠ .

بعشيرتها من جيران وأقارب عن أصلها وسلوكها على أن يراعى أن هناك شروطا فى المرأة التى تباح خطبتها منها :

أن تكون خالية من الموانع الشرعية التى تمنع زواجه منها فى الحال ، ألا يسبق غيره إليها بخطبة شرعية ، فإن كانت ثمة موانع شرعية ، كأن تكون محرمة عليه بسبب من أسباب التحريم المؤبدة أو المؤقته،أو كان غيره سبقه بخطبتها ، فلا يباح له خطبتها . بالنسبة للتحريم المؤبد ، فقد بينه الله عز وجل فى قوله تعالى : ﴿ **حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين لا ما قد سلف إن الله كان غفورا رحيما والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم** ﴾[1] ويسبقها الآية الكريمة ﴿ **ولا تنكحوا ما نكح أباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً** ﴾[2]

بالنسبة للموانع المؤقتة :

١ - تحرم خطبة المعتدة ، سواء أكانت عدتها عدة وفاة أو عدة طلاق ، وسواء أكان الطلاق طلاقاً رجعياً أم بائناً .

فإن كانت معتدة من طلاق رجعى ، حرمت خطبتها ، لأنها لم تخرج عن عصمة زوجها وله مراجعتها فى أى وقت شاء ، وان كانت معتدة من طلاق بائن حرمت خطبتها بطريق التصريح ، إذ حق المزوج لا يزال متعلقاً بها ، وله حق إعادتها بعقد جديد ففى تقدم رجل آخر لخطبتها اعتداء عليه ، واختلف العلماء فى التعريض بخطبتها ، والصحيح جوازه ، حتى يكون للمرأة فرصة للتفضيل والاختيار فى أحسن الظروف وليس وسط مهاوى اليأس والضياع ،وإن كانت معتدة من وفاة ، فإنه يجوز التعريض لخطبتها أثناء العدة دون التصريح ، لأن صلة الزوجية قد انقطعت بالوفاة ، فلم يبق للزوج حق يتعلق بزوجته ، التى مات عنها ، وإنما حرمت خطبتها على شعور أهل الميت وورثته من جانب آخر ، فالإسلام وهو يقيم دعائم بنيان جديد ، يأبى أن يقيمه على جرح مشاعر الآخرين ، بل يريد أن يحوط بسياج من الأمن المعنوى ، حتى لا يعرض لرياح النفوس البشرية ، التى يجتاحها الشكوك والأوهام إذا تمت الأمور على وجه السرعة . ولم يحسب لها حسابا ، فتأتى النتائج بأوخم العواقب قال تعالى فى كتابه الكريم : ﴿ **ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم فى أنفسكم علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سراً إلا أن تقولوا قولاً معروفا**

---

(١) سورة النساء الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) سورة النساء آية : ٢٢ .

ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفكسم فاحذروه﴾ الآية[1].

والمراد بالنساء المعتدات لوفاة أزواجهن ، لأن الكلام فى هذا السياق ، ومعنى التعريض أن يذكر المتكلم شيئا يدل به على شيء لم يذكره ، مثل أن يقول : « إنى أريد أن أتزوج » أو يقول : « لوددت أن ييسر لى إمرأة صالحة » أو يقول : « إن الله لسائق لك خيرا » والهدية إلى المعتدة جائزة وهى من التعريض .

وجائز أن يمدح نفسه ويذكر مآثره على وجه التعريض بالزواج ، وقد فعله أبو جعفر محمد بن على بن حسين . قالت سكينة بنت حنظلة : استأذن على بن محمد علىّ ولم تنقض عدتى من مهلك زوجى فقال : **قد عرفت قرابتى من رسول الله ﷺ وقرابتى من على وموضعى فى العرب** . قلت : غفر الله لك يا أبا جعفر إنك رجل يؤخذ منك تخطبنى فى عدتى ! قال : إنما أخبرتك بقرابتى من رسول الله ﷺ حرمت علىّ .

وخلاصة الآراء أن التصريح بالخطبة حرام لجميع المعتدات ، والتعريض مباح للبائن وللمعتدة من الوفاة ، وحرام في المعتدة من طلاق رجعي .

٢ - يحرم على الرجل أن يخطب على خطبة أخيه ، لما فى ذلك من اعتداء على حق الخاطب الأول وإساءة إليه ، وقد ينجم عن هذا التصرف الشقاق بين الأسر والاعتداء الذى يروِّع الآمنين ، وهو أمر يأباه الإسلام ويرفضه ،لأنه يبني مجتمعه على أساس من الحب والود والأمن والأمان ، كما أنه لا يرضي للمرأة أن تكون سلعة تباع وتشترى لمن يدفع أكثر ، فهى حجر الأساس المتين والركن الركين فى بناء الأسرة ، ولذلك فلها حرمتها ولها قداستها فى عبور الرجال إليها . عن عقبة بن لمار أن رسول الله ﷺ قال : « المؤمن أخو المؤمن فلا يحل له أن يبتاع على بيع أخيه ، ولا يخطب على خطبة أخيه حتى يذر »[2] ومحل التحريم ما إذا صرحت المخطوبة بالإجابة ، أو صرح وليها الذى أذنت له ، حيث يكون إذنه معتبرا ، وتجوز الخطبة لو وقع التصريح بالرد ، أو وقعت الإجابة بالتعريض ، أو لم يعلم الثانى بخطبة الأول ، أو أذن الخاطب الأول للثانى .

حكى الترمذى عن الشافعى فى معنى الحديث : إذا خطب المرأة فرضيت به وركنت إليه ، فليس لأحد أن يخطب على خطبته .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٣٥ .

(٢) أخرجه البخارى — كتاب البيوع — باب لا يبيع على بيع أخيه رقم ١٠٨٣
أخرجه مسلم كتاب النكاح حديث رقم ٥١ .
أخرجه الترمذى حـ ٣ ص ٤٤٠ كتاب النكاح — باب ما جاء أن لا يخطب الرجل على خطبة أخيه رقم ١١٣٤ .

موافقـة المـرأة على الخطبـة

لابد من موافقة المرأة على من يتقدم لخطبتها ، لإقامة الحياة الزوجية على أساس من التراضى بين الطرفين ، وهو أمر لابد منه لإشاعة الحب والوئام بين جنبات الأسرة ، وليس للأهل إرغام المرأة بحال من الأحوال على الاقتران بشخص لا يتحقق معه الوئام الروحى ، ولنا فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر .

عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ : « الثيب أحق بنفسها من وليها والبكر تستأذن فى نفسها وإذنها صمتها »(١) رواه الجماعة

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ : « لا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا البكر حتي تستأذن قالوا : يا رسول : كيف إذنها ؟ قال : أن تسكت »(٢).

وعن خنساء بنت خدام : أن أباها زوجها وهي ثيب فأتت رسول الله ﷺ فرد نكاحها . أخرجه الجماعة إلا مسلماً(٣).

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « آمروا النساء فى بناتهن »(٤).

ولاشك أن هذا يدل علي روعة الهدى النبوى ، لأن الأمهات أقرب الناس إلى معرفة ميول بناتهن وعن ابن عباس : « إن جارته بكراً أتت رسول الله ﷺ فذكرت له أن أباها زوجها وهى كارهة فخيرها النبي » رواه أحمد(٥).

وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال جاءت فتاة إلي رسول الله ﷺ فقالت : إن أبي زوجني ابن أخيه ليرفع بى خسيسة قال : « فجعل الأمر إليها فقالت قد أجزت ما صنع أبي ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس إلى الآباء من الأمر شيء »(٦). رواه ابن ماجه

---

(١) أخرجه أبو داود حـ ٢ ص ٥٧٧ ، ٥٧٨ كتاب النكاح باب فى الثيب رقم ٢٠٩٩

(٢) أخرجه أبو داود حـ ٢ ص ٥٧٣ كتاب النكاح باب فى الاستئمار رقم ٢٠٩٢
أخرجه البخارى فى النكاح باب لا ينكح الأب وغيره البكر والثيب إلا برضاها . ومسلم فى النكاح رقم ١٤١٩ والترمذى فى النكاح رقم ١١٠٧ وابن ماجه فى النكاح رقم ١٨٧١

(٣) أخرجه أبو داود حـ ٢ ص ٥٧٩ كتاب النكاح باب فى الثيب رقم ٢١٠١

(٤) أخرجه أبو داود فى سننه حـ ٢ ص ٥٧٥ كتاب النكاح باب فى الاستئمار رقم ٢٠٩٥

(٥) أخرجه الامام أحمد فى مسنده حديث ٢٤٦٩ تحقيق الشيخ شاكر

(٦) أخرجه ابن ماجه كتاب النكاح . باب من زوج ابنته وهي كارهة رقم ١٨٧٤ .

استخارة الخطبة

يستحسن قبل الإقدام على الخطبة من كلا الطرفين أن يستخيرا ربهما فى شريك الحياة بعد جمع المعلومات الأولية عنه ، وذلك حتى يقيما بنياتهما على تقوى الله ، ويعلما أن للزواج قدسيته والتزامات وتبعات ، ما فرضت إلا ابتغاء مرضاة الله العظيم ورسوله المصطفى الحبيب ، الذى أرسله للناس بشريعة غرّاء تحميهم من الأهواء ونزعات الشيطان

وكيفية الاستخارة للمستخير كما يلى :

أن يصلى ركعتين من غير المكتوبة ثم يقول : **«بعد التشهد وقبل السلام»** « اللهم إنى استخيرك بعلمك ، واستقدرتك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم **أن كنت** تعلم أن هذا الأمر ـــ ويسميه ـــ خير لى فى دينى ودنياى ومعاشى وعاقبة أمرى وعاجله وآجله ، فاقدره لى وإن كنت تعلم أن هذا الأمر ـــ ويسميه ـــ شر لى فى دينى ودنياى ومعاشى وعاقبة أمرى وعاجله وآجله ، فاصرفه عنى واصرفنى عنه ، واقدر لى الخير حيث كان ثم رضنى به ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله » .

فإذا ما انشرح الصدر إلى الزواج ، فليقدما على بركة الله وسنة رسوله ، فالزواج ليس رحلة ترفيهية ، ولكنه سنة نبوية ، فيجب أن يحاط بما يليق به من قدسيته ، وأن يبتعد الرجل المؤمن عن التقاليع الغربية والتقاليد الشيطانية ، فنحن أمة مسلمة رضينا بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا ، والرضا هو السمع والطاعة لكل ما أمر به الله والرسول وجعله منهاج حياتنا ونور صدورنا وربيع قلوبنا ، وحده يفلح المؤمنون ، ويحققون ما يصبون إليه من سعادة ورفاهية .

﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون ﴾[1].

ماذا يقول من جاء يخطب إمرأة من أهلها ؟ يستحب أن يبدأ الخطبة بالحمد لله والثناء عليه ، والصلاة على رسول الله ﷺ ويقول :

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله جئتكم راغباً فى فتاتكم فلانة ، أو فى كريمتكم فلانة بنت فلانة . جاء فى سنن أبى داود وابن ماجه وغيرهما

عن أبى هريرة رضى الله عنه وعن رسول الله ﷺ قال : « كل كلام لا يبدأ فيه بالحمد فهو أجذم » وفى بعض الروايات (كل أمر) ومعنى أجذم أى قليل البركة[2].

---

(١) سورة المؤمنون الآيات ١ ، ٢ ، ٣ .

(٢) أخرجه أبو داود حـ ٥ ص ١٧٢ كتاب الأدب باب فى الهدى فى الكلام رقم ٤٨٤٠ وابن ماجة كتاب النكاح حـ ١ ض ٦١٠ رقم ١٨٩٤ .

وجاء فى سنن أبى داود والترمذى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « كل خطبة ليس فيها تشهد فهى كاليد الجذماء »[١] ولاشك أن ذكر الله فى كل أمر يشيع الطمأنينة فى القلوب ، ويسبغ الخير والبركة على ذلك الأمر ، أما ما نراه من بدع فى مجتمعنا ، فهى أبعد ما تكون عن الإسلام ، وهى السر وراء ما يعترى الأسر من مشكلات تزلزل أركانها وتهدد أرجاءها بالزوال ، فاحذروا أيها المسلمون من تصدع البنيان واخلصوا العمل فإن الناقد بصير ، واذكروا الله يذكركم ، وابتعدوا عن كل ما حذر منه الحبيب المصطفى ، فقد استعاذ من صوت يطلق عند فرحة وصوت يطلق عند مصيبة ، ونحن بلاشك نملك البديل الأسمى والفرح الأعظم ، وهو ذكر الله ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾[٢]

النظـر إلى المخطـوبة :

لما كان الزواج هو بناء وطيد الأركان ، لذا فقد عنى الإسلام بدراسة المعالم والأرجاء وخطر الخلوة والاختلاط فى فترة الخطوبة ، أى سمح بعرض المرأة للزواج ، ولكنه فى إطار إيمانى جميل يحميها من همزات الشياطين وألسنة المتقولين ، فعلى كل من الرجل والمرأة رؤية بعضهما للآخر قبل الإقدام على الاقتران ، فالحازم لا يدخل مدخلا حتى يعرف خيره من شره قبل الدخول فيه .

وهذا النظر ندب إليه الشرع ورغب فيه :

فعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر منها إلى ما يدعوه نكاحها فليفعل قال جابر : فخطبت امرأة من بنى سلمة فكنت أختبىء لها حتى رأيت منها بعض ما دعانى إليها »[٣] رواه أبو داود .

– وعن المغيرة بن شعبة : أنه خطب إمرأة فقال له رسول الله ﷺ « أنظرت إليها ؟ قال : لا ، قال : انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » أى أجدر أن يدوم الوفاق بينكما[٤]. رواه النسائى .

ولكن يجب على الرجل المؤمن ، أن يتقى الله ربه ، وليعرف أن هذا النظر ليس مطلقا ، ولكنه مقيد بتعاليم الإسلام ومبادئه الحكيمة ، فالشرع الحكيم لا يجيز للرجل أن ينظر من المرأة الأجنبية إلى غير الوجه والكفين أما ما عداهما فلم يجزه ، إذ لا تتعلق به ضرورة من ضرورات الآداب أو المعيشة ، فضلا عما فيه من الإثارة والفتن مما لا يرضاه الإسلام ، وهو يشيد بنيان أسرة على تقوى من الله .

---

(١) أخرجه أبو داود : حـ ٥ ص ١٧٣ كتاب الأدب باب فى الخطبة رقم ٤٨٤١ والترمذى فى النكاح . باب فى خطبة النكاح رقم ١١٠٦

(٢) سورة الرعد آية : ٢٨ .

(٣) أخرجه أبو داود فى سننه حـ ٢ ص ٥٦٥ ، ٥٦٦ كتاب النكاح باب كراهية أن يخطب الرجل على خطبة أخيه رقم ٢٠٨٢

(٤) أخرجه أحمد حـ ٢ ص ٢٤٦ .

فالنظرة إلى الوجه والكفين تكفى كما ذهب جمهور العلماء ، لأنه يستدل بالنظر إلى الوجه على الجمال أو الدمامة ، وإلى الكفين على خصوبة البدن أو عدمها .

وهى أشد ما تكون الحاجة إليهما فى الحياة الزوجية ، فتعرف بالوصف والاستيصاف والتحرى ممن خالطوها بالمعاشرة ، أو الحوار أو بواسطة بعض أفراد ممن هم موضع الثقة من الأقرباء كالأم والأخت ، وقد بعث النبى ﷺ أم سليم إلى امرأة فقال : « انظرى إلى عرقوبها وشمى معاطفها ، وفى رواية شمى عوارضها »[١] رواه أحمد . والمقصود بمعاطفها ناحيتا العنق ، والعوارض ! الأسنان فى عرض الفم وهى ما بين الأسنان والأضراس والمراد اختبار رائحة الفم

أما بالنسبة لنظر المرأة إلى الرجل ، فهذا الحق ثابت لها أيضاً ، لأنها شريكة له فى رحلة الحياة ، فلها أن تنظر إلى خاطبها ، فإنه يعجبها منه مثل ما يعجبه منها ، وقد تقدمت الأحاديث النبوية الشريفة التى تنهى عن إجبار المرأة على الزواج من رجل لا توافق عليه ، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الله ، والله أمر بطاعتها لزوجها ، ولن تطيع المرأة رجلاً لا تشعر نحوه بالقبول أو تكون مرغمة عليه .

قال عمر : لا تزوجوا بناتكم من الرجل الدميم فإنه يعجبهن منهم . مايعجبهم منهن .

ولذلك فرؤية كل من الرجل والمرأة للآخر ، قبل الإقدام على اجراءات الاقتران أمر ضرورى ، دعا إليه الشرع الإسلامى الحنيف ، إذ أن هذا النظر يكشف عما بينهما من خصائص روحية ، تارة تتفق ، وتارة تختلف ، وقد لا يكون للجمال فيها أى مدخل قال رسول الله ﷺ : « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف »[٢] رواه مسلم .

فالأرواح الطيبة تتوافق مع الأرواح الطيبة ، والأرواح الخبيثة تنسجم مع الأرواح الخبيثة ، فذلك عدل الله فى اختياره الذى ركبه فى الفطرة البشرية ، وحققه فى واقع الناس .

كما قال تعالى : **﴿ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات ﴾**[٣].

فإذا لم يكن هناك توافق وتكيف وانسجام روحى ونفسى فى الحياة ، فلا يكون ثمة معنى للحياة بوجه عام ، وهو يشيد البنيان ، فما كان ليقيم الدعائم على أساس من الاختلاف ، فهذا مآله إلى التفرقة والزوال ، ولكن الحكيم الخبير وضع لنا المنهاج القويم لنسير على هديه راشدين فنفوز بالسعادة فى الدارين .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد حـ ٣ ص ٢٣١ مسند أنس بن مالك

(٢) أخرجه مسلم : حـ ٤ ص ٢٠٣١ . كتاب البر والصلة باب الأرواح جنود مجندة رقم ٢٦٣٨/٥٩ .

(٣) سورة النور آية : ٢٦ .

حظـر الخلـوة بالمخطـوبة :

يحرم تحريماً تاماً الخلوة بالمخطوبة ، لأنها محرمة على الخاطب حتى يعقد عليها ، ولم يرد الشرع بغير النظر ، فبقيت على التحريم ، أما ما نراه حالياً من تهاون الناس فى هذا الشأن ، بحيث يسمحون لبناتهم أن يخالط الواحدة منهن خطيبها ، وتخلو معه دون رقابة ، بحجة أن يدرس كلا منهما سلوك الآخر قبل الزفاف ، فهذا مما تأباه الشريعة الإسلامية كلية ، لأنه لا يؤمن مع الخلوة مواقعة ما نهى الله عنه ، مما يؤدى إلى ضياع شرف المرأة ، وفساد عفافها ، وإهدار كرامتها ، وقد لا يتم الزواج ، فتكون قد أضافت إلى ذلك سوء سمعتها مما يؤدى إلى كساد سوق الزواج لها .

إن الأحاديث التى وردت على لسان الصادق المعصوم فى تحريم الخلوة ، تجل عن الحصر نذكر منها :

– عن جابر رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يخلون بامرأة ليس معها ذو محرم فإن ثالثهما الشيطان »[(١)]

وعن عامر بن ربيعة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يخلون رجل بامرأة لا تحل له فإن ثالثهما الشيطان إلا محرم » رواه أحمد[(٢)].

وعن معقل بن يسار رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ قال : « لأن يطعن فى رأس أحدكم بنميط من حديد خير له من أن يمس إمرأة لا تحل له »[(٣)] رواه الطبرانى .

وروى عن أبى أمامة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « إياك والخلوة بالنساء فو الذى نفسى بيده ماخلا رجل بامرأة إلا ودخل الشيطان بينهما ولأن يزحم رجل خنزيراً متلطخاً بطين أو حمأه خير له من أن يزحم منكبه منكب امرأة لا تحل له »[(٤)].

وفى هذا الحديث يطلب النبى ﷺ من المسلمين أن يتجنبوا الخلوة بالسيدات ، خشية إفساد الشيطان وإضلاله ورجاء العصمة ، والابتعاد عن الغواية ، والوقوع فى المكاره ، ثم يقسم ﷺ بالقاهر القادر الذى بيده تصاريف الأمور أن خلوة الرجل بالمرأة ، تجعل للشيطان ميدانا واسعاً ، يمرح فيه بالتحدث بالوقوع فى المعاصى ، ومقاربة الخنزير أسلم عاقبة من الجلوس بجوار المرأة ، والاحتكاك بها بلا نكاح شرعى ﴿ **ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون** ﴾[(٥)].

وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم والدخول على النساء .

---

(١) أخرجه الترغيب والترهيب حـ ١ ص ١٤٥ .
(٢) أخرجه الإمام أحمد حـ ١ ص ٢٦ ، ٢٢٢ .
(٣) أخرجه المتقى الهندى فى كنز العمال حـ ٥ ص ١٣٠٦٥
(٤) أخرجه المتقى الهندى فى كنز العمال حـ ٥ رقم ١٣٠٣٥
(٥) سورة النور آية : ٥٢ .

فقال رجل من الأنصار : أفرأيت الحمو ؟ قال : الحمو الموت » رواه البخارى ومسلم والترمذى [١].

وهذا الحديث يوضح كيف أن الهلاك يأتى من الاختلاط ، الذى يدعو إلى الطمأنينة ، حيث يؤتى الحذر من مكمنه والحمو أقارب زوج المرأة ، كعمه وأخيه وأبن أخيه وابن عمه ونحوهم ، ومعنى الحمو الموت : أى الخوف منه أكثر من غيره ، والشر يتوقع منه ، والفتنة أكثر من غيره ، والشر يتوقع منه ، والفتنة أكثر لتمكنه من الوصول إلى المرأة ، والخلوة من غير أن ينكر عليه ، وهذه عظة وعبرة للناس ، حتى يعلموا أن خلوة الخطيب بخطيبته تحفها المكاره والمخاطر ، لأنه أجنبى عنها حتى يعقد القرآن .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذى محرم »[٢] وهكذا فإن ما نراه فى مجتمعاتنا من خروج الخطيب مع خطيبته بدون محرم ، هو بدعة ، لا يقرها الشرع والدين ، ولو كان هذا الخروج له فائدة فى دراسة سلوك كل منهما الآخر ، فلماذا نرى هؤلاء الناس يدب الشجار بينهما بعد الزواج ، وكثير ما يؤدى إلى الطلاق رغم طول مدة الخطبة بما فيها من دراسة مستفيضة ؟!!

فإن كنتِ ياأخى المؤمن تريد أن تؤسس بنيانك على تقوى من الله ورضوان ، وليس على شفا حفرة من النار ، فاجعل بدايتك كما أمر شرع الله ، ولا تتبع أهواء الذين ضلوا عن منهج الله ، لأنهم يبنون بنيانهم بمعصية الله ورسوله ، فكيف ينتظرون بعد ذلك الخير والبركة والطمأنينة ، فاعتصم بالله أخى المؤمن وكن كما أراد الله لك : ﴿ **ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك** ﴾[٣].

حذار يا أخى أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ، فكيف إذا كانوا يفتنوك عن كل ما أنزل **الله إليك ، باتباع عادات وتقاليد ما أنزل الله بها من سلطان ، وما هى من الإيمان فى شىء فاعتصم بحبل الله المتين ، لأن التقوى هى السلاح الأقوى .**

العـدول عـن الخطبـة :

الخطبة مقدمة تسبق عقد الزواج ، وكثيرا ما يعقبها تقديم المهر كله أو بعضه ، وتقديم هدايا وهبات تقوية للصلات وتأكيدا للعلاقة الجديدة ، وقد يحدث أن يعدل الخاطب أو المخطوبة أو هما معا ، فهل يرد ما أعطى للمخطوبة ؟

---

(١) أخرجه البخارى كتاب النكاح ـــ باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم رقم ٢١٤٥
أخرجه مسلم ـــ كتاب السلام رقم ٢٠
أخرجه الترمذى كتاب الرضاع . باب ماجاء فى كراهية الدخول على المغيبات رقم ١١٧١ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد جـ ١ ص ١٨ .

(٣) سورة المائدة آية : ٤٩ .

إن الخطبة مجرد وعد بالزواج ، فليست عقداً ملزماً ، والعدول عن انجازه حق من الحقوق ، التى يملكها كل من المتواعدين ، ولم يجعل الشارع لإخلاف الوعد عقوبة مادية ، يجازى بمقتضاها المخلف وإن عدّ ذلك خلقا ذميما ، ووصفه بأنه من صفات المنافقين ، إلا إذا كانت هناك ضرورة ملزمه تقتضى عدم الوفاء ، ففى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد اخلف وإذا أؤتمن خان »(١)

ولما حضرت الوفاة عبد الله بن عمر قال : « انظروا فلاناً (الرجل من قريش) فإنى قلت له فى ابنتى قولا كشبه العدة وما أحب أن ألقى الله بثلث النفاق وأشهدكم أنى قد زوجته » . وما قدمه الخاطب من المهر فله الحق فى استرداده ، لأنه دفع فى مقابل الزواج وعوضا عنه ، ومادام الزواج لم يوجد ، فإن المهر لا يستحق شيء منه ، ويجب رده إلى صاحبه إذ أنه حق خالص له ، وأما الهدايا فحكمها حكم الهبة .

والصحيح أن الهبة لا يجوز الرجوع فيها ، إذا كانت تبرعا محضا لا لأجل العوض ، لأن الموهوب له حين قبض العين الموهوبة دخلت فى ملكه ، وجاز له التصرف فيها ، فرجوع الواهب فيها انتزاع لملكه منه بغير رضاه ، وهذا باطل شرعا وعقلا ، فإذا وهب ليتعوض من هبته ويثاب عليها فلم يفعل الموهوب له جاز له الرجوع فى هبته وللواهب هنا حق الرجوع فيما وهب ، لأن هبته على جهة المعاوضة ، فلما لم يتم الزواج ، كان له حق الرجوع فيما وهب .

والأصل فى ذلك

١ - ما رواه أصحاب السنن عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل لرجل أن يعطى عطية أو يهب هبة فيرجع فيها إلا الوالد فيما يعطى ولده »(٢).

٢ - وورد عنه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : « العائد فى هبته كالعائد فى قيئه »(٣)

٣ - وعن سالم عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من وهب هبته فهو أحق بها مالم يثب منها » أى يعوض عنها(٤).

وطريقة الجمع بين هذه الأحاديث هى ما ذكره ابن القيم فى كتابة (إعلام الموقعين) قال :

ويكون الواهب الذى لا يحل له الرجوع هو من وهب تبرعاً محضا لا لأجل العوض ، والواهب الذى له الرجوع هو من وهب ليتعوض من هبته ويثاب منها فلم يفعل الموهوب له وتستعمل سنن رسول الله ﷺ كلها ، ولا يضرب بعضها بعض .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه حـ ١ ص ٧٨ كتاب الإيمان . باب خصال المنافق رقم ٥٨/١٠٦ .

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه حـ ٣ ص ٨٠٨ كتاب البيوع والإجارات باب الرجوع فى الهبة رقم ٣٥٣٨ ، والترمذى فى الولاء والهبة رقم ٢١٣٣ والنسائى فى الهبة رقم ٣٧٢٠ وابن ماجة فى الهبات رقم ٢٣٧٧ .

(٣) أخرجه أبو داود حـ ٣ ص ٨٠٨ . كتاب البيوع باب الرجوع فى الهبة رقم ٣٥٣٨ .

(٤) أخرجه الدار قطنى فى سننه حـ ٣ ص ٤٣ ونصب الراية ٤ ص ١٢٥ ، ١٢٦ والإمام أحمد حـ ١ ص ٢٥٠ .

رأى الفقهـاء :

– بالنسبة للمذهب الحنفى : يرى أن ما أهداه الخاطب لمخطوبته له الحق فى استرداده إن كان قائماً على حالته لم يتغير ، فالأسورة أو الخاتم أو العقد أو الساعة ونحو ذلك يرد إلى الخاطب إذا كانت موجودة ، فإن لم يكن قائماً على حالته بأن فقد أو بيع ، أو تغير بالزيادة ، أو كان طعاماً فأكل أو قماشاً مخيط ثوباً ، فليس للخاطب الحق فى استرداد ما أهداه أو استرداد بدل منه .

وللمالكية فى ذلك تفصيل : من أن يكون العدول من جهته أو جهتها فإن كان العدول من جهته ، فلا رجوع له فيما أهداه وإن كان العدول من جهتها فله الرجوع بكل ما أهداه سواء أكان باقياً على حاله أو كان قد هلك ، فيرجع ببدله إلا إذا كان (عُرف) أو شرط فيجب العمل به .

– وعند الشافعية : ترد الهدية سواء أكانت قائمة ، أو هالكة ، فإن كانت قائمة ، ردت هى ذاتها وإلا ردت قيمتها .

وهكذا تبين لنا الخطوة الأولى من الخطوات التى تؤدى إلى بناء الأسرة وهى (الخطبة) وفيها من كرامة الإنسان ما فيها . قال تعالى :﴿ **وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها** ﴾[1]

وفى الخطبة إتيان البيوت من أبوابها ، وهذا هو صراط الله المستقيم ، الذى يدعو الناس إلى العمل فى ضوء الشمس دون خداع ، أو التواء ، أو سير فى الظلمات ، أو اتباع لخطوات الشيطان ، فعلى كل خاطب أن يتقى الله ويقدم الخير ، فتقوى الله خير الزاد ذخراً وعند الله للأتقياء سعادة الدنيا والآخرة .

﴿ **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون** ﴾[2].

عقـد الـزواج

إن عقد الزواج هو الركن الركين فى الخطوات العملية لبناء الأسرة ، حيث وضع الإسلام النظام الملائم ، الذى يجعل اتصال الرجل بالمرأة لتكوين الحياة الزوجية اتصالا كريما مبنياً على رضاهما وعلى ايجاب وقبول كمظهرين لهذا الرضا وعلى إشهاد على أن كلا منهما قد أصبح للآخر ، هذا النظام هو الذى ارتضاه الله لقيام الأسرة الإسلامية والحياة الزوجية السليمة ، لرعاية ما يثمر عن تلك العلاقة من أبناءهم زينة الحياة الدنيا ، وأزهارها ، التى تحتاج إلى الرعاية والعناية الفائقة ، لأنهم دعائم المجتمع

---

(١) سورة البقرة آية : ١٨٩ .

(٢) سورة النحل آية : ٩٧ .

المسلم وعدته فى المستقبل ، أما فيما عدا ذلك . من أنظمة لا تصال الرجل بالمرأة ، فقد هدمها الإسلام ، وبرىء منها الله ورسوله ، ولكى نعرف عظمة الشرع الحكيم فى بناء الأسرة على دعائم وطيدة الأركان ، فلابد من القاء نظرة على نظام النكاح فى الجاهلية ، والتى قضى عليها الاسلام ، واجتثها من جذورها ، لأنها تعد من النسل للضياع ، وتجعل المرأة كلأ مباحاً لكل راتع .

الأنكحة التى هدمها الإسلام :

فمن ذلك : نكاح الخدن : كانوا يقولون ما استتر فلا بأس به ، وما ظهر فهو لؤم ، وهو المذكور فى قول الله تعالى : ﴿ **ولا متخذات أخدان** ﴾[1] ومنها نكاح البدل : وهو أن يقول الرجل للرجل أنزل لى عن أمراتك وأنزل لك عن امراتى وأزيدك (رواه الدارقطنى عن أبى هريرة بسند ضعيف جدا)

وذكرت السيدة عائشة رضى الله عنها غير هذين النوعين فقالت : « كان النكاح فى الجاهلية على أربعة أنحاء :

١ – نكاح الناس اليوم : يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها .

٢ – نكاح الاستبضاع : كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه ويعتزلها زوجها حتى يتبين حملها ، فإذا تبين أصابها إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد .

٣ – ونكاح آخر : يجتمع الرهط « ما دون العشرة على المرأة ، فيدخلون كلهم يصيبها ، فإذا حملت ووضعت ومر عليها ليال ، أرسلت إليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع ، حتى يجتمعوا عندها فتقول لهم : قد عرفتم ماكان من أمركم ، وقد ولدت ، فهو ابنك يافلان تسمى من أحبت باسمه ، فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع الرجل منه .

٤ – ونكاح رابع : يجتمع ناس كثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن دخل عليها ، وهن البغايا ينصبن على أبوابهن رايات ، تكون علماً ، فمن أرادهن دخل عليهن ، فإذا حملت إحداهن ووضعت ، جمعوا لها ودعوا لهم القافة جمع قائف (وهو من يشبهن بين الناس) فيلحق الولد بالشبه ويدعى ابنه لا يمتنع من ذلك .

فلما بعث محمد ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كله الانكاح الناس اليوم ، وهذا النظام الذى أبقى عليه الإسلام لا يتحقق إلا بتحقق أركانه من الإيجاب والقبول ، وبشرط الإشهاد ، وبهذا يتم العقد ، الذى يفيد حل استمتاع كل من الزوجين بالآخر على الوجه الذى شرعه الله وبه تثبت الحقوق والواجبات التى تلزم كل منهما .

(١) سورة المائدة آية : ٥ .

حكـم الـزواج

(واجب ــ مستحب ــ محرم ــ مكروه)

الزواج الواجب : يجب الزواج على من قدر عليه وتاقت نفسه إليه وخشى العنت لأن صيانة النفس وإعفافها عن الحرام واجب ولا يتم ذلك إلا بالزواج .

قال القرطبي : المستطيع الذى يخاف الضرر على نفسه ، ودينه من العزوبة لا يرتفع عنه ذلك بالتزوج ، لا يختلف فى وجوب التزويج عليه ، فإن ثاقت نفسه إليه وعجز عن الانفاق على الزوجة ، فإنه يسعه قول الله تعالى : ﴿ **وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله** ﴾[١]. وليكثر من الصيام لما رواه الجماعة عن ابن مسعود رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء »[٢].

الزواج المستحب : أما من كان تائقاً له وقادرا عليه ولكنه يأمن على نفسه من اقتراف ما حرم الله عليه ، فإن الزواج يستحب له ويكون أولى من التخلى للعبادة ، فإن الرهبانية ليست من الإسلام فى شىء .

روى الطبراني عن سعيد بن أبى وقاص أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله أبدلنا بالرهبانية الحنيفية ، السمحة »[٣].

روى البيهقى من حديث أبى أمامة أن النبى ﷺ قال : « تزوجوا فإنى مكاثر بكم الأمم ولا تكونوا كرهبانية النصارى »[٤]

وقال عمر لأبى الزوائد : « إنما يمنعك من التزوج عجز أو فجور وقال ابن عباس : لا يتم نسك الناسك حتى يتزوج » .

ويحرم فى حق من يخل بالزوجة فى الوطء مع عدم قدرته عليه وتوقانه إليه

قال القرطبي : فمتى علم الزوج أنه يعجز عن نفقة زوجته أو صداقها ، أو شىء من حقوقها ، وكذلك لو كانت به علة تمنعه من الاستمتاع ، كان عليه أن يبين ، كيلا يغير المرأة من نفسه ، وكذلك لا يجوز أن يغترها بنسب يدعيه ، ولا مال ولا صناعة يذكرها وهو كاذب فيها .

---

(١) سورة النور آية : ٣٣ .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه حـ ٢ ص ١٠١٨ كتاب النكاح باب استحباب النكاح لمن تاقت له نفسه رقم ١٤٠٠/١ .

(٣) أخرجه المنذرى فى الترغيب والترهيب فى (كتاب النكاح) حـ ٢ ص ٥٢٨ وعزاه إلى البيهقى .

(٤) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى حـ ٧ ص ٧٨ .

وكذلك يجب على المرأة إذا علمت من نفسها العجز عن قيامها بحقوق الزوج ، أو كان بها علة تمنع الاستمتاع من جنون أو جذام أو برص أو داء فى الفرج ، لم يجز لها أن تغرّه وعليها أن تبين ما بها فى ذلك ، كما يجب على بائع السلعة أن يبين ما بسلعته من العيوب ، ومتى وجد أحد الزوجين بصاحبه عيباً فله الرد ، فإن كان العيب بالمرأة ردها الزوج وأخذ ما كان أعطاها من الصداق .

الزواج المكروه :

ويكره فى حق من يخل بالزوجة فى الوطء والإنفاق ، حيث لا يقع ضرر بالمرأة ، بأن كانت غنية وليس لها رغبة قوية فى الوطء ، فإن انقطع بذلك عن شىء من الطاعات أو الاشتغال بالعلم اشتدت الكراهة .

النهى عن التبتل للقادر على الزواج

عن ابن عباس : أن رجلاً شكا إلى رسول الله ﷺ العزوبة فقال : « ألا أختصى فقال ليس منا من خصى أو اختصى » رواه الطبرانى(١).

وقال سعد بن أبى وقاص : رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون المتبتل ولو أذن له لا ختصينا . رواه البخارى . أى لو أذن بالتبتل لبالغنا فى التبتل ، حتى يفضى بنا الأمر إلى الاختصاء .

قال الطبرى : التبتل الذى أراده عثمان بن مظعون ، تحريم النساء والطيب وكل ما يتلذذ ، فلهذا أنزل فى حق ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** ﴾ .

تقديم الزواج على الحج :

وان احتاج الإنسان إلى الزواج أو خشى العنت بتركه ، قدمه على الحج الواجب ، وإن لم يخف قدم الحج عليه ، وكذلك فروض الكفاية كالعلم والجهاد تقدم على الزواج ، إذا لم يخشى العنت .

الإعراض عن الزواج وسببه :

تبين مما تقدم أن الزواج ضرورة لا غنى عنها ، وأنه لا يمنع منه إلا العجز أو الفجور ، كما قال أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، وأن الرهبانية ليست من الإسلام فى شىء ، وأن الإعراض عن الزواج يفوّت على الإنسان كثيراً من المنافع والمزايا .

---

(١) أخرجه البخارى حـ ٧ ص ٥ كتاب النكاح باب ما يكره من التبتل والخصاء

وكان هذا كافيا فى دفع الجماعة المسلمة على تهيئة أسبابه ، وتيسير وسائله ، حتى ينعم به الرجال والنساء على السواء ، ولكن على العكس من ذلك ، خرجت كثير من الأسر عن سماحة الإسلام وسمو تعاليمه ، فعقدوا الزواج ، ووضعوا العقبات فى طريقه ، وخلقوا بذلك التعقيد أزمة ، تعرّض بسببها الرجال والنساء لآلام العزوبة وما يتبعه من الاستجابة إلى العلاقات الطائشة والصلات الخليعة

وظاهرة أزمة الزواج لا تبدو فى مجتمع القرية ، كما تبدوا فى مجتمع المدنية. إذ أن القرية لا تزال الحياة فيها بعيدة عن الإسراف وأسباب التعقيد إذا استثنينا بعض الأسر الغنية ــ بينما تبدو الحياة فى المدنية معقدة كل التعقيد .

ومعظم أسباب هذه الأزمة ترجع إلى التغالى فى المهور وكثرة النفقات ، التى ترهق الزوج ويعيا بها .

هذه من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن تبذّل المرأة وخروجها بهذه الصورة المثيرة ألقى الريبة والشك فى مسلكها وجعل الرجل حذرا من اختيار شريكة حياته ، بل إن بعض الناس عزف عن الزواج ، إذ لم يجد المرأة التى تصلح فى نظره للقيام بأعباء الحياة الزوجية ، لذا لابد من العودة إلى تعاليم الإسلام الرشيدة فيما يتصل بتربية المرأة وتنشئتها على الفضيلة والعفاف والاحتشام ، وترك التغالى فى المهر ، وتكاليف الزواج حرصاً على إقامة الأسرة على دعائم متينة من تقوى الله ورسوله ، وحتى لا تكون فتنة فى الأرض وفساد كبير .

أركان العقد وشروطه

ولعقد الزواج أركان وشروط تحدثت عنها كتب الفقه ونبينها فيما يلى :

أما أركان العقد فهى : « الايجاب والقبول »

فالايجاب : هو ما صدر أولاً من أحد المتعاقدين للتعبير عن إرادته فى إنشاء الصلة الزوجية .

والقبول : هو ماصدر ثانياً من المتعاقد الآخذ من العبارات الدالة على الرضا والموافقة .

أما ما ذكره الفقهاء من شروط العقد فهى :

١ – تمييز المتعاقدين :

فإن كان أحدهما مجنوناً أو صغيراً لا يميز ، فإن الزواج لا ينعقد .

٢ – اتحاد مجلس الإيجاب والقبول :

بمعنى ألا يفصل الإيجاب والقبول بكلام أجنبى ، أو بما يعد فى العرف إعراضا وتشاغلاً عنه بغيره .

٣ – ألا يخالف القبول بكلام أجنبى : أو بما يعد فى العرف إعراضاً وتشاغلاً عنه بغيره .

٤ – ألا يخالف القبول الإيجاب :

إلا إذا كانت المخالفة إلى ماهو أحسن للموجب ، فإنها تكون أبلغ فى الموافقة ، فإذا قال للواجب : زوجتك ابنتى فلانة على مهر قدره مائة جنيه ، فقال القابل : قبلت زواجها على مائتين انعقد الزواج ، لاشتمال القبول على ماهو أصلح .

٥ – سماع كل من المتعاقدين بعضهما من بعض ما يفهم أن المقصود من الكلام ، هو إنشاء عقد الزواج ، وإن لم يفهم من كل منهما معانى مفردات العبارة ، لأن العبرة بالمقاصد والنيات .

ألفـاظ الإنعقـاد :

اتفق العلماء على انعقاد الزواج بكل لفظ يفيد معنى النكاح مثل زوجتك أو نكحتك .

أما القبول فإنه ينعقد بكل لفظ يفيد الرضا والموافقة مثل : قبلت ــ وافقت ــ أمضيت ــ نفذت .

واختلف العلماء إذا استعمل فى الإيجاب لفظ غير الفاظ الزواج ، مثل الهبة أو البيع أو التمليك أو الصدقة فاجازه الأحناف والثورى وأبو ثور وأبو عبيد وأبو داود ، لأنه عقد يعتبر فيه النية ، ولا يشترط فى صحته اعتبار لفظ الخصوص ، بل المعتبر فيه أى لفظ اتفق إذا فهم المعنى الشرعى مشاركة ، لأن النبى ﷺ زوج رجلاً امرأة فقال : « قد ملكتها بما معك من القرآن » رواه البخارى [١].

ولأن لفظ الهبة انعقد به زواج النبى ﷺ فكذلك ينعقد به زواج أمته ، قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن** ﴾ إلى قوله ﴿ **وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى** ﴾[٢].

وذهب الشافعى وأحمد وسعيد بن المسيب وعطاء ، إلى أنه لا يصح إلا بلفظ التزويج أو الانكاح وما اشتق منهما ، لأن ما سواهما من الألفاظ كالتمليك والهبة لا يأتى على معنى الزواج .

واتفق العلماء على جواز العقد بغير اللغة العربية وذلك إذا كان العاقدان أو أحداهما لا يفهم العربية .

أما إذا كانا يفهمان منها ، فقد اختلف العلماء فى جواز العقد بغير العربية ، فأجازه البعض ولم يجزه البعض الآخر .

ويجوز زواج الأخرس بإشارته إن فهمت ، كما يصح بيعه لأن الإشارة معنى مفهم ، وان لم

---

(١) أخرجه البخارى كتاب النكاح ــ باب تزويج المعسر رقم ١١٥٠ .

(٢) سورة الأحزاب آية : ٥٠ .

تفهم إشارته لا يصح منه ، لأن العقد بين شخصين ، ولابد من فهم كل واحد منهما ما يصدر من صاحبه .

وإذا غاب أحد طرفى العقد ، وأراد أن يعقد الزواج ، فعليه أن يرسل رسولاً ، أو يكتب كتاباً إلى الطرف الآخر ، يطلب الزواج إذا كان له رغبة فى القبول ، أن يحضر الشهود ويسمعهم عبارة الكتاب أو رسالة الرسول ، ويشهدهم فى المجلس على أنه قبل الزواج ، ويعتبر القبول مقيداً بالمجلس .

شـروط صيغـة العقـد :

اشترط الفقهاء لصياغة العقد شروطاً منها :

أن تكون بلفظين وضعا للماضى ، أو وضع أحدهما للماضي والآخر للمستقبل مثل : أن يقول العاقد الأول : زوجتك ابنتى ويقول القابل : قبلت أو يقول : أزوجك ابنتى فيقول : قبلت .

وذلك لأن الصيغة التى إختارها الشارع الحكيم لإنشاء العقود ، هى صيغة الماضى ، لأن دلالتها على حصول الرضا من الطرفين قطعية ، ولا تحتمل أى معني آخر ، بخلاف الصيغ الدالة على الحال أو الاستقبال ، فإنها لا تدل قطعاً علي حصول الرضا وقت التكلم .

فلو قال أحدهما : أزو جك ابنتي ؟ وقال الآخر : أقبل فإن الصيغة منهما لا ينعقد بها الزواج : لاحتمال أن يكون المراد من هذه الألفاظ مجرد الوعد . بالزواج مستقبلاً ليس عقداً له فى الحال .

ومن شروط صيغة الزواج أن تكون منجزة ، أى مطلقة غير مقيدة بقيد ، وذلك مثل أن يقول الرجل للخاطب : زوجتك ابنتي ، فيقول الخاطب : قبلت ، فهذه صيغة منجزة ، فإن كانت الصيغة مقيدة بشرط غير محقق فى الحال قبل أن يقول الخاطب : إن التحقت بالوظيفة تزوجت ابنتك . فيقول الأب : قبلت فإن الزواج بهذه الصيغة لا ينعقد .

كذلك لا ينعقد الزواج بالصيغة الدالة على زمن محدد ، كأن يتزوج مدة شهر ، أو أكثر أو أقل فإن الزواج لا يحل لأن المقصود منه دوام المعاشرة للتوالد والمحافظة على النسل وتربية الأولاد .

ومن ثم فإنه لا يجوز الزواج المؤقت للتحليل ، أو زواج المتعة .

وهناك شروط أخرى قد تقترن بها صيغة العقد ، وللفقهاء فيها أحكام نبينها فيما يلى :

قد يكون هذا الشرط من مقتضيات العقد ، أو يكون منافياً ، أو يكون مما يعود نفعه على المرأة ، أو يكون شرطاً قد نهى الشارع عنه .

ولكل حالة من هذه الحالات حكم خاص بها :

١ - الشروط التى يجب الوفاء بها :

من الشروط ما يجب الوفاء بها ، وهى ما كانت من مقتضيات العقد ومقاصده ، ولم تتضمن تغييرا لحكم الله ورسوله ، كاشتراط العشرة بالمعروف ، والإنفاق عليها وكسوتها وسكناها بالمعروف ، وأن لا يقصرّ من شيء من حقوقها ، ويقسم لها كغيرها ، وأنها لا تخرج من بيته إلا بإذنه ، **ولا تنشز عليه** ، ولا تصوم تطوعاً بغير إذنه ، ولا تأذن فى بيته إلا بإذنه ، ولا تتصرف فى متاعه إلا برضاه ونحو ذلك .

٢ - الشروط التى لا يجب الوفاء بها :

ومنها ما لا يجب الوفاء بها مع صحة العقد ، وهو ما كان منافياً لمقتضى العقد ، كاشتراط ترك الإنفاق والوطء ، أو كاشتراط أن لا مهر لها أو يعزل عنها ، أو اشتراط أن تنفق عليه ، أو تعطيه شيئاً ، أو لا يكون عندها فى الأسبوع إلا ليلة ، أو شرط لها النهار دون الليل .

فهذه الشروط كلها باطلة فى نفسها ، لأنها تنافى العقد ، ولأنها تتضمن إسقاط حقوق تجب بالعقد قبل إنعقاده ، فلم يصح أما العقد فى نفسه ، فهو صحيح .

٣ - الشروط التى فيها نفع للمرأة :

ومن الشروط التى ما يعود نفعه وفائدته إلى المرأة ، مثل أن يشترط لها ألا يخرجها من دارها أو بلدها ، أو لا يسافر بها أو لا يتزوج عليها ونحو ذلك .

فمن العلماء من رأى أن الزواج صحيح ، وأن هذه الشروط ملغاه ولا يلزم الزوج الوفاء بها .

ومنهم من ذهب إلى وجوب الوفاء بما اشترط للمرأة والأول مذهب أبى حنيفة والشافعى وكثير من العلماء ، واستدلوا بما يأتى :

أن رسول الله ﷺ قال : « على شروطهم إلا شرطاً أحلّ حراماً أو حرّم حلالا »[(١)]

وقوله ﷺ : « كل شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط »[(٢)].

قالوا : وهذا ليس فى كتاب الله ، لأن الشرع لا يقتضيه .

والرأى الثانى : مذهب عمر بن الخطاب ، وسعد بن أبى وقاص ، ومعاوية ، وعمرو بن العاص ، وعمر بن عبد العزيز ، وجابر بن زيد ، وطاووس ، والأوزاعى ، واسحاق ، والحنابلة .

(١) أخرجه المتقى الهندى فى كنز العمال حـ ٤ رقم ١٠٩٤٨

(٢) أخرجه البخارى حـ ٢ ص ١١٩ كتاب الشروط باب الشروط فى الولاء وباب المكاتب وما لايحل من الشروط .

واستدلوا بما يأتى : يقول الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** ﴾[(١)].

وقول الرسول ﷺ : « المسلمون على شروطهم »[(٢)] وما رواه البخارى ومسلم وغيرهما عن عتبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال : « أحق الشروط أن يوفى به ما استحللتم به الفروج »[(٣)].

ومن الشروط ما نهى الشارع عنها ، ويحرم الوفاء بها : وهى اشتراط المرأة عند الزواج طلاق ضرتها .

عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل أن تنكح امرأة بطلاق أخرى » رواه أحمد[(٤)].

فهذا النهى يقتضى فسادا لمنهى عنه ، ولأنها شرطت عليه فسخ عقده وإبطال حقه وحق إمرأته ، فلم يصح ، كما لو شرطت عليه فسخ بيعه . فإن قيل فما الفارق بين هذا وبين اشتراطها أن لا يتزوج عليها . أجاب ابن القيم رحمه الله عن هذا فقال : الفرق بينهما أن فى اشتراط طلاق الزوجة من الإضرار بها وكسر قلبها ، وخراب بيتها ، وشماتة أعدائها ، فليس فى اشتراط عدم نكاحها ونكاح غيرها وقد فرق النص بينهما . فقياس أحدهما على الآخر فاسد .

شــروط صحــة الــزواج

يشترط لصحة الزواج شرطان :

أحدهما : ألا تكون المرأة التى يراد زواجها محرمة عليه .

وثانيهما : الإشهاد .

وهناك تفصيل لكل منهما :

المحرمـات من النســاء

يشترط فى المرأة التى يراد زواجها ألا تكون محرمة على من يريد زواجها ، سواء أكان هذا التحريم مؤبداً أم مؤقتاً .

---

(١) سورة المائدة آية : ١ .

(٢) أخرجه المتقى الهندى فى كنز العمال حـ ٢ رقم ١٠٩١٧ .

(٣) أخرجه البخارى كتاب الشروط باب الشروط فى المهر عند عقدة النكاح رقم ١٣١١
ومسلم ـــ كتاب النكاح حديث رقم ٦٣ .
ترمذى ـــ حـ ٣ ص ٤٣٤ كتاب النكاح باب ماجاء فى الشرط عند عقدة النكاح رقم ١١٢٧

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده حـ ٢ ص ١٧٦ .

فما هو التحريم المؤبد :

هو الذى يمنع المرأة أن تكون زوجة فى جميع الأوقات ، وماهو التحريم المؤقت ؟

هو الذى يمنع المرأة أن تكون زوجة بسبب حالة خاصة قائمة بها ، فإن زالت تلك الحالة زالت تلك الحرمة وصارت حلالا :

فما هى أسباب التحريم المؤبد :

أسباب ثلاثة هى :

١ - النسب ٢ - المصاهرة ٣ - الرضاع

وقد ورد ذكر الأنواع الثلاثة فى قوله تعالى : ﴿ **ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا * حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف** ﴾[1].

المحرمات من النسب هن :

١ - الأمهات ٢ - البنات ٣ - الأخوات ٤ - العمات

٥ - الخالات ٦ - بنات الأخ ٧ - بنات الأخت .

المحرمات بسبب المصاهرة هن :

١ - أم زوجته وأم أمها ، وأم أبيها ، وإن علت لقول الله تعالى : ﴿ **وأمهات نسائكم** ﴾ .

ولا يشترط فى تحريمها الدخول بها ، بل مجرد العقد عليها يحرمها .

٢ - وابنة زوجته التى دخل لها .

ويدخل فى ذلك بنات بناتها ، وبنات أبنائها وإن نزلن لأمهن من بناتها ، لقول الله تعالى : ﴿ **وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم** ﴾ .

والربائب : جمع ربيبة ، وربيب الرجل ولد إمرأته من غيره ، سمى ربيباً له ، لأنه يربيه كما يربى ولده (أى يوسه)

---

(١) سورة النساء الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ .

٣ - زوجة الابن ، وابن ابنه ، وابن بنته ، وإن نزل ، لقول الله تعالى : ﴿ **وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم** ﴾ .
الحلائل : جمع حليلة . وهى الزوجة .

٤ - زوجة الأب : يحرم على الابن التزوج بحليلة أبيه بمجرد عقد الأب عليها ولم يدخل بها ، وكان هذا النوع من الزواج فاشيا فى الجاهلية ، وكانوا يسمونه زواج المقت ، وسمى الولد منها مقيتا أو مقتيا ، وقد نهى الله عنه وذمه ونفر منه .

المحـرمات بسـبب الرضــاع :

حرم الشرع الحكيم بسبب الرضاع كل **مايحرم بسبب النسب وبيانه كما يلى :**

والذى يحرم من النسب هو : الأم ، والبنت ، والأخت ، والعمة ، والخالة ، وبنات الأخ ، وبنات الأخت ، وهى التى بينها الله تعالى فى قوله : ﴿ **حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة** ﴾ وعلى هذا فتنزل المرضعة منزلة الأم ، وتحرم على المرضع هى وكل من يحرم على الابن من قبل أم النسب .

فتحــرم :

١ - المرأة المرضعة لأنها بإرضاعها تعد أما للرضيع .
٢ - وأم المرضعة لأنها جدة له .
٣ - أم زوج المرضعة ـــ صاحب اللبن ـــ لأنها جدة كذلك .
٤ - أخت الأم لأنها خالة الرضيع .
٥ - أخت زوجها ـــ صاحب اللبن ـــ لأنها عمته .
٦ - بنات بنيها وبناتها لأنهن بنات أخوته وأخواته .
٧ - الأخت سواء أكانت أختاً لأب وأم ، وأختاً لأم ، أو أختاً لأب .

بمــا تثبــت الحــرمة بالرضــاع :

فيما مضى تبين لنا أنه يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب فهل كل رضاع يكون سبباً فى الحرمة ؟

إن للفقهاء فى ذلك أقوالاً وأدلة يحسن بنا أن نفصلها وإليك بيانها :

١ - القول الأول : إن قليل الرضاع وكثيره سواء فى التحريم ، أخذاً بإطلاق الأرضاع فى الآية

ولما رواه البخارى ومسلم عن عقبة بن الحارث قال : تزوجت أم يحيى بنت أبى إهاب فجاءت أمة سوداء فقالت : (قد أرضعتكما) . فأتيت النبى ﷺ ـــ فذكرت له ذلك فقال : وكيف ؟ وقد قيل ؟! دعها عنك[١].

فترك الرسول ﷺ السؤال عن عدد الرضعات وأمره بتركها ، دليل على أنه لا اعتبار إلا بالارضاع ، فحيث وجد اسمه وجد حكمه ، لأنه فعل يتعلق به التحريم ، فيستوى قليله وكثيره كالوطء الموجب له ، ولأن انشاز العظم وإنبات اللحم يحصل بقليله وكثيره .

وهذا مذهب على وابن عباس وسعيد بن المسيب والحسن البصرى والزهرى وقتادة وحماد والأوزاعى والثورى وأبى حنيفة ومالك ورواية عن أحمد :

٢ – **القول الثانى** : إن التحريم لا يثبت بأقل من خمس رضعات متفرقات لما رواه مسلم وأبو داود والنسائى عن عائشة رضى الله عنها قالت « كان فيما نزل من القرآن ﴿ **عشر رضعات معلومات يحرمن** ﴾ ثم نسخن بخمس معلومات ، فتوفى رسول الله ﷺ ، وهن فيما يقرأ من القرآن[٢]»وهذا تقييد لإطلاق الكتاب والسنة وتقييد المطلق بيان لا نسخ ولا تخصيص .

ولو لم يعترض على هذا الرأى بأن القرآن لا يثبت إلا متواتراً وإنه لو كان كما قالت عائشة ، لما خفى على المخالفين ، ولاسيما الإمام على وابن عباس يقول : لو لم يوجه إلى هذا الرأى هذه الاعتراضات لكان أقوى الأراء ، ولهذا عدل الإمام البخارى عن هذه الرواية . وهذا مذهب عبد الله بن مسعود وإحدى الروايات عن عائشة وعبد الله بن مسعود وإحدى الروايات عن عائشة وعبد الله بن الزبير وعطاء وطاووس والشافعى وأحمد فى ظاهر مذهبه وابن حزم وأكثر أهل الحديث .

القول الثالث : إن التحريم يثبت بثلاث رضعات فأكثر . لأن النبى ﷺ قال : « لا تحرم المصة ولا المصتان » . وهذا صريح فى نفى التحريم بما دون الثلاث ، فيكون التحريم منحصراً فيما زاد عليهما .

والمرضعة التى ينبت بلبنها التحريم ، هى كل إمرأة ذرَّ اللبن من ثديها ، سواء أكانت بالغة أم غير بالغة ، وسواء أكانت يائسة من المحيض أم غير يائسة ، وسواء أكان لها زوج أم لم يكن ، وسواء أكانت حاملاً أم غير حامل .

مسـألة لابـد من مراعاتهـا :

فى حديث عن النبى ﷺ قال : « إنما الرضاعة من المجاعة »[٣]. ذلك لأن اللبن إنما ينبت اللحم وينشر العظم فى تلك المدرة التى حددها الله تبارك وتعالى فى قوله : ﴿ **والوالدات يرضعن أولادهن**

---

(١) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى فى (كتاب الرضاع) باب شهادة النساء فى الرضاع حـ ٧ ص ٤٦٣٧ وانظره فى البخارى .
(٢) أخرجه مسلم حـ ٢ ص ١٠٧٥ كتاب الرضاع باب التحريم بخمس رضعات رقم ١٤٥٢/٢٤ .
(٣) أخرجه مسلم حـ ٢ ص ١٠٧٨ كتاب الرضاعة باب وإنما الرضاعة من المجاعة رقم ١٤٥٥/٣٢ .

حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾[١] فإذا ما أنبت اللبن اللحم ، وانشر العظم ، ولا يكون ذلك إلا فى الحولين ، فقد صار الرضيع جزءاً ممن رضع معه أو اشترك فى تلك المرضع ، ولعن الله ناكح جزئه وفى تلك المسألة أعنى بها سن الرضاعة أحكام للفقهاء نذكرها فيما يلى :

قال ﷺ : « لا رضاع إلا فى الحولين »[٢] وروى مرفوعا إلى النبى ﷺ « لا رضاع إلا ما أنشز العظم وأنبت اللحم »[٣].

وإنما يكون ذلك لمن هو فى سن الحولين ينمو باللبن عظمه وينبت عليه لحمه .

وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق **الأمعاء وكان قبل الفطام**»[٤] . ولو فطم الرضيع قبل الحولين واستغنى بالغذاء عن اللبن ، ثم أرضعته إمرأة ، فإن ذلك الرضاع ثبت به الحرمة عند أبى حنيفة والشافعى ، لقول الرسول ﷺ « إنما الرضاعة من المجاعة » .

وقال مالك : ما كان من الرضاعة بعد الحولين كان قليله وكثيره لا يحرم شيئاً إنما هو بمنزلة الماء . وقال : إذا فصل الصبى قبل الحولين أو استغنى بالفطام عن الرضاع فما ارتضع بعد ذلك لم يكن للإرضاع حرمة .

المحـرمات مؤقتـاً

الجمع بين المحرمين : يحرم الجمع بين الأختين ، وبين المرأة وعمتها ، وبين المرأة وخالتها ، كما يحرم الجمع بين كل إمرأتين بينهما قرابة لو كانت احداهما رجلا لم يجز له التزوج بالأخرى .

ودليل ذلك : قوله تعالى : ﴿ **وان تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف** ﴾ ما ورد البخارى ومسلم عن أبى هريرة : أن النبى ﷺ نهى أن يجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها[٥].

ما رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذى وحسنه عن فيروز الديلمى أنه أدركه الإسلام وتحته أختان فقال له رسول الله ﷺ « طلق أيتهما شئت »[٦].

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٣٣ .

(٢) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى فى (كتاب الرضاع) باب ماجاء فى تحديد ذلك بالحولين حـ ٧ ص ٤٦٢

(٣) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى فى كتاب الرضاع) حـ ٧ ص ٤٦١ باب : رضاع الكبير .

(٤) أخرجه : الترمذى حـ ٣ ص ٤٥٨ رقم ١١٥٢ كتاب الرضاع باب ماجاء فى شهادة المرأة الواحدة فى الرضاع

(٥) أخرجه : الترمذى حـ ٣ ص ٤٣٢ كتاب النكاح باب ٣٠ رقم ١١٢٥

(٦) أخرجه الترمذى حـ ٣ ص ٤٣٦ كتاب النكاح باب ماجاء فى الرجل يسلم وعنده أختان رقم١١٢٩ ، ١١٣٠
أخرجه أبو داود ــ كتاب الطلاق ــ باب من أسلم وعنده نساء أكثر من أربع أو أختان رقم ٢٢٤٣
أخرجه ابن ماجة ــ كتاب النكاح ــ باب الرجل يسلم وعنده أختان رقم ١٩٥٠

وعن ابن عباس قال : نهى رسول الله ﷺ أن يتزوج الرجل المرأة على العمة أو على الخالة وقال : « إنكم إذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم »(١).

فإن الجمع بينهما يولد التحاسد ، ويجر إلى البغضاء ، لأن الضرتين قلما تسكن عواصف الغيرة بينهما .

وهذا الجمع بين المحارم كما هو ممنوع من الزواج ، فهو ممنوع فى العدة ، فقد أجمع العلماء على أن الرجل إذا طلق زوجته طلاقا رجعيا ، فلا يجوز له أن يتزوج اختها ، أو أربعا سواها ، حتى تنقضى عدتها ، لأن الزواج قائم وله حق الرجعة فى أى وقت .

زوجـة الغـير ومعتـدته

كذلك يحرم على المسلم الزواج بزوجة الغير والمعتدة من غيره ، وكذلك المطلقة ثلاثا لا تحل لمن طلقها ، حتى تنكح زوجاً غيره نكاحا صحيحاً ، لقوله تعالى : ﴿ **الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح بإحسان** ﴾(٢) ثم قال تعالى بعد ذلك ﴿ **فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون** ﴾(٣).

كذلك يحرم على المحرم أن يعقد النكاح ، لنفسه أو لغيره ، بولاية أو وكالة ،ويقع العقد باطلا لا تترتب عليه آثاره الشرعية . لقوله ﷺ : « لا ينكح المحرم ولا ينكح ولا يخطب »(٤) رواه الترمذى .

وقال الأحناف بجواز عقد النكاح للمحرم لأن الإحرام لا يمنع صلاحيه المرأة للعقد عليها وإنما يمنع الجماع لا صحة العقد .

حكم الإشهاد على الزواج

بعد ما تبين لنا المحرمات من النساء ، وذكرنا أن ذلك شرط من شروط صحة العقد ، نذكر هنا الشرط الثانى ، وهو الإشهاد على الزواج .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد حـ ٢ ص ١٧٨ ، ١٨٩ ، ٢٠٧ .

(٢) البقرة آية ٢٢٩ .

(٣) البقرة آية ٢٣٠ .

(٤) أخرجه الترمذى كتاب الحج ـــ باب ماجاء فى كراهية تزويج المحرم رقم ٨٤٠
أخرجه مسلم كتاب الحج رقم ٤١ – ٤٥
أخرجه أبو داود كتاب المناسك ـــ باب المحرم يتزوج رقم ١٨٤١ ، ١٨٤٢ .

ذهب جمهور العلماء إلى أن الزواج لا ينعقد إلا بنية ، ولا ينعقد حتى يكون الشهود حضور حالة العقد ، ولو حصل إعلان عنه بوسيلة أخرى .

عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « البغايا اللاتى ينكحن أنفسهن بغير بينه »(١) رواه الترمذى .

وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « لا نكاح إلا بولى وشاهدى عدل »(٢).

وهذا النفى يتوجه إلى الصحة ، وذلك يستلزم أن يكون الإشهاد شرطاً ، لأنه قد استلزم عدمه عدم الصحة وما كان كذلك فهو شرط .

ثالثاً : وعن إبى الزبير المكى ، أن عمر بن الخطاب أتى بنكاح لم يشهد عليه إلارجل وإمرأة فقال : « هذا نكاح السر ولا أجيزه ولو كنت تقدمت فيه لرجمت » .

والأحاديث وإن كانت ضعيفة إلا أنه تقوى بعضها بعضاً .

قال الترمذى : والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبى ﷺ ، ومن بعدهم من التابعين وغيرهم ، قالوا : « ولا نكاح إلا بشهود » لم يختلف فى ذلك من معنى منهم إلا قوم من المتأخرين من أهل العلم . ولأنه يتعلق به حق غير المتعاقدين ، وهو الولد ، فاشترطت ويشترط فى الشهود : العقل والبلوغ وسماع كلام المتعاقدين مع فهم أن المقصود به عقد الزواج ، فلو شهد على العقد صبى أو مجنون أو أصم أو سكران لم يجز واشترط الشافعي فى الشهود العدالة ، لقوله ﷺ : « لا نكاح إلا بولى وشاهدى عدل »(٣)

وعند الشافعية أنه إذا عقد الزواج بشهادة مجهول الحال ، ففيه وجهان ، والمذهب أنه يصح لأن الزواج يكون فى القرى والبادية ، وبين عامة الناس ممن لا يعرف حقيقة العدالة ، فاعتبار ذلك يشق ، فاكتفى بظاهر الحال ، وكون الشاهد مستوراً لم يظهر فسقه ، فإذا تبين بعد العقد أنه كان فاسقاً ، لم يؤثر ذلك العقد ، لأن الشرط فى العدالة من حيث الظاهر ألا يكون ظاهر الفسق وقد تحقق ذلك .

والشافعية والجنابلة يشترطون فى الشهود الذكورة ، فإن عقد الزواج بشهادة رجل وامرأتين ، لا يصح ، لما رواه أبو عبيد عن الزهرى أنه قال : « قضت السنة عن رسول الله ﷺ : « أن لا يجوز شهادة النساء فى الحدود ولا فى النكاح ولا فى الطلاق » .

والأحناف لا يشترطون هذا الشرط ، ويرون أن شهادة رجل وإمرأتين كافية ، لقوله تعالى : ﴿ **واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من**

(١) أخرجه أبو داود فى سننه حـ ٣ ص ٤١١ رقم ١١٠٣ كتاب النكاح باب ماجاء لانكاح ببينة
(٢) أخرجه أحمد ، حـ ٤ ص ٣٩٤ ص ٤١٣ ، حـ ١ ص ٢٥٠ .
(٣) أخرجه أحمد حـ ٤ ص ٣٩٤ ، ٤١٣ ، حـ ١ ص ٢٥٠ .

الشهداء ﴾ (١) ولأنه مثل البيع فى أنه عقد معاوضة ، فينعقد لشاهدين من الرجال ، ويصير عقد الزواج لازماً ، إذا استوفى أركانه ، وشروط صحته ، وشروط نفاذه .

وإذا لزم فليس لأحد الزوجين ، ولا لغيرهما حق نقض العقد ،ولا فسخه ولا ينتهى إلا بالطلاق أو الوفاة وهذا هو الأصل فى عقد الزواج .

الزنـا والزنـاة

قال تعالى :

﴿ **سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون . الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين** ﴾ (قرآن كريم من سورة النور)(٢) .

قال ﷺ : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن »(٣). حديث صحيح .

قال العلماء الفقهاء

لا يحل للرجل أن يتزوج بزانية ، ولا يحل للمرأة أن تتزوج بزان ، إلا أن يحدث كل منهما توبة ودليل هذا :

١ – أن الله جعل العفاف شرطاً يجب توفره فى كل من الزوجين قبل الزواج . قال تعالى : ﴿ **اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان** ﴾(٤).

أى إن الله كما أحل الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى ، أحل زواج العفيفات من المؤمنات والعفيفات من أهل الكتاب ، فى حال كون الزواج أعفاء غير مسافحين ولا متخذى أخدان .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٨٢ .

(٢) سورة النور الآيات : ١ – ٣ .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه حـ ١ ص ٧٧ كتاب الإيمان ــ باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصى رقم ١٠٤ / ٥٧ .

(٤) المائدة آية ٥ .

٢ - وذكر ذلك فى زواج الإماء عند العجز عن طوّل الحرة فقال : ﴿ **فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان** ﴾[١].

٣ - يؤيد هذا ما جاء صريحا فى قوله تعالى : ﴿ **الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين** ﴾[٢].

ومعنى ينكح : يعقد . وحرم ذلك أى وحرم على المؤمنين ، أن يتزوجوا من هو متصف بالزنا أو بالشرك ، فإنه لا يفعل ذلك إلا زان أو مشرك .

٤ - ما رواه عمر بن شعيب عن أبيه عم جده أن مرثد بن أبى مرثد الغنوى ، كان يحمل الأسارى بمكة ، وكان بمكة بغى يقال لها عناق ، وكانت صديقته قال : فجئت النبى ﷺ فقلت : يا رسول الله أأنكح عناقاً : قال : فسكت عنى فنزلت : ﴿ **والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك** ﴾ فدعانى فقرأها علىَّ ، وقال : « لاتنكحها »[٣] رواه أبو داود والترمذى والنسائى .

٥ - وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « الزانى المجلود لا ينكح إلا مثله »[٤] رواه أحمد وأبو داود .

قال الشوكانى : هذا الوصف مخرج الغالب باعتبار من ظهر منه الزنا ، ومنه دليل على أنه لا يحل للرجل أن يتزوج بمن ظهر منها الزنا ، وكذلك لا يحل للمرأة أن تتزوج بمن ظهر منه الزنا .

ويدل على ذلك الآية المذكورة فى الكتاب الكريم ، لأن فى آخرها : ﴿ **وحرم ذلك على المؤمنين** ﴾ فإنه صريح فى التحريم .

الزنـا والـزواج :

وثمة فرق كبير بين الزواج ، والعملية التناسلية .

فإن الزواج هو نواة المجتمع ، وأصل وجوده ، وهو القانون الطبيعى الذى يسير العالم على نظامه ، والسنة الكونية التى تجعل للحياة قيمة وتقديراً ، وأنه هو الحنان الحقيقى والحب الصحيح ، وهو التعاون فى الحياة والاشتراك فى بناء الأسرة وعمار العالم .

---

(١) سورة النساء آية : ٢٥ .

(٢) سورة النور آية : ٣ .

(٣) أخرجه أبو داود فى سننه حـ ٢ ص ٥٤٢ ، ٥٤٣ كتاب النكاح باب قوله تعالى : ﴿ **الزانى لا ينكح إلا زانية** ﴾ رقم ٢٠٥١ . وأخرجه الترمذى . فى كتاب التفسير باب تفسير سورة النور رقم ٣١٧٦ .

(٤) أخرجه أبو داود حـ ٢ ص ٥٤٣ كتاب النكاح رقم ٢٠٥٢ .

علة الإسلام فى تحريم نكاح الزنا :

والإسلام لم يرد للمسلم أن يلقى بين أنياب الزانية ، ولا المسلمة أن تقع فى يد الزانى ، وتحت تأثير روحه الدنيئة ، وأن تشاركه تلك النفس السقيمة ، وأن تعاشر ذلك الجسم الملوث بشتى الجراثيم ، المملوء بمختلف العلل والأمراض ، وللإسلام ـــ فى كل أحكامه وأوامره وفى كل محرماته ونواهيه ، لا يريد غير إسعاد البشر والسمو بالعالم إلى المستوى الأعلى ، الذى يريد الله أن يبلغه الجنس البشرى .

وجه الشبه بين الزنا والمشركين :

والمسلم المتأدب بأدب القرآن الكريم ، المتبع لسنة أفضل الخلق أجمعين سيدنا محمد رسول الله ﷺ ، لايمكن أن يعيش مع زانية لا تفكر تفكيره ، ولا يستطيع أن يعاشر إمرأة لا تحيى حياته المستقيمة ، ولا يستطيع الارتباط برابطة الزواج مع كائنة لا تشعر شعوره ، وهو يعلم أن الله تعالى قال عن الزواج : ﴿ **خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة** ﴾[1].

فأين المودة التى تحصل بين المسلم والزانية ؟.. وأين النفس من تلك النفس التى تسكن إليها نفس المؤمن الصحيح الإيمان ؟

وأن المسلم الذى لا يستطيع نكاح الزانية ـــ كما بينا لفساد نفسها وشذوذ عاطفتها ـــ لا يمكن كذلك أن يعيش مع شريكة لا تعتقد اعتقاده ، ولا تؤمن إيمانه ، ولا ترى فى الحياة ما يراه ، لا تحرم ما يحرمه عليه دينه من الفسق والفجور ، ولا تعترف بالمبادىء الإنسانية السامية التى نص عليها الإسلام ، لها عقيدتها الضالة واعتقادتها الباطلة ، لها التفكير البعيد عن تفكيره ، والعقل الذى لا يمت إلى عقله بصلة ، قال تعالى : ﴿ **ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن * ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعوا إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون** ﴾[2]

التوبــة تجــب مــا قبلهــا :

فإن تاب كل من الزانى والزانية ، توبة نصوحا بالاستغفار والندم والإقلاع عن الذنب ، واستأنف كل منهما حياة نظيفة مبرأة من الإثم ، ومطهرة من الدنس ، فإن الله يقبل توبتهما ، ويدخلهما برحمته فى عباده الصالحين .

﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون**

(١) سورة الروم آية : ٢١ .
(٢) سورة البقرة آية : ٢٢١ .

ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾[1]

سئل ابن عمر عن رجل فجر بامرأة ... أيتزوجها ؟

قال : إن تابا وأصلحا .

وأجاب بمثل هذا جابر بن عبد الله ، وروى ابن جرير أن رجلاً من أهل اليمن أصابت أخته فاحشة فأمرَّت الشفرة على أوداجها ، فأدركت قداوُوها حتى برأت ، ثم أن عمها انتقل بأهله حتى قدم المدينة ، فقرأت القرآن ونسكت ، حتى كانت من أنسك نسائهم ، فخطبت إلى عمها وكان يكره أن يدلها ، ويكره أن يغش على ابنة أخيه فأتى عمر بن الخطاب فذكر ذلك له . فقال عمر : لو أفشيت عليها لعاقبتك ، إذا أتاك رجل صالح ترضاه فزوجها إياه .

وفى رواية أن عمر قال : أتخبر بشأنها ؟.. تعمد إلى ما ستره الله فتبديه والله لئن أخبرت بشأنها أحداً من الناس لأجعلنك نكالاً لأهل الأمصار ، بل أنكحها بنكاح العفيفة المسلمة .

وقال عمر : لقد هممت ألا أدع أحداً أصاب فاحشة فى الإسلام أن يتزوج محصنة . فقال له أبى بن كعب : يا أمير المؤمنين ، الشرك أعظم من ذلك ، وقد يقبل منه إذا تاب .

ويرى أحمد أن توبة المرأة تعرف بأن تراود عن نفسها فإن أجابت فتوبتها غير صحيحة ، وإن امتنعت فتوبتها صحيحة .

وقد تابع فى ذلك ما روى عن ابن عمر . وقال أصحابه ألا ينبغى لمسلم أن يدعو إمرأته إلى الزنا ويطلبه منها ، لأن طلبه ذلك منها إنما يكون خلوة ولا تحل الخلوة بأجنبيه ، ولو كان فى تعلمهما القرآن فكيف يحل فى مراودتها على الزنا ؟

ثم لا يأمن أن إجابته إلى ذلك أن تعود إلى المعصية ، فلا يحل التعرض لمثل هذا ، لأن التوبة من سائر الذنوب ، وفى حق سائر الناس ، وبالنسبة إلى سائر الأحكام على غير هذا الوجه ، فكذلك يكون هذا ، وإلى هذا ذهب الإمام أحمد ، وابن حزم ورجحه ابن تيمية وابن القيم .

إلا أن الإمام أحمد ضم إلى التوبة شرطاً آخر ، وهو إنقضاء العدة ، فمتى تزوجها قبل التوبة أو إنقضاء عدتها ، كان الزواج فاسداً ويفرق بينهما .

ومذهب الحنفية ، والشافعية والمالكية ، أنه يجوز للزانى أن يتزوج الزانية ، والزانية يجوز لها أن تتزوج الزانى فالزنا لا يمنع عندهم صحة العقد .

قال ابن رشد : « سبب اختلافهم فى مفهوم قوله تعالى : ﴿ **والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين** ﴾

(١) سورة الفرقان الآيات : ٦٧ – ٧٠ .

هل خرج مخرج الذم أو مخرج التحريم ؟

وهل الإشادة فى قوله تعالى : ﴿ وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ إلى الزنا أو النكاح ؟

وإنما صار الجمهور لحمل الآية على الذم لا على التحريم . لما جاء فى الحديث : أن رجلاً قال للنبى ﷺ فى زوجته : أنها لا ترد يد لامس . فقال له النبى ﷺ : « طلقها » فقال له : إنى أحبها فقال له : « أمسكها » . ثم أن المجوزين اختلفوا فى زواجها فى عدتها .

فنهى مالك احتراماً لماء الزوج ، وصيانة لاختلاط النسب الصريح بولد الزنا .

وذهب أبو حنيفة والشافعى إلى أنه يجوز العقد عليها من غير إنقضاء عدة ، ثم ان الشافعى يجوز العقد عليها وإن كانت حاملاً ، لأنه لا حرمة لهذا العمل .

وقال أبو يوسف ، ورواية عن أبى حنيفة : لا يجوز العقد عليها ، حتى تضع الحمل ، لئلا يكون الزوج قد سقى ماؤه زرع غيره .

ونهى رسول الله ﷺ « أن توطأ المسبيّة الحامل حتى تضع مع أن حملها مملوك له » .

فالحامل من الزنا أولى ألا توطأ حتى تضع ، لأن ماء الزانى وإن لم يكن له حرمة ، فماء الزوج محترم ، فكيف يسوغ له أن يخلطه بماء الفجور ؟

ولأن النبى ﷺ همّ بلعن الذى يريد أن يطأ أمته الحامل من غيره ، وكانت مسبية مع إنقطاع الولد عن أبيه وكونه مملوك له ، وقال أبو حنيفة فى الرواية الأخرى يصح العقد عليها ولكن لا توطأ حتى تضع .

الحقوق الزوجية والواجبات

أقام الإسلام الميزان عادلا فى الحقوق والواجبات لا فى الزواج وحده ، وإنما فى كل قضاياه ومسائله فما من قضية من قضايا الإسلام ، وما من مسألة تتعلق بأحوال العباد ، إلا وأقام الإسلام الوزن بالقسط ، ولم يخسر الميزان ، فلكل من العباد حقوق ، وعلى كل واجبات ، وإذا كانت الأسرة هى اللبنة الأساسية فى بناء المجتمع فقد أسسها الإسلام على تقوى من الله ورضوان ، وهيأ لها وسائل السعادة وسبل الرقى فبناها على الإيمان والإسلام والإحسان وشيدها على المحبة والمودة والرحمة ، وجعل الشركة بين الزوجين رأس مالها مودة ومحبة ، ورحمة وثقة واحترام متبادل ، فالمسلمون أخوة وهم كالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر ، إنهم تتكافىء دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ، فما أجمل أن تقرأ هذه الآيات **﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾**[1]

(١) سورة الروم آية : ٢١ .

وما أعظم أن تقف أمام هذه الآية الجليلة ، لتعرف سابقها ولاحقها وسباقها ، إنها وضعت بين آيات السنن الكونية ، ونواميس الكون ، وقوانين الخلق ، فسباقها قوله جل ذكره : ﴿ **ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون** ﴾[١]

ولاحقها قوله تبارك اسمه ﴿ **ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين** ﴾[٢]

وسباقها ، يؤخذ من السباق واللحاق ، وهو ما يفيد أن الزواج سنة من سنن الكون ، فهو بين خلق البشرية ، وخلق الكون علوية وسفلية ، ومن ثم قال تعالى : ﴿ **ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون** ﴾[٣].

وجاء قوله جل جلاله : ﴿ **سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** ﴾[٤] أما الفرد الصمد الذى لا يوصف بالزوجية ، فهو الواحد الأحد ، الذى لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، تنزه عنه الشريك ذاته ، وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته ، بالبر معروف ، وبالإحسان موصوف ، معروف بلا غاية ، وموصوف بلا نهاية ، واحد لا من قلة ، وموجود لا من علة ، واحد بلا عدد ، وقائم بلا عمد ، ودائم بلا أمد . علا فقهر ، وملك فقدر ، وبطن فخبر ﴿ **بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير * قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ** ﴾[٥]

إن من صفات الله تعالى العليا ، ومن أسمائه الحسنى ، الحكم العدل ، لذا قسم الحقوق والواجبات ، بالعدل القويم ، والقسطاس المستقيم ، فيا معشر المسلمين ﴿ **أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين** ﴾[٦] ويا أيها الأزواج والزوجات ، ليعرف كل منكم ماله من حقوق ، وما عليه من واجبات ، وهاكم بيان الحقوق والواجبات .

---

(١) سورة الروم آية : ٢٠ .

(٢) سورة الروم آية : ٢٢ .

(٣) سورة الذاريات آية : ٤٩ .

(٤) سورة يس آية : ٣٦ .

(٥) سورة الأنعام الآيات ١٠١ - ١٠٤ .

(٦) سورة الشعراء الآيات : ١٨١ - ١٨٣ .

قال العلماء الفاقهون

إذا وقع عقد الزواج صحيحاً نافذاً ، ترتبت عليه آثاره ووجبت بمقتضاه الحقوق الزوجية وهى :

١ - حقوق واجبة للزوجة على زوجها .
٢ - حقوق واجبة للزوج على زوجته .
٣ - حقوق مشتركة بينهما .

وقيام كل من الزوجين بواجبه ، والاضطلاع بمسئولياته ، هو الذى يوفر أسباب الاطمئنان ، والهدوء النفسى ، وبذلك تتم السعادة الزوجية .

الحقوق المشتركة بين الزوجين

١ - حل العشرة الزوجية ، واستمتاع كل من الزوجين بالآخر ، وهذا الحل مشترك بينهما ، فيحل للزوج من زوجته ما يحل لها منه ، وهذا الاستمتاع حل للزوجين ، ولا يحصل إلا بمشاركتهما معاً ، لأنه لا يمكن أن ينفرد به أحدهما .

٢ - حرمة المصاهرة : أى أن الزوجة ، تحرم على آباء الزوج وأجداده وأبنائه ، وفروع أبنائه وبناته ، كما يحرم هو على أمهاتها وبناتها وفروع أبنائها وبناتها ...

٣ - ثبوت التوارث بينهما بمجرد إتمام العقد ، فإذا مات أحدهما بعد إتمام العقد ، ورثه الآخر ، ولو لم يتم الدخول .

٤ - ثبوت نسب الولد من الزوج صاحب الفراش .

٥ - المعاشرة بالمعروف ، فيجب على كل من الزوجين ، أن يعاشر الآخر بالمعروف ، حتى يسودهما الوئام ويظلهما السلام .

الحقوق الواجبة للزوجة على زوجها

حقوق مالية : وهى المهر والنفقة .

حقوق غير مالية : مثل العدل بين الزوجات ، إذا كان الزوج متزوجاً بأكثر من واحدة ، ومثل عدم الإضرار بالزوجة .

المهـــر

من الحقوق المادية للمرأة على زوجها المهر ، فمن عدالة الإسلام وعظمة أحكامه ، أن أعطى المرأة حق التملك ، قال تعالى : ﴿ **للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله** ﴾(١).

وقال جل شأنه فى حقها فى الميراث : ﴿ **للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضا** ﴾(٢).

وقال جل شأنه فى شأن المهر : ﴿ **وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شىء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً** ﴾(٣) أى وآتوا النساء مهورهن عطاء مفروضاً لا يقابله عوض ، فإذا أعطين شيئا من المهر بعد ماملكن من غير إكراه ولا حياء ولا خديعة ، فخذوه سائغاً لا غصة فيه ولا إثم معه .

فإذا أعطت الزوجة شيئاً من مالها حياء أو خوفا أو خديعة ، فلا يحل أخذه ، قال تعالى : ﴿ **وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتانا وإثما مبيناً وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً** ﴾(٤)

وفى المهر تطيب لنفس المرأة ، فإنه هدية خالصة ، وفى الهدية ما يؤكد المحبة ويقويها ، جاء فى الحديث : « تهادوا تحابوا »(٥).

قـدر المهـر

لما كان الاسلام صالحاً لكل زمان وفى كل مكان ، فإنه لم يحدد للمهر قدرا لا يحيد عنه الزوجان ، إذ الناس يختلفون فى الغنى والفقر ، ويتفاوتون فى السعة والضيق .

وقد جاءت النصوص دالة على أن المهر شىء له قيمة ، فيجوز أن يكون خاتماً . من حديد ، أو قدحاً من تمر ، أو تعليما لكتاب الله إذا تراضى عليه المتعاقدان .

---

(١) سورة النساء آية : ٣٢ .
(٢) سورة النساء آية : ٧ .
(٣) سورة النساء آية : ٤ .
(٤) سورة النساء آية : ٢٠ .
(٥) أخرجه أحمد حـ ٢ ص ٤٠٥ .

١ – عن عامر بن ربيعة أن امرأة من بنى فزارة تزوجت على نعلين فقال رسول الله ﷺ : « أرضيت عن نفسك ومالك بنعلين ؟ فقالت : نعم فأجازه »(١) رواه أحمد .

٢ – وعن سهل بن سعد أن النبى ﷺ جاءته إمرأة فقالت : يا رسول الله إنى وهبت نفسى لك ، فقامت قياماً طويلاً فقام رجل فقال : يا رسول الله زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة فقال رسول الله ﷺ هل عندك من شيء تصدقها إياه ؟ فقال : ما عندى إلا ازارى هذا فقال النبى ﷺ إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك فالتمس شيئا فقال : ما أجد شيئاً فقال : التمس ولو خاتماً من حديد ، فالتمس فلم يجد شيئاً ، فقال له النبى ﷺ : هل معك من القرآن شيء قال : نعم سورة كذا وسورة كذا لسور يسميها ، فقال النبى ﷺ قد زوجتكها بما معك من القرآن »(٢) رواه البخارى ومسلم .

٣ – وعن أنس : أن أبا طلحة خطب أم سليم فقالت : « والله ما مثلك يرد ولكنك كافر وأنا مسلمة ولا يحل لى أن أتزوجك فإن تسلم فذلك مهرى ولا أسألك غيره فكان ذلك مهرها »

وفى الأحاديث السابقة دلالة على أن المهر يجوز بالشيء القليل وبالمنفعة وقد زوج سعيد بن المسيب ابنته على درهمين ، ولم ينكر عليه أحد ، بل عد ذلك من مناقبه **وفضائله** .

وقد تزوج عبد الرحمن بن عوف على صداق خمسة دراهم وأقره النبى ﷺ . وإذا كان المهر لاحد لأقله ، فإنه كذلك لاحد لأكثره ، فإن عمر رضى الله عنه لما نهى عن التغالى فى المهور ، وألا يزيد على أربعمائة درهم ونزل عن منبره ، فاعترضه إمرأة من قريش فقالت : أما سمعت الله يقول : ﴿ **وآتيتم إحداهن قنطارا** ﴾(٣) فقال : نعم عفوا كل الناس أفقه من عمر ، ثم رجع فركب المنبر ، **فقال : « إنى كنت قد نهيتكم أن لا تزيدوا فى صدقاتهن على أربعمائة درهم ، فمن شاء أن يعطى** من ماله ما أحب . وعن عبد الله بن مصعب أن عمر قال : « لا تزيدوا فى مهور النساء على أربعين أوقية من فضة ، فمن زاد أوقية جعلت الزيادة فى بيت المال ، فقالت إمرأة : ماذاك لك قال : ولم ؟ فقالت : لأن الله تعالى يقول : ﴿ **وآتيتم احداهن قنطارا** ﴾

وقال عمر : امرأة أصابت ورجل أخطأ .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسند حـ ٣ ص ٤٤٥ .

(٢) أخرجه البخارى كتاب النكاح باب تزويج المعسر رقم ١١٥٠
ومسلم كتاب النكاح رقم ٧٦ .
والترمذى حـ ٣ ص ٤٢١ ، ٤٢٢ كتاب النكاح رقم ١١١٤ .

(٣) سورة النساء آية : ٢٠ .

المغـالاة فى المهـور

لما كانت السمة العامة للإسلام اليسر ودفع الحرج فإنه رغب فى تيسير الزواج ، إذ بالزواج تتيسر العفة ، ويلجأ الشباب إلى حياة الطهر والنقاء حتى تعيش الأمة فى حياة صافية بعيداً عن ذئاب البشر الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، فجعل أقل النساء مهراً أعظمهن بركة ، وجعل خفة المهر من يمن الزواج .

عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال : « إن أعظم النكاح بركة أيسره مؤنة »(١).

وقال : « يمن المرأة خفة مهرها ، ويسر نكاحها ، وحسن خلقها ، وشؤمها غلاء مهرها ، وعسر نكاحها ، وسوء خلقها »(٢).

وقد جعل كثير من الناس هذه التعاليم وحاد عنها وتعلق بعادات الجاهلية من التغالى فى المهور ، ورفض التزويج إلا إذا دفع الزوج قدراً كبيراً من المال يرهقه ويضايقه كأن المرأة سلعة يساوم عليها ويتجر بها .

النفقـــة

من حق الزوجة على زوجها أن يقوم بالإنفاق عليها ، وقد ثبت وجوب ذلك بالكتاب والسنة والإجماع .

وتتمثل النفقة فى ما تحتاج إليه المرأة من طعام ومسكن وخدمة ودواء وكسوة وإن كانت غنية قال تعالى : ﴿ **وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها** ﴾(٣).

المراد ﴿ **بالمولود له** ﴾ : الأب ، والرزق فى هذا الحكم : الطعام الكافى . . والكسوة : اللباس والمعروف : المتعارف فى عرف الشارع من غير تفريط ولا إفراط .

وقال تعالى : ﴿ **اسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن** ﴾(٤)

وقال تعالى : ﴿ **لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً** ﴾(٥).

---

(١) أنظر مسند الإمام أحمد جـ ٦ ص ٨٢ ، ١٤٥

(٢) أنظر مسند الإمام أحمد جـ ٦ ص ٧٧ ، ٩١ بلفظ يمن المرأة تيسير خطبتها وتيسير صداقها .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٣٣ .

(٤) سورة الطلاق الآية ٦ .

(٥) سورة الطلاق الآية ٧ .

وروى مسلم أن رسول الله ﷺ قال فى حجة الوداع : « .. فاتقوا الله فى النساء ، فإنكم اخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف .. » الحديث[١].

وروى البخارى ومسلم عن عائشة ــ رضى الله عنها : أن هنداً بنت عتبة قالت : يارسول الله ، إن أبا سفيان رجل شحيح ، وليس يعطينى وولدى إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم ، قال : « خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف »[٢].

وعن معاوية القشيرى رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، ما حق زوجة أحدنا عليه ؟ قال : « تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ، ولا تقبح ، ولا تهجر إلا فى البيت »[٣].

أما الإجماع فقد قال ابن قدامة : اتفق أهل العلم على وجوب نفقات الزوجات على أزواجهن إذا كانوا بالغبن إلا الناشز منهن .

الترغيب فى النفقة

وردت عن النبى ﷺ أحاديث ترغب الزوج فى الإنفاق على أهله وقد رأينا أن نذكرها حتى تعم الفائدة ، ويرفع الحرج من صدور الأزواج ، فإن العرف لا يضيع بين الله والناس ، قال ــ تعالى : ﴿ **ماعندكم ينفد وما عند الله باق** ﴾[٤] وقال جل شأنه ﴿ **وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يأولى الألباب** ﴾[٥].

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « دينار أنفقته فى سبيل الله ، ودينار أنفقته فى رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك ، أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك »[٦] رواه مسلم

ــ وعن جابر أن النبى ﷺ قال : « أول ما يوضع فى ميزان العبد ، نفقته على أهله »[٧] (أخرجه الطبرانى فى الأوسط وقال المنادى صحيح) .

(١) أنظر صحيح مسلم ح ٢ ص ٨٨٩ كتاب الحج باب حجة النبى ﷺ رقم ١٢١٨/١٤٧

(٢) أنظر صحيح مسلم حـ ٣ ص ١٣٣٨ كتاب الأقضية . باب قضية هند رقم ١٧١٤/٧ .

(٣) أنظر مسند أحمد حـ ٤ ص ٤٤٧ .

(٤) سورة النحل آية ١٩٦ .

(٥) سورة البقرة آية ١٩٧ .

(٦) أنظر صحيح مسلم حـ ٢ ص ٦٩٢ كتاب الزكاة باب فضل النفقة على العيال والمملوك رقم ٩٩٥/٣٩ .

(٧) اخرجه الطبرانى في الأوسط وقال المنادى صحيح .

ـــ وعن سعد بن أبي وقاص ـــ رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال له : « ... وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعل في فيّ امرأتك »[١] رواه البخاري ومسلم .

ـــ وعن ابن مسعود البدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إذا أنفق الرجل على أهله نفقة وهو يحتسبها كانت له صدقة »[٢] رواه البخارى ومسلم .

ـــ وعن المقدام بن معد يكرب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أطعمت زوجتك فهو لك صدقة ، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة »[٣] رواه أحمد .

ـــ وعن عبد الله بن مسعود ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قال رسول الله ﷺ : « اليد العليا خير من اليد السفلى وأبدأ بمن تعول . أمك وأباك وأختك وأخاك وأدناك فأدناك »[٤] رواه الطبرانى .

ـــ وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المعونة تأتى من الله للعبد على قدر المئونة وإن الصبر يأتي من الله على قدر المصيبة »[٥] رواه البيهقى والبزار وغيرهما .

ـــ عن أبى هريرة رضى الله عنه ـــ أن النبى ﷺ قال : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً »[٦] رواه البخارى .

ـــ وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما ـــ قال : قال رسول الله ﷺ : « كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت »[٧] رواه أبو داود والنسائى .

ـــ عن الحسن رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إن الله سائل كل راع عما استرعاه ، حفظ أم ضيع ! حتى يسأل الرجل عن أهل بيته »[٨] رواه ابن حبان .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : جاءتنى مسكينة تحمل ابنتين لها فأطعمتها ثلاث تمرات فأعطيت كل واحدة منهما تمرة ، ورفعت إلى فيها تمرة ، لتأكلها فاستطعمتها ابنتاها فشقت التمرة التى كانت تريد أن تأكلها بينهما فأعجبنى شأنها فذكرت الذى صنعت لرسول الله ﷺ فقال : « إن الله قد أوجب لها بها الجنة أو اعتقها بها من النار »[٩] رواه مسلم .

(١) أنظر صحيح البخارى حـ ١ ص ٢٢ . كتاب الإيمان . باب ماجاء إن الأعمال بالنية .
(٢) أنظر صحيح البخارى حـ ١ ص ٢١ ، ٢٢ كتاب الإيمان . باب ماجاء إن الأعمال بالنيات .
(٣) أنظر مسند الإمام أحمد حـ ٤ ص ١٣١ ، ١٣٢ .
(٤) أنظر كنز العمال حـ ١٦ رقم ٤٤٤٤٠ .
(٥) أنظر كشف الأستار عن زوائد البزار حـ ٢ ص ١٩٥ رقم ١٥٠٦
(٦) أنظر صحيح البخارى حـ ٢ ص ١٤٢ كتاب وجوب الزكاة . باب قول الله تعالى : ﴿ **فأما من أعطى وأتقى وصدق بالحسنى ...** ﴾
(٧) أنظر سنن أبى داود حـ ٢ ص ٣٢١ كتاب الزكاة . باب فى صلة الرحم . رقم : ١٦٩٢
(٨) أنظر صحيح ابن حبان حـ ٧ ص ١٢ .
(٩) أنظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢٠٢٧ . كتاب البر والصلة . باب فضل الإحسان إلى البنات رقم : ٢٦٣٠/١٤٨

وروى **الطبرانى عن عدى بن مالك** رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ما من مسلم يكون له ثلاث بنات فينفق عليهن حتى يبن أو يمتن إلا كن له حجاباً من النار فقالت له امرأة : أو بنتان قال : وبنتان »(١).

لماذا وجبت النفقة للزوجة ؟

هناك أصل عام يقول : « كل من احتبس لحق غيره ومنفعته فنفقته على من احتبس لأجله » ومن هذا المنطلق يقرر الإسلام وشريعته الغراء أن النفقة واجبة على الزوج لزوجته إذ الزوجة وقد وقع عقد الزواج صحيحاً تكون بمقتضى ذلك مقصورة على زوجها لاتتعداه إلى غيره ، ومحبوسة لحقه حتى تتحقق الحكمة من الزواج بالعصمة والعفة قال تعالى : ﴿ **هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهن** ﴾(٢).

وقال تعالى : ﴿ **نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله** ﴾(٣)

وقال عز وجل : ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون** ﴾(٤) وطاعة الزوجة لزوجها واجبة عليها كذلك قرارها في بيته وتدبير منزله وحضانة الأطفال وتربية الأولاد قال ﷺ : « والرجل في بيته راع وهو مسئول عن رعيته والمرأة فى بيت زوجها راعية وهى مسئولة عن رعيتها »

لقد اقتضى منطق العدالة الإسلامية أن يقوم الزوج بالإنفاق على زوجته مقابل احتباسها عليه وطاعتها له والإرعاء لما له وحضانة أولاده ، والقيام على تدبير شأنه ، فلكل حقوق وعلى كل واجبات وقد صدق الحكم العدل إذ يقول : ﴿ **ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف** ﴾(٦) وإذ يقول (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم)(٧)

ويشترط لوجوب النفقة شروط ذكرها الفقهاء فيما يلى :

---

(١) أنظر كنز العمال جـ ١٦ رقم ٤٥٣٨١
(٢) سورة البقرة من الآية ١٨٧ .
(٣) سورة البقرة من الآية ٢٢٣ .
(٤) سورة المؤمنون الآيات من ٥ - ٧ وكذلك سورة المعارج ٢٩ - ٣١ .
(٥) انظر مسند الإمام أحمد جـ ٢ ص ٥ مسند عبد الله بن عمر .
(٦) سورة البقرة آية ٢٢٨ .
(٧) سورة النساء آية ٣٤ .

١ - أن يكون عقد الزواج صحيحاً .
٢ - أن تسلم نفسها إلى زوجها .
٣ - أن تمكنه من الاستمتاع بها .
٤ - الا تمتنع من الانتقال حيث يريد الزوج إلا إذا كان الزوج يريد الإضرار بها بالسفر أو لا تأمن على نفسها أو مالها .
٥ - أن يكون من أهل الاستمتاع .

فإذا لم يتوافر شرط من هذه الشروط فإن النفقة لا تجب . ذلك أن العقد إذا لم يكن صحيحاً بل كان فاسداً فإنه يجب على الزوجين المفارقة دفعاً للفساد .

وكذلك إذا لم تسلم نفسها إلى زوجها ، أو لم تمكنه من الاستمتاع بها ، أو امتنعت من الإنتقال إلى الجهة التى يريدها ففى هذه الحالات لا تجب النفقة حيث لم يتحقق الاحتباس الذى هو سببها ، كما لا يجب ثمن المبيع إذا امتنع البائع من تسليم المبيع ، أو سلم فى موضع دون موضع .

ولأن النبى ﷺ تزوج عائشة رضى الله عنها ودخلت عليه بعد سنتين ولم ينفق عليها إلا من حين دخلت عليه ، ولم يلتزم نفقتها لما مضى .

قال الفقهاء :

إذا ارتد الزوج بعد الدخول لم تسقط نفقتها لأن امتناع الوط وبسبب من جهته وهو قادر على إزالته بالعودة إلى الإسلام بخلاف ما إذا ارتدت الزوجة فإن نفقتها تسقط لأنها منعت الاستمتاع بمعصيته من قبلها فتكون كالناشز .

حقوق غير مادية

سبق الحديث عن الحقوق المادية للمرأة وبيان وجوبها على الرجل وقد ذكرنا فى ذلك وجوب المهر والنفقة وهنا نتحدث عن الحقوق غير المادية للمرأة على زوجها ومن تلك الحقوق :

حسن المعاشرة

قال تعالى : ﴿ **وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً** ﴾ (١).

---

(١) سورة النساء آية ١٩ .

ومن مظاهر إكتمال الخلق ونمو الإيمان أن يكون المرء رفيقا مع أهله يقول الرسول ــ صلوات الله وسلامه عليه : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقا وخياركم خياركم لنسائهم »(١).

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « إن من أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله »(٢) رواه الترمذى .

وليس إكرام الرجل لزوجته مظهراً من مظاهر الضعف ، كما يظن البعض ، بل هو سمة من سمات الكرم وقوة الشخصية .

قال ﷺ : « ما أكرمهن إلا كريم وما أهانهن إلا لئيم »(٣)

إن المسلم فى بيته سمح النفس ، كريم الشمائل ، حميد السجايا ، لا يتنكف أن يلاحظ أهله ، ولا تخلو معاملته لأهله من دعابة رقيقة .

قالت عائشة رضى الله عنها : « تسابقنى رسول الله ﷺ فسبقته فلبثنا حتى إذا أرهقنى اللحم سابقنى فسبقنى » فقال : « هذه بتلك »(٤) رواه أحمد .

وعن عائشة رضى الله عنها أيضا قالت : قال رسول الله ﷺ : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى »(٥).

ويبين الرسول ﷺ كيف يعامل الرجل زوجته معاملة تطابق فطرتها وتوافق ماجبلت عليه فيقول : « إن المرأة خلقت من ضلع فإن أقمتها كسرتها فدارها تعش بها »(٦)

وعن أبى هريرة رضى الله عن أن رسول الله ﷺ قال : « استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج مافى الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا

---

(١) أنظر سنن الترمذى حـ ٣ ص ٤٦٦ . كتاب الرضاع . باب ماجاء فى حق المرأة على زوجها . رقم ١١٦٢ ط / دار الكتب العلمية .

(٢) أنظر سنن الترمذى حـ ٥ ص ١٠ ، ١١ . كتاب الإيمان . باب ماجاء فى استكمال الإيمان وزيادته ونقصانه . رقم ٢٦١٢ ط / دار الكتب العلمية .

(٣) أنظر اتحاف السادة المتقين ٣٦٤/٥ وبن عساكر ٢٣٣/٤ . وسلسلة الأحاديث الضعيفة للألبانى حـ ٢ ص ٢٤١ رقم ٨٤٥ .

(٤) أنظر مسند الإمام أحمد حـ ٤ ص ٣٤ ، ٣٩، ٢٦٤ .

(٥) أنظر صحيح ابن ماجة حـ ١ ص ٦٣٦ كتاب النكاح . باب حسن معاشرة النساء . رقم ١٩٧٧ .

(٦) أنظر صحيح البخارى حـ ٤ ص ١٦١ كتاب بدء الخلق . باب . قوله تعالى : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ...** ﴾

بالنساء »[1] رواه البخاري ومسلم .

واسمع معى إلى تلك الحكمة النبوية التى تفيض إصلاحاً واستقامة ، وتشع نوراً وبهاءاً ، وتطل على بيوت المسلمين كالشمس في عليائها ، تبدد غياهب الظلمات ، وتضيء جنبات الحياة ، يقول ـــ ﷺ : « لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضى منها آخر »[2] رواه مسلم .

ومعنى يفرك : بسكون الفاء والراء أيضا أى : يبغض .

الحقوق فى حديث موجز

وتعال معى لترى النبى الكريم يبين حقوق المرأة على زوجها فى حديث موجز المبنى لكنه عظيم المغزى ، والمعنى ، والمرمى ، وقد جاء هذا البيان جواباً عن سؤال وقد عودنا المصطفى ﷺ ـــ أن يجيب إجابة شافية كافية وافية ، فجزاك الله عنا يا رسول الله خير ما جزى به نبياً عن قومه ورسولاً عن أمته .

عن معاوية بن جندب رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول ، ما حق زوجة أحدنا عليه ؟ قال : « أن تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ، ولا تقبح ، ولا تهجر إلا في البيت »[3] . (رواه أبو داود)

لا تقبح (بتشديد الباء) أى : لا تسمعها مكروه ، ولا تشتمها ، ولا تقل قبحك الله .
سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

يا من له الأخـــــلاق ما تهوى العـــــلا
منها ومــــا يتـــــعشق الكرمـــــاء
زانـــتك فى الخلـــق العــــظيم شمائـــل
يغـــرى بهن ويولــــع الكرمــــاء
وإذا سخـــوت بلـــــغت بالجود المدى
وفعــــلت مالا تفعــــل الأنـــواء

---

(١) أنظر صحيح البخارى حـ ٤ ص ١٦١ . كتاب بدء الخلق . باب قوله تعالى : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ...** ﴾
أنظر صحيح مسلم حـ ٢ ص ١٠٩١ . كتاب الرضاع . باب الوصية بالنساء . رقم ١٤٦٨/٦٢ .
(٢) أنظر صحيح مسلم حـ ٢ ص ١٠٩١ كتاب الرضاع . باب الوصية بالنساء . رقم ١٤٦٩/٦٣ .
(٣) أنظر سنن أبى داود حـ ٢ ص ٦٠٦ . كتاب النكاح . باب فى حق المرأة على زوجها . رقم ٢١٤٢ .

وإذا عفـــوت فقـــادراً ومقـــدراً
لا يستهين بعفـــوك الجهـــلاء
وإذا رحمت فأنت أم أو أب
هذان فى الدنيـــا هما الـــرحماء
وإذا أخـــذت العهـــد أو أعطيتـــه
فجميـــع عهـــدك ذمـــة ووفـــاء
وإذا خطـــبت فللمنابـــر هزة
تعـــرو النـــدى وللقلـــوب بكـــاء
وإذا غضبت فإنما هى غضبـــة
للحـــق لا ضغـــن ولا شحنـــاء
لو أن إنسان تخير ملـــة
ما اختـــار إلا ديـــنك الفقـــراء
المصلحـــون أصابـــع جمعت يدا
هى أنت بل أنت اليـــد البـــيضاء
يا من له عز الشفاعـــة وحـــده
وهـــو المنـــزه مالـــه شفعـــاء
عرش القيامـــة أنت تحت لواءه
والحوض أنت حيالـــه السقـــاء

يارسول الله لقد بينت لنا سنن الهدى والرشاد ، ووضعت لنا الأسس القويمة ، والأصول المستقيمة وأنت تخطب خطبة الوداع حتى نزلت عليك البشريات الأربع (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون ، اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا)(١)

نعم قد أكمل الله دينه ، فدين الله لاينقص أبداً ، وأتم علينا نعمته فليس نعمة الله حكراً ولا ضيقا إنما ستظل سمحة أبداً ، ورضى لنا الإسلام دينا (فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا)(٢).

(١) سورة المائدة من الآية ٣ .

(٢) سورة الجن آية ١٤ .

عن عمرو بن الأحوص الجشمى رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ ـــ فى حجة الوداع يقول : بعد أن حمدا الله وأثنى عليه وذكر ووعظ ثم قال : « ألا واستوصوا بالنساء خيراً فإنما هن عوان عندكم ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فاهجروهن فى المضاجع ، واضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، الا إن لكم على نسائكم حقا ، ولنسائكم عليكم حقا ، فحقكم عليهن أن لايوطئن فرشكم من تكرهون ، ولايأذن فى بيوتكم لمن تكرهون ، الا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن كسوتهن وطعامهن »(١) رواه ابن ماجه والترمذى .

معانى مفردات الحديث :

فاحشه : معصية ثابتة بيقين ، بعيدة عن التهم الكاذبة .

مُبَـــرِّح : غير مهلك لم يؤذ بكر .

فلا تبغـوا : فلا تطلبوا غير الطاعة طريقاً .

لا يوطئن فرشكم : لا يكون الفراش لأجنبى وطاء سهلاً يتمتع بلذته .

كسوتهن وطعامهن : أى : القيام بالكسوة . وإلا طعام أى : الغذاء

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما اتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثير** ﴾(٢) .

ومعنى ﴿ **بفاحشة مبينة** ﴾ كالنشوز وسوء العشرة ﴿ **بالمعروف** ﴾ بالإنصاف فى الفعل والاجمال فى القول فلا تفارقوهن لكراهة النفس فإنك قد تكره ماهو أصلح دينا وأكثر خيراً ، وقد تحب ماهو بخلافه ، وليكن نظركم إلى ماهو أصلح للدين وأدنى إلى الخير ، وعسى فى الأصل علة الجزاء فأقيم مقامه والمعنى : فإن كرهتموهن فاصبروا عليهن ﴿ **وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم** ﴾(٣)

نفـاذ البصـيرة

لكى تكون حكيما فى المعاشرة ثابت الفكر صائب الرأى فى معاملة أهلك ، لابد أن تضع نصب عينيك قول الله تعالى : ﴿ **وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً** ﴾(٤).

(١) أنظر صحيح الجامع (سنن الترمذى) حـ ٣ ص ٤٦٧ كتاب الرضاع باب ماجاء فى حق المرأة على زوجها . رقم ١١٦٣ وأنظر سنن ابن ماجة كتاب النكاح . باب حق المرأة على الزوج رقم ١٨٥١

(٢) سورة النساء آية ١٩

(٣) سورة البقرة آية ٢١٦ .

(٤) سورة النساء من الآية ١٩

وقوله ﷺ : ﴿ **استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج مافى الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء** ﴾ (١)

فعلى المسلم ألا يكره زوجته الصالحة الطائعة ، فإن لها محامد ومساوىء وليكن لأخلاقها الحسنة فى نفسه ما يغفر مساوئها ، فلكل جواد كبوة ، ولكل عالم هفوة ولكل صارم نبوة .

إذا كنت فى كل الأمور معاتباً .·. صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه
فعش واحداً أوصل أخاك فإنه .·. مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى .·. ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه
ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها .·. كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

فإذا ما كانت الزوجة سيئة فمنطق الإنصاف يقتضى الا تنسى أن لها حسنات فهى قاضية حاجاتك ، مرضعة أولادك ، غاسلة ثيابك ، طاهية طعامك (ان الحسنات يذهبن السيئات)

وعين الرضا عن كل شر غضيضة . كما أن عين البغض تبدى المساوىء

صيانة العرض

ومن حق المرأة على زوجها أن يصون عرضها ، ويحفظها من القيل والقال ، وكل ما يخدش الشرف ويسيىء إلى العرض ، ويمتهن كرامتها ، ويعرض سمعتها لقالة السوء ، وهذا من الغيرة التى يحبها الله .

روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ان الله يغار ، وان المؤمن يغار ، وغيرة الله أن يأتى العبد ما حرم عليه »(٢).

وروى أن سعد بن عبادة قال : لو رأيت رجلاً مع امرأتى لضربته بالسيف غير مصفح فقال الرسول : « أتعجبون من غيرة سعد ! لأنا أغير منه ، والله أغير منى ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن »(٣).

---

(١) أنظر صحيح البخارى حـ ٤ ص ١٦١ . كتاب بدء الخلق . باب قوله تعالى : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ...** ﴾

(٢) أنظر صحيح البخارى حـ ٧ ص ٤٥ كتاب النكاح باب الغيرة .

(٣) أنظر صحيح البخارى حـ ٧ ص ٤٥ كتاب النكاح باب الغيرة . ط / الشعب
أنظر صحيح مسلم حـ ٢ ص ١١٣٦ كتاب اللعان رقم ١٤٩٩/١٧ واللفظ له

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يدخلون الجنة : العاق لوالديه والديوث ورجلة النساء »[١]

والديوث : هو الذى لا يبالى من دخل على أهله .

ورجله النساء : هى التى تتشبه بالرجال .

الاعتدال مطلوب فى الغيرة

﴿ يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴾[٢]

وقال الصادق المعصوم ﷺ : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ، ولاتجسسوا ، ولاتحسسوا ، ولاتناجشوا ، ولاتباغضوا ، ولاتدابروا ، ولاتحاسدوا ، وكونوا عباد الله إخوانا »[٣].

وكما يجب على الرجل أن يغار على زوجته فإنه يطلب منه أن يعتدل فى هذه الغيرة فلايبالغ فى إساءة الظن بها ، ولا يسرف فى تقصى كل حركاتها وسكناتها ، ولايحصى جميع عيوبها ، فإن ذلك يفسد العلاقة الزوجية ويقطع ما أمر الله به أن يوصل .

يقول الرسول ﷺ : « إن من الغيرة ما يحبه الله ، ومنها ما يبغضه الله ، ومن الخيلاء ما يحبه الله ، ومنها ما يبغضه الله : فأما الغيرة التى يحبها الله فالغيرة فى الريبة ، والغيرة التى يبغضها الله فالغيرة فى غير ريبة ، والإختيال الذى يحبه الله اختيال الرجل بنفسه عند القتال ، والإختيال الذى يبغضه الله الإختيال فى الباطل »[٤] وقال علي كرم الله وجهه . لا تكثر الغيرة على أهلك فترامى بالسوء من أجلك .

المباشرة الزوجية

قال تعالى : **﴿ فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم**

---

(١) أنظر كنز العمال حـ ١٦ رقم ٤٣٨٠٧ ، ٤٣٨١٩ ، ٤٣٨٤٢

(٢) سورة الحجرات الآية ١٢

(٣) أنظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ١٩٨٥ كتاب البر والصلة باب تحريم الظن والتجسس رقم ٢٥٦٣/٢٨ .

(٤) أنظر كنز العمال حـ ٣ رقم ٧٠٦٦ .

ملاقوه وبشر المؤمنين ﴾(١)

وقال سبحانه : ﴿ **هن لباس لكم وأنتم لباس لهن** ﴾(٢) ثم قال : ﴿ **فالآن باشروهن وابتغوا ماكتب الله لكم** ﴾(٣)

وللفقهاء فى المباشرة الزوجية أقوال يجمل أن نبينها فيما يلى :

قال ابن حزم : فرض على الرجل أن يجامل امرأته التى هى زوجته وأدنى ذلك مرة فى كل طهر إن قدر على ذلك ، وإلا فهو عاصى لله تعالى .

برهان ذلك قول الله عز وجل : ﴿ **فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله** ﴾ . وذهب جمهور العلماء إلى ما ذهب إليه ابن حزم من الوجوب على الرجل إذا لم يكن له عذر .

وقال الشافعى : لا يجب عليه لأنه حق له فلا يجب عليه كسائر الحقوق ونص أحمد على أنه مقدر بأربعة أشهر لأن الله قدره فى حق المولى بهذه المدة فكذلك فى حق غيره .

وإذا سافر عن امرأته فإن لم يكن له عذر مانع من الرجوع فإن أحمد ذهب إلى توقيته بستة أشهر وسئل : كم يغيب الرجل عن زوجته قال : ستة أشهر يكتب إليه فإن أبى أن يرجع فرق الحاكم بينهما .

وقد ثبت فى السنة أن جماع الرجل زوجته من الصدقات التى يثيب الله عليها . روى مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « ... ولك فى جماع زوجتك أجر .. قالوا يا رسول الله : أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟.. قال : أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر ... فكذلك إذا وضعها فى حلال كان له أجر »(٤).

ويستحب المداعبة ، والملاعبة ، والملاطفة ، والتقبيل والانتظار حتى تقضى المرأة حاجتها .

روى أبو يعلى عن أنس بن مالك أن الرسول ﷺ قال : « إذا جامع أحدكم أهله فليصدقها فإذا قضى حاجته قبل أن تقضى حاجتها فلا يعجلها حتى تقضى حاجتها »(٥).

---

(١) سورة البقرة الآيتان ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٢) ، (٣) سورة البقرة من الآية ١٨٧

(٤) أنظر صحيح مسلم حـ ٢ ص ٦٩٧ ، ٦٩٨ كتاب الزكاة باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف رقم ١٠٠٦/٥٣ .

(٥) أنظر كنز العمال حـ ١٦ رقم ٤٤٨٣٨ .

التستر عند الجماع

أمر الإسلام ستر العورة فى كل حال إلا إذا اقتضى الأمر كشفها فعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال : قلت : يا نبى الله ... عوراتنا ما نأتى منها وما نذر ؟.. قال : « احفظ عورتك إلا من زوجتك ، أو ماملكت يمينك » . قلت : يا رسول الله ، إذا كان القوم بعضهم من بعض قال : « إن استطعت ألا يراها أحد فلا يراها » . قال : قلت : إذا كان أحدنا خالياً ؟ قال : « فالله أحق أن يستحيا منه »[١] رواه الترمذى وقال حديث حسن ومن الحديث جواز كشف العورة عند الجماع ، مع ذلك لا ينبغى أن يتجرد الزوجان تجرداً كاملاً .

عن ابن عمر أن النبى ﷺ : قال : « إياكم والتعرى ، فإن معكم من لايفارقكم ، إلا عند الغائط ، وحين يفضى الرجل إلى أهله ، فاستحيوهم وأكرموهم »[٢]. رواه الترمذى وقال حديث غريب .

التسمية عند الجماع

يسن أن يسمى الإنسان ويستعيذ عند الجماع . روى البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « لو أن أحدكم إذا أتى أهله ، قال : بسم الله — اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقتنا ، فإن قدر بينهما فى ذلك ولد ، لن يضر ذلك الولد الشيطان أبداً »[٣].

إتيان الرجل من غير المأتى (حرام)

إتيان المرأة فى دبرها تنفر منه الفطرة ، ويأباه الطبع ، ويحرمه الشرع قال الله تعالى : ﴿ **نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم** ﴾ والحرث موضع الحرث أى بالإتيان فى الفرج خاصة !

قال ثعبان

إنما الأرحـــام أرضون لنـــــا محترثـــــات

فعلينـــــا الـــــزرع فيها وعلى الله النبات

وهذا كقول الله : ﴿ **فأتوهن من حيث أمركم الله** ﴾ . ومما رواه البخارى ومسلم : أن اليهود كانت على عهد رسول الله ﷺ — تزعم أن الرجل إذا أتى امرأته من دبرها لا فى قبلها جاء الولد

(١) أنظر سنن الترمذى حـ ٥ ص ١٠٢ كتاب الأدب باب ماجاء فى حفظ العورة . رقم ٢٧٩٤ .

(٢) أنظر سنن الترمذى حـ ٥ ص ١٠٤ كتاب الأدب . باب ماجاء فى الإستتار عند الجماع . رقم ٢٨٠٠ . ط / دار الكتب العلمية .

(٣) أنظر صحيح البخارى حـ ٤ ص ١٤٩ كتاب بدء الخلق باب صفة إبليس ط / الشعب
أنظر صحيح مسلم حـ ٢ ص ١٠٥٨ كتاب النكاج باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع رقم ١٤٣٤/١١٦ .

أحول ، وكان الأنصار يتبعون اليهود فى هذا ، فأنزل الله — عز وجل — ﴿ **نساؤكم حرث لكم ، فأتوا حرثكم أنى شئتم** ﴾[١]

أى أنه لا حرج فى إتيان النساء بأى كيفية ، مادام ذلك فى الفرج ومادمتم تقصدون الحرث . وقد جاءت الأحاديث صريحة فى النهى عن إتيان المرأة فى دبرها ، روى أحمد ، والترمذى ، وابن ماجه ، أن النبى ﷺ قال : « لا تأتوا النساء فى أعجازهن . أو قال فى أدبارهن »[٢] ورواته ثقات

وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبى ﷺ قال : فى الذى يأتى امرأته فى دبرها ... « هى اللوطية الصغرى » وعن أحمد وأصحاب السنن عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ملعون من أتى امرأة فى دبرها »[٣].

قال ابن تيمية : ومتى وطئها فى الدبر وطاوعته عزرا جميعا وإلا فرق بينهما كما يفرق بين الفاجر ومن يفجر به .

ولقد صدق الله العظيم إذ يقول (فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين)

حرمة التكلم بما يجرى بين الزوجين أثناء المباشرة :

فعن أبى سعيد — رضى الله عنه — أن النبى ﷺ قال : « إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة : الرجل يفضى إلى المرأة وتفضى إليه ثم ينشر سرها »[٤] رواه أحمد .

وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ ، أقبل عليهم بوجهه فقال : « مجالسكم . هل منكم الرجل إذا أتى أهله أغلق بابه وارخى ستره ، ثم يخرج فيحدث فيقول : فعلت بأهلى كذا فعلت بأهلى كذا ؟.. فسكنوا ، فأقبل على النساء فقال هل منكن من تحدث ؟.. فجثت فتاة كعاب على إحدى ركبتيها ، وتطاولت ليرها الرسول ﷺ وليسمع كلامها ، فقالت : أى والله.. إنهم يتحدثون ، وإنهن ليحدثن . فقال : هل تدرون ما مثل من فعل ذلك ؟ إن مثل من فعل ذلك مثل شيطان وشيطانة . لقى أحدهما صاحبه بالسكة ، فقضى حاجته منها — والناس ينظرون إليه »[٥] (رواه أحمد وأبو داود)

(١) سورة البقرة الآية ١٨٧ .
(٢) أنظر سنن الترمذى حديث رقم ١١٦٤ . ومسند الإمام أحمد حـ ١ ص ٨٦ ، حـ ٥ ص ٢١٣ ، ٢١٥ .
(٣) أنظر مسند الإمام أحمد حـ ٢ ص ٢٧٩ .
(٤) أنظر مسند الإمام أحمد حـ ٦ ص ٣٨ .
(٥) أنظر كنز العمال حـ ١٦ رقم ٤٤٨٧٩ .

تعدد الزوجات

لما كان الإسلام ديناً عالميا دائماً إلى أن تقوم الساعة لا يحويه مكان ولا يحده زمان ــ لما كان ذلك كذلك ــ اقتضى أن تكون صيدليته شاملة وافية كافية ، فيها لكل داء دواءه الذى يستطب به ، ومن هذه الأدوية التى اشتملت عليها صيدليته المباركة تعدد الزوجات ، فإن هذا التعدد قد يكون دواء لأمراض كثيرة ، وقد يكون فيه الحل لأزمات متعددة قد تكون الزوجة مريضة لا تقوى على القيام بحقوق الزوج ، أو قد تكون مسنة أقعدها السن عن تلبية رغبات زوجها ، وقد تكون عاقراً لا تلد ، فهل من الأفضل أن يقع الانفصال بينهما فتترك بيت الزوجية ؟

لقد رأى الإسلام بإباحة التعدد أن تظل الزوجة الأولى فى عش الزوجية هانئة فى رعاية زوجها ، ذلك أهدى سبيلا وأهدى مقيلا ، ففى إباحة التعدد وفاء لها حتى لا تصير شريرة طريدة ، أضف إلى ذلك ما يقع من حروب واستشهاد للرجال فى الميادين فماذا يكون الحل لو كثرت الأرامل بعد موت الرجال . لاحل إلا بإباحة التعدد لتعيش فى بيت الزوجية النساء اللائى فقدن الأزواج . وقد تستدعى حال الرجل حتى يعيش عفيفاً أن يتزوج على امرأته لسد حاجته خشية أن ينحرف فيخطىء الحساب ، فيأتى بأوخم العواقب ، فهل من الخير أن تكون المرأة التى تسد حاجته وتكسبه العفة والطهر فى بيت آمن مستقر ، وحياة هادئة مطمئنة . هل من الخير أن تكون تلك المرأة خليلة أم حليلة ؟ .

إن الإسلام يقيم الحياة على أساس الطهر والنقاء بعيداً عن العبث والخلل والإنحراف (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين)(١)

لقد سد الإسلام كل ثغرة قد يكون فيها منفذ إلى الحرام فأباح التعدد كى يسد ويقيم الأسوار العالية الحصينة حول منطقة الزناكى لا يقرب تلك الجناية أحد ، لذا فإن الله تعالى لم يقل ولا تزنوا إنما قال : ﴿ **ولا تقربوا الزنا** ﴾ والفرق بعيد بين المعنيين إذ لو قال : (ولا تزنوا) لكان قرب الزنا مباحاً من النظر واللمس والخلوة وغير ذلك من مقدمات الزنا ، لكن اقتضت حكمة التشريع أن ينهى عن القرب حتى لا يقع الإنسان فى الجريمة ، إذ من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ألا إن حمى الله محارمه ، ومن وقع فى الشبهات فقد وقع فى الحرام فليس ثمة أدنى شك فى أمر النهى عن القرب نهى عن الزنا من باب أولى كما أن النهى فى قوله تعالى : ﴿ **ولا تقل لهما أف** ﴾ فى حق الوالدين نهى عما هو أشد من التأفف كالضرب مثلاً .

من أجل ذلك أباح الإسلام التعدد ، ولم يترك الأمر فوضى إنما حدد المعالم ، وبين المناهج ووضح المسالك ، فقال : ﴿ **ذلك أدنى ألا تعولوا** ﴾(٢) أى : أقرب ألا تجوروا أو تظلموا .

---

(١) سورة التوبة الآية ١٠٩ .

(٢) سورة النساء من الآية ٣ .

فمن حق المرأة على زوجها إذا تزوج عليها أن يكون عادلاً فى المعاملة .

العدالة بين الزوجين

عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : « من كانت عنده امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه ساقط »(١) رواه الترمذى وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ــ رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون فى حكمهم وأهلهم وماولوا » (٢) رواه مسلم .

من الإحسان فى المعاملة عند تعدد الزوجات أن يعدل بين زوجاته ولا يفضل واحدة منهن على غيرها لأن الله تعالى أمر بالاقتصار على زوجة واحدة عند الخوف من الجور فى قوله جل شأنه ﴿ **فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة** ﴾(٣) وهذا يقتضى الأمر بالعدل بين الزوجات عند التعدد .

فإن لم يعدل استحق على عمله هذا أن يعد فى الدنيا من الممقوتين ويحشر فى الآخرة مع الظالمين .

والعدل الذى يطالب به الزوج فى هذه الحالة هو التسوية بين الزوجات فى كل ما يستطيعه ، ويدخل تحت قدرته من الحقوق ، كالتسوية فى النفقة ، وإحسان المعاملة ، ولطف العشرة من غير ميل إلى إحداهن ، ومضارة ما سواها . أما المساواة بينهن فى المحبة والميل القلبى فليست بمطلوبه ، لأن ذلك ليس فى مقدور الإنسان فلا يطالب به شرعاً كما يرشد إلى ذلك قول عائشة ــ رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ ــ يقسم فيعدل ويقول : « اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » يريد ــ ﷺ الميل الباطنى والمحبة القلبية .

ومن العدل الذى يستطيعه الزوج أن يسوى بين زوجاته فى المبيت ، وذلك بأن يبيت عند كل واحدة منهن بمقدار المدة التى يبيتها عند الأخرى ، ولا فرق فى هذا بين البكر والثيب ، والجديدة والقديمة ، والمسلمة والكتابيه ، وصاحبة العذر وغيرها ، لأن سبب وجوب القسم فى المبيت هو الزوجية ، وهى قدر مشترك عند هؤلاء جميعا ، فتجب التسوية بينهن فى ما يترتب عليها وهو المبيت .

والقسم فى المبيت واجب فى حال الصحة والمرض ، فلو مرض الزوج وأراد أن يقيم فى بيت إحداهن فلا يجوز له ذلك إلا إذا رضى به سائر أزواجه لأن النبى ﷺ كان يقسم بين أزواجه وهو مريض ولما ثقل عليه المرض استأذن أزواجه أن يمرض فى بيت عائشة فأذن له .

---

(١) انظر سنن الترمذى حـ ٣ ص ٤٤٧ كتاب النكاح باب ماجاء فى التسوية بين الضرائر رقم ١١٤٠ .

(٢) انظر صحيح مسلم حـ ٣ ص ١٤٥٨ كتاب الإمارة . باب فضيلة الإمام العادل رقم ١٨٢٧/١٨

(٣) سورة النساء من الآية ٣ .

وفي الصحيحين عن عائشة ــ رضي الله عنها قالت :« لما ثقل رسول الله ﷺ استأذن أزواجه أن يمرض فى بيتى فأذن له ولولا أن القسم واجب فى حال المرض ما كان ــ عليه الصلاة والسلام ــ فى حاجة إلى إذن زوجاته ليقيم فى بيت عائشة ، ولا يجب القسم على الزوج فى حالة السفر فإذا أراد السفر كان له أن يختار من زوجاته من تسافر معه لأنه هو الذى يقدر مشقة السفر ويعرف من تصلح له منهن ومن لا تصلح وربما كان ترك بعضهن لازماً لتدبير المنزل ، لكن الأفضل أن يقرع بينهن فيسافر بمن خرجت قرعتها لما فيها من تطيب النفوس وصفاء القلوب ، وهذا ما كان يفعله النبى ﷺ عند إرادة السفر قالت السيدة عائشة ــ رضى الله عنها : « كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فمن خرج سهمها خرج بها معه »(١) ولا تحتسب مدة السفر من أيام القسم حتى لو سافر بواحدة من زوجاته ثم قدم من السفر وطلبت الزوجة الأخرى أن يقيم عندها مقدار مدة السفر لم يلزمه ذلك .

والغرض من هذا ألا يؤذى واحدة بإيثار الأخرى عليها وأن يعمل مافى وسعه ليرضيهن جميعا ، والأصل فى ذلك قول النبى ﷺ « من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل »(٢) وقوله ﷺ « إن المقسطين على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين . الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وماولوا »(٣).

شبهة مردودة

يدعى البعض أن تعدد الزوجات لا أساس له فى الإسلام ذلك لأن الله تعالى قيده بالعدل فى قوله تعالى : ﴿ **فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة** ﴾(٤) ثم نفى استطاعة ذلك العدل فى قوله تعالى : ﴿ **ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم** ﴾(٥) وهذا الإدعاء باطل ، باطل . ومردود ومرفوض من أساسه إذ لو صح ذلك لوقع التناقض فى كتاب الله وليصح أن يقال إن بعض الآيات يناقض البعض الآخر والله تعالى يرد على هؤلاء فى قوله : ﴿ **وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم** ﴾(٦).

---

(١) انظر كنز العمال حـ ٧ رقم ١٨٣٣٧

(٢) انظر مسند الإمام أحمد حـ ٢ ص ٣٤٧

وأنظر سنن أبي داود . حـ ٢ ص ٦٠١ . كتاب النكاح . باب القسم بين النساء . رقم ٣١٣٣ .

(٣) انظر صحيح مسلم حـ ٣ ص ١٤٥٨ كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العادل رقم ١٨٢٧/١٨ .

(٤) سورة النساء آية ٣ .

(٥) سورة النساء آية ١٢٩ .

(٦) سورة النمل آية ٦ .

وبقوله : ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ (١) .

وبقوله : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ (٢) وبقوله : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ (٣) .

فكيف يبيح الله تعالى التعدد بقوله : ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء ﴾ (٤) ثم يلغيه بقوله : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولوحرصتم ﴾ إن هذا الكلام على حد القول الذى حرم التعدد يعتبر ضرباً من العبث فكيف يلعب بكتاب الله وهو المنزه عن العبث . إن الرد على هؤلاء يسير وواضح . فالجهة بين العدلين منفكة وبعيدة فالمراد بالعدل فى الآية الأولى وهى قوله تعالى : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾ العدل المساوى الذى سبق بيانه من النفقة والمبيت والسكنى وغير ذلك ، أما العدل فى الآية الثانية وهى قوله تعالى : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولوحرصتم ﴾ فإن المقصود به العدل القلبى الذى ليس فى استطاعة الإنسان ، والذى أخبر عنه الصادق المعصوم ـــ ﷺ بقوله : « فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك » (٥)

لذا قال تعالى : ﴿ فلا تميلوا كل الميل ﴾ ولم يقل (ولا تميلوا بعض الميل) فكل الميل منهن عنه إذ يمكن الاحتراز عنه أما بعض الميل القلبى فقد يكون فوق الطاقة والاستطاعة لذا جاء التعقيب بعد ﴿ فلا تميلوا كل الميل ﴾ بقوله تعالى : ﴿ فتذروها كالمعلقة ﴾ .

والمراد بالمعلقة هى التى أساء زوجها عشرتها فلا هى مزوجة ولا هى مطلقة ، قال تعالى : بعد ذلك ﴿ وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيما ﴾ (٦) وإذا علمنا ذلك فإن التعدد فى الإسلام أمر مباح مع العدالة المادية التى يستطيع الإنسان أن يقوم بها فإن عجز عن العدالة فعليه أن يسلك الطريق الذى وضحه الله تعالى فى قوله : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ماملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا ﴾ (٧)

---

(١) سورة هود آية ١ .
(٢) سورة محمد آية ٢٤ .
(٣) سورة النساء آية ٨٢ .
(٤) سورة النساء آية ٣ .
(٥) أنظر سنن أبى داود جـ ٢ ص ٦٠١ . كتاب النكاح . باب القسم بين النساء . رقم ٢١٣٤ . وكذلك أخرجه النسائى ، فى عشرة النساء باب ميل الرجل إلى بعض نسائه (٦٤/٧) . والترمذى فى النكاح (التسوية بين الضرائر) رقم ١١٤٠ . وابن ماجة فى النكاح باب القسمة بين النساء رقم ١٩٧١ .
(٦) سورة النساء آية ١٢٩ .
(٧) سورة النساء آية ٣ .

الزواج المثالى

ونعنى به أعظم زواج على وجه البسيطه ، إنه زواج الصادق الأمين محمد ﷺ من العفيفة الطاهرة خديجة بنت خويلد ـــ رضى الله عنها ـــ والذى استمر ربع قرن من الزمان عاش فيها الزوجان عيشة راضية لا تسمع فيها لاغية ، ولنبدأ القصة من أولها :

يروى ابن الأثير وابن هشام أن السيدة خديجة كانت تاجرة وكانت ذات شرف ومال ، تتأجر الرجال فى مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه فلما بلغها عن رسول الله ﷺ صدق الحديث وعظم الأمانة وكرم الأخلاق أرسلت إليه ليخرج فى مالها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره ومعه غلامها ميسرة .

وقد قبل محمد بن عبد الله هذا العرض فرحل إلى الشام عاملاً فى مالها ومعه ميسرة ، فحالفه التوفيق فى هذه الرحلة أكثر من غيره وعاد إلى خديجة بأرباح مضاعفة فأدى لها ما عليه فى أمانة تامة ونبل عظيم .

شهادة ميسرة له

وجد ميسرة من خصائص النبى ﷺ وعظيم أخلاقه ماملأ قلبه دهشة وإعجاباً ، رأى الصدق فى صورته الحقيقية ورأى الأمانة مجسمة فى معاملته رآه سمحاً إذا باع ، سمحاً إذا اشترى ، سمحاً إذا قضى ، سمحاً إذا اقتضى ، رأى فيه الأمانة فى أسمى معانيها .

أدلى ميسرة بهذه الشهادة وإنها لشهادة حق وما زاد ميسرة على الحقيقة شيئاً .

أدلى ميسرة بهذه الشهادة إلى السيدة خديجة فوجدت فى نفسها قلبا طهوراً طيباً فتمكنت من القلب كل تمكن .

لقد أعجبت بصدقه وأمانته ـــ وكفى بهما ـــ إنه رأس مال ضخم ، ورصيد لا يلحق به ولا يشق له غبار .

لقد نالت خديجة بركة عظيمة بفضل هذا الصادق الأمين فأرسلت إليه صديقتها نفيسة بنت منبه تخطبه لنفسها ، ورأى الرسول فى خديجة سيدة ذات خلق كريم ، وعقل راجح ، رغم فارق السن بينه وبينها ، كان عنده من العمر خمس وعشرون سنة ، وكانت تزيد عليه بخمس عشرة سنة ولم ينظر إلى مالها ولا إلى جمالها ولا إلى حسبها وإنما نظر إلى عقلها وخلقها ، وهكذا عظماء الرجال .

على قدر أهـل العـــزم تأتى العـــزائم
وتـــأتى على قدرالكـــرام المكـــارم
وتعظـــــم فى عين الصغير صغيرهــــا
وتصــغرفى عين العـــظيم العظـــائم

كلم الرسول أعمامه ، فوافقوا على هذا الزواج ، فخطبوها له من عمها عمر بن اسد ، فرحب بذلك الزواج الميمون المبارك .

وكانت خديجة قبل ذلك قد تزوجت برجلين ، الأول منهما (عتيق بن عائد التميمى) ثم خلفه عليها (أبو هالة التميمى) وبعد موتهما طرق كثير من الرجال بابها لتكون لهم زوجا ، فلم تفتح بابها ، لأنها رأت فيهم **طلاب** مال خديجة حتى اذا ما انتهى مالها فلن تكون أمامهم خديجة .

إنهم يتعاملون بلغة الأرقام ، ويتفاهمون بمبدأ الصعود والهبوط كسماسرة الأسواق ، لكنها رأت فى محمد الإنسان الصادق الأمين ، فخطبته لنفسها ورأى فيها محمد السيدة العفيفة الطاهرة ، فرضيها زوجا .

وليلة زفافه بها وقف عمه أبو طالب يلقى خطبة الزواج . وقف يقول : الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل ،وجعل لنا بيتاً محجوجاً،وبلداً حراما ، وجعلنا الحكام على الناس . أما بعد فإن محمدا بن عبد الله ابن أخى لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح به براً وفضلاً وكرما وعقلاً ومجداً ونبلاً ، وإن كان فى المال قلاً ، فالمال ظل زائل ، وعارية مسترجعة وإن لمحمد رغبة من خديجة ولها فيه مثل ذلك وما طلبتم من الصداق فعلى .

دعوة باطلة

نعم إنها دعوى لأنه لم يقم عليها دليل يثبت صحتها . وباطلة لأنها جاءت بدافع الحقد والحسد على رسول الإسلام ، ونبعت من قلوب تفرز البغضاء كما يفرز الكبد عصارة الصفراء ، لذلك رأينا ونحن نتكلم عن زواج المصطفى ﷺ بالسيدة خديجة ـــ رضى الله عنها ـــ أن نعقب بهذا البحث ، لنلجم ألسنة الحاسدين الحاقدين الذين يحاولون أن يثيروا غبار الشبهات الباطلة على التعدد فى أزواج رسول الله ﷺ وهم بذلك ينضحون مافى قلوبهم من زيغ . فلو تحول الناس جميعاً إلى كناسين **ليثيروا** التراب على السماء يثيرونه على أنفسهم وتبقى السماء هى السماء . ضاحكة السن بسامة المُحَيا .

ماضر شمس الضحى فى الأفـــق ساطعـــة

أن لا يرى نورهـــــا من ليس ذا بصر

نعم يا أعداء الله من المستشرقين ومن لف لفهم من المستغربين وأدعياء الثقافة ، وأبناء القرر الثقافي أن الرسول لن يغيره أن تنبح عليه هذه الأصوات ، فستظل القافلة سائرة مهما كانت الذئاب تعوى .

ومـــاضر الـــورود ومـــا عليها

إذا المزكـــوم لم يطعـــم شذاهـــا

وها نحن **أولا نسلط مدفعية الإسلام الثقيلة على هذه المواقع فنأتى عليها جميعا** ، فنذرها قاعاً صفصفا .

إن قصة زواجه ﷺ من خديجة ــ رضى الله عنها ــ كما ذكرنا سابقاً توضح للإنسان وضوحاً لا تلتبس معه الرؤية . أن رسول الله ﷺ لم يكن فى اعتباره الاهتمام بأسباب المتعة الجسدية ومكتملاتها ، فلو كان مهتما بذلك كبقية أقرانه من الشبان لطمع فيمن هى أقل منه سناً ، أو فيمن ليست أكبر منه على أقل تقدير ، ويتحلى لنا أنه ﷺ إنما رغب فيها لشرفها ونبلها بين جماعتها وقومها حتى إنها كانت تلقب فى الجاهلية بالعفيفة الطاهرة .

ولقد ظل هذا الزواج قائماً حتى توفيت خديجة عن خمسة وستين عاماً وقد ناهز النبى ﷺ الخمسين من العمر دون أن يفكر خلالها بالزواج بأية امرأة أخرى .

وما بين العشرين والخمسين من عمر الإنسان هذا الزمن الذى تتحرك فيه رغبة الاستزادة من النساء . والميل إلى تعدد الزوجات للدوافع الشهوانية .

ولكن محمدا ﷺ تجاوز هذه الفترة من العمر دون أن يفكر كما قلنا بأن يضم إلى خديجة مثلها من الإناث : زوجة أو أمة ، ولو شاء لوجد الزوجة والكثير من الإماء دون أن يخرق بذلك عرفاً أو يخرج على مألوف . هذا فضلا عن أنه تزوج خديجة وهى أيم وكانت تكبره بما يقارب مثل عمره .

وفى هذا ما يلجم أفواه أولئك الذين يأكل الحقد أفئدتهم على الإسلام وقوة سلطانه من المبشرين والمستشرقين وعبيدهم الذين يسيرون من ورائهم ، ينعقون بما لا يسمعون إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون إنهم يعرفون بما لا يعرفون ويحاولون أن يطاولوا السماء وأن يمدوا إلى الشمس يدا شلاء .

إنهم يمضغون الهواء . ويفتلون من الرمال حبالا

لقد ظنوا أنهم واجدون فى موضوع زواج النبى ﷺ مقتلاً يصاب منه الإسلام ويمكن أن تشوه منه سمعة المصطفى ﷺ .

وتخيلوا أنه بمقدروهم أن يجعلوه عند الناس فى صورة الرجل الشهوانى الغارق فى لذة الجسد ، الغارق في معيشته المنزلية ورسالته العامة عن عفاف القلب والروح .

حاشا لله يا رسول الله .

والله ماعلمنا عليك من سوء ، إنها فرية مافيها مرية (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً) .

يريدون أن يلصقوا به ﷺ صورة الرجل الشهوانى الغارق فى لذات الجسد . وموضوع زواجه ﷺ هو وحده الدليل الكافى على عكس ذلك تماماً .

فالرجل الشهوانى لا يعيش إلى الخامسة والعشرين من العمر فى بيئة مثل بيئة العرب فى جاهليتها عفيف النفس دون أن ينساق فى شيء من التيارات الفاسدة التى تموج حوله .

الرجل الشهوانى لا يقبل بعد ذلك أن يتزوج من أيم لها ما يقرب من ضعف عمره ، ثم يعيش معها دون أن تمتد عينه إلى شىء مما حوله وأن من حوله الكثير وله إلى ذلك أكثر من سبيل إلى أن يتجاوز مرحلة الشباب ثم الكهولة ويدخل فى مدارج الشيخوخة .

أما زواجه بعد ذلك من السيدة عائشة ــ رضى الله عنها ــ ثم من غيرها فإن لكل منهن قصة . ولكل زواج حكمة وسبب يزيدان من إيمان المسلم بعظمة محمد ﷺ ورفعة شأنه وكمال أخلاقه .

زواجة بالسيدة سودة (رضى الله عنها)

وتزوج بالسيدة سودة بنت زمعه ــ رضى الله عنها ــ وكانت زوجاً للسكران بن عمرو وكان قد أسلم قديماً وهاجر إلى أرضى الحبشة الهجرة الثانية ومات حين قدما مكة ولو عادت إلى أهلها بعد موت زوجها لعذبوها وفتنوها عن دينها فكفلها ﷺ وهو المثل الأعلى للهمة والنجدة والمروءة ، وكانت مسنة ولم يكن معه غيرها ومكث معها خمس سنين إلى أن تزوج بالسيدة عائشة ــ رضى الله عنها ــ فى السنة الأولىٰ من الهجرة فترى من هذا أنه ﷺ لم يتزوج السيدة سودة إلا لإيوائها وتعويضها خيراً من زوجها الذى مات معها حريصا على إيمانه فاراً بعقيدته وتآلفاً لقومها وقوم زوجها الذين أسلموا ونالوا صحبته ﷺ .

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

زواجه بالسيدة عائشة (رضى الله عنها)

وتزوج بالسيدة عائشة ــ رضى الله عنها ــ بنت أبى بكر الصديق ــ رضى الله عنه ــ وكلنا بعلم من هو أبو بكر الصديق الذى كان معه (ثانى اثنين إذهما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا)

وإذا علمنا أنه لم يتزوجها إلا وهو ابن خمس وخمسين سنة وعلمت أنه لم يرد إلا مكافأة أبيها وإحكام الرابطة بينهما وقد كانت ــ رضى الله عنها ــ واسطة فى نقل الأحكام والتشريعات إلى سواد الأمة الإسلامية خصوصاً ما يتعلق منها بالنساء . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا !!

زواجه بالسيدة حفصة (رضى الله عنها)

وتزوج بالسيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ وكانت زوجاً لخنيس بن حذافة ، ومات عنها من جراح أصابته ببدر ، وتزوجها رسول ﷺ ــ مكافأة لها وحباً فى أبيها الذى سره كل السرور هذا النسب الشريف ، ورغبة فى إيوائها وتعويضها عن فقد زوجها الذى قتل فى سبيل الله وهو يدافع عن الله ورسوله ودينه . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

زواجه بالسيدة زينب بنت جحش (رضى الله عنها)

وتزوج بالسيدة زينب بنت جحش ، وهى ابنة عمته وكان قد زوجها لمولاه زيد بن حارثة ليرفع من شأن الأسير الكسير ، ويعلى من قدره ويجعله أصلاً لمصاهرة بنى هاشم ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾

وقد تزوجها ﷺ بعد طلاقها من زيد بوحى من الله تعالى للتشريع ﴿ **لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً** ﴾ (١)

وقد كان زواجه بها إعفاء من إهمال يصيبها بعد طلاق يذلها فيقضى عنها الخاطبين الذين لا يتقدمون مختارين إلى مطلقات الأحرار فما بالك بمطلقات الأرقاء . قل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

---

(١) سورة الأحزاب آية ٣٧ .

زواجه بالسيدة زينب بنت خزيمة (رضى الله عنها)

وتزوج بالسيدة زينب بنت خزيمة وكانت زوجاً لعبد الله بن جحش ـــ رضى الله عنهما ـــ فقتل عنها يوم أحد فتزوجها ﷺ إيواء لها وجبراً لمصابها فى زوجها وحفظا لدينها . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

زواجه بالسيدة أم سلمة (رضى الله عنها)

وتزوج بالسيدة أم سلمة (هند بنت أبى أمية) وكانت زوجاً لابن عمها عبد الله بن عبد الأسد وكانا أسلما قديما وهاجرا إلى الحبشة ثم قدما مكة وهاجرا إلى المدينة فمات أبو سلمة من جرح أصابه فى غزوة أحد فتزوجها ﷺ فأواها وحفظها ، فترى من هذا أنه ﷺ تزوجها ليعوضها خيراً من زوجها الذى فقدته وكانت كثيرة الأولاد فآواها وآوى أولادها وقام لشئونها جزاء لها على هجرتها وإيمانها وثباتها ووفائها . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

زواجه بالسيدة أم حبيبة (رضى الله عنها)

وتزوج بالسيدة أم حبيبة (رملة بنت أبى سفيان) وكانت زوجا لعبيد الله ابن جحش وقد هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية ثم تنصر زوجها ومات هناك وثبتت هى على إسلامها وأبت أن تتنصر معه وخالفته وإختارت الإسلام عليه فأتم الله تعالى لها : الإسلام والهجرة والصحبة وأكمل لها الشرف بزواجها من رسول الله ﷺ .

وقد خطبها ﷺ حين سمع بانقطاعها وفقد نصرائها . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

زواجه بالسيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية (رضى الله عنها)

وتزوج بالسيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية بعد وفاة زوجها وسنها ـــ رضى الله عنها ـــ زهاء خمسين سنة وقد تزوجها إيواء لها وتألفاً لقومها وقد أسلم لسبب هذا الزواج كثير من قومها ، منهم : ابن أختها سيف الإسلام خالد بن الوليد . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

زواجه بالسيدة جويرية بنت الحارث (رضى الله عنها)

وتزوج بالسيدة جويرية بنت الحارث بن ضرار وكانت زوجاً لمانع بن صفوان المصطلقى وقد قتل كافراً يوم المريسيع وأخذت سبية ضمن سبايا وأسرى بنى المصطلق وكانت سيدة بنى المصطلق وبنت سيدهم فأعتقها ﷺ وتزوجها فلما سمع المسلمون بذلك اعتقوا مافى أيديهم من سبى بنى المصطلق عن بكرة أبيهم ، وحسن إسلامهم .

فترى من ذلك أنه لم يتزوجها سوى رغبة فى إسلام قومها وقد أنقذها من الأسر وأعتقها من الرق وأعزها من الذل . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

زواجه بالسيدة صفية بنت حيى بن أخطب (رضى الله عنه)

وتزوج بالسيدة صفية بنت حيى بن أخطب سيد بنى النضير . قتل أبوها مع بنى قريظة وكان زوجها لسلام بن شكم القرظى ثم فارقها فتزوجها كنانة بن أبى الحقيق وقتل عنها يوم خيبر فأخذت ــ **رضى الله عنها** ــ فى السبى فخيرت بين العودة إلى قومها وزواجها بالرسول فاختارت الخيرة فأعتقها ﷺ وتزوجها رغبة فى إسلام قومها (اليهود) وقد أسلم كثير منهم . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

حكمـــة راشـــدة

ويتضح مما تقدم أن الرسول ﷺ لم يتزوج إحداهن إلا لأسباب دينية ومقاصد أخروية لاتمت إلى الشهوة بسبب ولا تتصل إلى الميل للنساء بصلة .

هذا عدا أن هناك حكمة لهذا التعدد من أجل الحكم وهى نشر الأحكام الخاصة بالنساء والتى لا يستطيع تبليغها الرجال كالطهارة والغسل والحيض والنفاس والولادة والرضاع إلى غير ذلك من الأحكام التى لا يستطيع إفهامها للنساء على وجهها الأكمل سوى النساء ، ولا يمكن بحال أن تقوم بمهمة تبليغ الأحكام لسائر نساء المسلمين على اختلاف طبقاتهم فى ذلك الحين امرأة واحدة بل عدة نساء من عدة قبائل وبذلك يتم ما أراده الله تعالى من إظهار نوره وبسط شرائعه ، قال تعالى : ﴿ **واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيرا** ﴾[1]

---

(١) سورة الأحزاب آية ٣٤ .

وقد ثبت أنهن أذعن عنه ﷺ علماً وفضلاً وفقهاً ولو كان ﷺ يريد بالتعدد ما يريده سائر الملوك والأمراء من التمتع واللذة ليس غير لانتخب الحسان الأبكار والكواعب والأتراب ولم يتجه صوب هؤلاء **الثيبات** المكتهلات .

فهل بعد هذا لمبشر – عتل زنيم – أن يقول ﷺ إنه شهوانى يميل إلى النساء ؟ فى حين أن فى ديانتهم ومعتقداتهم ما ننزه ألستنا عن ذكره وأقلامنا عن تدوينه ؟

فسبحان من هدانا لدين الحق ، دين النور ، دين الفطرة ، وأظهره على الدين كله ولو كره الكافرون .

﴿ خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهله ﴾

وفضلاً عن ذلك فلم تكن علاقاته – عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم – بزوجاته كعلاقة أى زوج مهما دنا بأى زوجة مهما غلت ؟ فقد عاشرهن السنين الطوال فلم تفلت من لسانه الكلمة النابية بل الكلمة الرقيقة ، ولم تبد على سماته النظرة القاسية بل النظرة الحانية . وما من رجل بلغ ما بلغ من المروءة والدقة وسعة إلا واستحال رضاه إلى غضب فى ساعة ما ، وبدا منه التذمر والتضمر إزاء تصرف ما ، وبدرت منه بوادر الشر ونذر السوء حيال عمل ما .

ولكن الرسول ﷺ الذى أوتى جماع الفضائل وبعث ليتمم مكارم الأخلاق ... الرسول الذى أرسل من البشر ليعلى من أقدار البشر ويرفع من شأنهم ويسمو بنوعهم لم يكن كذلك ولم يكن هذا منه ﷺ جبناً أو ضعفاً بل كان كمالاً وجلالا .

وننتقل بعد ذلك إلى موقف آخر يتعلق بزواج الرسول ﷺ وهو قصة التخيير فما هى تلك القصة ؟

قصة التخيير

قال تعالى : **﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا * وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما ﴾ الآيات** من سورة الأحزاب[1].

---

(١) انظر كشف الأستار عن زوائد البزار . حـ ٢ ص ١٨٤ رقم ١٤٨٠ .

(٢) سورة الأحزاب الآيتان ٢٨ ، ٢٩ .

إن رسول الله ﷺ لم يرد الحياة متعة فانية ولا زخارف براقة لأن قلبه كان مليئاً بالقناعة والرضا والإيمان والحكمة لقد خيره الله بين أن يكون نبياً عبداً أو نبياً ملكاً فاختار أن يكون نبياً عبداً وقال فى ذلك « أجوع يوماً فأذكرك وأشبع يوماً فأشكرك » ورفض الحياة فى زخارفها ومباهجها ومفاتنها ولو أرادها مملكة ونعيماً وخدما وحشما وترفا لكان له فى ذلك .

ورواودتـــه الجبـــال الشم من ذهب
عن نفسه فأراهـــــــا أيما شمم
وأكـــدت زهـــده فيها ضرورتـــه
إن الضرورة لاتعـــدو على الـــعصم
وكيـــف يدرك فى الدنيـــا حقيقتـــه
قوم نيـــام تسلـــوا عنـــه بالحلـــم ؟

كيف يقال على هذا النبى ﷺ أنه نظر إلى الحياة على أنها متعة جسدية وهو الذى كان يمكث فى بيته شهرين ولم توقد فى بيته نار يطبخ عليها ؟

إن الله تعالى خاطب نبيه ﷺ بهاتين الآيتين فى أمر عرض له من أزواجه عندما طلبن منه زينة الحياة الدنيا فلو كان الرسول يسعى لمتعة جسدية وشهوة نسائية لوفر لهن هذه المطالب وأكثر منها ، كما يفعل أصحاب الرغبات والشهوات ولكن ماذا حدث ؟

أسمع إلى العلامة ابن كثير ، يفسر هذا المشهد القرآنى ، يقول رحمه الله : « هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ أن يخير نساءه بين أن يفارقهن فيذهب إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها ، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ، ولهن عند الله فى ذلك الثواب الجزيل ، فاخترن ــ رضى الله عنهن وأرضاهن ــ الله ورسوله والدار الآخرة ــ فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة .

قال البخارى بسنده عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، أن عائشة ــ رضى الله عنها ــ زوجة النبى ﷺ أخبرته أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله تعالى أن يخير أزواجه قالت : فبدأ بى رسول الله ﷺ فقال : « إنى ذاكر لك أمراً فلا عليك أن لا تستعجلى حتى تستأمرى أبويك » وقد علم أبوى لم يكونا يأمرانى بفراقه . قالت : ثم قال : « إن الله تعالى قال ﴿ **يا أيها النبى قل لأزواجك** ... ﴾ الآيات إلى تمام الآيتين . فقلت له : **ففى** أى هذا استأمر أبوى ؟ فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة .

أرأيت ياأخا الإسلام لم كان التخيير وفيم كان ؟؟

لأنهن أردن الحياة الدنيا وزينتها ، فخيرت بين الحياة الدنيا وزينتها والتسريح الجميل وبين الله ورسوله والدار الآخرة .

ومعنى ﴿ **أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا** ﴾ أى : أعطيكن حقوقكن وأطلق سراحكن .

لو كان هذا الإنسان الكامل والمثل الأعلى طالب متعة وصاحب رغبة شهوانية ، هل كان يمانع فى أنه يأتى لهن بزينة الحياة الدنيا ليستمتع بمفاتن النساء ومباهج الحياة ؟

سبحانك ربى ، لقد بعثته أسوة حسنة وقدوة طيبة . إن هذا البيت بيت النبوة ، لقد قال الله تعالى لنساء هذا البيت ﴿ **واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً** ﴾ .

بيت يهبط فيه الأمين جبريل ورفقاؤه من كبار الملائكة . بيت يتلقى الوحى من رب السماء .

بيت قرآنى يفوح من أريج القرآن عطراً وريحاناً .

إنه البيت الذى قال الله تعالى فى شأنه : ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا** ﴾[1].

حقـوق الـزوج

قال تعالى : ﴿ **الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله** ﴾[2].

إن ميزان الإسلام عادل فى كل قضاياه وبين الحقوق والواجبات يقيم الإسلام الوزن بالقسط ولا يخسر الميزان ، فكما أن للزوجة حقوق على زوجها قد سبق بيانها فإن منطق العدالة يقتضى أن يكون للزوج حقوقا على زوجته حتى لايطغى الميزان فيخطىء الحساب فيأتى بأوخم العواقب .

وهاهو الصادق الأمين صلوات ربى وسلامه عليه حدثنا عن مكانة الزوج بالنسبة للزوجته .

عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت : سألت رسول الله ﷺ : أى الناس أعظم حقاً على المرأة ؟ قال : زوجها ، قلت : فأى الناس أعظم حقاً على الرجل ؟ قال :أمــه »[3]رواه البزار .

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٣٣ .

(٢) سورة النساء آية ٣٤ .

(٣) انظر كشف الأستار عن زوائد البزار . حـ ٢ ص ١٧٦ . رقم ١٤٦٢ .

وعن أم سلمة ــ رضى الله عنها ــ قالت : قال رسول الله ﷺ : « أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة »[١] رواه الترمذى .

وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا صلت المرأة خمسها وحصنت فرجها وأطاعت بعلها دخلت من أى أبواب الجنة شاءت »[٢] رواه ابن حبان والإمام أحمد .

وروى عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ قال : جاءت امرأة إلى النبى ﷺ قالت : يا رسول الله ، أنا وافدة النساء إليك ، هذا الجهاد كتبه الله على الرجال فإن يصيبوا أجروا وإن قتلوا كانوا أحياء عند ربهم يرزقون ونحن معشر النساء نقوم عليهم فمالنا من ذلك ؟ قال : فقال رسول الله ﷺ : « أبلغى من لقيت من النساء أن طاعة الزوج واعترافا بحقه يعدل ذلك وقليل منكن من يفعله »[٣] رواه البزار .

– وعن قيس بن سعد ــ رضى الله عنه ــ قال : أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم فقلت : رسول الله ﷺ أحق أن يسجد له ، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت : إنى أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم فأنت أحق أن يسجد لك ، فقال لى : « أرأيت لو مررت بقبرى أكنت تسجد له ؟ فقلت لا . فقال : لا تفعلوا لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن لما جعل الله لهم عليهن من الحق »[٤] رواه أبو داود .

ولفظ ابن ماجه فقال رسول الله ﷺ : « لا تفعلوا فإنى لو كنت آمراً أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها والذى نفسى محمد بيده لا تؤدى المرأة حق ربها حتى تؤدى حق زوجها »[٥] .

وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فلم تأته فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح »[٦] رواه البخارى ومسلم .

وفى رواية لهما قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذى فى السماء ساخطا عليها حتى يرضى عنها »[٧] .

---

(١) انظر سنن الترمذى حـ ٣ ص ٤٦٦ . كتاب الرضاع باب حق الزوج على المرأة رقم ١١٦١ .
انظر سنن ابن ماجة حـ ١ ص ٥٩٥ . كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة رقم ١٨٥٤ .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد حـ ١ ص ١٩١ . وصحيح ابن حبان حـ ٦ ص ١٨٤ والبزار حـ ٢ ص ١٨١ رقم ١٤٧٣ .

(٣) انظر كشف الأستار عن زوائد البزار حـ ٢ ص ١٨١ رقم ١٤٧٤ .

(٤) انظر سنن أبى داود حـ ٢ ص ٦٠٤ رقم ٢١٤٠ .

(٥) انظر سنن ابن ماجة حـ ١ ص ٥٩٥ كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة رقم ١٨٥٣ .

(٦) انظر صحيح مسلم حـ ٢ ص ١٠٦٠ كتاب النكاح . باب تحريم امتناعها من فراش زوجها . رقم ١٤٣٦/١٢٢ .

(٧) انظر صحيح مسلم حـ ٢ ص ١٠٦٠ كتاب النكاح . باب تحريم امتناعها من فراش زوجها . رقم ١٤٣١/١٢١

وعن ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ قال : رسول الله ﷺ « اثنان لا تجاوز صلاتهما رءوسهما : عبد أبق من مواليه حتى يرجع ، وامرأة عصت زوجها حتى ترجع »[١]. رواه الطبرانى .

وقد فصل الفقهاء الحقوق الواجبة للزوج على زوجته تفصيلاً لا يدع لبساً أو غموضا وإليك بيان تلك الحقوق :

١ - الطاعة

للزوج حقوق على زوجته يجب عليها مراعتها والقيام بها وأول هذه الحقوق الطاعة ، فالأسرة هى الجماعة الأولى التى تتكون منها الأمة ، وبصلاحها تصلح الأمة وبفسادها تفسد ، لا ينتظم أمر جماعة من الجماعات ولا يستقيم حالها إلا إذا كان لها رئيس يدير أمورها ويصرف شئونها ويوجهها إلى الغاية الصحيحة فى الحياة ، ولما كانت المرأة قد أعدتها الفطرة الإلهية للحمل والولادة والعناية بشئون البيت ووهبتها خِلقة لا تقوى على الكفاح الخارجى فى الحياة فى حين أنها وهبت الرجل قوة فى البدن والعزم والعمل وطبيعة تمكنه أن يعيش فى البيت ويعمل خارجه ويتردد على الأسواق ويختلط بالناس فيعرف من شئون الحياة وسياسة الاجتماع مالا تعرف لذلك كان أجدر منها بمرتبة الرئاسة ، وله عليها حق الطاعة بفعليها أن تطيعه فيما هو من شئون الزوجية فى غير ما نهى الله عنه إذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . والأصل فى ذلك قوله تعالى : ﴿ **ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم** ﴾[٢] فإنه سبحانه جعل للزوجات من الحقوق مثل ما عليهن من الواجبات وجعل للأزواج درجة على الزوجات وهذه الدرجة هى درجة الرئاسة البيتية والقومية على شئون الزوجة وما يلزم لرعاية الأولاد وتربيتهم وقد أثبت جل شأنه هذه القوامة فى الآية الأخرى بقوله عز وجل ﴿ **الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم** ﴾[٣]

وبين السبب فى تحميل الرجال مسئولية الهيمنة والقوامة وهو ما أودعه فيهم من القوة فى البدن والقدرة على الكفاح وتحصيل المال وما كلفهم به من الإنفاق على البيت والقيام بكل ما تحتاج إليه الزوجة والأبناء والأسرة .

ومجال الناحية الخلقية فى هذا أوسع من مجال الناحية القانونية ولذلك كثرت الأحاديث التى تحث الزوجة على طاعة زوجها .

---

(١) انظر كنز العمال حـ ٩ رقم ٢٥١٠٧ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٢٨ .

(٣) سورة النساء آية ٣٤ .

٢ - القرار فى البيت

قال الفقهاء ومن حق الزوج على زوجته القرار فى البيت : قال تعالى ﴿ **وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله** ﴾(١) .

وقال جل شأنه : ﴿ **إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً** ﴾(٢)

هذه أحكام الله ، والله تعالى إذا قضى فلا راد لقضائه وإذا حكم فلا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب ، وهو الحكم العدل المقسط ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤتى من لدنه أجراً عظيماً** ﴾(٣) لذا قال سبحانه ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً** ﴾(٤)

قال الفقهاء : ومن حق الزوج على زوجته أن تقيم معه فى المسكن الذى أعده لهما متى أوفاها عاجل صداقها ، وكان المسكن الذى أعده لها مسكنا شرعيا تتوفر فيه أسباب الراحة والاستقرار والكرامة لأن عقد الزواج يتضمن تعهد كل منهما بالقيام بمطالب الزوجية ، ومطالب الزوجية تقتضى قرار الزوجة فى المنزل حتى تستطيع التفرغ لما شرع الزواج له من إنجاب الأولاد والعناية بهم وتهيئة وسائل الراحة لأفراد الأسرة جميعاً ، خصوصاً وأن خروج المرأة مدعاة للفتنة ولو فتح هذا الباب لاختل نظام الأسرة ، وسرى الشك إلى الزوج فى سلوك زوجته ، وفى هذا من الفساد ما لا يخفى ، لذلك على الزوجة أن تبقى فى منزل الزوجية وألا تخرج منه إلا إذا أذن لها الزوج فى ذلك أو كان هناك ضرورة تدعوها إلى الخروج كأداء فريضة الحج بشرط أن تكون فى صحبة ذى محرم ، وكزيارة أبويها وأقاربها المحارم .

وقد نص الفقهاء على أن للزوجة الحق فى أن تزور أبويها مرة فى كل أسبوع وأن تزور من عداهما من المحارم مرة فى كل سنة ، والذى ينبغى فى هذا الموضوع أن يترك تقدير مرات الزيارة وفتراتها للعرف مع مراعاة حال الزوجة وحال أقاربها وحال زوجها فقد يقضى العرف بأن خروجها مرة فى كل

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٣٣ .
(٢) سورة الأحزاب الآية ٣٥ .
(٣) سورة النساء آية ٤٠ .
(٤) سورة الأحزاب آية ٣٦ .

أسبوع لزيارة أبويها لاداعى إليه وقد يكون فى خروجها كل أسبوع لزيارتهما فتح لباب الفتنة خصوصاً إذا كانت الزوجة شابة أو كان الزوج من ذوى المكانات فى الهيئة الاجتماعية .

وفى جميع الحالات التى يباح للزوجة فيها الخروج لا يجوز لها شرعاً أن تخرج على وجه ينافى الأدب ، ويجافى الفضيلة ، ويدعو إلى الفتنة ، كأن تخرج متزينة متعطرة أو كاشفة عن شىء مما أوجب الله عليها ستره كالشعر والعنق والصدر والذراعين والساقين ، وغير ذلك مما يكون من شأنه أن يدعو الرجال إلى التطلع إليها والافتتان بها ، لقول الله تعالى : ﴿ **ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى** ﴾[1] ومن التبرج على ماجاء فى بعض الروايات المشية بتكسر وحركات مثيرة، كما كان يفعله نساء الجاهلية الأولى ، ومن التبرج أيضاً أن تلبس المرأة ثوباً رقيقاً لا يحجب رؤية ما تحته أو يصف ما تحته ويحدد أجزاء جسمها .

روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : « صنفان من أهل النار لم أرهما بعد . نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات على رؤوسهن أمثال أسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا كذا . ورجال معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس »[2]

وأخرج الحاكم عن أبى موسى ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ﷺ قال : « أيما امرأة استعطرت فخرجت فمرت على قوم ليجدوا ريحها فهى زانية وكل عين زانية »[3].

ومما يتناوله حق الطاعة والقرار فى البيت أن تصون المرأة نفسها عما يدنس شرفها وشرف زوجها وأن تحافظ على كرامتها ، وأن ترعى أولادهما وتحسن تربيتهم ، وأن تحفظ مال زوجها فلا تعط أحداً منه شيئاً لم تجر العادة بإعطائه إلا بإذن زوجها ، وألا تأذن لأحد فى دخول بيته من غير رضاه ، وأن تحسن عشرته كما يجب عليه أن يحسن عشرتها ، وبذلك يسود الوئام بين الزوجين ويعيشان فى هناء وسعادة .

هذا ومما ينبغى أن تعلمه المرأة أن ملازمتها لبيتها وعدم خروجها إلا بإذن زوجها أو لضرورة أو حاجة لا يراد منه ــ كما يشيعه أعداء الفضيلة ــ حبسها فى المنزل أو التضييق عليها ، وإنما يراد منه تفريغها لخدمة البيت والإشراف على شئونه التى هى من خصائصها ورعاية الأولاد فى الطفولة التى

---

(١) سورة الأحزاب آية ٣٤ .

(٢) أنظر صحيح مسلم حـ ٣ ص ١٦٨٠ كتاب اللباس والزينة . باب النساء والكاسيات العاريات المائلات المميلات . رقم ٢١٢٨/١٢٥ .

(٣) انظر المستدرك على الصحيحين حـ ٢ ص ٣٩٦ تفسير سورة النور .

هى من شأنها والمحافظة على كرامتها وحمايتها من الأضرار والمفاسد التى تنشأ عن كثرة الخروج ومزاحمة الرجال .

وعلى الجملة فإن ملازمة المرأة لبيتها يخلصها من آفات كثيرة وبلايا عديدة ، وإن إيجاب الشرع ذلك عليها هو لفائدتها وراحتها والسير بها إلى ما يوجب لها الرفعة وعلو الشأن والراحة والهناء ، وحسبه فخراً أن الله تعالى جعله من أحسن ما توصف به المرأة فقال تعالى : ﴿ **حور مقصورات فى الخيام** ﴾[(١)] وحث عليه النبى ﷺ فى كثير من الأحاديث ومن ذلك ما رواه الترمذى أن الرسول ﷺ قال : « إن المرأة إذا خرجت استشرفها الشيطان ، وأقرب ما تكون من رحمة ربها وهى فى قعر بيتها »[(٢)]. وأخرج البزار عن أنس قال : جاءت النساء إلى رسول الله ﷺ فقلن يا رسول الله : ذهبت الرجال بالفضل والجهاد فى سبيل الله فهل لنا من عمل ندرك به المجاهدين ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « من قعدت منكم فى بيتها فإنها تدرك عمل المجاهدين فى سبيل الله »[(٣)].

ولو أن عقلاء الأمة حرصوا على هذا المبدأ الإسلامى وعلموه لأزواجهم وبناتهم وألزموهن به لقضوا على التبرج وفساد الأخلاق وصانوا بذلك أعراضهم ، وحفظوا أنسابهم وحموا الأسرة من التفكك والانحلال هذا ، ومما ينبغى التنبيه عليه هنا أن التزام الزوجة بالطاعة والانقياد لزوجها يقابله واجب على الزوج ، وهو الإنفاق على الزوجة ، فإذا قام الزوج بالواجب عليه وامتنعت الزوجة من طاعة زوجها بدون عذر كان ذلك نشوزاً مانعا لاستحقاقها النفقة ، فللزوج أن يمتنع من الإنفاق عليها إلى أن تعود إلى طاعته .

٣ - التأديب

ومن الحقوق التى جعلها الشارع الحكيم للزوج حق تأديب الزوجة وتهذيبها بالمعروف اللائق بمكانها ، كما يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ **الرجال قوامون على النساء بما فضل بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيراً** ﴾[(٤)].

جعلت الآية **النوع الأول** : الصالحات ، وهن اللاتى وصفهن الله تعالى بقوله : ﴿ **فالصالحات**

---

(١) سورة الرحمن آية ٧٢ .

(٢) أنظر كنز العمال حـ ١٥ رقم ١٣٠٥١ ، ١٣٠٥٦

(٣) أنظر كشف الأستار عن زوائد البزار حـ ٢ ص ١٨٢ . كتاب النكاح رقم ١٤٧٥ .

(٤) سورة النساء آية ٣٤ .

قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ﴾ وهؤلاء لسن فى حاجة إلى تأديب ، فقد بلغن بصلاحهن وخضوعهن لله ولأزواجهن وحفظ ما يجب حفظه من أسرار الزوجية مرتبة تسمو عن التعرض لهن .

والنوع الثانى : غير الصالحات ، وهن اللاتى يحاولن الخروج عن حقوق الزوجية والنشوز عن طاعة أزواجهن وعصيانهن لهم ، وهؤلاء فى حاجة إلى الإصلاح والتهذيب والتأديب ليردهن إلى الصواب لأن تركهن فى غيهن يسبب شقاء البيت ويعرض الحياة الزوجية للتدهور والانحلال . وقد رسم الله فى هذه الآية الطريق لهذا الإصلاح والتهذيب ، ووكل ذلك إلى الزوج بحكم الإشراف والرياسة ومخالطته لزوجته واطلاعه على ما ظهر من شأنها وما بطن ، ولم يكل ذلك إلى غيره من الولاة والقضاة صوناً لما بينهما من الذيوع والانتشار .

ولما كانت طبائع النساء تختلف بإختلاف البيئة وتنوع التربية وكان من الذنوب الصغيرة والكبيرة ، شرع الله تعالى من أساليب التهذيب ووسائل التأديب ثلاثا ليختار الزوج منها ما يلائم الذنب وحال الزوجة .

الوسيلة الأولى : الموعظة الحسنة ، وهذه تلائم المرأة التى تكفيها الإشارة أو الكلمة أو الذنب الصغير والرجل أدرى بما يؤثر فى زوجته .

الوسيلة الثانية : الهجر فى المضجع ، وقد اختلف العلماء فى المراد به فقيل : المراد أن يبيت فى حجرة غير التى تبيت فيها وقيل : أن يبيت فى فراش غير فراشها وقيل غير ذلك ، ومادام المقصود من الهجر التأديب فليترك ذلك للزوج يفعل ما يراه أدعى إلى كبح جماحها وردها إلى صوابها ، وقد حدد العلماء مدة الهجر فى المضجع بمالا يبلغ مدة الإيلاء المقدرة شرعاً بأربعة أشهر .

الوسيلة الثالثة : الضرب ، وهو علاج الشرسات اللاتى لا يجدى فيهن الوعظ ولا الهجر ، ولا يصلح مثلهن إلا به ، وقد جعله الشارع الحكيم آخر الوسائل الإصلاحية التى يملكها الرجل ، وبذلك كان كالدواء الأخير الذى لا يلجأ إليه إلا عند الضرورة ، والضرب الذى يملكه الزوج هو الضرب الذى لا يكون شديداً ولا شائناً ، ففى السنة أن رسول الله ﷺ خطب الناس فى حجة الوداع فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر ووعظ ثم قال : « استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوان عندكم ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فاهجروهن فى المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرح فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا »(١).

ولو استعمل الرجل وسائل التأديب واستنفذ طرق العلاج التى يملكها بما فيها وسيلة الضرب ولم يجد ذلك فى إصلاح الزوجة لجأ إلى المرحلة الرابعة كما قال تعالى : ﴿ **وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا**

---

(١) انظر كنز العمال حـ ١٦ رقم ٤٤٩٥٥ ، ٤٤٩٨٦ .

حكماً من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً ﴾[١].

على ما سيأتى بيانه ــ ان شاء الله ــ فى الكلام عند التفريق بين الزوجين للضرر الناشىء عن الشقاق .

وقد أساء بعد المتعلمين تعليماً مدنياً وفهم أن يكون الضرب وسيلة من وسائل العلاج ووصفوه بأنه علاج صحراوى جاف لا يتفق مع التحضر والرق الذى وصلت إليه المرأة ، وما ينبغى أن يكون لها من الاحترام والتكريم ، وقد فات هؤلاء الناقدين أن الإسلام ليس تشريعاً لإقليم خاص ولا لبيئة خاصة وإنما هو تشريع عام لكل الناس ولجميع البيئات فلابد أن يضع من العلاج مايلائم كل طائفة ويصلح لكل نوع .

وأن الضرب ليس هو كل ما شرعه الإسلام من علاج ، وإنما هو واحد من ثلاثة هو آخرها فى الذكر ، كما هو آخرها فى الالتجاء إليه . والخبير بأحوال النساء يعلم أن منهن من لا يصلح حالها إلا بهذا النوع من التأديب ، ولو أن هؤلاء المنكرين وسعوا دائرة أفقهم وعرفوا أن الناس أصناف وأنواع وأن علاج كل صنف يختلف عن علاج الصنف الآخر لما شعروا بمرارة ولا غضاضة من هذا النوع من التأديب .

أحكام تتعلق بالأسرة

وبعد الحديث عن الحقوق الزوجية وتقسيمها إلى مشتركة وخاصة بالزوج وخاصة بالزوجة يهمنا أن يشمل هذه الأحكام التى تتعلق بالأسرة كما جاءت فى كتاب « المجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء لفضيلة الشيخ / محمد محمد المدنى يقول رحمه الله : منزلة الأسرة فى الإسلام

١ - الأسرة هى المجتمع الصغير الذى يتربى فيه الإنسان وينشأ من أول عهده بالحياة فى أحضانه يتطبع بطابعه ويرى الأشياء بعينه ويتعرفها عن طريق أحكامه وميوله واتجاهاته وماله من أيماء حية يستحسن ما يراه حسناً أو يستقبح ما يراه قبيحاً إلى غير ذلك .

ولذلك أدرك علماء الاجتماع أن البيت هو الينبوع الأول الذى يمد الأمة بالرجال والنساء وأنه إذا كان هذا الينبوع طيباً صافياً خالياً من الشوائب المفسدة كان إمداده خيراً على الأمة وزاداً لها من الأفراد الصالحين الطيبين الذين يصبون فى مجتمعها الأكبر لبنات قوة وحلقات تعاون ودعاة فضيلة ودعائم نظام ومصادر سعادة وإذا كان هذا الينبوع مشوباً بالشوائب قائماً على الفوضى والإهمال فإن إمداده يكون شراً على الأمة وخطراً على مقوماتها ونكداً ووبالاً على مجتمعها .

(١) سورة النساء آية ٣٥ .

وهذا المعنى يقرره القرآن الكريم حيث يقول ﴿ **والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكدا** ﴾[1]

فهذا مثل ضربه الله تعالى لكل مصدر من المصادر التى تمد الناس ، فإذا كان هذا المصدر طيباً كان إمداده طيباً وإذا كان خبيثاً كان إمداده خبيثاً وقد ضرب الله لنا مثلاً آخر بعد أن بين مصائر الكافرين والمؤمنين فقال جل ذكره : ﴿ **ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء * تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون * ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار * يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء * ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار** ﴾[2].

٢ - لذلك عنى الإسلام عامة ــ كتاباً وسنة وفقها وحكما وقضاء بهذا الينبوع الأول من ينابيع المجتمع فوضع له عن طريق التشريع والإرشاد والتوجيه مجموعة من القوانين والنظم هى خير ما أخرج للناس فى هذا الجانب الحيوى الأساسى من شئون الإصلاح الاجتماعى .

وسورة النساء قد أخذت من هذا بحظ وافر ولا عجب فهى السورة التى تبنى المجتمع الإسلامى على أسس الاستقرار والفضيلة والسعادة الكاملة . وقد قدمنا بعض الأمثلة من توجيهها لأفراد الأسر إلى المبادىء السليمة والسبل الراشدة وهنا نتحدث عن الأحكام التى شرعتها فى هذا الجانب .

١ - لم تقتصر سورة النساء على معالجة شئون الأسرة من ناحية الزوجية ولكنها بدأت من الأساس فأمرت بإنصاف اليتامى والسفهاء باعتبارهم أضعف أفراد الأسرة وجعلت لهم من المجتمع الأكبر رقيباً يقوم لليتيم بما يعوضه من رعاية الأب ويقوم للسفيه بما يعوضه عما فقد من الرشد ثم أمرت برعاية النساء فى حقوقهن المالية فأبطلت ما كان عليه الجاهلية من حرمانهن وجعلت للنساء نصيباً مفروضاً مما ترك الوالدان والأقربون فى نص قوى مفيد لأن هذا الحق ثابت للنساء على نحو مستقل كثبوته للرجال ثم شرعت نظام الميراث كاملاً على نحو يقطع دابر النزاع ويحقق لكل عضو فى الأسرة نصيباً يوازى مسئولياته وما عهد إليه به من شئون نفسه ومجتمعه الصغير ومجتمعه الكبير وقد تقدم القول فى ذلك فيما مضى من الأحكام .

٢ - أما أحكام الأسرة من ناحية الزوجية فإننا نجد أن أول ما عنيت به السورة هو وجوب إعطاء النساء مهرهن نحلة وإبطالها بذلك ما كان فى الجاهلية منذ أخذ الأولياء صداق من تحت أيديهن من النساء أو احتجاز الأزواج لهذا الصداق أو لبعضه دون وفاء به تهاوناً بحقهن وطمعاً فيهن .

---

(١) سورة الأعراف آية ٥٨ .

(٢) سورة إبراهيم الآيات ٢٤ - ٢٩ .

ولاشك أن تشريع هذا الحكم هو أول خطوة عملية فى اصلاح نفس الزوجة وإشعارها أنها وقد انفصلت عن أسرتها النسبية واتجهت إلى تأسيس أسرة زوجية قد أعطيت ما يساعدها على ذلك وقد اعترف لها بحق ما لى تكون فيه آخذة وتشعر فيه بمبادىء الاستقلال من الأسرة السابقة وأنها لم تنتقل إلى البيت الجديد كسلعة قبض وليها ثمنها أو استولى عليها زوجها دون أن يبذل فى سبيلها .

إن مما يصلح المرأة أن تشعر بأنها مطلوبة مرغوب فيها وأن هناك من يبذل الكثير من ماله رمزاً لحاجته إليها ورغبته فيها وقد جعل الصداق على الرجل تحقيقاً لهذه الغاية الحسنة التى هى تكريم المرأة واعتبار ما تزهى بها وتعتز بحكم أنوثتها وذلك مالا يوجد فى النظم التى تجعل المرأة بإذلة كأنها هى الطالبة للرجل فيفرضون عليها أن تدفع من المال ما يسمونه باسم « الدولة » وقد يكلفونها مالا تستطيع وربما ظلت الفتاة سنوات طوالاً تدخر من المال ما تقدمه لمن يخطبها وفى ذلك إشعار لها من أول حياتها بأنها محتاجة إلى رجل وأنها يجب أن تبذل فى سبيل رجل .

فلاشك أن حكم الله فى ذلك هو العدل ﴿**ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون**﴾[1].

حماية الاسرة من الرذيلة

وعنيت سورة النساء بحماية الأسرة من الرذيلة عن طريق حماية الزوجة والأنثى عامة من جريمة الإناث وحماية الزوج والرجل عامة من جريمة الذكران وهما الجريمتان اللتان ذكر حكمهما فى قوله تعالى : ﴿ **واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم** .. ﴾ الآية .

ابطال عادة إرث النساء

وعنيت بحماية المرأة من أن تتعرض بعد موت زوجها إلى ظلم ذوى قرباه بأن تورث كما يورث المتاع ، طمعاً فيها أو فى فداء تقدمه وذلك لقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً** ﴾[2] وقد كان من عادة العرب فى الجاهلية . أن الرجل إذا مات كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها وان شاءوا زوجوها وان شاءوا لم يزوجها فهم أحق بها من أهلها ، وكان **الرجل إذا مات جاء وارثه فألقى على امرأته ثوبه فمنعها من الناس ، فإن كانت جميلة تزوجها وإن** كانت دميمة حبسها عن الزواج حتى تموت فيرثها . كذلك كانت المرأة فى البيئة العربية الجاهلية فأنقذها الله تعالى وكرمها وأعتقها من هذا الاستعباد فجعل لها الحق فى نفسها وفى مالها وأعطاها نصيباً من ميراث زوجها فكان ذلك انقلابا عظيما فى تاريخ حقوق النساء .

(١) سورة المائدة آية ٥٠ .

(٢) سورة النساء آية ١٩ .

تحريم عضل الزوجات :

٥ – وعنيت السورة بحماية الزوجات من أن يعضلهن أزواجهن بغير مبرر . وأصل العضل التضييق والمنع وكان الرجل فى الجاهلية ربما تزوج امرأة فلم تعجبه فيعضلها أى يضيق عليها ويمنعها حقوقها الزوجية ويذرها كالمعلقة لا هى بالمتزوجة ولا بالمطلقة حتى تعطيه ما قدم لها من صداق أو بعضه أو أكثر ، بل وصل ذلك بهم إلى حد أن صار قانونا معمولاً به فكان الرجل يكتب بينه وبين من فارقها كارهاً لها كتاباً ويشهد عليها الشهود يشترط عليها فيه ألا تتزوج إلا بإذنه فإذا خطبها خاطب فإن أعطت زوجها الأول وأرضته أذن لها ، وإلا أعضلها أى منعها ورفض خاطبها وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ **ولاتمسكوهن ضراراً لتعتدوا** ﴾ . ونحن نشاهد فى عصرنا آثاراً من هذه العادات الجاهلية وفينا من إذا(١) كره المرأة ضيق عليها وأساء عشرتها لتفتدى منه بإبرائه من مؤخر صداقها ، ومنهم من لا يكتفى بذلك بل يطلب فى مقابل طلاقه لمن يكرهها ويمسكهاضراراً المال الكثير فداء لها وهذا ظلم لا يرضاه الله ولا يليق بمن وضعت فى يده أمانة الزوجية وكلف بصونها ومراقبة الله فيها .

وقد استثنت الآية من ذلك حالة صدور فاحشة مبينة أى واضحة من الزوجة وأباحت هذا الاستثناء أن يمسك الرجل المرأة حتى تفتدى بمال أو تتنازل عن بعض صداقها كالمؤخر مثلاً .

والفاحشة المبينة ليست شيئاً معيناً كالزنا مثلاً فكل ما يصدر من المرأة مما يؤذى العرض أو الكرامة أو يأباه العرف السليم فهو فاحشة تستحق المرأة إذا ارتكبته أن يضيق عليها لأنها حينئذ هى المعتدية وهى التى أساءت إلى الزوجية وخرجت على حدودها . وإنما وصف الفاحشة بكونها « مبينة » لكى لا يتوسع الأزواج فيعدّوا الهفوات والأخطاء اليسيرة على زوجاتهم فالمفروض أن المرأة **تخطىء أحيانا ولكن هناك فرقا بين خطأ وخطأ فلاينبغى التشديد فى احتساب كل شىء على النساء ولكن- ينبغى أن تكون الحماية الزوجية قائمة على كثير من التسامح فالله تعالى ينصف بهذا كلا من الرجل والمرأة** فإذا كانت المرأة صالحة قائمة بواجبها غير مفسدة ولا مفحشة حرم على الرجل مضايقتها والتطلع إلى أن يأخذ شيئا من مالها أو صداقها فداء لها ، وإن كانت المرأة ظالمة مفسدة مفحشة تجعل حياة زوجها شقية أو تقرب من ذلك فإنها حينئذ تستحق أن تعامل بالتضييق وأن تطالب بتعويض الرجل ما أنفقه أو بعض ما أنفقه ، وكثير من النساء من تتطلع إلى الطلاق لتتزوج بغير زوجها فالرجل مظلوم مع مثل هذه الزوجة ومن حقه أن يعوض .

حق كل من الزوجين على صاحبه

٦ – وعنيت سورة النساء بالحياة الزوجية من حيث حسن المعاشرة فأوجب معاشرة النساء بالمعروف ، وبين أن عاطفة الحب أو الكره ليستا دائماً أمارة على المستقبل السعيد أو الشقى وذلك

(١) سورة البقرة آية ٢٣١ .

قوله تعالى : ﴿ **وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً** ﴾[١].

كما عنيت ببيان الأساس الذى يجب أن تقوم عليه حقوق كل من الرجال والنساء فبينت أن للرجل على المرأة حق الرياسة وعليها أن تطيعه وتحفظ غيبه واقرأ فى ذلك قوله تعالى : ﴿ **ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسئلوا الله من فضله** ﴾[٢] وقوله تعالى : ﴿ **الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله** ﴾[٣].

وتتلخص الأحكام التى جاءت بها هذه الآيات فيما يلى :

١ - على الرجل أن يعاشر زوجته بالمعروف .

٢ - على المرأة أن تطيع زوجها لرياسته وأن تحفظ كل ما أمر الله بحفظه فى نفسها وبيت زوجها فقد جعلها الله أمينة على ذلك

٣ - على الرجال والنساء كليهما أن يرضخا لحكم الله فى تهيئة كل منهما على الوضع المناسب للمقصود منه فلا يتطلع النساء إلى ماخص الله بالرجال وجعلهم مفضلين فيه ولا يتطلع الرجال إلى ما خص الله به النساء وجعلهن مفضلات فيه .

نشوز المرأة وكيف يعالج :

٧ - قد رسمت سورة النساء الخطة التى تتبع فى حالة وقوع خلاف بين الزوجين وإذا تدبرنا الأقسام التى يكون عليها هذا الخلاف وجدناها ثلاثة ووجدنا السورة قد عرضت لكل قسم منها وأعطت الحكم المناسب له .

فالحالة الأولى : هى حالة الزوجة التى يخشى منها النشوز

وقد جاءت هذه الحالة وعلاجها فى قوله تعالى : ﴿ **واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان علياً كبيراً** ﴾[٤]

ومن هنا أخذ الاصطلاح المشهور عن النشوز وهو فى الأصل الارتفاع ويراد به هنا أن تستعصى المرأة على زوجها وتنفر منه . وسمى استعصاؤها عليه نشوزاً لما كان خلاف النساء يرجع غالبا على أن ترفع المرأة وتعاليها عن قبول رياسة زوجها وطاعته .

---

(١) سورة النساء الآية ١٩ .

(٢) سورة النساء آية ٣٢ .

(٣) سورة النساء آية ٣٤ .

(٤) سورة النساء آية ٣٤ .

وفى الآية معنى يجب أن نلتفت إليه وأن نوجه به وجهة الإسلام فى وضع هذه العقوبات بين يدى الأزواج على زوجاتهم وخطته فى تنفيذها على سنة التدرج .

ذلك أن الآية تقول ﴿ واللاتى تخافون نشوزهن ﴾ فلا ترتب الحكم على وقوع النشوز ولكن على توقعه فخوف وقوع الشيء هو توقع حصوله وإنما يكون هذا التوقع أو هذا الخوف من الوقوع إذا ظهر فى أفق الزوجية بوادر تدل على أن المرأة تتجه إلى التخلص من سيطرة الزوج ورياسته وتسير فى الطريق المؤدية إلى عصيانه .

ولما كانت الأوائل تدل عادة على الأواخر وكان شأن الخلاف أن يبدأ صغيراً ثم يكبر تدريجياً حتى يصبح جفاء مستحكماً وبغضا ليس من السهل اقتلاعه من القلوب فإن الله تعالى يرشد إلى المبادرة بالعلاج وألا ينتظر الأزواج حالة النشوز الفعلى ليبدءوا علاجهم ولهذا وضعت خطة هذا العلاج متمشية مع المعروف من أطوار الخلاف .

الخطوة الأولى :

(فعظوهن)

فالبوادر الأولى الموحية بأن الزوجة سائرة فى طريق المخالفة والمغاضبة والاستعصاء يناسبها الخطوة الأولى وهى خطوة النصح والإرشاد فى رفق ولين وتلك هى المذكورة بقوله تعالى ﴿ **فعظوهن** ﴾ وينبغى أن يفهم أن هذه الخطوة الأولى المناسبة للبوادر الأولى لا تقف عند بذل هذا الوعظ والنصح مرة واحدة فإن الشأن أن هذه المرحلة تطول بعض الوقت وأنها تقابل فى الحين بعد الحين بالتذكير وما يناسب كل حالة من النصح والتحذير ، بل قد يكون من أساليب الوعظ والإصلاح أن يتسامح الرجل أحياناً وأن يغفر عن قدرة وتمكن لتعرف الزوجة فضله فى ذلك وأنه ليس متهدداً مندفعاً من أول الأمر فإن ذلك يصلح كثيراً من النساء اللواتى لاتصلحهن الشدة والعنف .

الخطوة الثانية :

﴿ واهجروهن فى المضاجع ﴾

فإذا لم تنجح الخطوة الأولى فمعنى ذلك أن طوراً آخر من أطوار الخلاف أو مقدمة أخرى من مقدمات هذا النشوز المتوقع قد بدأت تفعل فعلها ومن المناسب لذلك أن يظهر الرجل بمظهر الممتعض وأن يعبر عن هذا الامتعاض بطريقة صامتة ولكنها بليغة فى صمتها ، مؤثرة تأثيراً كبيرا فى المرأة فإن أكبر ما تقوى به المرأة أن ترى زوجها دائماً بها شديد الميل إليها فإذا وجدت منه ما يدل على الإنصراف عنها وعدم التأثير بأنوثتها أحست بأنها بدأت تدخل فى منطقة مد الخط وأن عليها الا تسترسل ولذلك أمر الله تعالى بالهجران فى المضاجع ليظهر هذا الموقف السلبى من الرجل فى أقصى

مداه ولتشعر به المرأة واضحاً وهذا هو لسر فى أن التعبير جاء بقوله ﴿ **واهجروهن فى المضاجع** ﴾ ولم يأت بمثل واهجروا مضاجعهن ، لأن هجر المضجع ــ مع كونه هجراً ــ إلا أنه على صورة تساعد على تقبله حيناً من الوقت ولكن فى المضجع أشد أفصاحاً عن انصراف النفس ، لأنه هجر مع قرب الدواعى وتيسرها .

الخطوة الثالثة :

﴿ **واضربوهن** ﴾

ولكن ينبغى أن يعلم أن أسلوب الهجران الزوجى لا يمكن أن يستمر طويلاً فإن له بمقتضى الطبيعة البشرية مدى لا يحتمل الزوجان أكثر منه فهو إما أن يؤدى الغاية منه سريعاً وإما أن يعلم أنه هو أيضا غير مفيد فى تطويع هذا الإباء وتقويم هذا الاعوجاج وهنا تأتى الخطوة الثالثة لأن الخلاف قد انتقل من طور البوادر الأولى وامتحن بالخطوة الثانية فأسفر الامتحان عن ثباته وتمكنه وأنه يوشك أن يعصف بالزوجية وأن يجر إلى مشكلات الفرقة والشقاق وقد يكون فى هذه الأسرة أولاد وقد تحدث خصومات تجر إلى خصومات وكوارث تجر إلى كوارث وهكذا كما شأن الطلاق الذى هو عند الله أبغض الحلال لما يحمله الناس من أثقال .

رد على وهم :

وهذه الخطوة الثالثة هى تأديب المرأة بالضرب وبعض المولعين بنقد الإسلام يستفظعون هذا اللون من العقوبة ويعتبرونه توحشا ويقولون أنه يصلح للقرون الأولى لا العصور المدنية والحضارة ، ولكنهم فى هذا النقد غير متصفين وقد أثرت عليهم فيه عوامل خاصة بالبيئة التى طغى فيها النساء حتى أصبحن هن الحاكمات على الرجال والمتحكمات فى شئون الأسرة فقد درج هؤلاء على المبالغة فى تدليل المرأة واسباغ ألوان من الاحترام عليها حتى أفسدوا ذوقها وأذواق من يتصلون بها فإن لكل شىء حدا ، والإسلام لاينكر على المرأة كرامتها ولكنه يقف بها عند حدها الذى رسمه لها ملاحظا فيه دورها فى المجتمع ووظيفتها التى تتناسب وطبيعتها وحاجة الناس إليها وهذا الدور يقتضى أن تكون تحت قوامة الزوج لما بيناه من أن ذلك هو الموافق للطبيعة ولما اكتسب كل من الرجل والمرأة من صفات خلقية ، فهل ترى الإسلام يقرر ذلك ويجعله مبدأ من مبادئه ويترتب عليه سائر أحكامه ثم لايحفظه بما يكفل تنفيذه واستقراره والخضوع له ؟ وهل تراه يترك المرأة تنساق على هذا النحو الذى وصفناه فى المراحل الثلاث الى إفساد زوجية وتشريد أبناء وتحطيم قلب وتخريب بيت وجر لألوان من المشكلات كل ذلك فى سبيل أن يعفيها من لطمة أو صفعة من زوجها ؟ وأى ذلك أخف على المجتمع ضررا ، بل عليها وهى على زوجها وأولادها : أحدوث ذلك كله أم الحيلولة دونه بهذا اللون من التأديب .

ثم إن الضرب المأذون فيه إنما هو الضرب الخفيف فقد وصفته السنة بأنه « غير مبرِّح » وقد ألف للناس أن يؤدبوا بمثله أبناءهم صغارا وكبارا فلا يكون ذلك وحشية ولا إهانة وإنما هم صوروه كذلك لأنهم ضخموه ثم نقدوه لأنهم ضخموا إحساس المرأة به ولو رجعوا إلى الطبيعة لولتهم على أن تمتع من له الرياسة بلون يكون له حق العقوبة به حين لا يجدى غيره ويصلح به ما يخشى فساده هو أمر ضرورى لمصلحة الرئيس والمرءوس كليهما ففى بعض الأحيان يجب علينا أن نحمى أبناءنا وأحبابنا من أنفسهم ومن مصير سيىء ينتظرهم وهم عنه غافلون ، وما هذا النقد وأمثاله إلا انسياق مع الأوهام ومحاولة يقصد بها بعض الناس أن يثبتوا لأنفسهم صفات التهذيب والتمدن ولو على حساب الطبيعة والواقع وما تصلح عليه الحياة .

هذه الخطوات الثلاث التى يخطوها الأزواج فى اصلاح الزوجات اللاتى يخافون نشوزهن .

وقد أرشدت الآية الكريمة إلى أنه لا يجوز أن ينتقل من خطوة إلى خطوة إلا إذا لم تنجح الخطوة السابقة وذلك هو قوله تعالى بعد ذكر هذه الخطوات ﴿ **فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً** ﴾(١) ومعنى ذلك أن المرأة إذا فاءت بالنصح والوعظ إلى رشدها وأخذت فى طريق الطاعة والتزام الوضع الذى وصفه الله فإنه لا يجوز للزوج أن يبغى السبيل الثانية أو يقفز إلى السبيل الثالثة وإلا كان ظالماً متجنياً متعرضاً لعقوبة الله إذا ظهر أنه أساء استعمال هذه السلطة التى جعلها فى يده للإصلاح بالمعروف ، لا للتحكم ولا للإذلال .

وما أبلغ ما ذيلت الآية فى ذلك حيث تقول ﴿ **إن الله كان علياً كبيراً** ﴾ أى : فهو أعلى منكم سلطانا وأكبر قدرة فلو تجاوزتم حدودكم فيمن جعل الله تحت أيديكم فإن الله أقدر على عقوبتكم ، وسلطانه أعلى من سلطانكم .

(ب) نشوز الرجل وكيف يعالج .

وهذه هى الحالة الثانية من أحوال الخلاف بين الزوجية وقد جاءت هذه الحالة وعلاجها فى قوله تعالى : ﴿ **وان امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا * ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً * وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعاً حكيماً** ﴾(٢)

١ - تقدم تفسير النشوز وهو بمعناه الذى ذكر فى المرأة مقصود هنا فقد يحتج الرجل إلى لون

---

(١) سورة النساء من آية ٣٤ .
(٢) سورة النساء الآيات ١٢٨ - ١٣٠ .

من ألوان الترفع على المرأة والاستكبار وقد عطف على هذا شىء آخر هو الإعراض وهو ميل الرجل عن المرأة لا لتكبر منه أو ترفع ولكن بسبب آخر قد يكون كراهية لها مبعث طبيعى يرجع إلى نقص فيها ، وقد يكون ذلك راجعاً إلى الزوج نفسه واعتلال ذوقه وعدم اتفاق أخلاقها فليست المرأة دائماً هى العلة فى عدم التوافق بل قد يرجع ذلك إلى الرجل .

فإن امرأة خافت من بعلها أحد هذين أى توقعته وبدرت البوادر الدالة عليه فلا جناح عليهما أن يتفاهما فيتصالحا على وجه من الوجوه ومعنى ذلك أن الله تعالى يريد من الزوجين أن يحاولا حل مشكلتهما بأنفسهما دون أن يدخلا بينهما أحداً فإن ذلك أقرب إلى أن يصلا إلى هذا الحل لو اتجها إلى سر الكراهية اتجاها مباشراً وكان الإخلاص لهما رائداً فإذا لم توصلهما هذه الخطوة إلى حل المشكلة فليس فى الكلام ما يمنع من أن يستعينا ببعض أقاربهما أو أصدقائهما لأن الآية تقول : ﴿ **فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا** ﴾ وأحداث الصلح أو التصالح يكون بإحدى الطريقتين إما بالتفاهم المباشر وإما بتوسيط من يعينهما على ذلك ...

٢ – وفى الآية بعد بيان هذا الحكم إرشاد للزوجين كليهما بأن يؤثرا الصلح بينهما على وجه من الوجوه دون أن يترافعا أو يتخاصما فإن العادة جرت بأن نفور الرجل من المرأة يكون لأسباب ــ فى الغالب ــ من النوع الحساس والتخاصم فى مثل هذه الحالة يكون عرضاً لإسرار الأمر فى صورة صادقة أو كاذبة على القاضى أو من يقوم مقامه وقد يؤدى الموقف إلى كثير من المشكلات بين أقارب الزوج والزوجة وربما تعرض الزوج فى سبيل عرض مشكلته إلى ما يسىء الزوجة فى نفسها ويسىء أقاربها تبعاً لذلك فيغضبون ويفكرون فى الانتقام من الزوج وربما تعصب للزوج أيضاً أقاربه فيتسع مجال النزاع .

ولهذا أرشد الله كلاً من الزوجين إلى ماهو خير وأولى بهما وهو التفاهم بينهما والتراخى فقال تعالى : ﴿ **والصلح خير** ﴾ ولعل فى هذا ما يوحى بأن الشارع لا ينظر بعين الرضا إلى ما يدعو إليه بعض الناس فى عصرنا من التزام أن يكون الطلاق أمام القضاء وألا بإذن به القاضى إلا إذا كان له أسباب تبرره .

والحق أن هذه الدعوة منافية للمصلحة وأنه لو استجيب لها لجرت على المجتمع كثيراً من الوبال ، وحسبنا أن المرأة التى يحكم لزوجها بطلاقها ستكون بعد هذا الحكم منظوراً إليها من الناس بنظرات الشك والتظنن فلا تكاد تجد من يقبل عليها من الأزواج .

ولا يصح أن يعترض على ذلك بأن الإسلام يبيح للمرأة أن تطلب الطلاق من زوجها للضرر وثابت فى سبيل إثبات الضرر كثيراً ما أفاضت وتعرضت لأسرار وأن الأزواج يلاقون من ذلك الشىء الكثير فلا يضرهم ولا يجعل الناس ينظرون إليهم نظرات التظنن أو الاحتقار ــ نقول : لايصح أن

يعترض بذلك . هذا قياس مع الفارق كما يقولون فإن وضع المرأة فى المجتمع يجعل شرفها وأمرها كله عرضة للتأثر السريع ولا كذلك الرجل .

٣ - ثم حذرتهما الآية من العقبات النفسية التى قد تحول بينها وبين إتمام هذه الصلح فالعادة جرت بأن الصلح يحتاج إلى تقابل من الطرفين وتلاق فى منتصف الطريق فهذا يضحى ببعض التضحية والآخر يبادل تضحيته بمثلها أو بأكثر منها ولكن النفوس يحضرها الشح والعفن ، فليس من اليسير أن تبذل أو أن تتنازل ، فعلى الزوجين أن يقاوما فى نفسهما هذه المواقع النفسية وعلى الرجل فى ذلك القسط الأوفر فإنه بحكم وصفه من أول الأمر هو الطرف الباذل ثم هو الذى نشز أو أعرض أو اتجه إلى هذا النشوز والإعراض فبدرت منه بوادر ، فمن حق الزوجة عليه أن يرضيها وألا ينسى مكانتها منه وما فيها معه ولذلك يقول عز وجل ﴿ **وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا** ﴾[1].

٤ - ولما كان أكثر ما يبعث على الكراهية نشوزا أو إعراضا فى قلب الرجل هو اتجاه إلى زوجة أخرى فإن الآية الثانية جاءت بإرشاد مبنى على هذا الغرض : ذلك أن من المحال على الرجل أن يعدل بين امرأتين لأن العدل ميزان يقتضى أن يكون هناك تكافؤ تام بين طرفين فإن استطاع الرجل أن يحقق هذا التكافؤ بين الزوجتين فيما بعد من مظاهر السعادة الزوجية كالنفقة والكسوة والمبيت والبشاشة وحسن المعاملة ، فإنه لا يستطيع أن يحقق هذا التكافؤ أو هذا التوازن فى الميل القلبى والمحبة الروحية التى من شأن المرأة أن تحس بهما بمقتضى غريزة الأنثى فالله تعالى لا يتحدث عن غير المستطاع فإنه لا تكليف إلا فى حدود الاستطاعة ولكنه يقرر أولاً هذه الطبيعة ليكون تقريرها تمهيدا لما يأتى بعدها .

ثم ينهى عن أن يميل الرجال كل الميل عن زوجاتهم إذا كرهنهن فإن ذلك من شأنه أن يجعل المرأة كالمعلقة فلاهى بزوجة تنال حقوقها الزوجية كاملة ، ولاهى بمطلقة تلتمس السعادة الزوجية فى تجربة أخرى ، ولاشك أن الإنسان يستطيع أن يعالج نفسه فى هذا الشأن فيصل إلى تلطيف حدته العاطفية ويخفى جانباً كبيراً من ميله النفسى وذلك بأن يجد نقصه العاطفى بالتلطف فى المعاشرة والتحايل بمختلف أساليب الرقة واللباقة لكيلا يجرح شعور المرأة فهذا فى الحقيقة نهى عن الاسترسال فى عاطفة البغض وعن تغذيتها بما يقويها ويجعل الزوج يميل كل الميل عن زوجته فيؤذيها .

وقد جاء ختام هذه الآية أيضاً ترغيباً للرجال فى الإصلاح ومحاولة كل ما يؤدى إليه تحذيراً من الخروج على أمر الله بالظلم والتمادى فى الإساءة وذلك ما يؤخذ من قوله تعالى ﴿ **وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً** ﴾[2].

---

(١) سورة النساء آية ١٢٨ .

(٢) سورة النساء آية ١٢٩ .

أى فهو يغفر لكم ما عسى أن يكون من انسياق أحيانا مع دواعى الميل القلبى إذا كنتم تجاهدون ذلك حسب أستطاعتكم رحمة بكم .

٥ – وقد جاءت الآية الثالثة بعد ذلك بالخطوة الأخيرة حين يتعذر الصلح ولا يكون هناك الا التفرق بين الزوجين والتماس كل منهما حياة أهدأ فى ظل زوجية جديدة وهذا هو قوله تعالى : ﴿ **وإن يتفرقا يغنِ الله كلاً من سعته وكان الله واسعاً حكيماً** ﴾[1].

ومما ينبغى الالتفات إليه أن سورة النساء فى هذا كله وفى غيره من أحكام الزوجية لم تذكر الانفصال الزوجى إلا فى هذه الآية . وهى آخر آية عرضت فيها السورة لشأن زوجى ثم هى لم تذكر طريقة الطلاق ولا أحكامه وتفاصيله كما جاء فى سورة البقرة مثلاً ، وذلك لأنها السورة التى تبنى نظام المجتمع فهى تشرع كل ما يتصل بهذا البناء أما إذا انتهى الأمر إلى أن يتفرق كل من الزوجين عن صاحبه فهذا ما تمر به السورة مراً وما تركته يفتح باب الأمل فى أن يغنى الله كلا من سعته حتى لا يتحطم فرد من المجتمع لهذه المصيبة إذا نزلت به وحتى يدرك من يقع له ذلك أن هذا هو مصلحته وفيه الخير المرجو له فإن الرجاء فى استقبال حياة جديدة خير من العيش فى حياة كلها كراهية ونزاع ولذلك تذكر الآية فى ختامها ما يبعث الأمل وهو وصفه تعالى بأنه كان — ومايزال — (واسعاً) وتذكر أيضا ما يدل على أن الافتراق فى مثل هذه الحالة هو عين الحكمة وذلك هو وصفه تعالى بقوله ﴿ **حكيماً** ﴾ . وإذا فهذا أيضا بناء فى المجتمع أما تفاصيل هذا الافتراق وأساليبه وأحكامه التشريعية فقد تركته سورة النساء لغيرها .

(جـ) حالة الشقاق بين الزوجين :

وتلك هى الحالة الثالثة من حالات الخلاف بين الزوجين وقد جاء حكمها فى قوله تعالى : ﴿ **وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيراً** ﴾[2].

وقد تقدم أن الحالة الأولى هى حالة الخوف من نشوز الزوجة وأن الحالة الثانية هى حالة الخوف من نشوز الزوج أو إعراضه ، وأن التشريع لهاتين الحالتين انبنى على اعتبار كل منهما مشكلة تحل عن طريق أحد الزوجين وما يتوسل به إلى إصلاح الآخر من تأديب أو تصالح ، أما هذه الحالة فهى حالة الشقاق الذى يخاف أن يكون بين الزوجين على المعنى الذى ذكرناه فى نظيرته من أن المراد بالخوف توقع الحصول بسبب ما يبدر من بوادر تؤذن بذلك ، وقد جاء التبعيد عن هذا الخلاف بأسلوب

---

(١) سورة النساء آية ١٣٠ .

(٢) سورة النساء الآية ٣٥ .

إضافة الشقاق إلى ﴿ بينهما ﴾ وذلك قوله تعالى : ﴿ شقاق بينهما ﴾ فقد أضيف الشقاق إلى الظرف وقالوا إنه إما بمعنى : شقاق بينهما أو بمعنى أن البين جعل كأنه يحدث منه شقاق .

والتفسير الثانى هو الأقوى لأنه يريد أن يقول : (**إن خفتم شقاقاً**) ما فابعثوا حكما ـ الآية . فإن الشقاق اليسير يترك للزوجين ولا يحتاج الأمر فيه إلى بعث حكمين وإنما المراد هو خوف أن يصبح الشقاق هو قاعدة التعامل بين الزوجين وهذا ما يفيده جعل البين نفسه مصدرا للشقاق كأن مجرد النسبة القائمة بينهما أصبح هو بذاته مثار الشقاق والنزاع .

وهذه الصورة من صور الخلاف تأتى فى المرتبة الوجودية عادة بعد حالة نشوز المرأة واستنفاذ كل الوسائل من الرجل فى سبيل إصلاحها ومعنى ذلك أن كل العقوبات لم تفد تقويم النشوز وأن الأمر بعد ذلك قد دخل فى دور عناد وشقاق كما جاء فى آية أخرى تقول ﴿ **فإن خفتم ألا يقيما حدود الله** ﴾[1] وعدم إقامة الزوجين حدود الله تبدو فى إخراجهما الزوجية عن كونها مودة ورحمة وسكنا على ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾[2] ولهذا جاءت بها السورة بعد حالة نشوز المرأة وبعد بيان خطوات العلاج فهى تفرض أن هذا كله لم ينجح وأن الأمر صائر إلى شقاق ذات البين .

العدل فى سورة النساء

إن سورة النساء قد أسهمت بنصيب واضح فى تقرير مبدأ العدل فى القضاء وفى الشهادة وكل المبادىء والأحكام التى أتت بها يمكن إرجاعها إلى مبدأ العدل .

١ – فالمساواة التى تحدثت عنها فى أول آية منها هى أساس العدل ولولاها لاضطرب ميزانه . ﴿ **يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً** ﴾[3].

٢ – واعتقاد الوحدانية عدل فى الاعتقاد وفيه إنصاف للعقل لأن العقل يحكم بأن للكون صانعا واحدا تبدو آثار قدرته وربوبيته فى كل ما خلق وفى كل ما جعل وفى كل ما أنعم فلابد للعقل من أن يحكم بأن الإله المستحق للعبادة والخضوع دون شريك له هو هذا الخالق الواحد ولذلك جاء فى وصية لقمان لابنه ﴿ **يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم** ﴾[4]

---

(١) سورة البقرة من الآية ٢٢٩ .
(٢) سورة الروم الآية ٢١ .
(٣) سورة النساء الآية ١ .
(٤) سورة لقمان الآية ١٣ .

وجاء فى سورة النساء ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾[١] وما هذا إلا لأن الشرك قد أخل بميزان العدل إخلالا عظيماً وخرج على مقتضى العقل خروجا بعيدا فلم يعد أهلاً لأن يغفر له ويتجاوز عن ذنبه وفى هذه السورة أيضاً قوله تعالى : ﴿ **ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما** ﴾[٢].

٣ - والتضامن الاجتماعى الذى تقرره السورة فى الآيات التى تبدأ بقوله تعالى : ﴿ **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وماملكت أيمانكم** ﴾[٣] هو أيضا مظهر من مظاهر عدل الإسلام لأنه لا يمكن أن يتحقق التوازن على وجه يكفل الاستقرار إلا بذلك ، ولا يمكن أن يقبل فى العقول أن يكون أحد أعضاء المجتمع متخما بالمال والنعم وبجانبه من هو مستحق لبعض ذلك ليعيش. ثم يعفى هذا المترف المنعم من أن يعاون أخاه بشىء من ماله إن ذلك لا يمكن أن يحكم به عاقل ولا يمكن أن يرتضيه نظام يقوم على العدل والتعاون .

وتجد السورة حينما تحدثت عن النساء فى أول آية جاء فيها الحديث عن النساء تقول : ﴿ **وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ماملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا** ﴾ . فالأمر إذن فى جواز التعدد أو عدم جوازه منوط بالعدل وجوداً وعدما .

وهكذا كل حكم من الأحكام فى هذه السورة أو فى غيرها إنما يستهدف العدل ويقوم على العدل وهذا أمر منطقى وإلا لما شرح ولما ألزم به الناس فى شريعة العدل .

وصدق الله العظيم القائل فى محكم كتابه ﴿ **الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان** ﴾[٤].

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

---

(١) سورة النساء آية ٤٨ .
(٢) سورة النساء من آية ٤٨ .
(٣) سورة النساء آية ٣٦ .
(٤) سورة الشورى آية ١٧ .

جزاء الظالمين وإرشاد المؤمنين

قال تعالى :

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا
عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ
عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ
ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ
سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾

معانى المفردات

﴿ **وكأين من قرية** ﴾ : أى : كثير من أهل القرى .
﴿ **عتت** ﴾ : أى تجبرت وتكبرت
﴿ **نكراً** ﴾ : أى : منكراً عظيماً .
﴿ **وبال أمرها** ﴾ : أى : عاقبة عتوّها .
﴿ **خسراً** ﴾ : أى خسارة فى الآخرة .
﴿ **ذكراً** ﴾ : أى : قرآناً .
﴿ **رسولاً** ﴾ : أى : وأرسل رسولاً .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أمر بأن الطلاق لايكون إلا فى أوقات خاصة ، وبأنه يجب انقضاء العدة حتى تحل المرأة لزوج آخر ، وذكر مدة العدة وما يجب للمعتدة من النفقة والكسوة ، ونهى عن تجاوز حدود الله ، وأن من يتجاوزها فقد ظلم نفسه ، توعد هنا من خالفوا أمره ، وكذبوا رسله ، وسلكوا غير ما شرعه ، وأنذرهم بأن يحل بهم مثل ما حل بالأمم السالفة التى كذبت رسلها ، فأخذها عزيز مقتدر ، وأصبحت كأمس الدابر وصارت مثلاً فى الآخرين .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ **وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذابا نكرا . فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا . أعد الله لهم عذاباً شديداً** ﴾

يقول تعالى متوعدا لمن خالف أمره وكذب رسله وسلك غير ما شرعه ، ومخبرا عما حل بالأمم السالفة بسبب ذلك فقال تعالى : ﴿ **وكأين من قرية عتت عن أمر ربها** ﴾ أى : تمردت وطغت واستكبرت عن اتباع أمر الله ومتابعة رسله ﴿ **فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً** ﴾ كقوله تعالى : ﴿ **ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد * وماظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك ومازادوهم غير تتبيب * وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد * ان فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود * وما نؤخره إلا لأجل معدود * يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد** ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً * أعد الله لهم عذاباً شديداً** ﴾ أى فى الدار الآخرة مع ما عجل لهم من العذاب فى الدنيا .

ثم نبه سبحانه المؤمنين إلى تقوى الله حتى لا يصيبهم مثل ما أصاب من قبلهم فقال تعالى : ﴿ **فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا** ﴾ أى : فخافوا أيها المؤمنون عقاب الله ، فأنتم أصحاب العقول الراجحة ، والفطر السليمة ، واحذروا أن يحل بكم ما حل بمن قبلكم ، وتذكروا فإن الذكرى تنفع المؤمنين . كقوله تعالى عن الخاسرين ﴿ **لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ، ذلك يخوف الله به عباده ، يا عباد فاتقون** ﴾[2] ثم بين سبحانه ما يكون مذكراً لهم وداعياً لتقوى الله فقال

(١) سورة هود الآيات ١٠٠ – ١٠٥

(٢) سورة الزمر من الآية ١٦

تعالى : ﴿ ... قد أنزل الله إليكم ذكراً * رسولاً يتلوا عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ﴾ أى قد أنزل الله إليكم يا ذوى البصائر ذكراً لكم وهو القرآن الكريم يذكركم به ، لتستمسكوا بحبله المتين ، وتعملوا بطاعته .

قال القرطبى وقيل : الذكر هنا الشرف ، نحو قوله تعالى : ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم ﴾[١] وقوله تعالى : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾[٢]. ثم بين هذا الشرف فقال : ﴿ رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ﴾ كما قال تعالى : ﴿ هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وان الله بكم لرءوف رحيم ﴾[٣] وكما قال سبحانه : ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾[٤] أى من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم وقد سمى الله تعالى الوحى الذى أنزله نوراً لما يحصل به الهدى كما سماه روحاً لما يحصل به من حياة القلوب فقال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾[٥].

ثم بين سبحانه جزاء الإيمان والعمل الصالح فقال تعالى : ﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً ﴾

أى : ومن يصدق بالله وعظيم قدرته ، وبديع حكمته ، ويعمل بطاعته ــ يدخله جنات تجرى من تحت أشجارها الأنهار ما كثين فيها أبداً ولا يبغون عنها حولا ، وقد وسع الله لهم فيها الأرزاق من مطاعم ومشارب مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . قال تعالى : ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها ، تلك عقبى الذين اتقوا ﴾[٦]

وقال تعالى : ﴿ الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون * يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب * وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون * وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون * لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون ﴾[٧].

وقال تعالى : ﴿ هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب * جنات عدن مفتحة لهم الأبواب متكئين

---

(١) سورة الأنبياء آية ١٠ .

(٢) سورة الزخرف آية ٤٤ .

(٣) سورة الحديد آية ٩ .

(٤) سورة البقرة الآية ٢٥٧ .

(٥) سورة الشورى آية ٥٢ .

(٦) سورة الرعد آية ٣٥ .

(٧) سورة الزخرف الآيات ٧١ – ٧٣ .

فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب * وعندهم قاصرات الطرف أتراب هذا ما توعدون ليوم الحساب . إن هذا لرزقنا ما له من نفاد ﴾[١].

قوله تعالى : ﴿ الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علماً ﴾[٢].

يقول تعالى مخبراً عن قدرته التامة وسلطانه العظيم ليكون ذلك باعثاً على تعظيم ما شرع من الدين القويم ﴿ الله الذى خلق سبع سموات ﴾ كقوله تعالى إخباراً عن نوح أنه قال لقومه : ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ؟ ﴾[٣] وقوله تعالى : ﴿ ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم ﴾[٤] وقوله : ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ﴾[٥].

وقوله تعالى : ﴿ ومن الأرض مثلهن ﴾ أى سبعاً أيضاً كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين » وفى البخارى « خسف به إلى سبع أرضين »[٦]. قال العلامة ابن كثير : ومن حمل ذلك على سبعة أقاليم فقد أبعد النجعة وأعرق فى النزع وخالف القرآن والحديث بلا مستند .

قال ابن جرير بسنده عن ابن عباس ــ رضى الله عنه ــ فى قوله تعالى : ﴿ سبع سموات ومن الأرض مثلهن ﴾ قال لوحدثتكم بتفسيرها لكفرتم ، وكفركم تكذيبكم بها .

قال الأستاذ الدكتور محمد أحمد الغمراوى رحمه الله فى كتابه (الإسلام فى عصر العلم) ما نصه : والعلم لا يعرف إلى الآن ماهى السموات السبع ومن قبل لم يعرف أن السماء فوق هواء الأرض سوداء حالكة والشمس طالعة بالنهار الا بعد قرون تزيد على العشرة من نزول الآية القرآنية التى تنص على هذه الحقيقة العجيبة . وكان الواجب إذ لم يجدوا فى العلم تفسيرا لعدد السموات أن يلتمسوا لعدد السبع تفسيراً فى القرآن كتاب الله . فهذا من صميم تفسير القرآن بالقرآن ولو أنهم اتجهوا هذا الاتجاه لكان من المؤكد أن يصلوا إلى تفسير صحيح ، فالتفسير غير بعيد ممن يلتمسه مستعيناً باللغة من ناحية وبالآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع من ناحية أخرى .

أما اللغة فتقول إن السماء ماعلا الأرض ، وعلم البديع يقول إن بين السماء والأرض مقابلة

---

(١) سورة ص الآيات ٤٩ – ٥٤ .

(٢) سورة الطلاق الآية ١٢ .

(٣) سورة نوح آية ١٥ .

(٤) سورة البقرة آية ٢٩ .

(٥) سورة الإسراء آية ٤٤ .

(٦) انظر صحيح مسلم حـ ٣ ص ١٢٣٢ . كتاب المساقاه . باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها رقم ١٦١٢/١٤٢ .

حتى عدوا هذه المقابلة من بديعيات قوله تعالى : ﴿ **وقيل يا أرض أبلعى ماءك وياسماء اقلعى** ﴾[(1)]. فإذا ضممنا إلى هذا قوله تعالى فى آخر سورة الطلاق ﴿ **الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن** ﴾ أى : سبعاً . كما هو المتبادر وكما اتفق عليه جمهور المفسرين . تبين المقصود من السموات السبع فى القرآن . أنه مادام هناك ست أرضين غير أرضنا ، وكل أرض يقابلها سماء ، فهناك إذن غير السماء المقابلة لأرضنا ست سموات أخرى ، لكل أرض سماؤها ، فهل هذا معنى بعيد ؟ أم هل فى هذا التفسير تكلف ما ، أو تحميل للآى مالا تتحمل كما يخشى على القرآن من يقول بمنع المطابقة بين الآيات

الكونية فى القرآن وبين ما يتصل بمعناها من يقينيات العلم الحديث ؟ إذا كان القرآن قد سبق العلم الحديث بتقرير حقائق كونية لم يكشفها العلم إلا بعد عصر القرآن ، مثل جرى الشمس جرياً ليس هو ما بين الشروق والغروب فى رأى العين ، ومثل ليل للسماء غير الليل المعروف فى الأرض ، فلا غرابة فى أن يخبرنا ويخبر الإنسانية التى أنزل لهدايتها بحقائق لم يكشف عنها علماء الفطرة إلى اليوم مثل وجود حياة فى السماء تشبه الحياة على الأرض ، ومثل أن هناك أرضين سبعاً وسموات سبعاً كما نصت عليه آية سورة الطلاق لتعليم الإنسانية إذا آن الأوان ، ومكن الله العلم من الكشف عنها ﴿ أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علماً ﴾ ا . هـ .

قوله تعالى : ﴿ **يتنزل الأمر بينهن** ﴾ قال مجاهد : يتنزل الأمر من السموات السبع إلى الأرضين السبع . وقال الحسن : بين كل سماءين أرض وأمر . والأمر هنا الوحى قال القرطبى فيكون قوله ﴿ **بينهن** ﴾ إشارة إلى بين هذه الأرض العليا التى هى أدناها وبين السماء السابعة التى هى أعلاها . وقيل : الأمر القضاء والقدر وهو قول الأكثرين . فعلى هذا يكون المراد بقوله تعالى ﴿ **بينهن** ﴾ إشارة إلى ما بين الأرض السفلى التى هى أقصاها وبين السماء السابعة التى هى أعلاها والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ **لتعلموا أن الله على كل شىء قدير** ﴾ يعنى أن من قدر على هذا الملك العظيم فهو على ما بينهما من خلقه أقدر ، ومن العفو والانتقام أمكن ، وإن استوى كل ذلك فى مقدوره سبحانه وتعالى . وقوله : ﴿ **وأن الله قد أحاط بكل شىء علما** ﴾ فلا يخرج شىء عن علمه وقدرته .

قال تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾[(2)] وقال جل فى علاه : ﴿ **لله ملك السموات والأرض ومافيهن * وهو على كل شىء قدير** ﴾[(3)]

قال الامام الطحاوى ــ رحمه الله ــ فى صفات المولى سبحانه : خلق الخلق بعلمه وقدر لهم أقدارا ، وضرب لهم آجالا ، ولم يخف عليه شىء قبل أن يخلقهم وعلم ماهم عاملون قبل أن يخلقهم ،

(1) سورة هود الآية ٤٤ .
(2) سورة الأنعام الآية ٥٩ .
(3) سورة المائدة آية ١٢٠

وأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته ، وكل شيء يجرى بتقديره ومشيئته ، ومشيئته تنفذ لا مشيئة العباد ، إلا ما شاء لهم فما شاء لهم كان ومالم يشأ لم يكن ، يهدى من يشاء ، ويعصم ويعافى ، فضلاً ، ويضل من يشاء ، ويخذل ويبتلى عدلا ، وكلهم يتقلبون فى مشيئته ، بين فضله وعدله ، وهو متعال عن الأضداد والأنداد ، لاراد لقضائه ولا معقب لحكمه ولا غالب لأمره ، آمنا بذلك كله وأيقنا أن كلا من عنده .

لا اله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً . ﷺ .

تفسير سورة التحريم

مقدمـة :

قال صاحب البصائر :

السورة مدنية آياتها اثنتا عشرة

وكلماتها : مائتان وأربعون .

وحروفها : ألف وستون .

وفواصل آياتها : (منار) على الألف آية فحسب (أبكارا) .

سميت سورة التحريم ، لمفتتحه (لم تحرم)

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : عقاب الرسول ﷺ فى تحريم ما أحل الله له ، وتعيير الأزواج الطاهرات على إيذائه وإظهار سره ، والأمر بالتحرز والتجنب من جهنم ، والأمر بالتوبة النصوح والوعد بإتمام النور فى القيامة ، والأمر بجهاد الكفار بطريق السياسة ، ومع المنافقين بالبرهان والحجة ، وبيان أن القرابة غير نافعة بدون الإيمان والمعرفة ، وأن قرب المفسدين لا يضر مع وجود الصدق والإخلاص ، والخبر عن الفتوة وتصديق مريم بقوله : ﴿ **وصدقت بكلمات ربها** ﴾ .

المتشابهات : قوله تعالى : ﴿ **خيراً منكن مسلمات مؤمنات** ... ﴾ ذكر الجميع بغير واو ، ثم ختم بالواو ، فقال ﴿ **وأبكارا** ﴾ لأنه استحال العطف على ﴿ **ثيبات** ﴾ فعطفها على أول الكلام . ويحسن الوقف على ﴿ **ثيبات** ﴾ لما استحال عطف ﴿ **أبكاراً** ﴾ عليها . وقول من قال إنها واو الثمانية بعيد . والله أعلم . أ.هـ

مناسبتها لما قبلها :

(١) أن سورة الطلاق فى حسن معاشرة النساء والقيام بحقوقهن وهذه السورة فيما حصل منهن مع النبى ﷺ تعليما لأمته أن يحذروا أمر النساء ، وأن يعاملوهن بسياسة اللين كما عاملهن النبى ﷺ بذلك ، وأن ينصحوهن نصحاً مؤثراً .

(٢) أن كلتيهما افتتحت بخطاب النبى ﷺ .

(٣) تلك فى خصام نساء الأمة ، وهذه فى خصومة نساء النبى ﷺ . وقد أفردن بالذكر تعظيماً لمكانتهن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾
قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ۚ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ
النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ
وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾
إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ
وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ
أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ
وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾

معانى المفردات

﴿ **ما أحل الله لك** ﴾ : شرب العسل ، ﴿ **تبتغى** ﴾ : تطلب . ﴿ **تحلة أيمانكم** ﴾ : تحليلها بالكفارة . ﴿ **الله مولاكم** ﴾ : ناصركم ومتولى أموركم ، ﴿ **نبأت به** ﴾ : أخبرت به غيرها . ﴿ **أظهره الله عليه** ﴾ : أطلعه الله تعالى على إفشائه . ﴿ **صغت قلوبكما** ﴾ : مالت عن حقه ﷺ عليكما . ﴿ **تظاهرا عليه** ﴾ : تتعاونا عليه بما يسوءه . ﴿ **هو مولاه** ﴾ : وليه

وناصره . ﴿ **ظهير** ﴾ : فوج مظاهر معين له . ﴿ **مسلمات** ﴾ : خاضعات لله بالطاعة . ﴿ **مؤمنات** ﴾ : مصدقات بتوحيد الله مخلصات . ﴿ **قانتات** ﴾ : مطيعات خاضعات لله . ﴿ **تائبات** ﴾ : أى : مقلعات عن الذنوب . ﴿ **عابدات** ﴾ : أى : متعهدات متذللات لأمر الله وأمر رسوله ﷺ . ﴿ **سائحات** ﴾ : أى : صائمات ، وسمى الصائم بذلك من حيث أن السائح لا زاد معه ولا يزال ممسكاً حتى يجد الطعام ؟ كالصائم لا يزال كذلك حتى يجىء وقت الإفطار .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضات أزواجك والله غفور رحيم** ﴾ .

قال ابن كثير : اختلف فى سبب نزول صدور هذه السورة فقيل نزلت فى شأن مارية وكان رسول الله ﷺ قد حرمها فنزل قوله تعالى : ﴿ **يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضات أزواجك** ﴾ الآية .

روى النسائى بسنده عن أنس أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها فأنزل الله عز وجل ﴿ **يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك ؟** ﴾ إلى آخر الآية[(١)].

وقال ابن جرير بسنده : أن ابن عباس ـــ رضى الله عنهما ـــ كان يقول فى الحرام يمين تكفرها . وقال ابن عباس (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة)[(٢)] يعنى أن رسول الله ﷺ حرم جاريته فقال الله تعالى : ﴿ **يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك** ﴾ ؟ إلى قوله : ﴿ **قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم** ﴾ فكفر يمينه فصير الحرام يميناً ورواه البخارى ومسلم والدارقطنى وقال ابن حجر فى الفتح : « اى إذا قال الرجل لأمراته أنت علىَّ حرام لا تطلق وعليه كفارة يمين والغرض من حديث ابن عباس ـــ رضى الله عنهما ـــ قوله فيه (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة)[(٣)] فإن فيه إشارة إلى سبب نزول أول هذه السورة إلى قوله فيها ﴿ **قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم** ﴾ وقد وقع فى بعض حديث ابن عباس عن عمر فى القصة الآتية فى الباب الذى يليه « فعاتبه الله فى ذلك وجعل له كفارة اليمين » ا.هـ.

---

(١) سورة التحريم آية ١ .

(٢) أنظر صحيح البخارى حـ ٣ ص ٢٠٥ . كتاب التفسير . تفسير سورة المتحرم . ط / الحلبى .

(٣) سورة الأحزاب آية ٢١ .

وقال ابن كثير : ومن هنا ذهب من ذهب من الفقهاء ممن قال بوجوب الكفارة على من حرم جاريته أو زوجته أو طعاماً أو شراباً أو ملبساً أو شيئاً من المباحات وهو مذهب الإمام أحمد وطائفة ، وذهب الشافعى إلى أنه لا تجب الكفارة فيما عدا الزوجة والجارية إذا حرم عينيهما أو أطلق التحريم فيهما فى قول فأما إذا نوى بالتحريم طلاق الزوجة **أو عتق الأمة نفذ فيهما** ا.هـ.

وقال أبو حنيفة أنه إن نوى الطلاق أو الظهار كان ما نوى . فإن لم ينو شيئاً كانت يميناً وكان الرجل مولياً من امرأته .

قال ابن كثير : وفى الصحيح أن ذلك كان فى تحريمه العسل كما قال البخارى عند هذه الآية . عن عائشة قالت كان النبى ﷺ وعلى آله وسلم يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ويمكث عندها فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له : أكلت مغافير إنى أجد منك ريح مغافير . قال « لا ولكنى كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش فلن أعود له وقد حلفت ، لا تخبرى بذلك أحداً »[1]. وفى رواية مسلم « وكان رسول الله ﷺ يشتد عليه أن يوجد منه الريح » يعنى الريح الخبيثة ولهذا قلن له أكلت مغافير لأن ريحها فيه شيء . والمغافير (صمغ حلو له رائحة كريهة ينضحه شجر يقال له العُرفُط يكون بالحجاز)[2].

فقوله تعالى : ﴿ **يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك** ﴾ ؟ أى : يا أيها النبى لم تمتنع عن شرب العسل الذى أحله الله لك ، تلتمس بذلك رضا أزواجك ؟

وفى ندائه ﷺ بيأيها النبى فى مفتتح العتاب حسن تلطف وتنويه بشأنه ــ عليه الصلاة والسلام ــ ﴿ **والله غفور رحيم** ﴾ أى : والله غفور لذنوب التائبين من عباده ، وقد غفر لك امتناعك عما أحله لك ، وإنما عاتبه سبحانه على الامتناع عن الحلال وهو مباح سواء كان مع اليمين أو بدونه تعظيما لقدره الشريف ، وإجلالاً لمنصبه أن يراعى مرضاة أزواجه بما يشق عليه جريا ما ألف من لطف الله به ، وإيماء إلى أن ترك الأولى بالنسبة إلى مقامه السامى يعدّ كالذنب وإن لم يكن فى نفسه كذلك .

قوله تعالى : ﴿ **قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم** ﴾ أى قد شرع لكم أيمانكم بالكفارة عنها وذلك فى قوله تعالى : ﴿ **لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ماتطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون** ﴾ .

---

(١) أنظر صحيح البخارى جـ ٣ ص ٢٠٥ . كتاب التفسير . تفسير سورة المتحرم

(٢) أنظر تفسير ابن كثير . جـ ٤ ص ٣٨٦ ، ٣٨٧ . تفسه سورة التحريم .

وقوله تعالى : ﴿ **والله مولاكم** ﴾ أى والله متولى أموركم ينصركم على أعدائكم ومسهل لكم سبل الفلاح فى دنياكم وأخراكم ــ﴿ **وهو العليم الحكيم** ﴾ أى وهو العليم بما يصلحكم فيشرعه لكم ، الحكيم فى تدبير أموركم .

ثم ساق ماهو كالدليل على علمه سبحانه فقال جل فى علاه :

قوله تعالى : ﴿ **وإذ أسر النبى إلى بعض أزواجه حديثاً ، فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرّف بعضه وأعرض عن بعض ، فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا ؟ قال نبأنى العليم الخبير** ﴾ أى واذكر حين أسر النبى ﷺ إلى حفصة أنه كان يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ، وقال لن أعود له وقد حلفت ، لا تخبرى بذلك أحداً ، فلما أخبرت عائشة بما استكتمها من السر ، وأطلعه الله على مادار بين حفصة وعائشة بما كان قد طلب من حفصة أن تكتمه ــ أخبر حفصة ببعض الحديث الذى أفشته وهو قوله لها : كنت شربت عسلا عند زينب فلن أعود وأعرض عن بعض الحديث وهو قوله وقد حلفت ، فلم يخبرها به تكرّماً منه ، لما فيه من مزيد خجلتها ، ولأنه ﷺ ماكان يود أن يشاع عنه اهتمامه بمرضاة أزواجه إلى حد امتناعه عن تناول ما أحل الله له .

وقوله : ﴿ **فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأنى العليم الخبير** ﴾ أى : فلما أخبر النبى ﷺ حفصة بما دار بينهما وبين عائشة من الحديث ، قالت من أنبأك بهذا ؟ ظناً منها أن عائشة قد فضحتها بإخبارها رسول الله ﷺ : قال الحبيب المصطفى : أخبرنى ربى العليم بالسر والنجوى ، الخبير بما فى الأرض والسماء لا يخفى عليه شىء فيهما .

قوله تعالى : ﴿ **إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير * عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً** ﴾ .

أخرج البخارى فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع أن أسأله هيبة له ، حتى خرج حاجاً فخرجت معه ، فلما رجعت وكنّا ببعض الطريق ، عدل إلى الأراك لحاجة له ، قال فوقفت له حتى فرغ ، ثم سرت معه فقلت له : يا أمير المؤمنين من اللتان تظاهرتا على النبى ﷺ من أزواجه فقال : تلك حفصة وعائشة ، قال فقلت : والله إن كنت لأريد أن أسألك عن هذا منذ سنة فما أستطيع هيبة لك ، قال فلا تفعل ، ما ظننت أن عندى من علم فاسألنى ، فإن كان لى علم خبّرتك به . قال ثم قال عمر : والله إن كنّا فى الجاهلية ما نعد للنساء أمراً ، حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم ، قال : فبينا أنا فى أمر أتأمّره إذ قالت إمرأتى : لو صنعت كذا وكذا ، قال فقلت لها : مالك ولما هاهنا ، فيما تكلفك فى أمر أريده ؟ فقالت لى عجباً لك يا ابن الخطاب ، ما تريد أن تُراجع أنت ، وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان . فقام عمر فأخذ رداءه مكانه حتى دخل على حفصة ، فقال لها : يا بنية

إنك لتراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان ؟ فقالت حفصة : والله إنّا لنراجعه . فقلت : تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله ، وغضب رسوله ، ﷺ . يا بنية لا يغرنك هذه التى أعجبها حسنها حب رسول الله ﷺ يريد عائشة — قال ثم خرجت حتى دخلت على أم سلمة لقرابتى منها فكلمتها ، فقالت أم سلمة . عجباً لك يا ابن الخطاب دخلت فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه فأخذتنى والله أخذاً كسرتنى عن بعض ماكنت أجد ، فخرجت من عندها وكان لى صاحب من الأنصار إذا غبت أتانى بالخبر ، وإذا غاب كنت آتيه بالخبر ، ونحن نتخوف مَلِكاً من ملوك غسان ذُكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا ، فقد امتلأتْ صدورنا منه ، فإذا صاحبى الأنصارى يدق الباب ، فقال افتح فقلت جاء الغسانى ؟ فقال : بل أشد من ذلك ، اعتزل رسول الله ﷺ أزواجه ، فقلت رغم أنف حفصة وعائشة . فأخذت ثوبى فخرجت حتى جئت ، فإذا رسول الله ﷺ فى مشربة له يرقى عليها بعجلة ، وغلام لرسول الله ﷺ أسود على رأس الدرجة ، فقلت له : قل هذا عمر بن الخطاب . فأذن لى فقصصت على رسول الله ﷺ هذا الحديث ، فلما بلغت حديث أم سلمة تبسم رسول الله ﷺ وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شىء ، وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف ، وإن عند رجليه قرظاً مصبوراً ، وعند رأسه أهب معلقة ، فرأيت الحصير فى جنبه فبكيت ، فقال ، مايبكيك ؟ فقلت : يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه ، وأنت رسول الله ، فقال : أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة » ؟ .

وفى رواية الإمام أحمد : فقلت يا رسول الله أطلقت نساءك ؟ فرفع رأسه إلىّ وقال « لا » فقلت : الله أكبر ، لو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوما نغلب النساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم ، فغضبت على إمرأتى يوماً فإذا هى تراجعنى ، فأنكرت أن تراجعنى ، فقالت : ما تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبى ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل فقلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسرت ، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هى قد هلكت ، فتبسم رسول الله ﷺ ، فقلت يا رسول الله قد دخلت على حفصة فقلت لا يغرنك أن كانت جارتك هى أوسم أو أحب إلى رسول الله ﷺ منك فتبسم أخرى ، فقلت استأنس يا رسول الله ؟ قال « نعم » فجلست فرفعت رأسى فى البيت فوالله ما رأيت فى البيت شيئاً يرد البصر إلا أهبة مقامه ، فقلت : أدع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله ، فاستوى جالساً ﷺ وقال : « أفى شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا » فقلت : استغفر لى يا رسول الله ، وكان أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله عز وجل .

فقوله تعالى : ﴿ **إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما** ﴾ أى : إن تتوبا من ذنبكما وتقلعا عن مخالفة رسوله ﷺ فتحبا ما أحب وتكرها ماكرهه فقد مالت قلوبكما إلى الحق والخير ، وأديتما ما يجب عليكما نحوه — ﷺ من إجلال وتكريم لمنصبه الشريف

ثم ذكر سبحانه أنه حافظه وحارسه فلا يضره أذى مخلوق فقال ﴿ **وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير** ﴾ اى وإن تتعاونا على العمل على ما يؤذيه ويسوؤه من الإفراط فى الغيرة وإفشاء سره ــ فلن يضره ذلك ، فإن الله ناصره فى أمر دينه وسائر شئونه على كل من يتصدى لما يكرهه ، وجبريل والمؤمنون الصالحون والملائكة مظاهرون له ومعينون .

ثم حذرهما بما يلين من قناتهما ، ويخفض من غلوائهما ، ويطمئن من كبريائهما فقال : ﴿ **عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا** ﴾ .

قال القرطبى قيل : هذا وعد من الله تعالى لرسوله ﷺ ، لو طلقهن فى الدنيا أن يزوجه فى الدنيا نساء خيراً منهن ، والله سبحانه كان عالماً بأنه كان لا يطلقهن ، ولكن أخبر عن قدرته ، على أنه إن طلقهن أبدله خيرا منهن تخويفا لهن . وهو كقوله تعالى : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ﴾ وهو إخبار عن القدرة وتخويف لهم ، لا أن فى الوجود من هو خير من أصحاب رسول الله ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿ **مسلمات** ﴾ قال سعيد بن جبير مخلصات . وقيل مسلمات لأمر الله وأمر رسوله . ﴿ **مؤمنات** ﴾ مصدقات بما أمرن به ونهين عنه . ﴿ **قانتات** ﴾ مطيعات والقنوت الطاعة . ﴿ **تائبات** ﴾ أى من ذنوبهن ، قاله السدى ، ﴿ **عابدات** ﴾ أى كثيرات العبادة لله تعالى . ﴿ **سائحات** ﴾ صائمات قاله ابن عباس والحسن وابن جبير .

وقوله تعالى : ﴿ **ثيبات وأبكارا** ﴾ أى منهن ثيب ومنهن بكر وسميت الثيب ثيباً لأنها راجعة إلى بيت أبويها ، وأما البكر فهى العذراء ، سميت بكراً لأنها على أول حالتها التى خلقت بها .

روى البخارى عن أنس قال : قال عمر : اجتمع نساء النبى ﷺ فى الغيرة عليه : فقلت عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن فنزلت هذه الآية .

ارشاد وتوجيه

قال تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٨﴾ (الآيات من ٦ – ٨)

معانى المفردات

﴿ **قوا أنفسكم** ﴾ : أى اجعلوا لها وقاية من النار بترك المعاصى . ﴿ **وأهليكم** ﴾ : أى يحملهم على ذلك بالنصح والتأديب . ﴿ **والوقود** ﴾ : بفتح الواو : ما توقد به النار ، ﴿ **والحجارة** ﴾ : هى الأصنام التى تعبد لقوله تعالى : ﴿ **إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون** ﴾ . ﴿ **ملائكة** ﴾ : هم خزنتها التسعة عشر ، ﴿ **غلاظ** ﴾ : أى غلاظ القلوب لا يرحمون إذا استرحموا . ﴿ **شداد** ﴾ أى أقوياء الأبدان . ﴿ **والتوبة النصوح** ﴾ : هى الندم على مافات والعزم على عدم العودة إلى مثله فيما هو آت .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أمر سبحانه بعض نساء النبى ﷺ بالتوبة عما فرط من الزلات ، أمر المؤمنين عامة بوقاية أنفسهم وأهليهم من نار وقودها الناس والحجارة يوم القيامة يوم يقال للكافرين : لاتعتذروا فقد فات الأوان ثم أمر المؤمنين أن يقللوا عن زلاتهم ، وأن يتوبوا توبة نصوحاً ، فيندموا على ما فرط منهم من الهفوات ، ويعزموا على عدم العودة فيما هو آت ليكفر الله عنهم سيئاتهم ، ويدخلهم جنات النعيم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾

أى : يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله : ليُعلّم بعضكم بعضا ما تتقون به النار وتدفعونها عنكم ، إنه طاعة الله تعالى وامتثال أوامره ، ولتعلموا أهليكم من العمل بطاعته ما يقون به أنفسهم منها ، واحملوهم على ذلك بالنصح والتأديب .

قال القرطبى : روى علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ إنه قال فى هذه الآية : قوا أنفسكم وأمروا أهليكم بالذكر والدعاء حتى يقيهم الله بكم .

وقال على وقتادة ومجاهد : قوا أنفسكم وأفعالكم وقوا أهليكم بوصيتكم فعلى الرجل أن يصلح نفسه بالطاعة ، ويصلح أهله إصلاح الراعى للرعية ففى صحيح الحديث أن النبى ﷺ قال : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالإمام الذى على الناس راع وهو مسئول عنهم ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم » . وعن هذا عبر الحسن فى هذه الآية بقوله : يأمرهم وينهاهم .

وقال بعض العلماء : لما قال ﴿ **قوا أنفسكم** ﴾ دخل فيه الأولاد ، لأن الولد بعض منه ، كما دخل فى قوله تعالى ﴿ **ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم** ﴾ فلم يفردوا بالذكر إفراد سائر القرابات . فيعلمه الحلال والحرام ، ويجنبه المعاصى والآثام إلى غير ذلك من الأحكام . وقال عليه الصلاة والسلام « مروا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم فى المضاجع »(١) رواه أبو داود وغيره وكذلك يخبر أهله بوقت الصلاة ووجوب الصيام ووجوب الفطر إذا وجب مستنداً فى ذلك إلى رؤية الهلال . وقد روى مسلم أن النبى ﷺ كان إذا أوتر يقول « قومى فأوترى يا عائشة »(٢) وروى أن النبى ﷺ قال « رحم الله امرأ قام من الليل فأيقظ أهله فإن لم تقم رش وجهها بالماء . رحم الله امرأة قامت من الليل تصلى وأيقظت زوجها فإذا لم يقم رشت على وجهه من الماء »(٣).

وأخرج البخارى بسنده عن هند بنت الحارث الفراسية « أن أم سلمة زوج النبى ﷺ قالت : استيقظ رسول الله ﷺ ليلة فزعاً يقول : « سبحان الله ، ماذا أنزل الله من الخزائن ، وماذا أنزل من **الفتن** ؟ من يوقظ صواحب الحجرات ــ يريد أزواجه ــ لكى يصلين ؟ رب كاسية فى الدنيا عارية فى الآخرة »(٤).

قال ابن بطال : فى هذا الحديث أن الفتوح فى الخزائن تنشأ عنه فتنة المال بأن يتنافس فيه فيقع

(١) أنظر سنن أبى داود حـ ١ ص ٣٣٤ كتاب الصلاة . باب : متى يؤمر الغلام بالصلاة . رقم ٤٩٥ .

(٢) أنظر صحيح مسلم حـ ١ ص ٥١١ كتاب صلاة المسافرين باب صلاة الليل وعدد ركعات النبى ﷺ . رقم ٧٤٤/١٣٤ .

(٣) أنظر سنن أبى داود حـ ٢ ص ٧٣ . كتاب الصلاة . باب قيام الليل حديث رقم ١٣٠٨ . وكذلك أخرجه النسائى فى قيام الليل رقم ١٦١١ وابن ماجه فى إقامة الصلاة . باب فى من أيقظ أهله من الليل رقم ١٣٣٦ .

(٤) أنظر صحيح البخارى حـ ٢ ص ٦٢ (ط / الشعب) . كتاب التهجد . باب تحريض النبى ﷺ على صلاة الليل والنوافل من غير إيجاب .

القتال بسببه وأن يبخل به فيمنع الحق أو يبطر صاحبه فيسرف ، فأراد ﷺ تحذير أزواجه من ذلك كله وكذا غيرهن ممن بلغه ذلك .

قال ابن حجر : واختلف فى المراد بقوله (كاسية وعارية) على أوجه أحدها : كاسية فى الدنيا بالثياب لوجود الغنى ، عارية فى الآخرة من الثواب لعدم العمل فى الدنيا ثانيها : كاسية بالثياب ولكنها شفافة لا تستر عورتها فتعاقب فى الآخرة بالعرى جزاء على ذلك . ثالثها : كاسية من نعم الله ، عارية من الشكر الذى تظهر ثمرته فى الآخرة بالثواب ، رابعها : كاسية جسدها لكنها تشد خمارها من ورائها فيبدو صدرها فتصير عارية فتعاقب فى الآخرة . خامسها : كاسية من خلعة التزوج بالرجل الصالح ، عارية فى الآخرة من العمل ، فلا ينفعها صلاح زوجها كما قال تعالى : ﴿ **فلا أنساب بينهم** ﴾ ذكر هذا الأخير الطيبى ورجحه لمناسبة المقام ، واللفظة وإن وردت فى أزواج النبى ﷺ لكن العبرة بعموم اللفظ ، وفى الحديث الندب إلى الدعاء ، والتفرع عند نزول الفتن ولاسيما فى الليل لرجاء وقت الإجابة وكذلك ينصح الرجل لأهله .

وقوله تعالى : ﴿ **عليها ملائكة غلاظ شداد** ﴾ يعنى الملائكة الزبانية غلاظ القلوب لا يرحمون إذا استرحموا ﴿ **شداد** ﴾ أى : شداد الأبدان ، وقيل : غلاظ فى أخذهم أهل النار ، شداد عليهم . قال ابن عباس : ما بين منكبى الواحد منهم مسيرة سنة ، وقوة الواحد منهم أن يضرب بالمقمع فيدفع بتلك الضربة سبعين ألف إنسان فى قعر جهنم .

وقوله تعالى : ﴿ **لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ أى : لا يخالفونه فى أمره من زيادة أو نقصان . ﴿ **ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ أى : فى وقته ، فلا يؤخرونه ولا يقدمونه .

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون** ﴾

أى : يقال للكفرة يوم القيامة لا تعتذروا فإنه لا يقبل منكم ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون وإنما تجزون اليوم بأعمالكم كما قال تعالى : ﴿ **فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولاهم يستعتبون** ﴾ وكما قال سبحانه وتعالى عنهم ﴿ **فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين** ﴾ .

أسرتك أيها المسلم

من أخطر المشاكل التى تواجه المسلم الواعى المخلص لدينه ، الشاعر بثقل الأمانة التى يحملها ، كيفية تربية أبنائه تربية اسلامية سليمة ، وتوجيههم توجيها مؤمنا متزناً ، بعيداً عن الأزمات النفسية ، والانحرافات العقيدية ، والأمراض الاجتماعية والسلوكية .

فالأسرة المسلمة اليوم تتأرجح بين تيارين هادمين ، تيار القديم الفاسد الجاهل المريض ، الذى

يعود إلى عصور من التخلف الإيمانى ، والتأخر الحضارى والتفكير العامى الوليد من العادات الجاهلية . والتقاليد الاجتماعية الناتجة عن تطور أعمى غير موجه ، وتيار جديد القلق المضطرب الذى يدعو إلى عبادة المادة ، والابتعاد عن الهداية الإلهية ، مقدماً ثقافة فكرية وإجتماعية غريبة فى جوانب كثيرة منها مقومات أمتنا عقيدة وحضارة وتاريخاً وأهدافاً .

والحقيقة المنطقية الواضحة تفهمنا أن التيار الأول هو الذى أسلمنا إلى النيار الثانى ، فكان الأخير من القوة والهيمنة فى ظل عصر الاستعمار الطويل لبلادنا الإسلامية بحيث كاد أن يكتسح أمامه كل خير ، ويمحو فى مجتمعنا بقايا جذور الإيمان القوية .

والحقيقة المنطقية الواضحة تفهمنا أن التيار الأول هو الذى أسلمنا إلى التيار الثانى ، فكان الأخير من القوة والهيمنة فى ظل عصر الاستعمار الطويل لبلادنا الإسلامية بحيث كاد أن يكتسح أمامه كل خير ، ويمحو فى مجتمعنا بقايا جذور الإيمان القوية .

ولو درس المسلم العاقل ما فعله المستعمرون فى بلاد الإسلام من تخطيط علمى منظم لإفساد شبابنا ، وزعزعة الإيمان فى نفوسهم بشتى الطرق ، وتشكيكهم فى تاريخهم وتراثهم ، ونشر الاتجاهات الإباحية والحياة المائعة الضائعة الهادمة بينهم ، إضافة إلى ما فعلوه من تحطم قوى الحضارة النامية فى بلادهم ، وإعاقة تقدمها فى جميع مجالات الحياة ، لعلم أن المصيبة كبيرة ، والمشكلة خطيرة . وأنه لم يعد يكفى أن نوجه إلى أبنائنا كلمات عامة شفهية ... صلوا ... اقرؤا القرآن ... خافوا الله .

بل لابد من خطة هادفة فى داخل البيت ناضجة تستطيع أن تقتلع جذور هذه المشكلة إلى حد أن لا تكون خطراً على مستقبل الأبناء والبنات .

وفى سبيل الوصول إلى الملامح العامة لهذا التخطيط الإسلامى التربوى الناضج لابد من الخروج من هذه المقدمة العامة إلى عرض المشاكل الخاصة فى داخل الأسرة . لأن القاعدة العلمية فى البحث تعلمنا تعيين المشكلة أولاً ، ثم محاولة فهمها وتحديد أجزائها ، ثم وضع الحلول المناسبة لكل جزئية من جزئياتها ، كىْ يتكامل الحل فى النهاية ، فيقضى بذلك على المشكلة ، دون تهريج وفوضى ، أو الدوران فى حلقة مفرغة .

(**المشكلة الأولى**) جهل رب الأسرة بالمبادىء العامة للإسلام

فأولى المشاكل فى رأيى جهل رب الأسرة بالمبادىء العامة للإسلام وأهدافه الخاصة فى بناء الحياة ، وعدم الاطلاع على سيرة النبى عليه الصلاة والسلام وأصحابه ، ليفهم دروسها وعبرها ، وصورها الحياتية المملوءة بالحركة والقوة والإيمان . ولا يقف جهله عند هذا الحد . بل هو يجهل واقع المجتمع الإسلامى ومشاكله وأوضاعه وتطوراته . ويجهل المخططات الاستعمارية المتنوعة لإفساد الأسرة المسلمة ، وزعزتها وتحطيمها فى النهاية .

وهذا الجهل يسوق إلى سوء التوجيه ، وفساد التقدير ، ويؤدى إلى ضياع الأسرة فى متاهات هذه الحياة الصاخبة بالأحداث ، المنعمة بالتيارات إذن لم يفد الأسرة حماس ربها للإسلام ، ولم يخدمها حتى حرصه على أداء الفرائض ، ولم يؤثر فى مجرى تفكير أفرادها تفكيره المشوه عن الدين ، غير المبنى على أساس من الوعى والتفقه والمعرفة الواضحة البعيدة عن العقلية العلمية .

فلابد إذن للمسلم الذى يريد أن ينشىء أولاده إنشاءاً إسلامياً على أساس من الإيمان والتقوى والجهاد المتكامل فى الحياة ، أن يعيد النظر فى موقفه الفاسد هذا ، بمعايشة الفكر الإسلامى ، والمطالعة المستمرة فيه والاطلاع على كل جديد حسب ثقافته وطاقته الفكرية ، ومعرفة الطرق الهادمة لمقومات الأسرة المسلمة .

سوء معاملة الأبوين للولد

(**المشكلة الثانية**) عدم إدراك رب الأسرة اليوم للتربية المجدية التى يجب أن تتبع فى مثل هذه الأوضاع الأسرية المعقدة .

فكثير من أرباب الأسر مازالوا ينطلقوا من مكامن العنجهية والقسوة فى معاملة الأولاد ظناً منهم أن هذا هو الطريق الطبيعى لتوجيه الأولاد توجيهاً سليماً .

ومن الأمور التى يكاد يجمع علماء التربية عليها ، أن الولد إذا عومل من قبل أبويه ومربيه المعاملة القاسية ، وأدب من قبلهم بالضرب الشديد ، والتوبيخ القارع ، وكان دائما الهدف فى التحقير والازدراء ، والتشهير والسخرية ، فإن ردود الفعل ستظهر فى سلوكه وخلقه ، وإن ظاهرة الخوف والانكماش ستبدو فى تصرفاته وأفعاله ، وقد يؤول به الأمر إلى الانتحار حيناً أو إلى مقاتلة أبويه أحياناً ، أو إلى ترك البيت نهائياً تخلصاً مما يعانيه من القسوة الظالمة ، والمعاملة الأليمة .

والإسلام بتعاليمه القويمة الخالدة ، يأمر كل من كان فى عنقه مسئولية التوجيه والتربية ، ولاسيما الأباء والأمهات منهم ، يأمرهم جميعاً أن يتخلقوا بالأخلاق العالية ، والمعاملة الرحيمة ، حتى ينشأ الأولاد على الاستقامة ، ويتربوا على الجرأة واستقلال الشخصية ، وبالتالى حتى يشعروا أنهم ذوو تقدير واحترام وكرامة .

قال الله تعالى : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾(١) الآية .

وقال تعالى : ﴿ **ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك** ﴾(٢)

---

(١) سورة النحل آية ٩٠ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٥٩ .

وقال عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخارى : « ان الله يحب الرفق فى الأمر كله »[1]

وقال عليه الصلاة والسلام فيما رواه أبو داود : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء »[2].

أن هؤلاء مازالوا يجهلون التركيب النفسى والاجتماعى الجديد لهذا الجيل الناشيء عن الأمراض الحضارية الجديدة .

وآخرون مازالوا يعتقدون أن طريق محاربة المجلات الخلاعية فى البيت هو التمزيق والصراخ والسب والضرب .

وهم مازالوا يؤمنون أن طريق الإهانة والحبس للأولاد فى غرف البيت هو الطريق الصحيح لمنع الأولاد عن ارتياد الأفلام التى لا يريدونهم الذهاب إليها .

وطائفة أخرى من الآباء المسلمين ، مازالوا يظنون أن التخطيط لتربية إسلامية يتحقق عن طريق **تحفيظ الأولاد ايات أو أحاديث ، أو تكليفهم بقراءة كتاب معين قراءة دون هضم مضمون ، والشوق إلى معانيه .**

وكل ما يفعله هؤلاء أن يصدروا أوامر صارمة فى صباح أو مساء إلى الأولاد والبنات ، دون تفكير جدى فى نقلها من عالم النظريات إلى عالم الواقع الحى ، وإلى عالم السلوك العملى .

إن مثل هذا التخطيط الناجح الذى نتحدث عنه لابد أن يعتمد على الحب والتخطيط واليقظة الدائمة .

الحـــب

لأن رب الأسرة إذا أراد أن تقبل آراؤه فى هذا الوسط الاجتماعى المعقد ، عليه أن يحبب نفسه إلى أولاده منذ صغرهم . ولقد ثبت فى علم النفس أن الطفل من بداية تفتق قوة الفهم فيه ، يحاول أن يتقمص أحب الناس إليه ، أى يحاول أن يتخذه مثالاً يقلده ، ويتخذها مناراً لحياته . فإذا كان هذا المحب والده ، تقمص شخصيته وطرح كل الشخصيات الأخرى ، فإذا كان الأب مسلماً يريد أن يربيه تربية إسلامية أفلح فى ذلك من خلال شحنات الحب التى يغمر ولده بها . فحب الإسلام يبدأ بدخول كيانه من خلال حبه لوالده . ثم مع الأيام يتمكن من نفسه أكثر فأكثر فيظهر على شخصيته وسلوكه مستقلاً عن حبه لوالده ، وبذلك تنجح التجربة ، وتؤتى ثمارها المرجوه .

(١) ، (٢) انظر سنن الترمذى حـ ٤ ص ٢٨٥ كتاب البر والصلة . باب ماجاء فى رحمة المسلمين . رقم ١٩٢٤ وانظر سنن أبى داود كتاب الأدب باب فى الرحمة .

إن المسلم إن لم يحول نفسه إلى مثال لابنه ، **فسيتخذ مثالا آخر فى المدرسة أو فى الشارع أو فى** بطون الكتب والمجلات وقد يكون ذلك المثال فاسداً فيبدأ الفساد يسرى فى كيانه ، فلا يفيد معه الكلام النظرى الذى يطلقه فى التوجيه الدينى فى ليل أو نهار .

جاء رجل إلى عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — يشكو إليه عقوق ابنه ، فأحضر عمر الولد وأنبَّه على عقوقه لأبيه ، ونسيانه لحقوقه ، فقال الولد : يا أمير المؤمنين أليس للولد حقوق على أبيه ؟ قال : بلى ، قال : فما هى يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر : أن ينتقى أمه ، ويحسن اسمه ، ويعلمه الكتاب (أى القرآن) ، قال الولد : يا أمير المؤمنين إن أبى لم يفعل شيئا من ذلك ، أما أمى فإنها زنجية كانت لمجوسى ، وقد سمانى جُعلا (أى : خنفساء) ، ولم يعلمنى من الكتاب حرفاً واحداً .

فالتفت عمر إلى الرجل وقال له : جئت إلىّ تشكو عقوق ابنك ، وقد عققته قبل أن يعقْك ، وأسأت إليه قبل أن يسىء إليك ؟!.

وهكذا حمَّل عمر الرجل حين أهمل تربية ابنه مسؤولية عقوق ولده له . ألا فليأخذ الآباء من هذا الخبر العظة والعبرة فى الملاطفة لأولادهم ، وحسن المعاملة لهم ، والرفق بهم ، واتباع الطريق الأقوم فى تربيتهم وتوجيههم .

المشكلة الثالثة وهناك أمر آخر فى غاية الأهمية ، وهو معاملة رب الأسرة لأم أولاده معاملة خالية من السكون الزوجى ، والأخلاق الإسلامية الكريمة . فكثير من هؤلاء لا يترددون فى إهانة زوجاتهم أمام أولادهم ، ولا يقدرون جهودهم فى الحياة البيتية تقديراً جيداً ، ولا يقيمون لهن وزناً فى تسيير أمور الأسرة والمشاركة فى حل مشاكلها . وقد يتجاوز ذلك إلى الظلم الصارخ ، وحجب الحقوق الزوجية عنهن ، تلك التى قررها الإسلام لهن الأمر الذى يقود إلى نتيجتين خطرتين (**أولاهما**) أنه يسقط بأخلاقه الرديئة وعدم ذوقه الاجتماعى فى نظر أولاده من حيث كونه مثالاً . فلا ينسجمون بذلك مع أفكاره الإسلامية بل يرونها لسوء تطبيقه ، وقصر مداركه ، أفكاراً مثالية لا ظل لها فى الواقع ، ولا أثر لها على السلوك . (**ثانيهما**) إن الزوجة المظلومة تحاول شعورياً أولا شعورياً أن تثأر من زوجها بطريقة وضع الحواجز بين أولادها . لا بل أحيانا تحاول أن تكره إليهم والدهم حتى ينحازوا إليها ويدافعوا عنها ، بل يصل الأمر أحياناً إلى درجة أنها تحاول أن تصور لهم أن سبب ظلمة لها وتعد به عليها هو تدينه ، فإن أرادوا أن يكونوا منفتحين مرنين فى الحياة يجب أن لا يسلكوا سبيل والدهم ، وتنتهى هذه المأساة بعدم تعاون الزوجة مع زوجها .

وهكذا يخفق هذا المسكين بسوء إرادته ، وأرادة تصرفاته فى تربية أولاده تربية جيدة ، من حيث كان منتهى أمله الوصول إلى ذلك الهدف النبيل .

ما السبب إذن فى انحراف أولاد كثير من المسلمين ؟

وقد يتبادر إلى ذهنك وأنت تقرأ هذه الكلمات سؤال فى غاية الخطورة والأهمية فتقول : ما السبب إذن فى انحراف أولاد كثير من المسلمين الذين لا يجهلون الإسلام فحسب بل هم لا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ويعيشون مأساته فى هذا العصر ، وقد أوتوا قدراً من حسن التوجيه ، وجودة التقدير ويعاملون نساءهم معاملة كريمة ؟ أقول :

لأبد أن هناك أسباباً أخرى وراء ذلك ، من أخطرها الزوجة ... نعم زوجته !! وهذا الأمر يرجع إلى الخطبة ، ويتقدم الزواج ، فالمفروض على المسلم الصالح الذى يريد أن يتزوج التأكد من أسرة البنت التى يريد الاقتران بها . ويدرسها دراسة دقيقة من حيث الانسجام الفكرى ، والتخلق بالأخلاق الإسلامية فالمرأة لها دور كبير فى التربية التى نتحدث عنها ورحم الله من قال : الأم مدرسة إذا أعددتها ... **أعددت** شعباً طيب الأعراق

فالأم فى تحمل المسئولية كالأب سواء بسواء ، بل مسؤوليتها أهم وأخطر ، باعتبار أنها ملازمة لولدها منذ الولادة إلى أن يشب ويترعرع ، ويبلغ السن التى تؤهله ليكون إنسان الواجب ورجل الحياة . والرسول ﷺ قد أفرد الأم بتحمل المسئولية حين قال « والأم راعية فى بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها » وإذا قصرت الأم فى الواجب التربوى نحو أولادها وإذا أهمل الأب مسؤولية التوجيه والتربية نحو أولاده ، لانصرافه وقت الفراغ إلى اللهو وارتياد القهوات مع الأصحاب والخلان ، فلاشك أن الأبناء سينشؤون نشأة اليتامى ، ويعيشون عيشة المشردين بل سيكونون سبب فساد وأداة إجرام للأمة بأسرها .

ولله درمن من قال :

ليس اليتيم من انتهى أبواه من ... هم الحياة وخلفاه ذليلاً
إن اليتيم هو الذى تلقى له ... أمًّاً تخلَّت أو أباً مشغولا

ويزداد الأمر سوءاً عندما يقضى الأبوان جلّ وقتهما فى حياة الإثم والغواية ، ويتقلبان فى أتون الشهوات والملذات ، ويتخبطان فى طريق الانحلال والإباحية ، فلاشك أن انحراف الولد يكون أبلغ وأخطر ، وتدرجه فى الإجرام يكون آكد وأعظم .

تحمـل المسئوليـة

والإسلام فى دعوته إلى تحمل المسئوليات ، حمل الآباء والأمهات مسؤولية كبرى فى تربية الأبناء ، وإعدادهم الإعداد الكامل لحمل أعباء الحياة وتهددهم بالعذاب الأكبر إذا هم فرطوا وقصروا وخانوا : قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾(١).

والرسول صلوات الله وسلامه عليه قد أكد فى أكثر من أمر وأكثر من وصية بضرورة العناية بالأولاد ، ووجوب القيام بأمرهم ، والاهتمام بتربيتهم . وإليكم طائفة من أوامره وتوجيهاته :

« والرجل راع فى أهله ومسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها ... » رواه البخارى ومسلم(٢).

« أدّبوا أولادكم وأحسنوا أدبهم » رواه ابن ماجه(٣)

« علموا أولادكم أوأهليكم الخير وأدبوهم » رواه عبدالرازق وسعيد بن منصور(٤) .

« مروا أولادكم بامتثال الأوامر ، واجتناب النواهى ، فذلك وقاية لهم من النار » رواه ابن جرير(٥).

« أدبوا أولادكم على ثلاث خصال : حب نبيكم ، وحب آل بيته ، وتلاوة القرآن ، فان حملة القرآن فى ظل عرش الله ، يوم لا ظل إلا ظله » رواه الطبرانى(٦)

– ومن العوامل الكبيرة التى تؤدى إلى انحراف الولد أيضاً قد يكون عن طريق دخول الكتب والمجلات التى تحمل أفكاراً وأخلاقاً مخالفة للإسلام إلى داخل الأسرة .

ولا يكون علاج ذلك بتمزيق هذه الكتب وتلك المجلات ، والاعتداء على الأولاد بالسب والضرب . فإن ذلك يؤدى إلى عكس المراد إذ يلجأون بعد ذلك إلى إخفائها وقراءتها ، بل يطلبونها بشغف أكثر ، وإصرار أكبر .

---

(١) سورة التحريم آية ٦ .

(٢) انظر صحيح مسلم حـ ٣ ص ١٤٥٩ كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العادل ، رقم ١٨٢٩/٢٠ .

(٣) انظر سنن ابن ماجة حـ ٢ ص ١٢١١ .
أنظر كنز العمال حـ ١٦ رقم ٤٥٤٠٩ .

(٤) انظر مصنف عبد الرزاق حـ ١١ رقم ٤٧٤١ .

(٥) انظر تفسير الطبرى حـ ١٧ ص ١٢٤ .

(٦) انظر كنز العمال حـ ١٦ رقم ٤٥٤٠٩ .

والعلاج الصحيح ، أن يستعرض معهم موضوعات تلك الكتب والمجلات وصورها فيبين تفاهتها ومخالفتها الصريحة للإسلام الذى حببه إليهم من قبل ورباهم عليه . ثم يبين لهم بأسلوب قريب إلى عقولهم ، محبب إلى نفوسهم الأضرار التى تنتج من مثل هذه الكتب وتلك المجلات .

ثم هذا لا يكفى ! بل عليه أن يقدم إليهم بديلاً ويعوضهم بكتب ومجلات أخرى مناسبة ، إسلامية وعلمية وأدبية وقصصية ، تملأ فراغهم ، **وتغذيهم بالثقافة الصحيحة والفكر الاجتماعى النير** والقصص الإنسانية الرائعة .

– ومن العوامل الكبيرة التى تؤدى إلى إنحراف الولد ، رفاق السوء والخلطة الفاسدة ، ولاسيما إن كان الولد بليد الذكاء ، ضعيف العقيدة ، متميع الخلق فسرعان ما يتأثر بمصاحبة الأشرار ، ومرافقة الفجار وسرعان ما يكتسب منهم أحط العادات واقبح الأخلاق ، بل يسير معهم فى طريق الشقاوة بخطى سريعة حتى يصبح الإجرام طبعاً من طباعهم ، والانحراف عادة متأصلة من عاداتهم ويصعب بعد ذلك ردُه إلى الجادة المستقيمة ، وإنقاذه من وهدة الضلال وهوة الشقاء .

والإسلام بتعاليمه التربوية وجه الآباء والمربين إلى أن يراقبوا أولادهم مراقبة تامة ، وخاصة فى سن التميز والمراهقة ، ليعرفوا من يخالطون ويصاحبون ، وإلى أين يغدون ويروحون ؟ وإلى أى الأماكن يذهبون ويرتادون ؟

كما وجههم أن يختاروا لهم الرفقة الصالحة ، ليكتسبوا منهم كل خلق كريم وأدب رفيع ، وعادة فاضلة .

وإليكم توجيهات الإسلام وتحذيراته من قرناء الشر ، ورفاق السوء والفساد ، قال تعالى : **﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول : ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلاً * ياويلتا ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلاً لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولاً ﴾**[(١)].

وقال أيضاً : **﴿ قال قرينه ربنا ما أطغيته * ولكن كان فى ضلال بعيد ﴾**[(٢)] .

وقال كذلك : **﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾**[(٣)].

وقال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الترمذى « المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل »[(٤)]

وقال أيضاً : فيما رواه البخارى ومسلم « مثل الجليس الصالح والجليس السوء كمثل حامل

(١) سورة الفرقان الآيات ٢٧ – ٢٩ .
(٢) سورة ق الآية ٢٣ .
(٣) سورة الزخرف آية ٦٧ .
(٤) انظر سنن الترمذى حـ ٤ ص ٥٠٩ كتاب الزهد ــ باب ٤٥ رقم ٢٣٧٨ .

المسك ، ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك أو تشترى منه ، أو تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، أو تجد منه ريحاً منتنة »(١).

فما أجدر الآباء والمربين أن يأخذوا بهذه التوجيهات الكريمة ، حتى تنصلح أحوال أولادهم ، وتسمو أخلاقهم ، ويظهر فى المجتمع أدبهم ، وحتى يكونوا فى الأمة أداة خير ، ورسل إصلاح ، ودعاة هداية فينصلح المجتمع بصلاحهم ، وتفتخر الأمة بكريم فعالهم ، وجميل صفاتهم .

تلكم هى أهم العوامل الأساسية فى انحراف الولد ، وهى عوامل ضارة وخطيرة ــ كما علمت ــ فإن لم يتدارك المربون هذه العوامل ، وإن لم يستأصلوا أسبابها ، وإن لم يأخذوا بالعلاج الناجع الذى وصفه الإسلام فى الإصلاح والتربية ، فإن الأولاد سينشؤون على الفساد ، ويتربون على الإجرام ، بل يكونون أداة هدم وتخريب لكيان المجتمع ، واستقرار الأمة ، وأمن البشرية ومن الصعوبة بمكان ردهم إلى الجادة ، وتفهيمهم الحق ، والسير بهم نحو معالم الخير ، وطريق الهدى ، والصراط المستقيم .

فما أجدر الآباء والمربين أن يمشوا على سنن الإسلام ، ومنهجه القويم فى تربية الأولاد ، ومعالجة انحرافهم ، وتقويم سلوكهم ، وإصلاح نفوسهم وتثبيت عقيدتهم ، وتلقينهم مبادىء الخير والفضيلة والأخلاق ، حتى يروا أبناءهم كالملائكة فى طهر أرواحهم ، وصفاء نفوسهم ، ونقاء سريرتهم ، وأمتثالهم لأمر ربهم ، بل يكونون قدوة صالحة لغيرهم فى كل مكرمة وفضيلة ، وإنتاج وتضحية ، وخلق وعمل صالح .

﴿ ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً ﴾(٢)

﴿ رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء ، ربنا اغفرلى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾(٣).

نقل هذا البحث من رسالة أسرتك أيها المسلم للدكتور محسن عبد الحميد ، ومن كتاب تربية الأولاد فى الإسلام .

قوله تعالى :

﴿ يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى

(١) أنظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢٠٢٦ كتاب البر والصلة باب استحباب مجالسة الصالحين رقم ٢٦٢٨/١٤٦ .
(٢) سورة الفرقان آية ٧٤ .
(٣) سورة ابراهيم الآيتان ٤٠ ، ٤١ .

من تحتها الأنهار يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير ﴾

أى يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ! توبوا إلى الله من ذنوبكم توبة صادقة خالصة ، روى ابن جرير بسنده عن سماك بن حرب قال : سمعت النعمان بن بشير قال : سمعت عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ يقول : (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً) قال يذنب الذنب ثم لا يرجع فيه

وقال قتادة : التوبة النصوح : الصادقة الناصحة ، وقيل : الخالصة ، يقال : نصح أى : أخلص له القول .

وقال الحسن : التوبة النصوح أن يبغض الذنب الذى أحبه ويستغفر منه إذا ذكره .

وقال الكلبى : التوبة النصوح الندم بالقلب ، والاستغفار باللسان والإقلاع عن الذنب .

وقال أبو بكر الوراق : هوان تضيق الأرض عليك بما رحبت ، وتضيق عليك نفسك ، كالثلاثة الذين خلفوا :

وقال أبو بكر الدقاق المصرى : التوبة النصوح هى رد المظالم ، واستحلال الخصوم ، وإدمان الطاعات .

وقال ذوالنون : التوبة النصوح علامتها : قلة الكلام ، وقلة الطعام ، وقلة المنام .

وقال رويم : هو أن تكون لله وجهاً بلاقفا ، كما كنت له عند المعصية قفاً بلا وجه .

وقال فتح الموصلى : علامتها ثلاث : مخالفة الهوى ، وكثرة البكاء ، ومكابدة الجوع والظمأ .

قال القرطبى : وأصل التوبة النصوح من الخلوص ، يقال : هذا عسل ناصح إذا خلص من الشمع .

وقوله تعالى : ﴿ **عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم** ﴾ وعسى من الله ــ جل فى علاه ــ موجبة بمنزلة التحقيق . وهذا إجماع من الله لعباده في قبول التوبة ، منه وتكرماً ، لأن العظيم إذا وعد وفىّ .

﴿ **ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾أى ويدخلكم فى الآخرة حدائق وبساتين ناضرة تجرى من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿ **يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه** ﴾ أي ولا يخزيهم معه يعنى يوم القيامة ﴿ **نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم** ﴾ أى نور هؤلاء المؤمنين يضىء لهم على الصراط ويسطع أمامهم وخلفهم وعن أيمانهم وشمائلهم .

وفى الحديث الصحيح « أن النبى ﷺ سئل : كيف تعرف أمتك يوم القيامة من بين الأمم ؟ فقال : « إنهم يأتون غراً محجلين من آثار الوضوء »[1] أى تسطع جباههم وأيديهم بالنور من آثار الطهور فيعرفهم بذلك رسول الله ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿ يقولون ربنا أتمم لنا نورنا ﴾ قال ابن عباس ـــ رضى الله عنهما : هذا دعاء المؤمنين حين أطفأ الله نور المنافقين يدعون ربهم به أشفاقاً حتى يصلوا إلى الجنة . ﴿ واغفر لنا ﴾ أى وامح عنا ما فرط من الذنوب ﴿ إنك على كل شىء قدير ﴾ أى : إنك أنت سبحانك القادر على كل شىء ، من المغفرة والعقاب ، والرحمة والعذاب .

بحث فى التوبة وذكر شروطها وأركانها وما يتعلق بذلك

قال الإمام الشيخ أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسى فى « منهاج القاصدين » : **إعلم** : **أن** الذنوب حجاب عن المحبوب ، والانصراف عما يبعد عن المحبوب واجب .

وإنما يتم ذلك بالعلم والندم والعزم ، فإنه متى لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب ، لم يندم على الذنوب ، ولم يتوجع بسبب سلوكه طريق البعد ، وإذا لم يتوجع لم يرجع .

وقد أمر الله تعالى بالتوبة فقال : ﴿ **وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون** ﴾

وقال سبحانه : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً** ﴾

وقال جل فى علاه : ﴿ **إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين** ﴾

وقال النبى ﷺ : « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإنى أتوب إلى الله فى اليوم مائة مرة »[1].

وفى الصحيحين من حديث ابن مسعود ـــ رضى الله عنه ـــ أن رسول الله ﷺ قال : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من رجل فى أرض دوية مهلكة ، معه راحلته ، عليها طعامه وشرابه ، فنام فاستيقظ وقد ذهبت ، فطلبها حتى أدركه العطش ، ثم قال أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه ، فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت ، فاستيقظ وعنده راحلته ، عليها زاده وطعامه وشرابه ، فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته »[2].

---

(١) أنظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢٠٧٦ كتاب الذكر والدعاء باب استحباب الاستغفار رقم ٢٧٠٢/٤٢ .

(٢) أنظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢٠١٢ كتاب التوبة باب الحض على التوبة رقم ٢٦٧٥/٢ .

والأحاديث كثيرة ، والإجماع منعقد على وجوب التوبة ، لأن الذنوب مهلكات مبعدات عن الله تعالى ، فيجب الهرب منها على الفور .

التوبة واجبة على الدوام

والتوبة واجبة على الدوام ، فإن الإنسان لا يخلو عن معصية ، لو خلا عن معصية بالجوارح لم يخل عن الهم بالذنب بقلبه ، وإن خلا عن ذلك لم يخل عن وسواس الشيطان بايراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله تعالى ، لو خلا عنه لم يخل عن غفلة وقصور فى العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله ، وكل ذلك نقص ، ولا يسلم أحد من هذا النقص ، وإنما الخلق يتفاوتون فى المقادير ، وأما أصل ذلك ، فلابد منه ولهذا قال ﷺ : « إنه ليغان على قلبى ، فأستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة »[١] ولذلك أكرمه الله تعالى بقوله : ﴿ **ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر** ﴾[٢] فأما غيره فكيف يكون حاله ؟ ومتى اجتمعت شروط التوبة كانت صحيحة مقبولة قال الله تعالى : ﴿ **وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون** ﴾[٣].

وفى الحديث الصحيح قال رسول الله ﷺ : « إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر »[٤].

شــروط التــوبــة

واعلم : أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزماً وقصداً ، وذلك الندم يورث العلم بأن تكون المعاصى حائلاً بين الإنسان وبين محبوبه . والندم هو توجع القلب عند شعوره بفراق المحبوب ، وعلامته طول الحزن والبكاء ، فإن من استشعر عقوبة نازلة بولده أو من يعز عليه ، طال بكاؤه ، واشتدت مصيبته ، وأى عزيز أعز عليه من نفسه ؟

وأى عقوبة أشد من النار ؟ وأى سبب أدل على نزول العقوبة من المعاصى ؟ وأى مخبر أصدق من رسول الله ؟ ولو أخبره طبيب أن ولده لا يبرأ من مرضه لاشتد فى الحال حزنه ، وليس ولده بأعز من نفسه ، ولا الطبيب أعلم من الله ورسوله ، ولا الموت بأشد من النار ، ولا المرض أدل على الموت من المعاصى على سخط الله ، والتعرض بها للنار .

---

(١) أنظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٧٥ كتاب الذكر والدعاء . باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه رقم ٢٧٠٢/٤١ .
(٢) سورة الفتح آية ٢ .
(٣) سورة الشورى آية ٢٥ .
(٤) أنظر سنن الترمذى جـ ٥ ص ٥١ كتاب الدعوات . باب فضل التوبة والاستغفار رقم ٣٥٣٧ .

وينبغي للتائب أن يتفقد ما عليه من صلاة فائتة ، أو بغير شرطها مثل أن يكون صلاها فى ثوب نجس ، أو بنية غير صحيحة ، لجهله بذلك فيقضيها كلها . وكذلك إن كان عليه صوم ، أو زكاة أو حج ، أو غير ذلك من الواجبات يقضيها كلها ، ويفتش على ذلك ويتداركه .

وأما المعاصى ، فينبغي أن يفتش من أول بلوغه عن معصية صدرت منه ، وينظر فيها ، فما كان من ذلك فيما بينه وبين الله تعالى ، فالتوبة منه الندم والاستغفار .

ثم ينظر إلى مقادير ذنوبه ، فيطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها فيأتى الحسنات بمقدار تلك السيئات قال تعالى : ﴿ **إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾ وقال النبى ﷺ : « أتبع السيئة الحسنة تمحها »[1].

مثال ما ذكرنا :

أن يكفر سماع الملاهى بسماع القرآن ، ومجالس الذكر ، ويكفر مس المصحف بغير طهارة بإكرامه وكثرة القراءة فيه ، ويكفر شرب الخمر بالتصدق بالشراب الحلال ، وعلى هذا فاسلك سبيل المضادة ، فإن الأمراض إنما تعالج بضدها ، فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى .

وأما مظالم العباد ، فقيها أيضاً معصية الله تعالى ، لأنه نهى عن ظلم العباد ، فالظالم لهم قد ارتكب نهيه تعالى ، فيتدارك ذلك بالندم والعزم على ترك مثل ذلك فى المستقبل ، والاتيان بالحسنات المضادة لتلك المظالم فيقابل إيذاء الناس بالإحسان إليهم ، ويكفر غصب الأموال بالتصدق بماله الحلال ، ويكفر تناول أعراضهم بالثناء على أهل الدين ، ويكفر قتل النفوس بالعتق .

هذا فيما يتعلق بحق الله تعالى ، فإذا فعل ذلك ، لم يكفه حتى من مظالم الناس .

ومظالمهم إما فى النفوس ، أو الأموال ، أو الأعراض ، أو إيذاء القلوب .

أما الأول : فإنه إذا قتل خطأ ، أوصل الدية إلى مستحقها إما منه أو من عاقلته ، وإن قتل عمداً ، وجب عليه القصاص بشروطه ، فعليه أن يبذل نفسه لولى الدم ، إن شاء قتله ، وإن شاء عفا عنه ، ولا يجوز له إخفاء أمره ، بخلاف ما لوزنا ، أو سرق ، أو شرب الخمر أو باشر ما يجب فيه حد لله تعالى ، فإنه لا يلزمه فى التوبة أن يفضح نفسه . بل عليه أن يستر نفسه ، فإن رفع أمره إلى الولى حتى أقام عليه الحد ، وقع ذلك موقعه وكانت توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى بدليل قصة ما عز والغامدية .

وكذلك حد القذف ، لابد فيه من تحكيم المستحق فيه .

(١) انظر سنن الترمذى حـ ٤ ص ٣١٢ ، ٣١٣ كتاب البر والصلة . باب ماجاء فى معاشرة الناس رقم ١٩٨٧ .

الثانى : المظالم المتعلقة بالأموال ، نحو الغصب ، والخيانة ، والتلبيس فى المعاملات ، فيجب عليه رد ذلك إلى أصحابه والخروج منه . وليكتب إلى أصحاب المظالم ، وليؤد إليهم حقوقهم ، ويستحلهم ، فإن كثر ظلمه بحيث لا يقدر على أدائه ، فليفعل ما يقدر عليه من ذلك ولم يبق له طريق إلا الاستكثار من الحسنات ، لتؤخذ منه فى القصاص يوم القيامة فتوضع فى موازين أرباب المظالم ، فإنها إن لم تف بذلك أخذ من سيئاتهم ، فتوضع فوق سيئاته .

هذا حكم المظالم الثابتة فى الذمة والأموال الحاضرة ، فإن كان عنده مال من شىء من ذلك لم يعرف مالكه ولا ورثته ، تصدق عنه وإن اختلط الحلال بالحرام ، عرف قدر الحرام بالاجتهاد ، وتصدق بمقداره .

الثالث : الجناية على الأعراض ، وإيذاء القلوب ، فعليه أنه يطلب كل واحد منهم ، وليستحله ، وليعرفه قدر الجناية ، فإن الاستحلال المبهم لا يكفى ، وربما لو عرف ذلك لم تطب نفسه بالإحلال ، إلا أن تكون تلك الجناية إذا ذكرت كثر الأذى ، كنسبته إلى عيب من خفايا عيوبه ، أو كزنى بجارته ، فليجتهد فى اللطف به والإحسان إليه ، ثم ليستحله مبهماً ، ولابد أن يبقى فى مثل ذلك مظلمة تجبر بالحسنات يوم القيامة ، وكذلك من مات من هؤلاء فإنه يفوت أمره ، ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات لتؤخذ منه عوضا يوم القيامة ، ولاخلاص إلا برجحان الحسنات .

— ومن شروط التوبة الصحيحة العزم على أن لا يعود فى المستقبل إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها ، ويعزم على ذلك عزماً مؤكداً . مثال ذلك المريض الذى يعلم أن الفاكهة تضر فى مرضه ، فيعزم عزماً جزماً أن لا يتناول شيئا من الفاكهة مادام فى مرضه ذلك ، فإن هذا العزم يتأكد فى الحال ، وإن كان يتصور أن تغلبه الشهوة فى ثانى الحال ، ولكن لايكون تائباً مالم يتأكد عزمه فى الحال ، ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب فى أول مرة إلا بالعزلة ، والصمت ، وقلة الأكل والنوم ، وإحراز قوت حلال ، ويترك الشبهات والشهوات من المأكولات والملبوسات .

بيان أقسام العباد فى دوام التوبة

الناس فى التوبة أربع طبقات :

الطبقة الأولى : تائب يستقيم على التوبة إلى آخر عمره ، ويتدارك ما فرّط من أمره ، ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه ، إلا الزلات التى لا ينفك عنها البشر فى العادات ، فهذه هى الاستقامة فى التوبة ، وصاحبها هو السابق بالخيرات .

وتسمى هذه التوبة : النصوح ، وتسمى هذه النفس : المطمئنة وهؤلاء يختلفون ، منهم من سكنت شهوته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها ، ومنهم من تنازعه نفسه وهو ملىء بمجاهدتها .

الطبقة الثانية : تائب قد سلك طريق الاستقامة فى أمهات الطاعات وكبائر الفواحش ، إلا أنه لا ينفك عن ذنوب تعتريه ، لا عن عمد ، ولكنه يبتلى بها فى مجارى أحواله من غير أن يقدم عزماً على الإقدام عليها ، وكلما أتى شيئا منها لام نفسه ، وندم وعزم على الاحتراز من أسبابها ، فهذه هى النفس اللوامة لأنها تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الأحوال الذميمة ، فهذه رتبة عالية أيضاً ، وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى ، وهى أغلب أحوال التائبين ، لأن الشر معجون بطينة الآدمى ، فقلما ينفك عنه ، وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره ، حتى يثقل ميزانه ، فترجح حسناته ، فأما أن تخلو كفة السيئات ، فبعيد .

وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله سبحانه وتعالى إذ قال : ﴿ **الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة** ﴾(١).

الطبقة الثالثة : أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ، ثم تغلبه شهوته فى بعض الذنوب ، فيقدم عليها لعجزه عن قهر الشهوة ، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات ، وترك جملة من الذنوب مع القدرة عليها والشهوة لها ، وإنما قهرته شهوة واحدة أو شهوتان ، وهو يود لو أقدره الله على قمعها ، وكفاه شرها ، فإذا انتهت ندم لكنه يعد نفسه بالتوبة عن ذلك الذنب ، فهذه النفس تسمى المسوله وصاحبها من الذين قال الله فيهم ﴿ **وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً** ﴾(٢) فأمر هذا من حيث مواظبته على الطاعات وكراهيته لما يتعاطاه مرجو لقوله تعالى : ﴿ **عسى الله أن يتوب عليهم** ﴾ وعاقبته مخطره من حيث تأخيره وتسويفه ، فربما يختطف قبل التوبة ، فإن الأعمال بالخواتيم ، فعلى هذا يكون الخوف من الخاتمة ، وكل نفس يمكن أن يتصل به الموت ، فتكون الخاتمة ، فليراقب الأنفاس ، وليحذر وقوع المحذور .

الطبقة الرابعة : أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ، ثم يعود إلى الذنوب منهمكا من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ، ومن غير أن يتأسف على فعله ، فهذا من المصرين ، وهذه النفس هى الأمارة بالسوء . ويخاف على هذا سوء الخاتمة .

فإن مات هذا على التوحيد ، فإنه يرجى له الخلاص من النار ولو بعد حين ، ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفى لا يطلع عليه ، إلا أن التعويل على هذا لا يصلح . فإن من قال : إن الله تعالى كريم ، وخزائنه واسعة ، ومعصيتى لا تضره ، ثم تراه يركب البحار فى طلب الدينار ، فلو قيل له . فإذا كان الحق كريماً ، فاجلس فى بيتك لعله يرزقك ، استجهل قائل هذا وقال : إنما الأرزاق بالكسب ، فيقال له : هكذا النجاة بالتقوى .

---

(١) سورة النجم آية ٣٢ .

(٢) سورة التوبة آية ١٠٢

فيما ينبغى للتائب فعله

وقد ذكرنا أن التائب ينبغى له أن يأتى بحسنات تضاد ما عمل من السيئات ، تمحوها وتكفرها ، والحسنات المكفرة تكون بالقلب واللسان والجوارح على حسب السيئات ، فما كان للقلب ، فنحو التضرع والتذلل ، وأما اللسان ، الاعتراف بالظلم والاستغفار مثل أن يقول : رب ظلمت نفسى فأغفرلى

روى فى الحديث الصحيح ، أن النبى ﷺ قال : « ما من رجل يذنب ذنباً ، فيتوضأ ويحسن الوضوء ، ثم يصلى ركعتين ، ويستغفر الله عز وجل ، إلا غفر له »[1].

وأما الجوارح بالطاعات ، والصدقات ، وأنواع العبادات .

فصل فى دواء التوبة وطريق علاج حل عقد الإصرار

اعلم : أنه لا يقف على الدواء من لا يقف على الداء ، إذ لا معنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء . ولا يبطل الشىء إلا بضده ، وسبب الإصرار الغفلة والشهوة ، ولا تضاد الغفلة إلا بالعلم ، ولا تضاد الشهوة إلا بالصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة .

والغفلة رأس الخطايا ، فلا دواء إذاً للتوبة إلا معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر .

والأطباء لهذا المرض هم العلماء ، لأنه مرض القلوب ، ومرض القلوب أكثر من مرض الأبدان ، وإنما صار مرضها أكثر لأمور :

أحدها : أن المريض لا يدرى أنه مريض .

الثانى : أن عاقبته غير مشاهدة فى هذا العالم ، بخلاف مرض الأبدان فإن عاقبته موت مشاهد ينفر الطبع منه ، وما بعد الموت غير مشاهد ، فقلّت النفرة عن الذنوب وإن علمها مرتكبها ، فلذلك نراه يتكل على فضل الله فى مرض القلب ، ويجتهد فى علاج البدن من غير اتكال .

الأمر الثالث : وهو الداء العضال فقد الطبيب ، فإن الأطباء هم العلماء ، وقد مرضوا فى هذه الأعصار ، لأن الداء المهلك هو حب الدنيا ، وقد غلب هذا الداء على الأطباء ، فلم يقدروا على تحذير

---

(١) انظر سنن الترمذى حـ ٥ ص ٢١٣ كتاب تفسير القرآن رقم ٣٠٠٦

الخلق استنكافاً من أن يقال لهم : فما لكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم ؟ فبهذا السبب عم الداء وانقطع الدواء .

فإن قيل : فما الذى ينبغى للواعظ سلوكه من الخلق ؟

فالجواب : أن ذلك يطول ، لكنا نشير إلى الأعمال النافعة فى ذلك ، وهى أربعة أنواع :

الأول : أن يذكر مافى القرآن العزيز من الآيات المخوفة للمذنبين ، وما ورد فى الأخبار والآثار من ذلك ، ويمزج ذلك بمدح التائبين .

النوع الثانى : حكايات الأنبياء عليهم السلام والسلف الصالح ، وما أصابهم من المصائب بسبب الذنوب كحال آدم عليه السلام ... ولم يورد القرآن هذه الأشياء إلا للاعتبار .

النوع الثالث : أن يقرر عندهم ، أن تعجيل العقوبة فى الدنيا متوقع وأن كل ما يصيب العبد من المصائب ، فهو سبب جناياته ، فرب عبد يتساهل فى أمر الآخرة يخاف عقوبة الدنيا أكثر لفرط جهله . والذنوب قد يتعجل فى الدنيا شؤمها ، كما قال النبى ﷺ : « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » اخرجه أحمد .

وقال الفضل بن عياض : إنى لأعصى الله ، فأعرف ذلك فى خلق حمارى وخادمى .

وقال الحسن ــ رحمه الله : الحسنة نور فى القلب ، وقوة فى البدن ، والسيئة ظلمة فى القلب ، ووهن فى البدن .

النوع الرابع : ذكر ما ورد من العقوبات فى آحاد الذنوب ، كشرب الخمر والزنى ، والقتل ، والكبر ، والحسد ، والغيبة .

وهذا الذى ذكرناه هو علاج الغفلة ، فيبقى علاج الشهوة وطريق علاجها الصبر ، فإن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره ، وإنما يحمله على ذلك شدة شهوته ، أو غفلته عن مضرته ، فلابد من مرارة الصبر ، وكذلك يعالج الشهوة فى المعاصى ، كالشاب مثلاً إذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه وقلبه وجوارحه فى السعى وراء الشهوة ، فينبغى أن يستحضر المخوفات التى جاءت فى كتاب الله تعالى . وسنة رسوله ﷺ فإذا أشتد خوفه تباعد عن الأسباب المهيجة للشهوة .

---

(١) انظر سنن الترمذى حـ ٥ ص ٤٠٤ كتاب تفسير القرآن باب ٧٤
انظر النسائى فى الكبرى كتاب التفسير ، عمل اليوم والليلة ص ١٣٩ . باب ما يفعل من بلى بذنب وما يقول .
انظر سنن ابن ماجة ــ الزهد باب المداومة على العمل .

والذى يهيج الشهوة من خارج ، هو حضور المشتهى ، والنظر إليه وعلاجه . الجوع والصوم الدائم ، وكل ذلك لا يتم إلا بصبر ، ولا يصبر إلا عن خوف ، ولا يخاف إلا عن علم ، ولا يعلم إلا عن بصيرة ، فأول الأمر حضور مجالس الذكر ، والاستماع بقلب مجرد عن الشواغل ، ثم التفكر فيما قيل ، فينبعث الخوف ، ويسهل الصبر ، وتتيسر الدواعى لطلب العلاج ، وتوفيق الحق سبحانه وتعالى من وراء ذلك كله . (ا.هـ) .

كل مسؤول عن عمله

قال تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ
ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ
عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا
ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ
رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا
وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

معانى المفردات

﴿ **اغلظ عليهم** ﴾ : أى شدد . ﴿ **ضرب المثل** ﴾ : ذكر حال غريبة لتعرف بها حال أخرى تشاكلها فى الغرابة ، ﴿ **تحت عبدين** ﴾ : أى فى عصمتهما . ﴿ **فخانتاهما** ﴾ : أى نافقتا فأخفتا الكفر وأظهرتا الإيمان . ﴿ **فلم يغنيا عنهما** ﴾ : أى لم يفيداهما ولم يجزيا عنهما من الله شيئاً . ﴿ **نجنى من فرعون وعمله** ﴾ : أى خلصنى منه فإنى أبرأ إليك منه ومن عمله . ﴿ **احصنت فرجها** ﴾ : أى حفظته وصانته . ﴿ **القانتين** ﴾ : أى الطائعين المخبتين لله .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالتوبة النصوح ، أمر رسوله بجهاد الكافرين والمنافقين والغلظة لهم فى القول والعمل ، وذكر أن جزاءهم فى الآخرة جهنم وبئس القيل والمأوى وبعد ذلك ذكر أن النفوس إن لم تكن مستعدة لقبول الإيمان ، ولى جوهرها صفاء ونقاء فلا تجدى فيها العظة والعبرة ، ولا مخالطة المؤمنين الاتقياء ، وضرب لذلك المثل بامرأة نوح وإمرأة لوط . كذلك إذا كان جوهر النفس نقياً خالصاً من كدورة الكفر والنفاق فمجاورتها للكفرة وعشرتها إياهم لا تغير من حالها شيئاً وضرب لذلك مثل امرأة فرعون . وكذلك مريم ابنة عمران التى عفت فأتاها الله الشرف والكرامة ، وأنجبت عيسى ، وصدقت بجميع شرائعه وكتبه وكانت من العابدين القانتين .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير** ﴾ .

يقول تعالى : آمراً رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين ، هؤلاء بالسلاح والقتال ، وهؤلاء بإقامة الحدود عليهم ﴿ **واغلظ عليهم** ﴾ أى فى الدنيا . ﴿ **ومأواهم جهنم وبئس المصير** ﴾ أى فى الآخرة بئس المأوى والمقيل .

مـراتب الجهـاد

قال العلامة ابن القيم : لما كان الجهاد ذروة سنام الإسلام وقبته ومنازل أهله أعلى المنازل فى الجنة كما لهم الرفعة فى الدنيا فهم الأعلون فى الدنيا والآخرة كان رسول الله ﷺ فى الذروة العليا منه فاستولى على أنواعه كلها فجاهد فى الله حق جهاده بالقلب والجنان والدعوة والبيان ، والسيف والسنان ، وكانت ساعاته موقوفة على الجهاد بقلبه ولسانه ويده ، ولهذا كان أرفع العالمين ذكراً وأعظمهم عند الله قدراً وأمره الله تعالى بالجهاد من حين بعثه وقال تعالى : ﴿ **ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا * فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً** ﴾(١) فهذه سورة مكية أمره فيها بجهاد الكفار بالحجة والبيان وتبليغ القرآن ، وكذلك جهاد المنافقين إنما هو بتبليغ الحجة وإلا فهم تحت قهر أهل الاسلام . قال تعالى : ﴿ **يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير** ﴾

---

(١) سورة الفرقان الآيتان ٥١ ، ٥٢ .

فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار وهو جهاد خواص الأمة وورثة الرسل والقائمون به أفراد فى العالم والمشاركون فيه والمعاونون عليه وإن كانوا هم الأقلين عدداً فهم الأعظمون عند الله قدراً . ولما كان من أفضل الجهاد قول الحق مع شدة المعارض مثل أن تتكلم به عند من تخاف سطوته وأذاه كان للرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - من ذلك الحظ الأوفر وكان لنبينا - صلوات الله وسلامه عليه من ذلك اكمل الجهاد وأتمه ولما كان جهاد أعداء الله فى الخارج فرضا على جهاد العدو نفسه فى ذات الله ، كما قال النبى ﷺ « المجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله والمهاجر من هاجر مانهى الله عنه ».[(١)] كان جهاد النفس مقدما على جهاد العدو فى الخارج ، فكيف يمكنه جهاد عدوه والانتصاف منه وعدوه الذى بين جنبيه قاهر له متسلط عليه لم يجاهده ولم يحاربه فى الله ، بل لايمكنه الخروج الى عدوه حتى يجاهد نفسه على الخروج فهذان عدوان قد امتحن العبد بجهادهما وبينهما عدو ثالث لايمكنه جهادهما الا بجهاده وهو واقف بينهما يثبط العبد عن جهادهما ويخذله ويزحف به ولايزال يخيل له مافى جهادهما من المشاق وترك الحظوظ وفوت اللذات والمشتهيات ولايمكنه ان يجاهد دينك العدوين إلا بجهادهما فكان جهاده هو الأصل لجهادهما وهو الشيطان قال تعالى : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ﴾[(٢)] والأمر باتخاذه عدوا تنبيه على استفراغ الواسع فى محاربته ومجاهدته كأنه عدو لايفتر ولايقصر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس فهذه ثلاثة أعداء أمر العبد بمحاربتها وجهادها . وقد يلى العبد بمحاربتها فى هذه الدار وسلطت عليه امتحانا من الله له وابتلاء فأعطى الله العبد مددا وعدة وأعوانا وسلاحا لهذا الجهاد . واعطى أعداءه مددا وعدة وأعوانا وسلاحا وبلا أحد الفريقين بالآخر وجعل بعضهم لبعض فتنة ليبلوا أخبارهم ويمتحن من يتولاه ويتولى رسله ممن يتولى الشيطان وحزبه كما قال تعالى : ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا ﴾[(٣)] وقال تعالى : ﴿ ولو يشاء الله لا نتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض ﴾[(٤)] وقال تعالى : ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم ﴾[(٥)] .

فأعطى عباده الأسماع والأبصار والعقول والقوى وأنزل عليهم كتبه وأرسل رسله وأمدهم بملائكته وقال لهم إنى معكم فثبتوا الذين آمنوا وأمرهم من أمره بما هو من أعظم العون لهم على حرب عدوهم وأخبرهم أنهم إن امتثلوا ما أمرهم به لم يزالوا منصورين على عدوه وعدوهم وأنه إن سلطه عليهم فلتركهم بعض ما أمروا به ولمعصيتهم له ، ثم لم يؤيسهم ولم يقنطهم بل أمرهم أن يستقبلوا أمرهم ويداووا جراحهم ويعودوا إلى مناهضة عدوهم فينصرهم عليهم ويظفرسم بهم فأضربهم أنه مع المتقين منهم ومع المحسنين ومع الصابرين ومع المؤمنين وأنه يدافع عن عباده المؤمنين مالا يدفعون عن أنفسهم ، بل بدفاعه عنهم انتصروا على عدوهم ولولا دفاعه لتخطفهم عدوهم واجتاحهم ، وهذه

---

(١) انظر كنز العمال حـ ٤ رقم ١١٢٦١ ، ٢١٢٦٦
(٢) سورة فاطر آية ٦
(٣) سورة الفرقان آية ٢٠ .
(٤) سورة محمد آية ٤ .
(٥) سورة محمد آية ٣١ .

المدافعة عنهم بحسب إيمانهم وعلى قدره ، فإن قوى الإيمان قويت المدافعة فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه . وأمرهم أن يجاهدوا فيه حق جهاده كما أمرهم أن يتقوه حق تقاته وكما أن حق تقاته أن يطاع فلا يعصى وأن يذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر فحق جهاده أن يجاهد نفسه ليسلم قلبه ولسانه وجوارحه لله فيكون كله لله وبالله لا لنفسه ولا بنفسه ، ويجاهد شيطانه بتكذيب وعده ومعصية أمره وارتكاب نهيه فإنه يعد الأماني ويمنى الغرور ، ويعد الفقر ويأمر بالفحشاء وينهى عن التقى والهدى والعفة والصبر وأخلاق الإيمان كلها ، فجاهده بتكذيب وعده ومعصية أمره فينشأ له من هذين الجهادين قوة وسلطان وعدة يجاهد بها أعداء الله فى الخارج بقلبه ولسانه ويده وماله لتكون كلمة الله هى العليا .

إذا عُرف هذا فالجهاد أربع مراتب : جهاد النفس ، وجهاد الشيطان ، وجهاد الكفار وجهاد المنافقين .

فجهاد النفس : أربع مراتب أيضاً . أحدها : أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذى لا فلاح ولا سعادة فى معاشها ومعادها إلا به **ومتى فاته علمه شقيت فى الدارين** الثانية : أن يجاهدها على العمل به بعد علمه وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها . الثالثة : أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعلمه من لا يعلمه وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات ولا ينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب الله . الرابعة : أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق ويتحمل ذلك كله لله فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانياً حتى يعرف الحق ويعمل به ويعلمه فمن علم وعلّم وعمل فذاك يدعى عظيماً فى ملكوت السماء .

وأما جهاد الشيطان فمرتبتان : أحدهما : جهاده على دفع ما يلقى إلى العبد من الشبهات والشكوك الفارحة فى الإيمان . الثانية : جهاده على دفع ما يلقى إليه من الإرادات والشهوات .

وأما جهاد الكفار والمنافقين فأربع مراتب بالقلب واللسان والمال والنفس وجهاد الكفار أخص باليد وجهاد المنافقين أخص باللسان (ا.هـ) (من كتاب زاد المعاد فى هدى خير العباد)

قال تعالى :

قال ابن القيم : اشتملت هذه الآيات على ثلاثة أمثال : للكفار ومثلين للمؤمنين .

فيتضمن مثل الكفار أن الكافر يعاقب على كفره وعداوته لله ورسوله وأوليائه ، ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين من لحمة نسب ، أوصلة صهر ، أو سبب من أسباب الاتصال . فإن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة إلا ما كان منها متصلاً بالله وحده على أيدى رسله ، فلو نفعت وصلة القرابة والمصاهرة أو النكاح مع عدم الإيمان ، لنفعت الوصلة التى كانت بين نوح ولوط وامرأتيهما ،

فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل : ادخلا النار مع الداخلين . قطعت الآية حينئذ طمع من ركب معصية الله ، وخالف أمره ، ورجا أن ينفعه صلاح غيره من قريب أو أجنبى ، ولو كان بينهما فى الدنيا أشد الاتصال . فلا اتصال فوق إتصال النبوة والأبوة والزوجية فلم يغنى نوح عن ابنه ، ولا إبراهيم عن أبيه ، ولا نوح ولا لوط عن امرأتيهما من الله شيئاً . قال الله تعالى : ﴿ **لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله حق** ﴾[2] وهذا كله تكذيب لأطماع المشركين الباطلة : أن ما تعلقوا به من دون الله من قرابة ، أو صهر ، أو نكاح أو صحبة ينفعهم يوم القيامة أو يجيرهم من عذاب الله ، أو يشفع لهم عند الله وهذا أصل ضلال بنى آدم وشركهم ، وهو الشرك الذى **لايغفره** الله .

وأما المثلان اللذان للمؤمنين . فأحدهما امرأة فرعون .

ووجه المثل : أن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئاً ، إذا فارقه فى كفره وعمله فمعصيته لا تضر المؤمن المطيع شيئاً فى الآخرة وان تضرر بها فى الدنيا بسبب العقوبة التى تحل بأهل الأرض ، إذا أضاعوا أمر الله فتأتى عامة . فلم يضر إمرأة فرعون اتصالها به ، وهو من أكفر الكافرين.ولم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالهما بهما وهما رسولا رب العالمين .

وقولها ﴿ **رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة** ﴾ قال العلماء اختارت الجار قبل الدار . وقولها ﴿ **ونجنى من فرعون وعمله** ﴾ أى خلصنى منه فإنى أبرأ إليك من عمله ، وقولها ﴿ **ونجنى من القوم الظالمين** ﴾ وهذه المرأة هى آسية بنت مزاحم — رضى الله عنها — روى ابن جرير بسنده عن القاسم بن أبى بزة قال : كانت امرأة فرعون تسأل من غلب ؟ فيقال غلب موسى وهارون فتقول آمنت برب موسى وهارون ، فأرسل إليها فرعون فقال انظروا أعظم صخرة تجدونها فإن مضت على قولها فألقوها عليها ، وإن رجعت عن قولها فهى امرأتى ، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت بيتها فى الجنة فمضت على قولها وانتزعت روحها وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح . وروى أنها ضحكت حينما رأت بيتها فى الجنة فقال فرعون — لعنه الله — ألا تعجبون من جنونها ؟ إنا نعذبها وهى تضحك ، فقبض الله روحها فى الجنة — رضى الله عنها .

قوله تعالى : ﴿ **ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها** ﴾ أى حفظته وصانته والإحصان هو العفاف والحرية ﴿ **فنفخنا فيه من روحنا** ﴾ أى بواسطة الملك وهو جبريل فإن الله بعثه إليها فتمثل لها فى صورة بشر سوى وأمره الله تعالى أن ينفخ بغيه فى جيب درعها فنزلت النفخة فولجت فى فرجها

(١) سورة الممتحنة آية ٤ .

(٢) سورة لقمان آية ٣٣ .

فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام ﴿ **وصدقت بكلمات ربها وكتبه** ﴾ أى بقدره وشرعه ، ﴿ **وكانت من القانتين** ﴾

وهذا المثل الثانى للمؤمنين : مريم التى لا زوج لها ، لا مؤمن ولا كافر فذكر سبحانه ثلاثة أصناف النساء : المرأة الكافرة التى لها وصلة بالرجل الصالح ، والمرأة الصالحة التى لها وصلة بالرجل الكافر . والمرأة العزب التى لا وصلة بينها وبين أحد .

فالأولى : لاتنفعها وصلتها وسببها .

والثانية : لا تضرها وصلتها وسببها .

والثالثة : لايضرها عدم الوصلة شيئاً .

ثم فى هذه الأمثال من الأسرار البديعة مايناسب سياق السورة . فإنها سبقت فى ذكر أزواج النبى ﷺ وتحذيرهن من التظاهر عليه ، وأنهن إن لم يطعن الله ورسوله ، ويردن الدار الآخرة . لم ينفعهن اتصالهن برسول الله ﷺ كما لم ينفع امرأة نوح وامرأة لوط اتصالهما بهما .

ولهذا ضرب فى هذه السورة مثل اتصال النكاح دون القرابة .

قال يحيى بن سلام : ضرب الله المثل الأول يحذر عائشة وحفصة ، ثم ضرب لهما المثل الثانى يحرضهما على التمسك بالطاعة .

وفى ضرب المثل للمؤمنين بمريم أيضاً : اعتبار آخر ، وهو أنها لم يضرها عند الله شيئاً قذف أعداء الله اليهود لها ، ونسبتهم إياها وابنها إلى ما برأهما الله منه ، مع كونها الصديقة الكبرى المصطفاه على نساء العالمين .

فلا يضر الرجل الصالح قدح الفجار والفساق فيه .

وفى هذا أيضا **تسلية لعائشة** أم المؤمنين ــ إن كان السورة نزلت بعد قصة إلا فك ــ وتوطين نفسها على ما قال فيها الكاذبون ، إن كانت قبلها .

فتضمنت هذه الأمثال التحذير لهن والتخويف ، والتحريض لهن على الطاعة والتوحيد ، والتسلية وتوطين النفس لمن أوذى منهن ، وكذب عليهن وأسرار التنزيل فوق هذا وأجل منه ، ولاسيما أسرار الأمثال التى لا يعقلها إلا العالمون .

« اللهم علمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً »

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى فضيلة الداعية الكريم والمخلص الأمين الأستاذ/ أحمد يحيى رئيس المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر - السلام عليكم ورحمة الله

نتلهف أجزاء رحاب التفسير لفضيلة العالم شيخ الدعاة وإمام العصر الشيخ عبد الحميد كشك وكذا مؤلفاته القيمة ذات الفائدة لكل مسلم - جزاكم الله على مساهمتكم في إخراج هذا التفسير وكذا كل من ساهم في تعميم هذه الفائدة الكبرى - تحياتنا ودعواتنا لكم وللشيخ بطول العمر، وإليكم هذه الأبيات تحمل التحية والإعزاز والتقدير لكم :

شَيْخَ الدُّعَاةِ إِلَيْكَ مِنْ تِبْيَانِي ... كُلَّ الدُّعَاءِ يَا فَارِسَ المَيْدَانِ
يَا مَنْ مَلَأْتَ قُلُوبَنَا مِنْ سُنَّةٍ ... لِلْمُصْطَفَى وَتَلَوْتَ مِنْ قُرْآنِ
وَجَمَعْتَ آلَافَ القُلُوبِ عَلَى الهُدَى ... حَتَّى اهْتَدَى مَنْ عَاشَ فِي الطُّغْيَانِ
كَانَ اللِّقَاءُ بِجُمْعَةٍ مَيْمُونَةٍ ... جَمَعَتْ مِنَ الأَحْبَابِ وَالخِلَّانِ
عَبْدُ الحَمِيدِ إِمَامُهُمْ وَخَطِيبُهُمْ ... وَطَبِيبُهُمْ مِنْ هِزَّةِ الأَحْزَانِ
سَحَرَ القُلُوبَ حَدِيثُهُ فَتَرَنَّمَتْ ... تَبْكِي عَلَى مَا كَانَ مِنْ عِصْيَانِ
حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ النَّحِيبُ بِجَمْعِنَا ... مَسَحَ الدُّمُوعَ بِرَاحَةِ الإِيمَانِ
عَيْنُ الحَيَاةِ يَضُمُّنَا فِي جَنَّةٍ ... مِعْطَارَةِ النَّسَمَاتِ وَالأَلْوَانِ
حَوْلَ ابْنِ كِشْكٍ نَشْتَهِي كَلِمَاتِهِ ... فَهِيَ الدَّوَاءُ لِشِدَّةِ الأَزْمَانِ
وَلَقَدْ رَشَفْنَا مِنْ بِحَارِ عُلُومِهِ ... فَيْضًا مِنَ الأَنْوَارِ وَالتِّبْيَانِ
حَتَّى شَعَرْنَا بِالمَلَائِكِ حَوْلَنَا ... وَكَأَنَّنَا فِي جَنَّةِ الرِّضْوَانِ
يَا شَيْخَنَا صَبْرًا عَلَى كُلِّ الأَذَى ... فَالأَمْرُ أَمْرُ الوَاحِدِ الدَّيَّانِ
سَتَظَلُّ يَا عَبْدَ الحَمِيدِ إِمَامَنَا ... رَغْمَ العِدَاءِ وَصَوْلَةِ الطُّغْيَانِ
سَتَظَلُّ فِي عَيْنِ الحَيَاةِ خَطِيبَنَا ... وَالمُرْشِدَ المَحْفُوظَ بِالقُرْآنِ
وَسَتَشْهَدُ الدُّنْيَا بِأَنَّكَ فَارِسٌ ... يَا بْنَ الكِرَامِ وَسَيِّدُ الفُرْسَانِ
فَاهْنَأْ بِتَفْسِيرِ الرِّحَابِ عَلَى هُدًى ... وَاشْرَحْ لَنَا آيَ الكِتَابِ الحَانِي
قَسَمًا فَهَذَا جَوْهَرٌ يَا سَيِّدِي ... بَلْ إِنَّهُ فَيْضٌ مِنَ الرَّحْمَنِ
فَلَأَنْتَ خَيْرُ مُفَسِّرٍ وَمُوَضِّحٍ ... لِكِتَابِ رَبِّي وَاسِعِ الرِّضْوَانِ
يَا عَابِرَ البَحْرِ العَمِيقِ فَلَا تَهُنْ ... إِنَّ الرِّجَالَ قَلَائِلٌ بِزَمَانِي
يَا قَاهِرَ الظُّلُمَاتِ نِلْتَ مَكَانَةً ... بِقُصُورِ رَبِّي فِي نَعِيمِ جِنَانِ
سِرْ لِلْأَمَامِ فَإِنَّ رَبِّي حَافِظٌ ... لِلصَّالِحِينَ، وَرَافِعٌ لِلشَّانِ
مَهْمَا ظَلَامُ الحَاقِدِينَ يَعُمُّنَا ... فَاللهُ يَحْمِي فِتْيَةَ الإِيمَانِ
سَتَظَلُّ فِي كُلِّ القُلُوبِ إِلَى المَدَى ... صَوْتَ الحَقِيقَةِ شَامِخَ البُنْيَانِ
هَذِي تَرَانِيمِي إِلَيْكَ نَسَجْتُهَا ... بِمَشَاعِرِي، وَحَفَرْتُهَا بِكِيَانِي
فَلَأَنْتَ فِي قَلْبِي وَمِلْءُ خَوَاطِرِي ... رَمْزُ الصُّمُودِ عَلَى مَدَى الأَزْمَانِ
سَتَظَلُّ يَا عَبْدَ الحَمِيدِ نَشِيدَنَا ... يَشْدُو بِهِ وَيَتِيهُ كُلُّ لِسَانِ

ابنكم عبد الرحمن أحمد سلامة - معيد بكلية التربية ببنها
قسم الصحة النفسية

الأجزاء السابقة تطلب من

المكتب المصرى الحديث للطباعة والنشر
القاهرة ٢ شارع شريف عمارة اللواء ت ٣٩٣٤١٢٧
الاسكندرية ٧ شارع نوبار المنشية ت ٤٨٢٦٦٠٢
فاكسيملى القاهرة ٣٤٧٥٤٢٧ (٠٠٢٠٢)

محتويات المجلد الثامن

من الجزء الثامن والعشرون

من آخر سورة الممتحنة (١٠ ـ ١٣) حتى آخر سورة التحريم

		الصفحة
* سورة الممتحنة		
الآيات ١٠ ـ ١٣	ـ التفسير	٦٧٥٠
* سورة الصف		
	ـ مقدمة السورة	٦٧٥٢
الآيات ١ ـ ٤	ـ أول سورة الصف	٦٧٥٣
	ـ فضل سبحان الله وبحمده	٥٧٦٤
	ـ فضل القتال فى سبيل الله	٦٧٦٩
الآيات ٥ ـ ٦	ـ طرف من ذكر موسى وعيسى عليهما السلام	٦٧٩١
الآيات ٧ ـ ٩	ـ الله متم نوره	٦٧٩٧
الآيات ١٠ ـ ١٤	ـ التجارة المنجية	٦٧٩٩
	ـ فتح مكه	٦٨٢٣
	ـ دروس من الفتح	٦٨٣٢
* سورة الجمعة		
	ـ مقدمة السورة	٦٨٤١
الآيات ١ ـ ٢	ـ أول سورة الجمعة	٦٨٤٢
الآيات ٥ ـ ٨	ـ الحديث عن اليهود	٦٨٤٨
	ـ فضل يوم الجمعة والصلاة	٦٨٦٣
	ـ الترغيب فى قراءة سورة الكهف	٦٨٨٦
	ـ بحث قيم للعلامة ابن القيم	٦٨٨٧
	ـ فصل فى هديه ﷺ فى خطبه	٦٩١٨
الآيات ٩ ـ ١١	ـ عود على بدء	٦٩٢٥
* سورة المنافقون		
	ـ مقدمة السورة	٦٩٢٧
الآيات ١ ـ ٤	ـ أول السورة	٦٩٢٧
	ـ أقسام النفاق	٦٩٣١
	ـ النفاق رذيلة والإخلاص فضيلة	٦٩٣٤

	ـ نفاق المعاملة	٦٩٥٢
	ـ الإيمان وبناء النفوس	٦٩٦١
الآيـــات ٥ ـ ٨	ـ من مساوىء المنافقين	٦٩٧٠
الآيـــات ٩ ـ ١١	ـ تحذيـر وإرشـاد	٦٩٧٦
	ـ فوائد الصدقة كما أخبرنا النبى ﷺ	٧٠٠١
	ـ الترغيب فى صدقـة السـر	٧٠٠٨
	ـ الترغيب فى القرض وماجاء فى فضله	٧٠١٦
	ـ آيات الترغيب فى التوبة من الذنوب	٧٠٦٩
	ـ فوائـد التوبـة	٧٠٧٤
	ـ الترغيب فى العمل الصالح عند فساد الزمان	٧٠٨٤

* سـورة التـغـابـن

	ـ مقدمـة السورة	٧١٣٠
الآيـــات ١ ـ ١٠	ـ أول الســـورة	٧١٣١
الآيـــات ١١ ـ ١٨	ـ كل شىء بقضاء	٧١٣٧

* ســورة الطــلاق

	ـ مقدمـة السورة	٧١٤٥
الآيـــات ١ ـ ٧	ـ أول الســـورة	٧١٤٥
	ـ الأحكام الشرعية	٧١٥٣
	ـ حكمـة التشريع	٧١٦١
	ـ بحث فى بناء الأسرة المسلمة	٧١٦٣
	ـ الزواج المثالـــى	٧٢٣١
الآيـــات ٨ ـ ١٢	ـ جـزاء الظالمين	٧٢٦٠

* سورة التحريـم

	ـ مقدمـة السورة	٧٢٦٥
الآيـــات ١ ـ ٥	ـ أول الســـورة	٧٢٦٦
الآيـــات ٦ ـ ٨	ـ إرشاد وتوجيه	٧٢٧١
	ـ أسرتك أيها المسلم	٧٢٧٤
	ـ بحث فى التوبة وشروطها وأركانها	٧٢٨٤
الآيـــات ٩ ـ ١٢	ـ كل مسؤول عن عمله	٧٢٩١